

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
مَدَامِ  
مَدَامِ

مَدَامِ  
مَدَامِ

مَدَامِ  
مَدَامِ

8085247

Biblioteca Alexandria









# الحياة على الدين

تصنيف

الإمام ابن حماد بن محمد بن محمد الغزالي  
المتوفى في ٥٠٥ هـ

وبذيله كتاب

الغنى عن حمل الأسفار في الأسياف

في تحرير ما في الإختيار من الأخبار

للعامة زين الدين أبي الفضل عبد الرحمن بن الحسن الغزالي

المتوفى في ٥٠٥ هـ

وتملىق النفع الحقنا بالكتاب في آخره ثلاثة كتب:

الأول: تهذيب لأخبار بعض أهل الإحياء، العلامة عبد القادر بن شيخ بن عبد الله  
ابن شيخ بن عبد الله العبد دوس بالوك

الثاني: الإمداد عن إشكالات الإحياء للإمام الغزالي، وذهب عن إشارات  
أوردتها بعض المعاصرين له على بعض مواضع من الإحياء.

الثالث: عوارف المعارف، للعارف بالله تعالى الإمام المشهور دك



المكتبة التجارية الكبرى

# بسم الله الرحمن الرحيم

## كتاب شرح عجائب القلب

وهو الكتاب الأول من ربيع للمهلكات



الحمد لله الذي تجير دون إدراك جلاله القلوب والخواطر ، وتدعش في مبادئ إشراق أنواره الاحداق والنواظر ، المطلع على خفيات السرائر ، العالم بمكونات الضمائر ، المستغنى في تدبير ملكته عن المشاور والموازر ، مقلب القلوب وغفار الذنوب ، وستار العيوب ، ومفزع الكرب .

والصلاة على سيد المرسلين ، وجامع شمل الدين ، وقاطع دابر الملحدين . وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وسلم كثيرا .  
أما بعد : فشرف الإنسان وفضيلته التي فاق بها جملة من أصناف الخلق باستعداده لمعرفة الله سبحانه ، التي هي في الدنيا جماله وكأله وغره ، وفي الآخرة عذته وذخره ، وإنما استمد المعرفة بقلبه لا بمجرد جوارحه ؛ فالقلب هو العالم بالله . وهو المتقرب إلى الله ؛ وهو العامل به ، وهو الساعي إلى الله ، وهو المكاشف بما عند الله ولديه ، وإنما الجوارح أتباع وخدم وآلات ، يستخدمها القلب ويستعملها استعمال المالك للعبد واستخدام الراعي للرعية والصانع للألة ؛ فالقلب هو المقبول عند الله إذا سلم من غير الله ، وهو المحجوب عن الله إذا صار مستغرقا بغير الله ، وهو المطالب وهو المخاطب وهو المعاتب وهو الذي يسعد بالقرب من الله فيفعل إذا زكاه ، وهو الذي يتعيب ويشقى إذا دلف ودسأ ؛ وهو المطيع بالحقيقة لله تعالى ، وإنما الذي ينشتر على الجوارح من العبادات أنواره ، وهو العاصي المتمرد على الله تعالى وإنما الساري إلى الأعضاء من الفواحش آثاره ؛ ويظلامه واستناره تظهر بحسن الظاهر ومساويه ، إذ كل إناء ينضح بما فيه ، وهو الذي إذا عرفه الإنسان فقد عرف نفسه ، وإذا عرف نفسه فقد عرف ربه ، وهو الذي إذا جهله الإنسان فقد جهل نفسه ، وإذا جهل نفسه فقد جهل ربه ، ومن جهل قلبه فهو بغيره أجهل ، إذ أكثر الخلق جاهلون بقلوبهم وأنفسهم ، وقد حيل بينهم وبين أنفسهم ، فإن الله يحول بين المرء وقلبه . وحاولته بأن يمنعه عن مشاهدته ومراقبته ومعرفة صفاته وكيفية قلبه بين أصبعين مع أصابع الرحمن ، وأنه كيف يهوى مرة إلى أسفل السافلين وينخفض إلى أفق الشياطين ، وكيف يرتفع أخرى إلى أعلى عليين ويرتقى إلى عالم الملائكة المقربين . ومن لم يعرف قلبه ليراقبه ويرصد لما يلوح من خزان الملكوت عليه وفيه ، فهو عن قال الله تعالى فيه ( نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ) فمرة القلب وحقيقة أوصافه

أصل الدين وأساس طريق السالكين .

وإذا فرغنا من الشطر الأول من هذا الكتاب من النظر فيما يجرى على الجوارح من العبادات والمعادات - وهو العلم الظاهر ، ووجدنا أن نشرح في الشطر الثاني ما يجرى على القلب من الصفات المهلكات والمنجيات - وهو العلم الباطن ؛ فلأنه أن تقدم عليه كتابين : كتابا في شرح عجاب صفات القلب وأخلاقه ، وكتابا في كيفية رياضة القلب وتمذيب أخلاقه . ثم تندفع بعد ذلك في تفصيل المهلكات والمنجيات .

فلنذكر الآن من شرح عجاب القلب بطريق ضرب الأمثال ما يقرب من الأفهام ، فإن التصريح بعجابه وأسراره الداخلة في جملة عالم الملكوت مما يكل عن دركه أكثر الأفهام .

بيان معنى النفس ، والروح ، والقلب ، والعقل ، وما هو المراد بهذه الأسماء

اعلم أن هذه الأسماء الأربعة تستعمل في هذه الأبواب . ويقال في محول العلماء من يحيط بهذه الأسماء واختلاف معانيها وحدودها ومسمياتها ، وأكثر الأغاليط مفشوها الجهل بمعنى هذه الأسماء واشتراكها بين مسميات مختلفة . ونحن نشرح في معنى هذه الأسماء ما يتعلق بفرضنا :

اللفظ الأول : لفظ القلب ، وهو يطلق لمعنيين ( أحدهما ) اللحم الضویری الشكل المودع في الجانب الأيسر من الصدر ، وهو لحم مخصوص ، وفي باطنه تجويف ، وفي ذلك التجويف دم أسود هو منبع الروح ومعده ، وسنأخذ نقصد الآن شرح شكله وكيفيته ، إذ يتعلق به غرض الأطباء ولا يتعلق به الأغراض الدينية . وهذا القلب موجود للبهائم ، بل هو موجود للبيت . ونحن إذا أطلقنا لفظ القلب في هذا الكتاب لم نمن به ذلك ؛ فإنه قطعة لحم لا قدر له ، وهو من عالم الملك والشهادة إذ تدركه البهائم بحاسة البصر فضلا عن الأدميين . ( والمعنى الثاني ) هو لطيفة ربانية وروحانية لها بهذا القلب الجسدي تعلق ، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان وهو المدرك العالم المعارف من الإنسان ، وهو المخاطب والمعاقب والمطالب . ولها علاقة مع القلب الجسدي ، وقد تميرت عقول أكثر الخلق في إدراك وجه علاقته ؛ فإن تعلقه به ينضاهي تعلق الأعراض بالأجسام والأوصاف بالموصوفات ، أو تعلق المستعمل بالآلة . أو تعلق المتمكن بالمكان ، وشرح ذلك مما تتوقاه لمعنيين : ( أحدهما ) أنه متعلق بعلوم المكاشفة ، وليس غرضنا من هذا الكتاب إلا علوم المعاملة ( والثاني ) أن تحقيقه يستدعي إفساء سر الروح وذلك مما لم يتكلم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ <sup>(١)</sup> فليس لغیره أن يتكلم فيه ، والمقصود أنا إذا أطلقنا لفظ القلب في هذا الكتاب أردنا به هذه اللطيفة وغرضنا ذكر أوصافها وأحوالها لا ذكر حقيقتها في ذاتها وطعم المعاملة يفقر إلى معرفة صفاتها وأحوالها ولا يفقر إلى ذكر حقيقتها .

اللفظ الثاني : الروح ، وهو أيضا يطلق فيما يتعلق بجنس غرضنا لمعنيين : ( أحدهما ) جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسدي ، فينشر بواسطة اللروق الضواريب إلى سائر أجزاء البدن ، وجريانه في البدن وفيضان أنوار الحياة والحس والبصر والسمع والشم منها على أعضائها ، ينضاهي فيضان النور من السراج الذي يدار في زوايا البيت ؛ فإنه لا ينتهي إلى جزء من البيت إلا ويستدير به ، والحياة مثالها النور الحاصل في المحيطان ، والروح مثالها السراج ، وسريان الروح وحركته في الباطن مثال حركة السراج في جوانب البيت بتحريك محركه ، والأطباء إذا أطلقوا لفظ

حديث : أنه صلى الله عليه وسلم لم يتكلم في الروح . متفق عليه من حديث ابن مسعود في سؤال اليهود عن الروح . وفيه . فأما الذي صلى الله عليه وسلم فلم يرد عليهم ، فليت آية يوحى إليه . . الحديث ، وقد قدم .

الروح أرادوا به هذا المعنى : وهو بخار لطيف أنضجت حرارة القلب ، وليس شرحه من غرضنا ، إذ المتعلق به غرض الأطباء الذين يعالجون الأبدان ؛ فأما غرض أطباء الدين المعالجين القلب حتى ينساق إلى جوار رب العالمين ، فليس يتعلق بشرح هذه الروح أصلاً . ( المعنى الثاني ) هو اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان ، وهو الذى شرحناه فى أحد معاني القلب ، وهو الذى أراد الله تعالى بقوله ( قل الروح من أمر ربي ) وهو أمر عجيب ربانى تعجز أكثر العقول والأفهام عن درك حقيقته

اللفظ الثالث : النفس ، وهو أيضاً مشترك بين معان ، ويتعلق بغرضنا منه معنيان : ( أحدهما ) أنه يراد به المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة فى الإنسان على ما سيأتى شرحه ، وهذا الاستعمال هو الغالب على أهل التصوف ؛ لأنهم يريدون بالنفس الأصل الجامع للصفات المذمومة من الإنسان ، فيقولون : لابد من مجاهدة النفس وكسرها ، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام ( أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك <sup>(١)</sup> ) . ( المعنى الثاني ) هى اللطيفة التى ذكرناها التى هى الإنسان بالحقيقة ، وهى نفس الإنسان وذاته ، ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها ؛ فإذا سكنت تحت الأمر وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سميت النفس المطمئنة . قال الله تعالى فى مثلها ( يأتيتها النفس المطمئنة أرجعى إلى ربك راضية مرضية ) والنفس بالمعنى الأول لا يتصور رجوعها إلى الله تعالى ؛ فإنها مبعدة عن الله ، وهى من حزب الشيطان . وإذا لم يتم سكوتها ولكنها صارت مدافعة للنفس الشهبانية ومعتزة عليها سميت النفس اللوامة ؛ لأنها تلزم صاحبها عند تقصيره فى عبادة مولاه . قال الله تعالى ( ولا أنم بالنفس اللوامة ) وإن تركت الاعتراض وأذعنت وأطاعت لمتقتضى الشهوات ودواعى الشيطان سميت النفس الآمرة بالسوء . قال الله تعالى إخباراً عن يوسف عليه السلام أو امرأة العزيز ( وما أرى نفسى إن النفس لأمره بالسوء ) وقد يجوز أن يقال : المراد بالآمرة بالسوء : هى النفس بالمعنى الأول ، فإن النفس بالمعنى الأول مذمومة غاية الذم ، وبالمعنى الثانى مجودة لأنها نفس الإنسان أى ذاته وحقيقته العالمة بالله تعالى وسائر المعلومات .

اللفظ الرابع : العقل ، وهو أيضاً مشترك لمان مختلفة ذكرناها فى كتاب العلم ، والمتعلق بغرضنا من جعلها معنيان : ( أحدهما ) أنه قد يطلق ويراد به العلم بمقتضى الأمور ، فيكون عبارة عن صفة العلم الذى يحله القلب . ( والثاني ) أنه قد يطلق ويراد به المدرك للعلوم فيكون هو القلب أعني تلك اللطيفة . ونحن نعلم أن كل عالم فلهذه نفسه وجود هو أصل قائم بنفسه ، والعالم صفة حالة فيه ، والصفة غير الموصوف ، والعقل قد يطلق ويراد به صفة العالم ، وقد يطلق ويراد به عمل الإدراك أعني المدرك ، وهو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم : أول ما خلق الله العقل <sup>(٢)</sup> ؛ فإن العلم عرض لا يتصور أن يكون أول مخلوق ، بل لابد وأن يكون المحل مخلوقاً قبله أو معه ، ولأنه لا يمكن الخطاب معه . وفى الخبر : أنه قال له تعالى أقبل فأقبل ، ثم قال له أدبر فأدبر ... الحديث .

فإن قد انكشف لك أن معانى هذه الأسماء موجودة : وهى القلب الجسماني ، والروح الجسماني ، والنفس الشهبانية ، والعلوم . فهذه أربعة معان يطلق عليها الألفاظ الأربعة ، ومعنى خامس : وهى اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان . والألفاظ الأربعة يحملها تتوارد عليها ، فالعاني خمسة ، والألفاظ أربعة ، وكل لفظ أطلق للمعنيين ،

(١) حديث « أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك » أخرجه البيهقي فى كتاب الزهد من حديث ابن عباس ، وفيه عند ابن عبد الرحمن بن غزوان أحد الروايتين . (٢) حديث « أول ما خلق الله العقل » وفى الخبر أنه قال له : أقبل فأقبل وقال أدبر فأدبر ... الحديث . تقدم فى العلم .

وأكثر العلماء قد اتبس عليهم اختلاف هذه الألفاظ وتواردها ؛ فترام يتكلمون في الخواطر ويقولون: هذا غاطر العقل ، وهذا غاطر الروح ، وهذا غاطر القلب ، وهذا غاطر النفس ، وليس يدري الناظر اختلاف معاني هذه الأسماء ، ولأجل كشف الغطاء عن ذلك قدمنا شرح هذه الأسماء ، وحيث ورد في القرآن والسنة لفظ القلب ، فالمراد به المعنى الذى يفقه من الإنسان ويعرف حقيقة الأشياء ، وقد يكنى عنه بالقلب الذى فى الصدر ، لأن بين تلك الطيفه وبين جسم القلب علاقة عامة ، فإنها وإن كانت متعلقة بساتر البدن ومستعملة له ولكنها تتعلق به بواسطة القلب ، فتعلقها الأول بالقلب وكأنه عليها وعلمتها وعالمها ووطئتها ، ولذلك شبه سهل القسرى القلب بالعرش ، والصدر بالكبرى فقال : القلب هو العرش والصدر هو الكبرى ، ولا يظن به أنه يرى أنه عرش الله وكبرسيه فإن ذلك محال ، بل أراد به أنه ملكة الإنسان والمجرى الأول لتدبيره وتصرفه ، فهما بالنسبة إليه كالعرش والكبرى بالنسبة إلى الله تعالى ، ولا يستقيم هذا التشبيه أيضا إلا من بعض الوجوه ، وشرح ذلك أيضا لا يليق بفرضنا فلتجاوزوه .

### بيان جنود القلب

قال الله تعالى ( وما يعلم جنود ربك إلا هو ) فقه سبحانه فى القلوب والأرواح وغيرها من العوالم جنود مجتدة لا يعرف حقيقتها وتفصيل عددها إلا هو . ونحن الآن نشير إلى بعض جنود القلب ، فهو الذى يتعلق بفرضنا . وله جندان : جند يرى بالابصار ، وجند لا يرى إلا بالباطن ، وهو فى حكم الملك ، والجنود فى حكم الخدم والأعوان ، فهذا معنى الجند : فأما جنده المشاهد بالعين فهو اليد والرجل والدين والأذن واللسان وسائر الأعضاء الظاهرة والباطنة ، فإن جميعها عاصمة للقلب ومسخرة له ، فهو المتصرف فيها والمرد لها ، وقد خلقت مجبولة على طاعته لاستطيع له خلافا ولا عليه تمردا ، فإذا أمر العين بالانفتاح افتتحت ، وإذا أمر الرجل بالحركة تحركت ، وإذا أمر اللسان بالكلام وجزم الحكم به تكلم ، وكذا سائر الأعضاء . وتسخير الأعضاء والخوارج للقلب يشبه من وجه تسخير الملائكة لله تعالى ، فإنهم مجبولون على الطاعة لا يستطيعون له خلافا ، بل لا يمضون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وإنما يفرقان فى شيء : وهو أن الملائكة عليهم السلام عالة بطاعتها وامتثالها ، والأجنان قطع القلب فى الانفتاح والانطباع على سبيل التسخير ولا خبر لها من نفسها ومن طاعتها للقلب ، وإنما افتقر القلب إلى هذه الجنود من حيث افتقاره إلى المركب والزاد لسفره الذى لأجله خلق ، وهو السفر إلى الله سبحانه وقطع المنازل إلى لقاءه ، فلأجله خلقت القلوب . قال الله تعالى ( وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ) وإنما مركبه البدن وزاده العلم . وإنما الأسباب التى توصله إلى الزاد وتمكنه من التزود منه هو العمل الصالح ، وليس يمكن البدن أن يصل إلى الله سبحانه مالم يسكن البدن ولم يجاوز الدنيا ، فإن المنزل الأدنى لا بد من قطعه للوصول إلى المنزل الأقصى ، فالدنيا مزرعة الآخرة ، وهى منزل من منازل الهدى ، وإنما سميت دنيا ؛ لأنها أدنى المنزلتين ، فاحفظ أنى أن يتزود من هذا العالم ، فالبدن مركبه الذى يصل به إلى هذا العالم ، فافتقر إلى تمهيد البدن وحفظه ، وإنما يحفظ البدن بأن يجلب إليه ما يرافقه من الغذاء وغيره ، وأن يدفع عنه ما ينافيه من أسباب الهلاك ، فافتقر لأجل جلب الغذاء إلى جنتين : باطن ، وهو الشهوة . وظاهر ، وهو اليد والأعضاء الجالبة للغذاء ، خلق فى القلب من الشهوات ما احتاج إليه ، وخلقت الأعضاء التى هى آلات الشهوات فافتقر لأجل دفع المهلكات إلى جنتين : باطن ، وهو الغضب الذى يدفعه المهلكات ويتقنم من الأعداء . وظاهر ،

وهو اليد والرجل للذين بهما يعمل بمقتضى الغضب ، وكل ذلك بأمر خارجة ؛ فالجوارح من اليدين كالأسلحة وغيرها ، ثم المحتاج إلى الغذاء عالم يعرف الغذاء لم تتفعه شهوة الغذاء وإلغاه ، فافتقر للحرقة إلى جنتين : باطن ، وهو إدراك السمع والبصر والشم واللس والذوق ؛ وظاهر ، وهو العين والأذن والأنف وغيرها . وتفصيل وجه الحاجة إليها ووجه الحكمة فيها يطول ولا يخويه مجلدات كثيرة . وقبدها أشرا إلى طرف يسير منها في كتاب الشكر فليقتنع به .

جملة جنود القلب تحصرها ثلاثة أصناف : صنف باعث ومستحث : إما إلى جلب النافع الموافق كالشهوة ، وإما إلى دفع الضار المخاف كالغضب ، وقد يعبر عن هذا الباعث بالإرادة . والثاني : هو الحرك لك الأعضاء إلى تحصيل هذه المقاصد ، ويعبر عن هذا الثاني بالقنطرة : وهي جنود ميثومة في سائر الأعضاء لاسيما العضلات منها والأوتار . والثالث : هو المدرك المتميز للأشياء كالحواس : وهي قوة البصر والسمع والشم والذوق واللس ، وهي ميثومة في أعضاء معينة ، ويعبر عن هذا بالمد والإدراك ، ومع كل واحد من هذه الجنود الباطنة جنود ظاهرة وهي الأعضاء المركبة من اللحم والعصب والدم والعظم التي أعدت آلات لهذه الجنود ، فإن قوة البطش إنما هي بالأصابع ، وقوة البصر إنما هي بالعين ، وكذا سائر القوى ، ولنا تتكلم في الجنود الظاهرة أعني الأعضاء فلنأمن من عالم الملك والشهادة ، ولنأمن تتكلم الآن فيما أيدت به من جنود لم تروها . وهذا الصنف الثالث وهو المدرك من هذه الجملة ينقسم إلى ما قد أسكن المنازل للظاهرة وهي الحواس الخمس : أعني السمع والبصر والشم والذوق واللس وإلى ما أسكن منازل باطنة ؛ وهي تجلويف الدماغ ، وهي أيضا خمسة ، فإن الإنسان بعد رؤية الشيء يغمض عينه فيدرك صورته في نفسه وهو الخيال ، ثم تبقى تلك الصورة معه بسبب شيء يحفظه وهو الجند الحافظ ، ثم يتمكر فيما يحفظه فيركب بعض ذلك إلى البعض ، ثم يتذكر ما قد نسيه ويعود إليه ، ثم يجمع جملة معاني المحسوسات في خياله بالحمس المشترك بين المحسوسات ؛ ففي الباطن حس مشترك وتخيل وتفكر وتذكر وحفظ ، ولولا خلق الله قوة الحفظ والفكر والذكر والتخيل لكان الدماغ يخلو عنه كما تخلو اليد والرجل عنه ؛ فذلك القوى أيضا جنود باطنة وأما كتبها أيضا باطنة ، فهذه هي أقسام جنود القلب ، وشرح ذلك بحيث يدرك فهم الضعفاء بضرب الأمثلة يطول . ومقصود مثل هذا الكتاب أن ينتفع به الأقوياء والفقهاء والعلماء ، ولكننا نجتهد في تفهيم الضعفاء بضرب الأمثلة ليقرب ذلك من أفهامهم .

### بيان أمثلة القلب مع جنوده الباطنة

اعلم أن جندى الغضب والشهوة قد يتعادان للقلب انقيادا تاما ، فيعينه ذلك على طريقته الذي يسلكه وتحسن مرافقتها في السفر الذي هو بعده ، وقد يستعصيان عليه استعصاء بني عمرد حتى يملكاه ويستعبده ، وفيه هلاكة وانقطاعه عن سفره الذي به وصوله إلى سعادة الأبد ، ولقلب جند آخر : وهو العلم والحكمة والتفكير ، كما سيأتي شرحه ، وحقه أن يستعين بهذا الجند فإنه حزب الله تعالى على الجندين الآخرين ، فإنهما قد يلتحقان بحزب الشيطان ، فإن ترك الاستعانة وسلط على نفسه جند الغضب والشهوة هلك يقينا وخسر خسرانا مينا ، وذلك حالة أكثر الخلق ، فإن عقولهم صارت مسخرة لشهواتهم في استبااط الخيل لقضاء الشهوة ، وكان يقبى أن تكون الشهوة مسخرة لعقولهم فيما يقتدر العقل إليه ؛ ونحن نقرّب ذلك إلى فهمك بثلاثة أمثلة :

المثال الأول : أن نقول : مثل نفس الإنسان في بدنه أعني بالنفس الطيفية المذكورة كمثل ملك في مدينته وملكه

فإن البدن ملكة النفس وعالمها ومستقرها ومدينها ، وجوارحها وقواها بمنزلة الصانع والعملة ، والقوة العقلية للمفكرة له كالنفس الناصح والوزير العاقل . والشهوة له كاليد السود يجلب الطعام والميرة إلى المدينة ، والنضب والحمية له كصاحب الشرطة . والبدن الجالب للميرة كذاب مكار خداع خبيث يمثل بصورة الناصح ويختم نفسه الشر المائل والسم القاتل ، وديدته وعادته منازعة الوزير الناصح في آرائه وتديبراته حتى لا يتخط من منازعته ومعارضته ساعة ، كما أن الوالي في مملكته إذا كان مستغنيا في تديبراته بوزيره مستغنيا له ومعرضا عن إشارة هذا البدن الخبيث ، مستدلا بإشارته في أن الصواب في تقيض رايه ، وأدبه صاحب شرطته وساسه لوزيره وجعله مؤمرا له مسلطا من جهة على هذا البدن الخبيث وأتباعه وأنصاره ، حتى يكون البدن موسسا لا سالسا ، وأمورا مدبرا لا أميرا مدبرا ، استقام أمر بدنه وانتظم العدل بسببه ؛ فكذا النفس متى استعانت بالعقل ، وأدبت بحمية النضب ، وسلطتها على الشهوة ، واستعانت بإحداهما على الأخرى تارة بأن تقلل مرتبة النضب وغرائه بمخالفة الشهوة واستدراجها ، وتارة بقمع الشهوة وقهرها بتسليط النضب والحمية عليها وتضييق مقتضياتها ، اعتدلت قواها وحسفت أخلاقها ، ومن عدل عن هذه الطريقة كان كمن قال الله تعالى فيه ﴿ أفرايت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم ﴾ وقال تعالى ﴿ واتبع هواه فله ككل الكلب إن جعل عليه مله ﴾ وتركه يلهث ﴾ وقال عز وجل فيمن نهي النفس عن الهوى ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى ﴾ وسيأتي كيفية مجاهدة هذه الجنود وتسليط بعضها على بعض في كتاب رياضة النفس إن شاء الله تعالى .

المثال الثاني : اعلم أن البدن كالمدينة والعقل - أعني للدرك - من الإنسان كملك مدبر لها ، وقواء المدرك من الحواس الظاهرة والباطنة بكونه وأعوانه ، وأعضاؤه كرجليه ، والنفس الامارة بالسوء التي هي الشهوة والنضب كمدبّر ينازعه في ملكه ويسعى في إهلاك رعيته ، فصار بدنه كرباط ولغز ، ونفسه كقنبر فيهما رباط ، فإن هو جاهد صفوه وهزمه وقهره على ما يجب حمد أثره إذا عاد إلى الحضرة كما قال الله تعالى ﴿ والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ﴾ وإن ضيع لغزه وأهل رعيته ذم أثره فانتقم منه عند الله تعالى فيقال له يوم القيامة : ياراعى السوء أكلت اللحم وشربت اللبن ولم تأو الفضالة ولم تجبر الكبير اليوم أتتقم منك <sup>(١)</sup> كما ورد في الخبر . وإلى هذه المجاهدة الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « وجنات من الجهاد الأصفى إلى الجهاد الأكبر <sup>(٢)</sup> » .

المثال الثالث : مثل العقل مثل فارس متصيد وشهوته كفرسه وغضبه ككلبه ، فقي كان الفارس ساذقا وفرسه مروضا وكلبه مؤدبا معلما كان جديرا بالنجاح ، ومتى كان هو في نفسه أخرق وكان الفرس جوحا والكلب عقورا فلا فرسه يطيع تحتهم متقادا ولا كلبه يسترسل بإشارته مطيعا فهو خليق بأن يطع فضلا عن أن ينال ما طلب ، وإنما أخرق الفارس مثل جهل الإنسان وقلة حكمته وكلال بصيرته ، وجماع الفرس مثل غلبة الشهوة خصوصا شهوة البطن والفرج ، وغر الكلب مثل غلبة الغضب واستيلائه . نسأل الله حسن التوفيق بلفظه .

### بيان خاصية قلب الإنسان

اعلم أن جملة ما ذكرناه قد أنعم الله به على سائر الحيوانات سوى الآدمي ؛ إذ للحيوان الشهوة والنضب والحواس

(١) حديث . يقال يوم القيامة ياراعى السوء أكلت اللحم وشربت اللبن ولم تأو الفضالة ... الخبر ، لم أجده له أصلا

(٢) حديث « وجنات من الجهاد الأصغر للجهاد الأكبر » أخرجه البيهقي في الزعم من حديث جابر وقال : هذا

إستدلاله ضيف .

الظاهرة والباطنة أيضا ، حتى إن الشاة ترى الذئب يعينها فتعلم عدائه قبلها فتهرب منه فذلك هو الإدراك الباطن .  
فلذلك ما يختص به قلب الإنسان ، ولاجله عظم شرفه واستأهل القرب من الله تعالى . وهو راجع إلى  
علم وإرادة :

أما العلم فهو العلم بالأمور الدنيوية والأخروية والحقائق العقلية فإن هذه أمور وراء المحسوسات ولا يشترك فيها الحيوانات ، بل العلوم الكلية الضرورية من خواص العقل إذ يحكم الإنسان بأن الشخص الواحد لا يتصور أن يكون في مكانين في حالة واحدة ، وهذا حكم منه على كل شخص . ومعلوم أنه لم يدرك بالحس إلا بعض الأشخاص لحكمه على جميع الأشخاص زائد على ما أدركه الحس . وإذا فهمت هذا في العلم الظاهر الضروري فهو في سائر النظريات أظهر .

وأما الإرادة فإنه إذا أدرك بالعلم عاقبة الأمر وطريق الصلاح فيه انبعت من ذاته شوق إلى جهة المصلحة وإلى تطامق أسبابها والإرادة لها ، وذلك غير إرادة الشهوة وإرادة الحيوانات بل يكون على ضد الشهوة فإن الشهوة تنفر عن القصد والحجامة ، والعقل يريد لها ويبدل المال فيها . والشهوة تميل إلى لذائذ الأطعمة في حين المرض والمائل يحد في نفسه زاجرا عنها ، وليس ذلك زاجر الشهوة . ولو خلق الله العقل للمعرف بعواقب الأمور ولم يخلق هذا الباعث المحرك للأعضاء على مقتضى حكم العقل لكان حكم العقل ضالما على التحقيق .

فإن قلب الإنسان اختص بعلم وإرادة يفكر عنها سائر الحيوان بل يفكر عنها الصبي في أول الفطرة وإنما يحدث ذلك فيه بعد البلوغ . وأما الشهوة والغضب والحواس الظاهرة والباطنة فإنها موجودة في حق الصبي .

ثم الصبي في حصول هذه العلوم فيه له درجتان ؛ إحداها : أن يشتمل قلبه على سائر العلوم الضرورية الأولية ؛ كالملم باستحالة المستحيلات وجواز المنازات الظاهرة فتكون العلوم النظرية فيها غير حاصلة إلا أنها صارت ممكنة قريبة الإمكان والحصول ، ويكون جال بالإضائة إلى العلوم كمال الكاتب الذي لا يعرف من الكتابة إلا الدعاة والقلم والحروف المفردة دون المركبة فإنه قد قارب الكتابة ولم يبلغها بعد .

الثانية : أن تحصل له العلوم المكتسبة بالتجارب والفكر فتكون كالخزونة عنده ، فإذا شاء رجع إليها وحاله حال الحاذق بالكتابة إذ يقال له كاتب وإن لم يكن مباشرًا للكتابة بقدرته عليها . وهذه هي غاية درجتا الإنسانية . ولكن في هذه الدرجة مراتب لا تحصى يتفاوت الخلق فيها بكثرة المعلومات وقلتها وبشرف المعلومات وخستها وبطريق تحصيلها ؛ إذ تحصل لبعض القلوب إلهام إلهي على سبيل المبادأة والمكاشفة ، وبعضهم يتعلم واكتساب ، وقد يكون سريع الحصول وقد يكون بطيء الحصول . وفي هذا المقام يقاين منازل العلماء والحكام والأنبياء والأولياء ، فدرجات الترقى فيه غير معصورة إذ معلومات الله سبحانه لا نهاية لها . وأقصى الرتب رتبة النبي الذي يتكشف له كل الحقائق أو أكثرها من غير اكتساب وتكلف ، بكشف إلهي في أسرع وقت ، وبهذه السعادة يقرب العبد العبد من الله تعالى قريبا بالمعنى والحقيقة والصفة لا بالمكان والمسافة ومراق هذه الدرجات هي منازل السائرين إلى الله تعالى ولا حصر لتلك المنازل ، وإنما يعرف كل سالك منزله الذي يلته في سلوكه فيعرفه ويعرف ما خلفه من المنازل . فأما ما بين يديه فلا يحيط بحقيقته علما لكن قد يصدق به إيمانا بالنبي ، كما أنا تؤمن بالنبوة والنبي ونصدق بوجوده ولكن لا يعرف حقيقة النبوة إلا النبي ، وكألا يعرف الجنين حال الطفل ، ولا الطفل حال المميز وما يفتح له من



العلوم الضرورية ، ولا المميز حال العاقل وما اكتسبه من العلوم النظرية فكذلك لا يعرف العاقل ما افتتح الله على أوليائه وأنبيائه من مزايا لطفه ورحمته ( ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ) وهذه الرحمة مبدولة بحكم الجود والكرم من الله سبحانه وتعالى غير مضمون بها على أحد ولكن إنما تظهر في القلوب المتعرضة لنفحات رحمة الله تعالى كما قال صلى الله عليه وسلم : إن لربكم في أيام دهركم لنفحات ألا تعرضوا لها <sup>(١)</sup> ، والتعرض لها بتطهير القلب وتركيزه من الحب والكندورة الحاصلة من الأخلاق اللذومة - كما سيأتي بيانه - وإلى هذا الجود الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : يزل الله كل ليلة إلى سماء الدنيا فيقول هل من داع فاستجب له ؟ ، ويقول عليه الصلاة والسلام حكاية عن ربه عز وجل : لقد طال شوق الأبرار إلى لقائي وأنا إلى لقاءهم أشد شوقا <sup>(٢)</sup> ، ويقول تعالى : من تقرب إل شبرا تقربت إليه ذراعا <sup>(٣)</sup> ، كل ذلك إشارة إلى أن أنوار العلوم لم تحتجب عن القلوب لبعث ومنع من جهة اللثم - تعالى عن البخل والبنع علوا كبيرا - ولكن حجب تحجب وكندورة وشغل من جهة القلوب فإن القلوب كالآواني لما دامت تمتلئ بالماء لا يدخلها الهواء فالحقوب للمشفرة بنير الله لا تدخلها للعرفه بهلال الله تعالى . وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء <sup>(٤)</sup> ، ومن هذه الجملة يتبين أن خاصية الإنسان العلم والحكمة .

وأشرف أنواع العلم هو العلم بالله وصفاته وأفعاله فيه كمال الإنسان وفي كاله سعادته وصلاته لجوار حضرة الجلال والكمال . فالبدن مركب للنفس ، والنفس على العلم ، والعلم هو مقصود الإنسان وخاصيته التي لأجله خلق . وكان أن الفرس يشارك الحمار في قوة الحمل ويقتصر عنه خاصية الكر والفز وحسن الهيئة فيكون الفرس غلوفا لأجل تلك الخاصية ، فإن تمطلت منه نزل إلى حضيض رتبة الحمار . وكذلك الإنسان يشارك الحمار والفرس في أمور ويفارقها في أمور هي خاصيته وتلك الخاصية من صفات الملائكة المقربين من رب العالمين . والإنسان على رتبة بين البهائم والملائكة ، فإن الإنسان من حيث يتغذى ويفسل فنبات ، ومن حيث يحس ويتحرك بالاختيار الحيوان ، ومن حيث صورته وقامته فكالمصورة المنقوشة على الخائط ، وإنما خاصيته معرفة حقائق الأشياء .

من استعمل جميع أعضائه وقواه على وجه الاستعانة بها على العلم والعمل فقد تشبه بالملائكة ؛ فحقق بأن يلحق بهم وجدير بأن يسمى ملكا وربانيا كما أخبر الله تعالى عن صواحبات يوسف عليه السلام بقوله ( ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم ) .

ومن صرف همه إلى اتباع القذات البدنية يأكل كما يأكل الأنعام فقد انحط إلى حضيض أفق البهائم فصيّر إماما غمرا كثور ، ولما شرها كخنزير . ولما ضريا ككلب أو سنور ، أو حقودا كجمل . أو متكبرا كعمر ، أو ذوارغان كعقرب ، أو يجمع ذلك كله كشیطان مريد .

وما من عضو من الأعضاء ولا حاسة من الحواس إلا ويمكن الاستعانة به على طريق الوصول إلى الله تعالى - كما سيأتي بيان طرف منه في كتاب الشكر - فن استعمله فيه فقد فاز ، ومن عدل عنه فقد خسر وخاب . ووجه السعادة في ذلك أن يعمل لقاء الله تعالى مقصده ، والفار الأخره مستقره ، والدينامزله ، والبدن مركبه ، والأعضاء

(١) حديث « إن لربكم في أيام دهركم نفحات ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد وقد تقدم .  
 (٢) حديث « يقول الله عز وجل لقد طال شوق الأبرار إلى لقائي : الحديث » لم أجده إلا أن صاحب القردوس أخرجه من حديث أبي الدرداء ولم يذكر له وفيه في مسند القردوس لمستادا . (٣) حديث « يقول الله من عرج لبشيرا هربت إليه ذراعا » متفق عليه من حديث أبي هريرة . (٤) حديث « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم ... الحديث » أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة يشوه وقد تقدم في الصيام .

خديمه . فيستقر هو - أجنى المدرك من الإنسان - في القلب الذي هو وسط ملكته كالملك ، ويجرى القوة الخيالية المودعة في مقدم الدماغ بجري صاحب بریده إذ تجتمع أخبار المحسوسات عنده ، ويجرى القوة الحافظة التي مسكها مؤخر الدماغ بجري غايته ، ويجرى اللسان بجري ترجمانه ، ويجرى الأعضاء المتحركة بجري كتابه ، ويجرى الحواس الخمس بجري جواسيسه فيؤكل كل واحد منها بأخبار صقع من الأصقاع ؛ فيؤكل العين بآلام الألوان ، والسمع بآلام الأصوات ، والشم بآلام الروائح . وكذلك سائر ما فلها أصحاب أخبار يلتقطونها من هذه المواقف ويؤدون إلى القوة الخيالية التي هي كصاحب البريد ، وينسلها صاحب البريد إلى الخازن وهي الحافظة ، ويعرضها الخازن على الملك فيقتبس الملك منها ما يحتاج إليه في تدبير ملكته وإتمام سفره الذي هو بصده ، وقمع عدوه الذي هو مبتلى به ، ودفع قواطع الطريق عليه فإذا فعل ذلك كان موقفا سعيدا شاكرًا نعمة الله وإذا عطل هذه الجملة أو استعملها لكن في مراعاة أعدائه وهي الشهوة والغضب وسائر الحظوظ المأجلة ، أو في عمارة طريقه دون منزله إذ الدنيا طريقه التي عليها عبوره ، ووطئه ومستقره الآخرة ؛ كان غدولا شقيًا كافرًا بنعمة الله ثم أتى مضيعها لجنود الله تعالى ناصرا لأعداءه الله غدلا لحزب الله فيستحق الموت والإبادة في المقلب والمعاد . نعوذ بالله من ذلك .

وإلى المثال الذي ضربناه أشار كعب الأبحار حيث قال : دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت ؛ الإنسان عينا هاد وأذناه قمع ولسانه ترجمان وبداه جناحان ورجلاه برید والقلب منه ملك <sup>(١)</sup> فإذا طاب الملك طابت جنوده ، فقلت : هكذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول . وقال على رضي الله عنه في تمثيل القلب : إن الله تعالى في أرضه آية وهي القلوب فأحبها إليه تعالى وأصفها وأصلها ؛ ثم فسره فقال : أصلها في الدين وأصفها في اليقين وأرفها على الإخوان ، وهو إشارة إلى قوله تعالى ﴿ أشيدوا على الكفار رحما بينهم ﴾ وقوله تعالى ﴿ مثل نوره كشمسة فيها مصباح ﴾ قال أبي بن كعب رضي الله عنه : معناه مثل نور المؤمن وقلبه وقوله تعالى ﴿ أو كظلمات في بحر لجي ﴾ مثل قلب المنافق . وقال زيد بن أسلم في قوله تعالى ﴿ في لوح محفوظ ﴾ وهو قلب المؤمن . وقال سهل : مثل القلب والصدر مثل العرش والكرسي فهذه أمثلة القلب .

### بيان مجامع أوصاف القلب وأمثلته

اعلم أن الإنسان قد اصطحب في خلقه تركيبة أربع شوائب ، فذلك اجتمع عليه أربعة أنواع من الأوصاف وهي : الصفات السبعية والبهيمية والشيطانية والربانية . فهو من حيث سلطة عليه الغضب يتماطى أفعال السباع من العدوان والغضاض والتهمج على الناس بالضرب والشنم . ومن حيث سلطت عليه الشهوة يتماطى أفعال البهائم من الشره والحرس والخبث وغيره . ومن حيث إنه في نفسه أمر رباني كما قال الله تعالى ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾ فإنه يدعى نفسه الربوية ، ويجب الاستيلاء ، والاستسلام ، والتخصص ، والاستبداد بالأموار كلها ، والتفرد بالرياسة ، والاستيلاء عن رتبة العبودية والتواضع ، ويشتهي الإحلال على العلوم كلها ؛ بل يدعى لنفسه العلم ، والمعرفة ، والإحاطة بمقتضى الأمور ، وبفرح إذا نسب إلى العلم ، وبجزع إذا نسب إلى الجهل والإحاطة بجميع الحقائق والاستيلاء بالقهر على جميع الخلائق من أوصاف الربوية ، وفي الإنسان حرص على ذلك . ومن حيث يتخص من البهائم بالتمييز مع مشاركته لها في الغضب والشهوة حصلت فيه شيطانية فصار شريرا يستعمل التمييز في

(١) حديث عائشة : الإنسان عينا هاد وأذناه قمع ولسانه ترجمان ... الحديث . أخرجه أبو إسماعيل في الطب النبوي والطبراني في مسند الشاميين والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة نحوه وله ولأحمد من حديث أبي ذر : وأما الأذن ففقه وأما العين ففكر أما يوعى القلب ولا يصح منها شيء .

استباط وجوه الشر ، ويتوصل إلى الأغراض بالمكر والحيلة والخذاع ، ويظهر الشر في معرض الخير ، وهذه أخلاق الشياطين .

وكل إنسان فيه شوب من هذه الأصول الأربعة - أعني الربانية والشيطنانية والسبعية واليهودية - وكل ذلك مجموع في القلب . فكان المجموع في إهاب الإنسان : خنزير وكلب وشيطان وحكيم .

فالخنزير هو الشهوة فإنه لم يكن الخنزير مذموماً لونه وشكله وصورته بل لجشعه وكنبه وحرصه .

والكلب هو الغضب فإن السبع الضار والكلب المقور ليس كلياً وسبماً باعتبار الصورة واللون والشكل ، بل روح معنى السبعية الضراوة والمدودان والعقر ، وفي باطن الإنسان ضراوة السبع وغضبه وحرصه الخنزير وشبهه ؛ فالخنزير يدعو بالشر إلى الفحشاء والمسكر والسبع بالغضب إلى الظلم والإيذاء .

والشيطان لا يزال يبيع شهوة الخنزير وغيظ السبع ويفرئ أحدهما بالآخر ويحس لها ماها مبحولان عليه . والحكيم الذي هو مثال العقل مأثور بأن يدفع كيد الشيطان ومكره بأن يكشف عن تلبسه بيسره السافذة ونوره المشرق الواضح ، وأن يكسر شره هذا الخنزير بتسليط الكلب عليه إذ بالغضب يكسر سورة الشهوة ويدفع ضراوة الكلب بتسليط الخنزير عليه ويجعل الكلب مقهوراً تحت سياسته ، فإن فعل ذلك وقدر عليه اعتدل الأمر وظهر العدل في مملكة البدن وجرى الكل على الصراط المستقيم ، وإن عجز عن قهرها قهره واستخدمه ، فلا يزال في استباط الحيل وتدقيق الفكر ليشيع الخنزير ويرضى الكلب فيكون دائماً في عبادة كلب وخنزير .

وهذا حال أكثر الناس مهما كان أكثر همهم البطن ، والنرج ومنافسة الأعداء ، والعجب منه أنه ينكر على عبدة الأصنام عبادتهم للحجارة ، ولو كشف الفطاه عنه وكشف بحقيقة حاله ومثل له حقيقة حاله كما يمثل للكاشفين إنما في النوم أرقى اليقظة لرأى نفسه مائلاً بين يدي خنزير ساجداً له مرة وراكماً أخرى ومنتظراً لإشارته وأمره . فهما حاج الخنزير لطلب شيء من شهواته أنبث على الفور في خدمته وإحضار شهوته ، أو رأى نفسه مائلاً بين يدي كلب مقور عابداً له مطيعاً سامعاً لما يقتضيه ويلتزمه مدقاً بالفكر في حيل الوصول إلى طاعته وهو بذلك ساع في سريرة شيطانه فإنه الذي يبيع الخنزير ويشي الكلب ويعتصمهما على استخدامه فهو من هذا الوجه يعبد الشيطان بعبادتهما فليراقب كل عبده حركاته وسكناته ونطقه وقوامه وقعوده ، ولينظر بين البصيرة فلا يرى إن أنصف نفسه إلا ساعياً طول النهار في عبادة هؤلاء ، وهذا غاية الظلم إذ جعل المالك مملوكاً والرب مررباً والسيد عبداً والقاهر مقهوراً ، إذ العقل هو المستحق للسيادة والقهر والاستيلاء وقد سخره لخدمة هؤلاء الثلاثة فلا جرم ينتشر إلى قلبه من طاعة هؤلاء الثلاثة صفات تراكم عليه حتى يصير طاعداً ورباً مملوكاً للقلب ويمتسك له ، أما طاعة خنزير الشهوة فتصدر منها صفة الرقابة والحب والتبذير والتفتير والرياء والاعتكاف والمجانة والعبث والحرص والجشع والمثل والخذ والخذ والثبات وغيرها . وأما طاعة كلب الغضب فتنتشر منها إلى القلب صفة التهور والبذلة والبذخ والصلف والاستعانة والتكبر والعجب والاستهزاء والاستخفاف وتعظيم الحق وإزادة الشر وشهوة الظلم وغيرها . وأما طاعة الشيطان بطاعة الشهوة والغضب فيحصل منها صفة المكر والخذاع والحيلة والدهام والجرأة والتلبس .- التعزيب والنش والحب والحنا وأمثالها . ولوعكس الأمر وقهر الجميع تحت سياسة العنفة الربانية : لا يفتقر القلب إلى الصفات الربانية العلم والحكمة واليقين والإحاطة بمقائق الأشياء ومعرفة الأمور على ما هي عليه ، والاستيلاء على الكل بقوة "علم والبصيرة ، واستحقاق التقدم على الخلق لكامل العلم وجلاله ، ولاستغنى عن عبادة الشهوة والغضب ، ولاانتشار إليه

من ضبط خفيّر الشهوة وردّه إلى حد الاعتدال صفات شريفة مثل العفة والتقاة والهدو والورع والتقوى والانبساط وحسن الهيئة والحياء والتلطف والمساعدة وأمثالها ، ويحصل فيه من ضبط قوة الغضب وقهرها وردّها إلى حد الراجب صفة الشجاعة والكرم والتجدة وضبط النفس والصبر والحلم والاحتشال والعفو والثبات والتبيل والشهامة والوفار وغيرها :

فالقلب في حكم مرآة قد اكتشفت هذه الأمور المؤثرة فيه ، وهذه الآثار على التواصل وأصلة إلى القلب . أما الآثار المحمودة التي ذكرناها فإنها تزيد مرآة القلب جلاء وإشراقاً ونورا وضياء حتى يتلأل فيه إجلية الحق وينكشف فيه حقيقة الأمر المطلوب في الدين ، وإلى مثل هذا القلب الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : إذا أراد الله بهد خيرا جعل له واعظا من قلبه <sup>(١)</sup> ، ويقول صلى الله عليه وسلم : من كان له من قلبه واعظ كان عليه من الله حافظ <sup>(٢)</sup> . وهذا القلب هو الذي يستقر فيه الذكر قال الله تعالى ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ .

وأما الآثار الذمومة فإنها مثل دخان مظلم يتصاعد إلى مرآة القلب ولا يزال يترام على مرّة بعد أخرى إلى أن يسود ويظلم ويصير بالكلية مصحوبا عن الله تعالى ، وهو الطبع وهو الرين قال الله تعالى ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يبصرون ﴾ وقال عز وجل ﴿ أن لو نشاء أصنامهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون ﴾ فربط علم السماع بالطبع بالذنوب كاربطة السماع بالتقوى فقال تعالى ﴿ واقفوا لله واسموا - واقفوا لله وابسكم الله ﴾ ومهما تراكت الذنوب طبع على القلوب وعند ذلك يسمى القلب عن إحراق الشاغل وصلاح الدين ويستبين بأمر الآخرة ويستعظم أمر الدنيا ويصير مقصور الهم عليها . فإذا فرغ همه أمر الآخرة وما فيها من الأخطار دخل من أذن وخرج من أذن ولم يستقر في القلب ولم يحرّك إلى التوبة والتدارك أولئك ﴿ يسئوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور ﴾ وهذا هو معنى اسوداد القلب بالذنوب كما نطق به القرآن والسنة ،

قال ميمون بن مهران : إذا أذنب العبد ذنبا نكت في قلبه نكته سوداء فإذا هو نوع وتاب فقل ، وإن عاذر يد فيها حتى يملأ قلبه فهو الران وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : قلب المؤمن أجرد فيه سراج يزهر وقلب الكافر أسود منكوس <sup>(٣)</sup> ، فطاعة الله سبحانه بمخالفة الشهوات مصفلة للقلب ، ومما فيه مسودات له فن أقبل على المماضي أسود قلبه ، ومن أتبع السيئة الحسنة وعما أثرها لم يظلم قلبه ، ولكن ينقص نوره كالمرآة التي يتفقد فيها ثم تمسح وينتفس ثم تمسح ، فإنها لا تخفى عن كدورة . وقد قال صلى الله عليه وسلم : القلوب أربعة قلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن وقلب أسود منكوس فذلك قلب الكافر وقلب أغلف مربوط على خلافه فذلك قلب المنافق وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق <sup>(٤)</sup> ، مثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدّها الماء الطيب . ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدّها التيس والصديد فأى المادتين غلبت عليه حكم له بها ؟ وفي رواية : ذهبت به . قال الله تعالى ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ فأخبر أن جلاء القلب وإبصاره يحصل بالذكر وأنه لا يتكتم منه إلا الذين اتقوا . فالتقوى باب الذكر ، والذكر باب الكشف ، والكشف باب الفوز الأكبر ، وهو الفوز بقاء الله تعالى .

(١) حديث : إذا أراد الله بهد خيرا جعل له واعظا من قلبه . أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أم سلمة ورواهه جيد . (٢) حديث : من كان له من قلبه واعظ كان عليه من الله حافظ . لم أجده أصلا . (٣) حديث : قلب المؤمن أجرد فيه سراج يزهر ... الحديث . أخرجه أحمد والطبراني في الصغير من حديث أبي سعيد وهو ينس الحديث إلى أبيه . (٤) حديث : القلوب أربعة : قلب أجرد فيه سراج يزهر ... الحديث . أخرجه أحمد والطبراني في الصغير من حديث أبي سعيد الخدري . وقد تقدم .

## بيان مثل القلب بالإضافة إلى العلوم خاصة

اعلم أن محل العلم هو القلب ؛ أعني اللطيفة المدبرة لجميع الجوارح وهي المطاعة الخادمة من جميع الأعضاء ، وهي بالإضافة إلى حقائق المعلومات كالمرآة بالإضافة إلى صور المتلونات ؛ فكأن للتلون صورة ومثال تلك الصورة ينطبق في المرآة ويحصل بها ، كذلك لكل معلوم حقيقة وتلك الحقيقة صورة تنطبق في مرآة القلب وتنضج فيها ، وكأن المرآة غير وصور الأشخاص غير وحصول مثالها في المرآة غير فهي ثلاثة أمور . فكذلك هنا ثلاثة أمور القلب ، وحقائق الأشياء ، وحصول نفس الحقائق في القلب وحضورها فيه .

فالعلم عبارة عن القلب الذي فيه يمثل مثال حقائق الأشياء ، والمعلوم عبارة عن حقائق الأشياء . والمعلم عبارة عن حصول المثال في المرآة .

وكأن أن القبض مثلا يستدعي (قابضا) كاليد (ومقبوضا) كالسيف ، ووصولا بين السيف واليد - بحصول السيف في اليد - ويسمى (قبضا) فكذلك وصول مثال المعلوم إلى القلب يسمى علما ، وقد كانت الحقيقة موجودة والقلب موجودا ولم يكن العلم حاصلًا ، لأن العلم عبارة عن وصول الحقيقة إلى القلب ، كأن السيف موجود واليد موجودة ولم يكن اسم القبض والأخذ حاصلًا لعدم وقوع السيف في اليد ، نعم القبض عبارة عن حصول السيف بعينه في اليد والمعلوم بعينه لا يحصل في القلب ، فن علم النار لم تحصل عين النار في قلبه ، ولكن الحاصل حدًا وحقيقتها المطابقة لصورتها ، فتشبه المرآة أولى لأن عين الإنسان لا تحصل في المرآة وإنما يحصل مثال مطابق له . وكذلك حصول مثال مطابق لحقيقة المعلوم في القلب يسمى علما .

وكأن المرآة لا تكتشف فيها الصورة خمسة أمور (أحدها) نقصان صورتها بجوهر الحديد قبل أن يدور وبشكل ويصقل . (والثاني) لخشته وصدئه وكدوره وإن كان تام الشكل . (والثالث) لكونه مدعولًا به عن جهة الصورة إلى غيرها كما إذا كانت الصورة وراء المرآة . (والرابع) لحجاب مرسل بين المرآة والصورة . (والخامس) للجلول بالجهة التي فيها الصورة المطلوبة حتى يتمذر بسببه أن يحاذيها شطر الصورة وجهتها .

فكذلك القلب مرآة مستعدة لأن ينجلي فيها حقيقة الحق في الأمور كلها ، وإنما خلت القلوب عن العلوم التي خلت عنها لهذه الأسباب الخمسة (أولها) نقصان في ذاته كقلب الصبي فإنه لا ينجلي له المعلومات لنقصانه . (والثاني) لكدوره والمعاصي والخبث الذي يتراكم على وجه القلب من كثرة الشهوات فلن ذلك يمنع صفاء القلب وجماله فيتمتع ظهور الحق فيه لظلالته وتراكمه . وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « من قارف ذنبًا طارقه عقل لا يمدد إليه أبداً »<sup>(١)</sup> ، أي حصل في قلبه كدورة لا يرد أولها إذ غابته أن يتبعه بحسنة يمحوه بها ، فلما جاء بالحسنة ولم تقدم السيئة لازداد لاعتالة إشراق القلب فلما تقدمت السيئة سقطت فائدة الحسنة لكن عاد القلب بها إلى ما كان قبل السيئة ولم يرد بها نورًا . فهذا خسران مبین ونقصان لأجله فليست المرآة التي تتدنس ثم تمسح بالمصقلة كالتي تمسح بالمصقلة لزيادة جلالها من غير دنس سابق ؟ فالإقبال على طاعة الله والإعراض عن مقتضى الشهوات هو الذي يجلو القلب ويصفيه ولذلك قال الله تعالى (والذين جاءوا فإنا لتهديهم سبيلًا) وقال صلى الله عليه وسلم « من عمل بما علم ووجهه الله علم ما لم يعلم »<sup>(٢)</sup> .

(١) حديث « من قارف ذنبًا طارقه عقل لا يمدد إليه أبداً » لم أره أصلاً . (٢) حديث « من عمل بما علم ووجهه الله علم ما لم يعلم » رواه أبو نعيم في الحلية من حديث أس وقد تقدم له العلم .

الثالث أن يكون مددولا به عن جهة الحقيقة المطلوبة فإن قلب المطيع الصالح وإن كان صافيا فإنه ليس يتضح فيه جلية الحق لأنه ليس يطلب الحق وليس محاذيا بمرآته شطر المطلوب : بل ربما يكون مستوعب الهم بتفصيل الطاعات البدنية أو بهيمة أسباب المعيشة ولا يصرف فكره إلى التأمل في حضرة الربوبية والحقائق الخفية الإلهية ، فلا ينكشف له إلا ما هو متفكر فيه من دقائق آفات الأعمال وخفايا عيوب النفس إن كان متفكرا فيها ، أو مصالح المعيشة إن كان متفكرا فيها . وإذا كان تقييد الهم بالأعمال وتفصيل الطاعات مانعا عن انكشاف جلية الحق فما ظنك فيمن صرف الهم إلى الشهوات الدنيوية ولذاتها وعلاقاتها فكيف لا يمنع عن الكشف الحقيقي ؟ ،

الرابع : الحجاب فإن المطيع القاهر لشهواته المتجرد الفكر في حقيقة من الحقائق قد لا ينكشف له ذلك لكونه محجوبا عنه باعتقاد سبق إليه منذ الصبا على سبيل التقليد والقبول بحسن الظن ، فإن ذلك يحول بينه وبين حقيقة الحق ويمنع من أن ينكشف في قلبه خلاف ما تلقفه من ظاهر التقليد ، وهذا أيضا حجاب عظيم به حجب أكثر المتكلمين والمتمسكين بالذهاب ، بل أكثر الصالحين المتفكرين في ملكوت السموات والأرض لأنهم محجوبون باعتمادات تقليدية جمدت في نفوسهم ورسخت في قلوبهم وصارت حجبا بينهم وبين درك الحقائق .

الخامس : الجهل بالجهة التي يقع منها الشور على المطلوب فإن طالب العلم ليس يمكنه أن يحصل العلم بالجهل إلا بالتذكر العلوم التي تناسب المطلوب حتى إذا تذكرها ودرتها في نفسه تريبا غصصا يعرفه العلماء بطرق الاعتبار فمعد ذلك يكون قد عثر على جهة المطلوب فتتجلى حقيقة المطلوب لقلبه ، فإن العلوم المطلوبة التي ليست فطرية لا تقتصر إلا بشبكة العلوم الحاصلة ، بل كل علم لا يحصل إلا عن علبين سابقين يألفا ويزدوجان على وجه مخصوص فيحصل من ازدواجهما علم عالم على مثال ما يحصل الناج من ازدواج الفحل والآنثى . ثم كما أن من أراد أن يستنتج ومكة لم يمكنه ذلك من حمار وبمير ولسان بل من أصل مخصوص من الخيل الذكر والأنثى ، وذلك إذا وقع بينهما ازدواج مخصوص . فكذلك كل علم فله إعلان مخصوصان وبينهما طريق في الازدواج يحصل من ازدواجهما العلم المستفاد المطلوب ، فالجهل بتلك الأصول وبكيفية الازدواج هو السائق من العلم . ومثاله ما ذكرناه من الجهل بالجهة التي الصورة فيها ، بل مثاله أن يريد الإنسان أن يرى قفاه مثلا بالمرآة فإنه إذا رفع المرآة يراها وجهه لم يكن قد حاذى بها شطر القفا فلا يظهر فيها القفا ، وإن رفعها وراء القفا وحاذاه كان قد عدل بالمرآة عن عينه فلا يرى المرآة ولا صورة القفا فيها فيحتاج إلى مرآة أخرى ينصبها وراء القفا ، وهذه في مقابلتها بحيث يبصرها براعى مناسبة بين وضع المرآتين حتى تتطبع صورة القفا في المرآة الحاذية للقفا ، ثم تطبع صورة هذه المرآة في المرآة الأخرى التي في مقابلتها العين ، ثم تدرك العين صورة القفا ، فكذلك في اقتصاص العلوم طرق عجيبة فيها ازوارات وتحريفات أعجب مما ذكرناه في المرآة يمر على بسيط الأرض من يبتدى إلى كيفية الحلية في تلك الازوارات . فهذه هي الأسباب السائمة القلوب من معرفة حقائق الأمور . وإلا فكل قلب فهو بالفطرة صالح لمعرفة الحقائق لأنه أمر وباني شريف فارق سائر جواهر العالم بهذه الخاصية والشرف . وإليه الإشارة بقوله عز وجل ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان ﴾ إشارة إلى أن له خاصية تميز بها عن السموات والأرض والجبال بها صار مطلقا لحمل أمانة الله تعالى . وتلك الأمانة هي المعرفة والتوحيد وقلب كل آدمي مستعد لحمل الأمانة ومطيع لها في الأصل ولكن يثقله عن التورع بأعبائها والوصول إلى تحقيقها الأسباب التي ذكرناها . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه »<sup>(١)</sup> ، وقول رسول الله

(١) حديث « كل مولود يولد على الفطرة ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة .

صلى الله عليه وسلم - لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء <sup>(١)</sup> ، إشارة إلى بعض هذه الأسباب التي هي الحجاب بين القلوب وبين الملكوت .

وله الإشارة بما روى عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قيل لرسول الله ، يا رسول الله أين الله في الأرض أو في السماء ؟ قال في قلوب عباده المؤمنين <sup>(٢)</sup> ، وفي الخبر ، قال الله تعالى : لم يسئ أرض ولا سمى ووسعتي قلب عبدي المؤمن الذين الوداع <sup>(٣)</sup> ، وفي الخبر ، أنه قيل يا رسول الله من خير الناس فقال كل مؤمن مخوم القلب ، فقيل : وما مخوم القلب ؟ فقال « هو التي التي لا غش فيه ولا بغي ولا غدر ولا غل ولا حسد <sup>(٤)</sup> » ولذلك قال عمر رضي الله عنه : رأى قلبي وفي . إذ كان قد رفع الحجاب بالتقوى ، ومن ارتفع الحجاب بينه وبين الله تعجل صورة الملك والملكوت في قلبه فيرى جنة عرض بعثها السموات والأرض ، أما جملتها فأكثر سعة من السموات والأرض لأن السموات والأرض عبارة عن عالم الملك والشهادة وهو وإن كان واسع الأطراف متباعد الأكثاف فهو متناه على الجملة ، وأما عالم الملكوت وهي الأسرار الغائبة عن مشاهدة الأبصار المخصوصة بإدراك البصائر فلا نهاية له ، نعم الذي يلوح للقلب منه مقدار متناه ولكنه في نفسه وبالإضافة إلى علم الله لأنهاية له . وجهه عالم الملك والملكوت إذا أخذت دفعة واحدة تسمى الحضرة الربوبية لأن الحضرة الربوبية محيطة بكل الموجودات إذ ليس في الوجود شيء سوى الله تعالى وأفعاله ، وملكته وعبيده من أفعاله ، فما يتجلى من ذلك القلب من الجنة بعينها عند قوم وهو سبب استحقاق الجنة عند أهل الحق ، ويكون سعة ملكه في الجنة بحسب سعة معرفته ومقدار ما تجل من الله وصفاته وأفعاله . وإعلاء مراد الطاعات وأعمال الجوارح كلها تصفية القلب وتزكيتة وجلالته ( قد أفصح من زكائها ) مراد تزكيتة حصول أنوار الإيمان فيه أعني إشراق نور المعرفة وهو المراد بقوله تعالى ( فن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام . أفن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ) .

نعم هذا التجلي وهذا الإيمان له ثلاث مراتب ( المرتبة الأولى ) إيمان العوام وهو إيمان التقليد الخاضع . ( والثانية ) إيمان المتكلمين وهو مزوج بنوع استدلال ، ودرجة قريبة من درجة إيمان العوام ( والثالثة ) إيمان العارفين وهو المشاهد بنور اليقين .

ونبين لك هذه المراتب بمثال : وهو أن تصديقك يكون زيد مثلاً في النار له ثلاث درجات .

الأولى : أن يتحرك من جريته بالصدق ولم تعرفه بالكذب ولا تنهت في القول ، فإن قلبك يسكن إليه ويطمئن بخبره بمجرد السماع ، وهذا الإيمان بمجرد التقليد ، وهو مثل إيمان العوام فإني لما بلغوا سن التمييز سمعوا من آبائهم وأمهاتهم وجود الله تعالى وعلمه وإرادته وقدرته وسائر صفاته وبعثة الرسل وصدقتهم وما جاءوا به ، وكما سمعوا به يقولوه وثبتوا عليه واطمأنوا إليه ، ولم يخطر ببالهم خلاف ما قالوه لهم لحسن ظنهم بأبائهم وأمهاتهم ومعلمهم ، وهذا الإيمان سبب النجاة في الآخرة وأهله من أوائل رتب أصحاب اليمين وليسوا من الملقين لأنه ليس فيه كشف وبصيرة وانفراج صدر بنور اليقين ، إذ الخطأ يمكن فيها سماع من الأحاديث بل من الأعداد فيما يتعلق

(١) حديث : لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم ... الحديث . تقدم . (٢) حديث ابن عمر : أين الله ؟ قال : في قلوب عباده المؤمنين . لم أجده بهذا اللفظ ، والطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني يرفعه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن الله آتية من أهل الأرض وآتية ربكم قلوب عباده الصالحين ... الحديث » أنه بقية بن الوليد وهو مدلس لكنه مرصع فيه بالصدقة . (٣) حديث « قال الله ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعتي قلب عبدي المؤمن الذين الوداع » لم أره أصلاً وفي حديث أبي عتبة عند الطبراني بدو قوله « وآتية ربكم قلوب عباده الصالحين وأحبها إلي أئمتها وأرغمها » . (٤) حديث : قبل من خير الناس ؟ قال « كل مؤمن مخوم القلب ... الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر بإسناد صحيح .

بالاعتقادات ، فقلوب اليهود والنصارى أيضا مطمئنة بما يسمعون من آياتهم وأمهاتهم لأنهم اعتقدوا ما اعتقدوا خطأ لأنهم أتى إليهم الخطأ ، والمسلمون اعتقدوا الحق لاطلاعهم عليه ولكن أتى إليهم كلمة الحق .

الرتبة الثانية : أن تسمع كلام زيد وصوته من داخل الدار ولكن من وراء جدار فتستدله على كونه في الدار فيكون إيمانك وتصديقك وتيقنك بكونه في الدار أقوى من تصديقك بمجرد السماع ، فإليك إذا قبل لك إنه في الدار ثم سمعت صوته أزدت به يقينا لأن الأصوات تدل على الشكل والصورة عند من يسمع الصوت في حال مشاهدة الصورة ، فيحكم قلبه بأن هذا صوت ذلك الشخص ؛ وهذا إيمان مزوج بدليل والخطأ أيضا ممكن أن يتطرق إليه ، إذ الصوت قد يشبه الصوت وقد يمكن التكلف بطريق المحاكاة إلا أن ذلك قد لا يخطر ببال السامع لأنه ليس يعمل لثمة موعضا ولا يقدر في هذا التلخيص والمحاكاة غرضا .

الرتبة الثالثة : أن تدخل الدار فتظفر إليه بينك وتشاهده ؛ وهذه هي المعرفة الحقيقية والمشاهدة الحقيقية وهي تشبه معرفة القرين والصديقين لأنهم يؤمنون عن مشاهدة فينطوي في إيمانهم إيمان الروام والتكلمين ، ويتميزون بجزية بينة يستعمل معها إمكان الخطأ . نعم وهم أيضا يتفاوتون بمقادير العلوم ودرجات الكشف .

أما درجات الكشف فثلاثة أن يصير زينا في الدار عن قرب وفي صحن الدار في وقت إشراق الشمس فيشكل له إدراكه والآخر يدركه في بيت أو من بعد أوفى وقت عشية فيتشكل له في صورته ما يستيقن معه أنه هو ؛ ولكن لا يتشكل في نفسه الدقائق والحفايا من صورته . ومثل هذا متصور في تفاوت المشاهدات للأمور الإلهية .

وأما مقادير العلوم فهو بأن يرى في الدار زينا وحرا وبكرا غير ذلك وآخر لا يرى إلا زينا فدرجة ذلك تزيد بكثرته المعلومات لاحتالة . فهذا حال القلب بالإضافة إلى العلوم وأهه تعالى أعلم بالصواب .

### بيان حال القلب بالإضافة إلى أقسام العلوم العقلية والدينية والآخرية

اعلم أن القلب بغيريته مستعد لقبول حقائق المعلومات كما سبق ولكن العلوم التي تحمل فيه تنقسم إلى عقلية وإلى شرعية . والعقلية تنقسم إلى ضرورية ومكتسبة . والمكتسبة إلى دنيوية وأخرية .

أما العقلية : فنقسم بها ما فاضى بها غريزة العقل ولا توجد بالتقليد والسماع ؛ وهي تنقسم إلى ضرورية : لا يدري من أين حصلت وكيف حصلت ؟ كعلم الإنسان بأن الشخص الواحد لا يكون في مكانين والشئ الواحد لا يكون حادثا فديما موجدوا معدوما معا ؛ فإن هذه علوم يمد الإنسان نفسه منذ الصبا مغفورا عليها ولا يدري متى حصل له هذا العلم ولا من أين حصل له ؛ أعني أنه لا يدري له سببا قريبا ، وإلا فليس يعني عليه أن الله هو الذي خلقه وهده . وإلى علوم مكتسبة : وهي الاستفادة بالتعلم والاستدلال . وكلا القسمين قد يسمى عقلا .

قال علي رضي الله عنه : رأيت العقل عقلين فطبعوع ومسموع

ولا ينفع مسموع إذا لم يكن مطبوع

كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوع

والأول هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم لعل « ما خلق الله خلقا أكرم عليه من العقل »<sup>(١)</sup> ، والثاني هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم لعل رضي الله عنه « إذا حارب الناس إلى الله تعالى بأنواع البر فتقرب أنت بمقلك »<sup>(٢)</sup> .

(١) حديث « ما خلق الله خلقا أكرم عليه من العقل » أخرجه الترمذي المحكم في نوادر الأصول بإسناد ضعيف وقد تقدم في العلم . (٢) حديث « إذا حارب الناس إلى الله بأنواع البر فتقرب أنت بمقلك » أخرجه أبو نعيم من حديث علي بإسناد ضعيف



إذ لا يمكن التقرب بالغرزة الفطرية ولا بالعلوم الضرورية بل بالمكتسبة . ولكن مثل على رضى الله عنه هو الذى يقدر على التقرب باستعمال العقل فى اقتصاص العلوم التى بها ينال القرب من رب السالمين ، فالقلب جار مجرى العين وغرزة العقل فيه جارية مجرى قوة البصر فى الدين ، وقوة الابصار لطيفة تنفذ فى العمى وتوجد فى البصر وإن كان قد غض عينيه أو جن عليه الليل ، والملم الحاصل منه فى القلب جار مجرى قوة إدراك البصر فى العين ورويته لأعيان الأشياء . وتأخر العلوم عن عين العقل فى مدة الصبا إلى أوان التمييز أو البلوغ يضاهى تأخر الرؤية عن البصر إلى أوان إشراق الشمس وفيضان نورها على المبصرات . والقلم الذى سطر الله به العلوم على صفحات القلوب يجرى مجرى قرص الشمس . وإنما لم يحضل العلم فى قلب الصبى قبل التمييز لأن لوح قلبه لم يتنبأ بعد لقبول نفس العلم . والقلم عبارة عن خلق من خلق الله تعالى جملة سبيل لحصول نقش العلوم فى قلب البشر قال الله تعالى ( الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ) وقلم الله تعالى لا يشبه قلم خلقه كما لا يشبه وصفه وصف خلقه ، فليس قلبه من قصب ولا خشب كما أنه تعالى ليس من جوهر ولا عرض ؛ فالوازنة بين البصيرة الباطنة والبصر الظاهر صحيحة من هذه الوجوه إلا أنه لمتناسبة بينهما فى الشرف ؛ فإن البصيرة الباطنة هى عين النفس التى هى اللطيفة المدركة ، وهى كالنار والبدن كالفرس ، وعين الفارس أضر على الفارس من عمن الفرس بل لانسبة لأحد الضررين إلى الآخر . ولوازنة البصيرة الباطنة للبصر الظاهر سماه الله تعالى باسمه فقال ( ما كذب القواد ما رأى ) سمى إدراك القواد رؤية وكذلك قوله تعالى ( وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ) وما أراد به الرؤية الظاهرة فإن ذلك غير مخصوص بإبراهيم عليه السلام حتى يعرض فى معرض الامتنان ، ولذلك سمى إدراكه عى فقال تعالى ( فإنها لأنسى الابصار ولكن نسمى القلوب التى فى الصدور ) وقال تعالى ( ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ) فهذا بيان العلم العقلى .

أما العلوم الدينية : فهى المأخوذة بطريق التقليد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه ، وذلك يحصل بالتعلم . لكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وفهم معانيهما بعد السماع ، وبه كال صفة القلب وسلامته عن الادواء والامراض ، فالعلوم العقلية غير كافية فى سلامة القلب وإن كان عساجا إليها ، كما أن العقل غير كاف فى استدامة صحة أسباب البدن بل يحتاج إلى معرفة خواص الادوية والمقافير بطريق التعلم من الاطباء ، إذ مجرد العقل لا يهتدى إليه ولكن لا يمكن فهمه بعد سماعه إلا بالعقل ، فلا غنى بالعقل عن السماع ولا غنى بالسماع عن العقل . فالداعى إلى محض التقليد مع عزل العقل بالكلية جاهل ، والمكتفى بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسنة مفروغ ، فإياك أن تكون من أحد الفريقين وكن جامعا بين الأصلين ، فإن العلوم العقلية كالأغذية والعلوم الشرعية كالادوية والشخص المريض يستعثر بالغذاء متى قامه الدواء ، فكذلك أمراض القلوب لا يعكر علاجها إلا بالادوية المستفاد من الشريعة وهى وظائف العبادات والأعمال التى ركبها الأنبياء صلوات الله عليهم لإصلاح القلوب ، فمن لا يدأوى قلبه المريض بمعالجات العبادة الشرعية واكتفى بالعلوم العقلية استعثر بها كما يستعثر المريض بالغذاء . وظن من يظن أن العلوم العقلية مناقضة للعلوم الشرعية وأن الجمع بينهما غير ممكن هو ظن صادر عن عمن فى عين البصيرة نموذ بالله منه ، بل هذا القائل ربما يناقض عنده بعض العلوم الشرعية لبعض فيعمم عن الجمع بينهما . فيظن أنه تناقض فى الدين ، فيفتح به فيفسل من الدين انسلال الشعرة من العجين . وإنما ذلك لأن عجزه فى نفسه خيل إليه نقضا فى الدين وهيبات . وإنما مثاله مثال الأعمى الذى دخل دار قوم فتعثر فيها بأواني الدار فقال لهم : ما بال هذه الأواني

تركزت على الطريق لم تلزد إلى مواضعها ؟ فقالوا له : تلك الأواني في مواضعها ! وإنما أنت لست تهتدى للطريق  
لعلك فالمجب منك أنك لاتحمل عثرتك على عماك وإنما تحيلها على تقصير غيرك ؟ فبهذه نسبة العلوم الدنيوية إلى  
العلوم العقلية .

والعلوم العقلية تنقسم إلى دنيوية وأخرية . فالدنيوية : كعلم الطب والحساب والهندسة والنجوم وسائر الحرف  
والصناعات . والأخرية : كعلم أحوال القلب وأفات الأعمال والملم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله - كما فصلناه في كتاب  
العلم - وهما علمان متافيان - أعني أن من صرف عنايته إلى أحدهما حتى تعمق فيه قصرت بصيرته عن الآخر على  
الاكثر - ولذلك ضرب على رضى الله عنه للدنيا والآخرة ثلاثة أمثلة فقال : هما ككفتي الميزان ، وكالمشرق والمغرب ،  
وكالضربتين إذا أرضيت إحداهما أسخطت الاخرى .

ولذلك ترى الأكياس في أمور الدنيا وفي علم الطب والحساب والهندسة والفلسفة جهالا في أمور الآخرة .  
والأكياس في دقائق علوم الآخرة جهالا في أكثر علوم الدنيا ، لأن قوة العقل لا تفي بالأسرين جميعا في الغائب  
فيكون أحدهما مانعا من الكمال في الثاني . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : إن أكثر أهل الجنة البهلاء (١) ، أى البه  
في أمور الدنيا .

وقال الحسن في بعض مواضعه : لقد أدركنا أقواما لو رأيتهم لقلتم بجانين ولو أدرككم لقلوا شياطين . فهما  
سمعت أمرا غريبا من أمور الدين جعده أهل الكياسة في سائر العلوم ، فلا يفوتك وجودهم عن قوله إذ من المحال  
أن يظفر سالك طريق المشرق بما يوجد في المغرب ، فكذلك يجرى أمر الدنيا والآخرة ولذلك قال تعالى (إن الذين  
لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ) الآية وقال تعالى ( يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن  
الآخرة هم غافلون ) وقال عز وجل ( فأعرض عن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من  
العلم ) فالجميع بين كمال الاستبصار في مصالح الدنيا والدين لا يكاد يتيسر إلا لمن رضى الله لتدبير عبادته في معاشهم ومعادهم  
وهم الأنبياء المؤيدون بروح القدس المستمدون من القوة الإلهية التي تسع جميع الأمور ولا تضيق عنها . فأما قلوب  
سائر الخلق فلها إذا استفتت بأمر الدنيا انصرفت عن الآخرة وقصرت عن الاستكمال فيها .

بيان الفرق بين الإلهام والتعلم ، والفرق بين طريق الصوفية

في استكشاف الحق وطريق النظر

اعلم أن العلوم التي ليست ضرورية - وإنما تحصل في القلب في بعض الأحوال - تختلف الحال في حصولها فتارة  
تجمع على القلب كآه التي فيه من حيث لا يدري ، وتارة تمكتسب بطريق الاستدلال والتعلم . فالدني يحصل  
لا بطريق الاكتساب وحيلة الدليل يسمى إلهاما ، والذي يحصل بالاستدلال يسمى اعتبارا واستقصارا . فمما الواقع  
في القلب بغير حيلة وتعلم واجتهاد من البعد ينقسم إلى مالا يدري المبدأه كيف حصل له ومن أين حصل ؟ وإلى ما يطلع  
معه على السبب الذي منه استفاد ذلك العلم وهو مشاهدة الملك المتقي في القلب . والأول : يسمى إلهاما ونفثا في الزرع  
والثاني : يسمى وحيا وتختص به الأنبياء . والأول يختص به الأولياء والأصفياء . والذي قبله هو المكتسب بطريق  
الاستدلال - يختص به العلماء . وحقيقة القول فيه أن القلب مستعد لأن تتجلى فيه حقيقة الحق في الأشياء كلها ،

(١) حديث « أكثر أهل الجنة البهلاء » أخرجه البزار من حديث أسى وضحه رحمه الله القرطبي في التذكرة وليس كذلك فقد  
قال ابن عسك أنه منكر .

وإنما حيل بينه وبينها بالأسباب الخسة - التي سبق ذكرها - فهي كالخجاء المسدل الخائل بين امرأة القلب وبين اللوح المحفوظ الذي هو متقوس بجميع ماضى الله به إلى يوم القيامة . وتجلى حقائق العلوم من مرآة اللوح في مرآة القلب يضاهي انطباع صورة من مرآة في مرآة تعالينا ، والحجاب بين المرأتين تارة يزال باليد وأخرى يزول بهبوب الريح تحركة . وكذلك قد تهب رياح الاطلاء وتكتشف الحجب عن أعين القلوب فينتج فيها بعض ما هو مسطور في اللوح المحفوظ ، ويكون ذلك تارة عند المنام فيعلم به ما يكون في المستقبل . وتنام ارتفاع الحجاب بالمرت فيه ينكشف النطاء ، وينكشف أيضا في البقعة حتى يرتفع الحجاب بطف خفي من الله تعالى ، فيلعق في القلوب من وراء ستر الغيب شيء من غرائب العلم تارة كالبرق الخاطف ، وأخرى على التوالي إلى حد ما . وتزاه في غاية التدور فلم يفارق الإلهام الاكتساب في نفس العلم ولا في عمله ولا في سببه ولكن يفارقه من جهة زوال الحجاب ، فإن ذلك ليس باختيار العبد ولم يفارق الوحي الإلهام في شيء من ذلك بل في مشاهدة الملك المعيد للعلم ، فإن العلم إنما يحصل في قلوبنا بواسطة الملكة ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ( وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي ما يشاء ) .

فلذا عرفت هذا فاعلم أن ميل أهل التصوف إلى العلوم الإلهامية دون التعليمية . فذلك لم يحرصوا على دراسة العلم وتحصيل ماصفته المصنفون والبحث عن الآفانيل والأدلة المذكورة ، بل قالوا الطريق تقديم الجمادة ومحو الصفات المذمومة وقطع العلاقات كلها والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ومهما حصل ذلك كان الله هو المتولى لقلب عبده والمتكفل بتكوينه بأنوار العلم ، وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة وأشرق النور في القلب وانشرح الصدر وانكشف له سر الملكوت ، وانفتح عن وجه القلب حجاب القرة بطف الرحمة وتلافت فيحقائق الأمور الإلهية فليس على العبد إلا الاستعداد بالتصفية المجردة وإحضار الهمة مع الإرادة الصادقة والتعطش التام والقرص بدوام الانتظار لما يفتحه الله تعالى من الرحمة .

فالأنياء والأولياء انكشف لهم الأمر وقاض على صدورهم التورلا بالتعلم والدراسة والكتابة الكتب ، بل بالزهد في الدنيا والتبرى من علاقاتها وتفرغ القلب من شواغلها والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى . فن كان لله كانه له . وزعموا أن الطريق في ذلك أولا بانقطاع علائق الدنيا بالكلية وتفرغ القلب منها وبقطع الهمة عن الأهل والمال والولد والوطن وعن العلم والولاية والجاه بل يصير قلبه إلى حالة يستوى فيها وجود كل شيء وعدمه ، ثم يغفل بنفسه في زوايا مع الانحصار على الفراغ والرواتب ، ويجلس فارغ القلب بمجموع الهمة ، ولا يفرق فكره بقراءة قرآن ولا بالتأمل في تفسير ولا بكتب حديث ولا غيره ، بل يجتهد أن لا يخطئ ببالة شيء سوى الله تعالى ، فلا يزال بعد جلوسه في الخلوة قائلا بلسانه : الله الله على الدوام مع حضور القلب حتى ينتهي إلى حالة يترك تحريك اللسان ويرى كأن الكلمة سارية على لسانه ، ثم يصير عليه إلى أن يحس أثره عن اللسان ويصادف قلبه مواظبا على الذكر ، ثم يواظب عليه إلى أن يحس عن القلب صورة اللفظ وحروفه وهيئة الكلمة ، ويبقى معنى الكلمة مجردا في قلبه حاضرا فيه كأنه لازم له لا يفارقه وله اختيار إلى أن ينتهي إلى هذا الحد واختيار في استدامة هذه الحالة بلطف الوسواس ، وليس له اختيار في استجلاب رحمة الله تعالى ، بل هو بما فعله صار متحررا لتفحات رحمة الله فلا يلقى إلا الانتظار لما يفتح الله من الرحمة كما فتحها على الأنبياء والأولياء بهذه الطريق ؛ وعند ذلك إذا صدقت إرادته وصفت همة وحسنت مواظبته فلم يجاذبه شهوانه ولم يشغله حديث النفس بملائن الدنيا تلعب لأواع الحق في قلبه ، ويكون في ابتدائه

كالبريق الخاطف لا يثبت ؛ ثم يعود وقد يتأخر ، وإن عاد فقد يثبت وقد يكون عتظفا ؛ وإن ثبت قد يطول ثباته وقد لا يطول ، وقد يتظاهر أمثاله على التلاحق وقد يقتصر على فن واحد . ومنازل أولياء الله تعالى فيه لا تحصر كما لا يحصى تفاوت خلقهم وأخلاقهم . وقد رجع هذا الطريق إلى تطهير بعض من جانبك وتصفية وجلاء ، ثم استمداد وانتظار فقط .

وأما النظار وذو الاعتبار فلم ينكروا وجود هذا الطريق وإمكانه وإفضائه إلى هذا المقصد على التدور فإنه أكثر أحوال الأنبياء والأولياء ، ولكن استوعروا هذا الطريق واستبطؤوا ثمرته واستبعدوا استجماع شروطه ، وزعموا أن عو العلاقات إلى ذلك الحد كالتمدن وإن حصل في حال قباته أبعد منه ، إذ أدنى وسواس وخطريشوش القلب وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قلب المؤمن أشد تغلبا من القدر في غلباتها <sup>(١)</sup> » وقال عليه أفضل الصلاة والسلام : « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن <sup>(٢)</sup> » وفي أثناء هذه المجاهدة قد يغيب المزاج ويختلط العقل ويمرض البدن ، وإذا لم تقدم رياضة النفس وتهذيبا بمقائق العلوم نشبت بالقلب خيالات فاسدة تطعن النفس إليها مدة طويلة إلى أن يزول وينقضى العمر قبل النجاح فيها ، فكأن من صوفى سلك هذا الطريق ثم بقي في خيال واحد عشرين سنة ولو كان قد آقن العلم من قبل لانتفع له وجه التباس ذلك الخيال في الحال ، فالاشتغال بطريق التعلم أوفى وأثرب إلى الغرض . وزعموا أن ذلك يضاهى ما لترك الإنسان تعلم الفقه . وزعم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتعلم ذلك وصار فقها بالوحي والإلهام من غير تكرير وتعليق وأنا أيضا ربما انتهت في الرياضة والمواظبة إليه ومن ظن ذلك فقد ظلم نفسه وضيع عمره ، بل هو كمن يترك طريق الكيب والحراثة رجاء الثور على كثر من الكوز ، فإن ذلك ممكن ولكنه بعيد جدا ؛ فكذلك هذا . وقالوا : لا بد أولا من تحصيل ما حصله العلماء وفهم ما قالوه ثم لا بأس بعد ذلك بالانتظار لما لم يكشف لسائر العلماء فساء يكشف بعد ذلك بالمجاهدة .

#### بيان الفرق بين المقامين بمثال محسوس .

اعلم أن عجائب القلب غارجة عن مدركات الحواس ، لأن القلب أيضا خارج عن إدراك الحس وماليس مدركا بالحواس تضعف الأفهام عن دركه إلا بمثال محسوس . ونحن نقرب ذلك إلى الأفهام الضعيفة بمثالي :

أحدهما : أنه لو فرضنا حوضا مغفورا في الأرض احتمل أن يساق الماء من فوقه بأنهار تفتح فيه ، ويحتمل أن يغفر أسفل الحوض ويرفع منه التراب إلى أن يقرب من مستقر الماء الصافي ، فينجر الماء من أسفل الحوض ويكون ذلك الماء أصفى وأدم وقد يكون أغزر وأكثر . فذلك القلب مثل الحوض ، والماء مثل الماء ، وتكون الحواس الحس مثال الأنهار . وقد يمكن أن تساق العلوم إلى القلب بواسطة أنهار الحواس والاعتبار بالمجاهدات حتى يمتلئ علما ، ويمكن أن تسد هذه الأنهار بالحلوة والمرقة وغض البصر ويبعد إلى عمق القلب بتطهيره ورفع طبقات الحجب عنه حتى تفسح ينابيع العلم من داخله .

• لأن قالت : فكيف يتجر العلم من ذات القلب وهو حال عنه ؟ فأعلم أن هذان عجائب أسرار القلب ولا يسمح بذكره في علم العامة بل القدر الذي يمكن ذكره أن حقائق الأشياء مسطورة في اللوح المحفوظ بل في قلوب الملائكة المقربين . فكأن المهندس يصور أبنية الدار في يمان ثم يخرجها إلى الوجود على وفق تلك النسخة فكذلك فاطر

(١) حديث « قلب المؤمن أشد تغلبا من القدر في غلباتها » أخرجه أحمد والحاكم ومعه من حديث اللذان بن الأسود .  
(٢) حديث « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمر .

السماوات والأرض كتب نسخة العالم من أوله إلى آخره في اللوح المحفوظ ثم أخرجه إلى الوجود على وفق تلك النسخة ، والعالم الذى خرج إلى الوجود بصورته تتأذى منه صورة أخرى إلى الحس والخيال ، فإن من ينظر إلى السماء والأرض ثم ينفض بصره يرى صورة السماء والأرض في خياله حتى كأنه ينظر إليها ، ولو تقدمت السماء والأرض وبقي هو في نفسه لوجد صورة السماء والأرض في نفسه كأنه يشاهدهما وينظر إليهما ، ثم يتأذى من خياله أثر إلى القلب فيحصل فيه حقائق الأشياء التي دخلت في الحس والخيال . والحاصل في القلب موافق العالم الحاصل في الخيال والحاصل في الخيال موافق العالم للوجود في نفسه عارفا من خيال الإنسان وتقليه . والعالم الموجود موافق للفسفة الموجودة في اللوح المحفوظ .

فكان للعالم أربع درجات في الوجود : وجود في اللوح المحفوظ وهو سابق على وجوده الجسماني ، ويتبعه وجوده الحقيقي ، ويتبع وجوده الحقيقي وجوده الخيالي - أثنى وجود صورته في الخيال - ويتبع وجوده الخيالي وجوده العقلي - أثنى وجود صورته في القلب -

وبعض هذه الوجودات روحانية وبعضها جسمانية . والروحانية بعضها أشد روحانية من البعض ؛ وهذا اللطف من الحكمة الإلهية ، إذ جعل حداثتك على صفر حجمها بحيث تنطبع صورة العالم والسماوات والأرض على اتساع أكثافها فيها ، ثم يسرى من وجودها في الحس وجود إلى الخيال ، ثم منه وجود في القلب فأنتك أبدا لا تسرك إلا ما هو واصل إليك ، فلم يجعل للعالم كله مثالا في ذاتك لما كان لك خبر مما يبين ذاتك ، فسيحان من دبر هذه العجائب في القلوب والأبصار ثم أعشى عن دركها القلوب والأبصار ، حتى صارت قلوب أكثر الخلق جاهلة بأنفسها وبعجائبيها .

وترجع إلى الفرض المقصود فنقول : القلب قد يتصور أن يحصل فيه حقيقة العالم وصورته تارة من الحواس وتارة من اللوح المحفوظ ، كما أن العين يتصور أن يحصل فيها صورة الشمس تارة من النظر إليها وتارة من النظر إلى الماء الذي يقابل الشمس ويحكي صورتها . فهما ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ رأى الأشياء فيه وتفتجر إليه العلم منه فاستغنى عن الاقتباس من داخل الحواس ، فيكون ذلك كتفتجر الماء من عرق الأرض . ومهما أقبل على الخيالات الحاصلة من المحسوسات كان ذلك حجابا له عن مطالعة اللوح المحفوظ كما أن الماء إذا اجتمع في الأنهار منع ذلك من التفتجر في الأرض ، وكما أن من نظر إلى الماء الذي يحكي صورة الشمس لا يكون ناظرا إلى نفس الشمس ؛ فإذا ن للقلب بابان : باب مفتوح إلى عالم الملكوت وهو اللوح المحفوظ وعالم الملكة ، وباب مفتوح إلى الحواس الحس المتسكة بعالم الملك والشهادة . وعالم الشهادة والملك أيضا كما في عالم الملكوت نوعان هما كآلة . فأما انفتاح باب القلب إلى الاقتباس من الحواس فلا يفتني عليك . وأما انفتاح بابه الداخل إلى عالم الملكوت ومطالعة اللوح المحفوظ فتعلمه علما يقينيا بالتأمل في عجائب الرقيا واطلاع القلب في الترم على ما سيكون في المستقبل أو كان في الماضي من غير اقتباس من جهة الحواس . وإنما يفتتح ذلك الباب لمن انفرد بذكر الله تعالى وقال صلى الله عليه وسلم « سبق المفردون » ، قبل ومن هم المفردون بإرسول الله ؟ قال ، المتزهدون بذكر الله تعالى وضع الذكر عنهم أوزارهم فوردا القيامة خفافا ، ثم قال في وصفهم إخبارا عن الله تعالى فقال « هم أقبل بوجهي عليهم أترى من واجهته بوجهي يعلم أحد أي شيء أريد أن أعطيه ؟ ثم قال تعالى : أول ما أعطيتهم أن أقذف النور في قلوبهم فيخبرونني كما أخبر عنهم »<sup>(١)</sup> ، ومدخل

(١) حديث « سبق المفردون » قيل ومن هم ؟ قال « المستهترون بذكر الله ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة مختصرا على أول الحديث وقال فيه : وما المفردون ؟ قال « الذين هم كثرة في القرائات » ، ورواه الإمام بنظره وقال القين =

هذا الأخير هو الباب الباطن فإذا الفرق بين علوم الأولياء والأنبياء وبين علوم العلماء والحكماء هذا هو أن علومهم تأتي من داخل القلب من الباب المفتوح إلى عالم الملكوت ، وعلم الحكمة يتأتى من أبواب الحواس المفتوحة إلى عالم الملك ، وبجانب عالم القلب وترده بين عالم الشهادة والنيب لا يمكن أن يستقصى في علم العاملة . فهذا مثال يعلل الفرق بين مدخل المالمين

المثال الثاني يبرك الفرق بين المعلمين ، أعني عمل العلماء وعمل الأولياء : فإن العلماء يعملون في اكتساب نفس العلوم واجتلابها إلى القلب ، وأولياء الصوفية يعملون في جلاء القلوب وتطهيرها وتصفيها وتصفيها فقط ، فمدحكي أن أهل الصين وأهل الروم تباها بين يدي بعض الملوك بحسن صناعة النقش والصور فاستقر رأى الملك على أن يسلم إليهم صفة لينقش أهل الصين منها جانباً وأهل الروم جانباً ويرضى بينهما حجاب يمنع اطلاع كل فريق على الآخر ففعل ذلك ، فجمع أهل الروم من الأصاغ الغريبة ما لا ينحصر ودخل أهل الصين من غير صبح وأقبلوا يحملون جانبهم ويصقلونه ، فلما فرغ أهل الروم ادعى أهل الصين أنهم قد فرغوا أيضاً فمجب الملك من قولهم وأنهم كيف فرغوا من النقش من غير صبح ؟ فقيل : وكيف فرغتم من غير صبح ؟ فقالوا : ما عليكم أرفعوا الحجاب ، فرفعوا وإذا بجانبهم يتلألأ منه مجاب الصنائع الرومية مع زيادة إشراق وبريق ، إذ كان قد صار كالمرآة المجلوة لكثرة التصفيل فازداد حسن جانبهم بمزيد التصفيل ؛ فكذلك غاية الأولياء بتطهير القلب وجلائه وتركيبه وصفائه حتى يتلألأ فيه جلية الحق إنهاء الإشراق كمثل أهل الصين ، وغاية الحكماء والعلماء بالاكتساب ونقش العلوم وتحصيل نقشة في القلب كمثل أهل الروم ، فكيفما كان الأمر قلب المؤمن لا يموت وعليه عند الموت لا يحى وصفائه لا يتسكدر وإليه أشار الحسن رحمه الله عليه بقوله : التراب لا يأكل محل الإيمان بل يكون وسيلة وقربة إلى الله تعالى .

وأما ما حصله من نفس العلم وما حصله من الصفاء والاستعداد لقبول نفس العلم فلا غنى به عنه ولا مساعدة لأحد إلا بالعلم والمعرفة ، وبعض السعادات أشرف من بعض كما أنه لا غنى إلا بالمال . فصاحب الدرهم غنى وصاحب الخزانة المزرعة غنى ، وتفاوت درجات السعادة بحسب تفاوت المعرفة والإيمان كما تفاوتت درجات الأغنياء بحسب فلك المال وكثرته ، فالمعارف أنوار ولا يسمى المؤمنون إلى لقاء الله تعالى إلا بأنوارهم قال الله تعالى ﴿ يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ﴾ وقد روى في الخبر : إن بعضهم يعطى نوراً مثل الجبل وبعضهم أصغر حتى يكون آخرهم رجلاً يعطى نوراً على إهاب قدميه فيضيء مرة ويظلم أخرى فإذا أضاء قدمه فيضيء وإذا طوى قام ، ومرورهم على الصراط على قدر نورهم ففهم من يمر كالفرس العين ومنهم من يمر كالبرق ومنهم من يمر كالسحاب ومنهم من يمر كالقنطرة الكواكب ومنهم من يمر كالفرس إذا اشتد في ميدانه ، والذي أعطى نوراً على إهاب قدمه يحبو حوا على وجهه ويديه ورجليه يمر يداً ويعلق أخرى ويصحب جوابه النار فلا يزال كذلك حتى يخلص <sup>(١)</sup> الحديث فهذا يظهر تفاوت الناس في الإيمان ولو وزن إيمان أبي بكر بإيمان المالمين سوى التبيين والمرسلين لرجح . فهذا أيضاً يضاهي قول القائل : لو وزن نور الشمس بنور السرج كلها لرجح ؛ فإنما أحاد العوام بنوره مثل نور السراج وبعضهم بنوره كنور الشمع ، وإيمان الصديقين بنوره كنور القمر والتجزم ، وإيمان الأنبياء كالشمس . وكما يتكشف في نور الشمس صورة الآفاق مع

== يستهترون بذكر الله . وقال صحيح على شرط الشيخين وزاد فيه البيهقي في الشعب « يضم الذكر منهم أهلهم ويأتون يوم القيامة خفافاً » ورواه هكذا الطبراني في المعجم الكبير من حديث أبي البرداء دون الإضافة التي ذكرها المصنف في آخره وكلامه ضيف . (١) حديث « لأن بعضهم يعطى نوراً مثل الجبل حتى يكون آخرهم رجلاً يعطى نوراً على إهاب قدمه ... الحديث » أخرجه الطبراني والمالك من حديث ابن مسعود قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين .

اتساع انظارها ولا ينكشف في نور السراج إلا زواية ضيقة من البيت فكذلك تفاوت الشراح الصدر بالمعارف وانكشف سعة المكتوب لقلوب المارفين . ولذلك جاء في الخبر أنه يقال يوم القيامة أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان ، ونصف مثقال وربع مثقال وشعيرة وذرة <sup>(١)</sup> ، كل ذلك تنبيه على تفاوت درجات الإيمان وأن هذه المقادير من الإيمان لا تمنع دخول النار ، وفي مفهومه أن من إيمانه يزيد على مثقال فإنه لا يدخل النار ، إذ لو دخل لأمر بإخراجه أولاً وأن من في قلبه مثقال ذرة لا يستحق الخلود في النار وإن دخلها . وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم : ليس شيء خيراً من ألف مثله إلا الإنسان المؤمن <sup>(٢)</sup> إشارة إلى تفضيل قلب المعارف بالله تعالى الموقن فإنه خير من ألف قلب من العوام . وقد قال تعالى : ( وأنتم ألا تعلمون إن كنتم مؤمنين ) تفضيلاً للمؤمنين على المسلمين والمراد به المؤمن المعارف دون المقلد . وقال عز وجل : ( يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ) فأراد ههنا بالذين آمنوا الذين صدقوا من غير علم ويميزهم عن الذين أوتوا العلم . ويدل ذلك على أن اسم المؤمن يقع على المقلد وإن لم يكن تصديقه عن بصيرة وكشف .

وفسر ابن عباس رضي الله عنهما قوله تعالى : ( والذين أوتوا العلم درجات ) فقال يرفع الله العالم فوق المؤمن بسبعمائة درجة بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، وقال صلى الله عليه وسلم : أكثر أهل الجنة البله وعلويون لذرى الآلاب <sup>(٣)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم : فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي <sup>(٤)</sup> ، وفي رواية : كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، فهذه الشواهد تبضح لك تفاوت درجات أهل الجنة بحسب تفاوت قلوبهم ومعارفهم ، ولهذا كان يوم القيامة يوم التنازين إذ اخروم من رحمة الله عظيم النعم والخسران ، وانحروم يرى فوق درجته درجات عظيمة فيكون نظره إليها كمنظر النقي الذي يملك عشرة دراهم إلى النقي الذي يملك الأرض من المشرق إلى المغرب وكل واحد منهما غنى ولكن ما أعظم الفرق بينهما وما أعظم النعم على من ينصر حظه من ذلك ( وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ) .

### بيان شواهد الشرع على صحة طريق أهل التصوف في اكتساب

المعرفة لا من التعلم ولا من الطريق المعتاد

اعلم أن من انكشف له شيء ولو الشيء اليسير بطريق الإلهام والوقوع في القلب من حيث لا يدري فقد صار عارفاً بصحة الطريق ، ومن لم يدرك ذلك من نفسه قط فيبقى أن يؤمن به ، فإن درجة المعرفة فيه صريحة جداً ، ويشهد لذلك شواهد الشرع والتجارب والحكايات :

أما الشواهد : فقوله تعالى : ( والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ) فكل حكمة تظهر من القلب بالمواظبة على العبادة من غير تعلم فهو بطريق الكشف والإلهام . وقال صلى الله عليه وسلم : « من عمل بما علم الله علم ما لم يعلم ووقفه فيما يعمل حتى يستوجب الجنة ومن لم يعمل بما يعلم تاه فيما يعلم ولم يوفق فيما يعمل حتى يستوجب النار » <sup>(١)</sup> ، وقال الله تعالى : ( ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ) من الإشكالات والشبه ( ويرزقه من حيث لا يحتسب ) يعلمه

(١) حديث « يقال يوم القيامة أخرجوا من النار من ق قلبه ربع مثقال من إيمان ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي سعيد وليس فيه قوله « ربع مثقال » . (٢) حديث « ليس شيء خيراً من ألف مثله إلا الإنسان أو المؤمن » أخرجه الطبراني من حديث سلمان بنسب « الإنسان » ولأحد من حديث ابن عمر « لا تعلم شيئاً خيراً من مائة مثقال إلا الرجل المؤمن » وأسانداً حسن (٣) حديث « أكثر أهل الجنة الهة وعلويون لقوى لألاب » تقدم دون هذه الرواية ولا أجدها في الزيادة أصلاً (٤) حديث « فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي » أخرجه الترمذي من حديث أبي أمامة وصححه وقد تقدم في العلم وكذلك الرواية الثانية . (هـ) حديث « من عمل بما علم ... الحديث » تقدم في العلم دون قوله « ووقفه فيما يعمل » فلم أرها .

علما من غير تعلم ويفضل من غير تجربة . وقال الله تعالى ( يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ) قيل نورا يفرق به بين الحق والباطل وينفج به من الشبهات ، ولذلك كان صلى الله عليه وسلم يكثر في دعائه من سؤال الثور فقال عليه الصلاة والسلام « اللهم أصلي نورا وزدي نورا واجعل لي في قلبي نورا وفي قبري نورا وفي سمعي نورا وفي بصري نورا حتى قال في شمرى وفي بشرى وفي لحى ودى وعظاى (١) » وسئل صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى ( أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ) ما هذا التشرح ؟ فقال « هو التوسعة إن الثور إذا قذف به في القلب اتسع له الصدر وانشرح (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم لابن عباس ، اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل (٣) » وقال على رضى الله عنه : ما عندنا شيء أسره النبي صلى الله عليه وسلم إلينا إلا أن يؤتى الله تعالى عبدا فهما في كتابه وليس هذا بالتعلم (٤) ؟ وقيل في تفسير قوله تعالى ( يؤتى الحكمة من يشاء ) إنه التهم في كتاب الله وقال تعالى ( فقهناهم أسليان ) خص ما انكشف باسم الفهم . وكان أبو الرداء يقول : المؤمن من ينظر بنور الله من وراء ستر رقيق والله إنه للحق يقذفه الله في قلوبهم ويغيره على السنتهم . وقال بعض السلف : ظن المؤمن كهانة .

وقال صلى الله عليه وسلم « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى (٥) » وإليه يشير قوله تعالى ( إن في ذلك لآيات للمتوسمين ) وقوله تعالى ( قد بينا الآيات لقوم يوقنون ) وروى الحسن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « العلم علان فعلم باطن في القلب فذلك هو العلم النافع (٦) » وسئل بعض العلماء عن العلم الباطن ما هو ؟ فقال : هو سر من أسرار الله تعالى يقذفه الله تعالى في قلوب أسبابه لم يطلع عليه ملكا ولا بشرا . وقد قال صلى الله عليه وسلم « إن من أمي ثلاثين ومعلمين ومكلمين وإن عمر منهم (٧) » وقرأ ابن عباس رضى الله عنهما ( وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى ولا محمدا ) يعنى الصديقين والمحدث هو الملمهم ، والملمهم هو الذى انكشف له في باطن قلبه من جهة الداخل لا من جهة المحسوسات الخارجة .

والقرآن مصرح بأن التقوى مفتاح الهداية والكشف : وذلك علم من غير تعلم . وقال الله تعالى ( وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقوم ينقون ) خصصها بهم وقال تعالى ( هذا بيان للناس وهدى وموعظة للتقين ) وكان أبو يزيد وغيره يقول : ليس العالم الذى يحفظ من كتاب فإذا لسى ما حفظه صار جاهلا ، إنما العالم الذى يأخذ علمه من ربه أى وقت شاء ؟ بلا حفظ ولا درس . وهذا هو العلم الربانى وإليه الإشارة بقوله تعالى ( وعلماؤه من لدنا علم ) مع أن كل علم من لدنه ولكن بمعنىا يوساط تعليم الخلق فلا يسمى ذلك علما لدنيا بل اللدنى الذى يفتح في سر القلب من غير سبب مألوف من خارج فهذه شواهد النقل ولوجع كل ماورد فيه من الآيات والأخبار والأمارات لخرج عن الحصر .

وأما مشاهدة ذلك بالتجارب فذلك أيضا خارج عن الحصر وظهر ذلك على الصحابة والتابعين ومن بعدهم . وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه لما سمع رضى الله عنها عند موته : إنما هما أخواك وأختاك ، وكانت زوجته

(١) حديث « اللهم أصلي نورا وزدي نورا ... الحديث متفق عليه من حديث ابن عباس .  
(٢) حديث : سئل عن قوله تعالى أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ... الحديث . وفي المستدرک من حديث ابن مسعود وقد تقدم في العلم .  
(٣) حديث « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » قاله لابن عباس متفق عليه من حديث ابن عباس دون قوله « وعلمه التأويل » فأخرج بهذه الزيادة أحمد وابن حبان والحاكم وصححه وقد تقدم في العلم . (٤) حديث على : ما عندنا شيء أسره النبي صلى الله عليه وسلم إلينا إلا أن يؤتى الله عبدا فهما في كتابه .  
(٥) حديث « انظروا فرياسة المؤمن ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أبي سعيد وقد تقدم .  
(٦) حديث « العلم علان ... الحديث » تقدم في العلم .  
(٧) حديث « إن من أمي ثلاثين ومعلمين ومكلمين وإن عمر منهم » أخرجه البخارى من حديث أبي هريرة « لقد كان لينا قبلكم من الأمم محدثون فإن يك في أمي أحد فإنه عمر » ورواه مسلم من حديث عائشة .



حاملا فولدت بنتا فكان قد عرف قبل الولادة أنها بنت . وقال عمر رضى الله عنه في أثناء خطبته : يا سارية الجبل الجبل ! إذ انكشف له أن العدو قد أشرف عليه لحذره لمعرفته ذلك ، ثم بلغ صوته إليه من جملة الكرامات العظيمة وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : دخلت على عثمان رضى الله عنه وكنت قد لقيت امرأة في طريق فظنرت إليها شذرا وتأملت عاسيا فقال عثمان رضى الله عنه لما دخلت : يدخل على أحدكم وأثر الزنا ظاهر على عينيه أما علمت أن زنا العينين الذل ؟ لتتوبن أو لأعزرنك فقلت : أوحى به اليّ ؟ فقال : لا ، ولكن بصيرة وبرهان وفراسة صادقة . وعن أبي سعيد الخراساني قال : دخلت المسجد الحرام فرأيت فقيرا عليه خرقتان ، فقلت في نفسي : هذا وشباهه كل على الناس ، فناداني وقال ( وإياه يعلم ما في أنفسكم فأحذروه ) فاستغفرت الله في سرى فناداني وقال ( وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ) ثم غاب عني ولم أره .

وقال زكريا بن حارث : دخل أبو العباس بن مسروق على أبي الفضل الهاشمي - وهو طليل وكان ذاهبا ولم يعرف له سبب يعيش به - قال : فلما قمت قلت في نفسي من أين يأكل هذا الرجل ؟ قال : فصاح بي يا أبا العباس رد هذه المهمة الدينية فإن لله ثمانى ألقافا خفية . وقال أحمد التقيي . دخلت على الشبل فقال مفتونا : يا أحمد فقلت : ما الخبر ؟ قال : كنت جالسا لجرى بخاطرى أنك بخيل ، فقلت : ما أنا بخيل ، فعاذني خاطري وقال : بل أنت بخيل ، فقلت : ما فتح اليوم على بشي إلا دفعته إلى أول فقير يلقياني ، قال : فما استتم الخاطر حتى دخل على صاحب لموس الخادم ومعه خسون دينار فقال : اجعلها في مصالحك ، قال : وقت فأخذتها وخرجت وإذا بفقير مكفوف بين يدي من يملأ رأسه فتقدمت إليه وناولته الدنانير ، فقال : أصلها للزينة ، فقلت : إن جعلتها لكذا وكذا ، قال : أوليس قد قلنا لك إنك بخيل ؟ قال : فناولتها الزين فقال للزينة : قد عقدنا لما جلس هذا الفقير بين أيدينا أن لا نأخذ عليه أجرا ، قال : فرميت بها في دجلة وقلت : ما أعزك أحد إلا أذهله عر وجل . وقال حرة بن عبد الله العلوي : دخلت على أبي الخير الثيناني واعتقدت في نفسي أن أسلم عليه ولا آكل في داره طعاما ، فلما خرجت من عنده إذا به قد لحقني وقد حمل طبقا فيه طعام وقال : يا بني كل فقد خرجت الساعة من اعتقادك ، وكان أبو الخير الثيناني هذا مشهورا بالكرامات وقال إبراهيم الرقي : قصده مسلما عليه فحضرت صلاة المغرب فلم يكذب يقرأ الفاتحة مستويا فقلت في نفسي : ضاعت سفرتي أفلا سلم خرجت إلى الطهارة فقصدي سبع فعدت إلى أبي الخير وقلت : قصدي سبع ، فخرج وصاح به وقال : ألم أقل لك لا تعرض لضيفاني ؟ فتتبعني الأسد فتطهرت فلما رجعت قال لي : اشتغلتم بتقويم الظاهر تغفتم الأسد ، واشتغلنا بتقويم البواطن غلطنا الأسد .

وما حكى من تفرس المشايخ وإخبارهم عن اعتقادات الناس وخبراتهم يخرج عن المحصر بل ما حكى منهم من مشاهدة الحضر عليه السلام والسؤال منه ، ومن سماع صوت الماتم ، ومن قرون الكرامات خارج من المحصر والحكاية لا تتمع المجاهد مالم يشاهد ذلك من نفسه ، ومن أنكر الأصل أنكر التفاصيل والدليل القاطع الذي لا يقدر أحد على جرده أمران أحدهما : بجانب الرؤيا المباشرة فإنه ينكشف بها الغيب وإذا جاز ذلك في النوم فلا يستحيل أيضا في اليقظة فلم يفارق التزم اليقظة إلا في ركود الحواس وعدم اشتغالها بالمحسوسات فكمن من يستيقظ غافس لا يسمع ولا يبصر لا اشتغاله بنفسه ! والثاني : إخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيب وأمر في المستقبل كما اشتمل عليه القرآن وإذا جاز ذلك النبي صلى الله عليه وسلم جاز لنبيه إذ اتفقت عبارة عن شخص كوشف بمفاتيح الأمور وشغل في إصلاح الخلق فلا يستحيل أن يكون في الوجود شخص مكاشف بالحقائق ولا يشتغل بإصلاح الخلق ، وهذا ( - لبيان علوم الدين - ٢ )

لا يسمى نبيا بل يسمى وليا ، فمن آمن بالأنبياء وصدق بالرؤيا الصحيحة لزمه لاعادة أن يقر بأن القلب له بابان : باب إلى خارج وهو الحواس ، وباب إلى الملكوت من داخل القلب وهو باب الإلهام والتفت في الروح والوحى ، فلماذا أفرهما جميعا لم يمكنه أن يحصر العلوم في التعلم ومباشرة الأسباب المألوفة ، بل يجوز أن تكون المجاهدة سبيلا إليه فهذا مايقع على حقيقة ما ذكرناه من عجيب تردد القلب بين عالم الشهادة وعالم الملكوت ، وأما السبب في انكشاف الأمر في المنام بالمثال المحجج إلى التعبير وكذلك تمثل الملائكة للأنبياء والأولياء بصور مختلفة فذلك أيضا من أسرار عجائب القلب ، ولا يليق ذلك إلا بعلم المكاشفة فلنقتصر على ما ذكرناه فإنه كاف للاستبaths على المجاهدة وطلب الكشف منها ، فقد قال بعض المكاشفين ظهر لي الملك فسألني أملي عليه شيئا من ذكرى الخلق عن مشاهدتي من التوحيد وقال : ما كتب لك عملا ونحن نحب أن نصعد لك بعمل تقرب به إلى الله عز وجل فقلت : ألسنا كتبناك القرآن ؟ قال : بلى ، قلت : فيكفيك ذلك . وهذه إشارة إلى أن الكرام الكائنين لا يطلعون على أسرار القلب وإنما يطلعون على الأعمال الظاهرة . وقال بعض العارفين : سألت بعض الأبدال عن مسألة من مشاهدة اليقين فالتفت إلى شأله فقال : ما قول رحمة الله ؟ ثم التفت إلى عيني فقال : ما تقول رحمة الله ؟ ثم أطرقت إلى صدره وقال : ما تقول رحمة الله ؟ ثم أجاب بأغرب جواب سمعته فسألته عن التفاته فقال : لم يكن عندي في المسألة جواب عتيق ، فسأل صاحب الشيال فقال لا أدري ، فسأل صاحب التبيين وهو أعلم منه فقال لا أدري ، فظفرت إلى قلبي وسألته لخداني بما أجبته فإذا هو أعلم منهما . وكان هذا هو معنى قوله عليه السلام : إن في أمي محد أمين وإن عمر منهم . وفي الآخر : إن الله تعالى يقول : أيما عبد اطلمت على قلبه فرأيت الغالب عليه الفسك بذلكى قوليت سياسته وكنت جليسه وعماذه وأنيسه . وقال أبو سليمان الناداني رحمة الله عليه : القلب بمنزلة القبة المضروبة حولها أبواب مغلقة فأبى فتح له عمل فيه ؟ فقد ظهر انفتاح باب من أبواب القلب إلى جهة الملكوت والملا الأعلى ، وينفتح ذلك الباب بالمجاهدة والورع والإعراض عن شهوات الدنيا . ولذلك كتب عمر رضى الله عنه إلى أمراء الأجناد : احفظوا ما تسمعون من المطيعين فإنهم ينجلي لهم أمور صادقة . وقال بعض العلماء : يد الله على أفواه الحكما لا يطقون إلا بما هيا الله لهم من الحق . وقال آخر : لو شئت لقلت إن الله تعالى يطلع الخاشعين على بعض سره .

### بيان تسلط الشيطان على القلب بالوساوس ومعنى الوسوسة وسبب غلبتها

اعلم أن القلب كما ذكرناه مثال قبة مضروبة لها أبواب تنصب إليه الأحوال من كل باب ، ومثاله أيضا مثال هدف تنصب إليه السهام من الجوانب ، أو هو مثال امرأة منصوبة تحتماز عليها أصناف الصور المختلفة فتراعى فيها صورة بعد صورة ولا تغفل عنها ، أو مثال حوض تنصب فيه مياه مختلفة من أنهار مفتوحة إليه . وإنما مداخل هذه الأمثال المتجدة في القلب في كل حال ؛ أما من الظاهر فالحواس الخمس ، وأما من الباطن فالخيال والشهوة والغضب والأخلاق المركبة من مزاج الإنسان ؛ فإنه إذا أدرك بالحواس شيئا حصل منه أثر في القلب ، وكذلك إذا حاجت العبرة مثلا بسبب كثرة الأكل وبسبب قوة في الزواج حصل منها في القلب أثر وإن كفه عن الإحساس فالخيالات الخاصة في النفس تبقى وينقل الخيال من شيء إلى شيء ، وبسبب انتقال الخيال ينتقل القلب من حال إلى حال آخر . وللقصود أن القلب في التغير والتأثر دائما من هذه الأسباب . وأخص الآثار الخاصة في القلب هو الحواطر ؛ وأغنى الحواطر ما يحصل فيه من الأفكار ، والأذكار ، وأغنى به إدراكه علوما إما على سبيل التجرد وإما على سبيل التذكر فلها تسمى خواطر من حيث إنها تنظر بعد أن كان القلب غافلا عنها . والحواطر هي المحركات للإرادات

فإن النية والعزم والإرادة إنما تكون بعد خطور المتوى بالبال لاحتالة ، فبدأ الاتصال بالحواس ، ثم الحواس يحرك الرغبة ، والرغبة تحرك العزم ، والعزم يحرك النية ، والنية تحرك الأعضاء . والحواس المحركة للرغبة تنقسم إلى ما يدعو إلى الشر أعني إلى ما يضر في العافية ، وإلى ما يدعو إلى الخير أعني إلى ما ينفع في الدار الآخرة . فهما خاطران مختلفان فافتقرا إلى اسمين مختلفين ، فالخاطر المحمود يسمى إلهاما ، والخطر المذموم أعني الداعي إلى الشر يسمى وسواسا ، ثم إنك تعلم أن هذه الحواس حادثة ، ثم إن كل حادث فلا بد له من محدث . ومهما اختلفت الحوادث دل ذلك على اختلاف الأسباب هذا ما عرف من سنة الله تعالى في ترتيب السبلات على الأسباب . فهما استقارت حيطان البيت بنور النار وأظلم سقفه وأود بالدهان علت أن سبب السواد غير سبب الاستقارة .

وكذلك لأنوار القلب وظلمته سيان مختلفان : فسبب الخطر الداعي إلى الخير يسمى ملكا ، وسبب الخطر الداعي إلى الشر يسمى شيطانا ، والقلب الذي يتبها به القلب لقبول إلهام الخير يسمى توفيقا ، والذي به يتبها لقبول وسواس الشيطان يسمى إغواء وخذلانا ، فإن المعاني المختلفة تقتصر إلى أسامي مختلفة والملك عبارة عن خلق خلقه الله تعالى شأنه إفاضة الخير وإفاضة العلم وكشف الحق والوعد بالخير والأمر بالمعروف ، وقد خلقه وسخره لذلك والشيطان عبارة عن خلق شأنه ضد ذلك وهو الوعد بالشر والأمر بالفحشاء ، والتخويف ضد إلهام الخير بالفقر . فالوسوسة في مقابلة الإلهام ، والشيطان في مقابلة الملك ، والتوفيق في مقابلة الخذلان . وإليه الإشارة بقوله تعالى ( ومن كل شيء خلقنا زوجين ) فإن الموجودات كلها متقابلة مزدوجة إلا الله تعالى فإنه فرد لا مقابل له بل هو الواحد الحق الخالق للأزواج كلها . فالقلب متجاذب بين الشيطان والملك . وقد قال صلى الله عليه وسلم « في القلب لثان لثان من الملك إيهام بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله سبحانه وليحمد الله ، وله من العدة إيهام بالشر وتكذيب بالحق ونهى عن الخير فمن وجد ذلك فليستد بالله من الشيطان الرجيم » ثم قال قوله تعالى ( الشيطان يمدك الفقر ويأمرك بالفحشاء ) (١) الآية . وقال الحسن ( إنما هما هسان يجولان في القلب هم من الله تعالى وهم من العدة ، فرحم الله عبدا وقف عنده فأكان من الله تعالى أمضاء وما كان من عدوه جاعده .

ولتجاذب القلب بين هذين السلطين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » (٢) ، فانه يتعالى عن أن يكون له أصبع مركبة من لحم ودم وعصب منقسمة بالأنامل ولكن روح الإصبع سرعة التقلب والقدرة على التحريك والتغيير ، فإني لا تريد أصبعك لشخصه بل لفعله في التقلب والترديد كما أنك تتماهى بالأفعال بأصابعك . والله تعالى يفعل ما يفعل باستخار الملك والشيطان وهما مسخران بقدرته في قلب القلوب ، كما أن أصابعك مسخرة لك في قلب الأجسام مثلا . والقلب بأصل الفطرة صالح لقبول آثار الملك لقبول آثار الشيطان صلاحا مقسويا ليس يرجع أحدهما على الآخر ، وإنما يرجع أحد الجانبين باتباع الهوى والإكباب على الشهوات أو الإعراض عنها وغالفتها ، فإن اتبع الإنسان مقتضى الغضب والشهوة ظهر تسلط الشيطان بواسطة الهوى وصار القلب عس الشيطان ومعدنه لأن الهوى هو مرعى الشيطان ومرتمه ، وإن جاهد الشهوات ولم يسلطها على نفسه وتبها بأخلاق الملائكة عليهم السلام صار قلبه مستقر للملائكة ومهيأ لهم ولما كان لا يخلو قلب عن شهوة وغضب وحرص وطمع ونزول أمل إلى غير ذلك من صفات البشرية للفتنة عن الهوى لا جرم لم يخل قلب عن أن يكون للشيطان فيه جولان بالوسوسة . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « ما منكم

(١) حديث « في القلب لثان لثان من الملك إيهام بالخير » أخرجه الترمذي وحسنه والنسائي في السكري من حديث ابن مسعود (٢) حديث « قلب المؤمن بين أصبعين » أخرجه المحدث « تقدم

من أحد إلا وله شيطان ، قالوا وأنت يا رسول الله ؟ قال : وأنا إلا أن الله أعاني عليه فأسلم فلا يأمر إلا بخير<sup>(١)</sup> . وإنما كان هذا لأن الشيطان لا يتصرف إلا بواسطة الشهوة فمن أغاثه الله على شهوته حتى صارت لا تبسط إلا حيث ينبغي وإلى الحد الذي يبغي ففهو لا تدعو إلى الشر فالشيطان المتدفع بها لا يأمر إلا بالخير . ومهما غلب على القلب ذكر الدنيا بمقتضيات الهوى وجد الشيطان مجالاً فوسوس : ومهما انصرف القلب إلى ذكر الله تعالى ارتحل الشيطان وضاق مجاله وأقبل الملك والمهم . والتناظر بين جندى للملكة والشياطين في معركة القلب دائم إلى أن يفتح القلب لأحدهما فيستوطن ويستمكن ، ويكون اجتياز الثاني اختلاسا . وأكثر القلوب قد فتحتها جنود الشياطين وتملكتها فامتلات بالوساوس الفداعية إلى إثارة المأجلة وإطراح الآخرة . ومبدأ استيلائها اتباع الشهوات والهوى . ولا يمكن فتحها بعد ذلك إلا بتخليّة القلب عن قوت الشيطان وهو الهوى والشهوات وممارسته بذكر الله تعالى الذي هو مطرح أثر الملكة . وقال جابر بن عبيدة المدوني : شكوت إلى العلاء بن زياد ما أجد في صدري من الوسوسة فقال : إنما مثل ذلك مثل البيت الذي يمر به اللصوص فإن كان فيه شيء عالجوه وإلا مضوا وتركوه . يعني أن القلب الخالي من الهوى لا يدخله الشيطان . ولذلك قال الله تعالى ( إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ) فكل من اتبع الهوى فهو عبد الهوى لا عبد الله ولذلك سلط الله عليه الشيطان . وقال تعالى ( أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ) وهو إشارة إلى أن من الهوى إلهه ومعبوده فهو عبد الهوى لا عبد الله . ولذلك قال عمرو ابن العاص الجبلي صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله حال الشيطان بيني وبين صلاتي وقرآني فقال : ذلك شيطان يقال له خنزب فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه واتمهل على يسارك ثلاثا ، قال : ففعلت ذلك فأذهب الله عني<sup>(٢)</sup> .

وفي الخبر : إن الهوى شيطان يقال له الوهمان فاستعينوا بالله منه<sup>(٣)</sup> ، ولا يحوي وسوسة الشيطان من القلب إلا ذكر ماسوى ما يوسوس به ، لأنه إذا خطر في القلب ذكر شيء النعم منه ما كان فيه من قبل ، ولكن كل شيء سوى الله تعالى وسوى ما يتعلق به فيجزأ أيضا أن يكون مجالاً للشيطان ، وذكر الله هو الذي يؤمن جانبه ويعلم أنه ليس للشيطان فيه مجال . ولا يماح الشيء إلا بضده وضد جميع وساوس الشيطان ذكر الله بالاستعاذة والتبري عن المحل والقوة ، وهو معنى قولك : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . وذلك لا يقدر عليه إلا المتقرب الطالب عليهم ذكر الله تعالى ، وإنما الشيطان يطوف عليهم في أوقات الفتات على سبيل الخلسة . قال الله تعالى ( إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ) وقال مجاهد في معنى قول الله تعالى ( من شر الوسواس الخناس ) قال : هو منبسط على القلب ؛ فإذا ذكر الله تعالى خنس وانقبض ، وإذا غفل انبسط على قلبه . فالتناظر بين ذكر الله تعالى ووسوسة الشيطان كالتناظر بين النور والظلام وبين الليل والنهار ، ولتضادها قال الله تعالى ( استحوذ عليهم الشيطان فأنسām ذكر الله ) وقال أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الشيطان وأصح غرطه على قلب ابن آدم فإن هو ذكر الله تعالى خنس وإن نسي الله تعالى التمس قلبه<sup>(٤)</sup> . وقال ابن وضاح في حديث ذكره : إذا بلغ الرجل أربعين سنة ولم يتب لم يبق مسح الشيطان وجهه بيده

(١) حديث : ما تمسك من أحد إلا وله شيطان ... الحديث . أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود .

(٢) حديث ابن أبي العباس : إن الشيطان حال بيني وبين صلاتي ... الحديث . أخرجه مسلم من حديث ابن أبي العاص .

(٣) حديث : إن الهوى شيطان يقال له الوهمان ... الحديث . أخرجه ابن ماجه والترمذي من حديث أبي بن كعب وقال خريب وليس استنده بالقرى عند أهل الحديث ... (٤) حديث أنس : أن الشيطان وضاح غرطه على قلب ابن آدم ... الحديث . أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب مكابد الشيطان وأبو يعلى الواسطي وابن عدي في الكامل ونسفه .

وقال : بأبي وجهه من لا يفلح <sup>(١)</sup> .

وكما أن الشهوات بمنزلة بلسم ابن آدم ودمه فسلطنة الشيطان أيضا سارية في لحمه ودمه ومحيطه بالقلب من جوانبه ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم فضيّقوا مجاريه بالجوع <sup>(٢)</sup> . وذلك لأن الجوع يكسر الشهوة ويجري الشيطان الشهوات . ولأجل اكتناف الشهوات للقلب من جوانبه قال الله تعالى إخبارا عن إبليس ( لا تجدن لهم صراطك المستقيم ثم لا يفتهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن إيمانهم وعن شمالهم ) وقال صلى الله عليه وسلم : إن الشيطان قد لا ينطق بقرآن فقل له بطريق الإسلام فقال : أتسلم وتترك دينك ودين آبائك ؟ فقصاه وأسلم ، ثم قعد له بطريق الهجرة فقال : أتهاجر أتدع أرضك وسمائك ؟ فقصاه وهاجر ، ثم قعد له بطريق الجهاد فقال : أتجاهد وهو تلف النفس والمال فتقاتل فقتل فتتكدح نساؤك ويقسم مالك ، فقصاه وجاهد <sup>(٣)</sup> ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فن فعل ذلك فأت كان حقا على الله أن يدخله الجنة . فذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم معنى الوسوسة وهي هذه الخواطر التي تخطر للجهاد أنه يقتل وتكسح نساؤه وغير ذلك مما يصرفه عن الجهاد وهذه الخواطر معلومة . فلذا الوسواس معلوم بالمشاهدة وكل خاطر فله سبب ويفترق إلى اسم يعرفه فاسم سببه الشيطان ولا يتصور أن يفعله عنه آدمي وإنما يحتفنون بصبيانه ومتابته ، ولذلك قال عليه السلام : ما من أحد إلا وله شيطان <sup>(٤)</sup> .

فقد اتضح بهذا التمعن من الاستبصار معنى الوسوسة والإلهام والمالك والشيطان والتوفيق والخذلان فبعد هذا نظر من ينظر في ذات الشيطان أنه جسم لطيف وأوليس بجسم . وإن كان جسما فكيف يدخل بدن الإنسان ما هو جسم ؟ فهذا الآن غير محتاج إليه في علم المعاملة . بل مثال الباحث عن هذا مثال من دخلت في نياحه حية وهو محتاج إلى إزالتها ودفع ضررها فاشتغل بالبحث عن لونها وشكلها وطولها وعرضها وذلك عين الجهل فصادمة الخواطر الباعثة على الشر قد حلت ودل ذلك على أنه عن سبب لاحالة ، وعلم أن الداعي إلى الشر الخادع في المستقبل عدو فقد عرف العدو لاحالة فينبغي أن يشتغل بمجاهدته وقد عرف الله سبحانه عدوته في مواضع كثيرة من كتابه ليؤمن به ويحترز عنه فقال تعالى ( إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ) وقال تعالى ( ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تدبوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ) فينبغي للعبدة أن يشتغل بدفع العدو عن نفسه لا بالسؤال عن أصله ونسبه ومسكنه . نعم ينبغي أن يسأل عن سلاحه ليفدحه عن نفسه وسلاح الشيطان الحوى والشهوات وذلك كاف للمؤمن . فأما معرفة ذاته وصفاته وحقيقته - فهوذ باقه منه - وحقيقة الملائكة فذلك ميدان المارفين المتغفلين في علوم المكاشفات فلا يحتاج في علم المعاملة إلى معرفته . نعم ينبغي أن يعلم أن الخواطر تنقسم إلى ما يلزم قطعاً أنه دافع إلى الشر فلا ينبغي كونه وسوسة ، وإلى ما يلزم أنه داع إلى الخير فلا يملك له كونه إلهاماً ، وإلى ما يتردد فيه فلا يدري أنه من لمة الملك أو من لمة الشيطان ؟ فإن من مكاييد الشيطان أن يمرض الشرقي معرض الخير ، والتغيير في ذلك غامض وأكثر العباد به يهلكون ، فإن الشيطان لا يقدر على دعائهم إلى الشر الصريح فيصور الشر بصورة الخير ، كما يقول العالم بطريق الوضوح : أما تنتظر إلى الخلق وهم موتى من الجهل هلكت من النعمة قد أشرفوا على النار ؟

(١) حديث ابن وضاح : إذا بلغ الرجل أربعين سنة ولم يقب مسح الشيطان بوجهه وقال : بأبي وجهه من لا يفلح ، لم أجده له أصلاً . (٢) حديث : أن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم . هدم . (٣) حديث : أن الشيطان قد لا ينطق بقرآن فقل له بطريق الإسلام . الحديث . أخرجه النسائي من حديث سيرة بن أبي فاكه بإسناد صحيح . (٤) حديث : ما من أحد إلا له شيطان . الحديث . هدم .

أما لك راحة على عباد الله تتقدم من المعاطب بتصحك وعظمتك وقد أنعم الله عليك قلب يصير لسان ذلق ولهجة مقبولة ؟ فكيف تكفر لعمدة الله تعالى وتعرض لسلطه وتسكت عن إشاعة العلم ودعوة الحق إلى الصراط المستقيم ؟ وهو لا يزال يقتر ذلك في نفسه ويستجزمه بلطف الحيل إلى أن يشتغل وعظ الناس ، ثم يدعو بعد ذلك إلى أن يتزين لهم ويتصنع بتحسين اللفظ وإظهار الخير ويقول له : إن لم تفعل ذلك أسقط وقع كلامك من قلوبهم ولم يبتدأ إلى الحق . ولا يزال يقتر ذلك عنده وهو في أثنائه يؤكد فيه شواهب الرياء وقبول الحق ولذة الجاه والتمزز بكثرة الاتباع والتم والتم نظر إلى الحق بعين الاحتقار فيستدرج المسكين بالنصح إلى الهلاك ؛ فيستكمل وهو يظن أن قصده الخير وإنما قصده الجاه والقبول ، فهناك بسية وهو يظن أنه عند الله بمكان وهو من الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، « إن الله يؤيد هذا الدين يقوم لاختلاق لهم » . . . وإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر (١) ، ولذلك روى أن إبليس لعنه الله تمثل لعيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم فقال له : قل لا إله إلا الله . فقال : كلمة حق ولا أقولها بقرتك . لأن له أيضا تحت الخير تليسات ، وتليسات الشيطان من هذا الجنس لا تنهاه وبها يهلك العلماء والعباد والزهاد والفقراء والأغنياء وأصناف الحق ينكرون ظاهر الشر ولا يرضون لأنفسهم الخوض في المعاصي المكشوفة .

وسنذكر جملة من مكاييد الشيطان في كتاب الضرر في آخر هذا الربع . ولعلنا إن أمهل الزمان صنفنا فيه كتابا على الخصوص تسميه ( تليسات إبليس ) فإنه قد انتشر الآن تليسه في البلاد والعباد لاسيما في المذاهب والاعتقادات ، حتى إن بق من الخبرات إلا رسمها . كل ذلك إذعانا لتليسات الشيطان ومكايده .

نحن على العهد أن يقف عند كل من يحظر له ليعلم أنه من لمة الملك أو لمة الشيطان وأن يعم النظر فيه بعين البصيرة لا بهوى من الطبع ، ولا يطلع عليه إلا بنور التقوى والبصيرة وغزارة العلم كما قال تعالى ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسم طائف من الشيطان تذكروا ﴾ أي رجعوا إلى نور العلم ﴿ فإذا هم مبصرون ﴾ أي ينكشف لهم الإشكال فأما من لم يرض نفسه بالتقوى فيميل طبعه إلى الإذعان بتليسه بمتابعة الهوى فيكثر فيه غلظه ويتميل فيه هلاكه وهو لا يشعر . وفي مثلهم قال سبحانه وتعالى ﴿ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴾ قيل هي أعمال ضنوها حسنت فإذا هي سيئات . وأغض أنواع علوم المعاملة الوقوف على خدع النفس ومكاييد الشيطان وذلك فرض عين على كل عبد . وقد أمهله الحق واشتغلوا بعلوم تستجر إليهم الوسواس وتسلط عليهم الشيطان وتفسهم عداوته وطريق الاحتراز عنه . ولا ينجي من كثرة الوسواس إلا سد أبواب الخواطر . وأبوابها الحواس الخمس ، وأبوابها من داخل الثمرات وعلاق الدنيا . والخلوة في بيت مظلم تسد باب الحواس . والتجرد عن الأهل والمال يقلل مداخل الوسواس من الباطن ويبقى مع ذلك مداخل باطنة في التخييلات الجارية في القلب وذلك لا يدفع إلا بشغل القلب بذكر الله تعالى . ثم إنه لا يزال يجاذب القلب ويتنازعه ويلبسه عن ذكر الله تعالى فلا يثبت بمجاهدته ، وهذه مجاهدة لا آخر لها إلا الموت إذ لا يتخلص أحد من الشيطان مادام حيا . نعم قد يقوى بحيث لا يتقاده ويدفع عن نفسه شره بالمجاهد ، ولكن لا يستغنى قط عن الجهاد والمداومة مادام الدم يجري في دته . فإذا مادام حيا فأبواب الشيطان مفتوحة إلى قلبه لا تنلق وهي للشهوة والغضب والحسد والطمع والشر وغيرها . كاسيا في شرها . ومهما كان الباب مفتوحا والمدور غير غافل لم يدفعه إلا بالحراسة والمجاهدة .

(١) حديث « إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم » أخرجه النسائي من حديث أس بن سنان جيد . (٢) حديث « إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » متفق عليه من حديث أبي هريرة والله أعلم في العلم .

قال رجل للحسن يا أبا سعيد أتيام الشيطان؟ فتبسم وقال: لو نام لاسترحنا. فإذا نال خلاص للمؤمن منه. نعم له سبيل إلى دفعه وتضعيف قوته. قال صلى الله عليه وسلم: إن المؤمن ينضى شيطانه كما ينضى أحدكم بيوه في سفره<sup>(١)</sup>، وقال ابن مسعود شيطان المؤمن مهزول. وقال قيس بن الحجاج: قال لي شيطان، دخلت فيك وأنا مشل الجور وأنا الآن مثل المصفور، قلت: ولم ذاك؟ قال: تذبذبى بذكر الله تعالى. فأهل التقوى لا يتعدر عليهم سذ أبواب الشيطان وحفظها بالحراسة، أعنى الأبواب الظاهرة والطرق الجلية التي تنفض إلى المصاعى الظاهرة، وإنما يشتمرون في طرقه النامضة فإنهم لا يبتدون إليها فيحسرونها كما أشرنا إليه في غرور العلماء والوعاظ والمكشكين أن الأبواب المفتوحة إلى القلب للشيطان كثيرة وباب الملائكة باب واحد، وقد التمس ذلك الباب الواو احسبهذه الأبواب الكثيرة فالعبد فيها كالمسافر الذي يبقى في بادية كثيرة الطرق غامضة المسالك في ليلة مظلمة فلا يكاد يعلم الطريق إلا بعين بصيرة وطولع شمس مشرقة. والذين البصرة ههنا هي القلب المصنق بالتقوى. والشمس المشرقة هو العلم النير المستفاد من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم مما يهتدى إلى غوامض طرقه، وإلا فطرقه كثيرة وغامضة. قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه: خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً خطاً وقال: هذا سبيل الله، ثم خط خطوطاً عن يمين الخط وعن شماله ثم قال: هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه، ثم تلا: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ تلك الخطوط<sup>(٢)</sup> فينبى صلى الله عليه وسلم كثيرة طرقه.

وقد ذكرنا مثالا للطريق النامض من طرقه وهو الذى يتخذه به العلماء والعباد المسالكين لشهواتهم الكافين عن المصاعى الظاهرة، فلنذكر مثالا لطريقه الواضح الذى لا يتخفى إلا أن يضطر الآدى إلى سلوكه. وذلك كما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: كان راهب في بني إسرائيل فعمد الشيطان إلى جارية فختفها وألقى في قلوب أهلها أن دراهما عند الراهب، فأقوا بها إليه فأبى أن يقبلها فلم يرالها به حتى قبلها، فلما كانت عنده ليماجلها أتاه الشيطان فزين له مقاربتها ولم يزل به حتى وأقها فحملت منه، فوسوس إليه وقال: الآن تنفتحن بأنيك أهلها فاقبلها فإن سألوك فقل ماتت، فقبلها ودفعها، فألقى الشيطان أهلها فوسوس إليهم وألقى في قلوبهم أنه أحبلها ثم قتلها ودفعها، فأتاه أهلها فسألوه عنها فقال: ماتت، فأخذوه ليقتلوه بها فأتاه الشيطان فقال: أنا الذى ختفها وأنا الذى ألتقيت في قلوب أهلها فأطعنن تنج وأخلصك منهم قال: بماذا؟ قال: اجد لي مجدين؛ فسجد له مجدين فقال له الشيطان: إلى برى منك. فهو الذى قال الله تعالى فيه ﴿كشَل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني برى منك﴾<sup>(٣)</sup> فانظر الآن إلى حيله واضطراره الراهب إلى هذه الكبائر، وكل ذلك لطاعة له في قبول الجارية للمعالجة وهو أمر هين وربما يظن صاحبه أنه خير وحسن فيحسن ذلك في قلبه بنفى الهوى فيقدم عليه كالراغب في الخبر فيخرج الأمر بعد ذلك من اختياره ويجزئه البعض إلى البعض بحيث لا يجد محيصاً فتموذاقه من تفصيح أوائل الأمور وإلى الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم «من حام حول الحى يوشك أن يقع فيه»<sup>(٤)</sup>.

(١) حديث «إن المؤمن ينضى شيطانه... الحديث» أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة وفيه ابن أبيه.

(٢) حديث ابن مسعود: خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطاً فقال: «هذا سبيل الله... الحديث». أخرجه الترمذي في المعبرى والمآثم وقال صحيح الإسناد. (٣) حديث «كان راهب في بني إسرائيل فأخذ الشيطان جارية فختفها وألقى في قلوب أهلها أن دراهما عند الراهب... الحديث» بطوله في قوله تعالى ﴿كشَل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر﴾ رومان ابن الدنيا في مكابدة الشيطان وابن مرقوه في تفسيره في حديث عبيد بن أبي رفاعة مرسلوا لالحاكم نحوه موقوف على علي بن أبي طالب وقال صحيح الإسناد وروى بطين في مسنده من حديث علي. (٤) حديث «من حام حول الحى يوشك أن يقع فيه» متفق عليه من حديث النعمان ابن بشير «من برع حول الحى يوشك أن يواقه» لفظ البخارى.

## بيان تفصيل مداخل الشيطان إلى القلب

اعلم أنَّ مثال القلب مثال حصن والشيطان عدو يريد أن يدخل الحصن فيملكه ويستولى عليه ، ولا يقدر على حفظ الحصن من العدو إلا بمجرسة أبواب الحصن ومداخله ومواضع ثلته ، ولا يقدر على حراسة أبوابه من لا يدري أبوابه ، لحاية القلب عن وسواس الشيطان واجبة وهو فرض عين على كل عبد مكلف ، وما لا يتوصل إلى الواجب إلا به فهو أيضا واجب ، ولا يتوصل إلى دفع الشيطان إلا بمعرفة مداخله فصار معرفة مداخله واجبة. ومداخل الشيطان وأبوابه صفات العبد وهي كثيرة ، ولكننا نشير إلى الأبواب العظيمة الجارية بحرى الدروب التي لا تضيق عن كثرة جنود الشيطان .

فن أبوابه العظيمة : الغضب والشهوة ؛ فإنَّ الغضب هو غول العقل وإذا ضعف جند العقل بهم جند الشيطان . ومهما غضب الإنسان لعب الشيطان به كما يلعب الصبي بالكرة : فقد روى أن موسى عليه السلام لقيه إبليس فقال له : يا موسى أنت الذى اصطفاك الله برسائه وكذلك تكلميا وأنا خلق من خلق الله أذنبت وأريد أن أتوب فاشفع لى إلى ربى أن يتوب على ، فقال موسى : نعم ؛ فلما صعد موسى الجبل وكلم ربه عز وجل وأراد النزول قال له ربه : أذ الأمانة ، فقال موسى : يارب عبدك إبليس يريد أن يتوب عليه ، فأوحى الله تعالى إلى موسى : يا موسى قد قضيت حاجتك مره أن يسجد لقبر آدم حتى يتاب عليه ، فلقى موسى إبليس فقال له : قد قضيت حاجتك امرت أن تسجد لقبر آدم حتى يتاب عليك ، فغضب واستكبر وقال : لم أجد له حيا أجد له ميتا ؟ ثم قال له : يا موسى إن لك على حقا بما شمتنى إلى ربك فأذكرنى عند ثلاث لا أملكك فهن : اذكرنى حين تغضب فإن روحى فى قلبك وعينى فى عينك وأجرى منك جرى الدم ؛ اذكرنى إذا غضبت فإنه إذا غضب الإنسان نفخت فى أنفه لما يدري ما يصنع ، وأذكرنى حين تلقى الزحف فإنى أتى ابن آدم حين يلقى الزحف فأذكره زوجته وولده وأمه حتى يولى ؛ وإياك أن تجلس إلى امرأة ليست بذات محرم فإنى رسولها إليك ورسولك إليها فلا أزال حتى أفتنك بها وأفتنها بك . فقد أشار بهذا إلى الشهوة والغضب والحرص فإن الفرار من الزحف حرص على الدنيا ، وامتناعه من السجود لآدم ميتا هو الحسد وهو أعظم مداخله . وقد ذكر أن بعض الأولياء قال لإبليس : أرنى كيف تغلب ابن آدم ؟ فقال : أخذه عند الغضب وعند الهوى ، فقد حكى أن إبليس ظهر لراهب فقال له الراهب : أى أخلاق بنى آدم أعون لك ؟ قال : الحدة فإن العبد إذا كان حديدا قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة : وقيل : إن الشيطان يقول كيف يغلب ابن آدم وإذا رضى جئت حتى أكون فى قلبه وإذا غضب طرقت حتى أكون فى رأسه ؟

ومن أبوابه العظيمة الحسد والحرص فهما كان العبد حريصا على كل شيء أعماه حرصه وأعمه إذ قال صلى الله عليه وسلم « حبه لله يعمى ويصم »<sup>(١)</sup> ، ونور البصيرة هو الذى يعرف مداخل الشيطان فإذا غطاه الحسد والحرص لم يصر لحيتته يجد الشيطان فرصة فيحسن عند الحريص كل ما يوصله إلى شهوته وإن كان منكرا وقاحشا . فقد روى أن نوحا عليه السلام لما ركب السفينة حمل فيها من كل زوجين اثنين كما أمره الله تعالى ، فرأى فى السفينة شيخا لم يعرفه فقال له نوح : ما أدخلك ؟ فقال : دخلت لأصيب قلوب أصحابك فتكون قلوبهم معى وأبدانهم معك ، فقال له نوح : أخرج منها يا عدو الله فإنه لعين ، فقال له إبليس : خمس أهلك بين الناس وسأحدثك منهن ثلاث ولا أحدثك بالثنتين ، فأوحى الله تعالى إلى نوح : أنه لا حاجة لك بالثلاث فليحدثك بالثنتين ، فقال له نوح :

(١) حديث « حبه لله يعمى ويصم » أخرجه أبو داود عن حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف .



ما الاثنان ؟ فقال : هما اللتان لا تكذباني هما اللتان لا تخلفاني هما أهلك الناس ؛ الحرس والحسد ، فبالحسد لعنت وجعلت شيطاناً رجياً ، وأما الحرس فإنه أيسع لآدم الجنة كلها إلا الشجرة فأصبت حاجتي منه بالحرس .

ومن أبوابه العظيمة : التشيع من الطعام وإن كان حلالاً صافياً ؛ فإن التشيع يقوى الشهوات والشهوات أسلحة الشيطان . فقد روى أن إبليس ظهر ليحيى بن زكريا عليهما السلام فرأى عليه معاليق من كل شيء فقال له : يا إبليس ما هذه المعاليق ؟ قال : هذه الشهوات التي أصابت بها ابن آدم فقال : فهل فيها من شيء ؟ قال : ربما شيعت فتقلناك عن الصلاة وعن الذكر ، قال : فهل غير ذلك ؟ قال : لا ، قال له على أن لا أملاً بطني من الطعام أبداً ، فقال له إبليس : والله على أن لا أنصح مسلماً أبداً . ويقال في كثرة الأكل ست خصال مذمومة ؛ أولها : أن يذهب خوف الله من قلبه . الثاني : أن يذهب رحمة الخلق من قلبه لأنه يظن أنهم كلهم شياع . والثالث : أنه يشغل عن الطاعة . والرابع : أنه إذا سمع كلام الحكمة لا يجده رقة والخامس : أنه إذا تكلم بالموظة والحكمة لا يقع في قلوب الناس . والسادس : أن يبيع فيه الأمراض .

ومن أبوابه : حب التزين من الأثاث والثياب والدار ، فإن الشيطان إذا رأى ذلك غالباً على قلب الإنسان باض فيه وفرخ ، فلا يزال يدعوهم إلى عمارة الدار وترتين سقفها وحيطاتها وترسيع أثنياتها ويدعوهم إلى التزين بالثياب والدواب ويستسخره فيها طول عمره ، وإذا أدقبه في ذلك فقد استغنى أن يعود إليه ثانية ، فإن بعض ذلك يجره إلى البعض فلا يزال يؤديه من شيء إلى شيء إلى أن يساق إليه أجله فيموت وهو في سبيل الشيطان وأتباع الهوى ويخشى من ذلك سوء العاقبة بالكفر نموذ بالله منه .

ومن أبوابه العظيمة : الطمع في الناس ؛ لأنه إذا غلب الطمع على القلب لم يزل الشيطان يحبب إليه التصنع والتزين لمن طمع فيه بأنواع الرياء والتبليس حتى المملوع فيه كأنه معبوده فلا يزال يتفكر في حيلة التودد والتعجب إليه ويدخل كل مدخل للوصول إلى ذلك . وأقل أحواله التناء عليه بمبائيس فيه والمداينة له برك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فقد روى صفوان بن سليم أن إبليس يمثل لعبد الله بن حنظلة فقال له : يا ابن حنظلة احفظ عني شيئاً أعليك به فقال : لا حاجة لي به . قال : انظر فإن كان خيراً أخذت وإن كان شراً رددت ، يا ابن حنظلة لا تسأل أحداً غير الله سؤال رغبة ؟ وانظر كيف تكون إذا غضبت ؟ فإن أملكك إذا غضبت .

ومن أبوابه العظيمة : العجلة وترك التثبت في الأمور ، وقال صلى الله عليه وسلم : « العجلة من الشيطان والثبات من الله تعالى »<sup>(١)</sup> ، وقال عز وجل ( خلق الإنسان من عجل ) وقال تعالى ( وكان الإنسان عجولاً ) وقال نبيه صلى الله عليه وسلم ( ولا تمجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه ) وهذا لأن الأعمال ينبغي أن تكون بعد البصيرة والمعرفة ، والبصيرة تحتاج إلى تأمل وتمهل ، والعجلة تمنع من ذلك ، وعندما الاستعجال يرتج الشيطان شره على الإنسان من حيث لا يدري . فقد روى أنه لما ولده عيسى بن مريم عليه السلام أتت الشياطين إبليس فقالوا : أصعبنا لصنام قد تكسرت رءوسنا فقال هذا حادث ، مكانكم ا فطار حتى أتى غافق الأرض فلم يجد شيئاً ، ثم وجد عيسى عليه السلام قد ولد وإذا للامكة حافين به ، فرجع إليهم فقال : إن نبياً قد ولد ليأرث ما حملت أثني قط ولا وضعت إلا وأنا حاضرهما إلا هذا ، فأبسوا من أن تعبد الأصنام بعد هذه الليلة ولكن اتروا بني آدم من قبل العجلة والخفة .

ومن أبوابه العظيمة : الدرام والنفائير وسائر أصناف الأموال من العروض واللحاح والمعار ؛ فإن كل ما يزيد

(١) حديث « العجلة من الشيطان والثبات من الله » أخرجه الترمذي من حديث سهل بن سعد بقفظ الأئمة وقال حسن .

(هـ — لحياه علوم الدين — ٣)

على قدر الثموت والحاجة فهو مستقر الشيطان ، فإن من معه قوته فهو فارغ القلب . فلو وجد مائة دينار مثلا على طريق اتبعت من قلبه شهوات تحتاج كل شهوة منها إلى مائة دينار أخرى فلا يكفيه ما وجد بل يحتاج إلى تسعة مائة أخرى ، وقد كان قبل وجود المائة مستغنيا ، فالآن لما وجد مائة ظن أنه صار بها غنيا وقد صار محتاجا إلى تسعة مائة ليشتري دارا يجمعها وليشتري جارية وليشتري أثاث البيت وليشتري الثياب الفاخرة ، وكل شيء من ذلك يستدعي شيئا آخر يليق به . وذلك لا آخر له فيقع في هاوية آخرها عرق بهنم فلا آخر لها سواء . قال ثابت البناني لما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إبليس لشياطينه : لقد حدث أمر فانظروا ما هو فانهلقوا حتى أعيوا ثم جاءوا وقالوا ما ندري ؟ قال : أنا آتيكم بالخبر فذهب ثم جاء وقال : قد بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم قال : لجمع يرسل شياطينه إلى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فينصرفون غائبين ويقولون : ما صعبنا قوما قط مثل هؤلاء نصيب منهم ثم يقومون إلى صلاتهم فيمضون ذلك ، فقال لهم إبليس : رويدا بهم عسى الله أن يفتح لهم الدنيا فنصيب منهم حاجتنا <sup>(١)</sup> . وروى أن عيسى عليه الصلاة والسلام توسد يوما حجرا فربه إبليس فقال : يا عيسى رغبت في الدنيا ؟ فأخذه عيسى صلى الله عليه وسلم فرى به من تحت رأسه وقال : هذا لك مع الدنيا وعلى الحقيقة من يملك حجرا يتوسد به عند التوم فقد ملك من الدنيا ما يمكن أن يكون عدة للشيطان عليه . فإن القائم بالليل مثلا للصلاة ما كان بالقرب منه حجر ، يمكن أن يتوسده ؟ فلا يزال يدعو إلى التوم وإلى أن يتوسده . ولو لم يكن ذلك لكان لا يخطر له ذلك ببال ولا يتحرك رغبته إلى التوم . هذا في حجر فكيف بمن يملك اتحاد الميثة والفرش الرطبة والمنزهات الطيبة في ينشط لعبادة الله تعالى ؟ .

ومن أبوابه العظيمة . البخل وخوف الفقر ؛ فإن ذلك هو الذي يمنع الإنفاق والتصدق ويدعو إلى الادخار والسكز والعذاب الأليم وهو الموعود للكافرين كما نطق به القرآن العزيز . قال خزيمة بن عبد الرحمن : إن الشيطان يقول : ما غلبني ابن غلبة فلن يغلبني على ثلاث ، أن أمره أن يأخذ المال من غير حقه ، وإنفاقه في غير حقه ، ومنه من حقه . وقال سفيان : ليس للشيطان سلاح مثل خوف الفقر فإذا قبل ذلك منه أخذ في الباطل ومنع من الحق وتكلم بالهوى وظن بره ظن السوء .

ومن آفات البخل الحرص على ملازمة الأسواق لبيع المال ، والأسواق هي معشش الشياطين . وقال أبو أمامة : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ، إن إبليس لما نزل إلى الأرض قال : يارب أنزلتني إلى الأرض وجعلتني رجيا فأجعل لي بيتا قال اللهم ، قال : اجعل لي مجلسا قال الأسواق وجميع الطرق ، قال : اجعل لي طعاما قال طعامك ما لم يذكر اسم الله عليه ، قال : اجعل لي شرايا قال كل مسكر ، قال : اجعل لي مؤذنا قال المزمار ، قال : اجعل لي قرآنا قال الشعر ، قال : اجعل لي كتابا قال الرشم ، قال : اجعل لي حديثا قال الكذب ، قال : اجعل لي مصايد قال النساء <sup>(٢)</sup> .

ومن أبوابه العظيمة التوصل : التمسك بالمناهب والآهواء والحقد على المحصرم والنظر إليهم ببين الازدراء والاستخفاف ، وذلك مما يهلك العباد والفساق جميعا فإن الطعن في الناس والاشتغال بذكر نقصهم صفة مجبولة في

(١) حديث ثابت : لما بعث صلى الله عليه وسلم قال إبليس لشياطينه : لقد حدث أمر ... الحديث . أخرجه ابن أبي الدنيا في مكاييد الشيطان هكذا مرسل . (٢) حديث أبي أمامة : أن إبليس لما نزل إلى الأرض قال يارب أنزلتني إلى الأرض وجعلتني رجيا فأجعل لي بيتا قال اللهم ... الحديث . أخرجه الطبراني في الكبير وإسناده ضعيف جدا ورواه بنحوه من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف أيضا .

الطبع من الصفات السبعية ، فإذا خيل إليه الشيطان أن ذلك هو الحق وكان موافقا لطبعه غلبت حلاوته على قلبه فاشتغل به بكل همته ، وهو بذلك فرحان مسرور يظن أنه يسمى في الدين وهو ساع في اتباع الشياطين ، فترى الواحد منهم يتعصب لأبي بكر الصديق رضى الله عنه وهو آكل الحرام ومطلق اللسان بالفضول والكذب ومتعاطا لأنواع الفساد ولو رآه أبو بكر لكان أول عدو له إذ هو آلى أبي بكر من أخذ سيده وسار بسيرته وحفظ ما بين لحييه ، وكان من سيرته رضى الله عنه أن يضع حصة في فم ليكف لسانه عن الكلام فيما لا ينيه فأتى لهذا الفضولي أن يدعى ولاده وجبه ولا يسير بسيرته ؟ وترى فضوليا آخر يتعصب لعلى رضى الله عنه وكان من زهد على وسيرته أنه ليس في خلفته ثوبا اشتراه بثلاثة دراهم وقطع رأس السكين إلى الرنخ ، ونرى الفاسق لابس الثياب الحرير ومتجسلا بأموال اكتسبها من حرام وهو يتعاطى حب على رضى الله عنه ويدعيه وهو أول خصمائه يوم القيامة ، وليت شعري من أخذ ولدا عزيزا لإنسان هو قرعة عينه وحياة قلبه فأخذ يضربه ويهوقه وينتف شره ويقطعه بالمقراض وهو مع ذلك يدعى حب أبيه ولولاه فكيف يكون حاله عنده ؟ ومعلوم أن الدين والشرع كأنهما أحب إلا أبي بكر وعمر وعثمان وعلى وسائر الصحابة رضى الله عنهم ، من الأهل والولد بل من أنفسهم والمتحجبون لمعاصي الشرع هم الذين يمزقون الشرع ويقطعون بهقاريض الشهوات ويترددون به إلى عدو الله إبليس وعدو أوليائه فترى كيف يكون حالهم يوم القيامة عند الصحابة وعند أوليائه الله تعالى ؟ لا بل لو كشف الغطاء وعرف هؤلاء ماتحبي الصحابة في أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم لاستحبوا أن يهجروا على اللسان ذكرهم مع فتح أفهامهم ؟ ثم إن الشيطان يخيل إليهم أن من مات عبا لأبي بكر وعمر فالتار لائحوم حوله ، ويخيل إلى الآخر أنه إذا مات عبا لعلى لم يكن عليه خوف وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لفاطمة رضى الله عنها وهي بضعة منه (١) « اعلمي فإني لأغني عنك من الله شيئا (٢) » ، وهذا مثال أوردناه من جملة الأهواء . وهكذا حكم المتعصبين للشافعي وأبي حنيفة ومالك وأحمد وغيرهم من الأئمة فكل من ادعى مذهب إمام وهو ليس بسير بسيرته فذلك الإمام هو خصمه يوم القيامة إذ يقول له : كان مذهبي العمل دون الحديث باللسان ، وكان الحديث باللسان لأجل العمل لا لأجل المذيان ؛ فأبالك مخالفتي في العمل والسيرة التي هي مذهبي ومسلكي الذي سلكته وذهبت فيه إلى الله تعالى ثم ادعيت مذهبي كاذبا ؟ وهذا مدخل عظيم من مداخل الشيطان قد أهلك به أكثر العالم ، وقد سالت المدارس لقوام قل من الله خوفهم وضعفت في الدين بصيرتهم وقويت في الدنيا رغبتهم واشتد على الاستتباع حرصهم ولم يتسكنوا من الاستتباع وإقامة الجاه إلا بالتعصب ، فحبسوا ذلك في صدورهم ولم يبنوهم على مكاييد الشيطان فيه ، بل نابوا عن الشيطان في تنفيذ مكيده فاستمر الناس عليه ونسوا أمهات دينهم فقد هلكوا وأهلكوا فآله تعالى يتوب علينا وعليهم ، وقال الحسن . بلغنا أن إبليس قال : سؤلت لامة محمد صلى الله عليه وسلم المعاصي فتصواظهرى بالاستغفار فسؤلت لهم ذنوبا لا يستغفرون الله تعالى منها وهي الأهواء . وقد صدق الملعون فأنهم لا يهلون أن ذلك من الأسباب التي تجر إلى المعاصي فكيف يستغفرون منها ؟

ومن عظيم حيل الشيطان أن يشغل الإنسان عن نفسه بالاختلافات الواقعة بين الناس في المذاهب والخصومات قال عبد الله بن مسعود . جلس قوم يذكرون الله تعالى فأقام الشيطان ليعيهم عن مجلسهم ويفرق بينهم فلم يستطع ، فأتى رفة أخرى يتحدثون بمجدي الدنيا فأفسد بينهم فقاموا يقتتلون . وليس لإمام يريد . فقام الذين يذكرون الله تعالى

(١) حديث « فاطمة بضعة مني » متفق عليه من حديث المسود بن عزمة . (٢) حديث « انى لأغني عنك من الله شيئا » قاله لفاطمة متفق عليه من حديث أبي هريرة .

فاشتغلوا بهم يفصلون بينهم ففترقوا عن مجلسهم ، وذلك مراد الشيطان منهم ومن أبوابه حل العوام الذين لم يمارسوا العلم ولم يتبحروا فيه على التفكير في ذات الله تعالى وصفاته وفي أمور لا يلبثها حذقهم حتى يشككهم في أصل الدين ، أو يضل إليهم في الله تعالى خيالات يتعالى الله عنها يصير أحدهم بكافرا أو مبتدعا وهو به فرح مسرور متهيج بما وقع في صدره ، يظن ذلك هو المعرفة والبصيرة وأنه انكشف له ذلك بذكائه وزيادة عقله فأشد الناس حماة أقوام اعتقادا في عقل نفسه وأثبت الناس عقلا أشد منهم إنهم أنفسهم وأكبرهم سؤالا من العلماء . قالت عائشة رضي الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الشيطان يأتي أحدكم فيقول من خلقك ؟ فيقول الله تبارك وتعالى فيقول فن خلق الله ؟ فإذا وجد أحدكم ذلك فليقل آمن بالله ورسوله فإن ذلك ينسب عنه <sup>(١)</sup> ، وإني صلي الله عليه وسلم لم يأمر بالبحث في علاج هذا الوسواس فإن هذا وسواس مجده عوام الناس دون العلماء وإنما حق العوام أن يؤمنوا ويسلموا ويستغلوا بعبادتهم ومعاشهم ويتروكوا العلم للعلماء فالعالم لو يرى ويسرق كان خيرا له من أن يتكلم في العلم فإنه من تكلم في الله وفي دينه من غير إيمان العلم وقع في الكفر من حيث لا يدري ، كن ركب لجة البحر وهو لا يعرف السباحة ومكايد الشيطان فيها يتعلق بالمقاتلة والمذاهب لا تحصر وإنما أردنا بما أوردناه المثال .

ومن أبوابه سوء الظن بالمسلمين قال الله تعالى ( يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ) فن يحكم بشر على غيره بالظن بدنه الشيطان على أن يطول فيه اللسان بالنية فيهلك أو يقصر في القيام بحقوقه أو يتواني في إكرامه وينظر إليه بين الاحتراز ويرى نفسه خيرا منه . وكل ذلك من المهلكات والجل ذلك منع الشرع من التعرض إليهم فقال صلى الله عليه وسلم : اقروا مواضع التهم <sup>(٢)</sup> ، حتى احتراز هو صلى الله عليه وسلم من ذلك . روى عن علي بن حسين أن صفية بنت حيي بن أخطب أخبرته أن النبي صلى الله عليه وسلم كان متسكفا في المسجد قالت : فأنيته فتحدثت عنده فلما أسيئت انصرفت فقام يحيى معي فر به رجلا من الأنصار فسلمنا انصر فأتانا داهما وقال : إنما صفية بنت حيي ، فقالا يارسول الله ما ظن بك إلا خيرا ، فقال : إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم من الجسد وإني خشيت أن يدخل عليكما <sup>(٣)</sup> ، فانظر كيف أشفق صلى الله عليه وسلم على دينهما خرسهما ؟ وكيف أشفق على أمته فعملهم طريق الاحتراز من التهمة حتى لا يتساهل العالم الوديع المعروف بالدين في أحواله ؟ فيقول : مثلي لا يظن به إلا الخبز إنما بانه بنفسه . فإن أودع الناس وأتقاهم وأعلمهم لا ينظر الناس إليهم إليه وبين واحدة ، بل يبين الرضا ببعضهم وبين السخط وبعضهم ولذلك قال الشاعر :

وعين الرضا عن كل عيب كايالة ولكن عين السخط تبدي للساويا

فيجب الاحتراز عن ظن السوء وعن تهمة الأشرار فإن الأشرار لا يظنون بالناس كلهم إلا الشر . فهما رأيت إنسانا يسمى الظن بالناس طالبا للعيوب فاعلم أنه خبيث الباطن وأن ذلك خبيثه يترشح منه ، وإنما رأى غيره من حيث هو فإن المؤمن يطلب للمآذير والناقص يطلب العيوب ، والمؤمن سليم الصدر في حق كافة الخلق . فهذه بعض مداخل الشيطان إلى القلب ولو أردت استقصاء جميعها لم أقدر عليه وفي هذا القدر ما ينبله على غيره فليس في الآدي صفة

(١) حديث عائشة « إن الشيطان يأتي أحدكم فيقول من خلقك ؟ فيقول الله ... أخرجه أحمد والبخاري وأبو داود في مسانيدهم ورجاله ثقات وهو متفق عليه من حديث أبي هريرة . (٢) حديث « اقروا مواضع التهم » لم أجده أسلا . (٣) حديث « صفية بنت حيي : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان متسكفا فأنيته فتحدثت عنده ... الحديث . وفيه « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم » متفق عليه .

مذمومة إلا وهي سلاح الشيطان ومدخل من مداخله .

« فإن قلت : فما العلاج في دفع الشيطان وهل يكفي في ذلك ذكر الله تعالى وقول الإنسان لا حول ولا قوة إلا بالله فاعلم أن علاج القلب في ذلك سد هذه المداخل بتطهير القلب من هذه الصفات المذمومة وذلك بما يطول ذكره . وغرضنا في هذا الربع من الكتاب بيان علاج الصفات المهلكات وتحتاج كل صفة إلى كتاب متفرّد على ما سيأتي شرحه - نعم إذا قطعت من القلب أصول هذه الصفات كان للشيطان بالقلب حيازات وخطرات وليكن له استقرار ويمتعه من الاجتياز ذكر الله تعالى لأن حقيقة الذكر لا تتمكن من القلب إلا بعد عمارة القلب بالتقوى وتطهيره من الصفات المذمومة ، وإلا فيكون الذكر حديث نفس لا سلطان له على القلب فلا يدفع سلطان الشيطان . ولذلك قال الله تعالى ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ خصص بذلك المتقّين فقل الشيطان كمثل كلب جائع يقرب منك فإن لم يكن بين يديك خبز أو لحم فإنه ينجرب بأن يقول له : أخساً ، فجرد الصوت يدفعه . فإن كان بين يديك لحم وهو جائع فإنه يهجم على اللحم ولا يتدفع بمجرد السلام ، فالقلب الخالي من قوت الشيطان ينزجر عنه بمجرد الذكر ، فأما الشهوة إذا غلبت على القلب دفعت حقيقة الذكر إلى حواشي القلب فلم يتمكن من سريده فيستقر الشيطان في سريده القلب . وأما قلوب المتقين الخالية من الهوى والصفات المذمومة فإنه يطهرها الشيطان لا الشهوات بل لحظهما بالغلظة عن الذكر ، فإذا عاد إلى الذكر خنس الشيطان ودليل ذلك قوله تعالى ﴿ فاستمذبه من الشيطان الرجيم ﴾ وسائر الأخبار والآيات الواردة في الذكر .

قال أبو هريرة : اتقى شيطان المؤمن وشيطان الكافر فإذا شيطان الكافر دهن سمين كاس وشيطان المؤمن مهزول أشعث أغبر عار ، فقال شيطان الكافر لشيطان المؤمن : مالك مهزول ؟ قال : أنا مع رجل إذا أكل سمي الله فأظلم جالما وإذا شرب سمي الله فأظلم عطشانا ، وإذا لبس سمي الله فأظلم عريانا ، وإذا ادهن سمي الله فأظلم شعثا ، فقال : لكى مع رجل لا يفعل شيئا من ذلك فأنا أشركه في طعامه وشرابه ولبسه . وكان محمد بن واسع يقول لكل يوم بعد صلاة الصبح : اللهم إنك سلطت علينا عدوا بصيرا يميؤنا يرانا هو وقبيله من حيث لا نأراه اللهم فأيسه منا كما آيسته من رحمتك وقطعه منا كما قطعت من عفوك وباعد بيننا وبينه كما باعدت بينه وبين رحمتك إنك على كل شيء قدير . قال : فتمثل له إبليس يوما في طريق المسجد فقال له : يا ابن واسع هل تعرفني ؟ قال : ومن أنت ؟ قال : أنا إبليس ، فقال : وما تريد ؟ قال : أريد أن لا تعلم أحد هذه الاستعاذة ولا أتعرض لك ، قال : والله لا أمنعها عن أراد فأنصع ما شئت . وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال : كان شيطان يأتي النبي صلى الله عليه وسلم بيده شعلة من نار فيقوم بين يديه وهو يصلي فيقرأ ويتعوذ فلا يذهب ، فأناه جبرائيل عليه السلام فقال له : قل أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما يليج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يمرج فيها ومن فتن الليل والنهار ومن طوارق الليل والنهار إلا طارقا يطرق بخير يا رحمن . فقال ذلك فطفت شعلته وخر على وجهه <sup>(١)</sup> وقال الحسن . نبئت أن جبرائيل عليه السلام أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن غفرتنا من الجن يكيدك فإذا أويت إلى فراشك فأقرأ آية الكرسي <sup>(٢)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم أتاني الشيطان فذاع عني ثم ناز عني فأخذت

(١) حديث عبد الرحمن بن أبي ليلى : كان الشيطان يأتي النبي صلى الله عليه وسلم بيده شعلة من نار ... الحديث أخرجه ابن أبي الدنيا في مكابد الشيطان مكذبا مرسل ولما كان في الموطأ نحوه من يحيى بن سعيد مرسل ووصله ابن عبد البر في التمهيد من رواية يحيى بن محمد بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة عن عياض السائي عن ابن مسعود ورواه أحمد والبخاري من حديث عبد الرحمن بن حنبل وقبل له : كيف صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة كادته الشياطين ؟ فذكر نحوه . (٢) حديث الحسن : نبئت أن جبرائيل أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن غفرتنا من الجن يكيدك ... الحديث أخرجه ابن أبي الدنيا في مكابد الشيطان مكذبا مرسل

بحلقه فوالذي يستثنى بالحق ما أرسلته حتى وجدت برد ماء لسانه على يدي ولولا دعوة أخى سليمان عليه السلام لأصبح طريقا إلى المسجد <sup>(١)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم « ما سلك عمر جارا لإسلاك الشيطان لم يغيره الذي سلكه عمر » . وهذا لأن القلب كاذب مطهرة عن عمر رضى الله عنه كان محالا ، وكنت كن يطعم أن يشرب حوا . قبل الاحتواء والمعدة مشغولة بخليل الأظعمة ، ويطعم أن ينفعه كما نفع الذي شر به بعد الاحتواء وتخلية المعدة ، والذكر الدواء والتقوى احتواء وهى تخلى القلب عن الشهوات . فإذا نزل الذكر قلبا فارغا عن غير الذكر اندفع الشيطان كما تندفع العملة بنزول الدواء في المعدة الخالية عن الأظعمة . قال الله تعالى ( إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب ) وقال تعالى ( كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير ) ومن ساعد الشيطان بعمله فهو مواليه وإن ذكر الله بلسانه . وإن كنت تقول الحديث قد ورد مطلقا بأن الذكر يطرد الشيطان <sup>(٢)</sup> ولم تفهم أن أكثر عومات الشرع مخصوصة بشروط تعقلها علماء الدين فانظر إلى نفسك ، فليس الخبز كالعين ، وتأمل أن تنتهى ذكرك وعبادتك الصلاة ؛ فراقب قلبك إذا كنت في صلاتك كيف يجاذبه الشيطان إلى الأسواق وحساب العالمين وجواب المعادين وكيف يزبك في أودية الدنيا ومعالكها حتى إنك لا تذكر ما قد نسيت من فضول الدنيا إلا في صلاتك ولا يزدحم الشيطان على قلبك إلا إذا صليت ؟ فالصلاة حلك القلوب فيها يظهر محاسنها ومساوئها ؛ فالصلاة لا تقبل من القلوب المشحونة بشهوات الدنيا فلا جرم لا ينطرد عنك الشيطان بل ربما يزيد عليك الوسواس ، كما أن الدواء قبيل الاحتواء ربما يزيد عليك الضرر ، فإن أردت الخلاص من الشيطان فقدم الاحتواء بالتقوى ثم أردفه بدواء الذكر . يفر الشيطان منك كما فر من عمر رضى الله عنه . ولذلك قال وهب بن منبه : إن الله ولا تسب الشيطان في العلانية وأنت صديقه في السر ؛ أى أنت مطيع له . وقال بعضهم : يا عجبا لمن يعصى المحسن بعد معرفته بإحسانه ويطيع الدين بعدمعرفته بظلمانه . وكذا أن الله تعالى قال ( ادعوني استجب لكم ) وأنت تدعوه ولا يستجب لك فكذلك تذكر الله ولا يهرب الشيطان منك لفقد شروط الذكر والدعاء .

قيل لأبراهيم بن آدم : ما بالنا ندعوك لا يستجاب لنا وقد قال تعالى ( ادعوني استجب لكم ) ؟ قال : لأن قلوبكم ميتة ، قيل وما الذى أماتها ؟ قال : ثمان خصال ؛ عرفتم حق الله ولم تقوموا بحقه ، وقرأتم القرآن ولم تعملوا بحدوده ، وقتلتم نحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تعملوا بسنته ، وقتلتم نخشى الموت ولم تستعدوا له ، وقال تعالى ( إن الشيطان لكم عدوا فاتخذوه عدوا ) فواطأتموه على المعاصي ، وقتلتم نفاق النار وأرهمتم أبدانكم فيها ، وقتلتم نحب الجملة ولم تعملوا لها ، وإذا قمتم من فرشكم رميم عيوبكم وراء ظهوركم وأفرشتم عيوب الناس أمامكم فاستغفروكم ، فكيف يستجيب لكم ؟

« فإن قلت فالداعى إلى المعاصي المختلفة شيطان واحد أو شياطين مختلفون ؟ فاعلم أنه لا حاجة لك إلى معرفة ذلك في المعاملة فاشتغل بدفع العدو ولا تسأل عن صفته . كل البقل من حيث يؤتى ولا تسأل من البقلة ، ولكن الذى

(١) حديث « ألقى شيطان فنازعنى ثم نازعنى فأخذت بحلقه .. الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا من رواية النعمي مرسل هكذا وفي البخارى من حديث أبي هريرة « أن عمر بن الخطاب لما نزل على البصرة - أو كذا نحوها - لم يطلع على صلاتي فأمكنني أقمته ... الحديث » والنسائي في الكبرى من حديث عائشة : كان صلى الله عليه وآله الشيطان فأخذته نصرة خلقه قال حتى وجدت برد لسانه على يدي ... الحديث » واستاده جريد (٢) حديث « ما سلك عمر جارا لإسلاك الشيطان لم يغيره » متفق عليه من حديث سعد بن أبي وقاص يلقظ « بالإن الخطاب مالك الشيطان سالكا جارا ... الحديث » (٣) الحديث الوارد بأن الذكر يطرده الشيطان . تقدم

يتضح بنور الاستبصار في شواهد الأخبار : أنهم جتود مجتدة وأن لكل نوع من الماصي شيطانا منزهه وبدعوا إليه فأما طريق الاستبصار فذكره يطول ويكتفيك القدر الذي ذكرناه وهو أن اختلاف المسليات يدل على اختلاف الأسباب كما ذكرناه في تور النار وسواد الدخان.

وأما الأخبار فقد قال بجاعده : لإبليس خمسة من الأولاد قد جعل كل واحد منهم على شيء من أمره : فمروا بالأعور وميسوط ودامس وزئبور ، فأما مير : فهو صاحب المصائب الذي يأمر بالبور وشق الجيوب والطعم الخدود ودعوى الجاهلية . وأما الأعور : فإنه صاحب الزنا يأمر به وزينه . وأما ميسوط : فهو صاحب الكذب . وأما داسم : فإنه يدخل مع الرجل إلى أهله يرميهم بالعيب عنده ويفضبه عليهم . وأما زئبور : فهو صاحب السوق فيسيبه لا يزالون متظلمين . وشيطان الصلاة يسمى خنزب<sup>(١)</sup> وشيطان الوضوء يسمى الوهان<sup>(٢)</sup> وقد ورد في ذلك أخبار كثيرة .

وكأن الشياطين فيهم كثيرة فكذا في الملائكة . وقد ذكرنا في كتاب الشكر السر في كثرة الملائكة واختصاص كل واحد منهم بعمل منفرد به ، وقد قال أبو أمامة الباهلي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وكل المؤمن مائة وستون ملكا يذرون عنه ما لم يقدر عليه من ذلك : للبصر سبعة أملاك يذرون عنه كما يذب الذباب عن قصعة العسل في اليوم الصائف ، وما لو بدا لكم لرأيتوه على كل سهل وجبل كل باسط يده فافرقاء ، ولو وكل العبد إلى نفسه طرفه عين لاختطفته الشياطين<sup>(٣)</sup> » .

وقال أيرب بن يونس بن يزيد : بلغنا أنه يولد مع أبناء الإنس من أبناء الجن ثم ينشئون معهم . وروى جابر ابن عبد الله : أن آدم عليه السلام لما هبط إلى الأرض قال يارب هذا الذي جعلت بيني وبينه عذارة إن لم تمنني عليه لا أقوى عليه ، قال : لا يولد لك ولد إلا وكل به ملك ، قال : يارب زدني ، قال : أجرى السيعة سينتو بالحسنة عشرا إلى ما أريد ، قال : رب زدني ، قال : باب التوبة مفتوح مادام في الجسد الروح ، قال لإبليس : يارب هذا العبد الذي كرمته على إن لم تمنني عليه لا أقوى عليه ؟ قال لا يولد له ولد إلا وكل له ولد : قال : يارب زدني ، قال : تجرى منه مجرى الدم وتتخذون صدورهم بيوتا ، قال : رب زدني ، قال : اجلب عليهم بخيلك ورجلك إلى قوله غرورا ، وعن أبي الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خلق الله الجن ثلاثة أصناف : صنف حيات وصقارب وخشاش الأرض ، وصنف كالريح في الهواء ، وصنف عليهم الثواب والعقاب . وخلق الله تعالى الإنس ثلاثة أصناف : صنف كالبهائم كما قال تعالى ( لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ) ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم اضل<sup>(٤)</sup> وصنف أجسامهم أجسام بني آدم وأرواحهم أرواح الشياطين ، وصنف في ظل الله تعالى يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله<sup>(٥)</sup> ، وقال وهيب بن الورد : بلغنا أن إبليس تمثل ليحيى بن زكريا عليهما السلام وقال : إنني أريد أن أنصطك ، قال : لا حاجة لي أنصطك ولكن أخبرني عن بني آدم قال : هم عندنا ثلاثة أصناف : أما صنف منهم وهم أشد الأصناف علينا تقبل على أحدهم حتى نفتته وتنتمك منه

(١) حديث « إن شيطان الصلاة يسمى خنزب » أخرجه مسلم من حديث عثمان بن أبي العاص وقد تقدم أول الحديث

(٢) حديث « إن شيطان الوضوء يسمى الوهان » تقدم وهو عند الترمذي من حديث أبي .

(٣) حديث أبي أمامة « وكل بالمؤمن مائة وستون ملكا يذرون عنه ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في مكابد الشيطان

والطبراني في المعجم الكبير بإسناد ضعيف (٤) حديث أبي الدرداء « خلق الله الجن ثلاثة أصناف : صنف حيات وغلارب ...

الحديث أخرجه ابن أبي الدنيا في مكابد الشيطان وابن حبان في الضعفاء في ترجمة يزيد بن سنان وضفه والحاكم نحوه مختصرا : في

الجن فقط ثلاثة أصناف . من حديث أبي ثعلبة الحنفي وقال صحيح الإسناد .

يفزع إلى الاستغفار والتوبة فيفسد علينا كل شيء أدركنا منه ثم نفود إليه فيعود فلانحن نياس منه ولانحن ندرك منه حاجتنا فتحن منه في عناه . وأما الصنف الآخر فهم في أيدينا بمنزلة الكرة في أيدي صبيانكم فقلوبهم كيف شئنا قد كفونا أنفسهم . وأما الصنف الثالث فهم مثلك معصومون لا تقدر منهم على شيء .

فإن قلت : فكيف يتمثل الشيطان لبعض الناس دون البعض ، وإذا رأى صورة فهل هي صورته الحقيقية أو هو مثال يمثل له به ؟ فإن كان على صورته الحقيقية فكيف يرى بصور مختلفة ؟ وكيف يرى في وقت واحد في مكانين وعلى صورتين حتى يراه شخصان بصورتين مختلفتين ؟ فاعلم أن الملك والشيطان لهما صورتان هي حقيقة صورتها ولا تدرك حقيقة صورتها بالمشاهدة إلا بأنوار النبوة ، فأرى النبي صلى الله عليه وسلم جبرائيل عليه السلام في صورته لإمرئين <sup>(١)</sup> وذلك أنه سأله أن يريه نفسه على صورته فواعده باليقع وظهوره لهما ففسدا لائق من المشرق إلى المغرب ورآه مرة أخرى على صورته ليلة المراج عند سدرة المنتهى وإنما كان يراه في صورة الآدمي غالبا <sup>(٢)</sup> فكان يراه في صورة ذئبة الكلبى <sup>(٣)</sup> وكان رجلا حسن الوجه . والأكثر أنه يكشف أهل المكاشفة من أبواب القلوب بمثال صورته فيتمثل الشيطان له في البقطة . فيراه بعينه ويسمع كلامه بأذنه فيقوم ذلك مقام حقيقة صورته كما ينكشف في المنام لأكثر الصالحين . وإنما المكاشف في البقطة هو الذى اتبى إلى رتبة لا يمنعه اشتغال الحواس بالدنيا عن المكاشفة التي تكون في المنام فيرى في البقطة ما يراه غيره في المنام ، كما روى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أن رجلا سأله أن يريه موضع الشيطان من قلب ابن آدم ، فرأى في النوم جسد رجل شبه البلور يرى داخله من خارجه ورأى الشيطان في صورة متفدع قاعد على منكبه الأيسر بين منكبه وأذنه ، له خرطوم طويل دقيق قد أدخله من منكبه الأيسر إلى قلبه يوسوس إليه ، فإذا ذكر الله تعالى خفس . ومثل هذا قد يشاهده بعينه في البقطة ، فقد رآه بعض المكاشفين في صورة كلب جائم على نجيفة يدعوه الناس إليها ، وكانت الجيفة مثال الدنيا . وهذا يجرى مجرى مشاهدة صورته الحقيقية ، فإن القلب لا يلبث وأن تظهر فيه حقيقة من الوجه الذى يقابل عالم الملكوت وعند ذلك يشرق أثره على وجهه الذى يقابل عالم الملك والشهادة لأن أحدهما متصل بالآخر . وقد بينا أن القلب له وجهان : وجه إلى عالم الغيب وهو مدخل الإلهام والوحى ، وجه إلى عالم الشهادة . فالذى يظهر منه في الوجه الذى إلى جانب عالم الشهادة لا يكون إلا صورة متخيلة لأن عالم الشهادة كله متخيلات ، إلا أن الخيال تارة يحصل من النظر إلى ظاهر عالم الشهادة بالحواس فيجوز أن لا تكون الصورة على وفق المعنى ، حتى يرى شخصا جميل الصورة وهو خبيث الباطن قبيح السر لأن عالم الشهادة عالم كثير التليس . أما الصورة التى تحصل في الخيال من إشراق عالم الملكوت على باطن سر القلوب فلا تكون إلا محاكية للصفة وموافقة لها ، لأن الشيطان في صورة كلب وضفدع للصفة وموافقة لها ، فلا جرم لا يرى المعنى القبيح إلا بصورة قبيحة ، فيرى الشيطان في صورة كلب وضفدع وخنزير وغيرها ، ويرى الملك في صورة جميلة فتكون تلك الصورة عنوان المعاني ومحاكية لها بالصدق ، ولذلك يدل القرد والخنزير في النوم على إنسان خبيث ، وتدل الثعالة على إنسان سليم الصدر وهكذا جميع أبواب الرؤيا والتعبير . وهذه أسرار عجيبة وهي من أسرار مجالب القلب ولا يليق ذكرها بعلوم المعاملة . وإنما المقصود أن تصدق

(١) حديث : أنه صلى الله عليه وسلم مرأى جبريل في صورته لإمرئين أخرجه الفيضان من حديث عائشة : وشئت حمل رأى محمد ربه ؟ وفيه : ولكنه رأى جبريل في صورته مرئين . (٢) حديث : أنه كان يرى جبريل في صورة الآدمي غالبا أخرجه الفيضان من حديث عائشة وسئل : فأين قوله ثم دنا فتدلى قالت ذلك جبريل كان يأتيه في صورة الرجل الحديث ... (٣) حديث : أنه كان يرى جبريل في صورة ذئبة الكلبى أخرجه الفيضان من حديث أسامة بن زيد : أن جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أنه سلمة لجل يحدث ثم قام فآله النبي صلى الله عليه وسلم ولم يلم سلمة « من هذا » قالت : ذئبة ... الحديث



بأن الشيطان ينكشف لأرباب القلوب وكذلك الملك ، تارة بطريق التمثيل والمحاكاة كما يكون ذلك في النوم ، وتارة بطريق الحقيقة . والآخر هو التمثيل بصورة عاكية للمنى - هو مثال المعنى لآعين المعنى - إلا أنه يشاهد بالعين مشاهدة عتقة وينفرد بمشاهدته المكاشف دون من حوله كالناتم .

بيان ما يؤاخذ به العبد من وساوس القلوب ومهما وخواطرها

وقصودها وما يعنى عنه ولا يؤاخذ به

اعلم أن هذا أمر غامض ، وقد وردت فيه آيات وأخبار متعارضة يلتبس طريق الجمع بينها إلا على سمسارة العلماء بالشروع . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « عني عن أمي ما حدثت به نفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به »<sup>(١)</sup> ، وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن الله تعالى يقول للحفظة : إذا هم عبدى بسيرة فلا تكتبوها فإن عملها فكتبوها سيئة وإذا هم بحسنة لم يعملها فكتبوها حسنة فإن عملها فكتبوها حسنة »<sup>(٢)</sup> ، وقد خرجه البخاري ومسلم في الصحيحين وهو دليل على العفو عن عمل القلب ومعه بالسيرة . وفي لفظ آخر : « من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له إلى سبعمائة ضعف ومن هم بسيرة فلم يعملها لم تكتب عليه وإن عملها كتبت » وفي لفظ آخر ، « وإذا تحدث بأن يعمل سيئة فأنأ أغفرها له ما لم يعملها ، وكل ذلك يدل على العفو فأما ما يدل على المؤاخذة فقولُه سبحانه ﴿ إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ﴾ وقوله تعالى ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مشعولا ﴾ فدل على أن عمل الفؤاد كعمل السمع والبصر فلا يعنى عنه وقوله تعالى ﴿ ولا تكتسبوا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه ﴾ وقوله تعالى ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم ﴾ والحق عندنا في هذه المسألة لا يوقف عليه ما لم يقع الإحاطة بتفصيل أعمال القلوب من مبدأ ظهورها إلى أن يظهر العمل على الجوارح .

فتقول : أول ما يرد على القلب الخاطر ، كما لو خطر له مثلا صورة امرأة وأنها وراء ظهره في الطريق لو التفت إليها لرأها . (والثاني) هيجان الرغبة إلى النظر وهو حركة الشهوة في الطبع وهذا يتولد من الخاطر الأول ونسبه ميل الطبع ويسمى الأول حديث النفس . (والثالث) حكم القلب بأن هذا ينبغي أن يفعل أى ينبغي أن ينظر إليها فإن الطبع إذا مال لم تبهت المهمة والثانية ما لم تدفع الصوارف ، فإنه قد يمنعه حياء وأخوف من الالتفات وعدم هذه الصوارف وربما يكون يتأمل وهو على كل حال حكم من جهة العقل ، ويسمى هذا اعتقادا وهو يتبع الخاطر والميل . (الرابع) تصميم العزم على الالتفات وحزم التثنية فيه وهذا نسبه مما بالفعل ونية وقصد ، وهذا الهمة قد يكون مبدأ ضعيف ولكن إذا أصنى القلب إلى الخاطر الأول حتى طالت مجاذبته للنفس تأكد هذا الهمة وصار إرادة مجرومة فإذا انجزمت الإرادة فرما يتم بعد الجزم فيترك العمل وربما يفعل بمرض فلا يعمل به ولا يلتفت إليه وربما يخوفه طاق فيتمدر عليه العمل .

فهنا أربع أحوال للقلب قبل العمل بالمجاردة : الخاطرو هو حديث النفس ، ثم الميل ، ثم الاعتقاد ، ثم الهمة . فتقول : أما الخاطر فلا يؤاخذ به لأنه لا يدخل تحت الاختيار وكذلك الميل وهيجان الشهوة لأنهما لا يدخلان

(١) حديث « عني لأني مما حدثت به نفسي » متفق عليه من حديث أبي هريرة « إن الله تعالى يقول لأني مما حدثت به نفسي ... الحديث » (٢) حديث أبي هريرة « يقول الله إذا هم عبدى بسيرة فلا تكتبوها عليه ... الحديث » قال المصنف أخرجه مسلم والبخاري في الصحيحين قلت هو كما قاله واللفظ لمسلم فلنأنا والله أعلم بتمامه في الفكر .

أيضا تحت الاختيار، وهما المرادان بقوله صلى الله عليه وسلم «عني عن أمي ما حدثت به نفوسها» لحديث النفس عبارة عن الخواطر التي تهجس في النفس ولا يقبها عزم على الفعل، فأما الهم والغم فلا يسمى حديث النفس، بل حديث النفس كما روى عن عثمان بن مظعون حيث قال لثبي صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله نفسي تمحدثني أن أطلق خولة، قال: «مهلًا إن من سئتي التكاح»، قال: نفسي تمحدثني أن أحب نفسي، قال: «مهلًا خصاء أمي دهب الصيام»، قال: نفسي تمحدثني أن أترب، قال: «مهلًا رهبانية أمي الجهاد والحج»، قال: نفسي تمحدثني أن أترك اللحم، قال: «مهلًا فإني أحب ولور أصبته لأكلته ولو سألت الله لأطعمنيه<sup>(١)</sup>»، فهذه الخواطر التي ليس معها عزم على الفعل هي حديث النفس، ولذلك شاور رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ لم يكن معه عزم وهم بالفعل.

وأما الثالث: وهو الاعتقاد وحكم القلب بأنه ينبغي أن يفعل فهذا رددين أن يكون اضطرارا أو اختيارا، والأحوال تختلف فيه فالاختيارى منه يؤاخذ به والاضطرارى لا يؤاخذ به.

وأما الرابع وهو الهم بالفعل؛ فإنه مؤاخذ به إلا أنه إن لم يفعل نظر فإن كان تركه خوفا من الله تعالى وتندا على منه كبت له حسنة لأن همه سيئة وامتناعه ومجاهدته نفسه حسنة، والهم على وفق الطبع ما يدل على تمام الغفلة عن الله تعالى، والامتناع بالمجاهدة على خلاف الطبع يحتاج إلى قوة عظيمة تجده في مخالفة الطبع هو العمل لله تعالى والعمل لله تعالى أشد من جده في موافقة الشيطان بموافقة الطبع فكسب له حسنة لأنه رجح جده في الامتناع وهمه به على همه بالفعل، وإن تموى الفعل بما تقي أو تركه بعذر لاخوفا من الله تعالى كسب عليه سيئة، فإنهم فعل من القلب اختياري.

والدليل على هذا التفصيل ما روى في الصحيح مفسلا في لفظ الحديث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قلت الملائكة عليهم السلام رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر به فقال: أرقبوه، فإن هو عملها فأكبرها به، فبئها وإن تركها فأكبرها له حسنة إنما تركها من جزائي<sup>(٢)</sup>»، وحيث قال: فإن لم يعملها: أراد به تركها، قال: فأما إذا عزم على فاشعة فتمسرت عليه بسبب أو غفلة فكيف تكتب له حسنة؟ وقد قال صلى الله عليه وسلم: «إنما يحشر الناس على نياتهم<sup>(٣)</sup>»، ونحن نعلم أن من عزم ليلا على أن يصحب ليقتل مسلما أو يرقى بأمرأة فات تلك

(١) حديث: أن عثمان بن مظعون قال يا رسول الله نفسي تمحدثني أن أطلق خولة قال: «مهلًا إن من سئتي التكاح... الحديث» أخرجه الترمذي المحكم في نوادر الأصول من رواية علي بن زيد عن سعيد بن المسيب حرسا نحوه وفيه التماس بن عبد الله العزمي كذب أحمد بن حنبل ومحيي بن معين والدارقطني من حديث سعد بن أبي وقاص: «لا أكل من أمر عثمان بن مظعون الذي كان من ترك النساء بيت لآله رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «عثمان لم يأت أوصرا بالرهانية... الحديث» وفيه: «من رغب من سئتي قلبى من» وهو عندنا بلفظ: «رد رسول الله صلى الله عليه وسلم على عثمان بن مظعون التبتيل ولو أذن له لاختصاصا، ولبينوى والطبراني في معجمي الصحابة بإسناد حسن من حديث عثمان بن مظعون: «أه قال يا رسول الله أتى رجل ثقي على هذه الزبوة في المنزلي فتأذن لي يا رسول الله في الحماء فأخصني قال: «لا»، ولكن عليك يا ابن مظعون بالصيام فإنه مجزى» ولأحمد والطبراني بإسناد جيد من حديث عبد الله بن عمرو: «خصاء أمي الصيام والقيام» وله من حديث سعيد بن النحاس بإسناد فيه ضعف: أن عثمان بن مظعون قال: يا رسول الله إن لي في الاختصاص، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله قد أبدلتك بالرهانية الحانية السعة والتكبير على كل شرف... الحديث» وابن ماجه بإسناد ضعيف من حديث عائشة «التكاح من سئتي» ولأحمد وأبي يعلى من حديث أسد «لكل نبي» وقال أبو يعلى «لكل أمة رهبانية ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله» وفيه زيد المسمى وهو ضيف ولأبي داود من حديث أبي أمامة «إن سياحة أمي الجهاد في سبيل الله» وإسناده جيد.

(٢) حديث: قالت الملائكة رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر... الحديث. قال المصنف أنه في الصحيح وهو كما قال في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة (٣) حديث: «إنما يحشر الناس على نياتهم» أخرجه ابن ماجه من حديث جابر دون قوله «إنما» وله من حديث أبي هريرة «إنما بيت الناس على نياتهم» وإسنادهما حسن وسلم من حديث عائشة «يهمهم أفعالهم نياتهم» وله من حديث أم سلمة «يحتون على نياتهم»

الليلة مات مصراً ويحسر على نيته وقد مر بيته ولم يعملها .

والدليل القاطع فيه ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا التقى المسلمان بينهما قتالان والمقتول في النار » فقيل يارسول الله هذا القتال فما بال المقتول ؟ قال : « لأنه أراد قتل صاحبه »<sup>(١)</sup> ، وهذا نص في أنه صار بمجرد الإرادة من أهل النار مع أنه قتل مظلوما فكيف يظن أن الله لا يؤاخذ بالنية والمهم ؟ بل كل من دخل تحت اختيار البعد فهو مؤاخذ به إلا أن يكفره بحسنة ، ونقض الزعم بالعدم حسنة فلا ذلك كسبت له حسنة ، فأما قول المراءم بماتق فليس بحسنة . وأما الخواطر وحديث النفس وهيجان الرغبة فكل ذلك لا يدخل تحت اختيار فلو أخذ به تكليف مالا يطاق ولذلك لما نزل قوله تعالى ﴿ وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ﴾ جاء ناس من الصحابة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : كلفتنا مالا لنطبق إن أحدنا ليحدث نفسه بما لا يجب أن يثبت في قلبه ثم يحاسب بذلك فقال صلى الله عليه وسلم : « هلكنم تقولون كما قالت اليهود سمعنا وعصينا قولوا سمعنا وأطعنا فقالوا سمعنا وأطعنا »<sup>(٢)</sup> ، فأذن الله الفرج بعد سنة بقوله ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾ فظهر به أن كل ما لا يدخل تحت الوسع من أعمال القلب هو الذي لا يؤاخذ به . فهذا هو كشف النقاء عن هذا الالتباس . وكل من يظن أن كل ما يجري على القلب يسمى حديث النفس ولم يفرق بين هذه الأقسام الثلاثة فلا بد وأن يغلط وكيف لا يؤاخذ بأعمال القلب من الكبر والمعجب والرياء والافتقار والحسد وجملة الخبايا من أعمال القلب ؟ بل السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا ؟ أي ما يدخل تحت الاختيار . فلو وقع البصر بغير اختيار على غير ذي عزم لم يؤاخذ به فإن أنبهها فطرة ثانية كان مؤاخذاً به لأنه مختار فكذلك خواطر القلب تجري هذا الجري بل القلب أولى بمؤاخذته لأنه الأصل . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « التقوى ههنا وأشار إلى القلب »<sup>(٣)</sup> ، وقال الله تعالى ﴿ إن نبال الله لحوهما ولا حماؤهما ولكن يئاه التقوى منكم ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « الإيمان حواز القلوب »<sup>(٤)</sup> ، وقال « البر ما أطمان إليه القلب وإن أفتوك وأفتوك »<sup>(٥)</sup> ، حتى إذا نقول إذا حكم القلب الملقى بإيجاب شيء وكان غطاً فيه . صار مثاباً عليه بل من قد ظن أنه يظهر فعله أن يصل . فإن صلى ثم تذكر أنه لم يتوضأ كان له ثواب بفعله . فإن تذكر ثم تركه كان مصاباً عليه . ومن وجد على فراشه امرأة فظن أنها زوجته لم يعص بوطئها وإن كانت أجنبية . فإن ظن أنها أجنبية ثم وطئها عصي بوطئها وإن كانت زوجته . وكل ذلك نظير إلى القلب دون الجوارح .

بيان أن الوسواس هل يتصور أن ينقطع بالكلية عند الذكر أم لا ؟

اعلم أن العلماء المراقبين للقلوب الناظرين في صفاتها ومجاذبها اختلفوا في هذه المسألة على خمس فرق :  
فقال فرقة : الوسوسة تنقطع بذكر الله عز وجل لأنه عليه السلام قال « فإذا ذكر الله خنس »<sup>(٦)</sup> ، والخنس هو السكوت فكانه يسكت .

(١) حديث « إذا التقى بينهما قتالان والمقتول في النار » الحديث متفق عليه من حديث أبي بكر .  
(٢) حديث : لما نزل قوله تعالى ﴿ وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ﴾ جاء ناس من الصحابة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا كلفتنا مالا لنطبق . الحديث . أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وابن عباس نحوه . (٣) حديث « التقوى ههنا » وأشار إلى القلب « أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقال - إلى صدره - . (٤) حديث « الإيمان حواز القلوب » تقدم في العلم . (٥) حديث « البر ما أطمان إليه القلب وإن أفتوك وأفتوك » أخرجه الطبراني من حديث أبي لمبة وللأحد نحوه من حديث وابصة وفيه « وإن أفتاك الناس وأفتوك » وقد تقدم . (٦) حديث « وإذا ذكر الله خنس » أخرجه ابن أبي الدنيا وابن عدي من حديث أبي أنس في أثناء حديث « إن الشيطان واضح خطيه على قلب ابن آدم » الحديث . وقد تقدم قريباً .

وقالت فرقة : لا يندم أصله ولكن يجري في القلب ولا يكون له أثر لأن القلب إذا صار مستوعبا بالذكر كان محبوا عن التأثير بالسوسة كالشغول بهم فانه قد يتكلم ولا يفهم وإن كان الصوت يمر على سمعه .

وقالت فرقة : لا تنقطع السوسة ولا أثرها أيضا ولكن تنقطع غلبتها القلب فكأنه يوسوس من بعد وعلى ضعف .

وقالت فرقة : يندم عند الذكر في لحظة ويندم الذكر في لحظة ، ويتماقبان في أزيمة متقاربة يظن لتقاربها أنها متساوية وهي كالكرة التي عليها نقط متفرقة فإذ إذا أدركتها بسرعة تواصلها بالحركة ، واستدل هؤلاء بأن الحس قد ورد ونحن نشاهد السوسة مع الذكر ولا وجه له إلا هذا .

وقالت فرقة : السوسة والذكر يتساوآن في السواص على القلب تساوقا لا ينقطع ، وكأن الإنسان قد يرى بعينه شيئين في حالة واحدة فكذلك القلب قد يكون يجري لشيئين فقد قال صلى الله عليه وسلم « ما من عبد إلا وله أربعة أعين : عينان في رأسه يصير بها أمر دنياه ، وعينان في قلبه يصير بها أمر دينه <sup>(١)</sup> ، وإلى هذا ذهب المحاسبي . والصحيح عندنا أن كل هذه المذاهب صحيحة ولكن كلها قاصرة عن الإحاطة بأصناف الوسواس ، وإنما نظر كل واحد منهم إلى صنف واحد من الرساوس فأخبر عنه .

والرساوس أصناف : الأول : أن يكون من جهة التليس بالحق ، فإن الشيطان قد يلبس بالحق فيقول للإنسان تترك التمس بالذات فإن العمر طويل والصبر عن الشهوات طول العمر ألمه عظيم ، فعند هذا إذا ذكر العبد عظيم حق الله تعالى وعظيم ثوابه وعقابه وقال لنفسه : الصبر عن الشهوات شديد ولكن الصبر على النار أشد منه وبلا بد من أحدهما فإذا ذكر العبد وعد الله تعالى ووعده وجنته وعلمه بقيته خسر الشيطان وهرب ، إذ لا يستطيع أن يقول له النار أسير من الصبر على المعاصي ولا يمكنه أن يقول المعصية لا تفضي إلى النار ، فإن إيمانه بكتاب الله عز وجل يدفعه عن ذلك فينقطع وسواسه . وكذلك يوسوس إليه بالمعصية فيقول : أي عبد يعرف الله كما تعرفه ويمده كما تمده ؟ فأعظم مكانك عند الله تعالى فيتذكر العبد حيث أن معرفته وقلبه وأعضائه التي بها عمله وعليه كل ذلك من خلق الله تعالى فمن أين يجب به ؟ فيخسر الشيطان إذ لا يمكنه أن يقول ليس هذا من الله . فإن المعرفة والإيمان يدفعه . فهذا نوع من الوسواس ينقطع بالكلية عن العارفين للمستبصرين بنور الإيمان والمعرفة .

الصنف الثاني : أن يكون وسواسه بتحريك الشهوة وميجانها ، وهذا ينقسم إلى ما يملأ العبد يقيناً أنه معصية وإلى ما يملأه بالغالب الظن . فإن عليه يقيناً خسر الشيطان عن تهيج يؤثر في تحريك الشهوة ولم يخسر عن التمسح وإن كان مظلوماً ، فربما يبقى مؤثراً بحيث يحتاج إلى مجاهدة في دفعه فتكون السوسة موجودة ولكنها مدفوعة غير غالبية .

الصنف الثالث : أن تكون سوسة بمجرد الخواطر وتذكر الأحوال الغالبة والتفكير في غير الصلاة مثلاً فإذا أقبل على الذكر تصور أن يتدفع ساعة ويمود ، ويتدفع ويعود ، فيتماقب الذكر والسوسة ويتصور أن يتساوقا جميعاً حتى يكون الفهم مشتتاً على فهم معنى القراءة وعلى تلك الخواطر كأنهما في موضعين من القلب . وبמיד جداً أن يتدفع هذا الحس بالكلية بحيث لا يخطر ، ولكنه ليس بخالاً إذا قال عليه السلام « من صلى ركعتين لم يحدث فيهما

(١) حديث « ما من عبد إلا وله أربعة أعين عينان في رأسه يصير بها أمر دنياه وعينان في قلبه يصير بها أمر دينه » أخرجه أبو منصور المظفر في مستند القرموس من حديث ماذا يلفظ « الآخرة » مكان « دينه » وفيه الحسين بن أحمد بن محمد الهروي الساماني الملقب بكذب الحاكم والآفة منه .

نفسه بشيء من أمر الدنيا غيره لما تقدم من ذنبه <sup>(١)</sup> ، فلولا أنه متصور لما ذكره ، إلا أنه لا يتصور ذلك إلا في قلب استولى عليه الحب حتى صار كالمستقر ، فلما قد نرى المستقر القلب بعد تأذي به قد يتفكر بمقدار ركعتين وركعات في مجادلة عدوه بحيث لا يخطر بباله غير حديث عدوه ، وكذلك المستقر في الحب قد يتفكر في محادثة محبوه بقلبه ويغوص في فكره بحيث لا يخطر بباله غير حديث محبوه ، ولو كله غيره لم يسمع ولو اجتاز بين يد أحد لكان كأن لا يراه . وإذا تصور هذا في خوف من عدو وعند الحرص على مال وجاء فكيف لا يتصور من خوف النار والحرص على الجنة ولكن ذلك عزير لضعف الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر ، وإذا تأملت جملة هذه الأقسام وأصناف الوسواس علمت أن لكل مذهب من المذاهب وجهها في عمل مخصوص .

وبالجملة فالخلاص من الشيطان في لحظة أو ساعة غير بعيد ولكن الخلاص منه عمراً طويلاً بعيد جداً ، ومحال في الوجود ولو تخلص أحد من وساوس الشيطان بالحواطر وتيسير الرغبة لتخلص رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقد روى : أنه نظر إلى علم ثوبه في الصلاة فلما سلم رأى بذلك الثوب وقال : شغلني عن الصلاة ، وقال : اذهبوا به إلى أبي جهم واثنوا بأنبيائتي <sup>(٢)</sup> ، وكان في يده خاتم من ذهب فخطر إليه وهو على التبرم رى به . قال : نظرة إليه ونظرة إليكم <sup>(٣)</sup> ، وكان ذلك لوسوسة الشيطان بتحريك لذة النظر إلى خاتم الذهب وعلم الثوب . وكان ذلك قبل تحريم الذهب فلذلك لبسه ثم رى به - فلا تقطع وسوسة عروض الدنيا وتقدمها إلا بالرى والمفارقة - فما دام بملك شيئاً وراء حاجته ولو ديناراً واحداً لا يدعه الشيطان في صلاته من الوسوسة في الفكر في ديناره ، وأنه كيف يحفظه ؟ وفيماذا ينفقه ؟ وكيف يخفيه حتى لا يعلم به أحد وكيف يظهره حتى يتباهى به ؟ إلى غير ذلك من الوسواس . فمن أنشب غزاله في الدنيا وطمع في أن يتخلص من الشيطان كان كمن اتشمس في السمل وطمأن أن الذباب لا يقع عليه فهو محال . فالدينيا باب عظيم لوسوسة الشيطان . وليس له باب واحد بل أبواب كثيرة . قال حكيم من الحكماء : الشيطان يأتي ابن آدم من قبل المعاصي ، فإن امتنع أتاه من وجه النصيحة حتى يلقه في بدعة ، فإن أتى أمره بالتحرج والشدة حتى يحرم ما ليس بحرام ، فإن أتى شككه في وضوئه وصلاته حتى يخرج عن العلم ، فإن أتى خفف عليه أعمال البر حتى يراه الناس صابراً ضعيفاً فتنبيل قلوبهم إليه فيمحب نفسه وبه يهلك ، وعند ذلك يشتد إلحاحه فلما آخر درجة ويملم أنه لو جاوزها أفلتت منه إلى الجنة .

### بيان سرعة قلب القلب وانقسام القلوب في التنير والنيات

اعلم أن القلب كما ذكرناه تكتسفه الصفات التي ذكرناها وتصب إليه الآمال والأحوال من الأبواب التي وصفناها ، فكأنه هدف يصاب على الدوام من كل جانب ، فإذا أصابه شيء يتأثر به أصابه من جانب آخر ما يصاده فتستمر صفته . فإن نزل به الشيطان فدعاه إلى الهوى نزل به الملك وصرفه عنه ، وإن جذبته شيطان إلى شر جذبته بين شيطان آخر إلى غيره . وإن جذبته ملك إلى خير جذبته آخر إلى غيره . فتارة يكون متنازلاً بين ملكين ، وتارة بين شيطانين ، وتارة بين ملك وشيطان . لا يكون قط مهملًا - وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ وقلب أمثمتهم وأبصارهم ﴾ ولاطلاع رسول الله صلى الله عليه وسلم على عجيب صنع الله تعالى في عجائب القلب وتقلبه كان يختلف

(١) حديث « من صلى ركعتين لم يحدث فيها نفسه بشيء من الدنيا » . تقدم في الصلاة .

(٢) حديث : أنه صلى الله عليه وسلم نظر إلى علم في ثوبه في الصلاة . الحديث . تقدم . (٣) حديث : كان في يده خاتم من ذهب فخطر إليه على التبرم فراه فقال « نظرة إليكم » أخرجه النسائي من حديث ابن عباس وتقدم في الصلاة

به فيقول « لا ومقلب القلوب <sup>(١)</sup> ، وكان كثيراً ما يقول « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » قالوا أو تخاف يا رسول الله ؟ قال « وما يؤمنني بالقلب بين أصعبين من أصعب الرحمن قلبه كيف يشاء <sup>(٢)</sup> » وفي لفظ آخر « إن شاء أن يقيم مقامه وإن شاء أن يزيحه أزاعه »

وضرب له صلى الله عليه وسلم ثلاثة أمثلة : فقال « مثل القلب مثل العصفور يتقلب في كل ساعة <sup>(٣)</sup> » وقال عليه السلام ، مثل القلب في قلبه كالقندر إذا استجمعت غليانا <sup>(٤)</sup> » وقال « مثل القلب كمثل ريشة في أرض فلاة قلبها الرياح ظهراً ليلن <sup>(٥)</sup> » وهذه التقلبات وعجائب صنع الله تعالى في قلبها من حيث لا تهدي إليه المعرفة لا يعرفها إلا المراقبون والمراعون لأحوالهم مع الله تعالى .

والقلب في الثبات على الخير والشر والتردد بينهما ، ثلاثة : قلب عمر بالتقوى وزكا بالباطنة وطهر عن خبايا الأخلاق فتدفع فيه خواطر الخير من خزان النيب ومدخل الملكوت ، فيصرف العقل إلى التفكير فيما خطر له ليعرف دقائق الخير فيه ويطعم على أسرار فوائده فيكتشف له بنور البصيرة وجهه ، فيحكم بأنه لا بد من فعله فيستحثه عليه ويدعوه إلى العمل به ، وينظر الملك إلى القلب فيجده طيباً في جوهره طاهراً بتقواه مستتباً بضياء العقل معموراً بأنوار المعرفة فيراه صالحاً لأن يكون له مستقراً ومهبطاً ، فعند ذلك يمدد بهنود لآرى ويهديه إلى خيرات أخرى حتى ينجر الخير إلى الخير وكذلك على الدوام ، ولا يتأخر إمداده بالترغيب بالخير وتيسير الأمر عليه . وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ فإما من أعلى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لييسرى ﴾ وفي مثل هذا القلب يشرق نور المصباح من مشكاة الربوبية حتى لا يبقى فيه الشرك الحق الذي هو أخفى من ديب الخلة السوداء في الآلية الظلمة ، فلا يبقى على هذا التور خافية ولا يروج عليه شيء من مكاييد الشيطان ، بل يقف الشيطان ويوحى زخرف القول فروراً فلا يلتفت إليه وهذا القلب بعد طهارته من المهلكات يصير على القرب معموراً بالمتنبيات - التي سندكرها - من الشكر والصبر والخوف والرجاء والفقر والزهد والمحبة والرضا والشوق والتوكل والتفكير والمحاسبة وغير ذلك . وهو القلب الذي أقبل الله عز وجل بوجهه عليه ، وهو القلب الملمع المراد بقوله تعالى ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ وبقوله عز وجل ﴿ يا أيها النفس المطمئنة ﴾ .

القلب الثاني : القلب الخنول المشحون بالهوى ، الملتبس بالأخلاق المذمومة والخبائث ، المفتوح فيه أبواب الشياطين ، المسدود عنه أبواب الملائكة . ومبدأ الشر فيه أن ينفذ فيه خاطر من الهوى ويهجم فيه فينظر القلب إلى حاكم العقل ليستفيق منه ويستكشف وجه الصواب فيه ، فيكون العقل قد ألف خدمة الهوى وأتسبه واستمر على استتباب الخيل له وعلى مساعدة الهوى ، فتستولى النفس وتساعد عليه فيشرح الصدر بالهوى وتبسط فيه

(١) حديثه لا ومقلب القلوب أخرجه البخاري من حديث ابن عمر (٢) حديث « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » الحديث أخرجه الترمذي من حديث أبي حنيفة والحاكم من حديث جابر وقال ابن أبي الدنيا صحيح على شرط مسلم والبيهقي من حديث عبد الله بن عمرو « اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك » والنسائي في الكبرى وابن ماجه والحاكم وصحبه على شرط البخاري وصلى من حديث الترمذي بن سفيان « ما من قلب إلا بين أصعبين من أصعب الرحمن لنشأ آلامه وإن شاء أزاعه » والنسائي في الكبرى بإسناد جيد نحوه من حديث عائشة (٣) حديث « مثل القلب مثل العصفور يتقلب في كل ساعة » أخرجه الحاكم في المستدرک وقال صحيح على شرط مسلم والبيهقي في الشعب من حديث أبي حنيفة بن الجراح . قلت ورواه البيهقي في معجمه من حديث أبي عبيد غير مطبوع وقال لا أدري له صحة أم لا .

(٤) حديث « مثل القلب في قلبه كالقندر إذا استجمعت غليانا » أخرجه أحمد والحاكم وقال صحيح على شرط البخاري من حديث المدايني بن أسود (٥) حديث « مثل القلب كمثل ريشة في أرض فلاة » أخرجه الطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب من حديث أبي موسى الأشعري بإسناد حسن والبيهقي نحوه من حديث أبي أسود بإسناد ضعيف .

ظلماته لاحتباس جند العقل عن مدافحته . فيقوى سلطان الشيطان لانتعاش مكانه بسبب انتشار الهوى فيقبل عليه بالتزيين والغرور والآمان ، ويوحى بذلك زخرفا من القول غرورا فيضنف سلطان الإيمان بالوعد والوعيد ، ويخبر نور اليقين لحرف الآخرة إذ يتصاعد عن الهوى دخان مظلم إلى القلب بملا جوانبه حتى تنطفئ أنواره ، فيصير العقل كالمعين التي ملأ الدخان أجفانها فلا يقدر على أن ينظر ، وهكذا تفعل غلبة الشهوة بالقلب حتى لا يبق للقلب إمكان التوقف والاستبصار ، ولو بصره واعظ وأسمعه ما هو الحق فيه عى عن الفهم ، وصم عن السمع ، وماجت الشهوة فيه ، وسطا الشيطان ، وتحركت الجوارح على وفق الهوى فظهرت المعصية إلى عالم الشهادة من عالم الغيب بقضاء من الله تعالى وقدره . وإلى مثل هذا القلب الإشارة بقوله تعالى ﴿ أرايت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا . أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا ﴾ ويقول عز وجل ﴿ لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ﴾ ويقول ﴿ سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ ورب قلب هذا حاله بالإضافة إلى بعض الشهوات كالذي يتوزع عن بعض الأشياء ولكنه إذا رأى وجها حسنا لم يملك عينه وقلبه وطاش عقله وسقط مساك قلبه ، أو كالذي لا يملك نفسه فيما فيه الجاه والرياسة والكبر ، ولا يبق معه مسكة للتثبت عند ظهور أسبابه ، أو كالذي لا يملك نفسه عند الغضب مهما استحقق وذكر عيب من غيره ، أو كالذي لا يملك نفسه عند القدرة على أخذ درهم أو دينار بل يتهالك عليه تهالك الواله المستهتر فينسى فيه المروءة والتقوى ، فكل ذلك لتصاعد دخان الهوى إلى القلب حتى يظلم وتنطفئ منه أنواره فينطفئ نور الحياء والمروءة والإيمان ويسعى في تحصيل مراد الشيطان .

القلب الثالث : قلب تبدو فيه خواطر الهوى فتدعوه إلى الشر فيلحقه غاطر الإيمان فيدعوه إلى الخير ، فتنبعث النفس بشهوتها إلى نصره غاطر الشر فتقوى الشهوة وتمحس التمتع والتنعيم ، فينبعث العقل إلى غاطر الخير ويدفع في وجه الشهوة ويحبس فعلها وينسبها إلى الجهل ويشبهها بالبهيمة والسبع في تهجمها على الشرقة أكثراتها بالمواقف فتميل النفس إلى نصع العقل فيحمل الشيطان حمة على العقل فيقوى داعي الهوى ويقول ما هذا التحرج البارد ولم تمتنع عن هواك فتؤذى نفسك ؟ وهل ترى أحدا من أهل عصرك يخالف هواه أو يترك غرضه ؟ أفترى أن يريد الدنيا يتمتعون بها وتحجر على نفسك حتى تبقى محروما شقيا متعوبا بضحكك عليك أهل الزمان ؟ أفترى أن يريد مصبك على فلان وفلان وقد فعلوا مثل ما اشتيت ولم يمتنعوا ؟ أما ترى العالم الفلاني ليس يمتنع من مثل ذلك ولو كان ذلك شرا لا تمتنع منه ؟ فتميل النفس إلى الشيطان وتقلب إليه ؛ فيحمل الملك حمة على الشيطان ويقول هل لك إلا من اتبع لذة الحال ونسى المآقية ؟ أفترى بلذة سيرة وتركت لذة الجنة ونعيمها أبد الآباد ؟ أم تستقل ألم الصبر عن شهواتك ولا تستقل ألم النار ؟ أفترى بشفلة الناس عن أنفسهم واتباعهم هواهم ومساعدتهم الشيطان مع أن عذاب النار لا يخففه عنك معصية غيرك ؟ أرايت لو كنت في يوم صائف شديد الحار ووقف الناس كلهم في الشمس وكان لك بيت بارد كنت تساعد الناس أو تطلب لنفسك الخلاص ؟ فكيف تخالف الناس خوفا من حر الشمس ولا تخالفهم خوفا من حر النار ؟ فمئذ ذلك تمثل النفس إلى قول الملك فلا يزال يردد بين الجندين متجادبين الحزين إلى أن يغلب على القلب ما هو أولى به فإن كانت الصفات التي في القلب الغالب عليها الصفات الشيطانية التي ذكرناها غلب الشيطان وما للقلب إلى جنسه من أحزاب الشيطان معرض عن حزب الله تعالى وأوليائه ، ومساعد أحزاب الشيطان وأعدائه ، وجري على جوارحه بسابق التقدر ما هو سبب بعده عن الله تعالى ، وإن كان الأغلب على القلب الصفات الملكية لم يصغ القلب إلى إغواء الشيطان

وتحريضه إياه على المعالجة وتهويله أمر الآخرة ، بل مال إلى حزب الله تعالى وظهرت الطاعة بموجب ما سبق من القضاء على جوارحه ، فقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن - أى بين تمجاذب مدين الجنتين وهو الثالب أعى التقلب والانتقال من حزب إلى حزب ، أما الثبات على الهدى مع حزب الملائكة أو مع حزب الشيطان فأنه من الخاتين وهذه الطاعات والمعاصى تظهر من خزانة الغيب إلى عالم الشهادة بواسطة خزانة القلب فإنه من خزانة الملكوت ، وهى أيضا إذا ظهرت كانت علامات تميز أرباب القلوب سابق القضاء . فمن خلق للجنة يسرت له أسباب الطاعات ومن خلق للنار يسرت له أسباب المعاصى وسلط عليه أقران السوء وألقى في قلبه حكم الشيطان ، فإنه بأنواع الحكم يفر الحق بقوله : إن الله رحيم فلا تبال . وإن الناس كلهم ما يخافون الله فلا تخافهم ، وإن العبر طويل فأصبر حتى توب غدا ( يدمم ويمنهم وما يدمم الشيطان إلا غرورا ) يدمم التوبة ويمنهم المغفرة فيلكم بإذن الله تعالى بهذه الخيل وما يجري مجراها ، فيوسع قلبه لقبول الغرور ويضيقه عن قبول الحق ، وكل ذلك بقضاء من الله وقدر ( فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء . إن يصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فأن ذا الذى يصركم من بعده ) فهو الهادى والمضل يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لأراد لحكمه ولا معقب لقضائه . خلق الجنة وخلق لها أهلا فاستعملهم بالطاعة ، وخلق النار وخلق لها أهلا فاستعملهم بالمعاصى . وعرف الخلق علامة أهل الجنة وأهل النار فقال ( إن الأبرار لى نعيم وإن الفجار لى جحيم ) ثم قال تعالى فيما روى عن نبيه صلى الله عليه وسلم : هؤلاء فى الجنة ولا أبالى وهؤلاء فى النار ولا أبالى <sup>(١)</sup> ، فتعالى الله الملك الحق لا يستل عما يفعل وهم يسئلون .

ولنتقص على هذا القدر اليسير من ذكر عجائب القلب فإن استقصاءه لا يليق بلم المعاملة ، وإنما ذكرنا منه ما يحتاج إليه لمعرفة أغوار علوم المعاملة وأسرارها لينتفع بها من لا يفتن بالظواهر ولا يهتدى بالقشر عن الباب بل يتشوق إلى معرفة دقائق حقائق الأسباب . وفيما ذكرناه كفاية له ومقتنع إن شاء الله تعالى والله ولى التوفيق .  
تم كتاب عجائب القلب لله الحمد والمئة . ويتلوه كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق ، والحمد لله وحده وصلى الله على كل عبد مصطفى .

## كتاب رياضة النفس

### وتهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب

وهو الكتاب الثانى من ريع المهلكات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى صرف الأمور بتدبيره وحل تركيب الخلق فأحسن فى تصويره ، وزين صورة الإنسان بحسن تقويمه وتقديره ، وحرسه من الزياد والقصان فى شكله ومقاديره ، وفوض تحسين الأخلاق إلى اجتهاد العبد وتشميره واستحثه على تهذيبها بتخويفه وتحذيره ، وسهل على عباده تهذيب الأخلاق بتوفيقه ويسره ، وامتن عليهم

(١) حديث : قال الله عز وجل هؤلاء فى الجنة ولا أبالى وهؤلاء فى النار ولا أبالى ، أخرجه أحمد وابن حبان من حديث عبد الرحمن بن قتادة السلى وقال ابن عبد البر فى الاستيعاب أنه مضطرب الاستدلال .



بتسهيل صعبه وعسيرة ، والصلاة والسلام على محمد عبد الله ونبيه وحبيه وصفيه وبشيريه ونذيره ، الذى كان يلوح أنوار النبوة من بين أساريه ، ويستشرف حقيقة الحق من غثائه وتباشريه ، وعلى آله وأصحابه الذين طهروا وجه الإسلام من غلظة الكفر ودياجيره ، وحسموا مادة الباطل فلم يتدنسوا بقليله ولا بكثيره :

أما بعد : فالخلق الحسن صفة سيد المرسلين وأفضل أعمال الصديقين ، وهو على التحقيق شطر الدين وثمرة مجاهدة المتقين ورياضة المتعبدين . والأخلاق السيئة هي السموم القاتلة والمهلكات الدائمة والمخازى الفاضحة والذائل الواضحة والخبائث المبيدة عن جوار رب العالمين ، المنخرطة بصاحبها في سلك الشياطين ، وهي الأبواب المفتوحة إلى نار الله تعالى الموقدة التى تطلع على الأفئدة ، كما أن الأخلاق الجميلة هي الأبواب المفتوحة من القلب إلى نعيم الجنان وجوار الرحمن ، والأخلاق الخبيثة أمراض القلوب وأسقام النفوس إلا أنه مرض يفوت حياة الأبد ، وأين منه المرض الذى لا يفوت إلا الحياة الجسد ؟ ومهما اشتدت عناية الأطباء بضبط قوانين العلاج للأبدان وليس في مرضها إلا فوت الحياة الفانية ، فالعناية بضبط قوانين العلاج لأمراض القلوب وفي مرضها فوت حياة أقية أولى ، وهذا النوع من الطب واجب تعلمه على كل ذى لب إذ لا يخلو قلب من القلوب عن أسقامها وأهملت تراكت وترادفت العلل وتظاهرت ، فيحتاج العبد إلى تأتى في معرفه عللها وأسبابها ثم إلى تسميع في علاجها وإصلاحها ، فمعالجتها هو المراد بقوله تعالى ( قد أفلح من زكاهما ) وإهمالها هو المراد بقوله ( وقد خاب من دساها ) ونحن نشير في هذا الكتاب إلى جمل من أمراض القلوب وكيفية القول في معالجتها على الجملة من غير تفصيل لعلاج خصوص الأمراض ، فإن ذلك يأتي في بقية الكتب من هذا الريع وغرضنا الآن النظر الكلى في تهذيب الأخلاق وتهذيب مناجها . ونحن نذكر ذلك ونجعل علاج البدن مثالا له ليقرب من الأفهام دركة ويتضح ذلك ببيان فضيلة حسن الخلق ، ثم بيان حقيقة حسن الخلق ، ثم بيان قبول الأخلاق للتغير بالريضة ، ثم بيان السبب الذى به ينال حسن الخلق ، ثم بيان الطرق التى بها يعرف تفصيل الطرق إلى تهذيب الأخلاق ورياضة النفوس ، ثم بيان العلامات التى بها يعرف مرض القلب ثم بيان الطرق التى بها يعرف الإنسان عيوب نفسه ، ثم بيان شواهد التعلل على أن طريق المعالجة للقلوب يترك الشهوات لأغبر ، ثم بيان علامات حسن الخلق ، ثم بيان الطريق في رياضة الصبيان في أول النشوء ، ثم بيان شروط الإرادة ومقدمات المجاهدة فهى أحد عشر فصلا يجمع مقاصدها هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

### بيان فضيلة حسن الخلق ومذمة سوء الخلق

قال الله تعالى لنبيه وحبيه مثنيا عليه ومظورا نعمته لديه ( وإنك لعل خلق عظيم ) وقالت عائشة رضى الله عنها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خلقه القرآن <sup>(١)</sup> . وأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حسن الخلق فقلنا قوله تعالى ( خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ) ثم قال صلى الله عليه وسلم : هو أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتمنع ظلك <sup>(٢)</sup> . وقال صلى الله عليه وسلم : ( إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق <sup>(٣)</sup> ) . وقال صلى الله عليه وسلم : ( أقل ما يوضع في الميزان يوم القيامة تقوى الله وحسن الخلق <sup>(٤)</sup> ) ، وجامر رجل إلى رسول الله

### كتاب رياضة النفس

- (١) حديث عائشة : كان خلقه القرآن تقدم وهو عند مسلم (٢) حديث : ( تأول قوله تعالى ( خذ العفو ) الآية هو أن تصل من قطعك . . الحديث ) أخرجه ابن مردويه من حديث جابر ونسب بن سعد بن عباد وأبو أسانيد حسان .
  - (٣) حديث : ( بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ) أخرجه أحمد والحاكم والبيهقي من حديث أبي هريرة وتقدم في آداب الصبغة .
  - (٤) حديث : ( أقل ما يوضع في الميزان خلق حسن ) أخرجه أبو داود والترمذي وصححه من حديث أبي هريرة .
- (٧ - لحياء علوم الدين - ٣)

صلى الله عليه وسلم من بين يديه فقال : يا رسول الله ما الدين ؟ قال « حسن الخلق » فأثام من قبل يمينه فقال : يا رسول الله ما الدين ؟ قال « حسن الخلق » ثم أثام من قبل شماله فقال : ما الدين ؟ فقال « حسن الخلق » ثم أثام من وراءه فقال يا رسول الله ما الدين ؟ فالتفت إليه وقال « أما تفقه ؟ هو أن لا تغضب »<sup>(١)</sup> وقيل يا رسول الله ما الشؤم ؟ قال « سوء الخلق »<sup>(٢)</sup> وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : أوصني فقال « اتق الله حينما كنت » قال زدني قال « أتبع السيئة الحسنة تمحها » قال زدني قال « خالق الناس بمخلق حسن »<sup>(٣)</sup> وسئل عليه السلام : أى الأعمال أفضل ؟ قال « خلق حسن » وقال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : ما حسن الله خلق عبد وخلقته فيعلمه النار »<sup>(٤)</sup> وقال الفضيل قيل لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وهى سيئة الخلق تؤذى جيرانها بلسانها قال « لا خير فيها هى من أهل النار » وقال أبو الدرداء سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم يقول « أول ما يوضع فى الميزان حسن الخلق والسخاء ولما خلق الله الإيمان قال اللهم قوئى فقوماء بحسن الخلق والسخاء » ولما خلق الله الكفر قال اللهم قوئى فقواء بالبدل وسوء الخلق »<sup>(٥)</sup> وقال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « إن الله استخلص هذا الدين لنفسه ولا يصلح لدينكم إلا السخاء وحسن الخلق ألا فزبنوا دينكم بهما »<sup>(٦)</sup> وقال عليه السلام « حسن الخلق خلق الله الأعظم »<sup>(٧)</sup> وقيل : يا رسول الله أى المؤمنين أفضل إيماناً ؟ قال « أحسنهم خلقاً »<sup>(٨)</sup> وقال صلى الله تعالى عليه وسلم « إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق »<sup>(٩)</sup> وقال أيضاً صلى الله تعالى عليه وسلم « سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل »<sup>(١٠)</sup> وعن جرير بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنك امرؤ قد حسن الله خلقك لحسن خلقك »<sup>(١١)</sup> وعن البراء بن عازب قال كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أحسن الناس وجهاً وأحسنهم خلقاً »<sup>(١٢)</sup> وعن أبي مسعود البدرى قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى دعائه « اللهم حسن خلقى لحسن خلقى »<sup>(١٣)</sup> وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثّر الدعاء فيقول « اللهم إني أسألك

- (١) حديث : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم من بين يديه فقال : ما الدين ؟ قال « حسن الخلق .. الحديث » أخرجه محمد بن نصر المروزي فى كتاب تغريب قدر الصلاة من رواية أبي العلاء بن الخير مرسلًا (٢) حديث : ما الشؤم ؟ قال « سوء الخلق » أخرجه أحمد بن حديث عائشة « الشؤم سوء الخلق » ولأن داود من حديث رافع بن مكيت « سوء الخلق شؤم » وكلامه لا يصح (٣) حديث : قال رجل أوصني قال « اتق الله حينما كنت .. الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أبي ذر وقال حسن صحيح (٤) حديث « ما حسن الله خلقى امرئ وخلقته فقصه النار » تقدم فى آداب الصبغة . (٥) حديث أبي الفرداء « أول ما يوضع فى الميزان حسن الخلق .. الحديث » لم ألق له هل أصل هكذا ولأن داود واترمذى من حديث أبي الفرداء « علمنى به فى الميزان أفضل من حسن الخلق » وقال غريب وقال فى بعض طرقه صحيح (٦) حديث « إن الله استخلص هذا الدين لنفسه .. الحديث » أخرجه البخارى فى كتاب الاستجداء ، والمراعى فى مكارم الأخلاق من حديث أبي سعيد الخدرى بإسناد فيه لين (٧) حديث « حسن الخلق خلق الله الأعظم » أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث حماد بن أسمر بسند ضعيف (٨) حديث : قيل لرسول الله أى المؤمنين أفضلهم إيماناً ؟ قال « أحسنهم خلقاً » أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى والمالك من حديث أبي هريرة وتقدم فى التساكيف لفظ « أكل المؤمنين » والطبرانى من حديث أبي أمامة « أفضلكم إيماناً أحسنكم خلقاً » (٩) حديث « إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق » أخرجه البخارى وأبو يلى واللبان فى مكارم الأخلاق من حديث أبي هريرة وتقدم فى التساكيف لفظ « أكل المؤمنين » والطبرانى من حديث أبي أمامة يفسد العمل كما يفسد الخل العسل » أخرجه ابن حبان فى الضعفاء من حديث أبي هريرة والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس وأبي هريرة أيضاً وضمهما ابن جرير (١١) حديث « إنك امرؤ قد حسن الله خلقك فأحسن خلقك » أخرجه الحارثى فى مكارم الأخلاق وأبو العباس الغفرى فى كتاب الآداب وفيه ضعف (١٢) حديث البراء : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وجهاً وأحسنهم خلقاً أخرجه الحارثى فى مكارم الأخلاق مكنى من رواية عبد الله بن أبي الهذيل من أبي مسعود البدرى « اللهم كما حسنت خلقى لحسن خلقى » أخرجه الحارثى فى مكارم الأخلاق مكنى من رواية عبد الله بن أبي الهذيل من أبي مسعود البدرى « اللهم كما حسنت إني مسعود أى عبد الله » هكذا رواه ابن حبان فى صحيحه ورواه أحمد بن حديث عائشة .

الصحة والمافية وحسن الخلق <sup>(١)</sup> » وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال « كرم المؤمن دينه ، وحسبه حسن خلقه ، ومروءته عقله <sup>(٢)</sup> » وعن أسامة بن شريك قال : شهدت الأعارب يسألون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقولون ماخير ما أعطى العبد ؟ قال « خلق حسن <sup>(٣)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « إن أحبك إلى وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا <sup>(٤)</sup> » وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاث من لم تكن فيه أو واحدة منهن فلا تعدوا بشيء من عمله تقوى تحجزه عن معاصي الله أو حلم يكف به السفية أو خلق يعيش به بين الناس <sup>(٥)</sup> » وكان من دعائه صلى الله تعالى عليه وسلم في افتتاح الصلاة « اللهم اهدنى لأحسن الأخلاق لا يهدنى لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت <sup>(٦)</sup> » وقال أنس : بيننا نحن مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يوما إذ قال « إن حسنا لخلق ليذهب الخطيئة كاذيب الشمس الجليلد <sup>(٧)</sup> » وقال عليه السلام « من سعادة المرء حسن الخلق <sup>(٨)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « أيمن حسن الخلق <sup>(٩)</sup> » وقال عليه السلام لأبي ذر « يا أبا ذر لا عقل كالتدبير ولا حسب كحسن الخلق <sup>(١٠)</sup> » وعن أنس قال : قالت أم حبيبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أ رأيت المرأة يكون لها زوجان في الدنيا فموت ويبرئان ويدخلون الجنة لأيهما هي تكون ؟ قال « لأحسنهما خلقا كان عندهما في الدنيا ، يأثم حبيبة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة <sup>(١١)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « إن المسلم المسد ليدرك رتبة الصائم القائم بحسن خلقه وكرم مربيته <sup>(١٢)</sup> » وفي رواية « درجة الظلمان في المواجه ، وقال عبد الرحمن بن سمرة : كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال « إني رأيت البارحة عجبا رأيت رجلا من أمتي جائسا على ركبتيه وبينه وبين الله حجاب بلجاء حسن خلقه فأخذه على الله تعالى <sup>(١٣)</sup> » وقال أنس : قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة وشرف المنازل وإنه لضعيف في العبادة <sup>(١٤)</sup> » وروى : أن عمر رضى الله عنه استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده

- (١) حديث عبد الله بن عمرو « اللهم إني أسألك الصحة والمافية وحسن الخلق » أخرجه الحرايطى في مكارم الأخلاق بإسناد فيه ابن (٢) حديث أبي هريرة « أرم المرء دينه ومروءته عقله وحسن خلقه » أخرجه ابن حبان وإسحاق وصححه على شرط مسلم والبيهقى . قلت فيه مسلم بن خالد الزنجي وله تكلم فيه . قال البيهقى وروى من وجهين آخرين ضعيفين ثم رواه موقوفا على عمر وقال أسناد صحيح (٣) حديث أسامة بن شريك : شهدت الأعارب يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم ماخير ما أعطى العبد ؟ قال « خلق حسن » أخرجه ابن ماجه وفتحهم في آداب الصعبة .
- (٤) حديث « إن أحبك إلى الله وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا » أخرجه الطبراني في الصغير والأوسط من حديث أبي هريرة « إن أحبك إلى الله أحاسنكم أخلاقا » والطبراني في مكارم الأخلاق من حديث جابر « إن أقربكم منى مجلسا أحاسنكم أخلاقا » وقد تقدم الحديثان في آداب الصعبة (٥) حديث ابن عباس « ثلاث من لم يكن فيه أو واحدة منهن فلا تعد بهى من عمله ... الحديث » أخرجه الحرايطى في مكارم الأخلاق بإسناد ضعيف ورواه الطبراني في الكبير وفي مكارم الأخلاق من حديث أم سلمة (٦) حديث « اللهم اهدنى لأحسن الأخلاق... الحديث » أخرجه مسلم من حديث على (٧) حديث أنس : إن حسن الخلق يذهب الخطيئة كما يذهب القميس الجليلد .. أخرجه الحرايطى في مكارم الأخلاق بإسناد ضعيف ورواه الطبراني والبيهقى في الشعب من حديث ابن عباس ووضعه وكذا رواه من حديث أبي هريرة ووضعه أيضا (٨) حديث « من سعادة المرء حسن الخلق » أخرجه الحرايطى في مكارم الأخلاق والبيهقى في الشعب من حديث جابر بإسناد ضعيف (٩) حديث « أيمن حسن الخلق » أخرجه الحرايطى في مكارم الأخلاق من حديث علي بإسناد ضعيف (١٠) حديث « يا أبا ذر لا عقل كالتدبير ولا حسب كحسن الخلق » أخرجه ابن ماجه وابن حبان من حديث أبي ذر (١١) حديث أنس : قالت أم حبيبة لرسول الله أ رأيت المرأة يكون لها زوجان الحديث أخرجه الزبارة والطبراني في الكبير والحرايطى في مكارم الأخلاق بإسناد ضعيف (١٢) حديث « إن المسلم المصد يدرك درجة الصائم القائم بحسن خلقه .. الحديث » أخرجه أحمد من حديث عباد بن عمرو وإرواة الأولى ومن حديث أبي هريرة بإرواية الثانية ولها ابن أبي عمير (١٣) حديث عبد الرحمن بن سمرة « إني رأيت البارحة عجبا .. الحديث » أخرجه الحرايطى في مكارم الأخلاق بإسناد ضعيف (١٤) حديث « إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة .. الحديث » أخرجه الطبراني والحرايطى في مكارم الأخلاق وأبو الفيخ في كتاب مكارم الأخلاق وأبو الفيخ في كتاب طبقات الأصهاريين من حديث أنس بإسناد جيد .

نساء من نساء قريش يكلمنه ويستكثرنه عالية أصواتهن على صوته فلما استأذن عمر رضي الله عنه بتأدين الحجاب فدخل عمر ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك فقال عمر رضي الله عنه : مم تضحك بأني أنت وأمي يا رسول الله؟ فقال : عجبت لمؤلائي كني عندي لما سمعت صوتك بتأدين الحجاب ، فقال عمر : أنت كنت أحق أن يهينك يا رسول الله ، ثم أقبل عليهن عمر فقال : يا عذوات أنفسهن أتبهنني ولاتبهن رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قلن : نعم أنت أغلظ وأفظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم : لهن يا ابن الخطاب والذي نفسي بيده ما تفيك الشيطان قط سالكا لجا إلا سلك لجا غير جلك <sup>(١)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم : « سوء الخلق ذنب لا ينفر وسوء الظن خطيئة تفوح <sup>(٢)</sup> » وقال عليه السلام : « إن العبد ليبلغ من سوء خلقه أسفل درك جهنم <sup>(٣)</sup> » .

الآثار : قال ابن لقمان الحكيم لأبيه : يا أبت أي الخصال من الإنسان خير ؟ قال : الدين ، قال : فإذا كانت الفتن ؟ قال : الدين والمال . قال : فإذا كانت ثلاثا ؟ قال : الدين والمال والحياة ، قال : فإذا كانت أربعاً ؟ قال : الدين والمال والحياة وحسن الخلق والسخاء ، قال : فإذا كانت ستاً ؟ قال : يأتي إذا اجتمعت فيه الحسن خصال فهو نقي تقى الله ولي ومن البطلان يرى ، وقال الحسن من ساء خلقه عذب نفسه . وقال أنس بن مالك : إن العبد ليبلغ بحسن خلقه أعلى درجة في الجنة وهو غير عابد ويبلغ بسوء خلقه أسفل درك في جهنم وهو عابد . وقال يحيى بن معاذ : في سمة الأخلاق كنوز الأرزاق . وقال وهب ابن منبه : مثل السيء الخلق كمثل الفخارة المكسورة لا ترفع ولا تهادطينا . وقال الفضيل : لأن يصحني فأجر حسن الخلق أحب إل من أن يصحني عابد سيء الخلق . وصحب ابن المبارك رجلا سيء الخلق في سفر فكان يحتمل منه ويداريه فلما طارقه بكى فقيل له في ذلك فقال : بكيته رحمة له ، طارقه وخلقه معه بقراته ، وقال الجنيد : أربع ترفع العبد إلى أعلى الدرجات وإن قل عمله وعمله : الحلم والتواضع والسخاء وحسن الخلق وهو كمال الإيمان . وقال السكاني التصوف خلق من زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف . وقال عمر رضي الله عنه : غاظوا الناس بالأخلاق وزايلهم بالأعمال . وقال يحيى بن معاذ : سوء الخلق سيئة لا تنفع معها كثرة الحسنات ، وحسن الخلق حسنة لا تنصر معها كثرة السيئات . وسئل ابن عباس : ما الكرم ؟ فقال : هو ما بين الله في كتابه العزيز ( « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ) قيل فما الحسب ؟ قال : أحسنكم خلقاً أفضلكم حسباً . وقال : لكل بغيان أساس وأساس الإسلام حسن الخلق . وقال عطاء : ما ارتفع من ارتفع إلا بالخلق الحسن ، ولم يزل أحد كماله إلا المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فأقرب الخلق إلى الله عز وجل السالكون آثاره بحسن الخلق .

### بيان حقيقة حسن الخلق وسوء الخلق

اعلم أن الناس قد تكلموا في حقيقة حسن الخلق وأنه ماهو ، وما تعرضوا لحقيقته وإنما تعرضوا لثمرته ثم لم يستوعبوا جميع ثمراته ، بل ذكر كل واحد من ثمراته ما خطر له وما كان حاضرا في ذهنه ولم يصفروا العناية إلى ذكر حده وحقيقته المحيطة بجميع ثمراته على التفصيل والاستيعاب ، وذلك كقول الحسن : حسن الخلق بسط الوجه

(١) حديث : لأن عمر استأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده نساء من قريش يكلمنه ويستكثرنه . الحديث . متفق عليه . (٢) حديث « سوء الخلق ذنب لا يفر » الحديث . أخرجه الطبراني في المعجمين حديث عائشة : ما من شيء إلا لله توبة إلا صاحب سوء الخلق فإنه لا يجزى من ذنب إلا ما د في شره . وإسناده ضعيف . (٣) حديث : لأن العبد ليبلغ من سوء خلقه أسفل درك جهنم . أخرجه الطبراني والخرازمي في مكارم الأخلاق وأبو الشيخ في طبقات الأصفيين من حديث أنس بإسناد جيد وهو من الحديث الذي فيه حديثين .

وبذل الندى وكف الأذى . وقال الراسطى : هو أن لا يتخاصم ولا يتخاصم من شدة معرفته بالله تعالى . وقال شاه الكرمانى : هو كف الأذى واحتمال اللؤن . وقال بعضهم : هو أن يكون من الناس قريباً وفيما بينهم غريباً . وقال الراسطى مرة : هو إرضاء الخلق في السراء والضراء . وقال أبو عثمان : هو الرضا عن الله تعالى . وسئل سهل القسرى عن حسن الخلق فقال : أدناه الاحتياط وترك المسكافة والرحمة للظالم والاستغفار له ، والتفقه عليه ، وقال مرة : أن لا يتهم الخلق في الرزق ويثق به ويسكن إلى الوفاء بما ضمن فيطيعه ولا يعصيه في جميع الأمور فيبته وبينه وفيما بينه وبين الناس . وقال على رضى الله عنه . حسن الخلق في ثلاث خصال اجتناب المحارم وطلب الحلال والتوسعة على العيال . وقال الحسين بن منصور : هو أن لا يؤثر فيك جفاء الخلق بعد مطالعتك للحق . وقال أبو سعيد الخراز : هو أن لا يكون لك هم غير الله تعالى . فهذا وأمثاله كثير ، وهو تعرض لثلاث حسن الخلق لنفسه ، ثم ليس هو محيطاً بجميع الثمرات أيضاً . وكشف التطاء عن الحقيقة أولى من نقل الأقاويل المختلفة .

فنعول : الخلق والخلق عبارتان مستعملتان معاً ، يقال : فلان حسن الخلق والخلق - أى حسن الباطن والظاهر - فيراد بالخلق الصورة الظاهرة ، ويراد بالخلق الصورة الباطنة . وذلك لأن الإنسان مركب من جسد مدرك بالبصر ومن روح ونفس مدرك بالبصيرة . ولكل واحد منهما هيئة وصورة إما قبيحة وإما جميلة . فالتفكير المدركة بالبصيرة أعظم قدراً من الجسد المدرك بالبصر . ولذلك عظم الله أمره بإضافته إليه إذ قال تعالى (إني خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين) فبه على أن الجسد منسوب إلى الطين والروح إلى رب العالمين . والمراد بالروح والنفس في هذا المقام واحد ؛ فالخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة ، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية ، فإن كانت الهيئته بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً سميت تلك الهيئته خلقاً حسناً ، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئته التي هي المصدر خلقاً شيطاً . وإنما قلنا إنها هيئة راسخة ، لأن من يصدر منه بذل المال على التدور حاجة عارضة لا يقال خلقه السخاء مالم يثبت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ . وإنما اشترطنا أن تصدر منه الأفعال بسهولة من غير روية لأن من تكلف بذل المال أو السكوت عند الغضب بمجهود وروية لا يقال خلقه السخاء والحلم .

فهنا أربعة أمور ؛ أحدها : فعل الجميل والقبیح . والثاني : القدرة عليهما . والثالث : المعرفة بهما . والرابع : هيئة النفس بها تميل إلى أحد الجانبين ويتيسر عليها أحد الأمرين ؛ إما الحسن وإما القبيح .

وليس الخلق عبارة عن الفعل ، فرب شخص خلقه السخاء ولا يبذل إما لفقد المال أو لمنافع ، وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل إما لباهت أو لرياء وليس هو عبارة عن القوة ؛ لأن نسبة القوة إلى الإمساك والإعطاء بل إلى الضيقين واحد . وكل إنسان خلق بالفطرة قادر على الإعطاء والإمساك ، وذلك لا يوجب خلق البخل ولا خلق السخاء وليس هو عبارة عن المعرفة فإن المعرفة تتعلق بالجميل والتيسر جميعاً على وجه واحد . بل هو عبارة عن المعنى الرابع ، وهو الهيئته التي بها تستند النفس لأن يصدر منها الإمساك أو البذل . فالخلق إذن عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة . وكما أن حسن الصورة الظاهرة مطلقاً لا يتم بحسن البتين دون الآف والمم والمذلل لابد من حسن الجميع ليتم حسن الظاهر ؛ فكذلك في الباطن أربعة أركان لابد من الحسن في جميعها حتى يتم حسن الخلق . فإذا استوت الأركان الأربعة واعتدلت وتماست حصل حسن الخلق وهو : قوة العلم ، وقوة الغضب ، وقوة الشهوة ، وقوة العدل بين هذه القوى الثلاث

أما قوة العلم لحسنها وصلاحتها في أن تصير بحيث يسهل بها درك الفرق بين الصدق والكذب في الأقوال ، وبين الحق والباطل في الاعتقادات ، وبين الجليل والقيسح في الأفعال فإذا صلحت هذه القوة حصل منها ثمرة الحكمة والحكمة رأس الأخلاق الحسنة . وهي التي قال الله فيها ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ﴾ .

وأما قوة الغضب : لحسنها في أن يصير اقتباسها وانسياطها على حد ما تقتضيه الحكمة ؛ وكذلك الشهوة حسناتها وصلاحتها في أن تكون تحت إشارة الحكمة ، أعني إشارة العقل والشرع .

وأما قوة العدل فهو منبسط الشهوة والغضب تحت إشارة العقل والشرع

فالعقل مثاله مثال الناصح المشير . وقوة العدل هي القدرة ، ومثاله مثال المنفذ الممضي لإشارة العقل . والغضب هو الذي تنفذ فيه الإشارة ، ومثاله مثال كلب الصيد فإنه يحتاج إلى أن يودب حتى يكون استرساله وتوقفه بحسب الإشارة لا بحسب هيجان شهوة النفس . والشهوة مثاله مثال الفرس الذي يركب في طلب الصيد فإنه تارة يكون مروضاً ، وتارة يكون جوحاً . فن استوت فيه هذه الخصال واعتدلت فهو حسن الخلق مطلقاً . ومن اعتدل فيه بعضها دون البعض فهو حسن الخلق بالإضافة إلى ذلك المعنى خاصة كالذي يحسن بعض أجزائه وجهه دون بعض . وحسن القوة الغضبية واعتدالها يعبر عنه بالشجاعة . وحسن قوة الشهوة واعتدالها يعبر عنه بالمعفة .

فإن مالت قوة الغضب عن الاعتدال إلى طرف الزيادة تسمى تهوراً ، وإن مالت إلى الضيف والتقصان تسمى جبنًا وخورًا . وإن مالت قوة الشهوة إلى طرف الزيادة تسمى شرها ، وإن مالت إلى التقصان تسمى جوداً . والمحمود هو الوسط وهو الفضيلة ، والطرقتان رذيلتان مذمومتان والعدل إذا قات فليس له طرفاً زيادة وتقصان بل له ضد واحد ومقابل وهو الجور .

وأما الحكمة فيسمى إفراطها عند الاستعمال في الأغراض الفاسدة خبثاً وجبرية ، ويسمى تفريطها بلها ، والوسط هو الذي يختص باسم الحكمة .

فإن أمهات الأخلاق وأصولها أربعة : الحكمة ، والشجاعة ، والمعفة ، والعدل . ونعني بالحكمة حالة النفس بها يدرك الصواب من الخطأ في جميع الأفعال الاختيارية . ونعني بالعدل حالة النفس وقوة بها تسوس الغضب والشهوة وتعملهما على مقتضى الحكمة وتضبطهما في الاسترسال والانتقايض على حسب مقتضاها . ونعني بالشجاعة كون قوة الغضب منفاعة للعقل في إقدامها وأحجامها . ونعني بالمعفة تأذي قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع .

فن اعتدال هذه الأصول الأربعة تصدر الأخلاق الجميلة كلها .

لذا من اعتدال قوة العقل : يحصل حسن التدبير وجودة الذهن ومقابلة الرأي وإصابة الظن والتفطن لدقائق الأعمال وخفايا آفات النفوس . ومن إفراطها : تصدر الجبرية والمكر والندام والدماء . ومن تفريطها : يصدر البله والغفارة والحق والجنون . وأعني بالتمارة قلة التجربة في الأمور مع سلامة التخيل فقد يكون الإنسان غمراني شيء دون شيء . والفرق بين الحق والجنون : أن الآحق مقصوده صحيح ولكن سلوكه الطريق فاسد فلا تكون له روية صحيحة في سلوك الطريق الموصول إلى الغرض ، وأما الجنون فإنه يختار ما لا ينبغي أن يختار فيكون أصل اختياره وإشارته فاسداً .

وأما خلق الشجاعة : فيصدر منه الكرم والتجدة والشهامة وكسر النفس والاحتفال والملم والثبات وكظم النفيظ والوقار والتودد وأمثالها وهي أخلاق عمودة . وأما إفراطها وهو التهور : فيصدر منه الصلف والبذخ

والاستنابة والتكبر والعجب . وأما تفريطها : فيصدر منه المهاة والدلة والجورع والحساسة وصغر النفس والاقباض عن تناول الحق الواجب .

وأما خلق العفة : فيصدر منه السخاء والحياء والصبر والمساعة والقناعة والورع والطلاقة والمساعدة والظرف وقلة الطمع . وأما ميلها إلى الإفراط أو التفريط : فيحصل منه الحرص والشره والوفاة والحيث والتبذير والتفتير والرياء والمتسكة والمجانة والعيب والملق والحسد والشبهة والتذلل للأغنياء واستحقار الفقراء وغير ذلك .

فأمهات محاسن الأخلاق هذه الفضائل الأربعة : وهي الحكمة ، والشجاعة ، والعفة ، والعدل . والباقي فروعها .

ولم يبلغ كال الاعتدال في هذه الأربع إلا رسول صلى الله عليه وسلم ، والناس بعده متفاوتون في القرب والبعد منه . فكل من قرب منه في هذه الأخلاق فهو قريب من الله تعالى بقدر قربه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكل من جمع كال هذه الأخلاق استحق أن يكون بين الخلق ملكا مطاعا يرجع الخلق كلهم إليه ويعتدون به في جميع الأفعال . ومن انفك عن هذه الأخلاق كلها واتصف بضدادها استحق أن يخرج من بين البلاد والبياد فإنه قد قرب من الشيطان اللعين للبعد ، فينبغي أن يبعد ، كما أن الأول قريب من الملك للمقرب فينبغي أن يقتدى به ويتقرب إليه فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبعث إلا ليشتم مكارم الأخلاق كما قال (١) .

وقد أشار القرآن إلى هذه الأخلاق في أوصاف المؤمنين فقال تعالى ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون ﴾ فالإيمان بالله وبرسوله من غير ارتياب هو قوة اليقين وهو ثمرة العقل . ومنتهى الحكمة والمجاهدة بالمال هو السخاء الذي يرجع إلى ضبط قوة الشهوة . والمجاهدة بالنفس هي الشجاعة التي ترجع إلى استعمال قوة الغضب على شرط العقل وحده الاعتدال . فقد وصف الله تعالى الصحابة فقال ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ إشارة إلى أن الشدة موضعها والرحمة موضعها ، فليس السكال في الشدة بكل حال ولا في الرحمة بكل حال . فهذا بيان معنى الخلق وحسنه وقبحه ويسان أركانه وثمراته وفروعه .

### بيان قبول الأخلاق للتغير بطريق الرياضة

اعلم أن بعض من غلبت البطالة عليه استقل المجاهدة والرياضة واشتغال بتركة النفس وتبذير الأخلاق ، فلم تسمح نفسه بأن يكون ذلك لقصوره ونقصه وخشيت دخلة فزعم أن الأخلاق لا يتصور تغييرها فلأن الطبع لا يتغير .

واستدل فيه بأمرين ؛ أحدهما : أن الخلق هو صورة الباطن كما أن الخلق هو صورة الظاهر . فالخلقة الظاهرة لا يقدر على تغييرها فالقصور لا يقدر أن يجعل نفسه طويلا ولا الطويل يقدر أن يجعل نفسه قصيرا ولا القبيح يقدر على تحسين صورته ، فكذلك القبح الباطن يجري هذا المجرى . والثاني : أنهم قالوا حسن الخلق يقع الشهوة والغضب . وقد جزئنا ذلك بطول المجاهدة وعرضا أن ذلك من مقتضى المزاج والطبع فإنه قد لا ينقطع عن الأدنى فاشتغاله به تعريض زمان بغير فائدة . فإن للطلب هو قطع التفات القلب إلى المخطوط المأجلة وذلك عمال وجوده . فنقول : لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الرصايا والمواظب والتأديبات ، ولما قال رسول الله

(١) حديث « بشت لأعم مكارم الأخلاق » تقدم في آداب الصحبة .

صلى الله عليه وسلم «حسنوا أخلاقكم»<sup>(١)</sup> ، وكيف ينكر هذا في حق الآدى وتغيير خلق الهممة يمكن إذ ينقل البازي من الاستباحة إلى الأكل ، والكلب من شره الأكل إلى التأديب والإسك والتخليه ، والفرس من الجاح إلى السلاسة والاعتقاد وكل ذلك تغيير للأخلاق .

والقول الكاشف للغطاء عن ذلك أن تقول : الموجودات مقسمة إلى مالا مدخل للادعى واختياره في أصله وتفصيله ، كالسباع والكواكب ، بل أعضاء البدن داخلا وخارجا ، وسائر أجزاء الحيوانات . وبالجملة كل ما هو حاصل كامل وقع الفراغ من وجوده وكاله وإلى ما وجد وجودا ناقصا وجعل فيه قوة لقبول الكمال بعد أن وجد شرطه . وشرطه قد يرتبط باختيار العبد فإن التواء ليست بتفاح ولا تغل إلا أنها خلقت خلقه يمكن أن تصير نخلة إذا انضاف التربة إليها ، ولا تصير تفاحا أصلا ولا بالتربة ، فإذا صارت التواء متأثرة بالاختيار حتى تقبل بعض الأحوال دون بعض فكذا ذلك الغضب والشهوة لو أردنا قهرهما بالكلية حتى لا يبق لهما أثر لم نقدر عليه أصلا ، ولو أردنا سلاستهما وقودهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه . وقد أمرنا بذلك وصار ذلك سبب نجارتنا ووصولنا إلى الله تعالى . نعم الجلبات مختلفة بعضها سريعة القبول وبعضها بطيئة القبول ولاختلافها سببان .

أحدهما : قوة الفريزة في أصل الجلبة وامتداد مدة الوجود فلن قوة الشهوة والغضب والتكبر موجودة في الإنسان ، ولكن أصعبها أمرا وأعصاها على التغيير قوة الشهوة ، فلنأخذ أقدم وجودا ، إذ الصبي في مبدأ الفطرة تخلق له الشهوة ، ثم بعد سبع سنين وبما تخلق له الغضب ، وبعد ذلك تخلق له قوة التغير :

والسبب الثاني : أن الخلق قد يتأكد بكثرة العمل بمقتضاه والطاعة له وباعتقاد كونه حسنا ومرضيا والناس فيه على أربع مراتب ( الأولى ) وهو الإنسان الفحل الذي لا يميز بين الحق والباطل والجبل والقيح بل يثق كما فطر عليه غالبا من جميع الاعتقادات ولم تستم شهوته أيضا باتباع الفذات ، فهذا سريع القبول للعلاج جدا فلا يحتاج إلا إلى معلم ومرشد ، وإلى باعث من نفسه يحمله على المجاهدة فيحسن خلقه في أقرب زمان ( والثانية ) أن يكون قد عرف قبح القبيح ، ولكنه لم يتمدد العمل الصالح بل زين له سوء عمله فتعاطاه اعتيادا لشواته وإعراضا عن صواب رأيه لاستيلاء الشهوة عليه ، ولكن علم قصيره في عمله فأمره أصعب من الأول ، إذ قد تضاعفت الوظيفة عليه ؛ إذ عليه قلع ما رسخ في نفسه أولا من كثرة الاعتقاد للفساد ، والآخر أن يفرس في نفسه صفة الاعتقاد للصالح ولكنه بالجلبة على قابل الرياضة إن انتفض لها مجد وتسمير وحزم . ( الثالثة ) أن يعتقد في الأخلاق القبيحة أنها الواجبة المستحسنة وأنها حق وجبل وترى عليها ، فهذا يكاد تمتنع معالجته ولا يرجي صلاحه لإلعال التدور ، وذلك لتضاعف أسباب الضلال . ( والرابعة ) أن يكون مع نشئه على الرأي الفاسد وتربيته على العمل به يرى الفضيلة في كثرة الشر واستهلاك النفوس ويباهي به ويظن أن ذلك يرفع قدره ، وهذا هو أصعب المراتب . وفي مثله قيل : ومن العناء رياضة الهرم ، ومن التعذيب تهذيب الذئب . والأول : من هؤلاء جاهل فقط . والثاني : جاهل وضال . والثالث : جاهل وضال وفلسق . والرابع : جاهل وضال وفلسق وشرير .

وأما الخيال الآخر الذي استدرا به : وهو قولهم إن الآدى مادام حيا فلا تنقطع عنه الشهوة والغضب وحسب الدنيا وسائر هذه الأخلاق ، فهذا غلط وقع لطائفة ظنوا أن المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالكلية ومحوها ومهيات فإن الشهوة خلقت لقائدة وهي ضرورية في الجلبة ، فلوا انقطعت شهوة الطعام لملك الإنسان ، ولوا انقطعت

(١) حديث «حسنوا أخلاقكم» أخرجه أبو بكر ابن لال في مكارم الأخلاق من حديث معاذ «بإماذ حسن خلقك فتناس» منقطع ووجهه نبات .



شهوة الواقع لا تقطع النسل ، ولولا عدم الغضب بالكلية لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه وملكه . وبهذا بقي أصل الشهوة فيبقى لا عالة حب المال الذي يوصله إلى الشهوة حتى يحمله ذلك على إمساك المال . وليس المطلوب إِمَاة ذلك بالكلية بل المطلوب ردّها إلى الاعتدال الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط . والمطلوب في صفة الغضب حسن الحمية وذلك بأن يخلو عن التهور وعن الجبن جميعاً . وبالجملة أن يكون في نفسه قوياً ومع قوته متقاداً للعقل . ولذلك قال الله تعالى ( أشداء على الكفار رحماء بينهم ) وصفهم بالشدّة وإنّما تصدر الشدّة عن الغضب ولو بطل الغضب لبطل الجهاد . وكيف يقصد قلع الشهوة والغضب بالكلية والأنبياء عليهم السلام ينفكوا عن ذلك ، إذ قال صلى الله عليه وسلم : ( إنّما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر )<sup>(١)</sup> . وكان إذا تكلم بين يديه بما يكرهه يغضب حتى تحمّز وجنتاه ولكن لا يقول إلا حقاً فكان عليه السلام لا يخرج غضبه عن الحق<sup>(٢)</sup> وقال تعالى ( والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ) ولم يقل والعافدين الغيظ فرد الغضب والشهوة إلى حدّ الاعتدال بحيث لا يضرّ واحد منهما العقل ولا يغيبه ، بل يكون العقل هو الضابط لها والغالب عليها يمكن ، وهو المراد بتغيير الخلق فإنّه ربما تستولى الشهوة على الإنسان بحيث لا يقوى عقله على دفعها فيقدم على الانبساط إلى الفواحش . وبالرياضة تعود إلى حدّ الاعتدال فدل أن ذلك يمكن ، والتجربة والمشاهدة تدل على ذلك دلالة لا شك فيها . والذي يدل على أن المطلوب هو الوسط الأخلاق دون الطرفين أن السخاء خلق محمود شرماً ، وهو وسط بين طرفي التبذير والتقتير . وقد أتى الله تعالى عليه فقال ( والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ) وقال تعالى ( ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ) وكذلك المطلوب في شهوة الطعام الاعتدال دون الشره والجرود قال الله تعالى ( وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ) وقال في الغضب ( أشداء على الكفار رحماء بينهم ) وقال صلى الله عليه وسلم : خير الأمور أوسطها<sup>(٣)</sup> . وهذا له سرٌ وتحقيق وهو أن السعادة منوطة بسلامة القلب عن عوارض هذا العالم . قال الله تعالى ( إلامن أتى الله قلبه سليم ) والبخل من عوارض الدنيا ، والتبذير أيضاً من عوارض الدنيا ، وشرط القلب أن يكون سليماً منها أي لا يكون ملتبساً إلى المال ولا يكون حريصاً على إنفاقه ولا على إمساكه ، فإن الحريص على الإنفاق مصروف القلب إلى الإنفاق كما أن الحريص على الإمساك مصروف القلب إلى الإمساك فكان كالقلب أن يصفو عن الوصفين جميعاً . وإنّما لم يكن ذلك في الدنيا طلباً ما هو الأشبه لعدم الوصفين وأبعد عن الطرفين وهو الوسط ، فإن الفائر لا حار ولا بارد بل هو وسط بينهما فكانه خال عن الوصفين ، فكذلك السخاء بين التبذير والتقتير . والشجاعة بين الجبن والتهور . والعفة بين الشره والجرود . وكذلك سائر الأخلاق فكلما طرفي الأمور ذميم ؛ هذا هو المطلوب وهو يمكن . نعم يجب على الشيخ المرشد التريث أن يفتح عنده الغضب رأساً ، ويمن إمساك المال رأساً ، ولا يرخص له في شيء منه لأنه لو رخص له في أدنى شيء أخذ ذلك عدواً في استيقاظ بخله وغضبه وظن أنه التقدر المرخص فيه . فإذا قصد الأصل وبالغ فيه ولم يتيسر له إلا كسر

(١) حديث : ( إنّما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر ) أخرجه مسلم من حديث أنس ولهم حديث أبي هريرة ( إنّما أنا بشر يغضب كما يغضب البشر ) (٢) حديث : أنه كان يتكلم بين يديه بما يكرهه لم يضب حتى تحمّز وجنتاه ولكن لا يقول إلا حقاً فكان لا يخرج غضبه عن الحق (٣) أخرجه الشيخان من حديث عبد الله بن الزبير ( لعلّ شراج الحرة فقال : لأن كان ابن عمك؟ فتكون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولها من حديث أبي سعيد الخدري : وكان إذا ذكره شيئاً عرفناه في وجهه . ولما من حديث طايفة : وما ألتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه إلا أن تملك حرمة الله وسلم : ما يئال منه شيء قط فيلتقم من صاحبه ... الحديث .

(٢) حديث : خير الأمور أوسطها . أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من رواية مطرف بن عبد الله مضافاً .

سورته بحيث يعود إلى الاعتدال فالصواب له أن يقصد قلع الأصل حتى يتيسر له التدرج المقصود . فلا يكشف هذا السر للريد فإنه موضع غرور الحق إذ يظن بنفسه أن غضبه بحق وأن إمساكه بحق .

### بيان السبب الذي به ينال حسن الخلق على الجملة

قد عرفت أن حسن الخلق يرجع إلى اعتدال قوة العقل وبكال الحكمة . وإلى اعتدال قوة الغضب والشهوة ، وكونها للعقل مطيعة وللشرع أيضا . وهذا الاعتدال يحصل على وجهين :

أحدهما : يعود إلى وكال فطري بحيث يخلق الإنسان ويولد كامل العقل حسن الخلق قد كنى سلطان الشهوة والغضب ، بل خلقتا معتدلتين متعادلتين للعقل والشرع فيصير عالما بغير تعليم ومؤدبا بغير تأديب كميمي بن مرزم ويحيى بن زكريا عليهما السلام وكذا سائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين . ولا يمد أن يكون في الطبع والقطرة ما قد ينال بالاكتساب فرب صبي خلق صادق للهجة سخيا جريا ، وربما يخلق بخلافه ، فيحصل ذلك فيه بالاعتدال وغالبته المتخالفين بهذه الأخلاق ، وربما يحصل بالتعلم .

والوجه الثاني : اكتساب هذه الأخلاق بالمجاهدة والرياضة وأغنى به حل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب . فمن أراد مثلا أن يحصل لنفسه خلق الجود فطريقه أن يتكلف تعاطي فعل الجواد وهو بذل المال ، فلا يزال يطالب نفسه ويواطب عليه تكلفا مجاهداً نفسه فيه حتى يصير ذلك طبعاً له ويتيسر عليه فيصير به جواداً ، وكذا من أراد أن يحصل لنفسه خلق التواضع وقد غلب عليه الكبر فطريقه أن يواطب على أفعال المتواضعين مدة مديدة وهو فيها مجاهد نفسه ومتكلف إلى أن يصير ذلك خلقاً له وطبعاً فيتيسر عليه . وجميع الأخلاق المحمودة شرعا تحصل بهذا الطريق ، وغايته أن يصير الفعل الصادر منه إنذاراً فالسعي هو الذي يستلزم بذل المال الذي يبذله دون الذي يبذله عن كرامته ، والمتواضع هو الذي يستلزم التواضع ولن ترسخ الأخلاق الدينية في النفس ، ما لم تعود النفس جميع العادات الحسنه وما لم تترك جميع الأفعال السيئة ، وما لم تواطب عليه مواظبة من يشاق إلى الأفعال الجميلة ويستم بها ، ويكره الأفعال القبيحة ويتألم بها ، كما قال صلى الله عليه وسلم ، وجعلت قرة عيني في الصلاة <sup>(١)</sup> ، ومهما كانت العبادات وترك المحظورات مع كرامته واستكمال فهو التقصان ولا ينال كمال السعادة به . نعم المواظبة عليها بالمجاهدة خير ولكن بالإضافة إلى تركها لا بالإضافة إلى فعلها عن طوع ولذلك قال الله تعالى ( ولأنها لكريمة إلا على الخاشعين ) وقال صلى الله عليه وسلم « عبد الله في الرضا فلن لم تستطع في الصبر على ما تركه خير كثير <sup>(٢)</sup> » ، ثم لا يمكن في نيل السعادة الموعودة على حسن الخلق استلزام الطاعة واستكراه المعصية في زمان دون زمان ، بل ينبغي أن يكون ذلك على الدوام وفي جملة العمر . وكلما كان العمر أطول كانت الفضيلة أرسخ وأكثر ولذلك لما سئل صلى الله عليه وسلم عن السعادة فقال ، طول العمر في طاعة الله تعالى <sup>(٣)</sup> . ولذلك كره الأنبياء والأولياء الموت فإن الدنيا مزرعة الآخرة . وكلما كانت العبادات أكثر بطول العمر كان الثواب أجزل والنفس أزكى وأطهر والأخلاق أقوى وأرسخ ، وإنما مقصود العبادات تأخيرها في القلب ، وإنما يتأكد تأخيرها بكثرة المواظبة على العبادات . وغاية هذه الأخلاق أن ينقطع عن النفس حب الدنيا ويرسخ فيها حب الله تعالى فلا يكون

(١) حديث « وجعلت قرة عيني في الصلاة » أخرجه النسائي من حديث أسد وقد فهم (٢) حديث « أميد الله في الرضا فإن لم تستطع في الصبر على ما تركه خير كثير » أخرجه التبراني (٣) حديث : سئل عن السعادة فقال « طول العمر في عبادة الله » رواه الضعافي في مسند الصواب وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف والترمذي من حديث أبي بكر وصححه : أي الناس خير ؟ قال « من طال عمره وحسن عمله » .

شئ أحب إليه من لقاء الله تعالى عز وجل ، فلا يستعمل جميع ماله إلا على الوجه الذي يوصله إليه وغضبه وشهوته من المستخرات له فلا يستعملها إلى على الوجه الذي يوصله إلى الله تعالى ، وذلك بأن يكون موزوناً بميزان الشرع والعقل ، ثم يكون بعد ذلك فرحاً به مستلذاً له ، ولا ينبغي أن يستبعد مصير الصلاة إلى حد تصير هي قرة العين . ومصير العبادات لذيدة فإن العادة تقتضي في النفس عجائب أغرب من ذلك ؛ فلما قد نرى الملوك والمعينين في أحزان دائمة ، ونرى المتأسرين قد يقلب عليه من الفرح واللذة بشاره وما هو فيه ما يستقل معه فرح الناس بغير قار ، مع أن القار ربما سلبه ماله وخرب بيته وتركه مفلساً ومع ذلك فهو يحبه ويبتذ به ، وذلك لطول إلفه له وصرف نفسه إليه مدة . وكذلك اللاعب بالحمام قد يقف طول النهار في حر الشمس قائماً على رجله وهو لا يحس بألمها لفرحه بالطيور وحركاتها وطيرانها وتحليتها في جو السماء ، بل نرى الفاجر العيار يقتنر بها لقاءه من العزب والقطع والصبر على السياط وعلى أن يتقدم به للصلب وهو مع ذلك متبجح بنفسه وقوته في الصبر حل ذلك ، حتى يرى ذلك غفراً لنفسه ، ويقطع الواحد منهم إرباً إرباً على أن يقر بما تعاطاه أو تعاطاه غيره فيعثر على الإنكار ولا يبالى بالعقوبات فرحاً بما يعتقد كالا وشجاعة ورجولية ، فقد صارت أحواله مع ما فيها من النكال قرة عينه وسبب اقتناده ، بل لاحالة أخس وأقبح من حال الخنث في تشبهه بالإناث في تنف الشعر ووشم الوجه ومخالطة النساء فترى الخنث في فرح بحاله وافتخار بكمال في تحتته يقباهي به مع الخنثين ، حتى يجري بين المحباين والكساين التفاخر والمباهاة كما يجري بين المارك والعلماء . فكل ذلك نتيجة المادة والمراوطة على نمط واحد على الدوام مدة مديدة ومساهمة ذلك في المخاططين والمعارف . فإذا كانت النفس بالعادة تستلذ الباطل وتميل إليه وإلى المتاعج فكيف لاستئذ الحق لو ردت إليه مدة والتزمت المراوطة عليه ؟ بل ميل النفس إلى هذه الأمور الشهية عارج عن الطبع يضاهي الميل إلى أكل العين فقد يقلب على بعض الناس ذلك بالعادة ؛ فأما ميله إلى الحكمة وحب الله تعالى ومعرفة وعبادته فهو كالليل إلى الطعام والشراب فإنه مقتضى طبع القلب فإنه أمر رائي ، وميله إلى مقتنيات الشهوة غريب من ذاته وعارض على طبعه ، وإنما غذاء القلب الحكمة والمعرفة وحب الله عز وجل ولكن العرف عن مقتضى طبعه لمرض قد حل به كما قد يحل المرض بالمعدة فلا تشتهي الطعام والشراب وهما سيان لحياتها ، فكل قلب مال إلى حب شئ سوى الله تعالى فلا ينقلك عن مرض بقدر ميله ، إلا إذا كان أحب ذلك الشئ أن يكونه معينا له على حب الله تعالى وعلى دينه ، فمعد ذلك لا يدل ذلك على المرض

فإذن قد عرفت بهذا قطعاً أن هذه الأخلاق الجميلة يمكن اكتسابها بالرياضة وهي تكلف الأنفال الصادرة عنها ابتداء لتصير طبعاً انتهاء ، وهذا من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح - أعني النفس والبدن - فإن كل صفة تظهر في القلب يفيض أثرها على الجوارح حتى لا تتحرك إلا على وفقها لاحالة ، وكل فعل يجري على الجوارح فإنه قد يرفع منه أثر إلى القلب ، والأمر فيه دور ، ويعرف ذلك بمثال : وهو أن من أراد أن يصير الخلق في الكتابة له صفة نفسية - حتى يصير كاتباً بالطبع - فلا طريق له إلا أن يتماطى بمجراحة اليد ما يتعاطاه الكاتب الحاذق ويواطب عليه مدة طويلة يحاكي الخط الحسن ، فان فعل الكاتب هو الخط الحسن فيقتبس بالكاتب تكلفاً ، ثم لا يزال يواطب عليه حتى يصير صفة راسخة في نفسه ، فيصدر منه في الآخر الخط الحسن طبعاً كما كان يصدر منه في الابتداء تكلفاً ، فكان الخط الحسن هو الذي جعل خطه حسناً ، ولكن الأول يتكلف إلا أنه أرفع منه أثر إلى القلب ثم انخفض من القلب إلى المجراحة فصار يكتب الخط الحسن بالطبع .

وكذلك من أراد أن يصير فقيه النفس فلا طريق له إلا أن يتماطى أفعال الفقهاء ، وهو التكرار لفقهه حتى تنطفئ عنه كل قلبه صفه الفقه فيصير فقيه النفس . وكذلك من أراد أن يصير سخيًا غنيب النفس حليماً متواضعاً فيلزمه أن يتماطى أفعال هؤلاء متكفأً حتى يصير ذلك طبعاً له ، فلا علاج له إلا ذلك . وكذا أن طالب فقه النفس لا يلبس من نيل هذه الرتبة بتعطيل ليله ولا ينالها بتكرار ليله ، فكذلك طالب تزكية النفس وتكليفها وتحليلها بالأعمال الحسنة لا ينالها بعبادة يوم ولا يحرم عنها بمصيان يوم . وهو معنى قولنا إن الكيفية الواحدة لا توجب الشقاء المؤبد ولكن العطلّة في يوم واحد تدعو إلى مثلها ، ثم تداعى قليلاً قليلاً حتى تأفُس النفس بالكسل وتهجر التحصيل رأساً فيفوتها فضيلة الفقه . وكذلك صائر المعاصي يحرم بعضها إلى بعض حتى يفوت أصل السعادة بهم أصل الإيمان عند الحاجة . وكذا أن تكرار ليله لا يمس تأثيره في فقه النفس بل يظهر فقه النفس شيئاً فشيئاً على التدرج . مثل نمو البدن وارتفاع القامة . فكذلك الطاعة الواحدة لا يمس تأثيرها في تزكية النفس وتطهيرها في الحال ، ولكن لا يبنى أن يستهان بقليل الطاعة فإن الجملة الكثيرة منها مؤثرة ، وإنما اجتمعت الجملة من الأحاد ، فلكل واحد منها تأثير ، فما من طاعة إلا ولها أثر وإن خفي ، فله ثواب لا محالة . فإن الثواب يازاء الأثر وكذلك للمعصية . وكل من فقيه يستهين بتعطيل يوم وليلة ومكثنا على التوالى يسوف نفسه يوماً فيوماً إلى أن يخرج طبعه عن قبول الفقه . فكذلك من يستهين صائر المعاصي ويسوف نفسه بالتوبة على التوالى إلى أن يحتفظه الموت بنته أو تتراكم ظلمة الذنوب على قلبه وتتمذّر عليه التوبة ، إذ التقليل يدعو إلى الكثير فيصير القلب مقبداً بسلال شحوات لا يمكن تحليله من غالبها . وهو المعنى بالنسداد باب التوبة وهو المراد بقوله تعالى ﴿ وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً ﴾ الآية ولذلك قال رضى الله تعالى عنه : إن الإيمان ليبدو في القلب نكتة بيضاء ، كلما ازداد الإيمان ازداد ذلك البياض فإذا استكمل البعد الإيمان أبيض القلب كله . وإن النفاق ليدو في القلب نكتة سوداء ، كلما ازداد النفاق ازداد ذلك السواد فإذا استكمل النفاق أسود القلب كله .

كلذا عرفت أن الأخلاق الحسنة تارة تكون بالطبع والفطرة ، وتارة تكون باعتياد الأفعال الجميلة ، وتارة بمشاهدة أرباب العمال الجميلة ومصاحبهم وهم قرناء الخير وإخوان الصلاح ، إذ الطبع يسرق من الطبع الشر والخير جيباً . فمن تظاهرت في حقه الجهات الثلاث حتى صار ذا فضيلة طبعاً واعتياداً وتعلماً فهو في غاية الفضيلة ، ومن كان ودلاً بالطبع واتفق له قرناء السوء فتعلم منهم وتيسرت له أسباب الشر حتى اعتادها فهو في غاية البعد من الله عز وجل ، وبين الرتبين من اخلفت فيه من هذه الجهات ولكل درجة في القرب والبعد بحسب ما تقتضيه صوته وحالته ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره . وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ .

### بيان تفصيل الطريق إلى تهذيب الأخلاق

قد عرفت من قبل أن الاعتدال في الأخلاق هو صحة النفس ، والميل عن الاعتدال سقم ومرض فيها . كما أن الاعتدال في مزاج البدن هو صحة له ، والميل عن الاعتدال مرض فيه فلتنخذ البدن مثالا . فنقول :

مثال النفس : علاجها بمحو الرذائل والأخلاق الرديئة عنها وجلب الفضائل والأخلاق الجميلة إليها ، مثال البدن في علاجه بمحو العلل عنه وكسب الصحة له وجلبها إليه . وكذا أن الغالب على أصل المزاج الاعتدال وإنما تعمى للمدة للضره بأمراض الأغذية والأمورية والأحوال ، فكذلك كل مولود يولد معتدلاً صحيح الفطرة ،

وإنما أرواه هودانه أو يضره أو يجسه - أى بالاعتقاد والتعلم تكسب الرذائل - وكما أن البدن في الابتداء لا يخلق كاملاً وإنما يكمل ويقوى بالنشوء والتربية بالنضاد ؛ فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للتكامل ؛ وإنما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتنشئة بالعلم . وكما أن البدن إن كان صحيحاً فشان الطبيب تهذيب القانون الحافظ للصحة وإن كان مريضاً فشانه جلب الصحة إليه ؛ فكذلك النفس مثله إن كانت زكية طاهرة مهذبة فينبغى أن تسمى لحفظها وجلب مزيد قوة إليها واكتساب زيادة صفاتها ، وإن كانت عديمة الكمال والصفاء فينبغى أن تسمى لجلب ذلك إليها . وكما أن العلة المعبرة لاعتدال البين الموجبة للبرص لا تعالج إلا بضدها فإن كانت من حرارة فيالبرودة ، وإن كانت من برودة فيالحرارة ، فكذلك الرذيلة التي هي مرض القلب علاجها بضدها . فيعالج مرض الجهل بالتعلم ، ومرض البخل بالتسخي ، ومرض الكبر بالتواضع ، ومرض الشره بالكف عن المشتهى تكلفاً . وكأنه لابد من الاحتفال لمرارة الدواء وشدة الصبر عن المشتبهات لعلاج الأبدان المريضة فكذلك لابد من احتفال مرارة المجاهدة والصبر للدواوة مرض القلب بل أولى . فإن مرض البدن يخلص منه بالموت ومرض القلب والعياذ بالله تعالى مرض يدمر بعد الموت أبد الآباد . وكما أن كل مبرد لا يصلح لعله سببها الحرارة إلا إذا كان على حد مخصوص - ويختلف ذلك بالشدة والضعف والدوام وعدمه وبالكثرة والقلة ، ولا بد له من معيار يعرف به مقدار النافع منه فإنه إن لم يحفظ معياره زاد الفساد - فكذلك التفاضل التي تعالج بها الأخلاق لا بد لها من معيار . وكما أن معيار الدواء مأخوذ من تيار العلة حتى إن الطبيب لا يعالج مالم يعرف أن العلة من حرارة أو برودة ، فإن كانت من حرارة فيعرف درجتها أي متعينة أم قوية ؟ فإذا عرف ذلك التفت إلى أحوال البدن وأحوال الزمان وصناعة المريض وسائر أحواله ثم يعالج بحسبها .

فكذلك الشيخ المشهور الذي يطيب نفوس المريدين ويعالج قلوب المسترشدين ينبغي أن لا يجمع عليهم بالرياضة والتكاليف في فن مخصوص وفي طريق مخصوص مالم يعرف أخلاقهم وأمراسمهم . وكما أن الطبيب لو طالع جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم فكذلك الشيخ لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكتهم وأمات قلوبهم . بل ينبغي أن ينظر في مرض المرید وفي حاله وسنه ومزاجه وما تحتمله بنيت من الرياضة ويبقى على ذلك رياسته . فإن كان المرید مبتدئاً جاهلاً بمحدود الشرع فيملأه أولاً بالطهارة والصلاة وظواهر العبادات ، وإن كان مشغولاً بمال حرام أو مقارفاً لمصيبة فيأمره أولاً بتركها ، فإذا تزين ظاهره بالعبادات وطهر عن المعاصي الظاهرة جوارحه نظر بقرائن الأحوال إلى باطنه ليتفطن لأخلاقه وأمراض قلبه : فإن رأى منه مالا فلا ضلعة فدرجته وأخذته منه وصرفه إلى الخيرات وفرغ قلبه منه حتى لا يلتفت إليه ، وإن رأى العزوف والكبر وعرة النفس غالباً عليه فيأمره أن يخرج إلى الأسواق الكدية والسؤال ، فإن عزة النفس والرياسة لا تنكسر إلا بالذل ولا ذل أعظم من ذل السؤال فيكلفه المواظبة على ذلك مدة حتى ينكسر كبره وعز نفسه ، فإن الكبر من الأمراض المهلكة وكذلك العزوة ، وإن رأى الغالب عليه التظافة في البدن والثياب ورأى قلبه مائلاً إلى ذلك فرحبه ملتفتاً إليه استخدمه في تعهد بيت الماء وتطيفه وكس المساحيق والتذرية وملزمة المطبخ ومواضع الدخان حتى تنفوش عليه رعوته في النظافة . فإن الذين ينظفون ثيابهم ويزينونها ويطوبون المرقعات النظيفة والسجادات الملوثة لا فرق بينهم وبين العروس التي تزين نفسها طول النهار ، فلا فرق بين أن يعبد الإنسان نفسه أو يعبد صنماً فهما عبد غير الله تعالى فقد حجب عن الله ومن راعى في ثوبه شيئاً سوى كونه حلالاً وطاهرًا مراعاةً بلفتت إليها قلبه فهو مشغول بنفسه

ومن لطائف الرياضة إذا كان المرید لا يسخو بترك الرعونة رأساً أو يترك صفة أخرى ولم يسمح بضدها دفعة ؛ فينبغي أن ينقله من الحلق المذموم إلى خلق مذموم آخر أخف منه ، كالذى ينقل الدم بالبول ، ثم ينقل البول بالماء إذا كان الماء لا يزيل الدم . كما يرغب الصبي في المكتب باللعب بالكرة والصولجان وما أشبهه ، ثم ينقل من اللعب إلى الزيتة وفخر الثياب ، ثم ينقل من ذلك بالترغيب في الرياضة وطلب الجاه ، ثم ينقل من الجاه بالترغيب في الآخرة ، فكذلك من لم تسمع نفسه يترك الجاه دفعة فليقل إلى جاه أخف منه ، وكذلك سائر الصفات . وكذلك إذا رأى شره الطعام غالباً عليه ألزمه الصوم وتقليل الطعام ، ثم يكلفه أن يبي الأطلعة اللذيذة ويقدمها إلى غيره وهو لا يأكل منها حتى يقوى بذلك نفسه فيتعود الصبر وينكسر شرهه . وكذلك إذا رأى شاباً مقشوقاً إلى التكاس وهو عاجز عن الطول فيأمره بالصوم ، وربما لا تسكن شهرته بذلك فيأمره أن يفطر ليلة على الماء دون الخبز وليلة على الخبز دون الماء . ويمنه الدم والأدم رأساً حتى تذل نفسه وتتكرر شهرته ... فلا علاج في مبدأ الإرادة أنفع من الجوع . وإن رأى النضب غالباً عليه ألزمه الحلم والسكرت وسلط عليه من يصحبه من فيه سوء خلق ، ويلزمه خدمة من ساء خلقه حتى يبرن نفسه على الاحتمال معه .

كما حكي عن بعضهم أنه كان يعوذ نفسه الحلم ويبريل عن نفسه شدة النضب ، فكان يستأجر من يشتمه على ملا من الناس ويكلف نفسه الصبر ، ويكظم غيظه حتى صار الحلم عادة له بحيث كان يضرب به المثل . وبعضهم كان يستمر في نفسه الجبن وضف القلب فأراد أن يحصل لنفسه خلق الشجاعة فكان يركب البحر في الشتاء عند اضطراب الأمواج . وعباد الهند يعالجون الكسل عن العبادة بالقيام طول الليل على نعبة واحدة . وبعض الشيوخ في ابتداء إرادته كان يكسل عن القيام فألزم نفسه القيام على رأسه طول الليل ليصبح بالقيام على الرجل عن طوع . وعالج بعضهم حب المال بأن باع جميع ماله ورمى به في البحر ؛ إذ خاف من تفرقه على الناس رعوته الجود والرياء بالبدل .

فهذه الأمثلة تعرفك طريق معالجة القلوب . وليس غرضنا ذكر دواء كل مرض - فإن ذلك سيأتي في بقية الكتب - وإنما غرضنا الآن التنبيه على أن الطريق الكلي فيه سلوك مسلك المضاد لكل ما نهوا النفس وتميل إليه وقد جمع الله ذلك كله في كتابة الزير في كلمة واحدة فقال تعالى ﴿ وأما من عاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى ﴾ والأصل المهم في المجاهدة الوقف بالزم فإذا عزم على ترك شهوة فقد تيسرت أسبابها ويكون ذلك ابتلاء من الله تعالى واختباراً . فينبغي أن يصبر ويستمر ، فإنه إن عود نفسه ترك الزم ألقت ذلك ففسدت وإذا اتفق منه نقض عزم فينبغي أن يلزم نفسه عقوبة عليه - كما ذكرناه في معاقبة النفس في كتاب المحاسبة والمراقبة - وإذا لم يتخوف النفس بقوة عليه وحسنت عنده تناول الشهوة فتنفسد بها الرياضة بالكلية .

### بيان علامات أمراض القلوب وعلامات عودها إلى الصحة

اعلم أن كل عضو من أعضاء البدن خلق لفعل خاص به ، وإنما مرضه أن يتعذر عليه فعله الذي خلق له حتى لا يصدر منه أصلاً أو يصدر منه موعود من الاضطراب . فرض البدن يتعذر عليها البطش . ومرض العين أن يتعذر عليها الإبصار . وكذلك مرض القلب أن يتعذر عليه فعله الخاص به الذي خلق لأجله ؛ وهو العلم والحكمة والمعرفة وحسب الله تعالى وعجابه والتلذذ بذكره وإشارته ذلك على كل شهوة سواء الاستمانة بجميع الشهوات والأعضاء عليه قال الله تعالى ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ ففي كل عضو فائدة وفائدة القلب الحكمة والمعرفة . وعصاية

النفس التي للآدمي ، ما يمتنع بها عن البهائم ، فإنه لم يتميز عنها بالقوة على الأكل والرقاع والإبصار أو غيرها ؛ بل بمعرفة الأشياء على ما هي عليه . وأصل الأشياء وموجدتها وغترعها هو الله عز وجل الذي جعلها أشياء . فلو عرف كل شيء . ولم يعرف الله عز وجل فكأنه لم يعرف شيئا . وعلامة المعرفة المحبة فن عرف الله تعالى أحبه وعلامة المحبة أن لا يؤثر عليه الدنيا ولا غيرها من المحبوبات كما قال الله تعالى ﴿ قل إن كان آبائكم وأبنائكم وإخوانكم أزواجكم ﴾ إلى قوله ﴿ أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فمربصوا حتى يأتي الله بأمره ﴾ فن عتده شيء أحب إليه من الله فقلبه مريض ، كما أن كل مدقة صار الطين أحب إليها من الحجر والماء أو سقطت شهرتها عن الحجر والماء فهي مريضة . فهذه علامات المرض وهذا يعرف أن القلوب كلها مريضة إلا ما شاء الله إلا أن من الأمراض ما لا يعرفها صاحبها ، ومرض القلب عما لا يعرفه صاحبه ، فذلك يغفل عنه . وإن عرفه صعب عليه الصبر على مرارة دبرائه فإن دوامه مخالفة الشهوات وهو نزع الروح . فإن وجد من نفسه قوة الصبر عليه لم يجد طبيبا ساذقا يماجله ، فإن الأطباء هم العلماء وقد استولى عليهم المرض . فالطبيب . المريض فلما يلتفت إلى علاجه . فلهذا صار البلاء عضلا والمرضى مزمنًا واندرس هذا العلم ، وانكسر بالكلية طب القلوب وأفنكر مرضها ، وأقبل الخلق على حب الدنيا ، وعلى أعمال ظاهرها عبادات وباطنها عادات ومرامات . فهذه علامات أصول الأمراض ..

وأما علامات عودها إلى الصحة بعد المعالجة فهو أن ينظر في العلة التي يماجلها ، فإن كان يماجل داء البخل فهو المهلك المبعد عن الله عز وجل وإنما علاجه يذل المال وإنفاقه ، ولكنه قد يذل المال إلى حد يصير به مبذرا فيكون التنبذ أيضا داء ، فكان كمن يماجل البرودة بالحرارة حتى تغلب الحرارة فهو أيضا داء ، بل المطلوب الاعتدال بين الحرارة والبرودة . وكذلك المطلوب الاعتدال بين التبذير والتقتير حتى يكون على الوسط وفي غاية من البعد عن الطرفين ، فإن أردت أن تعرف الوسط فانظر إلى الفعل الذي يوجه الخلق المحذور فإن كان أسهل عليك وألذ من الذي يضاده فالتألب عليك ذلك الخلق الموجب له ، مثل أن يكون إمساك المال وجمعه أذ عندك وأيسر عليك من بذله لمستحقه فاعلم أن التألب عليك خلق البخل فودى المواظبة على البذل ، فإن صار البذل على غير المستحق أذ عندك وأخف عليك من الإمساك بالخلق فقد غلب عليك التنبذير فارجع إلى المواظبة على الإمساك ، فلا تزال تراقب نفسك وتسدل على خلقك بتيسير الأعمال وتسميها حتى تتفطع علاقه فليكن عن الالتفات إلى المال فلا تميل إلى بذله ولا إلى إمساكه ، بل يصير عندك كالماء فلا تطلب فيه إلا إمساكه لحاجة محتاج أو بذله لحاجة محتاج ، ولا يترجح عندك البذل على الإمساك فكل قلب صار كذلك فقد أتى الله سلبا عن هذا المقام خاصة . ويجب أن يكون سلبا عن سائر الأخلاق حتى لا يكون له علاقة بشيء مما يشلق بالدنيا ، حتى ترحل النفس عن الدنيا منقطعة الملاقى منها غير مانتة إليها ولا متشوقة إلى أسبابها ، فعند ذلك ترجع إلى دبرها وجوع النفس المطفئة راضية مرضية داخلية في زمرة عباد الله المقربين من المؤمنين والصديقين والتهجداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

ولما كان الوسط الحقيقي بين الطرفين في غاية الغموض بل هو أدق من الشعر وأحد من السيف فلا جرم أن من استوى على هذا الصراط المستقيم في الدنيا ، جاز على مثل هذا الصراط في الآخرة . وقلنا ينفك البعد عن ميل عن الصراط المستقيم - أعنى الوسط - حتى لا يميل إلى أحد الجانبين فيكون قلبه معلقا بالجانب الذي مال إليه .

ولذلك لا ينفك عن عذاب ما واجتياز على النار وإن كان مثل البرق قال الله تعالى ﴿ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا . ثم ننجي الذين اتقوا ﴾ أي الذين كان قريبهم إلى الصراط المستقيم أكثر من يعدم عنه . ولأجل عسر الاستقامة وجب على كل عبد أن يدعو الله تعالى في كل يوم سبع عشرة مرة في قوله ﴿ إهدنا الصراط المستقيم ﴾ إذ وجب قراءة الفاتحة في كل ركعة .

فقد روى أن بعضهم رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقال : قد قلت يا رسول الله شيئا هود ، فلم قلت ذلك ؟ فقال عليه السلام لقوله تعالى ﴿ فاستقم كما أمرت ﴾ فالاستقامة على سواء السبيل في غاية القموص ، ولكن ينبغي أن يجتهد الإنسان في القرب من الاستقامة إن لم يقدر على حقيقتها . فكل من أراد النجاة فلا نجاة له إلا بالعمل الصالح ، ولا تصد الأعمال الصالحة إلا عن الأخلاق الحسنة فليستفد كل عبد صفاته وأخلاقه ، وليعتمدوا وليشتغل بملاجه واحد واحد فيها على الترتيب . فنسأل الله الكريم أن يجعلنا من المتقين .

### بيان الطريق الذي يعرف به الإنسان عيوب نفسه

اعلم أن الله عز وجل إذا أراد بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه ، فمن كانت بصيرته نافذة لم تحف عليه عيوبه ، فإذا عرف العيوب أمكنه العلاج ، ولكن أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم يرى أحدهم القذى في عين أخيه ولا يرى الجذع في عين نفسه . فمن أراد أن يعرف عيوب نفسه فله أربعة طرق :

الأول : أن يجلس بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس مطلع على خفايا الآفات ويحكمه في نفسه ويؤمّر بإشارته في مجاهدته . وهذا شأن المرشد مع شيوخه والتلميذ مع أستاذه ، فيعرفه أستاذه وشيخه عيوب نفسه ويعرفه طريق علاجه . وهذا قد عرّف في الزمان وجوده .

الثاني : أن يطلب صديقا صدوقا بصيرا متدينا فينصبه رقيقا على نفسه ليلاحظ أحواله وأفعاله ، فما كرهه من أخلاقه وأفعاله وعيوبه الباطنة والظاهرة ينبه عليه . فهكذا كان يفعل الإكياس والأكابر من أئمة الدين .

كان عمر رضي الله عنه يقول : رحم الله امرأ أهدى إلى عيبي . وكان يسأل سلمان عن عيوبه فلما قدم عليه قال له : ما الذي يملكك عنى عما تكرمه ؟ فاستمع فأخ عليه فقال : بلغني أنك جمعت بين إدامين على مائدة ، وأن لك حلتين حلة بالثار وحلة بالليل ، قال : وهل يملكك غير هذا ؟ قال : لا ، فقال : أما هذان فقد كفيتهما . وكان يسأل حذيفة ويقول له أنت صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنافقين ، فهل ترى على شيئا من آثار الفناق ؟ فهو على جلالة قدره وعلو منصبه هكذا كانت تهتمه نفسه رضي الله عنه !

فكل من كان أوفر عقلا وأعل منصباً كان أقل إعجاباً وأعظم اتهاماً لنفسه ، إلا أن هذا أيضا قد عرّف في الأصدقاء من يترك المداينة فيخبر بالغييب ، أو يترك الحسد فلا يزيد على قدر الراجب . فلا تغفل في أصدقاتك عن حسود أو صاحب غرض يرى ما ليس بغييب عيبا ، أو عن مداهن يخفي عنك بعض عيوبك .

ولمّا كان داود الطائي قد اعتزل الناس فقيل له : لم لا تغالط الناس ؟ فقال : وماذا أصنع بأقوام يخفون عني عيبي ؟ فكانت شهرة ذوى الدين أن يتنبهوا لميوهم بقتية غيرهم ، وقد آل الأمر في أمثالنا إلى أن أبغض الخلق إلينا من ينصحن ويؤمّرنّا عيوبنا . ويكاد هذا أن يكون مفصحا عن ضف الإيمان فإن الأخلاق السيئة حيات وغضارب لماغة ، فلو نهينا منه على أن نحت ثوبا عريبا لنقلدنا منه منه وفرحتنا به واشتغلنا بإزالة القرب وإبعادها وقتلها ، وإنما نكابتها على البدن ويدوم ألها يوما فادونه ، ونسكاية الأخلاق الرديئة على صميم القلب أخشى أن تدوم



بعد الموت أبداً وآلاماً من السنين . ثم إننا لا نفرح بمن ينبت عليها ولا نشغلنا بإزالتها بل نشغلنا بمقاومة الناصح بمثل مقاتته فنقول له : وأنت أيضاً تصنع كيت وكيت ونشغلنا المداوة معه عن الانتفاع بصحة ، وينبغ أن يكون ذلك من قسوة القلب التي أثمرتها كثرة الذنوب . وأصل كل ذلك ضعف الإيمان . فنسأل الله عز وجل أن يهملنا وشدةنا ويصبرنا بغيرنا ويشغلنا بمداواتها ويرفقا القيام بشكر من يظلمنا على مساوية بمنه وفضله .

الطريق الثالث : أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من السنة أعدائه فإن عين السخط تبتدى المساويا . ولعل انتفاع الإنسان بعدد مشاغل يذكره عيوبه أكثر من انتفاعه بصدق مداهن يثني عليه ويمدحه ويخفي عنه عيوبه ، إلا أن الطبع يجرب على تكذيب العدو وجمل ما يقوله على الحسد ، ولكن البصير لا يخلو عن الانتفاع بقول أعدائه فإن مساوية لا بد وأن تقتصر على السليم .

الطريق الرابع : أن يخاطب الناس فكل ما رآه مذموماً فبما بين الخلق فليطالب نفسه به وينسبها إليه ، فإن المؤمن مرآة المؤمن ، فيرى من عيوب غيره عيوب نفسه ويعلم أن الطباع متقاربة في اتباع الهوى . فليصف به واحداً من الأقران لا ينفك القرن الآخر عن أصله أو عن أعظم منه أو عن شيء منه ، فليفتقد نفسه ويظهرها من كل ما يذمه من غيره وناصيته بهذا تأديبا ، فلو ترك الناس كلهم ما يكرهونه من غيرهم لاستغنوا عن المذنب .

قيل لعيسى عليه السلام : من أدبك ؟ قال ما أدبني أحد ، رأيت جهل الجاهل شيئاً فاجتنبته . وهذا كله حيل من فقد شيئاً عارفاً ذكياً بصيراً بعيوب النفس مشفقاً ناصحاً في الدين فارغاً من تهذيب نفسه مشغولاً بتهديب عباد الله تعالى ناصحاً لهم ، فمن وجد ذلك فقد وجد الطبيب فليلازمه فهو الذي يخلصه من مرضه وينجي من الهلاك الذي هو يصدده .

بيان شواهد النقل من أرباب البصائر وشواهد الشرع على أن الطريق في معالجة أمراض القلوب ترك الشهوات وأن مادة أمراضها هي اتباع الشهوات

اعلم أن ما ذكرناه إن تأملته بعين الاعتبار انفتحت بصيرتك وانكشف لك علل القلوب وأمراضها وأدويتها ونور العلم واليقين ، فإن عجزت عن ذلك فلا ينبغي أن يفوتك التصديق والإيمان على سبيل التلقي والتقليد لمن يستحق التقليد ، فإن للإيمان درجة كما أن للعلم درجة ، والعلم يحصل بعد الإيمان وهو وراءه قال الله تعالى ( يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ) فمن صدق بأن مخالفة الشهوات هي الطريق إلى الله عز وجل ولم يطلع على سببه وسره فهو من الذين آمنوا ، وإذا اطلع على ما ذكرناه من أعوان الشهوات فهو من الذين أوتوا العلم وكلا وعد الله الحسنى .

والذي يقتضيه الإيمان بهذا الأمر في القرآن والسنة وأقوال العلماء أكثر من أن يحصر . قال الله تعالى : ﴿ ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى ﴾ وقال تعالى ﴿ أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ﴾ قيل نزع منها حبة الشهوات . وقال صلى الله عليه وسلم « المؤمن بين خمس شداهد : مؤمن يحسده وموافق يبتغيه وكافر يقاتله وشيطان يضلّه ونفس تنازعه »<sup>(١)</sup> فبين أن النفس عدو متنازع يجب عليه مجاهدتها .

ويروي أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام يا داود حذر وأندر أصحابك أكل الشهوات فإن القلوب

(١) حديث « المؤمن بين خمس هداه : مؤمن يحسده وموافق يقضه ... الحديث » أخرجه أبو بكر بن لال في كتابه الأخلاق من حديث أبي سعيد خفي .

المتعلقة بشهوات الدنيا عقولها عن عجزية . وقال عيسى عليه السلام : طوبى لمن ترك شهوة حاضرة لموعود غائبة لم يره وقال نينا صلى الله عليه وسلم تقوم قدموا من الجهاد ، مرحبا بكم قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، قيل يا رسول وما الجهاد الأكبر ؟ قال : جهاد النفس <sup>(١)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم : المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله عز وجل <sup>(٢)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم : كف أذاك عن نفسك ولا تتابع هواها في معصية الله تعالى إذن تفاحك يوم القيامة فيلن بعضك بعضا إلا أن ينفر الله تعالى ويستمر <sup>(٣)</sup> ، وقال سفيان الثوري : ما عاجلت شيئا أشد على من نفسه مرة في مرة على وكان أبو العباس الموصلي يقول لنفسه : يا نفس لا في الدنيا مع أبناء الملوك تنتمين ولا في طلب الآخرة مع العباد تهتدين كافي بك بين الجنة والنار تعبين يا نفس ألا تستحين ! وقال الحسن : ما العادة الموح بأحرج إلى الأجسام الشديد من نفسك .

وقال يحيى بن معاذ الرازي : جاهد نفسك بأسيايف الرياضة . والرياضة على أربعة أوجه : القوت من الطعام ، والغنى من المتاع ، والحاجة من الكلام وحمل الأذى من جميع الآثام فيتولد من قلة الطعام موت الشهوات ، ومن قلة المتاع صغر الإيرادات ، ومن قلة الكلام السلامة من الآفات ، ومن احتيال الأذى ، البلوغ إلى الغايات وليس على العبد شيء أشد من الحلم عند الجفاء والصبر على الأذى وإذا تحررت من النفس إرادة الشهوات والآثام وهاجت منها حلالة فضول الكلام جردت سيوف قلة الطعام من غمد التهجد وقلة المتاع ، وضربت بها بأيدي الخنول وقلة الكلام حتى تقطع عن الظلم والانتقام ، فتأمن من بوائقها من بين سائر الآثام وتصفيتها من ظلمة شهواتها فتجبر من غوائل آفاتها ؛ فتصير عند ذلك نظيفة ونورية خفيفة وروحانية فتجول في ميدان الخيرات وتسير في مسالك الطاعات كالفرس الفار في الميدان وكالملاك المنتزه في البستان . وقال أيضا : أعداء الإنسان ثلاثة : دنياه وشيطانه ونفسه ، فاحرس من الدنيا يازهد فيها ، ومن الشيطان بخالفته ؛ ومن النفس بترك الشهوات .

قال بعض الحكماء : من استولت عليه النفس صار أسيرا في حب شهواتها ؛ محصورا في سجن هواها ، مهورا مغنولا زمامه في يدها تجره حيث شامت فتنت قلبه من الموائد . وقال جعفر بن حميد : أجمعت العلماء والحكماء على أن النعم لا يدرك إلا بترك النعم . وقال أبو يحيى الرواق : من أرضى الجوارح بالشهوات فقد غرس في قلبه شجر الندامات . وقال وهيب بن الورد : ما زاد على الجبن فهو شهوة . وقال أيضا : من أحب شهوات الدنيا فليتم بالذل . وروى أن امرأة العزيز قالت ليوסף عليه السلام - بعد أن ملك خواتن الأرض وقعدت له على رايه الطريق - في يرم موكة وكان يركب في زهاء اثني عشر ألفا من عطاء مملكته - سبحان من جعل الملوك عبيدا بالمعصية وجعل العبيد ملوكا بطاعتهم له . إن الحرص والشهوة صبرا للملوك عبيد ؛ وكذلك جزاء للمفسدين ، وإن الصبر والتقوى صبرا للعبيد ملوكا . فقال يوسف - كما أخبر الله تعالى عنه ( إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ) .

وقال الجنيد : أرقت ليلة فقممت إلى وردى فلم أجد الحلالة التي كنت أجدتها فأردت أن أنام فلم أقدر ، جلست فلم أطق الجلوس ، فخرجت فإذا رجل ملتبس في عباءة مطروح على الطريق ، فلما أحس في قال : يا أبا القاسم إلى الساعة ؛ فقلت : يا سيدي من غير موعد ؟ قال : بل سألت الله عز وجل أن يحرك في قلبك ؛ فقلت : قد فعل فما حاجتك ؟ قال : فتي يصير داء النفس دواها ؛ فقلت : إذا خالفت النفس هواها ؛ فأقبل على نفسه فقال : اسمعي فقد

(١) حديث « مرحبا بكم قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » أخرجه البيهقي في الزهد وقد تقدم في شرح محابب القلوب حديث « المجاهد من جاهد نفسه » أخرجه الترمذي في أثناء حديث وصححه وابن ماجه من حديث فضالة بن عبيد (٢) حديث « كف أذاك عن نفسك ولا تتابع هواها في معصية الله .. الحديث » لم أجد هذا السيات .

أجبتك بهذا سبع مرات فأبيت أن تسمعيه إلا من الجنيدها قد سمعته ، ثم انصرف وما عرفتم وقال يزيد القاشي :  
إليك عن الماء البارد في الدنيا لعل لأحرمه في الآخرة . وقال رجل لعمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى : متى أتاكم ؟  
قال : إذا اشتيت الصمت ، قال : متى أصمت ؟ قال : إذا اشتيت الكلام . وقال علي رضي الله عنه : من اشتاق إلى  
الجنة سلا عن الشهوات في الدنيا . وكان مالك بن دينار يطوف في السوق فإذا رأى الشيء يشتهي قال لنفسه : أصبري  
فوالله ما أمعك إلا من كرامتك على .

فإذن قد اتفق العلماء والحكماء على أن لا طريق إل سعادة الآخرة إلا بنهي النفس عن الهوى ومخالفة الشهوات  
فالإيمان بهذا واجب . وأما علم تفصيل ما يترك من الشهوات وما لا يترك فلا يدرك إلا بما قدمناه . وحاصل الرياضة  
وسرهما أن لا تمتنع النفس بشيء مما لا يوجد في القبر إلا بقدر الضرورة ، فيكون مقتصرأ من الأكل والشكاح  
واللباس والسكن وكل ما هو مضطر إليه على قدر الحاجة والضرورة ، فإنه لو تمتع بشيء منه أنس به والله ، فإذا  
مات تمى الرجوع إلى الدنيا بسببه ولا يتمنى الرجوع إلى الدنيا إلا من لاحظ له في الآخرة جمال ، ولا خلاص منه  
إلا بأن يكون القلب مشغولاً بعمرة الله وحبه والتفكير فيه والانتفاع إليه ، ولا قوة على ذلك إلا بالله ، ويقتصر  
من الدنيا على ما يدفع عوائق الذكر والتفكير فقط . فمن لم يقدر على حقيقة ذلك فليقرّب منه والناس فيه أربعة :  
رجل مستغرق قلبه بذكر الله فلا يلتفت إلى الدنيا إلا في ضرورات المعيشة فهو من الصديقين . ولا ينتهى إلى  
هذه الرتبة إلا بالرياضة الطويلة والصبر عن الشهوات مدة مديدة .

الثاني : رجل استغرق الدنيا قلبه ولم يبق لله تعالى ذكر في قلبه إلا من حيث حديث النفس ، حيث يذكره  
باللسان لا بالقلب فهذا من الهالكين .

والثالث : رجل اشتغل بالدنيا والدين ولكن الغالب على قلبه هو الدين فهذا لا بد له من ورود النار إلا أنه  
ينجو منها سريماً بقدر غلبة ذكر الله تعالى على قلبه .

والرابع : رجل اشتغل بهما جميعاً لكن الدنيا أغلب على قلبه فهذا يطول مقامه في النار لكن يخرج منها لا محالة  
لقوة ذكر الله تعالى في قلبه وتمسكه من صميم فؤاده ، وإن كان ذكر الدنيا أغلب على قلبه . اللهم إنا نموذك بك من  
خيريك فإنك أنت المعاذ .

وربما يقول القائل إن التمتع بالمباح مباح فكيف يكون التمتع بسبب البعد من الله عز وجل ؟ وهذا خيال ضعيف  
بل حب الدنيا رأس كل خطيئة وسبب إحباط كل حسنة . والمباح الخارج عن قدر الحاجة أيضاً من الدنيا وهو  
سبب البعد . وسيأتى ذلك في كتاب ذم الدنيا . وقد قال إبراهيم الخواص كت مرة في جبل السكام فرأيت رماناً  
فاشتهيته فأخذت منه واحدة فشققتها فرجبتها حاضنة فضيت وتركها ، فرأيت رجلاً مطروحاً وقد اجتمعت عليه  
الزنايير فقلت : السلام عليك ، فقال : وعليك السلام يا إبراهيم ، فقلت : كيف عرفتي ؟ فقال : من عرف الله عز  
وجل لم يخف عليه شيء ، فقلت : أرى لك حالاً مع الله عز وجل فلو سألتك أن يحميك من هذه الزنايير ؟ فقال :  
وأرى لك حالاً مع الله تعالى فلو سألتك أن يحميك من شهوة الرمان فإن لدغ الرمان يحد الإنسان أله في الآخرة  
ولدغ الزنايير يحد أله في الدنيا ، فركته ومضيت . وقال السري : أنا منذ أربعين سنة تطلبني نفسي أن أغس خبزة  
في دبس فأطعمتها .

فإذن لا يمكن إصلاح القلب لسلك طريق الآخرة مالم يمتنع نفسه عن التمتع بالمباح ، فإن النفس إذا لم تمتنع

بعض المباحات طمعت في المحظورات فن أراد حفظ لسانه عن النية والفضول لحقه أن يلومه السكوت ؛ إلا عن ذكر الله وإلا عن المهمات . في الدين ، حتى تموت منه شهوة الكلام فلا يتكلم إلا بحسب فيكون سكوته عبادة وكلامه عبادة . ومهما اعتادت الدين رى البصر إلى كل شيء جميل لم تتحفظ عن النظر إلى مالا يحل ، وكذلك سائر الشهوات ، لأن الذى يشتهى به الحلال هو بيعته الذى يشتهى الحرام ، فالشهوة واحدة وقد وجب على العبد منعها من الحرام فإن لم يعقدها الاقتصاد على قدر الضرورة من الشهوات غلبته . فهذه إحدى آفات المباحات ووراءها آفات عظيمة أعظم من هذه ، وهو أن النفس تفرح بالتسليم في الدنيا وتركن إليها وتطمئن إليها أكثراً وبطراً حتى تصير علة كالسكران الذى لا يفيق من سكره . وذلك الفرح بالديناسم قاتل يسرى في العروق فيخرج من القلب الحنوف والحنن وذكر الموت وأهوال يوم القيامة ، وهذا هو موت القلب . قال الله تعالى ﴿ ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ﴾ وقال تعالى ﴿ وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع ﴾ وقال تعالى ﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد ﴾ الآية وكل ذلك ذم لما فسأل الله السلامة :

فأول الحزم من أبواب القلوب جربوا قلوبهم في حال الفرح بمواتاة الدنيا فوجدوها قاسية نفرة بعيدة التأثير عن ذكر الله واليوم الآخر ، وجربوها في حالة الحزن فوجدوها لينتروقيمة صافية قابلة لأثر الذكر . فعلموا أن التجاة في الحزن الدائم والتباعد من أسباب الفرح والبطر ، ففعلوها عن ملاذمها وعقودها الصبر عن شهواتها - حلالها وحرامها - وعلموا أن حلالها حساب وحرامها عتاب ومتشابهها عتاب وهو نوع عذاب ، فن ترقش الحساب في عرصات القيامة فقد عذب . فخلصوا أنفسهم من عذابها وتوصلوا إلى الحرية والملك الدائم في الدنيا والآخرة بالخلع من أسر الشهوات ورفقا بالأنس بذكر الله عز وجل والاشتغال بطاعته . وفعلوا بها ما يفعل بالبازي إذا قصد تأديب ونقله من التوب والاسيحاح إلى الانقياد والتأديب ؛ فإنه يحبس أولاً في بيت مظلم وتحاط عيناه حتى يحصل به الغطام عن الطيران في جوف الهواء ، وينسى ما قد كان ألفه من طبع الاسترسال ، ثم يرقق . باللحم حتى يأنس بصاحبه ويألفه فإذا دعاه أجابه ، ومهما سمع صوته رجع إليه . فكذلك النفس لا تألف ربها ولا تأنس بذكره إلا إذا فطمت عن عاداتها بالخلوة والبرلة أولاً ليحفظ السمع والبصر عن المأثقات ، ثم عودت النساء والذكر والدعاء ثانياً في الخلوة حتى ينقلب عليها الأنس بذكر الله عز وجل عوضا عن الأنس بالدنيا وسائر الشهوات وذلك يقتل على المرید في البداية ثم يتعم به في النهاية ، كالصبي يغطي عن الثدي وهو شديد عليه إذا كان لا يصبر عنه ساعة فذلك يشتد بكآؤه وجوعه عند الغطام ، ويشد نفوره عن الطعام الذى يقدم إليه بدلا عن اللبن ، ولكنه إذا منع اللبن رأساً يوما فبقوا وعظم تمعه في الصبر عليه وغلبه الجوع تناول الطعام تكسفاً ، ثم يصير له طبعاً . فلورود بعد ذلك إلى الثدي لم يرجع إليه ، فيهب الثدي ويماف اللبن ويألف الطعام . وكذلك الدابة في الابتداء تنفر عن السرج والعجام والركوب فتحمل على ذلك قهراً ، وتتنع عن السرج الذى ألفته بالسلاسل والقيود أولاً ، ثم تأنس به بحيث تترك في موضعها متف فيه من غير قيد . فكذلك تؤدب النفس كما تؤدب الطير والدواب ، وتاديبها بأن تمنع من النظر والأنس والفرح بتعيم الدنيا بل بكل ما يزيلها بالموت ، إذ قيل له أحب ما أحببت فإنك مغارة . فلماذا علم أنه من أحب شيئاً يلزمه فراقه ويشقى لاهالة لفراقه شغل قلبه بحب مالا يفارقه وهو ذكر الله تعالى ، فإن ذلك يصحبه في القبر ولا يفارقه . وكل ذلك يتم بالصبر أولاً أياماً فلالمل فإن العدم قليل بالإضافة إلى مدة حياة الآخرة . وما من عاقل إلا وهو راض باحتمال المشقة في سفر وتعلم صناعة وغيرهأشراً ليعتبه به سنة أودهرأ . وكل

العمر بالإضافة إلى الأبد أقل من الشهر بالإضافة إلى عمر الدنيا . فلا بد من الصبر والمجاهدة . فمعد الصباح يحمد القوم السرى وتذهب عنهم غمائم الكرى كما قاله علي رضي الله عنه .

وطريق المجاهدة والرياسة لكل إنسان تختلف بحسب اختلاف أحواله . والأصل فيه أن يترك كل واحد ما به فرحه من أسباب الدنيا . فإذ يفرح بالمال أو بالجاه أو بالقبول أو الرفع أو بالمز في القضاء والولاية أو بكثرة الاتباع في التدريس والإفادة فينبغي أن يترك أولاً ما به فرحه ، فإنه إن منع عن شيء من ذلك وقيل له ثوابك في الآخرة لم ينقص بالمتع فتركه ذلك وتأم به فهو بمن فرح بالحياة الدنيا واطمأن بها ، وذلك مهلك في حقه . ثم إذا ترك أسباب الفرح فليزول الناس ولينفرد بنفسه وليراغب قلبه حتى لا يشتغل إلا بذكر الله تعالى والفكر فيه . وليترصد لما يبدو في نفسه من شهوة ووسواس حتى يقطع مصادمه مهما ظهر ، فإن لكل وسوسة سبباً ولا تزول إلا بقطع ذلك السبب والملافة . ولا يلزم ذلك بقية العمر فليس للمجاهد آخر إلا بالموت .

### بيان علامات حسن الخلق

اعلم أن كل إنسان جاهل بعيوب نفسه ، فإذا جاهد نفسه أدنى مجاهدة حتى ترك فواحش المعاصي وبها ينظر بنفسه أنه هذب نفسه وحسن خلقه واستغنى عن المجاهدة ، فلا بد من إصباح علامة حسن الخلق . فإن حسن الخلق هو الإيمان ، وسوء الخلق هو النفاق . وقد ذكر الله تعالى صفات المؤمنين والمنافقين في كتابه وهي يحملتها ثمرة حسن الخلق وسوء الخلق . فلتردد جملة من ذلك لتعلم آية حسن الخلق . قال الله تعالى ( قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن النفاق معرضون ) إلى قوله ( أولئك هم الوارثون ) وقال عز وجل ( التائبون العابدون الحامدون ) إلى قوله ( وبشر المؤمنين ) وقال عز وجل ( إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ) إلى قوله ( أولئك هم المؤمنون حقا ) وقال تعالى ( وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ) إلى آخر السورة . من أشكل عليه حاله فليعرض نفسه على هذه الآيات فوجد جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق ، وفقد جميعها علامة سوء الخلق ، ووجد بعضها دون بعض يدل على البعض دون البعض فليشتغل بتحصيل ما فقد وحفظ ما وجد . وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمن بصفات كثيرة وأشار بجميعها إلى محاسن الأخلاق فقال ( المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه <sup>(١)</sup> ) وقال عليه السلام ( من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه <sup>(٢)</sup> ) وقال صلى الله عليه وسلم ( من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره <sup>(٣)</sup> ) وقال ( من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت <sup>(٤)</sup> ) وذكر أن صفات المؤمنين هي حسن الخلق فقال صلى الله عليه وسلم ( أكل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً <sup>(٥)</sup> ) وقال صلى الله عليه وسلم ( إذا رأيتم المؤمن سموتاً وقوراً فأدوا منه فإنه يلقن الحكمة <sup>(٦)</sup> ) وقال ( من سرته حسنة

- (١) حديث « المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه » أخرجه الشيخان من حديث أنس « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه » .
  - (٢) حديث « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » متفق عليه من حديث أبي شريح الخزازي ومن حديث أبي هريرة .
  - (٣) حديث « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره » متفق عليه من حديثها وهو بعش الحديث الذي قبله .
  - (٤) حديث « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » متفق عليه أيضاً من حديثها وهو بعش الذي قبله .
  - (٥) حديث « أكل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً » تقدم غير مرة .
  - (٦) حديث « إذا رأيتم المؤمن سموتاً وقوراً فأدوا منه فإنه يلقن الحكمة » أخرجه ابن ماجه من حديث أبي خلد بلط .
- « إذا رأيتم الرجل قد أعطى زمناً في الدنيا وثقة منطلق منه فإنه يلقن الحكمة » أخرجه ابن ماجه من حديث أبي خلد بلط .

وسامته سيئته فهو مؤمن <sup>(١)</sup> ، وقال : لا يحمل المؤمن أن يشير إلى أخيه بنظرة تؤذيه <sup>(٢)</sup> ، وقال عليه السلام : لا يحمل المسلم أن يروع مسلماً <sup>(٣)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم : إنما يتجالس المتجالسان بأمانة الله عز وجل فلا يحمل لأحدهما أن يفشي على أخيه ما يكرهه <sup>(٤)</sup> .

وجمع بعضهم علامات حسن الخلق فقال : هو أن يكون كثير الحياء قليل الأذى كثير الصلاح صدوق اللسان ، قليل الكلام كثير العمل ، قليل الزلل قليل الفضول ، برا وصولاً وقوراً صبوراً شكوراً راضياً حليماً رفيقاً عفيفاً شفيقاً ، لأمناً ولا سباباً ولا نماماً ولا مغتاباً ولا مجحولاً ولا حقوداً ولا بخيلاً ولا حسوذاً ، بشاشاً هشاشاً يحب في الله وينضف في الله ويرضى في الله وينضب في الله فهذا هو حسن الخلق .

وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن علامة المؤمن والمنافق فقال : « إن المؤمن همه في الصلاة والصيام والعبادة ، والمنافق همه في الطعام والشراب كالهيمة » <sup>(٥)</sup> ، وقال حاتم الأصم : المؤمن مشغول بالفكر والعبر ، والمنافق مشغول بالحرص والأمل ، والمؤمن آيس من كل أحد إلا من الله ، والمنافق راج كل أحد إلا الله ، والمؤمن آمن من كل أحد إلا من الله ، والمنافق خائف من كل أحد إلا من الله ، والمؤمن يقدم ماله دون دينه ، والمنافق يقدم دينه دون ماله ، والمؤمن يحسن ويبكي ، والمنافق يسيء ويضحك ، والمؤمن يحب الخلوة والوحدة ، والمنافق يحب الخلطة والملا ، والمؤمن يزرع ويحشي القصاد ، والمنافق يقلع ويرجو الحصاد ، والمؤمن يأمر وينهى للسياسة فيصالح ، والمنافق يأمر وينهى للرياسة فيفسد .

وأولى ما يمتحن به حسن الخلق العبر على الأذى واحتال الجفاء ، ومن شك من سوء خلق غيره دل ذلك على سوء خلقه ، فإن حسن الخلق احتال الأذى فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يوماً يمشي ومعه أنس فأدركه أهرابي بجذبه جذباً شديداً وكان عليه برد نجراني غليظ الحاشية ، قال أنس رضي الله عنه : حتى نظرت إلى عتي رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أرت فيه حاشية البرد من شدة جذبه ، فقال : يا محمد هب لي من مال الله الذي عندك ، فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وضحك ، ثم أمر بإعطائه <sup>(٦)</sup> . ولما أكثرت قریش إيذاءه وضربه قال ، اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون <sup>(٧)</sup> . قيل إن هذا يوم أحد فلذلك أنزل الله تعالى ( وإنك لعلى خلق عظيم ) ويحك أن إبراهيم بن آدم خرج يوماً إلى بعض البراءى فاستقبله رجل جندى فقال : أنت عبد ؟ قال : نعم ، فقال له : أين العمران ؟ فأشار إلى القبرة ، فقال الجندى : إنما أردت العمران ؟ فقال : هو للقبرة ، فناطه ذلك فضرب رأسه بالسوط فشقجه وردده إلى البكة فاستقبله أصحابه فقالوا ما الخبر ؟ فأخبرهم الجندى ما قال له فقالوا ، هذا إبراهيم بن آدم ! فزول الجندى عن فرسه وقبل يديه ورجليه وجعل يمتدح إليه ، فقيل بعد ذلك له : لم قلت له أنا عبد ؟ فقال : إنه لم يسألني : عبد من أنت بل قال : أنت عبد ؟ فقلت : نعم ، لاقى عبداً ، فلما ضرب رأسي سألت

(١) حديث : من سرته حسنة وسامته سيئته فهو مؤمن . أخرجه أحمد والطبراني والحاكم وصححه دلى شرطهما من حديث أبي موسى ورواه الطبراني والحاكم وصححه على شرط الشيخين من حديث أبي أمامة . (٢) حديث : لا يحمل المسلم أن يشير إلى أخيه بنظر يؤذيه . أخرجه ابن المبارك في الزهد والرفائق وفي البر والصلة مرسلًا وقد تقدم . (٣) حديث : لا يحمل المسلم أن يروع مسلماً . أخرجه الطبراني والطائسي من حديث الثعلبي بن بغير والزُّبَير عن حديث عمر وأسناده ضعيف .

(٤) حديث : إنما يتجالس المتجالسان بأمانة الله . الحديث . تقدم في كتاب الصحة .

(٥) حديث : سئل عن علامة المؤمن والمنافق فقال : إن المؤمن همه في الصلاة والصيام ... الحديث . لم أجده له أصلاً . (٦) حديث : كان يمشي فأدركه أهرابي بجذبه جذباً شديداً وكان عليه برد نجراني غليظ الحاشية ... الحديث . منقضى عليه من حديث أنس . (٧) حديث : اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون . أخرجه ابن حبان والبيهقي في دلائل التواتر من حديث سهل بن سعد وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود أنه حكاه صلى الله عليه وسلم عن نبي من الأنبياء ضربه قومه .

الله له الجنة قيل كيف وقد ظلك؟ فقال: علمت أنتي أوجر على ما نالتى منه فلم أرد يكون نصيبى منه الخير ونصيبى منى الشر. ودعى أبو عثمان الحيرى إلى دعوة - وكان الداعى قد أراد تجربته - فلما بلغ منزله قال له: ليس وجه، فرجع أبو عثمان فلما ذهب غير بعيد دعاه ثانياً فقال له: يا أستاذ أرجع فرجع أبو عثمان فقال له مثل مقالته الأولى فرجع، ثم دعاه الثالثة وقال: أرجع على ما يوجب الوقت فرجع، فلما بلغ الباب فإن له مثل مقالته الأولى فرجع أبو عثمان، ثم جاءه الرابعة فردده حتى عاينه بذلك مرات وأبو عثمان لا يتغير من ذلك، فأكب على وجليه وقال: يا أستاذ إنما أردت أن أختبرك فأحسن خلقك! فقال: إن الذى رأيت منى هو خلق الكلب، إن الكلب إذا دعى أجاب وإذا جر أنجر. وروى عنه أيضاً أنه اجتاز يوماً فى سكة فطرح عليه إجانة فرماد فزله عن دابته فسجد بحمد الشكر ثم جعل ينفذ الرمد عن ثيابه ولم يقل شيئاً فقبل ألا يزيمهم فقال إن من استحق النار فصول على الرمد لم يحمر له أن يفضب وروى أن على بن موسى الرضا رحمه الله عليه كان لوته يميل إلى السواد - إذ كانت أمه سوداء - وكان بئيساً يور حمام على باب داره، وكان إذا أراد دخول الحمام فرغه له الحمامى، فدخل ذات يوم فأغلق الحمامى الباب ومضى فى بعض حوائجه، فتمتد رجل رستاق إلى باب الحمام ففتحه ودخل فزعر ثيابه ودخل فرأى على بن موسى الرضا فظن أنه بعض خدام الحمام، فقال له: قم واحمل إلى الماء فقام على بن موسى وامتل جميع ما كان يأمره به، فرجع الحمامى فرأى ثياب الرستاق وسمع كلامه مع على بن موسى الرضا فخاف وهرب وخلاهما، فلما خرج على بن موسى سأل عن الحمامى فقيل له: إنه خاف مما جرى فهرب قال: لا ينبغي له أن يهرب إنما الذنب لمن وضع ماله عند أمه سوداء. وروى أن أبا عبد الله الحياطة كان يجلس على دكانه، وكان له حريف مجوس يستعمله فى الحياطة فكان إذا خاطه له شيئاً حل إليه دراهم زائفة، فكان أبو عبد الله يأخذ منه ولا يجبره بذلك ولا يرد ما عليه، فانفق يوماً أن أباع عبده قام لبعض حاجته، فأتى المجوس فلم يجده فدفع إلى تلميذه الأجرة واسترجع ما قد خاطه فكان درهما زائفاً، فلما نظر إليه التلميذ عرف أنه زائف فردده عليه، فلما عاد أبو عبد الله أخبره بذلك فقال: بئس ما علمت هذا المجوس يعاملنى بهذه للمعاملة منذ سنة وأنا أصبر عليه وأأخذ الدراهم منه وأتقى فى البئر ثلاثين بها مسلماً. وقال يوسف بن أسباط: علامة حسن الخلق عشر خصال: قلة الخلاف، وحسن الإنصاف، وترك طلب العثرات، وتحسين ما يبدو من السيئات، والتماس المنفعة، واحتياط الأذى، والرجوع بالملامة على النفس والتفرد بمعرفة عيوب نفسه دون عيوب غيره، وطلاقة الوجه للصغير والكبير، ولطف الكلام لمن دونه ولن فوقه. وسئل عن حسن الخلق فقال: أدناه احتياط الأذى وترك المسكافة والراحة للظالم والاستغفار له والشفقة عليه. وقيل للأخف بن قيس عن تلمذ الخلفاء فقال: من قيس بن عاصم، قيل ما وبلغ من حله؟ قال: بينما هو جالس فى داره إذ أتته جارية له بسفود عليه شواء فسقط من يدها فوقع على ابن له صغير فأت، فدمعت الجارية فقال لها: لا روع عليك أنت حرة لوجه الله تعالى. وقيل إن أديسا القترى كان إذا رآه الصبيان يرمونه بالحجارة فكان يقول لهم: يا إخوتاه إن كان ولا بد فارموني بالصغار حتى لا تدموا ساقى فتتمنوني عن الصلاة. وشتم رجل الأخف بن قيس وهو لا يجيبه وكان يقيه فلما قرب من الحلى وقف وقال: إن كان قد بقى فى نفسك شئ فقله كى لا يسلمك بعض سفهاء الحلى فيؤذوك وروى أن علياً كرم الله وجهه دعا غلاماً فلم يجبه فدعاه ثانياً وثالثاً فلم يجبه، فقام إليه فرأه مضطجماً فقال: أما تسمع يا غلام؟ قال: بلى، قال: فما حلك على ترك إجابتي؟ قال: أمنت عقوبتك فتكاسلت، فقال: امض فأنت حر لوجه الله تعالى. وقالت امرأة لمالك بن دينار رحمه الله:

بإمرائي ، فقال : يا هذه وجدت اسمي الذي أحله أهل البصرة . وكان ليحيى بن زياد الحارثي غلام سوء فقيل له : لم تمسكه ؟ فقال : لأتعلم الحلم عليه .

فهذه نفوس قد ذلك بالرياضة فاعدلت أخلاقها ، ونقيت من النش والقلد وبواطنها فأثمرت الرضا بكل ما قدره الله تعالى وهو منتهى حسن الخلق . فإن من يكره فعل الله تعالى ولا يرضى به فهو غاية سوء خلقه ، فهو لاء ظهرت الملامات على ظواهرهم كما ذكرناه . فمن لم يصادف من نفسه هذه الملامات فلا ينبغي أن يفتن بنفسه فيظن بها حسن الخلق ، بل ينبغي أن يشتغل بالرياضة والمجاهدة إلى أن يبلغ درجة حسن الخلق فإنها درجة رفيعة لا ينالها إلا المقربون والصديقون .

### بيان الطريق في رياضة الصبيان في أول نشوهم ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم

اعلم أن الطريق في رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدما والصبيان أمانة عند والديه ، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل فحش وصورة . وهو قابل لكل ما نقش ومائل إلى كل ما يحال به إليه ، فإن عود الخير وعلمه نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة وشاركه في ثوابه أبوه وكل فعل له ومؤدب ؛ وإن عود الشر وأصل إصماليه البهائم شق ومهلك وكان الوزر في رقبة القسيم عليه والوالى له . وقد قال الله عز وجل ( يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا ) ومهما كان الأب يصونه عن نار الدنيا فإن يصونه عن نار الآخرة أولى ؛ وصيانته بأن يؤدبه ويهذب ويعلمه بحسن الأخلاق ويحفظه من القراءات السوء ولا يعودته للتنتم ، ولا يجب إليه الزينة والرقامية فيضج عمره في طلبها إذا كبر فيه لك هلاك الأبد ، بل ينبغي أن يراقبه من أول أمره فلا يستعمل في حضناته وإرضاعه إلا امرأة متدينة تاكل الحلال ، فإن اللبن الحاصل من الحرام لا يركه فيه ، فإذا وقع عليه نشو الصبي انقضت طيبته من الخبيث فيميل طبعه إلى ما يناسب الخباثات . ومهما رأى فيه عابثا للتعين فينبغي أن يحسن مراقبته ، وأول ذلك ظهور أوائل الحياء ، فإنه إذا كان يحتمل ويستحي ويترك بعض الأفعال فليس ذلك إلا لإشراق نور العقل عليه ، حتى يرى بعض الأشياء قبيحا ومخالفا للبعض فصار يستحي من شيء دون شيء ، وهذه هدية من الله تعالى إليه وبشارة تدل على اعتدال الأخلاق وصفاء القلب وهو مبشر بكال العقل عند البلوغ فالصبي للمستحي لا ينبغي أن يحمل بل يستعان على تأديبه بحبائه أو تمييزه ، وأول ما يغلب عليه من الصفات شره الطعام فينبغي أن يؤدب فيه ، مثل أن لا يأخذ الطعام إلا بيمينه ، وأن يقول عليه بسم الله عند أخذه ، وأن يأكل مما يليه وأن لا يبادر إلى الطعام قبل غيره ، وأن لا يحدق النظر إليه ولا إلى من يأكل ، وأن لا يسرع في الأكل ، وأن يجيد المضغ ، وأن لا يراول بين القمم ، ولا يطلع يده ولا ثوبه ، وأن يمؤد الخبز القفار في بعض الأوقات حتى لا يصير بحيث يرى الأدم حننا ، وقبح عنده كثرة الأكل بأن يشبه كل من يكثر الأكل بالبهائم ، وبأن يذم بين يديه الصبي الذي يكثر الأكل ويمدح عنده الصبي المتأدب القليل الأكل ، وأن يجب إليه الإيثار بالطعام وقلة الميلالة به والقناعة بالطعام الحسن أى طعام كان ، وأن يجب إليه من الثياب البيض دون الملون والإبريسم ويقرضه أن ذلك شأن النساء والمختلن وأن الرجال يستكشفون منه ويكثر ذلك عليه ، ومهما رأى على صبي ثوبا من الإبريسم أو ملون فينبغي أن يستكره ويذمه ، ويحفظ الصبي عن الصبيان الذين عودوا بالتنتم والرقامية ولبس الثياب الفاخرة ، وعن مخالطة كل من يسمعه ما يرغب فيه فإن الصبي مهما أعمل في ابتداء نشوهم خرج في الأغلب ردى الأخلاق كذا با حودا سرورا تسامحا لحوا ذا فصول ومخلط وكيد ومجانة ، وإنما يحفظ عن جميع ذلك بحسن التأديب ،



ثم يشغل في المكتب فيتعلم القرآن وأحاديث الأخبار وحكايات الأبرار وأحوالهم لينفوس في نفسه حب الصالحين ويحفظ من الأشعار التي فيها ذكر المشق وأمله ، ويحفظ من غزالة الأدباء الذين يرجعون أن ذلك من الطرف ورقة الطبع ، فإن ذلك يفرس في قلوب الصبيان بذر الفساد .

ثم مهما ظهر من الصبي خلق جميل وفصل محمود فينبغي أن يكرم عليه ويحازى عليه بما يفرح به ويحسد بين أظهر الناس ، فإن خالف ذلك في بعض الأحوال مرة واحدة فينبغي أن يتناقل عنه ولا يهتك ستره ولا يكشفه ولا يظهر له أنه يتصور أن يتجاسروا أحد على مثله ، ولا سيما إذا ستره الصبي واجتهد في إخفائه ، فإن إظهار ذلك عليه ربما يفده جنارة حتى لا يبالي بالماكشفة ، فمعد ذلك إن عاد ثانياً فينبغي أن يعاتب سرا ويعظم الأمر فيه ويقال له : إياك أن تعود بعد ذلك لثل هذا وأن يطلع عليك في مثل هذا فتفتضح بين الناس ، ولا تنكر القول عليه بالتأب في كل حين فإنه يكون عليه سماح الملازمة وركوب القباح ويسقط وقع الكلام من قلبه ، وليكن الأب حافظاً هبة الكلام معه فلا يوجهه إلا أحياناً ، والام تخوفه بالأب وتزجره عن القباح ، وينبغي أن يمنع عن التزم نهاراً فإنه يورث الكسل ولا يمنع منه ليلاً ولكن يمنع القرش الوطئية حتى تصلب أعضائه ولا يضمن بدنه فلا يصبر عن التمتع ، بل يعمد التحشونة في المقرش والملبس والمطعم ، وينبغي أن يمنع من كل ما يفضله في خفية فإنه لا يخفيه إلا وهو يستعد أنه قبيح ، فإذا ترك تعود فعل القبيح ، ويعود في بعض النهار المشي والحركة والريضة حتى لا يئلب عليه الكسل ، ويعود أن لا يكشف أطرافه ولا يسرع المشي ، ولا يرخي يديه بل يضمها إلى صدره ، ويمنع من أن يقتخر على أفرانه بشيء مما يملكه والده أو بشيء من مطاعه وملابسه أو لوحه ودواته ، بل يبعد التواضع والإكرام لكل من عاشره والتلطف في الكلام معهم ، ويمنع من أن يأخذ من الصبيان شيئاً بدا له حشمة إن كان من أولاد المحتشين ، بل يعلم أن الرفعة في الإقطاع لا في الأخذ وأن الأخذ لئوم وخسة ودناءة ، وإن كان من أولاد الفقراء فليعلم أن الطمع والأخذ مهانة وذلة وأن ذلك من دأب الكلب فإنه يصبص في انتظار لقمة والطمع فيها .

وبالجملة فيحب إلى الصبيان حب الذهب والفضة والطمع فيهما ويحذر منهما أكثر مما يحذر من الحيات والمقارب ، فإن آفة حب الذهب والفضة والطمع فيهما أضر من آفة السموم على الصبيان بل على الأكابر أيضاً ، وينبغي أن يعود أن لا يصدق في مجلسه ولا يتخط ولا يتماذب بمحضرة غيره ولا يستدبر غيره ولا يضع رجلاً على رجل ولا يضع كفه تحت ذقنه ، ولا يعمد رأسه بساعده فإن ذلك دليل الكسل . ويعلم كيفية الجلوس ويمنع كثرة الكلام ويبين له أن ذلك يدل على الوقاحة وأنه فعل أبناء اللثام ، ويمنع اليمين رأساً - صادقاً كان أو كاذباً - حتى لا يعتاد ذلك في الصغر ، ويمنع أن يتدنى بالكلام ، ويعود أن لا يتكلم إلا جواباً ويقدّر السؤال ، وأن يحسن الاستماع مهما تكلم غيره من هو أكبر منه سناً ، وأن يقوم لمن فوقه ويوسع له المكان ويجلس بين يديه ، ويمنع من لغو الكلام وخفشه ، ومن اللعن والسب ، ومن مخالطة من يجرى على لسانه شيء من ذلك فإن ذلك يسرى لا محالة من القرناء السوء ، وأصل تأديب الصبيان الحفظ من قرناء السوء . وينبغي إذا ضرب الملم أن لا يتكر الصراخ والشغب ، ولا يستمتع بأحد بل يصبر ويذكر له أن ذلك دأب الشجعان والرجال ، وأن كثرة الصراخ دأب المباليك والسوان . وينبغي أن يؤذن له بعد الانصراف من الكتاب أن يلعب لعباً جميلاً يستريح إليه من تعب المكتب بحيث لا يتسب في اللعب ، فإن منع الصبي من اللعب وإرهاقه إلى التمل دائماً يئيت قلبه ويطل ذكاه وينقص عليه العيش ، حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأساً . وينبغي أن يعلم طاعة والده ومعلبه ومؤذبه ومن هو أكبر منه سناً من قريب وأجنبي ، وأن ينظر إليهم بعين الجلالة والتعظيم ، وأن يترك اللعب بين أيديهم . ومهما بلغ من التقيين ، فينبغي

أن لا يساغ في ترك الظهارة والصلاة ويؤمر بالصوم في بعض أيام رمضان ، ويجنب ليس الديباج والحريز والذهب ويعلم كل ما يحتاج إليه من حدود الشرع .

ويحظر من السرقة وأكل الحرام ومن الخيانة والكذب والفحش ، وكل ما يغلب على الصبيان ، فإذا وقع نشوه كذلك في الصبا فهم قارب البلوغ يمكن أن يعرف أسرار هذه الأمور ، فيذكر له أن الأطلعة أدوية وإنما المقصود منها أن يقوى الإنسان بها على طاعة الله عز وجل ، وأن الدنيا كلها لا أصل لها إلا بقاء لها ، وإن الموت يقطع نعيمها ، وأما دار بمنزلة دار مقر ، وأن الآخرة دار مقر لا دار عز ، وأن الموت منتظر في كل ساعة ، وأن الكيس المائل من تزود من الدنيا للآخرة حتى تعظم درجته عند الله تعالى ويقس نعيمه في الجنان ، فإذا كان الفشو صالحا كان هذا الكلام عند البلوغ واقعا مؤثرا ناجما ثبت في قلبه كما ثبت النقش في الحجر . وإن وقع النشو بخلاف ذلك حتى ألف الصبي اللعب والفحش والوقاحة وشربه الطعام واللباس والتزين والتفاخر بنا قبله عن قبول الحق نبوة الحاطة عن التراب اليابس . فأوائل الأمور هي التي ينبغي أن تراعى ، فإن الصبي مجروره خلق قابلا للخير والشر جميعا وإنما أبواه يميلان به إلى أحد الجانبين . قال صلى الله عليه وسلم : كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه <sup>(١)</sup> . قال سهل بن عبد الله التستري : كنت وأنا ابن ثلاث سنين أقوم بالليل فأناظر إلى صلاة خالي محمد بن سوار فقال لي يوما : ألا تذكر الله الذي خلقك فقلت : كيف أذكره ؟ قال : قل بقلبك عند تمليك في أيامك ثلاث مرات من غير أن تحرك به لسانك ، الله معي الله ناظر إلى الله شامدي ، فقلت ذلك ليالي ثم أعلمته فقال : قل في كل ليلة سبع مرات ، فقلت ذلك ثم أعلمته فقال : قل ذلك كل ليلة إحدى عشر مرة ، فقلته فوقع في قلبي حلاوته ، فلما كان بعد سنة قال لي خالي : افظ ما علمتك ودم عليه إلى أن تدخل القبر فإنه يفضلك في الدنيا والآخرة ، فلم أزل على ذلك سنين فوجدت لذلك حلاوة في سرى ، ثم قال لي خالي يوما : يا سهل من كان الله معه وناظرا إليه وشاهده أبغض ؟ إياك والمصيبة ، فكنت أدخل بنفسى فيشوا في إلى المكتب فقلت : إنى لأخشى أن يتفرق على همى ولكن شاربوا المعلم أنى أذهب إليه ساعة فأعلم ثم أرجع ، فضيت إلى الكتاب فتعلم القرآن وحفظته وأنا ابن ست سنين أو سبع سنين ، وكنت أصوم الدهر وقوي من خبز الشعير الملقى عشرة سنة ، فوقع لي مسألة وأنا ابن ثلاث عشرة سنة فسألت أهلي أن يمشوني إلى أهل البصرة لأسأل عنها ، فأثبت البصرة فسألت علماءها فلم يشف أحد عني شيئا . فخرجت إلى عبادان إلى رجل يعرف بأبي حبيب حمزة بن أبي عبد الله العباداني فسأله عنها فأجابني ، فأثبت عنده مدة أتبع بكلامه وأتأدب بأدابه ، ثم رجعت إلى تستر بجلت قوتي اقتصادا على أن يشتري لي بدم من الشعير الفرق فيطحن ويخبز لي ، فأناظر عند السحر على أوقية كل ليلة بخما من غير ملح ولا أدم ، فكان يكفيني ذلك الدهم سنة . ثم هزمت على أن أطوى ثلاث ليال ثم أفطر ليلة . ثم حسا ، ثم سبعا ، ثم خمسا وعشرين ليلة ، فكنت على ذلك عشرين سنة ، ثم خرجت أسير في الأرض سنين ، ثم رجعت إلى تستر وكنت أقوم الليل كله ماشاء الله تعالى . قال أحد : فأراه أكل الملح حتى لقي الله تعالى :

### بيان شروط الإرادة ومقدمات المجاهدة وتدرج المرید في سلوك سبيل الرياضة

واعلم أن من شاهد الآخرة بقلبه مشاهدة يقين أصبح بالضرورة مريدا حارث الآخرة مشتاقا إليها سالكا سبيلها مستهينا بنعيم الدنيا ولذاتها ، فإن من كانت عنده خربة فرأى جوهرة نفيسة لم يق له رغبة في الخربة وقوي إرادته

(١) حديث « كل مولود يولد على الفطرة ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة .

في يديها بالجوهرة ، ومن ليس مريدا حرت الآخرة ولا طالبا لقاء الله تعالى فهو لعدم إيمانه بالله واليوم الآخر . ولست أثنى بالإيمان حديث النفس وحركة اللسان بكلمتي الشهادة من غير صدق وإخلاص ، فإن ذلك ينضج قول من صدق بأن الجوهرة خير من الخرزة إلا أنه لا يدرى من الجوهرة إلا لفظها وأما حقيقتها فلا . ومثل هذا المصدق إذا ألف الخرزة قد لا يتركها ولا يعظم اعتناقه إلى الجوهرة ، فإذا المنع من الوصول عدم السلوك والمانع من السلوك عدم الإرادة والمنع من الإرادة عدم الإيمان ، وسبب عدم الإيمان عدم الهداية والمذكرة والهداية بالله تعالى المهادين إلى طريقه والمتهبين على حقارة الدنيا وانقراضها وعظم أمر الآخرة ودوامها . فالخلق غافلون قد انهمكوا في شهواتهم وغاصوا في رقدهم وليس في علماء الدين من بينهم ، فإن تنبه منهم متنبه عجز عن سلوك الطريق لجهله ، فإن طلب الطريق من العلماء وجدهم مائلين إلى الهوى عادلين عن نهج الطريق ، فصار ضعف الإرادة والجهل بالطريق ونطق العلماء بالهوى سببا لحرق طريق الله تعالى عن السالكين فيه . ومهما كان المطلوب محجوبا والدليل مفقودا والهوى غالبا والطالب غافلا امتنع الوصول وتعلقت الطرق لأعماله ، فإن تنبه متنبه من نفسه أمرن تنبيه غيره واتبعت له إرادة في حرت الآخرة وتجارتها فينبغي أن يعلم له شروطا لابد من تقديمها في بداية الإرادة وله معصم لابد من التمسك به ، وله حصن لابد من التحصن به ليأمن من الأعداء القطاع لطريقه ، وعليه وظائف لابد من ملازمتها في وقت سلوك الطريق .

أما الشروط التي لابد من تقديمها في الإرادة فهي رفع السد والحجاب الذي بينه وبين الحق ، فإن حرمان الخلق عن الحق سببه تراكم الحجب ووقوع السد على الطريق قال الله تعالى ( وجعلنا من بين أيديهم ومن خلفهم سدا فاغشى عنهم لا يبصرون ) .

والسيد بن المريد وبين الحق أربعة : المال ، والجاه ، والتقليد ، والمعصية . وإنما يرفع حجاب المال بفروجه عن ملكه حتى لا يبقى له إلا قدر الضرورة ، فإدام يبقى له درهم يلتفت إليه فهو مقيد به محجوب عن الله عز وجل . وإنما يرتفع حجاب الجاه بالبعد عن موضع الجاه بالتواضع وإثارة الخول والحرب من أسباب الذكر وتعاطي أعمال تنفر قلوب الخلق عنه . وإنما يرتفع حجاب التقليد بأن يترك التمسك للناهب وأن يصدق بمعنى قوله لا إله إلا الله محمد رسول الله ، تصديق إيمان ويعرض في تحقيق صدقه بأن يرفع كل معبود له سوى الله تعالى . وأعظم معبود لله الهوى . حتى إذا فعل ذلك انكشف له حقيقة الأمر في معنى اعتناقه الذي تلقفه تقليدا فينبغي أن يطلب كشف ذلك من المجاهدة لأن المجاهدة ، فإن غلب عليه التمسك لمعتدة ولم يبق في نفسه متسع لغيره صار ذلك قيداً له وحجاباً إذ ليس من شرط المريد الالتئام إلى مذهب معين أصلاً . وأما المعصية فهي حجاب ولا يرفعها إلا التوبة والخروج من المظالم وتصميم العزم على ترك العود وتحقيق التزم على ماضى ورد المظالم وإرضاء الخصوم ، فإن من لم يصحح التوبة ولم يهجر المعاصي الظاهرة وأراد أن يقف على أسرار الدين بالمكاشفة كان كمن يريد أن يقف على أسرار القرآن وتفسيره وهو بعد لم يتعلم لغة العرب ، فإن ترجمة عربية القرآن لابد من تقديمها أولاً ثم الترقى منها إلى أسرار معانيه ، فكذلك لابد من تصحيح الشريعة أولاً وأخيراً ثم الترقى إلى أغوارها وأسرارها .

فإذا قدم هذه الشروط الأربعة وتجاوز عن المال والجاه كان كمن تطهر وتوحد ورفق الحدث وصار صالحاً للصلاة فيحتاج إلى إمام يقنديه به ، فكذلك المريد يحتاج إلى شيخ وأستاذ يقتدى به لأعماله ليهدي إلى سواء السبيل فإن سبيل الدين غامض وسبيل الشيطان كثيرة ظاهرة ، فمن لم يكن له شيخ يهديه قاده الشيطان إلى طرقه لأعماله ، فمن

سلك سبل الوادى المهلكة بنير خفي قد خاطر بنفسه وأهلكها ، ويكون المستقل بنفسه كالشجرة التى تنبت بنفسها فإنها تنحف على القرب ، وإن بقيت مدة وأورقت لم تثمر . فنعصم المريد بعد تقديم الشروط المذكورة شيخة فليستسك به تملك الأعمى على شاطئ النهر بالقائد بحيث يفوض أمره إليه بالكلية ، ولا يخالفه فى ورده ولا صدره ولا يبق فى متابته شيئا ولا ينز ، ولعل أن نفعه فى خطأ شيخة لو أخطأ أكثر من نفعه فى صواب نفسه لو أصاب فإذا وجد مثل هذا العنصم وجب على معتصمه أن يحميه ويصممه بحصن حصين يدفع عنه قواطع الطريق وهو أربعة أمور : الخلوة ، والصمت ، والجوع ، والسر . وهذا تحصن من القواطع فإن مقصود المريد إصلاح قلبه ليشاهد به ربه ويصلح لقربه .

أما الجوع فإنه ينقص دم القلب ويبيضه وفى ياضه نوره ، وبذبح شحم الفؤاد وفى ذوبانه رفته ، ورقته مفتاح للكاشفة كما أن قساوته سبب الحجاب . ومهما نقص دم القلب ضاقت مسلك العروق فإن مجاريه المروقة الممتلئة بالشوات . وقال عيسى عليه السلام : يامعشر الحواريين جئوا بطونكم لعل قلوبكم ترى ربكم ! وقال سهل بن عبد الله التستري : ما صار الأبدال أبدالاً إلا بأربع خصال ، بإخصاء البطن ، والسر ، والصمت ، والاعتزال عن الناس . ففائدة الجوع فى تدوير القلب أمر ظاهر يشهد له التجربة . وسياًقياً يان وجه التدرج فيه فى كتاب كسر الشهوتين وأما السر فإنه يحول القلب ويصفيه ويتزده ، فيضاف ذلك إلى الصفاء الذى حصل من الجوع فيصير القلب كالكوكب الدرى والمرأة المجردة فيلوح فيه جمال الحق ، ويشاهد فيه رفيع الدرجات فى الآخرة وحفارة الدنيا وآفاتنا ، فتتم بذلك رغبته عن الدنيا وإقباله على الآخرة . والسر أيضاً نتيجة الجوع فإن السر مع الشبع غير ممكن ، والتم يقضى القلب ويبتئ إلا إذا كان بقدر الضرورة فيكون سبب المكاشفة لأسرار الغيب . فقد قيل فى صفة الأبدال : إن أكلمهم فاته ونومهم غلبة وكلامهم ضرورة . وقال إبراهيم الحقاوس رحمه الله : أجمع رأى سيعين صديقاً على أن كثرة التوم من كثرة شرب الماء .

وأما الصمت فإنه تسهل العزلة ، ولكن المعتزل لا يتخلو عن مشاهدة من يقوم له بطعامه وشرابه وتدير أمره ، فينبغي أن لا يتكلم إلا بقدر الضرورة فإن الكلام يشغل القلب وشره القلوب إلى الكلام عظيم ، فإنه يستروح إليه ويستقل التجرد للذكر والفكر فيستريح إليه . فالصمت يفتح العقل ويجلب الورع ويعلم والتقوى .

وأما حياة الخلوة ففائدتها دفع الشواغل وضبط السمع والبصر فإنهما دهلز القلب . والقلب فى حكم حوض تنصب إليه مياه كريمة كدرة قدرة من أنهار الحواس ، ومقصود الرياضة تفريغ الحوض من تلك المياه من الطين الحاصل منها ليتغير أصل الحوض فيخرج منه الماء التلظيف الطاهر ، وكيف يصح له أن يترشح للماء من الحوض والأنهار مفتوحة إليه فيجند فى كل حال أكثر مما ينقص ؟ فلا بد من ضبط الحواس إلا عن قدر الضرورة ، وليس يتم ذلك إلا بالخلوة فى بيت مظلم ، وإن لم يكن له مكان مظلم فليطف رأسه فى جيبه أو يتدثر بكساء أو إزار ، ففى مثل هذه الحالة يسمع نداء الحق ويشاهد جلال الحضرة الربوبية . أما ترى أن نداء رسول الله صلى الله عليه وسلم بلانه وهو على مثل هذه الصفة فقيل له : يا أيها للزمل — يا أيها المذر —<sup>(١)</sup> .

(١) حديث : « بنى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مذر فقبله ( يا أيها الزمل — يا أيها المذر ) متفق عليه من حديث جابر . جاورت بجراه فلما قضيت جوارى جعلت تنوديت فظنرت عن يمين ... الحديث » وفيه : « فأنبت خديجتي فقلت : دثروني وسورا على الماء باردا فدثروني وسورا على ماء باردا » قال فزلت ( يا أيها المذر ) وفى رواية فقلت : « زملوني زملوني » ولها من حديث عائشة قتال « زملوني زملوني » فزملوه حتى ذهب عنه الروع .

فهذه الأربعة جنة وحسن بها تدفع عنه القواطع وتمنع العوارض المتاعلة للطريق . فإذا فعل ذلك اشتغل بعده بسلك الطريق . ولأنما سلكه بقطع المقبات ولا عتبة على طريق الله تعالى إلا صفات القلب التي سببها الالتفات إلى الدنيا وبعض تلك المقبات أعظم من بعض . والترتيب في قطعها أن يشتغل بالأهل والأولاد . وهي تلك الصفات ؛ أعني أسرار العلائق التي قطعها في أول الإرادة ، وأثارها ؛ أعني المال والجاه وحب الدنيا والالتفات إلى الخلق والتشوق إلى المعاشي ، فلا بد أن يغلب الباطن عن آثارها كما أغلب الباطن عن أسبابها الظاهرة ، وفيه تطول المجاهدة ، ويختلف ذلك باختلاف الأحوال ؛ فرب شخص قد كفى أكثر الصفات فلا تطول عليه المجاهدة ، وقد ذكرنا أن طريق المجاهدة مضادة الشهوات وغالبة الهوى في كل صفة غالبية على نفس المرید - كما سبق ذكره - فإذا كفى ذلك أو ضعف بالمجاهدة ولم يبق في قلبه علاقة ؛ شغله بعد ذلك بذكر أيام قلبه على الله ؛ أهميته من تكثير الأوراد الظاهرة ؛ بل يقتصر على الفراغ والرواتب ويكون ورده ورداً واحداً . وهو لباب الأوراد ثم ثباتها ؛ أعني ملازمة القلب لذكر الله تعالى بعد الخلق من ذكر غيره ، ولا يشغله به ما دام قلبه ملتفتاً إلى علاقته . قال الشيخ العنبري : إن كان يحضر بقلبك من الجملة التي تأتي في فيها إلى الجملة الأخرى شيء غير الله تعالى لحرام عليك أن تأتي . وهذا التجرد لا يحصل إلا مع صدق الإرادة واستيلاء حب الله تعالى على القلب حتى يصحكون في صورة الناشئ المستتر الذي ليس له إلا م واحد . فإذا كان كذلك ألزمه الشيخ زاوية ينفرد بها ويؤكد به من يقوم له بقدر يسير من القوت الحلال ، فإن أصل طريق الدين القوت الحلال ، وعند ذلك يلتفت ذكر من الأذكار حتى يشغل به لسانه وقلبه فيجلس ويقول مثلاً : الله الله . أو : سبحان الله سبحان الله . أو ما يراه الشيخ من الكلمات فلا يزال يراظب عليه حتى تسقط حركة اللسان وتكون الكلمة كأنها جارية على اللسان من غير تحريك ، ثم لا يزال يراظب عليه حتى يسقط الأثر عن اللسان وتبقى صورة اللفظ في القلب ، ثم لا يزال كذلك حتى يحس عن القلب حروف اللفظ وصورته ، وتبقى حقيقة معناه لازمة للقلب حاضرة . غالبة عليه قد فرغ من كل ما سواه ، لأن القلب إذا شغل بشيء خلا عن غيره - أي شيء كان - فإذا اشتغل بذكر الله تعالى وهو المقصود دخلاً لا محالة عن غيره ، وعند ذلك يلزمه أن يراقب وسوس القلب والخواطر التي تعلق بالدنيا وما يتذكر فيه مما قد معنى من أحواله وأحوال غيره ، فإنه مهما اشتغل بشيء منه ولو في لحظة خلا قلبه عن الذكر في تلك اللحظة وكان أيضاً نقصاناً ، فليجتهد في دفع ذلك . ومهما دفع الوسوس كلها ورد النفس إلى هذه الكلمة جاءتها الوسوس من هذه الكلمة أو أثارها : ما هي ؟ وما معنى قولنا : الله ؟ ولأي معنى كان إلماً وكان معجوداً ؟ ويعتريه عند ذلك خواطر تفتح عليه باب الفكر وربما يرد عليه من وسوس الشيطان ما هو كفر وبدعة . ومهما كان كارهاً لذلك ومتشرباً لإماطته عن القلب لم يضره ذلك . وهي منقسمة إلى ما يعلم قطعاً أن الله تعالى مزود عنه ولكن الشيطان يلقي ذلك في قلبه ويحيره على خاطره ، فشرطه أن يبالى به ويبرزع إلى ذكر الله تعالى ويبتل إليه ليدفعه عنه كما قال الله تعالى ﴿ ولما يزعجك من الشيطان نزغ فاستمذ بالله إله مسموع عليم ﴾ وقال تعالى ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسمع طامع من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ وإلى ما يشك فيه فينبغي أن يعرض ذلك على شيخه ، بل كل ما يجد في قلبه من الأحوال من فترة أو نشاط أو التفات إلى علة أو صدق في إرادة فينبغي أن يظهر ذلك لشيخه ، وأن يستر عنه غيره فلا يطلع عليه أحداً ، ثم إن شيخه ينظر في حاله ويتأمل في ذكائه وكليسته ، فلو علم أنه لو تركه وأمره بالفكر تنبه من نفسه على حقيقة الحق فينبغي أن يحيله على الفكر ويأمره بملازمته حتى يقذف في قلبه من النور ما يكشف له حقيقته ، وإن علم

أن ذلك ما لا يقوى عليه مثله رده إلى الاعتقاد الطامع بما يحتمله قلبه من وعظ وذكر ودليل قريب من فهمه ،  
 وبني أن يتأق الشيخ ويتلطف به فإن هذه مهالك الطريق وموانع أخطارها ، فكم من مريد اشتغل بالرياضة  
 فغلب عليه خيال فاسد لم يقو على كشفه فانقطع عليه طريقه فاشتغل بالبطالة وسلك طريق الإباحة وذلك هو الهلاك  
 العظيم . ومن تجرد للذكر ودفع الملاقاة الشاغلة عن قلبه لم يزل عن أمثال هذه الآفة بكار فإنه قد ركب سفينة الخطر ،  
 فإن سلم كان من ملوك الدين وإن أخطأ كان من الهالكين . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « عليكم بدین العجائر »<sup>(١)</sup>  
 وهو تلقى أصل الإيمان وظاهر الاعتقاد بطريق التقليد والاشتغال بأعمال الخير ، فإن الخطر في البدول عن ذلك  
 كثير . ولذلك قيل يجب على الشيخ أن يتفرس في المريد فإن لم يكن ذكياً فطناً متمكناً من اعتقاد الظاهر لم يشغله  
 بالذكر والفكر ، بل يرده إلى الأعمال الظاهرة والأوراد المتوازية ، أو يشغله بخدمة المتجربين للفكر لتشمله بركتهم  
 فإن العاجز عن الجهاد في صف القتال ينبغي أن يسقى القوم ويتمهد دواجم ليحضر يوم القيامة في زمريهم وتممه  
 بركتهم ، وإن كان لا يبلغ درجتهم ، ثم ليريد المتجرد للذكر والفكر قد يقطعه قواعل كثيرة من العجب والرياء  
 والفرح بما ينكشف له من الأحوال وما يبدو من أوائل الكرامات . ومهما التفت إلى شيء من ذلك وشغلت به  
 نفسه كان ذلك تنوراً في طريقه ووقفاً ، بل ينبغي أن يلزم حاله جملة عمره ملازمة المطمان الذي لا ترويه البحار  
 ولو أفيضت عليه ويدوم على ذلك ، ورأس ماله الانقطاع عن الخلق إلى الحق والحالة .

قال بعض السباحين : قلت لبعض الأبدال للمتقين عن الخلق كيف الطريق إلى التحقيق ؟ فقال أن تكون في  
 الدنيا كأنك حابر طريق . وقال مرة : قلت له دلي على عمل أجد قلبي فيه مع الله تعالى على الدوام فقال لي : لا تنظر  
 إلى الخلق فإن النظر إليهم غلظة ، قلت : لا بد لي من ذلك ، قال : فلا تسمح كلامهم فإن كلامهم قسوة ، قلت : لا بد  
 لي من ذلك ، قال : فلا تعاملهم فإن معاملتهم وحشة ، قلت : أنا بين أظهرهم لا بد لي من معاملتهم ، قال فلا تسكن  
 إليهم فإن السكون إليهم هلكة ، قلت : هذا لمة ، قال : يا هذا أنتظر إلى الغافلين وتسمع كلام الجاهلين وتعامل  
 البطالين وترى أن تجد قلبك مع الله تعالى على الدوام ؟ هذا ما لا يكون أبداً .

فلذا انتهى الرياضة أن يجد قلبه مع الله تعالى على الدوام ولا يمكن ذلك إلا بأن يغفل عن غيره ولا يخلو عن  
 غيره إلا بطول المجاهدة ، فلذا حصل قلبه مع الله تعالى انكشف له جلال الحضرة الربوبية وتجل له الحق وظهر له  
 من لطائف الله تعالى ما لا يحجز أن يوصف بل لا يحيط به الوصف أصلاً ، وإذا انكشف للمريد شيء من ذلك  
 فأعظم القواطع عليه أن يتكلم به وعظاً ونصيحاً والتذكير فتجد النفس فيه لذة ليس ورامها لذة ، فتدعو تلك  
 اللذة إلى أن تفكر في كيفية إيراد تلك اللذة وتحسين الألفاظ المعبرة عنها وترتيب ذكرها وتزيينها بالحكايات  
 وشواهد القرآن والأخبار وتحسين الكلام لتبيل إليه القلوب والاسماع ، وربما يضل إليه الشيطان أن هذا  
 إحياء منك لقلوب الموق الغافلين عن الله تعالى ، وإنما أنت واسطة بين الله تعالى وبين الخلق تدعو عباده إليه  
 ومالك فيه نصيب ولا تنفك فيه لذة ، ويتضح كيد الشيطان بأن يظهر في أقرانه من يكون أحسن كلاماً منه وأجزل  
 لفظاً وأقدر على استجلاب قلوب العوام ، فإنه يتحرك في باطنه عقر به الحسد لعلها إن كان محرراً كيد القبول وإن

(١) حديث « عليكم بدین العجائر » قال ابن طاهر في كتاب التذكرة هذا اللفظ تداوله العامة ولم ألق له على أصل يرجع  
 إليه من رواية صحيحة ولا ضعيفة حتى رأيت حديثاً لحمد بن عبد الرحمن بن السلفي عن ابن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم « لذا  
 كان في آخر الزمان واختلف الأهواء فليكن بدین أهل البادية » والنسائي وابن السلفي له من أبيه عن ابن عمر نسخة كان يقيم  
 بوضعها انتهى وهذا اللفظ من هذا الوجه رواه ابن حبان في الضعفاء عن ترجمة ابن السلفي والله أعلم .

كان محرّكه هو الحق حرصا على دعوة عباد الله تعالى إلى صراطه المستقيم فيعلم به فرحه ويقول : الحمد لله الذى عضدنى وأيدى بى وازرنى على إصلاح عباده . كالذى وجب عليه مثلا أن يعمل ميتا ليدته إذ وجدته ضالما وتعين عليه ذلك شرعا لجماع من أعانه عليه فإنه يفرح به ولا يحسد من يعينه ، والغافلون موقى القلوب ، والرعاط هم المنهون والمحزون لهم ففى كثرتهم استرواح وتناصرفينى أن يعظم الفرج بذلك ، وهذا عزيز على الوجود جدا فينبغى أن يكون المرید على حذر منه فإنه أعظم حائل الشيطان فى قطع الطريق على من انفتحت له أوائل الطريق فإن إثار الحياة الدنيا طبع غالب على الإنسان ولذلك قال الله تعالى ﴿ بل توزنون الحياة الدنيا ﴾ ثم بين أن الشر قديم فى الطباع وأن ذلك مذكور فى الكتب السالفة فقال ﴿ إن هذا لى الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى ﴾ فهذا منهاج رياضة المرید وتربيته فى التدرج إلى لقاء الله تعالى . فأما تفصيل الرياضة فى كل صفة فسيأتى فإن أغلب الصفات على الإنسان بطنه وفرجه ولسانه - أعنى به الشهوات المتعلقة بها - ثم الغضب الذى هو كالجند لحماية الشهوات ، ثم مهما أحب الإنسان شهوة البطن والفرج وأنس بهما أحب الدنيا ، ولم يتمكن منها إلا بالمال والجاه وإذا طلب المال والجاه حدث فيه الكبر والعجب والرياسة ، وإذا ظهر ذلك لم تسع نفسه بترك الدنيا رأسا وتمسك من الدين بما فيه الرياضة وغلب عليه الغرور .

فلهذا وجب علينا بعد تقديم هذين الكتابين أن نستكمل ربيع المهلكات بثمانية كتب إن شاء الله تعالى: كتاب فى كسر شهوة البطن والفرج ، وكتاب فى آفات اللسان ، وكتاب فى كسر الغضب والخذل والحسد ، وكتاب فى ذم الدنيا وتفصيل خدعها ، وكتاب فى كسر حب المال وذم البخل ، وكتاب فى ذم الرياء وحب الجاه ، وكتاب فى ذم الكبر والعجب ، وكتاب فى مواقع الغرور . وبذكر هذه المهلكات وتعليم طرق المعالجة فيها يتم غرضنا من ربيع المهلكات إن شاء الله تعالى فإن ما ذكرناه فى الكتاب الأول هو شرح لصفات القلب الذى هو معدن المهلكات والنتيجات ، وما ذكرناه فى الكتاب الثانى هو إشارة كلية إلى طريق تهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلوب . أما تفصيلها فإنه يأتى فى هذه الكتب إن شاء الله تعالى . ثم كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق بحمد الله وعونه وحسن توفيقه ، يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب كسر الشهوتين والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء وما توفيق إلا باقة عليه توكلت وإليه أنيب .

## كتاب كسر الشهوتين

وهو الكتاب الثالث من ربيع للمهلكات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المنفرد بالجلال فى كبرياته وتعالیه ، المستحق للتحميد والتفديس والتسبيح والتزبيح ، القائم بالعدل فيما يبرمه ويقضيه ، المتناول بالفضل فيما ينعم به ويمد به ، المتكفل بحفظ عبده فى جميع موارد وجهاده ، المنعم عليه بما يزيده على مهمات مقاصده بل بما ينفعه بأمانه ، فهو الذى يرشده ويهديه ، وهو الذى يميته ويحييه ، وإذا مرض فهو يشفيه ، وإذا ضعف فهو يقويه ، وهو الذى يوقه للطاعة ويرفضه ، وهو الذى يطعمه ويسقيه ، ويحفظه من الهلاك ويحييه ، ويحمره بالطعام والشراب عما يهلكه ويرديه ، ويمكّنه من التناقة بقليل القوت ويقربه حتى تضيق به مجارى الشيطان الذى يناوئه ، ويكسر به شهوة النفس التى تعاديه ، فيدفع شرها ثم يعيد ربه ويتيقه ، هذا





عند الله عز وجل يوم القيامة كل ثوم أكل شروب <sup>(١)</sup> . وفي الخبر : أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يجمع من غير حوز <sup>(٢)</sup> ، أى يختار لذلك وقال صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى يباهى للملائكة بمن قل مطعمه ومشربه في الدنيا يقول الله تعالى انظروا إلى عبدى ابتليته بالطعام والشراب في الدنيا فصر وتركهما أشهدوا بإملائتكى ما من أكلة بعدهما إلا أبدلتها بها درجات في الجنة <sup>(٣)</sup> . وقال صلى الله عليه وسلم : لا يمتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب فإن القلب كالزجاج يموت إذا كثر عليه الماء <sup>(٤)</sup> . وقال صلى الله عليه وآله وسلم : ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه حسب ابن آدم لقيات يقمن صلبه وإن كان لابد فاعلاً فذلك لطعامه وثقل لشرابه وثقل لنفسه <sup>(٥)</sup> . وفي حديث أسامة بن زيد وحديث أبى هريرة الطويل ذكر فضيلة الجوع إذ قال فيه : إن أقرب الناس من الله عز وجل يوم القيامة من طال جوعه وعطشه وحزنه في الدنيا ، الاحياء الاتقياء الذين إن شهدوا لم يبرفوا وإن غابوا لم يفتقدوا ، تعرفهم بقاع الأرض وتغف بهم ملائكة السماء نعم الناس بالدنيا ونعموا بطاعة الله عز وجل ، افترش الناس الفرش الوفيرة وافتروشوا الجباه والركب ، ضيع الناس فمل الثيدين وأخلاقهم وسفظوها هم ، تبكى الأرض إذا فقدتهم ويسخط الجبار على كل بلدة ليس فيها منهم أحد لم يتكالبوا على الدنيا تكالب الكلاب على الجيف أكلوا العلق ولبسوا الحرق شعثاً غبراً يراهم الناس فيظنون أن بهم ذاء وما بهم ذاء ، ويقال قد خولطوا فذهبت عقولهم وما ذهبت عقولهم ولكن نظر القوم بقولهم إلى أمر الله الذى أذهب عنهم الدنيا ، فهم عند أهل الدنيا يمشون بلا عقول عقولاً حين ذهبت عقول الناس ، لهم الشرف في الآخرة ، يأسامة إذا رأيهم في بلدة فاعلم أنهم أمان لأهل تلك البلدة ولا يذهب الله قوماً هم فيهم . الأرض بهم فرحة والجبار عنهم راض . اتخذهم لنفسك إخواناً عسى أن تتجو بهم . وإن استطعت إن يأتيك الموت وبطنك جائع وكبدك ظمآن فاعمل . فإنك تدرك بذلك شرف المنازل وتعمل مع النبيين . وتفرح بقدم وروح الملائكة ويصلى عليك الجبار <sup>(٦)</sup> .

روى الحسن عن أبى هريرة : أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : البسوا الصوف وشمروا واكلوا في أنصاف البطون تدخلوا في ملكوت السماء <sup>(٧)</sup> . وقال عيسى عليه السلام : يا معشر الخواريين أجمعوا أكبادكم وأعروا أجسادكم لعل قلوبكم ترى الله عز وجل <sup>(٨)</sup> . . وروى ذلك أيضاً عن نفيثا صلى الله عليه وسلم ورواه طاوس . وقيل مكتوب في التوراة : إن الله ليبيض الخبر السمين لأن السمين يدل على الغفلة وكثرة الأكل وذلك فيصح خصوصاً بالجبر . ولأجل ذلك قال ابن مسعود رضى الله عنه : إن الله تعالى يبيض القسارى السمين وفي خبر مرسل : إن

(١) حديث الحسن « أفصلكم عند الله أطوا سبك وجوعاً وتكرراً ... الحديث » لم أجده في الأحاديث المتقدمة أصلاً (٢) حديث كان يجمع من غير حوز — أى يختار لذلك — أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من حديث عائشة : قالت لو شئنا أن نضع لقبنا ولكن نحداً صلى الله عليه وسلم كان يؤثر على نفسه . ورواهه معقل (٣) حديث « إن الله يباهى للملائكة بمن قل مطعمه في الدنيا ... الحديث » أخرجه ابن عدى في السكائل وقد تقدم في الصيام (٤) حديث « لا يمتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب الحديث » لم ألق له على أصل (٥) حديث « ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث للقدم وقد تقدم .

(٦) حديث أسامة بن زيد وأبى هريرة « أقرب الناس من الله يوم القيامة من طال جوعه وعطشه .. الحديث » بطوله أخرجه الخطيب في الزهد من حديث سيد بن زيد قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبلى على أسامة بن زيد فنكره مع تقدمه وأخبر ، ومن طريقه روى ابن الجوزى في الموضوعات وفيه حياض بن عبد الله بن جبة أحد الكذابين وفيه من لا يعرف وهو متعلق أيضاً برواه الحارث بن أبى أسامة من هذا الوجه (٧) حديث الحسن بن أبى هريرة « البسوا الصوف وشمروا واكلوا في أنصاف البطون تدخلوا في ملكوت السماء » أخرجه أبو منصور الديلمى في مستدرك الفردوس بسند ضعيف . (٨) حديث طاوس مهبطاً « أجمعوا أكبادكم ... الحديث » لم أجده أيضاً .

الشیطان لیجرى من ابن آدم یجرى الدم فضیقوا بجاریه بالجوع والعطش <sup>(١)</sup> ، وفى الخبر : إن الأكل على الصبح یورث البرص <sup>(٢)</sup> ، وقال صلى الله تعالى علیه وسلم : المؤمن يأكل فى معی واحد والمتانق يأكل فى سبعة أمعاء <sup>(٣)</sup> ، أى يأكل سبعة أضعاف ما يأكل المؤمن أو تكون شروته سبعة أضعاف شروته . وذكر المصنف كتابه عن الشیوة : لأن الشیوة هی التى تقبل الطعام وتأخذها كما يأخذ المصنف . ولیس المتن زیادة عدد معی المتانق على معی المؤمن . وروى الحسن عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله تعالى علیه وآله وسلم یقول : أذیموا قرع باب الجنة یفتح لکم ، کیف یدیم قرع باب الجنة ؟ قال : بالجوع والظما <sup>(٤)</sup> ، وروى : أن أبا جحيفة تجشأ فى مجلس رسول الله صلى الله تعالى علیه وآله وسلم فقال له : أقصر من جشائك فإن أطول الناس جوعاً یوم القیامة أكثرهم شبعاً فى الدنیا <sup>(٥)</sup> ، وكانت عائشة رضى الله تعالى عنها تقول : إن رسول الله صلى الله تعالى علیه وآله وسلم لم یتملئ قط شبعاً وربما یسکب رحمة عما أرى به من الجوع فأمسح بطنه یدى وأقول : نفسى لك الغداء لو تبلغت من الدنیا بقدر ما یقربک وبمنعك من الجوع ؟ فیقول : یا عائشة ! إخوانى من الرسل قد صبروا على ما هو أشد من هذا مضوا على ما هم ففسدوا على ربهم فأكرم ما بهم وأجزل ثوابهم فأجدنى أستحى إن ترفعت فى معیشتى أن یقصر فی غداً ودنهم فالصبر آیاماً یسیرة أحب إلی من أن ینقص حظى غداً فى الآخرة وما من شیء أحب إلی من الحق بأصحابی وإخوانى ، قالت عائشة : فوالله ما استكمل بعد ذلك جمعة حتى قبضه الله إلیه <sup>(٦)</sup> ، وعن أنس قال : جاءت فاطمة رضوان الله علیها بکسرة خبز إلی رسول الله صلى الله تعالى علیه وسلم فقال : ما هذه الکسرة ، قالت : قرص خبزته ولم تلب نفسى حتى أتینک منه بهذه الکسرة ، فقال رسول الله صلى الله تعالى علیه وسلم : أما إنه أول طعام دخل فم أیک منذ ثلاثة آیام <sup>(٧)</sup> ، وقال أبو هريرة : ما أشبع النبی صلى الله تعالى علیه وسلم أهله ثلاثة آیام تباعاً من خبز الحنطة حتى فارق الدنیا <sup>(٨)</sup> ، وقال صلى الله تعالى علیه وسلم : إن أهل الجوع فى الدنیا هم أهل الشبع فى الآخرة وإن أبغض الناس إلی الله المتخمون للملأى وما ترک عبد أكلة یشتها إلا كانت له درجة فى الجنة <sup>(٩)</sup> .

وأما الآثار : فقد قال عمر رضى الله عنه : إیاکم والبطة فإنها تقدر فى الحیاة تن فى المات . وقال شقیق البلخی البیادة حرفة حانوتها الحنوة وأتلتها الجبابة . وقال لقمان لابنه : یابنى إذا امتلأت المعدة نامت الفکره وخسرت الحکمة ونعدت الأعضاء عن العبادة . وكان الفضیل بن عیاض یقول لنفسه : أى شیء تخافن ؟ أنغافین أن تجوعن ؟ لا تخافن ذلك : أنت أمون على الله من ذلك إنما یجوع محمد صلى الله تعالى علیه وسلم وأصحابه . وكان کهمس یقول لمن

(١) حدیث : لأن الشیطان لیجرى من ابن آدم یجرى الدم ... الحدیث : تقدم فى الصیام دون الزیادة التى فى آخره وذكر المصنف هنا أنه مرسل والمرسل رواه ابن أبی الدنیا فى سکایه الشیطان من حدیث علی بن الحسین دون الزیادة أيضاً .

(٢) حدیث : من لا يأكل على الشبع یورث البرص ، لم أجد له أصلاً . (٣) حدیث المؤمن يأكل فى معی واحد والمتانق يأكل فى سبعة أمعاء ، یتنق علیه من حدیث عمر وحدث أبی هريرة . (٤) حدیث الحسن عن عائشة : أذیموا قرع باب الجنة ... الحدیث : لم أجد له أيضاً . (٥) حدیث : لأن أبا جحيفة تجشأ فى مجلس رسول الله صلى الله تعالى علیه وسلم فقال : أقصر من جشائك فإن أطول الناس جوعاً یوم القیامة أكثرهم شبعاً فى الدنیا ، أخرجه البیهقی فى الشعب من حدیث أبی جحيفة وأصله عند الترمذی وحسنه وابن ماجه من حدیث ابن عمر : تجشأ رجل . الحدیث : لم يذكر أبا جحيفة .

(٦) حدیث عائشة : أنه صلى الله تعالى علیه وسلم لم یتملئ قط شبعاً وربما یسکب رحمة له لما أرى به من الجوع الحدیث . أخرجه أبو موسى المصنفی مطولاً فى کتاب استعلاء الموت وأورد منه عیاض فى الشفاء . (٧) حدیث أنس : جاءت فاطمة بکسرة خبز رسول الله صلى الله تعالى علیه وسلم ... الحدیث أخرجه الحافظ بن أبی أسامة فى مسنده بسند ضعیف . (٨) حدیث أبی هريرة : ما شبع النبی صلى الله تعالى علیه وسلم ثلاث آیام تباعاً من خبز الحنطة حتى فارق الدنیا . أخرجه مسلم وقد تقدم . (٩) حدیث : من أهل الجوع فى الدنیا هم أهل الشبع فى الآخرة ، أخرجه الطبرانی وأبو نعیم فى الحلیة من حدیث ابن عباس بإسناد ضعیف .

اجمعتي وأصرتني وفي ظلم الليالي بلا مصباح أجلسني فبأي وسيلة بلغتني ما بلغتني؟ وكان فتح الموصل إذا اشتد مرضه وجوعه يقول: إلهي ابتليتني بالمرض والجوع وكذلك تفعل بأوليائك فبأي عمل أزدى شكر ما أنعمت به علي؟ وقال مالك بن دينار: قلت لمحمد بن واسع يا أبا عبد الله طوبى لمن كانت له غلبة قوته وتغنيه عن الناس فقال لي يا أبا يحيى طوبى لمن أسى وأصبح جائعاً وهو عن الله راضٍ. وكان الفضيل بن عياض يقول: إلهي أجمعتني واجمعت عيالي وتركتني في ظلم الليالي بلا مصباح وإنما تفعل ذلك بأوليائك فبأي منزله نلت هذا منك؟ وقال يحيى بن معاذ: جوع الراغبين منهية وجوع الثابتين تجربة وجوع المجتهدين كرامة وجوع الصابرين سياسة وجوع الزاهدين حكمة. وفي التوراة اتق الله وإذا شعبت فأذكر الجائع: وقال أبو سليمان: لأن أترك لقمة من عشاءي أحب إلي من قيام ليلة إلى الصبح، وقال أيضاً: الجوع عند الله في خزائنه لا يبطئه إلا من أحبه. وكان سهل بن عبد الله تسترئ بطوى نيفاً وعشرين يوماً لا يأكل، وكان يكفيه لطماعه في السنة درهم، وكان يعظم الجوع ويبالغ فيه حتى قال: لا يوفى القيامة عمل بر أفضل من ترك فضول الطعام اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم في أكله. وقال: لم ير الأكياس شيئاً أنفع من الجوع للدين والدنيا. وقال: لأعلم شيئاً أضر على طلاب الآخرة من الأكل. وقال: وضمت الحكمة والعلم في الجوع ووضمت المعصية والجهل في الشبع. وقال: ما عبد الله بشيء أفضل من غفلة الهوى في ترك الحلال. وقد جاء في الحديث: نلت الطعام فمن زاد عليه فأنما يأكل من حسنة الله<sup>(١)</sup> وسئل عن الزيادة فقال: لا يجد الزيادة حتى يكون الترك أحب إليه من الأكل، ويكون إذا جاع ليلة سأل الله أن يجعلها ليلتين، فإذا كان ذلك وجد الزيادة. وقال صار الأبدال أبدالاً إلا بإخصاص البطون والسهل والصمت والخلوة. وقال: رأس كل بر نزل من السماء إلى الأرض الجوع، ورأس كل جور بينهما الشبع. وقال: من جوع نفسه انقطعت عنه الوسواس. وقال: إقبال الله عز وجل على العبد بالجوع والسقم والبلاء إلا من شاء الله. وقال: اعلبوا أن هذا زمان لا ينال أحد فيه النجاة إلا بذبح نفسه وقتلها بالجوع والجهل. وقال: مامر على وجه الأرض أحد شرب من هذا الماء حتى روي فسلم من المعصية - وإن شكر الله تعالى - فكيف الشبع من الطعام؟ وسئل حكيم بأى قيد أفيد نفسي؟ قال: قيدها بالجوع والعطش، وذلكها بإخمال الذكرو ترك العز، وصفرها بوضعها تحت أرجل أبناء الآخرة، واكسرها بترك زى القراء عن ظاهرها، وانج من أفتانها بدوام سوء الظن بها، واحمها بخلاف هواها. وكان عبد الواحد بن زيد يقسم بالله تعالى إن الله تعالى ماضق أهدأ إلا بالجوع ولا مشوا على الماء إلا به، ولا طوبى لهم الأرض إلا بالجوع، ولا تلاهم الله تعالى إلا بالجوع، وقال أبو طالب المكي: مثل البطن مثل المزهر وهو العود المجوف ذو الأوتار - إنما حسن صوته لحفته ورقته لأنه أجوف غير متين، وكذلك الجوف إذا خلا كان أعذب للتلاوة وأدوم للقيام وأقل للنام. وقال أبو بكر بن عبدة المزني: ثلاثة يصحبهم الله تعالى: رجل قليل النوم قليل الأكل قليل الراحة. وروى أن عيسى عليه السلام مكث بناجي به ستين صباحاً لم يأكل فخطر بباله الحزن فانتقطع عن المناجاة فإذا رغيغ موضوع بين يديه، فجلس يبكي على فقد المناجاة وإذا شيخ قد أظله فقال له عيسى: بارك الله فيك يا ولي الله ادع الله تعالى فإن كنت في حالة خطر ببال الحزن فانتقطعت عني، فقال الشيخ: اللهم إن كنت تعلم أن الحزن خطر ببال منذ عرفتك فلا تفعل، بل كان

إذا حضر لى شيء أكلته من غير فكر وعاطر . وروى أن موسى عليه السلام لما قربته الله عز وجل نجيا كان قد ترك الأكل أربعين يوما - ثلاثين ثم عشرا - على ما ورد به القرآن - لأنه أمسك بغير تثبيت يوما فريد عشرة لأجل ذلك .

### بيان فوائد الجوع وآفات الشبع

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : جاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش فإن الأجر في ذلك ، ولعلكم تقول : هذا الفضل العظيم للجوع من أين هو ؟ وما سببه ؟ وليس فيه إلا إيلام المدة ومقاساة الأذى ! فإن كان كذلك فينبغي أن يعظم الأجر في كل ما يتأذى به الإنسان من ضربه لنفسه وقطعه للحمه وتناوله الأشياء المكروهة وما يجرى مجراه ؟ فاعلم أن هذا يضاهي قول من شرب دواء فانتفع به وظن أن منفعة لكراهة الدواء ومرارته ، فأخذ يتناول كل ما يكرهه من المذاق وهو غلط ، بل نفعه في خاصة في الدواء وليس لكونه مرا ، وإنما يقف على تلك الخاصة الأطباء ، فكذلك لا يقف على علة نفع الجوع إلا مسمرة العلماء ومن جوع نفسه مصداقا لما جاء في الشرع من مدح الجوع انتفع به وإن لم يعرف علة المنفعة ، كما أن من شرب الدواء انتفع به وإن لم يعلم وجه كونه نافعا .

ولكننا نشرح لك ذلك إن أردت أن ترتقي من درجة الإيمان إلى درجة العلم قال الله تعالى ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أتوا العلم درجات ﴾ فيقول : في الجوع عشر فوائد .

الفائدة الأولى : صفاء القلب وإعداد القريحة وإنفاذ البصيرة ، فإن الشبع يورث البلادة ويعمي القلب ويكثر البخار في الدماغ شبه السكر حتى يحتوى على معادن الفكر فيقتل القلب بسببه عن الجريان في الأفكار وعن سرعة الإدراك ، بل الصبي إذا أكثر الأكل بطل حفظه وفسد ذهنه وصار بطيئ الفهم والإدراك . وقال أبو سليمان الداراني : عليك بالجوع فإنه مذهب للنفس ورقة للقلب وهو يورث العلم السهوى . وقال صلى الله عليه وسلم : أحياوا قلوبكم بقلة الضحك وقلة الشبع وطهروها بالجوع تصفو وترقى <sup>(١)</sup> . ويقال : مثل الجوع مثل الرعد ، ومثل القنطرة مثل السحاب ، والحكمة كالملح . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : من أجاج بطنه عظمت فكرته وفطن قلبه <sup>(٢)</sup> . وقال ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم : من شبع ونام فسا قلبه ، ثم قال : لكل شيء زكاة وزكاة البدن الجوع <sup>(٣)</sup> ، وقال الثبلي : ما جمعت هـ يوما إلا رأيت في قلبي بابا مفتوحا من الحكمة والعبرة ما رأيته قط . وليس ينبغي أن غاية المقصود من العبادات الفكر الموصل إلى المعرفة والاستبصار بمقائق الحق ، والشبع يمنع منه والجوع يفتح باب به ، والمعرفة باب من أبواب الجنة فيالحرقى أن تكون ملازمة الجوع فترا باب الجنة . ولهذا قال لقمان لابنه : يا بني إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة . وقال أبو يزيد البسطامي : الجوع صحاب فإذا جاع البد أمطر القلب الحكمة . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : نور الحكمة الجوع ، والتباعد من الله عز وجل الشبع ، والقربة إلى الله عز وجل حب المساكين والتصدق منهم . لا تشبعوا

(١) حديث : أحياوا قلوبكم بقلة الضحك وطهروها بالجوع تصفو وترقى . لم أجده أصلا (٢) حديث : من أجاج بطنه عظمت فكرته وظن قلبه . كذلك لم أجده أصلا (٣) حديث : من شبع ونام فسا قلبه ، ثم قال : إن لكل شيء زكاة وإن زكاة الجسد الجوع . أخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة . لكل شيء زكاة وزكاة الجسد الصوم ، وأسناده ضعيف

فقطشوا نور الحكمة من قلوبكم ومن بات في خفة من الطعام بات الجور حوله . يصيح (١) .

الفائدة الثانية : رقة القلب وصفائه الذي به يتبها لإدراك لذة المتابعة والتأثر بالذكر ، فك من ذكر يجرى على اللسان مع حضور القلب ولكن القلب لا يلتذ به ولا يتأثر حتى كأن بينه وبينه حجاباً من قسوة القلب ، وقد يرق في بعض الأحوال فيعظم تأثره بالذكر وتلذذه بالمناجاة ، وخطو المدة هو السبب الأظهر فيه ، وقال أبو سليمان الداراني : أحلى ماتكون إلى العبادة إذا التصق ظهري ببطي . وقال الجنيد : يجعل أحدهم بينه وبين صدره غلالة من الطعام ويريد أن يجد حلالة المناجاة . وقال أبو سليمان : إذا جاع القلب وخطش صبا ورق ، وإذا شبع عوى وغلط ، فإذا تأثر القلب بلذة المناجاة أمر وراه بتيسير الفكر واقتصاص المرزى فائدة ثانية .

الفائدة الثالثة . الانكسار والذل وزوال البطر والفرح والاشم الذي هو . بدأ الغنيان والنفقة عن الله تعالى ، فلا تنكسر النفس ولا تذلل شيء كما تذلل بالجوع فتند تسكن لربها وتخضع له وتتف على مجرمها وذلها إذا ضعفت منها وصافت حينها بليقمة طعام فاتتها ، وأظلمت عليها الدنيا لشرة ما تأخرت عنها وما لم يشاهد الإنسان ذل نفسه وعجزه لا يرى عزة مولا ولا قهره ، وإتسامه في أن يكون دائماً مشاهداً لنفسه بين الذل والسج ومولاه بين العز والقدرة والقهر ، فليكن دائماً جائداً مضطراً إلى مولاه مشاهداً للاضطراب بالذوق ، ولأجل ذلك لما عرضت الدنيا وخزائنها على النبي صلى الله عليه وسلم قال : لا بل أجوع يوماً وأشبع يوماً فإذا جمعت صبرت وتضرعت وإذا شبعت شكرت (٢) ، أو كما قال . فالبطن والفرج باب من أبواب النار وأصله الشبع . والذل والانكسار باب من أبواب الجنة وأصله الجوع . ومن أغلق باباً من أبواب الآراء فقد فتح باباً من أبواب الجنة بالضرورة لأنهما متقابلان كالشرق والمغرب ، فالتقرب من أحدهما بعد من الآخر .

الفائدة الرابعة : أن لا يفتنى بلاء الله وعذابه ؛ ولا يفتنى أهل البلاء فإن الشيطان يفتنى الجائع وينسى الجوع ، والمبدع الفطن لا يشاهد بلاء من غيره إلا ويتذكر بلاء الآخرة ، فيذكر من عطشه عطش الخلق في عرصات القيامة ، ومن جوعه جوع أهل النار ، حتى أنهم لجوعون فيقطعون الضريع والزقوم ويسقون النفاق والمهل ، فلا يفتنى أن يغيب عن المبدع عذاب الآخرة وآلامها ، فإنه هو الذي يهيج الخوف ، فلم يكن في ذلة ولاعة ولا فلة ولا بلاء . فنى عذاب الآخرة ولم يتمثل في نفسه ولم يتلب على قلبه ، فيفتنى أن يكون المبدع في مقاساة بلاء أو مشاهدة بلاء ، وأولى ما يفتنى من البلاء الجوع فإن فيه فوائد جمعة سوى تذكر عذاب الآخرة . وهذا أحد الأسباب الذي اقتضى اختصاص البلاء بالانبياء والأولياء والأمتل فالأمتل . ولذلك قيل ليوسف عليه السلام : لم تجوع وفي يدك خزان الأرض ؟ فقال : أعاف أن أشبع فأنتى الجامع . فذكر الجامعين والمحتا : بين إحدى فوائد الجوع فإن ذلك يدعو إلى الرحمة والإطعام والشفقة على خلق الله عز وجل . والشيطان عن غفلة عن ألم الجامع .

الفائدة الخامسة . وهي من أكبر الفوائد : كسر شهوات المعاصي كالبلا والابتلاء على النفس الامارة بالسوء ، فإن منشأ المعاصي كلها الشهوات والقوى ، ومادة القوى والشهوات لاحتالة الألطمة ، فتقليلها يضعف كل شهوة وقوة . وإنما السعادة كلها في أن يملك الرجل نفسه ، والشقاوة في أن تملكه نفسه ، وكما أنك لا تملك المدة الجورح لا يضعف الجوع فإذا شبعت قويت وشردت وجمحت ، فكذلك النفس . كما قيل لبعضهم : ما بالك مع كبرك لا تمتد بدلك

(١) حديث « نور الحكمة الجوع والعبادة من الله عز وجل الصبح ... الحديث » ذكره أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة روى عنه كتب عليه أنه مستد ومي علامة مارواه بإسناده (٢) حديث « أجوع يوماً وأشبع يوماً ... الحديث » تقدم وهو عند الترمذي .

وقد أنهى؟ فقال: لأنه سريع المرح فأحس الأثر فأعافى أن يجمع في فورطنى، فلأن أحله على الشدائد أحب إلى من أن يحل على الفواحش. وقال ذو النون: ما شبع قط إلا عصيت أو صمتت بجمعية: وقالت عائشة رضى الله عنها: أزل بدعة حدثت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم: الشبع.

إن القوم لما شبعوا بطونهم جحت بهم نفوسهم إلى هذه الدنيا وهذه ليست فائدة واحدة بل هي خزان الفوائد. ولذلك قيل: الجوع خزانة من خزان الله تعالى وأقل ما يندفع بالجوع: شهوة الفرج وشهوة الكلام، فإن الجامع لا يتحرك عليه شهوة فضول السلام فينتخلص به من آفات اللسان كالتيه والغش والكذب والفيعة وغيرها، فيمنعهم الجوع من كل ذلك وإذا شبع افتقر إلى فاكهة فيفتكك لاعتلا بأعراض الناس، ولا يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم.

وأما شهوة الفرج: فلا تخفى غائلتها، والجوع يكتي شرها. وإذا شبع الرجل لم يملك فرجه، وإن منعه التقوى فلا يملك عينه، فأمين نرى كأن الفرج يرقى، فإن ملك عنه بنض الطرف فلا يملك فكره، فيخطر له من الأفكار الرديئة وحديث النفس بأسباب الشهوة ما يتشوش به مناجاته، وربما عرض له ذلك في أثناء الصلاة.

وإنما ذكرنا آفة اللسان والفرج مثالا، وإلا لجميع معاصي الأعضاء السبعة سيدها القوة الحاصلة بالشبع. قال حكيم: كل مريد صبر على السياسة فيصبر على الحبز البحث سنة لا يخلط به شيئا من الشهوات ويأكل في نصف بطنه رفع الله عنه مؤنة النساء.

الفائدة السادسة: دفع التوم ودوام السهر، فإن من شبع شرب كثيرا، ومن كثر شربه كثر نومه ولاجل ذلك كان بعض الشيوخ يقول عند حضور الطعام: معاش المريدين لأنأكلوا كثيرا فقتلوا كثيرا فقتلوا كثيرا فقتلوا كثيرا. وأجمع رأى سبعين صديقا على أن كثرة التوم من كثرة الشرب. وفي كثرة التوم ضياع العمر وفوت التهجيد وبلاذة الطبع وقسادة القلب، والعمر أنفس الجواهر وهو رأس مال العبد فيه يتجر، والتوم موت فتنكثيره ينقص العمر، ثم فضيلة التهجيد لا تخفى وفي التوم فوائدها. ومهما غلب التوم فإن تهجد لم يجد حلالة العبادة، ثم المتمرب إذا نام على الشبع احتمل ويمتنع ذلك أيضا من التهجيد، ويوجهه إلى النسل إما بالماء البارد فيتأذى به أو يحتاج إلى الحمام وربما لا يقدر عليه بالليل، فيغفون الوتر إن كان قد أخره إلى التهجيد، ثم يحتاج إلى مؤنة الحمام وربما تمتع عينه على عورة في دخول الحمام، فإن فيه أخطارا ذكرناها في كتاب الطهارة وكل ذلك أثر الشبع. وقد قال أبو سليمان الماراني: الاحتلام عقوبة، وإنما قال ذلك لأنه يمنع من عبادات كثيرة لتعذر الغسل في كل حال. فالتوم منبع الآفات، والشبع جملة له؛ والجوع مقطعة له.

الفائدة السابعة: تيسير المواظبة على العبادة فإن الأكل يمنع من كثرة العبادات لأنه يحتاج إلى زمان يشتغل فيه بالأكل، وربما يحتاج إلى زمان في شراء الطعام وطبخه، ثم يحتاج إلى غسل اليد والحلال، ثم يكثر ترواده إلى بيت الماء لكثرة شربه والأوقات المصروفة إلى هذا لو صرفها إلى الذكر والتجاة وسائر العبادات لكثر ربحه. قال السرى رأيت مع حل الجرجاني سويقا يشف منه فقلت: ما حالك على هذا؟ قال: إنى حسبت ما بين المصغ إلى الاستغاف سبعين تسليحة فما مضت الحبز منذ أربعين سنة. فأنظر كيف أشفق على وقته ولم يضعه في المصغ. وكل نفس من العمر جوهرة نفيسة لا قيمة لها فيبقى أن يستوفى منه خزائنه باقية في الآخرة لا آخر لها وذلك بصرفه إلى ذكر الله وعبادته: ومن جملة ما يتعذر بكثرة الأكل الدوام على الطهارة وملازمة المسجد، فإنه يحتاج إلى الخروج لكثرة شرب الماء.

ورأفته . ومن جملة الصوم فإنه يتيسر لمن تعود الجوع ، فالصوم ودوام الاعتكاف ودوام الطهارة وصرف أوقات شغله بالأكل واسبابه إلى العبادة أرباح كثيرة ، وإنما يستحقها الغافلون الذين لم يعرفوا قدر الدين لكن رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ( يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ) .

وقد أشار أبوسليمان الداراني إلى ست آفات من الشبع فقال : من شبع دخل عليه ست آفات : فقد حلاوة الحاجة وتعذر حفظ الحكمة ، وحرمان الشفقة على الخلق لأنه إذا شبع ظن أن الخلق كلهم شباع ، ونقل العبادة ، وزيادة الشهوات ، وأن سائر المؤمنين يدورون حول المساجد ، والشباع يدورون حول المزابل .

الفائدة الثامنة : يستفيد من قلة الأكل صحة البدن ودفع الأمراض ، فإن سببها كثرة الأكل وحصول فضلة الاختلاط في المعدة والوروق . ثم للرض ينفع من العبادات ويشوش القلب وينمى من الذكر والفكر وينصف العيش ويحوج إلى القصد والحجامة والدواء والطبيب ، وكل ذلك يحتاج إلى مؤن ونفقات لا يتحمل الإنسان منها بعد التمتع عن أنواع من المعاصي واقتحام الشهوات ، وفي الجوع ما يمنع ذلك كله .

حكى أن الرشيد جمع أربعة أطباء : هندي ، ورومي ، وعراقي ، وسوادي . وقال ليصف كل واحد منكم الدواء الذي لاداء فيه . فقال الهندي : الدواء الذي لاداء فيه عندي هو الإهلج الأسود . وقال العراقي : هو حب الرشاد الأبيض . وقال الرومي . هو عندي الماء الحار . وقال السوادي . وكان اعلمهم - الإهلج يعفص المعدة وهذا داء ، وحب الرشاد يزيل المعدة وهذا داء ، وللماء الحار يرخي المعدة وهذا داء . قالوا . فما عندك ؟ فقال الدواء الذي لاداء معه عندي أن لا تأكل الطعام حتى تشتهي ! وأن ترفع يدك عنه وأنت تشتهي . فقالوا : صدقت وذكر لبعض الفلاسفة من أطباء أهل الكتاب قول النبي صلى الله عليه وسلم : « ثلث الطعام وثلث للشراب وثلث للنفس »<sup>(١)</sup> فتعجب منه وقال ما سمعت كلاماً في قلة الطعام أحكم من هذا وإنه لكلام حكيم . وقال صلى الله عليه وسلم : « البطنة أصل الداء والحمية أصل الدواء »<sup>(٢)</sup> واعتاد<sup>(٣)</sup> . وأظن تعجب الطبيب جرى من هذا الخبر لأن ذلك . وقال ابن سالم : من أكل خبز الحنطة بحثاً بأدب لم يمتل إلا علة للموت . قيل . وما الأدب ؟ قال : تأكل بعد الجوع وترفع قبل الشبع . وقال بعض أفاضل الأطباء في ذم الاستكثار : « إن أنفع ما أدخل الرجل بطنه الرمان وأضر ما أدخل معدته المالح ؛ ولأن يقلل من المالح خير له من أن يستكثر من الرمان . وفي الحديث صوموا تصحوا<sup>(٤)</sup> » وفي الصوم والجوع وتقليل الطعام صحة الأجسام وصحة القلوب من سقم الطغيان والبطر وغيرهما .

الفائدة التاسعة : خفة المؤونة فإن من تعود قلة الأكل كفاء من المال قدر يسير ، والذي تعود الشبع صار يطنه غرباً ملازماً له أخذاً بمنخفه في كل يوم ، فيقول ماذا تأكل اليوم فيحتاج إلى أن يدخل المداخل ، فيكتسب من الحرام فيعصى أو من الحلال فيذل . وربما يحتاج إلى أن يمد أعين الطمع إلى الناس وهو غايه الدل والقائمة بالمؤمن خفيف المؤنة . وقال بعض الحكماء : « إن لا نقضى عامة حوائجي بالترك فيكون ذلك أروع لنفسي . وقال آخر : إذا أردت أن استقرض من غيري لشهوة أو زيادة استقرضت من نفسي فترك الشهوة فهي خير غريم لي . وكان إبراهيم ابن آدم رحمه الله يسأل أصحابه عن سبب الماء كولات فيقول إنها غالية فيقول : أرخصها بالترك . وقال سهل رحمه الله : « لا تأكل مذموم في ثلاثة أحوال ، إن كان من أهل العبادة فيكسل ، وإن كان كسبياً فلا يعلم من الآفات

(١) حديث « ثلث الطعام » تقدم أيضاً (٢) حديث « البطنة أصل الداء والحمية أصل الدواء » وهو داء كل بدن بما اعتاده لم أجده أصلاً .

(٣) حديث « صوموا تصحوا » أخرجه الطبراني في الأوسط وأبو يعقوب في الطب النبوي من حديث أبي هريرة بسند ضيف

وإن كان من يدخل عليه شيء فلا ينصف الله تعالى من نفسه .

وبالجدة سبب هلاك الناس حرصهم على الدنيا ، وسبب حرصهم على الدنيا البطن والفرج ، وسبب شهوة الفرج ، شهوة البطن . وفي تقليل الأكل ما يحسم هذه الأحوال كلها وهي أبواب النار وفي حسمها فتح أبواب الجنة كما قال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : آدموا فرح باب الجنة بالجوع ، فمن قنع برغيف في كل يوم قنع في سائر الشهوات أيضاً وصار حراً واستغنى عن الناس واستراح من التعب ، وتحلى لمباداة الله عز وجل وتجارة الآخرة ، فيكون من الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإنما لا تلهيهم لاستغنائهم عنها بالقناعة ، وأما الاحتياج فلهي لاجالة .

الفائدة المباشرة : أن يتمكن من الإثارة والتصدق بما فضل من الأطعمة على التيسر والمساكين ، فيكون يوم التيامة في ظل صدقته<sup>(١)</sup> كما ورد به الخبر : فما يأكله كان خزانته الكثيف وما يتصدق به كان خزانته فضل الله تعالى ، فليس للبعد من ماله إلا ما اعتق فأبى أو أكل فأفنى أو لبس فأبى ، فالتصدق بفضلات الطعام أولى من التخمة والشبع . وكان الحسن رحمه الله عليه إذا تلا قوله تعالى ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾ قال عرضها على السموات السبع والطاق والطرائق التي زينها بالجموم وحلة العرش العظيم فقال لما سبحانه وتعالى : هل تحمِلين الأمانة بما فيها ؟ قالت : وما فيها ؟ قال : إن أحسنت جوزيت وإن أسأت عوقبت ، فقالت : لا ، ثم عرضها كذلك على الأرض فأبى ، ثم عرضها على الجبال الشراخ الصلاب الصعاب فقال لها : هل تحمِلين الأمانة بما فيها ؟ قالت : وما فيها ؟ فذكر الجزاء والمعقوبة فقالت : لا ، ثم عرضها على الإنسان لحملها إنه كان ظلوماً لنفسه جهولاً بأمر ربه . فقد رآناهم والله اشتروا الأمانة بأموالهم فأصابوا آلافاً فآثما صنعوا فيها ؟ وسعوا بها درهم وضيقوا بها قبورهم ، وأسمتوا براذنيهم وأمزكروا دينهم ، وأتعبوا أنفسهم بالندق والرواح إلى باب السلطان يتعززون للبلاد وهم من الله في عافية ، يقول أحدهم يميني أرض كذا وكذا وأزيدك كذا وكذا ، يتكلم على شئاله ويأكل من غير ماله ، حديثه حفرة وماله حرام حتى إذا أخذته الكلفة ونزلت به البطنة قال : يا غلام اثني بشيء أمضه به طعماً ، يالكع أطعامك تهضم ؟ إنما تهضم دينك ، أين الفقير أين الأرملة أين المسكين أين اليتيم الذي أمرك الله تعالى بهم ؟ فهذه إشارة إلى هذه الفائدة وهو صرف فاضل الطعام إلى الفقير ليدخر به الأجر فذلك خير له من أن يأكله حتى يتضاعف الوزر عليه . ونظير رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رجل سمين البطن فأومأ إلى بطنه بأصبعه وقال : لو كان هذا في غير هذا لكان خيراً لك<sup>(٢)</sup> ، أي لو قدمته لآخرتك وآثرت به غيرك . وعن الحسن قال : والله لقد أدركت أنوماً كان الرجل منهم يمسى وعنده من الطعام ما يكفي ولو شاء لا كاله فيقول : والله لا أجعل هذا كله لبطني حتى أجعل بعضه لله .

فهذه عشرة فوائد للجوع يتشعب من كل فائدة فوائد لا ينحصر عددها ولا تنقضي فوائدها ، فالجوع خزانة عظيمة لفوائد الآخرة . ولأجل هذا قال بعض السلف : الجوع مفتاح الآخرة وباب الزهد ، والشبع مفتاح الدنيا وباب الرغبة . بل ذلك صريح في الأخبار التي رويناها بالوقوف على تفصيل هذه الفوائد تدرك معاني تلك الأخبار إدراك علم وبصيرة . فإذا لم تعرف هذا وصدقت بفضل الجوع كانت لك ربة المقلدين في الإيمان

(١) حديث « كل امرئ في ظل صدقته » أخرجه الحاكم من حديث عتبة بن رافع وقد تقدم .

(٢) حديث : نقل للرجل سمين البطن فأومأ إلى بطنه بأصبعه وقال : لو كان هذا في غير هذا لكان خيراً لك ، أخرجه أحمد والحاكم في المسند والبيهقي في الشعب من حديث جعدة الجففي وإسناده جيد .



والله أعلم بالصواب .

### بيان طريق الرياضة في كسر شهوة البطن

اعلم أن على المريد في بطنه وما كوله أربع وظائف : الأول أن لا يأكل إلا حلالاً فإن العبادة مع أكل الحرام كالبناء على أمواج البحار . وقد ذكرنا ما يجب مراعاته من درجات الوزن في كتاب الحلال والحرام ، وتبقى ثلاث وظائف خاصة بالأكل وهو تقدير قدر الطعام في القلة والكثرة وتقدير وقته في الإبطاء والسرعة وتعيين الجنس المأكول في تناول المشتبهات وتركها .

أما الوظيفة الأولى : في تقليص الطعام ، فسيحل الرياضة فيه التدرج ، فمن اعتاد الأكل الكثير وانتقل دفعة واحدة إلى القليل لم يحتمله مزاجه وضمف وعظمت مشقته ، فينبغي أن يتدرج إليه قليلاً قليلاً وذلك بأن ينقص قليلاً قليلاً من طعامه المتعاد . فإن كان يأكل رغيفين مثلاً وأراد أن يرد نفسه إلى رغيف واحد فينقص كل يوم ربع سبع رغيف ، وهو أن ينقص جزءاً من ثمانية وعشرين جزءاً ، أو جزءاً من ثلاثين جزءاً ، فيرجع إلى رغيف في شهر ، ولا يستعز به ولا يظهر أثره ، فإن شاء فعل في ذلك بالوزن وإن شاء بالمناسبة ، فيترك كل يوم مقدار لقمة وينقصه عما أكله بالأمس . ثم هذا فيه أربع درجات .

أقسامها : أن يرد نفسه إلى قدر القوام الذي لا يبقى دونه وهو عادة الصديقين ، وهو اختيار سهل التستري رحمة الله عليه إذ قال : إن الله استعبد الخلق ثلاث ، بالحياة ، والعقل ، والقوة . فإن غاف العبد على اثنين منها وهي الحياة والعقل ، أكل وأفطر إن كان صائماً . وتكلف الطلب إن كان فقيراً . وإن لم ينف عليمه بل على القوة قال ، فينبغي أن لا يبالى . ولو ضمت حتى صلى قاعدا وأرى أن صلاته قاعدا مع ضعف الجوع أفضل من صلاته قائماً مع كثرة الأكل . وسئل سهل عن بدايته وما كان يفتات به فقال . كان قوتي في كل سنة ثلاثه دراهم ، كنت آخذ بدرهم ديساً ، وبدرهم دقيق الأرز ، وبدرهم سمناً ، وأخلط الجميع وأسوى منه ثلثاته وستين أكرة ، أخذت كل ليلة أكرة أفطر عليها ، فقيل له : فالساعة كيف تأكل ؟ قال : بنهرجة ولا توقيت . ويحكى عن الرهبان أنهم قد يردون أنفسهم إلى مقدار درهم من الطعام :

الدرجة الثانية : أن يرد نفسه بالرياضة في اليوم واليلة إلى نصف مد ، وهو رغيف وشئ مما يكون الأربعة منه منا ويشبه أن يكون هذا مقدار تلك البطن في حق الأكثرين - كما ذكره النبي صلى الله عليه وسلم - وهو فوق اللقيات لأن هذه الصيغة في الجمع القلة فهو لما دون العشرة ، وقد كان ذلك عادة عمر رضي الله عنه إذ كان يأكل سبع لقم أو سبع لقم .

الدرجة الثالثة : أن يرد بها إلى مقدار المد ، وهو رغيفان ونصف ، وهذا يزيد على تلك البطن في حق الأكثرين ، ويكاد ينتهي إلى ثلثي البطن ، ويبقى ثلث للشراب ولا يبقى شئ للذكر . وفي بعض الألفاظ ذلك الذكر ، بدل قوله « النفس » الدرجة الرابعة : أن يرد على المد إلى المن ، ويشبه أن يكون ما وراءه للنسب إسراراً مختلفاً لقوله تعالى ﴿ ولا تسرفوا ﴾ أعني في حق الأكثرين ، فإن مقدار الحاجة إلى الطعام يختلف بالنسب ، والشخص ، والعمل الذي يشتغل به . وهنا طريق خامس لا تقدير فيه ولكنه موضع غلط ، وهو أن يأكل إذا صدق جوعه ويقبض يده وهو على شهوة صادقة بهد ، ولكن الأغلب أن من لم يقدر نفسه رغيفاً أو رغيفين فلا يقين له حد الجوع الصادق ، ويشبه عليه ذلك بالشهوة الكاذبة .

وقد ذكر الجوع الصادق علامات ؛ أحداها : أن لا تطلب النفس الأدم بل تأكل الخبز وحده بشهوة — أي خبز كان — فهذا طيبت نفسه خبزاً بعينه أو طلبت أدماً فليس ذلك بالجوع الصادق . وقد قيل : من علامته أن يبصق فلا يقع الذباب عليه ؛ أي لم يبق فيه دهنية ولا دسومة فيدل ذلك على خلو المعدة ، ومعرفة ذلك غامض . فالصواب : المراد أن يتقدم مع نفسه القدر الذي لا يضره عن العبادة التي هو يصدها فإذا انتهى إليه وقف وإن بقيت شهوته . وعلى الجملة : فتقدير الطعام لا يمكن لأنه يختلف بالأحوال والأشخاص . لنعم كان قوت جماعته من الصحابة صاعاً من حنطة في كل جمعة ، فإذا أكلوا القمح اقتاتوا منه صاعاً ونصفاً ، وصاع الحنطة أربعة أمداد ، فيكون كل يوم قريباً من نصف مد . وهو ما ذكرناه أنه قدر تلك البطن — واحتيج في القمح إلى زيادة لسقوط النوى منه . وقد كان أبو ذر رضي الله عنه يقول : طمأني في كل جمعة صاع من شعير على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والله لا أزبد عليه شيئاً حتى ألقاه فاني سمعته يقول « أقربكم مني مجلساً يوم القيامة وأحبكم إلى من مات على ما هو عليه اليوم »<sup>(١)</sup> ، وكان يقول — في إنكاره على بعض الصحابة : قد غيرتم ، ينخل لكم الشعير ولم يكن ينخل ، وخبرتم المرقق وجمدتم بين إدامين واختلف عليكم بألوان الطعام ، وغدا أحذركم في ثوب وراح في آخر ، ولم يكونوا هكذا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان قوت أهل الصفة مداً من تمر بين اثنين في كل يوم<sup>(٢)</sup> والمدر طول وثلاث وييسق منه التوى . وكان الحسن راحة الله عليه يقول للمؤمن مثل المنزلة يكفيه الكف من الخسف والقبضة من السوق والجرعة من الماء ، والناسق مثل السبع الضاري بلعاً بلعاً وسطاً وسطاً لا يطوى بطنه لجاره ولا يؤثر أخاه بفعله ، وجهوا هذه الفضول أمامكم . وقال سهل لو كانت الدنيا دماً عيطا لكان قوت المؤمن منها حلالاً لأن أكل المؤمن عند الضرورة يتدر القوام فقط .

الوظيفة الثانية : في وقت الأكل ومقدار تأخيرها وفيه أيضاً أربع درجات :

الدرجة العليا : أن يطوى ثلاثة أيام فما فوقها ، وفي المريد من رد الرياضة إلى الطل لالئ المقدار ، حتى انتهى بعضهم إلى ثلاثين يوماً وأربعين يوماً ، وانتهى إليه جماعة من العلماء يصحرون عددهم منهم : محمد بن عمرو الترمي ، وعبد الرحمن بن إبراهيم ، ورجيم ، وإبراهيم التيمي ، وحجاج بن فرافصة ، وحنص العابد المصيصي ، والمسلم بن سعيد ، وزهير ، وسليمان الخواص ، وسهل بن عبد الله التستري ، وإبراهيم بن أحمد الخواص ، وقد كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يطوى ستة أيام ، وكان عباده بن الزبير يطوى سبعة أيام ، وكان أبو الجوزاء صاحب ابن عباس يطوى سبعا . وروى أن التوى وإبراهيم بن آدم كانا يطويان ثلاثاً ثلاثاً ، كل ذلك كانوا يستنبطون بالجوع على طريق الآخرة . قال بعض العلماء من طوى الله أربعين يوماً ظهرت له قدرة من الملكوت أي كوشف ببعض الأسرار الإلهية . وقد حكى أن بعض أهل هذه الطائفة من رهاب فذاكره بحاله وطمع في إسلامه وترك ما هو عليه من الغرور ، فكلّمه في ذلك كلاماً كثيراً إلى أن قال له الراهب : إن المسيح كان يطوى أربعين يوماً وإن ذلك معجزة لا تكون إلا لشيء أو صديق ، فقال له العوفي : فإن طويت خمسين يوماً تترك ما أنت عليه وتدخل في دين الإسلام وتعلم أنه حق وأنتك على باطل ؟ قال : نعم ، فجلس لا يبرح إلا حيث يراه حتى طوى خمسين يوماً ، ثم قال : وأزبدك أيضاً فطوى إلى تمام الستين ، فتصعب الراهب منه وقال : ما كنت أظن أن أحداً يحاكي المسيح ؟ فكان ذلك سبب إسلامه .

(١) حديث أبي ذر « أقربكم مني مجلساً يوم القيامة وأحبكم إلى من مات على ما هو عليه اليوم » أخرجه أحد في كتاب الزهد ومن طريقه أبو نعيم في الحلية دون قوله « وأحبكم إلى » وهو متعلق (٢) حديث : كان قوت أهل الصفة مداً من تمر بين اثنين في كل يوم « أخرجه الحاكم وصححه إسناده من حديث طلحة البصري .

وهذه درجة عظيمة قل من يبلغها إلا مكاشف محمول شغل بمشاهدة ماقطعه عن طبعه وعادته واستوفى نفسه في لذته وأنشأ جوعته وحاجته .

الدرجة الثانية : أن يطوى يومين إلى ثلاثة وليس ذلك عارجا عن العادة بل هو قريب يمكن الوصول إليه بالجد والمجاهدة .

الدرجة الثالثة : وهي أدها أن يقتصر في اليوم واليلة على أكلة واحدة وهذا هو الأقل وماجاوز ذلك إسراف ومداومة للشبع حتى لا يكون له حالة جوع ، وذلك فعل المترفين وهو بعيد من السنة ، فهدروى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا تغدى لم يتعش وإذا تعشى لم يتغد <sup>(١)</sup> وكان السلف يأكلون في كل يوم أكلة ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم لعاثة « إياك والسرف ، فإن أكلتين في يوم من السرف ، وأكلة واحدة في كل يومين إقتار ، وأكلة في كل يوم قوام بين ذلك <sup>(٢)</sup> » وهو المحمود في كتاب الله عز وجل .

ومن اقتصر في اليوم على أكلة واحدة فيستحب له أن يأكلها سراً قبل طلوع الفجر فيكون أكله بعد التهجد وقبل الصبح ، فيحصل له جوع النهار للصيام وجوع الليل للقيام ، وغلو القلب لفراغ المعدة ورقة الفكر ، واجتماع الهم وسكون النفس إلى المعلوم ، فلا تنازعه قبل وقته . وفي حديث عاصم بن كليب عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : ما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم قيامكم هذا قط ، وإن كان يقوم حتى تورم قدماء ، وما واصل وصالحكم هذا قط غير أنه قد أخر الفطر إلى السحر <sup>(٣)</sup> وفي حديث عاتكة رضي الله عنها قالت : كان النبي صلى الله عليه وسلم يواصل إلى السحر <sup>(٤)</sup> فإن كان يلتفت قلب الصائم بعد المغرب إلى الطعام وكان ذلك يشتله عن حضور القلب في التهجد فالأولى أن يقسم طعامه نصفين ، فإن كان رغبين مثلاً أكل رغباً عند الفطر ورغباً عند السحر ، لتسكن نفسه ويخف بدنه عند التهجد ولا يشتد بالنهار جوعه لأجل التسحر ، فيستعين بالرغيف الأول على التهجد والثاني على الصوم . ومن كان يصوم يوماً ويفطر يوماً فلا بأس أن يأكل كل يوم فطره وقت الظهر ، ويوم صومه وقت السحر . فهذه الطرق في مواقيت الأكل وتباعده وتقاربه .

الوظيفة الثالثة : في نوع الطعام وترك الإدام ، وأعلى الطعام نخ البر فإن نخل فهو غاية الترفه ، وأوسطه شعير منخول ، وأدناه شعير لم ينخل . وأعلى الأدم اللحم والحلاوة ، وأدناه الملح والحل ، وأوسطه المورورات بالأدهان من غير لحم . وعادة سالكى طريق الآخرة الامتناع من الإدام على الدوام بل الامتناع عن الشهوات ، فإن كل لذية يشتهيها الإنسان وأكله اقتضى ذلك طعناً في نفسه وقسوة في قلبه وأنشأه بلذات الدنيا حتى يألفها ويكره الموت ولقاء الله تعالى ، وتصور الدنيا جنّة في حقه ويكون الموت بئساً له . وإذا منع نفسه عن شهواتها وضيّق عليها وحرمها لذاتها صارت الدنيا بئساً عليه ومضيّقاً له فاشتتهت نفسه الإفلات منها ، فيكون الموت إطلاقاً . وإليه الإشارة بقول يحيى ابن معاذ حيث قال : معاشر الصديقين جرعوا أنفسهم لولية الفردوس فإن شهوة الطعام على قدر تجرير النفس . فكل ما ذكرناه من آفات الشبع فإنه يجرى في كل الشهوات وتناول اللذات فلا تطول بإعادته ، فلذلك يعظم الثواب

(١) حديث أبي سعيد الخدري : كان إذا تغدى لم يتعش وإذا تعشى لم يتغد . لم أجده له أصلاً (٢) حديث : قال لعاثة « إياك والإسراف فإن أكلتين في يوم من السرف » أخرجه البيهقي في الشعب من حديث عاتكة وقال في إسناده ضعف (٣) حديث عاصم بن كليب عن أبيه عن أبي هريرة : ما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم قيامكم هذا قط لو كان يقوم حتى تزول قدماء . رواه النسائي مختصراً : كان يصل حتى تزول قدماء . وإسناده جيد . (٤) حديث : كان يواصل إلى السحر . لم أجده . من قوله « فأبكم أراد أن يواصل فليواصل حتى السحر » رواه البخاري من حديث أبي سعيد : وأما هو فكان يواصل وهو من خصائصه .

في ترك الشهوات من اللذات ويعظم الخطر في تناولها ، حتى قال صلى الله عليه وسلم : شرار أمتي الذين يأكلون مخ المنطقة (١) ، وهذا ليس بشريم بل هو مباح على معنى أن من أكله مرة أو مرتين لم يضر ، ومن دام عليه أيضاً فلا يضره يتولاه ، ولكن تربي نفسه بالتعم فتأس بالدنيا وتأنف اللذات وتسعى في طلبها فيجرها ذلك إلى المعاصي ، فهم شرار الأمة ، لأن مخ المنطقة يقودهم إلى اقتحام أمور ، تلك الأمور معاصي . وقال صلى الله عليه وسلم : شرار أمتي الذين غفوا بالتعم ونبتت عليه أجسامهم (٢) ، وإنما عمتهم ألوان الطعام وأنواع اللباس ويتشددون في السكلام . وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام اذكر أنك ساكن القبر فإن ذلك يمنعك من كثير الشهوات . وقد اشتد خوف السلف من تناول لذيق الأطعمة وتبرين النفس عليها وراوا أن ذلك علامة الشقاوة ، وراوا منع الله تعالى منه غاية السعادة ، حتى روى أن وهب بن منبه قال : التقي ما كان في السماء الرابعة فقال أحدهما للآخر : من أين ؟ قال : أمرت يسوق حوت من البحر اشتهاه فلان اليهودي لعنه الله ، وقال الآخر : أمرت ياهراق زيت اشتهاه فلان النابذ . فهذا تنبيه على أن تيسير أسباب الشهوات ليس من علامات الخير . ولهذا امتنع عمر رضي الله عنه عن شربة ماء بارد بمسل وقال : اعزلوا عني حسابي . فلا عبادة لله تعالى أعظم من مخالفة النفس في الشهوات وترك اللذات . كما أوردناه في كتاب رياضة النفس . وقد روى نافع أن ابن عمر رضي الله عنهما كان مريضاً فاشتبهى سمكة طرية فالتفت له بالمدينة فلم توجد ، ثم وجدت بدمكنا وكذا ، فاشتريت له بدمهم ونصف فشويت وحملت إليه على رغيف فقام سائل على الباب فقال الغلام : لنفها برغيها وادفعها إليه ، فقال له الغلام : أصلحك الله قد اشتبهيتها منذ كذا وكذا فلم تجدنا فلما وجدت اشتريتها بدمهم ونصف ، فحين نعطيه عنها ، فقال : لنفها وادفعها إليه ، ثم قال الغلام للسائل : هل لك أن تأخذ درهماً وتركتها ؟ قال : نعم فأعطاه درهماً وأخذها وأتى بها فوضعا بين يديه وقال : قد أعطيتك درهماً وأخذت منه ، فقال : لنفها وادفعها إليه ولا تأخذ منه درهم ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أيما امرئ اشتهى شهوة فرد شهوته وآثر بها على نفسه غفر الله له (٣) . وقال صلى الله عليه وسلم : إذا سددت كلب الجوع برغيف وكوز من الماء القراح قبل الدنيا وأهلها الدمار (٤) ، أشار إلى أن المقصود رد ألم الجوع والعطش ودفع ضررها دون التعم بلذات الدنيا ، وبلغ عمر رضي الله عنه أن يريد بن أبي سفيان يأكل أنواع الطعام فقال عمر لموله : إذا علت أنه قد حضر عشاؤه فأعطني ، فأعله فدخل عليه فقرب عشاؤه فأتوه بشريد لم يأكل معه عمر ، ثم قرب الشواء وبسط يزيد يده وكف عمر يده وقال : الله الله يا يزيد بن أبي سفيان أطعام بعد طعام ؟ والذي نفس عمر بيده لئن خالفتم عن سلتهم ليخالفنكم عن طريقهم . وعن يسار بن عمير قال : ما نخلت لعمر دقيقاً قط إلا وأثاله عاص . وروى أن حبة الغلام كان يصعب دقيقه ويجمعه في الشمس ، ثم يأكله ويقول كسرة وملح حتى يتيا في الآخرة الشواء والطعام الطيب . وكان يأخذ الكوز فيعرف به من جب كان في الشمس نهاره .

(١) حديث « شرار أمتي الذين يأكلون مخ المنطقة » لم أجده إلا في (٢) حديث « شرار أمتي الذين غفوا بالتعم .. الحديث » أخرجه ابن عدي في السكامل ومن طريقه السيوطي في شعب الإيمان من حديث طائفة بشارت رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى من حديث طائفة بشارت الحسن مهمل ، قال الدارقطني في الطل : أنه أشبه بإصواب ، ورواه أبو نعيم في الحلية . حديث عائشة بإسناد لا بأس به . (٣) حديث نافع : أن ابن عمر كان مريضاً فاشتبهى سمكة .. الحديث . وفيه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « أيما امرئ اشتهى شهوة فرد شهوته وآثر بها على نفسه غفر الله له » أخرجه أبو الشيخ ابن جبار في كتاب الثواب . بإسناد ضيف بيده ورواه ابن الجوزي في الموضوعات .

(٤) حديث « إذا سددت كلب الجوع برغيف وكوز من الماء القراح قبل الدنيا وأهلها الدمار » أخرجه أبو منصور الديلمي في حسنة الترمذي من حديث أبي هريرة بإسناد ضيف .

فتقول مولاة له : يا عبته لو أعطيتك دقيقك غبخته لك وبردت لك الماء ؟ فيقول لها : يأم فلان قد بردت عني كلب الجوع .

قال شقيق بن إبراهيم : لقيت إبراهيم بن آدم بمكة في سوق الليل - عند مولد النبي صلى الله عليه وسلم - يكنى وهو جالس بناحية من الطريق فمدلت إليه وقعدت عنده وقلت : إيش هذا البكاء بأبا يا حسيق ؟ فقال : خير ، فمادته مرة واثنين وثلاثاً ، فقال : يا شقيق استر على فقلت يا أخي قل ماشئت ، فقال لي : اشتيت نفسي منذ ثلاثين سنة سكاجا فزمتها جهدي ، حتى إذا كان البارحة كنت جالساً وقد غلبي النعاس إذ أنا بنيت شاب بيده قنح أخير . يعلم منه بخار ورائحة سكياج ، قل : فاجتمعت بهنق عنه فزبه وقال : يا إبراهيم كل ، فقلت : ما أكل قد تركته لله عز وجل ، فقال لي : قد أطعمك الله كل ، فسا كان إ جواب إلا أنا بكيت ، فقال لي : كل ورحمك الله ، فقلت : قد أمرنا أن لا نطرح في وعائنا إلا من حيث نعلم ، فقال : كل عافاك الله فأنما أعطيتك ، فقبل لي ياخضر اذهب بهذا وأطعمه نفس إبراهيم بن آدم فقد رحمها الله من طول صبرها على ما جعلها من منبها . اعلم يا إبراهيم أني صدمت الملائكة يقولون : من أعطى فلم يأخذ طلب فلم يعط ، فقلت : إن كان كذلك فما أنابني يديك لأجل الدند مع الله تعالى ، ثم التفت فإذا أنا بنيت آخر ناوله شيئاً وقال : ياخضر لقمة أنت ، فلم يرل يلقني حتى فلتست فالتفت وحلاوته في فمي ، قال شقيق : فقلت أرني كمنك ، فأخذت بكفه فقبلها وقلت : يامن يطعم البجايام الشهوات إذا صححوها للنعم ، يامن يقدح في الضمير البقين ، يامن يشق قلوبهم من عبته ، أثري لشقيق عندك حالا ؟ ثم ودمت يد إبراهيم إلى السماء وقلت : بقدر هذا الكف عندك وقدر صاحبه والجلود الذي وجد منك جد لي عبدك الفقير إلى فضلك وإحسانك ورحمتك وإن لم يستحق ذلك ، قال : فقام إبراهيم ومشي حتى أدركنا البيت .

وروى عن مالك بن دينار أنه بقى أربعين سنة يشتهي لبنا فلم يأكله . وأهدى إليه يوما رطب فقال لاصحابه : كلوا لما ذقت منذ أربعين سنة . وقال أحمد بن أبي الخوارى . اشتبى أبو سليمان الغداني رغيفا حاراً بملح جئت به إليه فعض منه عضة ثم طرحه وأقبل بيكي وقال : عجبت إلى شوقي بعد إطالة جهدي واشتوقي قد عومت على التوبة فأفاني ! قال أحمد . فما رأيته أكل الملح حتى أتى الله تعالى . وقال مالك بن حنيفة مرهت بالبصرة في السوق فظفرت إلى البقل فقالت لي نفسي : لو أطعمتني البقلة من هذا فأقسمت أن لا أطعمها إياها أربعين ليلة . ومكث مالك بن دينار بالبصرة خمسين سنة ما أكل رطبة لأهل البصرة ولا بصرة قط وقال . يا أهل البصرة عشت فيكم خمسين سنة ما أكلت لكم رطبة ولا بصرة فأزاد فيكم مانقص منى ولا نقص منى مازاد فيكم . وقال . طلقت الدنيا ، منذ خمسين سنة ، اشتيت نفسي لبنا منذ أربعين سنة فوالله لا أطعمها حتى ألحق بالله تعالى . وقال حاد بن أبي حنيفة . أبيت داود الطائي والباب مغلق عليه فسمعت يقول . نفسي اشتبيت جزراً فأطعمتك جزراً ، ثم اشتبيت تمرأ فأليت أن لاتأكله أبداً ، فسلبت ودخلت فإذا هو وحده . ومز أبو حازم يوماً في السوق فرأى الفاكهة فاشتتهاها ، فقال لابنه . اشتر لنا من هذه الفاكهة المخطوعة المتنوعة لعلنا نذهب إلى الفاكهة التي لا مقطوعة ولا متنوعة ، فلما اشتراها وأتى بها إليه قال لنفسه : قد خدعتني حتى ظفرت واشتيت وغلبيتني حتى اشتريت والله لا ذقتي فبعت بها إلى يتامي من الفقراء وعن موسى الأشجع أنه قال . نفسي تشتهي ملحاً جريشاً منذ عشرين سنة . وعن أحمد بن حنيفة قال : نفسي تشتهي منذ عشرين سنة ما طبلت مني إلا الماء حتى تروى فأأرويتها . وروى أي عبته الغلام اشتبى لما سبع سنين فلما كان بعد ذلك قال استحييت من نفسي أن أأدفعها منذ سبع سنين - سنة بعد سنة - فأشترت قطعة لحم على خبز وشويتها

وتركها على رغبة فليتصيا فقلت ، ألسنت أنت ابن فلان وقد مات أبوك ؟ قال : بلى ، فناولته إياها قالوا . وأقبل يبكي ويقرأ ( ويعطمون الطعام على حبه مسكينا ويتبنا وأسيرا ) ثم لم يذقه بعد ذلك . ومكث يشتهي تمرا سنين ، فلما كان ذات يوم اشتري تمرا بقرطاف ورفعه إلى الليل لينظر عليه قال . فهبت ريح شديدة حتى أظلمت الدنيا ففرغ الناس ، فأقبل عتبة على نفسه يقول : هذا لجرائك عليك وشرائي القتر بالقرطاف ، ثم قال لنفسه : ما أظن أخذ الناس إلا بذنبك ؟ على أن لا تنزوي . واشتري داود الطائي بنصف فلس بطلا وبفسل خلا ، وأقبل ليلته كلها يقول لنفسه . وبلك يادود ما أطول حسابك يوم القيامة ، ثم لم يأكل بعده إلا فقارا ، وقال عتبة الغلام يوما لعبد الواحد بن زيد . إن فلانا يصف من نفسه منزلة ما أعرفها من نفسى فقال : لأنك تأكل كل مع خبزك تمرا وهو لا يريد على الخبز شيئا قال : فإن أنا تركت أكل القتر عرفت تلك المنزلة ؟ قال . نعم ؛ وغيرها فأخذ يبكي فقال له بعض أصحابه لا يبكي الله عينك أعلى القتر تبكي ؟ فقال عبد الواحد دعه ؛ فإن نفسه قد صرفت صدق هزمه في الترك ، وهو إذا ترك شيئا لم يملوده . وقال جعفر بن نصر . أمرني الخنيد أن أشتري له التين الوزيري ، فلما اشتريته أخذ واحدة عند الفطور فوضعها في فم ثم ألقاها وجعل يبكي ، ثم قال . أحمله فقلت له في ذلك فقال . هتب في هاتف أما تستحي ؟ تركه من أجل ثم تعود إليه ؟ وقال صالح المري . قلت لعطاء السلي إلى متكلف لك شيئا فلا ترد على كرامتي ؟ فقال . افعل ما تريد ، قال . فبعثت إليه مع ابني شربة من سويق قد لثته بسمن وعسل ، فقلت : لا تبرح حتى يشرها ، فلما كان من ألتد جعلت له نحوها فردها ولم يشرها ، فعاتبته ولثته على ذلك وقلت . سبحان الله رددت على كرامتي ؟ فلما رأى وجدى لذلك قال . لا يسوءك هذا ، إنى قد شرهنا أول مرة وقد راودت نفسى في المرة الثانية على شرها فلم أندر على ذلك ، وكذا أردت ذلك ذكرت قوله تعالى ( يتجرعه ولا يكاد يسيغه ) الآية قال صالح . فبكيك وقلت في نفسى . أنا في واد وأنت في واد آخر . وقال السري السقطي . نفسى منذ ثلاثين سنة تقالبنى ، أن أغرس جرة في ديس فأطعمتها . وقال أبو بكر الجلاء . أصر ف رجلا يقول له نفسه أنا أصبرك على طى عشرة أيام وأطعمنى بعد ذلك شهوة أشتيتها ، فيقول لها : لا أريد أن تطوى عشرة أيام ولكن أترك هذه الشهوة . وروى أن عابدا دعا بعض إخوانه فقرب إليه رغفانا فجعل أخوه يقلب الأرغفة ليختار أجودها فقال له العابد . مه أى شيء تصنع ؟ أما علمت أن في الرغبة الذى رغبت منه كذا وكذا حكمة وعمل فيه كذا وكذا أصابنا ، حتى استدار من السحاب الذى يحمل الماء والماء الذى يسقى الأرض والرياح والأرض والبهائم وبنى آدم حتى صار إليك ، ثم أت بعد هذا فقلبه ولا ترضى به .

وفى الخبر . لا يستدير الرغبة ويوضع بين يديك حتى يعمل فيه ثلثائة وستون صائفا أولهم ميكائيل عليه السلام الذى يكيل الماء من خزائن الرحمة ، ثم الملائكة التى ترجى السحاب والشمس والقمر والأفلاك وملائكة الهواء ودعاب الأرض ، وآخرهم الحجاز ( وإن تمدوا نعمة الله لا تحصرها ) <sup>(١)</sup> وقال بعضهم : أتيت قاسما الجرحى فسألت عن الزهد أى شيء هو ؟ قال : أى شيء سمعت فيه ؟ فعددت أقوالا فسكت فقلت : أى شيء تقول أنت ؟ فقال : اعلم أن البطن دنيا البئد يقدر ما يملك من بطنه يملك من الزهد ، ويقدر ما يملكه بطنه يملكه الدنيا وكان بشر بن الحرث قد اعتل مرة ، فأتى عبد الرحمن الطليب يسأله عن شيء يرواؤه من المأكولات ، فقال : لسألتني فلذا وصفت لك ثم تقبل منى ، قال : صف لى حتى أسمع ، قال : تشرب سكتنجينا وتمص سفرجلا وتأكل

(١) حديثه لا يستدير الرغبة ويوضع بين يديك حتى يعمل فيه ثلثائة وستون صائفا أولهم ميكائيل .. الحديث . لم أجده أصلا

بعد ذلك اسفيذ باجا ، فقال له بشر : هل تعلم شيئا أقل من السكجيين يقوم مقامه ؟ لا ، قال : أنا أعرف ، قال : ماهو ؟ قال : الهندبا بالخل ، ثم قال : أعترف شيئا أقل من السفرجل يقوم مقامه ؟ قال : لا ، قال أنا أعرف ، قال : ماهو ؟ قال : الخروب الشامي ، قال : فتعرف شيئا أقل من الاسفيذ باج يقوم مقامه ؟ قال : لا ، قال : أنا أعرف ؛ ماء الحصى بسمن البقر في معناه ، فقال له عبد الرحمن : أنت أعلم مني بالطلب ؛ فلم تسألني ؟

فقد عرفت بهذا أن هؤلاء امتنعوا من الشهوات ومن الشيع من الأقوات ، وكان امتناعهم للقوائد التي ذكرناها ، وفي بعض الأوقات لأنهم كانوا لا يصفو لهم الحلال فلم يخصصوا لأنفسهم إلا في قدر الضرورة ، والشهوات ليست من الضرورات حتى قال أبوسليمان : لللح شهوة لأنه زيادة على الحبز وما وراء الحبز شهوة . وهذا هو النهاية . فمن لم يقدر على ذلك فيلبي أن لا يغفل عن نفسه ولا ينهك في الشهوات ، فكفي بالمرء إسرافا أن يأكل كل ما يشتهي ، ويفعل كل ما يهواه فيلبي أن لا يراغب على أكل اللحم . وقال على كرم الله وجهه من ترك اللحم أربعين يوما ساء خلقه ومن دأوم عليه أربعين يوما قسا قلبه . وقيل إن للدأومة على اللحم ضراره كضراره الخمر . ومهما كان جماعا وثاقت نفسه إلى الجماع فلا يلبس أن يأكل ويجماع ، فيعطى نفسه شهرتين فتقوى عليه ، وربما طلبت النفس الأكل لينشط في الجماع . ويستحب أن لا ينام على الشيع فيجمع بين غفلتين فيغادر القنور ويسوقه لذلك ، ولكن ليصل أو ليجلس فيذكر الله تعالى فإنه أقرب إلى الشكر . وفي الحديث « أذيووا طعامكم بالله ذكره والصلاة ولا تاتوا عليه فتفسر فلو بكم »<sup>(١)</sup> ، وأقل ذلك أن يصل أربع ركعات أو يسبح مائة تسبيحة أو يقرأ جزءا من القرآن غيب أكله . فقد كان سفيان الثوري إذا شبع ليلة أحياها ، وإذا شبع في يوم واصله بالصلاة والذكر ، وكان يقول : أشبع الزمعي وكذبه ومرة يقول : أشبع الحمار وكذبه . ومهما اشتهى شيئا من الطعام وطيبات الفواكه فيلبي أن يترك الخبز ويأكلها بدلا منه لتكون قوتا ، ولا تكون تفكها للتلاجمع للنفس بين عادة وشهوة . فطر سهل إلى ابن سالم وفيه خبر وتجر فضله : أبدا بالتمر فإن قامت كفايتك به وإلا أخذت من الحبز بعده بقدر حاجتك . ومهما وجد طعاما لطيفاً غليظا فليقدم اللطيف فإنه لا يشتم الغليظ بعده ، ولو قدم الغليظ لآكل اللطيف أيضا للطافته . وكان بعضهم يقول لأصحابه : لا تأكلوا الشهوات فإن أكلتموها فلا تطلبوها فإن طلبتموها فلا تعبها ، وطلب بعض أنواع الحبز شهوة . قال عبادة ابن عمر رحمة الله عليهما : ما أتينا من العراق فأكله أحب إلينا من الحبز فرأى ذلك الحبز فأكله .

وعلى الجملة لا سبيل إلى إهمال النفس في الشهوات للمباحات واتباعها بكل حال فيقدر ما يستوفى العبد من شهوته يخشأن يقال له يوم القيامة ( أذهبت طياتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ) ويقدر ما يجاهد نفسه ويترك شهوته يتمتع في الدار الآخر بشهواته . قال بعض أهل البصرة : نازعتني نفسي خبز أرز وسككا فندتها ، فتويت مطالبها واشتدت مجاهدتي لها عشرين سنة ، فلما مات قال بعضهم : رأيته في المنام فقلت ماذا فعل الله بك ؟ قال : لا أحسن أن أصف ما لفتني به من النعم والكرامات ، وكان أول شيء استقبلني به خبز أرز وسككا . وقال : كل اليوم شهوتك هنيئا بغير حساب . وقد قال تعالى ( كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية ) وكانوا قد أسلفوا ترك الشهوات . ولذلك قال أبوسليمان : ترك شهوة من الشهوات أنفع للقلب من صيام سنة وقياما . وفنا الله لها مرضيه .

(١) حديث « أذيووا طعامكم بالصلاة والذكر ولا تاتوا عليه فتفسر فلو بكم » أخرجه الطبراني وابن السني في اليوم والنية من حديث عائشة بسند ضيف .

بيان اختلاف حكم الجوع وفضيلته واختلاف أحوال الناس فيه

اعلم أنَّ المطلوب الأقصى في جميع الأمور والأخلاق : الوسط ، إذ خير الأمور أوسطها وكلا طرفي قصد الأمور ذميم . وما أوردناه في فضائل الجوع ربما يوميء إلى أنَّ الإفراط فيه مطلوب ومبهاة ، ولكن من أسرار حكمة الشريعة أن كل ما يطلب الطبع فيه الطرف الأقصى وكان فيه فساد جاء الشرع بالميانة في المنع منه ، على وجه يوميء عند الجاهل إلى أنَّ المطلوب مضادة ما يقتضيه الطبع بغاية الإمكان . والعالم يدرك أنَّ المقصود الوسط ، لأنَّ الطبع إذا طلب غاية الشبع فالشرع ينهى أن يمدح غاية الجوع ، حتى يكون الطبع باعثاً والشرع مانعاً فيتقاربان ويحصل الاعتدال ، فإنَّ من يقدّر على قمع الطبع بالكيفية بعيد فعمله أنه لا ينهيه إلى الغاية ؛ فإنه إن أسرف صرف في مضادة الطبع كان في الشرع أيضاً ما يدل على إساءته ، كما أنَّ الشرع بالغ في التناء على قيام الليل وصيام النهار ، ثم لما علم النبي صلى الله عليه وسلم من حال بعضهم أنه يصوم الدهر كله ويقوم الليل كله نهى عنه <sup>(١)</sup> فإذا عرفت هذا فاعلم أنَّ الأفضل بالإضافة إلى الطبع المعتدل أن يأكل بحيث لا يحس بثقل المعدة ولا يحس بالجموع ، بل يبنى بطنه فلا يؤثر فيه الجوع أصلاً ، فإنَّ مقصود الأكل بقا الحياة وقوة العبادة ، وثقل للمدة يمنع من العبادة وألم الجوع أيضاً يشغل القلب ويبتع منه . فالقصد أن يأكل أكلاً لا يبقى للبأس كونه فيه أثر ليكون متشبهاً بالملاكمة فإنهم مقتنون عن ثقل الطعام وألم الجوع . وغاية الإنسان الاعتدال بهم . وإذ لم يكن للإنسان خلاص من الشبع والجوع فأنبأ الأحوال عن الطرفين الوسط وهو الاعتدال

ومثال طلب الأدنى البعد عن هذه الأطراف المتقابلة بالرجوع إلى الوسط مثال ثمة أنقيت في وسط حلقة نجمة على النار مطروحة على الأرض ، فإنَّ الثمة تهرب من حرارة الحلقة وهي محيطة بها لا تقدر على الخروج منها . فلا تزال تهرب حتى تستقر على المركز الذي هو الوسط ، فلو ماتت ماتت على الوسط لأنَّ الوسط هو أبعد المواضع من الحرارة التي في الحلقة المحيطة : فكذلك الشهوات محيطة بالإنسان إحاطة تلك الحلقة بالثمة ، والملائكة خارجون عن تلك الحلقة ، ولا مطمع للإنسان في الخروج وهو يريد أن يثبت به بالملائكة في الخلاص ، فأشبه أحواله بهم البعد ، وأبعد المواضع عن الأطراف الوسط ، فصار الوسط مطلوباً في جميع هذه الأحوال المتقابلة . وعنه عبر بقوله صلى الله عليه وسلم « خير الأمور أوسطها »<sup>(١٣)</sup> ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾ ومهما لم يحس الإنسان بجميع ولا شيع تيسرت له العبادة والفكر وخف في نفسه وقوى على العمل مع خفته ، ولكن هذا بعد اعتدال الظلم .

أما في بداية الأمر إذا كانت النفس جوعاً مقتصرة إلى الشهوات مائلة إلى الإفراط فالاعتدال لا ينفعها بل لابد من المبالغة في إيلامها بالجوع، كما يبالغ في إيلام العالبة التي ليست مريضة بالجوع والضرب وغيره إلى أن تعتدل، فإذا ارتاحت واستوت ورجعت إلى الاعتدال ترك تعذيبها وإيلامها. ولأجل هذا السر يأمر الشيخ مريد بهما بالإسقاط هو في نفسه فيأمره بالجوع وهو لا يجوع، ويمتنع الفواكه والشهوات، وقد لا يتمتع هو منها، لأنه قد فرغ من تأديب نفسه فاحتقن عن التعذيب. ولما كان أغلب أحوال النفس الشره والشهوة والجاه والامتناع عن العبادات، كان الأصلح لها الجوع الذي تحس بأنه في أكثر الأحوال لتتكسر نفسه. والمقصود أن تنكسر حتى

(١) حديث : النبي عن صوم الدهركه وقيام الليل كله . تقدم  
(٢) حديث : خير الأمور أوسطها : أخرجه البيهقي في  
الغريب صحيحاً وقد تقدم .



تعتدل فتزد بعد ذلك الغذاء أيضا إلى الاعتدال . وإنما يتمتع من ملازمة الجوع من سالكى طريق الآخرة : إما صديق وإما مغرور أحق .

أما الصديق المستقيم : فلا سقامه نفسه على الصراط المستقيم واستقامته عن أن يساق بسياط الجوع إلى الحق . وأما المغرور : فظننه بنفسه أنه الصديق المستقيم عن تأديب نفسه الظان بها خيرا . وهذا غرور عظيم وهو الأغلب . فإن النفس قلما تتأديب تأديبا كاملا ، وكثيرا ما تنفر فتتطير إلى الصديق ومساعدته نفسه في ذلك فيساق نفسه ، كالمريض ينظر إلى من قد صح من مرضه فيتناول ما يتناوله ويظن بنفسه الصحة فيهلك . والذي يدل على أن تقرير الطعام بمقدار يسير - في وقت مخصوص ونوع مخصوص - ليس مقصودا في نفسه - وإنما هو مجاهدة نفس متناهية عن الحق غير بالغة رتبة الكمال - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن له تقدير وتوقيت لطعامه .

قالت عائشة رضى الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم حتى يقول لا يفطر ويفطر حتى يقول لا يصوم <sup>(١)</sup> وكان يدخل على أهله فيقول : هل عندكم من شيء ، فإن قالوا نعم أكل وإن قالوا لا قال : إني إذن صائم <sup>(٢)</sup> ، وكان يقدم إليه الشيء فيقول : أما إني قد أردت الصوم ، ثم يأكل <sup>(٣)</sup> . وخرج صلى الله عليه وسلم يوما وقال : إني صائم ، فقالت له عائشة رضى الله عنها : قد أهدى إلينا حيس فقال : كنت أردت الصوم ولكن قريبه <sup>(٤)</sup> .

ولذلك حكى عن - هل أنه قيل له : كيف كنت في بدايتك ؟ فأخبر بضروب من الرياضات ، منها : أنه كان يفتات ورق التبغ مدة . ومنها : أنه أكل دقائق التين مدة ثلاث سنين ، ثم ذكر أنه افتات ثلاثة دراهم في ثلاث سنين فقبل له : فكيف أنت في وقتك هذا ؟ فقال : أكل بلا حد ولا توقيت . وليس المراد بقوله بلا حد ولا توقيت : أنه يأكل كثيرا ، بل أنى لا أقدر بمقدار واحد ما آكله . وقد كان معروف الفكر حتى يهتدى إليه طبياط الطعام فيأكل ، فقبل له : إن أحاك بشرا لا يأكل مثل هذا ؟ فقال : إن أخى بشرا قبضه الورع وأنا بسطتني المرفة ، ثم قال : وإنما أنا ضيف في دار مولاي فإذا أطعمني أكلت وإذا جوعني صبرت ، مالي والاعراض والتبذير ؟ ودفع إبراهيم بن آدم إلى بعض إخوانه دراهم وقال : خذ لنا بهذه الدراهم زيدا وعسلا وخبزا حواريا فقبل : يا أبا إسحق بهذا كله ؟ قال ويحك إذا وجدنا أكلنا أكل الرجال وإذا عدنا صبرنا صبر الرجال . وأصلح ذات يوم طعاما كثيرا ودعا إليه نفرا يسيرا فيهم الأوزاعي والثوري فقال له الثوري : يا أبا إسحق أما تخاف أن يكون هذا إسرافا ؟ فقال : ليس في الطعام إسراف وإنما الاسراف في اللباس والأثاث .

فأخذ العلم من السباع والنقل تقليدا يرى هذا من إبراهيم بن آدم ويسمع عن مالك بن دينار أنه قال ما دخل بيتي الملع منذ عشرين سنة . وعن سري السقطي أنه منذ أربعين سنة يشتهي أن يغمس جزرة في ديبس فاقبل . فبراه متناقضا فيتحير أو يقطع بأن أحدهما غلط . - والبصير بأسرار القول يعلم أن كل ذلك حق ولكن بالإضافة إلى

(١) حديث عائشة : كان يصوم حتى يقول لا يفطر وينظر حتى يقول لا يصوم . متفق عليه . (٢) حديث : كان يدخل على أهله فيقول : هل عندكم من شيء . فإن قالوا نعم أكل وإن قالوا لا قال : إني صائم . أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه والنسائي من حديث عائشة وهو عند مسلم بنحوه كما سيأتي . (٣) حديث : كان يقدم إليه الشيء فيقول : أما إني قد أردت الصوم ، ثم يأكل . أخرجه البيهقي من حديث عائشة باللفظ . وإن كنت قد فرضت الصوم . وقال إسناده صحيح وعند مسلم . له كنت أصبحت صائما . (٤) حديث : خرج وقال : إني صائم ، فقالت عائشة يا رسول الله له أهدى إلينا حيس فقال : كنت أردت الصوم ولكن قريبه . أخرجه مسلم باللفظ . له كنت أصبحت صائما . وفي رواية له : أدنيه فقد أصبحت صائما . فأكل ولم يقط البيهقي . لني كنت أريد الصوم ولكن قريبه .

اختلاف الأحوال ثم هذه الأحوال المختلفة يسميها فطن محتاط أو غي مغرور . فيقول المحتاط : ما أنا من جملة الدارين حتى أسمع نفسي فليس نفسي أطوع من نفس سرى السقطى ومالك بن دينار ، وهؤلاء من المعتنين عن الشهوات فيقتدى بهم . والمغرور يقول : ما نفسي بأعصى على من نفس معروف الكرخى وإبراهيم بن آدم فاقتردى بهم وأرفع التقدير في مأكول ، فأنا أيضا ضيف في دار مولاي فإلى وللاعتراض ؟ ثم إنه لو قصر أحد في حقه وتوقيره أو في ماله وجهه بطريقة واحدة قامت القيامة عليه واشتغل بالاعتراض ، وهذا مجال رحب للشيطان مع الحق ، بل رفع التقدير في الطعام والصبام وأكل الشهوات لا يسلم إلا لمن ينظر من مشكاة الولاية والنبوة ، فيسكون بينه وبين الله علامة في استرساله وانتباهه ، ولا يكون ذلك إلا بعد خروج النفس عن طاعة الهوى والعادة بالكلية ، حتى يكون أكله إذا أكل على نية كما يكون إمساكه بنية ، فيكون عاملا لله في أكله وإفطاره ، فينبغي أن يتعلم الحزم من عمر رضي الله عنه فإنه كان يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب العسل ويأكله <sup>(١)</sup> ثم لم يقس نفسه عليه ، بل لما عرضت عليه شربة باردة بمروجة بسمل جعل يدير الإناء في يده ويقول : أشربها وتذهب حلاوتها وتبقى تبعثها . اعزلوا عنى حسنها ، وتركها .

وهذه الأسرار لا يجوز للشيخ إن يكشف بها مراده بل يقتصر على مدح الجوع فقط ، ولا يدعو إلى الاعتدال فإنه يقصر لا محالة عما يدعو إليه . فينبغي أن يدعو إلى غاية الجوع حتى يتسربل الاعتدال . ولا يذكره أن البارء الكامل يستغنى عن الرياضة ، فإن الشيطان يجد متملقاً من قلبه فيلقي إليه كل ساعة : إنك عارف كامل ، وما الذي فأنك من المعرفة والسكال . بل كان من عادة إبراهيم الخواص أن يخوض مع المريدين كل رياضة كان يأمره بها ، كيلا يخطر بباله أن الشيخ يسلم بما لم يفعل فيغفرو ذلك من رياسته . والقوى إذا اشتغل بالرياضة وإصلاح الغير لومه التزول إلى حد الضعفاء تشبهاً بهم وتطفلاً في سياقتهم إلى السعادة . وهذا إلهاء عظيم للأبناء والأولياء وإذا كان الاعتدال خفياً في حق كل شخص فالحزم والاحتياط ينبغي أن لا يترك في كل حال . ولذلك أدب عمر رضي الله عنه ولده عبدالله إذ دخل عليه فوجده يأكل لحماً مآدوماً بسمن ، فعلاه بالدرة وقال : لأأم لك كل يوم ما خبزنا ولحماً ، ويوماً خبزنا وسمناً ، ويوماً خبزنا وزيتاً ، ويوماً خبزنا وملحاً ، ويوماً خبزنا قفاراً . وهذا هو الاعتدال ، فأما المواظبة على اللحم والشهوات فإفراط وإسراف ، ومهاجرة اللحم بالكلية إقتار . وهذا قول بين ذلك والله تعالى أعلم .

### بيان آفة الرياء المتطرق إلى من ترك أكل الشهوات وقلل الطعام

اعلم أنه يدخل على تارك الشهوات آفتان عظيمتان هما أعظم من أكل الشهوات ؛ إحداهما : أن لا تقدر النفس على ترك بعض الشهوات فتشبهها ، ولكن لا يريد أن يعرف بأنه يشبهها فيخفي الشهوة ويأكل في الخلوة مالا يأكل مع الجماعة . وهذا هو الشرك الخفي ، سئل بعض العلماء عن بعض الزهاد فسكت عنه فقيل له : هل تعلم به بأساً ؟ قال يأكل في الخلوة مالا يأكل مع الجماعة . وهذه آفة عظيمة ، بل حق العبد إذا اجتلب بالشهوات وسعها أن يظهرها فإن هذا صدق الحال ، وهو بدل عن فوات انجاسات الأعمال ، فإن إخفاء النفس وإظهار عنده من السكال هو نقصان متضاعفان ، والكذب مع الإخفاء كذبان ، فيكون مستحقاً للمقتين ولا يرضى منه إلا بتوبتين صادقتين .

(١) حديث : كان يحب العسل ويأكله . متفق عليه من حديث عائشة : كان يحب الخلوة والعسل ... الحديث . وفي قصة شربه العسل عند بعض الناس .

ولذلك شدد أمر المنافقين فقال تعالى ﴿ إِنِّ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّرِّكَ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ لأن الكافر كفر وأظهر وهذا كفر وسر ، فكان ستره لكفره ككفر آخر لأنه استخف بنظر الله سبحانه وتعالى إلى قلبه وعظم نظر المخلوقين فحاشا الكفر عن ظاهره . والعارفون يتلون بالشهوات بل بالمعاصي ولا يتلون بالرياء والنش والإخفاء . بل كمال العارف أن يترك الشهوات لله تعالى ويظهر من نفسه الشهوة إسقاطاً لما تركه من قلوب الخلق . وكان بعضهم يشتري الشهوات ويعلقها في البيت وهو فيها من الزاهدين ، وإنما يقصد به تليس حاله ليصرف عن نفسه قلوب المنافقين حتى لا يشربون عليه حاله .

فنبأ الزهد : الزهد في الرشد بإظهار ضيقه وهذا عمل الصديقين . فإنه جمع بين صديقين كما أن الأول جمع بين كذابين . وهذا قد حمل على النفس فتلين وجزعها كأس الصبر مرتين مرة بشربه ومرة برميها ؛ فلاجرم أولئك يؤتون أجرام مرتين بما صبروا . وهذا يضاهي طريق من يعطى جهرأ فيأخذ ويرد سرا ليكسر نفسه بالذل جهرأ وبالفقر سرا . فمن فاته هذا فلا ينبغي أن يغتره إظهار شهوته وتقصانه والصدق فيه . ولا ينبغي أن يفتره قول الشيطان : إنك إذا أظهرت اقتدى بك غيرك فاستره إصلاحاً لغيرك ، فإنه لو قصد إصلاح غيره لكان إصلاح نفسه أم عليه من غيره ، فهذا إنما يقصد الرياء المجرد ويروجه الشيطان عليه في معرض إصلاح غيره ، فلذلك تقل عليه ظهور ذلك منه واعلم أن من اطلع عليه ليس يقتدى به في الفعل أو لا يبرز باعتقاده أنه تارك للشهوات .

الآفة الثانية : أن يقدر على ترك الشهوات لكنه يفرح أن يعرف به فيشتهر بالتعفف عن الشهوات ، فقد خالف شهوة ضعيفة وهي شهوة الأكل وأطاع شهوة هي شر منها وهي شهوة الجاه ، وذلك هي الشهوة الخفية فهما أحسن بذلك من نفسه فسكر هذه الشهوة أكسد من كسر شهوة الطعام فليأكل فهو أولى له . قال أبو سليمان : إذا قدمت إليك شهوة وقد كنت تاركاً لها فأصعب منها شيئاً يسيراً ولا تخط نفسك منها ، فتكون قد أسقطت عن نفسك الشهوة وتكون قد نصفت عليها إذ لم تعطها شهوتها . وقال محمد بن جعفر الصادق : إذا قدمت إلى شهوة نظرت إلى نفسي فإن هي أظهرت شهوتها أطعمتها منها وكان ذلك أفضل من منعها ، وإن أخفت شهوتها وأظهرت الغروب عنها عاقبتها بالترك ولم أنلها منها شيئاً ، وهذا طريق في عقوبة النفس على هذه الشهوة الخفية .

وبالجملة من ترك شهوة الطعام ووقع في شهوة الرياء كان كمن هرب من عقرب وفرغ إلى حية ؛ لأن شهوة الرياء أضر كثيراً من شهوة الطعام وافة ولي التوفيق .

### القول في شهوة الفرج

اعلم أن شهوة الرقاق سلطت على الإنسان لنفائدين ؛ إحداهما : أن يدرك لذته فيقبس به لذات الآخرة . فإن لذة الرقاق لو دامت لكلمات أقوى لذات الأجساد ، كما أن النار وآلامها أعظم آلام الجسد . والترغيب والترهيب يسوق الناس إلى سعادتهم وليس ذلك إلا بالمعسوس ولذة معسوسة مدركة ، فإن مالا يدرك بالنقل لا يعظم إليه الشوق .

الفائدة الثانية : بقاء النفس ودوام الوجود فهذه فائدتها . ولكن فيها من الآفات ما ملك الدين والدنيا إن لم تضبط ولم تقهر ولم ترد إلى حد الاعتدال . وقد قيل في تأويل قوله تعالى ﴿ وَبِشَا وَلَا تَحْمِلُوا مَالًا طَائِعًا لَهَا ﴾ معناه شدة العلة ، وعن ابن عباس : في قوله تعالى ﴿ وَمَنْ شَرَّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ قال : هو قيام الذكر . وقد أسنده بعض الرواة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أنه قال في تفسيره : الذكر إذا دخل . وقد قيل : إذا

قال ذكر الرجل ذهب ثلثا عقله <sup>(١)</sup> . وكان صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه « اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي وبصري وقلي وهني ومني <sup>(٢)</sup> » وقال عليه السلام « النساء حبال الشيطان ولولا هذه الشهوة لسا كان النساء سلطنة على الرجال <sup>(٣)</sup> » .

روى أن موسى عليه السلام كان جالساً في بعض مجالسه إذا أقبل إليه إبليس وعليه برنس يتلون فيه ألواناً ؛ فلما دنا منه خلع البرنس فوضعه ، ثم أتاه فقال : السلام عليك يا موسى ، فقال له موسى من أنت ؟ فقال : أنا إبليس ، فقال : لحيالك الله ما جاء بك ؟ قال : جئت لأسلم عليك لمؤلتك من الله ومكائلك منه ، قال : فما الذي رأيت عليك ؟ قال : برنس أختطف به قلوب بني آدم قال : فالذي إذا صمعه الإنسان استحوذت عليه قال : إذا أعجبتني نفسه واستكثر عمله ونسي ذنوبه ، وأحذرك ثلاثاً : لاتحل بامرأة لاتحل لك فإنه ما خلا رجل بامرأة لاتحل له إلا كنت صاحبه دون أصحابي حتى أقتنه بها وأقتنها به ، ولا تعاهد الله عهداً إلا وفيت به ، ولا تخرجن صدقة إلا مضيتها فإنه ما أخرج رجل صدقة فلم يعضها إلا كنت صاحبه دون أصحابي حتى أحول بينه وبين الوفاء بها . ثم ولى وهو يقول : علم موسى ما عذر به بن آدم . وعن سعيد بن المسيب قال : ما بعث الله نبياً فيما خلا إلا لم يأس إبليس أن يهلكه بالنساء ولا شيء أخوف عندي منهن ، وما بالمدينة بيت أدخله إلا يتي ويبيت أبان أغسل فيه يوم الجمعة ثم أروح . وقال بعضهم : إن الشيطان يقول للمرأة أنت نصف جندی وأنت سهمى الذى أرمى به فلا خطئى ، وأنت موضع سرى وأنت رسولى فى حاجتى . فنصف جنده الشهوة ونصف جنده الغضب .

وأعظم الشهوات شهوة النساء . وهذه الشهوة أيضاً لها إفراط وتفریط واعتدال ، فالإفراط : ما يقهر العقل حتى يصرف همه الرجال إلى الاستمتاع بالنساء والجوارى ، فيحرم عن سلوك طريق الآخرة أو يقهر الدين حتى يجرى إلى اقتحام الفواحش . وقد ينتهى إفراطها بطائفة إلى أمرين شنيئين :

أحدهما : أن يتناولوا ما يقوى شهواتهم على الاستكثار من الوقاع - كما قد يتناول بعض الناس أودية تقوى المعدة لتنظم شهوة الطعام - وما مثال ذلك إلا كن ابتلى ببيع ضارية وحيات عادية فتنام عنه في بعض الأوقات فيحتال لإثارتها وتهيجها ثم يشتغل بإصلاحها وعلاجها ، فإن شهوة الطعام والوقاع على التحقيق آلام يريد الإنسان التخلص منها فيدرك لذة بسبب التخلص .

ه فإن قلت . فقد روى في غريب الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « شكوت إلى جبرائيل ضعفت الوقاع فأمرني بأكل الحريسة <sup>(١)</sup> » ؟ فأعلم أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان تحتة تسع نسوة ووجب عليه تحصينهن بالامتناع ، وحرى على غيره تكاثرهن وإن طلقهن ، فكان طلبه القوة لهذا لا لتمتع .

والأمر الثانى . أنه قد تنفخ هذه الشهوة ببعض الضلال إلى العشق وهو غاية الجهل بها وضع لما للوقاع ، وهو مجاوزة في البهيمية لحد البهائم لأن المتشقق ليس يقنع بإراقة شهوة الوقاع وهى أفسح الشهوات وأجدرها أن يستحيى منه حتى اعتد أن الشهوة لا تنقض إلا من عمل واحد ، والبهيمية تقضى الشهوة أين اتفق فتكتفى به ؟ وهذا لا يكتفى

(١) حديث ابن عباس موقوفاً مستنداً في قوله تعالى ( ومن شر فاسق إذا وطئ ) قال هو قيام الفكر وقال الذى أسند : الفكر إذا دخل . هذا حديث لأصل له (٢) حديث « اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي وبصري وقلي وهني ومني » تقدم في المعونات (٣) حديث « النساء حبال الشيطان » أخرجه الأصفهاني في الترغيب والترهيب من حديث خالد بن زيد الجهني بإسناد فيه جهالة . (٤) حديث « شكوت إلى جبريل نصف الوقاع فأمرني بأكل الحريسة » أخرجه التقيلى في الضعفاء والطبراني في الأوسط بن حديث حذيفة وقد تقدم وهو موضوع .

إلا بشخص واحد معين حتى يرداد به ذلاً إلى ذل وعبودية إلى عبودية ، وحتى يستمخر العقل لخدمة الشهوة وقد خلق ليكون مطاعاً لايكون عاصداً للشهوة ومحتالاً لاجلها وما العشق إلا سمة إفراط الشهوة وهو مرض قلب فارغ لأمه . وإنما يجب الاحتراز من أوامره بترك معاودة النظر والفكر ، وإلا فإذا استحك عسر دفعه . فكذاك عشق المال والجاه والمقام والأولاد حتى حب اللعب بالطيور والبرد والشرطنج ، فإذن هذه الأمور قد تستولى على طائفة بحيث تنقص عليهم الدين والنعيا ولا يصبرون عنها البتة .

ومثال من يكثر سورة العشق في أول انبعاثه مثال من يصرف عنان الدابة عند توجيهها إلى باب لتدخله ، وما أهون منعها بصرف عانها . ومثال من يبالغها بعد استحكامها مثال من يترك الدابة حتى تدخل وتجاوز الباب ثم يأخذ بذنها ويجرها إلى ورثها . وما أعظم التفاوت بين الأمرين في اليسر والعسر ، فليكن الاحتياط في بدايات الأمور فأما في أواخرها فلا تقبل العلاج إلا بمجهود جهيد يكاد يؤدي إلى نزاع الروح .

فإذن إفراط الشهوة أن يغلب العقل إلى هذا الحد وهو مدموم جدا . وتفرطها : بالثب أو بالضعف عن إمتاع المتكocha ، وهو أيضا مدموم . وإنما المحمود أن تكون معتدلة ومطبعة العقل والشرع في انقباضها وانبساطها . ومهما أفرطت فكسرها بالجوع والتكساح قال صلى الله عليه وسلم : « معاشرة الشباب عليكم بالباهة فمن لم يستطع فعليه بالصوم فالصوم له وجاء »<sup>(١)</sup> .

### بيان ما على المريد في ترك التزويج وفعله

اعلم أن المريد في ابتداء أمره ينبغي أن لا يشغل نفسه بالتزويج فإن ذلك شغل شاغل يمنعه من السلوك ويستجزم إلى الانس بالزوجة . ومن أنس بغير الله تعالى شغل عن الله ولا يفترقه كثرة تكساح رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه كان لا يشغل قلبه جميع ما في الدنيا عن الله تعالى<sup>(٢)</sup> فلا تقاس للملكة بالحدادين . ولذلك قال أبو سليمان الداراني : من تزوج فقد ركن إلى الدنيا ؟ وقال : ما رأيت مريدا تزوج فثبت على حاله الأول : وقيل له مرة : ما أحوالك إلى امرأة تأنس بها ؟ فقال : لا أنسى الله بها ، أي أن الأنس بها يمنع الأنس بالله تعالى ، وقال أيضا : كل ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشغوم . فكيف يقاس غير رسول الله صلى الله عليه وسلم به ؟ وقد كان استغرافه بحب الله تعالى بحيث كان يحدا استغرافه فيه إلى حد كان ينشئ منه في بعض الأحوال أن يسرى ذلك إلى قلبه فيهدمه . ولذلك كان يضرب يده على خذ عائشة أحيانا ويقول : « كليني باعائشة » لتشغله بكلامها عن عظيم ما هو فيه لتصور طاعة قلبه عنه<sup>(٣)</sup> فقد كان طبعه الأنس بالله عز وجل ، وكان أنسه بالخلق عارضا رفقا بدينه ، ثم إنه كان لا يطيق الصبر مع الخلق إذا جالسهم فإذا ضاقت صدره قال : « أرحنا بها يا بلال »<sup>(٤)</sup> ، حتى يعود إلى ما هو قرة عينه<sup>(٥)</sup> فالضعيف إذا لاحظ أحواله في مثل هذه الأمور فهو مغرور لأن الإقحام تقصر عن الوقوف على أسرار أفعاله صلى الله عليه وسلم . فشرط المريد العزبة في الابتداء إلى أن يقوى في المعرفة ، هذا إذا لم تغلب الشهوة فإن غلبت الشهوة فليكسرها بالجوع الطويل والصوم الدائم ، فإن لم تقمعه الشهوة بذلك وكان بحيث لا يقدر على حفظ العين مثلا وإن قدر على حفظ الفرج فالتكساح له أولى لتسكن الشهوة ، وإلا فهما لم يحفظت عينه لم يحفظ عليه فكره

(١) حديث « معاشرة الشباب من استملاع منكم التكساح لليتزوج ... الحديث » هدم في التكساح (٢) حديث : كان لا يشغل قلبه عن الله تعالى جميع ما في الدنيا . هدم (٣) حديث : كان يضرب يده على خذ عائشة ويقول « كليني باعائشة » لم أجده أصلا (٤) حديث « أرحنا بها يا بلال » هدم في الصلاة (٥) حديث : إن الصلاة كانت قرة عينه . هدم أيضا

ويتفرق عليه هم ، وربما وقع في بلية لا يطيعها . وزنا العين من كبار الصنائر وهو يؤدي إلى القرب على الكبيرة الفاحشة وهي زنا الفرج . ومن لم يقدر على غض بصره لم يقدر على حفظ فرجه . قال عيسى عليه السلام : إنا كم والظفرة فلينا بزوع في القلب شهوة وكفى بها فتنة . وقال سعيد بن جبير : إنما جاءت الفتنة لداود عليه السلام من قبل الظفرة . ولذلك قال لانه عليه السلام : يابني امش خلف الأسد والأسود ولا تمس خلف المرأة وقيل ليحي عليه السلام : ما به الزنا ؟ قال : لاظر والنهي . وقال الفضيل : يقول إبليس هو قوس القديمة وسهمي الذي لا أخطئ به يعني النظر . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم النظر سهم مسموم من سهام إبليس فمن تركها خوفاً من الله تعالى أعطاه الله تعالى إيماناً يجد حلاوته في قلبه <sup>(١)</sup> . وقال صلى الله عليه وسلم : ما تركت بعدى فتنة أضرم على الرجال من النساء <sup>(٢)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم : اتقوا فتنة الدنيا وفتنة النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت من قبل النساء <sup>(٣)</sup> ، وقال تعالى ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ﴾ الآية وقال عليه السلام : لكل ابن آدم حظ من الزنا فالعينان تريان وزناهما النظر ، والبدان تريان وزناهما البطش ، والرجلان تريان وزناهما المشي ، والفم يري زناه والقلب ، والقلب يرمي أو يمتن ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه <sup>(٤)</sup> ، وقالت أم سلمة : استأذن ابن أم مكتوم الأعمى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا وميمونة جالستان ، فقال عليه السلام : احتجبا ، فقلنا : أوليس بأعمى لا يبصر ؟ فقال : وأنتا لا تبصرانه ؟ <sup>(٥)</sup> ، وهذا يدل على أنه لا يجوز للنساء جالسة العيان كما جرت به العادة في المآثم والولائم ، فيحرم على الأعمى الخلطة بالنساء ، ويحرم على المرأة جالسة الأعمى وتحديق النظر إليه لغرض حاجة ، ولأنما يجوز للنساء محادثة الرجال والنظر إليهم لأجل عوم الحاجة ، وإن قدر على حفظ عينه عن النساء ولم يقدر على حفظها عن الصبيان فالتسكح أول به ، فإن الشرفي الصبيان أكثر ، فإنه لو مال قلبه إلى امرأة أمكنه الوصول إلى استباحتها بالتسكح . والنظر إلى وجه الصبي بالشهوة حرام ، بل كل من يتأثر قلبه بهمال صورة الأرمدة بحيث يدرك التفرقة بينه وبين الملتحي لم يعمل له النظر إليه .

فإن قلت : كل ذي حس يدرك التفرقة بين الجليل والخبيل والتسبيح لعمارة ولم تزل وجوه الصبيان مكشوفة ؟ فأقول : لست أحنى تفرقة العين فقط ، بل ينبغي أن يكون إدراك التفرقة كإدراك التفرقة بين شجرة خضراء وأخرى بايسة ، وبين ماء صاف وماء كدر ، وبين شجرة عليها أزهارها وأنوارها وشجرة تساقطت أوراقها ، فإنه يميل إلى إحداها بعبته وطبعه ولكن ميلا خاليا عن الشهوة ، ولأجل ذلك لا يشتهي ملابس الأزهار والأنوار وتقبيلها ، ولا تقبيل الماء الصافي ، وكذلك الشبهة الحسنة قد تميل العين إليها وتدرك التفرقة بينها وبين الوجه التسبيح ولكنها تفرقة لاشهوة فيها . ويعرف ذلك بميل النفس إلى القرب والملازمة . فهما وجد ذلك الميل في قلبه وأدرك تفرقة بين الوجه الجليل وبين الثبات الحسن والأثواب المنقشة والسقوف المذهبة فظفره نظر شهوة فهو حرام ، وهذا مما يشتهون به الناس ويجزم ذلك إلى المعاطب وهم لا يفسرون .

قال بعض التابعين ما أنا بأخوف من السبع الضاري على الشاب الناسك من غلام أمرد يجلس إليه . وقال

(١) حديث « النظر سهم مسموم من سهام إبليس . الحديث » نعم أيضاً (٢) حديث « ما تركت بعدى فتنة أضرم على الرجال من النساء » متفق عليه من حديث أسامة بن زيد (٣) حديث « اتقوا فتنة الدنيا وفتنة النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء » أخرجه مسلم من حديث أبي سعيد الخدري

(٤) حديث « لكل ابن آدم حظ من الزنا فالعينان تريان... الحديث » أخرجه مسلم والبيهقي واللفظ له من حديث أبي هريرة وافق عليه الشيطان من حديث ابن عباس نحوه (٥) حديث أم سلمة : استأذن ابن أم مكتوم الأعمى وأنا وميمونة جالستان فقال « احتجبا » الحديث أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي وقال حسن صحيح .

سفيان : لو أنّ رجلا عث بفلام بين أصبعين من أصابع وجهه يريد الشهوة لكان لواطاً . وعن بعض السلف قال : سيكون فى هذه الأمة ثلاثة أصناف لوطيون : صنف ينظرون ، وصنف يصالحون ، وصنف يعملون .

فإذن آفة النظر إلى الأحداث عظيمة . فهما عجز المرید عن غض بصره وضبط فكره فالصواب له أن يكرس شهرته بالنكاح : قرب نفس لايسكن توقاتها بالجوع .

وقال بعضهم : غلبت على شهوتى فى بدء إرادتى بما لم أطق فأكرت الضجيج إلى الله تعالى فرأيت شخصاً فى المنام فقال : مالك ؟ فشكوت إليه فقال : تقسم لى ، فقدمت إليه فوضع يده على صدرى فوجدت بردها فى فؤادى وجميع جسدى ، فأصبحت وقد زال ما بينى وبين معافى سنة ، ثم عاودنى ذلك فأكرت الاستغانة فأثابت شخص فى المنام فقال لى : أعجب أن يذهب ما بينه وأضرب عنقه ؟ قلت : نعم ، فقال : مذكرته ، فهدأته فوجدت سيفا من نور فغضب به عنقه فأصبحت وقد زال ما بينى وبين معافى سنة ، ثم عاودنى ذلك أو أشد منه فرأيت كأن شخصاً فى بين جنبى وصدرى يخاطبني ويقول : ويحك كم تسأل الله تعالى رفع المالىجب رفعه ؟ قال : فتزجرت فاقطع ذلك عني وولده لى .

ومهما احتاج المرید إلى النكاح فلا ينبغي أن يترك شرط الإرادة فى ابتداء النكاح ودوامه ، أما فى ابتدائه فبالنية الحسنة ، وفى دوامه بحسن الخلق وسداد السيرة والقيام بالحقائق الواجبة - كما فصلنا جميع ذلك فى كتاب آداب النكاح فلا نقول بإعادته - وعلامة صدق إرادته أن ينكح فقيرة متدينة ولا يطلب الثنية . قال بعضهم : من تزوج غنية كان له منها خمس خصال : مغالة الصداق ، وتسويق الزفاف ، وفوت الحنمة ، وكثرة النفقة . وإذا أراد طلاقها لم يقدر خوفاً على ذهاب مالها . والفقرية بخلاف ذلك . وقال بعضهم : ينبغي أن تكون المرأة دون الرجل بأربع وإلا استحققرته : بالسّن ، والعلو ، واللحال ، والحسب ، وأن تكون فوقه بأربع : بالجمال ، والأدب ، والورع والخلق وعلامة صدق الإرادة فى دوام النكاح الخلق .

تزوج بعض المریدین بأمرأة فلم يزل يخدمها حتى استحييت المرأة وشكت ذلك إلى أبيها وقالت : قد تحيرت فى هذا الرجل أنا فى منزله منذ سنتين ما ذهبت إلى الخلاه قط إلا وحمل النساء قبلى إليه ؟ وتزوج بعضهم امرأة ذات جمال فلما قرب زفافها أصابها الجدري فاشتد حزن أهلها لذلك خوفاً من أن يستقبها ، فأمرهم الرجل أنه قد أصابه رمد ، ثم أراهم أن يبصره قد ذهب حتى زفت إليه فرأى عنهم الحزن ، فبقيت عنده عشرين سنة ثم توفيت ففتح عينيه حين ذلك ، فقيل له فى ذلك فقال نعمدته لأجل أهلها حتى لايجزئوا ، فقيل له : قد سبقت إخوانك هذا الخلق . وتزوج بعض الصوفية امرأة سيرة الخلق فكان يصبر عليها فقبل له : لم لا تطلقها ؟ فقال : أخشى أن يتزوجها من لا يصبر عليها فيأخذها ، فإن تزوج المرید فهكذا ينبغي أن يكون ، وإن قدر على الترك فهو أولى له ، إذا لم يمكنه الجمع بين فضل النكاح وسلوك الطريق وعلم أن ذلك يشغله عن حاله ، كما روى أن محمد بن سليمان الهاشمي كان يملك من غلة الدنيا ثمانين ألف درهم فى كل يوم ، فكتب إلى أهل البصرة وعلماؤها فى امرأة يتزوجها فأجهروا كلهم على رابعة العدوية رحما لله تعالى . فكتب إليها : بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد ، فإن الله تعالى قد ملكنى من غلة الدنيا ثمانين ألف درهم فى كل يوم ، وليس تمنى الأيام والليالي حتى أتىها مائة ألف وأنا أصير لك مثلها ومثلها فأجيبنى . فكتبت إليه : بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد ، فإن الزهد فى الدنيا راحة القلب والبدن والرغبة فيها تورث الهم والحزن ، فإذا أتاك كتابى هذا فهى زادك وقدم لمادك وكن وصى نفسك ولا تجعل الرجال أوصيائك فيقتسموا

ترائك ؛ فسم الدهر وليكن فطرك الموت . وأما أنا فلو أن الله تعالى خولني أمثال الذي خولك وأضعافه ما سرفني أن أشتغل عن الله طرفة عين .

وهذه إشارة إلى أن كل ما يشغل عن الله تعالى فهو نقصان ، فلينظر المرید إلى حاله وقلبه فإن وجده في العزوبة فهو الأقرب ، وإن عجز عن ذلك فالتسكح أولى به . ودواء هذه العلة ثلاثة أمور : الجوع ، وغض البصر ، والاشتغال بيشغل يستولى على القلب ، فإن لم تنفع هذه الثلاثة فالتسكح هو الذي يستأصل مادتها فقط . ولهذا كان السلف يبادرون إلى التسكح وإلى تزويج البنات ، قال سعيد بن المسيب : ما أبس إبليس من أحد إلا وأتاه من قبل النساء ، وقال سعيد أيضاً - وهو ابن أربع وعشرين سنة ، وقد ذهبت إحدى عينيه وهو يعيش بالآخرى - سمعته أخوف عندي من النساء ، وعن عبد الله بن أبي وداعة قال : كنت أجالس سعيد بن المسيب فتفتقدني أياماً فلما أتيتته قال أين كنت ؟ قلت : توفيت أهلي فاشتغلت بها ، فقال : هلا أخبرتنا فشهدناها ؟ قال : ثم أردت أن أقوم فقال : هل استحدثت امرأة ؟ قلت : يرحمك الله تعالى ومن يزوجني وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة ؟ فقال : أنا ، فقلت : وتفعّل ؟ قال : نعم ، لحمد الله تعالى وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم وزوجني على درهمين . أو قال ثلاثة . قال : فتمت وما أدري ما أصنع من الفرج ؟ فصررت إلى منزلي وجمعت أفكر من أخذ ومن أستدين فضليت المغرب والصرف إلى منزلي فأسرجت ، وكنت صائماً فقدمت عشائي لأظفر . وكان خبزاً وزيتاً . وإذا بابي يقرع فقلت : من هذا ؟ قال : سعيد ، قال : فأفكرت في كل إنسان سمعته سعيد إلا سعيد بن المسيب . وذلك أنه لم ير أربعين سنة إلا بين داره والمسجد . قال : فخرجت إليه فإذا به سعيد بن المسيب فظننت أنه قد بدله ، فقلت : يا أبا محمد لو أرسلت إلى لائيتك ؟ فقال : لا ، أنت أحق أن تؤثني ، قلت : فما تأمر ؟ قال : إنك كنت رجلاً عرباً فتزوجت ففكرت أن أيتك البلية وحدي ، وهذه امرأتك ، وإذا هي قائمة خلفه في طوله ثم أخذ يدها فدفعها في الباب وردة فسقطت المرأة من الحياء ، فاستوثقت من الباب ثم تقدمت إلى القصة التي فيها الخبز والزيت فوضعتها في ظل السراج لكيلا تراه ، ثم صعدت السطح فرميت الجيران بالخبز وقالوا : ما شأنك ؟ قلت : ويحكم زوجني سعيد بن المسيب أبنته اليوم وقد جاء بها البلية على غفلة فقالوا : أو سعيد زوجك ؟ قلت : نعم ، قالوا وهي في الدار ؟ قلت : نعم ، فزفوا إليها وبلغ ذلك أبا جهم وقالت : وجهي من وجهك حرام إن مسستها قبل أن أصلحها إلى ثلاثة أيام ، قال : فأقمت ثلاثاً ثم دخلت بها ، فإذا هي من أجل النساء وأحفظ الناس لكتاب الله تعالى وأعلمهم . بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعرفهم بحق الزوج ؟ قال : فكنت شراً لا يأبيني سعيد ولا آتيه ، فلما كان بعد الشهر أتيتته وهو في حلقته فسلت عليه فرد على السلام ولم يكلمني حتى تفرق الناس من المجلس ، فقال : ما حال ذلك الإنسان ؟ فقلت : بجني يا أبا محمد على ما يحب الصديق ويكره العدو ، قال : إن رأيتك منه أمر فدوئك والعصا فأنصرفت إلى منزلي فوجه لي بمشرين ألف درهم . قال عبد الله بن سليمان : وكانت بنت سعيد بن المسيب هذه قد خطبها منه عبد الملك بن مروان لابنته الوليد حين ولاء العهد فأبى سعيد أن يزوجه ، فلم يزل عبد الملك يحتال على سعيد حتى ضربه مائة سوط في يوم بارد وصب عليه جرة ماء وألبسه جبة صوف . فاستعجال سعيد في الزفاف تلك البلية يعرفك غائلة الشهوة وجور البادرة في الدين إلى تطفئة نارها بالتسكح وضى الله تعالى عنه وجهه .

### بيان فضيلة من يخالف شهوة الفرج والعين

اعلم أن هذه الشهوة هي أغلب الشهوات على الإنسان وأعصاها عند الهيجان على العقل ، إلا أن مقتضاها قبيح



يستحيا منه ويخشى من اقتحامه ، وامتاع أكثر الناس عن مقتضاهما إما لعجز أو لحشوف أو لحياء أو لحفاظة على جسمه ، وليس في شيء من ذلك ثواب فإنه لإثار حظ من حظوظ النفس على حظ آخر . نعم من العصاة أن لا يتدر في هذه العوائق فأثمة وهي دفع الإيم ، فإن من ترك الزنا اندفع عنه (بمبدأ سبب كان تركه ؟ وإنما الفضل والثواب الجزيل في تركه خوفاً من الله تعالى مع القدرة وارتفاع الموانع وتيسر الأسباب ، لاسيما عند صدق الشهوة وهذه درجة الصديقين . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « من عشق ففككم ففكتم ففكتم فهو شهيد »<sup>(١)</sup> ، وقال عليه السلام « سبعة يظلمهم الله يوم القيامة في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله - وعد منهم : رجل دعت امرأة ذات جمال وحسب إلى نفسها فقال إني أخاف الله رب العالمين »<sup>(٢)</sup> ، وقصة يوسف عليه السلام وامتناعه من زليخا مع القدرة ومع غبتها معروفة ، وقد أثنى الله تعالى عليه بذلك في كتابه العزيز ، وهو إمام لكل من وفق لمجاددة الشيطان في هذه الشهوة العظيمة .

وروى أن سليمان بن يسار كان من أحسن الناس وجهاً فدخلت عليه امرأة فسألته نفسه فأنتع عليها وخرجها راباً من منزله وتركها فيه . قال سليمان : فرأيت تلك الليقة في المنام يوسف عليه السلام وكان يقول له أنت يوسف ؟ قال : نعم أنا يوسف الذي صمتت وأنت سليمان الذي لم تهم أشار إلى قوله تعالى ( ولقد صمت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ) وعنه أيضاً ما هو أعجب من هذا . وذلك أنه خرج من المدينة حاجاً ومنه رفيق له حتى زل بالأبواء فقام رفيقه وأخذ السفرة وانطلق إلى السوق ليبتاع شيئاً ، وجلس سليمان في الحيمة وكان من أجل الناس وجهاً وأورعهم ، فبصرت به أعرابية من قلة الجبل والتحدثت إليه حتى وقفت بين يديه - وعليها البرقع والقفازان - فأسفرت عن وجه لها كأنه فلة قر وقالت أهنتي ؟ فظن أنها تريد طعاماً فقام إلى فضلة السفرة ليعطها فقالت : لست أريد هذا إنما أريد مايكوك من الرجل إلى أهله ؟ فقال : جهرك إلى إبليس ؟ ثم وضع رأسه بين ركبتيه وأخذ في التحبب فلم يزل يبيكي فلما رأت منه ذلك سدل البرقع على وجهها وانصرفت راجعة حتى بلغت أهلها . وجاء رفيقه فراه وقد انتفضت عيناه من البكاء وانقطع حلقه فقال ما يبكيك ؟ قال : خير ذكرت صيتي . قال : لا والله إلا أن لك قصة إنما عهدك بصيتك منذ ثلاث أو نحوها ، فلم يزل به حتى أخبره خبر الأعرابية ، فوضع رفيقه السفرة وجعل يبيكي بكاء شديداً فقال سليمان : وأنت ما يبكيك ؟ قال : أنا أحتج بالبكاء منك لأنني أخشى أن لو كنت مكانك لما صبرت عنها ، فلم يزالا يبيكان ، فلما انتهى سليمان إلى مكة فسمي وطاف ثم أتى الحجر ، فاحتج بثوبه فأخذته عينه فقام وإذا رجل وسيم طوال له شسارة حسنة ورائحة طيبة فقال له سليمان : رحلك الله من أنت ؟ قال له : أنا يوسف ، قال : يوسف الصديق ؟ قال : نعم ، قال : إن في شأنك وشأن امرأة العزيز لمعجاً فقال له يوسف : شأنك وشأن صاحبة الأبواء أعجب .

وروى عن عبد الله بن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « انطلق ثلاثة نفر مما كان قبلكم حتى آراهم للميت إلى غار فدخلوا فانصدت صخرة من الجبل فسدت عليهم النار ، فقالوا إله لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم فقال رجل منهم : اللهم إنك تعلم أنه كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لا أشق قبلهما أهلاً ولا مالاً ، فأنى بي طلب الشجر يوماً فلم أرح عليهما حتى تأما حلبت لهما غوبرهما

(١) حديث « من عشق ففككم ففكتم ففكتم فهو شهيد » أخرجه الحاكم في التاريخ من حديث ابن عباس وقال أنكره علي بن سويد بن سعيد ، ثم قال : يقال إن يحيى لما ذكر له هذا الحديث قال لو كان لي فرس ودرع غزوت سوداً ورواه الخرائطي من غير طريق سويد بن سعيد في النظر (٢) حديث « سبعة يظلمهم الله في ظله ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد قدم (١٤) - لحياء علوم الدين - ٣

فوجدتهما نائمين فكرهت أن أغيق قبلهما أهلاً ومالاً ، فلبثت والقدرح في يدى أنتظر استيقاظهما حتى طلع الفجر والصبية بتضاغون حول قدمى فاستيقظا فشربا غبوقهما ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة ، فانفجرت شيئاً لا يستطيعون الخروج منه . وقال الآخر : اللهم إنك تعلم أنه كان لى ابنة عم من أحب الناس إلى فراودتها عن نفسها فامتنعت منى ، حتى ألبت بها سنة من السنين ، لحجاءت فأعطيتها مائة وعشرين ديناراً على أن تحلى بينى وبين نفسها ففعلت ، حتى إذا قدرت عليها قالت : اتق الله ولا تفض الحرام إلا بحقه ، فتخرجت من الوقوع عليها فانصرفت عنها وهى من أحب الناس إلى وتركك الذهب الذى أعطيتها ، اللهم إن كنت فعلته ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه ، فانفجرت الصخرة عنهم غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها . وقال الثالث : اللهم إني استأجرت أجراً وأعطيتهم أجورهم غير رجل واحد فإنه ترك الأجر الذى له وذهب فتميت له أجره حتى كثرت منه الأموال ، فجاءني بعد حين فقال : يا عبد الله أعطني أجرى ، فقلت كل ما ترى من أجرى من الإبل والبقر والغنم والرقيق ؛ فقال يا عبد الله أتأمرني ؟ فقلت : لا أستهي بك غنمه ، فاستاقه وأخذته كله ولم يترك منه شيئاً ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه فانفجرت الصخرة فخرجوا يمشون <sup>(١)</sup> .

فهذا فضل من تمكن من قضاء هذه الشهوة فف و قريب منه من تمكن من قضاء شهوة العين ، فإن العين مبدأ الزنا حفظها مهم ، وهو عمر من حيث إنه قد يستهان به ولا يعظم الحروف منه والآفات كلها منه تنشأ . والنظرة الأولى إذا لم تقصد لا يؤاخذ بها والمادة يؤاخذ بها قال صلى الله عليه وسلم « لك الأول وعليك الثانية » <sup>(٢)</sup> ، أى النظرة . وقال الملاء بن زياد . لا تنبص بصرى رداء المرأة فإن النظر يورع في القلب شهوة ، وقلبا يخلو الإنسان في رداؤه عن وقوع البصر على النساء والصبيان . فهما تخاليل إليه الحسن تقاضى الطبع للمادة وعنده يلبني أن يقرر في نفسه أن هذه المادة عين الجهل ، فإنه إن حقق النظر فاستحسن ثارت الشهوة وهجر عن الوصول فلا يحصل له إلا التحسر ، وإن استعجب لم يلتذ وتالم لأنه قصد الالتذاذ فقد فعل ما آله ، فلا يخلو في كلتا حالتين عن مصيبة وعن تالم وعن تحسر . ومهما حفظ العين بهذا الطريق انفع عن قلبه كثير من الآفات ، فإن أخطأت عينه وحفظ الفرج مع التمكن فذلك يستدعى غاية القوة ونهاية التوفيق . فقد روى عن أبي بكر بن عبد الله المزني : أن قصاباً ألع بجارة لبعض جيرانه فأرسلها أهلها في حاجة لهم إلى قرية أخرى فتبعها وراودها عن نفسها فقالت له : لا تفعل لأننا أشد حبا لك منك لى ولكى أخاف الله ، قال : فأنت تخافينه وأنا لا أخافه ا فرجع ثامياً فأصابه العطش حتى كاد يهلك فلماذا برسول لبعض أنبياء بنى إسرائيل فسأله فقال : مالك ؟ قال : العطش ، قال : تعال حتى ندعو الله بأن تظننا بحسابة حتى تدخل القرية ، قال : مالى من عمل صالح فأدعوا ، فادع أنت ، قال : أنا أدعو وأمن أنت على دعائى فدعا الرسول وأمن هو فأظلمتا بحسابة حتى اتبعا إلى القرية ، فأخذ القصاب إلى مكانه فالت السحابة معه فقال له الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم : زعمت أن ليس لك عمل صالح وأنا الذى دعوت وأنت الذى أمنت فأظلمتا بحسابة ثم تبعتهما لنخبرن بأمرى ، فأخبره فقال الرسول : إن التائب عند الله تعالى يمكن ليس أحد من الناس بمكانه . وعن أحد بن سعيد العابد عن أبيه قال : كان عنده بالكوفة شاب متعب لازم للمسجد الجامع لا يكاد ينفارقه ، وكان حسن الوجه حسن التامة حسن السمى ، فظفرت إليه امرأة ذات جمال وعقل فشفقت به وطال عليها ذلك ، فلما كان ذات يوم وقفت له على الطريق وهو يريد المسجد فقالت له : يا فتى اسمع منى كلمات أكلك كما هم أعمل ما شئت ،

(١) حديث ابن عمر ؓ اصله ثلاثة نفر من كان فيكم حتى أقوام الميت الى دار ... فذكر الحديث بطوله روى البخارى

(٢) حديثه الأول ولست لك الثانية أى النظرة أخرجه أبو داود والترمذى من حديث بريدة ؓ له لى قال الترمذى حديث غريب

ففضى ولم يكلمها ، ثم وقفت له بعد ذلك على طريقته وهو يريد منزله فقالت له : يا فتى اسمع منى كلمات أكلك بها ، فأطرق مليا وقال لها : هذا موقف تهمة وأنا أكره أن أكون للتهمة موصما ، فقالت له : والله ماوقفت موقفى هذا جهالة منى بأمرى ولكن معاذ الله أن يتدوَّف العباد إلى مثل هذا منى ، والأذى حلقى على أن لتبتكفى مثل هذا الأمر بنفسى لمعرفة أن القليل من هذا عند الناس كثير ، وأتممت معاشى العباد على مثال القوادير أدنى شيء يعينها ، وجهلة ما أقول لك إن جوارحى كلها مشغولة بك فإله الله فى أمرى وأمرى ، قال : فضى الشاب إلى منزله وأراد أن يصل فلم يعقل كيف يصل ! فأخذ قرطاسا وكتب كتابا ثم خرج من منزله وإذا بالمرأة واقفة فى موضعها فألقى الكتاب إليها ورجع إلى منزله ، وكان فيه : بسم الله الرحمن الرحيم أعلى أيتها المرأة أن الله عز وجل إذ أعصاه العبد حلم فإذا عاد إلى المعصية مرة أخرى ستره ، فإذا لبس لها ملابسها غضب الله تعالى لنفسه غضبة تضيق بها السموات والأرض والجبال والشجر والدواب فمن ذا يطيق غضبه ، فإن كان ما ذكرت باطلا فإني أذكرك يوما تكون السجانيه كالمهل وتصير الجبال كالهمم وتجتأ الأمم لصولة الجبار العظيم ، وإني والله قد ضعفت عن إصلاح نفسى فكيف بإصلاح غيرى ؟ وإن كان ما ذكرت حقا فإني أدلك على طيب هدى يداوى الكلام للمرضة والأوجاع المرهنة ذلك الله رب العالمين فأقصده بصديق المسألة فإني مشغول عنك بقوله تعالى ﴿ وأنزلهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين مالا لظالمين من حيم ولا شفيع يطاع . يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾ فأين المهرب من هذه الآية ؟ ثم جاءت بعد ذلك بأيام فرفقت له على الطريق فلما رأها من بعيد أراد الرجوع إلى منزله كبسلا يراها فقالت : يا فتى لا ترجع فلا كان الملتقى بعد هذا اليوم أبدا إلا غدا بين يذى الله تعالى ، ثم بكى بكاء شديدا وقالت : أسأل لك الله الذى يده مغايير قلبك أن يسهل ما قد عسر من أمرى ، ثم إنها تبعت وقالت : امنن على عروضة أحملها عنك وأوصنى برصية أعمل عليها ، فقال لها : أوصيك بحفظ نفسك من نفسك وأذكرك قوله تعالى ﴿ وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ﴾ قال : فأطرقت وبكى بكاء شديدا أشد من بكائها الأول ، ثم إنها أفاقت ولزمت بيتها وأخذت فى العبادة فلم تزل على ذلك حتى ماتت كذا ، فكان الفتى يذكرها بعد موتها ثم يبكى ، فيقال له : مم بكائك وأنت قد أباستها من نفسك ؟ فيقول : إني قد ذبحت طمعها فى أول أمرها وجعلت قطيعتها ذخيرة لى عند الله تعالى فأنا أستحي منه أن أسترده ذخيرة ادخرتها عنده تعالى .

ثم كتاب كسر الشبهتين بمحمد الله تعالى وكرمه . يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب آفات اللسان ، والحمد لله أولا وآخرا وظاهرا وباطنا وصلاته على سيدنا محمد خير خلقه وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء وسلم تسليما كثيرا .

## كتاب آفات اللسان

وهو الكتاب الرابع من ربح المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أحسن خلق الإنسان وعدله ، وألهمه نور الإيمان فوزيه به وجهه ، وعلمه البيان فقدمه به وفضله ، وأفاض على قلبه خزان العلوم فأكله ، ثم أرسل عليه سترًا من رحمته وأسبله ، ثم أمده بلسان يترجم به عما حواه القلب وعقله ، ويكشف عنه ستره الذى أرسله ، وأطلق بالحق مقوله ، وأنصح بالشكر عما أولاه ورحمه ،

من علم حيله ونطق سبله ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله الذي أكرمته  
ووجهه ، ونبيه الذي أرسله بكتاب أنزله ، وأسمى فضله وبين سبله ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن قبله  
ما كبر الله عبد وهله.

أما بعد : فإن اللسان من نعم الله العظيمة ولطائف صنعه الثمينة ، فإنه صغير جرمه ، عظيم طاعته وجرمه ،  
إذا لا يستبين الكفر والإيمان إلا بشهادة اللسان وهما غاية الطاعة والعصيان ، ثم إنه مامن موجود أو معدوم خالق  
أو مخلوق متخيل أو معلوم مظنون أو موهوم إلا واللسان يتناوله ويتعرض له بإثبات أو نفي ، فإن كل ما يتناوله العلم  
يعرب عنه اللسان إما بحق أو باطل ولا شيء إلا والعلم متناول له . وهذه خاصية لا توجد في سائر الأجزاء ، فإن  
العين لا تصل إلى غير الألوان والصور ، والأذان لا تصل إلى غير الأصوات ، واليد لا تصل إلى غير الأجسام ،  
وكذا سائر الأجزاء . واللسان رجب اللبدان ليس له مرد ولا لجملة منتهى وحد ، له في الخير مجال رحب وله في  
الشر ذيل محب ، فن أطلق عبدة اللسان وأمله مرعى الشيطان في كل ميدان وساقه إلى شفا جرف هار  
إلى أن يضطره إلى البرار ، ولا يبك الناس في آثار على مناخرهم إلا حصائد السننم ولا ينجو من شر اللسان إلا من  
قيده بلجام الشرع ، فلا يطلعه إلا فيما ينفعه في الدنيا والآخرة ويكفه عن كل ما يخشى غائلته في عاجله وآجله وعلم  
ما يحمد فيه إطلاق اللسان أو يذم غامض عزيز والعمل بمقتضاه على من عرفه تقيل عسير ، وأعصى الأجزاء على الإنسان  
اللسان فإنه لا يمتنع في إطلاقه ولا مؤنة في تحريكه وقد تساهل الخلق في الاحتراز عن آفاته وغرأ الله والحد من مصادره  
وجأله ، وإنه أعظم آفة الشيطان في استغواء الإنسان . ونحن بتوفيق الله وحسن تدبيره نفصل بجميع آفات اللسان  
ونذكرها واحدة واحدة بحدودها وأسبابها وغرأها ، ونعرف طريق الاحتراز عنها ، ونورد ما ورد من الأخبار  
والآثار في ذمها . فنذكر أولاً فضل الصمت وزدده بذكر آفة الكلام فيما لا ينعى ، ثم آفة فضول الكلام ، ثم آفة  
الغوص في الباطل ، ثم آفة المراء والجدال ؛ ثم آفة الخصومة ، ثم آفة التفرع في الكلام بالتشديق وتكلف السجع  
والنصائح والتضع فيه وغير ذلك ، ما جرت به عادة المتفاسحين المذعن للخطابة ، ثم آفة الفحش والسب وبذاءة اللسان ،  
ثم آفة المنع إما لحيوان أو جماد أو لإنسان ، ثم آفة الغناء بالشعر . وقد ذكرنا في كتاب المصالح ما يحرم من الغناء  
وما يحل فلا نعيد . ثم آفة المزاح ، ثم آفة السخريه والاستهزاء ، ثم آفة إفساء السر ، ثم آفة الوعد الكاذب ، ثم  
آفة الكذب في القول والعين ، ثم بيان التعارض في الكذب ، ثم آفة الغيبة ، ثم آفة النجاسة ، ثم آفة ذى اللسانين  
التي يتردد بين المتعادين فيكلم كل واحد بكلام يوافقه ، ثم آفة المنع ، ثم آفة الغفلة عن دقائق الخطأ في محو  
الكلام لاسيما فيما يتعلق بالله وصفاته ويرتبط بأصول الدين ، ثم آفة سؤال العوام عن صفات الله عز وجل وعن الحروف  
أسمى قديمه أو محدثه ؟ وهي آخر الآفات وما يتعلق بذلك وجمعتها عشرون آفة ونسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه .

### بيان عظيم خطر اللسان وفضيلة الصمت

اعلم أن خطر اللسان عظيم ولا نجاة من خطره إلا بالصمت ، فلذلك مدح الشرع الصمت وحث عليه فقال صلى  
الله عليه وسلم : « من صمت نجى »<sup>(١)</sup> ، وقال عليه السلام : « الصمت حكم وقليل فاعله »<sup>(٢)</sup> ، أى حكمة وحزم . وروى

### كتاب آفات اللسان

(١) حديث « من صمت نجى » أخرجه الترمذى من حديث عبد الله بن عمرو بسند فيه ضعف وقال قريب وهو عند الطبراني  
بسند جيد (٢) حديث « الصمت حكم وقليل فاعله » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر بسند  
ضعيف والبيهقي في الشعب من حديث أنس بسند « حكم » بدل « حكمة » وقال غلط فيه عثمان بن سعد والمصحيح رواية ثابت قال

عبد الله بن سفيان عن أبيه قال : قلت يا رسول الله أخبرني عن الإسلام بأمر لا أسأل عنه أحداً بعدك قال : قل أنت بالله ثم استقم . قال : قلت فأتيتي ؟ فأوماً بيده إلى لسانه <sup>(١)</sup> وقال عقبه بن عامر . قلت يا رسول الله ما النجاة ؟ قال : أملكك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك <sup>(٢)</sup> . وقال سهل بن سعد الساعدي . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من يتكفل لي بما بين لحييه ورجليه أتكفل له بالجنة <sup>(٣)</sup> . وقال صلى الله عليه وسلم : من وفي شر قببه وذنبه ولقلقه فقد وفي الشر كله <sup>(٤)</sup> . والعقب : هو البطن والذنب : الفرج ، والفلق : اللسان . فهذه السموات الثلاث بها يك أكثر الخلق ، ولذلك اشتغلنا بذكر آفات اللسان لما فرغنا من ذكر آفة الشهوتين البطن والفرج ، وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكثر ما يدخل الناس الجنة فقال : تقوى الله وحسن الخلق ، وسئل عن أكثر ما يدخل النار فقال : الأجراف : القم والفرج <sup>(٥)</sup> ، فيحتمل أن يكون المراد بالقم آفات اللسان لأنه عمل ، ويحتمل أن يكون المراد به البطن لأنه منفذ ؛ فقد قال معاذ بن جبل : قلت يا رسول الله أتأخذ بما تقول ؟ فقال : لمكلك أملك يا ابن جبل وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد السليم ؟ <sup>(٦)</sup> . وقال عبد الله التقي : قلت يا رسول الله حدثني بأمر أعظم به فقال : قل ربني الله ثم استقم . قلت يا رسول الله ما أخوف ما تخاف علي ؟ فأخذ بلسانه وقال : هذا <sup>(٧)</sup> ، وروى أن معاذاً قال : يا رسول الله أي الأعمال أفضل ؟ فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لسانه ثم وضع عليه أصبعه <sup>(٨)</sup> وقال أنس بن مالك : قال صلى الله عليه وسلم : لا يستقيم إيمان العبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ، ولا يدخل الجنة رجل لا يأمن جاره براءته <sup>(٩)</sup> . وقال صلى الله عليه وسلم : من سره أن يسلم فليأزم الصمت <sup>(١٠)</sup> . وعن سعيد بن جبيرة مرفوعاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : إذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تذكّر اللسان أي تقول اتق الله فينا فإنك إن استقممت استقمنا وإن عرججت عرججتنا <sup>(١١)</sup> . وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأى أبا بكر الصديق رضى الله عنه وهو يد لسانه يده فقال له : ما تصنع يا خليفة رسول الله ؟ قال : هذا أوردني الموارد إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ليس شيء من الجسد إلا يشكو إلى الله اللسان على حدته <sup>(١٢)</sup> . وعن ابن مسعود

= والصحيح عن أنس أن لقمان قال ورواه كذلك هو وابن حبان في كتاب روضة العقلاء بسند صحيح إلى أنس (١) حديث سفيان الثوري : أخبرني عن الإسلام بأمر لا أسأل عنه أحداً بعدك ... الحديث . أخرجه الترمذي وصححه والنسائي وابن ماجه وهو عند مسلم دون آخر الحديث الذي فيه ذكر اللسان (٢) حديث عقبه بن عامر : قلت يا رسول الله ما النجاة ؟ قال : أملكك عليك لسانك ... الحديث . أخرجه الترمذي وقال حسن (٣) حديث سهل بن سعد : من يتكفل لي بما بين لحييه ورجليه أؤكل له بالجنة . رواه البخاري (٤) حديث : من وفي شر قببه وذنبه ولقلقه فقد وفي الشر كله ... الحديث . أخرجه الترمذي إلى أبيه بسند ضعيف بلفظ : فقد وجبت له الجنة (٥) حديث : سئل عن أكثر ما يدخل الجنة ... الحديث : أخرجه الترمذي وصححه وابن ماجه من حديث أبي هريرة (٦) حديث معاذ : قلت يا رسول الله أتأخذ بما تقول ؟ قال : لمكلك أملك وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد السليم . أخرجه الترمذي وصححه وابن ماجه والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين (٧) حديث عبد الله التقي : قلت يا رسول الله حدثني بأمر أعظم به ... الحديث . رواه النسائي قال ابن مسعود وهو خطأ والروايات سفيان بن عبد الله التقي كما رواه الترمذي وصححه ابن ماجه وقد تقدم قبل هذا نسخة الحديث .

(٨) حديث : إن ساداً قال : يا رسول الله أي الأعمال أفضل ؟ فأخرج لسانه ثم وضع يده عليه . أخرجه الطبراني وابن أبي الدنيا في الصمت قال : أصبه مكان يده . (٩) حديث أنس : لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ... الحديث . أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت والمراعي في مكارم الأخلاق بسند فيه ضعف (١٠) حديث : من سره أن يسلم فليأزم الصمت . أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت وأبو الشيخ في فضائل الأعمال والبيهقي في الشعب من حديث أنس بسند ضعيف (١١) حديث : إذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تذكّر اللسان ... الحديث . أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري رضى عنه وولم في الإحياء عن سعيد بن جبيرة مرفوعاً وأما هو عن سعيد بن جبيرة من أبي سعيد رضى عنه ورواه الترمذي مرفوعاً على عمر بن زيد وقاله : أصح (١٢) حديث : إن من أطاعني لم يكره وهو يد لسانه فقال : ما تصنع يا خليفة رسول الله =

أنه كان على الصفا يابى ويقول : يا سان قل خيرا نعم واسكت عن شر قلم من قبل أن تدم ، فقيل له يا أبا عبد الرحمن أمدا شيء تقره أو شيء سمعته ؟ فقال : لا بل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن أكثر خطايا ابن آدم في لسانه »<sup>(١)</sup> ، وقال ابن عمر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كف لسانه ستر الله عورته ومن ملك غضبه وقاه الله عذابه ومن اعتذر إلى الله قبل الله عذره »<sup>(٢)</sup> ، وروى أن معاذ بن جبل قال : يارسول الله أوصني قال « اعبده كأنك تراه وعد نفسك في الموت وإن شئت أنبأتك بما هو أملك لك من هذا كله ، وأشار يده إلى لسانه »<sup>(٣)</sup> ، وعن صفوان بن سليم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن . الصمت وحسن الخلق »<sup>(٤)</sup> .

وقال أبو هريرة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت »<sup>(٥)</sup> ، وقال الحسن : ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « رحم الله عبداً تكلم فغم وأسكت فسلم »<sup>(٦)</sup> ، وقيل لعيسى عليه السلام : دلنا على عمل ندخل به الجنة قال : لا تتقوا أبداً ، قالوا : لا نستطيع ذلك ، فقال : فلا تتقوا إلا بخير . وقال سليمان بن داود عليها السلام : إن كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب . وعن البراء بن عازب قال : جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : دلي على عمل يدخلني الجنة ، قال « أطعم الجائع واسق الظمآن وأمر بالمعروف ونه عن المنكر فإن لم تطق فكف لسانك إلا من خير »<sup>(٧)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم « اخزن لسانك إلا من خير فإنك بذلك تغلب الشيطان »<sup>(٨)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله عند لسان كل قائل فليتنعظ أمرؤ علم مايقول » وقال عليه السلام « إذا رأيتم المؤمن سمعوا وتورا فادنوا منه فإنه يلقى الحكمة »<sup>(٩)</sup> ، وقال ابن مسعود ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الناس ثلاثة : غافم وسالم وشاحب . فالغافم الذي يذكر الله تعالى ، والسالم الساكت ، والشاحب الذي يخوض في الباطل »<sup>(١٠)</sup> ، وقال عليه السلام « إن لسان المؤمن وراء قلبه فإذا أراد أن يتكلم بشيء تدبره بقلبه ثم أمضاه بلسانه ، وإن لسان المنافق أمام قلبه ، فإذا هم بشيء أمضاه بلسانه ولم يتدبره بقلبه »<sup>(١١)</sup> ، وقال عيسى عليه السلام : العبادة عشرة أجزاء : تسعة منها في الصمت

== قال : لن هذا أوردني الموارد لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ليس شيء من الجسد إلا يقول إلى الله عز وجل السان على حده » أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت وأبو بلى في مسنده والدارقطني في العلل والبيهقي في الشعب من رواية أسلم بن موسى حمزة وقال الدارقطني إن المرفوع وهم في الفراءوردى قال وروى هذا الحديث عن عيسى بن أبي حازم عن أبي بكر ولا علة له .

(١) حديث ابن مسعود : أنه كان على الصفا يابى ويقول : يا سان قل خيرا ثم . وفيه مرفوعاً « لن أكثر خطايا بني آدم في لسانه » أخرجه الطبراني وابن أبي الدنيا في الصمت والبيهقي في الشعب بسند حسن . (٢) حديث ابن عمر « من كف لسانه ستر الله عورته » الحديث « أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت بسند حسن . (٣) حديث : لن معاذاً قال أوصني قال « اعبده كأنك تراه » الحديث « أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت والطبراني ورواه ثقات وفي إجماع . (٤) حديث صفوان بن سليم مرفوعاً « ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن : الصمت وحسن الخلق » أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا مرسلًا ورواه ثقات ورواه أبو الشيخ في طبقات المحققين من حديث أبي ذر وأبي الفداء أيضاً مرفوعاً .

(٥) حديث أبي هريرة « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت » متفق عليه . (٦) حديث الحسن : ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « رحم الله عبداً تكلم فغم وأسكت فسلم » أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت والبيهقي في الشعب من حديث أنس بسند فيه ضعف فإنه من رواية إسماعيل بن عياش من المجازين . (٧) حديث البراء : جاء أعرابي فقال دلي على عمل يدخلني الجنة قال « أطعم الجائع .. الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا بإسناد جيد . (٨) حديث « اخزن لسانك إلا من خير .. الحديث » أخرجه الطبراني في المعجم من حديث أبي سعيد وله في المعجم الكبير ولا بن حبان في صحيحه نحوه من حديث أبي ذر . (٩) حديث « إذا رأيتم المؤمن سمعوا وتورا فادنوا منه فإنه يلقى الحكمة » أخرجه ابن ماجه من حديث أبي خلاد فقط « إذا رأيتم الرجل قد أعطى زهداً في الدنيا وفقه متعلقاً بآفته فإنه يلقى الحكمة » وقد تقدم . (١٠) حديث ابن مسعود « الناس ثلاثة : غافم وسالم وشاحب .. الحديث » أخرجه الطبراني وأبو بلى من حديث أبي سعيد الخدري فقط « الجالس وضعه إلى صدره لم أجده » ثلاثة من حديث ابن مسعود . (١١) حديث : لن لسان المؤمن وراء قلبه فإذا أراد أن يتكلم

وجزء في الفرار من الناس . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم « من كثر كلامه كثرت سقطه ، ومن كثرت سقطه كثرت ذنوبه ، ومن كثرت ذنوبه كانت النار أولى به » (١) .

الأقمار : كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يضع حصاة في فيه يمنع بها نفسه عن الكلام ، وكان يشير إلى لسانه ويقول : هذا الذي أوردني للوارد . وقال عبد الله بن مسعود : والله الذي لا إله إلا هو ما شيء أحوج إلى طول سجن من لسان . وقال طاووس : لسان سبيع إن أرسلته أكلني . وقال وهب بن منبه : في حكمة آل داود ؛ حق على العاقل أن يكون عارفاً بزمانه حافظاً للسانته مقبلاً على شأنه . وقال الحسن : ما عجل دينه من لم يحفظ لسانه . وقال الأوزاعي : كتب إلينا عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - أما بعد : فإن من أكثر ذكر الموت رضي من الدنيا باليسر ، ومن عد كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يمينه . وقال بعضهم : الصمت يجمع للرجل فضيلتين ؛ السلامة في دينه والفهم عن صاحبه . وقال محمد بن واسع لمالك بن دينار : يا أبا يحيى حفظ اللسان أشد على الناس من حفظ الدينار والدرهم . وقال يونس بن عبيد : ما من الناس أحد يكون منه لسانه على بال إلا رأيت صلاح ذلك في سائر عمله . وقال الحسن تسكلم قوم عند معاوية رحمه الله والأخف بن فيس ساكت فقال له : مالك يا أبا نجر لا تسكلم ؟ فقال له : أخشى الله إن كذبت وأخشاك إن صدقت . وقال أبو بكر بن عياش : اجتمع أربعة ملوك ؛ ملك الهند وملك الصين وكسرى وقيصر ، فقال أحدهم : أنا أنعم على ما قلت ولا أنعم على ما لم أقل ، وقال الآخر : إني إذا تسكلمت بكلمة ملكسني ولم أملكها وإذا لم أتكلم بها ملكتها ولم تملكني ، وقال الثالث : عجبت للتسكلم إن رجعت عليه كلته ضرته وإن لم ترجع لم تنفعه . وقال الرابع : أنا على رد ما لم أقل أقدر مني على رد ما قلت . وقيل : أقام المنصور بن المعز لم يتكلم بكلمة بعد العشاء الآخرة أربعين سنة . وقيل : ماتكم الربيع بن خيثم بكلام الدنيا عشرين سنة وكان إذا أصبح وضع دواة وقرطاساً وقلماً فشكل ما يتكلم به كتبه ثم يحاسب نفسه عند المساء .

فإن قلت : فهذا الفضل الكبير للصمت ماسبه ؟ فاعلم أن سببه كثرة آفات اللسان من الخطأ والكذب والغيبة والنميمة والرياء والتفاق والفحش والمراء وتزكية النفس والحوض في الباطل والخصومة والفضول والتعريف والإزادة والتقصان وإيذاء الخلق ومهلك العورات ، فهذه آفات كثيرة وهي سيامة إلى اللسان لا تنقل عليه ولها حلاوة في القلب وعليها بواعث من الطبع ومن الشيطان ، والخائض فيها قلما يقدر أن يسلك اللسان فيطلقه بما يحب ويكفه عما لا يحب فإن ذلك من غواض العلم - كما سيأتي تفصيله - في الحوض خطر وفي الصمت سلامة . فذلك عظمت فضيلته ، هذا مع ما فيه من جمع الهم ودوام الوقار والفرار للتفكير والذكر والعبادة والسلامة من تباعث القول في الدنيا ومن حسابه في الآخرة . فقد قال الله تعالى : ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ . وبذلك على فضل لزوم الصمت أمر ، وهو أن الكلام أربعة أقسام : قسم هو ضرر محض ، وقسم هو نفع محض ، وقسم فيه ضرر ومنفعة ، وقسم ليس فيه ضرر ولا منفعة .

أما الذي هو ضرر محض فلا بد من السكوت عنه ، وكذلك ما فيه ضرر ومنفعة لا يفي بالضرر

وأما ما لا منفعة فيه ولا ضرر فهو فضول والاشتغال به تضيق زمان وهو عين الحسران ، فلا يفي إلا القسم الرابع ، فقد سقط ثلاثة أرباع الكلام وبقي ربع ، وهذا الربع فيه خطر إذ يتوَجَّع بما فيه إثم من دقائق الرياء والتصنع والغيبة وتزكية النفس وفضول الكلام امتزاجاً يخفى دركه فيكون الإنسان به غاطراً . ومن عرف دقائق

== بهيئه تدبره بجليه ... الحديث . لم أجده محفوظاً وإنما رواه الحراني في مكارم الأخلاق من رواة الحسن البصري قال « كانوا يقولون » (١) حديث « من كثر كلامه كثرت سقطه . . الحديث » أخرجه أبو نعيم في المجلب من حديث ابن عمر بسند ضعيف وقد رواه أبو حاتم بن حبان في روضة القلاء والبيهقي في الشعب موقوفاً على عمر بن الخطاب .

آفات اللسان - على ما سنذكره - علم قطعا أن ما ذكره صلى الله عليه وسلم هو فصل الخطاب حيث قال : « من صمت نجا »<sup>(١)</sup> ، فقد أوتي واهج جواهر الحكم قطعا وجوامع الكلم<sup>(٢)</sup> ولا يعرف ماتحت آحاد كلماته من بحار المعاني إلا خواص البلاء وفيما سنذكره من الآفات وعسر الاحتراز عنها ما يعرفه حقيقة ذلك إن شاء الله تعالى . ونحن الآن نذكر آفات اللسان ونبتدئ بأخفها ونترقى إلى الأغظ قليلا ، ونؤخر الكلام في التنية والنية والكذب فإن النظر فيها أطول وهي عشرون آفة فاعلم ذلك ترشد بعون الله تعالى .

### الآفة الأولى . الكلام فيما لا يمتنع

اعلم أن أحسن أحوالك أن تحفظ أفتاظك من جميع الآفات التي ذكرناها من التنية والنية والكذب والمرء والجدال وغيرها ، وتكلم فيما هو مباح لا ضرر عليك فيه ولا على مسلم أصلا إلا أنك تتكلم بما أنت مستغن عنه ولا حاجة بك إليه ، فإنك مضيع به زمانك ومحاسب على عمل لسانك وتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير ، لأنك لو صرفت زمان الكلام إلى الفكر ربما كان ينفع لك من نفعات رحمة الله عند الفكر ما يذهب جدواه ، ولو هلك الله سبحانه وذكرته وسبحته لكان خيرا لك فكف من كلمة يبنى بها قصرا في الجنة ؟ ومن قدر على أن يأخذ كنزا من الكنوز فأخذ مكانه مدرة لا يذفع بها كان خسارا مبيئا . وهذا مثال من ترك ذكر الله تعالى واشتغل بمباح لا يمتنع فإنه وإن لم يأثم فقد خسر حيث فاته الربح العظيم بذكر الله تعالى ، فإن المؤمن لا يكون صمتا ولا فكرا ونظره إلا عبرة ولطفه إلا ذكرا<sup>(٣)</sup> هكذا قال النبي صلى الله عليه وسلم . بل رأس مال العبد أوقاته ومهم ما صرفها إلى ما لا يمتنع ولم يضر بها ثوبا في الآخرة فقد ضيع رأس ماله . ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يمتنع »<sup>(٤)</sup> ، بل ورد ما هو أشد من هذا قال أنس : استشهد غلام منا يوم أحد فوجدنا على بطنه حجرا مربوطا من الجوع فسحت أمه عن وجهه التراب وقالت هنيئا لك الجنة يا بني ، فقال صلى الله عليه وسلم : « وما يدريك لعله كان يتكلم فيما لا يمتنع ويمنع ما لا يضره ؟ »<sup>(٥)</sup> ، وفي حديث آخر : أن النبي صلى الله عليه وسلم فقد كعبا فسال عنه فقالوا مريض يخرج يمشي حتى أتاه فلما دخل عليه قال : أبشرا يا كعب ، فقالت أمه هنيئا لك الجنة يا كعب فقال صلى الله عليه وسلم : « من هذه المتألية على الله ؟ » قال : هي أي يارسول الله قال : « وما يدريك يا كعب لعل كعبا قال ما لا يمتنع أو منع ما لا يمتنع »<sup>(٦)</sup> ، ومعناه أنه إنما تنهى الجنة لمن لا يحاسب ومن تكلم فيما لا يمتنع حوسب عليه ، وإن كان كلامه غير مباح فلا تنهى الجنة مع تناقشه في الحساب فإنه نوع من العذاب .

(١) حديث : « من صمت نجا » تقدم . (٢) حديث : « ما صلى الله عليه وسلم أوتي جوامع الكلم أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

### الآفة الأولى الكلام فيما لا يمتنع

(٣) حديث : « المؤمن لا يكون صمتا ولا فكرا ونظره إلا عبرة ولا ذكرا » لم أجده أصلا وروى محمد بن زكريا اللؤلؤ أحد الفضلاء عن ابن عائشة عن أبيه قال خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « إن الله أمرني أن يكون لفتي ذكرا وصمتي ففكرنا ونظرنا عبرة » (٤) حديث : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يمتنع » أخرجه الترمذي وقال شريف وإن ماجه من حديث أبي هريرة (٥) حديث : استشهدنا غلام يوم أحد فوجدنا على بطنه حجرا مربوطا من الجوع . الحديث وفيه : « لعله كان يتكلم بما لا يمتنع ويمنع ما لا يضره » أخرجه الترمذي من حديث أنس مختصرا وقال غريب ورواه ابن أبي الدنيا في العصب بلفظ المنصف بسند ضيف (٦) حديث : أن النبي صلى الله عليه وسلم فقد كعبا فسالته فقالوا مريض ... الحديث وفيه : « لعل كعبا قال ما لا يمتنع أو منع ما لا يمتنع » أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث كعب بن عجرة بإسناد جيد لا أن الظاهر انقطاعه بين الصحابي وبين الراوي منه .



وعن محمد بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أول من يدخل من هذا الباب رجل من أهل الجنة ، فدخل عبد الله بن سلام فقام إليه ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه بذلك وقالوا : أخبرنا بأوتى عمل في نفسك ترجو به فقال : إني لضعيف وإن أوتى ما أرجو به الله سلامة الصدر وترك ما لا ينبغي<sup>(١)</sup> » ، وقال أبو ذر : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن ثقیل في اليزان » ، قلت : بلى يا رسول الله قال : « هو الصمت وحسن الخلق وترك ما لا ينبغيك<sup>(٢)</sup> » ، وقال مجاهد : سمعت ابن عباس يقول خمس لمن أحب إلى من الدم الموقوفة : لا تسكلم فيما لا ينبغيك فإنه فضل ولا آمن عليك الوزر ، ولا تتكلم فيما ينبغيك حتى يجد له موضعاً فإنه رب متكلم في أمر يمينه قد وضعه في غير موضعه ففتن ، ولا تمار حليا ولا سفها فإن الحليم يقلبك والسفيه يؤذيك ، واذكر أحاك إذا غاب عنك بما تحب أن يذكرك به ، وأعفه بما تحب أن يعفبك عنه ، وعامل أحاك بما تحب أن يعاملك به ، واعمل عمل رجل يعلم أنه مجازي بالإحسان مأخوذ بالاحترام . وقيل للقيان الحكيم : ما حكتك ؟ قال : لا أسأل عما كبرت ولا أنكف ما لا ينبغي . وقال مروق العجل : أمر أنا في طلبة منذ عشرين سنة لم أقدر عليه ولست بتارك طلبة قالوا : وما هو ؟ قال : السكرت عما لا ينبغي . وقال عمر رضي الله عنه لا تتعرض لما لا ينبغيك واعتزل عدوك واحذر صديقك من القوم إلا الأمين ، ولا أمين إلا من خشى الله تعالى ، ولا تصحب الفاجر فتسلم من مجوره ولا تطلعه على شرك ، واستشر في أمرك الذين يخشون الله تعالى .

وحذ الكلام فيما لا ينبغيك أن تتكلم بكلام لو سكت عنه لم تأثم ولم تستضر به في حال ولا مال ، مثاله أن تجلس مع قوم فتذكر لهم أسفارك وما رأيت فيها من جبال وأنهار ، وما وقع لك من الوقائع ، وما استحسنته من الأطعمة والياب ، وما تعجبت منه من مشايخ البلاد وقائهم . فهذه أمور لو سكت عنها لم تأثم ولم تستضر . وإذا بالغت في الجهاد حتى لم يمتزج بمحبتك زيادة ولا نقصان ، ولا تزكية نفس من حيث التغافر بمشاهدة الأحوال العظيمة ، ولا اغتيال لشخص ولا مذمة لشيء مما خلقه الله تعالى فأنت مع ذلك كله مضيع زمانك — وأنى تسلم من الآفات التي ذكرناها — ومن حملها أن تسأل غيرك عما لا ينبغيك فأنت بالسؤال مضيع وقتك وقد ألجأت صاحبك أيضاً بالجواب إلى التضيق ، هذا إذا كان الشيء مما يتطرق إلى السؤال عنه آفة ، وأكثر الأسئلة فيها آفات . فإنيك تسأل غيرك عن عبادته مثلاً فتقول له : هل أنت صائم ؟ فإن قال نعم ، كان مظهراً لعبادته فدخل عليه الرياء ، وإن لم يدخل سقطت عبادته من ديوان السر ، وعبادة السر تفضل عبادة الجهر بدرجات ، وإن قال : لا ، كان كاذباً ، وإن سكت كان مستحقراً لك وتأذيت به ، وإن احتال للمدافعة الجواب افتقر إلى جهد وتعب فيه . فقد عرضته بالسؤال إما للرياء أو للكذب أو للاستحار أو للتعب في حيلة الدفع ، وكذلك سؤالك عن سائر عباداته ، وكذلك سؤالك عن المعاصي وعن كل ما يخفيه ويستحي منه . وسؤالك عما حدث به غيرك فتقول له : ماذا تقول ؟ وفيم أنت ؟ وكذلك ترى لإنسان في الطريق فتقول : من أين ؟ فربما يمنعه مانع من ذكره ، فإن ذكره تأذيه واستحيا ، وإن لم يصدق وقع في الكذب وكنت السبب فيه .. وكذلك تسأل عن مسألة لا حاجة بك إليها والمسئول ربما لم تسمح نفسه بأن يقول لا أدري ، فيجيب عن غير بصيرة .

(١) حديث محمد بن كعب « إن أول من يدخل من هذا الباب رجل من أهل الجنة » فدخل عبد الله بن سلام الحديث . وفيه : إن أوتى ما أرجو به الله سلامة الصدر وترك ما لا ينبغي . أخرجه ابن أبي الدنيا مذكراً بهرلاً وفيه أبو نجيع اختلف فيه .

(٢) حديث أبي ذر « ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن ... الحديث » وفيه : هو الصمت وحسن الخلق وترك ما لا ينبغي . أخرجه ابن أبي الدنيا بسند متقطع .

ولست أحنى بالتكلم فيما لا يننى هذه الأجاس ، فإن هذا يتطرق إليه إثم أو ضرر . وإنما مثال ما لا يننى ما روى أن لقمان الحكيم دخل على داود عليه السلام وهو يسرد درعا ولم يكن رأها قبل ذلك اليوم ، فجعل يستعجب بما رأى فأراد أن يسأله عن ذلك فتمتته حكيمته فأمسك نفسه ولم يسأله ، فلما فرغ قام داود وليس ثم قال : نعم الدرع الحرب ، فقال لقمان : الصمت حكم وقيل فاعله ، أى حصل العلم به من غير سؤال فاستغنى عن السؤال . وقيل إنه كان يتردد إليه وهو يريد أن يعلم ذلك من غير سؤال . فهذا وأمثاله من الأسئلة إذا لم يكن فيه ضرر وهتك ستر وتوريط في رياء وكذب هو مما لا يننى وتركه من حسن الإسلام فهذا حقه .

وأما سببه الباعث عليه فالحرص على معرفة ما لا حاجة به إليه أو المباشرة بالكلام على سبيل التودد أو تزجية الأوقات بمحادثات أحوال لا فائدة فيها .

وعلاج ذلك كله أن يعلم أن الموت بين يديه وأنه مسئول عن كل كلمة ، وأن أنفاسه رأس ماله . وأن لسانه شبكة يقدر أن يقتنص بها الجور العين فأعماله ذلك وتضييعه خسران مبین . هذا علاجه من حيث العلم . وأما من حيث العمل فالعزلة أو أن يضع حصاة في فيه وأن يلزم نفسه السكوت بها عن بعض ما يعنيه حتى يعتاد اللسان ترك ما لا يعنيه ، ويضبط اللسان في هذا على غير المعتاد شديد جدًا .

### الآلة الثانية : فضول الكلام

وهو أيضا مذموم ، وهذا يتناول الخوض فيما لا يننى والزيادة فيما يننى على قدر الحاجة ، فإن من يعنيه أمر يمكنه أن يذكره بكلام مختصر ، ويمكنه أن يحسمه ويقرره ويكرره . ومهما تأذى مقصوده بكلمة واحدة فذكر كلتين فالثانية فضول - أى فضل عن الحاجة - وهو أيضا مذموم - لما سبق - وإن لم يكن فيه إثم ولا ضرر . قال عطاء بن أبي رباح : إن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام وكانوا يبتدون فضول الكلام ما عدا كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو أمراً بمعروف أو نهياً عن منكر ، أو أن تنطق بمحاجتك في معيشتك التي لا بد لك منها ، أو أنكروا أن عليكم حافظين كراما كاتبين عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ، أما يستحي أحدكم إذا نشرت صحيفته التي أملاها صدر نهاره كان أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه . وعن بعض الصحابة قال : إن الرجل يكلمني بالكلام لجوابه أشهى إلى من الماء البارد إلى الظلمان فأترك جوابه خيفة أن يكون فضولاً . وقال معمر بن مهران : لعظم جلال الله في قلوبكم فلا تذكروه عند مثل قول أحدكم للكلب والحدار : اللهم آخروه وما أشبه ذلك

واعلم أن فضول الكلام لا ينحصر بل المهم محصور في كتاب الله تعالى قال الله عز وجل ﴿ لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه وأنفق الفضل من ماله »<sup>(١)</sup> ، فانظر كيف قلب الناس الأمر في ذلك فأمسكوا فضل المال وأطلقوا فضل اللسان وعن معمر بن عبد الله عن أبيه قال : قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في رهط من بني عامر

### الآلة الثانية فضول الكلام

(١) حديث « طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه وأنفق الفضل من ماله » أخرجه البزري وابن أبي عمير في صحيحه الصحيح والبيهقي من حديث ركب المصري وإل ابن عبد البر أنه حديث حسن وقال البزري : لا أدري سمع من النبي صلى الله عليه وسلم أم لا والله ابن منده مجهول لا يعرف له حجة ورواه البزري من حديث أنس بسند ضعيف .

فقالوا : أنت والدنا وأنت سيدنا وأنت أفضلنا علينا فضلا ، وأنت أطولنا علينا طولا ، وأنت الجنة التواء وأنت وأنت فقال ه قولوا قولكم ولا يسهو بينكم الشيطان <sup>(١)</sup> ، إشارة إلى أن اللسان إذا أُنْطَب بالثناء ولو بالصدق فيحس أن يستويه الشيطان إلى الزيادة المستغنى عنها . وقال ابن مسعود : أُنْذِرْك فضول كلامك ؛ حسب امرئ من الكلام ما يبلغ به حاجته . وقال مجاهد : إن الكلام ليكتب حتى إن الرجل ليكتب ابنه فيقول ، أُنْطَب لك كذا وكذا ؟ فيكتب كذابا . وقال الحسن : يا ابن آدم بسطت لك صحيفة ووكّل بها ملكان كريمان يكتبان أعمالك فاعمل ما شئت وأكثر أو أقل . وروى أن سليمان عليه السلام بعث بعض غفاريته وبعث نفرا ينظرون ما يقول ويخبرونه ، فأخبروه بأنه مر في السوق فرفع رأسه إلى السماء ثم نظر إلى الناس وهز رأسه فساله سليمان عن ذلك فقال : عجبت من الملازمة على رموس الناس ما أسرع ما يكتبون ! ومن الذين أسفل منهم ما أسرع ما يقولون ! وقال إبراهيم التيمي : إذا أراد المؤمن أن يتكلم نظر فإن كان له تكلم وإلا أمسك ، والتاجر إنما لسانه رسلا رسلا . وقال الحسن : من كثر كلامه كثر كبده ، ومن كثر ماله كثر ذنوبه ، ومن ساء خلقه عذب نفسه ، وقال عمر بن دينار : تكلم رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فأكثر فقال له صلى الله عليه وسلم : كم دون لسانك من حجاب ؟ فقال : شفتاى وأسناني ، قال : أما كان لك ما يرد كلامك ؟ <sup>(٢)</sup> ، وفي رواية : أنه قال ذلك في رجل أتى عليه فاستتر في الكلام ثم قال : ما أوتي رجل شرا من فضل في لسانه وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله عليه : إنه ليخفى من كثير من الكلام خوف الباهة . وقال بعض الحكماء : إذا كان الرجل في مجلس فأعجب الحديث فليسكت وإن كان ساكنا فأعجب السكوت فليتكلم . وقال يزيد بن أبي حبيب : من فتنة العالم أن يكون الكلام أجب إليه من الاستماع فإن وجد من يكفيه فإن في الاستماع سلامة ، وفي الكلام تزيين وزيادة وتقصان . وقال ابن عمر : إن أحق ما طهر الرجل لسانه ، ورأى أبو الدرداء امرأة سليطة فقال : لو كانت هذه خرسا كان خيرا لها . وقال إبراهيم : يهلك الناس خلتان : فضول اللسان وفضول الكلام . فهذه مذمة فضول الكلام وكثرة وسية الباعث عليه . وعلاجه ما سبق في الكلام فيما لا يعني .

### الآفة الثالثة : الحوض في الباطل

وهو الكلام في الماصي حكاية أحوال النساء وبجائس الخمر ومقامات الفساق وتعمد الأغنياء وتجوهر الملوك وراسمهم المذمومة وأحوالهم المكرومة ، فإن كل ذلك مما لا يحل الحوض فيه وهو حرام . وأما الكلام فيما لا يعني أو أكثر مما يعني فهو ترك الأول ولا تحريم فيه . نعم من يكثر الكلام فيما لا يعني لا يؤمن عليه الحوض في الباطل . وأكثر الناس يتجالسون للتفريج بالحديث ولا يبدو كلامهم التفكك بأعراض الناس أو الحوض في الباطل . وأنواع الباطل لا يمكن حصرها لكثرتها وتفتتها فذلك لا غلص منها إلا بالاختصار على ما بين من مهمات الدين والدنيا . وفي هذا المجلس تقع كلمات يهلك بها صاحبها وهو يستحضرها ، فقد قال بلال بن الحارث : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ به ما بلغت فيكتب

(١) حديث مطرف بن عبد الله عن أبيه : قدمت على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في رحط من عاصي فقالوا أنت والدنا وأنت سيدنا ... الحديث أخرجه أبو داود والسنائي في اليوم والليالي بلفظ آخر ورواه ابن أبي الدنيا بلفظ المصنف .

(٢) حديث عمرو بن دينار : تكلم رجل عند النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فأكثر فقال ه كم دون لسانك من حجاب .. الحديث أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا مرسلًا ورجله تمامت .

الله بها رضوانه إلى يوم القيامة ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ به ما بلغت فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم القيامة <sup>(١)</sup> ، وكان عظمة يقول : كم من كلام متعنيه حديث بلال بن الحارث . وقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها أبعد من التريا <sup>(٢)</sup> » وقال أبو هريرة إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يلقى لها بالاً يرفعه الله بها في أعلى الجنة . وقال صلى الله عليه وسلم « أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوصاً في الباطل <sup>(٣)</sup> » وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ وكنا نفوض مع الخاضعين ﴾ وبقوله تعالى ﴿ فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم ﴾ وقال سليمان : أكثر الناس ذنباً يوم القيامة أكثرهم كلاماً في معصية الله . وقال ابن سيرين : كان رجل من الأنصار يزعم بمجالس لهم فيقول لهم توضحوا فإن بعض ما تقولون شر من الحديث . فهذا هو الخوض في الباطل وهو وراء ماسياتي من القبية والنيمة والفحش وغيرها ، بل هو الخوض في ذكر محظورات سبق وجودها أو تدبر لتتوصل إليها من غير حاجة دينية إلى ذكرها . ويدخل فيه أيضاً الخوض في حكاية البدع والمذاهب الفاسدة وحكاية ماجرى من قتال الصحابة على وجه يوم الطعن في بعضهم . وكل ذلك باطل والخوض فيه خوص في الباطل نسأل الله حسن العون بلفظه وكرمه .

### الآلة الرابعة . للمراء والمجدال

وذلك منى عنه قال صلى الله تعالى عليه وسلم « لا تمار أخاك ولا تمارجه ولا تمدد موعدا فتختلفه <sup>(١)</sup> » وقال عليه السلام « ذروا المراء فإنه لا ينفعكم حكمته ولا تؤمن فنته <sup>(٢)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « من ترك المراء وهو محق بئى له بيت في أعلى الجنة ومن ترك المراء وهو مبطل بئى له بيت في ريع الجنة <sup>(٣)</sup> » وعن أم سلمة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن أول ما عهد إلى ربي ونهاى عنه بعد عبادة الأوثان وشرب الخمر ملاحاة الرجال <sup>(٤)</sup> » وقال أيضاً ، ما ضل قوم بعد أن هداهم الله تعالى إلا أوتوا الجدل <sup>(٥)</sup> ، وقال أيضاً « لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى يدع المراء وإن كان محققاً <sup>(٦)</sup> » ، وقال أيضاً « ست من كن فيه بلغ حقيقة

### الآلة الثالثة : الخوض في الباطل

(١) حديث بلال بن الحارث « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ... الحديث » أخرجه ابن ماجه والترمذى وقال حديث صحيح (٢) حديث « إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها أبعد من التريا » أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة بسند حسن وثقيني والترمذى « إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأساً يهوى بها سبعين خريفاً النار » لهظ الترمذى « وقال حسن غريب (٣) حديث « أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوصاً في الباطل » أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث قتادة مرسلاً ورواه هو والطبراني موقوفاً على ابن مسعود بسند صحيح .

### الآلة الرابعة : المراء والمجدال

(٤) حديث « لا تمار أخاك ولا تمارجه ولا تمدد موعدا فتختلفه » أخرجه الترمذى من حديث ابن عباس وقد تقدم . (٥) حديث « ذروا المراء فإنه لا ينفعكم حكمته ولا تؤمن فنته » أخرجه الطبراني من حديث أبي الفداء وأبو أمامة وأبو بن مالك ورواه ن الألبان بإسناد ضعيف دون قوله « لا ينفعكم حكمته » ورواه بهذه الزيادة ابن أبي الدنيا موقوفاً على ابن مسعود . (٦) حديث « من ترك المراء وهو محق بئى له بيت في أعلى الجنة ... الحديث » تقدم في المراء (٧) حديث أم سلمة « إن أول ما عهد إلى ربي ونهاى عنه بعد عبادة الأوثان وشرب الخمر ملاحاة الرجال » أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت والطبراني والبيهقي بسند ضعيف وقد رواه ابن أبي الدنيا في المراسيل من حديث عروة بن روم (٨) حديث « ما ضل قوم إلا أوتوا الجدل » أخرجه الترمذى من حديث أبي أمامة وصححه وزاد « بعد هدى كانوا عليه » وتقدم في المراء وهو عند ابن أبي الدنيا دون هذه الزيادة كما ذكره المنصف (٩) حديث « لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى يترك المراء وإن كان محققاً » أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة بسند ضعيف وهو عند أحد فقط « لا يؤمن البدي حتى يترك الكذب في المراء والمراء وإن كان صادقاً » .

الإيمان : الصيام في الصيف ، وضرب أعداء الله بالسيف ، وتسجيل الصلاة في اليوم الدجن ، والصبر على المحصيات ، وإسباغ الوضوء على المسكاره ، وترك المراء وهو صادق <sup>(١)</sup> ، وقال الزبير لآبته : لا تجادل الناس بالقرآن فإنك لا تستطيعهم ولكن عليك بالنسنة . وقال عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه : من جعل دينه عرضة الخصومات أكثر انتقل . وقال مسلم بن يسار : إياكم والمراء فإنه ساعة جهل العالم وعندما يبتنى الشيطان زلته . وقيل : ماض قوم بعد إذ هداهم الله إلا بالجدل . وقال مالك بن أنس رحمة الله عليه : ليس هذا الجدل من الدين في شيء . وقال أيضا : المراء يقضى القلوب ويورث الضغائن . وقال لقمان لآبته : يا بني لا تجادل العلماء فيمقتوك وقال بلال بن سعد : إذا رأيت الرجل لجرجا مياريا معجبا برأيه فقد تمت خسارته . وقال سفيان : لو خالفت أخى في رمانة فقال حلوة وقلت حامضة لسمي بي إلى السلطان . وقال أيضا : صاف من شئت ثم أغضبه بالمراء فليزمنك بداهية تمنحك العيش . وقال ابن أبي ليلى : لا أمارى صاحبي فيما أن أكذبه وإما أن أغضبه . وقال أبو الدرداء : كفى بك إنما أن لا تزال مياريا . وقال صلى الله عليه وسلم : تكفير كل لحاء وكتمان <sup>(٢)</sup> ، وقال عمر رضي الله عنه : لا تعلم العلم ثلاث ولا تترك ثلاث . لا تتلمه لتتارى به ، ولا لتباهى به ، ولا لتتأني به . ولا تتركه حياء من طلبه ، ولا زهاده فيه ، ولا رضا بالجهل منه . وقال عيسى عليه السلام من كثر كذبه ذهب جماله ومن لاحى الرجال سقطت مروءته ومن كثر همه سقم جسمه ومن ساء خلقه عذب نفسه . وقيل لميمون بن مهران : مالك لا تترك أحاك عن قلى ؟ قال : لأنى لا أشاركه ولا أماريه . وماورد في ذم المراء والمجدال أكثر من أن يحصى .

وحذ المراء هو كل اعتراض على كلام الغير بإظهار خلل فيه ؛ إما في اللفظ وإما في المعنى وإما في قصد المتكلم . وترك المراء بترك الإنكار والاعتراض . فكل كلام سمعته فإن كان حقا فصدق به ، وإن كان باطلا أو كذبا ولم يكن متعلقا بأمر الدين فلنكت عنه .

والطعن في كلام الغير تارة يكون في لفظه بإظهار خلل فيه من جهة النحو أو من جهة اللفظ أو من جهة العربية أو من جهة النظم والترتيب بسوء تقديم أو تأخير . وذلك يكون تارة من قصور المعرفة وتارة يكون بطنينان اللسان . وكيفما كان فلا وجه لإظهار خطئه .

وأما في المعنى : فبأن يقول ليس كما تقول ؛ وقد أخطأت فيه من وجه كذا وكذا .

وأما في قصده فثل أن يقول هذا الكلام حق ولكن ليس فصدك منه الحق وإنما أنت فيه تباحب غرض ، وما يجرى مجراه ، وهذا الجنس إن جرى في مسألة علمية ربما خص باسم الجدل وهو أيضا مذموم بل الواجب السكوت أو السؤال في معرض الاستفادة لا على وجه التناد والتسكرة ، أو التلطف في التعريف لا في معرض الطعن .

وأما المجادلة فعبارة عن قصد إلحاح الغير وتمجيذه وتبنيصه بالقدح في كلامه ونسبته إلى القصور والجهل فيه ، وأية ذلك أن يكون تنبيه الحق من جهة أخرى مكروها عند المجدال ، يجب أن يكون هو المظهر له خطأ لئلين بفضل نفسه وتقص صاحبه ، ولا تنجاة من هذا إلا بالسكوت عن كل مالا يأنم به لو سكت عنه .

وأما الباعث على هذا فهو الترفع بإظهار العلم والفضل ، والتهجم على الغير بإظهار نقصه . وهما شهورتان باطنتان

(١) حديث « ست من كن فيه بلغ حافة الإيمان ... الحديث » وفيه « وترك المراء وهو صادق » أخرجه أبو منصور الدبسي من حديث أبي مالك الأشعري بسند ضيف بلفظ « خصال من الحق ... الحديث »

(٢) حديث « تكفير كل لحاء وكتمان » أخرجه الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضيف .

النفس قويتان لها . أما إظهار الفضل : فهو من قبل تركيبة النفس وهي من مقتضى مافي العبد من طغيان دعوى العلو والكبرياء وهي من صفات الربوبية . وأما تقويض الآخر فهو من مقتضى طبع السبعية فإنه يقتضى أن يترق غيره ويقصمه ويؤذيه ، وهاتان صفتان مذمومتان مهلكتان ، وإنما قوتهما المراء والجدال . فالمرأطلب على المراء والجدال مقول لهذه الصفات المهلكة ، وهذا يجاوز حد الكراهة بل هو معصية مهما حصل فيه لإنشاء الغير . ولا تنفك المارة عن الإيذاء . وتهيج الغضب وحمل المعترض عليه على أن يعود فينصر كلامه بما يمكنه من حق أو باطل ، ويقذف في قافله بكل ما يتصور له ؛ فيثور الشجار بين المتنازعين كما يثور المراض بين السكبين يقصد كل واحد منهما أن يعض صاحبه بما هو أعظم نكاية وأقوى في إلحاقه وإلحاقه .

وأما علاجه : فهو بأن يكسر الكبر الباعث له على إظهار فضله ، والسبعية الباعث له على تقويض غيره . كما سيأتي ذلك في كتاب ذم الكبر والعجب وكتاب ذم الغضب . فإن علاج كل علة بالمعكوس فيها . وسبب المراء والجدال ما ذكرناه ، ثم المرأطة عليه تجعله عادة وطبعاً حتى يتمكن من النفس ويعسر الصبر عنه .

وروى أن أبا حنيفة رحمه الله قال لداود الطائي : لم آتت إلا زواة ؟ قال : لأجاهد نفسي بترك الجدال ، فقال احضر المجالس واستمع ما يقال ولا تتكلم ، قال : ففعلت ذلك فما رأيت مجاهدة أشد على منها . وهو كما قال لأن من سمع الخطأ من غيره وهو قادر على كشفه يسر عليه الصبر عند ذلك جدا . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ومن ترك المراء وهو عني بن الله له بيتاً في أصل الجنة ، لشدة ذلك على النفس وأكثر ما يغلب ذلك في المذاهب والعقائد . فإن المراء طبع ؛ فإذا ظن أن له عليه ثواباً اشتد عليه حرصه وتعاون الطبع والشرع عليه ، وذلك خطأ محض . بل ينبغي للإنسان أن يكف لسانه عن أهل القبلة ، وإذا رأى مبتدعاً تطفف في نصحه في خلة لا بطريق الجدال . فإن الجدال ينحيل إليه أنها حيلة منه في التليس وأن ذلك صنعة يقدر المجادلون من أهل مذهبه على أمثالها وأرادوا ، فتستمر البدعة في قلبه بالجدل وتؤكد فإذا عرف أن التصح لا ينفع اشتغل بنفسه وتركه ، وقال صلى الله عليه وسلم « رحم الله من كف لسانه عن أهل القبلة إلا بأحسن ما يقدر عليه <sup>(١)</sup> » وقال هشام بن عروة : كان عليه السلام يردد قوله هذا سبع مرات : وكل من اعتاد المجادة مدة وأثنى الناس عليه ووجد لنفسه بسببه عراوقبلاً قويت فيه هذه المهلكات ولا يستطيع عنها نزوعاً إذا اجتمع عليه سلطان الغضب والكبر والرياء وحسب الجاه والتعزز بالفضل . وأحاديث هذه الصفات يشق مجاهدتها فكيف بمجموعها ؟

### الآلة الخاصة : الخصومة

وهي أيضاً مذمومة وهي وراء الجدال والمراء ؛ فالمرأ طعن في كلام الغير بإظهار خلل فيه من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقير الغير . وإظهار مزينة الكياسة والجدال عبارة عن أمر يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها . والخصومة لجاج في الكلام ليستوفي به مال أو حق مقصود ، وذلك تارة يكون ابتداء وتارة يكون اعتراضاً . والمراء لا يكون إلا باعتراض على كلام سبق . فقد قالت عائشة رضي الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أبغض

(١) حديث « رحم الله من كف لسانه عن أهل القبلة إلا بأحسن ما يقدر عليه » أخرجه ابن أبي الدنيا بإسناد ضعيف من حديث هشام بن عروة عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسل ورواه أبو منصور الفهلي في مسند الفردوس من رواية هشام عن عائشة بلفظ « رحم الله من أباك لسانه عن أمراض المسلمين » وهو متقطع وضعيف جداً .

الرجال إلى الله الآله الحضم<sup>(١)</sup> ، وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من جادل في خصومة بغير علم لم يزل في سخط الله حتى يترفع<sup>(٢)</sup> ، وقال بعضهم : إياك والخصومة فإنها تمحق الدين . ويقال : ما عاصم ورع قط في الدين . وقال ابن قتبية : مرى بشر بن عبد الله بن أبي بكرة فقال : ما بمسلكك ههنا ؟ قلت : خصومة بيني وبين ابن عم لي ، فقال : إن لأهلك عدى يدا وإنى أريد أن أجزيك بها ، وإنى والله مارأيت شيئا أذهب للدين ولا أنقص للروء ولا أصيب للذة ولا أشغل القلب من الخصومة ؟ قال : نعمت لأنصرف فقال لي خصمى : مالك ؟ قلت : لأعاصيك ، قال : إنك عرفت أن الحق لي ، قلت : لا ولكن أكرم نفسى عن هذا قال : فإني لا أطلب منك شيئا هو لك .

فإن قلت . فإذا كان للإنسان حق فلا بد له من الخصومة في طلبه أوفى حفظه مهما ظلم فكيف يكون حكمه وكيف تدم خصومته ؟ فاعلم أن هذا الذم يتناول الذى يتخاصم بالباطل والذى يتخاصم بغير علم ؛ مثل وكيل القاضى فإنه قبل أن يتعرف أن الحق في أى جانب هو يتوكل في الخصومة من أى جانب كان ؟ فيخاصم بغير علم ويتناول الذى يطلب حقه ، ولكنه لا يقتصر على قدر الحاجة بل يظهر اللد في الخصومة على قصد التسلط أو على قصد الإيذاء ويتناول الذى يخرج بالخصومة كلمات مؤذية ليس يحتاج إليها في نصرة الحجة وإظهار الحق ، ويتناول الذى يحمله على الخصومة بعض العناد لقهر الخصم وكسره مع أنه قد يستحق ذلك التقدر من المال ، وفي الناس من يصرح به ويقول : إنما قصدى عناده وكسر عرضه ، وإنى إن أخذت منه هذا المال ربما رميت به في بئر ولا أبالي ، وهذا مقصوده اللد والخصومة واللجاج وهو مذموم جدا . فأما المظلوم الذى ينصر حجته بطريق الشرع من غير لد وإسراف وزيادة للجاج على قدر الحاجة ومن غير قصد عناد وإيذاء ففعله ليس مجرام ، ولكن الأولى تركه ما وجد إليه سبيلا ، فإن منبط اللسان في الخصومة على حد الاعتدال متعذر ، والخصومة توغر الصدر وتهيج الغضب ، وإذا هاج الغضب نسي المتنازع فيه وبقى الحقد بين المتخاصمين ، حتى يفرح كل واحد بمساة صاحبه ويمحزن بمرته ويطلق اللسان في عرضه ، فمن بدأ بالخصومة فقد تعرض لهذه المحذورات ، وأقل ما فيه تقويض خاطره حتى إنه في صلاته يشغل بمحاجة خصمه فلا يبقى الأمر على حد الواجب ، فالخصومة مبدأ كل شر ، وكذا المراء والجدال ، فينبغى أن لا يفتح بابها إلا لضرورة ، وعند الضرورة ينبغى أن يحفظ اللسان والقلب عن تهبات الخصومة وذلك متعذر جدا ، فمن اقتصر على الواجب في خصومته سلم من الإثم ولا تدم خصومته ، إلا أنه إن كان مستغنيا عن الخصومة فيما خاصم فيه لأن عنده ما يكتفيه فيكون تاركا للأولى ولا يكون آثما ، نعم أقل ما يغوته في الخصومة والمراء والجدال طيب الكلام وماورد فيه من الثواب ، إذ أقل درجات طيب الكلام إظهار الموافقة ، ولا خشونة في الكلام أعظم من العلن والاعتراض الذى صاحبه إما تمجيد وإما تكذيب ، فإن من جادل غيره أو ماراه أو عاصمه فقد جعله أركذبه فيفوت به طيب الكلام . وقد قال صلى الله عليه وسلم : يمكنكم من الجنة طيب الكلام ولطام الطعام<sup>(٣)</sup> .

#### الآفة الخاصة بالخصومة

(١) حديث عائشة : أن أنس الرجل إلى الله الآله الحضم « أخرجه البخارى وقد تقدم . (٢) حديث أبي هريرة : من جادل في خصومة بغير علم لم يزل في سخط الله حتى يترفع « أخرجه ابن أبى الدنيا والأصمغاني في الترغيب والترهيب وفيه وجاء أبو يحيى ضعه الجمهور .

(٣) حديث « يمكنكم من الجنة طيب الكلام ولطام الطعام » أخرجه الطبرانى من حديث جابر وفيه من لأثره وله من حديث مائى "أبى شرح بإسناد جيد « يوجب الجنة لطام الطعام وحسن الكلام » .

وقد قال الله تعالى ﴿وقولوا للناس حسناً﴾ وقال ابن عباس رضي الله عنهما : من سلم عليك من خلق الله فأرد عليه السلام وإن كان مجوسياً إن الله تعالى يقول ﴿وإذا حييتم بتحيةٍ فحيوا بأحسن منها أو ردوها﴾ وقال ابن عباس أيضاً : لو قال لي فرعون خيراً لرددت عليه . وقال أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن في الجنة لفرفاً يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعداء الله تعالى لمن أطعم الطعام وآلان الكلام <sup>(١)</sup> ، وروى أن عيسى عليه السلام مر به خبز فقال : مر بسلام ، فقيل : ياروح الله انقل هذا الخبز ، فقال : أكره أن أعود لسانى الشر . وقال نعيمنا عليه السلام : الكلمة الطيبة صدقة <sup>(٢)</sup> ، وقال : أهوا النار ولو بشق تمره فإن لم تجدوا فيكم كلمة طيبة <sup>(٣)</sup> ، وقال عمر رضي الله عنه البر شيء حين وجه طليق وكلام لين . وقال بعض الحكماء : الكلام اللين يغسل الضمائر المستكنة في الجوارح . وقال بعض الحكماء : كل كلام لا يسخط ربك إلا أنك ترضى به جليسك فلا تكن به عليه بخيلاً ، فإنه لعله يمرضك منه ثواب المحسنين . وهذا كله في فضل الكلام الطيب وتضاده الخسومة والمراء والجدال والحجاج ، فإنه الكلام المستكره للموحش المؤذى للقلب المتغصن للعيش المهيج للغضب المورغ للصدر . نسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه

### الآلة السادسة

التعمر في الكلام بالتشديد وتكلف السجع والقصاحة والتصنع فيه بالتشبيات والمقدمات وما جرى به عادة المتفاهمين المدعين الخطابة . وكل ذلك من التصنع المذموم ومن التكلف المفقوت الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا وأتباعي أمي برءاء من التكلف ، وقال صلى الله عليه وسلم : إن أبغضكم إلى وأبعدكم من مجلسي الثرثارون المتفيهقون المتشدقون في الكلام <sup>(١)</sup> ، وقالت فاطمة رضي الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : شرار أمي الذين غذا بالنعم يأكلون ألوان العلم ويلبسون ألوان الثياب ويتشدقون في الكلام <sup>(٢)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم : ألا هلك المتشظون - ثلاث مرات - <sup>(٣)</sup> ، والتشظع هو التعق والاسقصاء . وقال عمر رضي الله عنه : شقائق الكلام من شقائق الشيطان . وجاء عمر بن سعد بن أبي وقاص إلى أبيه سعد يسأله حاجة ، فتكلم بين يدي حاجته بكلام فقال له سعد : ما كنت من حاجتك بأبعد منك اليوم ! إلى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يأتي على الناس زمان يتخللون الكلام بالسنتهم كما تتخلل البقرة الكلا بلسانها <sup>(٤)</sup> ، وكأنه أنكر عليه ما قدمه على الكلام من التشبيب والمقدمة المصنوعة المتكلفة . وهذا أيضاً من آفات اللسان ، ويدخل فيه كل مجمع متكلف ، وكذلك التفاضع الخارج من حد العادة ، وكذلك التكلف بالسجع في المحاورات ، إذ قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم بقرعة في الجنين فقال بعض قوم الجاني : كيف ندى من لا شرب ولا أكل ولا صاح ولا استل

(١) حديث أنس : إن في الجنة لفرفاً يرى ظاهرها من باطنها ... الحديث . أخرجه الترمذي وقد تقدم (٢) حديث : الكلمة الطيبة صدقة . أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة (٣) حديث : أهوا النار ولو بشق تمره ... الحديث ، متفق عليه من حديث عدى بن حاتم وقد تقدم .

### الآلة السادسة : التعمر في الكلام والتشديد

(٤) حديث : إن أبغضكم إلى الله وأبعدكم من مجلسي الثرثارون المتفيهقون المتشدقون . أخرجه أحمد من حديث أبي بصير وهو عند الترمذي من حديث جابر وحسنه بقسط : إن أبغضكم إلى (٥) حديث فاطمة : شرار أمي الذين غذا بالنعم ، الحديث وفيه : ويتشدقون . أخرجه ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب (٦) حديث : ألا هلك المتشظون . من حديث ابن مسعود (٧) حديث سعد : يأتي على الناس زمان يتخللون الكلام بالسنتهم كما تتخلل البقرة الكلا بلسانها . ورواه أحمد .



ومثل ذلك بطل ؟ فقال : « أصبحا كسجح الأعراب »<sup>(١)</sup> ، وأنكر ذلك لأن أثر التكلف والتصنع بين عليه ، بل ينبغي أن يقتصر في كل شيء على مقصوده : ومقصود الكلام التفهيم للفرض وما وراء ذلك تصنع مذموم . ولا يدخل في هذه تحسين ألفاظ الخطابة والتذكير من غير إفراط وإغراب ، فإن المقصود منها تحريك القلوب وتشويقها وقبضها وبسطها ، فلرئاسة اللفظ تأثير فيه فهو لا تق به . فأما المحاورات التي تجري لقضاء الحاجات فلا يليق بها السجع والتشديق والاستغفال به من التكلف المذموم ، ولا باعث عليه إلا الرياء وإظهار الفصاحة والتبذير بالبراعة وكل ذلك مذموم يكرهه الشرع ويحذر عنه

### الآفة السابعة : الفحش والسب وبذاءة اللسان

وهو مذموم ومنهى عنه ومصدره الحبث والتمزق قال صلى الله عليه وسلم : « إياكم والفحش فإن الله تعالى لا يحب الفحش ولا التفحش »<sup>(٢)</sup> ، ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن تسب قتل يد من المشركين فقال : « لا تسبوا هؤلاء فإنه لا يخلص إليهم شيء مما تقولون وتؤذون الأحياء إلا إن البذاء لوم »<sup>(٣)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم ليس المؤمن بالطمعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذي<sup>(٤)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم : « الجنة حرام على كل فاحش أن يدخلها »<sup>(٥)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم : « أروية يؤذون أهل النار في النار على ما بهم من الأذى يسمون بين الحميم والجميم يدعون بالويل والثبور : رجل يسيل فوه قتيحا ودما فيقال له ما بال الأبدع قد آذانا على ما بنا من الأذى ؟ فيقول إن الأبدع كان ينظر إلى كل كلمة قدعة خبيثة فيستلذها كما يستلذ الرفث »<sup>(٦)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم لعائشة يا عائشة لو كان الفحش رجلا لكان رجلا سوء<sup>(٧)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم والبذاء والبيان شعبتان من شعب التفنق<sup>(٨)</sup> ، فيحتمل أن يراد بالبيان كشف ما لا يجوز كشفه ، ويحتمل أيضا المبالغة في الإيضاح حتى ينتهي إلى حد التكلف ، ويحتمل أيضا البيان في أمور الدين وفي صفات الله تعالى ، فإن إلقاء ذلك بجملا إلى أسماع العوام أولى من المبالغة في بيانه : إذ أنه يثور من غاية البيان فيه شكوك ووساوس فإذا أجملت بادررت القلوب إلى القبول ولم تضطرب ، ولكن ذكره مقرونا بالبذاء يشبه أن يكون المراد به المجاهرة بما يستسى الإنسان من بيانه ، فإن الأولى في مثله الإغماض والتغافل دون الكشف والبيان ، وقال صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا يحب الفاحش الأولى في مثله الإغماض والتغافل دون الكشف والبيان ، وقال صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا يحب الفاحش

(١) حديث : كيف خذى من لا غريب ولا أكل .. الحديث . أخرجه مسلم من حديث المغيرة بن شعبة وأبو هريرة وأما هنا البغاري أيضا .

### الآفة السابعة : الفحش والسب وبذاءة اللسان

(٢) حديث « إياكم والفحش ... الحديث » أخرجه النسائي في الكبرى في التفسير والحاكم وصححه من حديث عبد الله بن عمرو ورواه ابن حبان من حديث أبي هريرة (٢) حديث : النبي عن سب قتل يد من المشركين الحديث أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث محمد بن هل البائر مرسلًا ورواه تات ولفظ النسائي من حديث ابن عباس بإسناد صحيح : « لن رجلا وقع في آب قلماس كان في الجاهلية فقلعه .. الحديث » وفيه « لا تسبوا أمواتكم تؤذوا أحياءنا » (٤) حديث « ليس المؤمن بالطمعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذي » أخرجه الترمذي بإسناد صحيح من حديث ابن مسعود وقال حسن غريب وصححه وروى موقوفًا قال المغارقي في اللؤلؤ والمؤوقوف أصح (٥) حديث « الجنة حرام على كل فاحش أن يدخلها » أخرجه ابن أبي الدنيا وأبو ليم في الحلية من حديث عبد الله بن عمرو (٦) حديث « أروية يؤذون أهل النار على ما بهم من الأذى .. الحديث » وفيه « أن الأبدع كان ينظر إلى كل كلمة قدعة خبيثة فيستلذها كما يستلذ الرفث » أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث شفي بن صالح واختلف في صحته فذكره أبو ليم في الصحابة وذكره البخاري وابن حبان في التابين (٧) حديث « يا عائشة لو كان الفحش رجلا لكان رجلا سوء » أخرجه ابن أبي الدنيا من رواية أن هبة عن أبي النضر عن أبي سلفة عنها (٨) حديث « البذاء والبيان شعبتان من التفنق » أخرجه الترمذي وحسنه الحاكم وصححه علي شبرطاما من حديث أبي أمامة وقد تقدم .

المتفحش الصباح في الأسواق<sup>(١)</sup> ، وقال جابر بن سمرة : كنت جالسا عند النبي صلى الله عليه وسلم وأني أمانى فقال صلى الله عليه وسلم : إن الفحش والتفاحش ليسا من الإسلام في شيء وإن أحسن الناس إسلاما أحاسنهم أخلاقا<sup>(٢)</sup> ، وقال إبراهيم بن ميسرة يقال يؤتى بالفاحش المتفحش يوم القيامة في صورة كلب أو في جوف كلب . وقال الأحف بن قيس : ألا أخبركم بأدول الهاء : اللسان البذي والخلق النقي ،

فهذه بذاءة الفحش فاما حدته وحقيقتها فهو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة ، وأكثر ذلك يجري في ألفاظ الوقاع وما يتعلق به ، فإن لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيه ، وأهل الصلاح يتحاشون عنها بل يكتون منها . ويدلون عليها بالرموز فيذكرون ما يقارنها ويتعلق بها ، وقال ابن عباس : إن الله حي كريم يعفو ويكفر ، كفى بالله عن الجماع فالليس والفسس والدخول والصعبة كنايةات عن الوقاع وليست بفاحشة . وهناك عبارات فاحشة يستحب ذكرها ويستعمل أكثرها في الستم والتعمير ، وهذه العبارات متفاوتة في الفحش وبعضها ألحش من بعض . وربما اختلف ذلك بمادة البلاد وأواملها مكرهة وأواخرها محظورة وبينهما درجات يتردد فيها ، وليس يختص هذا بالوقاع ، بل بالكناية بقضاء الحاجة عن البول والغائط أول من لفظ التفظظ والخراف وغيرهما ، فإن هذا أيضا مما يخفى وكل ما يخفى يستحيا منه فلا يفتني أن يذكر ألفاظه الصريحة فإنه غش ، وكذلك يستحسن في العادة الكناية عن النساء فلا يقال : قالت زوجته كذا بل يقال قيل في الحجرة ، أو من وراء الستر ، أو قالت أم الأولاد . فالتلفظ في هذه الألفاظ محمود والتصريح فيها يفضى إلى الفحش ، وكذلك من به عيوب يستحيا منها فلا يفتني أن يعبر عنها بصريح لفظها كالبرص والقرع والبواسير . بل يقال العارض الذي يشكوه وما يجري مجراه ، فالتصريح بذلك داخل في الفحش وجميع ذلك من آفات اللسان .

قال الملازم بن هرون : كان عمر بن عبد العزيز يتحفظ في منطته : فخرج تحت إبطه خراج فأثباته فسأله أنرى ما يقول ؟ فقلنا : من أين خرج ؟ فقال : من بطن ألد . والبائع على الفحش لما قصد الإذاء وإلما الاعتداء الحاصل من مخالطة الفساق وأهل الخبث والؤم ومن عاداتهم السب . وقال أعرابي لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أوصني فقال : عليك بتقوى الله وإن امرؤ عريك بشيء يعلمه فيك فلا تعمه بشيء فيه يكن وبالله عليه وأجره لك ولا تسب شيئا ، قال : فما سببت شيئا بعده<sup>(٣)</sup> وقال عياض بن حمار : قلت يا رسول الله إن الرجل من قومي يسبني وهو دوني هل على من بأس أن أتصر منه ؟ فقال : المستبان شيطانان يتماويلان ويتهاجان<sup>(٤)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر<sup>(٥)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم « للمستبان ما قاله فعل البادي » منهما حتى يمتدئ المظالم<sup>(٦)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم « ملعون من سب والديه » وفي رواية « من أكبر الكبائر أن يسب الرجل

(١) حديث « إن الله لا يحب الفاحش ولا المتفحش الصباح في الأسواق » أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث جابر بسند ضعيف وله والطبراني من حديث أسامة بن زيد « إن الله لا يحب الفاحش المتفحش » وأسناده جيد (٢) حديث جابر بن سمرة « إن الفحش والتفحش ليسا من الإسلام في شيء ... الحديث » أخرجه أحمد وابن أبي الدنيا بإسناد صحيح .

(٣) حديث : قال أعرابي أوصني فقال « عليك بتقوى الله وإن امرؤ عريك بشيء يعلمه فيك فلا تعمه بشيء فيه تله فيه . الحديث » أخرجه أحمد والطبراني بإسناد جيد من حديث أبي جري المجيب قيل اسمه جابر بن سلم وقيل سلم بن جابر . (٤) حديث عياض ابن حمار : قلت يا رسول الله الرجل من قومي يسبني وهو دوني هل على من بأس أن أتصر منه ؟ فقال « المستبان شيطانان يتماويلان ويتهاجان » أخرجه أبو داود والبيهقي وأسناده جيد (٥) حديث « سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر » متفق عليه من حديث ابن مسعود (٦) حديثه المستبان ما قاله فعل البادي حتى يمتدئ المظالم » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقال

« ما لم يمتد » (٧) حديث « ملعون من سب والديه » وفي رواية « من أكبر الكبائر أن يسب الرجل والديه ... الحديث » أخرجه أحمد وأبو يعلى والطبراني من حديث ابن عباس باللفظ الأول بإسناد جيد ووافق الشيخان على اللفظ الثاني من حديث عبادة بن عمرو

والديه . قالوا يا رسول الله كيف يسب الرجل والده ؟ قال : يسب أباه الرجل فيسب الآخر أباه .

### الآفة الثامنة : اللعن

لما حيوان أو جناد أو إنسان وكل ذلك مذموم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، المؤمن ليس بلعان <sup>(١)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم : لا تلعنوا بركة الله ولا بفضله ولا بجاههم <sup>(٢)</sup> ، وقال حذيفة : ما تلعن قوم قط إلا لحق عليهم القول . وقال عمران بن حصين : بيننا رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره إذا امرأة من الأنصار على ناقة لها فضجرت منها فلمتها فقال صلى الله عليه وسلم : خذوا ماعليها وأعروها فلما ملونة <sup>(٣)</sup> ، قال : فكان أن أنظر إلى تلك الناقة تمشي بين الناس لا يتعرض لها أحد . وقال أبو الدرداء : ما لئن أحد الأرض إلا قالت : لئن الله أعصاها : وقالت عائشة رضي الله عنها : سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أباً بكر وهو يلحن بعض رقيقه فالتفت إليه وقال : يا أبا بكر أصدقين ولما نزل كلا ورب الكعبة - مرتين أو ثلاثاً <sup>(٤)</sup> ، فاعتق أبو بكر يومئذ رقيقه وأتى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : لا أعود . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن العالين لا يكونون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة <sup>(٥)</sup> ، وقال أنس : كان رجل يسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على بغير فلحن بغيره فقال صلى الله عليه وسلم : يا عبد الله لا تسر منا على بغير ملون <sup>(٦)</sup> ، وقال ذلك إنكاراً عليه . واللعن عبارة عن الطرد والإبعاد من الله تعالى ، وذلك غير جائز إلا على من اتصف بصفة تبعده عن الله عز وجل وهو الكفر والظلم ، بأن يقول لعنة الله على الظالمين وعلى الكافرين ، وينبغي أن يقبح فيه لفظ الشرع فإن في اللعنة خطراً لأنه حكم على الله عز وجل بأنه قد أبعد الملون وذلك غيب لا يطلع عليه غير الله تعالى ، ويطلع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أطلع الله عليه .

والصفات المقترنة للعن ثلاثة : الكفر ، والبدة ، والفسق . ولعن في كل واحدة ثلاث مراتب .

الأول : اللعن بالوصف العام كقولك لعنة الله الكافرين والمبتدعين والفاسقة .

الثانية : اللعن بأوصاف أخص منه كقولك لعنة الله على اليهود والنصارى والمجوس وعلى القدرية والخوارج والروافض ، أو على الزناة والظلة وأكلى الزبا ، وكل ذلك جائز . ولكن في لعن أوصاف البتة خطر لأن معرفة البدة غامضة ولم يرد فيه لفظ مأثور ، فينبغي أن يمنع منه العوام لأن ذلك يستدعي المعارضة بمثله ويثير نزاعاً بين الناس وفساداً .

الثالثة : اللعن للشخص المعين وهذا فيه خطر كقولك : زيد لعنة الله ، وهو كافر أو فاسق أو مبتدع ، والتفصيل

### الآفة الثامنة : اللعن

(١) حديث « المؤمن ليس بلعان » تقدم حديث ابن مسعود « ليس المؤمن باللعان ولا اللعان ... الحديث » على هذا أحد معمر حديثاً والترمذي وحسنه من حديث ابن عمر « لا يكون المؤمن لعاناً » (٢) حديث « لا تلعنوا بركة الله .. الحديث » أخرجه الترمذي وأبو داود من حديث سمرة بن جندب قال الترمذي : حسن صحيح (٣) حديث عمران بن حصين : بيننا رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره إذا امرأة من الأنصار على ناقة لها فضجرت منها فلمتها ... الحديث « رواه مسلم . (٤) حديث عائشة : سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أباً بكر رضي الله عنه وهو يلحن رقيقه فالتفت إليه فقال : يا أبا بكر لعانين وصدقين ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت وشيخه بطار بن موسى الخفاف ضبطه الجمهور وكان أحمد حسن الرأي فيه . (٥) حديث « لن العالين لا يكونون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة » أخرجه مسلم من حديث أبي الدرداء (٦) حديث أنس : كان رجل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على بغير فلحن بغيره فقال يا عبد الله لا تسر منا على بغير ملون « أخرجه ابن أبي الدنيا بإسناد جيد

فيه أن كل شخص ثبتت أمته شرعا فيجوز لأمته كقولك . فرعون لعنه الله ، وأبر جهل لعنه الله ، لأنه قد ثبت أن هؤلاء ماتوا على الكفر وعرف ذلك شرعا . وأما شخص يبينه في زماننا كقولك زيد لعنه الله ، وهو يهودى مثلهذا فيه خطر فإنه ربما يسلم فيموت مقربا عند الله فكيف يحكم بكونه ملعونا ؟ .

فإن قلت : بل من لكونه كافرا في الحال كما يقال للمسلم : رحمه الله ، لكونه مسلما في الحال ، وإن كان يتصور أن يرد ؟ فأعلم أن معنى قولنا رحمه الله : أى ثبته الله على الإسلام الذى هو سبب الرحمة وعلى الطاعة ، ولا يمكن أن يقال ثبت الله الكافر على ما هو سبب اللعنة فإن هذا سؤال للكفر وهو في نفسه كفر ، بل الجائر أن يقال : لعنه الله إن مات على الكفر ، ولأن الله إن مات على الإسلام . وذلك غيب لا يدري ، وللطرق متردد بين الجهتين ففيه خطر ، وليس في ترك اللعن خطر . وإذا عرفت هذا في الكافر فهو في زيد الفاسق أو زيد المبتدع أولى ، فلمن الأعيان فيه خطر لأن الأعيان تتقلب في الأحوال إلا من أعلم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه يجوز أن يعلم من يموت على الكفر ، ولذلك عين قوما باللعن فكان يقول في دعائه على قريش « اللهم عليك بأبي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة <sup>(١)</sup> ، وذكر جماعة قتلوا على الكفر حتى إن من لم يعلم عاقبته كان يلعنه فنبه على إذ روى : أنه كان يلعن الذى قتلوا أصحاب بئر معونة في قوته شورا فذلل قوله تعالى « ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو ينفذهم فإنه ظالمون <sup>(٢)</sup> » ، يعنى أنهم ربما يسلمون فن ابن تعلم أنهم ملعونون ؟ وكذلك من بان لنا موته على الكفر جاز لعنه وجاز ذمه إن لم يكن فيه أذى على مسلم ، فإن كان لم يجر كما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل أبي بكر رضى الله عنه عن قبر مره وهو يريد الطائف فقال : هذا قبر رجل كان عاتيا على الله ورسوله وهو سعيد بن العاص ، فغضب ابنه عمرو بن سعيد وقال : يا رسول الله هذا قبر رجل كان أعلم للطعام وأحرب للهام من أبي قحافة فقال أبو بكر . يكلمني هذا يا رسول الله بمثل هذا الكلام ؟ فقال صلى الله عليه وسلم « اكفف عن أبي بكر ، فانصرف ثم أقبل على أبي بكر فقال « يا أبي بكر إذا ذكرتكم الكفار فعدوا ، فإنكم إذا خصصتم غضب الأبناء للأب » فكف الناس عن ذلك <sup>(٣)</sup> وشرب نعيان الخمر لثقت مرات في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعض الصحابة . لعنه الله ما أكثر ما يؤذي به فقال صلى الله عليه وسلم « لا تسكن عرونا الشيطان على أخيك <sup>(٤)</sup> » وفي رواية « لا تنقل هذا فإنه يحب الله ورسوله ، فنهاه عن ذلك ، وهذا يدل على أن

(١) حديث « اللهم عليك بأبي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة » وذكر جماعة متفق عليه من حديث ابن مسعود .

(٢) حديث : أنه كان يلعن الذين قتلوا أصحاب بئر معونة في قوته شورا فذلل قوله تعالى ( ليس لك من الأمر شيء ) أخرجه الشيطان من حديث أنس : دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الذين قتلوا أصحاب بئر معونة ثلاثين صباحا ... الحديث . وفي رواية لها : قنت شهرا يدعو على رطل وذكرا ... الحديث . ولها من حديث أبي هريرة : وكان يقول حين يفرغ من صلاة الصبح من الزيادة ويكبر ويرفع رأسه ... الحديث « اللهم الن ليحيا ورعلا ... الحديث » وفيه « ثم بلنا أنه ترك ذلك لما أزيل الله ليس لك من الأمر شيء » لفظ مسلم .

(٣) حديث : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل أبي بكر عن قبر مره وهو يريد الطائف فقال : هذا قبر رجل كان عاتيا على الله وهما رسول الله وهو سعيد بن العاص فغضب ابنه ... الحديث « أخرجه أبو داود في المراسيل من رواية علي بن ربيعة قال : لما استجبت رسول الله صلى الله عليه وسلم نكح توجة من قومه ذلك إلى الطائف ومعه أبو بكر ومعه ابن سعيد بن العاص فقال أبو بكر : إن هذا القبر ؟ قالوا قبر سعيد بن العاص فقال أبو بكر : لمن الله صاحب هذا القبر فإنه كان يجهده الله ورسوله ... الحديث . وفيه « فإذا سببت المسلمين فسيوم حبيبا » (٤) حديث : شرب نعيان الخمر لثقت مرات في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعض الصحابة : لعنه الله ما أكثر ما يؤذي به فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تسكن عرونا الشيطان على أخيك » وفي رواية : « لا تامل هذا فإنه يحب الله ورسوله » أخرجه ابن عبد البر في الاستيعاب من طريق الزيد بن بكار من رواية محمد بن عمرو بن حزم مرسل ومحمد بن وهب في حياته صلى الله عليه وسلم وسماه محمدا وكناه عبد الملك وبلغنا من حديث عمر : أن رجلا من عهد =

لمن فاسق بعينه غير جائز . وعلى الجملة ففي لمن الأشخاص خطر فليجنب ولا خطر في السكوت عن لمن إبليس مبتلا فضلا عن غيره .

فإن قيل . هل يجوز لعن يزيد لأنه قاتل الحسين أو أسر به ؟ قلنا . هذا لم يثبت أصلا فلا يجوز أن يقال إنه قتله أو أسر به مالم يثبت ، فضلا عن العنة ، لأنه لا يجوز نسبة مسلم إلى كبيرة من غير تحقيق . نعم يجوز أن يقال قتل ابن ملجم عليا وقتل أبو لؤلؤة عمر رضي الله عنهما فإن ذلك ثبت متواترا . فلا يجوز أن يرى مسلم بنفسه أو كافر من غير تحقيق قال صلى الله عليه وسلم : لا يرى رجل رجلا بالكفر ولا يريه بالفسق إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك <sup>(١)</sup> . وقال صلى الله عليه وسلم : ما شهد رجل على رجل بالكفر إلا بآية به أحدهما ، إن كان كافرا فهو كما قال ، وإن لم يكن كافرا فقد كفر بتكفيره إياه <sup>(٢)</sup> . وهذا منناه أن يكفره وهو يعلم أنه مسلم فإن ظن أنه كافر يبدعه أو غيرهما كان عظيما لا كافرا . وقال معاذ : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنباك أن تقسم مسلما أو تعمى إماما عادلا ، والتمرض للأموات أغث <sup>(٣)</sup> . قال مدروق دخلت على عائشة رضي الله عنها فقالت : ما فعل فلان لعنه الله ؟ قلت توفي قالت : رحمه الله ، قلت : وكيف هذا ؟ قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تسبوا الأموات فإنهم قد أقضوا إلى ما قدموا » <sup>(٤)</sup> . وقال عليه السلام « لا تسبوا الأموات فتؤذوا به الأحياء » <sup>(٥)</sup> . وقال عليه السلام « أيها الناس احفظوني في أصحابي وإخواني وأصحابي ولا تسبوا ، أيها الناس إذا مات الميت فاذكروا منه خيرا » <sup>(٦)</sup> .

فإن قيل ؟ فهل يجوز أن يقال . قاتل الحسين لعنه الله ؟ أو الأسر بقتله لعنه الله ؟ قلنا . الصواب أن يقال . قاتل الحسين إن مات قبل التوبة لعنه الله ، لأنه يحتمل أن يموت بعد التوبة ، فإن وحشيا قاتل حرمة هم رسول الله صلى الله عليه وسلم قتله وهو كافر ، ثم تاب عن الكفر والقتل جميعا ولا يجوز أن يلعن ، والقتل كبيرة ولا تنتهي إلى رتبة الكفر ، فإذا لم يقيد بالتوبة وأطلق كان فيه خطر وليس في السكوت خطر فهو أول .

ولما أوردنا هذا لنهون الناس باللعنة وإطلاق اللسان بها . والمؤمن ليس بلمان فلا ينبغي أن يطلق اللسان باللعنة إلا على من مات على الكفر ، أو على الأجناس المعروفين بأوصافهم دون الأشخاص المعينين . فلا اشتغال

= رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اسمه وكان يلقب حارا وكان يضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان قد جلده في الدرب ، فأتى به يوما فأمر به جلده فقال رجل من القوم : اللهم العنه ما أكثر ما يؤذي به أفعال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تنفوه فراقه ما علمت ألا أنه يحب الله ورسوله » من حديث أبي هريرة في رجل شرب ولم يمسويه « لا تسبوا عليه الشيطان » وفي رواية « لا تسبوا حون الشيطان على أخيك » <sup>(١)</sup> . حديث لا يرى رجل رجلا بالكفر ولا يريه بالفسق إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك ، متفق عليه . والبيان المختار من حديث أبي ذر مع تقدم ذكر الفسق <sup>(٢)</sup> . حديث ما شهد رجل على رجل بالكفر إلا أن أحدهما إن كان كافرا فهو كما قال ، ولئن لم يكن كافرا فقد كفر بتكفيره إياه « أخرجه أبو منصور الدبلي من مسند القردوس من حديث أبي سعيد بنه ضيف .

(٣) . حديث معاذ « أنباك أن تقسم مسلما أو تعمى إماما عادلا » أخرجه أبو نعيم الحافظي أثنا . حديث له طويل (٤) . حديث « لا تسبوا الأموات فإنهم قد أقضوا إلى ما قدموا » أخرجه البخاري وذكر المصنف في أوله قصة لعنة وهو عند ابن المبارك في الزهد والرفائق مع القصة (٥) . حديث « لا تسبوا الأموات فتؤذوا الأحياء » أخرجه الترمذي من حديث المنيرة بن شعبة ورجاله ثقات إلا أن بعضهم أدخل بين المنيرة وبين زياد بن علاقة رجل لم يسم (٦) . حديث « أيها الناس احفظوني في أصحابي وإخواني وأصحابي ولا تسبوا » أخرجه أبو منصور الدبلي من مسند القردوس من حديث عباس الأماصري « احفظوني في أصحابي وأصحابي » وأسناده ضيف . والبيان من حديث أبي سعيد وأبي هريرة « لا تسبوا أصحابي » وأبو داود والترمذي وعنه غريب من حديث ابن عمر « اذكروا عاصم موقام وكنا عن مساوهم » ولساني من حديث عائشة « لا تسبوا موقام إلا بخير » وأسناده جيد .

بذكر الله أول فإن لم يكن في السكوت سلامة .

قال مكي بن إبراهيم . كما عند ابن عون فذكروا بلال بن أبي ردة فجعلوا يلعنونه ويقعون فيه وابن عون ساكت فقالوا . يا ابن عون إنما تذكره لما ارتكبت منك ، فقال : إنما كلتاهما تفرجان من صحيفتي يوم القيامة : لا إله إلا الله ولعن الله فلانا ، فلأن يفرج من صحيفتي لا إله إلا الله ، أحب إلي من أن يفرج منها لعن الله فلانا . وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أوصني فقال : أوصيك أن لا تكون لعانا <sup>(١)</sup> ، وقال ابن عمر : إن أبغض الناس إلى الله كل طعان لعان . وقال بعضهم لعن المؤمن يمد قتله ، وقال حماد بن زيد بعد أن روى هذا لوقلت إنه مرفوع لم أبيال ؟ وعن أبي قتادة قال : كان يقال : من لعن مؤمنا فهو مثل أن يقتله <sup>(٢)</sup> . وقد نقل ذلك حديثا مرفوعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويقرب من لعن النصارى على الإنسان بالشر حتى الفناء على الظالم كقول الإنسان مثلا : لا يصح الله جسمه ولا سله الله وما جرى مجراه ، فإن ذلك مذموم . وفي الخبر : إن المظلوم ليدعو على الظالم حتى يكافئه ثم يبق الظالم عنده فضلة يوم القيامة <sup>(٣)</sup> .

### الآفة التاسعة : الفناء والشر

وقد ذكرنا في كتاب السباع ما يجر من الفناء وما يحل فلا نعيد ، وأما الشر فكل كلام حسنه حسن وفيحه قبيح إلا أن التجرد له مذموم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لأن يتلى جوف أحدكم قبيحا حتى يريه خير له من أن يتلى شعرا » <sup>(١)</sup> وعن مسروق أنه سئل عن بيت من الشعر فكرهه فقيل له في ذلك فقال : أنا أكره أن يوجد في صحيفتي شر . وسئل بعضهم عن شيء من الشعر فقال : أجمل مكان هذا ذكر افان ذكر الله خير من الشعر وعلى الجمل فإفشاء الشعر ونفقه ليس بمحرم إذا لم يكن فيه كلام مستكره قال صلى الله عليه وسلم « إن من الشعر لحكمة » <sup>(٢)</sup> ثم مقصود الشر المدح والتمجيد والتشبيب ، وقد يدخله الكذب ، وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حسان بن ثابت الأنصاري بهجاء الكفار والتوسع في المدح <sup>(٣)</sup> فإنه وإن كان كذبا فإنه لا يلتحق في التحريم بالكذب كقول الشاعر :

ولو لم يكن في كفه غير روحه لجاد بها فليتنق الله سائله

فإن هذا عبارة عن الوصف بنهاية السخاء ، فإن لم يكن صاحبه شاعرا كان كاذبا ، وإن كان شاعرا فالبالغة من صنعة الشعر فلا يقصد منه أن يعتمد صورته . وقد أشهدت أبيات بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم لو تبعت لوجد فيها مثل ذلك فلم يمنع منه . قالت عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصف نفسه وكنت جالسة

(١) حديث قال رجل : أوصني قال : أوصيك أن لا تكون لعانا « أخرجه أحمد والطبراني وابن أبي عاصم في الآحاد والثاني من حديث جرير بن محمد وفيه رجل لم يسم أسقط ذكره ابن أبي عاصم (٢) حديث « لعن المؤمن ككلمته » متفق عليه من حديث ثابت بن النضال (٣) حديث « لعن المظلوم ليدعو على الظالم حتى يكافئه ثم يبق الظالم عنده فضلة يوم القيامة » لم ألق له على أصل وقدمني من حديث عائشة بنت خبيب « من دعا على من ظلمه فقد أصبر » .

### الآفة التاسعة : الفناء والشر

(٤) حديث « لأن يتلى جوف أحدكم قبيحا حتى يريه خير من أن يتلى شعرا » أخرجه مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص واتفق عليه البخاري من حديث أبي هريرة نحوه والبخاري من حديث ابن عمر ومسلم من حديث أبي سعيد (٥) حديث « لعن من لعن الله عليه » قدّم في الباب في آداب السباع (٦) حديث « لعن الله من لعن الله » متفق عليه من حديث البراء أنه صلى الله عليه وسلم قال لعن الله « الجاهل وجبريل ملك » .

أغزل ، فظفرت إليه لجل جبينه يرق وجعل عرقه يتولد نورا قالت : فبغت فظفر إلى فقال : مالك بهت ؟ ، قلت :  
يارسول الله فظفرت إليك لجل جبينك يرق وجعل عرقك يتولد نورا ولو آك أبو كبير الغنل لعل أنك أخق  
بشعره قال : وما يقول يا عائشة أبو كبير الغنل ، قلت : يقول هذين البيتين :

ومرأ من كل غير حبيضة وفساد مرضعة وداء منيل  
وإذا فظفرت إلى أسرة وجهه برقت كبرق العارض النمل

قال فوضع صلى الله عليه وسلم ما كان بيده وقام إلى وقيل ما بين عيني وقال : جزاك الله خيرا يا عائشة  
ما سرت مني كسرورى منك <sup>(١)</sup> ، ولما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم التناثم يوم خيبر أمر العباس بن مرداس  
بأربع فلالص فاندفع يشكو في شعره وفي آخره :

وما كان يدر ولا حابس يسودان مرداس في جمع  
وما كنت دون امرئ منها ومن قطع اليوم لا يرفع

فقال صلى الله عليه وسلم : اظلموا عني لسائه ، فذهب به أبو بكر الصديق رضي الله عنه حتى اختار مائة من الإبل  
ثم رجع وهو من أرضي الناس ، فقال له صلى الله عليه وسلم : أقول في الشعر ؟ ، لجل يعتذر إليه ويقول : بآبي  
أنت وأمي إلى لأجد الشعر ديبيا على لساني كدييب القمل ثم يقرصني كما قرص القمل فلا أجد بدآ من قول الشعر ،  
فتبسم صلى الله عليه وسلم وقال : لاندع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين <sup>(٢)</sup> .

### الآفة العاشرة : المزاح

وأصله مذموم منبى عنه إلا قدراً يسيراً يستقي منه قال صلى الله عليه وسلم : لا تمار أحاك ولا تمارحه <sup>(٣)</sup> ،  
فإن قلت : الماراة فيها إثناء لأن فيها تكديباً للأخ والصديق أو تجهيلاً له وأما المزاح فطايية وفيه انبساط وطيب

(١) حديث عائشة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحصف له وكانت أغزل قالت : فظفرت إليه لجل جبينه يرق وجعل  
عرقه يتولد نورا .. الحديث . وفيه إنباء عائشة لعمر أبي كبير الغنل :

ومرأ من كل غير حبيضة وفساد مرضعة وداء منيل  
فإذا فظفرت إلى أسرة وجهه برقت كبرق العارض النمل

لأن آخر الحديث رواه البيهقي في دلائل النبوة .

(٢) حديث : لما قسم التناثم أمر العباس بن مرداس بأربع فلالص وفي آخره شعره :

وما كان يدر ولا حابس يظفون مرداس في جمع  
وما كنت دون امرئ منها ومن قطع اليوم لا يرفع

فقال صلى الله عليه وسلم : اظلموا عني لسائه الحديث « أخرجه مسلم من حديث رافع بن خديج أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم  
وسلم أبا سفيان بن حرب وطلولان بن أمية وعيينة بن حصن بن بدر والأقرع بن حابس كل إنسان منهم مائة من الإبل وأعطى  
عباس بن مرداس دون ذلك ، فقال عباس بن مرداس :

أجمل نهي ونهب السيد بين حبيضة والأقرع  
وما كان يدر ولا حابس يظفون مرداس في جمع

وما كنت دون امرئ منها ومن قطع اليوم لا يرفع

قال فأمه رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة وزاد في رواية أعطى عطلة بن حلاة مائة وأما زيادة « اظلموا عني لسائه » فليست  
في شيء من الكتب المصنوعة .

### الآفة العاشرة : المزاح

(٣) حديث « لا تمار أحاك ولا تمارحه » أخرجه الترمذي وقد تقدم

قلب فلم ينه عنه ؟ فأعلم أنّ للنبي عنه الإفراط فيه أو اللدأمة عليه . أما اللدأمة فلا تله اشتغال بالعب والهزل فيه واللبس مباح ولكن المزاولة عليه مذمومة ، وأما الإفراط فيه فإنه يورث كثرة الضحك وكثرة الضحك تبيد القلب وتورث الضئيلة في بعض الأحوال ، وتسقط المهابة والوقار . فأيخلو عن هذه الأمور فلا يذم بما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : إني لأمزح ولا أقول إلا حقا <sup>(١)</sup> ، إلا أن مثله يقدر على أن يمزح ولا يقول إلا حقا ، وأما غيره إذا فتح باب المزاح كان غرضه أن يضحك الناس كيما كان . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الرجل ليضحك بالسكفة يضحك بها جلساءه يهوى في النار أبعد من الثريا <sup>(٢)</sup> ، وقال عمر رضي الله عنه : من كثر ضحكك قلت حبيته ، ومن مزح استخف به ، ومن أكثر من شيء عرف به ، ومن كثر كلامه كثرت سقطه ، ومن كثرت سقطه قل حياؤه ، ومن قل حياؤه قل ورعه ، ومن قل ورعه مات قلبه . ولأن الضحك يدل على الغفلة عن الآخرة قال صلى الله عليه وسلم : لو تعلمون ما أعلم لبكىتم كثيرا ولضحكتكم قليلا <sup>(٣)</sup> ، وقال رجل لأخيه : يا أخى هل أتاك أنك وأرد النار ؟ قال : نعم ، قال : فهل أتاك أنك خارج منها ؟ قال : لا ، قال : فغضب الضحك ؟ قيل : فأروى ضاحكا حتى مات . وقال يوسف بن أسباط : أقام الحسن ثلاثين سنة لم يضحك . وقيل أقام عطاء السلي أربعين سنة لم يضحك ونظر وهيب بن الورد إلى قوم يضحكون في عيد فطر فقال : إن كان هؤلاء قد غفر لهم فما غفر لعل الشاكرين ؟ وإن كان لم يغفر لهم فما حسن فعل الخائفين ؟ وكان عبد الله بن أبي يعلى يقول : الضحك ولعل أكفانك قد خرجت من عند القصار ؟ وقال ابن عباس : من أذنب ذنبا وهو يضحك دخل النار وهو يضحك . وقال محمد بن واسع : إذا رأيت في الجنة رجلا يضحك فاحذر من بكائه ؟ قيل : بلى ، قال : فإني يضحك في الدنيا ولا يدري إلى ماذا يصير . هو أعجب منه ؟ فهذه آفة الضحك واللدأمة منه أن يستغرق في ضحكا ، والمحمود منه التبسم الذي يشكف فيه السن ولا يسمع له صوت . وكذلك كان ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> قال القاسم مولى معاوية : أقبل أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم على قلوص له صعب فلم يجعل كلما دنا من النبي صلى الله عليه وسلم ليسأله يفر به فجعل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحكون منه ، ففعل ذلك مرارا ثم وقصه فقله فقيل : يا رسول الله إن الأعرابي قد صرعه قلبه وقد هلك ، فقال : نعم ، وأفواهكم ملأى من دمه <sup>(٥)</sup> ، وأما أداء المزاح إلى سقوط الوقار فقد قال عمر رضي الله عنه : من مزح استخف به . وقال محمد بن المنكدر : قالت لى أمي يابني لا تمازح الصبيان فتعثر عنهم وقال سعيد بن العاص لابنه : يابني لا تمازح الشريف فيحقد عليك ولا الذليل فيجترى عليك . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى : اتقوا الله وإياكم والمزاح فإنه يورث الضئيلة ويخرج إلى القبيح ، تحدثوا بالقرآن وتجالسوا به فإن قيل عليكم الحديث حسن من حديث الرجال . وقال عمر رضي الله عنه : أتدرون لم سمى المزاح مزاحا ؟ قالوا لا ، قال : لأنه أزعج صاحبه عن الحق . وقيل : لكل شيء بذور وبذور العداوة المزاح . ويقال : المزاح مسلبة للنبي مقطعة للأصدقاء .

• فإن قلت : قد نقل المزاح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فكيف ينهى عنه ؟ فأقول : إن قدرت

(١) حديث : إني لأمزح ولا أقول إلا حقا . تقدم (٢) حديث : إن الرجل ليضحك بالسكفة يضحك بها جلساءه يهوى بها في النار أبعد من الثريا . تقدم (٣) حديث : لو تعلمون ما أعلم لبكىتم كثيرا ولضحكتكم قليلا . تقدم (٤) حديث : كان ضحكك التبسم . تقدم (٥) حديث القاسم مولى معاوية : أقبل أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم على قلوص له صعب لم يجعل كلما دنا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليسأله يفر به وجعل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يضحكون منه ففعل ذلك ثلاث مرات ثم وقصه فقله ، فقبل بالرسول أنه أن الأعرابي قد صرعه قلبه فقال : نعم وأفواهكم ملأى من دمه . أخرجه ابن المبارك في الزهد والرفائق وهو مرسل .



على ما قدر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهو أن تخرج ولا تقول إلا حقا ولا تؤذي قلبا ولا تفرط فيه وتقتصر عليه أحيانا على التدور فلا تخرج عليك فيه ، ولكن من النطق العظيم أن يتخذا الإنسان المزاوج حرقا يواظب عليه ويفرط فيه ثم يتسكك بفعل الرسول صلى الله عليه وسلم وهو كن يحدو نهاره مع الزوج ينظر إليهم وإلى رقصهم ويتسكك بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن لما تشاء في النظر إلى رقص الزوج في يوم عيد ، وهو خطأ إذ من الصانئ ما يصير كبيرة بالإصرار ، ومن المباحات ما يصير صغيرة بالإصرار ، فلا ينبغي أن يغفل عن هذا <sup>(١)</sup> نعم روى أبو هريرة أنهم قالوا يا رسول الله إنك تداعبتنا فقال : إني وإن داعبتكم لأقول لإخفا <sup>(٢)</sup> ، وقال عطاء : إن رجلا سأل ابن عباس أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح ؟ فقال : نعم ، قال : فما كان مزاحه ؟ قال : كان من زاحه أنه صلى الله عليه وسلم كسا ذات يوم امرأة من نسائه ثوبا واسما فقال لها والبسه واحدى وجوز منه ذبلا كذيل العروس <sup>(٣)</sup> ، وقال أنس : إن النبي صلى الله عليه وسلم كان من أفكك الناس مع نسائه <sup>(٤)</sup> وروى أنه كان كثير التيسم <sup>(٥)</sup> وعن الحسن قال : أت مجوز إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال لها صلى الله عليه وسلم لا يدخل الجنة مجوز ، فبكث فقال : إنك لست بمجوز يومئذ ، قال الله تعالى ﴿إنا أنشأناهم لإنشاء بقملناهم أباكرا﴾ <sup>(٦)</sup> ، وقال زيد بن أسلم : إن امرأة يقال لها أم أيمن جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : إن زوجي يدعوك ، قال : ومن هو أم الذي بعينه ياض ؟ قالت : والله ما بعينه ياض ، فقال : بل إن بعينه ياض ، فقالت : لا والله ، فقال صلى الله عليه وسلم : ما من أحد إلا وبعينه ياض ، وأراد به البياض المحيط بالحدة <sup>(٧)</sup> وجاءت امرأة أخرى فقالت : يا رسول الله احملني على بعير فقال : بل تحملك على ابن البعير ، فقالت ما أصنع به لأنه لا يحملني فقال صلى الله عليه وسلم : ما من بعير إلا وهو ابن بعير <sup>(٨)</sup> ، فكان يمزح به وقال أنس : كان لابي طلحة ابن يقال له أبو عمير وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ياتهم ويقول « يا أبا عمير ما فعل التبرير » <sup>(٩)</sup> ، لتبرير كان يلعب به وهو فرخ الصقور. وقالت عائشة رضي الله عنها : خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر فقال : تعالى حتى أسألك ، فشددت دوعي على بطني ثم خططنا خطا فقمنا عليه واستبقنا فسبقني وقال : هذه مكان ذي الجواز <sup>(١٠)</sup> ، وذلك أنه جاء يوم ما ونحن بذى الجواز وأنا جارية قد بعثني أبي بشيء فقال : اعطينيه ، فأبيت وسعيت وسعي في أرى فزبدتني وقالت أيضا : سأبقي رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبقته ، فلما حملت اللحم سألني فسبقني ، وقال : هذه بتلك <sup>(١١)</sup> ، وقالت أيضا رضي الله عنها : كان عندي رسول الله صلى الله عليه وسلم وسودة بنت زمعة فصنعت حريرة وجئت به فقلت لسودة : كلي ، فقالت لا أحبه ، فقلت : والله لتأكلن أو لألطنن به وجهك ، فقالت : ما أنا بناقته ، فأخذت

- (١) حديث : لأنه لما تقي في النظر إلى رقص الزوج في يوم عيد تقدم . (٢) حديث أبي هريرة : قالوا إنك تداعبتنا قال : إني وإن داعبتكم فلا أقول إلا حقا . أخرجه الترمذي وحسنه . (٣) حديث عطاء : أن رجلا سأل ابن عباس أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح ؟ فقال ابن عباس : نعم ... الحديث فذكر منه قوله لامرأة من نسائه « البسه واحدى وجوزي » منه ذبلا كذيل العروس ، لم أقف عليه . (٤) حديث أنس : كان من أفكك الناس . تقدم . (٥) حديث « أنه كان كثير التيسم » تقدم . (٦) حديث الحسن : لا يدخل الجنة مجوز . أخرجه الترمذي في النبا في كذا مرسل وأسنده ابن الجوزي في الرواة من حديث أنس بسند ضيف . (٧) حديث زيد بن أسلم : في قوله لامرأة يقال لها أم أيمن قالت إن زوجي يدعوك ، أم التي بعينه ياض ... الحديث . أخرجه الزبير بن بكار في كتاب القسامة والمزاوج ورواه ابن أبي الدنيا من حديث هيب بن سماعة القهري مع اختلاف . (٨) حديث : قوله لامرأة استحلته « تحملك على ابن البعير ... الحديث » أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه من حديث أنس بإلفظ « أنا حاملة على ولد الناقة » . (٩) حديث أنس « يا أبا عمير ما فعل التبرير ؟ » متفق عليه وتقدم في أخلاق النبوة . (١٠) حديث عائشة : في ساقته صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر لبستها وقال : هذه مكان ذي الجواز ، لم أجده أصلا ولم تكن عائشة منه في غزوة بدر . (١١) حديث عائشة : سأبقي فسبقته . أخرجه النسائي وابن ماجه وقد تقدم في التمسك . (١٢) — لحياء علوم الدين — (٣)

يبدى من الصفحة شيئاً منه فطلخت به وجهها ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس بيني وبينها، تخفض لها رسول الله ركبتيه لتستقيد مني فتناولت من الصفحة شيئاً فسححت به وجهي وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك<sup>(١)</sup> وروى أن الضحّاك بن سفيان السكلاي كان رجلاً دميماً قبيحاً، فلما بايحه النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن عندى امرأتين أحسن من هذه الخميرة» - وذلك قبل أن تقول آية الحجاب - أفلا أنزل لك عن إحداهما فتزوجه وعائشة جالسة تسمع، فقالت: «أى أحسن أم أنت؟» فقال: «بل أنا أحسن منها وأكرم، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم من سؤالها إياه لأنه كان دميماً<sup>(٢)</sup>». وروى علقمة عن أبي سلفة أنه كان صلى الله عليه وسلم يدلج لسانه للحسن ابن علي علمهما السلام فيرى الصبي لسانه فيمش له فقال له عيينة بن بدر القزاري: «والله ليكون لي الإبن قد تزوج وبقل وجهه وما قبلته قط» فقال صلى الله عليه وسلم: «إن من لا يرحم لا يرحم<sup>(٣)</sup>» فأكرهه المطايبات منقولة مع النساء والصبيان وكان ذلك منه صلى الله عليه وسلم معالجة لضعف قلوبهم من غير ميل إلى هزل وقال صلى الله عليه وسلم مرة لصهيب وبه رمد وهو يأكل تمرًا: «أنا كل التمر وأنت رمد» فقال: «إنما أكل بالشق الآخر يارسول الله فتبسم صلى الله عليه وسلم<sup>(٤)</sup>»، قال بعض الرواة حتى نظرت إلى نواجذه. وروى أن خوات ابن جبير الأنصاري كان جالساً إلى نسوة من بني كعب بطريق مكة فطلع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «يا أبا عبد الله ما لك مع النسوة؟» فقال يفتنن ضفيرا بجلل لى شرود، قال: «فضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجته ثم عاد فقال: «يا أبا عبد الله أما ترك ذلك اجلل الشراذ بعد؟»، قال: «فسكت واستحييت وكنت بعد ذلك أنفوز منه كلما رأيت حياء منه، حتى قدمت المدينة وبعد ما قدمت المدينة قال: «فرأى في المسجد يوماً أصلي جالساً إلى فطرت فقال: «لا تقولوا فيني أنتظرك»، فلما سلبت قال يا أبا عبد الله أما ترك ذلك اجلل الشراذ بعد؟»، قال: «فسكت واستحييت»، فقام وكنت بعد ذلك أنفوز منه حتى لحقت يوماً وهو على حمار وقد جعل رجليه في شق واحد. فقال: «يا أبا عبد الله أما ترك ذلك اجلل الشراذ بعد؟»، فقلت والذي يمثلك بالحق ما شرد منذ أسلمت فقال: «الله أكبر اللهم اهد أبا عبد الله»، قال: «حسن إسلامه وهداه الله<sup>(٥)</sup>» وكان لعميان الأنصاري رجلاً من أحافس كان يشرب الخمر في المدينة فيوثق به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيضربه بنعله ويأمر أصحابه فيضربونه بنعالهم، فلما كثر ذلك منه

(١) حديث عائشة: في لطف وجهه سودة بحمرة ولطف سودة وجه عائشة لجلل صلى الله عليه وسلم يضحك. أخرجه الزبير بن بكار في كتاب الفكاهة وأبو بلى بإسناد جيد. (٢) حديث: أن الضحّاك بن سفيان السكلاي قال عندى امرأتان أحسن من هذه الخميرة. أفلا أنزل لك عن إحداهما فتزوجه وعائشة جالسة - قبل أن يضرب الحجاب - فقالت: «أى أحسن أم أنت؟» فقال بل أنا أحسن منها وأكرم فضحك النبي صلى الله عليه وسلم لأنه كان دميماً. أخرجه الزبير بن بكار في الفكاهة من رواية عبد الله بن حسن مرسلاً أو مستلاً وفساداً حتى عوذه النسخة مع نسخة بن حصن القزاري بعد أن تقول الحجاب من حديث أبي هريرة.

(٣) حديث أبي سلفة عن أبي هريرة: أنه صلى الله عليه وسلم كان يدلع لسانه للحسن بن علي فيرى الصبي فيمش إليه، فقال عيينة بن بدر القزاري: «والله ليكون لي الإبن قد تزوج وبقل وجهه وما قبلته قط» فقال: «لن من لا يرحم لا يرحم» أخرجه أبو بلى من هذا الوجه دون ما في آخره من قول عيينة بن حصن بن بصر ونسب لى جدّه. وكفى الخطيب في المبهمة قولين فائق ذلك أحداً: أنه عيينة بن حصن - والثاني: أنه الأقرع بن حابس - وعند مسلم من رواية الزمري عن أبي سلفة عن أبي هريرة أن الأقرع بن حابس أصر النبي صلى الله عليه وسلم يقبل الحسن فقال أن لى عمرة من الولد ما قبلت واحداً منهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من لا يرحم لا يرحم» (٤) حديث: قال لصهيب وبه رمد: «أنا كل التمر وأنت رمد» قال: «إنما أكل على الشق الآخر»، فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم. أخرجه ابن ماجه والمالك من حديث صهيب ورجاله ثقات.

(٥) حديث: أن خوات بن جبير كان جالساً إلى نسوة من بني كعب بطريق مكة فطلع عليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «يا أبا عبد الله ما لك مع النسوة؟» فقال يفتنن صبراً بجلل شرود... الحديث، أخرجه الطبراني في الكبير من رواية زيد بن أسلم عن خوات بن جبير عن اختلاف ورجاله ثقات، وأدخل بعضهم زيد وبين خوات: ربيعة بن عمرو.

قال له رجل من الصحابة : لعنك الله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا تفعل فإنه يحب الله ورسوله ، وكان لا يدخل المدينة رسول ولا طرفة إلا اشترى منها ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فيقول : يا رسول الله هذا قد اشترته لك وأهديته لك فإذا جاء صاحبا يتقاضاه بالثمن جاء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : يا رسول الله أعطه ثمن متاعه ، فيقول له صلى الله عليه وسلم : أو لم تهده لنا ، فيقول : يا رسول الله إنه لم يكن عندي ثمنه وأحببت أن تأكل منه ، فيضحك النبي صلى الله عليه وسلم ويأمر صاحبه بشئته <sup>(١)</sup> فهذه معاليمات يباح مثلها على الندور لا على الدوام والمراوغة عليها هول مذموم وسبب الضحك للميت للقلب .

### الآفة الحادية عشر : السخرية والاستهزاء

وهذا عرم مهما كان مؤذيا كما قال تعالى ( يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ) ومعنى السخرية الاستهانة والتحقير والتثيئة على الميوب والفتاى على وجه يضحك منه : وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول ، وقد يكون بالإشارة والإيحاء ، وإذا كان بحضرة المستهزأ به لم يسم ذلك غيبة وفيه معنى الغيبة . قالت عائشة رضي الله عنها : حاكيت إنسانا فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم : والله ما أحب أني حاكيت إنسانا ولي كذا وكذا <sup>(٢)</sup> . وقال ابن عباس في قوله تعالى ( يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ) إن الصغيرة التبس بالاستهزاء بالؤمن ، والكبيرة التهمته بذلك . وهذا إشارة إلى أن الضحك على الناس من جملة الذنوب والكبائر . وعن عبد الله بن زمرة أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخطف فرعظهم في ضحكهم من الضربة فقال : علام يضحك أحدكم عما يفعل <sup>(٣)</sup> . وقال صلى الله عليه وسلم : إن المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة فيقال لهم لهم فيجيء بكره وغمه فإذا أغلق دونه فما يزال كذلك حتى إن الرجل ليفتح له الباب فيقال له لهم فلا يأتيه <sup>(٤)</sup> . وقال معاذ بن جبل : قال النبي صلى الله عليه وسلم : من عبر أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يعمل <sup>(٥)</sup> . وكل هذا يرجع إلى استهزاء النير والضحك عليه استهانة به واستصغار آله . وعليه نبه قوله تعالى ( عسى أن يكونوا خيرا منهم ) أي لا تستهزؤوا واستصغروا فلعنهم خير منك .

وهذا إنما يحرم من حق من يتأذى به ، فأما من جعل نفسه مسخرة وربما فرح من أن يسخر به كانت السخرية في حقه من جملة المزاح . وقد سبق ما ينضم منه وما يمدح - وإنما المحرم استصغار يتأذى به المستهزأ به لما

(١) حديث : كان ليهان رجلا مزاحا وكان يضرب الحر فيؤذي به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيضربه ... الحديث . وفيه : أنه كان يشتري الشيء ويهديه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ثم يجيء صاحبه فيقول أعطه ثمن متاعه .. الحديث . أخرجه الزبير بن بكار في المسكاة ومن طريقه ابن عبد البر من رواية محمد بن حزم مرسل وقد تقدم أوله .

#### الآفة الحادية عشرة : السخرية والاستهزاء

(٢) حديث عائشة : حاكيت إنسانا فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم : ما يسرك أني حاكيت إنسانا ولي كذا وكذا « أخرجه أبو داود والترمذي وسجعه (٣) حديث عبد الله بن زمرة : وعظهم في الضحك من الضربة وقال : علام يضحك أحدكم مما يفعل « متفق . (٤) حديث : إن المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة فيقال لهم فيجيء بكره وغمه فإذا جاء أغلق دونه ... الحديث « أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت من حديث الحسن مرسلًا وروياه في ثمانيات التبيين من رواية أبي هريرة - أحد المالكيين عن أنس (٥) حديث معاذ بن جبل « من عبر أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يعمل « أخرجه الترمذي : معون قوله « قد تاب منه » وقال حسن غريب وليس استاده يعمل قال أحمد بن منيع قالوا « من ذنب قد تاب منه » .

فيه من التحقير والتهاون . وذلك تارة بأن يضحك على كلامه إذا تخطى فيه ولم ينتظم ، أو على أفعاله إذا كانت مشوشة كالضحك على خطه وعلى صنمته ، أو على صورته وخلقه إذا كان قصيرا أو ناقصا ليب من العيوب ، فالضحك من جميع ذلك داخل في السخرية المهي عنها .

### الآلة الثانية عشر : إفشاء السر .

وهو منهي عنه لما فيه من الإيذاء والتهاون بحق المعارف والأصدقاء . قال النبي صلى الله عليه وسلم : إذا حدث الرجل الحديث ثم التفت فبهى أمانة <sup>(١)</sup> ، وقال مطلقا : الحديث بينكم أمانة <sup>(٢)</sup> ، وقال الحسن : إن من الحياة أن تحدث بسر أخيك . وروى أن معاوية رضى الله عنه أسر إلى الوليد بن عتبة حديثه فقال لأبيه : يا أبت إن أمير المؤمنين أسر إلى حديثي وما أراه يطوى عليك ما يسطه إلى غيرك ؟ قال : فلا تحدثني به فإن من كتم سره كان الخيار إليه ، ومن أفشاه كان الخيار عليه قال : فقلت يا أبت وإن هذا ليدخل بين الرجل وبين ابنه ؟ فقال : لأراه يأتني ولكن أحب أن لا تذلل لسائلك بأحاديث السر ، قال : فأبيت معاوية فأخبرته فقال : يا وليد اعتقلك أبوك من رق الخطأ فأفشاء السر خيانة .

وهو حرام إذا كان فيه إضرار . وإثم إن لم يكن فيه إضرار . وقد ذكرنا ما يتعلق بكتيان السر في كتاب آداب الصعبة فأغنى عن الإعادة .

### الآلة الثالثة عشر : الوعد الكاذب

فإن اللسان سباق إلى الوعد ، ثم النفس ربما لا تسمح بالإفاء فيصير الوعد خلفا وذلك من أمارات التفاق قال الله تعالى ( يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ) وقال صلى الله عليه وسلم المدينة عطية <sup>(٣)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم الوأى مثل الدين أو أفضل <sup>(٤)</sup> ، والوأى : الوعد . وقد أتى الله تعالى على نبيه اسمعيل عليه السلام في كتابه العزيز فقال ( إنه كان صادق الوعد ) قيل إنه وعد إنسانا في موضع فلم يرجع إليه ذلك الإنسان بل نسي ، فبقى اسمعيل اثنين وعشرين يوما في انتظاره . ولما حضرت عبد الله بن عمر الوفاة قال : إنه كان خطب إلى ابني رجل من قريش وقد كان إليه مني شبه الوعد ، فوافقه لا ألتي الله تلك التفاق ! أشهدكم أنني قد زوجته ابنتي . وعن عبد الله بن أبي الحنفية قال : يا بعت النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث وبقيت له بقية فوافدته أن آتيه بها في مكانه ذلك فلسيت يري والفد فأتيته اليوم الثالث وهو في مكانه ، فقال : يا بني لقد شقت على أنا مهتا منذ ثلاث أنتظر ك <sup>(٥)</sup> ، وقيل

### الآلة الثانية عشرة : إفشاء السر

- (١) حديث « إذا حدث الرجل بمحدث ثم التفت فبهى أمانة » أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه من حديث جابر .  
(٢) حديث « الحديث بينكم أمانة » أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث ابن شهاب مرسلا .

### الآلة الثالثة عشرة : الوعد الكاذب

(٣) حديث « المدينة عطية » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ثابت بن أشيم بسند ضعيف وأبو يعقوب في الحديث من حديث ابن مسعود ورواه ابن أبي الدنيا في السنن والخرائط في مكارم الأخلاق من حديث الحسن مرسلا (٤) حديث « الوأى مثل الدين أو أفضل » أخرجه ابن أبي الدنيا في السنن من رواية ابن لمية مرسلا وقال الرازي يني الوعد ، ورواه أبو منصور والبيهقي في سنن الفردوس من حديث علي بسند ضعيف (٥) حديث عبد الله بن أبي الحنفية : يا بعت النبي صلى الله عليه وسلم فوعدته أن آتيه بها في مكانه ذلك فسيت يري والد فأتيته اليوم الثالث وهو في مكانه فقال « يا بني قد شقت على أنا مهتا منذ ثلاث أنتظر ك » روله أبو داود واختلف في استناده وقال ابن مهدي ما أشن إبراهيم بن طهمان إلا خطأ فيه .

لإبراهيم : الرجل يواعد الرجل للمعاد فلا يحىء ، قال : ينتظره إلى أن يدخل وقت الصلاة التي يحىء . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا وعد وعدا قال ه عسى <sup>(١)</sup> » وكان ابن مسعود لا يمدو عدلا ولا يقول إن شافه وهو الأول .

ثم إذا فهم مع ذلك الجرم في الوعد فلا بد من الوفاء إلا أن يعتذر ، فإن كان عند الوعد عازما على أن لا يفي فهذا هو النفاق . وقال أبو هريرة : قال النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « ثلاث من كن فيه فهو منافق ، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أتمن عان <sup>(٢)</sup> » وقال عبادة بن عمرو رضي الله عنهما : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أربع من كن فيه كان منافقا ومن كانت فيه خلة منهن كان فيه خلة من النفاق حتى يدعها : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر <sup>(٣)</sup> » وهذا ينزل على عزم الخلف أو ترك الوفاء من غير عذر ، فأما من عزم على الوفاء فمن له عذر منه من الوفاء لم يكن منافقا وإن جرى عليه ما هو صورة النفاق ، ولكن ينبغي أن يحترز من صورة النفاق أيضا كما يحترز من حقيقته ، ولا ينبغي أن يجعل نفسه ممدورا من غير ضرورة حاضرة فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان وعد أبا الهيثم بن التيهان خادما : فأتي بثلاثة من السبي فأعطى اثنين وبقى واحدا ، فأنت فاطمة رضي الله عنها تطلب منه خادما وتقول : ألا ترى أثر الرحي يدي ؟ فذكر موعده لأبي الهيثم فجعل يقول « كيف يعودى لأبي الهيثم ؟ <sup>(٤)</sup> » فأثره به على فاطمة - لما كان قد سبق من موعده له - مع أنها كانت تدبر الرحي بيدها الضعيفة . ولقد كان صلى الله عليه وسلم جالسا يقسم غنائم هوازن بمحني فوقف عليه رجل من الناس فقال : إن لي عندك موعدا يا رسول الله قال « صدقت ، فاحتكم ما شئت » فقال : احتكم ثمانين ضائفة وراعيها ، قال « هي لك » وقال « احتكتك يسيرا <sup>(٥)</sup> » ولصاحبة موسى عليه السلام التي دلته على عظام يوسف كانت أحزم منك وأجزل حكما منك حين حكها موسى عليه السلام فقالت حكى أن تردني شاة وأدخل معك الجنة ، قيل فكان الناس يصفون ما احتكم به حتى جعلوا مثلا تقبل : أشم من صاحب الثمانين والراعي . وقد قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « ليس الخلف أن يمد الرجل الرجل وفي نيته أن يفي <sup>(٦)</sup> » وفي لفظ آخره « إذا وعد الرجل أخاه وفي نيته أن يفي فلم يجده » فلا تلم عليه .

### الألة الرابعة عشرة : الكذب في القول واليمين

وهو من قبائح الذنوب وفواحش العيوب . قال اسمعيل بن واسط : سمعت أبا بكر الصديق رضي الله عنه يخطف بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فمضى هذا عام أزل - ثم بكى -

(١) حديث : كان إذا وعد وعدا قال ه عسى « لم أجده له أصلا (٢) حديث أبي هريرة « ثلاث من كن فيه فهو منافق ... الحديث وفيه « إذا وعد أخلف » متفق عليه وقد تقدم .

(٣) حديث عبد الله بن عمرو « أربع من كن فيه كان منافقا ... الحديث » متفق عليه (٤) حديث : كان وعد أبا الهيثم بن التيهان خادما : فأتي بثلاثة من السبي فأعطى اثنين وبقى واحدا ، فجاءت فاطمة تطلب منه .. الحديث . وفيه جعل يقول « كيف يعودى لأبي الهيثم » فأثره به على فاطمة فقدم ذكر قصة أبي الهيثم في آداب الأكل وهي عند الترمذي من حديث أبي هريرة وليس فيها ذكر لفاطمة (٥) حديث : أنه كان جالسا يقسم غنائم هوازن فوقف عليه رجل فقال : أزلني عندك موعدا ، قال : صدقت فاحتكم ما شئت ... الحديث « وفيه « لصاحبة موسى التي دلته على عظام يوسف كانت أحزم منك ... الحديث » أخرجه ابن حبان وإماما في المستدرک من حديث أبي موسى مع اختلاف قال الحاكم صحيح الإسناد وفيه نظر . (٦) حديث « ليس الخلف أن يمد الرجل الرجل وفي نيته أن يفي » وفي لفظ آخر « إذا وعد الرجل أخاه وفي نيته أن يفي فلم يجده فلا تلم عليه » أخرجه أبو داود والترمذي وضعفه من حديث زيد بن أرقم باللفظ الثاني إلا أنها « لا » فلم ينف .

وقال « إياكم والكذب فإنه مع الفجور وهما في النار »<sup>(١)</sup> وقال أبو أمامة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الكذب باب من أبواب النفاق » وقال الحسن : كان يقال إن من النفاق اختلاف السر والعلانية ، والقول والعمل ، والمدخل والمخرج ، وإن الأصل الذي بني عليه النفاق الكذب . وقال عليه السلام « كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هو لك به مصدق وأنت له به كاذب »<sup>(٢)</sup> وقال ابن مسعود : قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم « لا يزال البدي يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً »<sup>(٣)</sup> . وروى رسول الله صلى الله عليه وآله تعالى عليه وسلم رجلين يتأبمان شاة ويتحالفان ، يقول أحدهما : والله لا أنقصك من كذا وكذا ، ويقول الآخر : والله لا أزيدك على كذا وكذا ، بالشفة وقد اشتراها أحدهما فقال : أوجب أحدهما بالإثم والكفارة<sup>(٤)</sup> ، وقال عليه السلام « الكذب ينقص الرزق »<sup>(٥)</sup> . وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن التجار هم الفجار » فقيل يارسول الله اليس قد أحل الله البيع ؟ قال « نعم ولكمهم يحلفون فيأثمون ويحدثون فيكذبون »<sup>(٦)</sup> . وقال صلى الله تعالى عليه وسلم « ثلاثة نفر لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم : الثمان بعلطية والمنفق وسلعة بالخلف الفاجر والمسبل لزاره »<sup>(٧)</sup> ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم « ما حلف حالف بالله فأدخل فيما مثل جناح بوضة إلا كانت نكتة في قلبه إلى يوم القيامة »<sup>(٨)</sup> . وقال أبو ذر قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ثلاثة يحجمهم الله : رجل كان في فة فصب نحره حتى يقتل أو يفتح الله عليه وعلى أصحابه ، ورجل كان له جار سوء يؤذيه فصر على أذاه حتى يفرق بينهما موت أو ظعن ، ورجل كان معه قوم في سفر أو سرية فأطالوا السرى حتى أعجمهم أن يمسوا الأرض فزولوا . فتنتحى يصل حتى يوقظ أصحابه للرحيل . وثلاثة يشتمهم الله : التاجر أو البائع الحلاف ، والفقيه المختل والبخيل اللئيم »<sup>(٩)</sup> . وقال صلى الله عليه وسلم « ويل للذي يحدث فيكذب ليضحك به القوم ويل له ويل له »<sup>(١٠)</sup>

### الألف الرابعة عشرة : الكذب في القول والعين

(١) حديث أبي بكر الصديق : قال غيا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقضى هذا عام أول - ثم بكى - وقال « إياكم والكذب الحديث » أخرجه ابن ماجه والنسائي في اليوم واليلة وجهه المصنف من رواية إسماعيل بن أوسط عن أبي بكر وأما عن أوسط ابن إسماعيل بن أوسط وإسناده حسن (٢) حديث أبي أمامة « إن الكذب باب من أبواب النفاق » أخرجه ابن عدى في الكامل بسند ضيف وفيه عمر بن موسى الوجيبي ضيف جدا وفيه عنه قوله صلى الله عليه وسلم « ثلاث من كن فيه فهو منافق » وحديث « أرم من كن فيه كان منافقا » قال في كل منهما « وإذا حدث كذب » وما في الصحيحين وقد تقدم في الألف التي قبلها . (٣) حديث « كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هو لك به مصدق وأنت له به كاذب » أخرجه البخاري في كتاب الأدب المفرد وأبو داود من حديث سفيان بن أبي عمير وحديث ابن عدى ورواه أحمد والطبراني من حديث الثوري بن سفيان بإسناد جيد . (٤) حديث ابن مسعود « لا يزال البدي يكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » متفق عليه (٥) حديث « من رجلين يتأبمان شاة ويتحالفان ... الحديث » وفيه فقال « أوجب أحدهما بالإثم والكفارة » أخرجه أبو الفتح الأزدي في كتاب الأسماء المفردة من حديث تميم الحضرمي وهكذا رواها في أمال ابن سمون وناسخ ذكره البخاري هكذا في التاريخ ، وقال أبو حاتم هو عبد الله ابن تميم (٦) حديث « الكذب ينقص الرزق » أخرجه أبو الشيخ في طبقات الأسيانيين من حديث أبي هريرة ورواها كذلك في مشيئة القاضي أبي بكر وإسناده ضيف (٧) حديث « إن التجار هم الفجار ... الحديث » وفيه ووجدتون فيكذبون » أخرجه أحمد والحاكم وقال صحيح الإسناد والبيهقي من حديث عبد الرحمن بن شبل (٨) حديث « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم : الثمان بعلطية والمنفق وسلعة بالخلف الكاذب والمسبل لزاره » أخرجه مسلم من حديث أبي ذر (٩) حديث « ما حلف حالف بالله فأدخل فيما مثل جناح بوضة إلا كانت نكتة في قلبه إلى يوم القيامة » أخرجه الترمذي والحاكم وصححه إسناده من حديث عبد الله بن أبي (١٠) حديث أبي ذر « ثلاثة يحجمهم الله ... الحديث » وفيه « وثلاثة يشتمهم الله التاجر أو البائع الحلاف » أخرجه أحمد والفظ له وفيه ابن الأحرى ولا يرفه حاله ورواه أبو السائب بلفظ آخر بإسناد جيد ولفظي من حديث أبي هريرة « أربعة يشتمهم الله البائع الحلاف ... الحديث » وإسناده جيد (١١) حديث « ويل للذي يحدث فيكذب ليضحك به القوم ويل له ويل له » أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه النسائي في الكبرى من رواية يهز بن حكيم عن أبيه عن جده

وقال صلى الله عليه وسلم : رأيت كأن رجلا جاءني فقال لي قم فقم معي ، فإذا أنا برجلين أحدهما قائم والآخر جالس ، بيد القائم كlob من حديد يلقمه في شدة الجالس فيجذبه حتى يبلغ كاهله ، ثم يجذبه فيلقمه الجانب الآخر فيمده فإذا مده رجوع الآخر كما كان ، فقلت للذي أقامني ما هذا ؟ فقال : هذا رجل كذاب يذب في قبره إلى يوم القيامة <sup>(١)</sup> . وعن عبد الله بن جراد قال : سألت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقلت يا رسول الله هل يرى المؤمن ؟ قال : قد يكون ذلك <sup>(٢)</sup> . قال : يا بني الله هل يكذب المؤمن ؟ قال : لا <sup>(٣)</sup> . ثم اتبعه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بقول الله تعالى ﴿ إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله ﴾ <sup>(٤)</sup> . وقال أبو سعيد الخدري : سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يدعو فيقول في دعائه اللهم طهر قلبي من التفاف وفرجى من الزنا ولساني من الكذب <sup>(٥)</sup> ، وقال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكهم ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، ومالك كذاب ، وعائل مستكر <sup>(٦)</sup> . وقال عبد الله بن عمار : جاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلى بيتنا وأنا صبي صغير فذهبت لألعب فقالت أُمى : يا عبد الله تعال حتى أعطيك فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : وما أردت أن تعطيه ؟ قالت تمرأ ، فقال : أما إنك لم تفعل لكبت عليك كذبة <sup>(٧)</sup> ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : لو أن الله على نعماء عدد هذا الحصى لسميتها بكنىكم ثم لا يجحدوني بخيلا ولا كذبا ولا جبا <sup>(٨)</sup> . وقال صلى الله تعالى عليه وسلم وكان متكئا ، ألا أنبئكم بأكبر الكبائر الإشراف على عقوق الوالدین ، ثم قد وقال : لا قول للزور <sup>(٩)</sup> ، وقال ابن عمر : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : إن العبد ليكذب الكذبة ليتباعد الملك عنه مسيرة ميل من نين ما جاء به <sup>(١٠)</sup> ، وقال أنس : قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : تقبلوا إلى بسئ اتقبل لكم بالجنة ، فقالوا وما من ؟ قال : إذا حدث أحدكم فلا يكذب وإذا وعد فلا يخلف وإذا أتمن فلا يخن وعضوا إصباركم واسفظوا فروجكم وكفوا أيديكم <sup>(١١)</sup> . وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : إن الشيطان كلال ولعوقا ونشوقا : أما لعوقه فالكذب ، وأما نشوقه فالتنصب . وأما كلاله فالزور <sup>(١٢)</sup> ، وخطب عمر رضي الله عنه يوما فقال : قام فينا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كقياي هذا فيكم فقال : أحسنوا إلى أصحابي

(١) حديث . رأيت كأن رجلا جاءني فقال لي قم فقم معي فإذا أنا برجلين أحدهما قائم والآخر جالس بيد القائم كlob من حديد يلقمه في شدة الجالس ... الحديث . أخرجه البخاري من حديث سمرة بن جندب في حديث طويل (٢) حديث عبد الله بن جراد : أنه سأل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم هل يرى المؤمن ؟ قال : قد يكون من ذلك . قال : هل يكذب ؟ قال : لا . ... الحديث أخرجه ابن عبد البر في التمهيد بسند ضعيف ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت مقتصر على الكذب وجعل السائل إذا تردد .

(٣) حديث أبي سعيد : اللهم طهر قلبي من التفاف وفرجى من الزنا ولساني من الكذب . مكذبا وفع في نسخ الإحرام من أبي سعيد وإنما هو عن أم سعد وكذا رواه الخليل في التاريخ دون قوله : وفرجى من الزنا . وزاد : ومحل من الرياء ومعين من الحياة وإسناده ضعيف (٤) حديث : ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ... الحديث . وفيه : والإلزام للكذب . أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة (٥) حديث عبد الله بن عمار : جاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلى بيتنا وأنا صبي صغير فذهبت لألعب فقالت أُمى : يا عبد الله تعال أعطيك فقال : وما أردت أن تعطيه ؟ قالت تمرأ فقال : لأن لم تفعل لكبت عليك كذبة . رواه أبو داود وفيه من لم يسم وقال المالك : إن عبد الله بن عمار ولد في حياته صلى الله تعالى عليه وسلم ولم يسمع منه . قلت : وله شاع من حديث أبي هريرة : وإن مسود ورجلها قامت إلا أن الزهري لم يسمع من أبي هريرة (٦) حديث دوافع القتل لما مد هذا الحصى لسميتها بكنىكم ثم لا يجحدوني بخيلا ولا كذبا ولا جبا . رواه مسلم ويهتم في أخلاق النبوة (٧) حديث : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ... الحديث . وفيه ألا : وقول الزور . علق عليه من حديث أبي بكر (٨) حديث ابن عمر : إن العبد ليكذب الكذبة ليتباعد الملك عنه مسيرة ميل من نين ما جاء به . أخرجه الترمذي وقال حسن غريب .

(٩) حديث أنس : تقبلوا إلى بسئ اتقبل لكم بالجنة إذا حدث أحدكم فلا يكذب ... الحديث . أخرجه المالك في المستدرج والمحرر في مكارم الأخلاق وفيه سعد بن سنان ضعفه أحد والنسائي ووثقه ابن ميث ورواه المالك بضمه من حديث عبادة بن الصامت وقال صحيح الإسناد .

(١٠) حديث : إن الشيطان كلال ولعوقا ... الحديث . أخرجه البخاري وأبو داود من حديث أنس بسند ضعيف وقد قدم

ثم الذين يولتهم ثم ينفو الكذب حتى يخلص الرجل على اليمين ولم يستطع ويشهد ولم يستشهد<sup>(١)</sup> وقال النبي صلى الله عليه وسلم « من حدث عني بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين<sup>(٢)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « من حلف على يمين يائمه ليقطع بها مال امرئ مسلم ينفر حتى لقي الله عز وجل وهو عليه غضبان<sup>(٣)</sup> » وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم « أنه رد شهادة رجل في كذبة كذبها<sup>(٤)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « كل خصلة يطبع أو يطوى عليها المسلم إلا الخيانة والكذب<sup>(٥)</sup> » وقالت عائشة رضي الله عنها : ما كان من خلق أشد على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلع على الرجل من أصحابه على الكذب فما ينجلي من صدره حتى يعلم أنه قد أحدث توبة لله عز وجل منها<sup>(٦)</sup> . وقال موسى عليه السلام : يارب أي عبادك خير لك عملاً ؟ قال من لا يكذب لسانه ولا يغير قلبه ولا يزي فرجه . وقال لقمان لابنه : يا بني إياك والكذب فإنه شئ كلحم المصنوع عما قليل يقيلاه صاحبه . وقال عليه السلام في مدح الصدق « أربع إذا كن فيك لا يضرك ما فاتك من الدنيا : صدق الحديث وحفظ الأمانة وحسن خلق وعفة طعمة<sup>(٧)</sup> » وقال أبو بكر رضي الله عنه في خطبة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل مقامي هذا عام أول - ثم بكي - وقال « عليكم بالصدق فإنه مع البر وهما في الجنة<sup>(٨)</sup> » وقال معاذ : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم « أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث وإداء الأمانة والوفاء بالعهود وبذل السلام وخضض الجناح<sup>(٩)</sup> » .

وأما الآثار : فقد قال علي رضي الله عنه : أعظم الخطايا عند الله اللسان الكذوب وشر الندامة ندامة يوم القيامة وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله عليه : ما كذبت كذبة منذ شددت على لزامي . وقال عمر رضي الله عنه : أحبكم إلينا ما لم ترك أحسنكم اسماً فإذا وأبناكم فأحبكم إلينا أحسنكم خلقاً فإذا اختبرناكم فأحبكم إلينا أصدقكم حديثاً وأعظمكم أمانة . وعن يمين بن أبي شبيب قال جلست أكتب كتاباً فأتيته على حرف إن أنا كتبت زيفت الكتاب وكنت قد كذبت فعمزت على تركه فوديت من جانب البيت ( ثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحجة الدنيا وفي الآخرة ) وقال الشعبي : ما أدري أيهما أجد غور في النار الكذاب أو البخيل ؟ وقال ابن السكيت : ما أراني أوجر على ترك الكذب لأنني إنما ادعاه الله . وقيل الخالد بن صبيح : أيسمى الرجل كاذباً بكذبة واحدة ؟ قال : نعم وقال مالك بن دينار : فرأت في بعض الكتب مامن خطيب إلا وتعرض خطبته على عمله فإن كان صادقاً صدق وإن

(١) حديث : خطب عمر بالمدينة ... الحديث . وفيه « ثم ينفو الكذب » أخرجه الترمذي وصححه والنسائي في السكيتي من رواية ابن عمر عن عمر (٢) حديث « من حدث عني بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين » أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه من حديث سمرة بن جندب (٣) حديث « من حلف على يمين يائمه ليقطع بها مال امرئ مسلم ... الحديث » متفق عليه من حديث ابن مسعود (٤) حديث : أنه رد شهادة رجل في كذبة كذبها . أخرجه : ابن أبي الدنيا في المصنف من رواية موسى بن شعبة مرسلًا وموسى روى معمر بن عتيق أنه أحد بن حنبل (٥) حديث على « كل خصلة يطبع أو يطوى عليها المسلم إلا الخيانة والكذب » أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف من حديث أبي أمامة ورواه ابن عدى في مقدمة الكامل من حديث سعد بن أبي وقاص وابن عمر أيضاً وأبو أمامة أيضاً ورواه ابن أبي الدنيا في المصنف من حديث سعد مرثوما وموقوفًا والموقوف أشبه بالصواب قاله الدارقطني في السبل (٦) حديث : ما كان من خلق الله شيء أشد عند أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب ولقد كان يطلع على الرجل من أصحابه على الكذب فما ينجلي من صدره حتى يعلم أنه قد أحدث توبة . أخرجه أحمد من حديث عائشة ورواه ثقات لا الهة عن ابن أبي مليكة أو غيره وقد رواه أبو الشيخ في الطبقات فقال ابن أبي مليكة ولم يلقه وهو صحيح (٧) حديث « أربع إذا كن فيك فلا يضرك ما فاتك من الدنيا : صدق الحديث ... الحديث » أخرجه الحاكم والمحافظ في مكارم الأخلاق من حديث عبد الله بن عمرو وفيه ابن أبي شيبة (٨) حديث أبي بكر « عليكم بالصدق فإنه مع البر وهما في الجنة » أخرجه ابن ماجه والنسائي في اليوم والليالي وقد تقدم بقية في أول هذا النوع (٩) حديث معاذ « أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث » أخرجه أبو نعيم في الحلية وقد تقدم .



كان كاذباً قرضت شفته بمقايض من نار كلها قرضتا نبئنا . وقال مالك بن دينار : الصدق والكذب يعتركان في القلب حتى يخرج أحدهما صاحبه . وكلم عمر بن عبد العزيز الوليد بن عبد الملك في شيء فقال له : كذبت ، فقال عمر : والله ما كذبت منذ علمت أن الكذب يثيب صاحبه .

### بيان ما رخص فيه من الكذب

أعلم أن الكذب ليس حراماً لعينه بل لما فيه من الضرر على الخطاب أو على غيره ، فإن أقل درجاته أن يعتد بالخبر الشيء على خلاف ما هو عليه فيكون جاهلاً وقد يتعلق به ضرر غيره ، وبجهل فيه منفعة ومصلحة ، فالكذب يحصل لذلك الجهل فيكون مأذوناً فيه ، وربما كان واجباً .

قال ميمون بن مهران : الكذب في بعض المواطن خير من الصدق ، أريت لو أن رجلاً سعى خلف إنسان بالسيف ليقبضه فدخل داراً فأتته إليه فقال : أريت فلاناً ؟ ما كنت قالاً ؟ ألتست تقول : لم أره ؟ وما تصدق به . وهذا الكذب واجب .

فقول : السلام وسيلة إلى المقاصد فكل مقصود محمود يمكن التوصل إليه بالصدق والكذب جميعاً فالكذب فيه حرام ، وإن أمكن التوصل إليه بالكذب دون الصدق فالكذب فيه مباح إن كان تحصيل ذلك القصد مباحاً ، وواجب إن كان المقصود واجباً ، كما أن عصمة دم المسلم واجبة . فهما كان في الصدق سفك دم أمريئ مسلم فداخني من ظلم فالكذب فيه واجب . ومهما كان لا يتم مقصود الحرب أو إصلاح ذات البين أن استألف قلب الجني عليه إلا بكذب فالكذب مباح ، إلا أنه ينبغي أن يحترز منه ما أمكن ، لأنه إذا فتح باب الكذب على نفسه فيخشي أن يتداعى إلى ما يستقيت عنه وإلى ما لا يقتصر على حد الضرورة ، فيكون الكذب حراماً في الأصل إلا لضرورة .

والذي يدل على الاستثناء ما روى عن أم كلثوم قالت : ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرخص في شيء من الكذب إلا في ثلاث : الرجل يقول القول يريد به الإصلاح ، والرجل يقول القول في الحرب ، والرجل يحدث أسرته والمرأة تحدث زوجها <sup>(١)</sup> . وقالت أيضاً : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيراً أو نبى خيراً <sup>(٢)</sup> ، وقالت أسماء بنت يزيد : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا رجل كذب بين مسلمين ليصلح بينهما <sup>(٣)</sup> ، وروى عن أبي كامل قال : وقع بين اثنين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلام حتى تصارما فلقيت أحدهما فقلت : مالك ولفلان فقد سمعت يمين عليك التاء ؟ ثم لقيت الآخر فقلت له مثل ذلك حتى اصطلحا ، ثم قلت : أهلكت نفسي وأصلحت بين هذين فأخبرت النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا أبا كامل أصلح بين الناس <sup>(٤)</sup> ، أي ولو بالكذب . وقال عطاء بن يسار : قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم أكذب على أمي ؟ قال : لا خير في الكذب ، قال : أعدما وأقول لها ، قال : لا جناح عليك <sup>(٥)</sup> .

(١) حديث أم كلثوم : ما سمعت يرخص في شيء من الكذب إلا في ثلاث . أخرجه مسلم وقد تقدم . (٢) حديث أم كلثوم أيضاً : ليس بكذاب من أصلح بين الناس ... الحديث . متفق عليه وقد تقدم ، والذي قبله عند مسلم هو هذا . (٣) حديث أسماء بنت يزيد . كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا رجل كذب بين رجلين يصلح بينهما . أخرجه أحمد بزيادة فيه وهو عند الترمذي مختصراً وحسنه . (٤) حديث أبي كامل : وقع بين رجلين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلام ... الحديث . وفيه وإلا فأصلح بين الناس . رواه الطبراني ولم يصح . (٥) حديث عطاء بن يسار : قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم أكذب على أمي ؟ قال : لا خير في الكذب . قال : أعدما وأقول لها ، قال : لا جناح عليك . أخرجه ابن عبد البر في التمهيد من رواية سنوان بن سلم عن عطاء بن يسار وسهلاً وهو الموطأ عن صفوان بن سليم مضطرب فيه ذكر عطاء بن يسار . (١٨) — لحياء عظيم الدين — (٣)

وروى أن ابن أبي عذرة الدؤل وكان في خلافة عمر رضي الله عنه كان يخلع النساء اللاتي يتزوج بهن فطارت له في الناس من ذلك أجدوة يكرهها ، فاعلم بذلك أخذ بيد عبد الله بن الأرقم حتى أتى به منزله ، ثم قال لاسرائته : أنشدك بالله هل تفضيني ؟ قالت : لا تفسدني ، قال : فإني أنشدك الله ، قالت : نعم ، فقال لابن الأرقم : أسمع ؟ ثم انطلقا حتى أتيا عمر رضي الله عنه فقال : إنكم لتحدثون إني أظلم النساء وأخلمهن فاسأل ابن الأرقم ، فسأله فأخبره ، فأرسل إلى امرأة ابن أبي عذرة فجلست عندها فقال : أنت التي تحدثين لزوجك أنك تفضيني ؟ فقالت : إني أول من تاب وراجع أمر الله تعالى إنه ناشدني فتزوجت أن أكذب ، أما كذب يا أمير المؤمنين ؟ قال : نعم فأكذبي فلن كانت إحدانا فلا تحمده بذلك ، فإن أقل البيوت الذي يبنى على الحب ولكن الناس يتعاضدون بالإسلام والأحساب .

وعن النوايس بن سحمان الكلبي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مالي أراكم تهافتون في الكذب تهافت الفرائس في النار ؟ كل الكذب يكتب على ابن آدم لآعالة إلا أن يكذب الرجل في الحرب ، فإن الحرب خدعة ، أو يكون بين الرجلين شفاء فيصلح بينهما ، أو يحدث امرأته يرضيها<sup>(١)</sup> ، وقال ثوبان الكذب كله إثم إلا ما نفع به مسلما أو دفع عنه ضررا . وقال علي رضي الله عنه : إذا حدثتكم عن النبي صلى الله عليه وسلم فلأن أخر من السماء أحب إلي من أن أكذب عليه ، وإذا حدثتكم فبأبى بيني وبينكم فالهرب خدعة .

فهذه الثلاث ورد فيها صريح الاستثناء ، وفي معناها ما عداها إذا ارتبط به مقصود صحيح له أو لغيره . أما ماله : قيل إن يأخذه ظلم ويسأله عن ماله أنه أن ينكره ، أو يأخذه سلطان فيسأله عن فاحشة بينه وبين الله تعالى ارتكبتها فله أن ينكر ذلك ، يقول : ما زلت وما سرفت . وقال صلى الله عليه وسلم « من ارتكب شيئا من هذه القاذورات فليست بستر الله<sup>(٢)</sup> » وذلك أن إظهار الفاحشة فاحشة أخرى ، فلعل أن يحفظ دمه وماله الذي يؤخذ ظلما وعرضه بلسانه وإن كان كاذبا .

وأما عرض غيره : فإن يسأله عن سر أخيه فله أن ينكره ، وأن يصلح بين اثنين ، وأن يصلح بين الضرات من نسائه بأن يظهر لكل واحدة أنها أحب إليه ، وإن كانت امرأته لا تطاوعه إلا بوعده لا يقدر عليه فيعدها في الحال تطيبا لقلبها ، أو يستتر إلى إنسان وكان لا يليب قلبه إلا بإنكار ذنب وزيادة تودد فلا بأس به . ولكن الحد فيه أن الكذب محذور ولو صدق في هذه المواضع تولد منه محذور . فينبغي أن يقابل أحدهما بالآخر ويرد بالميزان القسط ، فإذا علم أن المحذور الذي يحصل بالصدق أشد وقعا في الشرع من الكذب فله الكذب ، وإن كان ذلك المقصود آمون من مقصود الصدق فيجب الصدق ، وقد يتقابل الأمران بحيث يتردد فيهما ، وعند ذلك الميل إلى الصدق أولى لأن الكذب يباح للضرورة أو حاجة مهمة . فلن شك في كون الحاجة مهمة فالأصل التحريم فيرجع إليه ، ولأجل غرض إدراك مراتب المقاصد ينبغي أن يحتز الإنسان من الكذب ما أمكنه ، وكذلك مهما كانت الحاجة له فيستحب له أن يترك أغراضه ويجوز للكذب ، فأما إذا تعلق بمرض غيره فلا يجوز المسامحة لحق الغير والإضرار به ؛ وأكثر كذب الناس إنما هو لحفظ أنفسهم ، ثم هو زيادات المال والجاء ولا هو ليس فواتها

(١) حديث النوايس بن سحمان « مالي أراكم تهافتون في الكذب تهافت الفرائس في النار ؟ كل الكذب مكتوب .. فلهذه أخرجه أبو بكر بن بطلان في مكرام الأخلاق بلفظ « تنابهن » أي قوله « في النار » دون ما يسهل فرواه الطبراني وغيره شهرين حوشب (٢) حديث « من ارتكب شيئا من هذه القاذورات فليست بستر الله » (المعجم من حديث أبي بلفظ « اجتنبوا هذه القاذورات التي تهرق الله عنها فمن ألم بعمى منها فليست بستر الله » ولما سنده حسن .

محدورا ، حتى إن المرأة لتحتكي عن زوجها ما تفخر به وتكذب لأجل مراعاة الضرات ، وذلك حرام . وقالت أسماء سمعت امرأة سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : إن لي ضرة ولقي أكثر من زوجي بما لم يفعل أحارها بذلك فهل علي شيء فيه ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : المتشيع بما لم يعط كلاهما ثوب زور <sup>(١)</sup> . وقال صلى الله عليه وسلم : من قطع بما لا يلزمه أو قال لي وليس له أو أعطيت ولم يعط فهو كلاهما ثوب زور يوم القيامة <sup>(٢)</sup> . ويدخل في هذا فتوى العالم بما لا يتحققه ، وروايته الحديث الذي لا يثبت إذ غرضه أن يظهر فضل نفسه ، فهو لذلك يستنكف من أن يقول : لا أخرى ، وهذا حرم : وما يلتحق بالنساء الصبيان ، فإن الصبي إذا كان لا يرغب في المكتب إلا بعد أو عيد أو تخوف كاذب كان ذلك مباحا . نعم روي في الأخبار أن ذلك يكتب كذبا ، ولكن الكذب للباح أيضا قد يكتب ويحاسب عليه ويطلب بتصحيح قصده فيه ثم يعفى عنه ، لأنه إنما أيسر بقصد الإصلاح ويتطرق إليه غرور كبير ، فإنه قد يكون الباعث له حظه وغرضه الذي هو مستثنى عنه وإنما يشمل ظاهرا بالإصلاح فلهذا يكتب . وكل من أتى بكذبة فقد وقع في خطرا الاجتهاد ليعلم أن المقصود الذي كذب لأجله هل هو أم في الشرع من الصديق أم لا ؟ وذلك غامض جدا والحزم تركه إلا أن يصير واجبا بحيث لا يجوز تركه كما لو أدى إلى سفك دم أو ارتكاب معصية كيف كان .

وقد ظن ظانوا أنه يجوز وضع الأحاديث في فضائل الأعمال وفي التشديد في المعاصي ، وزعموا أن المقصد منه صحيح وهو خطأ محض ، إذ قال صلى الله عليه وسلم : من كذب على متعمداً ألقيناه مقعده من النار <sup>(٣)</sup> . وهذا لا يرتكب إلا لضرورة ولا ضرورة إذ في الصدق مندوحة عن الكذب فبما ورد من الآيات والأخبار كفاية عن غيرها . وقول القائل : إن ذلك قد تكرر على الأسماع وسقط وقفه ، وما هو جديد فوقمه أعظم ، فهذا هو سبب ليس هذا من الأغراض التي تقاوم محذور الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى الله تعالى ويؤدي فتح باب إلى أمور تتوشى الشرية فلا يقاوم خير هذا شره أصلي . والكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر التي لا يقاومها شيء . نسأل الله المغفرة وعن جميع المسلمين .

### بيان الحذر من الكذب بالمعاريض

قد نقل عن السلف أن في المعاريض مندوحة عن الكذب قال عمر رضي الله عنه : أما في المعاريض ما يمكن الرجل عن الكذب ؟ وروى ذلك عن ابن عباس وغيره . وإنما أرادوا بذلك إذا اضطر الإنسان إلى الكذب فأما إذا لم تكن حاجة وضرورة فلا يجوز التمرير ولا التصريح جميعا ، ولكن التمرير أمون . ومثال التمرير ما روى أن مطرفا دخل على زياد فاستبطأ فتملأ بمرض وقال : ما رفعت جني منذ ما رفعت الأمير إلا ما رفعتني الله . وقال إبراهيم : إذا بلغ الرجل منك شيء فكرهت أن تكذب فقل : إن الله تعالى يعلم ما قلت من ذلك من شيء . فيكون قوله « ما » حرف نفى عند المستمع ، وعنده الإيهام . وكان ماذن جبل عاملا لمرضى الله عنه فلما رجع قالت له امرأته : ما جئت به بما يأتي به العمال إلى أهلهم ؟ وما كان قد أتاهما بشيء . فقال : كان عندى ضابط ، قالت : كنت أمينا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وعد أبي بكر رضي الله عنه ، فبعثه عمر

(١) حديث أسماء : قالت امرأة : إن لي ضرة ولقي أكثر من زوجي بما لم يفعل . الحديث ، متفق عليه وروى أسماء بنت أبي بكر الصديق (٢) حديث : من قطع بما لا يلزمه وقاله لي وليس له وأعطيت ولم يعط كلاهما ثوب زور يوم القيامة . لم أجده بهذا اللفظ (٣) حديث : من كذب على متعمداً ألقيناه مقعده من النار . متفق عليه من طرق وقد تقدم في العلم .

ملك ضاعطا ؟ وقامت بذلك بين نسائها واشتكت عمر ، فلما بلغه ذلك دعا وماذا وقال : بشت مملك ضاعطا ؟ قال : لم أجد ما أعتذر به إليها إلا ذلك ، فضحك عمر رضى الله عنه وأعطاه شيئا فقال : أرضها به .. ومعنى قوله ضاعطا يعنى رقيقاً وأراد به الله تعالى .. وكان النخعي لا يقول لابنته : أشتري لك منكراً بل يقول : أرايت لو اشتريت لك سكراً ؟ فإنه ربما لا يتفق له ذلك . وكان إبراهيم إذا طلبه من ينكره أن يخرج إليه وهو في النار قال للجارية : قولي له أطلبه في المسجد ولا تقولي له ليس ههنا كيلا يكون كذبا . وكان الشعبي إذا طلب في المنزل هو يكرهه خط دائرة وقال للجارية : ضعى الأصبع فيها وقولي ليس ههنا . وهذا كله في موضع الحاجة فأما في غير موضع الحاجة فلا ، لأن هذا تفهيم للكذب وإن لم يكن اللفظ كذبا فهو مكروه على الجلالة كما روى عبادة بن عتبة قال : دخلت مع أبي علي بن عبد العزيز رحمة الله عليه فخرجت وعلى ثوب ، لجل الناس يقولون هذا كساك أمير المؤمنين ؟ فكنت أقول جزى الله أمير المؤمنين خيرا ، فقال لي أبي يابني اتق الكذب وما أشبهه ، فتهاه عن ذلك لأن فيه تقريراً لهم عن ظن كاذب لأجل غرض المخاطرة وهذا غرض باطل لا فائدة فيه .

لعم المعاريض يباح لغرض خفيف كتطبيب قلب الغير بالمراحم كقوله صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنة عجزوز » وقوله للأخرى « الذي في عين زوجك يباح » وللأخرى « نعلمك على ولد البعير » وما أشبهه . وأما الكذب الصريح كما فعله نعمان الأنصاري مع عثمان في قصة الضير إذ قال له إنه نعمان ، وكما يتعاده الناس من ملاعبة الحق بتفريهم بأن امرأة قد رغبت في تزويجك ، فإن كان فيه ضرر يؤدي إلى إيذاء قلب فهو حرام ، وإن لم يكن إلا الملاءمة فلا يوصف صاحبها بالفسق ولكن ينقص ذلك من درجة إيمانه . قال صلى الله عليه وسلم « لا يكمل البرء الإيمان حتى يجب لأخيه ما يجب لنفسه وحتى يمتنع الكذب في مزاحه »<sup>(١)</sup> . وأما قوله عليه السلام « إن الرجل ليتكلم بالكلمة ليضحك بها الناس يبوء بها في النار أبعد من النرايا »<sup>(٢)</sup> أراد به ما فيه غيبة مسلم أو إيذاء قلب دون حضي المزاح .

ومن الكذب الذي لا يوجب الفسق ما جرت به العادة في المبالغة كقوله طلبتك كذا وكذا مرة وقلت لك كذا مائة مرة ، فإنه لا يريد به تفهيم المرات بعدد ما بل تفهيم المبالغة ، فإن لم يكن طلبه إلا مرة واحدة كان كاذبا ، وإن كان طلبه مرات لا يمتد مثلها في الكثرة لا يأثم وإن لم تبلغ مائة ، وبينهما درجات يتعرض مطلق اللسان بالمبالغة فيها لحظر الكذب . وما يمتد الكذب فيه ويتساهل به أن يقال : كل الطعام ، فيقول : لا أشتهي ؛ وذلك منهى عنه وهو حرام ، وإن لم يكن فيه غرض صحيح قال مجاهد : قالت أسماء بنت عيسى ، كنت صاحبة عاتقة في الليلة التي ميأتها وأدخلتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعى نسوة قالت : فو الله ما وجدنا عنده قرى إلا قد سامن لبن ، فشرب ثم ناله عاتقة ، قالت : فاستحييت الجارية فقلت : لا تردى يد رسول الله صلى الله عليه وسلم خذى منه ، قالت : فأخذت منه على حياء فشربت منه ثم قال « ناولي صواحبك » فقلن : لا نشتهي ، فقال « لا تجمعن جوعا وكذبا » قالت : فقلت يا رسول الله إن قالت إحدانا شئ تشتهي لا أشتهي أهد ذلك كذبا ؟ قال

(١) حديث « لا يدخل الجنة عجزوز » وحديث « في عين زوجك يباح » وحديث « نعلمك على ولد البعير » وهدمت الثلاثة في الآلة العاتقة (٢) حديث « لا يستكمل المؤمن إيمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه وحتى يمتنع الكذب في مزاحه » ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب من حديث أبي مليكة القساري وقال فيه نظر والشيخين من حديث أنس « لا يؤمن أحد منكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » وأما لفظي في المؤفف والمختلف من حديث أبي هريرة « لا يؤمن عبد الإيمان كله حتى يترك الكذب في مزاحه » قال أحمد بن حنبل منكر . (٣) حديث « إن الرجل ليتكلم بالكلمة ليضحك بها الناس يبوء بها أبعد من النرايا » تنعم في الآلة العاتقة .

قال الليث بن سعد : كانت عينا سعد بن الليث ترمض حتى يبلغ الرض عارجه عليه ، فيقال له : لو مسح عينيك ؟ فيقول : وأين قول الطبيب : لا تمس عينك فأقول : لا أقبل ؟ وهذه مراقبة أهل الورع . ومن ترك أنسل لسانه في الكذب عند حد اختياره فيكذب ولا يشعر . وعن خوات التيمي قال : جاءت أخت الربيع بن خثيم عائدة لابن له فأنكبت عليه ، فقالت : كيف أنت يا بني ؟ جلس الربيع وقال : أرضعتني ؟ قالت : لا ، قال : ما عليك لو قلت ، يا ابن أخي فصدقت ؟ ومن العادة أن يقول : يعلم الله ، فإيا لا يعلم . قال عيسى عليه السلام : إن من عظم الذنوب عند الله أن يقول البدل إن الله يعلم ، لما لا يعلم . وربما يكذب في حكاية المنام ، والإثم فيه عظيم . إذ قال عليه السلام : إن من أعظم القرية أن يدعي الرجل إلى غير أبيه أو يرى عينيه في المنام ما لم ير أو يقول على ما لم أقل <sup>(١٧)</sup> . وقال عليه السلام : من كذب في حل كلف يوم القيامة أن يعقد بين شجرتين وليس يعاقد بينهما أبدا <sup>(١٨)</sup> .

والنظر فيها طويل فلنذكر أولا مزمة النية وما ورد فيها من شواهد الشرع ، وقد نص الله سبحانه على ذمها في كتابه وشبه صاحبها بآكل لحم الميتة ، فقال تعالى ( ولا تقبض بعضكم بعضا أحكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه ) وقال عليه السلام ، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه <sup>(١)</sup> ، والنية تقابل الغرض وقد جمع الله بينه وبين المال والدم ، وقال أبو هريرة : قال عليه السلام لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تفاخسوا ولا تتكبروا ولا يقبض بعضكم بعضا وكفونا عباد الله إخوانا <sup>(٢)</sup> ، وعن جابر وأبي سعيد قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إياكم والنية فإن النية أشد من الزنا ، فإن الرجل يرى ويؤت بفتور الله سبحانه عليه وإن صاحب النية لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه <sup>(٣)</sup> ، وقال أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ومررت ليلة سرى في على أفوام يمحشون وجوههم بأظفارهم فقلت يا جبريل من هؤلاء ؟ قال هؤلاء الذين ينتابون الناس ويقعون في أعراسهم <sup>(٤)</sup> ، وقال سليم بن جابر : ألبت التي عليه الصلاة والسلام فقلت علي خير أنتم به ، فقال ولا يمحشون

(١) حديث مجاهد عن أسماء بنت عيسى : كنت صاحبة خالقة لاني حياتها واخذتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم . الحديث  
رواه « قال لأخيهما جوا وكذا » أخرجه ابن أبي الدنيا في الصلت والطبراني في الكبير وله نحوه من رواية شهر بن حوشب  
عن أسماء بنت يزيد وهو الصواب ، فإن أسماء بنت عيسى كانت إذ ذاك طفلة ؛ لكن في طبقات الأسيديين لأبي الفتح من  
رواية عطاء بن أبي رباح عن أسماء بنت عيسى : زفنا إلى النبي صلى الله عليه وسلم بسى لهائه . الحديث . فإذا كانت غير خالقة  
من تزويجها بعد خبير فلا مانع من ذلك . (حديث ٢) لأن من أعظم القرآن أن يدعى الرجل لمن فيه أمة أو يرى عليه في المنام  
ثم يأتي أو يقول على ما أمّل . أخرجه الطبراني من حديث وثيقة بن الأقرع أنه من حديث ابن عمر « من قرأ التوراة يرى  
عليه ما لم يريا » (حديث ٣) حديث من كذب في حقه كاف يوم القيامة أن يقتل عشرة . أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس

(٤) حديث "كل المسلم على المسلم حرام دمه وباله وعرضه" أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة (٥) "لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا يتب بكم بشاً وكرهوا عيدة الله أختوا" متفق عليه من حديث أبي هريرة دون قوله "ولا يتب بكم بشاً" ولقد تقدم في آداب الصلوة (٦) حديث جابر وأبي سعيد "الأك والمثنية فإن الثنية أشبه من الزنا ... الحديث" أخرجه ابن أبي الدنيا التست وابن حبان في الضعفاء وابن مردويه في التكميل. (٧) حديث أبي سفيان "صبرت ليلة أسرى لي على قوم يمشون ويهزهم بأطرافهم ... الحديث" أخرجه أبو داود ومسلم وسهيل والبيهقي أصح.

من المعروف شيئا ولو أن تصب من دلوك في إناء المستقي ، وأن تلقى أحباك ببشر حسن وإن أدبر فلا تقتاتبه<sup>(١)</sup> ، وقال البراء : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أسمع العراقة في بيوتهم فقال : يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه لا تقتاتوا المسلمين ولا تقبوا عوراتهم ، فإنه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يفضحها في جوف بيته<sup>(٢)</sup> ، وقيل أوحى الله إلى موسى عليه السلام : من مات تابعا من النية فهو آخر من يدخل الجنة ، ومن مات مصرا عليها فهو أول من يدخل النار . وقال أنس : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بصوم يوم فقال : لا يفطرن أحد حتى آذن له ، فصام الناس حتى إذا أمسوا جعل الرجل يحكي ويقول : يا رسول الله ظلمت صائما فأذن لي لأفطر فيأذن له ، والرجل والرجل حتى جاء رجل فقال : يا رسول الله فنانان من أهلك ظلمتا صائمتين وإنهما يستجبان أن يأتيك فأذن لما أن يفطرا ١ فأعرض عنه صلى الله عليه وسلم ، ثم عاوده فأعرض عنه ، ثم عاوده فقال : لإنهما لم يصوما وكيف يصوم من ظل نهاره يأكل لحم الناس ؟ أذهب فرهما إن كانتا صائمتين أن تستقيتا ، فرجع إليهما فأخبرهما فاستقاءتا ، فقامت كل واحدة منهما حلقة من دم ، فرجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال : والذي نفسي بيده لو بقيتا في بطونهما لاكلتهما النار<sup>(٣)</sup> ، وفي رواية : أنه لما أعرض عنه جاء به بذلك وقال يا رسول الله والله إنهما قد ماتتا أو كادتا أن تموتا ، فقال صلى الله عليه وسلم : اتوني بهما ، فجاءتا فندعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدره فقال لاحداهما : قبيح ، فقامت من قبح ودم وصديد حتى ملأت القدح ، وقال للآخرى : قبيح ، فقامت كذلك ، فقال : إن هاتين صامتا عما أحل الله لها وأفطرتا على ما حرم الله عليهما ، جلست إحداهما إلى الأخرى فجعلتا تأكلان لحوم الناس<sup>(٤)</sup> ، وقال أنس : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الربا وعظم شأنه فقال : إن الدرهم يصيبه الرجل من الربا أعظم عند الله في الخطيئة من ست وثلاثين زنية يزنيها الرجل وأرنب الربا عرض للمسلم<sup>(٥)</sup> ، وقال جابر كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسير فأتى على قبرين يغرب صاحباهما فقال : إنهما يبذبان وما يبذبان في كبير ، أما أحدهما فكان يمتناب الناس ، وأما الآخر فكان لا يستنزه من بوله ، فذا به جريدة رطبة أن جريدتين فكسرها ثم أمر بكل كسرة ففرست على قبر وقال : أما إنه سيؤن من عذابهما ما كانتا رطبتين - أو ما لم يبسا -<sup>(٦)</sup> . ولما رحل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هرا في الزنا قال رجل لصاحبه هذا أقص كما يقص السكب ، فز صلى الله عليه وسلم وهما معه بحيفة فقال : انتشأ منها فقالا : يا رسول الله تنش

(١) حديث سالم بن جابر : أثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت علفي خيرا ينطق الله به . . . الحديث . أخرجه أحد في المسند وابن أبي الدنيا في السنن واقتطع ولم يقل فيه أحد . ولذا أدبر فلا تقتاتبه ، وفي المسند ما ضبط (٢) حديث البراء ، يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه لا تقتاتوا المسلمين . . الحديث ، أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا ورواه أبو داود من حديث أبي هريرة بإسناد جيد . (٣) حديث أنس : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بصوم وقال : لا يفطرن أحد حتى آذن له فقام الناس . . الحديث ، في ذكر المرائين الذين اغتاتوا في صيامهم فقامت كل واحدة منهما حلقة من دم ، أخرجه ابن أبي الدنيا في السنن وابن جرير في التفسير من رواية يزيد الرقني عنه ويبريد ضعيف . (٤) حديث المرائين المذكورين وقال فيه : لأن هاتين صامتا عما أحل الله لها وأفطرتا على ما حرم الله عليهما . . الحديث ، أخرجه أحمد من حديث عبيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيه رجل لم يسم ورواه أبو يعلى في مسنده فأسقط منه ذكر الرجل المتهمة . (٥) حديث أنس : خطبنا فذكر الربا وعظم شأنه . . الحديث . وفيه : وأرنب الربا عرض الرجل المسلم ، أخرجه ابن أبي الدنيا بسند ضعيف .

(٦) حديث جابر : كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسير فأتى على قبرين يغرب صاحباهما فقال : أما هاتين يبذبان وما يبذبان في كبير ، أما أحدهما فكان يمتناب الناس . . الحديث ، أخرجه ابن أبي الدنيا في السنن وأبو العباس الدغولي في كتاب الآداب بإسناد جيد وهو في الصحيحين من حديث ابن عباس لا أنه ذكر فيه العيبة بل النية ، والبيان في : أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس ، وأما الآخر فلهي من حديث ابن بكرة نحوه بإسناد جيد .

جيفة؟ فقال: « ما أصبنا من أخيك أثن من هذه »<sup>(١)</sup> وكان الصحابة رضى الله عنهم يتلاقون بالبشر ولا يتنابرون عند النية ويرون ذلك أفضل الأعمال ويرون خلافه عادة المناقضين . وقال أبو هريرة: « من أكل لحم أخيه في الدنيا قرب إليه لحمه في الآخرة وقيل له كله ميتا كما أكلته حيا ، فياكله فينضج ويكف »<sup>(٢)</sup> وروى مرفوعا كذلك . وروى أن رجلين كانا قاعدین عند باب من أبواب المسجد فرجما رجل كان مختارا فترك ذلك . فقالا : لقد بقي فيه منه شيء وأقيمت الصلاة فدخلوا فصليا مع الناس ، خاف في أنفسهما ما قالوا فأبيا عطاء فسألاه فأمرهما أن يعبدا الوضوء والصلاة وأمرهما أن يقضيا الصيام إن كانا صائمين . وعن مجاهد أنه قال في ﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾ الهمزة : الطمان في الناس ، واللزة : الذى يأكل لحوم الناس . وقال قيادة : ذكر لنا أن عذاب القبر ثلاثة أعلام : تلك من الغيبة ، وتلك من التهمة ، وتلك من البول . وقال الحسن : والله النية أسرع في دين الرجل المؤمن من الأكل في الجسد . وقال بعضهم : أدركنا السلف وهم لا يرون العبادة في الصوم ولا في الصلاة ولكن في التكف عن أعراض الناس . وقال ابن عباس : إذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك فاذكر عيوبك . وقال أبو هريرة يصراحكم القذى في عين أخيه ولا يبصر الجذع في عين نفسه . وكان الحسن يقول : ابن آدم إنك لن تصيب حقيقة الإيمان حتى لا تنيب الناس بيبب هو فيك ، وحتى تبدأ بصلاح ذلك النيب فتصلحه من ، فإذا فعلت ذلك كان شعلك في خاصة نفسك ، وأحب العباد إلى الله من كان هكذا . وقال مالك بن دينار : مر عيسى عليه السلام ومعه الحواريرن بجيفة كلب فقال الحواريرن : ما أنتن ربح هذا الكلب ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : ما أشد بياض أسنانه ! كأنه رضى الله عنهما رجلا يفتاب آخر فقال له : إياك والنية فأبنا إدام كلاب الناس . وقال عمر رضى الله عنه : عليكم بذكر الله تعالى فإنه شفاء وإياكم وذكر الناس فإنه داء . نسأل الله حسن التوفيق لطاعته .

### بيان معنى النية وحدودها

أهم أن حد النية أن تذكر أعياك بما يكرهه لو بلغه ، سواء ذكرته بنفس في بدنه أو نسيه أو في خلقه أو في فعله أو في قوله أو في دينه أو في دنياه ، حتى في ثوبه وداره وذايته .

أما البدن : فكذلك المش والحوال والقرع والقصر والطول والسواد والصفرة ، وجميع ما يتصور أن يوصف به مما يكرهه كنهيا كان . وأما النسب : فبأن تقول أبوه نبطي أو هندی أو قاسق أو غيس أو إسكاف أو زبال ، أو شيء مما يكرهه كنهيا كان . وأما الخلق : فبأن تقول هو سيء الخلق بخيل متكبر مرأه شديد الغضب . جبال عاجر ضعيف القلب متهور وما يجرى مجراه . وأما في أمثاله المتعلقة بالدين : فكقولك موارق أو كذاب أو شارب خمر أو غائن أو ظالم أو مهان بالصلاة أو الزكاة أو لا يحسن الركوع أو السجود أو لا يحترم من التجاسات أو ليس بارأ يوالديه أو لا يوضح الزكاة موضعها أو لا يحسن قسمها أو لا يحرم صومه عن الزفت والنية والتعرض لأعراض الناس . وأما فعله للمتلقي بالدنيا : فكقولك إنه قليل الأدب مهان بالناس ، أو لا يرى لأحد

(١) حديث : قوله هر رجل القى قال لصاحبه في حق الرجوم هذا أقسى ما يمس الكلب فرجفته فقال « اتمعها منها ... الحديث » أخرجه أبو داود والسنائي من حديث أبي هريرة نحوه بإسناد جيد (٢) حديث أبي هريرة « من أكل لحم أخيه في الدنيا قرب إليه لحمه في الآخرة » فقال له كله ميتا كما أكلته حيا ... الحديث « أخرجه ابن مردويه في التفسير مرفوعا وموقوفاً وفيه محمد بن إسحاق رواه بالسننة .

على نفسه حقاً أو يرى لنفسه الحق على الناس ، أو أنه كثير الكلام كثير الأكل ثوم ينام في غير وقت النوم ويجلس في غير موضعه . وأما في ثوبه فمكتوب لك إنه واسع الكم طويل الذيل وسخ الثياب .

وقال قوم : لا غيبة في الدين لأنه ذم ماذمه الله تعالى فذكره بالمعاصي وذمه بما يجوز ، بدليل ما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرت له امرأة وكثرة صلاحها وصومها ولكنها تؤذى جيرانها بلسانها فقال « هي في النار »<sup>(١)</sup> ، وذكرت عنه امرأة أخرى بأنها بخيلة فقال « فما خيرها إذن »<sup>(٢)</sup> ، فهذا فاسد لأنهم كانوا يذكرون ذلك لحاجتهم إلى تعرف الأحكام بالسؤال ، ولم يكن غرضهم التتقصيص ولا يحتاج إليه في غير مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم . والدليل عليه إجماع الأمة على أن من ذكر غيره بما يكرمه فهو مقتاب لأنه داخل فيما ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم في حد الغيبة .

وكل هذا وإن كان صادقاً فيه فهو به مقتاب عاص لربه وآكل لحم أخيه ، بدليل ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « هل تدرون ما الغيبة ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم قال « ذكرك أهلك بما يكرمه » قيل : أرايت إن كان في أخى ما أقوله ؟ قال « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه فقد بهت »<sup>(٣)</sup> ، وقال معاذ بن جبل « ذكر رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : ما أعجزه » فقال صلى الله عليه وسلم « اغتبتم أحاكم » قالوا يا رسول الله قلنا ما فيه ، قال « إن قلتم ما ليس فيه فقد بهتموه »<sup>(٤)</sup> ، وعن حذيفة عن عائشة رضي الله عنها أنها ذكرت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة فقالت : لأنها قصيرة فقال صلى الله عليه وسلم « اغتبتيها »<sup>(٥)</sup> ، وقال الحسن ذكر النير ثلاثة النبية والبهتان والإفك ، وكل في كتاب الله عز وجل ؛ فالغيبة أن تقول ما فيه ، والبهتان أن تقول ما ليس فيه ، والإفك أن تقول ما بلفظه وذكر ابن سيرين رجلاً فقال : ذاك الرجل الأسود ، ثم قال أستغفر الله إنى أراى قد اغتبته . وذكر ابن سيرين إبراهيم التيمي فوضع يده على عينه ولم يقل إلا العور . وقالت عائشة لا يمتنان أحداً غابى قلت لامرأة مرة وأنا عند النبي صلى الله عليه وسلم إن هذه لطوية الذيل فقال « الفطى الفطى » فلفظت مضطحة لحم<sup>(٦)</sup> .

### بيان أن الغيبة لا تقتصر على اللسان

اعلم أن الذكر باللسان إنما حرم لأن فيه تفهم النير نقصان أخيك وتعرضه بما يكرمه ، فالتعرض به كالتصريح والفعل به كالقول ، والإشارة والإيماء والنمز والهمز والكتابة والحركة وكل ما يفهم المقصود فهو داخل في الغيبة وهو حرام . فمن ذلك قول عائشة رضي الله عنها : دخلت علينا امرأة فلما ولت أومات يدي أنها قصيرة فقال صلى الله

(١) حديث : ذكر له امرأة وكثرة صومها وصلاحها لكن تؤذى جيرانها فقال « هي في النار » أخرجه ابن حبان والمالك وصححه من حديث أبي هريرة (٢) حديث : ذكر امرأة أخرى بأنها غيبة قال « فآخبرها إذن » أخرجه الحارثي في مكارم الأخلاق من حديث أبي جعفر محمد بن علي صبرلا ورواه في أساميل ابن خنيسون هكذا (٣) حديث « هل يدرون ما الغيبة ؟ » قالوا الله ورسوله أعلم ، قال « ذكرك أهلك بما يكرمه ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة (٤) حديث معاذ : ذكر رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا ما أعجزه ... الحديث . أخرجه الطبراني بإسناد ضعيف (٥) حديث عائشة : أنها ذكرت امرأة فكانت لها قصيرة فقال « اغتبتيها » رواه أحمد وأبو داود والترمذي وصححه بلفظ آخر ووقع عند المصنف من حديثه عن عائشة وكذا هو في الست لابن أبي الدنيا والصابغ عن أبي حذيفة كما عند أحمد وأبي داود والترمذي واسم أبي حذيفة سلمة بن صبيب (٦) حديث عائشة : قلت لارأة ولها هذه لطوية الذيل فقال صلى الله عليه وسلم « الفطى » فلفظت مضطحة من لحم . أخرجه ابن أبي الدنيا وابن مردويه في التفسير وفي استأذنه امرأة لأمرها .



السلام ، اغتبتها <sup>(١)</sup> . ومن ذلك الحكاية يمشى متعارجا أو كما يمشى فهو غيبة بل هو أشد من النبية لأنه أعظم في التصوير والتفهيم . ولما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة حاكمت امرأة قال : ما يسرنى أنى حاكمت إنسانا ولى كذا وكذا <sup>(٢)</sup> . وكذلك النبية بالكتابة فإن القلم أحد السانين . وذكر للمصنف شخصا معينا وتهجين كلامه في الكتاب غيبة إلا أن يقرن به شيء من الأعذار المحوجة إلى ذكره . كما سيأتى بيانه . وأما قوله : قال قوم كذا : فليس ذلك غيبة ، وإنما النبية التعرض لشخص معين إما حى وإما ميت . ومن النبية أن تقول : بعض من مر بنا اليوم ، أو بعض من رأيناه ؛ إذا كان المخاطب يفهم منه شخصا معينا ؛ لأن المحذور تفهيمه دون ما به التفهيم فأما إذا لم يفهم عنه جاز . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذكره من إنسان شيئا قال : ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا <sup>(٣)</sup> . فكان لا يمين . وقولك : بعض من قدم من السفر ، أو بعض من يدعى العلم ، إن كان معه قرينة تفهم عين الشخص فهي غيبة .

وأخيت أنواع النبية غيبة القراء المرائين فإنهم يفهمون المقصود على صيغة أهل الصلاح ليظهروا من أنفسهم التمتعف عن النبية ويفهمون المقصود ، ولا يدرون بجهلهم أنهم جمعا بين فاحشتين النبية والرياء ، وذلك مثل أن يذكر عنده إنسان فيقول : الحمد لله الذى لم يبتلنا بالدخول على السلطان والتبذل في طلب الحطام ، أو يقول : نعوذ بالله من قلة الحياء نسأل الله أن يعصنا منها ، وإنما قصده أن يفهم عيب الغير فيذكره بصيغة الدعاء ، وكذلك قد يقدم مدح من يريد غيبته فيقول : ما أحسن أحوال فلان : ما كان يقصر في العبادات ولكن قد اعتراه فتور وأبتل بما يبتلى به كذا وهو قلة الصبر . فيذكر نفسه ومقصوده أن يتم غيره في ضمن ذلك ويمدح نفسه بالتشبه بالصالحين بأن يتم نفسه ، فيكون مقابلا ومرايا ومزكيا نفسه ، فيجمع بين ثلاث فواحش وهو تجهل يظن أنه من الصالحين المتتمتين عن النبية . ولذلك يلعب الشيطان بأهل الجهل إذا اشتغلوا بالعابذة من غير علم فإنه يديمهم ويحبب بمكايده عملهم ويضللهم عليهم ويسخر منهم . ومن ذلك أن يذكر عيب إنسان فلا يتيه به بعض الحاضرين فيقول : سبحان الله ما عجب هذا ؛ حتى يصفى إليه ويعلم ما يقول ، فيذكر الله تعالى ويستعمل الاسم آلة في تحقيق خبثه ، وهو عين على الله عز وجل بذكره جهلا منه وغورا . وكذلك يقول : سامى ما جرى على صديقنا من الاستخفاف به نسأل الله أن يروح نفسه ، فيكون كاذبا في دعوى الاعتظام وفى إظهار الدعاء له ، بل لو قصد الدعاء لإخفاء في خلوته عقيب صلاته ، ولو كان يفهم به لا غم أيضا لإظهار ما يكرهه . وكذلك يقول : ذلك المسكين قد بلى بأفة عظيمة تاب الله علينا وعليه ، فهو في كل ذلك يظهر الدعاء واقه مطلع على خبث ضميره وخفى قصده ، وهو لجهله لا يدري أنه قد تعرض لثقت أعظم عما تعرض له الجهال إذا جاهرُوا .

ومن ذلك الإحساء إلى النبية على سبيل التعجب فإنه إنما يظهر التعجب ليزيد نشاط المتأنيب في النبية فيندفع فيها وكأنه يستخرج النبية منه بهذا الطريق فيقول : عجب ما علبت أنه كذلك ما عرفته إلا الآن إلا بالخير : وكنت أحسب فيه غير هذا ، طافنا الله من بلاده ، فإن كل ذلك تصديق للمتأنيب والتصديق بالنبية غيبة بل الساكت شريك

(١) حدثت عائشة : دخلت علينا امرأة فأومأت يدي أى قصيدة فقال النبي صلى الله عليه وسلم : قد اغتبتها أخرجه ابن أبي الدنيا وابن مردويه من رواية حسان بن عمارق منها وحسان وثقه ابن حبان وإليه ثلاث (٢) حدثت : ما يسرنى أنى حاكمت (٣) حدثت كان إذا ذكره من إنسان شيئا قال : ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا ... الحديث أخرجه أبو داود من حديث عائشة دون قوله : وكان لا يمين . ورجاله رجال الصحيح .

المتائب . قال صلى الله عليه وسلم « المستمع أحد المتائبين <sup>(١)</sup> » وقد روى عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما أن أحدهما قال لصاحبه : إن فلانا لثورم ثم إنهما ظلما أدما من رسول الله صلى الله عليه وسلم ليأكلأ به الحنجر فقال صلى الله عليه وسلم « قد اتدتمنا <sup>(٢)</sup> » قالوا : مانعله ؟ قال : « بل إنكما أكلتما من لحم أخيكما <sup>(٣)</sup> » فانظر كيف جمعهما وكان القاتل أحدهما والآخر مستمعا . وقال الرجلين اللذين قال أحدهما : أقمص الرجل كما يقمص السكب ، أنشأ من هذه الجيفة <sup>(٤)</sup> . ولجمع بينهما فالمستمع لا يخرج من إثم التوبة إلا أن ينكر بلسانه أو قبله فإن عاف ، وإن قدر على القيام أو قطع الكلام بكلام آخر فلم يقبل لزمه ، وإن قال بلسانه اسكت ، وهو مشته لذلك قبله فذلك نفاق ، ولا يخرج من الإثم مالم يكرهه قبله ، ولا يكتفي في ذلك أن يشير باليد أى اسكت ، أو يشير بمواجه وجهه ، فإن ذلك استحقاق للذكور بل ينبغي أن يعظم ذلك فيذهب عنه صريحا وقال صلى الله عليه وسلم من أدخل عنده مؤمن فلم ينصره وهو يقدر على نصره أذله الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق <sup>(٥)</sup> » وقال أبو الدرداء : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من رد عن عرض أخيه بالنيب كان حقا على الله أن يرد عن عرضه يوم القيامة <sup>(٦)</sup> » وقال أيضاً ، من ذب عن عرض أخيه بالنيب كان حقا على الله أن يمتقه من النار <sup>(٧)</sup> » وقد ورد في نصرة المسلم في التوبة وفي فضل ذلك أخبار كثيرة أوردناها في كتاب آداب الصلوة وحقوق المسلمين فلا تطول بإعادتها .

### بيان الأسباب الباعثة على التوبة

اعلم أن البراءة على التوبة كثيرة ولكن يجمعها أحد عشر سببا : ثمانية منها تطرد في حق العامة ، وثلاثة تختص بأهل الدين والخاصة .

أما الثمانية : فالأول أن يثني النيط وذلك إذا جرى سبب غضب به عليه ، فإنه إذا هاج غضبه يشتت بذكر مساوية فيسبق اللسان إليه بالطبع إن لم يكن ثم دين وأزع ، وقد يمتنع ثقب النيط عند الغضب فيحتقن الغضب في الباطن فيصير حقدًا ثابتًا فيكون سببا دائما لذكر المساوى ، فالحقد والغضب من البواعث العظيمة على التوبة .

الثاني : موافقة الأقران وبجاملة الرفقاء ومساعدتهم على الكلام ، فإنهم إذا كانوا يتشككون بذكر الأعراض فيرى أنه لو أنكر عليهم أو قطع المجلس استقلوه ونفروا عنه فيساعدهم ويرى ذلك من حسن المعاشرة ويظن أنه بجاملة في الصلوة ، وقد يغضب ورفاقه يحتاج إلى أن يغضب لنفسهم لإظهار السامعة في السراء والضراء فيخوض معهم في ذكر العيوب والمساوى .

الثالث : أن يستنصر من إنسان أنه سيقصده ويطول لسانه عليه أو يفتح حاله عند محقق ، أو يشهد عليه بشهادة

(١) حديث « المستمع أحد المتائبين » أخرجه الطبراني من حديث ابن عمر : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سئل عن البنية وعن الاستماع إلى البنية . وهو ضيف ر (٢) حديث : أن أبي بكر وعمر قال أحدهما لصاحبه إن فلانا لثورم ثم ظلما أدما من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « قد اتدتمنا ؟ » قالوا : مانعله ؟ فقال : « بل إنكما أكلتما من لحم أخيكما » أخرجه أبو العباس المذول في الأدب من رواية عبد الرحمن بن أبي ليلى برسالة نحوه (٣) حديث « أنهما من هذه الميتة » قال الرجلين اللذين قال أحدهما : أقمص كما يقمص السكب . تقدم قبل هذا باني عصر حديثنا (٤) حديث « من أدخل عنده مؤمن وهو قادر على أن ينصره فلم ينصره أذله الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق » أخرجه الطبراني من حديث سهل بن حنيف وفيه ابن الجيفة (٥) حديث أبي الدرداء « من رد عن عرض أخيه بالنيب كان حقا على الله أن يرد عن عرضه يوم القيامة » أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت وفيه شهر بن حوشب وهو عند الطبراني من وجه آخر يلط « رد الله عن وجهه النار يوم القيامة » ولقد رواه له « كان له حجاب من النار » وكلاما ضيف (٦) حديث « من ذب عن عرض أخيه بالنيب كان حقا على الله أن يمتقه من النار » أخرجه أحد الطبراني من رواية شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد .

فيأدره قبل أن يتجسح هو حاله ويعطين فيه ليسقط أثر شهادته ، أو يبتدئ بذكر ما فيه صادقا ليكذب عليه بعده فيروج كذبه بالصدق الأول ويستشهد ويقول : ما من عاذق الكذب ، فإني أخبرتكم بكذبا وكذا من أحواله فكان كما قلت .

الرابع : أن ينسب إلى شيء فيريد أن يتبرأ منه فيذكر الذي فعله ، وكان من حقه أن يرى نفسه ولا يذكر الذي فعل فلا ينسب غيره إليه ، أو يذكر غيره بأنه كان مشاركا له في الفعل ليهد بذلك عذر نفسه في فعله .

الخامس : إرادة التصنع والمباهاة ، وهو أن يرفع نفسه بتقيص غيره فيقول فلان جاهل وفهمه ركيك وكلامه ضعيف : وغرضه أن يثبت في ضمن ذلك فضل نفسه ويريم أنه أعلم منه ، أو يحذر أن يعظم مثل تعظيمه فيقدح فيه لذلك .

السادس : الحسد زهو أنه ربما يحسد من يثني الناس عليه ويحبرونه ويكرمونه ، فيريد زوال تلك النعمة عنه فلا يجد سبيلا إليه إلا بالقدح فيه ، فيريد أن يسقط ماء وجهه عند الناس حتى يكفوا عن كرامته والثناء عليه لأنه يقل عليه أن يسمع كلام الناس وثناءهم عليه وإكرامهم له ، وهذا هو عين الحسد وهو غير الغضب والحقد ، فإن ذلك يستدعي جنابة من المغضوب عليه ، والحسد قد يكون مع الصديق المحسن والرفيق الموافق .

السابع : اللعب والهزل والمطالعة وتزجية الوقت بالضحك ، فيذكر عيوب غيره بما يضحك الناس على سبيل المحاكاة ومنشؤه التكبر والعجب .

الثامن : السخرية والاستهزاء استحضاراً له فإن ذلك قد يجري في المحذور ويجري أيضاً في التوبة ومنشؤه التكبر واستصغار المستهزأ به .

وأما الأسباب الثلاثة التي هي في الخاصة فهي أغضضا وأدقها ، لأنها شروط خبايا الشيطان في معرض الخيرات وفيها خير ولكن شاب الشيطان بها الشر .

الأول : أن تنبعث من الدين داعية التعجب في إنكار المنكر والخطأ في الدين ، فيقول ما أعجب ما رأيت من فلان ! فإنه قد يكون صادقا ويكون تعجبه من المنكر ، ولكن كان حقه أن يتعجب ولا يذكر اسمه فيسبل الشيطان عليه ذكر اسمه في إظهار تعجبه ، فصار به مغتاباً وآثماً من حيث لا يدري . ومن ذلك قول الرجل : تعجب من فلان . كيف يجب جاريته وهي قبيحة ؟ وكيف يجلس بين يدي فلان وهو جاهل ؟ .

الثاني : الرحمة وهو أن يتم بسبب ما يتبلى به فيقول : مسكين فلان قد غني أمره وما ابتلى به ، فيكون صادقا في دعوى الاغتنام وبإيه التهم عن الحذر من ذكر اسمه فيذكره فيصير به مغتاباً فيكون غم ورحته خيرا ، وكذا تعجبه ولكن ساقه الشيطان إلى شر من حيث لا يدري ، والترحم والاعتناء يمكن دون ذكر اسمه فيهجه الشيطان على ذكر اسمه ليظلم به ثواب اعتنائه وترحمه .

الثالث : الغضب لله تعالى فإنه قد يغضب على منكر قاربه إنسان إذا رآه أو سمعه فيظهر غضبه ويذكر اسمه ، وكان الواجب أن يظهر غضبه عليه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يظهره على غيره ، أو يستراجه ولا يذكره بالسوء ، فهذه الثلاثة مما يغمض دركها على العباد فضلا عن العوام ، فهم يظنون أن التعجب والرحمة والغضب إذا كان لله تعالى كان عدوا في ذكر الاسم وهو خطأ ، بل المرخص في التوبة حاجات مخصوصة لا مدوحة فيها عن ذكر الاسم - كما ساقى ذكره - روى عن عمر بن الخطاب : أن رجلا من علي قرم في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فسلم عليهم فردوا عليه السلام ، فلما جاوزهم قال رجل منهم : إني لأبغض هذا في الله تعالى فقال أهل المجلس : لبئس ما قلت والله لتنبئته ، ثم قالوا : يا فلان لرجل منهم - قم فأدركه وأخبره بما قال فأدركهم فأسخروهم فأخبره فأثنى الرجل رسول الله صلى الله عليه وسلم وحكى له ما قال وسأله أن يدعو له ، فصداه وسأله فقال : قد قلت ذلك فقال صلى الله عليه وسلم : لم تنبئته ؟ فقال : أنا جاره وأنا به خابر ، والله ما رأيته يصلي صلاة قط إلا هذه المكتوبة ، قال : فأسأله يارسول الله هل رأي أخبرتني عن وقتها أو أسأت الوضوء لها أو الركوع أو السجود فيها ؟ فسأله فقال : لا ، فقال : والله ما رأيته يصوم شهرا قط إلا هذا الشهر الذي يصومه البر والفاجر ، قال : فأسأله يارسول الله هل رأي قط أظفرت فيه أو نقصت من حقه شيئا ؟ فسأله عنه فقال : لا ، فقال : والله ما رأيته يعطى سائلا ولا مسكينا قط ولا رأيته يتفق شيئا من ماله في سبيل الله إلا هذه الزكاة التي يؤديها البر والفاجر ، قال : فأسأله يارسول الله هل رأي نقصت منها أو ما كست فيها طالبا الذي يسألها ؟ فسأله فقال : لا ، فقال صلى الله عليه وسلم للرجل : قم فقله خير منك<sup>(١)</sup> .

### بيان العلاج الذي يمنع اللسان عن الغيبة

اعلم أن مساوى الأخلاق كلها إنما تعالج بمسجون العلم والعمل ، وإنما علاج كل علة بمضادة سببها ، فلنفحص عن سببها . وعلاج كلف اللسان عن الغيبة على وجهين : أحدهما على الجملة ، والآخر على التفصيل :

أما على الجملة : فهو أن يعلم تعرضه لسلط الله تعالى بنيتيه بهذه الأخبار التي يرونها وأن يعلم أنها محبطة لحسناته يوم القيامة ، فإنها تنقل حسناته يوم القيامة إلى من اغتابه بدلا عما استباحه من عرضه ، فإن لم تكن له حسنات نقل إليه من سيئات خصمه ، وهو مع ذلك متعرض لمقت الله عز وجل ومشيبه عنده بأكل الميتة ، بل العبد يدخل النار بأن تخرج كفة سيئاته على كفة حسناته وربما تنقل إليه سيئة واحدة عن اغتابه فيحصل بها الرجوع ويدخل بها النار . وإنما أقل الدرجات أن تنقص من ثواب أعماله وذلك بعد المخاضة والمطالبة والسؤال والجواب والحساب .

قال صلى الله عليه وسلم : ما النار في اليبس بأسرع من الغيبة في حسنات العبد<sup>(٢)</sup> ، وروى أن رجلا قال للحسن : بلغني أنك تفتاني ، فقال : ما بلغ من قدرك على أني أحككك في حسناتي . فهما آمن العبد بما ورد من الأخبار في الغيبة لم يطلق لسانه بها خوفا من ذلك ، وينفعه أيضا أن يتدبر في نفسه فإن وجد فيها عيبا اشتغل بعيب نفسه وذكر قوله صلى الله عليه وسلم : طوبى لمن شغل عيه عن صيوب الناس<sup>(٣)</sup> ، ومهما وجد عيبا فيبلغني أن يستحي من أن يترك ذم نفسه ويذم غيره ، بل يبلغني أن يتحقق أن عجز غيره عن نفسه في التترد عن ذلك العيب كسبوره ، وهذا إن كان ذلك عيبا يتعلق بفعله واختياره ، وإن كان أمرا خلقيا فالندم له ذم للخالق فإن من ذم صنعة فقد ذم صانعها .

قال رجل لحكيم : يا فقيح الوجه ، قال : ما كان خلق وجهي إلى فأحسنه . وإذا لم يجد العبد عيبا في نفسه فليشكر الله تعالى ولا يلوئ نفسه بأعظم السيوب ، فإن ثلب الناس وأكل لحم الميتة من أعظم السيوب ، بل لو أنصف لعلم أن ظنه بنفسه أنه يرى من كل عيب جهل بنفسه وهو من أعظم السيوب ، وينفعه أن يعلم أن تألم غيره بنيتيه كسأله بغيره غيره له ، فإذا كان لا يرضى لنفسه أن ينتاب فينبغي أن لا يرضى لغيره ما لا يرضاه لنفسه . فهذه معالجات جمليـة.

(١) حديث طائر بن واثلة : أن رجلا مر على قوم في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم عليهم فردوا عليه السلام فلما جاوزهم قال رجل منهم : إني لأبغض هذا في الله ... الحديث يطوله . وفيه فقال : ثم قلته خير منك . أخرجه أحمد بإسناد صحيح .

(٢) حديث : ما النار في اليبس بأسرع من الغيبة في حسنات العبد . لم أجده أصلا .

(٣) حديث : طوبى لمن شغل عيه عن صيوب الناس ، أخرجه البخاري من حديث أبي إسحق شريف .

أما التفصيل فهو أن ينظر في السبب الباعث له على الغيبة فإن علاج العلة يقطع سببها وقد قدمنا الأسباب .  
أما الغضب فيما لجه بما سيأتى في كتاب آفات الغضب وهو أن يقول : إني إذا أغضيت غضبي عليه فلعل الله تعالى يعض غضبه على سبب الغيبة إذ نهاني عنها فاجترأت على نهي واستخففت بجره وقد قال صلى الله عليه وسلم : « إن لجهم باباً لا يدخل منه إلا من شقى غيظه بمعصية الله تعالى <sup>(١)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم : « من اتقى ربه كل لسانه ولم يشف غيظه <sup>(٢)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم : « من كظم غيظاً وهو يقدر على أن يعضه دعاه الله تعالى يوم القيامة على رموس الخلاق حتى يغيره في أى الحور شاء <sup>(٣)</sup> » وفي بعض الكتب المنزلة على بعض النبيين : يا ابن آدم اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب فلا أحملك فيمن أحق .

وأما الموافقة فبأن تعلم أن الله تعالى ينضب عليك إذا طلبت سخطه في رضا المخلوقين ، فكيف ترضى لنفسك أن تفرغ عيرك وتحقر مولاك فتترك رضاه لرضام إلا أن يكون غضبك لله تعالى وذلك لا يوجب أن تذكر المغضوب عليه بسوء بل ينبغي أن تنضب لله أيضاً على رقائك إذا ذكره بالسوء ، فإنهم عصوا ربك بألحش الذنوب وهي الغيبة .

وأما تزيه النفس بنسبة الغير إلى الحياة حيث يستغنى عن ذكر الغير ، فتعالجه بأن تعرف أن التعرض لمقت الخالق أشد من التعرض لمقت المخلوقين وأنت بالنسبة متعرض لسخط الله يقينا ولا تدرى أنك تتخلص من سخط الناس أم لا ! فتخلص نفسك في الدنيا بالتوهم وتلك في الآخرة وتجتر حسناتك بالحقيقة ويعصل لك ذم الله تعالى نقدا وتلتظر دفع ذم الخلق لسيئة وهذا غاية الجهل والخذلان .

وأما عذر كقولك إن أكلت الحرام ففلان يأكله وإن قبلت مال السلطان ففلان يقبله فهذا جهل لأنك تعتذر بالاعتداء بمن لا يجوز الاعتداء به فإن من خالف أمر الله تعالى لا يجتنب به كالما من كان ولو دخل غيرك النار وأنت تقدر على أن لا تدخلها لم توافقه ولو وافقه لسفه عقلك . ففيا ذكرته غيبة وزيادة معصية أفسدت إلى ما اعتذرت عنه وسجلت مع الجمع بين المصيتين على جهلك وغياوتك وكنت كالشاة تظفر إلى المعزى تردى نفسها من قلة الجبل فهي أيضاً تردى نفسها ، ولو كان لها لسان ناطق بالندر وصرخت بالندر وقالت : النذر أكيس منى وقد أهلكت نفسها فكذلك أنا أقبل ، لكنت تضحك من جهلها وحالك مثل حالها ثم لا تسب ولا تضحك من نفسك .

وأما قصدك المباحة وتوكية النفس بزيادة الفضل بأن تقدم في غيرك فيلغى أن تعلم أنك بما ذكرته به أبطلت فضلك عند الله وأنت من اعتقاد الناس فضلك على خطر ، وربما نقص اعتقادهم فيك إذا عرفوك بثلث الناس فتكون قد بعث ماعند الخالق يقينا بما عند المخلوقين وهما ، ولو حصل لك من المخلوقين اعتقاد الفضل لكانوا لا يمتنون عليك من الله شيئاً .

وأما الغيبة لأجل الحمد فهو جمع بين عذابين لأنك حسدته على نعمة الدنيا وكنت في الدنيا معذبا بالحمد ، فاقتمعت بذلك حتى أضفت إليه عذاب الآخرة ، فكنت خاسرا نفسك في الدنيا فصرت أيضاً خاسرا في الآخرة

(١) حديث « لن لجهم باباً لا يدخله إلا من شقى غيظه بمعصية الله » أخرجه الزائر وابن الدنيا وابن عدى والبيهقي واللساني من حديث ابن عباس بسند ضعيف (٢) حديث « من اتقى ربه كل لسانه ولم يشف غيظه » أخرجه أبو بصير البجليقي . - عند الثردوس من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف ورويناه في الأربعين البهائية للساني (٣) حديث « من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه ... الحديث » أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث معاذ بن أسى .

لتجمع بين الشكاليين ، فقد قدمت محسودك فأصبحت نفسك وأهديت إليه حسناتك . فإذا أنت صديقه وعدو نفسك إذ لا ضره غيبتك ونضرك ، وتنفعه إذ نقل إليه حسناتك أو تنقل إليك سيئاته ولا تنفك وقد جمعت إلى خبث الحسد جهل الحافة . وربما يكون حسدك وقد حلك سبب انتشار فضل محسودك كما قيل :

وإذا أراد الله نشر فضيله طويت أتاح لها لسان حسود

وأما الاستهزاء فمحسودك منه إخوان غيرك عند الناس يأخروا نفسك عند الله تعالى وعند الملائكة والنبين عليهم الصلاة والسلام ، فلو تفكرت في حيرتك وجنابتك وخجلتك وخزيك يوم القيامة يوم تحمل سيئات من استهزأت به ونساق إلى النار لأدهشك ذلك عن إخوان صاحبك ! ولوعرفت حالك لكنت أولى أن تضحك منك ، فأفانك عذرت به عند نفر قليل وعوضت نفسك لأن يأخذ يوم القيامة بيدك على ملا من الناس ويسوفك تحت سيئاته كالساق الحار إلى النار ، مستهزأ بك وفرحا بخزيك ومسرورا بنصرة الله تعالى إياه عليك وتسقطه على الانتقام منك .

وأما الرحمة له على إثمه فهو حسن ، ولكن حسدك لإيلس فأضلك ، واستطقتك بما ينقل من حسناتك إليه ما هو أكثر من رحمتك ، فيكون جبرا لإثم المرحوم فيخرج عن كونه مرحوما ، وتقلب أنت مستحقا لأن تكون مرحوما ، إذ حبط أجرك ونقصت من حسناتك ، وكذلك الغضب لله تعالى لا يرجد الغيبة ، وإنما الشيطان حجب إليك الغيبة ليحبط أجر غضبك وتقصير معروضا لمقت الله عز وجل بالغيبة .

وأما التعجب إذا أخرجك إلى الغيبة فتعجب من نفسك أنت ؟ كيف أملكك نفسك ودينك بدين غيرك أوردنياء وأنت مع ذلك لأن أمن عقوبة الدنيا ! وهو أن يتك الله سرك كما هتكك بالتعجب سراً أخيك . فإذا نزل علاج جميع ذلك المعرفة فقط والتحقيق بهذه الأمور التي هي من أبواب الإيمان ، فمن قوى إيمانه بجميع ذلك انكشف لسانه عن الغيبة لا محالة .

### بيان تحريم الغيبة بالقلب

اعلم أن سوء الظن حرام مثل سوء القول ، فكما يحرم عليك أن تحدث غيرك بلسانك بما سوى الغير فليس لك أن تحدث نفسك وتسمى الظن بأخيك ، ولست أعنى به إلا عقد القلب وحكمه على غيره بالسوء . فأما الخواطر وحديث النفس فهو مغفور عنه بل الشك أيضا مغفور عنه ، ولكن المنهى عنه أن يظن ، والظن عبارة عما تزكن إليه النفس ويميل إليه القلب . فقد قال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ﴾ وسبب تحريمه أن أسرار القلوب لا يعلمها إلا علام الغيوب ، فليس لك أن تعتقد في غيرك سوما إلا إذا انكشف لك ببيان لا يقبل التأويل ، فمئذ ذلك لا يمكنك إلا أن تعتقد ما علمته وشاهدته ، وما لم تشاهده بيمينك ولم تسمه بأذنك ثم وقع في قلبك فألما الشيطان يلقيه إليك ، فيذبني أن تكذبه فإنه أفسق الفساق . وقد قال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاعكم فاسق بليغ فتنوا أن تصيبوا قوما بجهالة ﴾ فلا يجوز تصديق إيلس ، وإن كان ثم غيبة تدل على فساد واحتمل خلافة لم يجر أن تصدق به ، لأن الفاسق يتصور أن يصدق في خيره ولكن لا يجوز لك أن تصدق به ، حتى لأن من استسكه فوجد منه رائحة الخمر لا يجوز أن يحد ، إذ يقال يمكن أن يكون قد تمضض بالخمر وبجها وما شربها ، أو حمل عليه قهرا ، فكل ذلك لا محالة دلالة محتملة فلا يجوز تصديقها بالقلب

وإساءة الظن بالمسلم بها ، وقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم : إن الله حرم من المسلم دمه وماله وأن يظن به ظن السوء <sup>(١)</sup> ، فلا يستباح ظن السوء إلا بما يستباح به المال وهو نفس مشاهدته أو بيئة عادلة ، فإذا لم يكن كذلك وخطر لك وسواس سوء الظن فينبغي أن تدفعه عن نفسك وتقرر عليها أن حاله عندك مستور كما كان ، وأن مارأيته منه يحتمل الخير والشر .

فإن قلت : فهاذا يعرف عقد الظن والشكوك تحتلج والنفس تحدث ؟ فتقول : أمانة عقد سوء الظن أن يتغير القلب معه عما كان فينفر عنه نفورا ما ، ويستقله ويفتر عن مراعاته وتفقدته وإكراهه والافتقار بسببه ؛ فهذه أمارات عقد الظن وتحققه .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : ثلاث في المؤمن وله منهن مخرج فخرج من سوء الظن أن لا يحققة <sup>(٢)</sup> ، أى لا يحققة في نفسه بفعل ولا فمل لا في القلب ولا في الجوارح . أما في القلب : فينبغيه إلى النفرة والكراهة . وأما في الجوارح : فبالعمل بوجهه . والشيطان قد يقرر على القلب بأذى غيلة مسامة الناس ، ويلقي إليه أن مدا من فطنتك وسرعة فهمك وذكاكك وأن المؤمن ينظر نور الله تعالى ، وهو على التحقيق ناظر بفرور الشيطان وظلمته .

وأما إذا أخبرك به عدل فال ظنك إلى تصديقه كنت معذورا ، لأنه لو كذبت لكنت جانيا على هذا العدل إذ ظننت به الكذب ، وذلك أيضا من سوء الظن ، فلا ينبغي أن تحسن الظن بواحد منكم بالآخر . نعم ينبغي أن تبحث هل بينهما عداوة وعاسدة وتمنت فتتطرق التهمة بسببه ؟ فقد رد الشرع شهادة الأب العدل للولد للتهمة ورد شهادة العدو <sup>(٣)</sup> فلك عند ذلك أن تتوقف ، وإن كان عدلا فلا تصدقه ولا تكذبه ، ولكن تقول في نفسك : للذكر حاله كان عندي في ستر الله تعالى ، وكان أمره محجوبا عنى وقد بقى كما كان لم ينكشف لى شيء من أمره ، وقد يكون الرجل ظاهره العدالة ولا عاسدة بينه وبين المذكور ، ولكن قد يكون من عادته التمرس للناس وذكر مساوئهم ، فهذا قد يظن أنه عدل وليس بعدل ، فإن الغتاب فاسق ، وإن كان ذلك من عادته ردت شهادته إلا أن الناس لكثرة الاحتياط تساهلوا في أمر النية ولم يكثرأ بتناول أعراض الخلق .

ومهما خطر لك خاطر بسوء على مسلم فينبغي أن تزيد في مراعاته وتدعوه له بالخير ، فإن ذلك يفيظ الشيطان ويدفعه عنك فلا يلقي إليك خاطر السوء خيفة من اشتتالك بالدعاء والمراعاة . ومهما عرفت هفوة مسلم بمحبة فالصحة في السر ولا يخذلوك الشيطان فيدعوك إلى اغتيابه ، وإذا عظمت فلا تعظم وأنت مسرور بإطلاعك على قصته لينظر إليك بعين التعظيم وتظهر إليه بين الاستحار وترفع عليه ، بإذنه الرظ . وليكن صدق تخليصه من الإثم وأنت حزين ، كما تحزن على نفسك إذا دخل عليل نقصان في دينك ؛ وينبغي أن يكون تركه لذلك من غير نصيحة أحب إليك من تركه بالنصيحة ، فإذا أنت فعلت ذلك كنت قد جمعت بين أجر الوعظ وأجر التميمية وأجر الإغاثة له على دينه .

(١) حديث « إن الله حرم من المسلم دمه وماله وأن يظن به ظن السوء » أخرجه البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بسند ضيف ولابن ماجه نحوه من حديث ابن عمر . (٢) حديث « ثلاث في المؤمن وله منهن مخرج » أخرجه الطبراني من حديث حنيفة بن النعمان بسند ضيف (٣) حديث : رد الشرع شهادة الوالد العدل وشهادة المولود » أخرجه الترمذي من حديث خاتمة وضحه « لا يجوز شهادة خائن ولا خاتنة ولا مجلود حيا ولا ذى نحر لأخيه » وفيه « ولا ظنين في ولاء ولا قرابة » ولابن داود وابن ماجه بإسناد جيد من رواية مرو بن رجيب عن أبيه من جده : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رد شهادة الخائن والخائنة وذى النحر على أخيه .

ومن ثمرات سوء الظن التجسس ، فإن القلب لا يقنع بالظن ويطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس وهو أيضاً ممنوع عنه ، قال الله تعالى ( ولا تجسسوا ) فالغيبية وسوء الظن والتجسس ممنوع عنه في آية واحدة . ومعنى التجسس أن لا يترك عباد الله تحت ستره ، فيتوصل إلى الإطلاع وهتك الستر حتى يتكشف له ما لو كان مستورا عنه كان أسلم لقلبه ودينه . وقد ذكرنا في كتاب الأمر بالمعروف حكم التجسس وحقائقه .

### بيان الأعذار المرخصة في الغيبة

اعلم أن المرخص في ذكر مساوئ النهر هو غرض صحيح في الشرع لا يمكن التوصل إليه إلا به فيدفع ذلك لثم الغيبة وهي ستة أمور :

الأول : الظلم فإن من ذكر قاضيا بالظلم والحياة وأخذ الرشوة كان منتابا عاصيا إن لم يكن مظلوما . أما المظلوم من جهة القاضي فله أن يتظلم إلى السلطان وينسب إلى الظالم إذا لا يمكنه استيفاء حقه إلا به قال صلى الله عليه وسلم : « إن لصاحب الحق مقالا <sup>(١)</sup> » وقال عليه السلام : « مغلل الغنى ظلم <sup>(٢)</sup> » وقال عليه السلام : « لي الواجد يحل عقوبته وعرضه <sup>(٣)</sup> » .

الثاني : الاستمانة على تغيير المنكر ورد العاصي إلى منهج الصلاح ، كما روى أن عمر رضى الله عنه مر على عثمان وقيل على طلحة - رضى الله عنه فسلم عليه فلم يرد السلام ، فذهب إلى أبي بكر رضى الله عنه فذكر له ذلك ، فجاء أبو بكر إليه ليصلح ذلك ولم يكن ذلك غيبة عندهم . وكذلك لما بلغ عمر رضى الله عنه أن أبا جندل قد عاقب الخمر بالشام كتب إليه ( بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ) الآية فتاب ، ولم ير ذلك عمر من أبلغه غيبة ، إذ كان قصده أن ينكر عليه ذلك فينصحه ما لا ينفعه نصحه غيره ، وإنما إباحة هذا بالقصد الصحيح فإن لم يكن ذلك هو المقصود كان حراما .

الثالث : الاستفتاء كما يقول الغنى : ظلتى أرى أو زوجتى أو أخى فكيف طريقى في الخلاص ؟ والأسلم التعريض بأن يقول : ما قولك في رجل ظله أبوه أو أخوه أو زوجته ؟ ولكن التبيين مباح بهذا القدر لما روى عن هند بنت عتبة أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم : « إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني أنا وولدي أفأخذ من غيرك عليه فقال : « غنى ما يكفيك وولديك بالمعروف <sup>(٤)</sup> » فذكرت الشح والظلم لها ولولدها ولم يجرها صلى الله عليه وسلم إذ كان قصدها الاستفتاء .

الرابع : تحذير المسلم من الشر ، فإذا رأيت فظيا يتردد إلى مبتدع أو فاسق وخفت أن تمتدى إليه بدعته وفسقه فلك أن تكشف له بدعته وفسقه ، مهما كان الباعث لك الخوف عليه من سراية البدعة والنسق لا غيره ، وذلك موضع الضرر إذ قد يكون الحسد هو الباعث ويلبس الشيطان ذلك بآظهار الشفقة على الحق ، وكذلك من اشترى مملوكا وقد عرفت المملوك بالسرقة أو بالنسق أو ببيع آخر فلك أن تذكر ذلك ، فإن سكوتك ضرر المشتري وفي ذلك ضرر العبد ، والمشتري أولى بمراعاة جانبه . وكذلك المزكى إذا سئل عن الشاهد فله الظن فيه إن علم مطمئنا ، وكذلك المستشار في التزويج وإيداع الأمانة له أن يذكر ما يعرفه على قصد التصحح للاستشير لا على قصد

(١) حديث : « لصاحب الحق مقال » متفق عليه من حديث أبي هريرة . (٢) حديث : « مغلل الغنى ظلم » متفق عليه من حديث

(٣) حديث : « لي الواجد يحل عرضه وهويته » أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث الفرير بإسناد صحيح

(٤) حديث : « لو حدثنا قالت إن أبا سفيان رجل شحيح » متفق عليه من حديث عائشة .



الوقية : فإن علم أنه يترك التزويج بمجرد قوله : لا تصلح لك ، فهو الواجب وفيه الكفاية وإن علم أنه لا يزوج إلا بالتصريح بعبه فله أن يصرح به ، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أترعون عن ذكر القاجر أهكوه حتى يبرفه الناس أذكروه بما فيه حتى يحذره الناس »<sup>(١)</sup> ، وكانوا يقولون ثلاثة لأغية لهم : الإمام الجائر والمبتدع والمجاهر بفسقه .

الخامس : أن يكون الإنسان معروفاً بلقب يعرب عن عيبه كالأعرج والأعمش ، فلا إثم على من يقول روى أبو الزناد عن الأعرج ، وسليمان عن الأعمش ، وما يجري مجراه فقد فعل الملاء ذلك لضرورة التعريف ، ولأن ذلك قد صار بحيث لا يكرهه صاحبه لو علمه بعد أن قد صار مشهوراً به . نعم إن وجدته معدلاً وأمكنه التعريف بمباراة أخرى فهو أولى ، ولذلك يقال للأعمى : البصير ، وعدولا عن اسم القصص .

السادس : أن يكون مجاهراً بالفسق كالخنث وصاحب الماخوذ والمجاهر بشرب الخمر ومصادرة الناس ، وكان ممن يتظاهر به بحيث لا يستحلف . من أن يذكر له ولا يكره أن يذكر به ، فإذا ذكرت فيه مباطأه به فلا إثم عليك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أتى جلباب الحياء عن وجهه فلا غيبة له »<sup>(٢)</sup> وقال عمر رضي الله عنه . ليس لقاجر حرمة وأراد به المجاهر بفسقه دون المستتر إذا المستتر لابد من مراعاة حرمة . وقال الصلت بن طريف : قلت للحسن : الرجل الفاسق المعلن بفجوره ذكرى له بما فيه غيبة له ؟ قال : لا ولا كرامة . وقال الحسن . ثلاثة لا غيبة لهم : صاحب الهوى والفاسق المعلن بفسقه والإمام الجائر فهو ثلاثة التلاثة يجمعهم أنهم يتظاهرون به وربما يتفاخرون به ، فكيف يكرهون ذلك وهم يقصدون إظهاره ؟ نعم لو ذكره بغير ما يتظاهر به إثم . وقال عرف : دخلت على ابن سيرين فتناولت عندهم الحجاج فقال : إن الله حكم عدل ، ينتقم للحجاج من اغتابه كما ينتقم من الحجاج لمن ظلمه ، وإنك إذا لقيت الله تعالى غداً كان أصغر ذنب أصيبته أشد عليك من أعظم ذنب أصابه الحجاج .

### بيان كفارة الغيبة

اعلم أن الواجب على المعتاب أن يتندم ويتوب ويتأسف على ما فعله ليخرج به من حق الله سبحانه ، ثم يستحل المعتاب لبعده فيخرج من مظلمته ؛ وينبغي أن يستحله وهو حزين متأسف نادم على فعله ؟ إذ الرأى قد يستحل ليطهر من نفسه الورع وفي الباطن لا يكون نادماً ، فيكون قد عارف معصية أخرى وقال الحسن . يكفيه الاستغفار دون الاستحلال . وربما استدلل في ذلك بما روى أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كفارة من اغتبه أن تستغفر له<sup>(٣)</sup> ، وقال مجاهد كفارة أكل لحم أخيك : أن تثنى عليه وتدعوله بخير . وسئل عطاء بن أبي رباح عن التوبة من الغيبة قال : أن تمشي إلى صاحبك فتقول له : كذبت فيما قلت وظلمتك وأسأت فإن شئت أخذت بحقك وإن شئت عفوت ، وهذا هو الأصح ؛ وقول القائل : العرض لأعرض له فلا يجب الاستحلال منه بخلاف المال كلام ضعيف ، إذ قد وجب في العرض حد القذف وتثبت للمطالبة به . بل في الحديث الصحيح ما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال : « من كانت لأخيه عنده مظلة في عرض أمواله فليستحلها منه من قبل أن يأتي يوم ليس هناك دينار عليه وسلم قال » من كانت لأخيه عنده مظلة في عرض أمواله فليستحلها منه من قبل أن يأتي يوم ليس هناك دينار

(١) حديث « أترعون عن ذكر القاجر أهكوه حتى يبرفه الناس أذكروه بما فيه يحذره الناس » أخرجه الطبراني وابن حبان في الضعفاء وابن عدى من رواية يوز بن حكيم عن أبيه عن جده دون قوله « حتى يبرفه الناس » ورواه بهذا الزيادة ابن أبي الدنيا في السنن . (٢) حديث « من أتى جلباب الحياء فلا غيبة له » أخرجه ابن عدى وأبو الشيخ في كتاب ترواب الأعمال من حديث أنس بسند ضعيف وقد فهم . (٣) حديث « كفارة من اغتبه أن تستغفر له » أخرجه ابن أبي الدنيا في السنن والحارث بن أبي أسامة في مستدرك حديث أنس بسند ضعيف

ولأدركهم ، إنما يؤخذ من حسنة فإن لم يكن له حسنة أخذ من سيئات صاحبه فريدت على سيئاته <sup>(١)</sup> ، وقالت عائدة رضي الله عنها لامرأة قالت لأخري إنها طويلة الذيل : قد اغتبتها فاستحلها . فلئذ لابد من الاستحلال إن قدر عليه ، فإن كان غائبا أو ميتا ينبغي أن يكثر له الاستغفار والنداء ويكثر من الحسنات .

فإن قلت : فالتحليل هل يجب ؟ فأقول : لا ، لأنه ترفع والتبرع فضل ، وليس بواجب ولكنه مستحسن وسبيل للمعذر أن يبلغ في الثناء عليه والتودد إليه ويلزم ذلك حتى يطيب قلبه ، فإن لم يطيب قلبه كان اعتذاره مودوده حسنة محسوبة له يقابل بها سيئة النية في القيامة .

وكان بعض السلف لا يحل . قال سعيد بن المسيب . لا أحل من ظنني . وقال ابن سيرين : إن لم أحرمها عليه فأحلها له إن الله حرم النية عليه وما كنت لأحل ما حرم الله أبدا .

فإن قلت : فما معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم ينبغي أن يستحلها وتحليل ما حرم الله تعالى غير ممكن ؟ فنقول : المراد به المغفر عن المظلة لا أن يتقلب الحرام حلالا ، وما قاله ابن سيرين حسن في التحليل قبل النية فإنه لا يجوز له أن يحلل لغيره النية .

فإن قلت : فما معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم « أيسر أحدكم أن يكون كأبي ضيفم كان إذا خرج من بيته قال اللهم إنني قد تصدقت بمرضى على الناس <sup>(٢)</sup> » فكيف يتصدق بالمرض ومن تصدق به فهل يباح تناوله فإن كان لا يتصدق صدقة فما معنى الحديث عليه ؟ فنقول : معناه إنني لأطلب مظلة في القيامة منه ولا أعاصيه ، وإلا فلا تصير النية حلالا به ولا تسقط المظلة عنه ، لأنه عفو قبل الوجوب إلا أنه وعد ، وله الزم على الوفاء بأن لا يتخاصم ، فإن رجع وعاصم كان القياس كسائر الحقوق أن له ذلك : بل صرح الفقهاء أن من أباح التذف لم يسقط حقه من حد القاذف ، ومظلة الآخرة مثل مظلة الدنيا ، وهي الجملة فالمغفر أفضل .

قال الحسن إذا جئت الأمم بين يدي الله عز وجل يوم القيامة نودوا ليقيم من كان له أجر على الله فلا يقوم إلا العائون عن الناس في الدنيا . وقد قال الله تعالى ( خذ المغفر وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ) فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يا جبريل ما هذا المغفر ؟ فقال : إن الله تعالى يأمرك أن تغفر عن ظلمك وتصل من قطعك وتمسك من حرمك <sup>(٣)</sup> . وروى عن الحسن أن رجلا قال له : إن فلانا قد اغتابك فعبث إليه رطباً على طبق وقال : قد بلغني أنك أهديت إلى من حسناتك فأردت أن أكفئك عليها فأعذرنى فأني لأقدر أن أكفئك على القيام .

### الآلة السادسة عشرة : النجاسة

قال الله تعالى ( هماز مشاء بنميم ) ثم قال ( عتل بعد ذلك زنيم ) قال عبد الله بن المبارك : الزنيم ولد الزنا الذي لا يسمك الحديث ، وأشار به إلى أن كل من لم يسمك الحديث ومضى بالنجاسة دل على أنه ولد زنا استلباطاً من قوله عز وجل ( عتل بعد ذلك زنيم ) والزنيم هو الدعي وقال النووي ( ويل لكل همزة لمزة ) قيل الهمزة : النمام ،

(١) حديث « من كانت له عند أخيه مظلة من مرض أول مال فيمضه ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة  
(٢) حديث « أيسر أحدكم أن يكون كأبي ضيفم كان إذا خرج من بيته قال اللهم إني تصدقت بمرضى على الناس » أخرجه البزار وابن أبي شيبة واليوم والبيهقي في السنن وأبو أحمد في المستدرجين وذكره ابن عسكراً في الحديث « ما هذا » فقال إن الله يأمرك أن تغفر عن ظلمك وتصل من قطعك وذكر أبي ضيفم في الصحابة قلت وإنما هو رجل من كان قبلنا كما عند البزار والبيهقي .  
(٣) حديث . نزول ( خذ المغفر ) الآية فقال جبريل « ما هذا » فقال إن الله يأمرك أن تغفر عن ظلمك وتصل من قطعك ويحفظ من حرمك . تقدم في روضة القاص .

ونال تعالى ( حالة الخطب ) قيل إنها كانت غامة حالة الحديث وقال تعالى ( غلظتاهما فلم يغنياههما من الله شيئا ) قيل كانت امرأة لوط تغبر بالضيغان وامرأة نوح تغبر أنه يجنون وقد قال صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنة نمام »<sup>(١)</sup> وفي حديث آخر « لا يدخل الجنة قتات » والقتات هو النمام وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « أحبك إلى الله أحسنكم أخلاقا للموطون أكتافا الذين يأفون ويؤفون ، وإن أبغضكم إلى الله المشادون بالتهمة » المرفوق بين الإخوان « للمتسمون للبراء العثرات »<sup>(٢)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم « ألا أخبركم بشراكم » قالوا : بلى ، قال « المشادون بالتهمة المفسدون بين الأحبة الباغون للبراء العيب »<sup>(٣)</sup> ، وقال أبو ذر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أشاع على مسلم كلمة ليشتبه بها بغير حتى شانه الله بها في النار يوم القيامة »<sup>(٤)</sup> ، وقال أبو الدرداء : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أيما رجل أشاع على رجل كلمة وهو منها يرى ليشتبه بها في الدنيا كان حقا على الله أن يذبه بها يوم القيامة في النار »<sup>(٥)</sup> ، وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من شهد على مسلم بشهادة ليس لها بأهل فليقبوا مقدمه من النار »<sup>(٦)</sup> ، ويقال : إن تلك عذاب القبر من التهمة . وعن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم « إن الله لما خلق الجنة قال لها تكلمي فقلت سعد من دخلني فقال الجبار جل جلاله وعز وجلالي لا يسكن فيك ثمانية نفر من الناس ، لا يسكنك مدمن خمر ولا مصر على الزنا ولا قتات وهو الغمام ولا ديوت ولا شرطي ولا غت ولا قاطع رحم ولا الذي يقول على عهد الله إن لم أفعل كذا وكذا ثم لم يف به »<sup>(٧)</sup> ، وروى كعب الأحبار أن بني إسرائيل أصابهم قحط فاستسقى موسى عليه السلام مرات فاستسقا فأوحى الله تعالى إليه : إني لا أستجيب لك ولن مملك وفيك غم قد أصر على التهمة . فقال موسى : يارب من هو ؟ دنى عليه حتى أخرجه من بيتنا . قال : يا موسى أنما عن التهمة وأكون نماما ، فتأبوا جميعا فسقوا . ويقال اتبع رجل حكيمًا سبعانة فرسخ في سبع كلمات فلما قدم عليه قال : إني جئتلك لئلا آتاك الله تعالى من العلم أخبرني عن السماء وما أسفل منها ؟ وعن الأرض وما أوسع منها ؟ وعن الصخر وما أفسى منه ؟ وعن النار وما أحرز منها ؟ وعن الزمهرير وما أبرد منه ؟ وعن البحر وما أغنى منه ؟ وعن القيم وما أذل منه ؟ فقال له الحكيم : البهتان على البرية أسفل من السموات ، والحق أوسع من الأرض ، والقلب القانع أغنى من البحر ، والحرص والحسد أحرز من النار ، والحاجة

### الآفة السادسة عشرة : التهمة

- (١) حديث « لا يدخل الجنة نمام » وفي حديث آخر « قتات » متفق عليه من حديث حفص بن غصن (٢) حديث أبي هريرة « وأحبكم إلى الله أحسنكم أخلاقا للموطون أكتافا » أخرجه الطبراني في الأوسط والصغير وقد تقدم في آداب الصحة (٣) حديث « ألا أخبركم بشراكم » قالوا : بلى ، قال « المشادون بالتهمة .. الحديث » أخرجه أحمد من حديث أبي مالك الأشعري وقد تقدم (٤) حديث أبي ذر « من أشاع على مسلم كلمة ليشتبه بها بغير حتى شانه الله بها في النار يوم القيامة » أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت والطبراني في معجم الأئمة وفيه عيبان في ميمون فإن يكن القدر فهو متروك الحديث (٥) حديث أبي الدرداء « أيما رجل أشاع على رجل كلمة وهو منها يرى ليشتبه بها في الدنيا كان حقا على الله أن يذبه بها يوم القيامة في النار .. » أخرجه ابن أبي الدنيا في موافق على أبي الدرداء . ورواه الطبراني بإسناد آخر صرفوا من حديثه وقد تقدم (٦) حديث أبي هريرة « من شهد على مسلم بشهادة ليس لها بأهل فليقبوا مقدمه من النار » أخرجه أحمد وابن أبي الدنيا في رواية أحمد ورجل لم يسم أسقطه ابن أبي الدنيا في الإسناد . (٧) حديث ابن عمر « إن الله لما خلق الجنة قال لها تكلمي فقلت : سعد من دخلني . قال الجبار : وعز وجلالي لا يسكن فيك ثمانية » فذكر منها « ولا قتات » وهو الغمام ، لم أجده هكذا بتمامه ولأحد « لا يدخل الجنة عاق لوالديه ولا ديوت » ولقد سألت من حديث عبد الله بن عمرو « لا يدخل الجنة نمان ولا مان ولا مدمن خمر » ولقيت من حديث حفصة « لا يدخل الجنة قتات » ولما من حديث جبير بن مطعم « لا يدخل الجنة طامع » وذكر صاحب الفروس من حديث ابن عباس « لما خلق الله الجنة قال لها : تكلمي فقلت : فقلت : طوبى لمن دخلني ودعيته لله لي ، فقال الله عز وجل : لا تسكنك عتق ولا نعمة » .

إلى القرب إذا لم تتجأ أبرد من الزمهرير ، وقلب الكافر أفسى من الحجر ، والغمام إذا بان أسره أذل من اليتيم .

### بيان حد النعمة وما يجب في ردّها

اعلم أن اسم النعمة إنما يطلق في الأكثر على من يتم قول الغير إلى المقول فيه ، كما تقول فلان كان يتكلم فيك بكذا وكذا ، وليست النعمة مختصة به . بل حدها كشف ما يكره كشفه ، سواء كان النقول عنه أو المنقول إليه ، أو كرهه ثالث ، وسواء كان الكشف بالقول أو بالكتابة أو بالرض أو بالإيماء ، وسواء كان المنقول من الأعمال أو من الأقوال ، وسواء كان ذلك عيباً ونقصاً في المنقول عنه أو لم يكن . بل حقيقة النعمة إنشاء السوء منك البتر عما يكره كشفه ، بل كل ما رآه الإنسان من أحوال الناس عما يكره فينبغي أن يسكت عنه إلا ما في حكايته فائدة لمسلم أو دفع لمصيبة ، كما إذا رأى من يتناول مال غيره فعليه أن يشهد به مراعاة لحق المشهود له ، فأما إذا رأى يخفي مالا لنفسه فذكره فهو نعمة وإنشاء السوء ، فإن كان ما يتم به نقصاً وعيباً في المحكي عنه كان قد جمع بين النية والنعمة . فالباعث على النعمة إما إرادة السوء للمحكي عنه أو إظهار الحب للمحكي له ، أو التفرج بالحدِيث والحوض في الفضول والباطل .

وكل من حلت إليه النعمة وقيل له إن فلانا قال فيك كذا وكذا أو فعل في حالك كذا أو هو يدبر في إفساد أمرك أو في مآلة عدوك أو تصحح حالك أو ما يجري مجراه فعليه ستة أمور ، الأول : أن لا يصدقه لأن الغمام فاسق وهو مردود الشهادة قال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة ﴾ الثاني : أن ينهيه عن ذلك وينصحه له ويقبح عليه فله قال الله تعالى ﴿ وأمر بالمعروف ونه عن المنكر ﴾ الثالث : أن ينفذه في الله تعالى فإنه يفيض عند الله تعالى ويجب بفيض من ينفذه الله تعالى . الرابع : أن لا يقل بأخيك الغائب السوء لقول الله تعالى ﴿ اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ﴾ الخامس : أن لا يملك ما حاكك على التجسس والبحث لتحقيق ، إباحة لقول الله تعالى ﴿ ولا تجسسوا ﴾ السادس : أن لا ترضى لنفسك ما نهيت القيام عنه ولا تحكي نعيمته فتقول فلان قد حكي لي كذا وكذا ، فتكون به تماماً ومعتاباً وقد تكون قد أثبت ما عنه نهيته . وقد روى عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنه دخل عليه رجل فذكر له عن رجل شيئاً فقال له عمر : إن شئت لظرفنا في أمرك فإن كنت كاذباً فأنت من أهل هذه الآية ﴿ إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ﴾ وإن كنت صادقاً فأنت من أهل هذه الآية ﴿ هلموا مشاء بنعم ﴾ وإن شئت صفونا عنك ؟ فقال : المغو يا أمير المؤمنين لا أعود إليه أبداً . وذكر أن حكماً من الحكام زاره بعض إخوانه فأخبره بخبر عن بعض أصدقائه فقال له الحكم : قد أبطأت في الزيارة وأثبت ثلاث جنائبات ، بنضت أخى إلى ، وشغلت قلبى الفارغ ، واتهمت نفسك الأمانة . وروى أن سليمان بن عبد الملك كان جالسا وعنده الزهرى فجاءه رجل فقال له سليمان : بلغنى أنك وقعت في وقتك كذا وكذا ، فقال الرجل : ما فعلت ولا قلت ؟ فقال سليمان : إن الذى أخبرنى صادق ، فقال له الزهرى : لا يكون الغمام صادقا ، فقال سليمان : صدقت ، ثم قال الرجل : اذهب بسلام .

وقال الحسن بن نهم إليك نهم عليك . وهذا إشارة إلى أن الغمام ينبغي أن يفيض ولا يوق بقله ولا يصدقته . وكيف لا يفيض وهو لا ينفك عن المكذب والنية والتندر والحيانة والقل والحسد والتفاق والإفساد بين الناس والحدبة وهو من يسعون في قطع ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض ؟ وقال تعالى ﴿ إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبنون في الأرض بنير الحق ﴾ والغمام منهم . وقال صلى الله عليه وسلم « إن من شرار الناس

من اتقاء الناس لشرة <sup>(١)</sup> ، والتمام منهم . وقال : لا يدخل الجنة قاطع ، قيل وما القاطع ؟ قال : قاطع بين الناس <sup>(٢)</sup> ، وهو التمام وقيل قاطع الرحم .

وروى عن علي رضي الله عنه أن رجلا سعى إليه رجل فقال له : يا هذا نحن نسأل عما قلت فإن كنت صادقا مقتك وإن كنت كاذبا عاقبتك وإن شئت أن نقيلك أفنألك ، فقال : أفني يا أمير المؤمنين . وقيل لحمد بن كعب القرظي أي خصال المؤمن أوضع له ؟ فقال : كثرة الكلام وإفشاء السر وقبول قول كل أحد . وقال رجل لمبداه ابن عامر — وكان أميرا — بلغني أن فلانا أعلم الأمير أني ذكرته بسوء ، قال : قد كان ذلك ، قال : فأخبرني بما قال لك حتى أظهر كذبه عندك ؟ قال : ما أحب أن أشتت نفسي بلساني وحسي أني لم أصدق فيه قال ولا أقطع عنك الوصال .

وذكرت السعاية عند بعض الصالحين فقال : ما تشكم يقوم بحمد الصدق من كل طائفة من الناس إلا منهم ؟ وقال مصعب بن الزبير : نحن نرى أن قبول السعاية شر من السعاية لأن السعاية دلالة والقبول إجازة ، وليس من دل على شيء فأخبر به كمن قبله وأجازها ، فاتفقوا الساعي فلو كان صادقا في قوله لكان لثما في صدقه حيث لم يحفظ الحُرمة ولم يستر العورة . والسعاية هي النيمة إلا إنها إذا كانت إلى من يخاف جانبها سميت سعاية وقد قال صلى الله عليه وسلم : الساعي بالناس إلى الناس لغير رشدة <sup>(٣)</sup> ، يعني ليس بولد حلال . ودخل رجل على سليمان بن عبد الملك فاستأذنه في الكلام وقال : إني مكلمك يا أمير المؤمنين بكلام فاحش له إن كرمته فإن وادع ماتحب إن قبلته ، فقال : قل ، فقال : يا أمير المؤمنين إنه قد اكتشفك رجال ابتاعوا دنياك بدينهم ورواحك بسخط ربهم ، خافوك في أقوالهم يخافوا الله فيك ، فلا تأمنهم على ما اتسكك الله عليه ولا تصخ إليهم فيها استحضك الله إياهم فإنهم لن يألوا في الأمة خسفا وفي الأمانة تضجيما والأعراض قطعاً وانهاكا ، أعلى قريهم البني والنيمة ، وأجل وسائلهم النية والوقية وأنت مسئول عما أجرموا وليسوا المسؤولين عما أجرمت ، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك فإن أعظم الناس غيباً من باع آخرته بدنيا غيره . وسعى رجل يزيد الأعمى إلى سليمان بن عبد الملك لجمع بينهم للوافقة فأقبل زياد على الرجل وقال :

فأنت امرؤ إما اتسكك عاليا غلبت وإما قلت قولاً بلا علم

فأنت من الأمر الذي كان بيننا بمنزلة بين الحيانة والإثم

وقال رجل لعمرو بن عبيد : إن الأسوارى ما يزال يذكر في قصصه بشر ، فقال له عمرو : يا هذا ما زعيت حق بحالة الرجل حيث نقلت إلينا حديثه ، ولا أدبت حق حين أعطيتي من أخى ما أكره ولكن أعطته أن الموت يمننا والقبر يعصنا والقيامة تجمعنا والله تعالى يحكم بيننا وهو خير الحاكمين . ورفع بعض السعاة إلى صاحب بن عباد رقعة فيه فيها على مال يتيم يحمله على أخذه لكثرة ، فوقع على ظهرها : السعاية قيحة وإن كانت صهيحة ، فإن كنت أجزبتها بحري النصح لغيرك فيها أفضل من الربح ، ومعاذ الله أن تقبل مهووكا في مستور ، ولولا أنك في خفارة شيبتك لقلنا لك بما يقتضيه فملاك في مثلك ، فتوق يا ملعون العيب فإن الله أعلم بالغيب ، الميت رحمه الله ، والقيم جبره الله ، وللال ثمره الله ، والساعي لعنه الله . وقال لقمان لابنه : يا بني أوصيك بخلال إن تمسكت بهم لم تزل

(١) حديث : لأن من شر الناس من اتقاء الناس لشرة ، متفق عليه من حديث طائفة نحوه . (٢) حديث : لا يدخل الجنة قاطع ، متفق عليه من حديث جابر بن مطعم . (٣) حديث : الساعي بالناس إلى الناس لغير رشدة ، أخرجه الحاكم من حديث أبي موسى « من سعى بالناس فهو لغير رشدة » أو نفسه بنى . منها وقال : له أسانيد هذا أمثلهما قلت فيه . بل بنى عليه قال فيه ابن طاهر في التذكرة منكر الرواية ، قال والمحدث لأسفل له وقد ذكر ابن حبان في الثقات سهل بن عتبة ورواه الطبراني بإسقاط . لا يسمي على الناس إلا وله بنى ولا من فيه عرق منه « وزاد بين سهل وبين بلال بن أبي مرة : أما الوليد القرظي .

سيدا أبسط خلقك للقرىب والبعيد ، وأمسك جهلك عن الكريم والقيم ، واحفظ إخوانك وصل أئقاربك وآمنهم من قبول قول ساع أو سباع باغ يريد فسادك وبروم خداعك ، وليكن إخوانك من إذا فارقتهم وفارقوك لم تبهم ولم يسيوك . وقال بعضهم : النيمة مبنية على الكذب والحسد والتفائق وهى أئقانى الدل . وقال بعضهم : لوصح ما نقله الغمام إليك لكان هو المحترى بالكتم عليك ، والمنقول عنه أولى بجهلك لأنه لم يقاتلك بشتمك .

وعلى الجملة فشر الغمام عظيم يفتنى أن يتوقى . قال حماد بن سلمة : باع رجل عبدا وقال للشترى : ما فيه عيب إلا النيمة ، قال : رضيت ، فاشتراه ، فكش الغلام أياما ثم قال لروجة مولاه : إن سيدى لا يجهلك وهو يريد إن يتسرى عليك ، غلذى للوسى وإخفى من شر قفاه عند نومه شمرات حتى أحمره عليها فيجبك ، ثم قال للزوج : إن اسرائك اتخذت خيلا وتريد أن تقتلك ، فتناوم لها حتى تعرف ذلك ، فتناوم لها لجأء المرأة بالموسى فظن أنها تريد تله فقام إليها فقتلها ، لجاء أهل المرأة فقتلوا الزوج ، ووقع القتال بين القيتلين . ففسأل الله حسن التوفيق .

### الآلة السابعة عشرة

كلام ذى اللسانين الذى يتردد بين المتعادين ويسكلم كل واحد منهما بكلام يوافقه ، وقلما يخلو عنه من يشاهد متعادين وذلك عين التفائق . قال عمار بن ياسر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كان له وجهان فى الدنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة »<sup>(١)</sup> وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين الذى يأتي مؤلأه بعديش ومؤلأه بجديش » وفى لفظ آخر « الذى يأتي مؤلأه بوجه ومؤلأه بوجه » وقال أبو هريرة : لا يلبس لى الوجهين أن يكون أمينا عند الله . وقال مالك بن دينار : قرأت فى التوراة بطلت الأمانة والرجل مع صاحبه يشتمتني عتقتني بئلك الله تعالى يوم القيامة كل شفتين عتقتني . وقال صلى الله عليه وآله وسلم « أبغض خليفة الله إلى الله يوم القيامة الكذابون والمستكبرون والذين يكفرون البضاء لإخوانهم فى صدورهم فإذا لقوهم تلقوا لهم والذين إذا دعوا إلى الله ورسوله كانوا بطاموا إذا دعوا إلى الشيطان وأمره كانوا اسراعا »<sup>(٢)</sup> وقال ابن مسعود : لا يكون أحدكم إمعة : قالوا : وما الإمعة ؟ قال الذى يجرى مع كل ريح . واتفقوا على أن ملافة الاثنين بوجهين نفاق ، والتفائق علامات كثيرة وهذه من جعلتها .

وقد روى أن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مات فلم يصل عليه حذيفة فقال له عمر : يموت رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تصل عليه ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إنه منهم ، فقال : نشدتك الله أنا منهم أم لا ؟ قال : اللهم لا ولا أؤمن منها أحدا بئدك .

فإن قلت : بماذا يصير الرجل ذا لسانين وما حد ذلك ؟ فأقول : إذا دخل على متعادين وجاهل كل واحد منهما وكان صادقاه لم يكن منافقا ولا ذا لسانين ، فإن الواحد قد يصادق متعادين ولكن صداقة ضعيفة لا تلتصق إلى حد الأخوة ، إذ لو تحققت الصداقة لانتضت معادة الأعداء . كما ذكرنا فى كتاب آداب الصحبة والأخوة - نعم لورقل

### الآلة السابعة عشرة . كلام ذى اللسانين

(١) حديث عمار بن ياسر « من كان له وجهان فى الدنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة » أخرجه البخارى فى كتاب الأدب المفرد وأبو داود بسند حسن . (٢) حديث أبي هريرة « تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين .. الحديث » متفق عليه بلفظ « تجد من شر الناس » للفظ البخارى ومروند ابن أبي الدنيا بلفظ المصنف (٣) حديث « أبغض خليفة الله إلى الله يوم القيامة الكذابون والمستكبرون والذين يكفرون البضاء لإخوانهم فى صدورهم » فإذا لقوهم تلقوا لهم .. الحديث « لم ألق له لى أصل

كلام كل واحد منهما إلى الآخر فهو ذو لسانين وهو شر من النخلة ، إذ يصير تماماً بأن ينقل من أحد الجانبين فقط فإذا نقل من الجانبين فهو شر من النخلة ، وإن لم ينقل كلاماً ولكن حسن لكل واحد منهما ما هو عليه من المعاداة مع صاحبه فهذا ذو لسانين ، وكذلك إذا وعد كل واحد منهما بأن ينصره ، وكذلك إذا أتى على واحد منهما في معاداته ، وكذلك إذا أتى على أحدهما وكان إذا خرج من عنده بذهمه فهو ذو لسانين . بل ينبغي أن يسكت أو يثنى على الحق من المتأديين . ويثنى عليه في غيبته وفي حضوره وبين يدي عقوده .

فيل لابن عمر رضى الله عنهما : إنا ندخل على أمراءنا فنقول القول فإذا خرجنا قلنا غيره فقال : كنا نعد هذا اتفاقاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> وهذا اتفاق مهما كان مستغنياً عن الدخول على الأمير وعن الثناء عليه ، فلو استغنى عن الدخول ولكن إذا دخل يخاف إن لم يثن فهو نفاق ، لأنه الذي أوجب نفسه إلى ذلك ، فإن كان مستغنياً عن الدخول لوقع للباقيين ترك للسؤال والجاء فدخل لضرورة الجاء والثني وأثنى فهو منافق . وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم : حب المال والجاء يبتتان التفافاً في القلب كأيديهما الماء البقل <sup>(٢)</sup> ، لأنه يهوج إلى الأمراء وإلى مراعاتهم ومراءاتهم . فأما إذا ابتلى به لضرورة وخاف إن لم يثن فهو مدحور ، فإن اتقاء الشر جائز . قال أبو الدرداء رضى الله عنه : إنا لنكسر في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلعنهم وقالت عائشة رضى الله عنها : استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أئذنوا له فبئس رجل المشيرة هو ثم لما دخل الآن له القول ، فلما خرج قلت : يا رسول الله قلت فيه ما قلت ثم أئتت له القول ، فقال : « يا عائشة إن شر الناس الذي يكرم اتقاء شره <sup>(٣)</sup> » ، ولكن هذا ورد في الإقبال وفي الكسر والتبسم : فأما التناء فهو كذب صراح ولا يجوز إلا لضرورة أو لإكرام بياح الكذب بمثل - كما ذكرناه في آفة الكذب - بل لا يجوز التناء ولا التصديق ولا تحريك الرأس في معرض التقرير على كل كلام باطل ، فإن فعل ذلك فهو منافق ، بل ينبغي أن ينكر ، فإن لم يقدر فيسكت بلسانه وينكر قبله .

### الآفة الثامنة عشرة : للمدح

وهو منبئ عنه في بعض المواضع . أما النعم فهو النية والقيمة وقد ذكرنا حكمها . والمدح يدخله ست آفات : أربع في المدح ، واثنان في المدحور . فأما المدح ، فالأول : أنه قد يفرط فيثني به إلى الكذب . قال غالب بن مدنان : من مدح لإماماً أو أحدنا بما ليس فيه على دعوى الأئمة بئس الله يوم القيامة يتعثر بلسانه . والثانية : أنه قد يدخله الرياء فإنه بالمدح مظهر للحب ، وقد لا يكون معشراً له ولا معتقداً لجميع ما يقوله فيصير به مرأئياً منافقاً .

الثالثة : أنه قد يقول ما لا يتحققه ولا سبيل له إلى الاطلاع عليه ، وروى أن رجلاً مدح رجلاً عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال له عليه السلام : « ويحك قطعت حق صاحبك لسمعها ما أفصح » ثم قال : « إن كان أحدكم لا بد مادحاً

(١) حديث . قيل لابن عمر أن يدخل على أمراءنا فنقول القول فإذا خرجنا قلنا غيره قال : كنا نعد ذلك ففعل رسول الله صلى الله عليه وسلم . أخرجه الطبراني من طرق . (٢) حديث « حب الجاء والمال يبتتان التفافاً في القلب كأيديهما الماء البقل » أخرجه أبو منصور الذهبي في مسند القردوس من حديث أبي هريرة بسند ضعيف إلا أنه قال « حب التناء » وقال « القلب » مكان « البقل » . (٣) حديث عائشة : استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « أئذنوا له فبئس رجل المشيرة ... الحديث » وفيه « إن شر الناس الذي يكرم اتقاء لشره » متفق عليه وله تقدم في الآفة التي قبلها .

أخاه فاقبل أحسب فلانا ولا أركى على الله أحدا حسيه الله إن كان يرى أنه كذلك <sup>(١)</sup> ، وهذه الآية تنطبق على المدح بالأوصاف المطلقة التي تعرف بالأدلة كقوله إنه متق وورع وزاهد وخير وما يجرى مجراه ، فأما إذا قال رأيت بصلي بالليل ويتصدق ويحج فهذه أمور مستيقنة . ومن ذلك قوله إنه عدل رضا فإن ذلك خفي فلا ينبغي أن يحرم القول فيه إلا بعد خبرة بطله . سمع عمر رضي الله عنه رجلا يثنى على رجل فقال : أسأفرت معه ؟ قال : لا ، قال : أخالطته في المياحية والمعاملة ؟ قال : لا . قال : فأنت جاره صباحه ومساءه ؟ قال : لا . فقال : والله الذي لا إله إلا هو لأراك تعرفه .

الرابعة : أنه قد يفرح المدوح وهو ظالم أو فاسق وذلك غير جائز قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى ينضب إذا مدح الفاسق <sup>(٢)</sup> ، وقال الحسن : من دعا لظالم بطول البقاء فقد أحب أن يعصى الله تعالى في أرضه ، والظالم الفاسق ينبغي أن يذم ليفتح ولا يمدح ليفرح .

وأما المدوح فيضه من وجهين : أحدهما : أنه يحدث فيه كبرا وإعجابا وما مهلكان . قال الحسن رضي الله عنه كان عمر رضي الله عنه جالسا ومعه الدرة والناس حوله إذ أقبل الجارود بن المنذر ، فقال رجل : هذا سيد ربيعة ، فسمعنا عمر ومن حوله وسمعا الجارود ، فلما دنا منه خفقه بالدرة فقال : مالي وللله يا أمير المؤمنين ؟ قال : مالي ولكل أما سمعنا ؟ قال : سمعنا ، قال : خشيت أن يخالف قلبك منها شيء فأجبت أن أطأ على منك .

الثاني : هو أنه إذا أثنى عليه بالخير فرح به وقبر ورضى عن نفسه ومن أعجب بنفسه قل تشمره وإنما يتشمر للعمل من يرى نفسه مقصرا . فأما إذا انطلقت الألسن بالثناء عليه ظن أنه قد أدرك ولهذا قال عليه السلام قطعت عنك صاحبك لو سمعنا ما أنظم ، وقال صلى الله عليه وسلم : إذا مدحت أخاك في وجهه فكأنما أسررت على حلقه موسى وميثا <sup>(٣)</sup> ، وقال أيضا لمن مدح رجلا وعرت الرجل عرقك الله <sup>(٤)</sup> ، وقال مطرف : ما سمعت قط ثناء ولا مدحة إلا تصاغرت إلى نفسي . وقال يزيد بن أبي مسلم : ليس أحد يسمع ثناء عليه أو مدحة إلا ترامى له الشيطان ، ولكن المؤمن يراجع ، فقال ابن المبارك : لقد صدق كلامها أما مذكروه زياد فذلك قلب العسوم ، وأما مذكروه مطرف فذلك قلب الخواص . وقال صلى الله عليه وسلم : لو مشى رجل إلى رجل يسكن من هرهف كان خيرا له من أن يثنى عليه في وجهه <sup>(٥)</sup> ، وقال عمر رضي الله عنه : المدح هو الذبح . وذلك لأن المذبح هو الذي يفتن عن العمل والمدح يوجب الفتور ، أو لأن المدح يورث العجب والكبر وهما مهلكان كالذبح ؛ لذلك شبهه به . فإن سلم المدح من هذه الآفات في حق السادح والمدح لم يكن به بأس بل ربما كان مندوبا إليه . ولذلك أثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصحابة فقال : لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان العالم لرجح <sup>(٦)</sup> ، وقال في عمر : لو لم أبعث لبعثت

### الآفة الثامنة عشرة : المدح

(١) حديث : إن رجلا مدح رجلا مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « ويحك قطعت متق صاحبك » متفق عليه من حديث أبي بكر بن عمار وهو في الصمت لأن أبي الدنيا يلفظ المصنف (٢) حديث « إن الله ينضب إذا مدح الفاسق » أخرجه ابن أبي الدنيا في الفست والبيهقي في الشعب من حديث أنس وفيه أبو خلف خادم أنس ضيف ، ورواه أبو هبيل الوصل وابن عدى يلفظ « إذا مدح الفاسق غضب الرب وامتد الرجز » قال القمي في الميزان : منكر ، وقد تقدم في آداب السكب . (٣) حديث « إذا مدحت أخاك في وجهه فكأنما أسررت على حلقه موسى وميثا » أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق من رواية يحيى بن جابر مسندا (٤) حديث « عرت الرجل عرقك الله » قال ابن مدح رجلا ، لم أجده أصلا (٥) حديث « لو مشى رجل إلى رجل يسكن من هرهف كان خيرا له من أن يثنى عليه في وجهه » لم أجده أيضا (٦) حديث « لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان العالم لرجح » تقدم في العلم .



يا عمر<sup>(١)</sup> ، وأى ثناء يزيد على هذا ؟ ولكنه صلى الله عليه وسلم قال عن صدق وبصيرة . وكانوا رضى الله عنهم أجل رتبة من أن يورثهم ذلك كبراً وعجباً وقتلوا . بل مدح الرجل نفسه فيصح لما فيه من الكبر والتفاخر إذ قال صلى الله عليه وسلم « أنا سيد ولد آدم ولا غر<sup>(٢)</sup> » ، أى لست أقول هذا تفاخراً كما يقصد الناس بالثناء على أنفسهم . وذلك لأن افتخاره صلى الله عليه وسلم كان بالله وبالقرىب من الله لا بولده آدم وتقدمه عليهم ؛ كما أن القبول عند الملك قبولاً عظيماً إنما يقتخر بقبوله إياه وبه يفرح لا بتقدمه على بعض رعاياه . وبتفصيل هذه الآفات قددر على الجمع بين ذم المدح وبين الحديث عليه قال صلى الله عليه وسلم « وجبت<sup>(٣)</sup> » ، لما أثنوا على بعض الموق . وقال بجاهد : إن لى آدم جلساء من الملائكة فإذا ذكر الرجل المسلم أعياه المسلم بخير قالت الملائكة : ولك بمنه ، وإذا ذكره بسوء قالت الملائكة : يا ابن آدم المستور عورتك أربع على نفسك واحد الله الذى ستر عورتك . فهذه آفات المدح .

### بيان ما على المدوح

اعلم أن على المدوح أن يكون شديد الاحتراز عن آفة الكبر والعجب وآفة الفئور ، ولا يشع منه إلا بأن يعرف نفسه ويتأمل مافى خطر الحاقمة ودقائق الرياء وآفات الأعمال ، فإنه يعرف من نفسه ما لا يعرفه المادح ولو انكشف له جميع أسرارها وما يجرى على خواطره لكف المادح عن مدحه وعلية أن يظهر كراهة المدح بإذلال المادح . قال صلى الله عليه وسلم « احشوا التراب فى وجوه المادحين<sup>(٤)</sup> » ، وقال سفيان بن عيينة : لا يضر المادح من عرف نفسه . وأتى على رجل من الصالحين فقال : اللهم إِنْ هؤلاء لا يعرفون وأنت تعرفنى . وقال آخر لما اتى عليه : اللهم إِنْ عبدك هذا تقرب إلى بمقتك وأنا أشهدك على مقتك . وقال على رضى الله عنه لما أتى عليه : اللهم اغفر لى ما لا يعلمون ولا تؤاخذنى بما يقولون واجعلنى خيراً مما يظنون . وأتى رجل على عمر رضى الله عنه فقال : أتلهكى وتهلك نفسك ؟ وأتى رجل على على كرم الله وجهه فى وجوه - وكان قلبه أنه ينع فيه — فقال : أنا دون ما قلت وفوق ما فى نفسك .

### الآلة التاسعة عشر .

النفلة عن دقائق الخطأ لا غوى الكلام لا سيما فيما يتعلق بالله وصفاته ، ويرتبط بأمر الدين فلا يقدر على تقويم اللفظ فى أمور الدين إلا الدلاء الفصحاء ، فمن قصر فى علم أو فصاحة لم يخل كلامه عن الزلل لكن الله تعالى يفيق عنه لجهله . مثاله : ما قال حذيفة : قال النبى صلى الله عليه وسلم « لا يقل أحدكم ماشاء الله وشئت ولكن ليقل ما شاء الله ثم شئت<sup>(٥)</sup> » ، وذلك لأن فى العطف المطلق تشريفاً وتسوية وهو على خلاف الاحترام . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يكلمه فى بعض الأمر فقال ماشاء الله وشئت ، فقال

(١) حديث « لو لم أبت لبثت يا عمر » أخرجه أبو منصور الديلى فى مسند الفردوس من حديث أبي هريرة وهو منكرو والمعروف من حديث عقبه بن ماسر « لو كان يبدى نبي . كان عمر بن الخطاب » ورواه الترمذى وحسنه .

(٢) حديث « أنا سيد ولد آدم ولا غر » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدرى والمأكم من حديث جابر وقال صحيح الإسناد وله من حديث عاتدة بن الصامت « أنا سيد الناس يوم القيامة ولا غر » . وللم من حديث أبي هريرة « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة » (٣) حديث « وجبت » قاله لما أثنوا على بعض الموق متفق عليه من حديث أنس (٤) حديث « احشوا فى وجوه للمادحين التراب » أخرجه مسلم من حديث المنهال .

الآلة التاسعة عشرة : فى النفلة عن دقائق الخطأ

(٥) حديث حذيفة « لا يقل أحدكم ماشاء الله وشئت ... الحديث » أخرجه أبو داود والبيهقى فى الكبرى بسند صحيح .

صلى الله عليه وسلم، أجمعتني لله عدلياً بل ما شاء الله وحده<sup>(١)</sup> . وخطب رجل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: من يعلم الله ورسوله فقد رشد ومن يعضهما فقد غوى فقال: قل: ومن يعص الله ورسوله فقد غوى<sup>(٢)</sup> ، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: ومن يعضهما، لأنه تسوية وجع، وكان إبراهيم يكره أن يقول الرجل: أعوذ بالله وبك، ويجوز أن يقول: أعوذ بالله ثم بك. وأن يقول: لولا الله ثم فلان؟ ولا يقول: لولا الله وفلان؟ وكره بعضهم أن يقال: اللهم أعتقنا من النار، وكان يقول: العتق يصحكون بعد الورد. وكانوا يستجيبون من النار ويتعذون من النار. وقال رجل: اللهم اجعلني ممن تصفيه شفاععة محمد صلى الله عليه وسلم فقال حذيفة: إن الله يبنى المؤمنين عن شفاععة محمد وتكون شفاعته للذين من المسلمين. وقال إبراهيم: إذا قال الرجل للرجل يا حمار يا خنزير قبل له يوم القيامة، حاراً رأيته خلقته خنزيراً رأيته خلقته؛ وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إن أحدكم ليشرك حتى يشرك بكلمة، فيقول: لولاه لسرقنا اللبنة. وقال عمر رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله تعالى ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم»، من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت<sup>(٣)</sup> . قال عمر رضي الله عنه: فوالله ما حلفت بها منذ سمعتها: وقال صلى الله عليه وسلم: «لا تسوا الضب كرماء الكرماء للرجل المسلم<sup>(٤)</sup>» وقال أبو هريرة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يقول أحدكم عدي ولا أمي لكلمة عبيد الله وكل ناسمكم إمامه ولا يقل غلامي وجاريتي وفناتي وفناتي، ولا يقول المملوك رب ولا ربي وليقل سيدي وسيدتي فلكم صبيد الله والرب الله سبحانه وتعالى» وقال صلى الله عليه وسلم: «لا تقولوا للفاسق سيدنا فإنه إن يكن سيدك فقد أحطمت ربك<sup>(٥)</sup>» وقال صلى الله عليه وسلم: «من قال أنا بريء من الإسلام فإن كان صادقاً فهو كاذب وإن كان كاذباً فليس يرجع إلى الإسلام سالماً<sup>(٦)</sup>» فهذا وأمثاله مما يدخل في الكلام ولا يمكن حصره.

ومن تأمل جميع ما أوردنا من آفات اللسان علم أنه إذا أطلق لسانه لم يعلم وعد ذلك يعرف سر قوله صلى الله عليه وسلم، من صحت نجا<sup>(٧)</sup>، لأن هذه الآفات كلها مهالك ومعاطب وهي على طريق المتكلم فإن سكوت سلم من الأكل، وإن نطق وتكلم غاطر بنفسه إلا أن يوافقه لسان فصيح وعلم غرير وورع حافظ ومراقبة لازمة، ويقتل من الكلام فمساء يعلم عند ذلك، وهو مع جميع ذلك لا ينفك عن الخطر، فإن كنت لا تقدر على أن تكون من تكلم فتمن فكن من سكوت فمساء لسلامة إحدى التيمنتين.

### الآفة العشرون

سؤال الغرام عن صفات الله تعالى وعن كلامه، وعن الحروف وأنها قديمة أو محدثة؟ ومن حقه الاشتغال بالعمل بما في القرآن إلا أن ذلك ثقيل على النفوس والفضول خفيف على القلب. والمامى يفرح بالخرص في العلم، إذ الشيطان يخيل إليه أنك من العلماء وأهل الفضل، ولا يزال يحجب إليه ذلك حتى يتكلم في العلم بما هو كافر وهو

(١) حديث ابن عباس: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسكته في بعض الأمر فقال: ما شاء الله وشئت فقال: أجمعتني لله عدلاً بل ما شاء الله وحده. أخرجه النسائي في الكبرى بإسناد حسن وابن ماجه (٢) حديث: خطب رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال: من يعلم الله ورسوله فقد رشد ومن يعضهما فقد غوى... الحديث. أخرجه مسلم من حديث عدي بن حاتم (٣) حديث عمر: إن الله: إنها كما أن تحلفوا بآبائكم. متفق عليه (٤) حديث: «لا تسوا الضب كرماء الكرماء إنما الكرماء للرجل المسلم» متفق عليه من حديث أبي هريرة. (٥) حديث: «لا تقولوا للفاسق سيدنا فإنه إن يكن سيدك فقد أحطمت ربك» أخرجه الترمذي بإسناد صحيح (٦) حديث: «من قال أنا بريء من الإسلام فإن كان صادقاً فهو كاذب وإن كان كاذباً فليس يرجع إلى الإسلام سالماً» أخرجه الترمذي وقد تقدم في أول آيات اللسان.

(٧) حديث: «من صحت نجا» أخرجه الترمذي وقد تقدم في أول آيات اللسان.

لا بدري . وكل كبيرة يرتكبها الناس فهي أسلم له من أن يتكلم في العلم لا سيما فيما يتعلق بالله وصفاته . وإنما شأن العوام الاشتغال بالعبادات والإيمان بما ورد به القرآن ، والتسليم لما جاء به الرسل من غير بحث ، وسؤالهم عن غير ما يتعلق بالعبادات سوء أدب منهم يستحقون له الموت من الله عز وجل ويتمرضون لخطر الكفر ، وهو كسؤال ساسة الدواب عن أسرار الملوك وهو موجب العقوبة . وكل من سأل عن علم غامض ولم يبلغ فهمه تلك الدرر جفوه مذموم ، فإنه بالإضافة إليه عاى . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم <sup>(١)</sup> ، وقال أنس : سأل الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فأكثروا عليه وأغضبوه فصعد المنبر وقال د سلوني لا تسألوني عن شيء إلا أنابكم به ، فقام إليه رجل فقال : يا رسول الله من أنى ؟ فقال : أتركك ، فقام إليه شابان أخوان فقالا : يا رسول الله من أنونا ؟ فقال : أترككما الذى تدعيان إليه ، ثم قام إليه رجل آخر فقال : يا رسول الله أنى الجنة أنا ثم في النار ؟ فقال : لا بل في النار ، فلما رأى الناس غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم أمسكوا فقام إليه عمر رضى الله عنه فقال : رضىنا بالله ربنا وبالإسلام ديننا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ، فقال : اجلس يا عمر رحلك الله إنك ما علمت لموقع <sup>(٢)</sup> .

وفى الحديث : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التيل والقال وإضاعة المال وكثرة السؤال <sup>(٣)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم : وذلك الناس يتساملون بينهم حتى يقولوا قد خلق الله الخلق فى خلق الله ؟ فإذا قالوا ذلك فقولوا ( قل هو الله أحد الله الصمد ) حتى تتشموا السودة ثم ليتفل أحدكم عن يساره ثلاثا وليستلم بالله من الشيطان الرجيم <sup>(٤)</sup> .

وقال جابر : ما نزلت آية المتلاعنين إلا لكثرة السؤال <sup>(٥)</sup> . وفى قصة موسى والخضر عليهما السلام تنبيه على المنع من السؤال قبل أن استحقاقه إذ قال ( فإن أتيتنى فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا ) فلما سأل عن السفينة أنكر عليه حتى اعتذر وقال ( لا تأخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمرى عسرا ) فلم يصبر حتى سأل ثلاثا قال ( هذا فراق بيني وبينك ) وطارقه .

فَسؤال العوام عن غوامض الدين من أعظم الآفات وهو من الثمرات القاتن ، فيجب فهمهم ومنعهم من ذلك . وخوضهم في حروف القرآن يضاهي حال من كتب الملك إليه كتابا ووسم له فيه أمورا فلم يشتغل بشيء منها ، ووضع زمانه في أن قرطاس الكتاب عتيق أم حديث ؟ فاستحق بذلك العقوبة لا محالة . فكذلك تضييع العاى حدود القرآن واشتغاله بحروفه أمى حديثة ؟ وكذلك سائر صفات الله سبحانه وتعالى . والله تعالى أعلم .

### الآفة العشرون : سؤال العوام عن صفات الله تعالى

- (١) حديث « ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة .
- (٢) حديث : سأل الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً حتى أكثروا عليه وأغضبوه فصعد المنبر فقال « سلوني فلا تسألوني عن شيء إلا أنابكم به ... الحديث » متفق عليه مقتصر على سؤال عبدة بن حذافة وقول عمر . ولمسلم من حديث أبي موسى : قدم آخر فقال من أنى ؟ فقال أتركك سالم مول حية . (٣) حديث : التهي عن ليل والقال وإضاعة المال وكثرة السؤال : متفق عليه من حديث المنيرة بن شمية .
- (٤) حديث « وشك الناس يتساملون بينهم حتى يقولوا قد خلق الله الخلق فى خلق الله ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم .
- (٥) حديث جابر : ما نزلت آية المتلاعنين إلا لكثرة السؤال . رواه البزار بإسناد جيد .

## كتاب ذم الغضب والحقد والحسد

وهو الكتاب الخامس من ربيع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي لا يشكّل على عفوه ورحمته إلا الراجون ، ولا يحذر سوء غضبه وسطوته إلا الخائفون ، الذي استدرج عباده من حيث لا يعلمون ، وسلط عليهم الشهوات وأمرهم بترك ما يشتهون ، وابتلاهم بالغضب وكلفهم كظم النيط فيا ينضبون ، ثم خفهم بالمكاره والذات وأمل لهم لينظر كيف يعملون ، وامتنح بهم جهنم ليعلم صدقهم فيا يدعون ، وعرفهم أنه لا ينجي عليه شيء مما يسرون وما يعملون ، وحذرهم أن يأخذهم بقتة وهم لا يشعرون فقال ( ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ) والصلاة والسلام على محمد رسوله الذي يسير تحت لوائه النبيون ، وعلى آله وأصحابه الأئمة المهديين ، والسادة المرضيين ، صلاة يرازي عددها عدد ما كان من خلق الله وما سيكون ، ويحظى ببركتها الأولون والآخرون ، وسلم تسلياً كثيراً .

أما بعد فإن الغضب شعلة نار اقتبست من ناره الله للوقدة التي تطلع على الأنفذة ، وإنها المستكنة في طي الغفاد . استكانت الجمر تحت الرماد ، واستخرجها الكبر الدفين في قلب كل جبار عنيد ، كاستخراج الحجر التار من الحديد ، وقد انكشف لناظرين بنور اليقين ، أن الإنسان ينزع منه عرق إلى الشيطان اللعين ، فمن استغفرت ناره الغضب فقد قربت فيه قرابة الشيطان حيث قال ( خلقتني من نار وخلقته من طين ) فإن شأن الطين السكون والوقار ، وشأن النار الناطق والاستمرار ، والحركة والاضطراب ، ومن نتائج الغضب الحقد والحسد ، وبهما هلك من هلك فسد من فسد ، ومفوضهما مضغة إذا صلحت صلح معها سائر الجسد ، وإذا كان الحقد والحسد والغضب ، مما يسوق العبد إلى مواطن العطب ، فما أخرجته إلى معرفة معاطيه ومساوئه ليحذر ذلك ويتقيه ، ويميطه عن القلب إن كان وبغيه ، ويمالجه إن رسخ في قلبه وبداربه ، فإن من لا يعرف الشر يقع فيه ، ومن عرفه فلم يعرفه لا تكفيه ، مالم يعرف الطريق الذي به يدفع الشر ويتقصيه .

ونحن نذكر ذم الغضب وآفات الحقد والحسد في هذا الكتاب ، وبمجموعها يسان ذم الغضب ، ثم بيان حقيقة الغضب ثم بيان أن الغضب هل يمكن إزالته أصله بالرياضة أم لا ؟ ثم يسان الأسباب المهيبة للغضب ، ثم يسان علاج الغضب بعد هيجانه ، ثم يسان فضيلة كظم النيط ، ثم يسان فضيلة الحلم ، ثم بيان القدر الذي يجوز الانتصار والتشبي به من الكلام ، ثم القول في معنى الحقد ونتائجه وفضيلة العفو والرفق ، ثم القول في ذم الحسد وفي حقيقة أسبابه ومعالجته وغاية الواجب في إزالته ، ثم بيان السبب في كثرة الحسد بين الأمتال والأقران والإخوانه وبين العلم والأقارب وما كاده وقتله في غيرهم . وضمف ، ثم بيان الدواء الذي به ينقي مرض الحسد عن القلب ، ثم يسان القدر الواجب في نفي الحسد عن القلب وبالله التوفيق .

### يسان ذم الغضب

قال الله تعالى ( إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم حية الجاهلية فأنزّل الله سكينته على رسوله وعلى

المؤمنين الآية - ذم الكفار بما تظاهروا به من الحية الصادرة عن الغضب بالباطل ، ومدح المؤمنين بما أنزل الله عليهم من السكينة وروى أبو هريرة أن رجلاً قال : يا رسول الله مرني بعمل وأقل ، قال : لا تغضب ، ثم أعاد عليه فقال : لا تغضب<sup>(١)</sup> ، وقال ابن عمر : قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : قل لي قولاً وأقله لئلي أعتله ، فقال : لا تغضب ، فأعدت عليه مرتين كل ذلك يرجع إلى لا تغضب<sup>(٢)</sup> ، وعن عبد الله بن عمرو : أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ماذا يفتدي من غضب الله ؟ قال : لا تغضب<sup>(٣)</sup> ، وقال ابن مسعود قال النبي صلى الله عليه وسلم : ماتمذون الصرعة فيكم ؟ قلنا : الذي لا تصرعه الرجال ، قال : ليس ذلك ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب<sup>(٤)</sup> ، وقال أبو هريرة : قال النبي صلى الله عليه وسلم : ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب<sup>(٥)</sup> ، وقال ابن عمر : قال النبي صلى الله عليه وسلم : من كف غضبه ستر الله عورته<sup>(٦)</sup> ، وقال سليمان ابن داود عليهما السلام : يا بني إياك وكثرة الغضب فإن كثرة الغضب تستخف فؤاد الرجل الحليم . وعن عكرمة في قوله تعالى ( وسيدا وحصورا ) قال : السيد الذي لا يئلبه الغضب وقال أبو الدرداء : قلت يا رسول الله داني على عمل يدخلني الجنة ؟ قال : لا تغضب<sup>(٧)</sup> ، وقال يحيى لميمى عليهما السلام : لا تغضب ، قال : لا أستطيع أن لا أغضب إنما أنا بشر ، قال : لا تفتن مالا ، قال : هذا عسى . وقال صلى الله عليه وسلم : الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العمل<sup>(٨)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم : ما غضب أحد إلا أشتى على جهنم<sup>(٩)</sup> ، وقال له رجل : أي شيء أشد على قال : غضب الله ، قال : فما يبعدني عن غضب الله ؟ قال : لا تغضب<sup>(١٠)</sup> .

الآثار : قال الحسن : يا ابن آدم كلما غضبت وميت ويوشك أن تلثب ومية فتقع في النار . وعن ذي القرنين أنه لقي ملكاً من الملائكة فقال : عني علم ازداد به إيماناً وبقينا ، قال : لا تغضب فإن الشيطان أفقر مايكون على ابن آدم حين يغضب ، فرد الغضب بالكظم ، وسكته بالثؤدة . وإياك والعجلة فإنك إذا مجتأ أخطأت حظك ، وكن سهلاً لينا القريب والبعيد ولا تكن جباراً عنيداً . وعن وهب بن منبه : أن راهباً كان في صومعته وأراد الشيطان أن يضلّه فلم يستطع ، فجاء حتى ناداه فقال له : افتح ، فلم يجبه فقال : افتح فلما إن ذهبت ندمت ، فلم يلمت إليه فقال لي أنا المسيح ، قال الراهب : وإن كنت للمسيح فما أصنع بك ! ليس قد أمرت بالعبادة والاجتهاد ووعدتنا القيامة فلم جئتنا اليوم بغيره لم تقبله منك ؟ فقال : إني الشيطان وقد أردت أن أضلك فلم أستطع ؟ جئتك لبسائي

#### كتاب الغضب والحقد والحسد

- (١) حديث أبي هريرة : أن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأقل قال : لا تغضب ، ثم أعاد عليه فقال : لا تغضب ، رواه البخاري
- (٢) حديث ابن عمر : قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم قل لي قولاً وأقل... الحديث . أخرج نحوه أبو هريرة بإسناد حسن
- (٣) حديث عبد الله بن عمرو : سأل رجلاً رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يبعدني من غضب الله ؟ قال : لا تغضب ، أخرجه الطبراني في معجم الألفاظ وابن عبد البر في التمهيد بإسناد حسن ، وهو عند أحمد : وأن عبد الله بن عمرو هو السائل .
- (٤) حديث ابن مسعود : ماتمذون الصرعة... الحديث . رواه مسلم
- (٥) حديث أبي هريرة : ليس الشديد بالصرعة... الحديث . متفق عليه
- (٦) حديث ابن عمر : من كف غضبه ستر الله عورته . أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الفوائد والغضب وفي الصدق ، وتقدم في آفات اللسان
- (٧) حديث أبي الدرداء : داني على عمل يدخلني الجنة ؟ قال : لا تغضب ، أخرجه ابن أبي الدنيا والطبراني في السكينة والأوسط بإسناد حسن
- (٨) حديث : الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العمل . أخرجه الطبراني في السكينة والبيهقي في الذهب من رواية جزي بن حكيم عن أبيه عن جده بسند ضعيف
- (٩) حديث : ما غضب أحد إلا أشتى . أخرجه ابن أبي شيبة في فضائل الأئمة ، وأسنده ضعيف
- (١٠) حديث : قال رجل أي شيء أشد علي ؟ قال : غضب الله ؟ قال : فما يبعدني من غضب الله ؟ قال : لا تغضب ، أخرجه أحمد من حديث عبد الله بن عمرو باللفظ الأخير منه وقد تقدم عليه بثلاث أحاديث .

عاشت فأخبرك، فقال: ما أريد أن أسألك عن شيء، قال: فولى مدبراً، فقال الراهب: ألا تسمع، قال: بل، قال: أخبرني أي أخلاق بني آدم أعون لك عليهم؟ فقال: الحدة إن الرجل إذا كان حديداً قليلته كما يقلب الصبيان الكرة. وقال خيشمة: الشيطان يقول كيف يغلبني ابن آدم وإذا رضى جئت حتى أكون في قلبه؟ وإذا غضب طردت حتى أكون في رأسه؟ وقال جعفر بن محمد: الغضب مفتاح كل شر. وقال بعض الأنصار: رأس الحق الحدة وقائمه الغضب، ومن رضى بالجهل استحق من الحلم، والحلم زين ومنفعة، والجهل شين ومضرة، والسكوت عن جواب الإحق جوابه. وقال مجاهد: قال إبليس ما أعجزني بنو آدم فلن يسجروني في ثلاث: إذا سكر أحدكم أخذوا بمنزلة غفلة حيث شئنا وعمل لنا بما أحببنا، وإذا غضب قال بما لا يعلم وعمل بما يندم، وبخيله بما في يده وتحميه بما لا يقدر عليه. وقيل للحكيم: ما أملك فلانا لنفسه؟ قال: إذا لا تذله الشهوة ولا يصصره الهوى ولا ينيله الغضب. وقال بعضهم: إياك والغضب فإنه يصيرك إلى ذلة الاعتذار. وقيل: اتقوا الغضب فإنه يفسد الإيمان كما يفسد الصبر المسل. وقال عبادة بن مسعود: انظروا إلى حلم الرجل عند غضبه، وأمانته عند طعمه وما عليك بجملة إذا لم يغضب، وما عليك بأمانته إذا لم يطعم؟ وكعب عمر بن عبد العزيز إلى عاملة أن لا تأتني عند غضبك وإذا غضبت على رجل فأجبه، فإذا سكن غضبك فأخرج به فمأخذه على قدر ذنبه، ولما جاوز به خمسة عشر سوطلاً. وقال علي بن زيد: أغضب رجل من قريش لمر بن عبد العزيز القول فأطرق عمر زماناً طويلاً ثم قال: أردت أن يستغفرني الشيطان بهز السلطان فأناك منك اليوم ما تناله متى غدا؟ وقال بعضهم لآية: يا بني لا يثبت العقل عند الغضب كما لا يثبت روح الحى في التائبين المسجورة، فأقل الناس غضباً أعقلهم، فإن كان للدين كان دهاء ومكراً، وإن كان للأخرة كان حلاً وعساً، فقد قيل: الغضب عدو العقل والغضب غول العقل. وكان عمر رضى الله عنه إذا خطب قال في خطبته: أطلع منكم من حفظ من الطعام والهوى والغضب. وقال بعضهم: من أطاع شهوته وغضبه قاده إلى النار. وقال الحسن: من علامات المسلم قوة في دين وحزم في دين وإيمان في يقين وعلم في حلم وكيس في دقة وإعطاء في حق وقصد في غنى وتجمل في رافة وإحسان في قدرة وتعمل في رافة وصبر في شدة، لا ينغلب الغضب ولا تجمع به الحية ولا تغلب شهوة ولا تنفضه بقلته ولا يستخفه حرصه ولا تقصر به نيته، فينصر المظلوم ويرحم الضعيف ولا يئجل ولا يبدد ولا يسرف ولا يفتقر، يفتقر إذا ظلم ويصفو عن الجاهل. نفسه منه في عناء والناس منه في رغاء. وقيل لمبداهة بن المبارك أجل لنا حسن الخلق في كلمة. فقال أترك الغضب. وقال نبي من الأنبياء لمن تبعه: من يشكك في أن لا يغضب فيكون معي في درجتي ويكون يمدى خيلتي؟ فقال شاب من القوم: أنا، ثم أعاد عليه فقال الشاب: أنا أوفى به، فلبس مات كان في منزلته بعده وهو ذوالكف، سمى به لأنه تكفل بالغضب ووفى به. وقال وهب بن منبه: الكفر أربعة أركان: الغضب، والشهوة، والحرق، والطمع.

### بيان حقيقة الغضب

أعلم أن الله تعالى لما خلق الحيوان مزمناً للفساد واللوثان، بأسباب في داخل بدنه وأسباب خارجة عنه؛ أنعم عليه بما يصحبه عن الفساد ويدفع عنه الهلاك إلى أجل معلوم سماء في كتابه.

أما السبب الداخلي: فهو أنه ركب من الحرارة والرطوبة، وجعل بين الحرارة والرطوبة عدواة ومضادة، فلا تزال الحرارة تحلل الرطوبة وتجففها وتبخرها حتى تصير أجزأها بخاراً يتصاعد منها، فلم يصل بالرطوبة مدد من الغذاء يجبر ما انحلت وتبخر من أجزأها لفساد الحيوان، فخلق الله الغذاء الموافق لبند الحيوان وخلق في

الحَيوان شهوة تبعه على تناول الغذاء ؛ كالكل به في جبرما انكسر وسدما اتمل ليكون ذلك حافظا له من الهلاك بهذا السبب .

وأما الأسباب الخارجية التي يتعرض لها الإنسان : فكالسيف والسمان وسائر المهلكات التي يقصد بها ، فافتقر إلى قوة وحماية تتور من باطنه فتدفع المهلكات عنه ، خلق الله طبيعة الغضب من النار وغرزا في الإنسان وعيها بطيفته . فهما صد عن غرض من أغراضه ومقصود من مقاصده اشتعلت نار الغضب وفارت ثورانها يغلي به دم القلب وينشر في العروق ويرتفع إلى أعالي البدن ، كما ترتفع النار وكما يرتفع الماء الذي يغلي في القدر ، فلذلك ينصب إلى الوجه فيحمر الوجه والعين ، والبهرة لصفاتها تحكي لون ماوراءها من حمرة الدم كما تحكي الزجاجة لون ما فيها ، وإنما ينسبط الدم إذا غضب على من دونه واستشعر القدرة عليه ، فإن صدر الغضب على من فوقه وكان معه يأس من الانتقام تولد منه انقباض الدم من ظاهر الجلد إلى جوف القلب وصار حزنا ، ولذلك يصفر اللون ، وإن كان الغضب على نظير يشك فيه تردد الدم بين انقباض وانسباط فيحمر ويصفر ويضطرب .

وبالجمله فتقوة الغضب عليها القلب ومنعها غليان دم القلب يطلب الانتقام وإنما توجه هذه القوة عند ثورانها إلى دفع اللوذيات قبل وقوعها وإلى التشنق والانتقام بعد وقوعها . والانتقام قوت هذه القوة وثبتها وفيه لذتها ، ولانكسار إلا به . ثم إن الناس في هذه القوة على درجات ثلاث في أول الفطرة من التفریط والإفراط والاعتدال . أما التفریط : فيفقد هذه القوة أضعفها وذلك مذموم ، وهو الذي يقال فيه إنه لأحمية له . ولذلك قال الشاعر  
رحم الله من استغضب فلم يغضب فهو حمار . فمن فقد قوة الغضب والحمية أصلا فهو ناصب جدا ، وقد وصف الله سبحانه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بالشدّة والحمية فقال ( أشدّاء على الكفار رءاء بينهم ) وقال لنيه صلى الله عليه وسلم ( جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ) الآية . وإنما النظفة والشدّة من آثار قوة الحمية وهو الغضب . وأما الإفراط : فهو أن تغلب هذه الصفة حتى تفرج عن سياسة العقل والدين وطاعته ، ولا يبقى للمرء معها بصيرة ونظر وفكرة ولا اختيار ، بل يصير في صورة المضطرب . وسبب غلبته أمور غريزية وأمور اعتيادية : فرب إنسان هو بالفطرة مستعد لسرعة الغضب حتى كأن صورته في الفطرة صورة غضبان ، وبين على ذلك حرارة مزاج القلب لأن الغضب من النار <sup>(١)</sup> كما قال صلى الله عليه وسلم . وإنما برودة المزاج تطفئه وتكسر سوره . وأما الأسباب الاعتيادية : فهو أن يتخالط قوما يتبعون بتشيق النقيط وطاعة الغضب ويسمون ذلك شجاعة ورجولية ، فيقول الواحد منهم : أنا الذي لا أصبر على المكر والمحال ولا أحتمل من أحد أمرا أو معناه لا عقل ولا حلم . ثم يذكره في معرض الفخر بجهله . فمن سمعه رسخ في نفسه حسن الغضب وحب التشبه بالقوم فيقوى به الغضب ، ومهما اشتدت نار الغضب وقوى اضطرابها أعمت صاحبها وأصمته عن كل موعظة ، فإذا وعظ لم يسمع بل زاده ذلك غضبا ، وإذا استثناء بنور عقله وراجع نفسه لم يقدر إذ ينطق " نور العقل وينمى في الحال بدخان الغضب ، فإن معدن الفكر الدماغ ، ويتصاعد عند شدة الغضب من غليان دم القلب دخان مظلم إلى الدماغ يستولى على مبادئ الفكر ، وربما يعمد إلى مبادئ الحس فتظلم عينه حتى لا يرى بيته ، وتسود عليه الدنيا بأسرها ، ويكون دماغه على مثال كهف اضطربت فيه نار . فأسودت جوهه وحى مستقره وأتملا بالدخان جوانبه وكان فيه سراج ضئيف فأنهى أو لطفأ نوره فلا تثبت فيه قدم ولا يسع فيه كلام ولا ترى فيه صورة ، ولا يقدر على إطفائه لا من داخل ولا من خارج ، بل يئبى

(١) حديث « الغضب من النار » أخرجه الترمذى من حديث أبى سید بسند ضيف « الغضب حمرة في قلب ابن آدم ، ولأى داود من حديث جليّة السمدى « إن الغضب من الشيطان وإن الشيطان خلق من النار »

أن يصبر إلى أن يمتدح جميع ما يقبل الاحتراق : فكذلك يفعل الغضب بالقاب والماغ . وربما تقوى نار الغضب فتغنى الرطوبة التي بها حياة القلب ، فيموت صاحبه غيظاً كما تقوى النار في الكهف فينشق وتهدأ أعاليه على أسفله ، وذلك لإبطال النار ما في جوانبه من القوة المسكة الجامعة لأجزائه ، فهكذا حال القلب عند الغضب . وبالحقيقة فالسيفينة في ملطم الأمواج عند اضطراب الرياح في لجة البحر أحسن حالاً وأرجى سلامة من النفس المضطربة غيظاً ؛ إذ في السفينة من يتحمل لتسكينها وتهدئتها وينظر لها ويسوسها ، وأما القلب فهو صاحب السفينة وقد سقطت حيلته إذ أعماه الغضب وأحسه . ومن آثار هذا الغضب في الظاهر تغير اللون وشدة الرعدة في الأطراف وخروج الأفعال عن الترتيب والنظام واضطراب الحركة والكلام ، حتى يظهر الزبد على الأشداق وتحممر الاحداق وتقلب المناخر وتستحيل الحلقة ، ولو رأى الغضبان في حالة غضبه قيع صورته لمكن غضبه حياء من قيع صورته واستحالة خلقته ، وقبح باطنه أعظم من قبح ظاهره فإن الظاهر عنوان الباطن ، وإنما قبحت صورة الباطن أولاً ثم انتشر قبحها إلى الظاهر ثانياً ، فتغير الظاهر ثمرة تغير الباطن فقس الثمرة بالثمرة فهذا أثره في الجسد :

وأما أثره في اللسان فالتألف بالشم والتحمس من الكلام الذي يستحي منه ذوالعقل ويستحي منه قائله عند قنوت الغضب ، وذلك مع تحبط النظم واضطراب اللفظ .

أما أثره على الأعضاء فالضرب والهجم والتفريق والجرح عند التمكن من غير مبالاة ، فإن هرب منه المعضوب عليه أوقاته بسبب وعجز عن التثني رجع الغضب على صاحبه فزق ثوب نفسه ويلطم نفسه ، وقد يضرب يده على الأرض ويمدو عدو الواله السكران والمدهوش المتحير ، وربما يسقط سريعاً لا يطين المدو والهوش بسبب شدة الغضب ويعتبه مثل النخشة ، وربما يضرب الجرادات والحيوانات فيضرب القصصة مثلاً على الأرض وقد يكرس المائدة إذا غضب عليها . ويتماطى أفعال المجانين فيشتتم الهيمة والجادات ويخطأها ويقول : إلى متى منك هذا يا كيت وكيت ؟ كأنه يخاطب عاقلاً ، حتى ربما رفسته دابة فيرفض الدابة ويقابلها بذلك .

وأما أثره في القلب مع المعضوب عليه فالخقد والحسد وإضمار السوء والشبهة بالمسامات والحزن بالسرور والعزم على إفشاء السر وهتك السر والاستهزاء وغير ذلك من القبايح ، فهذه ثمرة الغضب المفرط .

وأما ثمرة الحمية الضعيفة فقلة الأنفة بما يؤثف منه من التعرض للحرم والزوجة والآلة واحتمال الدل من الإخساء وصغر النفس والقواء وهو أيضاً مذموم ، إذ من ثمراته عدم النيرة على الحرام وهو خنوة قال صلى الله عليه وسلم « إن سعداً لنور وأنا أغبر من سعد وإن الله أغبر مني »<sup>(١)</sup> ، وإنما خلقت النيرة لحفظ الأنساب . ولو تسامح الناس بذلك لاختلطت الأنساب . ولذلك قيل كل أمة وضعت النيرة في رجالها وضعت الصيانة في نسائها . ومن ضعف الغضب الخور والسكوت عند مشاهدة المنكرات وقد قال صلى الله عليه وسلم « خير أمتي أحداؤها »<sup>(٢)</sup> . يعني في الدين وقال تعالى « ولا تأخذكم بما رآه في دين الله » بل من فقد الغضب هجز عن رياضة نفسه ، إذ لا تتم الرياضة إلا بتسلط الغضب على الشهوة ، حتى يغضب على نفسه عند الميل إلى الشهوات الخسيسة . ففقد الغضب مذموم ، وإنما المحمود غضب ينتظر إشارة العقل والدين ، فينبعث حيث يجب الحمية وينطق حيث يحسن الحلم ، وحفظه على حد الاعتدال هو الاستقامة التي كلف الله بها عباده وهو الوسط الذي وصفه رسول الله صلى الله عليه

(١) حديث « لن سعداً لنور ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وهو متفق عليه من حديث المنيرة بنحوه ويقدم في الحديث . (٢) حديث « خير أمتي أحداؤها » أخرجه الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث علي بن مسعود ضعيف وزاد « الذين لذا غضبوا وجعوا »



وسلم حيث قال «خير الأمور أوسطها»<sup>(١)</sup>، فن مال غضبه إلى الفتور حتى أحس من نفسه بضعف الغيرة وخسة النفس في احتمال الذل والضمم في غير محله فينبغي أن يعالج نفسه حتى يقوى غضبه . ومن مال غضبه إلى الإفراط حتى جزء إلى التهور واقتحام الفواحش فينبغي أن يعالج نفسه لينقص من سورة الغضب ويقف على الوسط الحق بين الطرفين ، فهو الصراط المستقيم وهو أرق من الشرة وأحد من السيف ؛ فإن عجز عنه فليطلب القرب منه قال تعالى ( وإن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة ) فليس كل من عجز عن الإيمان بالخير كله ينبغي أن يأتى بالشر كله ؛ ولكن بعض الشر أهون من بعض وبعض الخير أرفع من بعض . فهذه حقيقة الغضب ودرجاته نسأل الله حسن التوفيق لما يرضيه إنه على ما يشاء قدير .

### بيان الغضب هل يمكن إزالة أصله بالرياضة : أم لا ؟

أعلم أنه ظن ظانون أنه يتصور محو الغضب بالكلية ، وزعموا أن الرياضة إليه تتوجه وإياه تقصد ، وظن آخرون أنه أصل لا يقبل العلاج . وهذا رأى من يظن أن الخلق كالخلق وكلاهما لا يقبل التغيير ، وكلا الرأيين ضعيف . بل الحق فيه ما ذكره وهو أنه ما بقى الإنسان يحب شيئاً ويكره شيئاً فلا يخلو من النبط والغضب ، وما دام يوافقه شيء ويخالفه آخر فلا بد من أن يحب ما يوافقه ويكره ما يخالفه ، والغضب يتبع ذلك فإنه مهما أخذته محبوه غضب لأعائه ، وإذا قصد بمكروه غضب لأعائه

إلا أن ما يحبه الإنسان ينقسم إلى ثلاثة أقسام ، الأول : ما هو ضرورة في حق الكافة كالقوت والمساكن والملبس وصحة البدن ، فمن قصد بدنه بالضرب والجرح فلا بد وأن يغضب ، وكذلك إذا أخذ منه ثوبه الذى يستر عورته ، وكذلك إذا أخرج من داره التى هى مسكنه أو أريق مائه الذى لمعطه ، فهذه ضرورات لا يخلو الإنسان من كراهة زوالها ومن غيظ على من يتعرض لها .

القسم الثانى : ما ليس ضرورياً لأحد من الخلق كالجاء والمسال الكثير والنلبان والدواب ، فإن هذه الأمور صارت محبوبة بالمادة والجمل بمقاصد الأمور ، حتى صار الذنب والفضة محببتين في أنفسهما فيكتران ، ويغضب على من يبرقهما وإن كان مستغنياً عنهما في القوت ، فهذا الجنس مما يتصور أن يفك الإنسان عن أصل النبط عليه ، فإذا كانت له دار زائدة على مسكنه فهدمه ظالم فيجوز أن لا يغضب ، إذ يجوز أن يكون بصيراً بأمر الدنيا فيزهد في الزيادة على الحاجة فلا يغضب بأخذها ، فإنه لا يجب وجودها ولو أحب وجودها لغضب على الضرورة بأخذها وأكره غضب الناس على ما هو غير ضرورى كالجاء والصيت والتصدر في المجالس والمباهاة في العلم ، فمن غلب هذا الحب عليه فلا محالة يغضب إذا زاحمه من زاحم على التصدر في المجالس ، ومن لا يجب ذلك فلا يزال ولو جلس في صف النمل ، فلا يغضب إذا جلس غيره فوقه . وهذه العادات الرديئة هى التى أكثرت عاب الإنسان ومكالمه فأكثرت غضبه ، وكما كانت الارادات والشهوات أكثر كان صاحبها أحمق رتبة وأفقر ، لأن الحاجة صفة نقص فهما كثر كثر النقص ، والجامل أبداً جهده في أن يزيد في حاجاته وفى شهواته ، وهو لا يدري أنه مستكثر من أسباب التهم والحزن ، حتى يفتى بعض الجهال بالعادات الرديئة ومخالطة قرناء السوء إلى أن يغضب لو قيل له : إنك لا تحسن اللب بالطيور والعب بالشرطيح ولا تقهر على شرب الخمر الكثير وتناول الطعام الكثير ، وما يجرى مجراه من الرذائل ، فالغضب على هذا الجنس ليس بضرورى لأن حبه ليس بضرورى .

(١) حديث « خير الأمور أوسطها » أخرجه البيهقي في الشعب مرسلًا وقد تقدم .

القسم الثالث : ما يكون ضروريا في حق بعض الناس دون البعض ، كالكتاب مثلا في حق العالم لأنه مضطر إليه فيجب فيغضب على من يحرقه ويفرقه ، وكذلك أدوات الصناعات في حق المكتسب الذي لا يمكنه التوصل إلى القوة إلا بها ، فإنما هو وسيلة إلى الضروري ، والمحبوب يصير ضروريا ومحبوبا ، وهذا يختلف بالأشخاص وإنما الحب الضروري ما أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « من أصبح آمنا في سربه مائنا في بدنه وله قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها »<sup>(١)</sup> ، ومن كان بصيرا بمقتضى الأمور وسلم له هذه الثلاثة يتصور أن لا يغضب في غيرها فهذه ثلاثة أقسام فلنذكر غاية الرياضة في كل واحد منها .

أما القسم الأول : فليست الرياضة فيه لينعدم غيظ القلب ولكن لكي يقدر على أن لا يطبع الغضب ولا يستعمله في الظاهر إلا على حد يستجبه الشرع ويستحسنه العقل ، وذلك يمكن بالمجاهدة وتكليف الحلم والاحتياط مدة ، حتى يصير الحلم والاحتياط خلقا دائما فما وقع أصل الغيظ من القلب فذلك ليس بمقتضى الطبع وهو غير ممكن نعم يمكن كسر سوره وتضعيفه حتى لا يشتد هيجان الغيظ في الباطن ، وينتهي ضمه إلى أن لا يظهر أثره في الوجه ، ولكن ذلك شديد جدا وهذا حكم القسم الثالث أيضا لأن ما صار ضروريا في حق شخص فلا يمنعه من الغيظ استثناء غيره عنه . فالرياضة فيه تمنع العمل به وتضعف هيجانه في الباطن حتى لا يشتد التألم بالصبر عليه .

وأما القسم الثاني : فيمكن التوصل بالرياضة إلى الانفكاك عن الغضب عليه إذ يمكن إخراج حبه من القلب ، وذلك بأن يعلم الإنسان أن وطنه القبر ومستقره الآخرة وأن الدنيا معبر مبرر عليها ويتزود منها قدر الضرورة ، وما وراء ذلك عليه وبال في وطنه ومستقره فيزهده في الدنيا ويحسب حبا عن قلبه ، ولو كان للإنسان كلب لا يحبه لا يغضب إذا ضربه غيره ، فالغضب تبع للحب . فالرياضة في هذا تنتهي إلى قمع أصل الغضب وهو نادر جدا ، وقد انتهى إلى المنع من استعمال الغضب والعمل بموجبه وهو أهون .

فإن قلت : الضروري من القسم الأول التألم بفوات المحتاج إليه دون الغضب ، فمن له شاة مثلا وهي قوته فانت لا يغضب على أحد وإن كان يحصل فيه كراهة ، وليس من ضرورة كل كراهة غضب ، فإن الإنسان يتألم بالفصد والحجامة ولا يغضب على الفصاد والحجامة فمن غلب عليه التوحيد حتى يرى الأشياء كلها بيد الله ومنه فلا يغضب على أحد من خلقه ؛ إذ برام مسخرين في قبضة قدرته كالقلم في يد الكاتب ، ومن وقع ملك بضرب رقبته لم يغضب على القلم ، فلا يغضب على من يذبح شاته التي هي قوته كما لا يغضب على موتها ، إذ يرى الذبح والموت من الله عز وجل فيندفع الغضب بنفلة التوحيد . ويندفع أيضا بحسن الظن بالله ، وهو أن يرى أن الكل من الله تعالى وأن الله لا يقتل له إلا ما فيه الحيرة ، وربما تكون الحيرة في مرضه وجوعه وجرحه وقتله ، فلا يغضب كما لا يغضب على الفصاد والحجامة لأنه يرى أن الحيرة فيه ، فيقول هذا على هذا الوجه غير محال ، ولكن غلبة التوحيد إلى هذا الحد إنما تكون كالقرب الخاطف ، تغلب في أحوال مختلفة ولا تدم ، ويرجع القلب إلى الالتفات إلى الوسائط وجوعا طبيعيا لا يندفع عنه ، ولو تصور ذلك على الدوام ليشتر لتصور لرسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه كان يغضب حتى تحمر وجنتاه<sup>(٢)</sup> حتى قال : اللهم أنا بشر أغضب كما يغضب البشر فأبما مسلم سببته

(١) حديث « من أصبح آمنا في سربه مائنا في بدنه مائنا في دنياه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها » أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث عبد الله بن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال الترمذي حسن غريب .

(٢) حديث : كان صلى الله عليه وسلم يغضب حتى تحمر وجنتاه . أخرجه مسلم من حديث جابر : كان إذا خطب أحمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه . وإمامكم : كان إذا ذكر الساعة أحمرت وجنتاه واشتد غضبه . وقد تقدم في أخلاق النبوة .

أو لمتته أو ضربته فاجعلها منى صلاة عليه وزكاة وقربة تقويه بها إليك يوم القيامة<sup>(١)</sup> » وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : يا رسول الله أكتب عنك كل ما قلت في الغضب والرضا فقال « أكتب فوالذي بيني والحق نيا ما يخرج منه إلا حق » وأشار إلى لسانه<sup>(٢)</sup> فلم يقل إلى لا أغضب ، ولكن قال إن الغضب لا يخرجني عن الحق ، أي لا أعمل بموجب الغضب . وغضبت عائشة رضي الله تعالى عنها مرة فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « مالك ؟ جاءك شيطانك ؟ فقالت : وما لك شيطان ؟ قال « بلى ولكني دعوت الله فأعاني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بالخير<sup>(٣)</sup> » ولم يقل : لا شيطان لي ، وأراد شيطان الغضب لكن قال : لا يعملني على الشر . وقال علي رضي الله تعالى عنه : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يغضب للنسب فإذا أغضب الحق لم يعرفه أحد ولم يبق لغضبه شيء حتى ينتصر له<sup>(٤)</sup> فكان يغضب على الحق ، وإن كان غضبه لله فهو الثفات إلى الوساطة على الجلة ، بل كل من يغضب على من يأخذ ضرورة قوته وحاجته التي لا بد له في دينه منها فإنما غضب لله ، فلا يمكن الابتكاز عنه . نعم قد يفقد أصل الغضب فيما هو ضروري إذا كان القلب مشغولا بضروري أهم منه ، فلا يكون في القلب متسع للغضب لاشتغاله بغيره ، فإن استغرق القلب ببعض المهمات يمنع الإحساس بما عداه .

وهذا كما أن سليمان لما شتم قال : إن خفت موازيني فأنا شر مما تقول وإن ثقلت موازيني لم يضرن ما تقول . فقد كان همه مصروفا إلى الآخرة فلم يتأثر قلبه بالثتم . وكذلك شتم الربيع بن خثيم فقال : يا هذا قد سمع الله كلامك وإن دون الجنة عقبة إن فعلتها لم يضرن ما تقول ، وإن لم أفعها فأنا شر مما تقول . وسب رجل أبا بكر رضي الله عنه فقال : ما سرت الله عنك أكثر ، فكأنه كان مشغولا بالنظر في تصدير نفسه عن أن يثق الله حق ثقته ويعرفه حق معرفته ، فلم يغضبه نسبة غيره إياه إلى نقصان ، إذ كان ينظر إلى نفسه بعين التقصان ، وذلك لجلالة قدره . وقالت امرأة لمالك بن دينار : يا سرائي ، قال : ما عرفني غيرك فكأنه كان مشغولا بأن يثق عن نفسه آفات الرأى ، ومنكراً على نفسه ما يلقيه الشيطان إليه فلم يغضب لما نسب إليه . وسب رجل الشعبي فقال : إن كنت صادقا فغفر الله لي ، وإن كنت كاذبا فغفر الله لك .

فهذه الأقاويل دالة في الظاهر على أنهم لم يغضبوا لاشتغال قلوبهم بمهمات دينهم ، ويعتمد أن يكون ذلك قد أثر في قلوبهم ولكنهم لم يشتغلوا به واشتغلوا بما كان هو الأغلب على قلوبهم ، فإذا اشتغال القلب ببعض المهمات لا يبعد أن يمنع هيجان الغضب عند فوات بعض المحاب ؛ فإذا يتصور فقد التبط إما باشتغال القلب بهم ، أو بنبلية نظر التوحيد ، أو بسبب ثالث : وهو أن يعلم أن الله يحب منه أن لا يتنازع فيعطى شدة حبه لله غيظه ، وذلك غير محال في أحوال نادرة . وقد عرفت بهذا أن الطريق للخلاص من نار الغضب هو حب الدنيا عن القلب وذلك بمعرفة آفات الدنيا وغوائلها - كما سيأتي في كتاب ذم الدنيا - ومن أخرج حب الزايا عن القلب تخلص من أكثر

(١) حديث « اللهم أنا بصر أغضب كما يغضب البصر ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة مودوده « أغضب كما يغضب البصر » وقال « جلته » بدل « نضرته » وفي رواية « اللهم إنما عهد بصر يغضب كما يغضب البصر » وأما متفق عليه وقدمه واسلم من حديث أنس « أنا ما بصر أرمي كما يرمي البصر وأغضب كما يغضب البصر » ولأنه يدل من حديث أبي سعيد أو ضربه (٧) حديث عبد الله بن عمرو : يا رسول الله أكتب عنك كل ما قلت في الغضب والرضا ؟ قال « أكتب فوالذي بيني والحق ما يخرج منه إلا حق » وأشار إلى لسانه . أخرجه أبو داود بنحوه (٣) حديث : غضبت عائشة فقال النبي صلى الله عليه وسلم « مالك جاءك شيطانك ؟ ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث عائشة (٤) حديث علي : كان لا يغضب لعدا ... الحديث أخرجه الترمذي في المعالي وقد هدم .

أسباب الغضب ، وما لا يمكن محوه يمكن كسره وتضعيفه فيضد الغضب بسببه ويحون دفعه . نسال الله حسن التوفيق بلفظه وكرمه إنه على كل شيء قدير والحمد لله وحده .

### بيان الاسباب المهيجة للغضب

قد عرفت أن علاج كل علة حسم مادتها وإزالة أسبابها فلا بد من معرفة أسباب الغضب . وقد قال يحيى العيسى عليهما السلام : أى شيء أشد ؟ قال : غضب الله ، قال فما يقرب من غضب الله ، قال أن تغضب ، قال : فما يبدى الغضب وما ينبئه ؟ قال عيسى : الكبر والفخر والتمزز والحية .

والاسباب المهيجة للغضب هي : الزهو والسجب والمزاح والمهل والهزء والتميز والمراة والمناذاة والغدر وشدة الحرص على فضول المال والجاه ، وهى بأجمعها أخلاق رديئة ، مذمومة شرعا ، ولا خلاص من الغضب مع بقاء هذه الاسباب فلا بد من إزالة هذه الاسباب بأعدادها .

فينبغى أن تمت الزهو بالتواضع . ونميت العجب بمعرفتك بنفسك . كما سياتى بيانه في كتاب الكبر والعجب . وتزيل الفخر بأنك من جنس عبدك إذ الناس مجدهم في الانتساب أب واحد ؛ وإنما اختلفوا في الفضل أشتاتنا فبنو آدم جنس واحد وإنما الفخر بالفضائل ؛ والفخر والعجب والكبر أكبر الرذائل وهى أصلها ورأسها ، فإذا لم تغل عنها فلا فضل لك على غيرك ، فلم تفتخر وأنت من جنس عبدك من حيث البنية والنسب والأعضاء الظاهرة والباطنة ؟ وأما المزاح فتزيله بالتشاغل بالمهمات الدينية التى تستوعب العمر وتفضل عنه إذ عرفت ذلك . وأما المهزل فتزيله بالجد في طلب الفضائل والأخلاق الحسنة والعلوم الدينية التى تبلغك إلى سعادة الآخرة . وأما الهزء فتزيله بالكرم عن إبناء الناس وبصيانة النفس عن أن يستهزا بك . وأما التمييز فالحذر عن القول بالصيغ وصيانة النفس عن مر الجواب . وأما شدة الحرص على مزايا الميث فتزال بالقناعة بقدر الضرورة طلبا لمر الإستغناء وترفعاً عن ذل الحاجة .

وكل خلق من هذه الأخلاق وصفة من هذه الصفات يفتقر في علاجه إلى رياضة وتحمل مشقة ، وحاصل رياضتها يرجع إلى معرفة غوائلها لترغب النفس عنها وتفر عن قبحها ، ثم المواظبة على مباشرة أحوالها مديدة حتى يصير بالمادة مأوفة هيئة على النفس ، فإذا انمحت عن النفس فقد زكت وتطهرت عن هذه الرذائل وتخلصت أيضاً عن الغضب الذى يتولد منها . ومن أشد البرايع على الغضب عند أكثر الجهال تسميتهم الغضب شجاعة ورجولية وعزة نفس وكبر همة ، وتلقبهم بالأتقاب المحمود غباوة وجهلا حتى تحمل النفس إليه وتستحسنه . وقد يتأكد ذلك بحكاية شدة الغضب عن الأكابر في معرض المدح بالشجاعة ، والنفوس مائلة إلى التشبه بالأكابر فيميج الغضب إلى القاب بسببه ، وتسمية هذا عزة نفس وشجاعة جهل بل هو مرض قلب ونقصان عقل وهو لضعف النفس ونقصانها ، وآية أنه لضعف النفس أن المريض أسرع غضباً من الصحيح ، والمرأة أسرع غضباً من الرجل ، والصبي أسرع غضباً من الرجل الكبير ، والشيوخ الضعيف أسرع غضباً من الكهل ، وذو الخلق السيى الرذائل القبيحة أسرع غضباً من صاحب الفضائل . فالرذل يغضب لشهرته إذا فاته القصة ، ولبيخه إذا فاته الحبة ، حتى أنه يغضب على أهله وولده وأصحابه . بل القوي من يملك نفسه عند الغضب كما قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب »<sup>(١)</sup> . بل يفغى أن يعالج هذا الجاهل بأن تتلى عليه

(١) حديث « ليس الشديد بالصرعة » تقدم فيه .

حكايات أهل الحلم والعفو وما استحسن منهم من كظم النفيظ ، فإن ذلك منقول عن الأنبياء والأولياء والحكياء والعلماء وأكابر الملوك الفضلاء ، وعند ذلك منقول عن الأكرد والأتراك والجهلة والأغبياء الذين لا يحول لهم ولا فضل فيهم .

### بيان علاج الغضب بعد هيجانه

ما ذكرناه هو حزم لمواد الغضب وقطع لأسبابه حتى لا يهيج ، فلذا جرى سبب هيجه فغنده يجب التثبت حتى لا يضطر صاحبه إلى العمل به على الوجه المذموم ، وإنما يبالغ الغضب عند هيجانه بمجون العلم والعمل .

أما العلم فهو ستة أمور ؛ الأول : أن يتفكر في الأخبار التي سنوردها في فضل كظم النفيظ والعفو والحلم والاحتساب فيرغب في ثوابه ، فتمننه شدة الحرص على ثواب الكظم عن التشنق والانتقام وينطق عنه غيظه ، قال مالك بن أوس ابن الجندب : غضب عمر على رجل وأمر بضربه فقلت بأمر المؤمنين ( خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ) فكان عمر يقول ( خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ) فكان يتأمل في الآية وكان قائفا عند كتاب الله مهما نلى عليه كثير التدبر فيه فتدبر فيه وعلى الرجل . وأمر عمر بن عبد العزيز بضرب رجل ثم قرأ قوله تعالى ( والكافين النفيظ ) فقال لفلانة خل عنه .

الثاني : أن يخوف نفسه بعقاب الله وهو أن يقول . قدرة الله على أعظم من قدرتي على هذا الإنسان ، فلما مضيت غضبي عليه لم آمن أن يمضى الله غضبه على يوم القيامة أخرج ما أكون إلى العفو . فقد قال تعالى في بعض الكتب القديمة : يا ابن آدم اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب فلا تحمله فيمن أحق . وبعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وصيفا إلى حاجة فأباط على فلما جاء قال « لولا القصاص لأوجعتك »<sup>(١)</sup> ، أي القصاص في القيامة . وقيل ما كان في بني إسرائيل ملك إلا ومعه حكيم إذا غضب أعطاه صحيفة فيها : ارحم المسكين واخش الموت واذكر الآخرة ، فكان يقرؤها حتى يسكن غضبه .

الثالث : أن يحذر نفسه عاقبة العداوة والانتقام وتشر العداوة لمقابلته والسعي في هدم أغراضه والثبات به صابره وهو لا يخلو من المصائب فيخوف نفسه بعواقب الغضب في الدنيا إن كان لا يخاف من الآخرة . وهذا يرجع إلى تسليط شهوة على غضب وليس هذا من أعمال الآخرة ولا ثواب عليه ، لأنه متردد على حظوظه العاجلة يقدم بعضها على بعض ، إلا أن يكون محذوره أن تشوش عليه في الدنيا فراغته لعم والعمل وما يمينه على الآخرة فيكون مثابا عليه .

الرابع : أن يتفكر في قبح صورته عند الغضب بأن يتذكر صورة غيره في حالة الغضب ، ويتفكر في قبح الغضب في نفسه ومشابهة صاحبه للكلب الضاري والسبع المأدى ، ومشابهة الحلم المأدى التارك للغضب للأنبياء والأولياء والعلماء والحكياء ، ويخبر نفسه بين أن يتشبه بالكلاب والسياع وأراذل الناس وبين أن يتشبه بالعلماء والأنبياء في عاداتهم فيقبل نفسه إلى حب الاقتداء بهؤلاء إن كان قد بقي معه مسكة من عقل .

الخامس : أن يتفكر في السبب الذي يدعوه إلى الانتقام ويمنه من كظم النفيظ ، ولا بد وأن يكون له سبب مثل قول الشيطان له : إن هذا يجعل منك على العجز وصغر النفس والذلة والمهانة وتصير حقيرا في أعين الناس ! فيقول لنفسه : ما عجلك ! تأتفين من الاحتمال الآن ولا تأتفين من خزي يوم القيامة والافتقار إذا أخذته يدك وانتقم

(١) حديث « لولا القصاص لأوجعتك » أخرجه أبو يعل من حديث أم سلمة بسند ضيف .

ملك؟ وتحذرين من أن تصغرى فى عين الناس ولا تحذرين من أن تصغرى عند الله والملائكة والنبين؟ فهما كظم الغيظ فينبغى أن يكظمه الله، وذلك يعظمه عند الله، فإله للناس؟ وذلك من ظله يوم القيامة أشد من ذله لو انتقم الآن، ألا يجب أن يكون هو القائم إذا نودى يوم القيامة: ليقيم من أجره على الله، فلا يقوم إلا من عفا؟ فهذا وأمثاله من معارف الإيمان ينبغى أن يكرره على قلبه.

السادس: أن يعلم أن غضبه من تمجبه من جريان الشيء على وفق مراد الله لأعلى وفق مراده، فكيف يقول مرادى أولى من مراد الله؟ ويوشك أن يكون غضب الله عليه أعظم من غضبه.

وأما العمل فإن يقول بلسانك أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. هكذا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقال عند الغيظ <sup>(١)</sup> وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غضبت عائشة أخذ بأنفها وقال: يا عرويش قولى اللهم رب النبي محمد اغفر لى ذنبى وأذهب غيظ قلى وأجرنى من مضلات الفتن <sup>(٢)</sup>، فيستحب أن يقول ذلك، فإن لم يزل بذلك فاجلس إن كنت قائماً واضمح إن كنت جالساً واقرب من الأرض التى منها خلقت لتعرف بذلك ذل نفسك، وأطلب بالجلوس والاضمح السكون فإن سبب الغضب الحرارة. وسبب الحرارة الحركة. فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الغضب حرة توفد فى القلب <sup>(٣)</sup>. ألم تروا إلى انتفاخ أوداجه وحرمة عينيه، فإذا وجد أحدهم من ذلك شيئاً فإن كان قائماً فليجلس وإن كان جالساً فليقم، فإن لم يزل ذلك فليترسأ بالماء البارد أو يفتسل، فإن التار لا يطفئ إلا الماء؛ فقد قال صلى الله عليه وسلم: إذا غضب أحدكم فليترسأ بالماء فإنما الغضب من النار <sup>(٤)</sup>. وفى رواية: إن الغضب من الشيطان وإن الشيطان خلق من النار وإنما تطفأ النار بالماء فإذا غضب أحدكم فليترسأ، وقال ابن عباس: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإذا غضبت فاسكت <sup>(٥)</sup>، وقال أبو هريرة: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غضب وهو قائم جلس وإذا غضب وهو جالس اضطجع فيذهب غضبه <sup>(٦)</sup>، وقال أبو سعيد الخدرى: قال النبي صلى الله عليه وسلم: ألا إن الغضب حرة فى قلب ابن آدم <sup>(٧)</sup> ألا ترون إلى حرة عينيه وانتفاخ أوداجه فن وجد من ذلك شيئاً فليصق خده بالأرض، وكان هذا إشارة إلى السجود وتمكين أعر الأعضاء من أذل المواضع وهو التراب لتستشر به النفس الذل وتزابل به العزة والزهو الذى هو سبب الغضب.

وروى أن عمر غضب يوماً فدعا بهاء فاستنشق وقال: إن الغضب من الشيطان وهذا يذهب الغضب. وقال عروة

(١) حديث: الأمر بالصعود بالله من الشيطان الرجيم عند الغيظ. متفق عليه من حديث سليمان بن صرد قال: كنت جالساً مع النبي صلى الله عليه وسلم ورجلان يبتان فأحدهما أحر وجهه وانتفخت أوداجه... الحديث. وفيه: لو قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لذهب عنه ما به. فقالوا له: لئن أتى صلى الله عليه وسلم قال: «توذا بالله من الشيطان الرجيم»... الحديث.

(٢) حديث: كان إذا غضبت عائشة أخذت بأنفها وقال: يا عرويش قولى اللهم رب النبي محمد اغفر لى ذنبى وأذهب غيظ قلى... الحديث. أخرجه ابن السكيت فى اليوم واليلة من حديثها وتقدم فى الأذكار والدعوات (٣) حديث: إن الغضب حرة توفد فى القلب... الحديث. أخرجه الترمذى من حديث أبى سعيد دون قوله «توفد» وقد تقدم ورواه بهذا اللفظ البيهقى فى الشعب.

(٤) حديث: إذا غضب أحدكم فليترسأ بالماء البارد... الحديث. أخرجه أبو داود من حديث عطية السمرى دون قوله «بالماء البارد» وهو بلفظ الرواية الثانية التى ذكرها المتن وقد تقدم (٥) حديث ابن عباس: إذا غضبت فاسكت. أخرجه أحمد وابن أبى الدنيا والطبرانى والبيهقى فى شعب الإيمان وفيه ليث بن أبى سليم (٦) حديث أبى هريرة: كان إذا غضب وهو قائم جلس وإذا غضب وهو جالس اضطجع فيذهب غضبه. أخرجه ابن أبى الدنيا وفيه من لم يسم لأحد باستادجيدى أناته حديث به، وكان أبو ذر قائماً جلس ثم اضطجع فبطل له: لم جلست ثم اضطجعت؟ فقال: لئن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنا: إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس فإن ذهب عنه الغضب والأرض تطفئ النار... الحديث. أخرجه الترمذى وقال حسن.

(٧) حديث أبى سعيد: ألا إن الغضب حرة فى قلب ابن آدم... الحديث. أخرجه الترمذى وقال حسن.

ابن محمد : لما استعملت على العين قال لي أبي : أوليت ؟ قلت : نعم ، قال : فإذا غضبت فانظر إلى السماء فوقك وإلى الأرض تحتك ثم عظم خالقهما . وروى أن أبا ذر قال لرجل : يا ابن الحراء - في خصومة بينهما - فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا أبا ذر بلنتي أنك اليوم عيرت أمك بأمة ، فقال : نعم ، فانطلق أبو ذر ليرضى صاحبه فبغته الرجل فلم عليه فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا أبا ذر ارفع رأسك فانظر ثم اعلم أنك لست بأفضل من أحر فيها ولا أسود إلا أن تفضله بعمل ، ثم قال : إذا غضبت فإن كنت قائما فاقعد وإن كنت قائدا فاستقم . وإن كنت متكئا فاضطجع <sup>(١)</sup> ، وقال المحترم بن سليمان : كان رجل من كان قبلكم يهضب فيشتد غضبه فكذب صحائف وأعطى كل صحيفة رجلا وللأول : إذا غضبت فأعطني هذه ، وقال الثاني : إذا سكن بعض غضبي فأعطني هذه ، وقال الثالث : إذا ذهب غضبي فأعطني هذه ، فاشتد غضبه يوما فأعطى الصحيفة الأولى فإذا فيها ما أنت وهذا الغضب إنك لست بإله إنما أنت بشر يوشك أن يأكل بعضك بعضا ، فسكن بعض غضبه ، فأعطى الثانية فإذا فيها : أرحم من في الأرض يرحمك من في السماء ، فأعطى الثالثة فإذا فيها : خذ الناس بحق الله فإنه لا يصلهم إلا ذلك . أي لا تمطل الحدود . وغضب المهدي على رجل فقال شبيب : لا تنضب لله بأشدم من غضبه لنفسه ، فقال : خلوا سبيله .

### فضيلة كظم النفيظ

قال الله تعالى ( والكاظمين النفيظ ) وذكر ذلك في معرض المدح . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كف غضبه كلف الله عنه عذابه ومن اعتذر إلى ربه قبل الله عذره ومن خزن لسانه ستر الله عورته <sup>(٢)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم : أشدكم من غلب نفسه عند الغضب وأحسكم من عفا عند القدرة <sup>(٣)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم : من كظم غيظا ولو شاء أن يمضيه لأمضاه ملأ الله قلبه يوم القيامة رضا ، وفي رواية : ملأ الله قلبه أمنا وإيمانا <sup>(٤)</sup> ، وقال ابن عمر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما جرح عبد جرعة أعظم أجرا من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله تعالى <sup>(٥)</sup> ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : قال صلى الله عليه وسلم : إن لجوفا يابا .

(١) حديث أبي ذر : أنه قال لرجل : يا ابن الحراء في خصومة بينهما فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ... الحديث ، وفيه فقال : يا أبا ذر ارفع رأسك فانظر ... الحديث : وفيه ثم قال : إذا غضبت - دل آخره - أخرجه ابن أبي الدنيا في الفتاوى والفتن بإسناد صحيح وفي الصحيحين من حديثه قال : كان بيني وبين رجل من أنواني كلام وكانت أمه أجنبية فميرته بأمة فسكن إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا أبا ذر إنك امرؤ نيك جاهلية ، ولأحد أنه صلى الله عليه وسلم قال له : انظر فإنك لست بخير من آخر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى ، ووجه ثلاث .

### فضيلة كظم النفيظ

(٢) حديث : من كف غضبه كلف الله عنه عذابه ... الحديث ، أخرجه الطبراني في الأوسط والبيهقي في شعب الإيمان واللفظ له من حديث أس بإسناد ضعيف ولابن أبي الدنيا من حديث ابن عمر : من ملك غضبه وثابه الله عذابه ... الحديث ، وقد عظم في آيات القرآن (٣) حديث : أشدكم من ملك نفسه عند الغضب وأحسكم من عفا عند القدرة ، أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث علي بن سعيد ضعيف والبيهقي في الشعب باللفظ الأول من رواية عبد الرحمن بن عجلان مرسل بإسناد جيد ، ولابن جرير الطبراني في معارج الأخلاق واللفظ له من حديث : أشدكم من ملك نفسه عند الغضب وفيه عمران القحطان مختلف فيه . (٤) حديث : من كظم غيظا ولو شاء أن يمضيه لأمضاه ملأ الله قلبه يوم القيامة رضا ، وفي رواية : أمنا وإيمانا ، أخرجه ابن أبي الدنيا بالرواية الأولى من حديث ابن عمر وفيه سكن بن أبي سراج كظمه في ابن جابر وأبو داود بالرواية الثانية من حديث رجل من أبناء أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عن أبيه ، ورواه ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة وفيه من لم يمس (٥) حديث ابن عمر : ما جرح رجل جرعة أعظم أجرا من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله ، أخرجه ابن ماجه .

لا يدخله إلا من شقي غيظه بمصيبة الله تعالى <sup>(١)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم ، ما من جرعة أحب إلى الله تعالى من جرعة غيظك لفظها عبد وما كلفها عبد إلا ملأ الله قلبه إيماناً <sup>(٢)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله على رؤوس الخلائق ويغيظه من أى الخور شاء <sup>(٣)</sup> ،

الآثار : قال عمر رضي الله عنه : من اتقى الله لم يشف غيظه ومن خاف الله لم يفعل ما يشاء ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون . وقال لقمان لابنه : يا بني لا تذهب ماء وجهك بالمسأة ولا تشف غيظك بفضيحتك واعرف قدرك تتفكك معيشتك . وقال أيوب : حلم ساعة يدفع شراً كثيراً . واجتمع سفيان الثوري وأبو خزيمة الزبيري والفضيل بن عياض فتناكروا الزهد ، فأجمعوا على أن أفضل الأعمال الحلم عند الغضب والصبر عند الجزع . وقال رجل لعمر رضي الله عنه : والله ما تقضى بالعدل ولا تعطى الجزل ، فنضب عمر حتى عرف ذلك في وجهه . فقال له رجل : يا أمير المؤمنين ألا تسمع إلى الله تعالى يقول (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) فهذا من الجاهلين ، فقال عمر : صدقت ، فكأنهما كانت ناراً فأطفئت . وقال محمد بن كعب : ثلاث من كن فيه استكمل الإيمان بالله ، إذا رضى لم يدخله رضاء في الباطل وإذا غضب لم يخرج غضبه عن الحق وإذا قدر لم يتناول ما ليس له . وجاء رجل إلى سلمان فقال : يا عبد الله أوصني ، قال : لا تغضب ، قال لا أقدر ، قال : فإن غضبت فأمسك لسانك ويدك .

### بيان فضيلة الحلم

اعلم أن الحلم أفضل من كظم النفيظ ؛ لأن كظم النفيظ عبارة عن التحمل أى تكلف الحلم ، ولا يحتاج إلى كظم النفيظ إلا من حاج غيظه ويحتاج فيه إلى مجاهدة شديدة ؛ ولكن إذا تم ذلك مدة صار ذلك اعتياداً فلا يسهج النفيظ ، وإن حاج فلا يكون في كلفه تعب ، وهو الحلم الطبيعي ، وهو دلالة كمال العقل واستيلائه وانتكاس قوة الغضب وخضوعها للعقل ، ولكن ابتداء التحمل وكظم النفيظ تكلفاً . قال صلى الله عليه وسلم : إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحمل ومن يتخير الحزم يمهط ومن يتوق الشر يوقه <sup>(١)</sup> ، وأشار بهذا إلى أن اكتساب العلم طريقه التحمل أولاً وتكلفه كما أن اكتساب العلم طريقه التعلم . وقال أبو هريرة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اطلبوا العلم واطلبوا مع العلم السكينة والعلم ، لينوا لمن تعلمون ولن تعلمون منه ، ولا تكونوا من جبابرة العلماء فينقلب جهلكم حلمكم <sup>(٢)</sup> ، وأشار بهذا إلى أن التكبر والتعجب هو الذى يسهج الغضب وينزع من الحلم واللين . وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم اللهم اغنى بالعلم وزين بالحلم وأكرمى بالتقوى وجعلنى بالهافية <sup>(٣)</sup> ، وقال أبو هريرة : قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : ايتقوا

(١) حديث ابن عباس « لن جهنم بابا لا يدخل منه الا من عقى غيظه بمصيبة الله » تقدم في آيات اللسان (٢) حديث « ما من جرعة أحب إلى الله تعالى من جرعة غيظك لفظها عبد وما كلفها عبد الا ملأ الله قلبه إيماناً » أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث ابن عباس وفيه ضعف ويتعلق من حديث ابن عمر وحديث الصعاني القدي لم يسم وقد تقدم (٣) حديث « من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله على رؤوس الخلائق حتى يغيره من أى الخور شاء » تقدم في آيات اللسان .

### فضيلة الحلم

(٤) حديث « أما العلم بالتعلم والحلم بالتحمل ... الحديث » أخرجه الطبراني والبيهقي في المال من حديث أبي الفراء بسند ضعيف (٥) حديث أبي هريرة « اطلبوا العلم واطلبوا مع العلم السكينة والحلم ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في زيادة الفضلين بسند ضعيف (٦) حديث : كان من دعائه « اللهم اغنى بالعلم وزين بالحلم وأكرمى بالتقوى وجعلنى بالهافية » لم أجده إلا



الرفعة عند الله . قالوا : وما هي رسول الله ؟ قال : تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعلم عن جهل عليك <sup>(١)</sup> . وقال صلى الله عليه وسلم : خمس من سنن المرسلين : الحياء والحلم والحجامة والسواك والتشطير <sup>(٢)</sup> . وقال على كرم الله وجهه : قال النبي صلى الله عليه وسلم : إن الرجل المسلم ليدرك بالحلم درجة الصائم القائم وإنه ليكتب جبارا غنيًا ولا يملك إلا أهل بيته <sup>(٣)</sup> . وقال أبو هريرة : إن رجلاً قال لرسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعون وأحسن إليهم ويسيئون إلي ويجهلون علي وأحلم عنهم ، قال : إن كان كما تقول فكأنما تسفهم المل ولا يزال ملكك من الله ظهير مادمت على ذلك <sup>(٤)</sup> . المل : يعني به الرمل . وقال رجل من المسلمين : اللهم ليس عندى صدقة اتصدق بها فأبمارجل أصاب من عرضي شيئاً فهو عليه صدقة فأوحى الله تعالى إلى النبي صلى الله عليه وسلم إن قد غفرت له <sup>(٥)</sup> . وقال صلى الله عليه وسلم : أيعجز أحدكم أن يكون كآبي ضميم ؟ قالوا : وما أبو ضميم ؟ قال : رجل من كان قبلكم كان إذا أصبح يقول : اللهم إنى تصدقت اليوم بعرضي على من ظلمنى <sup>(٦)</sup> .

وقيل في قوله تعالى ( ربانين ) أى حباء علماء . وعن الحسن في قوله تعالى ( وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ) قال حباء لأن جهل عليهم يجهلوا . وقال عطاء بن أبى رباح ( يمشون على الأرض هونا ) أى حباء . وقال ابن أبى حبيب في قوله عز وجل ( وكهلاً ) قاله : الكهل منتهى الحلم . وقال مجاهد ( وإذا مروا باللغو مروا كراماً ) أى إذا أودوا صفحوا .

وروى أن ابن مسعود مر بلفو مرضاً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أصبح ابن مسعود وأمسى كريماً <sup>(٧)</sup> . ثم تلا إبراهيم بن ميسرة وهو الراوى قوله تعالى ( وإذا مروا باللغو مروا كراماً ) وقال النبي صلى الله عليه وسلم : اللهم لا يدركنى ولا أدركه زمان لا يتبعون فيه العلم ولا يستحيون فيه من الحلم ، فزهم قلوب العجم وأسلمتهم ألسنة العرب <sup>(٨)</sup> . وقال صلى الله عليه وسلم : ليلين منكم ذؤاد الاحلام والنهى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم ، وإياكم ومهشات الأسواق <sup>(٩)</sup> . وروى أنه وفد على النبي صلى الله عليه وسلم الأثـ فأنـ راحـته ثم عـقلها وطـرح عـنه ثوبين كانا عليه وأخرج من العيبة ثوبين حـسـنين فلبسهما ، وذلك بين رسول الله

- (١) حديث « ابتنا الرفعة عند الله » قالوا : وما هي ؟ قال : تصل من قطعك . . الحديث « أخرجه الحاكم والبيهقي وقد تقدم  
(٢) حديث « خمس من سنن المرسلين : الحياء والحلم والحجامة والسواك والتشطير » أخرجه أبو بكر بن أبى عاصم في الباقى والآحاد والترمذى المحكىم في تواتر الأصول من رواية مـليـح بن عبد الله الخطمى عن أبيه عن جده . . والترمذى وحسن من حديث أبى أيوب « أربع » فأسقط « الحلم والحجامة » وزاد « الشكاح » (٣) حديث على « إن الرجل المسلم ليدرك بالحلم درجة الصائم القائم » . الحديث « أخرجه الطبرانى في الأوسط بسند ضعيف (٤) حديث أبى هريرة : أن رجلاً قال لرسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعون وأحسن إليهم ويسيئون إلي ويجهلون علي وأحلم عنهم . . الحديث . . رواه مسلم . . الحديث « روى عنه رجل من المسلمين اللهم ليس عندى صدقة أتصدق بها فأبمارجل أصاب من عرضي شيئاً فهو صدقة عليه . . الحديث . . أخرجه أبو نعيم في الصـطـاب والبيهـقى في الشعب من رواية عبد الحميد بن أبى عيسى بن جبر عن أبيه عن جده بإسناد ابن زاذ البـيـهـقى عن علي بن زهد وعليه هو إقـى قال ذلك كـافـي أثناء الحديث ويذكر ابن عبد البر في الاستيعاب أنه رواه ابن عـيـنة عن مـروـن بن دينار عن أبى صالح عن أبى هريرة : أن رجلاً من المسلمين ولم يسمه وقال أنه لما ضميم قلت وليس بأبى ضميم لأنما هو عليه بن زيد وأبو ضميم ليس له حصة وإنما هو متقدم (٦) حديث « أيعجز أحدكم أن يكون كآبي ضميم . . الحديث » تقدم في آفات اللسان (٧) حديث أن ابن مسعود مر بلفو مرضاً فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أصبح ابن مسعود وأمسى كريماً . . أخرجه ابن المبارك في البر والرفعة (٨) حديث « اللهم لا يدركنى ولا أدركه زمان لا يتبعون فيه العلم ولا يستحيون فيه من العلم . . الحديث » أخرجه أحمد من حديث سهل بن سمع بسند ضعيف (٩) حديث « ليلتين منكم ذؤاد الاحلام والنهى . . الحديث » أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود دون قوله « ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم » فهى عند أبى داود والترمذى وحسن وهى عند مسلم في حديث آخر لابن مسعود . .

صلى الله عليه وسلم يرى ما يصنع ، ثم أقبل بشئ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام : إن فيك بأشجع خلقين يحبهما الله ورسوله ، قال : ما هما بأبي أنت وأنى يا رسول الله ؟ قال « الحلم والأناة » فقال : خلتان تخلفتهما أو خلقان جبلت عليهما ؟ فقال « بل خلقان جبلت الله عليهما » فقال : الحمد الذى جبلنى على خلقين يحبهما الله ورسوله <sup>(١)</sup> . وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله يحب الحليم الخي الذى المتفف بأبالغيات التقي ويغض الفاحش البذى السائل الملقب التقي » <sup>(٢)</sup> . وقال ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم « ثلاث من لم تكن فيه واحدة منهن فلا تمتدوا بشئ من عمله : تقوى تحجزه عن معاصي الله عز وجل . وحلم يكف به السفه ، وخلق يعيش به فى الناس » <sup>(٣)</sup> . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا جمع الله الخلائق يوم القيامة نادى مناد : أين أهل الفضل ؟ فيقوم ناس وهم يسير فينطلقون سراعا إلى الجنة فيستلقون الملائكة فيقولون لهم إنازا كم سراعاً إلى الجنة فيقولون نحن أهل الفضل ، فيقولون لهم ما كان فضلكم ؟ فيقولون كما إذا ظللنا صبرنا وإذا أسيء إلينا عفونا وإذا جهل علينا حملنا . فيقال لهم ادخلوا الجنة فقم أجراً العاملين » <sup>(٤)</sup> .

الآثار : قال عمر رضى الله عنه : تعلموا العلم وتعلموا العلم السكينة والحلم . وقال على رضى الله عنه : ليس الخير أن يكثر مالك وولدك ، ولكن الخير أن يكثر عليك ويظم حلمك ، وأن تلتأى الناس بعبادة الله ، وإذا أحسنت حدثت الله تعالى ، وإذا أسأت استغفرت الله تعالى . وقال الحسن : اطلبوا العلم وزيهوا بالوقار والحلم . وقال أكرم بن صبيح : دعاة العقل الحلم وجماع الأمر الصبر . وقال أبو الدرداء : أدركت الناس ورعاً لا شوك فيه فأصبحوا شوكاً لا ورق فيه ، إن عرفهم تفدرك وإن تركهم لم يتركوك ، قالوا : كيف نصنع ؟ قال : تفرصهم عن عرصك ليوم تفرك . وقال على رضى الله عنه : إن أول ما عرض الحليم من حله أن الناس كلهم أعوانه على الجاهل . وقال معاوية رضى الله عنه : لا يبلغ العبد مبلغ الرأى حتى يغلب حله جهله وصبره شهوته ، ولا يبلغ ذلك إلا بقرة العلم ، وقال معاوية لعمر بن الخطاب : أى الرجال أجمع ؟ قال : من رد جهله بحلمه . قال : أى الرجال أسمى ؟ قال : من بذل دنياه لصلاح دينه . وقال أنس بن مالك فى قوله تعالى « فلذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » إلى قوله « عظيم » هو الرجل يشتمه أخوه فيقول : إن كنت كاذباً فنفرت الله لك وإن كنت صادقاً فنفرت الله لى . وقال بعضهم : شتمت فلاناً من أهل البصرة حلم على فاستبدى بها زمانا . وقال معاوية لعرابة بن أوس : بم سدت فوملك يا عرابة ؟ قال : يا أمير المؤمنين كنت أحلم عن جاهلهم وأعطى سائلهم وأسمى فى حوائجهم . ففعل فعلى فمولى مثل ومن جاوزنى فهو أفضل منى ومن قصر عني فأنا خير منه . وسب رجل ابن عباس رضى الله عنهما فلما فرغ قال : يا عكرمة هل للرجل حاجة فنفضها ؟ فنكس الرجل رأسه واستحي . وقال رجل لعمر بن عبد العزيز : أشهد أنك من الفاسقين ، فقال : ليس تقبل شهادتك . وعن عمار بن الحسين بن على رضى الله عنهم أنه سبه رجل فرمى إليه بحمصة كانت عليه وأمره بألف درهم ، فقال بعضهم : جمع له خمس خصال محمود : الحلم وإسقاط الأذى وتخليص الرجل مما يعيد من الله عز وجل وحمله على التندم والتوبة ورجوعه إلى مدح بعد الهدى شترى جميع ذلك بشئ من الدنيا يسير وقال رجل لجمعة بن محمد

(١) حديث « بأشجع لأن فيك خصلتين يحبهما الله : الحلم والأناة ... الحديث » متفق عليه (٢) حديث : لأن الله يحب الحليم المتفف الذى المتفف بأبالغيات التقي المتفف بغيره (٣) حديث ابن عباس « ثلاث من لم تكن فيه واحدة منهن فلا تمتدوا بشئ من عمله » أخرجه أبو نعيم فى كتاب الإيجاز بإسناد ضعيف والطبرانى فى حديث أم سلمة بإسنادين وقد تقدم فى آداب الصلحة (٤) حديث « إذا جمع الخلائق نادى مناد أين أهل الفضل ؟ فيقوم ناس وهم يسير فينطلقون سراعا إلى الجنة فيستلقون الملائكة فيقولون لهم إنازا كم سراعاً إلى الجنة فيقولون نحن أهل الفضل ، فيقولون لهم ما كان فضلكم ؟ فيقولون كما إذا ظللنا صبرنا وإذا أسيء إلينا عفونا وإذا جهل علينا حملنا . فيقال لهم ادخلوا الجنة فقم أجراً العاملين » أخرجه البيهقي فى شعب الإيمان من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال البيهقي فى إسناده ضعف .

إنه قد وقع بين قوم، نازعة في أمر، وإلى أريد أن أتركه فأخشي أن يقال ل: إن تركه له ذل، فقال جعفر: إنما الدليل الظالم. وقال الخليل بن أحمد: كان يقال من أساء فأحسن إليه فقد جعل له ساجر من قلبه يردعه عن مثل إساءته. وقال الأحف بن قيس: لست بحليم ولكنني أنعم. وقال وهب بن منبه: من يرحم يرحم ومن يهشم يهشم، ومن يهمل يهمل، ومن يعجل يخطئ، ومن يحرص على الشر لا يهمل، ومن لا يدع المراء يشتم، ومن لا يكره الشر يأثم، ومن يكره الشر يهشم، ومن يتبع وصية الله يحفظ، ومن يخذل الله يأمن، ومن يتول الله يمنع ومن لا يسأل الله يفقر، ومن يأمن مكر الله يخذل، ومن يستمن بالله يظفر. وقال رجل لمالك بن دينار: بلغني أنك ذكرتني يسوء، قال: أنت إذن أكرم على من نفسي إني إذا فعلت ذلك أهديت لك حسنا. وقال بعض العلماء الحلم أرفع من العقل لأن الله تعالى قسمي به. وقال رجل لبعض الحكماء: والله لأسبئك سبا يدخل معك في قبرك، فقال: معك يدخل لامسى. وروى المسيح ابن مريم عليه الصلاة والسلام بقوم من اليهود فقالوا له شرا فقال لهم خيرا فقيل له: إنهم يقولون شرا وأنت تقول خيرا؟ فقال: كل ينفق بما عنده. وقال لقمان: ثلاثة لا يعرفون إلا عند ثلاثة: لا يعرف الحلم إلا عند الغضب، ولا الشجاع إلا عند الحرب، ولا الأخ إلا عند الحاجة إليه. ودخل على بعض الحكماء صديق له فقدم إليه طعاما فخرجت امرأة الحكماء وكانت سيئة الخلق - فرفعت المائدة وأقبلت على شتم الحكماء، فخرج الصديق مضطربا فتمسك بالحكيم وقال له تذكر يوم كنا في منزلنا نلعم فسقطت دجاجة على المائدة فأفست ماعليها فلم يغضب أحد منا؟ قال: نعم، قال فاحسب أن هذه مثل تلك الدجاجة! فصرى عن الرجل غضبه وانصرف وقال: صدق الحكماء، الحلم شفاء من كل ألم. وضرب رجل قدم حكيم فأوجعه فلم يغضب فقيل له في ذلك فقال: أخته مقام حجر تمزت به فذبحت الغضب. وقال محمود الرزاق:

سألوم نفسي الصبح عن كل مذنب وإن كثرت منه على الجرائم  
وما الناس إلا واحد من ثلاثة شريف ومشروف ومثل مقام  
فأما الذي فوق فأعرف قدره وأبيع فيه الحق والحق لازم  
وأما الذي دوني فلن قال صلت عن إجابته عرضي وإن لام لأثم  
وأما الذي مثل فلن زل أو مفا تفعلت إن الفضل بالحلم حاكم

بيان القدر الذي يجوز الانتصار والتشقي به من الكلام

اعلم أن كل ظلم صدر من شخص فلا يجوز مقابله بمثل، فلا يجوز مقابلة النية بالنية ولا مقابلة التجسس بالتجسس ولا السب بالسب، وكذلك سائر المصالح. وإنما القصاص والغرامة على قدر ما ورد الشرح به وقد فصلناه في الفقه. وأما السب فلا يقال بمثل إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن امرؤ عيرك بما فيك فلا تهره بما فيه (١)، وقاله المستبان ما قاله فهو على الباطن مالم يتعد المظلم. وقاله المستبان شيطانان يتهاوران (٢) وشتم رجل أبي بكر الصديق رضي الله عنه وهو ساكت فلما ابتدأ ينصر منه قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر: إنك كنت ساكتا لما شتمني فلما تكلمت قرت قال: لأن الملك كان يجب عنك فلما تكلمت ذهب الملك وجاء الشيطان فلم أكن لأجلس في مجلس فيه الشيطان (٣). وقال قوم: يجوز المقابلة بما لا كذب فيه، وإنما نبى رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث: «لن امرؤ عيرك بما فيك فلا تهره بما فيه» أخرجه أحمد من حديث جابر بن سلم. وقد تقدم (٢) حديث: «السيان شيطانان يتهاوران» تقدم (٣) حديث: «شتم رجل أبي بكر رضي الله عنه وهو ساكت فلما ابتدأ ينصر منه قام صلى الله عليه وسلم». الحديث، أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة متصلا ومسللا قال البخاري المرسل أصح.

عن مقابلة التميم بمثله نهي تنزيهه ، والأفضل تركه ولكنه لا يصح به . والذي يرخص فيه أن تقول : من أنت ؟ وهل أنت إلا من بني فلان ؟ كما قال سعد لابن مسعود : وهل أنت إلا من بني هذيل ؟ وقال ابن مسعود : وهل أنت إلا من بني أمية ؟ ومثل قوله : يا أحمق ، قال مطرف : كل الناس أحمق فيما بينه وبينه إلا أن بعض الناس أقل حافة من بعض . وقال ابن عمر في حديث طويل : حتى ترى الناس كلهم حمقى في ذات الله تعالى (١) وكذلك قوله يا جاهل ، إذ ما من أحد إلا وفيه جهل ؛ فقد آذاه بما ليس بكذب . وكذلك قوله ياسي الخلق ، يا صفيق الوجه يا لئلا للإعراض ، وكان ذلك فيه . وكذلك قوله : لو كان فيك حياة لما تسكمت ، وما أحرك في عيني بما فعلت ، وأخراك الله وانتقم منك .

فأما النية والكذب وسب الرايين حرام بالاتفاق ، لما روى أنه كان بين خالد بن الوليد وسعد بن كلاب ، فذكر رجل خالدا عند سعد ، فقال سعد : مه إن ما بيننا لم يبلغ ديننا . يعني أن يأثم بعضنا في بعض ، فلم يسمع السوء فكيف يجوز له أن يقوله ؟

والدليل على جواز ما ليس بكذب ولا حرام كالنسبة إلى الزنا والفحش والسب : ما روى عائشة رضي الله عنها أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أرسلن إليه فاطمة ، فجاءت فقالت : يا رسول الله أرسلني إليك أزواجك يسألك العدل في ابنة أبي فحافة ، والتي صلى الله عليه وسلم نأثم ، فقال : يا بنية أتحبين ما أحب ؟ قالت : نعم ، قال : فأحي هذه ، فرجعت إليهن فأخبرتهن بذلك فقلن : ما أغضبت عنا شيئا ؛ فأرسلن زينب بنت جحش ، قالت : وهي التي كانت تسميني في الحب فجاءت فقالت : بنت أبي بكر وبنت أبي بكر ، فما زالت تذكرني وأنا ساكتة أنتظر أن يأذن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجواب فأذن لي ، فسببتها حتى جف لساني فقال النبي صلى الله عليه وسلم : كلا إنها ابنة أبي بكر (٢) ، يعني أنك لا تضاديهما في الكلام قط وقولها : سببتها ، ليس المراد به الفحش بل هو الجواب عن كلامها بالحق ومقابلتها بالصدق . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : المستبان ما قالوا فعلى البادئ منها حتى يمتدئ المظالم (٣) ، فأنبت للمظالم انتصار إلى أن يمتدئ . فهذا التدبر هو الذي يأجوه لا وهو رخصة في الإيذاء جزاء على إيذائه السابق . ولا يبعد الرخصة في هذا التدبر ولكن الأفضل تركه فإنه يحرم إلى ماوراءه ولا يمكن الانتصار على قدر الحق فيه ، والسكوت عن أصل الجواب لعله أيسر من الشروع في الجواب والوقوف على حد الشرع فيه ، ولكن من الناس من لا يقدر على ضبط نفسه في فورة الغضب ولكن يعود سرياً ، ومنهم من يكف نفسه في الابتداء ولكن يعقد على الدوام . والناس في الغضب أربعة : فبعضهم كالحلفاء مربع الوقود سريع الخود ، وبعضهم كالغضا بطيء الوقود بطيء الخود وبعضهم بطيء الوقود سريع الخود وهو الأعداء ما يمتدئ إلى فتور الحمية والغيرة ، وبعضهم سريع الوقود بطيء الخود وهذا هو شرم . وفي الخبر : المؤمن سريع الغضب سريع الرضى فهذا بتلك (٤) ، وقال الشافعي رحمه الله : من استغضب فلم يغضب فهو حار ومن استرضى فلم يرض فهو شيطان . وقد قال أبو سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا إن بني آدم خلقوا على طبقات شتى فمنهم بطيء الغضب سريع الرضى ، ومنهم سريع الغضب سريع الرضى ؛ فتلك بتلك ، ومنهم سريع الغضب بطيء الرضى ، ألا وإن خيرهم البطيء الغضب السريع الرضى وشرهم السريع الغضب البطيء الرضى (٥) ، ولما كان الغضب يبيح ويؤثر في كل إنسان وجب على السلطان أن لا يعاقب

(١) حديث ابن عمر في حديث طويل ، حتى ترى الناس كأنهم حمقى في ذات الله حتى في زوجك ، تقدم في العلم (٢) حديث عائشة إن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أرسلن فاطمة فقالت : يا رسول الله أرسلني أزواجك يسألك العدل في ابنة أبي فحافة . الحديث ، ورواه مسلم (٣) حديث : المستبان ما قالوا فعلى البادئ ... الحديث ، ورواه مسلم وقد تقدم (٤) حديث : المؤمن سريع الغضب سريع الرضى ، تقدم (٥) حديث ابن سعيد الخدري : ألا إن بني آدم خلقوا على طبقات ... الحديث ، تقدم

أحدا في حال غضبه ، لأنه ربما يمتدى الواجب ، ولأنه ربما يكون متقيظا عليه فيكون متشفيًا لتبطله من رعا نفسه من ألم الغيظ ، فيكون صاحبه حظه نفسه ، فيلجئ أن يكون انتقامه وانتصاره تعالى لآلئسه . ورأى عمر رضي الله عنه سكران فأراد أن يأخذه ويحرره فقتله السكران فرجع عمر ، فقيل له : يا أمير المؤمنين لما شئتك تركته ؟ قال : لأنه أغضبني ولو عزرت لكان ذلك لغضي نفسي ، ولم أحب أن أضرب مسلما حمية نفسي . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله لرجل أغضبه : لولا أنك أغضبني لما قيتك .

### القول في معنى الحقد ونتائجه وفضيلة العفو والرفق

اعلم أن الغضب إذا لم كنظمه لمجر عن التشنج في الحال رجوع إلى الباطن واحتقن فيه فصار قهدا ، ومعنى الحقد أن يلزم قلبه استئصاله والبغضة له والتفار عنه وأن يدوم ذلك ويبقى ، وقد قال صلى الله عليه وسلم له المؤمن ليس بمحقد (١) ، فالحقد ثمرة الغضب .

والحقد بشر ثمانية أمور (الاول) الحسد : وهو أن يملك الحقد على أن تمنى زوال النعمة عنه فتنتقم بنعمة إن أصابها وتسر بمصيبة إن زلت به ، وهذا من فعل المنافقين . وسياق ذمه إن شاء الله تعالى . (الثاني) أن تريد على إضمار الحسد في الباطن ، فقتلت بما أصاب من البلاد . (الثالث) أن تهجره وتصارمه وتقطع عنه وإن طلبك وأقبل عليك . (الرابع) وهو دونه أن تمرض عنه استصغاراً له . (الخامس) أن تسكلم فيه بما لا يجل من كذب وغيبة وإفشاء سر وهتك سر وغيره . (السادس) أن تحاكبه استهواء به وسخرية منه . (السابع) إيلأازه بالضرب وما يؤلم بدنه . (الثامن) أن تمنه حقته من قضاء دين أو صلة رحم أو رد مظلة . وكل ذلك حرام .

وأقل درجات الحقد أن يحتز من الآفات الثمانية المذكورة ولا يخرج بسبب الحقد إلى مانع من الله به ، ولكن تستكفله في الباطن ولا تنهى قلبك عن بغضه ، حتى تمتنع عما كنت تطوع به من البشاشة والرفق والمنة والقيام بمجاهاته والمجالسة معه على ذكر الله تعالى والمماونة على النعمة له ، أو بترك الذم له والثناء عليه أو التحريض على بره ومواساته . فهذا كله مما ينقص درجاتك في الدين ويحول بينك وبين فضل عظم ولواب جليل وإن كان لا يمتزك لمقاب الله .

ولما حلف أبو بكر رضي الله عنه أن لا ينفق على مسطح . وكان قريبه . لكونه تكلم في واقعة الإفك نزل قوله تعالى ( ولا يأئل أولوا الفضل منكم ) إلى قوله ( ألا تحبون أن يغفر الله لكم ) فقال أبو بكر : نعم تحب ذلك . وعاد إلى الإنفاق عليه (٢) .

والأول أن يئق على ما كان عليه ، فإن أمكنه أن يزيد في الإحسان بمجاهدة النفس وإرداعا للشيطان فذلك مقام الصديقين وهو من فضائل أعمال المؤمنين . فللمحقد ثلاثة أحوال عند القدرة . (أحدها) أن يستوفي حقه الذي يستحقه من غير زيادة أو نقصان وهو العدل . (الثاني) أن يحسن إليه بالعفو والصلة وذلك هو الفضل . (الثالث) أن يظلمه بما لا يستحقه وذلك هو الجور ، وهو اختيار الأراذل ، والثاني : هو اختيار الصديقين ، والأول : هو منتهى درجات الصالحين . ولذا ذكر الآن فضيلة العفو والإحسان .

### فضيلة العفو

(١) حديث « المؤمن ليس بمحقد » هدم في العلم (٢) حديث : لما حلف أبو بكر أن لا ينفق على مسطح نزل قوله تعالى ( ولا يأئل أولوا الفضل منكم ) الآية معنى عليه من حديث طائفة .

## فضيلة العفو والإحسان

اعلم أن معنى العفو أن يستحق حقا فيسقطه ويبرئ عنه من قصاص أو غرامة ، وهو غير الحلم وكظم الغيظ ؛  
فذلك أفرده . قال الله تعالى ( خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ) وقال الله تعالى ( وأن تمفروا  
أقرب للتقوى ) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاث والذى نفسى بيده لو كنت حلاقا لحلفت عليهن :  
ما تقص مال من صدقة فتصدقوا ، ولا عفا رجل عن مظالمه يبتئ بها وجه الله إلا زاده الله بها عزاً يوم القيامة ؛  
ولا فتح رجل على نفسه باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر <sup>(١)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم التواضع لا يزيد العبد  
إلا رفعة فتواضعوا برؤسكم الله ، والعفو لا يزيد العبد إلا عزاً فأعفوا بمرحكم الله ، والصدقة لا تزيد المال إلا كثرة  
فتصدقوا بمرحكم الله <sup>(٢)</sup> » وقالت عائشة رضى الله عنها : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم منتصرا من مظالمه  
ظلمها قط ما لم ينتهك من عارم الله ، فإذا انتهك من عارم الله شيء كان أشد هم في ذلك غضبا ، وما خير بين أمرين إلا  
اختر أيسرهما ما لم يكن إثما <sup>(٣)</sup> » وقال عقيب « لتبت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فابتدرته فأخذت يده  
أو بدري فأخذ يدي فقال « يا عبئة ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة : فصل من قطعك وتعلمى من  
حرملك وتمفروا عن ظلك <sup>(٤)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « قال موسى عليه السلام يارب أى عبادك أعز عليك ؟  
قال الذى إذا قدر عفا <sup>(٥)</sup> » وكذلك سئل أبو الدرداء عن أعز الناس قال الذى يعفو إذا قدر فأعفوا بمرحكم الله  
وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يشكو مظالمه فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يجلس وأراد أن يأخذ له  
بظلمته ، فقال له صلى الله عليه وسلم « إن الظالمين هم المفلحون يوم القيامة <sup>(٦)</sup> » فأبى أن يأخذها حين سمع الحديث ، وقالت  
عائشة رضى الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من دعا على من ظلمه فقد انتصر » وعن أنس قال : قال  
رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا بعث الله الخلائق يوم القيامة نادى مناد من تحت العرش ثلاثة أصوات : يا معشر المرءين إن  
الله قد عفا عنكم فليعب بعضكم ببعض <sup>(٧)</sup> » وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة طاف بالبيت  
وصلى ركعتين ثم أتى الكعبة فأخذ بمضادق الباب فقال « ما تقولون وما تظنون ؟ » فقالوا : نقول أخوان هم حليم رحيم  
- قالوا ذلك ثلاثا - فقال صلى الله عليه وسلم « أقول كما قال يوسف ( لا تثرب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم  
الراحمين ) »

(١) حديث « ثلاث والذى نفسى بيده أن كنت حلاقا لحلفت عليهن : ما تقص صدقة من صدقة ... الحديث » أخرجه الترمذى من  
حديث أبي كريمة الأثرى وسلم وأبو داود نحوه من حديث أبي هريرة (٢) حديث « التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة فتواضعوا  
برؤسكم الله » أخرجه الأصبهاني في الترغيب والترهيب وأبو منصور الديلمي في صنده القردوس من حديث أنس بن شد ضعيف  
(٣) حديث عائشة : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم منتصرا من مظالمه قط ... الحديث » أخرجه الترمذى في  
الدلائل وهو عند مسلم بلفظ آخر وقد تقدم (٤) حديث عقيب بن عامر « يا عبئة ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة  
تصل من قطعك ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا والطبراني في معارج الأئمة في مكارم الأخلاق والبيهقى في الشعب بإسناد ضعيف وقد تقدم  
(٥) حديث : قال موسى يارب أى عبادك أعز عليك ؟ قال الذى إذا قدر عفا : أخرجه الخرائطى في مكارم الأخلاق من حديث  
أبي هريرة وفيه إسناده (٦) حديث « إن الظالمين هم المفلحون يوم القيامة » وفي أوله قصة رواه ابن أبى الدنيا في كتاب العفو من  
رواية أبي صالح الحنفى رحمه الله (٧) حديث أنس : إذا بعث الله الخلائق يوم القيامة نادى مناد من تحت العرش ثلاثة  
أصوات : يا معشر المرءين إن الله قد عفا عنكم فليعب بعضكم ببعض : أخرجه أبو سعيد أحمد بن القباية نادى مناد من تحت العرش ثلاثة  
أسوات : يا معشر المرءين يوم القيامة : يا معشر المرءين إن الله تعالى يقول ما كان في قلبك لقد ومنته  
لكم وبهت التوبات فتواضعوا واحذروا الجنة برحمى : واستأنه ضعيف ودرواه الطبراني في الأوسط بإلفظ « نادى مناد يا أهل الجح  
نباركوا المظالم بفسقكم وتوابكم علي ، وفيه من حديث أبي داود » نادى مناد : يا أهل التوحيد ليضع بفسقكم عن بعض وعلى التواب »

الراحمين) (١) ، قال فخرجوا كأنما لنشروا من القبور فدخلوا في الإسلام . وعن سهيل بن عمرو قال : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وضع يديه على باب الكعبة والناس حوله فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، ثم قال : يا معشر قريش ما تقولون وما تفتنون ؟ ، قال : قلت يا رسول الله تقول خيراً ولظن خيراً أني كرم وابن عم رحيم وقد قدرت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أقول كما قال أخى يوسف ( لا أتريب عليكم اليوم يغفر الله لكم ) (٢) ، وعن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا وقف العباد نادى مناد ليقيم من أجره على الله فليدخل الجنة ، قيل ومن ذا الذي له على الله أجر ؟ قال : الماؤون عن الناس ، فيقوم كلنا وكذا ألفنا فيدخلونها بغير حساب (٣) ، وقال ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لا ينبغي لوالى أمر أن يؤتى بحد إلا أقامه والله عفو يحب العفو ثم قرأ ( ولیمفو وليصفوا ) الآية (٤) ، وقال جابر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثلاث من جاء بهن مع إيمان دخل من أى أبواب الجنة شاء وزوج من الحور العين حيث شاء : من أدى ديناً خفياً وقرأ في دبر كل صلاة ( قل هو الله أحد ) عشر مرات وعفا عن قاتله ، قال أبو بكر : أو إحداهن يا رسول الله قال : أو إحداهن (٥) .

الآثار : قال إبراهيم التيمي : إن الرجل ليلظني فأرحه . وهذا إحسان وراه العفو لأنه يشتغل قلبه بتمرضه لمعصية الله تعالى بالظلم وأنه يطالب يوم القيامة فلا يكون له جواب . وقال بعضهم : إذا أراد الله أن يتصف عبداً قبض له من ظلمه . ودخل رجل على عمر بن عبد العزيز رحمه الله فجعل يشكو إليه رجلاً ظلمه ويقع فيه فقال له عمر : إنك إن تلقى الله ومظلتك كما هي ، خير لك من أن تلقاه وقد اقتصعتها . وقال يزيد بن ميسرة : إن ظلمت تدعو على من ظلمك فإن الله تعالى يقول إن آخر يدعوك عليك بأنك ظلمت فلن شئت استجبت لك واجبتا عليك وإن شئت أخرتكم إلى يوم القيامة فيمسككم عفى . وقال مسلم بن يسار لرجل دعا على ظلمه : كل الظالم إلى ظلمه فإنه أسرع إليه من دعاكم عليه إلا أن يتدارككم بمثل وقن أن لا يفعل . وعن ابن عمر عن أبي بكر أنه قال : بلغنا أن الله تعالى يأمر منادياً يوم القيامة فينادى من كان له عند الله شيء فليقيم فيقوم أهل العفو ، فيكافئهم الله بما كان من عفوهم عن الناس . وعن هشام بن محمد قال أتى عثمان بن المنذر برجلين قد أذنب أحدهما ذنباً عظيماً فعفا عنه والآخر أذنب ذنباً خفيفاً فعاقبه وقال :

تمسك الملوك عن العظمى من الذنوب بفضلها

ولقد تصاقب في اليسير وليس ذاك لجهلها

إلا لمعرف حلها ونجاف شدة دخلها

وعن مبارك بن فضالة قال : وفد سوار بن عبد الله في وفد من أهل البصرة إلى أبي جعفر ، قال : فكنت صندقه إذا أتى برجل فأمر بقتله فقلت يقتل رجل من المسلمين وأنا حاضر ، فقلت يا أمير المؤمنين ألا أحدلك حديثاً سمعته

(١) حديث أبي هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نتج مكة طاف بالبيت وسلى ركعتين ثم أتى الكعبة فأخذ بضادى الباب فقال « ما تقولون ... الحديث » رواه ابن الجوزي في الوفاء من طريق ابن أبي الدنيا وفيه ضعف (٢) حديث سهيل بن عمرو : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وضع يده على باب الكعبة الحديث بنحو : لم أجده (٣) حديث أنس : إذا وقف العباد نادى مناد ليقيم من أجره على الله فليدخل الجنة ، قيل من ذا الذى أجره على الله ؟ قال : الماؤون عن الناس ... الحديث ، أخرجه الطبراني في معجم الأئمة وفيه الفضل بن يسار ولا يتابع على حديثه (٤) حديث ابن مسعود : لا ينبغي لوالى أمر أن يؤتى بحد إلا أقامه والله عفو يحب العفو . الحديث ، أخرجه أحمد والحاكم وصححه وتقدم في آداب العفة (٥) حديث جابر : ثلاث من جاء بهن مع إيمان دخل الجنة من أى أبواب الجنة شاء ... الحديث ، أخرجه الطبراني في الأوسط في الدعاء بسند ضعيف .

من الحسن ؟ قال : وما هو ؟ قلت سمعته يقول : إذا كان يوم القيامة جمع الله عز وجل الناس في صعيد واحد حيث يسمعون النداء ويفتد بهم البصر ، فيقوم مناد فينادي من له عند الله يد فليقم ، فلا يقوم إلا من عفا ، فقال : والله لقد سمعته من الحسن ؟ فقلت والله لسمعته منه ، فقال : خيلنا عنه . وقال معاوية : عليكم بالحلم والاحتياط حتى تمتصكم الفرصة ، فإذا امتصتكم فليكن بالصفح والإفضال . وروى أن راهباً دخل على هشام بن عبد الملك فقال للراهب : أرايت ذا القرنين أكان نبياً ؟ فقال : لا ، ولكنه إنما أعطى ما أعطى بأربع خصال كن فيه : كان إذا قدر عفا ، وإذا وعد وفى ، وإذا حدث صدق ، ولا يجمع شغل اليوم لند . وقال بعضهم : ليس الحليم من ظلم لحلم . حتى إذا قدر انتقم ، ولكن الحليم من ظلم فحلم حتى إذا قدر عفا . وقال زياد : القدرة تذهب الحفيظة بعنى الحقد والغضب وأتى هشام برجل بلته عنه أمر فلما أقيم بين يديه جعل يتكلم بحجته فقال له هشام : وتتكلم أيضا ؟ فقال الرجل : يا أمير المؤمنين قال الله عز وجل ﴿ يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها ﴾ أفنجد الله تعالى ولا تتكلم بين يديك كلاما ؟ قال هشام : بلى ويحك تكلم . وروى أن سارقاً دخل خباء عمار بن ياسر يصفين فقيل له اقضه فإنه من أعدائنا ، فقال بل أستر عليه لعل الله يستر على يوم القيامة . وجلس ابن مسعود في السوق يبتاع طعاماً فأتبعه ثم طلب الدرهم وكانت في عمامته فوجدها قد حلت فقال لقد جلست ولها لمسى ، فجمعوا يدعون على من أخذها ويقولون : اللهم أقطع يد السارق الذى أخذها اللهم افعل به كذا ، فقال عبد الله : اللهم إن كان حله على أخذها حاجة فبارك له فيها وإن كان جملة جرارة على الذنب فأجمله آخر ذنوبه . وقال الفضيل : ما رأيت أزهده من رجل من أهل خراسان جلس إلى المسجد الحرام ثم قام ليطوف فسرت دنائره كانت معه لجلل بيكي فقلت أعل الدنانير تبكي ؟ فقال : لا ، ولكن مثلتى ولما بين يدي الله عز وجل فأشرف عتلى على إدحاض حجته فبكأى رحمة له ؟ وقال مالك بن دينار : أينما منزل الحكم بن أيوب ليلا وهو على البصرة أمير . وجاء الحسن وهو خائف فدخلنا معه عليه فاكنا مع الحسن إلا بمنزلة الفراريج ، فذكر الحسن قصة يوسف عليه السلام وما صنع به إخوته من نيهم وإياه وطرحهم له في الجب فقال : يا هؤلاء أعام وأحزنوا أباهم ، وذكر ما لقي من كيد النساء ومن الحبس ثم قال : أيها الأمير ماذا صنع الله به ؟ أذاه منهم ورفع ذكره وأعلى كلمته وجمله على خزائن الأرض ، فإذا صنع حين أكل له أمره وجمع له أهله ؟ ( قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ) يمرض للحكم بالعفوعن أصحابه . قال الحكم فأنأ أقول لا تثريب عليكم اليوم ولو لم أجد إلا ثوبى هذا لوأريتكم تحتة . وكتب ابن المقفع إلى صديق له يسأله العفو عن بعض إخوانه : فلان هارب من زلت إلى عفوك لأذن منك بك . واعلم أنه لن يرد أذا الذنب عطا إلا أزداد العفو فضلا . وأتى عبد الملك بن مروان بأسارى ابن الأشعث فقال لرجاء بن حوثة . ما ترى ؟ قال إن الله تعالى قد أعطاك ما تحب من الظفر فأعط الله ما يحب من العفو ففعا عنهم . وروى أن زيادا أخذ رجلا من الخوارج فأملت منه فأخذ أعا له فقال له . إن جئت بأخيك وإلا حريت عتلك ، فقال . أرايت إن جئت بك بكتاب من أمير المؤمنين نخل سليل ؟ قال نعم قال فأنأ آتيك بكتاب من العزيز الحكيم وأقيم عليه شاهد من إبراهيم وموسى ثم تلا ﴿ ألم ينبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذى وفى أن لا تزد وزرة وذر أخرى ﴾ فقال زياد . خلوا سبيله ، هذا رجل قد لبثن حجته ، وقيل مكتوب في الإنجيل . من استغفر لمن ظله فقد هزم الشيطان .

## فضيلة الرفق

اعلم أن الرفق عمود ويضاده العنف والحدة . والعنف نتيجة الغضب والفظاظة . والرفق واللين نتيجة حسن



الحق والسلامة ، وقد يكون سبب الحدة الغضب ، وقد يكون سبباً شديداً للحرص واستيلاءه بحيث يدهش عن التفكير ويمنع من التثبت فالرفق في الأمور ثمرة لا يشرها إلا حسن الحق ، ولا يحسن الحق إلا بضبط قوة الغضب وقوة الشهادة وحفظهما على حد الاعتدال . ولأجل هذا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم على الرفق وبالغ فيه فقال : يا عائشة إنه من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من خير الدنيا والآخرة ، ومن حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من خير الدنيا والآخرة <sup>(١)</sup> ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا أحب الله أهل بيت أدخل عليهم الرفق <sup>(٢)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم : إن الله يعطي على الرفق ما لا يعطي على الترقق وإذا أحب الله عبداً أعطاه الرفق وما من أهل بيت يحرمون الرفق إلا حرموا محبة الله تعالى <sup>(٣)</sup> وقالت عائشة رضي الله عنها قال النبي صلى الله عليه وسلم : إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف <sup>(٤)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم : يا عائشة ارفقي فإن الله إذا أراد بأهل بيت كرامة دلم على باب الرفق <sup>(٥)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم : من يحرم الرفق يحرم الخير كله <sup>(٦)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم : أيما وال ولا يفرق ولأن رفق الله تعالى به يوم القيامة <sup>(٧)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم : « تدرون من يحرم على النار يوم القيامة كل حين لين سهل قريب » <sup>(٨)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم : الرفق بين والفرق شوم <sup>(٩)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم : الثاني من الله والعجلة من الشيطان <sup>(١٠)</sup> ، وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رجل فقال يا رسول الله : إن الله قد بارك بجميع المسلمين فيك فأخصني منك بخير فقال : الحمد لله ، مرتين أو ثلاثاً ثم أقبل عليه فقال : هل أنت مستوص ، مرتين أو ثلاثاً قال نعم . قال : إن أردت أمراً تدبر عاقبته فإن كان رشداً فأمنه وإن كان سوى ذلك فاتته <sup>(١١)</sup> ، وعن عائشة رضي الله عنها : أنها كانت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر على بعير صعب فجعلت تصرفه يمينا وشمالاً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عائشة عليك بالرفق فإنه لا يدخل في شيء إلا رآه ولا يخرج من شيء إلا شأنه <sup>(١٢)</sup> .

الأخبار . بلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن جماعة من رعيته اشتكوا من عماله فأمرهم أن يوافوه ، فلما أتوه

## فضيلة الرفق

(١) حديث « يا عائشة إنه من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من خير الدنيا والآخرة ... الحديث » رواه أحمد والعليل في الضعفاء في ترجمة عبد الرحمن بن أبي بكر المديني وضمه من القاسم عن عائشة . وفي الصحيحين من حديثها « يا عائشة إن الله يحب الرفق في الأمور كله » (٢) حديث « إذا أحب الله أهل بيت أدخل عليهم الرفق » أخرجه أحمد بسند جيد والبيهقي في الشعب بسند ضيف من حديث عائشة (٣) حديث « إن الله يعطي على الرفق ما لا يعطي على الترقق » الحديث « أخرجه الطبراني في الكبير من حديث جرير بن أسد ضعيف (٤) حديث « إن الله رفيق يحب الرفق ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث عائشة (٥) حديث « يا عائشة فإن الله إذا أراد بأهل بيت كرامة دلم على باب الرفق » أخرجه أحمد من حديث عائشة وفيه انقطاع ولأبي داود « يا عائشة ارفقي » (٦) حديث « من يحرم الرفق يحرم الخير كله » أخرجه مسلم من حديث جرير دون قوله « كله » فهي عند أبي داود (٧) حديث « أيما وال ولا يفرق ورفق الله به يوم القيامة » أخرجه مسلم من حديث عائشة وفي حديث فيه « ومن ولي من أمر أمي شيئاً فرفق بهم فارفق به » (٨) حديث « تدرون على من تحرم النار على كل حين لين سهل قريب » أخرجه الترمذي من حديث ابن مسعود وتقدم في آداب السجدة (٩) حديث « الرقيق بين والفرق شوم » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن مسعود والبيهقي في الشعب من حديث عائشة وكلاماً ضعيف (١٠) حديث « الثاني من الله والعجلة من الشيطان » أخرجه أبو يعل من حديث أنس ورواه الترمذي وحسنه من حديث سهل بن سعد بقظ « والآية من الله » وقد تقدم (١١) حديث « أتد رجل فقال يا رسول الله إن الله قد بارك بجميع المسلمين فيك ... الحديث » وفيه « فإذا أردت أمراً تدبر عاقبته فإن كان رشداً فأمنه » . الحديث « أخرجه ابن المبارك في الزهد والرفق من حديث أبي جعفر هو النسي هبه الله بن مسعود القاضي ضيف جذا ولأبي نعيم في كتاب الإيجاز من رواية إسحاق بن إبراهيم عن أبيه من جلد « إذا سمعت بأمر فاجلس فتدبر عاقبته » ولستأندة ضيف .

(١٢) حديث عائشة « عليك بالرفق فإنه لا يدخل في شيء إلا رآه ولا يخرج من شيء إلا شأنه » الحديث « رواه مسلم

فامحمد الله واثى عليه ثم قال: أيا الناس أيتها الرعية إن لنا عليكم حقا النصيحة بالتيب والمعاونة على الخير، أيتها الرعاة إن الرعية عليكم حقا فاعلموا أنه لا شيء أحب إلى الله ولا أعز من حلم إمام ورفقه، ليس جهل أبغض إلى الله ولا أغم من جهل إمام وخرجه، واعلموا أنه من يأخذ بالعافية فيمن بين ظهره يرزق العافية بمن هو دونه .  
وقال وهب بن منبه : الرفق تقي الحلم .

وفي الخبر موقوفاً ومرفوعاً : العلم خليل المؤمن والحلم وزيره والمقل دليله والعمل قيمه والرفق والده واللين أخوه والصبر أمير جنوده <sup>(١)</sup> . وقال بعضهم : ما أحسن الإيمان برفقه العلم وما أحسن العلم برفقه العمل وما أحسن العمل برفقه الرفق وما أضعف شيء إلى شيء مثل حلم إلى علم . وقال عمرو بن العاص لابنه عبد الله . ما للرفق ؟ قال : تكون ذا أناة فتلاين الولاة . قال فما الخرق ؟ قال : معاذة إمامك ومناوأة من يقدر على ضررك . وقال سفيان لأصحابه : تدرون ما للرفق ؟ قالوا : قل يا أبا محمد ، قال : أن تضع الأمور من مواضعها : الشدة في موضعها واللين في موضعه والسيوف في موضعه والسوط في موضعه ؛ وهذه إشارة إلى أنه لا بد من مزج العظاظة باللين والفظاظة بالرفق كما قيل .

ووضع الندى في موضع السيف بالسلا مضر كوضع السيف في موضع السدى  
فالمحمود وسط بين العنف واللين كما في سائر الأخلاق ، ولكن لما كانت الطباع إلى العنف والحدة أميل كانت الحاجة إلى ترغيمهم في جانب الرفق أكثر ، فذلك كثرة ثناء الشرع على جانب الرفق دون العنف ، وإن كان العنف في محله حسناً كما أن الرفق في محله حسن ، فإذا كان الواجب هو العنف فقد وافق الحق الهوى وهو الأذى الزبد بالذهب وهكذا . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : روى أن عمرو بن العاص كتب إلى معاوية يعاتبه في الثاني فكتب إليه معاوية . أما بعد ، فإن الفهم في الخير زيادة وشدة ، وإن الرشيد من رشد عن العجلة ، وإن الجانب من حاب عن الأناة ، وإن المتنبئ مصيب أو كاد أن يكون مصيباً ، فإن السجل خطي\* أو كاد أن يكون عظماء ، وأن من لا ينفعه الرفق يضربه الحرق ومن لا ينفعه التجارب لا يدرك المعالي . وعن أبي عوانة الأصبغ قال : ماتكم الناس بكلمة صعبة إلا وإلى جانبها كلمة ألين منها تجرئ بها . وقال أبو حزة الكوفي : لا تتخذ من الخدم إلا ما لا بد منه فإن مع كل إنسان شيطاناً . واعلم أنهم لا يعطونك بالشدة شيئاً إلا أعطوك باللين ما هو أفضل منه . وقال الحسن : المؤمن وقاف مثانٌ وليس كخاطب ليل . فهذا ثناء أهل العلم على الرفق وذلك لأنه محمود ومفيد في أكثر الأحوال وأغلب الأمور ، والحاجة إلى العنف قد تقع ولكن على الدور ، وإنما السكامل من يميز مواقع الرفق عن مواقع العنف فيعطى كل أمر حقه فإن كان قاصر البصيرة أو اشكل عليه حكم واقعة من الوقائع فليكن ميله إلى الرفق فإن النتيجة معه في الأكثر ؛

القول في ذم الحسد وفي حقيقته وأسبابه ومعالجته وغايه الواجب في إزالته

### بيان ذم الحسد

اعلم أن الحسد أيضاً من نتائج الحسد ، والحقد من نتائج النضب فهو فرع وفرع والنضب أصل أصله ثم إن الحسد من الفروع النسيمة مالا يكاد يحصى . وقد ورد في ذم الحسد خاصة أخبار كثيرة : قال رسول الله صلى الله

(١) حديث « العلم خليل المؤمن والحلم وزيره والمقل دليله والعمل قائمه والرفق والده » أخرجه أبو الشيخ في كتاب التواب وفضائل الأعمال من حديث أس بن سعيد ضعيف ورواه الضعفاء في مسند الذهاب من حديث أبي الفداء وأبي هريرة وكلام ضعيف .

عليه وسلم : الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب <sup>(١)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم في النهي عن الحسد وأسبابه ونمراته : لا تحاسدوا ولا تقاطعوا ولا تباعدوا ولا تباغضوا ، وكوتروا عباد الله إخوانا <sup>(٢)</sup> ، وقال أنس : كنا يوما جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من أهل الجنة ، قال : فطلع رجل من الأنصار ينفض لحيت من وضوئه قد علن لعل في يده الشال فسلم ، فلما كان الند قال صلى الله عليه وسلم مثل ذلك فطلع ذلك الرجل ، وقاله في اليوم الثالث فطلع ذلك الرجل ، فلما قام النبي صلى الله عليه وسلم تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص فقال له : إني لأجيت أرى فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثا فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تضي الثلاث فقلت ، فقال : نعم ، فبات عنده ثلاث ليال فلم يره يقوم من الليل شيئا غير أنه إذا اقلب على فراشه ذكر الله تعالى ، ولم يقم لصلاة الفجر ، قال : غير أني ما سمعت يقول إلا خيرا فلما مضت الثلاث وكدت أن أحقر عمله قالت : يا عبد الله لم يكن بيني وبين والدي غضب ولا حجرة ، ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كذا وكذا فأردت أن أعرف عمك فلم أرك تعمل عملا كثيرا فألذي بلغ بك ذلك ؟ فقال : ما هو إلا ما رأيت ، فلما وليت دعائي فقال : ما هو إلا ما رأيت غير أني لأجد على أحد من المسلمين في نفسي غشا ولا حسدا على خير أعطاه الله إياه ، قال عبد الله : فقلت له هي التي بلغت بك وهي التي لا نطق <sup>(٣)</sup> . وقال صلى الله عليه وسلم : ثلاث لا ينجو منهن أحد : الظن والطيرة والحسد ، وسأحدثكم بالخروج من ذلك : إذا ظننت فلا تحقق ، وإذا علمت فأماض ، وإذا حسدت فلا تبغ <sup>(٤)</sup> ، وفي رواية : ثلاثة لا ينجو منهن أحد وقيل من ينجو منهن ، فأعربت في هذه الرواية إمكان التجاة . وقال صلى الله عليه وسلم : ديب إليكم داء الأمم قلمكم الحسد والبغضاء ، والبغضة هي الحاكمة لاتأول حاكمة الشعر ولكن حاكمة الدين ، والذي نفس محمد بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحاسبوا ألا أنبئكم بما شئت ذلك لكم أقضوا السلام بينكم <sup>(٥)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم : كاد الفقر أن يكون كفرا وكاد الحسد أن يقلب القدر <sup>(٦)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم : إنه سيصيب أمي داء الأمم ، قالوا : وما داء الأمم ؟ قال : الأثر والبطر والتكاثر والتنافس في الدنيا والتباعد والتحاسد حتى يصحكون البني ثم المرح <sup>(٧)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم : لا تظهر الشهادة لاختيك فيعاقبه الله ويبتليك <sup>(٨)</sup> ، وروى أن موسى عليه السلام لم يعمل إلى ربه تعالى

#### القول في ذم الحسد

(١) حديث : الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة وابن ماجه من حديث أنس وقد تقدم (٢) حديث : لا تقاطعوا ولا تباغضوا ولا تباغضوا ، الحديث » ياتي عليه وقد تقدم . (٣) حديث أنس : كنا يوما جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من أهل الجنة .. الحديث بطوله وفيه : أن ذلك الرجل قال لأجد على أحد من المسلمين في نفسي غشا ولا حسدا على خير أعطاه الله إياه ، قال : فطلع رجل من الأنصار ينفض لحيت من وضوئه قد علن لعل في يده الشال فسلم ، فلما كان الند قال صلى الله عليه وسلم مثل ذلك فطلع ذلك الرجل ، وقاله في اليوم الثالث فطلع ذلك الرجل ، فلما قام النبي صلى الله عليه وسلم تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص فقال له : إني لأجيت أرى فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثا فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تضي الثلاث فقلت ، فقال : نعم ، فبات عنده ثلاث ليال فلم يره يقوم من الليل شيئا غير أنه إذا اقلب على فراشه ذكر الله تعالى ، ولم يقم لصلاة الفجر ، قال : غير أني ما سمعت يقول إلا خيرا فلما مضت الثلاث وكدت أن أحقر عمله قالت : يا عبد الله لم يكن بيني وبين والدي غضب ولا حجرة ، ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كذا وكذا فأردت أن أعرف عمك فلم أرك تعمل عملا كثيرا فألذي بلغ بك ذلك ؟ فقال : ما هو إلا ما رأيت ، فلما وليت دعائي فقال : ما هو إلا ما رأيت غير أني لأجد على أحد من المسلمين في نفسي غشا ولا حسدا على خير أعطاه الله إياه ، قال عبد الله : فقلت له هي التي بلغت بك وهي التي لا نطق <sup>(٣)</sup> . وقال صلى الله عليه وسلم : ثلاث لا ينجو منهن أحد : الظن والطيرة والحسد ، وسأحدثكم بالخروج من ذلك : إذا ظننت فلا تحقق ، وإذا علمت فأماض ، وإذا حسدت فلا تبغ <sup>(٤)</sup> ، وفي رواية : ثلاثة لا ينجو منهن أحد وقيل من ينجو منهن ، فأعربت في هذه الرواية إمكان التجاة . وقال صلى الله عليه وسلم : ديب إليكم داء الأمم قلمكم الحسد والبغضاء ، والبغضة هي الحاكمة لاتأول حاكمة الشعر ولكن حاكمة الدين ، والذي نفس محمد بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحاسبوا ألا أنبئكم بما شئت ذلك لكم أقضوا السلام بينكم <sup>(٥)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم : كاد الفقر أن يكون كفرا وكاد الحسد أن يقلب القدر <sup>(٦)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم : إنه سيصيب أمي داء الأمم ، قالوا : وما داء الأمم ؟ قال : الأثر والبطر والتكاثر والتنافس في الدنيا والتباعد والتحاسد حتى يصحكون البني ثم المرح <sup>(٧)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم : لا تظهر الشهادة لاختيك فيعاقبه الله ويبتليك <sup>(٨)</sup> ، وروى أن موسى عليه السلام لم يعمل إلى ربه تعالى

رأى في ظل العرش رجلا فخطه بكانه فقال : إن هذا لكريم على ربه ، فسأل ربه تعالى أن يغيره باسمه فلم يغيره وقال أحدكم من علم بثلاث : كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله ، وكان لا يبق والده ، ولا يمشي بالقيمة . وقال زكريا عليه السلام : قال الله تعالى : الحاسد عدو لنعمة مسخط لقضاي غير ارض يسمي التي قسمت بين عبادي . وقال صلى الله عليه وسلم : أخوف ما أخاف على أمتي أن يكثر فيهم المال فيتحاسدون ويقتلون <sup>(١)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم : استعينوا على قضاء الحاجات بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود <sup>(٢)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم : إن نعم الله أعداء ، فقيل ومن هم ؟ فقال : الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله <sup>(٣)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم : ستة يدخلون النار قبل الحساب ستة ، قيل يا رسول الله من هم ؟ قال : الأبرار بالجور والعرب بالمصيبة والدماعين بالتمسك والتجار بالخيانة ، وأهل الرستاق بالجهالة والدماء بالحسد <sup>(٤)</sup> .

الآثار ، قال بعض السلف : أول خطيئة هي الحسد حسد إبليس آدم عليه السلام على ربه . فإني أن يسجد له لحمله على الحسد والمصيبة . وحكى أن نوح بن عبادة دخل على الفضل بن المهلب وكان يومئذ على واسط فقال : إني أريد أن أعظك بشئ فقال : وما هو ؟ قال : إياك والكبر فإنه أول ذنب عصي الله به ، ثم قرأ ﴿ ولذنا للبلاد الكه امجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس ﴾ الآية ، وإياك والحرص فإنه أخرج آدم من الجنة أمكنه الله سبحانه من جنة عرضها السموات والأرض يأكل منها إلا ثمرة واحدة نهاه عنها فأكل منها فأخرجه الله تعالى منها ، ثم قرأ ﴿ امطروا منها ﴾ إلى آخر الآية وإياك والحسد فإنه قتل ابن آدم أخاه حين حسده ثم قرأ ﴿ واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق ﴾ ، الآيات وإذا ذكر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمسك ، وإذا ذكر القدر فاسكت ، وإذا ذكرت التجوم فاسكت . وقال بكر بن عبد الله : كان رجل ينشئ بعض الملوك فيقوم بحذاء الملك فيقول : أحسن إلى المحسن بإحسانه فإن المحسن سيكتفيك إيساره ، لحسده رجل على ذلك المقام والكلام فسمي به إلى الملك فقال : إن هذا الذي يقوم بحذاء الملك ويقول ما يقول زعم أن الملك أجفر ، فقال له الملك : وكيف يصح ذلك عندي ؟ قال : تدعو لإيالك فإنه إذا دنا منك وضع يده على أذنيه لئلا يسمع ربح البخر ، فقال له : انصرف حتى أنظر ، فخرج من عند الملك فدعا الرجل إلى منزله فأطعمه طعاما فيه ثوم ثم فرج الرجل من عنده وقام بحذاء الملك على عادته فقال : أحسن إلى المحسن بإحسانه فإن المحسن سيكتفيك إيساره ، فقال له الملك : أذن متى فدنا منه فوضع يده على فيه مخافة أن يشم الملك منه رائحة الثوم ، فقال الملك في نفسه : ما أرى فلانا إلا قد صدق ؟ قال : وكان الملك لا يكتب بخطه إلا بمخاطرة أو صلة فكتب له كتابا بخطه إلى عامل من عماله : إذا أتاك حامل كتابي هذا فاذبحه وألحقه وأحش جلد به وبناو ابنته إلى فأخذ الكتاب وخرج فلقية الرجل الذي سمى به فقال : ما هذا الكتاب قال خط الملك لي بصلة ، فقال : به لي !

(١) حديث « أخوف ما أخاف على أمتي أن يكثر لهم المال فيتحاسدون ويقتلون » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الحسد من حديث أبي حاتم الأشعري وفيه ثابت بن أبي ثابت جله أبو حاتم وفي الصحيحين من حديث أبي سعيدة بن عاصم عابدين بن مدي ما يفتح عليكم من زمرة الدنيا وزينتها . ولها من حديث عمرو بن موف البرد « والله ما تنظر أخفى عليكم ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا . الحديث » . ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو « إذا فتنك عليك فارس والروم . الحديث » وفيه يتفاضلون ثم يتحاسدون ثم يتدابرون الحديث . ولأحمد والبخاري من حديث عمر « لا تفتح الدنيا على أحد إلا أن الله يذهب الدنيا والنفساء إلى يوم القيمة » (٢) حديث « استعينوا على قضاء الحاجات بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود » أخرجه ابن أبي الدنيا والطبراني من حديث معاذ بن عبد شبيب (٣) حديث « إن نعم الله أعداء » قيل ومن أولئك ؟ قاله الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله . أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس « إن لأهل النعم حساداً فاحذروهم » (٤) حديث « ستة يدخلون النار قبل الحساب ستة » قيل يا رسول الله ومن هم ؟ قال « الأبرار بالجور ... الحديث » وفيه « والدماء بالحسد » أخرجه أبو منصور الدبسي من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

فقال : هو لك ، فأخذه ومعنى به إلى العامل : فقال العامل : في كتابك أن أذهبك وأسلخك ، قال : إن الكتاب ليس هو لي فآله الله في أمري حتى تراجع الملك ؟ فقال : ليس لكتاب الملك مراجمة ، فذهب وسلخه وحشا جلده تبا وبعت به ثم عاد الرجل إلى الملك كعادته وقال مثل قوله : فعجب الملك وقال : ما فعل الكتاب ؟ فقال : لقيني فلان فاستوبه مني فوهبته له ، قال له الملك : إنه ذكر لي أنك تزعم أنني أبخر ، قال : ما قلت ذلك ؟ قال : فلم وضعت يدك على فيك ؟ قال : لأنه أطلعني طعاما فيه ثوم ففكرت أن تشمه ، قال : صدقت أرجع إلى مكانك فقد كفى المسىء لِسَادَتِهِ . وقال ابن سيرين رحمه الله : ما حدثت أحدا على شيء من أمر الدنيا لأنه إن كان من أهل الجنة فكيف أحسده على الدنيا وهي حفيرة في الجنة ؟ وإن كان من أهل النار فكيف أحسده على أمر الدنيا وهو يصير إلى النار ؟ وقال رجل للحسن : هل يحسد المؤمن ؟ قال : ما أنساك بنى يعقوب ؟ نعم ، ولكن غبه في صدرك فإنه لا يضرك ما لم تعد به يدا ولا لسانا . وقال أبو الهرداء : ما أكثر عبد ذكر الموت إلا قل فرحه وتل حسده أو قال معاوية : كل الناس أقدر على رضاه إلا حاسد نعمة فإنه لا يرضيه إلا زوالها ولذلك قيل :

كل العداوات قد ترجى إِمَاتَتِهَا إِلَّا عداوة من عاداك من حسد

وقال بعض الحكماء : الحسد جرح لا يبرأ وحسب الحسود ما يلقى . وقال أعرابي : مارأيت ظالما أشبه بظلوم من حاسد ، إنه يرى النعمة عليك نعمة عليه . وقال الحسن : يا ابن آدم لم تحسد أخاك ؟ فإن كان الذي أعطاه لكرامته عليه فلم تحسد من أكرمه الله ؟ وإن كان غير ذلك فلم تحسد من مصيره إلى النار ؟ وقال بعضهم : الحاسد لا ينال من المجلس إلا مذمه وذلا ، ولا ينال من الملائكة إلا لئمة وبغضا ، ولا ينال من الخلق إلا جوعا وغما ، ولا ينال عند النزاع إلا شدة وهولا ، ولا ينال عند الموقف إلا فضيحة ونكالا .

#### بيان حقيقة الحسد وحكمه وأقسامه ومراتبه

أعلم أنه لا حسد إلا على نعمة ، فإذا أنعم الله على أخيك بنعمة فلك فيها حالتان : إحداهما : أن تكره تلك النعمة وتحب زوالها ، وهذه الحالة تسمى حسدا . فالحسد حقد كراهة النعمة وحب زوالها عن اللتمع عليه . الحالة الثانية : أن لا تحب زوالها ولا تكره وجودها ودوامها ولكن تشتهي لنفسك مثلها . وهذه تسمى غبطة ، وقد تختص باسم المنافسة .

وقد تسمى المنافسة حسدا والحسد منافسة ووضع أحد اللفظين موضع الآخر ، ولا جرح في الأساى بعد فهم المعاني . وقد قال صلى الله عليه وسلم : **إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَنْبُطُ وَالْمُنافِقُ يَحْسَدُ (١)** . فأما الأول فهو حرام بكل حال ، إلا لئمة أشابها فاجر أو كافر وهو يستعين بها على تيسير الفتنة وإفساد ذات البين وإيذاء الخلق ، فلا يضرك كراهتك لها وعجبك لزوالها ، فإنك لا تحب زوالها من حيث هي نعمة بل من حيث هي آفة الفساد ، ولو أمنت فسادك لم يملك نعمته ، ويدل على تحريم الحسد الأخبار التي نقلناها وأن هذه الكراهة تسخط لقضاء الله في تفضيل بعض عباده على بعض ، وذلك لا عذر فيه ولا رخصة ، وأى معصية تريد على كراهتك

#### بيان حقيقة الحسد وحكمه

(١) حديث « المؤمن ينبط والمنافق يحسد » لم أجده له أصلا مرفوعا ، وإنما هو من قوله الفضيل بن عياض ، كذلك رواه ابن أبي الدنيا في دم الحسد .

راحة مسلم من غير أن يكون لك منه مضرة ؟ ولعل هذا أشار القرآن بقوله ﴿ إن تمسكتم حسنة نسوّم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها ﴾ وهذا الفرح شائعة الحسد والشائنة يتلازمان . وقال تعالى ﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم ﴾ فأخبر تعالى أن جهنم زوال نعمة الإيمان حسد . وقال عز وجل ﴿ ودوا لو تكفروا كما كفروا تكفرون سواء ﴾ وذكر الله تعالى حسد إخوة يوسف عليه السلام وعبر عما في قلوبهم بقوله تعالى ﴿ إذ قالوا ليوسف ليوسف أحب إلينا منا ونحن عصبة إني أنا ابن لبي ضلال مبين . اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم ﴾ فلما كرهوا حب أبيهم له وساءم ذلك وأحبوا زواله عنه غيروه عنه وقال تعالى ﴿ ولا يحدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ﴾ أي لا تضيق صدورهم به ولا يقتمون فأثي عليهم بعلم الحسد . وقال تعالى في معرض الإنكار ﴿ أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ﴾ وقال تعالى ﴿ كان الناس أمة واحدة ﴾ إلى قوله ﴿ إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بنيائهم ﴾ قيل في التفسير : حسداً . وقال تعالى ﴿ وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بنيائهم ﴾ فأمر الله العلم ليجمعهم ويؤلف بينهم على طاعته ، وأمرهم أن يتألفوا بالعلم فتحاسدوا واختلفوا إذ أراد كل واحد منهم أن ينفرد بالرياسة وقبول القول فرد بعضهم على بعض . قال ابن عباس : كانت اليهود قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وسلم إذا قالوا قوماً قالوا نساءك بالنبي الذي وعدتنا أن ترسله بالكتاب الذي تنزله إلا مانصرتنا <sup>(١)</sup> . فكانوا ينصرون . فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم من ولد إسماعيل عليه السلام عرفوه وكفروا به بعد معرفتهم إياه فقال تعالى ﴿ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ﴾ إلى قوله ﴿ أن يكفروا بما أنزل الله بنيا ﴾ أي حسداً . وقالت صفيه بنت حيي لبي صلى الله عليه وسلم : جاء أبي وعي من عندك يوماً ، فقال أبي لعبي : ما قول فيه ؟ قال : أقول إنه النبي الذي بشر به موسى ، قال : فأتري ؟ قال : أرى معاداته أيام الحياة <sup>(٢)</sup> فهذا حكم الحسد في التحريم .

وأما المنافسة : فليست بحرام بل هي إما واجبة وإما مندوبة وإما مباحة ، وقد يستعمل لفظ الحسد بدل المنافسة والمنافسة بدل الحسد ، قال تميم بن العباس : لما أراد هو والفضل أن يأتيا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فبأسألاه أن يؤمرهما على الصدقة . قال لعل حين قال له : لاذهبنا إليه فإنه لا يؤمر كما عليها . فقال له : ما هذا منك إلا نفاق والله لقد زرتك ابنته فافنسنا ذلك عليك <sup>(٣)</sup> أي هذا منك حسد وما حسدك على تزويجه إياك فاطمة .

والمنافسة في اللغة مشتقة من التنافس . والذي يدل على إباحة المنافسة قوله تعالى ﴿ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ وقال تعالى ﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم ﴾ وإنما المسابقة عند خوف القوت وهو الكاليدين يتسابقان إلى خدمة مولاهما ؛ إذ يخرج كل واحد أن يسبقه صاحبه فيحظى عند مولاه بمنزلة لا يحظى هو بها ،

(١) حديث ابن عباس : قوله كانت اليهود قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وسلم إذا قالوا قوماً قالوا : نساءك بالنبي الذي وعدتنا أن ترسله .. الحديث . في نزول قوله تعالى ﴿ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ﴾ أخرجه ابن إسحاق في السيرة فبأنه لما بعث عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : أن اليهود كانوا يستفتحون على الأوس والمخزج برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكره نحوه وهو منقطع . (٢) حديث : قالت صفيه بنت حيي لبي صلى الله عليه وسلم : جاء أبي وعي من عندك يوماً فقال له : ما قول فيه ؟ قال أقول إنه النبي الذي بعث به موسى .. الحديث . أخرجه ابن إسحاق في السيرة قال حديث أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال حديث عن صفيه فذكره نحوه وهو منقطع أيضاً .

(٣) حديث قال تميم بن العباس : لما أراد هو والفضل أن يأتيا النبي صلى الله عليه وسلم فبأسألاه أن يؤمرهما على الصدقة قال لعل ... الحديث . فكنا وقع للصف أنه ثم والفضل وأما ما نقلت والمطلب ابن ربيعة كما روى مسلم من حديث المطلب بن ربيعة ابن الحارث قال : اجتمع ربيعة بن الحارث والعباس بن عبد المطلب فقالا والله لو بعثنا هذين البلاءين قال لي والفضل بن عباس اتيا ليرسلوا الله صلى الله عليه وسلم فسلكاه ؟ فذكر الحديث .

فكيف وقد صرح رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك فقال ، لاحد إلا في اثنين : رجل آتاه الله مالا فسلطه على مملكته في الحق ، ورجل آتاه الله تعالى علما فهو يعمل به ويبله الناس <sup>(١)</sup> ، ثم فسر ذلك في حديث أبي كريمة الأتخاري فقال « مثل هذه الأمة مثل أربعة : رجل آتاه الله مالا وعلما فهو يعمل ببله في ماله ورجل آتاه الله علما ولم يؤته مالا فيقول رب لو أن لي مالا مثل مال فلان لكتبت أعمل فيه بمثل عمله فهما في الأجر سواء . وهذا منه حب لأن يكون له مثل ماله فيعمل ما يعمل من غير حب زوال النعمة عنه قال . ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علما فهو ينفقه في معاصي الله ، ورجل لم يؤته علما ولم يؤته مالا فيقول لو أن لي مثل مال فلان لكتبت أنفقه في مثل ما أنفقه فيه من المعاصي فهما في الوزر سواء <sup>(٢)</sup> ، فقدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من جهة تنمية للعصية لأن جهة حبه أن يكون له من النعمة مثل ماله . فإذا لا حرج على من ينبط غيره في نعمة ويشتهي لنفسه مثلها مهما لم يحب زوالها عنه ولم يكره دوامها له . نعم إن كانت تلك النعمة نعمة دينية واجبة كالإيمان والصلاة والزكاة فهذه المأنة واجبة ، وهو أن يجب أن يكون مثله لأنه إذا لم يكن يجب ذلك فيكون راضيا بالمصيبة وذلك حرام ، وإن كانت النعمة من الفضائل كالإنفاق الأموال في المكرم والصدقات فالمنافسة فيها مندوب إليها ، وإن كانت نعمة يتعم بها على وجه مباح فالمنافسة فيها مباحة ، وكل ذلك يرجع إلى إرادة مساواة والحق به في النعمة وليس فيها كراهة النعمة ، وكان تحت هذه النعمة أمران ، أحدهما : راحة المتعم عليه ، والآخر . ظهور نقصان غيره وتحلفه عنه وهو يكره أحد الربيين وهو تحلف نفسه وبحب مساواته له .

ولا حرج على من يكره تحلف نفسه ونقصانها في المباحات ، نعم ذلك ينقص من الفضائل ويتأفد الزهد والتوكل والرضا ويحبب عن المقامات الرفيعة ولكنه لا يوجب المصيان . وههنا دقيقة غامضة : وهو أنه إذا أيس من أن ينال مثل تلك النعمة وهو يكره تحلفه ونقصانه فلا محالة يجب زوال النقصان ، وإنما يزول نقصانه إما بأن ينال مثل ذلك أو بأن تزول نعمة المحسود ، فإذا انسأ أحد الطرفين فيكاد القلب لا ينفك عن شهوة الطرفين الآخر ، حتى إذا زالت النعمة عن المحسود كان ذلك أشقى عنده من دوامها إذ يزولها يزول تحلفه وتقدم غيره ، وهذا يكاد لا ينفك القلب عنه فإن كان بحيث لو أتى الأمر إليه ورد إلى اختياره لسمى في إزالة النعمة عنه فهو حسود حسدا مذموما ، وإن كان تدعه التقوى عن إزالة ذلك ، فيعني عما يجده في طبعه من الارتياح إلى زوال النعمة عن عسوده مهما كان كارها لذلك من نفسه بقله ودينه ، ولله المنى بقوله صلى الله عليه وسلم « ثلاث لا ينفك المؤمن عنهن : الحسد والظن والطيرة <sup>(٣)</sup> » ثم قال وله منن مخرج : « إذا حسدت فلا تبغ ، أي إن وجدت في قلبك شيئا فلا تعمل به . وبعد أن يكون الإنسان مريدا للحاق بأخيه في النعمة فيعجز عنها ثم ينفك عن ميل إلى زوال النعمة : إذ يجد لامحالة ترجيحها له على دوامها . فهذا الحد من المنافسة يراحم الحسد الحرام فينبغي أن يمتاط فيه لئلا يوضع الخطر ، وما من إنسان إلا وهو يرى فوق نفسه جماعة من معارفه وأقرانه يجب مساواتهم ، ويكاد ينزع ذلك إلى الحسد المحظور إن لم يكن قوى الإيمان وزين التقوى . ومهما كان محركة خوف التفاتت وظهور نقصانه عن غيره جره ذلك إلى الحسد المذموم وإلى ميل الطبع إلى زوال النعمة عن أخيه ، حتى يزول هو إلى مساواته إذ لم يقدر هو أن يرتقي إلى مساواته بإدراك النعمة ، وذلك لا رخصة فيه أصلا بل هو حرام سواء كان في مقاصد الدين أو مقاصد

(١) حديث « لاحد إلا في اثنين ... الحديث » متفق عليه من حديث ابن عمر وقد تقدم في العلم (٢) حديث أبي كريمة :

« مثل هذه الأمة مثل أربعة : ورجل آتاه الله مالا ... الحديث » رواه ابن ماجه والترمذي وقال حسن صحيح .

(٣) حديث « ثلاث لا ينفك المؤمن عنهن : الحسد والظن والطيرة ... الحديث » تقدم غير مرة .

الدنيا ، ولكن يعنى عنه في ذلك مالم يعمل به إن شاء الله تعالى ، وتكون كرامته لذلك من نفسه كفارة له . فهذه هي حقيقة الحسد وأحكامه .

وأما مراتبه فأربع ( الأولى ) أن يحب زوال النعمة عنه وإن كان ذلك لا ينتقل إليه وهذا غاية الحب . ( الثانية ) أن يحب زوال النعمة إليه لرغبته في تلك النعمة ، مثل رغبته في دار حسنة أو امرأة جميلة أو ولاية نافذة أو سعة مالها غيره وهو يجب أن تكون له ، ومطلوبه تلك النعمة لا زوالها عنه ، ومكروهه فقد النعمة لا تتم غيره بها . ( الثالثة ) أن لا يشتهي عينها لنفسه بل يشتهي مثلها ، فإن عجز عن مثلها أحب زوالها كيلا يظهر التفاوت بينهما . ( الرابعة ) أن يشتهي لنفسه مثلها فإن لم تحصل فلا يجب زوالها عنه .

وهذا الأخير هو المعفو عنه إن كان في الدنيا ، والمندوب إليه إن كان في الدين ، والثالثة فيها مذموم وغير مذموم ، والثانية أخف من الثالثة ، والأولى مذموم محض . وتسمية الرتبة حسداً فيه تجوز وتوسع ولكنه مذموم لقوله تعالى ( ولا تمننوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ) فتمنيه لمثل ذلك غير مذموم ، وأما تمنيه عين ذلك فهو مذموم .

### بيان أسباب الحسد والمنافسة

أما المنافسة فسيبها حب ما فيه المنافسة ، فإن كان ذلك أمراً دينياً فسيبها حب الله تعالى وحب طاعته ، وإن كان دينياً فسيبها حب مباحات الدنيا والتتميم فيها . وإنما نظرنا الآن في الحسد المذموم ومدخله كثيرة جداً ، ولكن يصغر جعلها سبعة أبواب : العداوة ، والكبر ، والتعجب ، والخوف من فوت المقاصد المحبوبة ، وحب الرياسة ، وخيب النفس وبخلها . فإنه مما يكره النعمة على غيره إما لأنه عدوه فلا يريد له الخير ، وهذا لا يختص بالأمثال بل يحسد الخسيس للملك بمعنى أنه يحب زوال نعمته لكونه مفضلاً له بسبب إسداده إليه ، أو لى من يجه . وإما أن يكون من حيث يعلم أنه يستكبر بالنعمة عليه وهو لا يطبق احتيال كبره وتفاخره لمرءة نفسه ، وهو المراد بالتمزز . وإما أن يكون في طبعه أن يستكبر على المحسود ويمتنع ذلك عليه لتعنت وهو المراد بالتكبر . وإما أن تكون النعمة عظيمة والمنصب عظيم فيتمتع من فوز مثله بمثل تلك النعمة وهو المراد بالتعجب . وإما أن يخاف من فوات مقاصده بسبب نعمته بأن يتوصل بها إلى مزاحمته في أغراضه . وإما أن يكون يحب الرياسة التي تنبئ على الاختصاص بنعمة لا يساوى فيها . وإما أن لا يكون بسبب من هذه الأسباب بل لحبب النفس وشغها بالخير لعباد الله تعالى . ولابد من شرح هذه الأسباب .

السبب الأول : العداوة والبغضاء ، وهذا أشد أسباب الحسد ، فإن من آذاه شخص بسبب من الأسباب وعائلته في غرض بوجه من الوجوه أبغضه قلبه وغضب عليه ورسخ في نفسه الحقد . والحد يقضي التشفي والانتقام ، فإن عجز البغض عن أن يتشفى بنفسه أحب أن يتشفى منه الزمان ، وربما يحيل ذلك على كرامة نفسه عند الله تعالى فلهذا أصابت عدوه بلية فرح بها وظن بها مكافأة له من جهة الله على بغضه وأنها لأجله ، ومهما أصابته نعمة ساءه ذلك لأنه حقد مراده ، وربما يحضر له أنه لا ينزلة له عند الله حيث لم يفتقم له من عدوه الذي آذاه بل أنعم عليه . وبالجملة فالحسد يارم البغض والعداوة ولا يفارقهما ، وإنما غاية التقى أن لا يبنى وأن يكره ذلك من نفسه ، فأما أن يبغض إنساناً ثم يستوى عنده مسرته ومساوئه ، فهذا غير ممكن ، وهذا مما وصف الله تعالى الكفار به أعنى الحسد بالعداوة إذ قال الله تعالى ( وإذا قرعكم قرعاً ظاهراً أو باخياً فاعلموا أن الله قد بينظكم إن



الله علم بذات الصدور. إن تمسك حنة نسوم ( الآية. وكذلك قال ( ودوا ما عنهم قد بدت الجفاه من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر ) والحسد بسبب البغض ربما يقضى إلى التنازع والمقاتل واستغراق العمر في إزالة الثغمة بالحيل والسعاية وهناك الستر وما جرى مجراه.

السبب الثاني : التعزُّز ؛ وهو أن يثقل عليه أن يترفع عليه غيره . فإذا أصاب بعض أمثاله ولاية أو علماً أو مالا خاف أن يتكبر عليه وهو لا يطبق تكبره ولا تسمح نفسه باحتيال صلفه وتفاخره عليه ، وليس من غرضه أن يتكبر بل غرضه أن يدفع كرهه ، فإنه قد رضى بمساواته مثلاً ، ولكن لا رضى بالترفع عليه .

السبب الثالث: الكبر؛ وهو أن يكون في طبعه أن يتكبر عليه ويستصغره ويستخدمه ويتوقع منه الاتياده والمتابعة في أغراضه، فلذا نال لعمدة خاف أن لا يحتمل تكبره ويرفع عن متابعتة، وأورعها يتشوق إلى مساواته الأولى أن يرتفع عليه فيعود متكبرا بعد أن كان متكبراً عليه. ومن التكبر والتعزز كان حشد أكثر الكفار لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قالوا: كيف يتقدم علينا غلام يقيم وكيف نطأئ رموسا؟ فقالوا: (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) <sup>(١)</sup> أي كان لا يشغل علينا أن نتواضع له ونعقبه إذا كان غلبا وقال تعالى: يصف قول فريش (أهؤلاء من الله عليهم من بيننا) كالاستحقار لهم والافتء منهم.

السبب الرابع : التسبب ، كما أخبر الله تعالى عن الأمم السالفة إذ قالوا ( ماأنتم إلا بشر مثنا ) ( وقالوا أنؤمن لبشر مثنا ) ( ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذا لخاسرون ) فتعجبوا من أن يفوز بربية الرسالة والوحي والقرب من الله تعالى بشر مثلهم لحسودهم ، وأحبوا زوال الثقة عنهم جزوا أن يفضل عليهم من هو مثلهم في الخلفة ، لاعتق قسده تكبر وطلب رياسة وتقدم عداوة أوسبب آخر من سائر الأسباب ، وقالوا امتحبن ( أبست الله بشرا رسولا ) وقالوا ( لولا أنزل علينا الملائكة ) وقال تعالى ( أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم ) الآية .

السبب الخامس : الخوف من فوت المقاصد ، وذلك يختص بمتراحين على مقصود واحد ، فإن كان واحد يحسد صاحبه في كل نعمة تكون عوناً له في الانفراد بمقصوده ، ومن هذا الجنس تحاسد الضرائف في الزحام على مقاصد الزوجية ، وتحاسد الإخوة في الزحام على نيل المنزلة في قلب الأيوين للتوصل به إلى مقاصد الكرامة والمال ، وكذلك تحاسد التليذين لاستاذ واحد على نيل المرتبة من قلب الأستاذ ، وتحاسد ندماء الملك وخوادمه في نيل المنزلة من قبله للتوصل به إلى المال والجاه ، وكذلك تحاسد الرعايا على نيل المنزلة واحدة إذا كان غرضها نيل المال بالتبذل عنهم ، وكذلك تحاسد العالمين المتراحين على طائفة من المتفقه معصرون ، إذ يطلب كل واحد منزلة في قلوبهم للتوصل بهم إلى أغراضه

السبب السادس : حب الرياضة وطلب الجاه لنفسه من غير توصل إلى مقصود . وذلك كالرجل الذي يريد أن يكون عديم النظير في فن من الفنون إذا غلب عليه حب الثناء واستغفزه الفرح بما يمدح به من أنه واحد الدهر

## بيان أسباب الحسد والمتاففة

(١) حديث: سبب نزول قوله تعالى (ولولا ذلك هذا القرآن على رجل من القرينين عظيم) ذكره ابن اسحاق في السيرة، وأبو نائل ذلك الوليد بن الخبيرة قال: يقول له عبد وأترك وأكثير لربى وسيدما يترك أبو مسعود عمرو بن عبد الرحمن سيد تليف شخص علماء القرينين، فأمر الله بها باني هذه الآية . ورواه أبو محمد بن أبي حاتم وابن عوف في السيرة من حديث ابن عباس إلا أنهما قالوا مسعود بن عمرو ، وفي رواية لأن مسعود حبيب بن عبد الرحمن وهو ضعيف .

وفريد العصر في فنه وأنه لا نظير له ، فإنه لو سمع بنظيره في أقصى العالم لساءه ذلك وأحب موته أو زوال النعمة عنه التي بها يشترك للآلة من شجاعة أو علم أو عبادة أو صناعة أو جمال أو ثروة أو غير ذلك مما يتفرد هو به ويفرح بسبب تفرده ، وليس السبب في هذا عداوة ولا تمز ولا تكبر على المحسود ولا خوف من فوات مقصود سوى محض الرياسة بدعوى الانفراد . وهذا وراء ما بين آحاد الناس من طلب الجاه والمزلة في قلوب الناس للتوصل إلى مقاصد سوى الرياسة . وقد كان علماء اليهود يتكبرون معرفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يؤمنون به خيفة من أن يعطل رياستهم واستبقاعهم مهما نسخ عليهم .

السبب السابع : خبث النفس وشيها بالخير لعباد الله تعالى ، فإنه تجد من لا يشتغل برياسة وتكبر ولا طلب مال إذا وصف عنده حسن حال عبد من عباد الله تعالى فيما أنتم الله به عليه يشق ذلك عليه ، وإذا وصف له اضطراب أمور الناس وإديارهم وفوات مقاصدهم وتنقص عيشهم فرح به ، فهو أبداً يحب الإديار لغيره ويبخل بنعمة الله على عباده كأنهم يأخذون ذلك من ملكه وخزائنه . ويقال البخيل من يبخل بماله نفسه والشحيح هو الذي يبخل بماله غيره ، فهذا يبخل بنعمة الله تعالى على عباده الذين ليس بينه وبينهم عداوة ولا رابطة ، هذا ليس له سبب ظاهر إلا خبث في النفس ورذالة في الطبع عليه وقمت الجيلة ، ومعالجته شديدة لأن الحسد الثابت بآثر الأسباب أسبابه عارضة بتصور زوالها فيقطع في إزالتها ، وهذا خبث في الجيلة لأن سبب عارض فتمسر لإزالته إذ يستحيل في العادة إزالته . فهذه هي أسباب الحسد وقد يجتمع بعض هذه الأسباب أو أكثرها أو جميعها في شخص واحد فيعظم فيه الحسد بذلك ، ويقوى قوة لا يقدر معها على الإخفاء والجمالة ، بل ينتكس حجاب الجمالة وتظهر العداوة بالمكاشفة . وأكثر المحادثات تجتمع فيها جملة من هذه الأسباب ، وقلنا يتجرد سبب واحد منها .

بيان السبب في كثرة الحسد بين الأمتال والأقربان والإخوة وبنى العم والأقارب

وتأكده وقلته في غيرهم وضعفه

إعلم أن الحسد إنما يكثر بين قوم تكثر بينهم الأسباب التي ذكرناها ، وإنما يقوى بين قوم تجتمع جملة من هذه الأسباب فيهم وتنتظر ، إذ الشخص الواحد يجوز أن يحسد لأنه قد يتمتع عن قبول التكبر ولأنه يتكبر ولأنه عفو وغير ذلك من الأسباب . وهذه الأسباب إنما تكثر بين أقوام تجمعهم روابط يجتمعون بسببها في مجالس المحاطبات ويتواردون على الأغراض ، فإذا خالف واحد منهم صاحبه في غرض من الأغراض نفر طبعه عنه وأبغضه وثبت الحقد في قلبه ، فمند ذلك يريد أن يستقره ويتكبر عليه ويكافئه على مخالفته لغرضه ، ويكره تمسكه من النعمة التي توصله إلى أغراضه وترادف جملة من هذه الأسباب ، إذ لارابطة بين شخصين في بلدين متباينتين فلا يكون بينهما محاسبة ، وكذلك في مجلتي ، نعم إذا تجاورا في مسكن أو سوق أو مدرسة أو مسجد تواردا على مقاصد تتنافس فيها أغراضهما ، فيثور من التنافس التنافر والتباغض ، ومنه تورقية أسباب الحسد ، ولذلك ترى العالم يحسد العالم دون العابد ، والعابد يحسد العابد دون العالم ، والتاجر يحسد التاجر ، بل الإسكافي يحسد الإسكاف ولا يحسد البزاز لا لسبب آخر سوى الاجتماع في الحرفة ، ومحسد الرجل أخاه وابن عمه أكثر مما يحسد الأجانب والمرأة تحسد حرتها وسرية زوجها أكثر مما تحسد أم الزوج وابنته . لأن مقصد البزاز غير مقصد الإسكاف فلا يتراحمون على المقاصد ، إذ مقصد البزاز الثروة ولا يحصلها إلا بكثرة الزبون ، ولما يتنازع فيه بزاز آخر ؛ إذ حريف البزاز لا يطيعه

الإسكاف بل البراز . ثم مزاحمة اليزاز المجاور له أكثر من مزاحمة البعيد عنه إلى طرف السوق ، فلا جرم يكون حسده للجار أكثر . وكذلك الشجاع يحسد الشجاع ولا يحسد العالم لأن مقصده أن يذكر بالشجاعة ويشتهر بها وينفرد بهذه الخصلة ، ولا يزاحمه العالم على هذا الغرض . وكذلك يحسد العالم ولا يحسد الشجاع . ثم حسد الواعظ للواعظ أكثر من حسده للفقير والطبيب ، لأن التزامح بينهما على مقصود واحد أخص . فأصل هذه المحاسدات العداوة ، وأصل العداوة التزامح بينهما على غرض واحد ، والغرض الواحد لا يجمع متباعين بل متناسبين ، فذلكه يكثر الحسد بينهما . نعم من اشتد حرصه على الجاه وأحب الصيت في جميع أطراف العالم بما هو فيه فإنه يحسد كل من هو في العالم وإن بعد عن يسامحه في الخصلة التي يتفاخر بها ، ومنشأ جميع ذلك حب الدنيا ، فإن الدنيا التي تضيق على المتزاحمين ؛ أما الآخرة فلا تضيق فيها ، وإنما مثال الآخرة نعمة العلم فلا جرم من يحب معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وملكوته وأنيابته وملكوته سمواته وأرضه لم يحسد غيره إذا عرف ذلك أيضاً ، لأن المعرفة لا تضيق على العارفين . بل المعلوم الواحد يعلمه ألف ألف عالم ويفرح بمعرفته ويلتذبه ، ولا تنقص لذته واحد بسبب غيره ، بل يحصل بكثرة العارفين زيادة الأناس وثمرة الاستفادة والإفادة . فذلك لا يكون بين علماء الدين محسدة لأن مقصدهم معرفة الله تعالى وهو بحر واسع لا تضيق فيه ، وغرضهم المنزلة عند الله ولا تضيق أيضاً ، فبما عند الله تعالى لأن أجل ما عند الله سبحانه من النعم لذاته قائمه وليس فيها عالة ومزاحمة ، ولا يضيق بعض الظاهرين على بعض بل يزيد الأناس بكثرتهم . نعم إذا قصد العلماء بالملم المال والجاه تحاسدوا لأن المال أعيان وأجسام وإذا قصدت في الواحد خلقت عنها يد الآخر ، ومعنى الجاه ملك القلوب ومهما امتلأ قلب شخص بتعظيم عالم انصرف عن تعظيم الآخر أو تنقص عنه لا محالة ؛ فيكون ذلك سبباً للحسدة ، وإذا امتلأ قلب بالفرح بمعرفة الله تعالى لم يمنع ذلك أن يمتلئ قلب غيره بها وأن يفرح بذلك . والفرق بين العلم والمال أن المال لا يمل في يد مالم يرتحل من اليد الأخرى والعلم في قلب العالم مستقر ويمل في قلب غيره بتعليمه من غير أن يرتحل من قلبه ، والمال أجسام وأعيان ولها نهاية فلو ملك الإنسان جميع ما في الأرض لم يبق بعده مال يتملكه غيره ، والعلم لا نهاية له ولا يتصور استيعابه ، فمن عود نفسه النكر في جلال الله وعظمته وملكوته صار ذلك أذ عنده من كل نعيم ، ولم يكن غنواؤه ولا مزاحما فيه ، فلا يكون في قلبه حسد لأحد من الخلق لأن غيره أيضاً لو عرف مثل معرفته لم ينقص من لذته بل زادت لذته بموانسته ، فتكون لذته هؤلاء في مطالبة عجائب الملوك على الدوام أعظم من لذته من ينظر إلى أشجار الجنة ويسايرها بالعين الظاهرة ، فإن نعيم المعارف وجنته معرفته التي هي صفة ذاته ، يأمن زوالها وهو أبداً يحيى ثمارها فهو بروحه وقلبه مفتد بفراحة عله وهي فاكهة غير مقطوعة ولا منوعة بل ضوؤها دائية ، فهو وإن غمض العين الظاهرة فروحه أبداً ترتفع في جنة عالية ورياض زاهرة ، فإن فرض كثرة في العارفين لم يكونوا متحاسدين بل كانوا كما قال فيهم رب العالمين ﴿ وزرعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين ﴾ فهذا عالم وهم بعد في الدنيا ، فإذا نظر بهم عند انكشاف النظار ومهادنة المحبوب في العبث ؟ فلأن لا يتصور أن يكون في الجنة محسدة ولا أن يكون بين أهل الدنيا في الجنة محسدة ، لأن الجنة لا مضايقة فيها ولا مزاحمة ، ولا تنال إلا بمعرفة الله تعالى التي لا مزاحمة فيها في الدنيا أيضاً ، فأهل الجنة بالضرورة برءاء من الحسد في الدنيا والآخرة جميعاً ، بل الحسد من صفات المبغدين عن سعة عيّن إلى مضيق بعيّن ، ولذلك سُم به الشيطان اللعين ، وذكر من صفاته أنه حسد آدم عليه السلام على ما خص به من الاجتهاد ، ولما دعى إلى السجود استكبر وأبى وتمرد وعصى . فقد عرفت أنه لا حسد إلا لثوابه على مقصود

يضيق عن الوفاء بالكل . ولهذا لا ترى الناس يتحاسدون على النظر إلى زينة السماء ويتحاسدون على رؤية البساتين .  
التي هي جزء يسير من جملة الأرض ، وكل الأرض لا وزن لها بالإضافة إلى السماء ، ولكن السماء لسة الانظار  
وافية بجميع الابصار فلم يكن فيها تراحم ولا تحاسد أصلا . فليكن إن كنت بصيراً وعلى نفسك مشفقاً أن تطلب  
نعمة لا زحمة فيها ولذة لا كدر لها ؟ ولا يوجد ذلك في الدنيا إلا في معرفة الله عز وجل ومعرفة صفاته وأفعاله ومعجائب  
ملكوت السموات والأرض . ولا ينال ذلك في الآخرة إلا بهذه المعرفة أيضاً . فإن كنت لا تشاق إلى معرفة  
الله تعالى ولم تجد لنفسها وفرعاً وأيك وضعت فيها رغبتك فأنت في ذلك معذور . إذ العنيد لا يشاق إلى لذة  
الواقع ، والصي لا يشاق إلى لذة الملك ، فإن هذه لذات يقتصص بأدراكها الرجال دون الصبيان والمختئين فكذلك  
لذة المعرفة يقتصص بأدراكها الرجال ( رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ) ولا يشاق إلى هذه اللذة غيرهم ،  
لأن الشوق بعد الفوق ، ومن لم يبق لم يعرف ، ومن لم يعرف لم يشقى ، ومن لم يشقى لم يطلب ، ومن لم يطلب  
لم يدرك ، ومن لم يدرك بقى مع المحرومين في أسفل السافلين ( ومن يش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو  
له قرين ) .

### بيان الدواء الذى ينقى مرض الحسد عن القلب

اعلم أن الحسد من الأمراض العظيمة لقلوب ، ولا تداوى أمراض القلوب إلا بالمعلم والعمل . والعلم النافع  
لمرض الحسد هو أن تعرف حقيقة أن الحسد ضرر عليك في الدنيا والدين ، وأنه لا ضرر فيه على المحسود في الدنيا  
والدين بل ينفع به فيما . ومهما عرفت هذا عن بصيرة ولم تكن عدو نفسك وصديق عدوك فأرقت الحسد لا عمالة .  
أما كونه ضرراً عليك في الدين فهو الله بالحسد محطت قضاء الله تعالى ، وكرهت نعمته التي قسمها بين عباده ،  
وعده الله أناته من ملكه بخفى حكمته ، فأستكرت ذلك واستبشمت . وهذه جناية على حقيقة التوحيد وقد في عين  
الإيمان ، ونأهيك بها جناية على الدين . وقد انضاف إلى ذلك أنه غششت رجلاً من المؤمنين وتركت نصيبته ،  
وفارقت أولياء الله وأنبياءه في جهنم الحشر لعباده تعالى ، وشاركت إبليس وسائر الكفار في محبتهم للوثنيين البلياء  
وزوال النعم . وهذه خبايا في القلب تأكل حسنات القلب كما تأكل النار الحطب ، وتمحوها كما يحو الليل النهار .  
وأما كونه ضرراً عليك في الدنيا فهو أنك تتألم بحسدك في الدنيا أو تمنع به ، ولا تزال في كد وغم إذ أعدائك  
لا يخليهم الله تعالى عن نعم يفيضها عليهم ، فلا تزال تمنع بكل نعمة تراها وتتألم بكل بلية تنصرف عنهم ، فتبقى  
مغموراً مغموراً متشعب القلب ضيق الصدر قد نزل بك ما يشتهي الأعداء لك وتستهيه لأعدائك ، فقد كنت تريد  
الحنة لعدوك فتجرت في الخيال محتلك وغمك نقدا ، ومع هذا فلا تزال النعمة عن المحسود بحسدك . ولو لم تكن  
تؤمن بالبعث والحساب لكان مقتضى الفطنة إن كنت عاقلاً أن تحذر من الحسد لما فيه من ألم القلب ومسامة مع  
عدم النفع ، فكيف وأنت عالم بما في الحسد من العذاب الشديد في الآخرة ؟ فما أعجب من العاقل كيف يتعرض  
لسخط الله تعالى من غير نفع يناله بل مع ضرر يحتمله وألم يقاسيه فيهلك دينه ودنياه من غير جدوى ولا فائدة وأما  
أنه لا ضرر على المحسود في دينه ودنياه فواضح لأن النعمة لا تزال عنه بحسدك ، بل ما قدره الله تعالى من إقبال  
ونعمة فلا بد أن يدوم إلى أجل غير معلوم قدره الله سبحانه . فلا حيلة في دفعه ، بل كل شيء عنده بمقدار ، وكل أجل  
كتاب . ولذلك شكنا من الأنبياء من امرأة ظالمة مستولية على الخلق فأوحى الله إليه : فز من قدامها حتى تنقضي  
أيامها أي ما قدرناه في الأول لا سبيل لك تغييره فأصبر حتى تنقضي المدة التي سبق القضاء بدارام إقبالها فيها . ومهما

لم تزل النعمة بالحسد لم يكن على المحسود ضرر في الدنيا ولا يكون عليه إثم في الآخرة ، ولعلك تقول ليت النعمة كانت تزول عن المحسود بحسدى . وهذا غاية الجهل فإنه بلائ تستبته أولا لنفسك ، فإنه أيضا لا تغل عن عدو يحسدك ، فلو كانت النعمة تزول بالحسد لم يبق لله تعالى عليك نعمة ولا على أحد من الخلق ولا نعمة الإيمان أيضا ، لأن الكفار يحسدون المؤمنين على الإيمان . قال الله تعالى ( ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم ) إذ ما يريد المحسود لا يكون . فعم هو يضل بإرادته الضلال للغيره فإن أراد الكفر كفر . فمن اشتبه أن تزول النعمة عن المحسود بالحسد فكأنما يريد أن يسلب نعمة الإيمان بحسد الكفار وكذا سائر النعم . وإن اشتبهت أن تزول النعمة عن الخلق بحسدك ولا تزول عنك بحسد غيرك فهذا غاية الجهل والغباء ، فإن كل واحد من حق الحساد أيضا يشتهى أن ينقص بهذه الخاصة ولست بأولى من غيرك ، فنعمة الله تعالى عليك في إن لم تزل النعمة بالحسد مما يجب عليك شكرها وأنت مجهول شكرها .

وأما أن المحسود ينتفع به في الدين والدنيا فواضح . أما منفعة في الدين : فهو أنه مظلوم من جهتك لاسيا إذا أغركك الحسد إلى القول والفعل بالنبيه والقدح فيه وهتك ستره وذكر مساويه ، فبهذه هذا يتهدي إليه ؛ أخطئك بذلك تهدي إليه حسناتك حتى تلقاه يوم القيامة مقلدا محروما عن النعمة كما حرمت في الدنيا عن النعمة ، فكأنك أرهت زوال النعمة عنه فلم تزل . نعم كان لله عليه نعمة إذ وفقك للחסنات ففعلتها إليه فأضفت إليه نعمة إلى نعمة وأضفت إلى نفسك شقاوة إلى شقاوة .

وأما منفعة في الدنيا فهو أن أم أغراض الخلق مباداة الأعداء وغهم وشقاوتهم وكوهم مبدئين مغمومين ، ولا عذاب أشد مما أنت فيه من ألم الحسد ، وغاية أمان أعدائك أن يكونوا في نعمة وأن تكون في غم وحسرة بسببهم وقد فعلت بنفسك ما هو مرادهم ، ولذلك لا يشتهى عدوك موتك بل يشتهى أن تطول حياتك ولكن في عذاب الحسد لتنتظر إلى نعمة الله عليه فيقطع قلبك حسدا . ولذلك قيل :

لامات أعداؤك بل خلدوا حتى يروا فيك الذي يكبد

لازلت محسودا على نعمة فلنما السكامل من يحسد

ففرح عدوك بضعك وحسدك أعظم من فرحه بنعمته ، ولو لم خلاصك من ألم الحسد وعذابه لكان ذلك أعظم مصيبة وبليه عنده ، فإنت فيا تلازمه من غم الحسد إلا كما يشتهيه عدوك ، فإذا تأملت هذا عرفت أنك عدو نفسك وصديق عدوك إذ تعاطيت ما ضررت به في الدنيا والآخرة وانتفع به عدوك في الدنيا والآخرة . وصرت مذموما عند الخالق والخالق شقيا في الحال والمآل ، ونعمة المحسود دائمة شئت أم أبيت باقية ، ثم لم تقتصر على تحصيل مراد عدوك حتى وصلت إلى إدغال أعظم سرور على إبليس الذي هو أعدى أعدائك ، لأنه لما رآك محروما من نعمة العلم والورع والجاه والمال الذي اختص به عدوك عنك عاف أن تحب ذلك له فتشاركه في الثواب بسبب المحبة ، لأن من أحب الخير للسليبي كان شريكا في الخير ، ومن فاته الحاق بدرجة الأكارب في الدنيا لم يفته ثواب الحب لهم مهما أحب ذلك ، غاف إبليس أن يحب ما أنتم الله به على عبده من صلاح دينه ودنياه فتغزو بثواب الحب فيبغضه إليك حتى لا تلحقه بمحبك كالم تلحقه بيسلك .

وقد قال أعرابي هني صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله الرجل يحب الغرم ولما يلحق بهم فقال النبي صلى الله

عليه وسلم . المرء مع من أحب <sup>(١)</sup> ، وقام أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخطف فقال : يا رسول الله متى الساعة ؟ فقال : ما أعددت لها ؟ قال : ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صيام إلا إلى أحب الله ورسوله ، فقال صلى الله عليه وسلم : أنت مع من أحببت <sup>(٢)</sup> ، قال أنس : فافرح المسلمون بعد إسلامهم كفرحهم يومئذ . إشارة إلى أن أكبر بينهم كانت حبه الله ورسوله . قال أنس : ففمن يحب رسول الله وأبا بكر وعمر ولا يفعل مثل عملهم وزجرو أن تكون معهم . قلت يا رسول الله الرجل يحب المصلين ولا يصلي ويجب الصوم ولا يصوم ، حتى عذ أشياء . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : هو مع من أحب <sup>(٣)</sup> ، وقال رجل لعمر بن عبد العزيز : إنه كان يقال إن استطعت أن تكون عالما فكن عالما ، فإن لم تستطع أن تكون عالما فكن متعلما ، فإن لم تستطع أن تكون متعلما فأحجم ، فإن لم تستطع فلا تبغضهم ، فقال : سبحان الله لقد جعل الله لنا مخرجا

فانظر الآن كيف حسدك إبليس ففوت عليك ثواب الحب ، ثم لم يتبع به حتى بغض إليك أخاك وحملك على الكراهة حتى أمت ، وكيف لاوعاك تحسد رجلا من أهل العلم وتحب أن يخطئ في دين الله تعالى وينكشف خطؤه لينتضح ؟ وتحب أن يفسر لسانه حتى لايتكلم أو يمرض حتى لايعلم ولا يتعلم وأى ثم يريد على ذلك ؟ فليتك إذ تأتلك الحاقق به ثم اغتصمت بسببه سلمت من الإثم وعذاب الآخرة وقد جاء في الحديث : « أهل الجنة ثلاثة : المحسن والمحب له والسكاف عنه <sup>(٤)</sup> ، أى من يكف عنه الأذى والحسد والبغض والكراهة . فانظر كيف أبعدك لإبليس عن جميع المداخل الثلاثة حتى لا تكون من أهل واحد منها ألبتة ، فقد نفذ فيك حسد إبليس ومانفذ حسدك في عدوك بل على نفسك ، بل لو كرشت بحالك في قطة أو منام لرأيت نفسك أبها الحاسد في صورة من يرى سهما إلى عدوه ليصيب مقتله فلا يصيبه بل يرجع إلى حديقته الخبيث فيقلعها ، فيزيد غضبه فيعود ثانية فيرى أشد من الأولى فيرجع إلى عينه الأخرى فيمعيها ، فيرداد غيظة فيعود على رأسه فيشجعه ، وعدوه سالم في كل حال وهو إلى الرجوع مرة بعد أخرى وإعادته حوله يفرحون به ويضحكون عليه . وهذا حال الحسود وسخرية الشيطان منه ، بل حاله في الجسد أفجع من هذا لأن الرمية المائدة لم تفوت إلا العينين ولو بقيتا لفاتتا بالموت لا بحالة . والحسد يعود بالإثم والإثم لا يفوت بالموت ، ولعله يسوقه إلى غضب الله وإلى النار ، فلأن تذهب عينه في الدنيا خير له من أن تبقى له عين يدخل بها النار فيقلعها لهيب النار . فانظر كيف انتقم الله من الحاسد إذا أراد زوال النعمة عن المحسود فلم ير لها عنه ثم أزالها عن الحاسد ؛ إذ السلامة من الإثم نعمة والسلامة من النعم والسكند نعمة قد زالتا عنه تصديقا لقوله تعالى ( ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله ) وربما يتبلى بين مايشهيه لعدوه ، وقلا يشمت شامت بمساءة إلا ويبتلى بمثلا ، حتى قالت عائشة رضي الله عنها : ماتت ليمان شيئا إلا نزل في ، حتى لو تميت له القتل لقتلت . فهذا إثم الحسد نفسه فكيف مايجز إليه الحسد من الاختلاف وجحود الحق وإطلاق اللسان واليد بالفواحش في القسنى من الأعداء ؟ وهو الدواء الذي فيه هلك الأمم السالفة .

فهذه هي الأدوية العملية فهما تفكر الإنسان فيها بلعن صاف وقلب حاضر الطفأت نار الحسد من قلبه ، وعلم

(١) حديث : الرجل يحب القوم ولا يلقى بهم ، فقال : هو مع من أحب . متفق عليه من حديث ابن مسعود .  
(٢) حديث : سؤال الأعرابي متى الساعة ؟ فقال : ما أعددت لها ... الحديث . متفق عليه من حديث أنس (٣) حديث أبي موسى : قلت يا رسول الله الرجل يحب المصلين ولا يصلي ... الحديث . وفيه : هو مع من أحب . متفق عليه من حديث أبيه .  
آخره : الرجل يحب القوم ولا يلقى بهم ، قال : المرء مع من أحب . (٤) حديث : أهل الجنة ثلاثة : المحسن والمحب له والسكاف عنه ، لم أجده إلا في أسنن

أنه مهلك نفسه ومفرج عدوه ومستخط ربه ومنتهى عيشه .

وأما العمل النافع فيه فهو أن يحكم الحسد فكل ما يتقاضاه الحسد من قول وفعل فينبغي أن يكلف نفسه تقيته ، فإن حمله الحسد على القنح في عسوده كلف لسانه للدح له والثناء عليه ، وإن حمله على التكبر عليه أزم نفسه التواضع له والاعتذار إليه ، وإن بدنه على كف الإنعام عليه أزم نفسه الزيادة في الإنعام عليه ، فهما فعل ذلك عن تكلف وعرفه المحسود طاب قلبه وأحبه ، ومهما ظهر حبه عاد الحاسد فأحبه ، وتوله من ذلك الموافقة التي تقطع مادة الحسد ، لأن التواضع والثناء والمدح وإظهار السرور بالنعمة يستجلب قلب النعم عليه ويسترفه ويستعطفه ويعمله على مقابلة ذلك بالإحسان ، ثم ذلك الإحسان يعود إلى الأول فيطيب قلبه ويصير ما تكلفه أولاً ؛ طيباً آخراً ولا يصدنه عن ذلك قول الشيطان له ؛ لو تواضعت وأثبتت عليه حملك المدو على العجز أو على التفائق أو الخوف وأن ذلك مذلة ومهانة ، وذلك من خداع الشيطان ومكايده بل الجاملة تكلفاً كانت أو طبعاً . تكسر سورة العداوة من الجانبين وتقل مرغوبها وتعدو القلوب التآلف والتحاب ، وبذلك تستريح القلوب من ألم الحسد وغم التباغض . فهذه هي أدوية الحسد وهي نافعة جداً إلا أنها مرة على القلوب جداً ولكن التفع في الدواء المر . فمن لم يصبر على مرارة الدواء لم ينل حلالة الشفاء ؛ وإنما تهن مرارة هذا الدواء ، أعنى التواضع للأعداء والتعزب لإليم ، بالمدح والثناء بقوة العلم بالمعاني التي ذكرناها وقوة الرغبة في ثواب الرضا بقضاء الله تعالى وحسب ما أحبه . وعرة النفس وترفعها عن أن يكون في العالم شيء على خلاف مرادها جهل ، وعند ذلك يريد ما لا يكون ، إذ لا مطعم في أن يكون ما يريد وفوات المراد ذل وخسة ، ولا طريق إلى الخلاص من هذا الدل إلا بأحد أمرين ؛ إما بأن يكون ما تريد أو بأن تريد ما يكون ، والأول ليس إليك ولا مدخل للتكلف والمجاهدة فيه . وأما الثاني ؛ فللمجاهدة فيه مدخل ، وتحصيله بالرياضة ممكن ، فيجب تحصيله على كل قافل هذا هو الدواء الكلى .

فأما الدواء المفصل ؛ فهو تتبع أسباب الحسد من الكبر وغيره وعرة النفس وشدة الحرص على مالا ينبغي . وسيأتي تفصيل مداواة هذه الأسباب في مواضعها إن شاء الله تعالى . فلها مواد هذا المرض ولا ينقم المرض إلا بجمع المادة ، فإن لم تجمع المادة لم يحصل بما ذكرناه إلا تسكين وتطفئة ، ولا يزال يعود مرة بعد أخرى ويطول الجهد في تسكينه مع بقاء مواده ، فأيه مادام محباً للجاء فلا بد وأن يحسد من استأثر بالجاء والمنزلة في قلوب الناس دونه ، ويغفه ذلك لا محالة ، وإنما غاية أن يكون الغم على نفسه ولا يظهر بلسانه وبده ، فأما الخلو عنه رأساً فلا يمكنه والله الموفق .

### بيان القدر الواجب في نفي الحسد عن القلب

اعلم أن المؤذى يعقود بالطبع ، ومن آذاك فلا يمكنك أن لا تبغضه غالباً ، فإذا تبست له نعمة فلا يمكنك أن لا تكرهها له حتى يستوى عندك حسن حال عدوك وسوء حاله ، بل لا تزال تدرك في النفس بينهما نفرة ، ولا يزال الشيطان ينازعك إلى الحسد له ، ولكن إن قوى ذلك فيك حتى يمشك على إظهار الحسد بقول أو فعل بحيث يعرف ذلك من ظاهرك بأفعال الاختيارية فأنت حסود حاس بحسبك ، وإن كففت ظاهرك بالكية إلا أنك يباطلك نصب زوال النعمة وليس في نفسك كراهة لهذه الحالة فأنت أيضاً حسود حاس ، لأن الحسد صفة القلب لا صفة الفل ، قال الله تعالى ( ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ) وقال عز وجل ( ودعوا لو تكفرون كما كفروا فتكفرون سواء ) وقال ( إن تمسكم حسنة تؤثم ) أما الفعل فهو غيبة وكذب وهو عمل صادر عن

الحسد وليس هو عين الحسد ، بل عل الحسد القلب دون الجوارح . نعم هذا الحسد ليس مظلة يجب الاستحلال<sup>٢٧</sup> منها بل هو معصية بينك وبين الله تعالى ، وإنما يجب الاستحلال من الأسباب الظاهرة على الجوارح ، فأما إذا كفت ظاهرك وأزمت مع ذلك قلبك كراهة ما يقرش منه بالطبع من حب زوال التبعة حتى كأنك تمت نفسك على ما في طبيعها فتكون تلك الكراهة من جهة العقل في مقابلة الميل من جهة الطبع ، فقد أدبت الواجب عليك ، ولا يدخل تحت اختيارك في أغلب الأحوال أكثر من هذا ، فأما تغيير الطبع ليستوى عنده المؤذى والمحسن ويكون فرحه أو غمه بما تيسر لها من نعمة أو تنصب عليهما من بلية سواء ، فهذا مما لا يطاع الطبع عليه مادام ملتفتا إلى حظوظ الدنيا ، إلا أن يصير مستغرقا بحب الله تعالى مثل السكران الواله ، فقد ينهى أمره إلى أن لا يلتفت قلبه إلى تفاصيل أحوال العباد ، بل ينظر إلى الكل بدين واحدة وهي عين الرحمة ، ويرى الكل عباد الله وأفعاله من غيرهم مسخرين وذلك إن كان فهو كالبريق الخاطف لا يدوم ، ثم يرجع القلب بعد ذلك إلى طبعه ويعود العدو إلى منازعته - أعنى الشيطان - فإنه ينازع بالوسوسة . فهما قابل ذلك بكرهاته والزم قلبه هذه الحالة فقد أدى ما كلفه . وقد ذهب ذاهبون إلى أنه لا يأتى إذا لم يظهر الحسد على جوارحه لما روى عن الحسن أنه سئل عن الحسد فقال : غره فإنه لا يضرك ما لم تبده . وروى عنه موقوفا ومرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ثلاثة لا يخلا من المؤمن وله منهن عجز : فخرجه من الحسد أن لا يبغى ، والأولى أن يعمل هذا على ما ذكرناه من أن يكون فيه كراهة من جهة الدين والعقل في مقابلة حب الطبع لزوال نعمة العدو ، وتلك الكراهة تنمعه من البغى والإيذاء ، فإن جميع ما ورد من الأخبار في ذم الحسد يدل ظاهره على أن كل حاسد آثم ، ثم الحسد عبارة عن صفة القلب لا عن الأفعال . فكل من يحب إساءة مسلم فهو حاسد . فإذا كان كونه آثما بمجرد حسد القلب من غير فعل هو في محل الاجتهاد ، والأظهر ما ذكرناه من حيث ظواهر الآيات والأخبار ومن حيث المعنى ، إذ يبعد أن يعنى عن البغى في إرادته إساءة مسلم واشتغاله بالقلب على ذلك من غير كراهة .

وقد عرفت من هذا أن لك في أعدائك ثلاثة أحوال ، أحدها : أن تحب مسامحتهم بطبيعتك ، وتكره حبك لذلك وميل قلبك إليه بمقل وتحت نفسك عليه وتود لو كانت لك حيلة في إزالة ذلك الميل منك ، وهذا مدفوعه قطعا لأنه لا يدخل تحت الاختيار أكثر منه .

الثاني : أن تحب ذلك وتظهر الفرح بمسأته إما بلسانك أو بجوارحك ، فهذا هو الحسد المخطور قطعا .

الثالث : وهو بين الطرفين أن تحسد بالقلب من غير مقت لنفسك على حسدك ، ومن غير إنكار منك على قلبك ولكن تحفظ جوارحك عن طاعة الحسد في مقتضاه ، وهذا في محل الخلاف . والظاهر أنه لا يخلا عن إثمه بقدر قوة ذلك الحب وضعفه . والله تعالى أعلم والحمد لله رب العالمين وحسبنا الله ونعم الوكيل .



## كتاب ذم الدنيا

وهو الكتاب السادس من ربيع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي عرف أوليائه غوائل الدنيا وآفاتنا . وكشف لهم عن عيوبها وعوراتها حتى نظروا في شواهدنا وآياتنا ، ووزنوا بحسناتها سيئاتها فعلموا أنه يزيد منكرها على معروفها ولا يفي مرجوها بمخوفها ولا يسلط طوعها من كسوفها ، ولكنها في صورة امرأة مليحة تستميل الناس بجمالها ، ولها أسرار سوء قباغ تهلك الراغبين في وصالها ، ثم هي فرارة عن طلابها شميخة بإقبالها ، وإذا أقبلت لم يؤمن شرها وبوالها ، إن أحسنت ساعة أساءت سنة ، وإن أساءت مرة جعلتها سنة ، فدوائر إقبالها على التقارب دائرة ، وتجارة بئنها غاسرة باثرة ، وآفاتنا على التوالي لصدور طلابها راشقة ، وجماري أحوالها بذل طالبها ناطقة . فكل منور بها إلى الدل مصيره . وكل منكر بها إلى التهمس مسيره . شأنها الحرب من طالبها والطلب لها ربا ، ومن خدمها فاته ، ومن أعرض عنها واته لا يخلو صفوها عن شوائب الكدورات ولا ينفك سرورها عن المنفصات ، سلامتها تعقب السقم ، وشبابها يسوق إلى الهرم ، ولعيوبها لا يشر إلا الحسرة والندم فهي خداعة مكارة ، وطيارة فرارة ، لا تزال تزين لطلابها حتى إذا صاروا من أحبابها ، كثرت لهم عن آياتها ، وشوش عليهم منازم أسبابها ؛ وكشفت لهم عن مكنون بجمائها ، فأذا قتم قرائل سمائها ؛ ورشقتهم بصوائب سماءها . بيننا أصحابها منها في سرور ولإلزام إذ ولت عنها كأنها أضفأت أحلام . ثم عكرت عليهم بدواهيها فطحتهم طعن الحصيد ووارتهم في أكفانهم تحت الصعيد ، إن ملكك واحداً منهم جميع ما طلعت عليه الشمس جعلته حصيداً كأن لم يكن بالأمس . نمت أصحابها سرورا وقدم غرورا حتى يأملون كثيراً وينبون قصورا . فتصبح قصورهم قبورا وجمهم بورا . وسعيهم هباء منثورا ودعاؤهم نبورا ، هذه صفتها وكان أمر الله قدرا مقدورا . والصلاة والسلام على محمد عبده ورسوله المرسل إلى العالمين بشيرا ونذيرا وسراجا منيرا . وعلى من كان من أهله وأصحابه له في الدين ظهيرا وعلى الظالمين نصيرا وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد : فإن الدنيا عدوة لله وعدوة لأوليائه الله وعدوة لأعداء الله . أما عداوتها لله فأنها فعلت الطريق على عباد الله . ولذلك لم ينظر الله إليها منذ خلقها . وأما عداوتها لأوليائه الله عز وجل : فأنها زينت لهم زينتها وعتمت برهنتها ونضارتها حتى تجرعوها مرارة الصبر في مقاطعها . وأما عداوتها لأعداء الله : فأنها استدرجتهم بمكرها وكيدها فاقصصتهم بشبكها حتى وثقوا بها . وصحروا عليها لغلظتهم أحوج ما كانوا إليها . فاجتروا منها جبرة تنقطع دونها الأكباد . ثم حرمتهم السعادة أبد الآباد . فهم على فراقها يتحسرون ومن مكابدها يستغيثون ولا يفتنون . بل يقال لهم ( اخشوا فيها ولا تكلمون . أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا ينفخ عنهم العذاب ولا هم ينصرون ) .

وإذا علمت غوائل الدنيا وشرورها فلا بد أولا من معرفة حقيقة الدنيا وما هي ؟ وما الحكمة في خلقها مع عداوتها ؟ وما مدخل غرورها وشرورها ؟ فإن من لا يعرف الشر لا يتقيه ويوشك أن يقع فيه . ونحن نذكر ذم ( ٢٦ — إحياء علوم الدين — ٢ )

الدنيا وأمثلتها ، وحقيقتها وتفصيل معانيها ، وأصناف الأشغال المتعلقة بها ، ووجه الحاجة إلى أصولها ، وسبب انصراف الخلق عن الله بسبب التشاغل بفضولها إن شاء الله تعالى . وهو المعين على ما يرتضيه .

### بيان ذم الدنيا

الآيات الواردة في ذم الدنيا وأمثلتها كثيرة . وأكثر القرآن مشتمل على ذم الدنيا وصرف الخلق عنها ودعوتهم إلى الآخرة . بل هو مقصود الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولم يعمثوا إلا لذلك ، فلا حاجة إلى الاستشهاد بآيات القرآن لظهورها ، وإنما ورد بعض الأخبار الواردة فيها . فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من على شاة ميتة فقال « آتون هذه الشاة ميتة على أهلها ؟ » قالوا : من هوانها أقومها . قال : والذي نفسي بيده للدنيا أهون على الله من هذه الشاة على أهلها ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء <sup>(١)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم « الدنيا بمن المؤمن وجنة الكافر <sup>(٢)</sup> » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله منها <sup>(٣)</sup> » وقال أبو موسى الأشعري : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنيته فأتروا ما بيني على ما بيني <sup>(٤)</sup> » وقال صلى الله عليه تعالى وآله وسلم « حب الدنيا رأس كل خطيئة <sup>(٥)</sup> » وقال زيد بن أرقم : كنا مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه فعدنا بشار فأقبحناه وعسل ، فلما أدناه من فيه بكى حتى أبكى أصحابه وسكتوا وما سكت : ثم عاد وبكى حتى ظنوا أنهم لا يقدرُونَ على مسأله قال : ثم مسح صفيه فقالوا : يا خليفة رسول الله ما بك ؟ قال : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فرأيت يدفع عن نفسه شيئاً ولم أر معه أحداً ، فقلت يا رسول الله ما الذي تدفع عن نفسك ؟ قال : هذه الدنيا مثلت لي فقلت لها : إليك عني ثم رجعت فقالت : إنك إن أفلت عني لم يفلت عني من بعدك <sup>(٦)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « يا عباد كل العجب للمصدق بدار الخلود وهو يسمى لدار الفرو <sup>(٧)</sup> » وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف على منزلة فقال « هلوا إلى الدنيا وأخذ خرقاً قد بليت على تلك المربلة وعظماً قد نخرت فقال : هذه الدنيا <sup>(٨)</sup> » وهذه إشارة إلى أن زينة الدنيا ستخلق مثل تلك الحرق وأن الأجسام التي ترى بها تصير عظما بالية . وقال صلى الله عليه وسلم « إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فانظروا كيف تعملون إن بني إسرائيل لما

### كتاب ذم الدنيا

(١) حديث : صر على شاة ميتة فقال « آتون هذه الشاة ميتة على صاحبها ... الحديث » أخرجه ابن ماجه والحاكم وصححه إسناده من حديث سهل بن سعد وأخره عند الترمذي وقال حسن صحيح ، ورواه الترمذي وابن ماجه من حديث المشور بن شداد دون هذه النسخة الأخيرة ، وسلم نحوه من حديث جابر . (٢) حديث « الدنيا بمن المؤمن وجنة الكافر » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة . (٣) حديث « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها » أخرجه الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث أبي هريرة وزاد « إلا ذكر الله وما وآله وعلمه » . (٤) حديث أبي موسى الأشعري « من أحب دنياه أضر بآخرته » . الحديث » أخرجه أحمد والبخاري والطبراني وابن حبان وأبو داود وصححه . (٥) حديث « حب الدنيا رأس كل خطيئة » أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا واليهيقي في شعب الإيمان من طريقه من رواية الحسن مسنداً .

(٦) حديث زيد بن أرقم : كنا مع أبي بكر فعدنا بشار فأقبحناه وعسل فلما أدناه من فيه بكى ... الحديث . وفيه : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأيت يدفع عن نفسه شيئاً ... الحديث . أخرجه البخاري وسند ضعيف يتعده والحاكم صحيح إسناده وابن أبي الدنيا واليهيقي في شعب الإيمان من طريقه بلفظه . (٧) حديث « يا عباد كل العجب للمصدق بدار الخلود وهو يسمى لدار الفرو » أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث أبي جرير مسنداً . (٨) حديث : أنه وقف على منزلة فقال « هلوا إلى الدنيا » . الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا واليهيقي في شعب الإيمان من طريقه من رواية ابن مبيون القتيبي مسنداً ، وفيه بقية بن الوليد وقد عتمه وهو مدلس .

بسطت لهم الدنيا ومهدت تامها في الخلية والنساء والطيب والثياب <sup>(١)</sup> ، وقال عيسى عليه السلام : لا تتخذوا الدنيا ربا فتستخذكم عبيدا اكلوا كذاكم عند من لا يضيعه فإن صاحب كثر الدنيا يخاف عليه الآفة وصاحب كذاقة لا يخاف عليه الآفة . وقال عليه أفضل الصلاة والسلام : يامعشر الخواريين إنى قد كبت لكم الدنيا على وجهها فلا تمسوها بعدى فإن من خبت الدنيا أن عصى الله فيها وإن من خبت الدنيا أن الآخرة لا تترك إلا بتركها ، ألا فاعبروا الدنيا ولا تمسوها واعلموا أن أصل كل خطيئة حب الدنيا ، وب شهوة ساعة أودت أهلها حزنا طويلا . وقال أيضا : بطعت لكم الدنيا وجلستم على ظهرها فلا ينازعكم فيها الملوك والنساء ، فأما الملوك فلا تنازعهم الدنيا فإنهم ان يرضوا لكم ما تركتموهم ودنياهم ، وأما النساء فأنفوسهم بالصوم والصلاة . وقال أيضا : الدنيا طالبة ومطلوبة فطالب الآخرة تطلبه الدنيا حتى يستكمل فيها رزقه ، وطالب الدنيا تطلبه الآخرة حتى يحمى الموت فبأخذ بعنفه . وقال موسى ابن يسار : قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل لم يخلق خلقاً أبغض إليه من الدنيا وأنه منذ خلقها لم ينظر إليها » <sup>(٢)</sup> ، وروى أن سليمان بن داود عليها السلام مر في موكبه والطير تظله والجن والإنس عن يمينه وشماله قال : فر ما به من بني إسرائيل فقال والله يا ابن داود لقد آتاك الله ملكاً عظيماً ، قال : فسمع سليمان وقال : لتسبيحة في صحيفة مؤمن خير مما أعطى ابن داود ، فإن ما أعطى ابن داود بذهب والتسبيحة تنفى . وقال صلى الله عليه وسلم « أهاكم التكثار يقول ابن آدم مالى مالى وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأبقيت ؟ » <sup>(٣)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم « إن الدنيا دار من لادار له وما له من لاملال له ، ولما يجمع من لاكل له ، وعليها يعمادى من لاعلم له ، وعليها يحسد من لافقه له ، ولها يسمى من لا يقين له » <sup>(٤)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم « من أصبح والدنيا أكبر همه فليس من الله في شيء ، وألزم الله قلبه أربع خصال : هما لا ينقطع عنه أبداً ، وشغلا لا يفرغ منه أبداً ، وفقر لا يبلغ غناه أبداً ، وأملا لا يبلغ منتهاه أبداً » <sup>(٥)</sup> ، وقال أبو هريرة : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا أبا هريرة ألا أريك الدنيا جميعها بما فيها ، فقلت : بل يا رسول الله ، فأخذ بيده وأتى في واديا من أودية المدينة فإذا مزبلة فيها رهوس أناس وعذرات وخرق وعظام ، ثم قال « يا أبا هريرة هذه رهوس كانت تحرسكم وتأملاكم كأملكم ثم هى اليوم عظام بلا جلد ثم هى صائرة رمانا ، وهذه العذرات هى ألوان أطعمتهم اكتسبوها من حيث اكتسبوها ثم قدفرها في بطونهم فأصبحت والناس يتحامونها ، وهذه الخرق البالية كانت رياشهم ولباسهم فأصبحت والرياح تصفها ، وهذه العظام عظام دوابهم التى كانوا ينتجعون عليها أطراف البلاد ؛ فن كان باكياعل الدنيا فليك : قال : فاربنا حتى اشتد بكافؤنا » <sup>(٦)</sup> ، ويروى أن الله عز وجل لما أبسط آدم إلى الأرض قال له : ابن للخراب وليلالفناء .

- (١) حديث « ان الدنيا حاوة خضرة وان الله مستخفك فيها فاطر كيف تسلون ... الحديث » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث أبي سعيد دون قوله « ان بنى إسرائيل ... الخ » والطبري الأول يثنى عليه ، ورواه ابن أبى الدنيا من حديث الحسن مرسل بالزيادة التى فى آخره . (٢) حديث موسى بن يسار « ان الله جل بآؤه لم يخلق خلقاً أبغض إليه من الدنيا وأنه منذ خلقها لم ينظر إليها » أخرجه ابن أبى الدنيا من هذا الوجه بلافا والبيان فى الفص من طريق وهو مرسل . (٣) حديث « أهاكم التكثار يقول ابن آدم مالى مالى ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن الفضل .
- (٤) حديث « الدنيا دار من لادار له .. الحديث » أخرجه أحمد من حديث طائفة متصتر على هذا وهى قوله « ولما يجمع من لاعلم له » دون يمينه وزاد ابن أبى الدنيا والبيان فى الفص من طريق « وقال من لاملال له « وأسانده جيد » (٥) حديث « من أصبح والدنيا أكبر همه فليس من الله فى شيء موازنة فى الأربع خصال ... الحديث » أخرجه الطبراني فى الأوسط من حديث أبى ذر دون قوله « وألزم الله قلبه ... الخ » وكذلك روى ابن أبى الدنيا من حديث أسى إسناد ضعيف ولما كمن من حديث حذيفة وروى هذه الزيادة من حديث صاحب الفروع من حديث ابن عمر وكلاما ضعيف . (٦) حديث أبى هريرة « ألا أريك الدنيا جميعها بما فيها ، قلت : بل يا رسول الله فأخذ بيده وأتى بن واديا من أودية المدينة فإذا مزبلة ... الحديث لم أجد له أصلا

وقال داود بن هلال مكتوب في صحف إبراهيم عليه السلام : بادنيا ما أهونك على الأبرار الذين قصصت وترينت لهم ، إني قذفت في قلوبهم بنفك والصدود عنك وما خلقت خلقا أهون على منك ، كل شأنك صغير وإلى الفناء يصير قصيت عليك يوم خلقتك أن لا تدوى لأحد ولا يدوم لك أحد ، وإن نزل بك صاحبك وشع عليك ، طوى للأبرار الذين أطلعت من قلوبهم على الرضا ومن ضميرهم على الصدق والاستقامة ، طوى لهم ما لهم عند من الجزاء إذا رقدوا إلى من قبورهم إلا النور يسمى أمامهم وللآنك حافون بهم حتى أبطنهم ما يرجون من رحمتي . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الدنيا موقرة بين السماء والأرض ، منذ خلقها الله تعالى لم ينظر إليها ، وتقول يوم القيامة يا رب اجعلني لأذي أوليائك اليوم نصيبا فيقول اسكني بالشيء إلى لم أرضك لهم في الدنيا أرضاك لهم اليوم <sup>(١)</sup> ، وروى في أخبار آدم عليه السلام أنه لما أكل من الشجرة تحركت معدته فخرج الثقل ، ولم يكن ذلك مجعولا في شيء من أكله الجنة إلا في هذه الشجرة فلذلك نهي عن أكلها ، قال لجل يدور في الجنة ، فأمر الله تعالى ملكا يخاطبه فقال له : قل له أي شيء تريد ؟ قال آدم : أريد أن أضع ماني بطن من الأذى ، فقيل للملك : قل له في أي مكان تريد أن تضعه أعلى الفرس أم على السرر أم على الأنهار أم تحت ظلال الأشجار هل ترى هنا مكانا يصلح لذلك ؟ أبعث إلى الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم : ليجيئ أقوام يوم القيامة وأعمالهم كجبال تامة فيؤمر بهم إلى النار ، قالوا يا رسول الله مصلين ؟ قال : نعم كانوا يصلون ويصومون ويأخذون منة من الليل فإذا عرض لهم شيء من الدنيا وثبوا عليه <sup>(٢)</sup> . وقال صلى الله عليه وسلم في بعض خطبه : للمؤمن بين غناقتين بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه ؟ فليتردد البعد من نفسه لنفسه ومن دنياه لأخروته ومن حياته لموته ومن شبابه لهرمه . فإن الدنيا خلقت لكم وأنتم خلقتم للأخرة ، والذي نفسي بيده ما بعد الموت من مستعقب ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار <sup>(٣)</sup> . وقال عيسى عليه السلام : لا يستقيم حب الدنيا والآخرة في مؤمن كما لا يستقيم الماء والنار في إناء واحد . وروى أن جبريل عليه السلام قال لنوح عليه السلام : يا أطول الأنبياء عمرا كيف وجدت الدنيا ؟ فقال : كندار لها بابان دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر . قيل ليعسى عليه السلام : لو اتخذت بيتا يكتفك : قال : يكفيني خلقان من كان قبلنا . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم : «احذروا الدنيا فإنها أحمر من هاروت وماروت <sup>(٤)</sup>» وعن الحسن : قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم على أصحابه فقال : «هل منكم من يريد أن يذهب به الله عنه العنى ويجعله بصيرا : ألا إنه من رغب في الدنيا وطال أمله فيها أعمى الله قلبه على قدر ذلك ، ومن زهد في الدنيا وقصر فيها أمله أعطاه الله علما بغير تعلم ، وهدى بغير هداية : ألا أنه سيكون بعدكم قوم لا يستقيم لهم الملك إلا بالقتل والتعبر ، ولا الفنى إلا بالفخر والبخل ، ولا الحية إلا باتباع الهوى ؛ إلا فن أدرك ذلك الزمان منكم فصب على الفقر وهو يقدر على الثنى ، وصب على البهضة وهو يقدر على الحجة ، وصب على الدل وهو يقدر على العز لا يريد بذلك إلا وجه الله تعالى أعطاه الله ثواب تحمين صديقا <sup>(٥)</sup>» وروى أن عيسى عليه السلام اشتد عليه المطر والرعد

(١) حديث : الدنيا موقرة بين السماء والأرض منذ خلقها الله لا ينظر إليها ... الحديث : تقدم به من رواه يعقوب بن يسار مرسل ولم أجده بآيه . (٢) حديث : ليجيئ أقوام يوم القيامة وأعمالهم كجبال تامة فيؤمر بهم إلى النار ... الحديث : أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث سالم مولى أبي حذيفة بنده ضعيف وأبو منصور الحديث من حديث أنس وهو ضعيف أيضا . (٣) حديث المؤمنين بين غناقتين بين أجل قد مضى ... الحديث : أخرجه البيهقي في الشعب من حديث الحسن عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وفيه المطاع . (٤) حديث : احذروا الدنيا فإنها أحمر من هاروت وماروت ... أخرجه ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب من طريق من رواية أبي الفراء الراوى مرسل . وقال البيهقي إن بهم قال عن أبي الفراء عن رجل من أصحابه قال لأبي لا يدري من أبو الفراء قال وهكذا ، شكرا لأصل له . (٥) حديث الحسن : هل منكم من يريد أن يذهب به الله عنه العنى ... الحديث : أخرجه ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب من طريق هكنا مرسل وفيه لإبراهيم بن الأشعث تسكنا فيه يومنا .

والبرق يوما لجل يطلب شيئاً يلجأ إليه فوقعت عينه على خيمة من بعيد فأقامها فإذا فيها امرأة لحاد عنها ، فإذا هو بكوف في جبل فأقام فإذا فيه أسد فوضع يده عليه وقال : إلى جمدت لكل شيء ماوى ولم تجعل لى ماوى ، فأوحى الله تعالى إليه : ماواك في مستقر رضى لازوجتك يوم القيامة مائة حوراء خلفتها يدي ولأطمعن في عرسك أربعة آلاف عام يوم منها كعمر الدنيا ، ولآمرن مناديا ينادى أين الزهاد في الدنيا زوروا عرس الزاهد في الدنيا عيسى ابن مريم . وقال عيسى ابن مريم عليه السلام : ويل لصاحب الدنيا كيف يموت ويتركها وما فيها ، وتفره وبأمنها ، ويثق بها وتحذله ، ويبل للفرين كيف أرتهم مايكرهون وفارقهم ما يحبون وجاءهم ما يوعدون ؟ ويول لمن الدنيا همه والخطابا عمله كيف يفتضح غدا بذنه ؟ وقيل أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : يا موسى مالك ولدان الظالمين إنما ليست لك بدار أخرج منها همك وفارقها بعقلك ، فبئس الدار هي إلا لامل يعمل فيها نعمت النار هي ، يا موسى إلى مرصد الظالم حتى أخذ منه للظلم ، وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أباعبيدة بن الجراح لجاء بال من البحرين ؛ فسمعت الأنصار يقدم أبي عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف فتمرضوا له ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أقم ثم قال : « أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء » قالوا : أجل يا رسول الله ، قال : فأبشروا وأملوا ما ينركم فواءه ما الفقر أخشى عليكم ولكنى أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما تبسط على من كان قبلكم فتتافسوها كما تتافسوها فتهلككم كما أهلكهم <sup>(١)</sup> » وقال أبو سعيد الحدرى : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض » فقيل ما بركات الأرض ؟ قال : « زهرة الدنيا <sup>(٢)</sup> » . وقال صلى الله عليه وسلم : « لا تشغلوا قلوبكم بذكر الدنيا <sup>(٣)</sup> » ، فهى عن ذكر ما فضلا عن إصابة عنها . وقال عمار بن سعيد : مر عيسى عليه السلام بقرية فإذا أهلها موتى في الآفنية والطرق ، فقال : يا معشر الخواريين إن هؤلاء ماتوا من خطئة ولوماتوا عن غير ذلك لتدافروا ، فقالوا : يا روح الله وحدنا أن لو علنا خبرهم . فسأل الله تعالى فأوحى إليه إذا كان الليل فنادهم بعبوبك ، فلما كان الليل أشرف على نشر ثم نادى : يا أهل القرية فأجابهم مجيب ليلك يا روح الله فقال : ما حالكم وما فستكم ؟ قال : بتنا عافية وأصبحنا في الهلوة ، قال : وكيف ذاك ؟ قال : بجنا الدنيا وطاعتنا أهل للمامى ، قال : وكيف كان حبيكم للدنيا ؟ قال : حب الصبي لأمه إذا أقبلت فرحنا بها وإذا أدبرت حزنا وبكينا عليها ، قال : فما بال أصحابك لم ينجوني ؟ قال لأنهم ملجئون بليهم من نار بأيدي ملائكة غلاظ شداد ، قال : فكيف أجبتى أنت من بينهم ؟ قال : لآنى كنت فيهم ولم أكن منهم ، فلما نزل بهم العذاب أصابنى معهم ، فأنا معلق على شفير جهنم لا أدرى أنجوا منها أم أكيبك فيها ؟ فقال المسح للحواريين : لا كل خبز الشمر بالمع الجريش ولبس اللبس والنوم على الزبال كثير مع عافية الدنيا والآخرة . وقال أنس : كانت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله وسلم العضباء لتسبق لجاء أعرا بى ناقة له فسبقها ، فشق ذلك على المسلمين فقال صلى الله عليه وسلم : « إنه حق على الله أن لا يرفع شيئا من الدنيا إلا أوضعه <sup>(٤)</sup> » وقال عيسى عليه السلام : من الذى يبنى على موج البحر دارا ؟ تلكم الدنيا فلا

(١) حديث : بعث أبا عبيدة بن الجراح لجاء بال من البحرين فسمعت الأنصار يقدمون أبي عبيدة . متفق عليه من حديث عمرو ابن عوف البدرى (٢) حديث أبي سعيد : « إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض .. الحديث » متفق عليه (٣) حديث : « لا تشغلوا قلوبكم بذكر الدنيا » أخرجه البيهقي في الشعب من طريق ابن أبي الدنيا من رواية محمد بن الفضل الحارثى مرسلا (٤) حديث أنس : كانت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم العضباء لتسبق له . الحديث . وفيه : حق على الله أن لا يرفع شيئا من الدنيا إلا أوضعه » أخرجه البيهقارى .

تتخذوها قرارا . وقيل لميسى عليه السلام : صننا علما واحدا يمينا الله عليه ، قال : ابغضوا الدنيا يحبكم الله تعالى . وقال أبو الرداءة : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولمسائن عليكم الدنيا ولآلئتم الآخرة <sup>(١)</sup> . ثم قال أبو الرداءة - من قبل نفسه - لو تعلمون ما أعلم لخرجتم إلى الصدقات تجارون وتكون على أنفسكم ، ولتركت أموالكم لأحارس لها ولا تراجع إليها إلا ما لابت لكم منه ، ولكن يغيب عن قلوبكم ذكر الآخرة ، وحضرها الأمل فصارت الدنيا أملك بأعمالكم ، وصرت كالكاذب لا يعلمون فيحسبكم شر من البهائم التي لا تدع هواها بخافة عما في عاقبته ، مالم لا تحاربون ولا تتاحسون وأنتم إخوان على دين الله مافرق بين أموالكم إلا حيث سراتكم ، ولوا اجتماعتم على البر لتحابيتم ، مالم تتاحسون في أمر الدنيا ولا تتاحسون في أمر الآخرة ؟ ولا يلك أحدكم النصيحة لمن يحبه ويعينه على أمر آخره ، ما هذا إلا من قلة الإيمان في قلوبكم ، لو كنتم توقنون بخير الآخرة وشرها كاتوقنون بالدنيا لآلئتم طلب الآخرة لأنها أملك لأموركم . فإن قلتم : حب العاجلة غالب ؟ فلما نراك تدعون العاجلة من الدنيا للأجل منها ، تمكدون أنفسكم بالمشقة والاحتراف في طلب أمر لعلكم لا تدركونه ، فليس القوم أنتم ما حاقمتم إيمانكم بما يعرف به الإيمان البالغ فيكم ؟ فإن كنتم في شك عما جاء به محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فافتروا لبين لكم ولترى من التور ما قطعتم إليه قلوبكم ، والله ما أنتم بالمفتومة عقولكم فتعذركم أنكم تسيئون صواب الرأي في دنياكم وتأخذون بالحزم في أموركم ، مالم تفرحون بالسير من الدنيا لسيديته وتعونون على السير منها بفركم ، حتى يتبين ذلك في وجوهكم ويظهر على ألسنتكم ، وتسمونها للمصائب وتقيمون فيها المآثم ، وعادكم قد تركوا كثيرا من دينهم ثم لا يبين ذلك في وجوهكم ولا يتغير حالكم ، إلى الأبد الله قد جبرأ منكم ببق بعضكم بعضا بالسرور ، وكلكم يسكره أن يستقبل صاحبه بما يسكره بخافة أن يستقبل صاحبه بمثله فأصطبتم على القتل ونبتت مراعيكم على الدمن وتضافيتم على رفض الأجل ، ولوددت أن الله تعالى أراخي منكم والمحق بمن أحب رؤيته ولو كان حيا لم يصابركم ، فإن كان فيكم خير فقد أسمتكم وإن تطلبا ما عند الله تجدوه يسيرا ، وبالله أستعين على نفسي وعليكم . وقال عيسى عليه السلام : يامعشر الحواريين ارضوا بدين الله بالدين مع سلامة الدين كرضى أهل الدنيا بدينه الدين مع سلامة الدنيا . وفي معناه قيل :

أرى رجلا بأدنى الدين قد قموا ذما أراهم رضوا في العيش بالدين

فأستغن بالدين عن دنيا الملوك كاستغنى الملوك بدنياهم عن الدين

وقال عيسى عليه السلام : يا طالب الدنيا لتبر ترك الدنيا أبر . وقال نينا صلى الله تعالى عليه وسلم : لتأتينكم بعدى دنيا تأكل إيمانكم كأكل النار الحطب <sup>(٢)</sup> . وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : ياموسى لا تكن إلى حب الدنيا قلن تأتيني بكبيرة هي أشد منها . وموسى عليه السلام رجل وهو يبكي ورجع وهو يبكي ، فقال موسى : يارب هديك يبكي من غفلتك فقال : يا ابن عمران لو سال دماغه مع دموع عييه ورفع يديه حتى يسقطا لم أعفله وهو يحب الدنيا .

الآثار : قال على رضي الله عنه : من جمع فيه ست خصال لم يدع الجنة مطلبا ولا عن النار مهربا ؛ أولها : من

(١) حديث أبي الرداءة : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولمسائن عليكم الدنيا ولآلئتم الآخرة . أخرجه الطبراني دون قوله « ولمسائن » الخ . وزاد « ولخرجتم إلى الصدقات ... الحديث . وزاد الترمذي وابن ماجه من حديث أبي ذر « وما نلتكم بالنساء على القرب » وأول الحديث متفق عليه من حديث أمى وفي أفراد البخاري من حديث عائشة (٢) حديث « تأتئكم بعدى دنيا تأكل إيمانكم كأكل النار الحطب » لم أجده أصلا .

عرف الله وأطاعه ، وعرف الشيطان فمصاه ، وعرف الحق فاتبه ، وعرف الباطل فأغناه ، وعرف الدنيا فرفضها ، وعرف الآخرة فطلبها . وقال الحسن : رحم الله أقواما كانت الدنيا عندهم ودية فأقواما إلى من اتعنهم عليها ، ثم راحوا خفافا . وقال أيضا رحمه الله : من نافسك في دينك فنافسه ومن نافسك في دنياك فأتها في نحره . وقال لقمان عليه السلام لأبيه : يا بني إن الدنيا بحر عميق وقد غرق فيه ناس كثير فلتكن سفينةك فيه تقوى الله عز وجل ، وحشوها بالإيمان بالله تعالى ، وشراعها التوكل على الله عز وجل ، لملك تجر وما أراك ناجيا . وقال الفضيل : طالت فكرتي في هذه الآية ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لما نبلوهم أيهم أحسن عملا وإننا لجالعون ما عليها صعيدا حرزاً ﴾ وقال بعض الحكماء : إنك لن تصبح في شيء من الدنيا إلا وقد كان له أهل قبلك وسيكون له أهل بعدك ، وليس لك من الدنيا إلا عشاء ليلة وغداة يوم ، فلا تهلك في أكله ، وصم عن الدنيا وأفطر على الآخرة ، وإن رأس مال الدنيا الحموى وريحها النار . وقيل لبعض الرهبان : كيف ترى الدهر ؟ قال : يتقلب الأبدان ويمتد الآمال ويقرب المني ويبعد الآنية . قيل : فما حال أهله ؟ قال : من ظفر به تمس ومن فاته نصب . وفي ذلك قيل :

ومن يحمى الدنيا ليمش يسره فسوف لعمري عن قليل يلومها  
إذا أدبرت كانت على المرء حسرة وإن أفلت كانت كسيرة مومها

وقال بعض الحكماء : كانت الدنيا ولم أكن فيها ، وتذهب الدنيا ولا أكون فيها ، فلا أسكن إلا بها أين عيشنا نكد وصغرها كدر وأهلها منها على وجل ، إمامة زائلة أولية نازلة أومنية قاضية . وقال بعضهم من سبب الدنيا أنها لا تملأ أحدا ما يستحق ، لكنها إما أن تزيد وإما أن تنقص . وقال سفيان : أما ترى النعم كأنها مغضوب عليها قد وضعت في غير أهلها . وقال أبو سليمان الداراني : من طلب الدنيا على المحبة لها لم يطمع منها شيئا إلا أراد أكثر . ومن طلب الآخرة على المحبة لها لم يطمع منها شيئا إلا أراد أكثر . وليس لهذا غاية . وقال رجل لأبي حازم : أشكو إليك حب الدنيا وليس لي بدار ، فقال : انظر ما آتاك الله عز وجل منها فلا تأخذه إلا من حله ولا تضعه إلا في حقه . ولا يضرك حب الدنيا . وإنما قال هذا لأنه لو أخذ نفسه بذلك لأنعم حتى يتبرم بالدنيا ويطلب الخروج منها وقال يحيى بن معاذ : الدنيا حانوت الشيطان ، فلا تسرق من حانوته شيئا فيجىء في طلبه فيأخذك . وقال الفضيل : لو كانت الدنيا من ذهب يفتى والآخرة من خرف يبق ؛ لكان يلبنى لنا أن نختار خرفا يبق على ذهب يفتى . فكيف وقد اخترنا خرفا يفتى على ذهب يبق ؟ وقال أبو حازم : إياكم الدنيا فإنه يلغى أنه يوقف العبد يوم القيامة إذا كان معظما الدنيا فيقال : هذا عظم ما حقره الله . وقال ابن مسعود : ما أصبح أحد من الناس إلا وهو ضيف وماله ضاربة فالتضيف مرئجل والماردة مرعدة . وفي ذلك قيل :

وما للسالك والأهلون إلا ونازع ولابد يوما أن ترد الودائع

وزار رابعة أصحابها ، فذكروا الدنيا فأقبلوا على ذمها ، فقالت : استكثروا عن ذكرها فلو لا موقعها من قلوبكم ما أكثرتم من ذكرها . ألا من أحب شيئا أكثر من ذكره . وقيل لإبراهيم بن آدم : كيف أنت ؟ فقال :

ترفع دنيانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبق ولا مازع  
ظفري لبيد أثر الله وبه وجماد ديناه لما يتوقع

وقيل أيضا في ذلك :

أرى طالب الدنيا وإن طال عمره وقال من الدنيا سرورا وأنما

كأن في بنيائه فأقامه فلما استوى ما قد بناءه تهما  
وقيل أيضاً في ذلك :

هب الدنيا تساق إليك عفا أليس مصير ذاك إلى انتقال  
وما دنيائك إلا مثل فيه أظلك ثم آذن بالزوال

وقال لقمان لابنه : يا بني بع دنيائك بآخرتك ترجعها جميعاً ، ولا تبسج آخرتك بدنيائك تخسرهما جميعاً . وقال مطرف  
ابن الشخير : لا تنظر إلى خفض عيش الملوك ولين رياسهم ، ولكن انظر إلى سرعة ظنهم وسوء منقلبهم . وقال  
ابن عباس : إن الله تعالى جعل الدنيا ثلاثة أجزاء : جزء للؤمن ، وجزء للمنافق ، وجزء للكافر . فالؤمن يتزود ،  
والمنافق يترن ، والكافر يستمتع . وقال بعضهم : الدنيا جيفة ، فمن أراد منها شيئاً فليصبر على معاينة الكلاب .  
وفي ذلك قيل :

يا عاظم الدنيا إلى نفسها تح عن خطبتها تلم  
إن التي تخطب شدادة قرية العرس من الماتم

وقال أبو الدرداء : من هوان الدنيا على الله أنه لا يعضى إلا فيها ولا ينال ما عنده إلا بتركها . وفي ذلك قيل :  
إذا امتحن الدنيا لييب تكشفت له عن عروق في ثياب صديق  
وقيل أيضاً :

يا وائد الليل مسروراً بأوله إن الحوادث قد يطرعن أبحارها .  
أنى القرون التي كانت منعمة كرم الجديدين إقبالا وإدبارا  
كم قد بادت صروف الدهر من ملاء قد كان في الدهر نفاها وخضارا  
يا من يعاقب دنيا لا يقاها لها يمس ويصيح في دنياه سفارا  
ملا تركت من الدنيا معانقة حتى تعانق في الفردوس أبكارا  
إن كنت تبنى جنانا لخلد تسكنها فيلجئ لك أن لا تأمن التارا

وقال أبو أمامة الباهلي رضي الله عنه : لما بعث محمد صلى الله عليه وسلم أتت إبليس جنوده فقالوا : قد بعث  
نبي وأخرجت أمة ، قال : يحبون الدنيا ؟ قالوا نعم ، قال : لأن كانوا يحبون الدنيا ما أبالي أن لا يبدوا إلا واثان ،  
ولأنما أغدو عليهم وأروح بثلاث : أخذ المال من غير حق ، وإنفاقه في غير حق ، وإمساكه عن حقه ، والشر كله  
من هذا نوع . وقال رجل لعلي كرم الله وجهه : يا أمير المؤمنين صف لنا الدنيا ، قال : وما أصف لك من دار من  
صح فيها سقم ، ومن أفس فيها نهم ، ومن افتقر فيها حزن ، ومن استغنى فيها افتتن ، في حلالها الحساب ، وفي حرامها  
العقاب ، ومن تشابها التاب . وقيل له ذلك مرة أخرى فقال : أطول أم أقصر ؟ فقيل : قصر فقال : حلالها حساب ،  
وحرامها عذاب . وقال مالك بن دينار : اتقوا السحابة فإنها تسحر قلوب العلماء يعني الدنيا . وقال أبو سليمان  
الداراني : إذا كانت الآخرة في القلب جاءت الدنيا تزاحمها ، فإذا كانت الدنيا في القلب لم تزاحمها الآخرة ، لأن الآخرة  
كرامة والدنيا لثيمة . وهذا تشديد عظيم ونرجو أن يكون ما ذكره سيار بن الحكم أحسن ، إذ قال : الدنيا والآخرة  
يحتسمان في القلب فأيهما غلب كان الآخر تهما له . وقال مالك بن دينار : بقدر ما تحزن للدنيا يخرج من الآخرة من  
قلبك ، وبقدر ما تحزن للآخرة يخرج من الدنيا من قلبك . وهذا اقتباس عما قاله علي كرم الله وجهه حيث قال : الدنيا



والآخرة ضربان ، فبقدر ما ترضى إحداهما تسخط الأخرى . وقال الحسن : والله لقد أدركت أفواجا كانت الدنيا آمون عليهم من التراب الذي تمشون عليه ، ما يبالون أشرفت الدنيا أم غربت ، ذهب إلى ذا أو ذهب إلى ذا ؟ وقال رجل للحسن : ما تقول في رجل آتاه الله مالا فهو يتصلق منه ويصل منه ، أحسن له أن يتعيش فيه ؟ - يعني يتعم - فقال : لا ، لو كانت له الدنيا كلها ما كان له منها إلا الكفاف ويقدم ذلك ليوم فقره . وقال الفضيل : لو أن الدنيا بخلافها عرضت على حلالا لا أحاسب عليها في الآخرة لكننت أخذوها كما يتقذر أحدكم الجيفة إذا مر بها أن تصيب ثوبه وقيل : لما قدم عمر رضى الله عنه الشام فاستقبله أبو عبيدة بن الجراح على الناقة عظومة بجبل ، فسلم وسأله ، ثم أتى منزله فلم يرفيه إلا سيفه وترسه ورحله فقال له عمر رضى الله عنه : لو اتخذت متنا ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إن هذا يئلتنا للقيل . وقال سفيان : خذ من الدنيا ليدنك وخذ من الآخرة لقبلك . وقال الحسن : والله لقد عديت بنو إسرائيل الأصنام بعد عبادتهم الرحمن بحجهم الدنيا . وقال وهب : قرأت في بعض الكتب ، الدنيا غدنة الأكياس وغفلة الجهال لم يعرفوها حتى خرجوا منها ، فسألوا الرجمة فلم يرجعوا . وقال لقمان لابنه : يا بني إنك استدبرت الدنيا من يوم نزلتها واستقبلت الآخرة ، فأنت إلى دار تقرب منها أقرب من دار تباعد عنها . وقال سعيد بن مسعود : إذا رأيت العبد تزداد دنياه وتقص آخرته وهو به راض فذلك للمغبون الذي يلبس برجمه وهو لا يشعر . وقال عمرو بن العاص على الثبر : والله ما رأيت قوما قط أرغب فيما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزهد فيه منكم ، والله ما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث إلا والذي عليه أكثر من الذي له <sup>(١)</sup> وقال الحسن بعد أن تلا قوله تعالى ﴿ فلا تمنننكم الحياة الدنيا ﴾ من قال ذا ؟ قاله من خلقها ومن هو أعلم بها ، إياكم وما شغل من الدنيا فإن الدنيا كثيرة الأشغال ، لا يفتح رجل على نفسه باب شغل إلا أوشك ذلك الباب أن يفتح عليه عشرة أبواب . وقال أيضا : مسكين ابن آدم رضى بدار حلالها حساب وحرامها عذاب ، إن أخذه من حله حوسب به ، وإن أخذه من حرام عذب به ، ابن آدم يستقل ماله ولا يستقل عمله ، يفرح بمصيته في دينه ويحزن من مصيته في دنياه . وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز : سلام عليك ، أما بعد : فكأنك بآخر من كتب عليه الموت قد مات . فأجاب به عمر : سلام عليك ، كأنك بالدنيا ولم تكن وكأنك بالآخرة لم تزل . وقال الفضيل بن عياض الدخول في الدنيا هين ولكن الخروج منها شديد . وقال بعضهم : عجبا لمن يعرف أن الموت حق كيف يفرح ؟ وعجبا لمن يعرف أن النار حق كيف يضحك ؟ وعجبا لمن رأى قلب الدنيا بأهلها كيف يطمئن إليها ؟ وعجبا لمن يعلم أن القدر حق كيف ينصب ؟ ! وقدم على معاوية رضى الله عنه رجل من نجران عمره اثنتا سنة فسأله عن الدنيا كيف وجدها ؟ فقال : سنيات بلاء وسنيات رخاء ، يوم فيوم ولية فلية يولدوك وبهلك مالك ، فلو لا المولود لباد الخلق ولو لا الهالك ضاقت الدنيا بمن فيها . فقال له : سل ما شئت ، قال : عمر مضى فقدره أو أجل حضر فتدفعه ، قال : لا أمالك ذلك ، قال : لا حاجة لي إليك . وقال داود الطائي رحمه الله : يا ابن آدم فرحت بولوغ أمالك ، وإنما بلغتني باقتضاء أجلك ، ثم سؤفت بهملك كان منفعته لنفرك . وقال بشر : من سأل الله الدنيا فإني سأله بأسه طول الوقوف بين يديه . وقال أبو حازم : ما في الدنيا شيء يسرك إلا وقد ألصق الله إليه شيئا يسوءك . وقال الحسن : لا تخرج نفس ابن آدم من الدنيا إلا بمصرات ثلاث : أنه لم يشبع مما جمع ، ولم يدرك ما أمل ، ولم يحسن الزاد لما يقدم عليه . وقيل لبعض العباد : قد نلت الثنى ، فقال : إنما نال الثنى من عتي من رقي الدنيا . وقال أبو سليمان : لا يصبر

(١) حديث عمرو بن العاص : والله ما رأيت قوما قط أرغب فيما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزهد فيه منكم ... الحديث ، أخرجه الحاكم ومصححه ورواه أحمد وابن حبان بنحوه .

عن شهبوات الدنيا إلا من كان في قلبه ما يشغله بالآخرة . وقال مالك بن دينار : اصطالحنا على حب الدنيا فلا يأمر بعضنا بعضاً ولا ينهى بعضنا بعضاً ، ولا يدعنا الله على هذا ، فليت شمري أى عذاب الله ينزل علينا ؟ وقال أبو حازم : يسير الدنيا يشغل عن كثير الآخرة ، وقال الحسن . أهيئوا الدنيا فوالله ما هي لأحد بأهناً منها من أمانها . وقال أيضاً : إذا أراد الله بعبد خيراً أعطاه من الدنيا عطية ثم يسلك ، فإذا نفذ أعاد عليه ، وإذا هان عليه عبد بسط له الدنيا بسطاً . وكان بعضهم يقول في دعائه : يا مسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنك أمسك الدنيا عني . وقال محمد بن المنكدر : أرايت لو أن رجلاً صام الدهر لا يفطر ، وقام الليل لا ينام ، وتصدق بماله ، وجهاد في سبيل الله ، واجتنب حارم الله ، غير أنه يرقى به يوم القيامة فيقال : إن هذا عظم في عينه ما صغره الله ، وصغر في عينه ما عظمه الله كيف ترى يكون حاله ؟ فن منا ليس هكذا الدنيا عظيمة عنده مع ما اقترعنا من الذنوب والخطايا ؟ وقال أبو حازم : اشتدت مؤنة الدنيا والآخرة ، فأما مؤنة الآخرة فإنك لا تجد عليها أوتاناً ، وأما مؤنة الدنيا فإنك لا تضرب بيدك إلى شيء منها إلا وجدت فاجراً قد سبقك إليه . وقال أبو هريرة : الدنيا موقوفة بين السماء والأرض كالشئ اليابس تتأدى دوماً منذ خلقها إلى يوم يفتنها . يارب يارب لم تبغضني ؟ يقول لها : اسكني بالآخرة . وقال عبد الله بن المبارك : حب الدنيا والذنوب في القلب قد احتوشته ، فتن يصل الخيـر إليه ؟ وقال وهب بن منبه : من فرح قلبه بشيء من الدنيا فقد أخطأ الحكمة ، ومن جعل شهوته تحت قدميه فرق الشيطان من ظله ، ومن غلب عليه هواء فهو الغالب . وقيل لبشر : مات فلان فقال : جمع الدنيا وذهب إلى الآخرة ، ضيع نفسه قيل له : إنه كان يفعل ويفعل - وذكروا أرباباً من البر - فقال : وما ينفع هذا وهو يجمع الدنيا ؟ وقال بعضهم : الدنيا تبغض إلينا نفسها ونحن نحبا فكيف لو تحببت إلينا ؟ وقيل لحكيم : الدنيا لمن هي قال : لمن تركها ؟ فقيل الآخرة لمن هي ؟ قال : لمن طلبها وقال حكيم : الدنيا دار خراب وأخرى منها قلب من يعمرها ، والجنة دار عمران وأخرى منها قلب من يطلبها . وقال الجنيد : كان الشافعي رحمه الله من المريدين الناطقين بلسان الحق في الدنيا ، وعظماً خالفه الله وخوفه بالله فقال : يا أخى إن الدنيا دحس مرقة ودار مذلة ، عمراتها إلى الخراب صائر ، وساكنها إلى القبور زائر ، شملها على الفرقة موقوف ، وغناها إلى الفقر مصروف ، الإكثار فيها إفسار ، والإعصار فيها يسار ، فافزع إلى الله واراض برزق الله لا تنسلف من دار بقائك إلى دار فناءك ، فإن عيشتك فيه زائل وجدار مائل ، أكثر من عراك وأقصر من أملاك . وقال إبراهيم بن آدم لرجل : أدرهم في المنام أحب إليك أم دنبار في اليقظة . فقال دنبار في اليقظة فقال : كذبت ، لأن الذي تحبه في الدنيا كأنك تحبه في المنام ، والذي لا تحبه في الآخرة كأنك لا تحبه في اليقظة . وعن إسماعيل بن عياش قال : كان أصحابنا يسمون الدنيا خنزيرة فيقولون إليك عنا يا خنزيرة ، فلو وجدوا لها أساءة أقبح من هذا لسموها به . وقال كعب : لتحببن إليكم الدنيا حتى تعبدوها وأهلها . وقال يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله : العقلاء ثلاثة ، من ترك الدنيا قبل أن تتركه ، ومن قبل أن يدخله ، وأرضى خالقه قبل أن يلقاه . وقال أيضاً : الدنيا بلغ شؤماً أن تمتلك لما يملكك عن طاعة الله ، فكيف الوقوع فيها . وقال بكر بن عبد الله : من أراد أن يستغنى عن الدنيا بالدين كان كطفي النار بالثنين . وقال بندار : إذا رأيت أبناء الدنيا يتكلمون في الزهد فاعلم أنهم في سخرة الشيطان . وقال أيضاً : من أقبل على الدنيا أحرقت نيرانها - يعني الحرص - حتى يصير رماداً ، ومن أقبل على الآخرة صفته نيرانها فصار سيكاً ذهب ينتفع به ، ومن أقبل على الله عز وجل أحرقت نيران التوحيد فصار جوهراً لا حد لقيمته . وقال علي كرم الله وجهه : إنما الدنيا ستة أشياء ، مطعوم ومشروب وملبس ومركوب

ومنكوح ومشعوم ، فأشرف المطاعم العسل وهو مذقة ذباب ، وأشرف المشروبات الماء ويستوى فيه البر والفاجر ، وأشرف الملابس الحرير وهو نسج دودة ، وأشرف المركوبات الفرس وعليه يقتل الرجال ، وأشرف المنكوحات المرأة وهي مبال في مبال ، وإن المرأة لتزين أحسن شيء منها ويراد أن يفسد شيء منها ، وأشرف المشعومات المسك وهو دم

### بيان المواظ في ذم الدنيا وصفها

قال بعضهم : يا أيها الناس اعملوا على مهل ، وكونوا من الله على وجل ، ولا تغتروا بالأمل ونسيان الآجل ، ولا تركنوا إلى الدنيا فإنها غارة ختاعة ، قد تزخرف لكم بفرورها وتنتسك بآمانها ، وتزيث لحظاتها فأصبحت كالمرس المجلية ، العيون إليها ناظرة والقلوب عليها عاكفة والتفوس لها عاشقة ، فكمن عاشق لها قتلت ، ومعدن إليها خدات ، فانظروا إليها بعين الحقيقة فإنها دار كثير يراقتها وذهبا عاقها ، جديدها يبل ، وملكتها يفي ، وعريزها يذل ، وكثيرها يفل ، ودها يموت ، وخيرها يفوت ، فاستبقظوا رحمكم الله من غفلتكم ، واتقوا من رفدتكم قبل أن يقال فلان عليل أو مدنف ثقيل ، فهل على الدوام دليل ، وهل إلى الطيب من سبيل ؟ فتدعى لك الأطباء ولا يرجى لك الشفاء ثم يقال فلان أوصى والماله أحصى ، ثم يقال قد قتل لسانه فأيكلم إخوانه ولا يعرف جيرانه ، وعرق عند ذلك جبينك ، وتنايم أنينك ، وثبت بيقنك ، وطمحت جنونك ، وصدقت ظنونك ، وتلجج لسانك ، وبكى إخوانك ، وقيل لك هذا ابنك فلان ، وهذا أخوك فلان ومنعت من السلام فلا تطلق ، وختم على لسانك فلا ينطق ، ثم حل بك القضاء وانتزع نفسك من الأعضاء ، ثم عرج بها إلى السماء ، فاجتمع عند ذلك إخوانك وأحضر أكفانك ، ففسلوك وكفنوك ، فاقطع عزادك واستراح حسادك وانصرف أهلك إلى مالك ، وبقيت مرثيتها بأعمالك . وقال بعضهم لبعض الملوك : إن أحق الناس بذم الدنيا وقلاها من بسط له فيها وأعطى حاجته منها ، لأنه يتوقع آفة تمدو على ماله فتحتاجه أو على جمعه فتفرقه ، أو تأنق سلطانه فتقدمه من القواعد ، أو تدب إلى جسمه فتسقمه ، أو تفجسه بشيء هو ضنين به بين أحبائه ، فالدنيا أحق بالندم ، هي الآخذة مانعة ، الراجمة فيما تهب ، بيتنا هي تضحك صاحبها إذ اخشكت منه غيره ، وبيتنا تبكي له إذ أبكت عليه ، وبيتنا هي تبسط كفها بالإعطاء إذ بسطتها بالاسترداد ، فتعقد التاج على رأس صاحبها اليوم وتمفره بالتراب غدا ، سواء عليها ذهاب ما ذهب وبقاء ما بقي ، تجد في الباقي من الذاهب خلفا ، وترضى بكل من كل بدلا . وكتب الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز : أما بعد ، فإن الدنيا دار ظنن ليست بدار إقامة ، ولما أنزل آدم عليه السلام من الجنة إلى عقوبة ، فأحذرهما يا أمير المؤمنين فإن الزاد منها تركها . والفن منها قفرها . لما في كل حين قتيل . نذل من أعزها . وتفقر من جمعها . هي كالسم يأكله من لا يعرفه وفيه حتفه . فكن فيها كالداوي جراحه يحتمى قليلا مخافة ما يكره طويلا . ويصير على شدة الدواء مخافة طول الداء . فأحذر هذه الدار العتارة المحتالة التي قد تزيت بخندها وقتلت بفرورها وحلت بآمالها وسوّفت بطلباتها . فأصبحت كالمرس المجلية . العيون إليها ناظرة والقلوب عليها والهة والتفوس لها عاشقة وهي لازواجها كلهم قالية . فلا الباقي بالماضي مشتهر ولا الآخر بالأثر مزدرجر . ولا العارف بالله عز وجل حين أخبره عنها مذكر . فمأشوق لما قد ظفر منها بجاذبه فاعتر وطغى ونسى المعاد ، فشفل فيها له حتى زلت به قدمه ، فطمعت ندامته وكثرت حسره ، واجتمعت عليه سكرات الموت وتأله وحسرات القوت بنفسه . وراغب فيها لم يدرك منها ما طلب ولم يروح نفسه من التمس . فخرج بغير زاد وقدم

على غير مهاد ، فاحذرهما يا أمير المؤمنين وكن أسر ما تكون فيها احذر ما تكون لها ؛ فإن صاحب الدنيا كلما اطمأن منها إلى مرور شخصته إلى مكروه ، السا في أهلها غار ، ولتافع فيها غدار ضار ، وقد وصل الرغاء منها بالبلاء وجعل البقاء فيها إلى فناء ، فسروها مشوب بالأحزان لا يرجع منها ماولى وأدير ، ولا يدري ما هو آت فيقتظر . أما نية كاذبة وآمالها باطلة وصفوها كدر ، وعيشها نكد ، وابن آدم فيها على خطر ، وإن عقل ونظر فهو من السماء على خطر ومن البلاء على الحذر ، فلو كان الخائف لم يخبر عنها خبراً ولم يضرب لها مثلاً لسكانت الدنيا قد أيقظت الناس ونبت الغافل ، فكيف وقد جاء من الله عز وجل عن ابن عمر رضي الله عنهما في رواية عن النبي صلى الله عليه وسلم : « ما أتاكم من شيء فخذوا به » ، ولقد عرضت على نبيك صلى الله عليه وسلم بما فيها من خرافات لا يتقصده ذلك عند الله جناح بعوضة فأنى أن يقبلها <sup>(١)</sup> ، إذ ذكره أن يخالف على الله أمره أو يجب ما أبغضه خاتمه أو يرفع ما وضع ملكه ، فزواها عن الصالحين اختبأوا وبسطها لأعدائه اغتراراً ، فيظن للمغرور بها المقتدر عليها أنه أكرم بها ؛ ونسى ما صنع الله عز وجل بمحمد صلى الله عليه وسلم حين شد الحجر على بطنه <sup>(٢)</sup> ، ولقد جاءت الرواية عنه عن ربه عز وجل أنه قال لموسى عليه السلام : إذا رأيت النسي مقبلاً فقل ذنب عجبت عقيبته ، وإذا رأيت الفقر مقبلاً فقل مرحباً بشمار الصالحين ، وإن شئت اقتديت بصاحب الروح والكلمة عيسى ابن مريم عليه السلام فإنه كان يقول : إداى الجوع ، وشعارى الخوف ، ولباسى الصوف ، وصلاحى فى الشتاء فى مشارق الشمس ، وسراجى القمى ، وذابنى رجلاى ، وطعانى وفاكبنى ما أنبت الأرض ، أبيت وليس لى شيء ، وأصبح وليس لى شيء ، وليس على الأرض أحد أغنى منى . وقال وهب بن منبه : لما بعث الله عز وجل موسى وهرون عليهما السلام إلى فرعون قال : لا يرو عنكما لباسه الذى ليس من الدنيا ، فإن ناصيته يبدى ليس ينطق ولا يطف ولا يقتبس إلا لؤى ، ولا يجيبكما ما تتمتع به منها فلما هى زهرة الحياة الدنيا وزينة المترفين ، فلما شئت أن أرينكما بزيته من الدنيا يعرف فرعون حين يراها أن قدرته تسبح عما أوتيتها فلعلت ، ولكنى أرغب بكم عن ذلك فأزوى ذلك عنكما ، وكذلك أقبل بأولياى لئلا لأزودهم عن نعيمها كما يذود الراعى الشفيق غنمه عن مراعى الهلكة ، وإنى لأجنهم ملاذها كما يحجب الراعى الشفيق إبله عن منازل الغرة ، وما ذاك لخوانهم على ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتى سالماً موفراً ، إنما يتزين لى أولياى بالذلل والحقوف والخضوف والتقوى تثبت فى قلوبهم وتظهر على أجسادهم ، فهى يمايهن التى يلبسون وذوارهم الذى يظهرن ، وخيبرهم الذى يستشعرون ونجاتهم التى بها يفوزون ، ورجاؤهم الذى إياه يأملون ، ومجدهم الذى به يتفخرون ، وسبامهم التى بها يعرفون ، فلذا لتيتهم فأخفض لهم جناحك ، وذلل لهم قلبك ولسانك ، وأعلم أنه من أعاف لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة ، ثم أنا الثائر له يوم القيامة .

وخطب على كرم الله وجهه يوماً خطبة فقال فيها : اعلموا أنكم ميتون وميموتون من بعد الموت وموقوفون على أعمالكم ومجربون بها ، فلا تفزعكم الحياة الدنيا فإنها بالبلاء محفوفة وبالثناء مرفوقة وبالتدبر موصوقة ، وكل ما فيها إلى زوال وهى بين أهلها دول وبجبال ، لا تدوم أحوالها ولا يسلم من شرها نزالها ، بينا أهلها منها فى رخاء

(١) حديث الحسن وكتب به لى عمر بن عبد العزيز : عرضت على نبيك صلى الله عليه وسلم بما فيها من خرافات لا يتقصده ذلك عند الله جناح بعوضة فأنى أن يقبلها ... الحديث « أخرجه ابن أبى الدنيا هكذا مرسل ورواه أحمد الطبرانى متصل من حديث أبي موسى بن جعفر بن أبي أمامة حديث فيه « أنى قد أعطيت خرائق الدنيا والله ثم الجنة ... الحديث » وسنده صحيح وقدمته من حديث أبي أمامة « عرض على ربي ليعجل لى بطناء مكة فذهب ... الحديث » (٢) حديث الحسن مرسل فى شدته الحجر على بطنه . أخرجه ابن أبى الدنيا أيضاً هكذا ولا يخارى من حديث أس : ورضا عن بطون عن حجر حجر فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم حجرجين ، وقال حديث شريف .

وسرور إذا هم منها في بلاء وغرور . أحوال مختلفة وتارات منصرفه . العيش فيها مذموم والرغاء فيها لا يدوم وإنما أهلها فيها أغراض مستهدة . ترميهم بسهامها وتقصمهم بحماها . وكل حثفه فيها مقدور وحظه فيها موفر . واعلوا عباد الله أنكم وما أنتم فيه من هذه الدنيا على سبيل من قد مضى عن كل أطول منكم أعمارا وأشد منكم بطشا وأمر ديارا وأبعد آثارا . فأصبحت أصواتهم هامة غامدة من بعد طول تغلبها وأجسادهم بالية وديارهم على عروشها غاوية وآثارهم عافية . واستبدلوا بالقصور المشيدة والسرر والتمارق الممهدة . الصخور والأحجار المسندة في القبور اللاتحة الملمدة . فحلها مقرب وساكنها مقرب بين أهل عمارة موحشين وأهل محلة متشاغلين . لا يستأنسون بالعمران ولا يتواصلون تواصل الجيران والإخوان على ما بينهم من قرب المكان والجوار ودق النار . وكيف يكون بينهم قواصل وقد طحنهم بكسكه البلاء وأكلتهم الجنادل والثرى ؟ وأصبحوا بعد الحياة أمواتا وبعد نضارة العيش رقانا لجمعهم الأحياء وسكنوا تحت التراب . ظننوا فليس لهم إياب . هيهات هيهات ( كلا إنها كلمة موثاقلها ومن دراهم برزخ إلى يوم يبعثون ) فكان قد صرتم إلى ما صاروا إليه من البلاء والوحدة في دار النوى وارتفعت في ذلك المضجع وضحك ذلك المستودع . فكيف بكم لو عاينتم الأمور وبغفرت القبور وحصل ما في الصدور وأوقفتكم للتصديق بين يدى الملك الجليل فطارت القلوب لإشفاقها من سالف الذنوب وهتكت عنكم الحجب والاستار وظهرت منكم العيوب والأسرار ؟ هنالك تجزى كل نفس بما كسبت إن الله عز وجل يقول ( ليجزى الذى أسأمو بما عملوا ويجزى الذى أحسنوا بالحسنى ) وقال تعالى ( ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ) الآية جعلنا ذلك وإياكم عاملين بكتابة متبينين لأولياته حتى يعلموا وإياكم دار المقامة من فضله إنه حديد مجيد .

وقال بعض الحكماء : الأيام سهام والناس أغراض ، والدهر رميك كل يوم بسهامه ويخترمك بلياليه وإيامه حتى يستغرق جميع أجزائك ، فكيف بقاء سلامتك مع وقوع الأيام بك وسرعة البالي في بذك ؟ لو كسفت لك عما أحدثت الأيام فيك من القمص لاسترحشت من كل يوم يأتي عليك واستقلت عن الساعة بك ولكن تدبيره أوفى تدبير الاعتبار ، وبالسؤال عن غوائل الدنيا وجد طعم لذاتها ، وإنها لأمر من الملقم إذا نجها الحكم ، وقد أعيت الواصف لعيوبها بظاهر أفعالها ، وما تأنى به من المعائب أكثر مما يحيط به الرواظ ، اللهم أرشدنا إلى الصواب وقال بعض الحكماء وقد استوصف الدنيا وقدر بقائها فقال . الدنيا وقتك الذى يرجع إليك فيه طرفك ، لأن مامضى عنك فقد فارق إدراكه ، وما لم يأت فلا علم لك به ، والدهر يوم مقبل تنماه ليته وتطو به ساعاته ، وأحداثه تتوالى على الإنسان بالتغيير والتقصان ، والدهر موكل بشتيت الجماعات وانغرام الشمل وتقل الدول ، والأمل أطول والعمر قصير وإلى الله تصير الأمور .

وخطب عمر بن عبد العزيز رحمه الله عليه فقال : يا أيها الناس إنكم خلقت لأم إن كنتم تصدقون به فإنكم حق ، وإن كنتم تكذبون به فإنكم ملكي ، إنما خلقتم للأبد والكنكم من دار إلى دار تغفلون ، عباد الله إنكم في دار لكم فيها من طعامكم حصص ، ومن شرابكم شراب ، لا تصفون لكم نعمة تسرون بها إلا بفراق أخرى تكمرون فرافها ، فاعلموا لما أنتم صائرون إليه وعالون فيه . ثم غلبه البكاء ونزل .

قال على كرم الله وجهه في خطبه : أوصيكم بتقوى الله والترك للدنيا التاركة لكم وإن كنتم لا تحبون تركها ، للمبلىة أجسامكم وأنتم تريدون تجديد ما ، فإنما مثلكم ومثلها كمثل قوم في سفر سلكوا طريقاً وكانهم قطعوه ، وأفضوا إلى علم فكأنهم بلغوه ، وكفى عسى أن يجرى المجرى حتى ينتهى إلى الغاية ؟ وكفى عسى أن يبق من له يوم في

الدنيا وطالب حيث يطلبه حتى يفارقها ؟ فلا تجزعوا لبؤسها وخسارتها فإنه إلى انقطاع ، ولا تفرحوا بمناعتها ونعماتها فإنه إلى زوال ، عجت لطالب الدنيا والموت يطلبه ، وغافل وليس بمغفل عنه ،

وقال محمد بن الحسين : لما علم أهل الفضل والعلم والمعرفة والأدب أن الله عز وجل قد أمان الدنيا ، وأنه لم يرضها لأولياؤه ، وأنها عنده حقيرة قليلة ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم زهد فيها وحذر أصحابه من فتنها ، أكلوا منها قصداً وقذروا فضلاً ، وأخذوا منها ما يكتفي وتركوا ما يلهي ، لبسوا من الثياب ماستر العورة ، وأكلوا من الطعام أدناء ماستر الجوعة ، ونظروا إلى الدنيا بين أنها فانية ؛ وإلى الآخرة أنها باقية ، فتزودوا من الدنيا كزاد الزاكب يهربوا الدنيا وعمرها بها الآخرة ، ونظروا إلى الآخرة بقلوبهم فعلموا أنهم سينظرون إليها بأعينهم فارتحلوا إليها بقلوبهم لما علموا أنهم سيرتحلون إليها بأبدانهم ، فعبوا قليلاً وتمتعوا طويلاً ، كل ذلك بتوفيق مولاهم الكريم ، أحب ما أحب لهم وكره ما كره لهم .

### بيان صفة الدنيا بالأمثلة

اعلم أن الدنيا سريرة القناء قريبة الاقضاء ، تمد بالبقاء ثم تخلف في الوفاء ، تنظر إليها فتراها ساكنة مستقرة ، وهي سائرة سيرة ضيفا ومرحلة احتمالاً سرعياً ، ولكن الناظر إليها قد لا يحس بحركتها فيطمئن إليها ، وإنما يحس عند انقضائها ، ومثلها الظل فإنه متحرك ساكن متحرك في الحقيقة ساكن الظاهر ، لا تدرك حركته بالبصر الظاهر ، بل بالبصيرة الباطنة ، ولما ذكرت الدنيا عند الحسن البصري رحمه الله أنشد وقال :

أحلام نوم أو كظل زائل إن اليبس يمثلها لا يمدح

وكان الحسن بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يمثل كبيراً ويقول :

يا أهل لذات دنيا لا قيام لها إن اغتراراً بظل زائل حق

وقيل إن هذا من قوله . ويقال : إن أعراياً نزل بقوم فقدموا إليه طعاماً فأكل ، ثم قام إلى ظل خيمة لهم فنام هناك فانتلموا الخيمة فأصابته الشمس فانتبه ، فقام وهو يقول :

ألا إنما الدنيا كظل ثنية ولا بد يوماً أن ظلك زائل

وكذلك قيل :

وإن امرأ دنياه أكبر منه مستمسك منها بحبل غرور

مثال آخر لدنيا من حيث التفرير بخيالها ثم الإفلاس منها بعد إفلاتها . تشبه خيالات المنام وأصناف الأحلام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الدنيا حلم وأهلها عليها مجازون ومعاقبون <sup>(١)</sup> ، وقال يونس بن حديد . عاشبت نفسي في الدنيا إلا كرجل نام فرأى في منامه ما يكره وما يحب فينبهها وكذلك إذ انتبه ، فكذلك الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ، فإذا ليس بأيديهم شيء مما تركوا إليه وفرحوا به . وقبل لبعض الحكماء . أي شيء أشبه بالدنيا ؟ قال أحلام الناس .

مثال آخر لدنيا في عداوتها لأهلها وإهلاكها لبنيها . اعلم أن طبع الدنيا التلطف في الاستدراج أولاً والتوصل إلى الإهلاك آخرها ، وهي كاسمراء تزين للتطاب حتى إذا نكحتهم ذبحتهم . وقد روى أن عيسى عليه السلام كوشف بالدنيا فرأها في صورة عجوز هناء عليها من كل زينة ، فقال لها . كم تزوجت ؟ قالت . لا أحصيهم ، قال

(١) حديث « الدنيا حلم وأهلها عليها مجازون ومعاقبون » لم أجده أسلاً .

فكلهم مات عنك أم كلهم طلقك ؟ قالت : بل كلهم قتل ، فقال عيسى عليه السلام : يؤسأ لأزواجك الباقين كيف لا يمترون بأزواجك الماضين ! كيف تملكينهم واحدا بعد واحد ولا يكونون منك على خير ؟ ١ .

مثال آخر للدنيا في مخالفة ظاهرها لباطنها : اعلم أن الدنيا مزينة الطواهر فيحبه السراثر وهي شبه مجوز مزينة تجذب الناس بظاهرها ، فلذا وقفوا على باطنها وكشفوا القناع عن وجهها بمنزل لم يقاها فتدملوا على اتباعها وخجلوا من ضعف عقولهم في الاغترار بظاهرها . وقال الملا بن زياد : رأيت في المنام مجوزا كبيرة متمصبة لجلدها من كل زينة الدنيا والناس عكوف عليها معجبون ينظرون إليها ، لجشت ونظرت وتعجب من نظرم إليها وإنبلهم عليها فقلت لها : ويالك من أنت ؟ قالت : أو ما تعرفني ؟ قلت : لا أدري ! من أنت ؟ قالت : أنا الدنيا ، قلت : أعوذ بالله من شرك ! قالت : إن أحببت أن تماذ من شري فأبض الدرهم . قال أبو بكر بن عياش : رأيت في المنام اليوم مجوزا مشوهة شطاه تصفق بيديها وخلفها خلق يتبعونها ويصفقون ويرقصون ، فلما كانت بخنائ أقبلت على قالت : لو نظرت بك لصنعت بك مثل ما صنعت هؤلاء . ثم بكى أبو بكر وقال : رأيت هذا قبل أن أقدم إلى بغداد وقال الفضيل بن عياض : قال ابن عباس يؤتى بالدنيا يوم القيامة في صورة مجوز شطاه زرقاء ، أنياها بادية ومشوه خلفها ، فتشرف على الخلائق فيقال لهم أنعرفون هذه ؟ فيقولون : نعم ذاك من معرفة هذه ! فيقال : هذه الدنيا التي تاحترم عليها ، بها تقاطعتم الأرحام ، وبها تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم ، ثم يقذف بها في جهنم فتأدى : أي رب أين أتباعي وأشياعي ؟ فيقول الله عز وجل : ألحقوا بها أتباعها وأشياعها . وقال الفضيل : بلغني أن رجلا عرج بروحه فلذا امرأة على قارعة الطريق عليها من كل زينة من الحلى والثياب ، وإذا لا يمر بها أحد إلا جرحته ، فلذا هي أدبرت كانت أحسن شيء . رآه الناس ، وإذا هي أقبلت كانت أفج شيء . رآه الناس ، مجوز شطاه زرقاء غشاه قال : فقلت : أعوذ بالله منك ! قالت : لا واه . لا يبيذك الله مني حتى تبض الدرهم ! قال : فقلت من أنت ؟ قالت : أنا الدنيا .

مثال آخر للدنيا وعبور الإنسان بها : اعلم أن الأحوال ثلاثة : حالة لم تكن فيها شيئا وهي ما قبل وجودك إلى الأزل ، وحالة لا تكون فيها مشاهدا الدنيا وهي ما بعد موتك إلى الأبد ، وحالة متوسطة بين الأبد والأزل وهي أيام حياتك في الدنيا ؛ فانظر إلى مقدار طولها والنسب إلى طرفي الأزل والأبد حتى تعلم إنه أقل من منزل قصير في سفر بعيد . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « مالي والدنيا ! وإنيما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب سار في يوم صائف فرفعت شجرة فقال تحت ظلها ساعة ثم راح وتركها » (١) ، ومن رأى الدنيا بهذه العين لم يركن إليها ولم يبال كيف انقضت أيامه في ضر وضيق أو في سعة ورفاهية ، بل لا يبنى لبنة على لبنة . توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وما وضع لبنة على لبنة ولا قسبة على قسبة (٢) ورأى بعض الصحابة بني بيتا من جص فقال « أرى الأمر أجعل من هذا وأنكر ذلك » (٣) ، وإلى هذا أشار عيسى عليه السلام حيث قال : الدنيا قطرة فاعبروها ولا تمروها . وهو مثال واضح فإن الحياة الدنيا معبر إلى الآخرة ، والمهد هو الليل الأزل على رأس القطرة ، والمهد هو الليل الآخر ،

(١) حديث « مالي والدنيا إنما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب ... الحديث » أخرجه الترمذي وابن ماجة والحاكم من حديث ابن مسعود بنحو وزواه أحمد والحاكم وصححه من حديث ابن عيسى .

(٢) حديث : « موضع لبنة على لبنة ... الحديث » أخرجه ابن حبان في الثقات والطبراني في الأوسط من حديث مائة بسند ضيف « من سأل عني أو سره أن ينظر لي فليتنظر إلى أشمت شاحب مشر لم يضع لبنة على لبنة .. الحديث » (٣) حديث : رأى بشي أصحاب بني بيتا من جص فقال « أرى الأمر أجعل من هذا » أخرجه أبو داود والترمذي من حديث عبد الله بن عمرو وقال حسن صحيح .

وبينهما مسافة محدودة ، فمن الناس من قطع نصف القنطرة ، ومنهم من قطع ثلثها ، ومنهم من قطع ثلثيها ، ومنهم من لم يبق له إلا خطوة واحدة وهو غافل عنها . وكيفما كان فلا بد له من العبور ، والبناء على القنطرة وتزيينها بأصناف الزينة وأنت عابر عليها غاية الجهل والخذلان .

مثال آخر للدنيا في لين موردها وخشونة مصدرها : اعلم أن أوائل الدنيا تبدو هيئة لينه يظن الخائف فيها أن حلوة خفضها كالخوض في الحوض فيها وهيات ! فإن الخوض في الدنيا سهل والخروج منها مع السلامة شديد ، وقد كتب علي رضي الله عنه إلى سلمان الفارسي يثألها فقال : مثل الدنيا مثل الحية لين مسها ويقتل سمها ، فأعرض عما يعجبك منها لئلا ما يصحك منها ، وضع عنك همومها بما أيقنت من فراغها ، وكن أسر ماتكون فيها أحذر ماتكون لها ، فإن صاحبها كلما اطمان منها إلى مرور شخصه عنه مكروه والسلام .

مثال آخر للدنيا في تغدر الخلاص من تبعها بعد الخوض فيها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما مثل صاحب الدنيا كالسائح في الماء هل يستطيع الذي يمشي في الماء أن لا يتبل قدما » (١) ، وهذا يعرفك جهالة قوم ظنوا أنهم مخوضون في نعيم الدنيا بأبدانهم وقلوبهم منها مطهرة ، وعلاقتها عن بواطنهم منقطعة ، وذلك مكيدة من الشيطان بل لو أخرجوا تمام فيه لكانوا من أعظم المتفجعين بفراقها ، فكأن اللشي على الماء يقتضي بللا لأعماله ياتصق بالقدم فكذلك ملازمة الدنيا تقتضي علاقة وظلة في القلب ، بل علاقة الدنيا مع القلب تمنع حلوة العبادة . قال عيسى عليه السلام : « بحق أقول لكم ، كما ينظر المريض إلى الطعام فلا يلتذبه من شدة الوجد كذا صاحب الدنيا لا يلتذ بالعبادة ولا يجد حلوتها مع ما يجد من حب الدنيا ، وبحق أقول لكم ، إن الدابة إذا لم تتركب وتمتنع تصعب ويتغير خلقها كذلك القلوب إذا لم ترق بذكر الموت ونصب العبادة تقسو وتغلظ ، وبحق أقول لكم ، إن الزق مالم ينخرق أو يضل يوشك أن يكون وعاء للعسل كذلك القلوب مالم تحرقها الشهوات أو يدهنها الطمع أويدها التبعيم فسوف تكون أوعية للحسنة . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنما بقى من الدنيا بلاد وفئة وإنما مثل عمل أحدكم كمثل الوعاء إذا طاب أعلاه طاب أسفله وإذا خيب أعلاه خيب أسفله » (٢) .

مثال آخر لما بني من الدنيا وقتله بالإضافة لما سبق : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثل هذه الدنيا مثل ثوب شق من أوله إلى آخره فبق متعلقا بخيط في آخره فيوشك ذلك الخيط أن ينقطع » (٣) .

مثال آخر لتأدية علق الدنيا بعضها إلى بعض حتى الهلاك : قال عيسى عليه السلام : « مثل طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر كلما ازداد شربا ازداد عطشا حتى يقتله .

مثال آخر لخالفه آخر الدنيا أولها ولنضارة أوائلها وخيب عراقها ، اعلم أن شهوات الدنيا في القلب لذبة كشهوات الأطعمة في المعدة ، وسيد العبد عند الموت لشهوات الدنيا في قلبه من الكرامة والثمن والتبع ما يجده للأطعمة اللذبة إذا بلغت في المعدة غايته ، وكما أن الطعام كلما كان ألد طعما وأكث دسا وأظهر حلوة كان رجيمه أفقر وأشد نقا ، فكذلك كل شهوة في القلب هي أشهى والأدنى أقوى ، ففتنها وكراستها والتأذي بها عند الموت أشد

(١) حديث « إنما مثل صاحب الدنيا كمثل السائح في الماء ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب من رواية الحسن قال : « بئس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فذكره . ورواه البيهقي في الشعب وفي الزهد من رواية الحسن من أس (٢) حديث « إنما بقى من الدنيا بلاد وفئة ... الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث معاوية بن جعفر في موضعين ورواه ثقات (٣) حديث « مثل هذه الدنيا كمثل ثوب شق من أوله إلى آخره » أخرجه أبو الفيض ابن حبان في الثواب وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أس بن سدي صيف :



بل هي في الدنيا مشاهدة ، فإن من تبيت داره وأخذ أهله وماله وولده ، فتكون مصيبته وألمه وتفجعه في كل ما فقد بقدر لذته به وحبه له وحرصه عليه ، فكل ما كان عند الوجود أشبه عنده والأفقر عند الفقد آدمي وأمر ، ولا معنى للوت إلا فقد ما في الدنيا . وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لضحك بن سفيان السكاني : ألست ترقى بطعامك وقد ملح وقرح ثم تشرب عليه اللبن والماء ؟ قال : بلى ؛ قال : فألم يصير ، قال : إلى ما فقد علبت يا رسول الله ، قال : « فإن الله عز وجل ضرب مثل الدنيا بما يصير إليه طعام ابن آدم <sup>(١)</sup> » ، وقال أبي بن كعب : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الدنيا ضربت مثلاً لابن آدم فانظر إلى ما يخرج من ابن آدم وإن قرحه وملحه وإلام يصير <sup>(٢)</sup> » ، وقال الحسن : « قد رأيتهم يطيبونه بالأطوبى والطيب ثم يرمون به حيث رأيتهم وقد قال الله عز وجل (فلينظر الإنسان إلى طعامه) قال ابن عباس إلى جميعه وقال رجل لابن عمر إن أريد أن أسألك واستسعي قال فلا تستسعي وأسأل قال إذا قضى أحدنا حاجته فقام ينظر إلى ذلك منه قال نعم إن الملك يقول له انظر إلى ما بعثت به أنظر إلى ماذا صار . وكان بشر بن كعب يقول انطلقوا حتى أرىكم الدنيا فيذهب بهم إلى مزبلة فيقول انظروا إلى ثمارهم ودجاجهم وعصلهم ومنهم .

مثال آخر في نسبة الدنيا إلى الآخرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل مايجمل أحكم أصبه في اليم فلينظر أحدكم بم يرجع إليه <sup>(٣)</sup> » .

مثال آخر للدنيا وأهلها في اشتغالهم بنعم الدنيا وغفلتهم عن الآخرة وخسرانهم العظيم بسببها : اعلم أن أهل الدنيا مثلهم في غفلتهم مثل قوم ركبوا سفينة فأنهت بهم إلى جزيرة فأمرهم الملاح بالخروج إلى قضاها لما حقه وحذرهم المقام وخوفهم مرور السفينة واستمجالها ، فتفرقوا في نواحي الجزيرة فعضى بعضهم حاجته وبادر إلى السفينة فصادف المكان عالياً فأخذ أوسع الأماكن وألينها وأوقفها لمراده ، وبعضهم توقف في الجزيرة ينظر إلى أنوارها وأزهارها العجيبة وغياضها المتنفة ونفثات طيورها الطيبة وألحانها الموزونة الغريبة وصار يلحظ من ربيتها أحجارها وجواهرها ومعادنها المختلفة الألوان والأشكال الحسنة المنظر العجيبة القروش السالبة أعين الناظرين بحسن برجدها ومجائب صورها ، ثم تلبه لحظ فوات السفينة فرجع إليها فلم يصادف إلا مكاناً ضيقاً حرجاً فاستقر فيه : وبعضهم أكب على تلك الأصناف والأحجار وأعجبه حسناتها ولم تسمع نفسه بأهلها فاستصعب منها جملة ، فلم يجد في السفينة إلا مكاناً ضيقاً وزاده ما حله من الحجارة ضيقاً وصار ثقيلاً عليه وبالا ، فقدم على أخذها ولم يقدر على رميها ولم يجد مكاناً لوضعه ، فحمله في السفينة على عنقه وهو متأسف على أخذها وليس ينفعه التأسف . وبعضهم تولى التياض ونسى المركب وبعد في متفرجه ومتنزهه منه حتى لم يبلغه نداء الملاح لاشتغاله بأكل تلك الثمار واستغفيم تلك الأنوار والتفرج بين تلك الأبحار ، وهو مع ذلك غاف على نفسه من السباع وغيره خال من السقطات

(١) حديث : أنه قال لضحك بن سفيان السكاني : ألست ترقى بطعامك وقد ملح وقرح ... الحديث . وفيه : « فإن الله ضرب مثل الدنيا لما يصير إليه طعام ابن آدم » أخرجه أحمد والطبراني من حديث بنعومويه عن يزيد بن جهمان بخلف فيه (٢) حديث أبي بن كعب : أن الدنيا ضربت مثلاً لابن آدم ... الحديث . أخرجه الطبراني وابن حبان بلفظ : « إن مطعم ابن آدم قد ضرب الدنيا مثلاً ورواه عبد الله بن أحمد في زياداته بلفظ « جبل » (٣) حديث : أن الله ضرب الدنيا لمطعم ابن آدم مثلاً وضرب مطعمها ابن آدم الدنيا مثلاً ... الحديث « الفطر الأول منه غرب والفطر الأخير هو الذي تقدم من حديث الضحاك بن سفيان » أن الله ضرب ما يخرج من بني آدم مثلاً للدنيا » (٤) حديث : « ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل مايجمل أحدكم أصبه في اليم فلينظر بم يرجع إليه » أخرجه مسلم من حديث المسعودي بن شداد .

والنكبات ، ولا تنفك عن شوك ينشب بنباه وغضن يجرح بدنه وشوكه تدخل في رجله وصوت هائل يفرع منه وعوسج يخرق ثيابه ويبتلك عورته وينم عن الانصراف لو أراد ، فلما بلغه نداء أهل السفينة انصرف متقلبا معها ولم يجد في المركب موضعا يقي في الشط حتى مات جوعا . وبعضهم لم يبلغه النداء وسارت السفينة ففهم من اقترسته السباع ، ومنهم من تاه ففهم على وجهه حتى هلك ، ومنهم من مات في الأوحال ، ومنهم من نهشته الحيات ، فتقرقوا كالجيف اللثة .

وأما من وصل إلى المركب بقل ما أخذه من الأثمار والأحجار ، فقد استقرته وشغله الحزن بحفظها والخوف من فوتها وقد ضيقت عليه مكانه ، فلم يلبث أن ذبلت تلك الأزهار وكادت تلك الألوان والأحجار تظهر نتن رائحتها فصارت مع كونها مضيقة عليه مؤذية له بنتها ووحشتها . فلم يجد حيلة إلا أن ألفاها في البحر هربا منها ، وقد أثر فيه ما أكل منها فلم يثب إلى الوطن إلا بعد أن ظهرت عليه الأسقام بتلك الروائح فبلغ سقيا مديرا . ومن رجع قريبا مائة إلا سمة الخمل فتأذى بضيق المكان مدة ، ولكن لما وصل إلى الوطن استراح ، ومن رجع أظلا وجد المكان الأوسع ووصل إلى الوطن سالما . فهذا مثال أهل الدنيا في اشتغالهم بحفظهم العاجلة ونسيانهم مورد مصادرها وغفلتهم عن عاقبة أمورهم . وما أقبح من يزعم أنه بصير عاقل أن تنزه أحجار الأرض وهي الذهب والفضة ومشيم التبت وهي زينة الدنيا ، وشيء من ذلك لا يصحبه عند الموت بل يصير كلا وبالا عليه وهو في الحال شاغل له بالحزن والخوف عليه . وهذه سائر الخلق كلهم إلا من عصمه الله عز وجل .

مثال آخر لاغترار الخلق بالدنيا وضيق إيمانهم : قال الحسن رحمه الله بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : إنما مثل وملككم ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مغارة غبراء ، حتى إذا لم يدروا ، ما سلكوا منها أكثر أو ما بقى ؟ أتعدوا الزاد وخسروا الظهور ويقولون ظهروا في المغارة ولا زاد ولا حيلة فألقوا بالملك ، فبينما هم كذلك إذ خرج عليهم رجل في حلة قطر رأسه ، فقالوا : هذا قريب عهد بريف وما جاءكم هذا إلا من قريب ، فلما انتهى إليهم قال : يا هؤلاء ؟ فقالوا : يا هذا ؟ فقال علام أنتم ؟ فقالوا : على ما ترى ، فقال : أرايتكم إن هديتكم إلى ماء رواء ورياض خضرا ما تعلمون ؟ قالوا : لا نعميك شيئا ، قال : عهدكم ومواثيقكم بالله ، فأعطوه عهدكم ومواثيقكم بالله لا يصونه شيئا قال : فأوردكم ماء رواء ورياضا خضرا فكثب فيهم ما شاء الله ثم قال : يا هؤلاء ؟ قالوا : يا هذا ؟ قال : الرحيل ؟ قالوا : إلى أين ؟ قال : إلى ماء ليس بأكسركم وإلى رياض ليست كرياضكم ، فقال أكثرهم : والله ما وجدنا هذا حتى ظننا أننا لن نجد وما نضع بيدش خير من هذا ؟ وقالت طائفة : وهم أقلهم - ألم تعطوا هذا الرجل عهدكم ومواثيقكم بالله أن لا تمسوه شيئا وقد صدقكم في أول حديثه فوائده ليصدقكم في آخره ؟ فراح فيمن أتبعه وتحلف بيمينهم فهدم عدو فأصبحوا بين أسير وقتيل <sup>(١)</sup> .

ومثال آخر لتعمد الناس بالدنيا ثم تفجهم على أرفاقها : أعلم أن مثل الناس فيما أعطوا من الدنيا مثل رجل هيا دارا وزينها وهو يدعو إلى داره على الترتيب قوما ، واحداً بعد واحد ، فدخل واحد داره فقدم إليه طبق ذهب عليه بنور وراحين ليشمه ويتركه لمن بعده ، لا يئتملكه ويأخذه ، بل يهل رسبه وظن أنه قد وهب ذلك فتملق به قلبه لما ظن أنه له ، فلما استرجع منه حجر وتلجم ، ومن كان عالما برسمه انتفع به وشكره ووده بطيب قلب

(١) حديث الحسن : بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : إنما مثل وملككم ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مغارة غبراء . أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا بطوله لأحد الوزراء والقبائل من حديث ابن عباس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه فيها يرى الأمم مملكان الحديث وفيه : فقال أي أحد المسكين لمن مثل هذا ومثل أمته كمثل قوم سلكوا دارا فملاها ، فذكر نحوه أنصرف منه ولست أدري .

وانشراح صدر ، وكذلك من عرف سنة الله في الدنيا علم أنها دار ضيافة سبكت على المجتازين لاعلى المقيمين ليتزودوا منها وينفتحوا بما فيها كما ينفتح المسافرون للعواري ، ولا يصرفون إليها كل قلوبهم حتى تعظم مصيبتهم عند فراقها . فهذه أمثلة الدنيا وأقاربها وغرائها نسال الله تعالى العليف الخبير حسن العون بكرمه وحله .

### بيان حقيقة الدنيا وماهيتهما في حق العبد

اعلم أن معرفة ذم الدنيا لاكتفيك مالم تعرف الدنيا المذمومة ما هي ؟ وما الذي ينبغي أن يجنب منها وما الذي لا يجنب ؟ فلا بد وأن نبين الدنيا المذمومة المسامور باجتنابها لكونها عدوة قاطعة لطريق الله ما هي ؟ فنقول : دنياك وآخرتك عبارة عن حالتين من أحوال قلبك ، فالقريب الثاني منها يسمى دنيا وهو كل ما قبل الموت ، والمترأى المتأخر يسمى آخرة وهو ما بعد الموت ، فكل ما لك فيه حظ ونصيب وغرض وشهوة ولذة عاجل الحال قبل الوفاة فهي الدنيا في حقه إلا أن جمع مالك إليه ميل وفيه نصيب وحظ فليس بمذموم بل هو ثلاثة أقدام . القسم الأول : ما يصحبه في الآخرة وتبقى معك ثمرته بعد الموت وهو شيان : العلم والعمل فقط ؛ وأغنى بالعلم : العلم بالله وصفاته وأفعاله وملائكته وكتبه ورسله وملائكته أرضه وسماؤه والعلم بشريعة نبيه وأغنى بالعمل . العبادة الخالصة لوجه الله تعالى ، وقد يأنس العالم بالعلم حتى يصير ذلك أحد الأشياء عنده فيبهج التوم والمطمع والمنسكح في لذته لأنه أشهى عنده من جميع ذلك فقد صار خطأ عاجلا في الدنيا . ولكننا إذا ذكرنا الدنيا للمذمومة لم نعد هذا من الدنيا أصلا بل قلنا إنه من الآخرة ، وكذلك العابد قد يأنس بعبادته فيستلذ بها بحيث لو منع عنها لكان ذلك أعظم القربات عليه ، حتى قال بعضهم : ما أخاف من الموت إلا من حيث يحول بيني وبين قيام الليل ، وكان آخر يقول : اللهم ارزقني قوة الصلاة والركوع والسجود والقبر . فهذا قد صارت الصلاة عنده من حظوظه العاجلة وكل حظ عاجل فاسم الدنيا ينطلق عليه من حيث الاشتقاق من الدنو ، ولكننا لسنا نغني بالدنيا المذمومة ذلك ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « حجب إلى من دنيا كم ثلاث : النساء والطيب وقرة عين في الصلاة »<sup>(١)</sup> ، فجعل الصلاة من جملة ملاذ الدنيا . وكذلك كل ما يدخل في الحس والمشاهدة فهو من عالم الشهادة وهو من الدنيا ، والتلذذ بتحريك الجوارح بالركوع والسجود إنما يكون في الدنيا فذلك أعفاه إلى الدنيا إلا أنا لسنا في هذا الكتاب نعرض إلا للدنيا المذمومة ، فنقول هذه ليست من الدنيا .

القسم الثاني : وهو المقابل له على الطرف الأقصى كل ما فيه حظ عاجل ولا ثمرة له في الآخرة أصلا ، كالتلذذ بالمعاصي كلها والتنعم بالمباحة الزائدة على قدر الحاجات ، والضرورات الداخلة في جملة الرفاهية والزعونات ، كالتنعم بالفتاخير المنقطعة من الذهب والفضة والخييل المسومة والأنعام والحراث والتلبان والجوارى والخيول والمواشى والتقصود والدور ورفيع الثياب ولذات الأطلعة ، لحظ العبد من هذا كله هي الدنيا المذمومة وفيها يد فضلوا أدنى عمل الحاجة نظر طويل ، إذ زوى عن عمر وحسن الله أنه استعمل أبا الدرداء على حصص فاتفق كيفا أفتق عليه درهمين ، فكتب إليه عمر : من عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عويمر ، قد كان لك في بناء فارس والروم ما تنكفي به عن عمران الدنيا حين أراد الله خرابها ، فإذا أتاك كتابي هذا فقد سيرتك إلى دمشق أنت وأهلك . فلم يزل بها حتى مات . فهذا رأه فضولا من الدنيا فتأمل فيه .

(١) حديث « حجب إلى من دنيا كم ثلاث : النساء والطيب والنساء وقرة عين في الصلاة » أخرجه السنن والطحاوي من حديث أسد دون قوله ثلاث ، وعدم في النسخ .

القسم الثالث : وهو متوسط بين الطرفين كل حظ في العاجل معين على أعمال الآخرة كقدر القوت من الطعام والقميص الواحد الحشن ، وكل ما لا بد منه لبتأني للإنسان البقاء والصحة التي بها يتوصل إلى العلم والعمل . وهذا ليس من الدنيا كالقسم الأول ، لأنه معين على القسم الأول ووسيلة إليه . فهما تناوله العبد على قصد الاستئانة به على العلم والعمل لم يكن به متناولا للدنيا ، ولم يصر به من أبناء الدنيا ، وإن كان باعثه الحظ العاجل دون الاستئانة على التقوى التحق بالقسم الثاني وصار من جملة الدنيا . ولا يبق مع العبد عند الموت إلا ثلاث صفات : صفاء القلب ؛ أعنى طهارته عن الآذناس ، وأنه بذكر الله تعالى ، وجهه عز وجل . وصفاء القلب وطهارته لا يحصلان إلا بالكف عن شهوات الدنيا والآنس لا يحصل إلا بكثرة ذكر الله تعالى والمواظبة عليه والحلب لا يحصل إلا بالمعرفة . ولا تحصل معرفة الله إلا بدوام الفكر وهذه الصفات الثلاث هي المنجيات المسعدات بعد الموت .

أما طهارة القلب عن شهوات الدنيا فهي من المنجيات إذ تكون جنة بين العبد وبين عذاب الله كما ورد في الأخبار ، وإن أعمال العبد تاضل عنه فإذا جاء العذاب من قبل رجله جاء قيام الليل يدفع عنه وإذا جاء من جهة يديه جاءت الصدقة تدفع عنه <sup>(١)</sup> . الحديث .

وأما الآنس والحلب فهما من المسعدات وهما موصلان العبد إلى لذة القاء والمشااهدة ، وهذه السعادة تتمتعل عقيب الموت إلى أن يدخل أروان الرزبة في الجنة ، فيصير القبر وروضة من رياض الجنة ، وكيف لا يكون القبر عليه وروضة من رياض الجنة ولم يكن له إلا محبوب واحد ؟ وكانت العواقر تعرفه عن دوام الآنس بدوام ذكره ومطالعة جماله ، فارتفعت العواقر وأفلت من السجن وخلي بينه وبين محبوبه فقدم عليه مسرورا سليا من الموانع آمنا من العواقر ؟ وكيف لا يكون محب الدنيا عند الموت معذبا ولم يكن له محبوب إلا الدنيا وقد غصب منه وحيل بينه وبينه وسئلت عليه طرق الحيلة في الرجوع إليه ؟ ولذلك قيل :

ما حال من كان له واحد شيب عنه ذلك الواحد

وليس الموت عدما إنما هو فراق لحباب الدنيا وقدم على الله تعالى . فإذا سالك طريق الآخرة هو المرابط على أسباب هذه الصفات الثلاث وهي الذكر والفكر والعمل الذي يقطعه عن شهوات الدنيا ويبفض إليه ملاذها ويقطعه عنها ، وكل ذلك لا يمكن إلا بصحة البدن ، وصحة البدن لا تتصل إلا بقوت وملبس وسكن ، وبحسب كل واحد إلى أسباب . فالتقدير الذي لا بد منه من هذه الثلاثة إذا أخذه العبد من الدنيا للآخرة لم يكن من أبناء الدنيا وكانت الدنيا في حقه مزرة للآخرة ، وإن أخذ ذلك لحظ النفس وعمل قصد التتميم صار من أبناء الدنيا والراغبين في حظوظها ، إلا أن الرغبة في حظوظ الدنيا تنقسم إلى ما يمرض صاحبه لعذاب الآخرة ويسمى ذلك حراما ، وإلى ما يجوز بينه وبين الدرجات العلا ويمرضه لطول الحساب ويسمى ذلك حلالا . والبصير يعلم أن طول الموقف في عرصات القيامة لأجل المحاسبة أيضا عذاب فمن نوقض الحساب عذب <sup>(٢)</sup> . إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حلالها حساب وحرامها عذاب » <sup>(٣)</sup> ، وقد قال أيضا : « حلالها عذاب » ، لإلزامه عذاب أخف من عذاب الحرام ،

(١) حديث : مناقشة أعمال العبد فهذا جاء العذاب من قبل رجله جاء قيام الليل فدفع عنه . . الحديث « أخرجه الطبراني من حديث عبد الرحمن بن سمرة بطوله وفيه خالد بن عبد الرحمن الخزرجي ضعف البخاري وأبو حاتم ولا أحد من حديث أسماء بنت أبي بكر » لذا دخل الإنسان قبره لأن كان مؤثما أحزبه عمله الصلوات الصيام . . الحديث « وإسناده صحيح » (٢) حديث من نوقض الحساب عذب « متفق عليه من حديث عائشة » (٣) حديث « حلالها حساب وحرامها عذاب » أخرجه ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب من طريقه موقوف على علي بن أبي طالب بإسناد منقطع بلفظ « وحرامها إنار » ولم أجد مرفوعا .

بل لو لم يكن الحساب لكان مايقوت من الدرجات العلا في الجنة ومايرد على القلب من التحسر على تفويتها لحظوظ فقيرة خسية لايقا لها هو أيضاً عذاب ، وقس به حالك في الدنيا إذا نظرت إلى أفرانك وقد سبقك بسعادات دنيوية كيف يقطع قلبك عليها حشرات مع عليك بأنها سعادات منصرفة لايقا لها ؛ منفضة بكدورات لاصفاء لها فإ حالك في فوات سعادة لايميطها وصف يعظمها وتقطع الدهور دونها ؛ فما تسكن من تتم في الدنيا ولو سماع صوت من طائر أو بالنظر إلى خضرة أو شربة ماء بارد فإنه ينقص من حظه في الآخرة أضعافه ، وهو المعنى بقوله صلى الله عليه وسلم لعمر رضي الله عنه « هذا من النعم الذي تسئل عنه »<sup>(١)</sup> ، وأشار به إلى الماء البارد . والتعرض لجواب ، السؤال فيه ذل وخوف وخطر ومشقة وانتظار ، وكل ذلك من نقصان الحظ ، ولذلك قال عمر رضي الله عنه : أعزوا عني حسابها ، حين كان به عطش فعرض عليه ماء بارد بعسل فأداره في كفه ثم امتنع عن شربه ، فالدنيا قليلها وكثيرها حرامها وحلالها ملعونة إلا ماأمان على تقوى الله ، فإن ذلك القدر ليس من الدنيا . وكل من كانت معرفته أقوى وأتمن كان حذره من نعيم الدنيا أشد ، حتى إن عيسى عليه السلام وضع رأسه على حجر لا نام ثم رماه ، إذ نزل له إيليس وقال : رغب في الدنيا ! وحتى إن سليمان عليه السلام في ملكه كان يطعم الناس لئلا تذ الأظعمة وهو يأكل خبز الشعير ، فجعل الملك على نفسه هذا الطريق امتناناً وشدة ، فإن الصبر عن لئلا تذ الأظعمة مع القدرة عليها ووجودها أشد ولهذا روى أن الله تعالى زوى الدنيا عن نبينا صلى الله عليه وسلم فكان يطوى أياماً<sup>(٢)</sup> . وكان يشد الحجر على بطنه من الجوع<sup>(٣)</sup> ، ولهذا سخط الله البلاء والمحن على الأنبياء والأولياء ثم الأمثل فالأمثل ، كل ذلك نظراً لهم وامتناناً عليهم ليتوفروا في الآخرة حظهم كما يمنع الوالد الشقيق ولده لئلا يفراقه ، ويلزم أم الفصد والحجامة شفقة عليه وحباله لايجلا عليه . وقد عرفت بهذا أن كل ما ليس لله فهو من الدنيا وما هو لله فذلك ليس من الدنيا .

فإن قلت : فما الذي هو ؟ فأقول : الأشياء ثلاثة أقسام : منها ما لا يتصور أن يكون لله وهو الذي يعبر عنه بالمعاصي والمخطورات وأنواع التمتع في المباحات ، وهي الدنيا المحضة المذمومة ، فهي الدنيا صورة ومعنى ومنها ماصورته لله ويمكن أن يجعل لغير الله فهو ثلاثة : الفسك . والذكر والكف عن الشهوات فإن هذه الثلاثة إذا جرت سرا ولم يكن عليها باعث سوى أمر الله واليوم الآخر فهي لله وليست من الدنيا ، وإن كان الغرض من الفكر طلب العلم للتشرف به وطلب القبول بين الخلق بإظهار المعرفة أو كان الغرض من ترك الشهوة حفظ المال أو الحمية لصحة البدن والاشتيار بالزهد ، فقد صار هذا من الدنيا بالمعنى وإن كان يظن بصورته أنه لله تعالى . ومنها ماصورته لحظ النفس ويمكن أن يكون معناه لله ، وذلك كالأكل والشكاح وكل مايرتبط به بقاؤه وبقاء ولده ، فإن كان القصد . حفظ النفس فهو من الدنيا وإن كان القصد الاستعانة به على التقوى فهو لله بمعناه وإن كانت صورته صورة الدنيا . قال دلي الله عليه وسلم « من طلب الدنيا حلالاً مكثراً فإفرا إلى الله وهو عليه غضبان ومن طلبها استغفافاً عن المسألة وصيانة لنفسه جاء يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر »<sup>(٤)</sup> ، فانظر كيف اختلف ذلك بالقصد ، فإذا الدنيا حظ نفسك العاجل الذي لا حاجة إليه لأمر الآخرة ويعبر عنه بالمحوى ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ ونهى النفس عن

(١) حديث هذا من النعم الذي تسئل عنه تقدم في الأظعمة (٢) حديث : زوى الله الدنيا عن نبينا صلى الله عليه وسلم فسكن يطوى أياماً أخرجه محمد بن حنفية في شرف الفقراء من حديث عمر بن الخطاب قال : قلت يا رسول الله عجباً لك الله لم الدنيا وزوامعك ... الحديث . وهو من طريق إسحاق مختاراً لفرمذى وابن ماجه من حديث ابن عباس : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يبيت الليالي المتتابعة طاولاً وأمله ... الحديث . قال الترمذي حسن صحيح (٣) حديث : كان يشد الحجر على بطنه من الجوع . تقدم . (٤) حديث « من طلب الدنيا حلالاً مكثراً فإفرا إلى الله وهو عليه غضبان ... الحديث » أخرجه أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة بسند ضعيف

الموى فلان الجنة هي للموى ﴿ وبما جمعه الموى خمسة أمور : وهي ما جمعه الله تعالى في قوله ﴿ إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد ﴾ والأعيان التي تحصل منها هذه الخمسة سبعة : مجملها قوله تعالى ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحراث ذلك مشاع الحياة الدنيا ﴾ فقد عرفت أن كل ما هو لله فليس من الدنيا ، وقدر ضرورة القوت وما لا بد منه من مسكن وملبس هو لله إن قصد به وجه الله ، والاستكثار منه تتمم وهو غير الله . وبين التمتع والضرورة درجة يعبر عنها بالحاجة . ولها طرفان واسطة : طرف يقرب من حد الضرورة فلا يضر فلان الاقتصاء على حد الضرورة غير ممكن ، وطرف يراحم جانب التمتع ويقرب منه وينبئ أن يحقر منه ، وبينهما وساطة متشابهة ومن حام حول الحى يوشك أن يقع فيه .

والحرم في الحذر والتقوى والتقرب من حد الضرورة ما أمكن اقتداء بالأنبياء والأولياء عليهم السلام ؛ إذ كانوا يردون أنفسهم إلى حد الضرورة حتى إن أويس القرني كان يظن أنه مجنون لشدة تضيقه على نفسه ، فبناها بيتا على باب دارهم فكان يأتي عليهم السنة والشتان والثلاث لا يرون له وجها ، وكان يخرج أول الأذان ويأتي إلى منزله بعد المشاء الأخيرة ، وكان طعامه أن يلتقط الثرى ، وكلما أصاب حشفة خباها لإفطاره وإن لم يصب ما يقوته من الخشب باع الثرى واشترى بثمنه ما يقوته ، وكان لباسه ممسا يلتقط من المزابل من قطع الأكسية فيفسلها في الثغرات ويلقى بعضها إلى بعض ثم يلبسها ، فكان ذلك لباسه وكان ربما سر الصبيان فيرمونه ويظنون أنه مجنون ، فيقول لهم يا هؤلاء إن كنتم ولا بد أن ترموني فأردوني بأحجار صغار فلان أخاف أن تدموا عني ، فيحضر وقت الصلاة ولا أميب الماء ، فهكذا كانت سيرته . ولقد عظم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره فقال : إني لأجد نفس الرحمن من جانب اليمن إشارة إليه رحمه الله <sup>(١)</sup> ، ولما ولي الخلافة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قال : أيها الناس من كان متكب من العراق فليقم ، قال : فقاموا . فقال : اجلسوا إلا من كان من أهل الكوفة ، جلسوا ، فقال : اجلسوا إلا من كان من مراد ، جلسوا فقال : اجلسوا إلا من كان من قرن ، جلسوا كلهم إلا رجلا واحدا فقال له عمر : أفرني أنت ؟ فقال : نعم فقال : أنعرف أويس بن عامر القرني ؟ فوصفه له ، فقال : نعم وما ذاك تسأل عنه يا أمير المؤمنين ؟ والله ما فني أحق منه ولا أجن منه ولا أوحش منه ولا أدنى منه ، فبكى عمر رضى الله تعالى عنه ثم قال : ما قلت ما قلت إلا لأن سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « يدخل في شفاعته مثل ربيعة ومضر » <sup>(٢)</sup> ، فقال لهم بن حيان : لما سمعت هذا القول من عمر بن الخطاب قدمت الكوفة فلم يكن لي ثم إلا أن أطلب أويسا القرني وأسأل عنه ، حتى سقطت عليه جالسا على شاطئ الثغرات نصف النهار يتوضأ يرسل ثوبه ، قال : ففرقت بالثمن الذي نعت لي ، فلذا رجل لحيم شديد الأدمة مخلوق الرأس كش الحية متغير جدا كره الوجه متيبس المنظر قال : فسلبت عليه فرد على السلام ونظر إلى ، فقلت : حياك الله من رجل ومددت يدي لأصالحه فأبى أن يصالحني ، فقلت : رحلك الله يا أويس وغفر لك كيف أنت رحلك الله ؟ ثم خففتي البكرة من جي زياه ورتقي عليه إذ رأيت من حاله ما رأيت حتى بكيت وبكى ، فقال : وأنت لحياك الله يا عمر بن حيان كيف أنت يا أخي ومن ذلك على ؟ قال : قلت الله فقال :

(١) حديث « إني لأجد نفس الرحمن من جانب اليمن » أشار به إلى أويس القرني لعدم في قواعد العقائد لم أجد له أصلا .  
(٢) حديث عمر « يدخل الجنة في شفاعته مثل ربيعة ومضر » يريد أويسا ورواه في جزء ابن السكيت من حديث أبي أمامة « يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتي أكثر من ربيعة ومضر » وإسناده حسن ، وليس فيه ذكر لأويس بل في آخره : فكان للبيعة يوم أن ذكاه الرجل ثمانين بن طمان .

لا إله إلا الله سبحانه الله ( إن كان وعد ربنا لمفعولا ) قال : فنجبت حين عرفني ولا والله ما رأيت قبل ذلك ولا رأيي أفقلت : من أين عرفت اسمي واسم أبي وما رأيته قبل اليوم ؟ ( قال نبأني العليم الخبير ) وعرفت روعي وروحك حين كلمت نفسي نفسك ، إن الأرواح لها أنفُس كأنفُس الأجساد وإن المؤمنين ليُعرف بعضهم بعضا ويتحايون بروح الله وإن لم يلتقوا ، يتمازفون ويتكلمون وإن نأت بهم العباد وتفرقت بهم الشياطين ، قال : قلت حدثني رحمة الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديث أحسنه منك قال إنني لم أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تكن لي معه صحبة : بأبي وأمي رسول الله ، ولكن رأيت رجلا قد صحبه وبلغني من حديثه كما بلغك ولست أحب أن أفتح على نفسي هذا الباب أن أكون محمدا أو مفتيا أو قاضيا في نفس شغل عن الناس ياهرم بن حيان أفقلت : يا أخى اقرأ على آية من القرآن اسمها منك وادع لي بدعوات وأوصني بوصية أحفظها عنك فإني أحبك في الله حيا شديدا ، قال : فقام وأخذ يدي على شاطئ القرات ثم قال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، ثم بكى . ثم قال : قال ربي والحق قول ربي وأصدق الحديث حديثه وأصدق الكلام كلامه ، ثم قرأ ( وما خلقتنا السموات والأرض وما بينهما لالعين ما خلقتكما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون ) حتى انتهى إلى قوله ( إنه هو العزيز الرحيم ) فشقق شقيقة ظننت أنه قد غشى عليه ثم قال : يا ابن حيان مات أبوك حيان ويوشك أن تموت فلما إلى جنة وإما إلى نار ، ومات أبوك آدم ومات أمك حواء ومات نوح ومات إبراهيم خليل الرحمن ومات موسى نبي الرحمن ومات داود خليفة الرحمن ومات محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم وهو رسول رب العالمين ، ومات أبو بكر خليفة المسلمين ومات عمر بن الخطاب أخى وصفي ، ثم قال : يا عمر يا عمر ، قال : فقلت رحمة الله إن عمر لم يم ، قال : فقد نعا إلى ربي ونعى إلى نفسي ! ثم قال : أنا وأنت في الموق كأنه قد كان ، ثم صلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم دعا بدعوات خفيات ، ثم قال . هذه وصيتي إياك ياهرم بن حيان كتاب الله ونهج الصالحين للمؤمنين فقد نصبت إلى نفسي ونفسك ، عليك بذكر الموت لا يفارق قلبك طرفه حين ما بقيت ، وأبذر قومك إذا رجعت إليهم والنصح للامة جميعا ، وإياك أن تفارق الجماعة قيد شبر فتفارق دينك وأنت لاتعلم فتدخل النار يوم القيامة ، ادع لي ونفسيك ، ثم قال : اللهم إن هذا يزعم أنه يحبني فيك وزارني من أهلك فعرفني وجهي الجنة وأدخله علي في دارك دار السلام واحفظه مادام في الدنيا حيا كان وضم عليه شيعته وأرضه من الدنيا باليسير وما أعطيته من الدنيا فيسره له تيسيرا واجعله لما أعطيت من نعمائك من الشاكرين وأجزه عن خير الجزل ثم قال : استودعك الله ياهرم بن حيان والسلام عليك ورحمة الله وبركاته لأراك بعد اليوم رحمة الله تطلقني فإني أكره الشهرة والوحدة أحب إلي لاني كثير الهم شديد النهم مع هؤلاء الناس مادمت حيا فلا تسأل عني ولا تطلبني ، واعلم أنك متى على بال وإن لم أرك ولم ترني فأذكرني وادع لي فإني سأذكرك وأصورك إن شاء الله ، انطلق أنت ههنا حتى أنطلق أنا ههنا ، غرصت مع ساعة فأبى علي وفارقت فبكى وأبكاني وجعلت أنظر في فناء حتى دخل بعض السلك ، ثم سألت عنه بعد ذلك فما وجدت أحدا يخبرني عنه بشيء رحمه الله وغفر له .

فهكذا كانت سيرة أنباء الآخرة المرعزين عن الدنيا .

وقد عرفت مما سبق في بيان الدنيا ومن سيرة الأنبياء والأولياء أن حد الدنيا كل ما أظلمت الحضرة وأظلمت النبوة إلا ما كان قد هو وجل من ذلك وحد الدنيا الآخرة وهو كل ما أريد به الله تعالى ما يؤخذ بقدر الضرورة من الدنيا لأجل قوة طاعة الله وذلك ليس من الدنيا . ويتبين هذا بمثال وهو أن الحاج إذ حلف أنه في طريق الحج

لا يشتغل بغير الحج بل يتجرد له ، ثم اشتغل بحفظ الراد وعلف الجمل وغرز الراوية وكل مالا بد الصبح منه لم بحث في يمينه ولم يكن مشغولا بغير الحج فكذلك البدن مركب النفس تقطع به مسافة العمر ، فتمهد البدن بما تبقى به قوته على سلوك الطريق بالعلم والعمل هو من الآخرة لا من الدنيا . نعم إذا قصد تلذذ البدن وتمتع به بشيء من هذه الأسباب كان منحرفا عن الآخرة وعنى على قلبه القسوة . قال الطنابسى : كنت على باب بنى شيبة في المسجد الحرام سبعة أيام طاريا فسمعت في الليلة الثامنة مناديا وأنا بين القطة والثوم ألا من أخذ من الدنيا أكثر مما يحتاج إليه أعمى الله عين قلبه . فهذا بيان حقيقة الدنيا في حثك . فاعلم ذلك ترشد إن شاء الله تعالى .

بيان حقيقة الدنيا في نفسها وأشغالها التي استغرقت همم الخلق حتى أنسهم أنفسهم

وخالقهم ومصدرهم وموردهم

اعلم أن الدنيا عبارة عن أعيان موجودة للإنسان فيها حظ وله في إصلاحها شغل . فهذه ثلاثة أمور قد يظن أن الدنيا عبارة عن أحمادها وليس كذلك ، أما الأعيان الموجودة التي الدنيا عبارة عنها فهي الأرض وما عليها قال الله تعالى ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا ﴾ فالأرض فراش للآدميين ومهاد ومسكن ومستقر ، وما عليها لهم ملبس ومطعم ومشرب ومنكح .

ويجمع ما على الأرض ثلاثة أقسام : المعادن والنبات والحيوان . أما النبات : فيطلبه الآدمي للاقتيات والتدبير وأما المعادن : فيطلبها للآلات والأواني ، كالنحاس والبرصا ، والنفذ ، كالذهب والفضة ، ولغير ذلك من المقاصد وأما الحيوان فيقسم إلى الإنسان والبهائم . أما البهائم : فيطلب منها لحومها للآكل وظهرها للركب والزينة . وأما الإنسان : فقد يطلب الآدمي : أن يلك أبدان الناس ليستخدمهم ويستخرجهم كالغلمان ؛ أو ليتمتع بهم كالجواري والنسوان ؛ ويطلب قلوب الناس ليلبسها بأن يفرس فيها التعظيم والإكرام وهو الذي يعبر عنه بالجاه ؛ (إذ معنى الجاه ملك قلوب الآدميين) . فهذه هي الأعيان التي يعبر عنها بالدنيا وقد جمعها الله تعالى في قوله ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين ﴾ وهذا من الإنس ﴿ والقناطير المقتطرة من الذهب والفضة ﴾ وهذا من الجواهر والمعادن ؛ وفيه تلبية على غيرها من الآلى واليوافيت وغيرها ﴿ والحيل المسومة والأنعام ﴾ وهي البهائم والحيوانات ﴿ والحرث ﴾ وهو النبات والزرع .

فهذه هي أعيان الدنيا ، إلا أن لها مع العبد علاقتين : علاقة مع القلب وهو حبه لما وحظه منها وانصراف همه إليها ، حتى يصير قلبه كالعبد أو المحب المستتر بالدنيا . ويدخل في هذه العلاقة جميع صفات القلب المعلقة بالدنيا كالكبر والغل والحسد والرياء والسمة وسوء الظن والمداينة وحب التناء وحب التكاثر والتفاخر ، وهذه هي الدنيا الباطنة . وأما الظاهرة فهي الأعيان التي ذكرناها .

العلاقة الثانية مع البدن ؛ وهو اشتغاله بإصلاح هذه الأعيان لتصلح لحظوظه وحفظ غيره ، وهي جملة الصناعات والحرف التي الخلق مشغولون بها ، والخلق إنما نسوا أنفسهم ومآبهم ومقاصدهم بالدنيا لها من العلاقات : علاقة القلب بالحب ، وعلاقة البدن بالشغل . ولو عرف نفسه وعرف به وعرف حكمة الدنيا وسرها علم أن هذه الأعيان التي سميناهم دنيا لم تخلق إلا لعلف البداية التي يسير بها إلى الله تعالى ، وأعى بالبداية البدن ، فإنه لا يبقى إلا بمطعم ومشرب وملبس ومسكن كما لا يبقى الجمل في طريق الحج إلا بيلق وماء وجلال .



ومثال البعد في الدنيا في لسيانه نفسه ومقصده : مثال الحاج الذي يقف في منازل الطريق ولا يزال يلف التافة ويتمهدا وينظهما ويكسوها ألوان الثياب ، ويحمل إليها أنواع الحشيش ويرد لها الماء بالثج ، حتى تغربه التافة وهو غافل عن الحج وعن مرور التافة وعن بقاءه في البادية فرسة السباع هو وماقته . والحاج البصير لا يهيمه من أمر الجبل إلا القدر الذي يقوى به على المشى ، فيتمهده وقلبه إلى الكعبة والحج . وإنما يلتفت إلى التافة بقدر الضرورة . فكذلك البصير في السفر إلى الآخرة لا يشغل بتمهيد البدن إلا بالضرورة كما لا يدخل بيت الماء إلا لضرورة ، ولا فرق بين إدخال الطعام في البطن وبين إخراجة من البطن في أن كل واحد منهما ضرورة البدن ، ومن مهته ما يدخل بطنه فقيمت ما يخرج منها . وأكثر ما شغل عن الله تعالى هو البطن ، فإن القوت ضرورى وأمر المسكن والملبس أهون ، ولو عرفوا سبب الحاجة إلى هذه الأمور واقتصروا عليه لم تستغرقهم أشغال الدنيا وإنما استغرقهم لجهلهم بالدنيا وحكمتها وحظوظهم منها ولكنهم جهلوا وغفلوا وتتابت أشغال الدنيا عليهم وانصل بعضها ببعض وتداخت إلى غير نهاية محدودة ، فتأهوا في كثرة الأشغال ونسوا مقاصدها .

ونحن نذكر تفاصيل أشغال الدنيا ، وكيفية حدوث الحاجة إليها ، وكيفية غلط الناس في مقاصدها حتى تتضح لك اشغال الدنيا ، كيف صرفت الخلق عن الله تعالى وكيف أنتم عاقبة أمورهم ؟ فنقول : الأشغال الدنيوية هي الحرف والصناعات والأعمال التي ترى الخلق منكبين عليها . وسبب كثرة الأشغال هو أن الإنسان مضطر إلى ثلاث : القوت ، والمسكن ، والملبس . فالقوت : للبقاء والبقاء . والملبس : لدفع الحر والبرد . والمسكن : لدفع الحر والبرد ، ولدفع أسباب الهلاك عن الأهل والمال . ولم يخلق الله القوت والمسكن والملبس مصلحا بحيث يستغنى عن صنعة الإنسان فيه .

لعم خلق ذلك للبهائم ، فإن النبات يفسد الحيوان من غير طبع . والحر والبرد لا يؤثر في بدنه فيستغنى عن البناء ويقنع بالصحراء ، ولباسها شعورها وجلودها ، فتستغنى عن اللباس .

والإنسان ليس كذلك لخدمته الحاجة لذلك إلى خمس صناعات هي أصول الصناعات ، وأوائل الأشغال الدنيوية ، وهي الفلاحة ، والرعاية ، والاقتناس ، والحياكة ، والبناء . أما البناء فللمسكن . والحياكة وما يكتنفها من أمر الغزل والحياطة لللباس . والفلاحة للطعم . والرعاية للرأى والحيل أيضا للطعم والمركب . والاقتناس لغنى به تحصيل ما خلقه الله من صيد أو معدن أو حشيش أو حطب ، فالصلاح يحصل النباتات والرأى يحفظ الحيوانات ويستقيها . والمقتنص يحصل ما نبت وتنتج بنفسه من غير صنع آدمى ، وكذلك يأخذ من معادن الأرض ما خلق فيها من غير صنعة آدمى ، ونفى بالاقتناس ذلك ويدخل تحت صناعات وأشغال عدة . ثم هذه الصناعات تقتدر إلى أدوات وآلات كالخياكة والفلاحة والبناء والاقتناس ، والآلات إنما تؤخذ إما من النبات وهو الأخشاب ، أو من المادن كالحديد والرصاص وغيرها ، أو من جلود الحيوانات . لخدمته الحاجة إلى ثلاث أنواع آخر من الصناعات : التجارة ، والحداقة ، والحز . ومولاهم عمال الآلات ، ونفى بالتجارة : كل عامل في الخشب كيفما كان . وبالحداد : كل عامل في الحديد وجواهر المادن حتى النحاس والإبرى وغيرها . وغرضنا ذكر الأجناس فأما أحاد الحرف فكثيرة . وأما الحرفاء : فغنى به كل عامل في جلود الحيوانات وأجرائها . فهذه أمهات الصناعات ، ثم إن الإنسان خلق بحيث لا يعيش وحده بل يضطر إلى الاجتماع مع غيره من أبناء جنسه وذلك لسببين ؛ أحدهما : حاجته إلى النسل لبقاء جنس الإنسان ، ولا يكون ذلك إلا بالاجتماع الذكر والأنثى وعشرتما . والثاني :

التعاون على تهية أسباب المظلم والملبس ولتربية الولد ، فإن الاجتماع يقضى إلى الولد لاعالة ، والواحد لا يشتغل بحفظ الولد وتهية أسباب القوت . ثم ليس يتكفيه الاجتماع مع الأهل والولد في المنزل بل لا يمكنه أن يعيش كذلك مالم مجتمع طائفة كثيرة ليتكفل كل واحد بصناعة . فإن الشخص الواحد كيف يتولى الفلاحة وحده وهو يحتاج إلى آلاتها ، ويحتاج الآلة إلى حداد ونجار ، ويحتاج الطعام إلى طحان ونخاز ؟ وكذلك كيف يفرد بتحصيل الملابس وهو يفتر إلى خراصة القطن وآلات الحياكة والحياطة وآلات كثيرة ؟ فذلك المجتمع عيش الإنسان وحده وحدث الحاجة إلى الاجتماع . ثم لو اجتمعوا في صحراء مكشوفة لتأذوا بالحر والبرد والمطر والصوص فافترقوا إلى أبنية محكمة ومنازل يفرد كل أهل بيت به وبجأته من الآلات والأثاث والمنزل تدفع الحر والبرد والمطر وتدفع أذى الجيران من اللصوصية وغيرها ، لكن المنازل قد تقصدها جماعة من اللصوص خارج المنازل ، فافتقر أهل المنازل إلى التناصر والتعاون والتحصن بسور يحيط بجميع المنازل ، لحدث البلاد لهذه الضرورة .

ثم مهما اجتمع الناس في المنازل والبلاد وتعاملوا تولدت بينهم خصومات ، إذ تحدث رياسة وولاية الزوج على الزوجة ، وولاية الأبوين على الولد لأنه ضعيف يحتاج إلى قوام به . ومهما حصلت الولاية على عاقل أفنى إلى الخصومة بخلاف الولاية على البهائم ، إذ ليس لها قوة الخاصة وإن ظلت . فأما المرأة فتخاصم الزوج ، والولد يخاصم الأبوين . هذا في المنزل .

وأما أهل البلد أيضا فيتعاملون في الحاجات ويتنازعون فيها ، ولو تركوا كذلك لتقاتلوا وهلكوا ، وكذلك الرعاة وأرباب الفلاحة يتواردون على المراعى والأراضى والمياه وهى لاتفى بأغراضهم فيتنازعون لاعالة . ثم قد يهجر بعضهم عن الفلاحة والصناعة بعمى أو مرض أو هرم وتعرض عوارض مختلفة ولورث ضائما هلكا ، ولو وكل تفقده إلى الجميع لتخاذلوا ولو خص واحد من غير سبب ينقصه لكان لا بد من له ،

لحدث بالضرورة من هذه العوارض الحاصلة بالاجتماع صناعات أخرى . فنها صناعة المساحة التى بها تعرف مقادير الأرض لتتمكن القسمة بينهم بالعدل . ومنها صناعة الجندية لحراسة البلد بالسيف ودفع اللصوص عنهم . ومنها صناعة الحكم والتوصل لفعل الخصومة ، ومنها الحاجة إلى الفقه وهو معرفة القانون الذى يبنى أن يضبط به الخلق ، ويلزموا الوقوف على حدوده حتى لا يكثر النزاع وهو معرفة حدود الله تعالى في المعاملات وشروطها . فهذه أمور سياسية لابد منها ولا يشتغل بها إلا مخصوصون بصفات مخصوصة من العلم والتمييز والمداينة ، وإذا اشتغلوا بهم لم يفرغوا لصناعة أخرى ويحتاجون إلى المعاش ، ويحتاج أهل البلد إليهم إذ لو اشتغل أهل البلد بالحرب مع الأعداء مثلا قمطت الصناعات ، ولو اشتغل أهل الحرب والسلاح بالصناعات لطلب القوت قمطت البلاد عن الحراس واستغنى الناس ، فست الحاجة إلى أن يصرف إلى معاشهم وأرزاقهم الأموال الصائفة إلى المالك لها إن كانت ، أو تصرف القنائم إليهم إن كانت المداوة مع الكفار ، فإن كانوا أهل ديانة وورع قنعوا بالقليل من أموال المصالح وإن أرادوا التوسع قسمت الحاجة لاعالة إلى أن يمد أهل البلد بأموالهم ليدوم بالحراسة ، فتحدث الحاجة إلى الخراج . ثم يتولد بسبب الحاجة إلى الخراج الحاجة لصناعات أخرى ؛ إذ يحتاج إلى من يوظف الخراج بالعدل على الفلاحين وأرباب الأموال والعمال . ولأن من يتوفى منهم بالرفق وهم الجباة والمتخرجون ، ولأن من يجمع عنده ليحفظه إلى وقت التفرقة وهم الخزان ، ولأن من يفرق عليهم بالعدل وهو الفارس للمساكر . وهذا لأعمال لوتولاها عددا لاجتماعهم رابطة انخرم النظام فتحدث منه الحاجة إلى ملك يديرهم وأمير مطاع يعين لكل عمل شخصا ، ويختار لكل واحد ما يليق به ويراعى النصفة في أخذ الخراج وإعطائه ، واستعمال الجند في الحرب وتوزيع أسلحتهم وتعين جهات الحرب ونسب الأمير والقائد على كل

طائفة منهم إلى غير ذلك من صناعات الملك ، فيحدث من ذلك بعد الجند الذين هم أهل السلاح وبعد الملك الذي يرانهم بالدين السكالة ويدبرهم الحاجة إلى الكتاب والخزان والحساب والجباة والمال . ثم هؤلاء أيضا يحتاجون إلى معيشة ولا يمكنهم الاشتغال بألرف فتحدث الحاجة إلى مال الفرع مع مال الأصل وهو المسمى فرع الخراج . وعند هذا يكون الناس في الصناعات ثلاث طوائف : الفلاحون والرعاة والمحترفون ؛ والثانية : الجندية الحماة بالسيف . والثالثة : المترددون بين الطائفتين في الأخذ والعطاء وهم المال والجباة وأنما لهم . فانظر كيف ابتدأ الأمر من حاجة القوت والملبس والسكن وإلى ماذا انتهى . وهكذا أمور الدنيا لا يفتح منها باب إلا ويفتح بسببه أبواب أخر . وهكذا تنقضى إلى غير حد محصور كأنها هاوية لانهاية لمعقها ، من وقع في مهواة منها سقط منها إلى أخرى ، وهكذا على التوالي . فهذه هي الحرف والصناعات إلا أنها لا تتم إلا بالأموال والآلات . والمال عبارة عن أعيان الأرض وما عليها مما ينتفع به ، وأعلامها الأغذية ، ثم الامكنة التي يراى الإنسان إليها وهي الدور ، ثم الامكنة التي يسعى فيها للتعيش كالخوانيت والأسواق والمزارع ، ثم الكسوة ثم أثاث البيت وآلاته ، ثم آلات الآلات ، وقد يكون في الآلات ما هو حيوان كالكلب آفة الصيد ، والبقر آفة الحراثة ، والفرس آفة الركوب في الحرب . ثم يحدث من ذلك حاجة البيع فإن الفلاح ربما يسكن قرية ليس فيها آلة الفلاحة ، والحداد والتجار يسكنان قرية لا يمكن فيها الزراعة . فبالضرورة يحتاج الفلاح إليهما يحتاجان إلى الفلاح ، فيحتاج أحدهما أن يبذل ماعده للأخر حتى يأخذ منه غرضه وذلك بطريق المعاوضة ، إلا أن التجار مثلا إذا طلب من الفلاح الغذاء بآلته ربما لا يحتاج الفلاح في ذلك الوقت إلى آلته فلا يبيعه ، والفلاح إذا طلب الآلة من التجار بالطعام ربما كان عنده طعام في ذلك الوقت فلا يحتاج إليه فتتوق الأغراض ، فاضطروا إلى حانوت يجمع آلة كل صناعة ليترصد بها صاحبها أرباب الحاجات ؛ وإلى أليات يجمع إليها ما يعمل الفلاحون فيشتره منهم صاحب الأليات ليترصد به أرباب الحاجات ، فظهرت لذلك الأسواق والمخازن فيحمل الفلاح الحبوب فإذا لم يصادف محتاجا باعها بضمن رخيص من الباعة فيخزنونها في انتظار أرباب الحاجات طمعا في الربح ، وكذلك في جميع الأمتعة والأموال . ثم يحدث لا محالة بين البلاد والقرى تردد فيتردد الناس يشترون من القرى الأطعمة ومن البلاد الآلات ، وينقلون ذلك ويتعيشون به لتنظم أمور الناس في البلاد بسببهم ؛ إذ كل بلد ربما لا توجد فيه كل آلة ، وكل قرية لا يوجد فيها كل طعام ، فالبعض يحتاج إلى البعض فيخرج إلى النقل ، فيحدث التجار المتكفلون بالنقل وباعهم عليه حرص جمع المال لا محالة ، فيتعبون طول الليل والنهار في الأسفار لغرض غيرهم ، ولصبيهم منها جمع المال الذي يأكله لا محالة غيرهم ؛ إما قاطع طريق وإما سلطان ظالم ، ولكن جعل الله تعالى في غفلتهم وجهلهم نظاما للبلاد ومصلحة للعباد . بل جميع أمور الدنيا تنظم بالغة وخسة الهمة . ولو عقل الناس وارتفعت همهم لوهدوا في الدنيا ، ولو فعلوا ذلك لظلت المعاش ، ولو بطلت لهلكوا ولملك الزهاد أيضا .

ثم هذه الأموال التي تنقل لا يقدر الإنسان على حملها فتحتاج إلى دواب تحملها ، وصاحب المال قد لا تكون له دابة فتحدث معاملة بينه وبين مالك الدابة تسمى الإجارة ، ويصير الكراء نوعا من الاكتساب أيضا ، ثم يحدث بسبب البياعات الحاجة إلى التقدين فإن من يريد أن يشتري طعاما بثوب فن أين يدري للقدار الذي يساويه من الطعام كم هو ؟ والمعاملة تجري في أجناس مختلفة كإبيع ثوب بطعام وحيوان بثوب وهذه أمور لا تناسب ، فلا بد من حاكم يعدل يتوسط بين المتبايعين يعدل أحدهما بالآخر فيطلب ذلك المعدل من أعيان الأموال ، ثم يحتاج إلى

مال يطول بناؤه لأن الحاجة إليه تديم . وأبقى الأموال المبادئ فأنفذت النفود من الذهب والفضة والنحاس ، ثم هتت الحاجة إلى الضرب والنقش والتقدير فست الحاجة إلى دار الضرب والصدارة . وهكذا تتداعى الأشغال والأعمال بعضها إلى بعض حتى انتهت إلى مآزاه . فهذه أشغال الخلق وهى معاشهم . وشئ من هذه الحرف لا يمكن مباشرته إلا بنوع تعلم وتعب فى الإبتداء .

وفى الناس من ينفل عن ذلك فى الصبا فلا يشتغل به أو يمنه عنه مائع فيبقى عاجزا عن الاكتساب المعجزة عن الحرف فيحتاج إلى أن يأكل مما يسمى فيه غيره ، فيحدث منه حرفتان خبيستان : اللصوصية والكداية ؛ إذ يجمعها أنهما يأكلن من سعى غيرهما ثم الناس يحترزون من اللصوص والمكذبن ويحفظون عنهم أموالهم فافتقروا إلى صرف عقولهم فى استبطاء الحيل والتدابير .

أما اللصوص : فهم من يطلب أعوانا ويكون فى يديه شوكه وقوة فيجمعون ويشكرون ويقطعون الطريق كالأعراب والأكراد . وأما الصنفاء منهم فيفزعون إلى الحيل إما بالنقب أو التسلق عند انتهاز فرصة الغفلة ، وإما بأن يكون طزارا أو سلالا ، إلى غير ذلك من أنواع التلصص الحادثة بحسب ما تنتجها الأفكار المصروفة إلى استبطائها .

وأما المكسدي فإنه إذا طلب ماسى فيه غيره وقيل له انقب واعمل كما عمل غيرك فمالك والبطالة فلا يعطى شيئا ، فافتقروا إلى حيلة فى استخراج الأموال وتمهيد المذخر لأنفسهم فى البطالة ، فاحتالوا التملل بالمعزى بالحقبة بكفافة يعمون أولادهم وأنفسهم بالحيلة ليعمدوا بالعمى فيعطون ، وإما بالتعاضد والتفالج والتجانن والتعاضد ، وإظهار ذلك بأنواع من الحيل مع بيان أن تلك حيلة أصابت من غير استحقاق ، ليكون ذلك سبب الرحمة ، وجماعة يلتصقون أقرابا وأقربا لا يتعجب الناس منها حتى تنبسط قلوبهم عند مشاهدتها ، فيسخرها برفع اليد عن قليل من المال فى حال التعجب ، ثم قد يندم بعد زوال التعجب ولا ينفع الندم . وذلك قد يكون بالتسخر والمحاكاة والشعبذة والأفعال المضحكة ، وقد يكون بالأشمار الغريبة والكلام المتشور المسجع مع حسن الصوت . والشعر الموزون أشد تأثيرا فى النفس لاسيا إذا كان فيه تعصب يتعلق بالذاهب كأشعار مناقب الصحابة وفضائل أهل البيت ، أو الذى يحرك داية العشق من أهل المجاعة كصنعة الطباخين فى الأسواق ، وصنعة ما يشبه العوض وليس بموض كبيع التمويذات ، والحشيش الذى يغفل باله أنه أدوية فيخدع بذلك الصبيان والجهال ، وكأصحاب القرعة والقائل من المنجمين . ويدخل فى هذا الجنس الرعاظ والمكسدون على رموس المنابر إذا لم يكن وراهم طائر على وكان غرضهم استئالة قلب الدوام وأخذ أموالهم بأنواع الكدية ، وأنواعها تزيد على ألف نوع والفن . وكل ذلك استنبط بدين الفكر لأجل المعيشة . فهذه هى أشغال الخلق وأعمالهم التى أكبرها عليها ، وجرم إلى ذلك كله الحاجة إلى القوة والكسوة ولكنهم نسوا فى أثناء ذلك أنفسهم ومقصودهم ومقيلهم ومآبهم فاشعروا وضلوا ، وسبق إلى عقولهم الضعيفة بعد أن كذبتها زحمة الاشتغالات بالدنيا خيالات فاسدة ، فأنقسمت مذاهبهم واختلقت آرازم على عدة أوجه :

فطائفة عليهم الجهل والغفلة فلم تفتح أعينهم للنظر إلى عاقبة أمورهم فقالوا : المقصود أن نعيش أياما فى الدنيا فنجهت حتى نكسب الثوت ثم نأكل حتى نفنى على الكسب ، ثم نكسب حتى نأكل ، فيا كلون ليكسبوا ثم يكسبون لياكلوا ، وهذا مذهب الفلاحين والمحترفين ومن ليس له تتم فى الدنيا ولا قدم فى الدين ؛ فإنه يتعبد بها

ليأكل ليلاً ويأكل ليلاً ليشبع نهاراً ، وذلك كبير السواني فهو سفر لا يقطع إلا بالوت .

وطائفة أخرى زعموا أنهم تظفروا الأمر وهو أنه ليس المقصود أن يشقى الإنسان بالعمل ولا يتنعم في الدنيا بل السعادة أن يقضى وطره من شهوة الدنيا وهي شهوة البطن والفرج ، فهؤلاء نسوا أنفسهم وصرفوا همهم إلى اتباع الفسوان وجمع لذائذ الأطعمة كما يكون كما يأكل الأنعام ويظفرون أنهم إذا نالوا ذلك فقد أدركوا غاية السعادة فشنغلهم ذلك عن الله تعالى وعن اليوم الآخر .

وطائفة ظنوا أن السعادة في كثرة المال والاستغناء بكثرة الكتوز ، فأعبروا ليلهم وأنعموا نهارهم في الجمع ، فهم يتعبون في الأسفار طول الليل والنهار ويترددون في الأعمال الشاقة ويكتسبون ، ويجمعون ولا يكون إلا قدر الضرورة شماً ويغلا عليها أن تنقص ، وهذه لذتهم وفي ذلك دأبهم وحركتهم إلى أن يدركهم الموت ؛ فبيق تحت الأرض أو يظفرون به من يأكله في الشهوات والذات ؛ فيكون للجامع تعب وبهالة وللأكل لذته . ثم الذين يجمعون ينظرون إلى أمثال ذلك ولا يفتخرون .

وطائفة ظنوا أن السعادة في حسن الاسم وانطلاق الألسنة بالتشابه والمديح والتعظيم والمروءة ؛ فهؤلاء يتعبون في كسب المعاش ويضيقون على أنفسهم في الطعام والمشرب ويصرفون جميع مالهم إلى اللباس الحسنة والدواب النفيسة ، ويرخفون أبواب الدور وما يقع عليها أبصار الناس حتى يقال إنه غنى وإنه ذو ثروة ويظنون أن ذلك هو السعادة ، فهمهم في نهارهم وليلهم في تعهد موقع نظر الناس .

وطائفة أخرى ظنوا أن السعادة في الجاه والكرامة بين الناس وانقياد خلق بالتواضع والتوقير ، فصرفوا همهم إلى استعجار الناس إلى الطاعة لطلب الولايات وتمتد الأعمال السلطانية لينفذ أمرهم بها على طائفة من الناس ، ويرون أنهم إذا أيسمت ولايتهم وانتادت لهم وعياهم فقد سمدا سعادة عظيمة ، وأن ذلك غاية المطلب . وهذا أغلب الشهوات على قلوب الغافلين من الناس ، فهؤلاء شنغلهم حب تواضع الناس لهم عن التواضع لله وعن عبادته وعن التفكير في آخرتهم ومعادهم .

ووراء هؤلاء طوائف يطول حصرها تزيد على نيف وسبعين فرقة ، كلهم قد ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل ، وإنما جزم إلى جميع ذلك حاجة الطعام والملبس والسكن وما زاد له هذه الأمور الثلاثة والقدر الذي يكفي منها . وانجذبت بهم أمائل أساليبها إلى أواخرها ، وتداعى بهم ذلك إلى مهال لم يمكنهم الرقي منها ، فن عرف وجه الحاجة إلى هذه الأسباب والأشغال وعرف غاية المقصود منها فلا يخوض في شغل وحرفة وعمل إلا وهو عالم بمقصوده وعالم بحظه ونصيبه منه ، وأن غاية مقصوده تعهد بدنه بالقوت والكسوة حتى لا يهلك ، وذلك إن سلك فيه سبيل التثليل اندفعت الأشغال عنه وفرغ القلب وغلب عليه ذكر الآخرة وانصرفت الهمة إلى الاستعداد له ، وإن تمذى به قدر الضرورة كثرت الأشغال وتداعى البعض إلى البعض وتسلل إلى غير نهاية ، فتشعب به الهوموم ومن تشعبت به الهوموم في أودية الدنيا فلا يزال الله في أي واد أهلكه منها . فهذا شأن المنهمكين في أشغال الدنيا . وتنبه لذلك طائفة فأعرضوا عن الدنيا لحسد الشيطان ولم يتركهم ، وأنزلهم في الإعراض أيضاً حتى انقسموا إلى طوائف :

فطفت طائفة أن الدنيا دار بلاء ومحنة والآخرة دار سعادة لكل من وصل إليها سواء أعبد في الدنيا أو لم يتعبد ، فرأوا أن الصواب في أن يقتلوا أنفسهم للخلاص من محنة الدنيا ، وإليه ذهب طوائف من العباد من أهل الهند فهم يتهجمون على النار ويقتلون أنفسهم بالإحراق ، ويظنون أن ذلك خلاص لهم من عمن الدنيا .

وعنت طائفة أخرى أن القتل لا يخلص بل لا بد أولاً من إماتة الصفات البشرية وقطعها عن النفس بالكلية ، وأن السعادة في قطع الشهوة والغضب ، ثم أقبلوا على المجاهدة وشددوا على أنفسهم ، حتى هلك بعضهم بشدة الرياضة وبعضهم فسد عقله وجن . وبعضهم مرض وانسد عليه الطريق في العبادة . وبعضهم عجز عن قبح الصفات بالكلية فظن أن ما كلفه الشرع محال وأن الشرع تليس لا أصل له فوقع في الإلحاد . وظهر لبعضهم أن هذا التعب كله لله وأن الله تعالى مستغن عن عبادة المباد لا ينقصه عصيان عاص ولا يزيد عبادة متعب ، فمادوا إلى الشهوات وسلكوا مسلك الإباحة وطروا بساط الشرع والأحكام ، وزعموا أن ذلك من صفات توحيدهم حيث اعتقدوا أن الله مستغن عن عبادة العباد .

وظن طائفة أن المقصود من العبادات المجاهدة حتى يصل العبد بها إلى معرفة الله تعالى ، فإذا حصلت المعرفة فقد وصل وبعد الوصول يستغنى عن الوسيلة والحيلة ، فتركوا السعي والمجاهدة وزعموا أنه ارتفع عنهم في معرفة الله سبحانه عن أن يمتحنوا بالتكاليف ، وإنما التكليف على عوالم الخلق .

وراء هذا مذاهب باطلة وضلالات هائلة يطول إحصاؤها إلى ما يبلغ نيماً وسبعين فرقة ، وإنما الناجي منها فرقة واحدة : وهي السالكة ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وهو أن لا يترك الدنيا بالكلية ولا يقطع الشهوات بالكلية . أما الدنيا فيأخذ منها قدر الزاد . وأما الشهوات فيقطع منها ما يخرج عن طاعة الشرع والمقتل . ولا يتبع كل شهوة ولا يترك كل شهوة ، بل يتبع العدل ولا يترك كل شيء من الدنيا ، ولا يطلب كل شيء من الدنيا بل يعلم مقصود كل ما خلق من الدنيا ويحفظه على حذ مقصوده ، فيأخذ من القوت ما يقوى به البدن على العبادة ومن المسكن ما يحفظ عن القصوص والحرج والبرد ، ومن الكسوة كذلك ، حتى إذا فرغ القلب من شغل البدن أقبل على الله تعالى بكنهه وشتغل بالذكر والفكر طول العمر ، وبقي ملازمًا لسياسة الشهوات وسراقيا لها حتى لا يجاوز حدود الورع والتقوى ، ولا يعلم تفصيل ذلك إلا بالانتداه بالفرقة الناجية وهم الصحابة فإنه عليه السلام لما قال لا الناجي منها واحدة قالوا : يا رسول الله ومن هم ؟ قال : أهل السنة والجماعة ، فقول : ومن أهل السنة والجماعة ؟ قال : ما أنا عليه وأصحابي <sup>(١)</sup> ، وقد كانوا على النهج القصد وعلى السبيل الواضح الذي فصلناه من قبل ، فإنهم ما كانوا يأخذون الدنيا للدنيا بل للدين ، وما كانوا يترهبون ويهجون الدنيا بالكلية ، وما كان لهم في الأمور تفريط ولا إفراط ، بل كان أمرهم بين ذلك قواماً ، وذلك هو العدل والوسط بين الطرفين وهو أحب الأمور إلى الله تعالى - كما سبق ذكره في مواضع - والله أعلم .

ثم كتاب ذم الدنيا والحمد لله أولاً وآخراً وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

(١) حديث : افتراق الأمة وفيه « الناجي منهم واحدة » قالوا : ومن هم ؟ قال : « أهل السنة والجماعة ... الحديث » أخرجه الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو وجنته « تفرق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلا ملة واحدة » فقالوا : من هي يا رسول الله ؟ قال : « ملة الله وأصحابه » ولأبي داود من حديث ثبابة وابن ماجه من حديث أنس وعوف بن مالك وهي الجماعة وأصحابها جياد .

## كتاب ذم البخل وذم حب المال

وهو الكتاب السابع من ربيع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مستوجب الحمد بركة الميسر ، وكاشف الضر بعد القنوط ، الذى خلق الخلق ، ووسع الرزق ، وأفاض على المالمين أصناف الأموال ، وابتلاهم فيها بقلب الأحوال ، ورددهم فيها بين العسر واليسر ، والفتى والفقر ، والطمع والياس ، والثروة والإفلاس ، والمعجز والاستطاعة ، والحرص والقناعة ، والبخل والجود ، والفرح بالموجود ، والأسف على المفقود ، والإيثار والإنفاق ، والتوسع والإملاق ، والتبذير والتقتير ، والرضا بالقليل واستحقار الكثير ، كل ذلك ليبلوهم أحسن علما ، وينظر إليهم أثر الدنيا على الآخرة بدلا ، وابتنى عن الآخرة عدولا وحولا ، واتخذ الدنيا ذخيرة وخولا ، والصلاة على محمد الذى تسخ بملكته ملا ، وطوى بشريعته أديانا ونحلا ، وعلى آله وأصحابه الذين سلكوا سبيل ربهم ذابلا ، وسلم تسليلا كثيرا .

أما بعد : فإن قن الدنيا كثيرة الشعب والأطراف واسعة الأرجاء والأكفاف ، ولكن الأموال أعظم فتنها وأطم عنها ، وأعظم فتنة فيها أنه لاغى لأحدها ، ثم إذا وجدت فلاسلامة لها ، فإن فقد المال حصل منه الفقر الذى يكاد أن يكون كفرا ، وإن وجد حصل منه الطغيان الذى لا تكون عاقبة أمره إلا خسرا . وبالجملة فمضى لأفكار من الفوائد والآفات ، وفوائدها من المنجيات ، وآفاتنا من المهلكات ، وتغيير خيرها عن شرها من الموصات التى لا يقوى عليها إلا ذؤو البصائر فى الدين من العلماء الراغبين دون المسترحمين المغترين . وشرح ذلك مهم على الأفراد ، فإن ما ذكرناه فى كتاب ذم الدنيا لم يكن نظرا فى المال خاصة بل فى الدنيا عامة ، إذ الدنيا تتناول كل حظ عاجل ، والمال بعض أجزاء الدنيا ، والجاه بعضها ، واتباع شهوة البطن والفرج بعضها ، وتشتى النيط بحكم التنصب والحمد بعضها ، والكبر وطلب العلو بعضها . ولها أبعاد كثيرة . ويجمعها كل ما كان للإنسان فيه حظ عاجل . ونظرنا الآن فى هذا الكتاب فى المال وحده ، إذ فيه آفات وغوائل . وللإنسان من فقده صفة الفقر ، ومن وجوده وصف الثنى . وهما حالتان يحصل بهما الاختيار والامتحان .

ثم للفائدة حالتان : القناعة والحرص ، وإحداهما مذمومة والأخرى محمودة . والحرص حالتان : طمع فى ما أبهى الناس ، وتشمر للحرص والصناعات مع اليأس عن الخلق ، والطمع شر الحالتين .

والواجد حالتان : إمساك بحكم البخل والشح ، وإنفاق . وإحداهما مذمومة والأخرى محمودة . وللنفق حالتان : تبذير واقتصاد ، والمحمود هو الاقتصاد .

وهذه أمور متشابهة وكشف الغطاء عن النعوض فيها مهم . ونحن نشرح ذلك فى أربعة عشر فصلا إن شاء الله تعالى وهو : بيان ذم المال ، ثم مدحه ثم تفصيل فوائده المال وآفاته ثم ذم الحرص والطمع ثم علاج الحرص والطمع . ثم فضيلة السخاء . ثم حكايات الإستهياء ، ثم ذم البخل ، ثم حكايات البخل . ثم الإيثار وفضله . ثم حد السخاء والبخل . ثم علاج البخل . ثم مجموع الوظائف فى المال . ثم ذم الثنى ومدح الفقر : إن شاء الله تعالى .

## بيان ذم المال وكرامة حبه

قال الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتْلُوا كُتُبَ أَمْوَالِكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ وقال تعالى ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ تَفْتَنُ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ . ابن اختار ماله وولده على ما عند الله فقد خسر وغبن خسارنا عظيما . وقال عز وجل ﴿ مَنْ كَانَ يَرِيدَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾ الآية . وقال تعالى ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَآكْفِرٌ ﴾ فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وقال تعالى ﴿ أَلَمْ نَكُنْ نَسُوءُكَ ﴾ .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حُبُّ الْمَالِ وَالشَّرَفِ يَنْتَابِنُ الْفِتْنَةَ فِي الْقَلْبِ كَمَا يَنْتَابِنُ الْمَاءُ الْبَقْلَ » (١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « مَا ذُبَابَانِ ضَارِبَانِ أَرْسَلَا فِي زُرْبَةٍ غَنَمٌ بِأَكْثَرِ إِفْسَادٍ فِيهَا مِنْ حُبِّ الشَّرَفِ وَالْمَالِ وَالْجَاهِ فِي دِينِ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ » (٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم « هَلَاكَ لِلْمُكَتْرِنِ إِلَّا مَنْ قَالَ بِهِ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ هَكَذَا وَهَكَذَا وَقَلِيلٌ مَا هُمْ » (٣) ، وقيل : يارسول الله أى أمتك شر ؟ قال « الْاَغْنِيَاءُ » (٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم « سَيَأْتِي بَعْدَكُمْ قَوْمٌ يَأْكُلُونَ أَطْيَابَ الدُّنْيَا وَالْوَلَانَا وَيَرْكَبُونَ فَرَسَ الْخَيْلِ وَالْوَلَانَا وَيَسْكَبُونَ أَجَلَ النِّسَاءِ وَالْوَلَانَا وَيَلْبَسُونَ أَجَلَ الثِّيَابِ وَالْوَلَانَا ، لَمْ يَطُورُوا مِنَ الْقَلِيلِ لِاتِّسَاعِ وَأَنْفُسُ بِالْكَثِيرِ لَا تَضْمَعُ ، عَاكِفُونَ عَلَى الدُّنْيَا يَغْدُونَ وَبُرُوحُونَ إِلَىهَا ، اتَّخَذُوا مَا أَلَمَهُ مِنْ دُونِ لِقَائِهِمْ دِرْهَامًا وَدُونِ رَيْحِهِمْ ، إِلَى أَسْرَافِهِمْ يَنْتَبِهُونَ وَلُطُوفِهِمْ يَتَّبِعُونَ ، فَمَنْعَةٌ مِنْ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ لِمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ الزَّمَانُ مِنْ عَقَبِ عَصْبِكُمْ وَخَلْفِ خَلْفِكُمْ أَنْ لَا يَسْلَمَ عَلَيْهِمْ وَلَا يَمُودَ مَرْضَاهُمْ وَلَا يَتَّبِعَ جَنَائِزَهُمْ وَلَا يُوَفِّرَ كِبِيرَهُمْ ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ أَغْنَى عَنْهُ دِمْنُ الْإِسْلَامِ » (٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم « دَعَا الدُّنْيَا لِأَهْلِهَا ، مَنْ أَخَذَ مِنْ الدُّنْيَا فَوْقَ مَا يَكْفِيهِ أَخَذَ حَتْفَهُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ » (٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم « يَقُولُ ابْنُ آدَمَ مَا لِي مَالِي وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا لَكَ فَاقْبِضْهُ أَوْ قَابِلَيْتُ أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتُ ؟ » (٧) ، وقال رجل : يارسول الله مالى لأحب الموت فقال « هَلْ مَعَكَ مِنْ مَالٍ ؟ » قال : نعم يارسول الله ؛ قال « قَدْ مَلَكَ فَإِنَّ قَلْبَ الْمُؤْمِنِ مَعَ مَالِهِ ، إِنْ قَدَّمَهُ

## كتاب ذم البخل وحب المال

(١) حديث « حُبُّ الْمَالِ وَالشَّرَفِ يَنْتَابِنُ الْفِتْنَةَ فِي الْقَلْبِ كَمَا يَنْتَابِنُ الْمَاءُ الْبَقْلَ » لم أجده بهذا اللفظ وذكره بعد هذا بالنظر « الجاه » بدل « الشرف » (٢) حديث « مَا ذُبَابَانِ ضَارِبَانِ أَرْسَلَا فِي زُرْبَةٍ غَنَمٌ بِأَكْثَرِ إِفْسَادٍ فِيهَا مِنْ حُبِّ الْمَالِ وَالْجَاهِ فِي دِينِ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ » أخرجه الترمذي والنسائي في الكبرى من حديث كعب بن مالك وأبى جهم « مكان » ضاربان ، ولم يقلوا « فِي زُرْبَةٍ » ولألا « الشرف » بدل « الجاه » قال الترمذي حسن صحيح والطبراني في الأوسط من حديث أبي سعيد « مَا ذُبَابَانِ ضَارِبَانِ فِي زُرْبَةٍ غَنَمٌ ... الحديث » والبخاري من حديث أبي هريرة « ضَارِبَانِ جَاهَاتِ » ولستاد الطبراني فيها ضيف (٣) حديث « هَلَاكَ لِلْمُكَتْرِنِ إِلَّا مَنْ قَالَ بِهِ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ هَكَذَا وَهَكَذَا ... الحديث » أخرجه الطبراني من حديث عبد الرحمن بن أبيزى بن فضال « الْمُكَتْرِنُونَ » ولم يقل « فِي عِبَادَةِ اللَّهِ » ورواه أحمد من حديث أبي سعيد بن جابر « هَكَذَا وَهَكَذَا ... الحديث » وهو متفق عليه من حديث أبي ذر بن عوف « هَلَاكَ لِلْمُكَتْرِنِ إِلَّا مَنْ قَالَ بِهِ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ هَكَذَا وَهَكَذَا ... الحديث » (٤) حديث « قِيلَ : يَارَسُولَ اللَّهِ أَيُّ أُمَّتِكَ شَرٌّ قَالَ « الْاَغْنِيَاءُ » قَرِيبًا أَجْمَعُ بِهَذَا الْفَتْوَى الطَّبْرَانِي فِي الْأَوْسَطِ وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي الْقَدِيمِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ « شَرُّ أُمَّتِ الْقُرْبَيْنِ وَلَهُمَا فِي النَّيْمِ وَغَدَاوَا بِمَا كَانُوا مِنَ الطَّعَامِ الْوَلَانَا » وفيه أمر من حوشب بنيف ورواه هناد بن السري في الزهد « مَنْ رَوَايَةُ هُرَيْثُ بْنُ رُوَيْمٍ سَمِعَ الْوَلَانَا مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ بَسْتُ ضَيْفَهُ لَنْ مِنْ شَرِّ أُمَّتِ الدِّينِ غَدَاوَا لَنَنْتُمْ وَقَبِيتُ عَلَيْهِ أَجْسَامَهُمْ » (٥) حديث « سَيَأْتِي بَعْدَكُمْ قَوْمٌ يَأْكُلُونَ أَطْيَابَ الدُّنْيَا وَالْوَلَانَا وَيَسْكَبُونَ أَجَلَ النِّسَاءِ وَالْوَلَانَا » بطوله أخرجه الطبراني في الكبرى والأوسطين حديث أبي أمامة « سَيَكُونُ رَجُلَانِ مِنْ أُمَّتِي يَأْكُلُونَ الْوَلَانَا الطَّعَامَ وَيُسْرِبُونَ الْوَلَانَا الثَّيَابَ وَيَلْبَسُونَ الْوَلَانَا الثِّيَابَ يَتَقَدَّمُونَ فِي السَّكَّامِ أَوْلَئِكَ شَرُّ أُمَّتِي » وسند ضيف وأجد لباقه أسلا (٦) حديث « دَعَا الدُّنْيَا لِأَهْلِهَا مَنْ أَخَذَ مِنْ الدُّنْيَا فَوْقَ مَا يَكْفِيهِ أَخَذَ حَتْفَهُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ » أخرجه الجزراني من حديث أبي هريرة « مَنْ أَخَذَ مِنَ الدُّنْيَا فَوْقَ مَا يَكْفِيهِ أَخَذَ حَتْفَهُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ » (٧) حديث « يَقُولُ ابْنُ آدَمَ مَا لِي مَالِي » الحديث « أَخْرَجَهُ سَلَمٌ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَفْرِ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَقَدْ قَدَّمَ



أحب أن يلحقه وإن خلفه أحب أن يتخلف منه <sup>(١)</sup> . وقال صلى الله عليه وسلم ، أخلاء ابن آدم ثلاثة . واحد يبقيه إلى قبض روحه ، والثاني إلى قبره ، والثالث إلى عشره . قالوا يبقيه إلى قبض روحه فهو ماله ، والذي يبقيه إلى قبره فهو أهله ، والذي يبقيه إلى عشره فهو عمله <sup>(٢)</sup> .

وقال الحارثيون لعيسى عليه السلام : مالك تمشي على الماء ولا تقدر على ذلك ؟ فقال لهم : ما منزلة الدينار والدرهم عندكم ؟ قالوا : حسنة . قال : لكنهما والمدر عندى سواء . وكتب سليمان الفارسي إلى أبي الدرداء رضي الله عنهما : يا أخى إياك أن تجمع من الدنيا مالا تؤدى شكره ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يجماء بصاحب الدنيا الذي أطاع الله فيها وماله بين يديه كلما تكفأ به الصراط قال له ماله أمض فقد أدبت حتى الله في ، ثم يجماء بصاحب الدنيا الذي لم يطع الله فيها وماله بين كتفيه كلما تكفأ به الصراط قال له ماله وبلك ألا أدبت حتى الله في فما يزال كذلك حتى يدعو بالويل والثبور <sup>(٣)</sup> .

وكل ما أوردناه في كتاب الزهد والفقر في ذم الفنى ومدح الفقر يرجع جميعه إلى ذم المال ، فلانقول بشكره ، وكنا كل ما ذكرناه في ذم الدنيا فيتناول ذم المال بحكم العموم ، لأن المال أعظم أركان الدنيا . وإنما نذكر الآن ما ورد في المال خاصة .

قال صلى الله عليه وسلم : إذا مات العبد قالت الملائكة ما قدم وقال الناس ما خلف <sup>(٤)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم لاتخذوا الضيقة فتحبوا الدنيا <sup>(٥)</sup> .

الآثار : روى أن رجلا من أبي الدرداء وأرامسوما فقال : اللهم من فعلني سوءا فأصحب جسمه وأطلم عمره وأكثر ماله . فانظر كيف رأى كثرة المال غاية البلاء مع محبة الجسم وطول العمر ؟ لأنه لابد أن يفضى إلى الطغيان ووضع على كرم الله وجهه درهما على كفه ثم قال : أما إنك ما لم تفرح عنى لاتفتنى . وروى أن عمر رضي الله عنه أرسل إلى زينب بنت جحش ببطائها فقالت : ما هذا ؟ قالوا : أرسل إليك عمر بن الخطاب ، قالت : غفر الله له ، ثم سلت ستر كان لها فقطعت وجعلته صرورا وقسمته في أهل بيتها وروحها وأيتامها ، ثم رفضت يديها وقالت اللهم لا يدركنى عطاء عمر بعد ماى هذا . فكانت أول نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم لحرقا به . وقال الحسن : والله ما أعر درهم أحد إلا أذله الله . وقيل : إن أول ما ضرب الدينار والدرهم رفعا وإيليس ثم وضمهما على جبهة ثم قبلهما وقال . من أحبكما فهو عبيد حقا . وقال سبط بن مجلان : إن الدراهم والدينارين أزمة المنافقين يقادون بها إلى النار . وقال يحيى بن معاذ : الدرهم عقر ب فإن لم تحسن رقيقته فلا تأخذه ، فإنه إن لدغك قتلك سمه . قيل : وما رقيقته ؟ قال : أخذه من حله ووضعه في حقه . وقال العلاء بن زياد : تمثلت لى الدنيا وعليها من كل زينة فقلت : أعوذ

(١) حديث : قال رجل يارسول الله مالى لأحب الموت ... الحديث . لم أهب عليه (٢) حديث « أخلاء ابن آدم ثلاثة : واحد يبقيه إلى قبض روحه ، والثاني إلى قبره ... الحديث » أخرجه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط من حديث الثعلباني بن بغير بإسناد جيد نحوه ، ورواه أبو داود الطيالسي وأبو الشيخ في كتاب الثواب والطبراني في الأوسط من حديث أنس بن مالك أيضا وفى الكبير من حديث سمرة بن جندب والشيخين من حديث أنس « يبع الميث ثلاثة فبرح اتان وثيق واحد ... الحديث » (٣) حديث : كتب سلمان إلى أبي الدرداء وفيه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يجماء بصاحب الدنيا الذى أطاع الله فيها وماله بين يديه ... الحديث ، قلت : ليس هو من حديث سلمان إنما هو من حديث أبي الدرداء أنه كتب إلى سلمان ؟ كذا رواه البيهقي في الشعب وقال بدل « الدنيا » « المال » وهو متعلق (٤) حديث « إذا مات العبد قالت الملائكة ما قدم ... الحديث » أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة يلحق به وقد تقدم في آداب المحبة .

(٥) حديث « لاتخذوا الضيقة فتحبوا الدنيا » أخرجه الترمذي والحاكم وصححه إسناده من حديث ابن مسعود بلفظ « فترهبوا » (٣٠) — لحياء الدين علوم — (٣)

بأنه من شرك فقالت : إن شرك أن يميزك الله من قابض الحرم والدينار . وذلك لأن الدرهم والدينار هما الدنيا كلها إذ يتوصل بهما إلى جميع أصنافها ، فمن صبر عنهما صبر عن الدنيا وفي ذلك قيل :

إني وجدت فلا تفتلوا غيره أن التورع عند هذا الدرهم  
فلذا قدرت عليه ثم تركته فاعلم بأن تقاك تقوى المسلم  
وفي ذلك قيل أيضاً :

لا يفتلك من المرء قيس رقبته • أولزار فوق عظم الله ساق منه رفته  
أو جبين لاح فيه • أثر قد خلمه • أرى الدرهم تعرف • حبه أو ورعه

ويروي عن مسلمة بن عبد الملك أنه دخل على عمر بن عبد العزيز رحمه الله عند موته فقال : يا أمير المؤمنين صنعت صغيراً لم يصنع أحد قبلك ، تركت ولدك ليس لهم درهم ولا دينار - وكان له ثلاثة عشر من الولد - فقال عمر : أقعدوني فأفعلوه فقال : أما قولك لم أدع لهم ديناراً ولا درهما فإني لم أمتهم حقاً لهم ولم أعطهم حقاً لنعيمي ! وإنما ولدت أحدهم رجلين : إما مطيع لله فإله كافيه والله يتولى الصالحين ، وإما عاص فلا أبالي على ما وقع . وروى أن محمد بن كعب القرظي أصاب مالا كثيراً فقيل له : لو ادخرته لوليك من بعدك ؟ قال : لا ولكني ادخرته لنفسى عند ربى وأدخر ربى لولدى . ويروي أن رجلاً قال لابي عبد ربه : يا أخى لا تذهب بشر وتمترك أولادك بنير ! فأخرج أبو عبد ربه من ماله مائة ألف درهم . وقال يحيى بن معاذ : مصيبتان لم يسمع الأولون والآخرون بمثلهما للبدي في ماله عند موته ، قبل : وماهما ؟ قال : يؤخذ منه كله ويُسَلَّ عنه كله .

### بيان مدح المال والجمع بينه وبين الدم

اعلم أن الله تعالى قد سمى المال خيراً في مواضع من كتابه العزيز فقال جل وعز ( إن ترك خيراً ) الآية وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم المال الصالح للرجل الصالح <sup>(١)</sup> ، وكل ما جاء في ثواب الصدقة والجمع فهو ثناء على المال إذ لا يمكن الوصول إليهما إلا به . وقال تعالى ( ويستخرجنا كنزهما رحمة من ربك ) وقال تعالى ( تمتنا على عباده ) ويبدكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ) وقال صلى الله عليه وسلم « كاد الفقر أن يكون كفراً » <sup>(٢)</sup> ، وهو ثناء على المال . ولا تقف على وجه الجمع بعد الدم والمدح إلا بأن تعرف حكمة المال ومقصوده وآفاته وغرائله ، حتى يتكشف لك أنه خير من وجهه وشر من وجهه ، وأنه عمود من خيوط هو خير ومذموم من حيث هو شر ، فإنه ليس يثير محض ولا شر محض ، بل هو سبب للأمنين جميعاً وما هذا وصفه فيمدح للاحالة تارة وينم أخرى ، ولكن البصير المميز يدرك أن الممجد منه غير المذموم ، ويانه بالاستعداد بما ذكرناه في كتاب الشكر من بيان الخيرات وتفصيل درجات النعم ، والقدر المتع في هوان مقصد الاكياس وأرباب البصائر سعادة الآخرة التي هي التيمم بالثم والمالك والمقيم . والتقصيد إلى هذا دأب الكرام والاكياس ، إذ قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : من أكرم الناس وأكيسهم ؟ فقال : أكثرهم للوت ذكراً وأخذهم له استعداداً <sup>(٣)</sup> .

(١) حديث « نعم المال الصالح للرجل الصالح » أخرجه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط من حديث عمرو بن العاص بسند صحيح بلفظ « نعم » ، وقال « الله » . (٢) حديث « كاد الفقر أن يكون كفراً » أخرجه أبو مسلم البجلي في سننه والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أنس وتقدم في كتاب ذم النصب (٣) حديث : من أكرم الناس وأكيسهم ؟ قال « أكثرهم للوت ذكراً ... الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عمر بلفظ : أي المؤمنين أكيس ؟ ورواه ابن أبي الدنيا في الموت بلفظ المصنف واستاده جيد .

وهذه السعادة لاتصال الإيالات وسائل في الدنيا وهي الفضائل النفسية ، كالعلم وحسن الخلق ، والفضائل البدنية : كالصحة والسلامة ، والفضائل الخارجة عن البدن : كالمال وسائر الأسباب . وأعلىها النفسية ، ثم البدنية ، ثم الخارجية .

فالخارجة أحبها للمال من جملة الخارجات ، وأدناها الدرهم والذنانير ، فليتهما خادمان ولا خادما لهما ، ومزادان لتبرهما . ولا يراد أن لهما ؛ إذ النفس هي الجوهر النفيس المطلوب سعادتها ، وأنها تخدم العلم والمعرفة ومساكنم الأخلاق لتحصلها صفة في ذاتها ، والبدن يخدم النفس بواسطة الحواس والأعضاء ، والمطاعم والملابس تخدم البدن . وقد سبق أن المقصود من المطاعم إبقاء البدن . ومن التكاثر إبقاء النسل ، ومن البدن تمكين النفس وتزيينها بالملم والخلق . ومن عرف هذا الترتيب فقد عرف قدر المال ووجه شرفه ، وأنه من حيث هو ضرورة المطاعم والملابس التي هي ضرورة بقاء البدن الذي هو ضرورة كمال النفس الذي هو خير . ومن عرف فائدة الشيء وظايته ومقصده واستعمله لتلك الغاية ملتفتاً إليها غير ناس لها فقد أحسن واتقن ، وكان حاصله الغرض محموداً في حقه ، فإذا المال آلة وسيلة إلى مقصود صحيح ، ويصلح أن يتخذ آلة وسيلة إلى مقاصد فاسدة وهي المقاصد الصاعدة عن سعادة الآخرة وتسبب سبيل العلم والعمل . فهو إذا محمود مذموم ، محمود بالإضافة إلى المقصد المحمود ، ومذموم بالإضافة إلى المقصد المذموم . فنأخذ من الدنيا أكثر مما يكتفيه فقد أخذ حقه وهو لا يضر<sup>(١)</sup> كما ورد به الخبر .

ولما كانت الطباع مائلة إلى اتباع الشهوات القاطمة لسبيل الله وكان المال مسبلاً لها وآلة إليها ، عظم الخطر فيها يريد على قدر الكفاية فاستأذ الأنبياء من شره حتى قال نبينا عليه الصلاة والسلام : اللهم اجعل قوت آل محمد كقوت<sup>(٢)</sup> ، فلم يطلب من الدنيا إلا ما يتمحض خيره وقال : اللهم أحني مسكيتاً وأمتي مسكيتاً واحشرن في زمرة المساكين<sup>(٣)</sup> ، واستأذ إبراهيم صلى الله عليه وسلم فقال : ( واجنبي وبني أن نعيد الأصنام ) وعنى بها هذين الحجرين الذهب والفضة ، إذ رتبة النبوة أجل من أن يخشى عليها أن تمتد الإلهية في شيء من هذه الحجارة ، إذ قد كفى قبل النبوة مع الصغر ، وإنما معنى عبادتهما حبهما والاغترار بهما والركون إليهما قال نبينا صلى الله عليه وسلم : نعم عبد الدينار ونعم عبد الدرهم نعم ولا اتشم وإذا شيك فلا اتفش<sup>(٤)</sup> ، فين أن محبهما عابداً ومن عبد حجراً فهو عابد صنم . بل كل من كان عبداً لغير الله فهو عابد صنم ، أي قطع ذلك عن الله تعالى وعن إداة حقه فهو كعابد صنم ، وهو شرك إلا أن الشرك شركان : شرك خفي لا يوجب الخلود في النار وقليل ينفك عنه المؤمنون فإنه أخفى من ديب القتل ، وشرك جلي يوجب الخلود في النار لنحو ذلك من الجبيع .

### بيان تفصيل آفات المال وفوائده

اعلم أن المال مثل حية فيها سم وترياق ، ففوائده ترياقه ، وغوائه سمومه . فنأخذ من غوائه وفوائده أمكنه أن يصحّر من شره ويستدر من خيره .

(١) حديث : « من أخذ من الدنيا أكثر مما يكتفيه فقد أخذ حقه وهو لا يضر » تقدم قبله بنسبة أحداث وهو بحية « احشروا الدنيا » (٢) حديث : « اللهم اجعل قوت آل محمد كقوت آل نوح كقوت آل نوح » متفق عليه من حديث أبي هريرة . (٣) حديث : « اللهم أحني مسكيتاً وأمتي مسكيتاً » أخرجه الترمذي من حديث أبي واين ماجة والمالك وصححه إسناده من حديث أبي سعيد ولقد تقدم (٤) حديث : « نعم عبد الدينار ونعم عبد الدرهم ... الحديث » أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة ولم يقل « واتفش » وإنما على آخره بلفظ « نعم واتكس » ووسل ذلك ابن ماجة والمالك

أما الفوائد : فهي تنقسم إلى دنيوية ودينية : أما الدنيوية فلا حاجة إلى ذكرها فإن معرفتها مشهورة مشتركة بين أصناف الخلق ، ولولا ذلك لم يهاكوا على طلبها . وأما الدينية فتتضمن جميعها في ثلاثة أنواع .  
( النوع الأول ) أن ينفعه على نفسه إما في عبادة أو في الاستعانة على عبادة . أما في العبادة : فهو كالاستعانة به على الحج والجهاد فإنه لا يتوصل إليهما إلا بالمال ، وهما من أمهات القربات والفقير محروم من فضلها . وأما فيما يقويه على العبادة : فذلك هو المعلم والملبس والسكن والمنكح وضرورات المعيشة فإن هذه الحاجات إذا لم تيسر كان القلب مصروفاً إلى تدبيرها فلا يتفرغ للدين ، ومالا يتوصل إلى العبادة إلا به فهو عبادة ، فأخذ الكفاية من الدنيا لأجل الاستعانة على الدين من الفوائد الدينية . ولا يدخل في هذا التمتع والريادة على الحاجة فإن ذلك من حظوظ الدنيا فقط .

( النوع الثاني ) ما يصرفه إلى الناس ، وهو أربعة أقسام : الصدقة ، والمروءة ، وقاية العرض ، وأجرة الاستخدام .

أما الصدقة فلا يخفى ثوابها وإنها تطفى غضب الرب تعالى ، وقد ذكرنا فضلها فيما تقدم .  
وأما المروءة فتشتمل على صرف المال إلى الأغنياء والإشراف في ضيافة وهدية وإعانة وما يجرى مجراها ، فإن هذه لا تسمى صدقة ، بل الصدقة ما يسلم إلى المحتاج إلا أن هذا من الفوائد الدينية إذ به يكتب العبد الإخوان والأصدقاء وبه يكتب صفة السخاء ويلتقي بمررة الأضياف . فلا يوصف بالجلود إلا من يصطنع المعروف ويسلك سبيل المروءة والفتوة ، وهذا أيضاً مما يعظم الثواب فيه فقد وردت أخبار كثيرة في الهدايا والضيافات وإطعام الطعام من غير اشتراط الفقر والفاقة في مصارفها .

وأما وقاية العرض فتشتمل على بذل المال لدفع هجر الشعراء وطلب السفهاء وقطع السننهم ودفع شرهم ، وهو أيضاً مع تنبيه فائدته في العاجلة من الحظوظ الدينية . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما وقى به المرء عرضه كتب له به صدقة »<sup>(١)</sup> ، وكيف لا وفيه منع المقتاب عن معصية الغيبة واحترام عما يشور من كلامه من العداوة التي تحصل في المكافأة والانتقام على مجاوزة حدود الشريعة .

وأما الاستخدام فهو أن الأعمال التي يحتاج إليها الإنسان لتبتيه أسبابه كثيرة ، ولو تولاها بنفسه ضاعت أوقاته وتعدر عليه سلوك سبيل الآخرة بالتفكير والذكر الذي هو أعلى مقامات السالكين ، ومن لا مال له فيفتقر إلى أن يتولى بنفسه خدمة نفسه من شراء الطعام وطحنه وكس البيت حتى نسخ الكتاب الذي يحتاج إليه ، وكل ما يتصور أن يقوم به غيرك ويحصل به غرضك فأنت متعوب إذا اشتغلت به ، إذ عليك من العلم والعمل والذكر والتفكير مالا يتصور أن يقوم به غيرك فتضييع الوقت في غيره خسار .

( النوع الثالث ) مالا يصرفه إلى إنسان معين ولكن يحصل به خير عام كبناء المساجد والقناطر والرباطات ودور المرضى ونصب الجباب في الطريق ، وغير ذلك من الأوقاف المرصدة للخيرات ، وهي من الخيرات المؤبدة النافذة بعد الموت المستجابة بركة أدعية الصالحين إلى أوقات متبادلة ، وناهيك بها خيراً . فهذه جملة فوائد المال في الدين سوى ما يتعلق بالحظوظ العاجلة من الخلاص من ذل السؤال وحقارة الفقر ، والوصول إلى العز والمجد بين الخلق ، وكثرة الإخوان والأعران والأصدقاء ، والوقار والكرامة في القلوب ، فكل ذلك مما يقتضيه المال من الحظوظ الدنيوية .

(١) حديث « ما وقى المرء عرضه به فهو صدقة » رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم .

وأما الآفات فدينية ودنيوية أما الدينية فثلاث .

( الأولى ) أن تجزئ إلى المعاصي فإن الشهوات متفاضلة والمعجز قد يحول بين المرء والمعصية ، ومن العصية أن لا يجد . ومهما كان الإنسان أيساً عن نوع من المعصية لم يتحرك ذاتيته ، فإذا استغنى القدرة عليها انبثقت داعيته والمال نوع من القدرة يمزك داعية المعاصي وارتكاب الفجور ، فإن اقتحم ما اشتاء هلك وإن صبر وقع في شدة ! إذ الصبر مع القدرة أشد ، وفتنة السراء أعظم من فتنة الضراء .

( الثانية ) أنه يجزئ إلى التمتع في المباحات ، وهذا أول الدرجات ، فمَن يقدر صاحب المال على أن يتناول خبز الشعير ويلبس الثوب الخشن ويترك لذائذ الأطعمة كما كان يقدر عليه سليمان بن داود عليها الصلاة والسلام في ملكه فأحسن أحواله أن لا يتعمق بالدنيا ويمرن عليها نفسه ، فيصير التمتع مأثوماً عنده وعجوباً لا يصبر عنه ، ويجزئه البعض منه إلى البعض ، فإذا اشتد أنه به ربما لا يقدر على التوصل إليه بالكسب الحلال فيقتحم الشبهات ويغترى في المراماة والمداومة والكذب والفساق وسائر الأخلاق الرديئة ، لينتظم له أمر دنياه ويتيسر له تتمه ، فإن من كثر ماله كثرت حاجته إلى الناس ، ومن احتاج إلى الناس فلا بد وأن يناقشهم ويصغي الله في طلب رضاهم ، فإن سلم الإنسان من الآفة الأولى وهي مباشرة الخطيئة فلا يسلم عن هذه أصلاً . ومن الحاجة إلى الخلق تنور المداوة والصداقة ، وينشأ عنه الحسد والحقد والرياء والكبر والكذب والفتنة وسائر المعاصي التي تخص القلب واللسان ، ولا يخلو عن التمدد أيضاً إلى سائر الجوارح . وكل ذلك يلزم من شؤم المال والحاجة إلى حفظه وإصلاحه .

( الثالثة ) وهي التي لا ينفك عنها أحد وهو أنه يلغيه لإصلاح ماله عن ذكر الله تعالى ، وكل ما شغل العبد عن الله فهو خسران ، ولذلك قال عيسى عليه الصلاة والسلام : في المال ثلاث آفات ، أن يأخذه من غير حيلة ، فقيل : إن أخذه من حله ؟ فقال : يضعه في غير حقه ، فقيل : إن وضعه في حقه ؟ فقال : يشغله لإصلاحه عن الله تعالى . وهذا هو الداء العضال . فإن أصل العبادات وعنا وسرها ذكر الله والتفكير في جلاله ، وذلك يستدعي قلباً فارغاً وصاحب الضميمة يسمى ويصبح متفكراً في خصومة الفلاح ومحاسنته ، وفي خصومة الشركاء ومنازعتهم في الماء والحدود ، وخصومة أعوان السلطان في الحراج ، وخصومة الأجراء على التقصير في العبادة ، وخصومة الفلاحين في خيانتهم وسرقتهم . وصاحب التجارة يكون متفكراً في خيانة شريكه وانفراذه والبرح وتقصيره في العمل وتقصيحه للمال . وكذلك صاحب المواشي . وهكذا سائر أصناف الأموال . وأبعد ما عن كثرة الشغل : التقديرات تحت الأرض ، ولا يزال الفكر متردداً فيما يصرف إليه وفي كيفية حفظه وفي الخوف مما يثر عليه وفي دفع أطاع الناس عنه . وأودية أفكار الدنيا لا نهاية لها ، والذي معه قوت يومه في سلامة من جميع ذلك . فهذه جملة الآفات الدنيوية سوى ما يقاسمها أرباب الأموال في الدنيا من الخوف والحزن والتم والمهم والتعب في دفع الحساد وتجهش المصاعب في حفظ المال وكسبه ، فإذا تراكب المال أخذ القوت منه وصرف الباقي إلى الخيرات وما عدا ذلك محوم وآفات . نسأل الله تعالى السلامة وحسن اللون بلطفه وكرمه إنه على ذلك قدير .

بيان ذم الحرص والطمع ، ومدح القناعة واليأس بما في أيدي الناس

اعلم أن الفقر محمود - كما أوردناه في كتاب الفقر - ولكن ينبغي أن يكون الفقير قائماً منقطع الطمع عن الخلق غير ملتفت إلى ما في أيديهم ولا حرصاً على اكتساب المال كيف كان ، ولا يمكنه ذلك إلا بأن يتعبد بالصبر والعزيمة

من المطعم والمليح والمسكن ، ويقتصر على أقله قدرا وأخسه نوعا ، ويرد أمه إلى يومه أو إلى شهره ، ولا يشغل قلبه بما بعد شهر . فإن تشوق إلى الكثير أو طول أمه فانه عز القناعة وتدنس لا محالة بالطمع وذل الحرص ، وجزء الحرص والطمع إلى مساوئ الأخلاق وارتكاب المنكرات الخارقة للرواد ، وقد جبل الآدي على الحرص والطمع وقلة القناعة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو كان لابن آدم واديان من ذهب لا يبغي لهما ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويترتب الله على من تاب <sup>(١)</sup> . وعن أبي واقد الليثي قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أوحى إليه آيتهاء يعطينا مما أوحى إليه ، لجثته ذات يوم فقال : إن الله عز وجل يقول : إنا أنزلنا المسال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، ولو كان لابن آدم واد من ذهب لأحب أن يكون له ثان ولو كان له الثاني لأحب أن يكون لهما ثالث ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويترتب الله على من تاب <sup>(٢)</sup> . وقال أبو موسى الأشعري : نزلت سورة نحو براءة ثم رعت وحفظ منها : إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم ولو أن لابن آدم واديين من مال لئى واديا ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويترتب الله على من تاب <sup>(٣)</sup> . وقال صلى الله عليه وسلم : منومان لا يشبعان منهم العلم ومنهم المسال <sup>(٤)</sup> . وقال صلى الله عليه وسلم : يهرم ابن آدم ويشب معه الفئنان : الأمل وحب المال ، أو كما قال <sup>(٥)</sup> .

ولما كانت هذه جيلة للأدى مضلة وغريزة مهلكة اتى الله تعالى ورسوله على القناعة فقال صلى الله عليه وسلم طوبى لمن هدى للإسلام وكان دينه كفافا وقنع به <sup>(٦)</sup> . وقال صلى الله عليه وسلم : ما من أحد فقير ولا غنى إلا ود يوم القيامة أنه كان أرق قوتا في الدنيا <sup>(٧)</sup> . وقال صلى الله عليه وسلم : ليس النقى عن كثرة العرض إنما النقى غنى النفس <sup>(٨)</sup> . ونهى عن شدة الحرص والمبالغة فى الطلب فقال : أيها الناس أجهلوا فى الطلب فإنه ليس لعبد إلا ما كتب له ولن يذهب عبد من الدنيا حتى يأتيه ما كتب له من الدنيا وهي راحة <sup>(٩)</sup> . يوروى أن موسى عليه السلام سأل ربه تعالى فقال : أى عبادك أغنى ؟ قال : أقتهم بما أعطيتهم ، قال : فأيهم أعدل ؟ قال : من أنصف من نفسه . وقال ابن مسعود : قال رسول الله ﷺ : إن روح القدس نفث فى روعى إن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب <sup>(١٠)</sup> . وقال أبو هريرة : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا هريرة إذا اشتد بك الجوع فعليك برغيف وكوز من ماء وعلى الدنيا الدمار . وقال أبو هريرة رضى الله عنه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كن روعا ، تكن أعبد الناس وكن قنعا تكن أشكر الناس ، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمنا <sup>(١١)</sup> .

- (١) حديث « لو كان لابن آدم واديان من ذهب لا يبغي لهما ثالثا ... الحديث » متفق عليه من حديث ابن عباس وأنس
- (٢) حديث أبي واقد الليثي : إن الله عز وجل يقول : إنا أنزلنا المسال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، ... الحديث » أخرجه أحمد والبيهقي فى الشعب بسند صحيح
- (٣) حديث أبي موسى : نزلت سورة نحو براءة ثم رعت وحفظ منها : إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم لو أن لابن آدم واديين من مال ... الحديث » أخرجه مسلم مع اختلاف دون قوله : إن الله يؤيد هذا الدين » ورواه بهذه الزيادة الطبراني وفيه عن لى زيد متكم فيه
- (٤) حديث « منومان لا يشبعان منهم العلم » أخرجه الطبراني من حديث ابن مسعود بسند ضيف
- (٥) حديث يهرم ابن آدم ويشب معه الفئنان ... الحديث » متفق عليه من حديث أنس
- (٦) حديث طوبى لمن هدى للإسلام وكان دينه كفافا وقنع به » أخرجه الترمذى وصححه واللسا فى الكبرى من حديث فضالة ابن عبيد والمسلم من حديث عبد الله بن عمر » وقد أفصح من أسلم ووزق كفافا وقنع الله بك آناه
- (٧) حديث « ما من أحد غنى ولا فقر إلا ود يوم القيامة أنه كان أرق قوتا فى الدنيا قوتا » أخرجه ابن ماجه من رواية شبيب بن الحارث عن أنس ويصح ضيف
- (٨) حديث « ليس النقى عن كثرة العرض وإنما النقى غنى النفس » متفق عليه من حديث أبي هريرة
- (٩) حديث « ألا أيها الناس أجهلوا فى الطلب فإنه ليس لعبد إلا ما كتب له » أخرجه الحاكم من حديث جابر بنحوه وصححه إسناده ، وقد تقدم فى آداب السكسب والملاش
- (١٠) حديث ابن مسعود : إن روح القدس نفث فى روعى إن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا فى القناعة والحاكم مع اختلاف وقد تقدم فيه
- (١١) حديث أبي هريرة « كن روعا تكن أعبد الناس ... الحديث » أخرجه ابن ماجه وقد تقدم

ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الطمع فيما رواه أبو أيوب الأنصاري : أن إعرابيا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله عظمي وأرجعي فقال : إذا صليت فصل صلاة مودع ولا تحدثن بحديث تعتذر منه غدا ، وأجمع اليأس بما في أيدي الناس <sup>(١)</sup> . وقال عوف بن مالك الأشجعي : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعة أو ثمانية أو سبعة - فقال : ألا تبايعون رسول الله ، قلنا : أوليس قد بايعناك يا رسول الله ؟ ثم قال : ألا تبايعون رسول الله ، فبسطنا أيدينا فبايعناه فقال قال منا : قد بايعناك فعلى ماذا تبايعك ؟ قال : أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وتصلوا الحسن ، وأن تسمعوا وتطيعوا ، وأسر كلمة خفية ، ولا تسألوا الناس شيئا <sup>(٢)</sup> ، قال : فلقد كان بعض أولئك التفر يسقط سوطه فلا يسأل أحدا أن يتأوله إياه .

الآثار : قال عمر رضي الله عنه : إن الطمع فقر وإن اليأس غنى وإنه من يأس عما في أيدي الناس استغنى عنهم وقيل لبعض الحكماء : ما الفتي ؟ قال : فلة تمنيك ورضاك بما يكفيك ، وفي ذلك قيل :

العيش ساعات تمزّ وخطوب أيام تمزّ  
اقتع بعيشك رَحْمَةً وارك هواك تميش حُرّ  
فلرب حشف ساقه ذهب وياقوت ودرّ

وكان محمد بن واسع يبل الخلد اليأس بالماء ويأكل ويقول : من قطع بهذا لم يمتح إلى أحد . وقال سفيان : خير دنيا كم مالم يتولوا به وخير ما ابتلهم به ما خرج من أيديكم وقال ابن مسعود : ما من يوم إلا وصلك ينادي : يا ابن آدم قليل يكفيك خير من كثير يعطيك . وقال سميح بن جعلان : إنما يعطيك ابن آدم شبر في شبر فلم يدخلك النار ؟ وقيل لحكيم : ما مالك ؟ قال : التجل في الظاهر والقصد في الباطن والياس بما في أيدي الناس . و يروى أن الله عز وجل قال : يا ابن آدم لو كانت الدنيا كلها لك لم يكن لك منها إلا القوت ، وإذا أنا أعطيتك منها القوت وجلت حسابها على غيرك فأنا إليك محسن . وقال ابن مسعود : إذا طلب أحدكم الحاجة فليطلبها طلبا يسيرا ولا يأتى الرجل فيقول : إنك وإنك فيقطع ظهره ، وإنما يأتيه ما قسم له من الرزق أو مازق . وكتب بعض بني أمية إلى إني حازم - يعزم عليه ألا رفع إليه حوائجه - فكتب إليه : قد رفعت حوائجي إلى ولأى فما أعطاني منها قبلت وما أمسك عنى قمت . وقيل لبعض الحكماء : أى شيء أسر للعامل ولأى شيء أعون على دفع الحزن ؟ فقال : أسرها إليه ما قسم من صالح العمل ، وأعونها على دفع الحزن الرضا بمحتوم القضاء وقال بعض الحكماء : وجدت أطول الناس غشا الحسود ، وأنهمام عيشا التنوع ، وأصبرهم على الأذى الحريص إذا طمع ، وأخفضهم عيشا أرفضهم للدنيا ، وأعظمهم ندامة العالم للفرط . وفي ذلك قيل :

أرؤه يبال فنى أمسى على فقة : أن الذى قسم الأرزاق يرزقه  
فالمرض منه مصون لا يدله والوجه منه جديد ليس يخلقه  
إن التناعة من يحبل بإحتيا لم يلق فى دهره شيئا يؤزّه

(١) حديث أبي أيوب : إذا صليت فصل صلاة مودع ولا تحدثن بحديث تعتذر منه وأجمع اليأس بما في أيدي الناس ، أخرجه ابن ماجه وقدم في الصلاة ولما كان نحوه من حديث سعد بن أبي وقاص وقال صحيح الإسناد (٢) حديث عوف بن مالك : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم - سبعة أو ثمانية أو تسعة - فقال : ألا تبايعون ... الحديث ، وفيه : ولا تسألوا الناس ، أخرجه مسلم من حديثه ولم يدل : فقال قال ولا قال : تسألوا . وقال : سوط أحدم . وفى عند أبي داود وابن ماجه كما ذكرهما المصنف .

وقد قيل ايضا :

حتى متى أنا في حل وترحال    وطول سعي وإديار وإقبال  
وتأرجح الدار لأنفسك مغتربا    عن الأحبة لا يدرون ماحال  
بمشرق الأرض طورا ثم مغربا    لا يحضر الموت من حرص على بال  
ولو قصمت أمانى الزرق في دعه    لأن التتويح للفق لا كثرة للمال

وقال عمر رضى الله عنه : ألا أخيركم بما أستحل من مال الله تعالى : حلتان لثتان وقيطى ، وما يسعني من الظهر لحبي وعمرى ، وفوقى بعد ذلك كفتوت رجل من قريش لست بأرفهم ولا بأوضهم ، فوالله ما أدرى أيحل ذلك أم لا ؟ كأنه شاك في أن هذا القدر هل هو زيادة على الكفاية التي تجب القناعة بها ؟ وطالب أعراي أعاء على الحرص فقال يا أخى أنت طالب ومطلوب ، يطلبك من لاتفوته وتطلب أنت ما قد كفيت ، وكأن ما غاب عنك قد كشف لك ، ومأنت فيه قد نقلت عنه ، كأنك يا أخى لم تر حرصا عروما وزاهدا مرزوقا . وفي ذلك قيل :

أراك يديك الإثراء حرصا    على الغنى كأنك لا تموت  
فهل لك غاية إن صرت يوما    إليها قلت حسبي قد رضى

وقال الشعبي : حكى أن رجلا صاد قنبرة فقالت : ما تريد أن تصنع بي ؟ قال : أذيبك وآكلك ، قالت : واه ما أشنى من قرم ولا أشبع من جوع ولكن أعلبك ثلاث خصال هي خير لك من أكلى : أما واحدة : فأعلبك وأنا في يدك ، وأما الثانية : فإذا صرت على الشجرة ، وأما الثالثة : فإذا صرت على الجبل ، قال : هات الأولى ، قالت : لا تلهنى على ما فالك ، خللا ما صارت على الشجرة قال : هات الثانية : لا تصدقن بها لا يكون أنه يكون ، ثم طارت فصارت على الجبل فقالت : يا شقى لو ذهبتى لأخرجت من حوصلى دزئين زنة كل دزة عشرون مثقالا ، قال : فمض على شفت وتلف وقال : هات الثالثة ، قالت : أنت قد نسيت التنتين فكيف أخبرك بالثالثة ؟ ألم أقل لك : لا تلهنى على ما فالك ولا تصدقن بها لا يكون أن يكون ، أنا لى ودى ورشى لا يكون عشرين مثقالا فكيف يكون فى حوصلى درتان كل واحدة عشرون مثقالا ؟ ثم طارت فذهبت . وهذا مثال لفراط طمع الأذى فانه يبعيه عن درك الحق حتى يقدر مالا يكون أنه يكون . وقال ابن السكيت : إن الرجاء حبل في قلبك وقيد في رجلك فأخرج الرجاء من قلبك يخرج القيد من رجلك . وقال أبو عبد الله اليزيدى : دخلت على الرشيد فوجدته ينظر في ورقة مكتوب فيها بالذهب ، فلما رأى تبسم ، فقلت : فائدة أصح الله أمير المؤمنين ؟ قال : نعم وجدت هذين البيتين في بعض خزانى أمية فاستحسنتهما وقد أضفت إليهما ثالثا . وأندفتي :

إذا سد باب عنك من دون حاجة    فدعه لأخرى يفتش لك بابها  
فإن قرب البطن يكفيك ملؤه    ويكفيك سرهات الأمور واجتنابها  
ولا تملك مبدلا لحرصك واجتنب    ركوب المعاصي يمتن بك عقابها

وقال عبد الله بن سلام لكمب : ما يذهب العلوم من قلوب العلماء إذ وعوها وعقلوها ؟ قال : الطمع وشر النفس وطلب الحوائج . وقال رجل للفضيل : فسر لي قولكمب ، قال : يطلع الرجل في الشيء يطلبه فيذهب عليه دينه ، وأما الشره فشره النفس في هذا حتى لا تحب أن يفوتها شيء ، ويكون لك إلى هذا ساحة وإلى هذا حاجة فإذا قضاها لك خرم أنفك وقادك حيث شاء واستمكن منك وخضعت له . فن حبلك الدنيا سلبت عليه



إذا مروت به وحدته إذا مرض ؛ لم تسلم عليه شئ عز وجل ولم تعده شئ ، فلم يكن لك إليه حاجة كان خيراً لك . ثم قال : هذا خير لك من مائة حديث عن فلان عن فلان . قال بعض الحكماء : من عجيب أمر الإنسان أنه لو نودي بدوام البقاء في أيام الدنيا لم يكن في قوئ خلقته من الحرص على الجمع أكثر مما قد استعمله مع قصر مدته التمتع وتوقع الزوال . وقال عبد الواحد بن زيد : مروت برأب فقلت له : من أين تأكل ؟ قال : من يدر الطيف الخير ، الذي خلق الرضا يأتمها بالطمعين - وأوماً يده إلى رسا أضراسه - فسبحان التقدير الخبير .

### بيان علاج الحرص والطمع ، والمود الذي يكتسب به صفة القناعة

اعلم أن هذا المود مركب من ثلاثة أركان : العير والعلم والعمل ، وبمجموع ذلك خمسة أمور :  
الأول : وهو العمل : الاقتصاد في المعيشة والرفق في الإنفاق ، فمن أراد عز القناعة فينبغي أن يستدبر نفسه أبواب الخروج ما أمكنه ويرد نفسه إلا ما لا بد له منه ، فمن كثر خرجه واتسع إنفاقه لم يتمكن القناعة ، بل إن كان وحده فينبغي أن يقتنع بثوب واحد خشن ، ويقتنع بأى طعام كان ؛ ويقلل من الإدام ما أمكنه ، ويوطن نفسه عليه وإن كان له عيال فيرد كل واحد إلى هذا القدر ؛ فإن هذا القدر يتيسر بأدنى جهد . ويمكن منه الإجمال في الطلب والاقتصاد في المعيشة وهو الأصل في القناعة ؛ ونسبى به الرفق في الإنفاق وترك الخرق فيه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله يحب الرفق بالمرء»<sup>(١)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم « ما مال من اقتصد »<sup>(٢)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم « ثلاث منجيات ؛ خشية الله والسرور بالعافية ، والتصدق بالثمن والفقير ، والمدا في الرضا والنضب »<sup>(٣)</sup> ، وروى أن رجلاً أبصر أبا الهرداء يلتقط حبا من الأرض وهو يقول : إن من فقهك رفقك في معيشتك . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : قال النبي صلى الله عليه وسلم « الاقتصاد وحسن السمت والهدى الصالح جزء من بعش وعشرين جزءا من النبوة »<sup>(٤)</sup> .  
وفي الخبر « التدبير نصف المعيشة »<sup>(٥)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم ، من اقتصد أغناه الله ومن بذر أفقره الله ومن ذكر الله عز وجل أحبه الله »<sup>(٦)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم « إذا أردت أمراً فليكن بالتؤدة حتى يجعل الله لك فرجاً وعرجاً »<sup>(٧)</sup> « والتؤدة في الإنفاق من أهم الأمور .

الثاني : أنه إذا تيسر له في الحال ما يكفيه فلا يبغي أن يكون شديد الاضطراب لأجل المستقبل ، ويمتنع على ذلك قصر الأمل ، والتحقق بأن الرزق الذي قدر له لا بد وأن يأتيه وإن لم يشتد حرصه ، فإن شدة الحرص ليست هي السبب لوصول الأرزاق ، بل يبغي أن يكون واثقاً بوعده تعالى إذ قال عز وجل ﴿ وما من دابة في الأرض

(١) حديث « إن الله يحب الرفق في الأمر كله » متفق عليه من حديث عائشة وقد تقدم (٢) حديث « ما مال من اقتصد » أخرجه أحمد والطبراني من حديث ابن مسعود ورواه من حديث ابن عباس بلفظ « مقتصد » (٣) حديث « ثلاث منجيات ؛ خشية الله في السر والعلانية والصدق في الثمن والفقير والهدى الصالح » أخرجه البزار والطبراني وأبو نعيم والبيهقي في الشعب من حديث أبي إسحق شافئ (٤) حديث ابن عباس « الاقتصاد وحسن السمت والهدى الصالح جزء من بعش وعشرين جزءا من النبوة » أخرجه أبو داود من حديث ابن عباس مع تقدم وتأخير وقال « السمت الصالح » وقال « من فقه وعشرين » ورواه الترمذي وحسنه من حديث عبد الله بن سرجس وقال « التؤدة » بذلك « الهدى الصالح » وقال « من أربعة » (٥) حديث « التدبير نصف المعيشة » رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي وفيه خلل بن عيسى جهه التعليل ورواه ابن ميين . (٦) حديث « من اقتصد أغناه الله ... الحديث » أخرجه البزار من حديث طلحة بن عبيد الله دون قوله « ومن ذكر الله أحبه الله » وشيخه فيه عمران بن حارون البصري قال الذهبي : شيخ لا يعرف له آثر غير منكر أي هنا الحديث ، ولأحمد وأبو يونس في حديث أبي سعيد « ومن أكثر من ذكر الله أحبه الله » (٧) حديث « إذا أردت أمراً فليكن بالتؤدة حتى يجعل الله لك فرجاً وعرجاً » رواه ابن المبارك في البر والصلة وقد تقدم

إلا على الله رزقها) وذلك لأن الشيطان يمدد الفقر ويأمره بالفحشاء ويقول: إن لم تحرص على الجمع والادخار فربما تعرض وربما تمجر وتحتاج إلى احتيال الذل في السؤال، فلا يزال طول العمر يتبعه في الطلب خوفاً من الفقر، وبصحتك عليه في احتياله التمسب تقداً مع العقلة عن الله لتوم نسب في ثأني الحال وربما لا يكون. وفي مثله قيل:

ومن يفتق الساعات في جمع ماله يخافه فقر فألذي فعل: الفقير

وقد دخل ابن خالده على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لها، لانيأساً من الرزق ما تهزوت رموسكاً فإن الإنسان تلده أمه أحر ليس عليه قشر ثم يرزقه الله تعالى<sup>(١)</sup>، ومز رسول الله صلى الله عليه وسلم بان مسعود وهو حزين فقال له لا تكثر منك ما قدر يكن وما ترزق يأتك<sup>(٢)</sup>، وقال صلى الله عليه وسلم: ألا أيها الناس أجملا في الطلب فإنه ليس لعبد إلا ما كتب له ولن يذهب عيدين الدنيا حتى يأتيه ما كتب له من الدنيا وهي راحة<sup>(٣)</sup>، ولا ينفك الإنسان عن الحرص إلا بحسن فقهه بتدبير الله تعالى في تقدير أرزاق العباد، وأن ذلك يحصل لاجتماع مع الإجمال في الطلب، بل ينبغي أن يعلم أن رزق الله للعبد من حيث لا يحسب أكثر قال الله تعالى (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحسب) فإذا انسد عليه باب كان ينتظر الرزق منه فلا يفتش أن يضطرب قلبه لاجله، وقال صلى الله عليه وسلم: أي الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لا يحسب<sup>(٤)</sup>، وقال سفيان: اتق الله فما رأيت قتيلاً محتاجاً، أي لا يترك التي فاقداً لضرورته، بل يلق الله في قلوب المسلمين أن يوصلوا إليه رزقه. وقال الفضل النسي: قلت لأعرابي من أين ماشك؟ قال نذر الحاج، قلت: فإذا صدروا، فيسكي وقال: لولم نعيش إلا من حيث ندرى لم نمش، وقال أبو حازم رضى الله عنه: وجدت الدنيا شيئين: شيئاً منهما هو لي، فإن أجمله قبل وقته ولو طلبته بقوة السيوات والأرض. وشيئاً منهما هو لغيري فلذلك لم أنه فيما مضى فلا أرجوه فيما بقي، ينع الذي لغيري مني كما يمنع الذي لي من غيري، في أي هذين أفنى عمرى؟ فهذا دواء من جهة المعرفة لا بد منه لدفع تخوف الشيطان. وإنذاره بالفقر.

الثالث: أن يعرف مافي القناعة من عز الاستغناء وما في الحرص والطمع من الذل، فإذا تحقق عنده ذلك انبثت رغبته إلى القناعة لأنه في الحرص لا يخلو من تعب، وفي الطمع لا يخلو من ذل. وليس في القناعة إلا ألم الصبر عن الشهوات والفضول. وهذا ألم لا يطلع عليه أحد إلا الله وفيه ثواب الآخرة. وذلك ما يضاف إليه نظر الناس وفيه الوياك والمأثم. ثم يفوته عز النفس والقنوة على متابعة الحق فإن من كثر طمعه وحرصه كثرت حاجته إلى الناس فلا يمكنه دعوتهم إلى الحق ويلزمه المداينة، وذلك يهلك دينه ومن لا يؤثر عز النفس على شهوة البطن فهو ركيك العقل ناقص الإيمان، قال صلى الله عليه وسلم: عز المؤمن استغناؤه عن الناس<sup>(٥)</sup>، وفي القناعة الحزنة

(١) حديث «لانيأساً من الرزق ما تهزوت رموسكاً... الحديث» رواه ابن ماجه من حديث: حبة وسواء أبي خالده، وقد تقدم. (٢) حديث «لا تكثر منك ما قدر يكن وما ترزق يأتك» قاله ابن مسعود أخرجه أبو نعيم من حديث خالد بن رافع وقد اختلف في سببه ورواه الأصفهاني في الترغيب والترهيب من رواية مالك بن عمرو المذاهري مرسلاً

(٣) حديث «ألا أيها الناس أجملا في الطلب... الحديث» تقدم قبل هذا بثلاثة عشر حديثاً.

(٤) حديث «أي الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لا يحسب» أخرجه ابن حبان في الضعفاء من حديث علي بن إسماعيل رواه، ورواه ابن الجوزي في الموضوعات. (٥) حديث «عز المؤمن استغناؤه عن الناس» أخرجه الطبراني في الأوسط والمأثم وصححه أسناده، وأبو الفيض في كتاب الثواب، وأبو نعيم في الحلية من حديث سهل بن سعد: قاله جبريل قاله أنبي على الله عليه وسلم في أثناء حديث: وفي زفير سليمان من عهد نبينا مختلف فيه وجهه للقضاة في مسند المذاهب من قولنا النبي صلى الله عليه وسلم

والمر . ولذلك قيل : استغن عن شئت تكن نظيره واحتج إلى من شئت تكن أسيره وأحسن إلى من شئت تكن أميره .

الرابع : أن يكثر تأمله في تنعم اليهود والنصارى وأراذل الناس والحق من الأكراد والأعراب الأجلاف ومن لادين لهم ولا عقل . ثم ينظر إلى أحوال الأنبياء والأولياء وإلى سمات الخلفاء الراشدين وسائر الصحابة والتابعين ويستمتع أحاديثهم ويطلع أحوالهم . ويغير عقله بين أن يكون على مشابة أراذل الناس أو على الاقتداء بمن هو أعز أصناف الخلق عند الله ، حتى يهون عليه بذلك الصبر على الضنك والفناء باليسير ، فإنه إن تنعم في البطن فالخمار أكثر أعلامه وإن تنعم في الوقاع فالخنزير أعلى رتبة منه ، وإن زين في الملابس والحق في اليهود من هو أعلى زينة منه ، وإن تنعم بالقليل ورضى به لم يساهمه في رتبته إلا الأنبياء والأولياء .

الخامس : أن يفهم مافي جمع المال من الخطر - كما ذكرنا في آفات المال - وما فيه من خوف السرقة والنهب والضائع ، وما في خلو اليد من الأمن والفراغ ، ويتأمل ماذكرناه في آفات المال مع مايفوته من المدافعة عن باب الجنة إلى حسمائة عام ، فإنه إذا لم يفتن بما يكفيه الحق بزمرة الاغنياء وأخرج من جريدة الفقراء . وذلك بأن ينظر أبدا إلى من دونه في الدنيا لا إلى من فوقه ، فإن الشيطان أبدا يصرف نظره في الدنيا إلى من فوقه فيقول : لم تفتقر عن الطلب وأرباب الأموال يتعمون في المطاعم والملاهي ؟ ويصرف نظره في الدين إلى من دونه فيقول : ولم تضيق على نفسك وتغاف الله وفلان أعلم منك وهو لا يخاف الله ؟ والناس كلهم مشغولون بالتشم فلم تريد أن تتميز عنهم ؟ قال أبو ذؤ : أوصاني خليل صلوات الله عليه أن أنظر إلى من هو دوني لا إلى من هو فوق (١) أي في الدنيا . وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا نظر أحدكم إلى من فضله الله عليه في المال والخلق فليتنظر إلى من هو أسفل منه من فضل عليه (٢) ، فهذه الأمور يقدر على اكتساب خلق القناعة . وعماد الأمر الصبر وقصر الأمل ، وأن يعلم أن غاية صبره في الدنيا أيام قلائل تمتنع دهرًا طويلا ، فيكون كالمرضى الذي يصبر على مرارة الدواء لفئة طعمه في انتظار الشفاء :

### بيان فضيلة السخاء

اعلم أن المال إن كان مفقودا فينبغي أن يكون حال العبد القناعة وقلة الحرص ، وإن كان موجودا فينبغي أن يكون حاله الإثراء والسخاء واصطناع المعروف والتباعد عن الشح والبخل ، فإن السخاء من أخلاق الأنبياء عليهم السلام وهو أصل من أصول النعمة . وعنه عبر النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال : السخاء شجرة من شجر الجنة أغصانها متدلية إلى الأرض فمن أخذ بنصن منها قاده ذلك النصن إلى الجنة (٣) ، وقال جابر . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال جبريل عليه السلام . قال الله تعالى إن هذا دين ارتضيته لنفسى ولن يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق فأكرموه بهما ما استطعتما (٤) وفي رواية : فأكرموه بهما ما صحبتموه وعن عائشة الصديقين رضي

(١) حديث أبي ذؤ : أوصاني خليل صلى الله عليه وسلم أن أنظر إلى من هو دوني ولا أنظر إلى من هو فوق . أخرجه أحمد وابن حبان في آتاه . حديث وقد تقدم (٢) حديث أبي هريرة : إذا نظر أحدكم إلى من فضله الله عليه في المال والخلق فليتنظر إلى من هو أسفل منه من فضل عليه . متفق عليه وقد تقدم . (٣) حديثه السخاء شجرة في الجنة . . الحديث . أخرجه ابن حبان في الضعفاء من حديث عائشة وابن عمر والدارقطني في المستجاد من حديث أبي هريرة وسأني بنده وأبو نعيم من حديث جابر وكلاهما ضعيف ورواه ابن الجوزي في الموضوعات من حديثهم ومن حديث الحسين وأبي سعيد (٤) حديث جابر مرفوعا حكاية عن جبريل عن الله تعالى : لن هذا دين رضيت لنفسى ولن يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق . أخرجه الدارقطني في المستجاد وقد تقدم

الله عنها قالت . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما جبل الله تعالى وليا له إلا على حسن الخلق والسخاء »<sup>(١)</sup> وعن جابر قال . قيل يا رسول الله أى الأعمال أفضل ؟ قال « الصبر والسجدة »<sup>(٢)</sup> ، وقال عبد الله بن عمرو . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خلقان يحبهما الله عز وجل وخلقان يبغضهما الله عز وجل ، فأما اللذان يحبهما الله تعالى لحسن الخلق والسخاء ، وأما اللذان يبغضهما الله فسوء الخلق والبخل ، وإذا أراد الله بعبده خيرا استعمله فى قضاء حاجات الناس »<sup>(٣)</sup> ، وروى المتقدم بن شريح عن أبيه عن جده قال قلت يا رسول الله دأبى على عمل يدخلنى الجنة قال « إن موجبات المغفرة بذل الطعام وإفشاء السلام وحسن الكلام »<sup>(٤)</sup> ، وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « السخاء شجرة فى الجنة فمن كان يحيا أخذ بنقص منها فلم يترك ذلك النفس حتى يدخله الجنة »<sup>(٥)</sup> ، وقال أبو سعيد الخدرى . قال النبي صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى أطوبوا الفضل من الرءاء من عبادى يعيشوا فى أكفاهم فإنى جعلت فيهم رحمتى ، ولا تطلبوه من القاسية قلوبهم فإنى جعلت فيهم سخطى »<sup>(٦)</sup> ، وعن ابن عباس قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نجفوا عن ذنب السخى فإن الله أخذ بيده كلما عثر »<sup>(٧)</sup> ، وقال ابن مسعود قال صلى الله عليه وسلم « الرزق إلى مطعم الطعام أسرع من السكين إلى ذروة البير وإن الله تعالى لباهى بمطعم الطعام الملاكمة عليهم السلام »<sup>(٨)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله جواد يحب الجود ويحب مكارم الأخلاق ويكره سفاهها »<sup>(٩)</sup> ، وقال أنس . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يسأل على الإسلام شيئا إلا

(١) حديث عائشة « ما جبل الله وليا له إلا على السخاء وحسن الخلق » أخرجه الدارقطني في المستجاد دون قوله « وحسن الخلق » بسند ضعيف ومن طريقه ابن الجوزى في الموضوعات ذكره بهذه الزيادة ابن عدى من رواية ثبة بن يوسف بن أبي السفر من الأوزاعي عن الزهري عن عمرو بن عائشة ، ويوسف ضعيف جدا . (٢) حديث جابر : أى الإيمان أفضل ؟ قال « الصبر والسجدة » أخرجه أبو يعلى وابن حبان فى الضعفاء بلفظ : سئل عن الإيمان . وفيه يوسف بن محمد بن المنكدر ضعفه الجمهور ورواه أحمد بن حنبل حديث عائشة وحمرو بن عتبة بلفظ : ما الإيمان ؟ قال « الصبر والسجدة » وفيه شهر بن حوشب ورواه البيهقي في الإهداق : أى الأعمال أفضل قال « الصبر والدعابة وحسن الخلق » وإسناده صحيح . (٣) حديث عبدالله بن عمرو وخلفاء بهما التورخات فيضعفان ، فأما اللذان يحبهما الله حسن الخلق والسخاء ... الحديث « أخرجه أبو منصور الديلمي دون قوله فى آخره » وإذا أراد الله بعبده خيرا وقال فيه « الدعابة » بدل « حسن الخلق » وفيه محمد بن ولى السكيت كذب أبو داود وموسى بن هرون وغيرهما ورواه الحلي ، وروى الأسفاني جميع الحديث موقوفا على عبدالله بن عمرو ، وروى الديلمي أيضا من حديث أنس « إذا أراد الله بعبده خيرا صبر حاجات الناس إليه » وفيه يحيى بن شبيب ضعفه ابن حبان . (٤) حديث المتقدم بن شريح عن أبيه عن جده « أن من موجبات المغفرة بذل الطعام وإفشاء السلام وحسن الكلام » أخرجه الطبراني بلفظ « بذل السلام وحسن الكلام » وفى رواية له « يوجب الجنة أطعم الطعام وإفشاء السلام » وفى رواية له « عليك بحسن الكلام وبذل الطعام » (٥) حديث أبي هريرة « السخاء شجرة فى الجنة ... الحديث » وفيه « والفتح شجرة فى النار ... الحديث » أخرجه الدارقطني في المستجاد وفيه عبد العزيز ابن عمران الزهري ضعيف جدا . (٦) حديث أبي سعيد « يقول الله تعالى أطوبوا الفضل من الرءاء من عبادى يعيشوا فى أكفاهم ... الحديث » أخرجه ابن حبان فى الضعفاء والحرثاني فى مكارم الأخلاق والطبراني فى الأوسط وفيه محمد بن مروان السدي الصغير ضعيف ، ورواه التميمي فى الضعفاء جلد عبد الرحمن السدي وقال أنه مجهول ، وقابض محمد بن مروان السدي عليه عبد الملك ابن الخطاب وقد غمز ابن القطان ، وقابض عليه عبد الغفار بن الحسن بن دينار قال فيه أبو حاتم لا بأس بحديثه وتكلم فيه الجوزجاني والأزدى ، ورواه الحاكم من حديث طه قال له صحيح الإسناد وليس كمال .

(٧) حديث ابن عباس « نجفوا عن ذنب السخى فإن الله أخذ بيده كلما عثر » أخرجه الطبراني فى الأوسط والحرثاني فى مكارم الأخلاق . وقال الحرثاني « أتوبوا السخى زنته » وفيه يث بن أبي سلمة يختلف فيه ورواه الطبراني فيه وأبو بصير من حديث ابن مسعود نحوه بإسناد ضعيف ورواه ابن الجوزى فى الموضوعات من طريق الدارقطني . (٨) حديث ابن مسعود « الرزق للملء بمطعم الطعام أسرع من السكين إلى ذروة البير ... الحديث » لم أجده من حديث ابن مسعود ورواه ابن ماجه من حديث أنس ومن حديث ابن عباس بلفظ « المجر أسرع إلى البيت الذى يلقى فيه السخاء ... الحديث » وكذا ما ضمة . (٩) حديث « أن الله جواد يحب الجود ويحب مكارم الأخلاق » أخرجه الحرثاني فى مكارم الأخلاق من حديث طلحة بن عبد الله ابن كريب وهذا مرسل وطبراني فى الكبير والأوسط والحاكم والبيهقي من حديث سهل بن سعد « أن الله كريم يحب السكرم ويحب مكارم الأمور » وفى الكبير والبيهقي « مكارم الأخلاق » : الحديث ، وإسناده صحيح وهم آخر الحديث فى أخلاق النبوة

أعطاه ، وآتاه رجل فسأله فأمر له بشاة كبير بين جبلين من شاة الصدقة ، فرجع إلى قومه فقال : يا قوم أسلموا ! فإن محمدا يعطي عطاء من لا يخاف الفتنة <sup>(١)</sup> ، وقال ابن عمر : قال صلى الله عليه وآله وسلم : إن الله عبادا يخصهم بالنعم لمنافع العباد ، فمن بخل بتلك المنافع على العباد قلها الله تعالى عنه وحولها إلى غيره <sup>(٢)</sup> ، وعن المسلول قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأسرى من بني النضير فأمر يقتلهم وأفراد منهم رجلا ، فقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : يا رسول الله الرب واحد والدين واحد والذهب واحد فإبالي هذا من بينهم ؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم : نزل على جبريل فقال : اقتل هؤلاء وأترك هذا فإن الله تعالى شكر له سبحانه فيه <sup>(٣)</sup> ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم : إن لكل شيء ثمرة وثمرة المعروف تمجيل السراح <sup>(٤)</sup> ، وعن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : طعام الجواد دواء وطعام البخیل داء <sup>(٥)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم : من عظمت نعمة الله عنده عظمت مؤنة الناس عليه <sup>(٦)</sup> ، فمن لم يحتمل تلك المؤنة عرض تلك النعمة للزوال . وقال عيسى عليه السلام : استكثروا من شيء لأتاكمه التار ، وقيل : وما هو ؟ قال : المعروف . وقالت عائشة رضي الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الجنة دار الأسخياء <sup>(٧)</sup> ، وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة بعيد من النار ، وإن البخیل بعيد من الله من الناس بعيد من الجنة قريب من النار ، وبماهل سخي أحب إلى الله من عالم بخیل ، وأدوا الله البخیل <sup>(٨)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم : اصنع المعروف إلى من هو أهلك وإلى من ليس بأهلك ، فإن أصبت أهله فقد أصبت أهله ، وإن لم تصب أهله فأنت من أهله <sup>(٩)</sup> ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم : إن بدلاء أمتي لم يدخلوا الجنة بصلاة ولا صيام ولكن دخلوها بسخاء الأنفس وسلامة الصدور والتصح للسلين <sup>(١٠)</sup> ، وقال أبو سعيد الخدري : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن

(١) حديث أسى : لم يسأل على الإسلام شيئا إلا أعطاه . فأما رجل فسأله ، فأمر له بشاء كبير بين جبلين ... الحديث . أخرجه مسلم وهدم في أخلاق النبوة

(٢) حديث ابن عمر : إن الله عبادا يخصهم بالنعم لمنافع العباد ... الحديث « أخرجه الطبراني في الكبير والأوسط وأبو نعيم وفي محمد بن حسان السني وفي ابن وثنه ابن ميمون يرويه عن أبي عثمان عبد الله بن زيد الحمصي ضعف الأزدي (٣) حديث الهلال : أتى النبي صلى الله عليه وسلم بأسرى من بني النضير فأمر يقتلهم وأفراد منهم رجلا ... الحديث » وفيه « فإن افشركم سفاهة » لم أجد له أصلا (٤) حديث « إن لكل شيء ثمرة وثمرة المعروف تمجيل السراح » أن أفد له على أصل (٥) حديث نافع عن ابن عمر : طعام الجواد دواء وطعام البخیل داء » أخرجه ابن عدى والدارقطني في ثواب مالك وأبوعلی الصنع في عواليه رجاله ثقات أئمة قال ابن القطان ولهم لها مبررات لا أقدم ابن داود فإن أهل مصر تكلموا فيه .

(٥) حديث « من عظمت نعمة الله عليه عظمت مؤنة الناس عليه » رواه ابن عدى وابن حبان في الضعفاء من حديث معاذ بن يقظة ، ما عظمت نعمة الله على عبد إلا ذكره » وفيه أحمد بن مهران قال أبو سالم مجهول والحديث باطل ورواه الحارثي في مكالم الأخلاق من حديث عمر بإسناد منقطع ، وفيه حليس بن محمد أحد المتروكين ، ورواه الثعلبي عن حديث ابن عباس قال ابن عدى يروي من وجوه كلها غير غفولة (٧) حديث طائفة « الجنة دار الأسخياء » أخرجه ابن عدى والدارقطني في المستجاد والحارثي قال الدارقطني لا يصح ومن طريقه رواه ابن الجوزي في الموضوعات . وقال الأدهمي حديث منكر ما أتته سوى جعفر . قلت رواه الدارقطني فيه من طريق آخر وفيه محمد بن الوليد المقرئ وهو ضيف جدا (٨) حديث أبي هريرة : أن السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة ... الحديث » أخرجه الترمذي وقال غريب ولم يذكر فيه « أدوا الله البخل » ورواه بهذه الزيادة الدارقطني فيه (٩) حديث « اصنع المعروف إلى أهلك وإلى من ليس من أهلك » أخرجه الدارقطني في المستجاد من رواية جعفر بن محمد عن أبيه عن جده مرسلا وتقدم في آداب الميمنة (١٠) حديث « إن بدلاء أمتي لم يدخلوا الجنة بصلاة ولا صيام ولكن دخلوها بسخاء الأنفس ... الحديث » أخرجه الحارثي في المستجاد وأبو بكر بن لال في مكالم الأخلاق من حديث أسى ، وفيه محمد بن عبد العزيز المبارك البهني أورد ابن عدى له مائة ، وفي البيهقي أنه ضيف منكر الحديث ، ورواه الحارثي في مكالم الأخلاق من حديث أبي سعيد نحوه وفي صالح المري منكر فيه .

الله عز وجل جعل للمعروف وجوها من خلقه حبب إليهم المعروف وحبب إليهم فعاله ووجه طلاب المعروف إليهم ويسر عليهم إعطائه كما يسر النعم إلى البلدة الجديدة فيحبها ويحب به أهلها <sup>(١)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم « كل معروف صدقة وكل ما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له صدقة وما وق به الرجل عرضه فهو له صدقة وما أنفق الرجل من نفقة فعله الله خلقها <sup>(٢)</sup> » وقال صلى الله تعالى عليه وسلم « كل معروف صدقة والمدا على الخير كفضله الله يحب إغاثة الملهفان <sup>(٣)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « كل معروف فعلته إلى غنى أو فقير صدقة <sup>(٤)</sup> » ، وروى أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام لا تقتل السامري فإنه سخي وقال جابر : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم نبيا عليهم قيس بن سعد بن عبادة لجهودوا فنحر لهم قيس تسع ركائب فخذثوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال صلى الله عليه وسلم « إن الجود لمن شيمة أهل ذلك البيت <sup>(٥)</sup> » . الآثار : قال على كرم الله وجهه : إذا أقبلت عليك الدنيا فأنفق منها فإني لا أفي ، وإذا أدبرت ضلك فأنفق منها فإني لا أتق وأندب :

لا تبخلن بدنيا وهي مقبلة فليس ينقصها التبذير والسرف

وإن تولت فأخرى أن تجود بها فأنفق منها إذا ما أدبرت خلف

وسأل معاوية الحسن بن علي رضي الله عنهما عن المروءة والتجدة والكرم فقال : أما المروءة لحفظ الرجل دينه وحذره نفسه وحسن قيامه بضيفه وحسن اللنازة والإفطار في الكراهية . وأما التجدة فإدب عن الجار والصبر في المواطن وأما الكرم فالتبرع بالمعروف قبل السؤال والإطعام في المحل والرفقة بالسائل مع بذل التائل . ورفع رجل إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما رقعة فقال حاجتك مقضية فقيل له يا ابن رسول الله لو نظرت في رقعة ثم رددت الجواب على قدر ذلك فقال يسألني الله عز وجل عن ذل مقامه بين يدي حتى أقرأ رقعة . وقال ابن السكك عجب لمن يشتري المالك بماله ولا يشتري الأحرار بمروءة . وسئل بعض الأعراب من سيدك فقال من احتمل شتمنا وأعطى سائلنا وأغضى عن جاهلنا وقال علي بن الحسين رضي الله عنهما من وصف يبذل ماله لطلاب لم يكن سخيا وإنما السخي من يتدنى بمقوق الله تعالى في أهل طاعته ولا تنازعه نفسه إلى حب الشكر له إذا كان يقينه بثواب الله تعالى تاما . وقيل للحسن البصري ما السخاء ؟ فقال أن تجود بمالك في الله عز وجل . قيل فالحزم ؟ قال أن تمنع مالك فيه قيل فإلإسراف ؟ قال الإنفاق لحب الرياسة . وقال جعفر الصادق رحمه الله عليه لا مال أعون من العقل ولا مصيبة أعظم من الجهل ولا مظاهرة كالشاوره ألا وإن الله عز وجل يقول : إني جواد كريم لا يجاورني لئيم والظوم من الكفر وأهل الكفر في النار والجود والكرم من الإي ان وأهل الإيمان في الجنة . وقال حذيفة

(١) حديث أبي سعيد « إن الله جعل للمعروف وجوها من خلقه حبب إليهم المعروف ... الحديث » أخرجه الدارقطني في المستجاد من رواية أبي هريرة المحدث عنه وأبي هريرة شيف ورواه الحاكم من حديث علي وصححه (٢) حديث فكل معروف صدقة وكل ما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له صدقة ... الحديث » أخرجه ابن عديم والدارقطني في السجود والمجاهل واليهيقي في القصب من حديث جابر وفيه عبد الحليم بن الحسن المفلل وثقه ابن معين وضمه الجمهور ، والجله الأولى منه عند البخاري من حديث جابر وعده مسلم من حديث حذيفة (٣) حديث « كل معروف صدقة والمدا على الخير كفضله الله يحب إغاثة الملهفان » أخرجه الدارقطني في المستجاد من رواية المهاج بن أرمطة عن عمرو بن عبيد عن أبيه عن جندو المهاج ضيف وقدياء مرفا فالجله الأولى تلمت قبله والجله الثانية تلمت في العلم من حديث أس وغيره والجله الثالثة رواها أبو بول من حديث أس ؟ أيضا وثيها زياد النخري ضيف . (٤) حديث « كل معروف فعلته إلى غنى أو فقير صدقة » أخرجه الدارقطني في من حديث أبي سعيد وجابر والطبراني والمجاهل كلاما في مكارم الأخلاق من حديث ابن مسعود وابن شمع من حديث ابن عمر بن مسعود بن ضيفين (٥) حديث جابر : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم نبيا عليهم قيس بن سعد بن عبادة لجهودوا فنحر لهم قيس تسع ركائب فخذثوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال صلى الله عليه وسلم « إن الجود لمن شيمة أهل ذلك البيت » أخرجه الدارقطني في من رواية أبي حزة المجري من جابر ولا يعرف اسمه ولا حاله .

رضي الله عنه رب ثاجر في دينه آخرق في معيشته يدخل الجنة بسباحته . وروى أن الإخلف بن قيس رأى رجلا في يده درهم فقال لمن هذا الدرهم فقال لي فقال أما إنه ليس لك حتى يخرج من يدك وفي معناه قيل :

أنت للمال إذا أمسكته فإذا أنفقتك فالمال لك

وسمى واصل بن عطاء : الفرال ، لأنه كان يجلس إلى الفرالين ؛ فإذا رأى امرأة ضعيفة أعطاها شيئا . وقال الأصمعي كتب الحسن بن علي إلى الحسين بن علي رضوان الله عليهم يعثب عليه في إعطاء الشعراء فكتب إليه خير المال ماوفي به المرض . وقيل لسفيان بن عيينة ما السخاء ؟ قال السخاء البر بالإخوان والجود بالمال . قال وورث أبي عشرين ألف درهم فبعث بها صررا إلى إخوانه . وقال قد كنت أسأل الله تعالى لأخواني الجنة في صلاتي أفأبخل عليهم بالمال ؟ وقال الحسن بذل المجهود في بذل الموجود منتهى الجود . وقيل لبعض الحكماء من أحب الناس إليك ؟ قال : من كثر أياديه عندي ، قيل : فإن لم يكن ، قال من كثر أيايدي عنده . وقال عبد البر بن مروان إذا الرجل أمكن من نفسه حتى أضاع معروفه عنده فبده عندي مثل يدى عنده . وقال الهذلي لشبيب بن شبة كيف رأيت الناس في دارى ؟ فقال بأمر المؤمنين إن الرجل منهم ليدخل راجيا ويخرج راضيا ويمثل متمثل عند عبد الله بن جعفر فقال :

إن الصنية لا تكون صنية حتى يصاب بها طريق للصنع

فإذا اصطنعت صنية فاعمد بها لله أو لنوى القرابة أو دع

فقال عبد الله بن جعفر إن هذين اليتيم ليخلان الناس ، ولكن أمطر المعروف مطرا ، فإن أصاب الكرام كانوا له أهلا وإن أصاب الشام كثر له أهلا .

### حكايات الاسماء

عن محمد بن المنكدر عن أم درة - وكانت تخدم عائشة رضي الله عنها - قالت إن معاوية بعث إليها بمال في غراريتين ثمانين ومائة ألف درهم ، فدعت يطبق لجمعت تقسمه بين الناس ، فلما أمست قالت يا جارية هلم فظورى لجامتها بخبز وزيت فقالت لها أم درة . ما استطعت فيما قسمت اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحما نفطر عليه ؟ فقالت لو كنت ذكرتني لفعلت .

وعن أبان بن عثمان قال أراد رجل أن يضار عبيد الله بن عباس فأتى وجوه قريش فقال يقول لكم عبيد الله تشدوا عندي اليوم ، فأفوه حتى ملأوا عليه الفار ، فقال ما هذا ؟ فأخبر الخبر ، فأمر عبيد الله بشراء فاكهة ، وأمر قوما فطبخوا وخبزوا ، وقدمت الفاكهة إليهم فلم يفرغوا منها حتى وضعت الموائد فأكلوا حتى صدروا ، فقال عبيد الله لولاكم أو موجود لنا هذا كل يوم ؟ قالوا نعم ، قال فليتنق عتدنا هؤلاء في كل يوم .

وقال مصعب بن الزبير حج معاوية فلما انصرف مر بالمدينة ، فقال الحسين بن علي لأخيه الحسن لا تلهه ولا تسلم عليه ، فلما خرج معاوية ، قال الحسن إن علينا ديناً فلا بد لنا من إتيانه فركب في أثره ولحقه فلمسلم عليه وأخبره بدينه ، فرأوا عليه يبنخ عليه ثمانون ألف دينار وقد أعيا وتخلف عن الإبل وقوم يسوقونه ، فقال معاوية ما هذا ؟ فذكر له ، فقال اصرفوه بما عليه إلى أبي محمد .

وعن واعد بن محمد الواقدي قال حدثني أبي أنه وقع رقعة إلى المأمون يذكر فيها كثرة الدين وقلة صبره عليه ، فوقع المأمون على ظهر رقعة إنك رحل اجتمع فيك خصلتان ، السخاء والحياء ، فأما السخاء فهو الذي أطلق

ما في يدك ، وأما الحياه فهو الذي يملكه عن تليتنا ماأنت عليه ، وقد أمرت لك بمائة ألف درهم فإن كنت قد أصبت فازدد في بسط يدك ، وإن لم أكن قد أصبت لجنايتك على نفسك . وأنت حدثني وكنت على قضاء الرشيد ؛ عن محمد بن إسحق عن الزهري عن أنس : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للزبير بن العوام « يا زبير أعلم أن مفاتيح أرزاق العباد بإزاء العرش يبعث الله عز وجل إلى كل عبد بقدر نفقته ، فمن كثر كثر له ، ومن قل قل له وأنت أعلم » قال الراقي : فوافقه لذاكرة المأمون ليأي بالحديث أحب إلى من الجائزة وهي مائة ألف درهم .

وسأل رجل الحسن بن علي رضي الله عنهما حاجة فقال له : يا هذا حق سؤالك ليأي يعظم لدى ومعرفتي بما يجب لك تكبر على ، ويدى تعجز عن نيلك بما أنت أهله ، والكثير في ذات الله تعالى قليل ، وما في ملكي وفاء لشركك ، فإن قبلت اللبسور ورفضت عني مائة الاحتيال والاحتمال لما أنكفئه من واجب حقه فعلت ، فقال : يا ابن رسول الله أقبل وأشكر العطية ، وأعذر على المنع ، فدعا الحسن بركيله وجعل يحاسبه على نفقته حتى استقصاها فقال : هات الفضل من الثلاثمائة ألف درهم ، فأحضر خمسين ألفا قال : فما فعلت بالخمسائة دينار ؟ قال : هي عندي ، قال أحضرها ، فأحضرها فدفع الديناير والدرهم إلى الرجل وقال : هات من يحملها لك ، فأتاه بجاهل فدفع إليه الحسن رداءه لكره الخالين ، فقال له مواله : والله ما عندنا درهم فقال : أرجو أن يكون في عند الله أرحم عظيم .

واجتمع قواء البصرة إلى ابن عباس وهو عامل بالبصرة فقالوا : لنا جار صوام قوام يشتم كل واحد منا أن يكون مثله ، وقد زوج بنته من ابن أخيه وهو فقير وليس عنده ما يجهزها به ، فقام عبد الله بن عباس فأخذ بأيسهم وأدخلها داره وقنع صندوقا فأخرج منه ست بدر فقال : اخلوها ، غسلوا فقال : ابن عباس ما أنصفناه أعطيناه ما يشمله عن قيامه وصيامه ، ارجعوا بنا نكن أعوانه على تجهيزها فليس للدينا من القدر ما يشتمل مؤمنا عن عبادة ربه ، وهذا بن الكبر ما نلخضم أولياء الله تعالى ففعل وفعلوا .

وحكي أنه لما أجذب الناس بمصر وعبد الحميد بن سعد أميرهم فقال : والله لأعطين الشيطان أني عدوه ؛ فقال عاويجهم إلى أن رخصت الأسعار ، ثم عزل عنهم فرحل ولتجار عليه ألف ألف درهم ، فرهنهم بها حتى نساها وقيمتها خمسمائة ألف ألف ، فلما تمدر عليه ارجاعها كتب إليهم ببيعها ودفع الفاضل منها عن حقوقهم إلى من لم تله صلاحه .

وكان أبو طاهر بن كثير شيعيا فقال له رجل . بحق على بن أبي طالب لما وهبت لي غلثك بموصع كذا وكذا ، فقال : قد فعلت ، وحقه لأعطينك مايلها ، وكان ذلك أضعاف ماطلب الرجل .

وكان أبو مرثد أحد الكرماء فدفع بعض الشعراء قال للشاعر : والله ما عندى ما أعطيك ولكن قدمني إلى القاضي وادع على بشرة آلاف درهم حتى أتواك بها ثم احبسني ، فإن أهلي لا يتركوني محبوسا ، ففعل ذلك فلم يمس حتى دفع إليه عشرة آلاف درهم وأخرج أبو مرثد من الحبس .

وكان ممن بن زائدة عاملا على العراقين بالبصرة فحضر به شاعر فأقام مدة وأراد الدخول على ممن فلم يتهباله فقال يوما لبعض خفام ممن : إذا دخل الأمير البستان فمزقني ، فلما دخل الأمير البستان أعله ، فكتب الشاعر بيتا على خشبة وألقاها في الماء الذي يدخل البستان وكان ممن على رأس الماء فلما بصير بالخشبة أخذها وقرأها فإذا مكتوب عليها .

(١) حدثت أنس « يا زبير أعلم أن مفاتيح أرزاق العباد بإزاء العرش ... الحديث » وفي أوله قصة مع المأمون أخرجه الدارقطني وفي أسناده الراقي عن محمد بن إسحاق عن الزهري بالسنخه ولا يصح .



أيا جود من نأج معنا بحاجتي قال لي من سواك شفيح

فقال : من صاحب هذه ؟ فدعى بالرجل ، فقال له : كيف قلت ؟ فقال له : فأمر له بعشر بدر ، فأخذها ووضع الأمير الخشبة تحت بساطه ، فلما كان اليوم الثاني أخرجهما من تحت البساط وقرأها ودعا بالرجل فدفنح إليه مائة ألف درهم ، فلما أخذها الرجل تفكر وخاف أن يأخذ منه ما أعطاه فخرج ، فلما كان في اليوم الثالث قرأ ما فيها ودعا بالرجل فطلب فلم يوجد فقال من : حق على أن أعطيه حتى لا يبق في بيتك مالى ولا دينار .

وقال أبو الحسن اللدائى : خرج الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر حاجا فقاتهم أقاتهم لجامعا وعطشوا ، فزوا بمجوز في غياه لما فقالوا : هل من شراب ؟ فقالت نعم ، فأناسوا إليها وليس لها إلا شربة في كسر الخيمة فقالت : احلبوها وامدقوها لبنها . ففعلوا ذلك ثم قالوا لها : هل من طعام ؟ قالت : لا ، إلا هذه الشاة فليذهبها أحدهم حتى أهبي لكم ما تأكلون ، فقام إليها أحدهم وذبحها وكشطها ثم هبات لحم طعاما فأكلوا وأقاموا حتى أبردوا فلما ارتحلوا قالوا لها : نحن نفر من قريش نريد هذا الوجه ، فإذا رجعتا سالمين فإلى بنا فلانا صانعون بك خيرا ثم ارتحلوا وأقبل زوجها فأنخبرته بخبر القوم والشاة فنضب الرجل وقال : وبلك تذهبين شاتي لقوم لا تعرفينهم ، ثم تقولين نفر من قريش ؟ قال : ثم بعد مدة ألجأتها الحاجة إلى دخول المدينة ، فدخلها وجعلها يفتلان البحر إليها ويبيعانه ويتعششان بشمته ، فزوت المجوز ببعض سكك المدينة ، فلما الحسن بن علي جالس على باب داره فمرف المعجوز وهى له منكرا ، فبعت غلامه فدعا بالمجوز وقال لها : يا أمة الله أنصفيني ؟ قالت : لا قال : أنا نصفك يوم كذا ويوم كذا ، فقالت المعجوز : بأى أنتوأمى أنت هو ؟ قال : نعم . ثم أمر الحسن فاشترىها من شياه الصدقة ألف شاة ، وأمر لها معها بألف دينار ، وبعت بها مع غلامه إلى الحسين فقال لها الحسين : بك وصلك أشفى ؟ قالت : بألف شاة وألف دينار ، فأمر لها الحسين أيضا بثل ذلك ثم بعت بها مع غلامه إلى عبد الله بن جعفر ، فقال لها بك وصلك الحسن والحسين ؟ قالت : بألف شاة وألف دينار ، فأمر لها عبد الله بألف شاة وألف دينار ، وقال لها : لو بدأتى لآتيتكما ، فرجعت المعجوز إلى زوجها بأربعة آلاف شاة وأربعة آلاف دينار .

وخرج عبد الله بن عامر بن كريب من المسجد يريد منزله وهو وحده ، فقام إليه غلام من ثقيف فشى إلى جانبه فقال له عبد الله : ألك حاجة يا غلام ؟ قال : صلاحك وفلاحك وأيتك تمشى وحدك فقلت أيتك بنفسى وأعوذ بالله إن طار بطنابك مكروه ، فأخذ عبد الله يده ومشى معه إلى منزله ، ثم دعا بألف دينار فدفعها إلى الغلام وقال : استشف هذه فقم ما أدلك أهالك .

وحكى أن قرما من العرب جاءوا إلى قبر بعض أصحابهم للزيارة ، فزولوا عند قبره وباتوا عنده وقد كانوا جاءوا من سفر بعيد ، فرأى رجل منهم في التوم صاحب القبر وهو يقول له : هل لك أن تبادل بعيرك بنجبي ؟ وكان السخى الميت قد خلف نجيبا معروفا به ، ولهذا الرجل بعير سمين ، فقال له في التوم : نعم ، فباعه في التوم بعيره بنجبيه ، فلما وقع بينهما العقد عمد هذا الرجل إلى بعيره ففحره في التوم ، فأنقذه الرجل من نومه فلما أهدم شبح من نصر بعيره ، فقام الرجل ففحره وقسم لحمه فطبخوه وقضوا حاجتهم منه ثم رحلوا وساروا ، فلما كان اليوم الثاني وهم في الطريق استقبلهم ركب ، فقال رجل منهم : من فلان بن فلان منكم ؟ - باسم ذلك الرجل - فقال : أنا ، فقال له هل بعت من فلان بن فلان شيئا ؟ وذكر الميت صاحب القبر ، قال : نعم بعت بعيرى بنجبيه في

النوم ، فقال : خذ هذا نجيبه ، ثم قال : هو أبى وقد رأيتك في النوم وهو يقول : إن كنت ابنى فادفع نجيبى لى فلان بن فلان وسماه .

وقدم رجل من قريش من السفر فتر رجل من الأعراب على قارعة الطريق قد أقعده الدهر وأضر به المرض ، فقال : يا هذا أتنا على الدهر فقال الرجل لعلامه : ما بقى معك من التفقة فادفعه إليه ، فصب اللغلام في حجر الأعرابي أربعة آلاف درهم ، فذهب لينفض فلم يقدر من الضعف ، فبكى فقال له الرجل ما بيك مملك استقلت ما أعطيناك ؟ قال : لا ، ولكن ذكرت ما تأكل الأرض من كرمك فأبكاني .

واشترى عبد الله بن عامر من خالد بن عتبة بن أبى معيط داره التى في السوق بتسعين ألف درهم ، فلما كان الليل سمع بكاء أهل خالد فقال لأمه : ما هؤلاء ؟ قالوا سيكون لدارهم ، فقال يا غلام انتهم فأعلمهم أن المال والدار لهم جميعا .

وقيل بعث هرون الرشيد إلى مالك بن أنس رحمه الله بخمسمائة دينار ؛ فبلغ ذلك الليث بن سعد فأفند إليه ألف دينار ، فغضب هرون وقال أعطيتك خمسمائة ومطيه ألفا وأنت من رعيى ؟ فقال يأمر المؤمنين إن لى من غلتى كل يوم ألف دينار ؛ فاستحييت أن أعطى مثله أقل من دخل يوم . وحكى أنه لم يحب عليه الزكاة مع أن دخله كل يوم ألف دينار . وحكى أن امرأة سألت الليث بن سعد رحمه الله عليه شيئا من عمل ، فأمر لها برق من عمل ، فقيل له إنها كانت تتعبد بدون هذا ؟ فقال . إنها سألت على قدر حاجتها ونحن نعطيك على قدر النعمة علينا . وكان الليث ابن سعد لا يتكلم كل يوم حتى يتصدق على ثلثائة وستين مسكينا .

وقال الأعمش : اشتكت شاة عندى فكان خيشمة بن عبد الرحمن يعودها بالتداة والعشى ويسألنى هل استوفت علفها ؟ وكيف صبر الصبيان منذ فقدوا لبنها ؟ وكان حتى لبد أجلس عليه فإذا خرج قال : خذ ماتحت اليد ، حتى وصل إلى فى علة الشاة أكثر من ثلثائة دينار من بره حتى تمتعت أن الشاة لم تبرا .

وقال عبد الملك بن مروان لأسماء بن عارضة : بلنى عنك خصال لحقتنى بها ، فقال : هى من غيرى أحسن منها منى ، فقال : عزمت عليك إلا حدثتنى بها ؟ فقال : يأمر للمؤمنين ما مددت رجلى بين يدى جليس لى قط ، ولا صنعت طعاما قط فدعوت عليه قوما إلا كانوا أمن على منى عليهم ، ولا نصب لى رجل وجهه قط يسألنى شيئا فاستكرت شيئا أعطيت إياه .

ودخل سعيد بن خالد على سليمان بن عبد الملك وكان سعيد رجلا جوادا فإذا لم يجد شيئا كتب لمن سأله صكا على نفسه حتى يخرج صطاؤه ، فلما نظر إليه سليمان تمثل بهذا البيت فقال :

للى سمعت مع الصراح مناديا يأمن يمين على القى للعوان

ثم قال : ما حاجتك ؟ قال : دينى ، قال : وكم هو ؟ قال : ثلاثون ألف دينار ، قال : لك دينك ومثله .

وقيل مرض قيس بن سعد بن عبادة فاستجأ إخوانه فقيل له : إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدين ، فقال : أخرى الله ما يمنع الإخوان من الزيارة ، ثم أمر مناديا فنادى من كان عليه لقيس بن سعد حتى فهو منه برىء ، قال : فانكسرت دجته بالمشى لكثرة من زاره وعطاه .

وعن أبى إسحق قال : صليت العصر فى مسجد الأشعث بالكوفة أطلب غربا لى ، فلما صليت وضع بين يدى حلة ونملان ، فقلت : لست من أهل هذا المسجد ، فقالوا : إن الأشعث بن قيس الكندى قدم البارحة من مكة فأمر لكل من صلى فى المسجد بحلة ونملين .

وقال الشيخ أبو سعيد الحركوشى التيسابورى رحمه الله : سمعت محمد بن محمد الحافظ يقول ، سمعت الشافعى الجارو بكه يقول : كان بمصر رجل عرف بأن يجمع الفقراء شيئا ، فولد لبعضهم مولود قال : لجئت إليه وقلت له : وابدل مولود وليس معى شيء فقام معى ودخل على جماعة فلم يفتح بشيء ، فجاء إلى قبر رجل وجلس عنده وقال : رحلك الله كنت تفعل وتفصع وإنى درت اليوم على جماعة فكففتهم دفع شيء لمولود فلم يفتح لى شيء ، قال : ثم قام وأخرج دينارا وقسمه لضعفين وناولنى نصفه ، وقال : هذا دين عليك لى أن يفتح الله عليك بشيء ، قال : فأخذته وانصرفت فأصلحت ما أتق لى به قال : فرأى ذلك الخصب تلك الليلة ذلك الشخص فى منامه فقال : سمعت جميع ما قلت وليس لنا إذن فى الجواب ، ولكن احضر منزلى وقل لأولادى يصفروا مكان الكانون ويخرجوا قرابة فيها خمسمائة دينار فأحلبها إلى هذا الرجل فلما كان من الغد تقدم إلى منزل الميت وقص عليهم القصة فقالوا له : اجلس وحفروا الموضع وأخرجوا الدنانير وسجوا بها فوضعوها بين يديه ، فقال : هذا مالكم وليس لرؤىاى حكم ، فقالوا : هو يتسخرى ميتنا ولا يتسخرى نحن أحياء ؟ فلما ألقوا عليه حمل الدنانير إلى الرجل صاحب المولود وذكر له القصة ، قال : فأخذ منها دينارا فكسره لضعفين فأعطاه النصف الذى أقرضه وحمل النصف الآخر ، وقال : يكفىنى هذا وأصدق به على الفقراء ، فقال أبو سعيد : فلا أدرى أى هؤلاء أشفى ؟

وروى أن الشافعى رحمه الله لما مرض مرض موته بمصر قال : مروا فلانا يفسلى ، فلما توفى بلغه خبر وفاته لحضر وقال : اتنوني بتذكرته ، فأتى بها فنظر فيها فإذا على الشافعى سبعون ألف درهم دين ، فكتبها على نفسه وقضاها عنه ، وقال هذا غسل لى به أى أراد به هذا . وقال أبو سعيد الراعظ الحركوشى لما قدمت مصر طلبت منزل ذلك الرجل فدلونى عليه ، فرأيت جماعة من أحفاده وزرتهم فرأيت فيهم سببا الخير وآثار الفضل فقلت بلغ أثره الخير إليهم وظهرت بركتهم فيهم مستدلا بقوله تعالى ( وكان أبوهما صالحا ) وقال الشافعى رحمه الله لا يزال أحب حاد بن أبى سليمان لشيء يلقى عنه أنه كان ذات يوم راكبا حماره فأنقطع زره ، فزع على خياط فأراد أن ينزل إليه ليسوى زره فقال الخياط والله لا نزلت فقام الخياط إليه فسوى زره فأخرج إليه صرة فيها عشرة دنانير فسلها إلى الخياط واعتذر إليه من قتلها ، وأشد الشافعى رحمه الله نفسه :

يا فلف قلبى على مال أجود به على الفقراء من أهل الرومات

إن اعتذارى لى من جاء يسألنى مالىسى عدى لى إحدى المصيات

وعن الربيع بن سليمان قال أخذ رجل بركاب الشافعى رحمه الله فقال ياربىم أعطه أربعة دنانير واعتذر إليه عنى وقال الربيع سمعت الحميدى يقول قدم الشافعى من صنعاء إلى مكة بمشرة آلاف دينار فغضب خبائه فى موضع خارج عن مكة ونهرها على ثوب ، ثم أقبل على كل من دخل عليه يقبض له قبضة ويمطيه حتى صلى الظهر ونفض الثوب وليس عليه شيء . وعن أبى ثور قال أراد الشافعى الخروج إلى مكة ومعهم مال ، وكان قلبا يملك شيئا من سماحتة ، فقلت له يبنى أن تشتري بهذا المال ضيعة تكون لك ولولدك ، قال خرج ثم قدم علينا فسأله عن ذلك المال ، فقال ما وجدت بمكة ضيعة يمكن أن أشتريها لمعرفى بأصلها وقد وقف أكثرها ، ولكنى بنيت بمنى مضربا يكون لأصحابنا إذا حجوا أن ينزلوا فيه . وأشد الشافعى رحمه الله نفسه يقول .

أرى نفسى تنوق إلى أمور يقصر دون ميلينى مالى

فنفسى لا تطاوعنى يئخل ومالى لا ييلنى فمالى

وقال محمد بن عباد المهلبى . دخل أبى على المأمون فوصله بمائة ألف درهم فلما قام من عنده تصدق بها فأخبر بذلك المأمون ، فلما عاد إليه عاتبه المأمون في ذلك فقال : يا أمير المؤمنين منع الوجود سوء ظن بالمعبود ، فوصله بمائة ألف أخرى .

وقام رجل إلى سعيد بن الناص فسأله فأمر له بمائة ألف درهم فبكى ، فقال له سعيد : ما يبكيك ؟ قال . أبكى على الأرض أن تأكل مثلك ، فأمر له بمائة ألف أخرى .

ودخل أبو تمام على إبراهيم بن شكلة بأبيات امتدحه بها فوجده عليلاً فقيل منه المدحة وأمر حاجبه بنيله ما يصلحه ، وقال . عسى أن أقوم من مرضى فأكفته ، فأقام شهرين فوجسه طول المقام فكتب إليه يقول :

إن حراماً قبول مدحتنا وترك ما نرجى من الصدق

كما الحرام والفتن في البيع حرام إلا يدا بيد

فلما وصل البيتان إلى إبراهيم قال لحاجبه . كم أقام بالباب ؟ قال . شهرين ، قال . أعطه ثلاثين ألفاً وجنى بدواة ، فكتب إليه :

أعجلتنا فأتاك عاجل برنا فلا ولو أمهلنا لم تقبل

غذا القليل وكن كأنك لم تقبل وتقول نحن كأننا لم نفعل

وروى أنه كان لثمان على طلحة رضى الله عنهما خمسون ألف درهم ، فخرج عثمان يوماً إلى المسجد فقال له طلحة . قد تيباً مالك فأقبضه ، فقال . هو لك يا أبا محمد مئة ألف على مروة بك . وقالت سعدى بنت عوف . دخلت على طلحة فرايت منه ثقلًا فقلت له مالك ؟ فقال اجتمع عندي مال وقد غنى ، فقلت وما يملك ادع قومك ؟ فقال يا غلام على بقوى ، فقسمة فيهم فسألت الخادم كم كان ؟ قال : أربع مائة ألف . وجاء أعرابي إلى طلحة فسأله وتغزب إليه برحم فقال : إن هذه الرحم مأسألى بها أحد قبلك ، إن لى أرضاً قد أعطانيها عثمان ثلثمائة ألف فإن شئت فأقبضها ، وإن شئت يمتها من عثمان ودفعت إليك الثمن ، فقال : الثمن ، فباعها من عثمان ودفع إليه الثمن . وقيل بكى على كرم الله وجهه يوماً فقيل : ما يبكيك ؟ فقال : لم يأتني صيف منذ سبعة أيام ، أخاف أن يكون الله قد أهانتى .

وأتى رجل صديقاً له فدفع عليه الباب فقال ، ما جاء بك ؟ قال على أربع مائة درهم دين ، فوزن أربع مائة درهم وأخرجها إليه وعاد يسكى ، فقالت امرأته لم أعطيتك إذ شق عليك ؟ فقال إنما أبكى لأنى لم أنفقد حاله حتى احتاج إلى مغائتى . فرحم الله من هذه صفاتهم وغفر لهم أجمعين .

### بيان ثم البخل

قال الله تعالى ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ وقال تعالى ﴿ ولا يحسن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطقونن ما بخلوا به يوم القيامة ﴾ وقال تعالى ﴿ الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويبكسون ما آتاهم الله من فضله ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم » وحلمهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم <sup>(١)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم « إياكم والشح »

(١) حديث « إياكم والشح .. الحديث » أخرجه مسلم من حديث جابر بنلقظ « وآتوا الشح فإن الشح .. الحديث » ولأبي داود والنسائي في السكبرى وابن حبان والحاكم وصححه من حديث عبد الله بن عمرو « إياكم والشح فإنما ملك من كان قبلكم بالشح =

فإنه دما من كان قبلكم ففسكوا دماءهم ودعاهم فاستحلوا محارمهم ودعاهم ففعلوا أرحامهم<sup>(١)</sup> . وقال صلى الله عليه وسلم : لا يدخل الجنة بخل ولا خب ولا غان ولا سبي الملكة<sup>(٢)</sup> ، وفي رواية : ولا جبار ، وفي رواية : ولا منان ، وقال صلى الله عليه وسلم : ثلاث مهلكات ؛ شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه<sup>(٣)</sup> . وقال صلى الله عليه وسلم : إن الله يفضي ثلاثة : الشيخ الزاني ، والبخل اللتان ، والمعلل المختال<sup>(٤)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم : مثل المنافق والبخل كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من لدن نديهما إلى تراقيهما ، فأما المنافق فلا ينفق شيئا إلا سيفت أو وفرت على جلده حتى تخفى بناته ، وأما البخل فلا يريد أن ينفق شيئا إلا قلصت ولزمت كل حلقة مكانها حتى أخذت بترافيه فهو يومئذ لا تنفع<sup>(٥)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم : خصلتان لا يجتمعان في مؤمن : البخل وسوء الخلق<sup>(٦)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم ، اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر<sup>(٧)</sup> . وقال صلى الله عليه وسلم : إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، وإياكم والفحش وإن الله لا يحب الفاحش ولا المتفحش ، وإياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم الشح أمرهم بالكذب فكذبوا وأمرهم بالظلم فظلموا وأمرهم بالبطيئة ففعلوا<sup>(٨)</sup> . وقال صلى الله عليه وسلم : شر ما في الرجل شح هالع وجبن خالع<sup>(٩)</sup> . وقتل شهيد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكت به بكية فقالت : واشهيداه فقال صلى الله عليه وسلم : وما يدريك أنه شهيد فله كان يتكلم فيما لا ينيه أو يبخل بما لا ينقصه<sup>(١٠)</sup> . وقال جبير بن مطعم : بينما نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه الناس مقفلة من خبير إذ علقت برسول الله صلى الله عليه وسلم الأعراب يسألونه ، حتى اضطرره إلى مرة فخطفت رداءه ، فوقف صلى الله عليه وسلم فقال : اضطروني ردائي فوالذي نفسي بيده لو كان لي عدد هذه العصاة لما قسمته بينكم ثم لا تجدوني بخيلا ولا كذابا ولا جبانا<sup>(١١)</sup> . وقال عمر رضي الله عنه : قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قسما فقلت غير هؤلاء كان أحق به

= أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالبطيئة ففعلوا وأمرهم بالفجور ففجروا<sup>(١)</sup> . حديث « إياكم والشح فإنه دمان كان البخل ففسكوا دماءهم ودعاهم فاستحلوا محارمهم ودعاهم ففعلوا أرحامهم » أخرجه الحاكم من حديث أبي هريرة بلفظ « حرمتهم » مكان « أرحامهم » وقال صحيح على شرط مسلم<sup>(٢)</sup> . حديث « لا يدخل الجنة بخل ولا خب ولا غان ولا سبي الملكة » وفي رواية « ولا منان » أخرجه أحمد والترمذي وحسنه من حديث أبي بكر واللفظ لأحمد دون قوله « ولا منان » فهي عند الترمذي وله « ولا مناج » لا يدخل الجنة سبي الملكة<sup>(٣)</sup> . حديث « ثلاث مهلكات ... الحديث » تقدم في العلم<sup>(٤)</sup> . حديث « إن الله يفضي ثلاثا : الشيخ الزاني والبخل اللتان والفحش » أخرجه الترمذي والنسائي من حديث أبي ذر دون قوله « والبخل اللتان » وقال فيه « الذي الظلم » وقد تقدم واطهران في الأوسط من حديث علي « إن الله يفضي الذي الظلم والشيخ الجاهل والمائل المختال » وسنده ضعيف<sup>(٥)</sup> . حديث « مثل المنافق والبخل كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة<sup>(٦)</sup> . حديث « خصلتان لا يجتمعان في مؤمن : البخل وسوء الخلق » أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد وقال شريب<sup>(٧)</sup> . حديث « اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن .. الحديث » أخرجه البخاري من حديث سمع وتقدم في الأذكار<sup>(٨)</sup> . حديث « إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ... الحديث » أخرجه الحاكم من حديث عبد الله بن عمرو دون قوله « أمرهم بالكذب فكذبوا وأمرهم بالظلم فظلموا » قال عوضا عنها « والبخل فبخلوا وبالفجور ففجروا » وكذا رواه أبو داود على ذكر الشح وقد تقدم فيه بسمة أحاديث وإسلم من حديث جابر « انظروا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة وانظروا الشح » فذكره بلفظ آخر ولم يذكر الفحش .

(٩) حديث « شر ما في الرجل شح هالع وجبن خالع » أخرجه أبو داود من حديث جابر بسند جيد<sup>(١٠)</sup> . حديث « وما يدريك أنه شهيد فله كان يتكلم فيما لا ينيه أو يبخل بما لا ينقصه » أخرجه أبو يعلى من حديث أبي هريرة بسند ضعيف والبيهقي في الشعب من حديث أسى أن أمه قالت لهنك العهدة وهو عند الترمذي : إلا أن رجلا لاله أبصر بالجنة<sup>(١١)</sup> . حديث جبير بن مطعم : بينما نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه الناس مقفلة من حين علقت الأعراب به ... الحديث » أخرجه البخاري وتقدم في أخلاق النبوة .

منهم ؟ فقال : إنهم يخبروني بين أن يسألوني بالغش أو يخلونني ولست بإخلى<sup>(١)</sup> ، وقال أبو سعيد الخدري : دخل رجلان على رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألاه عن بعير فأعطاهما دينارين ؛ فخرجا من عنده فلقبهما عربن الخطاب رضى الله عنه فأنفيا وقالوا معروفا وشكرا ما صنع بهما ، فدخل عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بما قالوا . فقال صلى الله عليه وسلم ، لكن فلان أعطيتهم مائتين عشرة إلى مائة ولم يقل ذلك إن أحدهم ليسأني فينطلق في مسأله متأبطها وهي نار ؛ فقال عمر فلم تعطهم ما هو نار ؟ فقال : « يأبون إلا أن يسألوني ويأبى الله لبخل<sup>(٢)</sup> » . وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الجود من جود الله تعالى لجودوا بحمد الله لكم إلا أن الله عز وجل خلق الجود لجنه في صورة رجل وجعل رأسه رأسا في أصل شجرة طوى ، وشده أغصانها بأغصان مدرة المنهى ، ودلى بعض أغصانها إلى الدنيا ، فمن تعلق بنصن منها أدخله الجنة ، ألا إن السخاء من الإيمان ، والإيمان في الجنة . وخلق البخل من مقتته وجعل رأسه رأسا في أصل شجرة الزقوم ودلى بعض أغصانها إلى الدنيا فمن تعلق بنصن منها أدخله النار ، ألا إن البخل من الكفر والكفر في النار<sup>(٣)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « السخاء شجرة تنبت في الجنة فلا يبلغ الجنة إلا سحى ، والبخل شجرة تنبت في النار فلا يبلغ النار إلا بحيل<sup>(٤)</sup> » وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لوفد بني لحيان « من سيديكم يابنى لحيان ؟ » قالوا : سيدنا جند بن قيس إلا أنه رجل فيه بخل ، فقال صلى الله عليه وسلم « وأى داه أدوا من البخل ولكن سيديكم عمرو بن الجوح<sup>(٥)</sup> » وفي رواية أنهم قالوا : سيدنا جند بن قيس ، فقال « بم تسودونه ؟ » قالوا : إنه أكثر مالا وأنا على ذلك لئلا نرى منه البخل ، فقال عليه السلام « وأى داه أدوا من البخل ليس ذلك سيديكم ، قالوا : فن سيدنا يارسل الله ؟ قالوا : سيديكم بشر بن البراء ، وقال على رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله يفيض البخل في حياته السخى عنه موته<sup>(٦)</sup> » وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم السخى الجهول أحب إلى الله من العابد البخل<sup>(٧)</sup> » وقال أيضا : قال صلى الله عليه وسلم « الشح والإيمان لا يجتمعان في قلب عبد<sup>(٨)</sup> » وقال أيضا « خصلتان لا يجتمعان في مؤمن البخل وسوء الخلق<sup>(٩)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « لا يبنى المؤمن أن يكون بخيلا ولا جبانا<sup>(١٠)</sup> » ، وقال صلى الله عليه وسلم « يقول قائلكم الشحيح

(١) حديث عمر : اسم النبي صلى الله عليه وسلم تسبا ... الحديث « وفيه » ولست بإخلى » أخرجه مسلم  
(٢) حديث أبي سعيد : في الرجلين الذين أعطاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم دينارين فلقبهما عرب فأنفيا ولا معروفا ... الحديث . وفيه « ويأبى الله لبخل » رواه أحمد وأبو يعلى والبخاري وغيرهم ولم يقل أحمد : أنها سألاه عن بعير ، ورواه البخاري من رواية أبي سعيد عن عمر ورجال أساتذتهم فقامت (٣) حديث ابن عباس « الجود من جود الله جودوا بحمد الله لكم ... الحديث » وطوله ذكره صاحب الفردوس ولم يخرجوه وقد سندوه لم أقف له على إسناد (٤) حديث « السخاء شجرة تنبت في الجنة فلا يبلغ في الجنة إلا سحى .. الحديث » تقدم دون قوله « فلا يبلغ في الجنة » إل آخره وذكره بهذه الزيادة صاحب الفردوس من حديث علي ولم يخرجوه وقد في مسنده .

(٥) حديث أبي هريرة : « من سيديكم يابنى لحيان ؟ » قالوا : سيدنا جند بن قيس ... الحديث « أخرجه الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم بخطه . يابى سلمة » وقال سيديكم بشر بن البراء ، وأما الرواية التي قال فيها « سيديكم عمرو بن الجوح » فرواها البخاري في الصغير من حديث كعب بن مالك بإسناد حسن . (٦) حديث علي « إن الله يفيض البخل في حياته السخى عنه موته » ذكره صاحب الفردوس ولم يخرجوه وقد في مسنده ولم أجده لإسناد (٧) حديث أبي هريرة « الشح والإيمان لا يجتمعان في قلب عبد » أخرجه الترمذي بالخطه ولباهل سحى وهو بقية حديث « أن السخى قريب من الله » وقد تقدم (٨) حديث أبي هريرة « لا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد » أخرجه النسائي وفي إسناده اختلاف (٩) حديث « خصلتان لا يجتمعان في مؤمن ... الحديث » أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد وقد تقدم (١٠) حديث « لا يبنى المؤمن أن يكون جبانا ولا بخيلا » لم أره بهذا اللفظ .

أعذر من الظالم وأى ظلم أعظم عند الله من الشح ، حلف الله تعالى بعزته وعظمته وجلاله لا يدخل الجنة شحيح ولا بخيل <sup>(١)</sup> .

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : كان يطوف بالبيت فإذا رجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول : صرمة هذا البيت إلا غفرت لي ذنبي فقال صلى الله عليه وسلم : وما ذنبك صرمة ؟ قال : هو أعظم من أن أحصه لك أ فقال : وبحبك ذنبك أعظم أم الأرضون ؟ فقال : بل ذنبي أعظم يا رسول الله ، قال : فذنبك أعظم أم الجبال ؟ قال : بل ذنبي أعظم يا رسول الله ، قال : فذنبك أعظم أم البحار ؟ قال : بل ذنبي أعظم يا رسول الله ، قال : فذنبك أعظم أم السموات ؟ قال : بل ذنبي أعظم يا رسول الله ، قال : فذنبك أعظم أم العرش ؟ قال : بل ذنبي أعظم يا رسول الله ، قال : فذنبك أعظم أم الله ؟ قال : بل الله أعظم وأعلى ، قال : وبحبك فصف لي ذنبك . قال : يا رسول الله إني رجل ذو ثروة من المال وإن السائل ليأتيني يسألني فكأنما يستقبلني بشعة من نار ، فقال صلى الله عليه وسلم : إليك عني لا تحرقني بئارك فوالذي بعثني بالهداية والكرامة لوقت بين الركن والمقام ثم صلت أثنى ألف عام ثم بكيت حتى تجرى من دموعك الأنهار وتسقي بها الأشجار ثم مت وأنت لئيم لا يكبه الله في النار ، وبحبك ! أما علمت أن البخل كفر وأن الكفر في النار ، وبحبك ! أما علمت أن الله تعالى يقول ﴿ ومن يبخل فلأنا يبخل عن نفسه ... ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ <sup>(٢)</sup> .

الآثار ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : لما خلق الله جنة عدن قال لها تزيئي قزيتي ، ثم قال لها : أظهرى أنهارك فأظهرت عين السلسيل وعين الكافور وعين القسيم فتخرج منها في الجنان أنهار الخمر وأنهار العسل والبن ثم قال لها أظهرى سررك وحجالك وكراسيك وحليك وحللك وحور عينك فأظهرت فنظر إليها فقال لكفي فقالت طوبى لمن دخلني فقال الله تعالى وعزى لا أسكنك بخيلا . وقالت أم البنين أخت عمر بن عبد العزيز : أف البخيل لو كان البخل قصبا ما لبسته ولو كان طريقا ما سلكته . وقال طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه : إنا لنجد بأموالنا ما يمد البخله لكننا نتصبر . وقال محمد بن المنكدر : كان يقال إذا أراد الله بقرم شرا أمر الله علمه شرارهم وجعل أرواحهم بأيدي بخلائهم . وقال علي كرم الله وجهه في خطبته : إنه سيأتي على الناس زمان عضوض بعض للموسر على ما في يده ولم يؤمر بذلك قال الله تعالى ﴿ ولا تنسوا الفضل بينكم ﴾ وقال عبد الله بن عمرو : الشح أشد من البخل لأن الشحيح هو الذي يشح على ما في يده غيره حتى يأخذه ويشح بما في يده فيحبسه ، والبخيل هو الذي يبخل بما في يده . وقال الشعبي لا أدرى أيهما أبعد غورا في نار جهنم البخل أو الكذب ؟ وقيل ورد على أنوشردان حكيم الهند وفيلسوف الروم فقال للهندي : تكلم ، فقال : خير الناس من أتى محيا وعنه الغضب وقورا وفي القول متأنيا وفي الرفقة متراحنا وعلى كل ذي رحم مشفقا . وقام الرومي فقال : من كان بخيلا ورث عدوه ماله ومن قل شكره لم يزل التبع وأهل الكذب مذمومون وأهل النجاسة يموتون فقراره ومن لم يرحم سلط عليه من لا يرحمه . وقال الصنعاكي في قوله تعالى ﴿ إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا ﴾ قال : البخل ، أسلكه الله تعالى أيديهم عن الثقة في سبيل الله فهم لا يصيرون الهدى . وقال كعب : ما من صباح إلا وقد وكل به ملكان يناديان اللهم حمل لمسلك تلقا

(١) حديث « يقول الله سبحانه أعذر من الظالم وأى ظلم أعظم من الشح ... الحديث » وفيه « لا يدخل الجنة شحيح ولا بخيل » لم أجده بتمامه ولا ترجمي من حديث أبي بكر « لا يدخل الجنة بخيل » وقد تقدم (٢) حديث : كان يطوف بالبيت فإذا رجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول صرمة هذا البيت إلا غفرت لي ... الحديث » في ذم البخل وفيه قال « إليك عني لا تحرقني بئارك » ... الحديث « بطوله وهو باطل لا أصل له .

وجعل المنفق خلفا . وقال الأصمعي سمعت أعرابيا وقد وصف رجلا فقال لقد صغر فلان في عيني لعظم الدنيا في عينه ، وكأنما يرى السائل ملك الموت إذا أتاه . وقال أبو حنيفة رحمه الله لا أرى أن أعدل بخيلا لأن البخيل يحمله على الاستقصاء فيأخذ فوق حقه خيفة من أن يبين ، فن كان هكذا لا يكون مأمون الأمانة . وقال علي كرم الله وجهه والله ما استقصى كرم قط حقه . قال الله تعالى ﴿ عَرَفَ بَعْضُهُمْ أَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ﴾ وقال الجاحظ ما بقي من الذنات إلا ثلاث ذم البخلاء ، وأكل القديد ، وحك الجرب . وقال بشر بن الحارث البخيل لا غيبة له قال النبي صلى الله عليه وسلم : إنك إذا لبخل ، ومحدث امرأة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا صوامة قروامة إلا أن فيها بخلا قاله فما خيرها إذا ؟ <sup>(١)</sup> ، وقال بشر النظر إلى البخيل يقسى القلب ولقاء البخلاء كرب على قلوب المؤمنين . وقال يحيى بن معاذ ما في القلب للأخياء إلا حب ولو كانوا جبارا ، وللبخلاء إلا بغض ولو كانوا أربارا . وقال ابن المعتز : أبغض الناس بماله أجودهم بعرضه وفاق يحيى بن زكريا علميا السلام . لإدليس في صوره فقال له : يا إدليس أخبرني بأحب الناس إليك وأبغض الناس إليك قال : أحب الناس إلى المؤمن البخيل ، وأبغض الناس إلى الفاسق السخي ، قال له : لم ؟ قال : لأن البخيل قد كفاني بخله والفاسق السخي أتخوف أن يطعم الله عليه في سلاته فيقبله ، ثم ولي وهو يقول لولا أنك يحيى لما أخبرتك .

#### حكايات البخلاء

قيل كان بالبصرة رجل موسر بخيل ، فدعا بعض جيرانه وقدم إليه طباجية بيض فأكل منه فأكثر وجعل يشرب البهاء فانتفخ بطنه ونزل به الكرب والموت ، فجعل يتولى فلما جهده الأمر وصف حاله للطبيب فقال : لا بأس عليك ، قميا ما أكلت ، فقال : ماه ! أتقيا طباجية بيض ؟ الموت ولا ذلك . وقيل : أقبل أعرابي يطلب رجلا ، وبين يديه تين فغطى التين بكسائه ، جلس الأعرابي فقال له الرجل : هل تحسن من القرآن شيئا ؟ قال : نعم ، فقرأ ﴿ ... والذين يتولون وطور سينين ﴾ فقال : وأين التين ؟ قال : هو تحت كساءك . ودعا بعضهم أخا له ولم يطعمه شيئا ، لحبسه إلى المصر حتى اشتد جوعه وأخذته مثل الجنون ، فأخذ صاحب البيت العود وقال له : يجيئك أي صوت تشفى أن أسمحك ؟ قال : صوت المقل . ويحكى أن محمد بن يحيى بن خالد بن برمك كان بخيلا فيسبح البخيل ، ففشل نسيب له كان يعرفه عنه فقال له قائل : صف لي ماثدته فقال : هي فتر في فتر ، وصحافه منقورة من حب الخشخاش ، قيل فمن يحضرها ؟ قال : الكرام الكاثبون ! قال : فما يأكل منه أحد ؟ قال : بلى الذباب ، فقال : سواك بدت وأنت خاص به ومثوبك غرق ، قال أنا والله ما أقدر على ليرة أعطيته بها ، ولو ملك محمد بيتنا من بغداد إلى الثوبة علوما لبرا ، ثم جاءه جبريل وميكائيل ومعهما يعقوب النبي عليه السلام يطلبون منه ليرة ويسألونه إعارتهم إياها ليخيط بها قميص يوسف الذي قد من دير مافيل ويقال كان مروان بن أبي حفصة لا يأكل اللحم بخلا حتى يفرم إليه فإذا فرم إليه أرسل غلامه قاشطري له رؤسا فأكله فقيل له . نراك لا تأكل إلا الروموس في الصيف والشتاء فلم تختار ذلك ؟ قال نعم الرأس أعرف سره فآمن خيانة الغلام ولا يستطيع أن يغبني فيه ، وليس يلحم يطبخه الغلام فيقدر أن يأكل منه ، إن مس عينا أو أذنا أو خذا وقفت على ذلك ، وأكل منه ألوانا ، عيته لونا ، وأذنه لونا ، ولسانه لونا ، وغلصمته لونا ، ودماغه لونا ، وأكفى مؤونة

(١) حديث : مدحت امرأة عند النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : صوامة قروامة إلا أن فيها بخلا ... الحديث « تقدم في آفات اللسان .



طبخه ؛ فقد اجتمعت لي فيه مرافق . وخرج يوماً يريد الخليفة المهدي فقلت له امرأة من أهله : مالي عليك إن رجعت بالجائزة ؟ فقال : إن أعطيت مائة ألف أعطيتك درهما ؛ فأعطى ستين ألفاً فأعطاهما أربعة دنانير . واشترى مائة دينار بدينار فباعها بدينارين ؛ ففرد اللحم إلى القصاب بنقصان دنانير وقال : أكره الإسراف . وكان للأعمش جار وكان لا يزال يمرض عليه المنزل ويقول : لو دخلت فأكلت كسرة وملحاً فيأني عليه الأعمش ، فمرض عليه ذات يوم فوافقه جوع الأعمش فقال : سر بنا ، فدخل منزله فغزب إليه كسرة وملحاً ، فجاء سائل فقال له رب المنزل : بورك فيك ، فأعاد عليه المسألة فقال له بورك فيك ، فلما سأل الثالث قال له اذهب والله وإلا خرجت إليك بالعصا ؛ قال فناداه الأعمش وقال اذهب وبورك فيك ؛ فلا والله ما رأيت أحداً أصدق مواعيد منه ؛ هو منذ مدة يدعوني على كسرة وملح فوافقه ما زادني عليهما ؛

### بيان الإيثار وفضله

اعلم أن السخاء والبخل كل منهما ينقسم إلى درجات . فأرفع درجة السخاء الإيثار ، وهو أن يجود بالمال مع الحاجة . وإدنا السخاء عبارة عن بذل ما لا يحتاج إليه لمحتاج أو لفرد محتاج ، والبذل مع الحاجة أشد . وكان أن السخاوة قد تنتهي إلى أن يسخر الإنسان على غيره مع الحاجة فالبخل قد ينتهي إلى أن يبخل بنفسي مع الحاجة ، فكم من بخيل يمسك المال ويمرض فلا يتداوى ، ويشقى الشهوة فلا يمنعه منها إلا البخل بالثمن ؛ ولو وجدها مجاناً لا كلها . فهذا بخيل على نفسه مع الحاجة ؛ وذلك يؤثر على نفسه غيره مع أنه محتاج إليه . فانظر ما بين الرجلين ؟ فإن الأخلاق عطايا يضعها الله حيث يشاء وليس بعد الإيثار درجة في السخاء . وقد أثنى الله على الصحابة وحكى الله عنهم به فقال ( ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ) وقال النبي صلى الله عليه وسلم : أيما امرئ اشتوى شهوة فرد شهوته وآثر على نفسه غفر له <sup>(١)</sup> . وقالت عائشة رضي الله عنها ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام متوالية حتى فارق الدنيا ، ولو شئنا لشبعنا ولكننا نؤثر على أنفسنا <sup>(٢)</sup> . ونزل برسول الله صلى الله عليه وسلم خفيف فلم يجد عند أهله شيئاً ، فدخل عليه رجل من الأنصار فذهب بالضيف إلى أهله ، ثم وضع بين يديه الطعام وأمر امرأته بإطفاء السراج ، وجعل يمد يده إلى الطعام كأنه يأكل ولا يأكل ، حتى أكل الضيف ، فلما أصبح قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد عجب الله من صديقكم الليلة إلى ضيفكم . ونزلت ( ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ) <sup>(٣)</sup> فالسخاء خلق من أخلاق الله تعالى ؛ والإيثار أصل درجات السخاء . وكان ذلك من أدب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سماه الله تعالى عظيماً فقال تعالى ( وإنك لعل خلق عظيم ) وقال سهل بن عبد الله التستري قال موسى عليه السلام ، يارب أرني بعض درجات محمد صلى الله عليه وسلم وأمه ؛ فقال يا موسى إنك لن تطيق ذلك ، ولكن أريك منزلة من منازل جليلية عظيمة فضلت بها عليك وعلى جميع خلقي ، قال فكشف له عن ملكوت السموات فنظر إلى منزلة كادت تتلف نفسه من أنوارها وقربها

(١) حديث : أيما رجل اشتوى شهوة فرد شهوته وآثر على نفسه غفر له . أخرجه ابن حبان في السخاء وأبو الطيغ في الثواب من حديث ابن عمر بن عبد الله بن مسعود . (٢) حديث عائشة : ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام متوالية ولو شئنا لشبعنا ولكننا نؤثر على أنفسنا . أخرجه البيهقي في الشعب باللفظ ؛ ولكنه كان يؤثر على نفسه . وأول الحديث منه مسلم باللفظ : ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام متوالية ثم ما شبع من خبز بر حتى مضى ليله . ولقيتهين : ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة ثلاثة ليالٍ يوماً حتى مضى زاد مسلم : من طعام . (٣) حديث : نزل به خفيف فلم يجد عند أهله شيئاً فدخل عليه رجل من الأنصار فذهب به إلى أهله ... الحديث . في نزول قوله تعالى ( ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ) متفق عليه من حديث أبي هريرة (٣٣ - ٣٤ - إسعاد علوم الدين - ٣)

من الله تعالى ، فقال : يارب بماذا بلغت به إلى هذه الكرامة ؟ قال : بخلق اختصاصته به من بينهم وهو الإيثار ، ياموسى لا يأتيني أحد منهم فعدل به وقتاً من عمره إلا استحييت من عاصيته ، وبقراته من جنتي حيث يشاء : وقيل خرج عبد الله بن جعفر إلى ضيعة له فزول على نخيل قوم وفيه غلام أسود يعمل فيه : إذ أتى الغلام بقوته ، فدخل الحائط كلب ودنا من الغلام فرمى إليه الغلام بقرص فأكله ، ثم رمى إليه الثانى والثالث فأكله ، وعبد الله ينظر إليه فقال يا غلام كم قوتك كل يوم ؟ قال ما رأيت ! قال فلم أثرت به هذا الكلب ؟ قال ما هى بارض كلاب ، إنه جاء من سافة بعيدة جائعاً فكرهت أن أشبع وهو جائع قال ! قال فما أنت صانع اليوم ؟ قال أطوى يوى هذا فقال عبد الله بن جعفر الالم على السخاء ! إن هذا الغلام لأضئ منى ، فاشتري الحائط والغلام وما فيه من الآلات فأعنت الغلام ووجهه منه . وقال عمر رضى الله عنه : أهدى إلى رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاة فقال : إن أختى كان أحوج منى إليه فبعت به إليه ، فلم يزل واحد يبعث به إلى آخر حتى تداوله سبعة أبيات ورجع إلى الأثر . وبات على كرم الله وجهه على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم فأوحى الله تعالى إلى جبريل وميكائيل عليهما السلام : إن أختيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من عمر الآخر فأبكا يؤثر صاحبه بالحياة ؟ فاختارا كلاهما الحياة وأجابا : فأوحى الله عز وجل إليهما أفلا كنتما مثل على بن أبى طالب أختيت بينه وبين نبي محمد صلى الله عليه وسلم فبات على فراشه يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة ؟ أهبطا إلى الأرض فاحتفظا من عدوه فكان جبريل عند رأسه وميكائيل عند رجله وجبريل عليه السلام يقول : يخرج من مثلك يابن أبى طالب والله تعالى يباهى بك الملائكة ! أنزل الله تعالى ﴿ ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله والله رءوف بالعباد ﴾ <sup>(١)</sup> وعن أبى الحسن الأنطاكي : أنه اجتمع عنده نيف وثلاثون نفساً - وكانوا في قرية بقرب الرى - ولم أرغفة معدومة لم تلبس جميعهم ، فكسروا الرغفان وأطلقوا السراج وجلسوا للطعام ، فلما رفع فإذا الطعام نباه ولم يأكل أحد منه شيئاً إيثارا لصاحبه على نفسه . وروى أن شعبة جاءه سائل وليس عنده شيء ، فنزع خشبة من سقف بيته فأعطاه ثم اعتذر إليه : وقال حذيفة العدوى : انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لى ومضى شيء من ماء وأنا أقول : إن كان به رفق سقيته ومسحت به وجهه ، فإذا أنا به فقلت : أسقيك ؟ فأشار إلى أن نعم ، فإذا رجل يقول : آه ... فأشار ابن عمى إلى أن انطلق به إليه ، فجئته فإذا هو هشام بن العاص فقلت : أسقيك ؟ فسمع به آخر فقال : آه ... فأشار هشام انطلق به إليه ، فجئته فإذا هو قد مات فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات ، فرجعت إلى ابن عمى فإذا هو قد مات رحمة الله عليهم . وأجمعين . وقال عباس بن دهقان : ما خرج أحد من الدنيا كما دخلها إلا بشر بن الحارث فإنه أتاه رجل في مرضه فشكا إليه الحاجة فنزع قيضه وأعطاه إياه ، واستمار ثوباً فأت فيه ، وعن بعض الصوفية قال : كنا بطرسوس فاجتمعنا جماعة وخرجنا إلى باب الجهاد ، فتبعنا كلب من البلد ، فلما بلغنا ظاهر الباب إذا نحن بداية ميتة فقصدنا إلى موضع عال وقعدنا . فلما نظر الكلب إلى الميتة رجع إلى البلد ثم عاد بعد ساعة ومعه مقدار عشرين كلباً ، فجاء إلى تلك الميتة وقعد ناحية ووقعت الكلاب في الميتة ، فما زالت تأكلها وذلك الكلب قاعد ينظر إليها حتى أكلت الميتة وبقى العظم ورجعت الكلاب إلى البلد ، فقام ذلك الكلب

(١) حديث : بات على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم فأوحى الله إلى جبريل وميكائيل أني أختيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من الآخر ... الحديث . في نزول قوله تعالى ﴿ ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله ﴾ أخرجه أحمد مختصراً من حديث ابن عباس : شري على نفسه فلبيس ثوب النبي صلى الله عليه وسلم ثم نام مكانه ... الحديث . وليس فيه ذكر جبريل وميكائيل ولم أتف هذه الزيادة على أصل ، وفيه أبو بلج يختلف فيه والحديث منكر .

وجاء إلى تلك المطام فأكل مما بقى عليها قليلا ثم انصرف .

وقد ذكرنا جملة من أخبار الإيثار وأحوال الأولياء في كتاب الفقر والزهد فلا حاجة إلى الإعادة هنا وباتة التوفيق وعليه التوكل فيما يرضيه عز وجل .

### بيان حد السخاء والبخل وحقيقتهما

لعلك تقول : قد عرف بشواهد الشرع أن البخل من المهلكات ، ولكن ما حد البخل وبماذا يصير الإنسان بخيلا ؟ وما من إنسان إلا وهو يرى نفسه سخيا وربما يراه غيره بخيلا ، وقد يصدر فعل من إنسان فيختلف فيه الناس فيقول قوم : هذا بخل ويقول آخرون ليس هذا من البخل . وما من إنسان إلا ويحمد من نفسه حبا للمال ولأجله يحفظ المال ويمسكه ، فإن كان يصير بإمساك المال بخيلا فإذا لا ينفك أحد عن البخل . وإذا كان الإمساك مطلقا لا يوجب البخل ، ولا معنى للبخل إلا الإمساك فما البخل الذي يوجب الهلاك ؟ وما حد السخاء الذي يستحق به البعد صفة السخاوة وغواها ؟ فنقول : قد قال قائلون حد البخل منع الراجب ، فكل من أدى ما يجب عليه فليس ببخل ، وهذا غير كاف ؛ فإن من يرد اللحم مثلا إلى القصاب والحيز البخاز ينقصان حياء نصف حبة فإنه يعد بخيلا بالاتفاق . وكذلك من يسلم إلى عياله القدر الذي يفرغه القاضى ثم يضيقهم في لقمة ازدادوا عليه أو تمره أكلوها من ماله يعد بخيلا . ومن كان بين يديه رغيف لحفر من يظن أنه يأكل معه فأخفاه عنه عد بخيلا . وقال قائلون البخيل هو الذى يستصعب العطية ، وهو أيضا قاصر ، فإنه إن أريد به أنه يستصعب كل عطية فكمن من ببخل لا يستصعب العطية القليلة كالحبة وما يقرب منها ، ويستصعب ما فوق ذلك ؟ وإن أريد به أنه يستصعب بعض المطايا فما من جواد إلا وقد يستصعب بعض المطايا ؟ وهو ما يستغرق جميع ماله أو المال النظيم . فهذا لا يوجب الحكم بالبخل . وكذلك تكلموا في الجود ، فقيل الجود عطاء بلا من وإسراف من غير روية . وقيل : الجود عطاء من غير مسألة على روية التقليل . وقيل : الجود السرور بالسائل والفرح بالعطاء لما أمكن . وقيل : الجود عطاء على روية أن المال لله تعالى والعبد لله عز وجل فيعطى عباده مال الله عز وجل غير روية الفقر . وقيل : من أعطى البعض وأبقى البعض فهو صاحب سخاء ، ومن بذل الأكر وأبقى لنفسه شيئا فهو صاحب جود ، ومن قامى العثر وآثر غيره بالبلغة فهو صاحب إيثار ، ومن لم يبذل شيئا فهو صاحب بخل .

وجملة هذه الكلمات غير محيطة بحقيقة الجود والبخل ، بل نقول : المال خلق للحكمة مقصود وهو صلاحه لمجاهات الخلق ، ويمكن إمساكه من الصرف إلى ما خلق للصرف إليه ، ويمكن بذله بالصرف إلى ما لا يحسن الصرف إليه ، ويمكن التصرف فيه بالعدل ، وهو أن يحفظ حيث يجب الحفظ ، ويبدل حيث يجب البذل . فالإمساك حيث يجب البذل بخل ، والبذل حيث يجب الإمساك تبذير . وبينهما وسط وهو المحمود وينبغي أن يكون السخاوة الجود عبارة عنه ؛ إذ لم يؤمر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بالسخاء ، وقد قيل له ( ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ) وقال تعالى ( والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ) فالجود وسط بين الإسراف والإقتار وبين البسط والتبض ، وهو أن يقدر بذله وإمساكه بقدر الراجب ، ولا يمكن أن يفعل ذلك جهورا حه ما لم يكن قلبه طيبا به غير منازع له فيه . فإن بذل في محل وجوب البذل ونفسه تتازعه وهو يصار بها فهو متسخر وليس بسخي ، بل ينبغي أن لا يكون لقلبه علاقة مع المال إلا من حيث يراد المال له وهو صرفه إلى ما يجب صرفه إليه .

فإن قلت : فقد صار هذا موقوفاً على معرفة الواجب فما الذى يجب بذله ؟

فأقول : إن الواجب قسمان : واجب بالشرع ، وواجب بالمروءة والعادة . والسخي هو الذى لا يمنع واجب الشرع ولا واجب المروءة ، فإن منع واحداً منهما فهو بخيل ، ولكن الذى يمنع واجب الشرع أبخل كالأذى يمنع أداء الزكاة ويمنع عياله وأهله النفقة ، أو يؤذيها ولكنه يشق عليه ، فإنه بخيل بالطبع ، وإنما ينسب بالتكلف ، أو الذى يقيم الحديث من ماله ولا يعطيه قلبه أن يعطى من أطيب ماله ، أو من وسطه ، فهذا كله بخل .

وأما واجب المروءة فهو ترك المضايقة والاستقصاء في المحقرات ، فإن ذلك مستحب ، واستقباح ذلك يختلف بالأحوال والأشخاص . فنكثر ماله استحب منه مالا يستحب من الفقير من المضايقة ، ويستحب من الرجل المضايقة مع أهله وأقاربه ومعاييك مالا يستحب مع الأجانب ، ويستحب من الجار مالا يستحب مع البعيد ، ويستحب في الضيافة من المضايقة ما لا يستحب في المعاملة ، فيختلف ذلك بما فيه من المضايقة في ضيافة أو معاملة وبما به المضايقة من طعم أو ثوب ، إذ يستحب في الأطعمة ما لا يستحب في غيرها ، ويستحب في شراء الكفن مثلاً أو شراء الأضيعة أو شراء خبز الصدقة ما لا يستحب في غيره من المضايقة . وكذلك بمن معه المضايقة من صديق أو أخ أو قريب أو زوجة أو ولد أو أجنبي . ومن منه المضايقة من صبي أو امرأة أو شيخ أو شاب أو عالم أو جاهل أو موسر أو فقير . فالبخيل هو الذى يمنع حيث ينبغي أن لا يمنع إما بحكم الشرع وإما بحكم المروءة ، وذلك لا يمكن التتبع على مقداره . ولعل حد البخل هو إمساك المال عن غرض ، ذلك الغرض هو أهم من حفظ المال ، فإن صيانة الدين أهم من حفظ المال ، فالعز الزكاة والنفقة بخيل . وصيانة المروءة أهم من حفظ المال ، والمضايق في الدقائق مع من لا تحسن المضايقة معه هالك ستر المروءة لحب المال فهو بخيل . ثم تبقى درجة أخرى ، وهو أن يكون الرجل ممن يؤدى الواجب ويحفظ المروءة ولصك من ماله كثير قد جمعه ليس يصرفه إلى الصدقات وإلى المحتاجين ، فقد تقابل غرض حفظ المال ليكون له عدة على نوائب الزمان وغرض الثواب ليكون وافياً لدرجاته في الآخرة ، وإمساك المال عن هذا الغرض بخل عند الأكياس وليس بخيل عند حوام الخلق ، وذلك لأن نظر الحوام مقصور على حظوظ الدنيا فيرون إمساكهم لدفع نوائب الزمان مهما ، وربما يظهر عند الحوام أيضاً سمة البخل عليه إن كان في جواره محتاج فتمنع وقال : قد أدبت الزكاة الواجبة وليس على غيرها . ويختلف استقبال ذلك باختلاف مقدار ماله ، وباختلاف شدة حاجة المحتاج وصلاح دينه واستحقاقه . فن أدى واجب الشرع وواجب المروءة الثلاثة به فقد تبرأ من البخل . نعم لا يتصف بصفة الجود والسخاء مالم يبذل زيادة على ذلك لطلب الفضيلة وتبيل الدرجات ، فإذا اتعت نفسه لبذل المال حيث لا يوجب الشرع ولا توجه إليه الملامة في العادة فهو جواد بقدر ما تمنع له نفسه من قليل أو كثير . ودرجات ذلك لا تحصر وبعض الناس أجود من بعض ، فاصطناع المعروف وراء ما توجه العادة والمروءة هو الجود ، ولكن بشرط أن يكون عن طيب نفس ولا يكون طمع ورجاء خدمة أو مكافأة أو شكر أو ثناء فإن من طمع في الشكر والتناء فهو يبايع وليس بجواد ، فإنه يشترى المدح بماله والمدح لابد وهو مقصور في نفسه ، والجود هو بذل الشيء من غير عوض . هذا هو الحقيقة ولا يتصور ذلك إلا من الله تعالى ، أما الآدى فاسم الجود عليه مجاز إذ لا يبذل الشيء إلا لغرض ، ولكنه إذا لم يكن غرضه إلا

الثواب في الآخرة أو اكتساب فضيلة الجود وتطهير النفس عن رذالة البخل فيسمى جواداً ، فإن كان الباعث عليه الخوف من الهجاء مثلاً أو من ملامة الخلق أو ما يتوقعه من نفع يناله من المنعم عليه فكل ذلك ليس من الجود ، لأنه مضطر إليه بهذه البواعث ، وهي أعراض معجلة له عليه فهو معتنض لاجواد ، كما روى عن بعض المتعبدين أنها وقفت على حبان بن ملال وهو جالس مع أصحابه فقالت : هل فيكم من أسأله عن مسألة ؟ فقالوا لها : سئ عما شئت . وأشاروا إلى حبان بن ملال . فقالت : ما السخاء عندكم ؟ قالوا : العطاء والبذل والإيثار ، قالت : هذا السخاء في الدنيا فما السخاء في الدين ؟ قالوا : أن نعبد الله سبحانه بحجة بها أنفسنا غير مكرهة ، قالت : فريدون على ذلك أجراً ؟ قالوا : نعم ، قالت : ولم ؟ قالوا لأن الله تعالى وعدنا بالحسنة عشر أمثالها ، قالت سبحانه الله ! فإذا أعطيت واحدة وأخذت عشرة فبأي شيء تسخيت عليه ؟ قالوا لها فما السخاء عندك برحمة الله ؟ قالت السخاء عندى أن تعبدا الله متمعين متلذذين بطاعته غير كارهين لاتريدون على ذلك أجراً حتى يكون مولاكم بفعل بكم ما يشاء ! ألا تسخبون من الله أن يطلع على قلوبكم فيعلم منها أنكم تريدون شيئاً بشيء ؟ إن هذا في الدنيا لتبجح ! وقالت بعض المتعبدين المحسبون أن السخاء في الدرهم والدينار فقط ؟ قيل ففيم ؟ قالت السخاء عندى في الحج . وقال المحاسبي السخاء في الدين أن تسخر نفسك لتفعلها لله عز وجل ويسخر قلبك بيدك مهتلك وإمراك دملكه تعالى بسياحة من غير إكراه ، ولا تريد بذلك ثواباً عاجلاً ولا أجلاً ، وإن كنت غير مستغن عن الثواب ولكن يلب على ظنك حسن كمال السخاء بترك الاختيار على الله ، حتى يكون مولاك هو الذى يفعل لك ما لا تحسن أن تختار لنفسك .

### بيان علاج البخل

اعلم أن البخل سببه حب المال . ولحب المال سببان أجدهما حب الشهوات التى لا وصول إليها إلا بالمال مع طول الأمل ، فإن الإنسان لو علم أنه يموت بعد يوم ربما أنه كان لا يبخل بماله ، إذ القدر الذى يحتاج إليه في يوم أو في شهر أو في سنة قريب ، وإن كان قصير الأمل ولكن كان له أولاد أقام الولد مقام طول الأمل ، فإنه يقدر بقاءه كبقاء نفسه فيمسك لأجلهم . ولذلك قال عليه السلام : الولد مبخلة بمجنبة بجملة <sup>(١)</sup> ، فإذا انضاف إلى ذلك خوف الفقر وقلة الثقة بجميع الرزق قوى البخل لا محالة .

السبب الثانى : أن يحب عين المال ، فإن الناس من معه ما يكتفيه لبقية عمره إذا اقتصر على ما جرت به عادته بنفته ونفصل آلاف وهو شيخ بلا ولد ومعهم أموال كثيرة ولا تسمح نفسه بإخراج الزكاة ولا بمداواة نفسه عند المرض بل صار عبداً للدنانير عاشقاً لها يلتذد بروجودها في يده ويقدرة عليها ، فيكنزها تحت الأرض وهو يعلم أنه يموت فتضيع أو يأخذها أعداؤه ، ومع هذا فلا تسمح نفسه بأن يأكل أو يتصدق منها بحبة واحدة ، وهذا مرض القلب عظيم عسير العلاج لا سيما في كبار السن ، وهو مرض مزمن لا يرجى علاجه . ومثال صاحبه : مثال رجل عشق شخصاً فأحب رسول نفسه ثم نسي محبوبه واشتغل برسوله ، فإن الدنانير رسول يبلغ إلى الحاجات فصارت محبوبة لذلك ، لأن الموصول إلى اللذذ لذذ ، ثم قد تنسى الحاجات ويصير الذهب عنده كأنه محبوب في نفسه وهو غاية الضلال ، بل من رأى بينه وبين الحجر فرقاً فهو جاهل إلا من حيث قضاء حاجته به ، فالفاضل عن قدر حاجته والحجر بمثابة واحدة . فهذه أسباب حب المال . وإنما علاج كل علة بمضادة سببها ، فتعالج حب الشهوات بالقناعة

(١) حديث « الولد مبخلة » زاد في رواية « محزنة » ابن ماجه من حديث يعل بن مرة دون قوله « محزنة » رواه بهذه الزيادة أبو يعلى وابن الزبير من حديث أبي سعيد والحاكم من حديث الأسود بن خلف وأسناده صحيح .

باليسير والبصير ، وتعالج طول الأمل بكثرة ذكر الموت والنظر في موت الأقران وطول تدميم في جمع المال وضياعه بعدهم ، وتعالج التفات القلب إلى الولد بأن خالقه خلقه معه رزقه ، وكمن ولد ولم يرث من أبيه مالا وحاله أحسن عن ورث ؟ وبأن يعلم أنه يجمع المال لولده يريد أن يترك ولده بخير وينقلب هو إلى شر ، وأن ولده إن كان تقيا صالحا فانه كافيه ، وإن كان فاسقا فيستعين بماله على المعصية وترجع مظالمه إليه . ويعالج أيضا قلبه بكثرة التأمل في الأخبار الواردة في ذم البخل ومدح السخاء وما توعد الله به على البخل من العقاب العظيم . ومن الأدوية النافعة : كثرة التأمل في أحوال البخلاء ونفرة الطبع عنهم واستباحهم له ، فإنه ما من بخيل إلا ويستفتح البخل من غيره ، ويستقل كل بخيل من أصحابه ، فيلم أنه مستقل ومستقذر في قلوب الناس مثل سائر البخلاء في قلبه . ويعالج أيضا قلبه بأن يتفكر في مقاصد المال . وأنه لماذا خلق ؟ ولا يحفظ من المال إلا بقدر حاجته إليه والباقي يدخره لنفسه في الآخرة بأن يحصل له ثواب بذله . فهذه الأدوية من جهة المعرفة والعلم ، فإذا عرف بنور البصيرة أن البذل خير له من الإمساك في الدنيا والآخرة ما حجت رغبته في البذل إن كان عاقلا ، فإن تحركت الشهوة فينبغي أن يجيب الحاطر الأول ولا يتوقف ، فإن الشيطان يمدد الفقر ويخفوه ويصد عنه .

حكى أن أبا الحسن البرننجي كان ذات يوم في الحلاء فدعا تلميذا له وقال : أنزع عني القميص وادفعه إلى فلان ، فقال : هلا صبرت حتى تفرج ؟ قال : لم آمن على نفسي أن تتغير ، وكان قد خطر له بذله ؛ ولا نزول صفة البخل إلا بالبذل تكلفا كالإزول العشق إلا بفارقة المشوق بالسفر عن مستقره ؛ حتى إذا سافر وطارق تكلفا وصبر عنه مدة تسلى عنه قلبه ، فكذلك الذي يريد علاج البخل ينبغي أن يفارق المال تكلفا بأن يبذله ، بل لو رماه في الماء كان أولى به من إمساكه إياه مع الحب له . ومن لطائف الخيل فيه أن يتدفع نفسه بحسن الاسم والاشتهار بالسخاء ، فيبذل على قصد الرياء حتى تسمح نفسه بالبذل طمعا في حشمة الجود ، فيكون قد أزال عن نفسه خبث البخل واكتسب بها خبث الرياء ، ولكن ينطفئ بعد ذلك على الرياء ويريله بعلاجه ، ويكون طلب الاسم كالتسلية للنفس عند فطامها عن المال ، كما يسلى الصبي عند الفطام عن الثدي باللعب بالمصاصير وغيرها لا ليخلى واللعب ، ولكن لينفك عن الثدي إليه ، ثم ينقل عنه إلى غيره ، فكذلك هذه الصفات الخبيثة ينبغي أن يساهل بعضها على بعض كما تسلط الشهوة على الغضب وتكسر سوره بها ، ويسلط الغضب على الشهوة وتكسر وعونها بها ، إلا أن هذا مفيد في حق من كان البخل أغلب عليه من حب الجاه والرياء ، فيبذل الأقوى بالأضعف ، فإن كان الجاه محبوا عنده كالمال فلا فائدة فيه فإنه يقلع من عقوبته في أخرى مثلها ، إلا أن علامة ذلك أن لا يتحمل عليه البذل لأجل الرياء ، فذلك يبين أن الرياء أغلب عليه ، فإن كان البذل يشق عليه من الرياء فينبغي أن يبذل فإن ذلك يدل على أن مرض البخل أغلب على قلبه .

ومثال دفع هذه الصفات بعضها ببعض ما يقال إن الميت تستحيل جميع أجزائه دودا ثم يأكل بعض الديدان البعض ، حتى يقل عددها ثم يأكل بعضها بعضا حتى ترجع إلى اثنتين قويتين عظيمتين ، ثم لا تزالان تتفانلان إلى أن تغلب إحداهما الأخرى فتأكلها وتسمن بها ، ثم لا تزال تبقى جامعة وحدها إلى أن تموت ، فكذلك هذه الصفات الخبيثة يمكن أن يسلط بعضها على بعض حتى يقيمها ، ويجعل الأضعف قوتا للأقوى إلى أن لا يبقى إلا واحدة ، ثم تقع العناية بمحوها وإزالتها بالمجاهدة وهو منع التوت عنها . ومنع التوت عن الصفات أن لا يعمل بمقتضاها ، فلها تقتضى لا عمالة أعمالا ، وإذا خولفت خدمت الصفات وماتت ، مثل البخل فإنه يقتضى إمساك

المال فإذا منع مقتضاه وبذل المال مع الجهد مرة بعد أخرى ماتت صفة البخل وصار البذل طبعاً وسقط التثب فيه ، فإن علاج البخل بلم وعمل ، فالعلم يرجع إلى معرفة آفة البخل وظائفة الجود ، والعمل يرجع إلى الجود والبذل على سبيل التشفكف ، ولكن قد يقوى البخل بحيث يعنى ويهم فيمنع تحقق المعرفة فيه ، وإذا لم تتحقق المعرفة لم تحرك الرغبة فلم يتيسر العمل فتبقى العلة منمنة ، كالمرض الذي يمنع معرفة الدواء وإمكان استعماله فإنه لا حيلة فيه إلا الصبر إلى الموت .

وكان من عادة بعض شيوخ الصوفية في معالجة علة البخل في المريد أن يمنعم من الاختصاص بزيارهم . وكان إذا توم في مريد فرحه براويته وما فيها ، قله إلى زاوية غيرها ، ونقل زاوية غيره إليه وأخرجه عن جميع ما ملكه ، وإذا رآه يلتفت إلى ثوب جديد يلبسه أو سمجادة يفرح بها يأمره بتسليمها إلى غيره ويلبسه ثوباً خفياً لا يميل إليه قلبه .

فهذا يحتاج القلب عن متاع الدنيا . فمن لم يسلك هذا السبيل أنس بالدنيا وأحبها ، فإن كان له ألف متاع كان له ألف محبوب ، ولذلك إذا سرق كل واحد منه ألت به مصيبة بقدر سبه له ، فإذا مات نزل به ألف مصيبة دفعة واحدة لأنه كان يحب الكل وقد سلب عنه ، بل هو في حياته على خطر المصيبة بالفقد والهلاك .

حمل إلى بعض الملوكة قدح من فيروزج مرصع بالجواهر لم ير له نظير ، ففرح الملك بذلك فرحاً شديداً فقال لبعض الحكماء عنده : كيف ترى هذا ؟ قال : أراه مصيبة أو فقراً ، قال : كيف ؟ قال : إن كسر كان مصيبة لا جبر لها وإن سرق صرت فقيراً إليه ولم تجد مثله ، وقد كنت قبل أن يحمل إليك في أمن من المصيبة والفقير ، ثم اتفق يوماً أن كسر أو سرق وعظمت مصيبة الملك عليه فقال : صدق الحكميم ليته لم يحمل إلينا ، وهذا شأن جميع أسباب الدنيا فإن الدنيا عدوة لأعداء الله تسوقهم إلى النار ، وعدوة أولياء الله إذ تنهمم بالصبر عنها ، وعدوة الله إذ تقطع طريقه على عباده ، وعدوة نفسها فإنها تأكل نفسها ، فإن المال لا يحفظ إلا بالخزان والحراس . والخزان والحراس لا يمكن تحصيلها إلا بالمال وهو بذل الدراهم والدنانير ، فالمال يأكل نفسه وضيقة ذاته حتى يفتى ، ومن عرف آفة المال لم يأنس به ولم يفرح ولم يأخذ منه إلا بقدر حاجته ، ومن قنع بقدر الحاجة فلا يبخل لأن ما أمسكه لحاجته فليس يبخل ، ولا يحتاج إليه ، فلا يشعب نفسه بحفظه فيذله ، بل هو كالماء على شط الدجلة إذ لا يبخل به أحد لقناعة الناس منه بمقدار الحاجة .

### بيان مجموع الوظائف التي على العبد في ماله

اعلم أن المال كما وصفناه خير من وجه وشر من وجه . ومثاله مثال حية يأخذها الزاقي ويستخرج منها الزياقي ، ويأخذها الناقل فيقتله سمها من حيث لا يدري ولا يغلو أحد عن سم المال إلا بالحافطة على خمس وظائف الأولى : أن يعرف مقصود المال وأنه لماذا خلق وأنه لم يحتاج إليه حتى يكتسب ولا يحفظ إلا قدر الحاجة ، ولا يعطيه من صمته فوق ما يستحقه .

الثانية : أن يراعى جهة دخل المال فيجتنب الحرام المحض ، وما التائب عليه الحرام كال السلطان ، ويحتنب الجهات المكرومة القادحة في الروة كالمدايا التي فيها شوائب الرشوة ، وكالدوال التي فيه الدالة ومثلك للروة وما يجري مجراه .

الثالثة : في المقدار الذي يكتسبه فلا يستكثر منه ولا يستقل ، بل القدر الواجب ومعياره الحاجة . والحاجة

ملبس ومسكن ومطعم . ولكل واحد ثلاث درجات : أدنى ، وأوسط ، وأعلى . وما دام ما تلا إلى جانب القلة ومتقربا من حد الضرورة كان تحفا وبجيء من جهة المحققين ، وإن جاوز ذلك وقع في هاوية لا آخر لعمقها . وقد ذكرنا تفصيل هذه الدرجات في كتاب الزهد .

الرابعة : أن يراعى جهة المخرج ويقتصد في الإنفاق غير مبذر ولا مقتركا ذكرناه ، فيضع ما اكتسبه من حله في حقه ولا يضعه في غير حقه ، فإن الإلم في الأخذ من غير حقه والوضع في غير حقه سواء .

الخامسة : أن يصلح نيته في الأخذ والترك والإنفاق والإمساك ، فيأخذ ما يأخذ ليستعين به على العباداة ، ويترك ما يترك زهدا فيه واستحقاراً له إذا فعل ذلك لم يضره وجود المال ، ولذلك قال على رضي الله عنه : لو أن رجلا أخذ جميع مافي الأرض وأراد به وجه الله تعالى فهو زاهد ، ولو أنه ترك الجميع ولم يرد به وجه الله تعالى فليس يزاهد . فلتكن جميع حركاتك وسكناتك لله مقصورة على عبادة أو ما يمين على العباداة ، فإن أهدد الحركات عن العباداة الأكل وقضاء الحاجة وهما ميمان على العباداة ، فإذا كان ذلك قصداك بهما صار ذلك عبادة في حقتك . وكذلك ينبغي إن تكون نيتك في كل ما يحفظك من قيس وازار وفراس وآنية ، لأن كل ذلك مما يحتاج إليه في الدين ، وما فضل من الحاجة ينبغي أن يقصد به أن ينفع به عبد من عباد الله ولا يمنه منه عند حاجته ، فن فعل ذلك فهو الذي أخذ من حية المال جوهرها وترباها واتقى سبها فلا تضره كثرة المال ، ولكن لا يتأتى ذلك إلا لمن رسخ في الدين قدمه وعظم فيه علمه . والمأى إذا تشبه بالعلم في الاستكثار من المال وزعم أنه يشبه أغنياء الصحابة شابه الصبي الذي يرى المرم الحاذق يأخذ الحية ويتصرف فيها فيخرج ترباها فيقتدي به ، ويظن أنه أخذها مستحسنا صورتها وشكلها ومستلينا جلد لها ، فيأخذها اقتداء به فتقتله في الحال ، إلا أن قتيل الحية يدري أنه قتيل ، وقتيل المال قد لا يعرف . وقد شبهت الدنيا بالحية فقيل :

هي دنيا كحية تنفث السم وإن كانت المجسة لانت

وكا يستحيل أن ينشبه الأعمى بالبعير في تغطى قلل الجبال وأطراف البحر والطرق المشوكة فحال أن ينشبه العماى بالعالم الكامل في تناول المال .

### بيان ذم النفي ومصلحة الفقر

اعلم أن الناس قد اختلفوا في تفضيل النفي التشارك على الفقير الصابر - وقد أوردنا ذلك في كتاب الفقر والزهد وكشفنا عن تحقيق الحق فيه - ولكننا في هذا الكتاب ندل على أن الفقر أفضل وأعل من النفي على الجملة من غير التفات إلى تفصيل الأحوال ، ونقتصر فيه على حكاية فصل ذكره الحارث المحاسبي رضي الله عنه في بعض كتبه في الرد على بعض العلماء من الأغنياء ، حيث احتج بأغنياء الصحابة وكثرة مال عبد الرحمن بن عوف وشبه نفسه بهم والمحاسبي رحمه الله حبر الأمة في علم الماملة وله سبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس وآفات الأعمال وأغوار العبادات ، وكلامه جدير بأن يحكى على فوجه . وقد قال بعد كلام له في الرد على علماء السوء : بلننا أن عيسى ابن مريم عليه السلام قال : يا علماء السوء تصومون وتصلون وتصدقون ولا تفعلون ما تمومرون ، وقد رسون مالا تعملون فيأسوه ماتحسون ، تبون بالقول والآمان وتعملون بالهوى ، وما بقى عنكم أن تتقوا جلودكم وتلوكم دنس ، بحق أقول لكم لا تكونوا كالنخل يخرج منه الحقيق الطيب ويبقى فيه النخالة ؛ كذلك أنتم



نخرجون الحكم من أنفواكم ويقي الثل في صدوركم ؛ يا عبيد الدنيا كيف يدرك الآخرة من لا تنقضي من الدنيا شهوته ولا تنقطع منها رغبته ؟ بحق أقول لكم إن قلوبكم تبكي من أعمالكم ، جعلتم الدنيا تحت السنتكم والعمل تحت أقدامكم ؛ بحق أقول لكم أفستدتم آخرتكم فصلاح الدنيا أحب إليكم من صلاح الآخرة ؛ فأى الناس أخسر منكم لو تعلمون ؟ ويلكم حتام تصفون الطريق بالدجلين وتقيمون في محل التحيرين ؛ كأنكم تدعون أهل الدنيا ليزركوها لكم ، مهلا مهلا ؛ ويلكم ماذا ينفي عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره وجوفه وحش مظلم ؟ كذلك لا ينفي عنكم أن يكون نور العلم بأفواكم وأجوافكم منه وحشة متعقلة ؛ يا عبيد الدنيا لا كسبيد أنقياء ولا كأحرار كرام ؛ توشك الدنيا أن تخلصكم عن أصولكم فتلقيكم على وجوهكم ثم تكسبكم على مناخركم ، ثم تأخذ خطاياكم بنواصيكم ثم تدفعكم من خلفكم حتى تسلككم إلى الملك الديان عراة فرادى ، فيوقفكم على سواكم ثم يحرقكم بسوء أعمالكم . ثم قال الحارث رحمه الله : إخواني فهو لاء علماء السوء شياطين الإنس وقتته على الناس ، وغبوا في عرض الدنيا ورفعتها وآثروها على الآخرة ، وادلوا الدين للدنيا فهم في المايل عار وشين ، وفي الآخرة هم الخاسرون أو يعفو الكريم بفضله .

وبعد ؛ فإني رأيت الهالك المؤثر للدنيا سروره بمروج التفتيشين ، فيتفجر عنه أنواع المصوم وفنون المصاى وإلى البوار والتلف مصيره ، فرح الهالك برجائه فلم يبق له دنياه ولم يسلم له دينه ( خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ) فيها ما من مصيبة ما أنظمتها ورزية ما أجلها ، ألا فراقوا الله إخواني ولا يفرزكم الشيطان وأوليائه من الآسئين بالجميع الداحضة عند الله ، فإنهم يتكالبون على الدنيا ثم يطلبون لأنفسهم المآذير والحجج ، ويرعون أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت لهم أموال خيترين المفرورون بذكر الصحابة ليعذرهم الناس على جمع المال ، ولقد دهام الشيطان وما يشمرون . ويحك أيها المفتون إن احتجاجك بمال عبد الرحمن بن عوف مكيدة من الشيطان ينطق بها على لسانك فتلك الأناك متى زعمت أن أعيار الصباية أرادوا المال للتكاثر والفرف والريفة فقد اغتبت السادة ونسبتهم إلى أمر عظيم ، ومتى زعمت أن جمع المال الحلال أعلى وأفضل من تركه فقد إزدريت محمدا والمرسلين ؟ ونسبتهم إلى قلة الرغبة والزهد في هذا الخير الذي رغب فيه أنت وأصحابك من جمع المال ، ونسبتهم إلى الجهل إذ لم يجمعوا المال كما جمعت ، ومتى زعمت أن جمع المال الحلال أعلى من تركه ، فقد زعمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ينصح للأمة إذ نهاهم عن جمع المال <sup>١</sup> وقد علم أن جمع المال خير للأمة ؟ فقد غشهم برعك حين نهاهم عن جمع المال ، كذبت ورب السماء على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ أفقد كان للأمة ناهيا وعليهم مشفقا وبهم ودوفا . ومتى زعمت أن جمع المال أفضل فقد زعمت أن الله عز وجل لم ينظر لعباده حين نهاهم عن جمع المال وقد علم أن جمع المال خير لهم ؟ أو زعمت أن الله تعالى لم يعلم أن الفضل في الجمع فذلك نهاهم عنه ، وأنت علم بما في المال من الخير والفضل لذلك ورغبت في الاستكثار كأنك أعلم بوضع الخير والفضل من ذلك تعالى الله عن جهلك أيها المفتون ؟ تدبر بعقلك ماذا لك به الشيطان حين زين لك الاحتجاج بمال الصحابة ؛ وعملك ما ينفعك الاحتجاج بمال عبد الرحمن بن عوف وقد ود عبسد الرحمن بن عوف في القيامة أنه لم يؤت من الدنيا إلا قوتا ؟

(١) حديث : النبي عن جمع المال . أخرجه ابن عسود عن حديث ابن مسعود « ما أوحى الله إلان أجمع المال وأكون من الفائزين ... الحديث » ولأبي ذرهم والحطيب في التاريخ والبيهقي في الإزهد من حديث الحارث بن سويد في أثناء الحديث « لا تجمعو مالا بأ تكونوا » وكلاما خفيف .

وقد بلغته أنه لما توفي عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا نخاف على عبد الرحمن فيما ترك فقال كعب : سبحان الله ! وما تخافون على عبد الرحمن كسب طيباً وأففق طيباً وترك طيباً ! فبلغ ذلك أبا ذر فخرج مغضباً يريد كعباً فربط يده بيداً ثم انطلق يريد كعباً ، فقبل لكعب ، إن أبا ذر يطلبك ، فخرج هارباً حتى دخل على عثمان يستنبت به وأخبره الخبر ، وأقبل أبو ذر يقص الأمر في طلب كعب حتى انتهى إلى دار عثمان ، فلما دخل قام كعب فجلس خلف عثمان هارباً من أبي ذر ، فقال له أبو ذر : هيه يا ابن اليهودية ! تزعم أن لا بأس بما ترك عبد الرحمن بن عوف ، ولقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً نحو أحد وأنا معه فقال : يا أبا ذر ، فقلت : لبيك يا رسول الله فقال : لا أكثر من الأفقر يوم القيامة إلا من قال هكذا وهكذا عن يمينه وشماله وقدمه وخلفه وقليل ماله ، ثم قال : يا أبا ذر ، قلت : نعم يا رسول الله بأبي أنت وأمي ، قال : « ما يسرنى أن لي مثل أحد أنفق في سبيل الله أموت يوم أموت وأترك منه قيراطين » قلت أو قطارين يا رسول الله ؟ قاله بل قيراطان ، ثم قال : يا أبا ذر أنت تريد الأكثر وأنا أريد الأقل <sup>(١)</sup> ، فرسول الله يريد هذا وأنت تقول يا ابن اليهودية لا بأس بما ترك عبد الرحمن بن عوف ؟ كذبت وكذب من قال ! فلم يرد عليه خوفاً حتى خرج .

وقبلنا أن عبد الرحمن بن عوف قدمته عليه غير من الذين فزعجت المدينة ضجة واحدة فقالت عائشة رضي الله عنها : ما هذا ؟ قيل غير قديمك لعبد الرحمن ، قالت : صدق الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فبلغ ذلك عبد الرحمن فسألها فقالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنني رأيت الجنة فرأيت فقراء المهاجرين والمسلمين يدخلون سعيها ، ولم أر أحداً من الأغنياء يدخلها معهم إلا عبد الرحمن بن عوف يدخلها معهم جبراً » <sup>(٢)</sup> ، فقال عبد الرحمن : إن العير وما عليها في سبيل الله ، وإن أرقاها أحراراً لملي ادخلها معهم سعيها .

وقبلنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعبد الرحمن بن عوف : أما إنك أول من يدخل الجنة من أغنياء أمي وما كنت أن تدخلها إلا جبراً <sup>(٣)</sup> .

ويحك أيها المفتون ، فما احتجاجك بالسؤال وهذا عبد الرحمن في فضله وتقواه وصنائه المعروف وبذله الأموال في سبيل الله مع محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبشراء بالجنة <sup>(٤)</sup> أيضاً يوقف في عرصات القيامة وأهلها بسبب مال كسبه من حلال لتتصف ولتستأنع المعروف ، وأففق منه قصداً ، وأعطى في سبيل الله ممحاً ،

(١) جئته أي ذر ؟ الأكثرون هم الأفقر يوم القيامة إلا من قال هكذا وهكذا ... الحديث . متفق عليه وقد تقدم دون هذه الزيادة التي في أوله من قول كعب حين مات عبد الرحمن بن عوف : كسب طيباً وترك طيباً . وإنكار أبي ذر عليه : فلم ألتك على هذه الزيادة إلا في قول الحارث بن أسد الحبشي يفتي كما ذكره المصنف ، وقد رويما أحد وأبو بل أخضر من هذا ولا يكسب : إذا كان فقي من حق الله فلا بأس به ، فرفع أبو ذر عنده فغضب كعباً وقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما أحب أن أكون هذا الجبل لي ذنباً ... الحديث . وفيه ابن حجة . (٢) حديث عائشة : « رأيت الجنة فرأيت فقراء المهاجرين والمسلمين يدخلون سعيها ... الحديث » فإن عبد الرحمن بن عوف يدخل الجنة جبراً رواه أحمد مختصراً في كون عبد الرحمن يدخل جبراً دون ذكر فقراء المهاجرين والمسلمين ، وفيه عبارة بن زاذان يختلف فيه (٣) حديث : أنه قال « أما إنك أول من يدخل الجنة من أغنياء أمي وما كنت تدخلها إلا جبراً » وقال صحيح الإسناد ضعيف والمالك من حديث عبد الرحمن ابن عوف : « إن عوف أنك من الأغنياء ولم تدخل الجنة إلا جبراً » وقال صحيح الإسناد قلت : بل ضيف فيه قاله ابن أبي ماله صفه الجمهور (٤) حديث : بمر النبي صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن بن عوف بالجنة . أخرجه الترمذي والشيخان في الكبرى من حديثه : أبو بكر في الجنة ... الحديث . وفيه : وعبد الرحمن بن عوف في الجنة » وهو عند الأربعة من حديث سعيد بن زيد قال البخاري والترمذي وهذا أصح .

منع من السعي إلى الجنة مع الفقراء المهاجرين وصار يحبو في آفامهم حيو ؟ فاذنك بأماننا الفرق في فتن الدنيا ؟ وبعد : فالعجب كل العجب لك يا مفتون تتمتع في تغاليط الشهوات والسحت ، وتكالب على أوساخ الناس ، وتقلب في الشهوات والزينة والباهات ، وتقلب في فتن الدنيا ثم تجتبع بعد الرحمن وترغم أنك إن جمعت المال فقد جمعه الصحابة كأنك أشبهت السلف وفعلهم ؟ ويحك إن هذا من قياس إبليس ومن قتياء أوليائه ! وسأصف لك أحوالك وأحوال السلف لتعرف فضائلهم وفضل الصحابة . ولمرئى لقد كان بعض الصحابة أموال أرادوها للتعفف والبذل في سبيل الله ، فكبسوا حلالاً وأكلوا طيباً وأنفقوا قصداً ، وقدموا فضلاً ، ولم يمدوا منها حقاً ، ولم يبخلوا بها ، لكنهم جادوا لله بأكثرها ، وجاد بعضهم بجمعها ، وفي الشدة آثروا الله على أنفسهم كثيراً ، فباهه أكذلك أنت ؟ والله إنك لعبد الشبه بالقوم .

وبعد : فإن أختيار الصحابة كانوا للسكنة عيين ، ومن خوف الفقر آمنين ، وباهه في أروافهم والفقير ، وبمقادير الله مسرورين ، وفي البلاء راضين ، وفي الرخاء شاكرين ، وفي الضراء صابرين ، وفي السراء حامدين ، وكانوا لله متواضعين ، وعن حب العلو والتكاثر ورعين . لم ينالوا من الدنيا إلا المباح لهم بالبلغه منها وزجوا الدنيا وصبروا على مكارها وتجرعوا مرارتها وزهدوا في نعيمها وزهرتها . فباهه أكذلك أنت ؟

ولقد بلغنا أنهم كانوا إذا أقبلت الدنيا عليهم حزنوا وقالوا : ذنب مجلت عقوبته من الله ، وإذا أروا الفقر مقبلاً قالوا : مرحباً بشمار الصالحين . وبلغنا أن بعضهم كان إذا أصبح وعند عياله شيء أصبح كئيباً حزناً ، وإذا لم يكن عندهم شيء أصبح فرحاً مسروراً ، فقيل له : إن الناس إذا لم يكن عندهم شيء حزنوا ، وإذا كان عندهم شيء فرحوا ، وأنت لست كذلك ! إني إذا أصبحت وليس عند عيالي شيء فرحت إذا كان لي رسول الله صلى الله عليه وسلم أسرة ، وإذا كان عند عيالي شيء اهتممت إذا لم يكن لي بآل محمد أسرة . وبلغنا أنهم كانوا إذا سلك بهم سبيل الرخاء حزنوا وأشنفوا وقالوا : مالنا وللدنيا وما يراد بها فكأنهم على جناح خوف ، وإذا سلك بهم سبيل البلاء فرحوا واستبشروا وقالوا : الآن تمام دنائنا . فهذه أحوال السلف ولنهم وفيهم من الفضل أكثر مما وصفنا . فباهه أكذلك أنت ؟ إنك لعبد الشبه بالقوم .

وسأصف لك أحوالك أيها المفتون خذا لأحوالهم ، وذلك أنك تلعن عند النقي ، وتبطل عند الرخاء ، وتمرح عند السراء ، وتقفل عن شكر ذي النعماء ، وتنفط عند الضراء ، وتسخط عند البلاء ، ولا ترضى بالقضاء . نعم وتبغض الفقر وتأف من المسكنة ؛ وذلك غر المرسلين وأنت تأف من غرم . وأنت تدخر المال وتجمعه خوفاً من الفقر وذلك من سوء الظن بالله عز وجل وقلة اليقين بفضائه ، وكفى به إثمًا ، وعساك تجمع المال لتبني الدنيا وزهرتها وشهواتها ولذاتها . ولقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : شر أمتي الذين غدوا بالنيمة فريت عليهم أجسامهم <sup>(١)</sup> . وبلغنا أن بعض أهل العلم قال : ليحيى يوم القيامة قوم يطلبون حسنات لهم فيقال لهم ( أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ) وأنت في غفلة قد حرمت نعيم الآخرة بسبب نعيم الدنيا فيألمها حسرة ومصيبة ! نعم وعساك تجمع المال للتكاثر والعلو والفخر والزينة في الدنيا ، وقد بلغنا أنه من طلب الدنيا للتكاثر أو للتفاخر لقي الله وهو عليه غضبان ، وأنت غير مكترث بما حل بك من غضب ربك حين أردت التكاثر والعلو

(١) حديث « شر أمتي الذين غدوا بالنيمة ... الحديث » يهدم ذكره في أوائل كتاب ذم البخل عند الحديث الرابع منه « من أسلف على دنياه فاتته القرب من النار مسجمة سنة » .

نعم وعساك المكث في الدنيا أحب إليك من النقلة إلى جوار الله ، فأنت تكره لقاء الله والله القائل أكروه ، وأنت في غفلة وعساك تأسف على ما فاتك من عرض الدنيا ؛ وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من أسف على دنيا فاتته أقرّب من النار مسيرة شهر . » وقيل سنة . « وأنت تأسف على ما فاتك غير مكثرت بقربك من عذاب الله . نعم ولعلك تخرج من دينك أحياناً لتوفير دينك وتفرح بإقبال الدنيا عليك وترتاح لذلك سرورها ، وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من أحب الدنيا وسرها ذهب خوف الآخرة من قلبه <sup>(١)</sup> » ، وبلغنا أن بعض أهل العلم قال إنك تحاسب على التحزن على ما فاتك من الدنيا ، وتحاسب بفرحك في الدنيا إذا قدرت عليها وأنت فرح بدنياك وقد سلبت الخوف من الله تعالى ، وعساك تفتي بأمور دينك أضعاف ما تفتي بأمور آخرتك ، وعساك ترى مصيبتك في معاصيك أهون من مصيبتك في انتقاص دينك ، ونعم وخوفك من ذهاب مالك أكثر من خوفك من الذنوب ، وعساك تبدل للناس ما جمعت من الأوساخ كلها العلل والرفعة في الدنيا ، وعساك ترضى المخوفين مسخاطة تعالى كما تكرم وتعتظم . ويحك ! فكأن احتقار الله تعالى لك في القيامة أهون عليك من احتقار الناس إياك ، وعساك تخفى من المخوفين مساويلك ولا تكترث بإطلاع الله عليك فيها فكأن الفضيحة عند الله أهون عليك من الفضيحة عند الناس ، فكأن المييد أعلى عندك قدراً من الله ، تعالى الله عن جهلك ! فكيف تطعن عند ذوى الآلاب زهده للثالب فيك ؟ أف لك ! متلوثاً بالأنذار وتحتج بمال الأبرار ؟ هيئات هيئات ما أبعدك عن السلف الأخيار ، والله لقد بلغني أنهم كانوا فيما أحل لهم أزهّد منكم فيما حرم عليكم ، إن الذى لا بأس به عندهم كان من الموبقات عندهم ، وكلاهما للزلة الصغيرة أشد استعظاماً منكم لكبار المعاصي ، فليت أطيب مالك وأحله مثل شبهات أموالهم ؟ وليتك أشغقت من سيئاتك كما أشغقت على حسناتهم أن لا تقبل ؟ ليت صومك على مثال إفطارهم ؟ وليت اجتهدك في العبادة مثل فتورهم ونومهم ؟ وليت جميع حسناتك مثل واحدة من سيئاتهم . وقد بلغني عن بعض الصحابة أنه قال : غنيمة الصديقين ما فاتهم من الدنيا ونهبتهم ما زوى عنهم منها ، فمن لم يكن كذلك فليس معهم في الدنيا ولا معهم في الآخرة ، فسيحان الله ! كم بين الفريقين من التفاوت ؟ فريق خيار الصحابة في الدلو عند الله وفريق أمثالكم في السفالة ، أو يفتو الله الكريم بفضله .

ويعد : فإنك إن زعمت أنك متأس بالصحابة بجمع المال للتعفف والبذل في سبيل الله فتدبر أمرك ، ويحك هل تجد من الحلال في دهرك كما وجدوا في دهرهم ؟ أو تحسب أنك محتاط في طلب الحلال كما احتاطوا ، لقد بلغني أن بعض الصحابة قال : كنا ندفع سبعين باباً من الحلال مخافة أن تقع في باب من الحرام ، أفتطمع من نفسك في مثل هذا الاحتياط ؟ لا ورب الكعبة ما أحسبك كذلك ! ويحك ! كن على يقين أن جمع المال لأعمال البر مكر من الشيطان ليوقعك بسبب البر في اكتساب الشبهات المزوجة بالسحت والحرام ، وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من اجتأ على الشبهات أوشك أن يقع في الحرام <sup>(٢)</sup> » أيها المخروور ، أما علمت أن خوفك من اقتحام الشبهات أعلى وأفضل وأعظم لقدرك عند الله من اكتساب الشبهات ، وبذلها في سبيل الله وسبيل البر ؟ بلغنا ذلك عن بعض أهل العلم قال : لأن تدع درهما واحداً مخافة أن لا يكون حلالاً خير لك من أن تصدق بألف دينار من شبهة لا تدرى

(١) حديث « من أحب الدنيا وسرها ذهب خوف الآخرة من قلبه » لم أجده إلا بإضافة لسان ابن أسد الهامسي كما ذكره المصنف عنه (٢) حديث « من اجتأ على الشبهات أوشك أن يقع في الحرام » يعلق عليه من حديث الثمان بن بشير نحوه وقد تقدم في كتاب الحلال والحرام أول الحديث .

أجل لك أم لا ؟ فإن زعمت أنك أتقى وأورخ من أن تتلبس بالشبهات وإنما تجمع المال برحلك من الحلال للبذل في سبيل الله ! ويحك ! إن كنت كما زعمت بالنفا في الورع فلا تترصص للحساب ، فإن خيار الصحابة خافوا المسألة ، وبلغنا أن بعض الصحابة قال : ما سرت أن أكتسب كل يوم ألف دينار من حلال وأنفقها في طاعة الله ولم يشغلني الكسب عن صلاة الجمعة ، قالوا : ولم ذاك رحلك الله ؟ قال : لاني غني عن تمام يوم القيامة فيقول عبدي من أين اكتسبت وفي أي شيء أنفقت ؟ فهو لاء المتقون كانوا في جذة الإسلام والحلال موجود لديهم ، تركوا المال وجلا من الحساب مخافة أن لا يقيم خير المال بشره ، وأنت بقاية الأمن والحلال في دمرك مفقود ، تتكالب على الأوساخ ثم تزعم أنك تجمع المال من الحلال ، ويحك ! أين الحلال فتجمعه

وبعد : فلو كان الحلال موجودا لديك أما تخاف أن يتغير عند النفي قلبك ، وقد بلغنا أن بعض الصحابة كان يرث المال الحلال فيتركه مخافة أن يفسد قلبه ؟ أقتطع أن يكون قلبك أتقى من قلوب الصحابة فلا يزول عن شيء من الخلق في أمرك وأحوالك ؟ لن غلظت ذلك لقد أحسنت الظن بنفسك الأمانة بالسوء ، ويحك ! إني لك ناصح أرى لك أن تقتنع بالبلغة ولا تجمع المال لأعمال البر ولا تتعرض للحساب ، فإنه بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : من نوقس الحساب عذب <sup>(١)</sup> ، وقال عليه السلام « يؤذى رجل يوم القيامة وقد جمع مالا من حرام وأنفق في حرام فيقال اذهبوا به إلى النار ، ويؤذى رجل قد جمع مالا من حلال وأنفق في حرام فيقال اذهبوا به إلى النار ، ويؤذى رجل قد جمع مالا من حرام وأنفق في حلال فيقال اذهبوا به إلى النار ، ويؤذى رجل قد جمع مالا من حلال وأنفق في حلال فيقال له : قف لملك قصرت في طلب هذا بشيء مما فرضت عليك من صلاة لم تسلمها لوقتها ، وفرطت في شيء من ركوعها وسجودها ووضعها فيقول : لا يارب كسبت من حلال وأنفقت في حلال ولم أضيع شيئا فرضت علي ، فيقال : لملك اختلت في هذا المال في شيء من مركب أو ثوب باهيت به فيقول : لا يارب لم أختل ولم أباه في شيء ، فيقال : لملك منمت حق أحد أمرتك أن تعطيه من ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، فيقول : لا يارب كسبت من حلال وأنفقت في حلال ولم أضيع شيئا مما فرضت علي ولم أختل ولم أباه ولم أضيع حق أحد أمرتي أن أعطيه ، قال : فيجىء أولئك فيخاصمونهم فيقولون : يارب أعطيتهم وأغنيته وجعلته بين أظهرنا وأمرته أن يعطينا ، فإن كان أعطاهم وما ضيع من ذلك شيئا من الفرائض ولم يخل في شيء فيقال : قف ، الآن مات شكر كل نعمة أنعمتها عليك من أكلة أو شرية أو لذة فلا يزال يسئل <sup>(٢)</sup> ، ويحك فمن ذا الذي يتعرض لهذه المسألة التي كانت لهذا الرجل الذي تغلب في الحلال وقام بالحقوق كلها وأدى الفرائض بحدودها ، حوسب هذه المحاسبة فكيف ترى يكون حال أمثالك النرق في فتن الدنيا وتغاليطها وشبهاتها وشبهاتها وزينتها ؟ ويحك ، لأجل هذه المسائل يخاف المتقون أن يتلبسوا بالدنيا فرضوا بالكفاف منها وعملوا بأنواع البر من كسب المال ، فلك ويحك بهؤلاء الأخيار أسوة ، فإن أبيت ذلك وزعمت أنك بالغ من الورع والتقوى ، ولم تجمع المال إلا من حلال - برحلك - انتصف والبذل في سبيل الله ، ولم تنفق شيئا من الحلال إلا بحق ، ولم يتغير بسبب المال قلبك عما يجب الله ، ولم تسخط الله في شيء من سرارك وعلايتك ويحك فإن كنت كذلك ، ولست كذلك ، فقد يلجئ لك أن ترضى بالبلغة وتعزل ذوى الأموال إذا وقفوا للسؤال وتسق مع الرعيال الأول في

(١) حديث « من نوقس الحساب عذب » متفق عليه من حديث عائشة وقد هدم (٢) حديث « يؤذى الرجل يوم القيامة وقد جمع مالا من حرام وأنفق في حرام فيقال اذهبوا به إلى النار ... الحديث » بطوله لم ألق له على أصل

زمرة للمصطفى ، لا حبس عليك للسأله والحساب ، فلما سلامة وإما عطب . فإنه بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يدخل صمالك المهاجرين قبل أغنيائهم الجنة بخمسائة عام <sup>(١)</sup> ، وقال عليه السلام : يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم فيأكلون ويتمتعون والآخرون جئاة على ركبهم فيقول قبلكم طلبتي أنتم حكام الناس وملوكهم فأروني ماذا صنعتُم فيما أعطيتكم <sup>(٢)</sup> .

وبلغنا أن بعض أهل العلم قال : ما سرني أن لي حمر النعم ولا أكون في الرعي الأول مع محمد عليه السلام وحزبه . فأقوم فاستيقوا السباق مع الخفيف في زمرة المرسلين عليهم السلام ، وكونوا وجلين من التخلف والانتقطاع عن رسول الله . صلى الله عليه وسلم وجل للثقلين . لقد بلغني أن بعض الصحابة وهو أبو بكر رضى الله عنه عطش فاستقى فأتى بخرية من ماء وعسل فلما ذاقه خفته العبرة ثم بكى وأبكى ، ثم مسح الدموع عن وجهه وذهب ليتكلم فعاد في البكاء ، فلما اكتم البكاء قيل له : أكل هذا من أجل هذه الشرية؟ قال : نعم ، بلغنا أنا ذات يوم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وما معه أحد في البيت غيرى ، فجعل يدفع عن نفسه وهو يقول : إيلك عنى ! فقلت له . فذاك أبى وأمى ما أرى بين يديك أحدا لن تخاطب ؟ فقال : هذه الدنيا تطاولت إلى بعثتها ورأسها فقالت لى . يا محمد خذنى ، فقلت . إيلك عنى ، فقالت . إن تتج منى يا محمد فإنه لا ينجر منى من بعدك ، فأخاف أن تكون هذه قد لحقتنى فتعلمنى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> فأقوم فهؤلاء الأخبار بكوا وجلا أن تقطعهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وشربة من حلال ! ويحك أنت في أنواع من النعم والشهوات من مكاسب السحت والبهات لا تخشى الانتقطاع ؟ أف لك ما أعظم جهلك ! ويحك فإن تحطفت في القيامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم محمد المصطفى لتنتظرن إلى أهوال جرعت منها الملائكة والأنبياء ، ولئن قصرت عن السباق فيطولان عليك الحاقى ، ولئن أردت الكثرة لتصيرن إلى حساب عير ، ولئن لم تتع بالقليل لتصيرن إلى وقوف طويل وصراخ وحويل ولئن رزيت بأحوال المتخلفين لتقطعن عن أصحاب اليمين وعن رسول رب العالمين ولتبهطن عن نعم المتعممين ، ولئن خالفت أحوال الثقلين لتكونن من المحتسبين في أهوال يوم الدين . فتدبر ويحك ما سمعت وبعد . فإن زعمت أنك في مثال خيار السلف ، فأنع بالقليل ، زاهد في الحلال ، بدول لمالك ، مؤثر على نفسك ، لا تخشى الفقر ولا تدخر شيئا لعدك ، مبغض للتكاثر والفنى ، راض بالفقر والبلاء ، فرح بالقلّة والمسكنة ، صرور بالذل والضعفة ، كاره للعلو والرفعة قوى في أمرك . لا يتغير عن الرشد قلبك ، قد حاسبت نفسك في الله ، وحكمت أمورك كلها على ماوافق رضوان الله ولن توقت في المسألة ، ولن يحاسب مثلك من المتقين . وإنما تجمع المال الحلال للذل في سبيل الله ، ويحك أيها المفلوء فتدبر الأمر وأمن النظر ! أما علمت أن ترك الاشتغال بالمال وفراغ القلب للذكر والتذكر والتذكّر والفكر والاعتبار . أسلم للدين وأيسر للحساب وأخف للسأله وأمن من روعات القيامة وأحلل للشباب وأعلى لقدرك عند الله أضعافا . بلغنا عن بعض الصحابة أنه قال . لو أن رجلا في حجره ذخاير يملؤها والآخر يذكر الله لكان

(١) حديث « يدخل صمالك المهاجرين قبل أغنيائهم الجنة بخمسائة عام » أخرجه الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث أبى سعيد بن بظ « فراء » مكان « صمالك » ولها والنسائي في الكبرى من حديث أبى هريرة « يدخل الفقراء الجنة ... الحديث » . وسلم من حديث عبد الله بن عمر « أن فقراء المهاجرين يبقون الأغنياء إلى الجنة بأربعين خريفا » .

(٢) حديث « يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم فيتمتعون ويأكلون ... الحديث . لم أراه أصلا (٣) حديث : أن بعض الصحابة عطش فاستقى فأتى بخرية من ماء وعسل ... الحديث . في دفع الفنى صلى الله عليه وسلم الدنيا عن نفسه وأوله « إيلك عنى ... الحديث » أخرجه البزار والمالك من حديث زيد بن أرقم قال : كنا عند أبى بكر فعدا به رباب فأتى به ماء وعسل ... الحديث . قال الحاكم صحيح الإسناد ، قلت بل ضيف وقد تقدم لى هذا الكتاب .

الذاكر أفضل . وسئل بعض أهل العلم عن الرجل يجمع المال لأعمال البر قال تركه ابى به . وبلغنا أن بعض خيار التابعين سئل عن رجلين ، أحدهما . طلب الدنيا خللا فأصابها ، فوصل بها وجهه وقدم نفسه . وأما الآخر . فإنه جانبها فلم يطلبها ولم يتناولها ، فأيهما أفضل ؟ قال . بيد الله ما بينهما الذى جانبها أفضل كما بين مشارق الأرض ومغاربها . ويحك فهذا الفضل لك بترك الدنيا على من طلبها ، ولك فى العاجل إن تركت الاستقلال بالمال ، وإن ذلك أروح لبدنك وأقل لتعبك وأنعم لميشك وأرضى لبالك وأقل لموملك . فاعذرك فى جمع المال وأنت بترك المال أفضل ممن طلب المال لأعمال البر ؟ نعم وشغلك بذكر الله أفضل من بذل المال فى سبيل الله فاجتمع لك راحة العاجل مع السلامة والفضل فى الآجل .

وبعد . فلو كان فى جمع المال فضل عظيم لوجب عليك فى مكارم الأخلاق أن تنأى بنبيلك إذ هذاك الله به ، وترضى ما اختاره لنفسه من بجانب الدنيا . ويحك ! تدبر ما سمعت وكن على يقين أن السعادة والفوز فى بجانب الدنيا ، فسر مع لواء المصطفى سابقا إلى جنة المأوى . فإنه بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : سادات المؤمنين فى الجنة من إذا نفدى لم يجد عشاء ، وإذا استقرض لم يجد قرصا ، وليس له فضل كسوة إلا ما يوراه ، ولم يقدر على أن يكتسب ما يفتنيه ، يمسى مع ذلك ويصبح راضيا عن ربه ( فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ) <sup>(١)</sup> ، ألا يا أخى متى جمعت هذا المال بدد هذا البیان فإنك مطبل فيما ادعيت أنك للهبر والفضل تجمعه ، لا ! ولكلك خروفا من الفقر تجمعه ، ولقنم والزينة والتسكائر والفخر والعلو والرياء والسمة والتعظيم والتكرمة تجمعه ، ثم زعم أنك لأعمال البر تجمع المال : ويحك راقب الله واستحي من دعواك أيها المغرور . ويحك إن كنت مفتونا بحب المال والدنيا فكأن عقرا أن الفضل والخير فى الرضا بالبلغة وبجانبه الفضول ، نعم وكن عند جمع المال مزريا على نفسك معتقفا بإساءتك وجلال من الحساب ، فذلك أنجى لك وأقرب إلى الفضل من طلب الحصى جمع المال . إخوانى اعلموا أن دهر الصحابة كان الحال فيه موجودا وكانوا مع ذلك من أروع الناس وأزهدهم فى المباح لهم ، ونحن فى دهر الحلال فيه مفقودا ، وكيف لنا من الحلال مبلغ القوت وسر المودة . فأما جمع المال فى دهرنا فأعاذنا الله وإياكم منه .

وبعد : فأين لنا بمن يتقوى الصحابة وورعهم ومثل زهدهم واحتياطهم ؟ وأين لنا مثل ضيائهم وحسن نياتهم ؟ دهينا ورب السماء بأدواء النفوس وأهوائها ، وعن قريب يكون الورد ؛ قياسادة الخنفيين يوم الفشور وحرور طويل لأهل التسكائر والتخاليط ، وقد نصحت لكم إن قبلتم والقابلون لهذا قليل . وبلغنا الله وإياكم فكل خير برحمته آمين . هذا آخر كلامه وفيه كفاية فى إظهار فضل الفقر على النقي ولا مزيد عليه . ويشهد لذلك جميع الأخبار التى أوردناها فى كتاب ذم الدنيا ، وفى كتاب الفقر والزهدي .

ويشهد له أيضاً ما روى عن أبى أمامة الباهلى : أن ثعلبة بن ساطب قال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا ، قال : يا ثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تفيقه . قال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا ، قال : يا ثعلبة أمالك فى أسوء أمارضى أن تكون مثل نبي الله تعالى ؟ أما والذى نفسى بيده لو شئت أن تبير منى الجبال ذهباً وفضة لاسرت . قال : والذى بشكك بالحق نبيا لئن دعوت الله أن يرزقنى مالا لأصطلي كل ذى حق حقه ، ولأنفلق ولأنفلق ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم ارزق ثعلبة مالا ، فأنفذ غنما فتمت كما ينمو اللود ، فضاقت

(١) حديث « سادات المؤمنين فى الجنة من إذا نفدى لم يجد عشاء ... الحديث » عزاه صاحب مسند الترمذى الطبراني من رواية أبى حازم عن أبى هريرة عن أنس بن مالك عن سادة الفقهاء فى الجنة ... الحديث » ولم أره فى معارج الطبراني .

عليه المدينة فتشقى عنها فتزل واديا من أوديتها ، حتى جعل يصلى الظهر والعصر في الجماعة ويدع ماسواهما ، ثم تمت وكثرت فتشقى حتى ترك الجماعة إلا الجمعة ، وهي تموكا ينمو اللود حتى ترك الجمعة ، وطلق يلقى الركبان يوم الجمعة فيسأله عن الأخبار في المدينة ، وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه فقال : ما فعل ثعلبة بن ساطب ؟ فقيل : يا رسول الله اتخذ غناضاقت عليه المدينة ؛ وأخبر بأمره كله ، فقال : يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة قال وأزول الله تعالى ( خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم ) وأزول الله تعالى الفرائض الصدقة ، فبعت رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من جهينة ورجلا من بني سليم على الصدقة ، وكتب لهما كتابا بأخذ الصدقة وأمرهما أن يخرجيا فيأخذنا من المسلمين ؛ وقال : مرا بثعلبة بن ساطب وبفلان - رجل من بني سليم - وخذا صدقاتهما ؛ فخرجيا حتى أتيا ثعلبة ، فسألاه الصدقة وأقرأه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما هذه إلا جزية ما هذه إلا جزية الجزية انطلقا حتى تفرغا ثم تعودا إلى قانطلقا نحو السليمي فسمع بهما فقام إلى خيار أسنان إليه فمز لها للصدقة ، ثم استقبلهما بها ؛ فلما رأوها قالوا : لا يجب عليك ذلك وما نريد نأخذ هذا منك ، قال بل خذوها ، فلما فرغا من صدقاتهما رجعا حتى مرا بثعلبة فسألاه الصدقة فقال : أروني كتابك ، فظفر فيه فقال : هذه أخت الجزية انطلقا حتى أتيا النبي صلى الله عليه وسلم فلما رأهما قال يا ويح ثعلبة ، قبل أن يكلماه ودعا السليمي فأخبراه بالذي صنع ثعلبة وبالأذى صنع السليمي فأزول الله تعالى ثعلبة ( ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين ، فلما آتاهم من فضله بخلافه وتولوا وهم معرضون ، فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ) وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من أقارب ثعلبة ، فسمع ما أنزل الله فيه ، فخرج حتى أتى ثعلبة فقال : لآم لك يا ثعلبة ! قد أنزل الله عليك كذا ؛ فخرج ثعلبة حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله أن يقبل منه صدقته فقال : إن الله مني أن أقبل منك صدقتك ، فجعل يحشو التراب على رأسه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا عليك أمرتك فلم تطعني ، فلما أتى أن يقبل منه شيئا رجع إلى منزله ، فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء بها إلى أبي بكر الصديق رضى الله عنه فأتى أن يقبلها منه ، وجاء بها إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأتى أن يقبلها منه ، وتوفي ثعلبة بعد في خلافة عثمان (١) فهذا طغيان المال وشؤمه وقد عرفته من هذا الحديث ، ولأجل بركة الفقر وشؤم التقى أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم الفقر لنفسه ولأهل بيته ، حتى روى عن عمران بن حصين رضى الله عنه أنه قال : كانت لي من رسول الله منزلة وجاءه فقال : يا عمران إن لك عندنا منزلة وجاءها فهل لك في عيادة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقلت : نعم ، باني أنت وأمي يا رسول الله ، فقام وقت معه حتى وقفت بباب منزل فاطمة فقرع الباب وقال : السلام عليكم أدخل ؟ فقالت : ادخل يا رسول الله قال أنا ومن معي ؟ ، قالت ومن معك يا رسول الله ؟ فقال عمران بن حصين : فقال : والذي بينك بالحق نبي ما على إلا عيادة ؛ فقال : اصنعي بها هكذا وهكذا ، وأشار بيده ، فقالت : هذا جسدي فقد واريته ، فكيف برأى ؟ قالت : أليها ملادة كانت عليه خلقة فقال : شدى بها على رأسك ، ثم أذنت له فدخل ، فقال : السلام عليك يا بنتاه كيف أصبحت ؟ ، قالت : أصبحت والله وجعة وزادني وجعا على ما أتى لست أقدر على طعام آكله ، فقد أجهض الجنوع ، فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : لا تجزعى يا بنتاه فوالله ما ذقت طعاما منذ ثلاثة ، وإنى لأكرم الله منك ولو سألت ربى لأطعمنى ، ولكنى أثرت الآخرة على الدنيا

(١) حديث أبي أمامة : أن ثعلبة بن ساطب قال يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالا قال : يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيعه ... الحديث بطله . أخرجه الطبراني بسند ضعيف .



ثم ضرب بيده على منكبها وقال لها : أبشري فوالله إنك لسيدة نساء أهل الجنة ، فقالت : فأين آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران ؟ فقال : آسية سيدة نساء عالمها ، ومريم سيدة نساء عالمها ، وخديجة سيدة نساء عالمها ، وأنت سيدة نساء عالمك ، إنكن في بيوت من قصب لا أذى فيها ولا صخب . ثم قال لها : اقضى بأبن عكف فوالله لقد زوجتك سيدا في الدنيا سيدا في الآخرة <sup>(١)</sup> ، فانظر الآن إلى حال طاطمة رضى الله عنها وهى بضعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف أثرت الفقر وتركت المال . ومن راقب أحوال الأنبياء والأولياء وأفوالهم وما ورد من أخبارهم وآثارهم ، لم يشك في أن فقد المال أفضل من وجوده وإن صرف إلى الخيرات ؛ إذ أقل ما فيه من أداء الحقوق والتوفى من الشبهات والصرف إلى الخيرات اشتغال الملم بإصلاحه وانصرافه عن ذكر الله ، إذ لا ذكر إلا مع الفراغ ، ولا فراغ مع شغل المال .

وقد روى عن جرير عن ليث قال : سمعت رجلا عيسى ابن مريم عليه السلام فقال : أكون مملوك وأصحابك ، فانطلقا فأتتهما إلى شط نهر جلسا يتدبان ومعهما ثلاثة أرغفة ، فأكلا وغيفين وبقى رغيف ثالث ، فقام عيسى عليه السلام إلى النهر فشرب ثم رجع فلم يجد الرغيف ، فقال للرجل : من أخذ الرغيف ؟ فقال : لأدرى ، قال : فانطلق ومعه صاحبه فرأى ظبية ومعهما خشفان لها ، قال : فدعا أحدهما فأأناه ، فدعجه فاشتوى منه فأكل هو وذلك الرجل ، ثم قال للخشف : قم بلذنا فقام فذهب ، فقال للرجل : أسالك بالذى أراك هذه الآية من أخذ الرغيف ؟ فقال : لأدرى ، ثم اتبها إلى وادى ماء ، فأخذ عيسى بيد الرجل فشيا على الماء ، فلما جاوزا قال له أسالك بالذى أراك هذه الآية من أخذ الرغيف ؟ فقال لأدرى ، فأتتهما إلى مغارة جلسا ، فأخذ عيسى عليه السلام يجمع ترابا وكثيبا ثم قال كن ذهبيا يؤذن الله تعالى ، فصار ذهبيا ، فقسمة ثلاثة أثلاث ثم قال لك لى وثلك لك وثلك لى أحد الرغيف ، فقال أما الذى أخذت الرغيف ؟ فقال كله لك ، وفارقه عيسى عليه السلام ، فأتته إليه رجلا في المغارة ومعه المال فأراد أن يأخذه منه ويقتله ، فقال هو بيننا أثلاثا ، فابشوا أحدهم إلى الثرية حتى يشتري لنا طعاما نأكله ، قال فبشوا أحدهم فقال الذى بعت لائى شيء أقسم هؤلاء هذا المال ؟ لكنى أسع في هذا الطعام سمما فأتتهما وأخذ المال وحدى ، قال ففعل ، وقال ذاكك الرجلان لائى شيء نجعل لهذا ثلك المال ؟ ولكن إذا رجع قتلهما واقسمنا المال بيننا ، قال فلما رجع إليهما قتلهما وأكلا الطعام فانا ، فبقي ذلك المال في المغارة وأولئك الثلاثة عنده قتلى ، فزهم عيسى عليه السلام على تلك الحيلة فقال لأصحابه هذه الدنيا فاحذروها .

وحكى أن ذو القرنين أتى على أمة من الأمم ليس بأديهم شيء مما يستمتع به الناس من دنياهم قد احترفوا قبورا ، فإذا أصبحوا تهمدوا تلك القبور وكسروها وصلوا عند ما رعو البقل كما ترعى البهائم ، وقد قيض لهم في ذلك معاش من نبات الأرض ، وأرسل ذو القرنين إلى ملكهم فقال له أجب ذو القرنين ، فقال ما لى إليه حاجة ، فإن كان له حاجة فليأتنى ! فقال ذو القرنين صدق فأقبل إليه ذو القرنين وقال له أرسلت إليك لتأتينى فأيت ، فها أنا قد جئت ، فقال لو كان لى إليك حاجة لايتيك ، فقال له ذو القرنين ما لى أراك على حالة لم أر أحدا من الأمم عليها ؟ قال وما ذاك ؟ قال ليس لكم دنيا ولا شيء أفلا اتخذتم الذهب والفضة فاستمتعتم بها ؟ قالوا إنما كرهناهما

(١) حديث عمران بن حصين : كانت لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاء فقال : فويل لك من عبادة طاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ... الحديث بطوله وفيه : لقد زوجتك سيدا في الدنيا وسيدا في الآخرة ، لم أجده من حديث عمران ، ولأحمد والطبراني من حديث مفضل بن يسار : وضأت التى سلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال : هل لك فى طاطمة نودها ... الحديث ، وفيه : أما ترينى أى زوجتك آدم أى سلى وأكثرهم علما وأعظمهم علما وأسناده صحيح .

لأن أحدا لم يسطع منهما شيئا إلا نالت نفسه ودعته إلى ما هو أفضل منه . فقال ما بالك قد احترقتم قبورا فإذا أصبحتم تماهتتموها فكفستوها وصليتم عندها ؟ قالوا أردنا إذا نظرنا إليها وأملنا الدنيا منعنا قبورنا من الأمل . قال وأراكم لأطعم لكم إلا البقل من الأرض ، أفلا اتخذتم البهائم من الأنعام فاحتلبتموها وركبتموها فاستمتعتم بها ؟ قالوا كرهنا أن نجعل بطوننا قبورا لها وأينا في نبات الأرض بلاغا وإنما يمكن ابن أدنى العيش من الطعام وإينا ماجاوز الخنك من الطعام لم نجد له طعاما كما كان من الطعام ؟ ثم يسط ملك تلك الأرض يده خلف ذى القرنين فتناول جمجمة : فقال : يا ذا القرنين أتدري من هذا ؟ قال : لا ؛ ومن هو ؟ قال : ملك من ملوك الأرض أعطاه الله سلطانا على أهل الأرض ففشم وعظم وعنا ؛ فلما رأى الله سبحانه ذلك منه جسمه بالمرت فصار كالبحر الملقى ؛ وقد أحصى الله عليه عمله حتى يحزبه به في آخرته . ثم تناول جمجمة أخرى بالية فقال : يا ذا القرنين هل تدري من هذا ؟ قال : لأدري ومن هو ؟ قال : هذا ملك ملكه الله بعده ؛ قد كان يرى ما يصنع الذى قبله بالناس من النشم والظلم والتجبر ؛ فتواضع وخضع لله عز وجل وأمر بالعدل في أهل مملكته ؛ فصار كما ترى قد أحصى الله عليه عمله ، حتى يحزبه به في آخرته . ثم أهوى إلى جمجمة ذى القرنين فقال ، وهذه الجمجمة قد كانت كنهين فانظر يا ذا القرنين مآنت صانع ؟ فقال له ذو القرنين : هل لك في صحبتى فأتخذك أعا ووزيرا وشريكا فيما آتاني الله من هذا المال ؟ قال : ما أصلح أنا وأنت في مكان ولا أن نكون جميعا ، قال ذو القرنين : ولم ؟ قال : من أجل أن الناس كلهم لك عذر ولى صديق ، قال : ولم ؟ قال : يمدونك لما في يدك من الملك والمال والدنيا ؛ ولا أجد أحدا يمداني لرفضى لذلك ولما تعدى من الحاجة وقلة الشيء ، قال : فانصرف عنه ذو القرنين متعجبا منه ومتعظا به ، فهذه الحكايات تدل على آفات التي مع ماقتضاه من قبل وبالله التوفيق .

ثم كتاب ذم المال والبخل بحمد الله تعالى وعونه ، ويلي كتاب ذم الجاه والرياء

## كتاب ذم الجاه والرياء

وهو الكتاب الثامن من ربح المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

### بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله علام الغيوب ، المطلع على سرائر القلوب ، المتجاوز عن كبار الذنوب ، العالم بما تجتمه الضمائر من خفايا الغيوب ، البصير بسرائر النيات وخفايا الطويات ، الذى لا يقبل من الأعمال إلا ما كل روفى ، وخلص عن شوائب الرياء والشرك وصفا ، فإنه التفرد بالملكوت ، فهو أغنى الأغنياء عن الشرك . والصلاة والسلام على محمد وآله وأصحابه المرعفين من الحياة والإفك ، وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد ؛ فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أخوف ما أعاف على أمى الرياء والشهوة الخفية التى أخفى من ديب النمة السوداء على الصخرة الصماء فى البلية الظلمات »<sup>(١)</sup> ، ولذلك عجز عن الوقوف على غوائلها مفسرة

### كتاب ذم الجاه والرياء

(١) حديث « إن أخوف ما أعاف على أمى الرياء والشهوة الخفية » أخرجه ابن ماجه والحاكم من حديث شداد بن أوس و « البرك » بدل « الرياء » وفسره بالرياء قال الحاكم صحيح الإسناد ، قلت بلى شفيه وهو عند ابن المبارك فى الزهد ومن طريقه عند البيهقي فى الشعب بلفظ المصنف .

العباد فضلا عن عامة العباد والأتقياء ، وهو من أواخر غوائل النفس وبراطن مكايدها . وإنما يبتلى به العلماء والعباد والمشمرون عن ساق الجدل سلوك سبيل الآخرة ، فإنهم مهما قهروا أنفسهم وجاهدوها وفطموها عن الشهوات وصانوها عن الشهات وحملوها بالقهر على أصناف العبادات عجزت تفرسهم عن الطمع في المصاعى الطاهرة الواقعة على الجوارح ، فطلبت الاستراحة إلى التظاهر بالخير وإظهار العمل والعلم : فوجدت مخلصا من مشقة المجاهدة إلى لذة القبول عند الخلق وفظمهم إليه بعين الوفاق والتعظيم ، فسارعت إلى إظهار الطاعة وتوصلت إلى اطلاع الخلق ولم تنزع بإطلاع الخلق ، وفرحت بحمد الناس ولم تقتنع بحمد الله وحده ، وعلت أنهم إذا عرفوا تركه الشهوات وتوقية الشهات وتحمله مشاق العبادات أطلقوا السبهم بالمدح والتناء . وبالتوا في التكريظ والإطراء ونظروا إليه بعين التقدير والاحترام وبركوا بمشاهدته ولقائه ورغبوا في بركة خطاه ، وحرصوا على اتباع رأيه وفاقوه بالخدمة والسلام ، وأكرموا في المحافل غاية الإكرام ، وسامحوا في البيع والمعاملات ، وقدموه في المجالس وآثروهم بالمطاعم والملابس ، وتصارفوا له متراضين واتفادوا له في أغراضه موقرين ، فأصابته النفس في ذلك لذة هي أعظم اللذات وشهوة هي أغلب الشهوات ، فاستحقرت فيه ترك المصاعى والهفوات واستلانت خشونة المواظبة على العبادات لإدراكها في الباطن لذة اللذات وشهوة الشهوات ، فهو يظن أن حياته بالله وبيادته المرضية ، وإنما حياته بهذه الشهوة الخفية التي تسمى عن دركها العقول النافذة القوية ، ويرى أنه خلص في طاعة الله ويمتنع لحارم الله ، والنفس قد أبسطت هذه الشهوة زينا للعباد وتضمننا للخلق وفرحا بما نالت من المنة والوقار ، وأحبطت بذلك ثواب الطاعات وأجور الأعمال ، وقد أثبتت اسمه في جريدة المنافقين وهو يظن أنه عند الله من المقربين . وهذه مكيدة للنفس لا يسلم منها إلا الصديقون ، ومهواة لا يرق منها إلا اللقزيون ، ولذلك قيل : آخر ما يخرج من رموس الصديقين حب الرياسة .

وإذا كان الرياء هو النداء الدفين الذي هو أعظم شبكة للشياطين ، وجب شرح القول في سببه وحقيقته ودرجاته وأقسامه وطرق معالجته والحذر منه ، ويتضح الغرض منه في ترتيب الكتاب على شطرين ؛ الشطر الأول : في حب الجاه والشهرة ، وفيه بيان ذم الشهرة وبيان فضيلة الخمول ، وبيان ذم الجاه ، وبيان معنى الجاه وحقيقته ، وبيان السبب في كونه محبوبا أشد من حب المال ، وبيان أن الجاه كمال وهمي وليس بكمال حقيقي ، وبيان ما يحمد من حب الجاه وما يذم ، وبيان السبب في حب المدح والتناء وكراهية الذم . وبيان العلاج في حب الجاه وبيان علاج حب المدح ، وبيان علاج كراهية الذم ، وبيان اختلاف أحوال الناس في المدح والذم . فهي اثنا عشر فصلا منها تنشأ معاني الرياء ، فلا بد من تقديمها والله الموفق للصواب بلطفه ومنه وكرمه .

### بيان ذم الشهرة وانتشار الصيت

اعلم أصلحك الله أن أصل الجاه هو انتشار الصيت والاشتهار وهو مذموم ، بل المحمود الخمول إلا من شهره الله تعالى لنشر دينه من غير تكلف طلب الشهرة منه . قال أنس رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حسب امرئ من الشر أن يشر الناس إليه بالأصابع في دينه ودنياه إلا من عصمه الله »<sup>(١)</sup> ، وقال جابر بن عبد الله : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بحسب المرء من الشر إلا من عصمه الله من سوء أن يشر الناس إليه

(١) حديث أنس . حسب امرئ من الشر إلا من عصمه أن يشر الناس إليه بالأصابع في دينه ودنياه ، أخرجه البيهقي في الشعب بسند ضعيف .

بالأصابع في دينه ودينه . إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم<sup>(١)</sup> . ولكن ذكر الحسن رحمه الله الحديث تأويلاً ، ولا بأس به ، إذ روى هذا الحديث قليل له : يا أبا سعيد إن الناس إذا أثاروا إليك بالأصابع ، فقال : إنه لم يكن هذا وإنما حتى به المتبذع في دينه والفاسق في دينه والله على كرم الله وجهه : تبذل ولا تشهر ولا ترفع شخصك تذكر ، وتعلم واكرم ، وصمت تسلم ، نسر الأبرار وتنبذ الفجار . وقال إبراهيم ابن آدم رحمه الله : ماصدق الله من أحب الشهرة . وقال أيوب السخيتي : والله ماصدق الله عبد إلا سره أن لا يشهر بمكانه . وعن خالد بن معدان . أنه كان إذا كثرت حلقته قام غفافة الشهرة . وعن أبي العالقة . أنه كان إذا جلس إليه أكثر من ثلاثة قام . ورأى طلحة قوماً يمشون معه نحواً من عشرة ، فقال : ذباب طمع وفراس نار . وقال سلم بن حفظة : بينما نحن حول أبي بن كعب نمشي خلفه إذ رآه عمر فعلاه بالذرة . فقال انظر يا أمير المؤمنين ما نضع ؟ فقال : إن هذه ذلة للتابع وقتنة للمتبوع . وعن الحسن قال : خرج ابن مسعود يوماً من منزله فاتبعه ناس فالتفت إليهم فقال : علام تلبسون فوالله لو تلبسون ما أغلق عليه بابي ما اتبعني منكم رجلاً ؟ وقال الحسن : إن خفق الثمال حول الرجال فلما تلبت عليه قلوب الحق . وخرج الحسن ذات يوم فاتبعه قوم فقال : هل لكم من حاجة ؟ وإلا عسى أن يبق هذا من قلب المؤمن . وروى أن رجلاً صاحب ابن محيريز في سفر فلما فارقته قال : أوصني ، فقال : إن استطعت أن تعرف ولا تعرف وتمشي ولا يمشي إليك وتسال ولا تسأل فاعمل . وخرج أيوب في سفر فسيحه ناس كثير فقال : لولا أني أعلم أن الله يعلم من قلبي أني لهذا كاره لحشيت المقت من الله عز وجل . وقال معمر : عاتب أيوب على طول قيضه فقال . إن الشهرة فيما معنى كانت في طوله وهي اليوم في تشميره . وقال بعضهم : كنت مع أبي قتادة إذ دخل عليه رجل عليه أكسية فقال : إياكم وهذا الحمار الناقع ! يشير به إلى طلب الشهرة . وقال الثوري : كانوا يكرهون الشهرة من الثياب الجيدة والثياب الرديئة إذ الألبار تمتد إليهما جميعاً . وقال رجل لبشر بن الحارث . أوصني ، فقال أنخل ذكرك وطيب مطعمك . وكان حوشب يبيكي ويقول : بلغ اسمي مسجد الجامع . وقال بشر : ما أعرف رجلاً أحب أن يعرف إلا ذهب دينه واقتضض . وقال أيضاً : لا يحد حلاوة الآخرة رجل يحب أن يعرفه الناس . رحمه الله عليه وعليهم أجمعين ،

### بيان فضيلة الخول

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رب أشمت أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره<sup>(٢)</sup> » منهم البراء بن مالك ، وقال ابن مسعود : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « رب ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره لو قال اللهم إني أسألك الجنة لأعطاء الجنة ولم يسطه من الدنيا شيئاً<sup>(٣)</sup> » . وقال صلى الله عليه وسلم : « لا

(١) حديث جابر « بحسب اسمي من الله ... الحديث » مثله وزاد في آخره « لأن الله لا ينظر إلى صوركم ... الحديث » وهو معروف من حديث جابر معروف من حديث أبي هريرة رواه الأوسطوليبيقي في الشعب يستضيف مختصرين على أوله ورواه مسلم مختصراً على الزيادة التي أكثره ، وروى المنبراني والبيهقي في الشعب أوله من حديث عمران بن حصين بلفظ « كل بالره لأسماء ورواه ابن أبي يونس في تاريخ الغرباء » من حديث ابن عمر بلفظ « هلاك بالرجل » وفسر فيه بإبدع ودينه بالفاسق واستادعاضد (٢) حديث « رب أشمت أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة « رب أشمت مدقوق بالأوباب لو أقسم على الله لأبره » و« حاكم » رب أشمت أغبر ذي طمرين تنبو عنه أعين الناس لو أقسم على الله لأبره » وقال صحيح الإسناد ولأبي بصير في الحلية من حديث أنس خفيف « رب ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك » وهو عند الحاكم نحوه بهذه الزيادة وقال صحيح الإسناد قلت بل ضيفه (٣) حديث ابن مسعود « رب ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره لو قال اللهم إني أسألك الجنة لأعطاء الجنة ولم يسطه من الدنيا شيئاً » أخرجه ابن أبي الدنيا ومن طريقه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس يستضيف .

أدلكم على أهل الجنة : كل ضعيف مستضعف لو أتمس على الله لأبره وأهل النار كل متكبر مستكبر جواظ<sup>(١)</sup> ، وقال أبو هريرة : قال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : إن أهل الجنة كل أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه له الدين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذن لهم وإذا خطبوا النساء لم ينكحوا وإذا قالوا لم ينصت لقولهم حوائج أحدهم تتخلل في صدره لو قسم نوره يوم القيامة على الناس لوسعهم ، وقال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : إن من أمي من لو أني أحكم يسأله دينارا لم يعطه إياه ولو سأله درهما لم يعطه إياه ولو سأله فلسا لم يعطه إياه ، ولو سأله الجنة لأعطاه إياها ، ولو سأله الدنيا لم يعطه إياها ، وما منها إياه إلا لخوانها عليه ، رب ذى طمرين لا يؤبه له لو أتمس على الله لأبره<sup>(٢)</sup> ، وروى أن عمر رضى الله عنه دخل المسجد فرأى معاذ بن جبل يبكي عند قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما يبكيك فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن اليسير من الرياء شرك وإن الله يحب الاتقياء الأخفاء الذين إن غابوا لم يشفقوا وإن حضروا لم يعرفوا قلوبهم مصابيح الهدى ينجون من كل غبراء مظلمة<sup>(٣)</sup> ،

وقال محمد بن سويد : فقط أهل المدينة وكان بها رجل صالح لا يؤبه له ملازم لمسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، فبينما هم في دعائهم إذ جاءهم رجل عليه طمران خلقان فصل ركعتين أوجز فيها ثم بسط يده فقال : يارب أقسم عليك إلا أمطرت علينا الساعة ! فلم يرد يديه ولم يقطع دعاءه حتى نثشت السماء بالغيام ، وأمطروا حتى صاح أهل المدينة من غافة الغرق ، فقال : يارب إن كنت تعلم أنهم قد اكتفوا فأرفع عنهم ، وسكن ، وبعث الرجل صاحبه الذي استسقى حتى عرف منزله ، ثم بكر عليه فخرج إليه فقال إني أتيتك في حاجة ؟ فقال ماهي ؟ قال تخشى بدعوة ، قال : سبحان الله ! أنت أنت وتساوى أن أخصك بدعوة ؟ ثم قال ما الذي يملكك ما رأيت ؟ قال : أطعت الله فيما أمرني ونهاني فسألت الله فأعطاني . وقال ابن مسعود : كونوا يتابع العلم مصابيح الهدى ، أحلاس البيوت سرج الليل جدد القلوب خلقان الثياب ، تعرفون في أهل السماء وتخفون في أهل الأرض . وقال أبو أمامة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول الله تعالى . إن أغبط أوليائي عبد مؤمن خفيف الحاذ ذو حظ من صلاة أحسن عبادة ربه وأطاعة في السر كان فاضلا في الناس لا يشار إليه بالأصابع ثم صبر على ذلك ، قال : ثم تقرر رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده فقال : مجلست منيته وقل تراثه وقلت بواكيه<sup>(٤)</sup> ، وقال عبدالله بن عمر رضى الله تعالى عنهما . أحب عباد الله إلى الله الغرباء ، قيل : ومن الغرباء ، قال : الغافلون يدينهم يجتمعون يوم القيامة إلى المسيح عليه السلام . وقال الفضيل بن عياض : يلغى أن الله تعالى يقول في بعض ما بين به على عبده : ألم أنعم عليك ! ألم أسرك ! ألم أدخل ذكرك ! وكان الخليل بن أحمد يقول : اللهم اجعلني صدك من أرفع خلقك ، واجعلني عند نفسي من أضع خلقك ، واجعلني عند الناس من أوسط خلقك . وقال الثوري : وجدت قلبي يصلح بكك والمدينة مع قوم غرباء أصحاب قوت وعناء . وقال إبراهيم بن آدم : ما قرأت هيتي يوما في الدنيا قط إلا مرة ، بت ليلة في بعض مساجد قرى الشام وكان في البطن ، لجرتي للوذن رجل حتى أخرجني من المسجد . وقال الفضيل : إن قدرت على أن لا تعرف ناقلا ،

(١) حديث : ألا أدلكم على أهل الجنة : كل ضعيف مستضعف ... الحديث ، متفق عليه من حديث طرقة بن وهب

(٢) حديث : إن من أمي من لو أني أحكم فسأله دينارا لم يعطه إياه ... الحديث ، أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ثوبان بإسناد صحيح دون قوله « ولو سأله الدنيا لم يعطه إياها وما منها إياه إلا لخوانها عليه » .

(٣) حديث معاذ بن جبل : إن اليسير من الرياء شرك وإن الله يحب الأخفاء .. الحديث ، أخرجه الطبراني والمسلم واللفظ له وقال صحيح الإسناد ، قلت بل ضيفه فيه عيسى بن عبد الرحمن وهو الزرق مذكور (٤) حديث أبي أمامة : إن أغبط أوليائي متدى مؤمن خفيف الحاذ ... الحديث ، أخرجه الترمذي وابن ماجه بإسنادين صحيحين .

وما عليك أن لاتعرف وما عليك أن لايتى عليك وما عليك أن تكون مذموماً عند الناس إذا كنت محمداً عندنا ؟ فهذه الآثار والأخبار تعرفك بمدة الشهرة وفضيلة الخزل . وإنما المطلوب بالشهرة وانتشار الصيت هو الجاه والمترقة في القلوب ، وحب الجاه هو منشأ كل فساد .

فإن قلت : فأى شهرة تريد على شهرة الأنبياء والخلفاء الراشدين وأئمة العلماء ؟ فكيف فانهم فضيلة الخزل ؟ فاعلم أن اللوموم طالب الشهرة ، فأما وجودهما من جهة الله سبحانه من غير تكلف من العبد فليس بمذموم . نعم فيه فتنة على الضعفاء دون الأقوياء ، وهم كالغريق الضعيف إذا كان معه جماعة من الغرقى فالأولى به أن لايعرفه أحد منهم فإنهم يتعلمون به فيضصف عنهم فبهلك معهم ، وأما القوي فالأولى أن يعرفه الغرقى ليتعلموا به فينجيهم ويثاب على ذلك .

### بيان ذم الجاه ومعناه

قال الله تعالى ﴿ تلك النار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ﴾ جمع بين إرادة الفساد والعلو ، وبين أن النار الآخرة للخالق عن الإرادتين جميعاً . وقال عز وجل ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ﴾ وهذا أيضاً متناول بمعومه لحب الجاه فإنه أعظم لذة من لذات الحياة الدنيا وأكثر زينة من زينتها . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حب المال والجاه يلبتان التفاق في القلب كما يثبت الماء البقل <sup>(١)</sup> » ، وقال صلى الله عليه وسلم « ماذبان ضاربان أرسلنا في زريبة غنم بأسرع (فساداً من حب الشرف والمال في دين الرجل المسلم <sup>(٢)</sup> » ، وقال صلى الله عليه وسلم لملى كرم الله وجهه « إنما هلاك الناس باتباع الهوى وحب النساء <sup>(٣)</sup> » ، فسأل الله العفو والعافية بينه وكرمه .

### بيان معنى الجاه وحقيقته

اعلم أن الجاه والمال هما ركنا الدنيا . ومعنى المال ملك الأعيان المتتبع بها ومعنى الجاه ملك القلوب المطلوب تنظيمها وطاعتها . وكما أن النوى هو الذى يملك الدرهم والدينارين ، أى يقدر عليهما ليتوصل بهما إلى الأغراض والمقاصد وقضاء الشهوات وسائر حظوظ النفس ، فكذلك ذو الجاه هو الذى يملك قلوب الناس ، أى يقدر على أن يتصرف فيها ليستعمل بواسطتها أربابها في أغراضه ومآربه . وكما أنه يكتسب الأموال بأنواع من الحرف والصناعات فكذلك يكتسب قلوب الخلق بأنواع من المعاملات ، ولا تصير القلوب مسخرة إلا بالمعارف والاعتقادات ، فكل من اعتقد القلب فيه وصفاً من أوصاف الكمال انقاد له وتسخر له بحسب قوة اعتقاد القلب وبحسب درجة ذلك الكمال عنده ، وليس يشترط أن يكون الوصف كمالاً في نفسه بل يكفي أن يكون كالأعتدود في اعتقاده ، وقد يعتدق ما ليس كالأكالا ، ويدفع قلبه للوصوف به انقياداً ضرورياً بحسب اعتقاده ، فإن انقياد القلب حال للقلب . وأحوال القلوب تابعة لاعتقادات القلوب وعولمها وتخيلاتا ، وكما أن حب المال يطلب ملك الأرقام والميسد

(١) حديث « المال والجاه يلبتان التفاق ... الحديث » تقدم في أول هذا الباب ولم أجده (٢) حديث « ماذبان ضاربان أرسلنا في زريبة غنم ... الحديث » تقدم أيضاً هناك (٣) حديث « إنما هلاك الناس باتباع الهوى وحب النساء » لم أره بهذا اللفظ وقد تقدم في العلم من حديث أسد « ثلاث مهلكات شغل طلاق وهوى متبع ... الحديث » ولأبي منصور البجلي في مستند القرويين من حديث ابن عباس بسند ضعيف « حب النساء من الناس يسمى ويوم »

فطالب الجاه يطلب أن يسرق الأحرار ويستعبدهم ويملك رقابهم بملك قلوبهم ، بل الرق الذي يطلبه صاحب الجاه أعظم ، لأن المالك يملك العبد قهرا والعبد متأب بطبعه ، ولو خلى ورأه انسل عن الطاعة . وصاحب الجاه يطلب الطاعة طوعا ويبنى أن تكون له الأحرار عبيدا بالطبع والطوع ، مع الفرح بالبودية والطاعة له ، فسا يطلبه فوق ما يطلبه مالك الرق بكثير . فإذا معنى الجاه : قيام الغزاة في قلوب الناس ، أي اعتقاد القلوب لئمت من نوت الكمال فيه ، فيقدر ما يعتقدون من كالهتدعن له قلوبهم ، وقدر لإطاع القلوب تكون قدرته على القلوب وبقدر قدرته على القلوب يكون فرحه وحبه للجاه . فهذا هو معنى الجاه وحقيقته وله ثمرات كالمدح والإطراء ، فإن المعتد للكمال لا يسكت عن ذكر ما يعتقد ، فيبنى عليه ، وكالخدمة والإعانة فإنه لا يبتخل بذل نفسه في طاعته بقدر اعتقاده فيكون سخرة له مثل العبد في أغراضه ، وكالإيثار وترك المنازعة والتعظيم والتوقير بالمفاعلة والسلام وتسلم الصدر في الحافل والتقديم في جميع المقاصد ، فهذه آثار تصدر عن قيام الجاه في القلب . ومعنى قيام الجاه في القلب اشتغال القلوب على اعتقاد صفات الكمال في الشخص إما بعلم أو عبادة أو حسن خلق أو نسب أو ولاية أو جمال في صورة أو قوة في بدن أو شيء . مما يعتقد الناس كالا ، فإن هذه الأوصاف كلها تعظم محله في القلوب فتكون سببا لقيام الجاه والله تعالى أعلم .

بيان سبب كون الجاه محبوا بالطبع حتى لا يخلو عنه قلب إلا بشديد المجاهدة

اعلم أن السبب الذي يقتضى كون الذهب والفضة وسائر أنواع الأموال محبوا هو بعينه يقتضى كون الجاه محبوا ، بل يقتضى أن يكون أحب من المال ، كما يقتضى أن يكون الذهب أحب من الفضة مهما تساويا في المقدار ، وهو أنك تعلم أن الدرهم والدينارين لا غرض في أعيانها إذ لا تصلح لمطعم ولا مشرب ولا منسك ولا ملابس ، وإنما هي والحسباء بمثابة واحدة ، ولكنهما محبوان لأنهما وسيلة إلى جميع المحاب وذريعة إلى قضاء الشهوات ، فكذلك الجاه لأن معنى الجاه ملك القلوب ، وكما أن ملك الذهب والفضة يفيد قدرة يتوصل الإنسان بها إلى سائر أغراضه ، فكذلك ملك القلوب من الأحرار والقدرة على استسخارها يفيد قدرة على التوصل إلى جميع الأغراض ، فلاشتراك في السبب اقتضى الاشتراك في المحبة ، وترجيح الجاه على المال اقتضى أن يكون الجاه أحب من المال ، وملك الجاه ترجيح على ملك المال من ثلاثة أوجه .

الأول : أن التوصل بالجاه إلى المال أيسر من التوصل بالمال إلى الجاه ، فالعلم أو الزاهد الذي يتزور له جاه في القلوب لو قصد اكتساب المال ييسر له ، فإن أموال أرباب القلوب مسخرة للقلوب وميدولة لمن اعتقد فيه الكمال ، وأما الرجل الخسيس الذي لا يتصف بصفة كمال إذا وجد كثيرا ولم يكن له جاه يحفظه وأراد أن يتوصل بالمال إلى الجاه لم ييسر له ، فإذا الجاه آلة ووسيلة إلى المال ، فن ملك الجاه فقد ملك المال ، ومن ملك المال لم يملك الجاه بكل حال ، فذلك صار الجاه أحب .

الثاني : هو أن المال معرض للبلوى والتلف بأن يسرق وينصب ويطمع فيه الملوك والظلمة ، ويحتاج فيه إلى الحفظة والحراس والخزائن ، ويشترط إليه أخطار كثيرة ، وأما القلوب إذا ملكك فلا تتمتع لهذه الآفات فهي على التحقيق خزائن عتيقة ، لا يقدر عليها السراق ولا تقاومها أيدي النهاب والنصب ، وأنها لأموال العذار ولا يؤمن فيه النصب والظلم ولا يستغنى عن المراقبة والحفظ ، وأما خزائن القلوب فهي محفوظة محروسة بأنفسها ، والجاه في أمن وأمان من النصب والسرقة فيها . نعم إنما نصب القلوب بالتصريف وتقيح الحال وتغيير الاعتقادات في صدق به من أوصاف الكمال ، وذلك مما يهون دفعه ولا ييسر على محاوله فله .

الثالث : أن ملكة القلوب يسرى وينمى ويتزايد من غير حاجة إلى تعب ومقاساة ، فإن القلوب إذا أذعن شخص واعتقدت كاله بلم أو عمل أو غيره أنصحت الألسنة لا بحالة بما فيها ، فيصف ما يقتضيه لغيره ويقتضى ذلك القلب أيضاً له ، ولهذا المعنى يحب الطبع الصيت وانتشار الذكر . لأن ذلك إذا استطار في الأفطار اقتضى القلوب ودعاهما إلى الإذعان والتفظيم ، فلا يزال يسرى من واحد إلى واحد ويتزايد وليس له مردّ معين ، وأما المال فمن ملكه منه شيئاً فهو مالكه ولا يقدر على استنائه إلا بتعب ومقاساة ، والجاه أبداً في الفناء بنفسه ولا مرد لموقعه والمال واقف ، ولهذا إذا عظم الجاه وانفجر الصيت وانطلقت الألسنة بالنه استحقرت الأموال في مقابلته ، فهذه مجامع ترجيحات الجاه على المال . وإذا فصلت كثرت وجوه الترجيح .

فإن قلت فالإشكال قائم في المال والجاه جميعاً فلا ينبغي أن يحب الإنسان المال والجاه . نعم القدر الذي يتوصل به إلى جلب الملاذ ودفع المضار معلوم ، كالاحتياج إلى اللبس والسكن والمطعم أو كالميل إلى مرض أو بمقوبة إذا كان لا يتوصل إلى دفع العقوبة عن نفسه إلا بمال أو جاه ، فله المال والجاه معلوم ، إذ كل مالا يتوصل إلى المحبوب إلا به فهو محبوب ، وفي الطباع أمر عجيب وراء هذا وهو حب جمع الأموال وكثر الكونز وادخار الذخائر واستتار الخزائن وراء جميع الحاجات ، حتى لو كان للعبد وادبان من ذهب لا يتنى لها ثالثاً ، وكذلك يحب الإنسان اتساع الجاه وانتشار الصيت إلى أقصى البلاد التي يعلم قطعاً أنه لا يظفوها ولا يشاهد أصحابها ، ليعظمه أو ليعبره بمال أو ليعبره على غرض من أغراضه ؛ ومع اليأس من ذلك فإنه يلتذ به غاية الالتذاد وحب ذلك ثابت في الطبع ، ويكاد يظن أن ذلك جل فإنه حب لما لا فائدة فيه لا في الدنيا ولا في الآخرة ؟ فنقول : نعم هذا الحب لا تنفك عنه القلوب . وله سببان ؟ أحدهما : جاني تدركه الكافة . والآخر : خفي وهو أعظم السببين ولكنه أدهما وأخفاهما وأبدهما عن أفهام الأذكياء فضلاً عن الأغبياء ، وذلك لاستمداده من عرق خفي في النفس وطبيعة مستكنة في الطبع لا يكاد ينف طبعها إلا الفواصون .

فأما السبب الأول : فهو دفع ألم الخوف ، لأن الشفيق بسوء الظن مولع ، والإنسان وإن كان مكفياً في الحال فإنه طويل الأمل ويعتظر بياحه أن المال الذي فيه كفايته ربما يتلف فيحتاج إلى غيره ، فإذا خطر ذلك بياحه حاج الخوف من قلبه ولا يدفع ألم الخوف إلا الأمن الحاصل بوجود مال آخر يفزع إليه إن أصابت هذا المثل جاحضة ، فهو أبداً لشفقته على نفسه وحبه للحياة يقتر طول الحياة ؛ ويقدر هجوم الحاجات ؛ ويقدر إمكان طرق الآفات إلى الأموال ، ويستمر الخوف من ذلك فيطلب ما يدفع خوفه وهو كثرة المال ، حتى إن أصيب بطائفة من ماله استغنى بالآخر ، وهذا خوف لا يوقف له على مقدار مخصوص من المال ، فذلك لم يكن مثله موقف إلى أن يملك جميع مافي الدنيا ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « منومان لا يشبعان منوم العلم ومنوم المال » (١) . ومثل هذه اللفة تطرد في حبه قيام المذلة والجاه في قلوب الأباعد عن وطنه وبلده ، فإنه لا يتخلو عن تقدير سبب ربحه عن الوطن أو يزعج أولئك عن أوطانهم إلى وطنه ، ويحتاج إلى الاستماعة بهم ؛ ومهما كان ذلك ممكناً ولم يكن احتياجه إليهم مستحيلاً لإحالة ظاهرة كان للنفس فرح ولادة بقيام الجاه في قلوبهم لمسا فيه من الأمن من هذا الخوف .

(١) حديث « منومان لا يشبعان ... الحديث » أخرجه الطبراني من حديث ابن مسعود بسند ضعيف والبراء والطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس بسند ابن وهب وهم



وأما السبب الثاني وهو الأقوى : لأن الروح أمر رباني ، به وصفه الله تعالى إذ قال سبحانه ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ﴾ أو معنى كونه ربانياً أنه من أسرار علوم المكاشفة ولا رخصة في إظهاره إذا لم يظهره رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> ولكذلك قبل معرفة ذلك تعلم أن القلب ميل إلى صفات هجمية كالآكل والوقاع ، وإلى صفات سلبية كالقتل والضرب والإيذاء ؛ وإلى صفات شيطانية كالسكر والحديعة والإغواء ، وإلى صفات ربوبية كالعبر والتعجب وطلب الاستعلاء ، وذلك لأنه مركب من أصول مختلفة يطول شرحها وتفصيلها ، فهو لما فيه من الأمر الرباني يجب الربوبية بالطبع ، ومعنى الربوبية التوحد بالكمال والتفرد بالوجود على سبيل الاستقلال . فصار الكمال من صفات الإلهية فصار محبوباً بالطبع للإنسان ، والكمال بالتفرد بالوجود فإن المشاركة في الوجود نقص لآعالة ، فكمال الشمس في أنها موجودة وحدها ، فلو كان معها شمس أخرى لكان ذلك نقصاً في حقها ، إذ لم تكن منفردة بكمال معنى الشمسية ، وللتفرد بالوجود هو الله تعالى إذ ليس معه موجود سواء ، فإن ماسواه أثر من آثار قدرته لا قوام له بذاته ، بل هو قائم به ، فلم يكن موجوداً معه لأن للمعية توجب المساواة في الرتبة ، والمساواة في الرتبة نقصان في الكمال ، بل الكامل من لا نظير له في رتبته . وكما أن إشراق نور الشمس في أقطار الآفاق ليس نقصاناً في الشمس بل هو من جملة كمالها ، وإنما نقصان الشمس بوجود شمس أخرى تساويها في الرتبة مع الاستغناء عنها ، فكذلك وجود كل مافي العالم يرجع إلى إشراق أنوار القدرة فيكون تابها ولا يكون متبهاً فإذن معنى الربوبية التفرد بالوجود وهو الكمال . وكل إنسان فإنه بطبعه محب لأن يكون هو المنفرد بالكمال ، ولذلك قال بعض مشايخ الصوفية : مامن إنسان إلا وفي باطنه ماصرح به فرعون من قوله ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ ولكنه ليس بمجد له بجلا وهو كما قال ، فإن العبودية فخر على النفس . والربوبية محبة بالطبع وذلك للنسبة الربانية التي أوما إليها قوله تعالى ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾ ولكن لما مجزت النفس عن ذلك انتهى الكمال لم تسقط شهورتها للكمال ، فهي عبة للكمال ومشتبهة له وملتبذة له لمخفى آخر وراء الكمال ، وكما موجود فهو محب لذاته ولكمال ذاته ؛ ومبغض لفلهاك الذي هو عدم ذاته أو عدم صفات الكمال من ذاته . وأما الكمال بعد أن يسلم التفرد بالوجود في الاستيلاء على كل الموجودات ؛ فلأن كل الكمال أن يكون وجود غيرك منك فان لم يكن منك فان تكون مستولياً عليه ، فصار الاستيلاء على الكل محبوباً بالطبع ، لأنه نوع كمال . وكل موجود يعرف ذاته فانه يحب ذاته ويجب كمال ذاته ويلتذ به ، إلا أن الاستيلاء على الشيء بالقدرة على التأثير فيه ، وعلى تغييره بحسب الإرادة وكونه مسخر لك تردده كيف تشاء ، فأحب الإنسان أن يكون له استيلاء على كل الأشياء الموجودة معه . إلا أن الموجودات منقسمة إلى ما لا يقبل التغيير في نفسه كذات الله تعالى وصفاته . وإلى ما يقبل التغيير ولكن لا يستولى عليه قدرة الخلق ، كالأملاك والكواكب ومساكن السموات ونفوس الملائكة والجن والشياطين ؛ وكالجمال والبحار . وإلى ما يقبل التغيير بقدرة العبد كالارض وأجزائها وما عليها من المعادن والنبات والحيوان ومن جعلها قلوب الناس ، فانها قابلة للتأثير والتغيير مثل أجسادهم وأجساد الحيوانات .

فلذا انقسمت الموجودات إلى ما يقدر الإنسان على التصرف فيه كالأرضيات ، وإلى ما لا يقدر عليه كذات الله تعالى والملائكة والسموات ، أحب الإنسان أن يستولى على السموات بالعلم والإحاطة والاطلاع على أسرارها فإن ذلك نوع استيلاء ؛ إذ المعلوم المحاط به كالدخل تحت العلم ، والعالم المستولى عليه ، فذلك أحب أن يعرف

(١) حديث : أنه صلى الله عليه وسلم لم يظهر سر الروح أخرجه البخاري من حديث ابن مسعود وقد تقدم .

الله تعالى واللائكة والأفلاك والكواكب ، وجميع عجائب السموات ، وجميع عجائب البحار والجبال وغيرها لأن ذلك نوع استيلاء عليها ، والاستيلاء نوع كال . وهذا يضاهي اشتياق من عجز عن صنعة عجيبة إلى معرفة طريق الصنعة فيها ، كمن يعجز عن وضع الشطرنج ، فإنه قد يشتهي أن يعرف اللب به وأنه كيف وضع ؟ وكن يرى صنعة عجيبة في الهندسة أو الشيعة أو جزئ الثقيل أو غيره وهو مستشعر في نفسه بعض العجز والقصور عنه ولكنه يشأق إلى معرفة كيفية فهو متألم ببعض العجز متلذذ بكمال العلم إن علمه .

وأما القسم الثاني : وهو الأرضيات التي يقدر الإنسان عليها ، فإنه يحب بالطبع أن يستولى عليها بالقدره على التصرف فيها كيف يريد وهي فسيان : أجساد وأرواح

( أما الأجساد ) فهي الدرهم والدنانير والأمتعة فيجب أن يكون قادرا عليها يفعل فيها ما شاءه من الرفع والوضع والتسليم والمنع ، فإن ذلك قدرة والقدره كال ، والكمال من صفات الربوبية ، والربوبية محبوبة بالطبع ، فذلك أحب الأمور وإن كان لا يحتاج إليها في ملبسه ومطعمه وفي شهوات نفسه ، وبذلك طلب استرقاق العبيد واستعباد الأشخاص الأحرار ولو بالقهر والنبله حتى يتصرف في أجسادهم وأشخاصهم بالاستسخار ، وإن لم يملك قلوبهم ، فإنها ربما لم تمتد كاله حتى يصير محبوا لها ويقوم القهر منزله فيها ، فإن الحشمة القهرية أيضا لذيدة لما فيها من القدرة .

( القسم الثاني ) نفوس الآدميين وقلوبهم وهي أنفس ماعلى وجه الأرض ، فهو يحب أن يكون له استيلاء وقدرة عليها لتكون مسخرة له متصرفه تحت إشارته وإرادته لما فيه من كمال الاستيلاء والتشبه بصفات الربوبية ، والقلوب إنما تسخر بالحب ولا يحب إلا باعتقاد الكمال ، فإن كل كمال محبوب لأن الكمال من الصفات الإلهية والصفات الإلهية كلها محبوبة بالطبع للمعنى الرباني من جملة معاني الإنسان ، وهو الذي لا يليه الموت فيقدمه ولا يتسلط عليه القربا فيأكله ، فإنه محل الإيمان والمرقة وهو الواصل إلى لقاء الله تعالى والساعى إليه فإذا منى الجاه تسخير القلوب ، ومن تسخرت له القلوب كانت له قدرة واستيلاء عليها ، والقدرة والاستيلاء كال وهو من أوصاف الربوبية . فإذا عيوب القلب بطبعمه الكمال بالعلم والقدرة ، والمال والجاه من أسباب القدرة ، ولا نهاية للمعلومات ولا نهاية للمقدورات ، وما دام بقي معلوم ، أو مقدور فالشوق لا يسكن والقصور لا يزول . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : منهومان لا يشبعان ، فإذا مطلوب القلوب الكمال ، والكمال بالعلم والقدرة وتفاوت الدرجات فيه غير محصور ، فسرور كل إنسان ولذته بقدر ما يدركه من الكمال ، فهذا هو السبب في كون العلم والمال والجاه محبوسا ، وهو أمر وراه كونه محبوسا لأجل التوصل إلى قضاء الشهوات فإن هذه العلة قد تبق مع سقوط الشهوات ، بل يجب الإنسان من المعلوم مالا يصاح للتوصل به إلى الأغراض ، بل ربما يفوت عليه جملة من الأغراض والشهوات ، ولكن الطبع يتقاضى طلب العلم في جميع العجائب والمشكلات ، لأن في العلم استيلاء على المعلوم وهو نوع من الكمال الذي هو من صفات الربوبية فكان محبوسا بالطبع ، إلا أن في حب كمال العلم والقدرة أغاليط لا بد من بيانها إن شاء الله تعالى .

### بيان الكمال الحقيقي والكمال الوهمي الذي لاحقيقة له

قد عرفت أنه لا كمال بعد فوات التفرد بالوجود إلا في العلم والقدرة ، ولكن الكمال الحقيقي فيه متلبس بالكمال الوهمي ، ويانه أن كمال العلم قد تعالى وذلك من ثلاثة أوجه : ( أحدها ) من حيث كثرة المعلومات وسعتها ، فإنه يحيط

بجميع المعلومات ، فذلك كلما كانت علوم العبد أكثر كان أقرب إلى الله تعالى ( الثاني ) من حيث تعلق العلم بالمعلوم على ماهو به ، وكون المعلوم مكتوفاً به كشفاً تاماً ، فإن المعلومات مكتشفة لله تعالى بأتم أنواع الكشف على ما هي عليه ، فذلك مما كان علم العبد أوضح وأيقن وأصدق وأوفق للمعلوم في تفاصيل صفات العلوم كان أقرب إلى الله تعالى ( الثالث ) من حيث بقاء العلم أبد الآباد بحيث لا يتغير ولا يزول ، فإن علم الله تعالى باق لا يتصور أن يتغير ، فكذلك مهما كان علم العبد بمعلومات لا يقبل التغير والافتلاب كان أقرب إلى الله تعالى .

والمعلومات قسبان : متغيرات وأزليات .

أما المتغيرات : فتألف العلم بكون زيد في النار ، فإنه علم له معلوم ، ولكنه يتصور أن يخرج زيد من النار ويوق اعتقاد كونه في النار كما كان فينقلب جهلاً ، فيكون نقصاناً لا كمالاً ، فكلما اعتقدت اعتقاداً موافقاً وتصور أن ينقلب المعتقد فيه عما اعتقدته كنت بصدد أن ينقلب كمالك نقصاً ، ويعود عليك جهلاً . ويتحقق بهذا المثال جميع متغيرات العالم ، كملكك مثلاً بارتفاع جبل ومساحة أرض ، وبعد البلاد وتباعد ما بينها من الأميال والفراخ ، وسائر ما يذكر في المسالك والممالك ، وكذلك العلم باللغات التي هي اصطلاحات تتغير بتغير الأعمار والأمم والعادات فهذه علوم معلوماتها مثل الزئبق تتغير من حال إلى حال ، فليس فيه كمال إلا في الحال ولا يبق كمالاً في القلب .

القسم الثاني : هو المعلومات الأزلية وهو جواز الجازات ووجوب الواجبات واستحالة المستحيلات ، فإن هذه معلومات أزلية أبدية ، إذ لا يستحيل الواجب قط جائزاً ولا الجائز محالاً ولا المحال واجباً . فكل هذه الأقسام داخلة في معرفة الله وما يجب له ، وما يستحيل في صفاته ، ويجوز في أفعاله ، فالعلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله وحكمته في ملكوت السموات والأرض وترتيب الدنيا والآخرة وما يتعلق به هو الكمال الحقيقي الذي يقرب من يتصف به من الله تعالى ، ويبقى كمالاً لنفس بعد الموت ، وتكون هذه المعرفة نور للمارفين بعد الموت ( يسمى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا ) أي تكون هذه المعرفة رأس مال يوصل إلى كشف ما لم ينكشف في الدنيا ، كما أن من معه سراج خفي فله يجوز أن يصير ذلك سبباً لزيادة الثور بسراج آخر يقتبس منه ، فيكمل الثور الخفي على سبيل الاستتمام ، ومن ليس معه أصل السراج فلا مطمع له في ذلك ، فمن ليس معه أصل معرفة الله تعالى لم يكن له مطمع في هذا النور ، فيبقى كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها بل ( كظلمات في بحر لحي يشاه موج من فوقه موج من فوقه صحاب ظلمات بعضها فوق بعض ) فإذا لمساعدة إلا في معرفة الله تعالى وأما ما عدا ذلك من المعارف فها مالا فائدة له أصلاً كمعرفة الشمر أو أنساب العرب وغيرهما ، ومنها ماله منفعة في الإعانة على معرفة الله تعالى كمعرفة لغة العرب والتفسير والفقه والأخبار . فإن معرفة لغة العرب تعين على معرفة تفسير القرآن ، ومعرفة التفسير تعين على معرفة ماني القرآن من كيفية العبادات والأعمال التي تفيد تزكية النفس ، ومعرفة طريق تزكية النفس تفيد استمداد النفس لقبول الهدايا إلى معرفة الله سبحانه وتعالى كما قال تعالى ( قد أفلح من زكاهما ) وقال عز وجل ( والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا لنهدينك سبيلنا ) فتكون جملة هذه المعارف كالوسائل إلى تحقيق معرفة الله تعالى ، وإلها الكمال في معرفة الله ومعرفة صفاته وأفعاله ، وينطوي فيه جميع المعارف المحيطة بالموجودات إذا الموجودات كلها من أفعاله ، فمن عرفها من حيث هي فعل الله تعالى . ومن حيث ارتباطها بالقسرة والإرادة والحكمة ، فهي من تكلمة معرفة الله تعالى ، وهذا حكم كمال العلم ذكرناه وإن لم يكن لائهما بأحكام الجاه والرياء ولكن أوردناه لاستيفاء أقسام الكمال .

وأما القدرة فليس فيها كمال حقيقي العبد ، بل العبد علم حقيقى وليس له قدرة حقيقية ، وإنما القدرة الحقيقية لله وما يحدث من الأشياء غيب إرادة العبد وقدرته وحركته فهى حادثة بإحداث الله - كما ذكرناه فى كتاب الصبر والشكر ، وكتاب التوكل وفى مواضع شتى من ربيع النجيات - فكمال العلم يبقى معه بعد الموت ويوصله إلى الله تعالى فأما كمال القدرة فلا . نعم له كمال من جهة القدرة بالإضافة إلى الحال وهو وسيلة له إلى كمال العلم كسلامة أطرافه وقوة يده للبطش ورجله للشي وحواشه للإدراك ، فإن هذه القوة آلة للوصول بها إلى حقيقة كمال العلم ، وقد يحتاج فى استيعاب هذه القوى إلى القدرة بالمال والجاء للتوصل به إلى المطعم والمشرب والملبس والسكن ، وذلك إلى قدر معلوم ، فإن لم يستعمله للوصول به إلى معرفة جلال الله فلا خير فيه أبنة إلا من حيث القدرة الحالية التى تنفضى على القرب ، ومن غل ذلك كالا فقد جهل ، فالخلق أكثرهم مالمكون فى غمرة هذا الجهل ، فإنهم يظنون أن القدرة على الأجساد بقهر الحشرة ، وعلى أعيان الأموال بسعة النقي ، وعلى تعظيم القلوب بسعة الجاه كمال ، فلما اعتقدوا ذلك أحبوه ولما أحبوه طلبوه ولما طلبوه شغلوا به وتهالكوا عليه ففسدوا الكمال الحقيقي الذى يوجب القرب من الله تعالى ومن ملائكته وهو العلم والحرية (أما العلم) لما ذكرناه من معرفة الله تعالى (وأما الحرية) فالخلاص من أسر الشهوات وغموم الدنيا والاستيلاء عليها بالقهر نفسها بالملائكة الذين لا تستفهم الشهوة ولا يستويهم الغضب ، فإن دفع آثار الشهوة والغضب عن النفس من الكمال الذى هو من صفات الملائكة . ومن صفات الكمال لله تعالى استحالة التغير والتأثر عليه فمن كان عن التغير والتأثر بالمعارض أبعد كان إلى الله تعالى أقرب وبالملائكة أشبه ، ومنزله عند الله أعظم . وهذا كمال ثالث سوى كمال العلم والقدرة ، وإنما لم نورد فى أقسام الكمال لأن حقيقته ترجع إلى عدم ونقصان ، فإن التغير نقصان إذ هو عبارة عن عدم صفة كائنة وهلاكها ، والملاك نقصان فى القلذات وفى صفات الكمال .

فلما ذكرنا الكالات ثلاثة - إن عددنا (عدم التغير بالشهوات وعدم الانقياد لها) كالا ككمال العلم وكمال الحرية ؛ وأعنى به عدم العبودية للشهوات وإرادة الأسباب الدنيوية - وكمال القدرة بالمعنيين إلى اكتساب كمال العلم ، وكمال الحرية ولا طريق له إلى اكتساب كمال القدرة الباقية بعد موته ، إذ قدرته على أعيان الأموال وعلى استئجار القلوب والأبدان تنقطع بالموت ، ومعرفته وحزبه لا ينعلمان بالموت بل يبقيان كالا فيه ووسيله إلى القرب من الله تعالى . فانظر كيف انقلب الجاهلون وانكبوا على وجوههم انكباب العميان فأقبلوا على طلب كمال القدرة بالجاء والمال ، وهو الكمال الذى لا يسلم وإن سلم فلا بقاء له ، وأعرضوا عن كمال الحرية والعلم الذى إذا حصل كان أبديا لا انقطاع له ، وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا جرم لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون ، وهم الذين لم يفهموا قوله تعالى (المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ثوابها وخير أملا) فالعلم والآخرى هى الباقيات الصالحات التى تبقى كالا فى النفس ، والمال والجاء هو الذى ينفضى على القرب وهو كما مثله الله تعالى حيث قال (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض) الآية وقال تعالى (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء) إلى قوله (فأصبح هبشا تذروه الرياح) وكل ما تذروه رياح الموت فهو زهرة الحياة الدنيا ، وكل ما لا يقطع الموت فهو الباقيات الصالحات . فقد عرفت بهذا أن كمال القدرة بالمال والجاء كمال ظنى لا أصل له ، وأن من قصر الوقت على طلبه وظنه مقصودا فهو جاهل ، وإليه أشار أبو العليين بقوله :

ومن يتفق الساعات في جمع ماله عذابة فقر فالذي فعل : الفقر  
إلا قدر البلنة منهما إلى الكمال الحقيقي اللهم اجعلنا من وفقته الخير وهديته بلفظه .

### بيان ما محمد من حب الجاه وما يلم

مهما عرفت أنّ معنى الجاه ملك القلوب والقدرة عليها لحكمه حكم ملكه الأموال فإنه عرض من أعراض الحياة الدنيا ، وينقطع بالموت كالسالم ، والدنيا مزروعة الآخرة ، فكل ما خلق في الدنيا فيمكن أن يتروّد منه للآخرة ، وكأ أنه لا بد من أدنى مال لضرورة الطعام والمشرّب والملبس ، فلا بد من أدنى جاه لضرورة المعيشة مع الخلق ، والإنسان كما لا يستغنى عن طعام يتناوله فيجز أن يحب الطعام أو المال الذي يتنازع به الطعام ، فكذلك لا يتخلو عن الحاجة إلى خادم يخدمه ، ورفيق يعينه ، وأستاذ يرشده ، وساطن يحرسه ويدفع عنه ظم الاضرار ، لجه لأن يكون له في قلب محامده من المحل ما يدعوه إلى الخدمة ليس بمذموم ، وحب لأن يكون له في قلب رفيقه من المحل ما يحسن به مرافقته ومعاونته ليس بمذموم ، وحب لأن يكون له في قلب أستاذه من المحل ما يحسن به إرشاده وتعليمه والعناية به ليس بمذموم ، وحب لأن يكون له من المحل في قلب سلطانه ما يحسنه ذلك على دفع الشر عنه ليس بمذموم ، فإن الجاه وسيلة إلى الأعراض كالسالم ، فلا فرق بينهما إلا أنّ التحقيق في هذا يفضي إلى أن لا يكون المال والجاه بأعيانها محبوبين له ، بل ينزل ذلك منزلة حب الإنسان أن يكون له في داره بيت ماء لانه مضطر إليه لقضاء حاجته ، ويورد أن لو استغنى عن قضاء الحاجة حتى يستغنى عن بيت الماء ، فهذا على التحقيق ليس بحبا لبيت الماء فكل ما يراد التوصل به إلى محبوب فالحبيب هو المقصود المتوصل إليه . وتذكر التفرقة بمثال آخر وهو أن الرجل قد يحب زوجته من حيث أنه يدفع بها فضلة الشهوة ، كما يدفع بيت الماء فضلة الطعام ، ولو كفي مؤنة الشهوة لكان يهجر زوجته ، كما أنه لو كفي قضاء الحاجة لكان لا يدخل بيت الماء ولا يدور به ، وقد يجب الإنسان زوجته لذاتها حب العشاق ولو كفي الشهوة لبق مستصعبا لتكاحها ؛ فهذا هو الحب دون الأول ، وكذلك الجاه والمال . وقد يجب كل واحد منهما على هذين الوجهين ، لجهما لأجل التوصل بهما إلى مهمات البدن غير مذموم ، وحبهما لأعيانها فيما يجاوز ضرورة البدن وحاجته مذموم ، ولكنه لا يوصف صاحبه بالفسق والعصيان ما لم يحمل الحب على مباشرة ممضية . وما يتوصل به إلى اكتساب يكذب وخداع وارتكاب محظور وما لم يتوصل إلى اكتسابه بعبادة ، فإنّ التوصل إلى الجاه والمال بالعبادة جناية على الدين وهو حرام ، وإليه يرجع معنى الرياء المحظور كما سيأتي .

فإن قلت : طلبه المنزل والجاه في قلب أستاذه وخادمه ورفيقه وسلطانه ومن يرتبط به أمره مباح على الإطلاق كيما كان ؛ أو يباح إلى حد مخصوص على وجه مخصوص ؟ فأقول : يطلب ذلك على ثلاثة أوجه ؛ وجهان مباحان ، ووجه محظور .

أما الوجه المحظور : فهو أن يطلب قيام المنزل في قلوبهم باعتقاده فيه صفة وهو متفك عنها ، مثل العلم والورع والنسب ، فيظهر لهم أنه علوي أو عالم أو ورع وهو لا يكون كذلك ، فهذا حرام لأنه كذب وتليس أما بالقول أو بالمعاملة .

أما أحد المباحين : فهو أن يطلب المنزل بصفة هو متمتع بها كقول يوسف صلى الله عليه وسلم فيما أنصحه الرب تعالى ( اجعلني على خزائن الأرض إني خفيظ عليم ) فإنه طلب المنزل في قلبه بكونه خفيظا عليها ، وكان

عتابا إليه وكان صادقا فيه ( والثاني ) أن يطلب إخفاء عيب من عيوبه ومقصية من معاصيه ، حتى لا يعلم فلا تزول منزلته به ، فهذا أيضا مباح لأن حفظ السر على القبايح جائز ، ولا يجوز هتك السر وإظهار التيسير . وهذا ليس فيه تلبس ، بل هو مد لطريق العلم بما لا فائدة في العلم به ، كالذي يخفي عن السلطان أنه يشرب الخمر ولا يلقى إليه أنه ورع ، فإن قوله : إني ورع ، تلبس ، وعدم إقراره بالشرب لا يوجب اعتقاد الورع بل يمنع العلم بالشرب . ومن جملة المحظورات تحسين الصلاة بين يديه ليحسن فيه اعتقاده ، فإن ذلك رياء ، وهو ملبس لإذخيل إليه أنه من المخلصين الخاشعين لله وهو مرأ بما يفعله ، فكيف يكون مخلصا ؟ فطلب الجاه بهذا الطريق حرام وكذا بكل معصية ، وذلك يجري مجرى اكتساب المال الحرام من غير فرق ، وكلا يجوز له أن يمتلك مال غيره بتلبس في عوض أو غيره فلا يجوز له أن يمتلك قلبه بتدوير وخداع ، فإن ملك القلوب أعظم من ملك الأموال .

بيان السبب في حب المدح والثناء وارتياح النفس به وميل الطبع إليه  
وينضها للدم ونفرتها منه

اعلم أن حب المدح والتناذ القلب به أربعة أسباب :

السبب الأول ، وهو الآثرى : شعور النفس بالسكال فإما بينا أن السكال محبوب ، وكل محبوب فإدراكه لذيق . فمما شمرت النفس بسكالها ارتاحت واعتزت وتلذذت ، والمدح يشعر نفس المدحوس بسكالها ، فإن الرصف الذي به مدح لا يتخلو إما أن يكون جلليا ظاهرا أو يكون مشكوكا فيه ، فإن كان جلليا ظاهرا محسوسا كانت اللذة به أهل ، ولكنه لا يتخلو عن لذة كسائه عليه بأنه طويل القامة أبيض اللون فإن هذا نوع كمال ولكن النفس تفضل منه فتخلو عن لذته ، فإذا استمرته لم يخل حدوث الشعور عن حدوث لذة ، وإن كان ذلك الرصف عما يتطرق إليه الشك فاللذة فيه أعظم كالثناء عليه بكال العلم أو كالالورع أو بالحسن المطلق ، فإن الإنسان ربما يكون شاكيا في كمال حسنه وفي كمال عمله وكال ورعه ويكون مشتاقا إلى زوال هذا النك بأن يصير مستقينا لكونه عديم النظير في هذه الأمور إذ تلمدن نفسه إليه ، فإذا ذكره غيره أورت ذلك طمأنينة وخفة باستشعار ذلك السكال فتعظم لذاته ، وإنما تعظم اللذة بهذه العلة مهما صدر الثناء من بصير بهذه الصفات خير بها لا يجازف في القول إلا عن تحقيق وذلك كفرح التليذ بشاء أستاذة عليه بالكماسة والذكاو وغرارة الفضل فإنه في غاية اللذة ، وإن صدر من يجازف في الكلام أو لا يكون بصيرا بذلك الرصف ضعفت اللذة ، وهذه العلة يفيض الدم أيضا ويكرهه لأنه يشعره بنقصان نفسه والنقصان ضد السكال المحبوب فهو محقوت الشعور به مؤلم ، ولذلك يعظم الألم إذا صدر الدم من بصير موقوف به كما ذكرناه في المدح .

السبب الثاني : أن المدح يدل على أن قلب المادح مملوك للمدح وأنه مرید له ومنتقد فيه ومسخر تحت مشيئته وملك القلوب محبوب والشعور بحصوله لذيق ، وهذه العلة تعظم اللذة مهما صدر الثناء عن تنس قدرته وينتفع باقتناص قلبه كالملوك والأكابر ، ويضف مهما كان المادح عن لا يؤبه له ولا يقدر على شيء ، فإن القدرة عليه بملك قلبه قدرة على أمر حقير فلا يدل المدح إلا على قدرة قاصرة ، وهذه العلة أيضا يكره الدم ويتألم به القلب ، وإذا كان من الأكابر كانت نكايته أعظم لأن القامت به أعظم .

السبب الثالث : أن ثناء المثنى ومدح المادح سبب لإصطياد قلب كل من يسمعه ، لاسيما إذا كان ذلك من يلتفت إلى قول له ويعتمد بثنائه ، وهذا يخص بثناء يقع على المأ فلا جرم كلما كان الجمع أكثر والمثنى أجدر بأن يلتفت إلى

قوله كان للدح ألد والدم أشد على النفس .

السبب الرابع : أن المدح يدل على حشمة المددوح ، واضطرار المادح إلى إطلاق اللسان بثناءه على المددوح إما عن طوع وإما عن قهر ، فإن الحشمة أيضاً لازمة لما فيها من القهر والقدرة ، وهذه اللفة تحصل وإن كان المادح لا يمتدق في الباطن مادم به ، ولكن كونه مضطراً إلى ذكره نوع قهر واستيلاء عليه ، فلا جرم تكون لفته بقدر تمتع المادح وقوته ، فتكون لفة ثناء القوي الممتنع عن التواضع بالثناء أشد .

فهذه الأسباب الأربعة قد تجمع في مدح مادم واحد فيعظم بها الالتئاذ ، وقد تفرق فتقص اللفة بها . أما اللفة الأولى وهي است شمار الكمال فتدفع بأن يعلم المددوح أنه غير صادق في قوله ، كما إذا مدح بأنه نسيب أو سخي أو عالم يعلم أو متورع عن المحظورات وهو يعلم من نفسه ضد ذلك ، فتزول اللفة التي سببها است شمار الكمال وتبقى لفة الاستيلاء على قلبه وعلى لسانه وبقية اللذات ، فإن كان يعلم أن المادح ليس يمتدق ما يقوله ويعلم خلوه عن هذه الصفة بطلت اللفة الثانية وهو استيلاءه على قلبه ، وتبقى لفة الاستيلاء والحشمة على اضطرار لسانه إلى النطق بالثناء . فإن لم يكن ذلك عن خوف بل كان بطريق المعب بطلت اللذات كلها فلم يكن فيه أصلاً لفته لغرات الأسباب الثلاثة فهذا ما يكشف الغطاء عن علة التئاذ النفس بالمدح وتألمها بسبب الدم . وإنما ذكرنا ذلك ليعرف طريق العلاج لحب الجاه وحسب المحمودة وخوف المذمة ، فإن ما لا يعرف سببه لا يمكن معالجته ، إذ العلاج عبارة عن حل أسباب المرض . وأدق الموفق بكرمه ولطفه وصلى الله على كل عبد مصطفى .

### بيان علاج حب الجاه

اعلم أن من غلب على قلبه حب الجاه صار مقصور المهم على مراعاة الخلق مشغولاً بالتودد إليهم والرمات لأجلهم ، ولا يزال في أفعاله ملفتاً إلى ما يعظم منزلته عندهم وذلك بذن التفاق وأصل الفساد ، وبغير ذلك لا محالة إلى التسافل في العبادات والرمات بها وإلى اقتحام المحظورات للتوصل إلى اقتصاص القلوب ، ولذلك شبه رسول الله صلى الله عليه وسلم حب الشرف والمال وإفسادهما للدين بذئبين ضاربين وقال عليه السلام : إنه ينبت النفاق كما ينبت المساء البقل ، إذا التفاق هو عاتقة الظاهر للباطن بالقول أو الفعل ، وكل من طلب المنزلة في قلوب الناس فيضطر إلى التفاق معهم وإلى التظاهر بخصال حميدة هو حال عنها ، وذلك هو عين التفاق .

لحب الجاه إذن من المهلكات ، فيجب علاجه وإزالته عن القلب فلو طبع جبل عليه القلب كما جبل على حب المال ، وعلاجه مركب من علم وعمل .

أما العلم : فهو أن يعلم السبب الذي لأجله أحب الجاه وهو كمال القدرة على أشخاص الناس وعلى قلوبهم ، وقد بينا أن ذلك إن صفا وسلم فأختره الموت ، فليس هو من الباقيات الصالحات ، بل لو سجد لك كل من على بساط الأرض من المشرق إلى المغرب فإلى خمسين سنة لا يبقى الساجد ولا المسجود له ، ويكون حالك كحال من مات قبله من ذوي الجاه مع المتواضعين له . فهذا لا ينبغي أن يترك به الدين الذي هو الحياة الأبدية التي لا تقطع لها ، ومن فهم الكمال الحقيقي والكامل الوهمي - كما سبق - صغر الجاه في عينه ، إلا أن ذلك إنما يصغر في عين من ينظر إلى الآخرة كأنه يشاهدها ويستقر العاجلة ويكون الموت كالحاصل عنده ، ويكون حاله كحال الحسن البصري حين كتب إلى عمر بن عبد العزيز ( أما بعد : فكانك بأخز من كتب عليه الموت قد مات ) فانظر كيف مد نظره نحو المستقبل وقدره كأنه . وكذلك حال عمر بن عبد العزيز حين كتب في جوابه ( أما بعد : فكانك بالدين لم تكن

وكأنك بالآخرة لم تزل ) فهو لاه كان التفاتهم إلى العاقبة ، فكان عملهم لها بالتقوى إذ علوا أن العاقبة للمتقين ، فاستحقروا الجاه والمال في الدنيا . وأبصار أكثر الخلق ضعيفة مقصورة على العاجلة لا يمتد نورها إلى مشاهدة العواقب ، ولذلك قال تعالى ( بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى ) وقال عز وجل ( كلا بل تحبون العاجلة ، وتذرون الآخرة ) فمن هذا حقه فينبغي أن يعالج قلبه من حب الجاه بالمعلم بالآفات العاجلة ، وهو أن يتفكر في الأخطار التي يستهدف لها أرباب الجاه في الدنيا ، فإن كل ذى جاه محسود ومقصود بالإيذاء وخائف على الدوام على جاهه وعثره من أن تتغير منزلته في القلوب ، والقلوب أشد تغيرا من القدر في غلباتها وهي مترددة بين الإنفال والإعراض ، فكل ما يبني على قلوب الخلق يضاهى ما يبني على أمواج البحر فإنه لا يثبت له ، والاشتغال بمراجعة القلوب وحفظ الجاه ودفع كيد الحساد ومنع أذى الأعداء كل ذلك غيوم عاجلة ومكيدة للذة الجاه ، فلا ينبغي في الدنيا سرحها بخوفها فضلا عما يفوت في الآخرة ، فهذا ينبغي أن تعالج البصيرة الضعيفة . وأما من نفذت بصيرته وقوى إيمانه فلا يلتفت إلى الدنيا ، فهذا هو العلاج من حيث العلم .

وأما من حيث العمل : فإسقاط الجاه عن قلوب الخلق مباشرة أمدال يلام عليها حتى يسقط من أعين الخلق وتفارقه لذة القبول وبأنس بالثول ويرد الخلق ويقنع بالقول من الخلق . وهذا هو مذهب الملازمة ؛ إذا قبحوا الفواحش في صورتها ليسقطوا أنفسهم من أعين الناس فيسلوا من آفة الجاه ، وهذا غير جائز لمن يقتدى به فإنه يره من الدين في قلب المسلمين ، وأما الذي لا يقتدى به فلا يجوز له أن يقدم على عثور لاجل ذلك ، بل له أن يفعل من المباحات ما يسقط قدره عند الناس ؛ كما روى أن بعض الملوك قصد بعض الزهاد - فلما علم بقرته منه استدعى طعاما وبقلا وأخذ يأكل بشره ويعظم القصة ، فلما نظر إليه الملك سقط من عينه وانصرف ، فقال الزاهد : الحمد لله الذي صرفك عني . ومنهم من شرب شرابا حلالا في قدح لونه لون الخمر حتى يظن أنه يشرب الخمر فيسقط من أعين الناس . وهذا في جوازه نظر من حيث النفع إلا أن أرباب الأحوال ربما يماجون أنفسهم بما لا يفتي به الفقيه مهما رأوا إصلاح قلوبهم فيه ثم يتداركون ما فرط منهم فيه من صورة التقصير ، كما فعل بعضهم ، فإنه عرف بالزهد وأقبل الناس عليه ، فدخل حماما وليس ثياب غيره وخرج فوقف في الطريق حتى عرفوه فأخذوه وضربوه واستردوا منه الثياب وقالوا : إنه طزار وهجروه وأقوى الطرق في قطع الجاه الاعتزال عن الناس والهجرة إلى موضع الخول ، فإن المعتزل في بيته في البلد الذي هو به مشهور لا يخلو عن حب المنزلة التي ترسخ له في القلوب بسبب عزلة ، فإنه ربما يظن أنه ليس بحب الجاه وهو مغرور ، وإنما سكنت نفسه لأنها قد نظرت بهقصودها ولو تغير الناس عما اعتقدوه فيه فدموه أو نسبه إلى أمر غير لائق به جزعت نفسه وتأملت ، وربما توصلت إلى الاعتذار عن ذلك وإمالة ذلك التباؤن عن قلوبهم ، وربما يحتاج في إزالة ذلك عن قلوبهم إلى كذب وتلبس ولا يزال به ، وبه ويتبين بعد أنه يحب للجاه والمنزلة . ومن أحب الجاه والمنزلة فهو كمن أحب المال بل هو شر منه فإن تنزه الجاه أعظم ، ولا يمكن أن لا يحب المنزلة في قلوب الناس مادام يطعم في الناس ، فإذا أحرز قوته من كسبه أو من جهة أخرى وقطع طمعه عن الناس وأسا أصبح الناس كلهم عنده كالآزال ، فلا يزال أكان له منزلة في قلوبهم أم لم يكن ، كما لا يزال بما في قلوب الذين هم منه في أقصى المشرق لأنه لا يرام ولا يطعم فيهم ، ولا يقطع الطمع عن الناس إلا بالفتنة ، فمن قنع استغنى عن الناس وإذا استغنى لم يشغل قلبه بالناس ولم يكن لقيام منزلته في القلوب عنده وزن ، ولا يتم ترك الجاه إلا بالفتنة وقطع الطمع . ويستعين على جميع ذلك بالأخبار الواردة في ذم



الجاء ومدح الحقول والنمل مثل قولهم : المؤمن لا يخلو من ذلة أوفلة أو علة . وينظر في أحوال السلف وإثباتهم للذل على المزور وشبهتهم في ثواب الآخرة رضى الله عنهم أجمعين .

### بيان وجه العلاج لحب المدح وكرامة الدم

اعلم أن أكبر الناس إنما هلكوا بخوف مذمة الناس وحب مدحهم ، فصار حركاتهم كلها موقوفة على ما يوافق رضا الناس رجاء المدح وخوفا من الدم ، وذلك من المهلكات فيجب معالجته وطريقة ملاحظة الأسباب التي لاجلها يحب المدح ويكره الدم .

أما السبب الأول : فهو استعمار الكمال بسبب قول المادح فطريقته فيه أن ترجع إلى عقلك وتقول لنفسك : هذه الصفة التي يمدحك بها أنت متصف بها أم لا ؟ فإن كنت متصفا بها فهي إما صفة تستحق بها المدح كالعلم والورع ، وإما صفة لا تستحق المدح كالثروة والجاه والأعراض الدنيوية فإن كانت من الأعراض الدنيوية فالفرح بها كالفرح بنبات الأرض الذي يصير على القرب هشيئا تذروه الرياح ، وهذا من قلة العقل ، بل الماقل يقول كمال المتنبئ :

أشد الغم عندى في سرور تيقن عنه صاحبه انتقالا

فلا ينبغي أن يفرح الإنسان بعروض الدنيا ، وإن فرح فلا ينبغي أن يفرح بمدح المادح بها بوجودها والمدح ليس هو سبب وجودها . وإن كانت الصفة مما يستحق الفرح بها كالعلم والورع فينبغي أن لا يفرح بها لأن الحاجة غير معلومة ، وهذا إنما يقتضى الفرح لأنه يقرب عند الله زلفى ، وخطر الحاجة بأن في الخوف من سوء الحاجة شغل عن الفرح بكل ما في الدنيا ، بل الدنيا دار أحزان وغرم لا دار فرح وسرور ثم إن كنت تفرح بها على رجاء حسن الحاجة فينبغي أن يكون فرحك بفضل الله عليك والعلم والتقوى لا بمدح المادح ، فإن الذلة في استعمار الكمال والكمال موجود من فضل الله لا من المدح والمدح تابع له فلا ينبغي أن تفرح بالمدح ، والمدح لا يزيدك فضلا وإن كانت الصفة التي مدحت بها أنت خال عنها ففرحك بالمدح غاية الجنون ، ومثاله مثال من يبرأه إنسان ويقول سبحانه الله ما أكثر العطر الذي في أحشائه وما أطيب الروائح التي تفوح منه ؟ إذا فعلى حاجته ، وهو يعلم ما تشتمل عليه أممائه من الأقدار والأنتان ، ثم يفرح بذلك فكذلك إذا أثنا عليك بالصلاح والورع ففرحت به والله مطلع على خباياك باطنك وغوايل سريرتك وأقدار صفاتك - كان ذلك من غاية الجهل : فإذا المادح إن صدق فليكن فرحك بصفتك التي هي من فضل الله عليك ، وإن كذب فينبغي أن يملك ذلك ولا تفرح به .

وأما السبب الثاني : وهو دلالة المدح على تسخير قلب المادح وكونه سبيلا لتسخير قلب آخر ، فهذا يرجع إلى حب الجاه والمزلة في القلوب . وقد سبق وجه معالجته ، وذلك بقطع الطمع عن الناس وطلب الميزة عند الله ، وبأن تعلم أن طلبك الميزة في قلوب الناس وفرحك به يسقط منزلتك عند الله ! فكيف تفرح به ؟

وأما السبب الثالث : وهو الحسنة التي احتضرت المادح إلى المدح ، فهو أيضا يرجع إلى قدرة عارضة لا يثبت لها ولا تستحق الفرح ، بل ينبغي أن يملك مدح المادح وكرمه وتقض به - كما نقل ذلك عن السلف - لأن آفة المدح على الممدوح عظيمة - كما ذكرناه في كتاب آفات اللسان - قال بعض السلف : من فرح بمدح فقد مكن الشيطان من أن يدخل في بطنه . وقال بعضهم : إذا قيل لك : نعم الرجل أنت ، فكان أحب إليك من أن يقال لك : بش الرجل أنت ، فأنت والله بش الرجل . وزوى في بعض الأخبار - فإن صاحبه فهو قاصم للظهور -

أن رجلا أتني على رجل خيرا عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال : لو كان صاحبك حاضرا فرضى  
الذى قلت فأت على ذلك دخل النار <sup>(١)</sup> . وقال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم مرة للساحد : ويحك قصمت ظهره  
لوسمك ما أفلح إلى يوم القيامة <sup>(٢)</sup> . وقال عليه السلام : ألا لا تمادحوا وإذا رأيتم المادحين فاحشوا في وجوههم  
التراب <sup>(٣)</sup> ، فلهذا كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين على وجل عظيم من المدح وقتلته وما يدخل على القلب  
من السرور العظيم به ، حتى إن بعض الخلفاء الراشدين سأل رجلا عن شيء فقال : أنت يا أمير المؤمنين خير مني  
وأعلم ، فغضب وقال : إني لم أمرك بأن تركيتي وقيل لبعض الصحابة : لا يزال الناس بخير ما أبغاك الله ، فغضب  
وقال : إني لأحسبك عرافيا . وقال بعضهم - لما مدح - اللهم إن عبدك تقرب إلى بمقتك فأشبهك على مقتك . وإنما  
كرهوا المدح خوفا أن يفرحوا بمدح الخلق وهم يفتنون عند الخلق ، فكان اشتغال قلوبهم بحاطم عند الله تعالى  
ينفض إليهم مدح الخلق ، لأن المدوح هو المقرب عند الله والمذموم بالحقيقة هو المبعد من الله الخلق في النار مع  
الأشهر فهذا المدوح إن كان عند الله من أهل النار فما أعظم جهله إذا فرح بمدح غيره ، وإن كان من أهل الجنة  
فلا ينبغي أن يفرح إلا بفضل الله تعالى ونائه عليه إذ ليس أمره بيد الخلق . ومهما علم أن الأرزاق والآجال  
بيده تعالى قل التفاته إلى مدح الخلق وذمهم وسقط من قلبه حب المدح واشتغل بما يحبه من أمر دينه . والله  
الوفى الصواب برحمته .

### بيان علاج كراهة الدم

قد سبق أن الملة في كراهة الدم هو مند الملة في حب المدح ، فعلاجه أيضا ينهم منه . والقول الوجيز فيه أن  
من ذمك لا يخلو من ثلاثة أحوال .

إما أن يكون قد صدق فيما قال وقصد به النصح والشفقة ؛ وإما أن يكون صادقا ولكن قصده الإيذاء والتعنيت  
وإما أن يكون كاذبا .

فإن كان صادقا وقصده النصح فلا ينبغي أن تذهمه وتغضب عليه وتحقد بسببه ، بل ينبغي أن  
تقلبه منه فإن من أهدى إليك عرويك قد أرشدك إلى المهلك حتى تقيه ، فينبغي أن تفرح به وتشتغل بإزالة  
الصفة المذمومة عن نفسك إن قدرت عليها ، فأما اغتنامك بسببه وكراهتك له وذمك إياه فإنه غاية الجهل ، وإن  
كان قصده التئنت فأنت قد انتفعت بقوله إذ أرشدك إلى عيبك إن كنت جاهلا به ، وأذكرك عيبك إن كنت  
غافلا عنه ، أو قبحه في عيبك ليذا بحث حرصك على إزالته إن كنت قد استحسنته . وكل ذلك أسباب سعادتك وقد  
استفدت منه فاشتغل بطلب السعادة فقد أتممت لك أسبابها بسبب ما سمعت من المذمة . فهما قصدت الدخول على ملك  
وثوبك ملوث بالذرة وأنت لا تدري ، ولو دخلت عليه كذلك لحفت أن يمر ريقك لتلوثك بجلسه بالذرة فقال  
قائل : أيها الملوث بالذرة طهر نفسك ، فينبغي أن تفرح به لأن تنبيهك بقوله ذميمة ، وجميع مساوي الأخلاق  
مهلكة في الآخرة والإنسان إنما يعرفها من قول أعدائه فينبغي أن يبتسمه . وأما قصد المدح التئنت لخنائته  
على دين نفسه وهو نعمة منه عليك فلم تغضب عليه بقول انتفعت به أنت وتقرر هو به ؟

(١) حديث : أن رجلا أتني على رجل خيرا فقال : لو كان صاحبك حاضرا فرضى الذى قلت ومات على ذلك دخل النار  
لم أجده أصلا (٢) حديث : ويحك قصمت ظهره ... المادح : قاله للساحد قديم (٣) حديث : ألا لا تمادحوا وإذا  
رأيتم المادحين فاحشوا في وجوههم التراب : قديم دون قوله : ألا لا تمادحوا .

الحالة الثالثة : أن يفرى عليك بما أنت برىء منه عند الله تعالى فينبغي أن لاتكره ذلك ولا تستغل بذهمه ، بل تفكر في ثلاثة أمور ( أحدها ) أنك إن خلوت من ذلك العيب فلاتخلو عن أمثاله وأشباهه ، وما ستره الله من عيوبك أكثر ، فاشكر الله تعالى إذ لم يطلعه على عيوبك ودفنه عنك بذكر مآثرت برىء عنه . ( والثاني ) أن ذلك كفارات لبقية مساوئك وذنوبك فكأنه رماك بعبث أنت برىء منه وطهرتك من ذنوب أنت ملوت بها وكل من اغتابك فقد أهدى إليك حسنة وكل من مدحك فقد قطع ظهرك . فإياك تفرح بقطع الظهور وتحزن لهذا يا الحسنة التي تقربك إلى الله تعالى وأنت تزعم أنك تحب القرب من الله . ( وأما الثالث ) فهو أن للمسكين قد جنى على دينه حتى سقط من عين الله وأهلك نفسه باقتراعه وتعرض لعقاب الآليم ، فلا ينبغي أن تنضب عليه مع غضب الله عليه فتشمت به الشيطان وتقول : اللهم أهلكه ، بل ينبغي أن تقول : اللهم أصلحه اللهم تب عليه اللهم ارحمه ، كما قال صلى الله عليه وسلم : اللهم اغفر لقوى اللهم اهد قوى فإنهم لا يعلمون <sup>(١)</sup> ، لما أن كسروا نفيتهم وشجروا وجهه وقتلوا عمه حرة يوم أحد . وهذا إبراهيم بن آدم لما شج رأسه بالمغفرة فقيل له في ذلك فقال : علمت أني مأجور بسببه وما نالني منه إلا خير فلا أرضى أن يكون هو معاقباً بسببي . وما يؤمن عليك كرامة الذمة قطع الطمع وإن من استغفرت عنه مهما ذمك لم يعظم أثر ذلك في قلبه ، وأصل الدين القناعة وبها ينقطع الطمع عن المال والجاه ، وما دام الطمع قائماً كان حب الجاه والمدح في قلب من طمعت فيه غالباً ، وكانت همتك إلى تحصيل المنزلة في قلبه مصروفة ، ولا ينال ذلك إلا بدم الدين ، فلا ينبغي أن يطمع طالب المال والجاه بحب المدح ومبغض الذم في سلامة دينه فإن ذلك بعيد جداً .

### بيان اختلاف أحوال الناس في المدح والذم

اعلم أن الناس أربعة أحوال بالإضافة إلى الذم والمدح :

الحالة الأولى : أن يفرح بالمدح ويشكر المادح وينضب من الذم ويحقد على الذام ويكافئه أو يجب مكافأته ، وهذا حال أكثر الخلق وهو غاية درجات المعصية في هذا الباب .

الحالة الثانية : أن يتمتع في الباطن على الذم ولكن يمسك لسانه وجوارحه عن مكافأته ويفرح باطنه ، ويرتاح للذم ولكن يحفظ ظاهره عن إظهار السرور ، وهذا من التقصان إلا أنه بالإضافة إلى ما قبله كال .

الحالة الثالثة : وهي أول درجات الكمال أن يستوى عنده ذامه ومادحه فلا تقمه الذمة ولا تسره استغفالا . وهذا قد يظنه بعض العباد بنفسه ويكون مغروراً إن لم يتمحن نفسه بعلاماته . وعلاماته أن لا يجد في نفسه استغفالا للذم عند طوليه الجلوس عنده أكثر مما يجده في المادح ، وأن لا يجد في نفسه زيادة هرة ونشاط في قضاء حوائج المادح فوق ما يجده في قضاء حاجة الذم ، وأن لا يكون انقطاع الذم عن مجله أهون عليه من انقطاع المادح ، وأن لا يكون موت المادح المأثر له أشد نكاية في قلبه من موت الذم ، وأن لا يكون غم بمصيبة المادح وما يناله من أعدائه أكثر مما يكون بمصيبة الذم ، وأن لا تكون زلة المادح أخف على قلبه وفي عينه من زلة الذم . فهما خف الذم على قلبه كما خف المادح واستويا من كل وجه فقد نال هذه الرتبة وما أبعد ذلك وما أشده على القلوب ! وأكثرت العباد فرحهم بمدح الناس لهم مستبطن في قلوبهم وهم لا يشعرون حيث لا يتحتمون

(١) حديث « اللهم اغفر لقوى فإنهم لا يعلمون » قال لما خربه قومه . أخرجه البيهقي في دلائل النبوة وقد تقدم والمحدث في الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم قال حكاية عن أبي من الأنبياء حين خربه قومه .

أنفسهم بهذه العلامات ، وربما شعر العابد بحيل قلبه إلى المادح دون الذام ، والشیطان يحسن له ذلك ويقول : الذام قد عصى الله ، بدمتك ، والمادح قد أطاع الله بمدحك ، فكيف تسوى بينهما ؟ وإنما استفلاك للذام من الدين الحنن . وهنا محض التلبيس ، فإن العابد لو تفكر علم أن في الناس من ارتكب كبائر المعاصي أكثر مما ارتكب الذام في مذمته ، ثم إنه لا يستكملهم ولا ينفر عنهم ، ويعلم أن المادح الذي مدح لا يخلو عن مذمة غيره . ولا يحمده في نفسه نفرة عنه بمذمة غيره كما يحمده لمذمة نفسه ، والمذمة من حيث إنها محصية لاختلاف بأن يكون هو المذموم أو غيره . فإذا العابد المنزوع لنفسه يغضب وهواه يتمعض ، ثم إن الشيطان يحيل إليه أنه من الذين حتى يمثل على الله بهواه فيريده ذلك بدءا من الله ، ومن لم يطلع على مكاييد الشيطان وآفات النفوس فأكثر عباداته تسبب ضائع بقوت عليه الدنيا ويخسر في الآخرة ، وفيهم قال الله تعالى ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ .

الحالة الرابعة : وهي الصدق في البادة ؛ أن يكره المدح ويعتق المادح ، إذا يعلم أنه قننة عليه قاصحة للظاهر مضرة له في الدين ، ويجب الذام إذ يعلم أنه مهد إليه عيبه ومرشد له إلى مهبه ومهد إليه حسنه ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : رأس التواضع أن تذكره بالبر والتقوى .<sup>(١)</sup> وقد روى في بعض الأخبار ما هو قاصم لظهور أمثاله إن صح ، إذ روى أنه صلى الله عليه وسلم قال : ويل للصائم وييل للقائم وييل لصاحب الصوف إلا من ... فقيل يا رسول الله إلا من ؟ فقال : إلا من تنزهت نفسه عن الدنيا وأبغض المدحة واستحب المذمة<sup>(٢)</sup> ، وهذا شديد جدا ، وغاية أمثاله الطمع في الحالة الثانية ، وهو أن يضمر الفرح والكرامة على الذام والمادح ، ولا يظهر ذلك بالقول والعمل ، فأما الحالة الثالثة وهي التسوية بين المادح والذام فلنا نطمع فيها . ثم إن طالبنا أنفسنا بعلامه الحالة الثانية فلنأثني على ما ، لأنها لابد وأن تتسارع إلى إكرام المادح وقضاء حاجاته ، وتتناقل على إكرام الذام والثناء عليه وقضاء حوائجه ، ولا تقدر على أن تسوى بينهما في الفعل الظاهر كما لا تقدر عليه في سريرة القلب ، ومن قدر على التسوية بين المادح والذام في ظاهر الفعل فهو جدير بأن يتخذ قدوة في هذا الزمان وإن وجد فإنه التكبريت الأحر يتحدث الناس به ولا يرى ، فكيف بما بعده من المرتبتين ؟ وكل واحدة من هذه الرتب أيضا فيها درجات . أما الدرجات في المدح فهو أن من الناس من يتمنى المذمة والثناء وانتشار العيب ، فيتوصل إلى نيل ذلك بكل ما يمكن حتى يرائي بالعبادات ، ولا يبالى بمعارفة المحظورات لا سبالة قلوب الناس واستطاق أسئلتهم . بالمدح وهذا من الهالكين . ومنهم من يريد ذلك ويطلبه بالمباحات ولا يطلبه بالعبادات ، ولا يباشر المحظورات ، وهذا على شرف جرف هار ، فإن حدود الكلام الذي يستميل به القلوب وحدود الأعمال لا يمكن أن يضبطها فيو شك أن يقع فيها لا يحل لئيل الحمد ، فهو قريب من الهالكين جدا . ومنهم من لا يريد المذمة ولا يسمى لطيفا ، ولكن إذا مدح سبق السرور إلى قلبه فإذا لم يقابل ذلك بالمجاهدة ولم يتكلف الكراهية فهو قريب من أن يستجر فرط السرور إلى الرتبة التي قبلها وإن جهاد نفسه في ذلك وكلف قلبه الكراهية وبغض السرور إليه بالتفكير في آفات المدح ، فهو في خطر المجاهدة فتارة تكون اليد له وتارة تكون عليه . ومنهم من إذا سمع المدح لم يسر به ولم ينهم به ولم يؤثر فيه وهذا على غير ، وإن كان قد بقي عليه بقية من الإخلاص . ومنهم من يكره المدح إذا سمعه ولكن

(١) حديث « رأس التواضع أن تذكره بالبر والتقوى » لم أجده أصلا . (٢) حديث « ويل للصائم وييل للقائم وييل لصاحب الصوف ... الحديث » لم أجده هكذا وذكر صاحب الترمذ من حديث أس بن إبراهيم الصوفي قال : « ولم يخرجوه ولد في مستند » .

لا يفتي به إلى أن يغضب على المادح ويشكر عليه ، وأقصى درجاته أن يكرهه ويغضب ويظهر الغضب وهو صادق فيه ، لا أن يظهر الغضب وقلبه محب له فإن ذلك عين النفاق ، لأنه يريد أن يظهر من نفسه الإخلاص والصدق وهو مفلس عنه ؛ وكذلك بالصد من هذا تنافوت الأحوال في حق الدام ، وأول درجات إظهار الغضب وآخرها إظهار الفرح ، ولا يكون الفرح وإظهاره إلا بمن في قلبه حق وصدق على نفسه لفرداها عليه وكثرة عيوبها ومواعيدها السكاذبة وتليساتها الخفية فيغضبها بغضب المدق ، والإنسان يفرح بمن يذم عدوه ، وهذا شخص عدوه نفسه فيفرح إذا سمع ذمها ويشكر الدام على ذلك ويعتقد فطنته وذكاه لما وقف على عيوبها ، فيكون ذلك كالشقي له من نفسه ويكون غنيمته عنده إذا صار بالمدحة أوضح في أعين الناس حتى لا يبطل بفتنة الناس ، وإذا سيق إلى حسنات لم ينصب فيها ففساد يكون خيراً لمعوبه التي هو عاجز عن إباطتها ، ولو جاهد المرید نفسه طول عمره في هذه الحصلة الواحدة وهو أن يستوى عنده ذامة ومادحة لكان له شغل شاغل فيه لا يتفرغ معه لغيره . وبينه وبين السعادة عقبات كثيرة هذه إحداها ، ولا يقطع شيئاً منها إلا بالمجاهدة الشديدة في العمر الطويل

الشرط الثاني من الكتاب : في طلب الجاه والمنزلة بالعبادات

وهو الرياء : وفيه بيان ذم الرياء ، وبيان حقيقة الرياء وما يرائي ، وبيان درجات الرياء ؛ وبيان الرياء الخفي ؛ وبيان ما يوجب العمل من الرياء وما لا يوجب ؛ وبيان دواء الرياء وعلاجه ؛ وبيان الرخصة في إظهار الطاعات وبيان الرخصة في كتمان الذنوب ؛ وبيان ترك الطاعات خوفاً من الرياء والآفات ، وبيان ما يصح من نشاط العبد للعبادات بسبب روية الحق ؛ وبيان ما يجب على المرید أن يلزمه قلبه قبل الطاعة وبعدها . وهي عشرة فصول وبالله التوفيق .

### بيان ذم الرياء

اعلم أن الرياء حرام والمرائي عند الله محقوت ، وقد شهدت لذلك الآيات والأخبار والآثار .  
أما الآيات : فقوله تعالى ﴿ فويل للصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون ﴾ وقوله عز وجل ﴿ والذين يسمكون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور ﴾ قال مجاهد م أهل الرياء . وقال تعالى ﴿ إنسا فطعمكم لوجه الله لا تريد منكم جزاء ولا شكورا ﴾ فدح المخلصين بني كل إرادة سوى وجه الله ، والرياء ضدّه وقال تعالى ﴿ فن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا <sup>(١)</sup> ﴾ نزل بعد ذلك فيمن يطلب الاجر والحمد بعبادته وأعماله .

وأما الأخبار : فقد قال صلى الله عليه وسلم حين سأله رجل فقال : يا رسول الله فيم النجاة ؟ فقال : « أن لا يعمل العبد بطاعة الله يريد بها الناس » وقال أبو هريرة في حديث الثلاثة - المقتول في سبيل الله والمتصدق بالله والقارئ لكتاب الله ، كما أوردناه في كتاب الاخلاص - : « وإن الله عز وجل يقول لكل واحد منهم : كذبت بل أردت أن يقال فلان جواد ، كذبت بل أردت أن يقال فلان مجاح ، كذبت بل أردت أن يقال فلان قارئ . فأخبر صلى الله عليه

(١) حديث : نزول قوله تعالى ﴿ فن كان يرجو لقاء ربه ﴾ الآية فيمن يطلب الآخرة بعبادته وأعماله . أخرجه الحاكم من حديث طائوس : قال رجل أتى أنس بن مالك فأتى وجه الله وأحب أن يرى ، وطأ في يده عليه حتى نزلت هذه الآية . هكذا في نسخة من المستدرک ولله سقط عنه ابن عباس أو أبو هريرة ، وليناز من حديث معاذ بن جبل « من صام رياء فقد أشرك ... الحديث » وفي : أنه صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية



قال « إني تخوفت على أمن الشرك أمثالهم لا يعبدون صنوا ولا شئسا ولا قرأ ولا حجر آ ولكنهم يرامون بأعمالهم <sup>(١)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « لما خلق الله الأرض مادت بأهلها فخلق الجبال فصيرها أوتادا للأرض ، فثابت الملائكة : ما خلق ربنا خلقا هو أشد من الجبال ، فخلق الله الحديد ففقط الجبال ، ثم خلق النار فأذاب الحديد ، ثم أمر الله الماء بإطفاء النار ، وأمر الريح فكدورت الماء ، فاختلفت للملائكة فقالت : نسال الله تعالى : قالوا : يارب ما أشد ما خلقت من خلقك ؟ قال الله تعالى لم أخلق خلقا هو أشد على من قلب ابن آدم حين يتصدق بصدقة يمينه فيخفيها عن شباهه فهذا أشد خلقا خلقه <sup>(٢)</sup> » وروى عبد الله بن المبارك بإسناده عن رجل أنه قال لعاذ بن جبل : حدثني حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فيكي معاذ حتى ظننت أنه لا يسكت ثم سكتم قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قال ل : يا معاذ ، قلت ليلىك بأى أنت وأبى يارسل الله قال : إني محدثك حديثا إن أنت حفظته ففعلك وإن أنت ضيعته ولم تحفظه انقطعت حجبتك عند الله يوم القيامة ، يا معاذ إن الله تعالى خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السموات والأرض ، ثم خلق السموات لجمل لكل سماء من السبعة ملكا يربوا عليها فخلقها عظماء فتصعد الحفظة بعمل العبد من حين أصبح إلى حين أمسى ، له نور كدور الشمس ، حتى إذا صعدت به إلى السماء الدنيا زكوه فكثرته فيقول للملك الحفظة : اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه ، أنا صاحب النية أمرني ربى أن لا أدع عمل من اغتاب الناس بماورنى إلى غيرى ، قال « ثم تأتى الحفظة بعمل صالح من أعمال العبد فتمر به فتزكوه وتكثره حتى تبلغ به إلى السماء الثانية فيقول لهم الملك الموكل بها : فقوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه إنه أراد بعمله هذا عرض الدنيا أمرني ربى أن لا أدع عمله بماورنى إلى غيرى إنه كان يفتخر به على الناس في مجالسهم ، قال « وتصعد الحفظة بعمل يتبجح نورا من صدقة وصيام وصلاة قد أعجب الحفظة فيجاءزون به إلى السماء الثالثة فيقول لهم الملك الموكل بها : فقوا واضربوا بها العمل وجه صاحبه ، أنا ملك الكبر أمرني ربى أن لا أدع عمله بماورنى إلى غيرى إنه كان يتكبر على الناس في مجالسهم ، قال « وتصعد الحفظة بعمل العبد يرمز كرمه السكوكب الدرى له دوى من تسييس وصلاة وحج وعمرة حتى يجاوزوا به السماء الرابعة فيقول لهم الملك الموكل بها : فقوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه اضربوا به ظهره ويطنه ، أنا صاحب العجب أمرني ربى أن لا أدع عمله بماورنى إلى غيرى إنه كان إذا عمل عملا أدخل العجب في عمله ، قال « وتصعد الحفظة بعمل العبد حتى يجاوزوا به السماء الخامسة كأنه العروس المزفوفة إلى أهلها فيقول لهم الملك الموكل بها : فقوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه واحملوه على طاقته أنا ملك الحسد إنه كان يحسد الناس من يشتم ويعمل بمثل عمله وكل من كان يأخذ فضلا من السيادة يحسدهم ويقع فهم أمرني ربى أن لا أدع عمله بماورنى إلى غيرى ، قال « وتصعد الحفظة بعمل العبد من صوم وصلاة ونفقة وزكاة وحج وعمرة وصيام فيجاءزون بها إلى السماء السادسة فيقول لهم الملك الموكل بها : فقوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه إنه كان لا يرحم إنسانا قط من عباده أصابه بلاء أو ضر أضر به بل كان يمشى به ، أنا ملك الرمة أمرني ربى أن لا أدع عمله بماورنى إلى غيرى ، قال « وتصعد الحفظة بعمل العبد إلى السماء السابعة من صوم وصلاة ونفقة وزكاة واجتهاد وروع له دوى كدوى الرعد وحوه كضوء الشمس معه ثلاثة آلاف ملك فيجاءزون به إلى السماء السابعة فيقول لهم الملك الموكل بها : فقوا واضربوا بهذا العمل

(١) حديث شداد بن أوس « إني تخوفت على أمن الشرك ... الحديث » أخرجه ابن ماجه والحاكم نحوه وله تدم فريا

(٢) حديث « لما خلق الله الأرض مادت بأهلها . الحديث » وفي « لم أخلق خلقا هو أشد من ابن آدم يتصدق يمينه فيخفيها عن شباهه » أخرجه الترمذى من حديث أنس مع اختلاف وقال غريب .

وجه صاحبه ، اضربوا به جوارحه اقبلوا به على قلبه إلى أحجب عن ربي كل عمل لم يرد به وجه ربي إنه أراد به عمله غير الله تعالى ، إنه أراد رقة عند الفقهاء وذكرا عند العلماء وصيتا في المدائن ، أمرني ربي أن لأدغم عمله بما جاوزني إلى غيري ، وكل عمل لم يكن له خالصا فهو رياء ولا يقبل الله عمل المرأى ، قال : وتصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وزكاة وصيام وحج وعمره وخلق حسن وصمت وذكر لله تعالى وتسميه ملائكة السموات حتى يقطعوا به الحجب كلها إلى الله عز وجل فيقفون بين يديه ويشهدون له بالعمل الصالح المخلص لله ، قال : فيقول الله لهم أنتم الحفظة على عمل عبادي وأنا الرقيب على نفسه إنه لم يردني بهذا العمل وأراد به غيري فعليه لعنة ، فتقول الملائكة كلهم : عليه لعنتك ولعنتنا ، وتقول السماوات كلها : عليه لعنة الله ولعنتنا وتلعن المعبوات السبع والأرض ومن فيها ، قال معاذ : قلت يا رسول الله أنت رسول الله وأنا معاذ قال : اقتدي وإن كان في حملك نقص ، يامعاذ حافظ على لسانك من الرقية في إخوانك من حلة القرآن واحمل ذنوبك عليك ولا تجعلها عليهم ولا ترك نفسك بذهمهم ولا ترفع نفسك عليهم ولا تدخل عمل الدنيا في عمل الآخرة ولا تكبر في مجلسك لكي يحذر الناس من سوء خلقك ، ولا تبالغ رجلا وعندك آخر ، ولا تتعظم على الناس فيقطع عنك خير الدنيا ، ولا تمزق الناس فتزقك كلاب النار يرم القمامة في النار قال الله تعالى ( ولتأشطلن نارا ) أندري من هن يامعاذ ؟ قلت : ما هن ، باني أنت وأي يا رسول الله ؟ قال : كلاب في النار تلغظ اللحم والعظم ، قلت : باني أنت وأي يا رسول الله فن يطبق هذه الحصال ومن ينجو منها ؟ قال يامعاذ إنه ليسير على من يسره الله عليه <sup>(١)</sup> ، قال فما رأيت أكثر تلاوة القرآن من معاذ للحذر مما في هذا الحديث .

وأما الآثار : فيروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى رجلا يطأ طي<sup>٢</sup> رقبته فقال : يا صاحب الرقبة ارفع ركبته ليس الخشوع في الرقاب إنما الخشوع في القلوب ورأى أبو أمامة الباهلي رجلا في المسجد يبكي في سجوده فقال : أنت أنت لو كان هذا في بيتك . وقال على كرم الله وجهه : للرأي ثلاث علامات ، يكسل إذا كان وحده وينشط إذا كان في الناس ويزيد في العمل إذا أثنى عليه وينقص إذا ذم . وقال رجل لمعاذ بن الصامت : أقاتل بسيفي في سبيل الله أريد به وجه الله تعالى ومحمد الناس ، قال : لاشئ ذلك ، فأسأله ثلاث مرآت كل ذلك يقول : لاشئ لك ، ثم قال في الثالثة : إن الله يقول أنا أغنى الأغنياء عن الشرك ... الحديث . وسأل رجل سعيد بن المسيب فقال : إن أحدا يصنع المعروف يجب أن يحمده ويؤجر ، فقال له : اتعب أن تمت ؟ قال : لا ، قال : فإذا عملت لله عملا فأخلصه . وقال الضحاك : لا يقرآن أحدكم هذا لوجه الله ولوجهك ولا يقول هذا لله وللرحم ، فإن الله تعالى لا يشريك له . وضرب عمر رجلا بالردة ثم قال له : اقتص مني اقتصا : لا بل أدعها لله ولك . فقال له عمر : ما صنعت شيئا إما أن تدعها لي فأعترف بذلك أو تدعها لله وحده ، فقال : ودعها لله وحده ، فقال : فتم إذن ، وقال الحسن : لقد سمعت أقواما إن كان أحدهم لمرض له الحكمة لو نطق بها لنفسه ونفعت أصحابه وما يمنه منها إلا مخافة الشهرة وإن كان أحدهم لير فرير الأذى في الطريق فسا يمنه أن ينحية إلا مخافة الشهرة ويقال : إن المرأى ينادي يوم القيامة بأربعة أسماء : يامرأى ياغادر ياغاسر ياغاجر ياذهب غدر أخرجك عن عملي له فلا أجر لك عندنا . وقال القاضى بن عياض : كانوا يرامون بما يعملون وصاروا اليوم يرامون

(١) حديث معاذ أطول : أن الله تعالى خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السموات والأرض لجل لكل سماء من السبعة الحكا بواها عليها ... الحديث بطوله في مسود الحفظة يسأل العبد ورد الملائكة له من كل سماء ورد الله تعالى له بعد ذلك مزاء المصنف إلى رواية عبد الله بن المبارك يستأنه من رجل عن معاذ وهو كما قال روله في الزهد وفي إسناده كما ذكر من لم يسم ، ورواه ابن الجوزى في الموضوعات .



بما لا يعملون . وقال عكرمة : إن الله يعطى العبد على نيته ما لا يعطيه على عمله لأن النية لأرباه فيها . وقال الحسن رضى الله عنه : المرأى يريد أن يظلب قدر الله تعالى وهو رجل سوء يريد أن يقول الناس هو رجل صالح ، وكيف يقولون وقد حل من ربه عمل الأرباء ؟ فلا بد لقلوب المؤمنين أن تعرفه . وقال قتادة : إذا رأى العبد يقول الله تعالى انظروا إلى عبدى يستزى بى . وقال مالك بن دينار القزواء : ثلاثة قزواء الرحمن وقزواء الدنيا وقزواء الملوك ، وأن محمد بن واسع من قزواء الرحمن . وقال الفضل : من أراد أن ينظر إلى مرأى فلينظر إلى . وقال محمد بن المبارك الصورى : أظهر السميت بالليل فإنه أشرف من سميتك بالنهار لأن السميت بالنهار للخلقين وسمت الليل لرب العالمين . وقال أبو سليمان : التوفى عن العمل أشد من العمل . وقال ابن المبارك : إن كان الرجل ليطوف بالبيت وهو بخراسان ، فقيل له وكيف ذاك ؟ قال يجب أن لا يذكر أنه مجاور بمكة . وقال إبراهيم بن آدم : ما صدق الله من أراد أن يشتهر .

### بيان حقيقة الرياء وما يراعى به

اعلم أن الرياء مشتق من الرؤية ، والسمة مشتقة من السماع ، وإنما الرياء أصله طلب المنزلة في قلوب الناس بإيراثهم خصال الخير إلا أن الجاه والمنزلة تطلب في القلب بأعمال سوى العبادات وتطلب بالعبادات . واسم الرياء مخصوص بحكم العادة بطلب المنزلة في القلوب بالعبادة وإظهارها لحد الرياء هو إرادة العباد بطاعة الله ، فالمرأى هو العابد والمرأى هو الناس المطلوب رؤيتهم بطلب المنزلة في قلوبهم ، والمرأى به هو الحصول التى قصد المرأى إظهارها ، والرياء هو قصده إظهار ذلك ، والمرأى به كثير وتجمعه خمسة أقسام وهى بجامع ما يقرن به العبد للناس وهو : البدن ، والذى والقول ، والعمل ، والآتياع والأشياء الخارجة . وكذلك أهل الدنيا يراون بهذه الأسباب الخمسة إلا أن طلب الجاه وقصد الرياء بأعمال ليست من جملة الطاعات أهون من الرياء بالطاعات .

( القسم الأول ) الرياء فى الدين بالبدن : وذلك بإظهار التحول والصغار ليوم بذلك شدة الاجتهاد وعظم الحزن على أمر الدين وغلبة خوف الآخرة ، ولابد بالنحول على فلة الأكل والصغار على سهر الليل وكثرة الاجتهاد وعظم الحزن على الدين ، وكذلك يرأى بتشعيت الشعر ليدل به على استغراق الهم بالدين وعدم التفرغ لتسريح الشعر . وهذه الأسباب مهما ظهرت استدلت الناس بها على هذه الأمور فأرغحت النفس لمعرفتهم ، فلذلك تدعوه النفس إلى إظهارها لتدل تلك الراحة . ويقرب من هذا خفض الصوت وإغارة العينين وذبول الشفتين ، ليستدل بذلك على أنه مواظب على الصوم ، وأن وقار الشرع هو الذى خفض من صوته أو ضعف الجروح هو الذى ضعف من قوته . وعن هذا قال المسيح عليه السلام : إذا صام أحدكم فليدهن رأسه ويرجل شعره وبكحل عينيه . وكذلك روى عن أبى هريرة وذلك كله لما يخاف عليه من نزغ الشيطان بالرياء ؛ ولذلك قال ابن مسعود أصبحوا صياما مدهنين . فهذه مراعاة أهل الدين بالبدن .

فأما أهل الدنيا فيراون بإظهار السمن وصفاء اللون واعتدال القامة وحسن الوجه ولفظة البدن وقوة الاعضاء وتناسها .

( الثانى ) الرياء بالمهية والذى : أما المهية فيشعيت شعر الرأس وحلق الشارب وإطراق الرأس فى المشى والهدوء فى الحركة وإبقاء أثر السجود على الوجه وغلظ الثياب ولبس الصوف وتجميلها إلى قريب من الساق وتقصير الأكام وترك تنظيف الثوب وترك غرقا ، كل ذلك يرأى به ليظهر من نفسه أنه متبع السنة فيه ومقتد فيه بإهداء الله ( ٣٨ — لحياة علوم الدين — ٣ )

الصالحين ، ومن ذلك ليس المرقمة والصلاة على السجادة ولبس الثياب الزرق تعميها بالصوفية مع الإفلاس من حقائق التصوف في الباطن . ومنه تنتفع بالإزار فوق العامة وأسبال الرداء على العيينين ليرى به أنه قد انتهى تنقشه إلى الحذر من غبار الطريق ، ولتصرف إليه الأعين بسبب تميزه بتلك العلامة . ومنه الدراعة والعليلسان بلبسه من هو خال عن العلم ليوم أنه من أهل العلم .

والمراءون بالزى على طبقات : ففهم من يطلب المنزلة عند أهل الصلاح وإظهار الزهد فيلبس الثياب المخرقة الوسعة القصيرة النظيفة ليرأى بنظنها ووسخها وقصرها وتفرقها أنه غير مكترث بالدنيا ، ولو كلف أن يلبس ثوبا وسطا نظيفا عما كان السلف يلبسه لكان عنده بمنزلة الذبح ، وذلك لخوفه أن يقول الناس قد بدا له من الزهد ورجع عن تلك الطريقة ورغب في الدنيا . وطبقة أخرى يطلبون القبول عند أهل الصلاح وعند أهل الدنيا من الملوك والوزراء والتجار ، ولو لبسوا الثياب الفاخرة ردم القراء ولو لبسوا الثياب المخرقة البذلة أزدتهم أعين الملوك والأغنياء ، فهم يريدون الجمع بين قبول أهل الدين والدنيا ، فذلك يطلبون الأسواف الدقيقة والأكسية الرقيقة والمرقعات المصبوغة والقوط الرقيقة فيلبسوها ، ولعل قيمة ثوب أحد الأغنياء ولونه وحياته لون ثياب الصلحاء فيستحسنون القبول عند الفريقين ، وهؤلاء إن كفوا ليس ثوب خشن أو وسخ لكان عندهم كالذبح خوفا من السقوط من أعين الملوك والأغنياء ، ولوكفوا ليس النبيق والكثان الدقيق الأبيض والمقصب المعلم - وإن كانت قيمته دون قيمة ثيابهم - لعظم ذلك عليهم خوفا من أن يقول أهل الصلاح قد رغبوا في زى أهل الدنيا . وكل طبقة منهم رأى منزلته في زى مخصوص فينقل عليه الانتقال إلى مادونه أو إلى ما فوقه وإن كان مباحا خيفة من المذمة .

وأما أهل الدنيا فراماتهم بالثياب النفيسة والمرائب الرقيقة وأنواع التوسع والتجمل في الملابس والمسكن وأثاث البيت وفره الخيول وبالثياب المصبغة والطلياسة النفيسة ، وذلك ظاهر بين الناس فإنهم يلبسون في بيوتهم الثياب الخشنة ويشتم عليهم لو رزوا للناس على تلك الهيئة مالم يبالغوا في الزينة .

( الثالث ) الرباء بالقول : ورواه أهل الدين بالوظف والتذكير والنطق بالحكمة وحفظ الأخبار والآثار ، لأجل الاستعمال في المحاوراة وإظهاراً لفرادة العلم ودلالة على شدة العناية بأحوال السلف الصالحين ، وتحريلك الشفتين بالذكر في محضر الناس والأسر بالمعروف والنهي عن المنكر بمشهد الخلق ، وإظهار الفضب للمعكرات . وإظهار الأسف على مقارفة الناس للمعاصي وتضييع الصوت في الكلام وترقيق الصوت بقرأة القرآن ، ليدل بذلك على الخوف والحزن ، وأدعاء حفظ الحديث ولقاء الشيوخ والدق على من يروى الحديث ببيان خلل في لفظه ليعرف أنه يصير بالأحاديث والمبادرة إلى أن الحديث صحيح أو غير صحيح لإظهار الفضل فيه ، والمجادلة على قصد إحام الخصم ليظهر للناس قوته علم الدين . والرباء بالقول كثير وأنواعه لا تحصر .

وأما أهل الدنيا فراماتهم بالقول بحفظ الأشعار والأمثال والتفصاح في العبارات وحفظ النحو الغريب للأغراب على أهل الفضل وإظهار التورود إلى الناس لاستهالة القلوب .

( الرابع ) الرباء بالعمل : كرامة المصل بطول القيام ومدّة الظهر وطول السجود والركوع وإطراق الرأس وترك الالتفات وإظهار الهدوء والسكون وتسوية القدمين واليدين ، وكذلك بالصوم والنزول والحج وبالصدقة وإطعام الطعام ، وبالإخبار في المشي عند القضاء كإدعاء الجفون وتكليس الرأس والوقار في الكلام ، حتى إن الرأى قد يسرع في المشي إلى حاجته فإذا أطلع عليه أحد من أهل الدين رجع إلى الوقار وإطراق الرأس خوفا من

أن ينسب إلى العجالة وقلة الوار ، فإن غاب الرجل عاد إلى عجلته ، فإذا رآه عاد إلى خشوعه ولم يحضره ذكر الله حتى يكون بمقدار الخشوع له ، بل هو لا اطلاع إنسان عليه يخشى أن لا يعتقد فيه أنه من العباد والصلحاء ، ومنهم من إذا سمع هذا استعيا من أن تتألف مشيئة في الخلوة مشيئة برأى من الناس ، فيكلف نفسه المشيئة الحسنة في الخلوة حتى إذا رآه الناس لم يفكر إلى التمييز ويظن أنه يتخلص به عن الرياء وقد تضاعف به رياءه ، فإنه صار في خلوة أيضا مرابيا ، فإنه إنما يحسن مشيئة في الخلوة ليكون كذلك في الملا لالخوف من الله وحياء منه .

وأما أهل الدنيا فرامتهم بالتبخر والاختيال وتحريك اليدين وتقريب الخطأ والاختار بأطراف الذيل وإدارة المعنفين ليدلوا بذلك على الجاه والخسمة .

(الخامس) الرماة بالأصحاب والزائرين : كالذي يتكلف أن يستزير عالما من العلماء ليقل إن فلانا قد زار فلانا ، أو هابدا من العباد ليقل إن أهل الدين يتبركون بزيارته ويترددون إليه ، أو ملكا من الملوك أو حاملا من عمال السلطان ليقل إنهم يتبركون به لعظم رتبته في الدين . وكالذي يكثر ذكر الشيوخ ليرى أنه لقي شيوعا كثيرة واستفاد منهم فيباهي بشيوخه ومباهاته ومراءاته تترشح منه عند مخاطبته ، فيقول لغيره : من لقيت من الشيوخ وأنا قد لقيت فلانا وفلانا ودرت البلاد وخدمت الشيوخ ؟ وما يجري مجراه . فهذه جماع ما يراى به المرادون وكلهم يطلبون بذلك الجاه والمزلة في قلوب العباد . ومنهم من يتنفع بحسن الاعتقادات فيه فكأن من رآه ب انزوى إلى دبره سنين كثيرة ؟ وكأن من عابد اعتزل إلى قلة جبل مدة مديدة ، وإنما خباثة من حيث علمه بقيام جاهه في قلوب الخلق ولو عرف أنهم نسبوه إلى جرعة في دبره أو صومعته للشوش قلبه ولم يتنفع يعلم الله ببراءة ساعته ، بل يشتت لذلك غمه ويسمى بكل حيلة في إزالة ذلك من قلوبهم ، مع أنه قد قطع طمعه من أموالهم ولكنه يجب بمزود الجاه - فإنه لن يذكا ذكرناه في أسبابه - فإنه نوع قدرة وكال في الحال وإن كان سريع الزوال لا يثبت به إلا الجهال ولكن أكثر الناس جهال ، ومن الزائرين من لا يتنفع بقيام منزلته بل يلتمس من ذلك إطلاق اللسان بالثناء والحمد . ومنهم من يريد انتشار الصيت في البلاد لتكثر الرحلة إليه . ومنهم من يريد الاشتهار عند الملوك لتقبل شفاعة وتجر الحوائج على يده فيقوم له بذلك جاه عند العامة ، ومنهم من يقصد التوصل بذلك إلى جمع حطام وكسب مال ولو من الأوقاف وأمور اليتامى وغير ذلك من الحرام ، وهؤلاء شر طبقات المرابين الذين يراون بالأسباب التي ذكرناها . فهذه حقيقة الرياء وما به يقع الرياء .

فإن قلت : فالرياء حرام أو مكروه أو مباح أو فيه تفصيل ؟ فأقول فيه تفصيل فإن الرياء هو طلب الجاه ، وهو إما أن يكون بالعبادات أو بنزير العبادات ، فإن كان بنزير العبادات فهو كطلب المال فلا يحرم من حيث إنه طلب منزلة في قلوب العباد ، ولكن كما يمكن كسب المال بتليسات وأسباب محظورات فكذلك الجاه ، وكما أن كسب قليل من المال هو ما يحتاج إليه الإنسان بمجرد فكسب قليل من الجاه وهو ما يسلم به عن الآفات أيضا محمود ، وهو الذي يطلبه يوسف عليه السلام حيث قال ( إني خفيظ علم ) وكما أن المال فيه سم نافع ودرافق نافع فكذلك الجاه ، وكما أن كثير المال يلهي ويطنى وينسى ذكر الله والدار الآخرة فكذلك كثير الجاه يراشد ، وفتنة الجاه أعظم من فتنة المال ، وكما أننا نقول تملك المال الكثير حرام فلا نقول أيضا تملك القلوب الكثيرة حرام إلا إذا حلت كثرة المال وكثرة الجاه على مباشرة مالا يجوز . نعم انصراف المهم إلى سعة الجاه مبدأ الشرور كالانصراف إلى كثرة المال ، ولا يقدر حب الجاه والمال على ترك معاصي القلوب واللسان وغيرها ، وأما سعة

الجهاد من غير حرص منك على طلبه ومن غير اغتمام بزوالة إن زال فلا ضرر فيه ، فلا جهاد أوسع من جهاد رسول الله صلى الله عليه وسلم وجهاد الخلفاء الراشدين ومن بعدهم من علماء الدين ، ولكن انصراف المم إلى طلب الجهاد نقصان في الدين ولا يوصف بالتحريم ، فقل هذا قول : تحسين الثوب الذي يلبسه الإنسان عند الخروج إلى الناس مراماة وهو ليس بمحرم لأنه ليس براه بالعبادة بل بالدنيا ، وقس على هذا كل يعمل للناس وتزين لهم . والدليل عليه ما روى عن عائشة رضي الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يخرج يوماً إلى الصحابة فكان ينظر في جب الماء ويسوي عمامته وشعره فقالت : أو تفعل ذلك يا رسول الله ؟ قال : نعم إن الله تعالى يحب من العبد أن يتزين لإخوانه إذا خرج إليهم <sup>(١)</sup> ، نعم هذا كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم عبادة لأنه كان مأموراً بدعوة الخلق وترغيبهم في الاتباع واستئالة قلوبهم ، ولو سقط من أعينهم لم يرغبوا في اتباعه ، فكان يجب عليه أن يظهر لهم محاسن أحواله ثلاثاً ترد به أعينهم ، فلن أعين عوام الخلق تمتد إلى الطواغيت السرائر ، فكان ذلك قصد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن لو قصد قاصد به أن يحسن نفسه في أعينهم حذراً من ذمهم ولومهم واسترواحاً إلى توقيهم واحترامهم كان قد قصد أمراً مباحاً ، إذ للإنسان أن يحترز من ألم المذمة ويطلب راحة الناس بالإخوان . ومهما استقلوه واستقذروه لم يألس بهم .

فإن المراماة بما ليس من العبادات قد تكون مباحة ، وقد تكون طاعة ، وقد تكون مذمومة ، وذلك بحسب الفرض المطلوب بها . ولذلك نقول : الرجل إذا أنفق ماله على جماعة من الأغنياء لا في معرض العبادة والصدقة ولكن ليمتد الناس أنه سخي فهذا مراماة وليس بمحرم وكذلك أمثاله .

أما العبادات كالصدقة والصلاة والصيام والغزو والحج فللرأي فيه حالتان إحداها : أن لا يكون له قصد إلا الرباء الخس دون الأجر ، وهذا يطل عبادة لأن الأعمال بانيات ، وهذا ليس بقصد العبادة ، لا يقتصر ، على إحباط عبادته حتى نقول صار كما كان قبل العبادة بل يسعى بذلك ويأثم كما دلت عليه الأخبار والآيات .

والخفي فيه أمران ( أحدهما ) يتعلق بالعباد وهو التلبس والمكر لأنه خيل إليهم أنه غلب مطيع لله وأنه من أهل الدين وليس كذلك ، والتلبس في أمر الدنيا حرام أيضاً ، حتى لو قضى دين جماعة وخيل للناس أنه متبرع عليهم ليمتدوا بحقوقه أثم به لما فيه من التلبس وتلك القلوب بالخداع والمكر . ( والثاني ) يتعلق بالله وهو أنه مهما قصد بعبادة الله تعالى خلق الله فهو مستهزئ بالله . ولذلك قال قتادة : إذا رمى المبد قال الله للملائكة انظروا إليه كيف يستهزئ بي .

ومثاله أن يشتم بين يدي ملك من الملوك طول النهار كما جرت عادة الخدم وإثما وقوفه لملاحظة جارية من من حواري الملك أو غلام من غلمانه ، فإن هذا استهزاء بالملك إذ لم يقصد التقريب إلى الملك بخدمة بل قصد بذلك عبدا من عبيده ، فأى استحقاق يزيد على أن يقصد العبد بطاعة الله تعالى مراماة عبد ضعيف لا يمكن له ضرا ولا نفعا ؟ وهل ذلك إلا لأنه يظن أن ذلك العبد أقدر على تحصيل أغراضه من الله ؟ وأنه أولى بالتقريب إليه من الله إذا أتره على ملك الملوك لجملة مقصود عبادته ؟ رأى استهزاء يزيد على رفع العبد فوق الملوك ؟ فهذا من كبار المهلكات ولهذا

(١) حديث عائشة : أراد أن يخرج على أصحابه وكان ينظر في جب الماء ويسوي عمامته وشعره ... الحديث أخرجه ابن عدى في الكامل وقد تقدم في العبادة .

سماء رسول الله صلى الله عليه وسلم الشرك الأصغر <sup>(١)</sup>.

نعم بعض درجات الرياء أشد من بعض - كما سيأتي بيانه في درجات الرياء إن شاء الله تعالى - ولا يخلو شيء منه عن إثم غليظ أو خفيف بحسب ما به المراماة ولولم يكن في الرياء إلا أنه يسجد ويركع لغير الله لكان فيه كفاية ، فإنه وإن لم يقصد التقرب إلى الله فقد قصد غير الله ، ولممرى لو عظم غير الله بالسجود لكفر كفرًا جليًا ، إلا أن الرياء هو الكفر الحق لأن المراني عظم في قلبه الناس ، فافتضت تلك العظمة أن يسجد ويركع فكان الناس هم الممظنون بالسجود من وجه ، ومهما زال قصد تعظيم الله بالسجود وبقي تعظيم الخلق كان ذلك قريبًا من الشرك ، إلا أنه قصد تعظيم نفسه في قلب من عظم عنده بإظهاره من نفسه صورة التعظيم ، فمن هذا كان شركًا خفيًا لا شرًا جليًا ، وذلك غاية الجهل ولا يقدم عليه إلا من خدعه الشيطان وأوهم عنده أن العباد يملكون من ضره ونفعه ورضاه وأجله ومصالح حاله وما له أكثر مما يملكه الله تعالى ، فلذلك عدل بوجهه عن الله إليهم وأقبل بقلبه عليهم ليستميل بذلك قلوبهم ، ولو وكاهه تعالى إليهم في الدنيا والآخرة لكان ذلك أقل مكافأة له على صنيعه ، فإن العباد كلهم عاجزون عن أنفسهم لا يملكون لأنفسهم نعمًا ولا ضرًا فكيف يملكون لغيرهم هذا في الدنيا ؟ فكيف في يوم لا يحصى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئًا بل يقولون لأنبياء فيه نفسى نفسى ؟ فكيف يستبدل الجاهل عن ثواب الآخرة ونيل التقرب عند الله ما يرتبه بطمعه الكاذب في الدنيا من الناس ؟ فلا يلبس أن تشك في أن المراني بطاعة الله في سخط الله من حيث النقل والقياس جميعًا هذا إذا لم يقصد الأجر فأما إذا قصد الأجر والحمد جميعًا في صدقته أو صلاته فهو الشرك الذي يناقض الإخلاص . وقد ذكرنا حكمه في كتاب الإخلاص ، ويدل على ما نقلناه من الآثار قول سعيد بن المسيب وعبادة بن الصامت : إنه لا أجر له فيه أصلاً .

### بيان درجات الرياء

اعلم أن بعض أبواب الرياء أشد وأغلظ من بعض ، واختلافه باختلاف أركانه وتفاوت الدرجات فيه . وأركانه ثلاثة : المراد به والمرادى لاجله ونفس قصد الرياء .

الركن الأول : نفس قصد الرياء وذلك لا يخلو إما أن يكون مجرداً دون إرادة عبادة الله تعالى والثواب ، وإما أن يكون مع إرادة الثواب ، فإن كان كذلك فلا يخلو إما أن تكون إرادة الثواب أقوى وأغلب أو أضعف أو مساوية لإرادة العبادة فتكون الدرجات أربعة :

(الأول) وهي أغلظها أن لا يكون مراده الثواب أصلاً ، كالذي يصلى بين أظهر الناس ولو انفرد لكان لا يصلى ، بل وربما يصلى من غير طهارة مع الناس ، فهذا جرد قصده إلى الرياء فهو المفقوت عند الله تعالى . وكذلك من يفرج الصدقة خوفاً من مذمة الناس وهو لا يقصد الثواب ولا خلا بنفسه لما أداها فهذه الدرجة العليا من الرياء .

(الثانية) أن يكون له قصد الثواب أيضاً ولكن قصداً ضعيفاً ، بحيث لو كان في الخلوة لكان لا يضعه ، ولا يحمله ذلك القصد على العمل ، ولم يكن قصد الثواب لكان الرياء يحمله على العمل ، فهذا قريب مما قبله

(١) حديث : سمى الرياء الشرك الأصغر . أخرجه أحمد من حديث محمود بن زيد وقد تقدم ورواه الطبراني من رواية محمود بن لبيد عن رافع بن خديج عنه في مسند رافع وقد تقدم قريباً ولحقنا صحيح إسناده من حديث شعاذ بن أوس : كنا نعد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الرياء الشرك الأصغر ،

وما فيه من شائبة قصد ثواب لا يستقل بعمله على العمل لا يثنى عنه المقت والإجم .

( الثالثة ) أن يكون له قصد الثواب وقصد الرياء متساويين ، بحيث لو كان كل واحد منهما غالباً عن الآخر لم يمتعه على العمل فلما اجتمعا انبثت الرغبة ، أو كان كل واحد منهما لو انفرد لاستقل بعمله على العمل ؛ فهذا قد أفسد مثل ما أصح فترجى أن يسلم رأساً برأس لا له ولا عليه ، أو يكون له من الثواب مثل ما عليه من العقاب وظواهر الأخبار تبدل على أنه لا يسلم ، وقد تكلمنا عليه في كتاب الإخلاص .

( الرابعة ) أن يكون إطلاع الناس مرجحاً ومقوياً لنشاطه ولو لم يكن لكان لا يترك العبادة ولو كان قصد الرياء وحده لما أقدم عليه فالذي نفعه والعلم عند الله أنه لا يحيط أصل الثواب ولكنه ينقص منه أو يعاقب على مقدار قصد الرياء ويثاب على مقدار قصد الثواب وأما قوله صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى أنا أغنى الأغنياء عن الشرك » فهو محمول على ما إذا تساوى القصدان أو كان قصد الرياء أرجح .

الركن الثاني : المراد به وهو الطاعات وذلك ينقسم إلى الرياء بأصول العبادات وإلى الرياء بأوصافها .

القسم الأول وهو الأغلب : الرياء بالأصول وهو على ثلاث درجات .

( الأولى ) الرياء بأصل الإيمان وهذا أغلظ أبواب الرياء وضاحجه عكس في النار ، وهو الذي يظهر كلفى الشهادة وباطنه مشحون بالتكذيب ولكنه رأتى بظاهر الإسلام ، وهو الذي ذكره الله تعالى في كتابه في مواضع شتى كقوله عز وجل ﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾ أى في دلالتهم بقولهم على ضياعهم وقال تعالى ﴿ ومن الناس من يسببك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على مافى قلبه وهو ألد الخصام وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ﴾ الآية وقال تعالى ﴿ وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ﴾ وقال تعالى ﴿ يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً مذبذبين بين ذلك ﴾ والآيات فيهم كثيرة . وكان اتفاق يكثر في ابتداء الإسلام عن يدخل في ظاهر الإسلام ابتداء لفرض ، وذلك مما يقل في زماننا ، ولكن يكثر نفاق من ينسل عن الدين باطناً فيجسد الجفة والنار والدار الآخرة ميلاً إلى قول الملحدة ، أو يعتقد على بساط الشرع والأحكام ميلاً إلى أهل الإباحة ، أو يعتقد كفرة أو بدعه وهو يظهر خلافه ، فهؤلاء من المنافقين والمراميين المخلفين في النار ، وليس وراء هذا الرياء رياء ، وسال هؤلاء أشد حالاً من الكفار الجاهرين ، فإنهم جمعوا بين كفر الباطن ونفاق الظاهر .

( الثانية ) الرياء بأصول العبادات مع التصديق بأصل الدين ، وهذا أيضاً عظيم عند الله ولكنه دون الأول بكثير . ومثاله : أن يكون مال الرجل في يد غيره فيأمره بأخراج الزكاة خوفاً من ذمه ، والله يعلم منه أنه لو كان في يده لما أخرجهما ، أو يدخل وقت الصلاة وهو في جمع وطأته ترك الصلاة في الخلة ، وكذلك يصوم رمضان وهو يشتهي خلوة من الخلق ليفطر ، وكذلك يحضر الجمعة ولو لا خوف المذمة لكان لا يحضرها ، أو يصل رحمه أو يبر والده لاعت رغبة ولكن خوفاً من الناس ، أو يزوج أو يبيع كذلك . فهذا مرأى أصل الإيمان بالله يعتقد أنه لا محبوب سواه ، ولو كلف أن يبدغير الله أو يسجد لله لم يفعل ، ولكنه يترك العبادات للكسل وينشط عند إطلاع الناس فتكون منزلته عند الخلق أحب إليه من منزلته عند الخلق ، وخوفه من مذمة الناس أعظم من خوفه من عقاب الله ، ورغبته في محبتهم أشد من رغبته في ثواب الله ، وهذا غاية الجهل وما أجدر صاحبه بالقتل وإن كان غير منسل عن أصل الإيمان من حيث الاعتقاد .

( الثالثة ) أن لا يرائى بالإيمان ولا بالفرائض ، ولكنه يرائى بالتواضع والسكن التي لو تركها لا يعضى ، ولكنه يكسل عنها في الخلوة لفتور رغبته في ثوابها ولإيثارة لذة الكسل على ما يرجى من الثواب ، ثم يبعثه الرّاء على فعلها ، وذلك كخسوف الجماعة في الصلاة وعبادة المريض واتباع الجنّاة وغسل الميت ، وكالتجهد بالليل وصيام يوم عرفة وعاشوراء ويوم الاثنين والخميس . فقد يفعل المرائى جملة ذلك خوفاً من المذمة أو طلباً للحمدة ، ويعلم الله تعالى منه أنه لو خلا بنفسه لما زاد على أداء الفرائض . فهذا أيضاً عظيم ولكنه دون ما قبله ، فإن الذى قبله أثر حمد الخلق على حمد الخالق . وهذا أيضاً قد فعل ذلك واتقى ذم الخلق دون ذم الخالق ، فكان ذم الخلق أعظم عنده من عتاب الله ، وأما هذا فلم يفعل ذلك لأنه لم يخف عتاباً على ترك النافعة لو تركها ، وكأنه على شطر من الأول وعتابه نصف عتابه . فهذا هو الرّاء بأصول العبادات .

القسم الثانى : الرّاء بأوصاف العبادات لأبصولها ، وهو أيضاً على ثلاثة درجات .

( الأولى ) أن يرائى بفعل ما فى تركه نقصان العبادة ، كالذى غرضه أن يخفف الركوع والسجود ولا يطول القراءة ، فإذا رآه الناس أحسن الركوع والسجود وترك الالتفات وتم القعود بين السجدين ، وقد قال ابن مسعود من فعل ذلك فهو استهانة يستهين بها ربه عز وجل ؛ أى أنه ليس يبالي بإطلاع الله عليه في الخلوة ، فإذا اطلع عليه أدى أحسن الصلاة ، ومن جلس بين يدي إنسان قريباً أو متكتفاً فدخل غلامه فاستوى أحسن الجلسة كان ذلك منه تقديماً للسلام على السيد واستهانة بالسيد لا محالة . وهذا حال المرائى بتحسين الصلاة في المالدون الخلوة . وكذلك الذى يعتاد إخراج الزكاة من الثمن الرديئة أو من الحب الرديء فإذا اطلع عليه غيره أخرجهما من الجيد خوفاً من مذمته ، وكذلك الصائم يصوم عن الغيبة والرفق لأجل الخلق لا إكمالاً لعبادة الصوم خوفاً من المذمة ، فهذا أيضاً من الرّاء المحظور لأن فيه تقديماً للمخلوقين على الخالق ، ولكنه دون الرّاء بأصول التطوعات .

فإن قال المرائى : إنما فعلت ذلك صيانة لأنفسهم عن التّيب ، فإنهم إذا رأوا تخفيف الركوع والسجود وكثرة الالتفات أطلقوا اللسان بالذم والفتية ، وإنما قصدت صيانتهم عن هذه المعصية ؟ فيقال له : هذه مكيده للشيطان عندك وتليس ، وليس الأمر كذلك ، فإن ضرورك من نقصان صلاتك هو خدمة منك لمولوك أعظم من ضررك بغبية غيرك ، فلو كان يملك الدين لكان شغفتك على نفسك أكثر ، ومأنت في هذا إلا كمن يهذى وصيفة إلى طك لينال منه فضلاً وولاية يتقلدها ، فيهدى إليه وهى عوداء قبيحة مقطوعة الأطراف ولا يبالي به إذا كان الملك وحده ، وإذا كان عنده بعض غلبته امتنع خوفاً من مذمة غلبته ؛ وذلك محال بل من يراعى جانب غلام الملك يغبى أن تكون مراقبته للملك أكثر .

نعم للرّاءى فيه حالتان : إحداهما أن يطلب بذلك المنزلة والمحمدة عند الناس وذلك حرام قطعا . والثانية : أن يقول ليس يصحرنى الإخلاص في تحسين الركوع والسجود ، ولو خففت كانت صلاتى عندهم ناقصة وأذانى الناس بذهمهم وغيبتهم ، فأستفيد بتحسين الهيئة دفع مذمتهم ولا أرجو عليه ثواباً ، فهو خير من أن أترك تحسين الصلاة فيفوت الثواب وتحصل المذمة فهذا فيه أدنى نظر . والصحيح أن الواجب عليه أن يحسن ويخلص ، فإن لم تحضره التّيب فينبى أن يستمر على عادته في الخلوة فليس له أن يدفع الدم بالمرأاة بطاعة الله فإن ذلك استهزاء كما سبق .

( الدرجة الثانية ) أن يرائى بفعل ما لا نقصان في تركه ولكن فعله في حكم الشكوة والتّهمة لعبادته ، كالتطويل في الركوع والسجود ومدة القيام وتحسين الهيئة ورفع اليدين والمباذرة إلى التكبير الأولى وتحسين الاعتدال

والزيادة في القرامة على السور المعتادة ، وكذلك كثرة الخلوة في صوم رمضان وطول الصمت ، وكاختيار الأجود على الجيد في الزكاة وإتقان الرقية الغالية في الكفارة . وكل ذلك ما لو خلا بنفسه لكان لا يقدم عليه .  
 ( الثالثة ) أن يرأى زيادات خارجة عن نفس التوافل أيضا كحضوره الجماعة قبل الترم وقصده للصاف الاول وتوجهه إلى بين الإمام وما يجرى مجراه . وكل ذلك ما يعلم الله منه أنه لو خلا بنفسه لكان لا يبالى أين وقف ومتى يحرم بالصلاة ؟ فهذه درجات الرياء بالإضافة إلى ما يرأى به وبمضه أشد من بعض . والكل مذموم .  
 الركن الثالث : الرأى لأجله ، فإن للرأى مقصودا لأعالة ، وإنما يرأى لإدراك مال أو جاه أو غرض من الأغراض لأعالة ، وله أيضا ثلاث درجات :

( الاول ) وهي أشدها وأعظمها أن يكون مقصوده التمكن من معصية ، كالذى يرأى بعبادته ويظهر التقوى والورع بكثرة التوافل والامتناع عن أكل الصبوات وغرضه أن يعرف بالأمانة فيبول القضاء أو الأوقاف أو الوصايا أو مال الأيتام فيأخذها أو يسلم إليه نفقة الزكاة أو الصدقات ليستأثر بما قدر عليه منها ، أو يردع الدائع فيأخذها ويحدها ، أو تسلم إليه الأموال التي تنفق في طريق الحج فيختزل بعضها أو كلها ، أو يتوصل بها إلى استئجار الحجيج ويتوصل بقوتهم إلى مقاصد الفاسدة في المعاصي . وقد يظهر بعضهم زى التصوف وهيمة الخشوع وكلام الحكمة على سبيل الوعظ والتذكير وإنما قصده التحجب إلى امرأة أو غلام لأجل الفجور ، وقد يحضرون مجالس العلم والتذكير وحلق القرآن يظهرهم الرغبة في سماع العلم والقرآن وغرضهم ملاحظة النساء والصبيان ، أو يخرج إلى الحج ومقصوده الظفر بمن في الرفقة من امرأة أو غلام . وهؤلاء أنبض المرائين إلى الله تعالى لأنهم جعلوا طاعة وجه سما إلى معصيته واتخذوها آلة ومتجرا وبضاعة لهم في فسقهم ، ويقرب من هؤلاء وإن كان دونه من هو مقترف جرمة أتهم بها وهو مصر عليها ويريد أن ينق التهمة عن نفسه فيظهر التقوى لئلا التهمة كالذى جحد ودبحة واتهمه الناس بها فيتصدق بالمال ليقال إنه يتصدق بمال نفسه فكيف يستحل مال غيره وكذلك من ينسب إلى لجور بامرأة أو غلام فيدفع التهمة عن نفسه بالخشوع وإظهار التقوى .

( الثانية ) أن يكون غرضه نيل حظ مباح من حظوظ الدنيا من مال أو نكاح امرأة جميلة أو شريفة ، كالذى يظهر الحزن والبكاء ويشغل بالوعظ والتذكير لتبذل له الأموال ويرغب في نكاحه النساء ، فيقصد إما امرأة بعينها لينكحها أو امرأة شريفة على الجملة ، وكذلك يرغب أن يتزوج بنت عالم عابد فيظهر له العلم والعبادة ليرغب في تزويجه ابنته . فهذا رياء محذور لأنه طلب بطاعة الله متاع الحياة الدنيا ولكنه دون الأول ، فإن المطلوب بهذا مباح في نفسه .

( الثالثة ) أن لا يقصد نيل حظ وإدراك مال أو نكاح ، ولكن يظهر عبادته خوفا من أن ينظر إليه بعين التقص ولا يمد من الخاصة والزهد ويمتد أنه من جملة العامة كالذى يمشى مستجبلا فيقطع عليه الناس فيحسن المشى ويترك العجلة كيلا يقال إنه من أهل اللهو والسهر لا من أهل الوقار ، وكذلك إن سبق إلى الضحكة أو بدا منه المزاح فيخاف أن ينظر إليه بعين الاحتقار فيتبع ذلك بالاستغفار وتقص الصدقات وإظهار الحزن ، ويقول ما أعظم غفلة آدمى عن نفسه ، والله يعلم منه أنه لو كان في خلوة لما كان يثقل عليه ذلك ، وإنما يخاف أن ينظر إليه بعين الاحتقار لا بعين التوفير ، وكذلك يرى جماعة يصلون التراويح أو يتجهدون أو يصومون الحيس واللاتين أو يتصدقون فيوافهم خيفة أن ينسب إلى الكسل ويلحق بالعوام ، ولو خلا بنفسه لكان



لا يفضل شيئاً من ذلك ، وكالذى يعطش يوم عرفة أو عاشوراء أو فى الاشهر الحرم فلا يشرب خوفاً من أن يسلم الناس أنه غير صائم ، فإذا ظنوا به الصوم امتنع عن الأكل لاجله ، أو يدعى إلى طعام فيمتنع ليعظ أنه صائم وقد لا يصرح بأنى صائم ولكن يقول : لى عذر ، وهو جمع بين خيئين ، فإنه يرى أنه صائم ثم يرى أنه غلص ليس براء ، وأنه يحترز من أن يذكر عبادته للناس فيكون مرايياً فيريد أن يقال إنه سائر لعبادته ، ثم إن اضطر إلى شرب لم يصبر عن أن يذكر لنفسه فيه عذراً تصريحاً أو تعريضاً بأن يتعلم بمرض يقتضى فرط العطش ويمنع من الصوم ، أو يقول أظفرت تطليبا لقلب فلان ، ثم قد لا يذكر ذلك متصلاً بشربه كي لا يظن به أن يعتذر رياء ، ولكنه يصبر ثم يذكر عذره فى معرض حكاية عرضاً ؛ مثل أن يقول : إن فلانا يحب للإخوان شديد الرغبة فى أن يأكل الإنسان من طعامه وقد ألح على اليوم ولم أجد بداً من تطليب قلبه . ومثل أن يقول : إن أى ضعيفة القلب مشقة على تظن أنى لو صحت يوما مرضت فلا تدعى أصوم ، فهذا وما يجرى مجراه من آفات الرياء فلا يسبق إلى اللسان إلا لرسوخ عرق الرياء فى الباطن . أما المخلص فإنه لا يبالي كيف نظر الخلق إليه ؟ فإن لم يكن له رغبة فى الصوم وقد علم الله ذلك منه فلا يريد أن يعتقد غيره ما يخالف علم الله فيكون ملبساً ، وإن كان له رغبة فى الصوم لله فتح بعلم الله تعالى ولم يشرك فيه غيره ، وقد ينظر له أن فى إظهاره اقتداء غيره به وتحريك رغبة الناس فيه وفيه مكيدة وغرور . وسيأتى شرح ذلك وشروطه .

فهذه درجات الرياء ومراتب أصناف المرائين وجميعهم تحت مقت الله وغضبه ، وهو من أشد المهلكات وإن من شدته أن فيه شوائب هى أخفى من ديب النمل كما ورد به الخبر ، يزل فيه حلول اللبساء فضلاً عن العباد الجاهلاء بأفات النفوس وغوائل القلوب والله أعلم .

### بيان الرياء الحنفى الذى هو أخفى من ديب النمل

اعلم أن الرياء جللى وخفى ، فالجللى هو الذى يبحث على العمل ويحعمل عليه ولو قصد الثواب وهو أجلله ، وأخفى منه قليلاً هو ما لا يحعمل على العمل بمجرد ، إلا أنه يخفف العمل الذى يريد به وجه الله ، كالذى يمتد التهجيد كل ليلة ويثقل عليه فإذا نزل عنده ضيف تنشط له وخف عليه وعلم أنه لولا رجاء الثواب لكان لا يصل لمجرد رياء الضيفان وأخفى من ذلك ما لا يؤثر فى العمل ولا بالتسهيل والتخفيف أيضاً ولكنه مع ذلك مستبطن فى القلب ، ومهما لم يؤثر فى الدماء إلى العمل لم يمكن أن يعرف إلا بالعلامات ، وأجلى علاماته أن يسر باطلاع الناس على طاعته فرب عبد يخلص فى عمله ولا يعتقد الرياء بل يكرهه ويرده ويتم العمل كذلك ، ولكن إذا اطلع عليه الناس سره ذلك وارتاح له وروح ذلك عن قلبه شدة العبادة ، وهذا السرور يدل على رياء خفى منه يرشح السرور ، ولولا التفات القلب إلى الناس لما ظهر سروره عند اطلاع الناس ، فلقد كان الرياء مستكناً فى القلب استكان النار فى الحجر فأظهر عنه اطلاع الخلق أثر الفرح والسرور ، ثم إذا استقر لذة السرور بالاطلاع ولم يقابل ذلك بكرة إيمانية فيصير ذلك قوياً وغذاء للعرق الحنفى من الرياء حتى يتحرك على نفسه حركة خفية ، فيستأخى تخافياً خفياً أن يتكف سبياً يطلع عليه بالترخيص وإلقاء الكلام عرضاً وإن كان لا يدعو إلى التصريح ، وقد يعنى فلا يدعو إلى الإظهار بالنطق تعريضاً وتصريحاً ولكن بالشائيل ، كإظهار التحول والصفاء وخفض الصوت ويبس الشفتين وجفاف الريق وآثار الدموع وغلبة التماس المال على طول التهجيد ، وأخفى من ذلك أن يحقق بحيث لا يريد الاطلاع ولا يسر بظهور طاعته ، ولكنه مع ذلك إذا رأى الناس أحب أو يدينوه بالسلام وأن يقابلوه بالباشة والتبرير وأن يشأوا عليه

(٣٩ - بحياى علوم الدين - ٣)

وأن ينشطوا في قضاء حوائجهم وأن يسامحوه في البيع والشراء وأن يوسعوا له في المكان ، فإن قصر فيه مقصر مثل ذلك على قلبه ووجد لذلك استبعادا في نفسه كأنه يتقاضى الاحترام مع الطاعة التي أخفاها مع أنه لم يطلع عليه ، ولو لم يكن قد سبق منه تلك الطاعة لما كان يستبعد تخصيص الناس في حقه ، ومهما لم يكن وجود العبادة كمدى في كل ما يتعلق بالخلق لم يكن قد قطع بعلم الله ولم يكن خاليا عن شوب خفى من الرياء أخفى من ديب البخل<sup>(١)</sup> وكل ذلك يوشك أن يجعل الأجر ولا يسلم منه إلا الصديقون .

وقد روى عن علي كرم الله وجهه أنه قال : إن الله عز وجل يقول للقراء يوم القيامة ، ألم يكن يرخص عليكم السر ألم تكونوا تبتدون بالسلام ألم تكونوا تقضى لكم الحوائج . وفي الحديث ، لا أجر لكم قد استوفيت أجوركم ، وقال عبد الله بن المبارك . روى عن وهب بن منبه أنه قال إن رجلا من السواح قال لأصحابه إنا إنما فارقنا الأموال والأولاد عاقبة الطغيان فنخاف أن نكون قد دخل علينا في أمرنا هذا من الطغيان أكثر مما دخل على أهل الأموال في أمورهم ، إن أحدنا إذا لم يحب أن يعظم لمكان دينه وإن سأل حاجة أحب أن تقضى له لمكان دينه وإن اشترى شيئا أحب أن يرخص عليه لمكان دينه ، فبلغ ذلك ملكهم فركب في موكب من الناس فإذا السهل والجبل قد امتلأ بالناس ، فقال السائح ما هنا ؟ قيل هذا الملك قد أغلظك ، فقال للغلام اتنى بطعام فأناه بقل وزيت وقلوب الشجر ، لجمل يحشو شدةه وبأكل أكلا ضيفا فقال للملك أين صاحبك؟ فقالوا هذا ، قال كيف أنت ؟ قال كالناس ، وفي حديث آخر : بخير ، فقال للملك ما عند هذا من خير ؟ فانصرف عنه ، فقال السائح الحمد لله الذي صرفك عني وأنت لي ذام . فلم يزل المخلصون حائقين من الرياء الخفى يجهدون لذلك في معاداة الناس عن أعمالهم الصالحة يحرصون على إخفاؤها أعظم مما يحرص الناس على إخفاء فواحشهم ، كل ذلك رجا أن يخلص أعمالهم الصالحة فيجازيهم الله في القيامة بإخلاصهم على ملائ من الخلق ، إذ علموا أن الله لا يقبل في القيامة إلا الخالص وعلموا شدة حاجتهم وقاقتهم في القيامة وأنه يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ولا يجرى والده عن ولده ، ويشتمل الصديقون بأنفسهم فيقول كل واحد . نفسى نفسى ! فضلا عن غيرهم فكانوا كزوار بيت الله إذ أتوا جهورا إلى مكة فأنهم يستصحبون مع أنفسهم الذهب المخرى الخالص لعلهم أن أرباب البوادي لا يروج عنهم الزائف والهرج ، والحاجة تشتد في البادية ولا وطن يفزع إليه ولا حيم يتمسك به فلا ينجى إلا الخالص من النقد ، ففصكنا يشاهد أرباب القلوب يوم القيامة والزاد الذي يتزودونه له من التقوى . فإذا شوائب الرياء الخفى كثيرة لا تنحصر ، ومهما أدرك من نفسه تفرقه بين أن يطلع على عبادته إنسان أو بهيمة ففيه شبهة من الرياء فإنه لما قطع طمعه عن البهائم لم يبال حضرة البهائم أو الصبيان الرضع أم غايروا ، اطلعو على حركته أم لم يطلعو ، فلو كان مخلصا فأنما يعلم الله لاستحقر عقلاه العباد كما استحقر صبياتهم ومجانيتهم ، وعلم أن العقلاء لا يقدرون على رزق ولا أجل ولا زيادة ثواب ونقصان عقاب كما لا يقدر عليه البهائم والصبيان والمجانين ، فإذا لم يجد ذلك ففيه شوب خفى ، ولكن ليس كل شوب محبطا للأجر مفسدا للعمل بل فيه تفضيل .

فإن قلت : فما نرى أحدا ينفك عن السرور إذا عرفت طاعته ، فالسرور مذموم كله أو بعضه محمود وبعضه مذموم ؟ فنقول . أولا ، كل سرور فليس بمذموم بل السرور منقسم إلى محمود وإلى مذموم .

فأما محمود فأربعة أقسام (الأول) أن يكون قصده إخفاء الطاعة والإخلاص لله ، ولكن لما اطلع عليه

(١) حديث « في الرياء شوائب أخفى من ديب الجمل » أخرجه أحمد والبيهقي من حديث أبي موسى الأشعري « أخروا هذا الموكب فإنه أخفى من ديب الجمل » ورواه ابن حبان في الضعفاء من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه وهو والله عظيم .

الخلق علم أن الله أعلمهم وأظهر الجليل من أحواله ، فيستدل به على حسن صنع الله به ونظرة إليه والطاعة به ، فإنه يستر الطاعة والمعصية ثم الله يستر عليه المعصية ويظهر الطاعة ، ولا تلفظ أعظم من سر القبيح وإظهار الجليل ، فيكون فرحه بحميل نظر الله له لا بحمد الناس وقيام الملة في قلوبهم وقد قال تعالى ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ﴾ فكانه ظهر له أنه عند الله مقبول ففرح به ..

( الثاني ) أن يستدل بإظهار الله الجليل وستره القبيح عليه في الدنيا أنه كذلك يفعل في الآخرة إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما سر الله على عبد دنبا في الدنيا إلا ستره عليه في الآخرة »<sup>(١)</sup> فيكون الأول فرحا بالقبول في الحال من غير ملاحظة المستقبل ، وهذا الثبات إلى المستقبل .

( الثالث ) أن يظن رغبة المظلمين على الاقتداء به في الطاعة فيتضاعف بذلك أجره ، فيكون له أجر العالانية بما أظهر أخرا وأجر السريما فقصده أولا ، ومن اقتدى به في طاعة فله مثل أجر أعمال المقتدين به من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، وتوقع ذلك جدير بأن يكون سبب السرور ، فإن ظهور غايل الرخ لئذ وموجب السرور لآعالة .

( الرابع ) أن يحبه المظلمون على طاعته فيفرح بطاعتهم لله في مدحهم وبجهم للطبع وبميل قلوبهم إلى الطاعة وإذا من أهل الإيمان من يرى أهل الطاعة فيمته ويحسه أو يذمه ويهزأ به أو ينسبه إلى الرياء ولا يحبه عليه ، فهذا فرح يحسن إيمان عباد الله . وعلامة الإخلاص في هذا النوع أن يكون فرحه بحمده غيره مثل فرحه بحمدهم لياه . وأما اللذوم وهو الخامس : فهو أن يكون فرحه لقيام منزلة في قلوب الناس حتى يمدحوه ويعظموه ويقولوا بفضله حوائجه ويقابلوه بالإكرام في مصادر وموارده فهذا مكره والله تعالى أعلم .

#### بيان ما يحيط بالعمل من الرياء الخفي والجلي وما لا يحيط

فتقول فيه : إذا عقد العبد العباد على الإخلاص ثم ورد عليه الرياء فلا يتجول ما أن يرد عليه بعد فراغه من العمل أو قبل الفراغ ، فإن ورد بعد الفراغ سرور مجرد بالظهور من غير إظهار فهذا لا يفسد العمل ، إذ العمل قد تم على نعمت الإخلاص سالما عن الرياء فلا يطرأ بعده فيرجو أن لا يتعطف عليه أثر ، لاسيما إذا لم يتكلف هو إظهاره والتحدث به ولم يمتن إظهاره وذكره ولكن اتفق ظهوره وإظهاره الله ، ولم يكن منه إلا ما دخل من السرور والارتياح على قلبه . نعم لو تم العمل على الإخلاص من غير عقد رياء ولكن ظهرت له بعده رغبة في الإظهار فتحدث به وأظهره فهذا غفري .

وفي الآثار والأخبار ما يدل على أنه يحيط فقد روى عن ابن مسعود أنه سمع رجلا يقول قرأت البارحة البقرة فقال ذلك حظه منها . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لرجل قال له : سمعت الدهر يارسول الله . فقال له « ما سمعت ولا أفطرت »<sup>(٢)</sup> ، فقال بعضهم إنما قال ذلك لأنه أظهره وقيل هو إشارته إلى كرامة صوم الدهر . وكيفما كان فيحتمل أن يكون ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن ابن مسعود استدلالا على أن قلبه عند العبادة لم يخل من عقد الرياء وقصده له لما أن ظهر منه التحدث به ، إذ يبعد أن يكون ما يطرأ بعد العمل مبطلا لثواب العمل بل الأتيسر أن يقال إنه ثواب على عمله الذي مضى ومعاقب على مراماته بطاعة الله بعد الفراغ منها ،

(١) حديث « ما سر الله على عبد دنبا في الدنيا إلا ستره عليه في الآخرة » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة (٧) حديث قال لرجل قال : سمعت الدهر « ما سمعت ولا أفطرت » أخرجه مسلم من حديث أبي قتادة : قال عمر يارسول الله كيف بمن يصوم الدهر ؟ قال « لاسام ولا أنظر » ولطبراني من حديث أسماء بنت يزيد في أثناء حديث : فيه : قال رجل إني صائم ، قال بعض الرواة أنه لا يطرأ أنه يصوم كل يوم قال النبي صلى الله عليه وسلم « لاسام ولا أنظر من صام الأبد » ولم أجده بلفظ الخطاب .

بمخلاف ما لو تغير عقده إلى الرياء قبل الفراغ من الصلاة فإن ذلك قد يبطل الصلاة ويحبط العمل . وأما إذا ورد  
وارد الرياء قبل الفراغ من الصلاة مثلا وكان قد عقد على الإخلاص ولكن ورد في أثنائها وارد الرياء ، فلا يخلو  
إما أن يكون مجرد سرور لا يؤثر في العمل ولما أن يكون رياء باعثا على العمل ، فإن كان باعثا على العمل وختم  
العبادة به حبط أجره . ومثاله : أن يكون في تعلقه فتجددت له النظارة ، أو حضر ملك من الملوكة وهو يشتهي أن  
ينظر إليه ، أو يذكر شيئا من ماله وهو يريد أن يطلبه ، ولولا الناس لقطع الصلاة فاستتمها خوفا من مذمة  
الناس ، فقد حبط أجره وعليه الإعادة إن كان في فريضة وقد قال صلى الله عليه وسلم : العمل كالوعاء إذا طاب  
آخره طاب أوله <sup>(١)</sup> . أي النظر إلى غايته . وروى : أنه من رأى يعمل ساعة حبط عمله الذي كان قبله <sup>(٢)</sup> ، وهذا  
منزل على الصلاة في هذه الصورة لأعلى الصدقة ولا على القراءة فإن كل جزء من ذلك مفرد ، فإبطرأ يفسد الباقي  
دون الماضي ، والصوم والحج من قبيل الصلاة . وأما إذا كان وارد الرياء بحيث لا يمتنه من قصد الإتمام لأجل  
الثواب ، كما لو حضر جمعة في أثناء الصلاة ففرح بحضورهم وعقد الرياء وقصد تحسين الصلاة لأجل نظرهم وكان  
لولا حضورهم لكان يتمها أيضا ، فهذا رياء قد أثر في العمل وانتهض باعثا على الحركات ، فإن غلب حتى امتحج معه  
الإحساس بقصد العبادة والثواب وصار قصد العبادة مقمورا ، فهذا أيضا ينبغي أن يفسد العبادة مهما مضى ركن من  
أركانها على هذا الوجه ، لأننا نكتفي بالنية السابقة عند الإحرام بشرط أن لا يبطرأ عليها ما ينقلبها ويغيرها ، ويحتمل  
أن يقال لا يفسد العبادة نظرا إلى حالة العقد وإلى بقاء قصد أصل الثواب وإن ضعف بهجوم قصد هو أغلب منه .

ولقد ذهب الحارث المحاسبي رحمه الله تعالى إلى الإحباط في أمر هو أهون من هذا وقال : إذا لم يرد إلا مجرد  
السرور باطلاع الناس - يعني سرورا هو كذب المنزلة لاجل - قال : قد اختلف الناس في هذا ؛ فصارت فرة إلى أنه  
محبط لأنه نقض الزم الأول وركن إلى حمد المخلوقين ولم يحتم عمله بالإخلاص وإنما يتم العمل بتمامه ، ثم قال  
ولا أنقطع عليه بالحبط وإن لم يزيد في العمل ولا آمن عليه وقد كتبت أقف فيه لاختلاف الناس ، والأغلب على  
قولي أنه يحبط إذا ختم عمله بالرياء ثم قال : فإن قيل قد قال الحسن رحمه الله تعالى ؛ إنهما حالتان ؛ فإذا كانت الأولى  
لم تضره الثانية . وقد روى أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يارسول الله أسر العمل لأحب أن يطلع  
عليه فيقطع عليه فيسرى قال : لك أجران أجر السر وأجر العلانية <sup>(٣)</sup> ، ثم تكلم على الخبر والأرفقال : أما الحسن  
فإنه أراد بقوله : لا يضره ، أي لا بدع العمل ولا تضره الحطرة وهو يريد الله ، ولم يقل إذا عقد الرياء بعد عقد  
الإخلاص لم يضره ، وأما الحديث فتكلم عليه بكلام طويل يرجع حاصله إلى ثلاثة أوجه ( أحدها ) أنه يحتمل أنه  
أراد ظهور عمله بعد الفراغ وليس في الحديث أنه قبل الفراغ . ( الثاني ) أنه أراد أن يسر به للاستعداد به أو لسرور  
آخر محمود بما ذكرناه قبل لاسرورا بسبب حب المحمدة والمنزلة ، بدليل أنه جعل له به أجرا ، ولأذهاب من الأمة  
إلى أن السرور بالمحمدة أجرا وغايتها أن يعني عنه ، فكيف يكون للتلخص أجر وللرأي أجرا ؟ ( والثالث ) أنه قال :  
أكثر من يروى الحديث يرويه غير متصل إلى أبي هريرة بل أكثرهم يوقفه على أبي صالح ، ومنهم من يرفعه ، فالحكم

(١) حديثه « الصل كالوعاء إذا طاب آخره طاب أوله » أخرجه ابن ماجه من حديث معاوية بن أبي سفيان بلفظه « إذا طاب  
أصله طاب أعلاه » وقد تقدم (٢) حديث « من رأى يسلم ساعة حبط عمله الذي كان قبله » لم أجده بهذا اللفظ واللفظين  
من حديث جندب « من سمع سمع الله به ومن رأى رأى الله به » ورواه مسلم من حديث ابن عباس . (٣) حديث : إن  
رجلا قال أسر العمل لأحب أن يطلع عليه فيقطع عليه فيسرى فقال : لك أجران ... الحديث « أخرجه البيهقي في شعب الإيمان  
من رواية ذكوان عن ابن مسعود ورواه الترمذي وابن حبان من رواية ذكوان عن أبي هريرة : الرجل يعمل العمل فيسر فإذا  
الطلع عليه أجبه قال « له أجر السر والعلانية » قال الترمذي غريب وقال له روى عن أبي صالح وهو ذكر أنه مرسل .

بالمعمومات الواردة في الرياء أولى . هذا ما ذكره ولم يقطع به بل أظهر ميلا إلى الإحباط .

والأفيس عندنا : أن هذا القدر إذا لم يظهر أثره في العمل بل بقى العمل صادرا عن باعث الدين وإنما انضاف إليه السرور بالاطلاع فلا يفسد العمل لأنه لم يتعمد به أصل نيته وبقيت تلك النية باعثة على العمل وسامعة على الإتيان .

وأما الأخبار التي وردت في الرياء فهي محمولة على ما إذا لم يرد به إلا الخلق ، وأما ما ورد في الشركة فهو محمول على ما إذا كان قصد الرياء مساويا لقصد الثواب أو أغلب منه ، أما إذا كان ضيفا بالإضافة إليه فلا يحبط بالكلية ثواب الصدقة وسائر الأعمال ، ولا يبنى أن يفسد الصلاة ، ولا يبعد أن يقال إن الذي أوجب عليه صلاة خالصة لوجه الله - والخالص مالا يشوبه شيء - فلا يكون مؤديا للواجب مع هذا الشوب والملم عند الله فيه . وقد ذكرنا في كتاب الإخلاص كلاما أوفى بما أوردناه الآن فليرجع إليه ، فهذا حكم الرياء الطارئ بعد عقد العبادة إما قبل الفراغ أو بعد الفراغ .

القسم الثالث : الذي يقارن حال العقد بأن يبتدئ الصلاة على قصد الرياء ، فإن استمر عليه سلم فلا خلاف في أنه يقضى ولا يمتد بصلاته ، وإن ندم عليه في أثناء ذلك واستغفروا رجوع قبل التمام فضايل به ثلاثة أوجه ( قالت فرقة ) لم تتعمد صلاته مع قصد الرياء فليست أنفس ( وقالت فرقة ) تلزمه إعادة الأفعال كالركوع والسجود وتفسد أفعاله دون تحرمة الصلاة لأن التحريم عقد ، والرياء خاطئ في قلبه لا يخرج التحريم عن كونه عقدا ( وقالت فرقة ) لا يلزم إعادة شيء بل يستغفر الله بقلبه ويتم العبادة على الإخلاص والنظر إلى عاتمة العبادة كما لو ابتدأ بالإخلاص وختم بالرياء لكان يفسد عمله .

وشبهوا ذلك شرب أبيض لطع بنجاسة عارضة فإذا أزيل العارض عاد إلى الأصل ، فقالوا إن الصلاة والركوع والسجود لا تكون إلا لله ولو سجد لغير الله لكان كافرا ، ولكن اقرن به عارض الرياء ثم زال بالندم والتوبة وصار إلى حالة لا يبالي بحمد الناس وذمهم فتصح صلاته . ومذهب الفريقين الآخرين خارج عن قياس الفقه جدا خصوصا من قال يلزمه إعادة الركوع والسجود دون الافتتاح ، لأن الركوع والسجود إن لم يصح صارت أفعالا زائدة في الصلاة فتفسد الصلاة . وكذلك قول من يقول لو ختم بالإخلاص صح نظرا إلى الآخر فهو أيضا ضعيف ، لأن الرياء يتقدم في النية وأولى الأوقات براءة أحكام النية حال الافتتاح ، فالذي يستقيم على قياس الفقه هو أن يقال إن كان باعته بمجرد الرياء في ابتداء العقد دون طلب الثواب وامتنال الأجر لم يفسد افتتاحه ولم يصح ما بعده ، وذلك فيمن إذا خلا بنفسه لم يصل ولما رأى الناس تحرم بالصلاة وكان بحيث لو كان ثوبه نجسا أيضا كان يصل لأجل الناس ، فهذه صلاة لانية فيها إذ النية عبارة عن إجابة باعث الدين ، وههنا لا باعث ولا إجابة . فأما إذا كان بحيث لو لا الناس أيضا لكان يصل إلا أنه ظهر له الرغبة في المحمدة أيضا فاجتمع الباعثان ، فهذا إما أن يكون في صدقة وقراءة وماليس فيه تحليل وتحرير أو في عقد صلاة وحج ، فإن كان في صدقة فقد عصي بإجابة باعث الرياء وأطاع بإجابة باعث الثواب ( فن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ) فله ثواب بقدر قصده الصحيح وعقاب بقدر قصده الفاسد ولا يحبط أحدهما الآخر . وإن كان في صلاة تقبل الفساد بتطرق خلل إلى النية فلا يخلو إما أن تكون فرضا أو نفلا ، فإن كانت نفلا تحكمتها أيضا حكم الصدقة فقد عصي من وجه وأطاع من وجه ، إذ اجتمع في قلبه الباعثان ، ولا يمكن أن يقال صلاته فاسدة والاعتدابه باطل حتى إن من صلى

التراویح وتجن من قرآن حاله أن یصده الریاء بإظهار حسن القراءة ، ولولا اجتماع الناس خلفه وخلاف بیت وحده لما صلی لا یصح الاقتداء به فإن المصیر إلى هذا بعيد جدا ، بل یظن بالمسلم أنه یقصد الثواب أيضا بتطوعه فتصح باعتبار ذلك قصد صلاته ویصح الاقتداء به ، وإن اقترن به قصد آخر وهو به طاع ، فأما إذا كان فی فرض واجتمع الباعثان وكان کل واحد لا یستقل وإنما یحصل الاتبعات بمجموعهما فهذا لا یسقط الواجب عنه ، لأن الإیجاب لم ینتقض باثنا فی حقه بمجرد استقلاله ، وإن كان کل باعث مستقلا حتى لو لم یکن باعث الریاء لادی الفرائض ، ولو لم یکن باعث الفرض لأنشأ صلاة تطوعا لأجل الریاء فهذا عمل النطر ، وهو عمتل جدا ، فیجتمل أن یقال إن الواجب صلاة خالصة لوجه الله ولم یؤد الواجب الخالص ، ویجتمل أن یقال الواجب امتثال الأمر یباعث مستقلا بنفسه وقد وجد ، فاقتران غیره به لا یمنع سقوط الفرض عنه ، كالأصل فی دار معصية فإنه وإن كان عاصیا بإيقاع الصلاة فی الدار المنصوبة فإنه مطیع بأصل الصلاة ومسقط للفرض عن نفسه ، وتعارض الاحتمال فی تعارض البواعث فی أصل الصلاة ، أما إذا كان الریاء فی المبادرة مثلا دون أصل الصلاة مثل من یأخر إلى الصلاة فی أول الوقت لحضور جماعة ولو خلا لآخر إلى وسط الوقت ، ولولا الفرض لكان لا یتبدئ صلاة لأجل الریاء فهذا ما یقطع بصحة صلاته وسقوط الفرض به ، لأن باعث أصل الصلاة من حیث إنها صلاة لم یعارضه غیره بل من حیث تعیین الوقت ، فهذا أبعد من الصدح فی الثبة ، هذا فی ریاة یكون باعثا علی العمل وحاملا علیه ، وأما مجرد السرور بأطلاع الناس علیه إذا لم یبلغ أثره إلى حیث یؤثر فی العمل فبعید أن یفسد الصلاة . فهذا مائزاه لاتما یقتانون الفقه ، والمسالمة طامعة من حیث أن الفقهاء لم یعرضوا لها فی فقه الفقه ، والذین عاضوا فیها وأصرقوا لم یلاحقوا قوانین الفقه ومقتضى فتاوی الفقهاء فی صحة الصلاة وفسادها ، بل حملهم الحرص علی تصفية القلوب وطلب الإخلاص علی إفساد العبادات بأن الحواطر وما ذكرناه هو الاقص فی نراه والعلم عند الله عز وجل فيه وهو عالم الغیب والشهادة وهو الرحمن الرحیم .

#### بیان دواء الریاء وطریق معالجة القلب فيه

فد عرفت مما سبق أن الریاء محبط للأعمال وسبب للفت عند الله تعالى وأنه من كبائر المهلكات ، وما هذا وصفه لجدير بالتشویر عن سابق الجد فی إزائته ولو بالمجاهدة وتحمل المشاق ، فلا شفاء إلا فی شرب الادوية الموزة البشمة ، وهذه مجاهدة یضطر إليها المباد كلهم ، إذ الصبی یخلق ضعیف العقل والقیین تمتد الدین إلى الخلق كثير الطمع فیهم ؛ فیری الناس یتصنع بعضهم لبعض فیطلب علیه حب التتصنع بالضرورة ویرسخ ذلك فی نفسه ، وإنما یشر بكونه مهلكا بعد كمال حظه وقد انفرس الریاء فی قلبه وترسخ فيه فلا یقدر علی قعه إلا بمجاهدة شديدة ومكابدة لقوة الشرورات . فلا یفلك أحد عن الحاجة إلى هذه المجاهدة ، ولكنها تشق أولا وتخف آخرأ وفي عزواجه مقامان ( أحدهما ) قلع عروقه وأصوله التي منها الشغابة ( والثانی ) دفع ما یضطر منه فی الحال .

( المقام الأول ) فی قلع عروقه واستئصال أصوله : وأصله حب المنزلة والجاه . وإذا فضل رجوع إلى ثلاثة أصول وهي لذة الحمدة ، والقرار من ألم الذم ، والطمع فی فأیدی الناس . ویشهد الریاء بهذه الأسباب وأنها الباعثة للشراف ماروی أبو موسى أن أعرابیا سأل النبی صلی الله علیه وسلم فقال : یا رسول الله الرجل یقاتل (١) حیه — ومعناه أنه یأف أن یقهر أو یذم بأنه مهقور مغلوب — وقال : والرجل یقاتل لیری مكانه وهذا هو طلب لذة الجاه والغدر

(١) حدث أبی موسى : أن أعرابیا قال یا رسول الله الرجل یقاتل حیه ... الحديث ، ٠ متفق علیه

فی القلوب - والرجل یقاتل الذکر - وهذا هو الخمد بالسان - فقال صلی الله علیه وسلم « من قاتل لتکون کلمة الله هی العليا فهو فی سبیل الله » وقال ابن مسعود : إذا التقى الصفان نزلت الملائكة فکتبوا الناس علی مراتبهم ؛ فلان یقاتل للذکر وفلان یقاتل للبلک ، والقتال للبلک إشارة إلی الطمع فی الدنیا . وقال عمر رضی الله عنه : یقولون فلان شهید ولده لیکون قد ملأ مدنی راحلته ورقا . وقال صلی الله علیه وسلم « من غزا لا ینبئ إلا عقلا فلا ماتوی <sup>(١)</sup> » فدلنا إشارة إلی الطمع . وقد لا یشتهی الخمد ولا یطعم فيه ولكن یحذر من ألم الذم کالخبیل بین الاستیاء وهم یصدقون بالمال الکثیر فإنه یصدق بالتقلیل کی لا یخیل ، وهو لیس یطعم فی الخمد وقد سبقه غیره ، وکالجبان بین الشجعان لا یفتز من الرحف خوفا من الذم وهو لا یطعم فی الخمد وقد هجم غیره علی صف القتال . ولكن إذا أبس من الخمد کره الذم ، وکالرجل بین قوم یصلون جمیع اللیل فیصلي رکعات ممدودة حتی لا یذم بالکسل وهو لا یطعم فی الخمد . وقد یقدر الإنسان علی الصبر عن لذة الخمد ولا یقدر علی الصبر علی ألم الذم ، ولذلك قد یشک السؤل عن علم هو محتاج إلیه خيفة من أن ینم بالجهل ، ویفتی بغير علم ویدعی العلم بالحديث وهو به جاهل ، کل ذلک حذرا من الذم . فهذه الامور الثلاثة هی التي تحرك المرأی إلی الریاء ، وعلاجه ما ذکرناه فی الشطر الاول من الکتاب علی الجملة .

ولکننا نذکر الآن ما یضرب الریاء ولبس یحیی أن الإنسان إنما یقصد الشئ یرغب فيه لظنه أنه خیر له ونافع ولذیذ ، إما فی الحال وإما فی المآل ، فإن علم أنه لذیذ فی الحال ولكنه ضار فی المآل سئل علیه قطع الرغبة عنه ، کن یعلم أن العسل لذیذ ولكن إذا بان له أن فيه سیا أعرض عنه ؛ فكذلك طریق قطع هذه الرغبة أن یعلم ما فيه من المضرة . ومهما عرف العبد مضرة الریاء وما یفوت من صلاح قلبه وما یجرم عنه فی الحال من التوفیق وفي الآخرة من المنزلة عند الله وما یتعرض له من العقاب العظیم والمقت الشدید والحزى الظاهر . حیث ینادی علی ربه وس الخلاق : یا فاجر یا فادر یا مرأی ، أما استجیت إذ اشتریت بطاعة الله عرض الدنیا ، وراقبت قلوب العباد واستهزأت بطاعة الله ، وتحببت إلی العباد بالتبغض إلی الله ، وتزینت لهم بالشیئ عند الله ، وتزینت إلیهم بالبعد من الله ، وتحدثت الیهم بالتذم عند الله ، وطلبت رضام بالتعرض لخطأ الله ، أما کان أحد أهون علیک من ناقة ؟ فهما تفکر العبد فی هذا الحزى وقابل ما یحصل له من العباد والتزین لهم فی الدنیا بما یفوت فی الآخرة وبما یحبط من ثواب الأعمال ، مع أن العمل الواحد بما کان یرتجبه به میزان حسناته لو خلص ، فإذا فسد بالریاء حول إلی کفة السیئات فترجح به وهوی إلی النار ، فلو لم یکن فی الریاء إلا إحباط عبادة واحدة لکان ذلک کافیا فی معرفة ضرره وإن کان مع ذلک سائر حسناته واجبة فقد کان ینال بهذه الحسنة علو الرتبة عند الله فی زمرة التبین والصديقین ، وقد حط عنهم بسبب الریاء ورد إلی صف الدال من مراتب الاولیاء ، هذا مع ما یتعرض له فی الدنیا من تشتت الهم بسبب ملاحظة قلوب الخلق ، فإن رضنا الناس غایة لا تدرک ، فکل ما یرضی به فریق یسخط به فریق ورضا بعضهم فی سخط بعضهم ، ومن طلب رضام فی سخط الله سخط الله علیه واستطعمهم أيضا علیه ، ثم رأى عرض له فی مدحهم وإشرا ذم الله لأجل حدم ؟ ولا یریده حدم بربا قالوا أجلا ولا ینفعه یوم فقره وفاقته وهو یوم القیامة . وأما الطمع فیا فی أیدیهم فبأن یعلم أن الله تعالی هو الملسر للقلوب بالمنع والإعطاء ، وأن الخلق معطرون به ولا رازق إلا الله ، ومن طمع فی الخلق لم یخل من الدل والحیة ، وإن وصل إلی المراد لم یخل من اللذة والمماناة ، فكیف یتراک ما عند الله برجاه

(١) حديث « من غزا لا ینبئ إلا عقلا فلا ماتوی » أخرجه النسائی وقد هدم .

كاذب يوم فاسد قد يصيب وقد يخفى وإذا أصاب فلا تفرح لذته بألم منته ومذلة ؟ وأما ذمهم فلم يحذر منه ولا يزيد ذمهم شيئا ما لم يكتب عليه الله ، ولا يعجل أجله ولا يؤخر رزقه ، ولا يجعله من أهل النار إن كان من أهل الجنة ، ولا يبيضه إلى الله إن كان محمودا عند الله ، ولا يزيد مقتا إن كان بمقوتا عند الله ، فالعباد كلهم عجرة لا يمكن أن تنقسم حراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشورا . فإذا قرر في قلبه آفة هذه الأسباب وضررها هافت رغبته وأقبل على الله قلبه ، فإن العاقل لا يرغب فيما يكثر ضرره ويقل نفعه ، ويكتفي أن الناس لو علموا ما في باطنه من قصد الرياء وإظهار الإخلاص لمقتوه ، وسيكشف الله عن سره حتى يفيضه إلى الناس ويعرفهم أنه مراد بمقوت صدائه ، ولو أخلصه لكشف الله لهم إخلاصه وجبه إليهم وسخرهم له وأطلق ألسنتهم بالمدح والثناء عليه ، مع أنه لا كمال في مدحهم ولا نقصان في ذمهم كما قال شاعر بني تميم : إن مدحى زين وإن ذمى شين ! فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : كذبت ، ذاك الله الذي لا إله إلا هو <sup>(١)</sup> ، إذ لا زين إلا في مدحه ولا شين إلا في ذمه ، فأبى خير لك في مدح الناس . وأنت عند الله مذموم ومن أهل النار ؟ وأبى شر لك من ذم الناس وأنت عند الله محمود في زمرة القريبين ؟ فن أحضر في قلبه الآخرة ونعيمها المؤبد والمنازل الرفيعة ضد الله استعجر ما يتعلق بالخلق أيام الحياة مع ما فيه من الكدورات والمنعصات ، واجتمع همه وانصرف إلى الله قلبه وتخلص من مذلة الرياء ومقاساة قلوب الخلق ، وانصرف من إخلاصه أنوار على قلبه ينشر بها حسده ويفتح بها له من لطائف المكاشفات ما يزيد به أنه باق ووحشته من الخلق واستخاره للدين واستعظامه للآخرة ، وسقط محل الخلق من قلبه وانحل منه داعية الرياء وتبدل له منهج الإخلاص . فهذا وما قدمنا في الشطر الأول من الأدوية العلية الفاعلة مغارس الرياء .

وأما الدواء العملي : فهو أن يعود نفسه إخفاء العبادات وإغلاق الأبواب دونها ، كما تغلق الأبواب دون الفواحش ، حتى يفتح قلبه بلم أو إطلاعه على عباداته ولا تبرز عنه النفس إلى طلب غير علم الله به . وقد روى أن بعض أصحاب أبي حفص الحداد ذم الدنيا وأهلها فقال : أظهرت ما كان سيديك أن تخفيه لاجتماعنا بعد هذا . فلم يرخص في إظهار هذا القدر لأن في ضمن ذم الدنيا دعوى الزهد فيها ، فلا دواء للرياء مثل الإخفاء ، وذلك يشق في بداية المجاهدة ، وإذا صبر عليه مدة بالتسكف سقط عنه ثقله وهان عليه ذلك بتراصل الطواف الله وما يعتبه عباده من حسن الترفيق والتأييد والتسديد ( إن الله لا يغير ما بقوم حتى يشيروه ما بأنفسهم ) فن العبد المجاهدة ومن الله الهداية ، ومن العبد قرع الباب ومن الله فتح الباب ( والله لا يضيع أجر المحسنين ؛ وإن تلك حسنة يعضاعها ويؤت من لثته أجراً عظيماً ) .

(المقام الثاني) في دفع العارض منه في أثناء العبادة وذلك لا بد من تعلمه أيضا ، فإن من جاهد نفسه وقلع مغارس الرياء من قلبه بالفناعة وقطع الطمع وإسقاط نفسه من أهين المخلوقين واستخار مدح المخلوقين وذمهم فالشياطين لا يتحرك في أثناء العبادات ، بل يمارسه بخطرات الرياء ، ولا تقطع عنه نزغاته وهوى النفس وميلها لا ينمحي بالكلية ، فلا بد وأن يتشمر لدفع ما يمرض من عاطر الرياء . وخواطر الرياء ثلاثة - قد تخطر دفعة واحدة كالخاطر الواحد وقد تتراصف على التدرج - فالأول : العلم باطلاع الخلق ورجاء اطلاعهم . ثم يتلوه هيجان الرغبة

(١) حديث : قال شاعر من بني تميم إن مدحى زين وإن ذمى شين : فقال : كذبت ذاك الله ، أخرجه أحمد من حديث الأقرع بن حابس وهو قال : ذاك ، دون قوله : كذبت ، ورجاء ثلاث إلا أني لا أعرف لأبي سلة بن عبد الرحمن سمعنا من الأقرع ورواه الترمذي من حديث البراء وحسنه بلفظ فقال رجل : إن مدحى .



من النفس في حدهم وحصول النزلة عندهم . ثم يتلوه هيجان الرغبة في قبول النفس له والركون إليه وعند الضمير على تحقيقه . فالأول : معرفة . والثاني : حالة تسمى الشهوة والرغبة . والثالث : فعل يسمى العزم وتصبم العقدة . وإسكال القوة في دفع الخاطر الأول وركه قبل أن يتلوه الثاني ، فإذا خطر له معرفة اطلاع الخلق أو رجاء اطلاعهم دفع ذلك بأن قال : مالك وللخلق علوا أو لم يعلموا والله عالم بجهالك فأى قاعدة في علم غيره ؟ فإن حاجت الرغبة إلى لذة الحمد يذكرها وسخ في قلبه من قبل من آفة الرياء وتمزجه للفت عند الله في القيامة وخيبته في أحوال أوقانه إلى أعماله ، فكان أن معرفة اطلاع الناس تثير شهوة ورغبة في الرياء لفرقة آفة الرياء تثير كراهة له تقابل تلك الشهوة ، إذ يتفكر في تمزجه امت الله وعقابه الآليم ، والشهوة تدعوه إلى القبول ، والكراهة تدعوه إلى الإباء ، والنفس تطاول لا محالة أنهما وأغلبهما .

فإذن لا بد في رد الرياء من ثلاثة أمور : للمعرفة ، والكراهة والإباء . وقد يشرح العبد في العبادة على علم الإخلاص ، ثم يرد خاطر الرياء فيقبله ولا يحضره للمعرفة ولا الكراهة التي كان الضمير منطويا عليها ، وإنعاسب ذلك امتلاء القلب بخوف الذم وحسب الحمد واستيلاء الحرص عليه بحيث لا يبقى في القلب مقسع لغيره ، فيعرب عن القلب المعرفة السابقة بأفات الرياء وشؤم عاقبته إذ لم يبق موضع في القلب عال عن شهوة الحمد أو خوف الذم ، وهو كالذي يحدث نفسه بالحلم ودم الغضب ، ويعزم على التحمل عند جريان سبب الغضب ثم يجرى من الأسباب ما يشتبه به غضبه فيمنى سابقة عزمه ويمتلي قلبه غيظا يمنع من تذكر آفة الغضب ويفضل قلبه عنه ، فكذلك حلالة الشهوة تملأ القلب وتدفع نور المعرفة مثل مرارة الغضب . وإليه أشار جابر بقوله : يا ربنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة على أن لا نفرز ولم نبايعه على الموت فأنسيناها يوم حنين <sup>(١)</sup> حتى نودى : يا أصحاب الشجرة فرجعوا . وذلك لأن القلوب امتلأت بالخوف فنسيت العهد السابق حتى ذكروا ، وأكثر الدعوات التي تهجم لجأه هكذا تكون ، إذ ينسى معرفة مضرتها الفاضلة في عقد الإيمان . ومهما نسى المعرفة لم تظهر الكراهة فإن الكراهة ثمرة المعرفة . وقد يذكر الإنسان فيعلم أن الخاطر الذي خطر له هو خاطر الرياء الذي تمزجه لسخن الله ، ولكن يستمر عليه لشدة شهوته ، فيغلب هواه عقله ولا يقدر على ترك لذة الحال ، فيسوق بالتوبة أو يتشاغل عن التفكير في ذلك لفظة الشهوة ، فكأن من عالم بمضرة كلام لا يدعو له فعله إلا الرياء الخلق وهو يعلم ذلك ، ولكنه يستمر عليه فتكون الحجة عليه أوكده ؟ إذ قبل داعي الرياء مع عليه بنائته وكونه مذموما عند الله ، ولا تنفمه بعرفته وإذا خلت المعرفة عن الكراهة . وقد تحضر المعرفة والكراهة ولكن مع ذلك يقبل داعي الرياء لكون الكراهة ضعيفة بالإضافة إلى قوة الشهوة ، وهذا أيضا لا ينتفع بكراهته إذ الغرض من الكراهة أن تصرف عن الفعل .

فإذن لا قاعدة إلا في اجتماع الثلاث : وهي للمعرفة ، والكراهة ، والإباء . فالإباء ثمرة الكراهة ، والكراهة ثمرة المعرفة ، وقوة المعرفة بحسب قوة الإيمان ونور العلم ، وضعف المعرفة بحسب التفتة وحسب الدنيا ولسيان الآخرة وقلة التفكر فيما عند الله وقلة التأمل في أغات الحياة الدنيا وعظيم نعم الآخرة ، وبعض ذلك ينتج بعضا وشبهه ، وأصل ذلك كله حب الدنيا وغلبة الشهوات فهو رأس كل خطيئة ومنبع كل ذنب ، لأن حلالة حب الجاه والمآزلة ونعيم الدنيا هي التي تقبض القلب وتسلبه وتحول بينه وبين التفكير في العاقبة والاستزادة بنور الكتاب والسنة وأنوار العلوم ،

(١) حديث جابر : يا ربنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الفجرة على أن لا نفر . . . الحديث . أخرجه مسلم مختصرا دون ذكر « يوم حنين » فرواه مسلم من حديث أبيه .

فإن قلت : فمن صادف من نفسه كراهة الرياء وحملته الكراهة على الإيذاء ، ولكنه مع ذلك غير حال عن ميل الطبع إليه وجبه له ومنازعتة إيذاء إلا أنه كاره له وليليه إليه وغير محب إليه ، فهل يكون في زمرة المرائين ؟ فاعلم أن الله لم يكلف العباد إلا ما يطيق وليس في طساعة المبدع منع الشيطان عن نزغاته ولا قمع الطبع حتى لا يميل إلى الشهوات ولا ينزع إليها ، وإنما غايته أن يقابل شهوته بكراهة استئثارها من معرفة المواقب وعلم الدين وأصول الإيمان بآفة واليوم الآخر ، فإذا فعل ذلك فهو النجاة في أداء ما كلف به . ويدل على ذلك من الأخبار ما روي أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم شكوا إليه وقالوا : نعرض لقلوبنا أشياء لأن نقر من السماء فتخططنا الطير أو نهوى بنا الریح في مكان محقق أحب إلينا من أن نتكلم بها ، فقال عليه السلام : « أو قد وجدتموه ، قالوا : نعم قال : ذلك صريح الإيمان <sup>(١)</sup> » ولم يجدوا إلا الوسواس والكراهة له ، ولا يمكن أن يقال أرواد بصريح الإيمان الوسوسة ، فلم يبق إلا حله على الكراهة للمساواة للوسوسة ، والرياء وإن كان عظيما فهو دون الوسوسة في حق الله تعالى ، فإذا اندفع ضرر الأعظم بالكراهة فبأن يندفع بها ضرر الأصغر أولى ، وكذلك يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث ابن عباس أنه قال : « الحمد لله الذي رد كيد الشيطان إلى الوسوسة <sup>(٢)</sup> » وقال أبو حازم : ما كان من نفسك وكرهته نفسك لنفسك فلا يضرك ما هو من عدوك ، وما كان من نفسك فرضيته نفسك لنفسك فمناهاها عليه . فإذا نوسه الشيطان ومنازعة النفس لا تضرك مهما رددت مرادها بالإيذاء والكراهة ، والخواطر التي هي المعلوم والتذكريات والتخيلات للأسباب للبهجة الرياء هي من الشيطان ، والرغبة والميل بعد تلك الخواطر من النفس ، والكراهة من الإيمان ومن آثار العقل ، إلا أن الشيطان مهنا مكيدة وهي أنه إذا هجر عن حمله على قبول الرياء خيل إليه أن صلاح قلبه في الاشتغال بمجادلة الشيطان ومطاولته في الرد والجدال حتى يسلبه ثواب الإخلاص وحضور القلب ، لأن الاشتغال بمجادلة الشيطان ومداافته انصراف عن سر المناجاة مع الله فيوجب ذلك نقصانا في منزله عند الله .

والمختصون عن الرياء في دفع خواطر الرياء على أربع مراتب ( الأولى ) أن يرد على الشيطان فيكذبه ، ولا يقتصر عليه بل يشتغل بمجادلته ويطيل الجدال معه لظنه أن ذلك أسلم لقلبه ، وهو على التحقيق نقصان ، لأنه اشتغل عن مناجاة الله وعن الخير الذي هو بصدده وانصرف إلى قتال قطاع الطريق ، والتعرج على قتال قطاع الطريق نقصان في السلوك . ( الثانية ) أن يعرف أن الجدال والقتال نقصان في السلوك فيقتصر على تكذيبه ودفعه ولا يشتغل بمجادلته . ( الثالثة ) أن لا يشتغل بتكذيبه أيضا لأن ذلك وقفة وإن قلت ، بل يكون قد تفرغ في عقد ضميره كراهة الرياء وكذب الشيطان فيستمر على ما كان عليه مستصحبيا لكراهة غير مشتغل بالتكذيب ولا بالخاصة . ( الرابعة ) أن يكون قد علم أن الشيطان سيحده عند جريان أسباب الرياء ، فيكون قد عزم على أنه مهما نزع الشيطان زاد فيها هو فيه من الإخلاص والاشتغال بالله وإخفاء الصدقة والعبادة غيظا للشيطان ، وذلك هو الذي ينظف الشيطان ويقمعه ويوجب بأسه وقنوطه حتى لا يرجع . يروى عن الفضيل بن غزوان أنه قيل له : إن فلانا يذكرك ، فقال ، والله لا غيظن من أمره ، قيل : ومن أمره ؟ قال : الشيطان ، اللهم اغفر له . أي لا غيظه بأن

(١) حديث : شكوى الصحابة ما عرض في قلوبهم وقوله « ذلك صريح الإيمان » أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود مختصرا : « الذي صلى الله عليه وسلم عن الوسوسة فقال « ذلك عن الإيمان » والسائق في اليوم واليلة وإن جبان في صمجه ورواه النسائي فيه من حديث عائشة ، (٢) حديث ابن عباس « الحمد لله الذي رد كيد الشيطان إلى الوسوسة » أخرجه أبو داود والنسائي في اليوم واليلة بلفظ « كيد » .

أطع الله فيه . ومهما عرف الشيطان من عبد هذه العبادة كف عنه خيفة من أن يزيد في حسنة . وقال إبراهيم التيمي : إن الشيطان يدعو البعد إلى الباب من الإثم ، فلا يطمه وليحدث عنه ذلك خيرا ، فإذا رآه كذلك تركه : وقال أيضا : إذا رآك الشيطان مترددا طمع فيك ، وإذا رآك مداوما ملك وقلاك

وضرب الحارث المحاسي رحمه الله لهذه الآية مثلا أحسن فيه فقال : مثالمم كاربعة قصدوا مجلسا من العلم والحديث ليتناولوا به قاعدة وفضلا وهداية وورثدا ، لحسدم على ذلك حال مبتدع وخاف أن يعرفوا الحق ، فقتقم إلى واحد فتمه وصرفه عن ذلك ودعاة إلى مجلس ضلال فأبى ، فلما عرف إمامه شغله بالمجادلة فاشتغل معه ليرد ضلاله وهو يظن أن ذلك مصلحة له ، وهو غرض الضال ليفوت عليه بقدر تأخره . فلما مر الثاني عليه نهياه واستوقفه ، فوقف فدفع في نحو الضال ولم يشتغل بالقتال واستعجل ، ففرج منه الضال بقدر توقفه للضعف فيه . ومر به الثالث فلم يلتفت إليه ولم يشتغل بدفعه ولا بقتاله ، بل استمر على ما كان ، غلب منه رجاءه بالكيفية . فز الرابع فلم يتوقف له ، وأراد أن يفيظه فزاد في عجلته وترك الثاني في المشي ، فيوشكه إن عادوا ومرروا عليه مرة أخرى أن يعود الجميع إلى هذا الأخير فإنه لا يماوده خيفة من أن يزداد قاعدة باستعماله .

فإن قلت : فإذا كان الشيطان لا تؤمن بزغاته فهل يجب التردد له قبل حضوره للحد من انتظاراً لوروده ، أم يجب التوكل على الله ليكون هو النافع له ، أو يجب الاشتغال بالمعبادة والنفقة عنه ؟ قلنا : اختلص الناس فيه على ثلاثة أوجه : فذهب فرقة من أهل البصرة إلى أن الأقوياء قد استغنوا عن الحذر من الشيطان لأنهم انقطعوا إلى الله واشتغلوا بحبه فاعتزهم الشيطان وأيس منهم وخفس عنهم - كما يس من ضغفاه العباد في الدعوة إلى الخير والزنا - فصارت ملاذ الدنيا عندهم - وإن كانت مباحة - كالخمر والخمر ، فارتحلوا من حبها بالكيفية فلم يبق الشيطان إليهم سبيل فلا حاجة بهم إلى الحذر . وذهب فرقة من أهل الشام إلى أن التردد للحذر منه إنما يحتاج إليه من قل يقينه ونقص توكفه ، فمن أيقن بأن لا شريك لله في تدبيره فلا يحذر غيره ويعلم أن الشيطان ذليل مخلوق ليس له أمر ولا يكون إلا ما أراده الله فهو الضار والنافع ، والعارف يستحي منه أن يحذر غيره ، فاليقين بالوحدانية يقنيه عن الحذر . وقالت فرقة من أهل العلم : لا بد من الحذر من الشيطان وما ذكره البصريون من أن الأقوياء قد استغنوا عن الحذر وخالص قلوبهم عن حب الدنيا بالكيفية فهو وسيلة الشيطان يكاد يكون غرورا ، إذ الأنبياء عليهم السلام لم يتخلصوا من وسواس الشيطان وزغاته فكيف يتخلص غيرهم ؟ وليس كل وسواس الشيطان من الشهوات وحب الدنيا ، بل في صفات الله تعالى وأسمائه ، وفي تحسين البنع والصلال وغير ذلك ، ولا ينبغي أحد من الخلق فيه ولذلك قال تعالى ( وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تخلى الشيطان في أميته فيفسخ الله ما بلى الشيطان ثم يحكم الله آياته ) وقال النبي صلى الله عليه وسلم « إنه ليبيان على قلبي »<sup>(١)</sup> ، مع أن شيطانه قد أسلم ولا يأمره إلا بخير<sup>(٢)</sup> ، فمن ظن أن اشتغاله بحب الله أكثر من اشتغال رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء عليهم السلام فهو مفرور ، ولم يؤمنهم ذلك من كيد الشيطان ولذلك لم يسلم منه آدم وحواء في الجنة التي هي دار الأمن والسور بعد أن قال الله لهما ( إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشأن إن لك أن لا تجوع فيها ولا تمري وأهلك لا تظلم فيها ولا تضحي ) ومع أنه لم ينه إلا عن فجرة واحدة وأطلق له وراء ذلك ما أراد فإذا لم يأمن من نبي من الأنبياء وهو في الجنة دار الأمن والسعادة من كيد الشيطان فكيف يجوز لغزيره أن يأمن في دار

(١) حديث « إنه ليبيان على قلبي » هدم (٢) حديث : إن شيطانه أسلم فلا يأمر إلا بخير . هدم أيضا .

والدنيا وهي منبع الخن والعنتمعدن لللاذ والشبهوات التي عنها ؟ وقال موسى عليه السلام فيها أخبر عنه تعالى ( هذا من عمل الشيطان ) ولذلك حذر الله منه جميع الخلق فقال الله تعالى ( يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ) وقال عز وجل ( إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ) والقرآن من أوله إلى آخره تحذير من الشيطان فكيف يدع الأمن منه ؟ وأخذ الحذر من حيث أمر الله به لا ينافي الاشتغال بحبائه ، فإن من الحب له امتثال أمره وقد أمر بالحذر من العدو كما أمر بالحذر من الكفار فقال تعالى ( وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ) وقال تعالى ( وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ) فإذا لمك بأمر الله الحذر من العدو الكافر وأنت تراه فإن يارك له الحذر من عدو يراك ولا تراه أولى . ولذلك قال ابن حجر : صيد تراه ولا يراك يوشك أن تطفر به ، وصيد يراك ولا تراه يوشك أن يطفر بك . فأشار إلى الشيطان ، فكيف وليس في النفقة عن عداوة الكافر إلا قتل هو شهادة وفي إهمال الحذر من الشيطان التعرض للنار والعقاب الأليم ؟ فليس من الاشتغال بالله الإعراض عما حذر الله . وبه يطل مذهب الفرقة الثانية في ظنهم أن ذلك قاطع في التوكل ، فإن أخذ الترس والسلاح وجمع الجنود وحفر الخندق لم يقدح في توكل رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف يقدح في التوكل الخوف مما خوف الله به والحذر مما أمر بالحذر منه ؟ وقد ذكرنا في كتاب التوكل ما يبين غلط من زعم أن : معنى التوكل التزوع عن الأسباب بالكلية وقوله تعالى ( وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ) لا ينافي امتثال التوكل ، مهما اعتقد القلب أن الضار والنافع والمجي والمميت هو الله تعالى ، فكذلك يحذر الشيطان ويعتقد أن الهادي والمضل هو الله ، ويرى الأسباب وسائط مسخرة - كما ذكرناه في التوكل .

وهذا ما اختاره الحارث المحاسبي رحمه الله وهو الصحيح الذي يشهد له نور العلم ، وما قبله يشبه أن يكون من كلام المباد الذين لم يفرز عليهم ، ويظنون أن ما جهم عليهم من الأحوال في بعض الأوقات من الاستغراق بالله يستمر على الدوام وهو بعيد .

ثم اختلفت هذه الفرقة على ثلاثة أوجه في كيفية الحذر فقال قوم : إذا حذرنا الله تعالى العدو فلا ينبغي أن يكون شيء أغرب في قلوبنا من ذكره والحذر منه والحرص له ، فإننا إن غفلنا عنه لحظة فيوشك أن يهلكنا . وقال قوم : إن ذلك يؤدي إلى خلو القلب من ذكر الله واشتغالهم كله بالشيطان وذلك مراد الشيطان منا ، بل لفتننا بالمعصية وبذكر الله تعالى ولا ننسى الشيطان وعداوته والحاجة إلى الحذر منه فنجمع بين الأمرين ، فإننا إن نسينا وبها عرض من حيث لا نعقب ، وإن تجردنا لذكره كنا قد أهملنا ذكر الله ، فأبلغ أولى . وقال العلماء المحققون : غلط الفريقان ؛ أما الأول فقد تجرد لذكر الشيطان ونسى ذكر الله فلا يفي غرضه ، وإنما أمرنا بالحذر من الشيطان كيلا يصعدنا عن الذكر فكيف نجعل ذكره أغلب الأشياء على قلوبنا وهو منتهى ضرر العدو ؟ ثم يؤدي ذلك إلى خلو القلب عن نور ذكر الله تعالى ، فإذا قصد الشيطان مثل هذا القلب وليس فيه نور ذكر الله تعالى وقوة الاشتغال به فيوشك أن يطفر به ولا يقوى على دفعه ، فلم يأمرنا بانتظار الشيطان ولا بإيمان ذكره . وأما الفرقة الثانية فقد شاركت الأولى إذ جمعت في القلب بين ذكر الله والشيطان ، وبقد ما يشتغل القلب بذكر الشيطان ينقص من ذكر الله ، وقد أمر الله الخلق بذكره ونسيان ما عداه - إيليس وغيره - فالحق أن يلزم المبد قلبه الحذر من الشيطان ويقرر على نفسه عداوته ، فإذا اعتد ذلك وصدق به وسكن الحذر فيه فيستغل بذكر الله ويسكب عليه بكل الهمة ولا ينظر ياله أمر الشيطان ، فإنه إذا اشتغل بذلك بعد معرفة عداوته ثم خطر الشيطان له تنبه له ،

وعند التنبه يشتغل بدفعه والاشتغال بذكر الله لا يمنع من التيقظ عند رغبة الشيطان بل الرجل ينام وهو عاقل من أن يفوته مهم عند طلوع الصبح ، فينام نفسه الحذر وينام على أن يتنبه في ذلك الوقت فيقتبسه في الليل مرات قبل أوانه لما أسكن في قلبه من الحذر ، مع أنه بالنوم غافل عنه ، فاشتغاله بذكر الله كيف ينفع فيه ؟ ومثل هذا القلب هو الذي يقوى على دفع العدو إذا كان اشتغاله بمجرد ذكر الله تعالى قد أمات منه الهوى وأحيا فيه نور العقل والعلم وأماط عنه ظلمة الشهوات ، فأهل البصيرة أشعروا قلوبهم عدوة الشيطان وترصده وأزموها الحذر ، ثم لم يشتغلوا بذكره بل بذكر الله ، ودفعوا بالذكر شر العدو ، واستضاءوا بنور الذكر حتى صرفوا خواطر العدو . فثال القاب مثال بئر أريد تطهيرها من الماء القذر ليتفجر منها الماء الصافي . فاشتغل بذكر الشيطان قد ترك فيها للماء القذر ، والذي جمع بين ذكر الشيطان وذكر الله قد نزع الماء القذر من جانب ولكنه تركه جاريا إليها من جانب آخر فيطول تعب ولا تحف البئر من الماء القذر ، والبصير هو الذي جعل لجرى الماء القذر سدا وملأها بالماء الصافي فإذا جاء الماء القذر دفعه بالسكر والسد من غير كلفة ومؤنة وزيادة تعب .

### بيان الرخصة في قصد إظهار الطاعات

إعلم أن في الأسرار للأعمال قائمة بالإخلاص والنجاة من الرياء ، وفي الإظهار قائمة بالإقتداء وترغيب الناس في الخير ولكن فيه آفة الرياء . قال الحسن : قد علم المسلمون أن السر أحرز المعلنين ، ولكن في الإظهار أيضا فائدة ولذلك أتى الله تعالى على السر والملائية فقال ﴿ إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ﴾ .

### والإظهار قسمان (أحدهما) في نفس العمل (والآخر) التحدث بما عمل

القسم الأول : إظهار نفس العمل كالصدقة في المأل ترغيب الناس فيها كما روى عن الأنصاري الذي جاء بالبصرة فتتابع الناس بالمطية لما رآه فقال النبي صلى الله عليه وسلم « من سن سنة حسنة فعمل بها كان له أجرها وأجر من اتبعه <sup>(١)</sup> » ، وتجرى سائر الأعمال هذا الجرى من الصلاة والصيام والحج والغزو وغيرها ولكن الاقتداء في الصدقة على الطباع أغلب . نعم التنازع إذا هم بالخروج فاستند وشد الرجل قبل القوم تحريضا لهم على الحركة فذلك أفضل له لأن النزو في أصله من أعمال الملائية لا يمكن إسراره ، فالبادرة إليه ليست من الإعلان بل هو تحريض مجرد ، وكذلك الرجل قد يرفع صوته في الصلاة بالليل لينبه جيرانه وأمله فيقتدى به . فكل عمل لا يمكن إسراره كالحج والمجاهدة والجمعة فالأفضل المبادرة إليه وإظهار الرغبة فيه للتحريض بشرط أن لا يكون فيه شواحب الرياء ، وأما ما يمكن إسراره كالصدقة والصلاة فإن كان إظهار الصدقة يؤدي للتصدق عليه ويرغب الناس في الصدقة فالسر أفضل لأن الإيذاء حرام . فإن لم يكن فيه إيذاء فقد اختلف الناس في الأفضل فقال قوم : السر أفضل من الملائية وإن كان في الملائية قدوة ، وقال قوم : السر أفضل من علانية القدوة فيها ، أما الملائية للقدوة فأفضل من السر . ويدل على ذلك أن الله عز وجل أمر الأنبياء بإظهار العمل للاقتداء وخصهم بمنصب النبوة ، ولا يجوز أن يظن بهم أنهم حرموا أفضل المعلنين . ويدل عليه قوله عليه السلام « فله أجرها وأجر من عمل بها » وقد روى في الحديث

(١) حديث « من سن سنة حسنة فعمل بها كان له أجرها وأجر من اتبعه » وفي أوله قصة مسلم من حديث جرير بن عبد الله البجلي .

« إن عمل السر يضاعف على عمل العلانية سبعين ضعفاً ويضاعف عمل العلانية إذا استن بعماله على عمل السبعين ضعفاً<sup>(١)</sup> ، وهذا لاروجه للخلاف فيه فإنه مهما انفك القلب عن شوائب الرياء وتم الإخلاص على وجه واحد في الحائنين فما يقتدى به أفضل لاعادة ، وإنما يخاف من ظهور الرياء ، ومهما حصلت شائبة الرياء لم ينقص اقتداء غيره وهلك به ، فلا خلاف في أن السر أفضل منه .

ولكن على من يظهر العمل وظيفتان (إحداهما) أن يظهره حيث يعلم أنه يقتدى به أو يظن ذلك ظناً ، ورب رجل يقتدى به أهله دون جيرانه ، وربما يقتدى به جيرانه دون أهل السوق ، وربما يقتدى به أهل محله ، وإنما العالم المعروف هو الذي يقتدى به الناس كافة . فغير العالم إذا أظهر بعض الطاعات ربما نسب إلى الرياء والتفاق وذمومه ولم يقتدوا به فليس له الإظهار من غير فائدة ، وإنما يصح الإظهار بنية القدوة عن هو في عمل القدوة على من هو في عمل الاقتداء به (والثانية) أن يراقب قلبه فإنه ربما يكون فيه حب الرياء الخفي فيدعوه الإظهار بعذر الاقتداء ، وإنما شبهوه التجمل بالعمل ويكونه يقتدى به ، وهذا حال كل من يظهر أعماله إلا الأقوياء المخلصين وقليل مأم . فلا ينبغي أن يتدفع الضعيف نفسه بذلك فيهلك وهو لا يشعر ، فإن الضعيف مثاله مثال الفريق الذي يحسن سباحة ضعيفة فنظر إلى جماعة من الفرق فرحمهم فأقبل عليهم حتى تشبوا به فهلكوا وهلك ، والفرق بالماء في الدنيا ألمه ساعة وليت كان الهلاك بالرياء مثله ، لا بل عذابه دائم مديدة ، وهذه من الأقدام العباد والعلماء فإنهم يشبهون بالأقوياء في الإظهار ولا تقوى قلوبهم على الإخلاص فتشبه أجورهم بالرياء ، والتفتن لذلك غامض ، وملك ذلك أن يعرض على نفسه أنه لو قيل له أخف العمل حتى يقتدى الناس بعباده آخر من أقرأنك ويكون لك في السر مثل أجر الإعلان ، فإن مال قلبه إلى أن يكون هو المقتدى به وهو المظهر للعمل فباعته الرياء دون طلب الأجر واقتداء الناس به ورغبتهم في الخير ، فإنهم قد رغبوا في الخير بالنظر إلى غيره وأجره قد توفر عليه مع إسراره ، فما بال قلبه يميل إلى الإظهار لولا ملاحظته لأعين الخلق ومراميتهم ؟ فليحذر المبدع النفس فإن النفس خدوع والشیطان مترصد وحب الجاه على القلب غالب ، وقبلنا تسلم الأعمال الظاهرة عن الآفات فلا ينبغي أن يعبد بالسلامة شيئاً والسلامة في الإخفاء ، وفي الإظهار من الأخطار مالا يقوى عليه أمثالنا ، فالخبر من الإظهار أولى بنا وبجميع الضعفاء .

القسم الثاني : أن يتحدث بما فعله بعد الفراغ ، وحكمه حكم إظهار العمل نفسه والخطر في هذا أشد لأن مؤنة التعلق خفيفة على اللسان ، وقد تجرى في الحكاية زيادة ومبالغة والنفس لذة في إظهار البطاوى عظيمة ، إلا أنه لو تفرق إلى الرياء لم يؤثر في إفساد العبادة الماضية بعد الفراغ منها ، فهو من هذا الوجه آمون ، والحكم فيه أن من قوى قلبه وتم إخلاصه وصغر الناس في عينه واستوى عنده مدحهم وذمهم ، وذكر ذلك عند من يرجو الاقتداء به والرغبة في الخير بسببه فهو جائز ، بل هو مندوب إليه إن صفت النية وسلبت عن جميع الآفات ، لأنه ترغيب في الخير ، والترغيب في الخير خير ، وقد نقل مثل ذلك عن جماعة من السلف الأقوياء . قال سعد بن معاذ :

(١) حديث « إن عمل السر يضاعف على عمل العلانية سبعين ضعفاً ويضاعف عمل العلانية إذا استن بعماله على عمل السبعين ضعفاً » أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي بردة عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال هذا من أفراد بيتي عن شيوخه الجاهليين ، وقد تقدم قبل هذا بنحو وكنين وله من حديث ابن عمر « عمل السر أفضل من عمل العلانية والعلانية أفضل لمن أراد الاقتداء » وقال ترمذ به بنية من عبد الملك بن مهران وله من حديث عائشة « يفضل - أو يضاعف - الذكر الخفي الذي لا يسمه الخلف على الذي تسمه سبعين ضعفاً » وقال ترمذ به بطريقه بن يحيى الصدفي وهو ضعيف .

ما صليت صلاة منذ أسلمت لحديثها نفسى بغيرها ، ولا تبعت جنازة لحديث نفسى بغير ما هي قائلة وما هو مقول لها ، وما سمعت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقول قولاً قط إلا علمت أنه حق . وقال عمر رضوانه عنه : ما أبالي أصبحت على عمر أو يسر لاني لأدري أيهما خير لي ؟ وقال ابن مسعود : ما أصبحت على حال فتعنتيت أن أكون على غيرها . وقال عثمان رضوانه عليه : ما تعنتيت ولا تمنيت ولا مسست ذكرى يميني منذ بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> وقال شداد بن أوس . ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت حتى أزمها وأخطمها ، غير هذه ، وكان قد قال لنلامه : اثنتا بالسرقة لتبعت بها حتى ندرت النداء . وقال أبو سفيان لأهله حين حضره الموت : لا تبكوا علي فإني ما أحدثت ذنباً منذ أسلمت . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى : ما قضى الله في بقضاء قط فسرني أن يكون قضى لي بغيره ، وما أصبح لي هوى إلا في مواقع قدر الله .

فهذا كله إظهار لأحوال شريفة ، وفيها غاية للرأفة إذا صدرت من يرأى بها ، وفيها غاية للرغبة إذا صدرت من يقتدى به . فذلك على قصد الاقتداء جائز للأقوياء بالشروط التي ذكرناها فلا ينبغي أن يستجاب إظهار الأعمال والطباع مجبولة على حب التشبه والاقتداء ، بل إظهار المرائي للعبادة إذ لم يعلم الناس أنه رياء فيه خير كثير للناس ولكنه شر للرأي . فكم من مخلص كان سبب إخلاصه الاقتداء بمن هو مراء عند الله ؟ وقد روي أنه كان يمتاز الإنسان في سلك البصرة عند الصبح فيسمع أصوات المصلين بالقرآن من البيوت ، فصفت بعضهم كتاباً في دقائق الرياء فتركوا ذلك وترك الناس الرغبة فيه ، فكانوا يقولون ليت ذلك الكتاب لم يصنف إظهار المرائي فيه خير كثير لغيره إذا لم يعرف رباؤه . وإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خلاق لهم <sup>(٢)</sup> كما ورد في الأخبار وبعض المرائين من يقتدى به منهم والله تعالى أعلم .

### بيان الرخصة في كتمان الذنوب وكرامة إطلاع الناس عليها وكرامة منهم له

اعلم أن الأصل في الإخلاص استواء السريرة والعلاية كما قال عمر رضوانه عليه : عليك بعمل العلانية ، قال : يا أمير المؤمنين وما عمل العلانية ؟ قال . ما إذا اطلع عليك لم تستحي منه . وقال أبو مسلم الحولاني : ما علمت علماً أبالي أن يطلع الناس علي إلا إنياني أهلي والبول والغائط ، إلا أن هذه درجة عظيمة لا يبالها كل واحد . ولا يخلو الإنسان عن ذنوب قبله أو يجوارحه وهو يغفها ويكره إطلاع الناس عليها لا سيما ما تختلج به الخواطر في الشبوات والأمانى ، والله مطلع على جميع ذلك فإذا العبد لإخفاها عن العبد ربما يظن أنه رياء يحظور وليس كذلك بل المحظور أنه يستر ذلك ليري الناس أنه ورع غافق من الله تعالى مع أنه ليس كذلك فهذا هو ستر المرائي .

وأما الصادق الذي لا يرأى فله ستر للمعاصي ويصح قصده فيه ، ويصح اغتيامه بإطلاع الناس عليه في ثمانية أوجه :  
(الاول) أن يفرح بستر الله عليه ، وإذا اقتضى اغتم بهتلك الله ستره وعاف أن يهتك ستره في القيامة ، وإذ ورد في الخبر : أن من ستر الله عليه في الدنيا ذنباً ستره الله عليه في الآخرة <sup>(٣)</sup> . وهذا غم يلبس من قوة الإيمان .

(١) حديث عثمان قوله : ما تمنيت ولا تمنيت ولا مسست ذكرى يميني منذ بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ... الحديث ، أخرجه أبو يعلى الموصلي في صحيحه بإسناد ضيف من رواية أسى عنه في أثناء حديث ولان عثمان قال : يا رسول الله ، فذكره بلفظ منذ بايعتكم ، قال : هو ذاك يا عثمان . (٢) حديث : أن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وأقوام لا خلاق لهم ، ما حديثان فالأول متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد هدم في السلم والثاني رواه النسائي من حديث أسى بنده صحيح وقدم أيضاً . (٣) حديث : أن من ستر الله في الدنيا يستر الله في الآخرة ، تقدم قبل هذا بوجه .

(الثاني) أنه قد علم أن الله تعالى يكره ظهور المصاحي ومحب سترها كما قال صلى الله عليه وسلم ومن ارتكب شيئا من هذه القاذورات فليستر بستر الله<sup>(١)</sup>، فهو وإن عصي الله بالذنوب فلم يغل قلبه عن محبة مآخيه الله . وهذا ينشأ من قوة الإيمان بكراهة الله لظهور المصاحي ، وأثر الصدق فيه أن يكره ظهور الذنوب من غيره أيضا ويتم بسببه . (الثالث) أن يكره ذم الناس له به من حيث إن ذلك يغمه ويشغل قلبه وعظه عن طاعة الله تعالى ، فإن الطبع يتأذى بالنم وينازع العقل ويشغل عن الطاعة ، وهذه العلة أيضا ينبغي أن يكره الحمد الذي يشغله عن ذكر الله تعالى ويستغرق قلبه ويصرفه عن الذكر . وهذا أيضا من قوة الإيمان إذ صدق الرغبة في فراغ القلب لأجل الطاعة من الإيمان . (الرابع) أن يكون ستره ورغبته فيه لكراهته لدم الناس من حيث يتأذى طبعه ، فإن الذم مؤلم للقلب كأن الضرب مؤلم للبدن ، وخوف تألم القلب بالنم ليس بجرام ولا الإنسان بهماص وإنما يعمى إذا جرعت نفسه من ذم الناس ودعته إلى المألأ يجوز حذرا من ذمهم ، وليس يجب على الإنسان أن لا يغم بذم الحلق ولا يتألم به . نعم كمال الصدق في أن ترول عنه رؤيته للخلق فيستوى عنده ذامه ومادحه لعله أن الضاق والناسف هو الله وأن العباد كلهم عاجزون ؛ وذلك قليل جدا ، وأكثر الطباع تتألم بالنم لما فيه من الشعور بالنقصان ، ورب تألم بالنم محمود إذا كان الدام من أهل البصيرة في الدين فاهم شهداء الله ، وذمهم يدل على ذم الله تعالى وعلى نقصان الدين فكيف لا يغم به ؟ نعم الغم للذموم هو أن يغم لغوات الحمد بالورع ، كأنه يجب أن يحمى بالورع ، ولا يجوز أن يحب أن يحمى بطاعة الله ، فيكون قد طلب بطاعة الله موابا من غيره ، فإن وجد ذلك في نفسه وجب عليه أن يقابله بالكراهة والرد .

وأما كراهة الذم بالمصية من حيث الطبع فليس يذموم فله الستر حذرا من ذلك ، ويتصور أن يكون العبد بحيث لا يحب الحمد ولكن يكره الذم . وإنما مراده أن يتركه الناس حمدا وذما ، فكأن صابر عن لذة الحمد لا يصبر على ألم الذم ؟ إذ الحمد يطلب اللذة ، وعدم اللذة لا يؤلم ، وأما الذم فإنه مؤلم ، فحب الحمد على الطاعة طلب ثواب على الطاعة في الحال ، وأما كراهة الذم على المصية فلا يحذور فيه إلا أمر واحد وهو أن يشغله غم بإطلاع الناس على ذنبه عن إطلاع الله ، فإن ذلك غاية النقصان في الدين ، بل ينبغي أن يكون غم بإطلاع الله وذمه له أكثر .

(الخامس) أن يكره الذم من حيث إن الذم قد عصي الله تعالى به وهذا من الإيمان ، وعلامته أن يكره ذمه لغيره أيضا فهذا التوجع لا يفرق بينه وبين غيره بخلاف التوجع من جهة الطبع .

(السادس) أن يستر ذلك كيلا يقصد بشر إذا عرف ذنبه وهذا وراء ألم الذم ، فإن الذم مؤلم من حيث يشعر القلب بنقصانه وخسته وإن كان ممن يؤمن شره ، وقد يخاف شر من يطلع على ذنبه بسبب من الأسباب ، فله أن يستر ذلك حذرا منه .

(السابع) مجرد الحياء فإنه نوع ألم وراء ألم الذم والقصد بالشعر ، وهو خلق كريم يحدث في أول الصبا مهما أشرق عليه نور العقل فيستحي من التبايح إذا شوهدت وهو منه وصفي محمود إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحياء خير كله<sup>(٢)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم الحياء شعبة من الإيمان<sup>(٣)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم الحياء لا يأتي إلا بخير<sup>(٤)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم إن الله يحب الحيي الحليم<sup>(٥)</sup> ، فالذي يفسق ولا يبالي أن يظهر فسقه

(١) حديث « من ارتكب من هذه القاذورات شيئا فليستر بستر الله » أخرجه الحاكم في المستدرک وقد تقدم .

(٢) حديث « الحياء خير كله » أخرجه مسلم من حديث عمران بن حصين وقد تقدم (٣) حديث « الحياء شعبة من الإيمان » متفق عليه من حديث عمران بن حصين وقد تقدم (٤) حديث « إن الله يحب الحيي الحليم » أخرجه الطبراني من حديث فاطمة ، وإبناز من حديث أبي هريرة « إن الله يحب الحيي الحليم المتكلم » وفيه ليت بن أبي سلمة مختلف فيه .



للتاس جمع إلى الفسق والتهتك والواقحة وفدا الحياء ، فهو أشد حالا من يستتر ويستحي ، إلا أن الحياء يتوج بالرياء ومشبه به اشتباها عتيا قل من يتفطن له ، ويدعى كل مرءاه مستحي وأن سبب تحيته البادات هو الحياء من الناس ، وذلك كذب ، بل الحياء خلق ينبعث من الطبع الكريم وتوسج عقه داعية الرياء وداعية الإخلاص ، ويتصور أن يخلص معه ويتصور أن يرائي معه .

وبانه أن الرجل يطلب من صديق له قرضا ونفسه لا تسخو بإفراضه إلا أنه يستحي من رده ، وعلم أنه لو راسله على لسان غيره لكان لا يستحي ولا يقرض رياء ولا لطلب الثواب ، فله عند ذلك أحوال : أحدها : أن يشافه بالرد الصريح ولا يبالي فينسب إلى قلة الحياء ، وهذا فعل من لحياء له . فإن المستحي إما أن يتعلم أو يقرض .  
فإن أهطى فيتصور له ثلاثة أحوال :

أحدها . أن يمزج الرياء بالحياء بأن يبيع الحياء فيبيع عنه الرد ، فيبيع خاطر الرياء ويقول : ينبغي أن تعطى حتى ينني عليك ويمجداك وينشر اسمك بالسخاء ، أو ينبغي أن تعطى حتى لا يذمك ولا ينسبك إلى البخل ، فإذا أعطى فقد أعطى بالرياء وكان المحرك للرياء هو هيجان الحياء .

الثاني : أن يتدبر عليه الرد بالحياء ويبقى في نفسه البخل فيتعدر الإعطاء ، فيبيع داعي الإخلاص ويقول له : إن الصدقة بواحدة والقرض بثمان عشرة ففيه أجر عظيم وإدخال سرور على قلب صديق وذلك محمود عند الله تعالى ، فتسخر النفس بالإعطاء لذلك ، فهذا يخلص هيجان الحياء لإخلاصه .

الثالث : أن لا يكون له رغبة في الثواب ولا خوف من مذمته ولا حب لمحمدته ، لأنه لو طله مراسلة لكان لا يعطيه فأعطاه بمحض الحياء ، وهو ما يجده في قلبه من ألم الحياء ولولا الحياء لوده ، ولو جاءه من لا يستحي منه من الأجانب أو الأراذل لكان يرده وإن كثر الحمد والثواب فيه ، فهذا مجرد الحياء ولا يكون هذا إلا في القبيح كالبخل ومقاومة الذنوب . والمرائي يستحي من المباحات أيضا ، حتى أنه يرى مستعجلا في الشيء فيرد إلى الهدوء ، أو ضاحكا فيرجع إلى الانقباض ، ويرغم أن ذلك حياء وهو عين الرياء . وقد قيل إن بعض الحياء ضعف وهو صحيح ، والمراد به الحياء بما ليس بقبيح كالحياء من وعظ الناس وإمامة الناس في الصلاة ، وهو في الصياني والنساء محمود وفي العقلاء غير محمود . وقد تشاهد ممصية من شيخ فتستحي من شيبته أن تنكر عليه لأن من إجلال الله لإجلال ذي الشيبة المسلم ، وهذا الحياء حسن وأحسن منه أن يستحي من الله فلا تضعف الأمر بالمعروف ، فاقوى يؤثر الحياء من الله على الحياء من الناس والضعيف قد لا يقدر عليه . فهذه هي الأسباب التي يجوز لأجلها ستر القبيح والذنوب .

(اتمان) أن يخاف من ظهور ذنبه أن يستجري عليه غيره ويقتدى به ، وهذا العلة الواحدة فقط هي الجارية في إظهار الطاعة وهو القدوة ، ويختص ذلك بالأئمة أو بمن يقتدى به ، وهذه العلة ينبغي أيضا أن يغني العاصي أيضا معصيته من أهله وولده لأهم يتعلمون منه .

ففي ستر الذنوب : هذه الأعداء الثمانية ، وليس في إظهار الطاعة عذر إلا هذا العذر الواحد ، ومهما قصد بستر المعصية أن يخيل إلى الناس أنه ورج كان مرائيا كما إذا قصد ذلك بإظهار الطاعة .

فإن قلت : فهل يجوز للعبد أن يجب حد الناس له بالصلاحيات وجههم إياه بسببه وقد قال رجل للنبي صلى الله عليه وآله :  
(٤١ - لحياء علوم الدين - ٣)

وسلم : دلتني على ما يحبني الله عليه ويحبي الناس قال « ازهد في الدنيا يحبك الله وانذ إليهم هذا الحطام يحبوك » (١) ، فقول : حبك لحب الناس لك قد يكون مباحا وقد يكون محمودا وقد يكون مذموما . فالمحمود أن تحب ذلك لتعرف به حب الله لك ، فإنه تعالى إذا أحب عبدا حبه في قلوب عباده . والمذموم أن تحب حبهم وحدهم على حبك وغرورك وصلاتك وعلى طاعة بعينها ، فإن ذلك طلب عوض على طاعة الله عاجل سوى ثواب الله . والمباح أن تحب أن يحبك لصفات محمودة سوى الطاعات المحمودة الممينة ؛ لحبك ذلك كحبك المال لأن ملك القلوب وسيلة إلى الأغراض كذلك الأموال فلا فرق بينهما .

### بيان ترك الطاعات خوفاً من الرياء ودخول الآفات

اعلم أن من الناس من يترك العمل خوفاً من أن يكون مرأيا به وذلك غلط وموافقة للشيطان ، بل الحق فيما يترك من الأعمال وما لا يترك خوفاً من الآفات ما ذكره ، وهو أن الطاعات تنقسم إلى : مالا لذة في عينه ؛ كالصلاة والصوم والحج والنزوة فإنها مقاسة بمجاهدات ، إنما تصير لذبة من حيث إنما توصل إلى حمد الناس ، وحمد الناس لذبة ، وذلك عند اطلاع الناس عليه . وإلى : مأمور لذبة ؛ وهو أكثر مالا يقتصر على البدن ، بل يتعلق بالخلق كالخلافة والنضياء والولايات والحسبة وإمامة الصلاة والتذكير والتدريس وإنفاق المال على الخلق ، وغير ذلك مما تعظم الآفة فيه لتعلقه بالخلق ولما فيه من اللذة .

النسب الأول : الطاعات اللازمة للبدن - التي لا تتعلق بالغير ولا لذة في عينها - كالصوم والصلاة والحج ، فطرات الرياء فيها ثلاث (إحداها) ما يدخل قبل العمل فيبعث على الابتداء لرؤية الناس وليس معه باعث الدين ، فهذا مما ينبغي أن يترك لأنه معصية لاطاعة فيه ، فإنه تدزج بصورة الطاعة إلى طلب المنة ، فإن قدر الإنسان على أن يدفع عن نفسه باعث الرياء ويقول لها : ألا تستحيين من مولاك لاتسحين بالعمل لأجله وتسحين بالعمل لأجل عبادته ؟ حتى يتدفع باعث الرياء وتصور النفس بالعمل لله عقوبة للنفس على خاطر الرياء وكفارة له فليستغفر بالعمل . ( الثانية ) أن ينبغي لأجل الله ولكن يعترض الرياء مع عقد العبادة وأولها ، فلا ينبغي أن يترك العمل لأنه وجد باعثا دينيا ، فليشرع في العمل وليجاهد نفسه في دفع الرياء وتحسين الإخلاص بالمعاملات التي ذكرناها من إلزام النفس كرامة الرياء والإيابة عن القبول ( الثالثة ) أن يعتقد على الإخلاص ثم يطرأ الرياء ودواعيه ، فينبغي أن يجاهد في الدفع ولا يترك العمل لكي يرجع إلى عقد الإخلاص ويرد نفسه إليه فها حتى يتم العمل ، لأن الشيطان يدعوك أولا إلى ترك العمل ، فإذا لم تجب واشتغلت فيدعوك إلى الرياء ، فإذا لم تجب ودفعت بقي يقول لك : هذا العمل ليس بخالص وأنت مرأه وتبكي ضائع فأى فائدة لك في عمل لا إخلاص ؟ حتى يجعلك بذلك على ترك العمل ، فإذا تركته فقد حصلت غرضه . ومثال من يترك العمل خوفاً من أن يكون مرأيا كن سأل إليه مولاه حنطة فيها زؤان وقال : خلصها من الزؤان ونفها منه تقيّة بالغة ، فيترك أصل العمل ويقول : أخاف إن اشتغلت به لم تخلص خلصا صافيا نقيّا . فترك العمل من أجله هو ترك الإخلاص مع أصل العمل ، فلا معنى له . ومن هذا القبيل أن يترك العمل خوفاً على الناس أن يقولوا إنه مرأه فيمضون الله به . فهذا من مكاييد الشيطان لأنه أولا أساء الظن بالمسلمين ، وما كان من حقه أن يظن بهم ذلك ، ثم إن كان فلا يضره قولهم ويفوت ثواب

(١) حديث : قال رجل دلتني على ما يحبني الله عليه ويحبي الناس قال « ازهد في الدنيا يحبك الله . . الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث سهل بن سعد بقلف « وازهد فيها في أيدي الناس » وقد تقدم

العباد ، وترك العمل خوفاً من قولهم إنه مرء هو عين الرياء ، فلولاً حبه لمحمدتهم وخوفه من ذمهم قاله وتقولهم قالوا إنه مرء أو قالوا إنه غلص ؟ وأي فرق بين أن يترك العمل خوفاً من أن يقال إنه مرء ، وبين أن يحسن العمل خوفاً من أن يقال إنه غافل مقصر ؟ بل ترك العمل أشد من ذلك . فهذه كلها مكاييد الشيطان على العباد الجهال ، ثم كيف يطمع في أن يتخلص من الشيطان بأن يترك العمل والشيطان لا يخليه بل يقول له : الآن يقول الناس إنك تركت العمل ليقال إنه غلص لا يشتهي الشهرة . فيضطرك بذلك إلى أن تحرب ، فإن هربت ودخلت سرباً تحت الأرض أتى في قلبك حلاوة معرفة الناس لتزهدك وهربك منهم وتكظيمهم لك بقولهم على ذلك فكيف تتخلص منه ؟ بل لا نجاة منه إلا بأن تلزم قلبك معرفة آفة الرياء وهو أنه ضرر في الآخرة ولا نفع فيه في الدنيا ليلزم الكراهة والإباء قلبك ، وتستمر مع ذلك على العمل ولا تبال ، وإن نزع الدوق نارغ الطبع فإن ذلك لا ينقطع ، وترك العمل لأجل ذلك يحز إلى البطالة وترك الحيرات . فما دمت تبتد باحثاً دنيا على العمل فلا تترك العمل وساجد غاطر الرياء ، وألزم قلبك الحياء من الله إذا دعيت نفسك إلى أن تستبدل بمحمده حمد الخلقين ، وهو مطلع على قلبك ولو اطلع الخلق على قلبك وأنت تريد حدم لمحتوك ، بل إن قدرت على أن تزيد في العمل حياء من ربك وعقوبة لنفسك فافعل . فإن قال لك الشيطان : أنت مرء ، فاعلم كذبه وخدعه بما تصادف في قلبك من كراهة الرياء وإبائه وخوفك منه وحيالك من الله تعالى ، وإن لم تجتد في قلبك له كراهية ومنه خوفاً ولم يبق باعث ديني بل تجتد باعث الرياء فانك العمل عند ذلك وهو بعيد ، فمن شرع في العمل ففلا بد أن يتي منه أصل قصد الثواب .

فإن قلت : فقد نقل عن أقوام ترك العمل مخافة الشهرة . روى أن إبراهيم التيمي دخل عليه إنسان وهو يقرأ فأطبق المصحف وترك القراءة وقال : لا يرى هذا أنا نقرأ كل ساعة . وقال إبراهيم التيمي : إذا أعجبك الكلام فاسكت وإذا أعجبك السكوت فتكلم . وقال الحسن : إن كان أحدم يمز بالأذى ما يمنه من دفعه إلا كراهة الشهرة ، وكان أحدم يأتيه البكاء فيصرفه إلى الضحك مخافة الشهرة . وقد ورد في ذلك آثار كثيرة ؟ قلنا : هذا يمارضه ماورد من إظهار الطاعات بمن لا يحصى ، وإظهار الحسن البصري هذا الكلام في معرض الرعظ أقرب إلى خوف الشهرة من البكاء وإمالة الأذى عن الطريق ثم لم يتركه .

وبالجملة ترك النوافل جائز والسكام في الأفضل . والأفضل إنما يقدر عليه الأقوياء دون الضعفاء ، فالأفضل أن يتم العمل ويجتهد في الإخلاص ولا يتركه ، وأرباب الأعمال قد يبالغون أنفسهم بخلاف الأفضل لشدة الخوف ، فالابتداء ينبغي أن يكون بالأقوياء . وأما إطلاق إبراهيم التيمي المصحف فيمكن أن يكون لعله بأنه يحتاج إلى ترك القراءة عند دخوله واستنائه بعد خروجه للاشتغال بكلمته ، فرأى أن لا يراه في القراءة أبعد عن الرياء وهو عازم على الترك للاشتغال به حتى يعود إليه بعد ذلك . وأما ترك دفع الأذى فذلك بمن يخاف على نفسه آفة الشهرة وإقبال الناس عليه وشغلهم إياه عن عبادته أي أكبر منه رفع خشية من الطريق ، فيكون ترك ذلك للحفاظ على عبادته أي أكبر منها لا بمجرد خوف الرياء . وأما قول التيمي : إذا أعجبك الكلام فاسكت يجوز أن يكون قد أراد به مباحات الكلام كالنفساحة في الحكايات وغيرها فإن ذلك يورث السجب ، وكذلك المصحب بالسكوت المباح محذور فهو عدول عن مباح إلى مباح حذراً من السجب . فأما الكلام الحق للتدوب إليه فلم ينص عليه ، على أن الآفة مما تنظم في الكلام فهو واقع في القسم الثاني ، وإنما كلاً من المبادات الخاصة بيد

العبد مما لا يتعلق بالناس ولا تنظم فيه الآفات ، ثم كلام الحسن في تركهم البكاء وإمالة الأذى لحرف الشهرة وبما كان حكاية أحوال الضعفاء الذين لا يعرفون الأفضل ولا يدركون هذه الدقائق ، وإنما ذكره تحويفاً للناس من آفة الشهرة وزجراً من طلبها .

القسم الثاني : ما يتعلق بالخلق وتنظم فيه الآفات والاعطال ، وأعظمها الخلافة ثم القضاء ثم التذكير والتدريس والتفتوى ثم إنفاق المال .

أما الخلافة والإمارة : فهي من أفضل العبادات إذا كان ذلك مع العدل والإخلاص ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « ليوم من إمام عادل خير من عبادة الرجل وحده ستين عاماً »<sup>(١)</sup> ، فأعظم عبادة يوازي يوم منها عبادة ستين سنة ، وقال صلى الله عليه وسلم « أول من يدخل الجنة ثلاثة : الإمام المفسد »<sup>(٢)</sup> ، أحدم . وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاثة لا ترد دعوتهم الإمام العادل »<sup>(٣)</sup> ، أحدم . وقال صلى الله عليه وسلم « أقرب الناس مني مجلساً يوم القيامة إمام عادل »<sup>(٤)</sup> ، رواه أبو سعيد الخدري . فالإمارة والخلافة من أعظم العبادات ، ولم يزل المتقون يتركونها ويحترزون منها ويحربون من تقلدها وذلك لما فيه من عظم الخطر ، إذ تتحرك بها الصفات الباطنة وينقلب النفس حسب الجاه ولذة الاستيلاء ونفاذ الأمر وهو أعظم ملاذ الدنيا : فإذا صارت الولاية محبوبة كان الوالى ساعياً في حظ نفسه ، ويرشك أن يقع هواه فيمتنع من كل ما يقدح في جاهه وولايته وإن كان حقاً ، ويقدم على ما يزيد في مكانته وإن كان باطلاً ، وعند ذلك يهلك ويكون يوم من سلطان جائر شراً من فسق ستين سنة مفهوم الحديث الذي ذكرناه . ولهذا الخطر العظيم كان عمر رضي الله عنه يقول : « من يأخذها بما فيها ، وكيف لا وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « مامن والى عشرة إلا جاء يوم القيامة مغلوله يده إلى عنقه أطلقه عدله أو أوبقه جوره »<sup>(٥)</sup> ، رواه معقل بن يسار ، ورواه عمر ولاية فقال : يا أيها المؤمنون أشر على ، قال : اجلسوا كتم على . وروى الحسن : « أن رجلاً ولأه النبي صلى الله عليه وسلم فقال للنبي : خذني قال « اجلس »<sup>(٦)</sup> ، وكذلك حديث عبد الرحمن بن سمرة إذ قال له النبي صلى الله عليه وسلم « يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن أويت بها من غير مسألة أعنت عليها وإن أويت بها عن مسألة وكلت إليها »<sup>(٧)</sup> ، وقال أبو بكر رضي الله عنه لرافع بن عمر : لا تأمر

(١) حديث « ليوم من إمام عادل خير من عبادة الرجل وحده ستين عاماً ... الحديث » أخرجه الطبراني والبيهقي من حديث ابن عباس وقد تقدم (٢) حديث « أول من يدخل الجنة ثلاثة : الإمام المفسد ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث عيان بن حماد « أهل الجنة ثلاث : ذو سلطان مفسد ... الحديث » ولم أر فيه ذكر الآية الأولى (٣) حديث أبي هريرة « ثلاثة لا ترد دعوتهم الإمام العادل » تقدم (٤) حديث أبي سعيد الخدري « أقرب الناس مني مجلساً يوم القيامة إمام عادل » أخرجه الأسعدي في الترغيب والترهيب من رواية عطية الموق وهو ضعيف عنه وفيه أيضاً إسحق بن إبراهيم الديلمي ضعيف أيضاً (٥) حديث « مامن والى عشرة إلا جاء يوم القيامة يده مغلوله إلى عنقه لا يشكها إلا عدله » أخرجه أحمد من حديث عبادة بن الصامت ورواه أحمد والبخاري من رواية رجل لم يسم من سعد بن عبادة وفيها يزيد بن أبي زياد شكك فيه ورواه أحمد والبخاري وأبو بلى والطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس وثواب وله من حديث أبي هريرة ورواه البخاري والطبراني من حديث بريدة والطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس وثواب وله من حديث أبي هريرة ورواه البخاري والطبراني من حديث ... الحديث « وقد هزى المصنف هذا الحديث لرواية معقل بن يسار والمعروف من حديث معقل بن يسار « مامن عبدستريحه الله رعية لم يحلها بتسوية إلا لم يرح راحة الجنة » متفق عليه (٦) حديث الحسن : « أن رجلاً ولأه النبي صلى الله عليه وسلم فقال للنبي صلى الله عليه وسلم : خذني قال « اجلس » أخرجه الطبراني موصولاً من حديث عصة هو ابن مالك وفيه الفضل بن الحنظل وأما حديثه منكراً يحدث بالأبواب قاله أبو حاتم ورواه أيضاً من حديث ابن عمر بلفظ « أزم يبتك » وفيه التراب بن أبي الرابض منه ابن ميثم وابن عدى وقال أبو حاتم صدوق . (٧) حديث عبد الرحمن بن سمرة « لا تسأل الإمارة ... الحديث » متفق عليه .

على اثنين ، ثم لم هو الخلافة فقام بها فقال له رافع : ألم تقل لى لأتأمر على اثنين وأنت قد وليت أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : بلى وأنا أقول لك ذلك فن لم يعدل فيها فعليه جهل الله ، يعنى لئله الله . ولعل القليل البصيرة يرى ماورد من فضل الإمارة مع ماورد من النوى عنها متناقضا وليس كذلك ، بل الحق فيه أن الخواص الأقوياء فى الدين لا يبنون أن يمتنعوا من تقلد الولايات ، وأن الضعفاء لا يبنون أن يدوروا بها فعملوا ، وأعطى بالقوى الذى لا يملئ الدنيا ولا يستغزه الطمع ولا تأخذه فى الله لومة لائم ، وهم الذين سقط الحق عن أعينهم وزهدوا فى الدنيا وتبرموا بها وبمخالطة الخلق وقهروا أنفسهم وملكوها وقدموا الشيطان فأيس منهم ، فهؤلاء لا يجرهم إلا الحق ولا يسكنهم إلا الحق ولو زهقت فيهم أرواحهم ، فهم أهل نيل الفضل فى الإمارة والخلافة ومن علم أنه ليس بهذه الصفة فيحرم عليه الخوض فى الولايات ، ومن جرب نفسه فرأى ما صابرة على الحق كافة عن الشهوات فى غير الولايات ، ولكن عاف عليها أن تتغير إذا ذاقته لذة الولاية وأن تستلجى الجاه وتستلذ نفاذا لأمر قائمون : لا يجب لأن هذا خوف أمر فى المستقبل وهو فى الحال لم يهد نفسه إلا بقوة فى ملازمة الحق وترك لذات النفس ، والصحيح أن عليه الاحتراز لأن النفس خنقاعة مدعية الحق وأعدة بالخير ، فلو وعدت بالخير جزما لكان يخاف عليها أن تتغير عند الولاية فكيف إذا أظهرت التردد . ؟ والامتناع عن قبول الولاية أهون من العزل بعد الشروع ، فالعزل مؤلم وهو كإقيل العزل طلاق الرجال ، فإذا شرع لانسحب نفسه بالعزل وتبيل نفسه إلى المداينة وإهمال الحق وتوى به فى قعر جهنم ، ولا يستطيع الخروج منه إلى الموت إلا أن يعزل قهرا ، وكان فيه عذاب عاجل على كل عيب للولاية . ومهما مالت النفس إلى طلب الولاية وحملت على السؤال والطلب فهو أمانة الشر ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : إنا لآتول أمرنا من سألنا <sup>(١)</sup> ، فإذا فهمت اختلاف حكم القوى والضعيف علمت أن نبي أبى بكر رافعا عن الولاية ثم تقلده لها ليس بمتناقض .

وأما القضاء : فهو وإن كان دون الخلافة والإمارة فهو فى معناها ، فإن كل ذى ولاية أمير - أى له أمر نافذ - والإمارة عبودية بالطبع ، والثواب فى القضاء عظيم مع اتباع الحق ، والعقاب فيه أيضا عظيم مع العدول عن الحق وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « القضاء ثلاثة : قاضيان فى النار وقاض فى الجنة » <sup>(٢)</sup> . وقال عليه السلام : من استعصى فقد ذبح بغير سكين <sup>(٣)</sup> . لحكمه حكم الإمارة بغير أن يترك الضعفاء وكل من الدنيا ولذاتها وزن فى عينه ، وليقلده الأقوياء الذين لا تأخذه فى الله لومة لائم . ومهما كان السلاطين ظلة ولم يقدر القاضى على القضاء إلا بمداينتهم وإهمال بعض الحقوق لأجلهم ولأجل المتعلقين بهم ، إذ يعلم أنه لو حكم عليهم بالحق لعزلوه أولم يعطوه ، فليس له أن يتقذ القضاء ، وإن تقلد فعليه أن يطالبهم بالحقوق ولا يكون خوف العزل عذرا مرخصا له فى الإهمال أصلا ، بل إذا عزل سقطت المهدة عنه ، فينبغى أن يفرح بالعزل إن كان يقضى لله ، فإن لم تسمح نفسه بذلك فهو إذن يقضى لاتباع الهوى والشيطان ، فكيف يرتقب عليه ثوابا ؟ وهو مع الغفلة فى الدرك الأسفل من النار .

وأما الوعظ والفتوى والتدريس ورواية الحديث وجمع الأسانيد العالية - وكل ما يتسع بسببه الجاه ويعظم به

(١) حديث : إنا لآتول أمرنا من سألنا ، متفق عليه من حديث أبى موسى (٢) حديث : « القضاء ثلاثة ... الحديث » أخرجه أصحاب السنن من حديث بروة ولقد لم فى المصنف واستاده صحيح (٣) حديث : « من استعصى فقد ذبح بغير سكين » أخرجه أصحاب السنن من حديث أبى هريرة بلفظ : « من جمل قاضيا » وفى رواية : « من وفى القضاء » واستاده صحيح .

القدر : فآفته أيضاً عظيمة مثل آفة الولايات ، وقد كان الخائفون من السلف يتدافعون الفتوى ما وجدوا إليه سبيلاً ، وكانوا يقولون : حدثنا ، باب من أبواب الدنيا ، ومن قال : حدثنا ، فقد قال أوسموا لي . ودفن بشر كذا وكذا قطراً من الحديث وقال : ينتهي من الحديث أتى أشبه أن أحدث ، ولو اشتبهت أن لا أحدث لحديث . والواضع يحد في وعظه وتأثر قلوب الناس به وتلاحق بكلامهم وزعماتهم وإقبالهم عليه لذة لاتوازيها لذة ، فإذا غلب ذلك على قلبه مال طبعه إلى كل كلام مزخرف يروج عند العوام وإن كان باطلاً ، ويفر عن كل كلام يستقله العوام وإن كان حقا ، ويصير مصروف المهمة بالكلية إلى ما يحرك قلوب العوام ويعظم منزلته في قلوبهم ، فلا يسمع حديثاً وحكمة إلا لا يكون فرحه به من حيث إنه يصلح لأن يذكره على رأس المنبر ، وكان ينبغي أن يكون فرحه به من حيث إنه عرف طريق السعادة وطريق السوء سبيل الدين ليعلم به أولاً ، ثم يقول : إذا أنعم الله على عبده النعمة ونفى هذه الحكمة فأقصها ليشارك في نعمها إخواني المسلمون . فهذا أيضاً مما يعظم فيه الخوف والفتنة لحكمة حكم الولايات ، فمن لا يباغت له إلا طلب الجاه والمثولة والأكل بالدين والتفاخر والتكابر فينبغي أن يتركه ويخالف الهوى فيه ، إلى أن تراض نفسه وهوى الدين حمته ويأمن على نفسه الفتنة ، فمعد ذلك يعود إليه .

فإن قلت : مهما حكم بذلك على أهل العلم تطلعت العلوم واندوست وعم الجهل كافة الخلق ؟ فنقول قد نبه رسول الله صلى الله عليه وسلم على طلب الإمارة وترعد عليها <sup>(١)</sup> حتى قال : إنكم تهرصون على الإمارة وإنها حسرة وتدامة يوم القيامة إلا من أخذها بمعناها <sup>(٢)</sup> ، وقال : نعمت للمرءة وبئست العاقبة <sup>(٣)</sup> ، ومعلوم أن السلطة والإمارة لم تطلعت لبطل الدين والدنيا جميعاً وفار القتال بين الخلق وزال الأمن وخربت البلاد وتعلقت للعالمين فلم ينه عنها مع ذلك ؟ وضرب عمر رضي الله عنه أبي بن كعب - رأى قوماً يقيمونه - وهو في ذلك يقول : أبي سيد المسلمين ، وكان يقرأ عليه القرآن ، فنع من أن يقيموه وقال : ذلك فتنة للبرع ومذلة على التابع ، وغير كان بنفسه يعظم ويعظم ولا يتبع منه واستأذن رجل عمر أن يخط الناس إذا فرغ من صلاة الصبح فنه فقال : أمتنع من نصح الناس ؟ فقال : أخشى أن تفتنهم حتى تبلغ الثريا ، إذ رأى فيه مخايل الرغبة في جاه الوعظ وقبول الخلق . والقضاء والخلافة مما يحتاج الناس إليه في دينهم كالوعظ والتدريس والفتوى ، وفي كل واحد منهما فتنة ولادة فلا فرق بينهما ، فأما قول القائل : تنبهك عن ذلك يؤدي إلى اندراس العلم فهو غلط ، إذ نبه رسول الله صلى الله عليه وسلم على القضاء لم يؤدي إلى تعطيل القضاء <sup>(٤)</sup> بل إلى الرياسة وجهاً يعظم الخلق إلى طلبها ، وكذلك حب الرياسة لا يترك العلوم تتدرس ، بل لو حبس الخلق وقيدوا بالسلال والأغلال من طلب العلوم التي فيها القبول والرياسة لأفلتوا من الحبس وقطروا السلال وطلبوها . وقد وعد الله أن يؤيد هذا الدين بأقوام لاخلق لهم فلا تشغل قلبك بأمر الناس فإن الله لا يضيعهم وانظر لنفسك ، ثم إنى أقول هذا إذا كان في البلد جماعة يقومون بالوعظ مثلاً فلا يفسد في النهي عن إلا امتناع بعضهم ، وإلا فليعلم أن كلهم لا يمتنعون ولا يتركون لذة الرياسة فإن لم يكن في البلد إلا واحد وكان وعظه نافعا للناس من حيث حسن كلامه وحسن سمعته في الظاهر وتغييره إلى العوام أنه إنما

(١) حديث : النبي من طلب الإمارة فهو حديث عبد الرحمن بن حمزة « لاسل الإمارة » وقد تقدم قبله ثلاثة أحاديث .

(٢) حديث « انك تهرصون على الإمارة وإنها حسرة وتدامة إلا من أخذها بمعناها » أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة دون قوله « إلا من أخذها بمعناها » وزاد في آخره « نعمت المرءة وبئست العاقبة » ودون قوله « حسرة » وهو في صحيح ابن حبان . (٣) حديث « نعمت المرءة وبئست العاقبة » أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة وهو بقية الحديث الذي قبله ورواه ابن حبان بلفظ « فبئست المرءة وبئست العاقبة » (٤) حديث : النبي من القضاء ... أخرجه مسلم من حديث أبي ذر « لا تؤمن على الدين ولا دين ماله قيم » .

يريد الله بوعظه وأنه تارك الدنيا ومعرض عنها فلا تمنحه منه وتقول له اشتغل وجاهد نفسك ، فإن قال : لست أقدر على نفسى فتقول : اشتغل وجاهد ، لأننا نعلم أنه لو ترك ذلك هلك الناس كلهم إذ لا قائم به غيره ، ولو راعى غرضه الجاه فهو الهالك وحده ، وسلامه دين الجميع أحب عندنا من سلامة دينه وحده ، فنتجبه فداء القوم ونقول لعل هذا هو الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لإصلاح لهم <sup>(١)</sup> ، ثم الرأى هو الذى يرغب فى الآخرة ويتردد فى الدنيا بكلامه ويظهر سيرته . فأما ما أحدثه الوعاظ فى هذه الأعصار من الكلمات المزخرفة والألفاظ المسجحة المقرونة بالأشعار مما ليس فيه تعظيم لأمر الله ونحوه المصلين ، بل فيه الترجية والتجسس على المعاصى بطيارات التمسك ، فيجب إخراج البلاد منهم ، فإنهم نواب الديار وخلفاء الشيطان ، وإنما كلامنا فى راعى حسن الوعظ جميل الظاهر يعطى من نفسه حب القبول ولا يقصد غيره ، وفيما أوردناه فى كتاب العلم من الوعيد الوارد فى حق علماء السوء ما بين لزوم الحذر من فتن العلم وغوائله . ولهذا قال المسيح عليه السلام يا علماء السوء تصومون وتصلون وتتصدقون ولا تعملون ما أمرون ، وتدرسون ما لا تعلمون ، فياسوا ما تكونون تنوبون بالقرول والأمانى وتعملون بالهوى ، وما يفتى عنكم أن تتقوا جلودكم وقلوبكم دنسة ، بحق أقول لكم : لا تكونوا كالتملح يخرج منه البقيع الطيب ويبقى فيه التخاله ، كذلك أنتم تخرجون الحكم من أفواهكم ويبقى الثقل فى صدوركم ، يا عبيد الدنيا كيف يدرك الآخرة من لا تنقضى من الدنيا شهوته ولا تنقطع منها رغبته ؟ بحق أقول لكم : إن قلوبكم تبكى من أعمالكم ، جعلتم الدنيا تحت ألسنتكم والعمل تحت أقدامكم ، بحق أقول لكم : أفسدتم آخرتكم بصلاح دنياكم ، فصلاح الدنيا أحب إليكم من صلاح الآخرة ، فأى ناس أحسن منكم لو تعلمون ، ويلكم حق متى تصفون الطريق للدليلين ، وتقيمون على محلة التجبرين ! كأنكم تدعون أهل الدنيا ليتركوها لكم مهلاً مهلاً ! ويلكم ماذا يفتى عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره وجوفه وحش مظلم ! كذلك لا يفتى عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم وأجوافكم منه وحشة مظلمة ! يا عبيد الدنيا ، لا تكيد أقبية ولا كآثرار كرام ، توشك الدنيا أن تغلقكم عن أصولكم فتلقفكم على وجوهكم ، ثم تتحكم على مناخركم ثم تأخذ خطاياكم بنواصيكم ، ثم يدفعكم العلم من خلفكم ، ثم يسلمكم إلى الملك الديان فحاة عراة فرادى فيوقفكم على سوء أفعالكم ، ثم يهزركم بسوء أعمالكم . وقد روى الحارث المحاسبي هذا الحديث فى بعض كتبه ثم قال : هؤلاء علماء السوء شياطين الإنس وفتنة على الناس رغوا فى عرض الدنيا ورفعها وآثروها على الآخرة وأذلوا الدين للدنيا ، فهم فى الساجل عار وشين وفى الآخرة هم الخاسرون .

فإن قلت : فهذه الآفات ظاهرة ولكن ورد فى العلم والوعظ غائب كثيرة حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لأن يهدى الله بك رجلاً خير لك من الدنيا وما فيها <sup>(٢)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم : « أيا داع دعا إلى هدى واتبع عليه كان له أجره وأجر من اتبعه » <sup>(٣)</sup> ، إل غير ذلك من فضائل العلم ، فينبغى أن يقال للعالم اشتغل بالعلم واترك مرادة الخلق كما يقال لمن عاجله الرياء فى الصلاة لا تترك العمل ولكن أنتم العمل وجاهد نفسك ، فاعلم أن فضل العلم كبير وخطره عظيم كفضل الخلافة والإمامة ، ولا تقول لأحد من عباد الله أترك العلم إذ ليس فى نفس العلم آفة وإنما الآفة فى إظهاره بالتصذى للوعظ والتدريس ورواية الحديث ، ولا تقول له أيضاً أتركه مادام يجد

(١) حديث « إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لإصلاح لهم » أخرجه النسائي وقد تقدم قريباً (٢) حديث « لأن يهدى الله بك رجلاً خير لك من الدنيا وما فيها » متفق عليه من حديث سويل بن سعد فقط « خير لك من حمر النعم » ولقد قدم فى العلم (٣) حديث « أيا داع دعا إلى هدى واتبع عليه كان له أجره وأجر من اتبعه » أخرجه ابن ماجه من حديث أس بن زيادة فى أوله وسلم من حديث أبي هريرة « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه ... الحديث » .

في نفسه باعثا دنييا موحيا يباعث الرياء ، أما إذا لم يجره إلا الرياء فترك الإظهار أنفع له وأسلم . وكذلك نوافل الصلوات إذا تجرد فيها باعث الرياء وجب تركها ، أما إذا خطر له وسوس الرياء في أثناء الصلاة وهو لها كاره فلا يترك الصلاة ، لأن آفة الرياء في العبادات ضعيفة ، وإنما تعظم في الولايات وفي التصدي للمناصب الكبيرة في العلم .

وبالجملة فالمراتب ثلاث (الأولى) الولايات ؛ والآفات فيها عظيمة وقد تركها جماعة من السلف خوفا من الآفة (الثانية) الصوم والصلاة والحج والزور ؛ وقد تعرض لها أقوياء السلف وضعفاؤهم ولم يؤثر عنهم الترك لخوف الآفة . وذلك لضعف الآفات الداخلة فيها والقدرة على تفنيها مع إتمام العمل لله بأدنى قوة (الثالثة) وهي متوسطة بين الريتين ؛ وهو التصدي لمصعب الوعظ والفتوى والرواية والتدريس ، والآفات فيها أقل مما في الولايات وأكثر مما في الصلاة ، فالصلاة ينبغي أن لا يتركها الضعيف والقوى ولكن يدفع خاطر الرياء ، والولايات ينبغي أن يتركها الضعفاء وأسا دون الأقوياء ، ومناصب العلم بينهما ، ومن جرب آفات منصب العلم علم أنه بالرأة أشبه ، وأن الحذر منه في حق الضعيف أسلم والله أعلم .

وهنا رتبة رابعة وهي : جمع المال وأخذ التفرقة على المستحقين ، فإن في الانفاق وإظهار السخاء استجلابا للنساء ، وفي إدخال السرور على قلوب الناس لذة للنفس ، والآفات فيها أيضا كبيرة .

ولذلك سئل الحسن عن رجل طلب القوت ثم أسكس ، وآخر طلب فوق قوته ثم تصدق به فقال : القاعد أفضل لما يعرفون من قوة السلامة في الدنيا ، وأن من الزهد تركها قربة إلى الله تعالى . وقال أبو الدرداء : ما يسرنى أتى أمت على درج مسجد دمشق أصيب كل يوم خمسين دينارا أن تصدق بها ، أما إنى لأحرم البيع والشراء ولكني أريد أن أكون من الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله .

وقد اختلف العلماء فقال قوم : إذا طلب الدنيا من الحلال وسلم منها وتصدق بها فهو أفضل من أن يشتغل بالعبادات والنوافل ، وقال قوم : الجلوس في دوام ذكر الله أفضل ، والآخر والإعطاء يشغل عن الله وقد قال المسيح عليه السلام : يا طالب الدنيا ليبر بها ، تركك لها أئز ؛ وقال : أقل ما فيه أن يشغل إصلاحه عن ذكر الله وذكر الله أكبر وأفضل . وهذا فيمن سلم من الآفات ، فأما من يتعرض لآفة الرياء فتركها لها أبر والاشتغال بالذكر لا يغني في أنه أفضل .

وبالجملة : ما يتعلق بالخلق والنفس فيه لذة فهو مثار الآفات ، والأحب أن يعمل ويدفع الآفات ، فإن عجز فلينظر وليجتهد وليستغف قلبه ، واسبون ما فيه من الخير بما فيه من الشر ، ليفعل ما يبدل عليه نور العلم دون ما يميل إليه الطبع .

وبالجملة ما يحده أخف على قلبه فهو في الأكثر أضر عليه ، لأن النفس لا تشير إلا بالشر وقلا تستلذ الخير وتميل إليه ، وإن كان لا يبعد ذلك أيضا في بعض الأحوال ، وهذه أمور لا يمكن الحكم على تفصيلها بنفى وإثبات فهو موكل إلى اجتهاد القلب لينظر فيه لئله ويدع ما يريه إلى ما لا يريه ، ثم قد يقع مما ذكرناه غرور الجاهل فيمسكه المال ولا ينفقه خيفة من الآفة وهو عين البخل . ولا خلاف في أن تفرقة المال في المباحات فضلا عن الصدقات أفضل من إمساكه ، وإنما الخلاف فيمن يحتاج إلى الكسب : أن الأفضل الكسب والإنفاق ، أو التجرد للذكر ؟ وذلك لما في الكسب من الآفات ، فأما المال الخالص من الحلال فتفرقه أفضل من إمساكه بكل حال .



فإن قلت فبأي علامة تعرف العالم والواعظ أنه صادق مخلص في وعظه غير مريد رياء الناس ؟ فأعلم أن لذلك علامات (أحداها) أنه لو ظهر من هو أحسن منه وعظا أو أغزر منه علما والناس له أشد قبولا فرح به ولم يتسده لهم لا بأس بالنبطة وهو أن يتنى لنفسه مثل عليه (والأخرى) أن الأكابر إذا حضروا مجلسه لم يتغير كلامه بل يبق كما كان عليه ، فينظر إلى الحق بعين واحدة (والأخرى) أن لا يحب اتباع الناس له في الطريق والمشي خلفه في الأسواق . ولذلك علامات كثيرة يطول إحصاؤها .

وقد روى عن سعيد بن أبي مروان قال : كنت جالسا إلى جنب الحسن إذ دخل علينا الحجاج من بعض أبواب المسجد ومعه الحرس وهو على رذون أصفر ، فدخل المسجد على برذوته ، فجعل يلتفت في المسجد فلم ير حلقته أحفل من حلقه الحسن فتوجه نحوها حتى بلغ قريبا منها ، ثم تقى وركه ففزل ومشى نحو الحسن ، فلما رآه الحسن متوجها إليه تهاى له عن ناحية مجلسه ، قال سعيد : وتهايت له أيضا عن ناحية مجلسي حتى صار بيني وبين الحسن فرجة ومجلس للحجاج ، فجاء الحجاج حتى جلس بيني وبينه والحسن يتكلم بكلام له - يتكلم به في كل يوم - فما قطع الحسن كلامه قال سعيد : فقلت في نفسي : لأبكون الحسن اليوم ولا نظرون هل يحمل الحسن جلوس الحجاج إليه أن يريد في كلامه يتقرب إليه ، أو يحمل الحسن هبة الحجاج أن ينقص من كلامه ؟ فتكلم الحسن كلاما واحدا نحو ما كان يتكلم به في كل يوم حتى انتهى إلى آخر كلامه ، فلما فرغ الحسن من كلامه وهو غير مكثرت به ، رفع الحجاج يده فغضب بها على منكب الحسن ثم قال : صدق الشيخ وبر فعلكم بهذه المجالس وأشياها فاعتذرها حلقتا وعادة فإني بلغني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يجالس الذكر رياض الجنة <sup>(١)</sup> ، ولولا ما حملناه من أمر الناس ما غلبتمونا على هذه المجالس لمرفقتنا بفضلها ، قال : ثم أقر الحجاج فتكلم حتى عجب الحسن ومن حضر من بلاغته ، فلما فرغ طلق فقام ، فجاء رجل من أهل الشام إلى مجلس الحسن - حين قام الحجاج - فقال : عباد الله المسلمين ألا تعجبون أني رجل شيخ كبير ، وأني أغزو فأكف فرسا وبطلا ، وأكف فسطاطا ، وأن لي للثيابة درهم من المعطاء وأن لي سبع بنات من العيال ؟ فشكا من حاله حتى رق الحسن له ولأصحابه ، والحسن مكب ، فلما فرغ الرجل من كلامه رفع الحسن رأسه فقال : ما هم قائلهم الله اتخذوا عباد الله خولا ومال الله دولا وقتلوا الناس على الدينار والدرهم ، فإذا غزا عدو الله غزا في الفساطيط الهبابة وعلى البنات السباقة ، وإذا أغزى أماء أغزاه طائريا واجلا ؟ فأقر الحسن حتى ذكرهم بأقبح العيب وأشده ، فقام رجل من أهل الشام كان جالسا إلى الحسن فسمى به إلى الحجاج وحكى له كلامه ، فلم يلبث الحسن أن أتته رسل الحجاج فقالوا : أجب الأمير ، فقام الحسن وأشفقتنا عليه من شدة كلامه الذي تكلم به ، فلم يلبث الحسن أن رجع إلى مجلسه وهو يتيم ، وقلبا رأيه فأغزاه بضحك إنما كان يتيم ، فأقبل حتى قعد في مجلسه فظم الأمانة وقال : إنما تجالسون بالأمانة كأنكم تظنون أن الخيانة ليست إلا في الدينار والدرهم ، إن الخيانة أشد الخيانة أن يجالسنا الرجل فطمعن إلى جانبته ثم ينطلق فيسعى بنا إلى شرارة من نار ، إلى أين هذا الرجل فقال : أقصر عليك من لسانك وقلك : إذا غزا عدو الله غزا كذا وكذا ، وإذا أغزى أماء : أغزاه كذا ، لا أبالك أن تمرض علينا الناس ؟ أما إننا على ذلك لانتهم نصيحتك فأقصر عليك من لسانك ، قال : فدفعه الله عنى . وركب الحسن حمارا يريد للزول فينبأ هو يسير إذا التفت فرأى قوما يتبعونه فوق فقال : هل لكم من حاجة أو تسألون عن شيء وإلا فارجموا فما بقي هذا من قلب العبد ؟ فهذه

(١) حديث : أن يجالس الذكر رياض الجنة . نعم في الأذكار والسموات .

العلامات وأمثالها تبيين سريرة الباطن . ومهما رأيت العلماء يتناهبون ويتحاسدون ولا يتعاونون فاعلم أنهم قد اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فهم الخاسرون . اللهم ارحمنا بطفلك يا أرحم الراحمين .

### بيان ما يصح من نشاط العبد للعبادة بسبب رؤية الحق وما لا يصح

اعلم أن الرجل قد بيت مع القوم في موضع فيقومون للتجهد ، أو يقوم بعضهم فيصلون الليل كله أو بعضه ، وهو عن يقوم في بيته ساعة قريبة ، فإذا رآهم انبثت نشاطه للوافقة حتى يزيد على ما كان يمتاده ، أو يصلي مع أنه كان لا يبتدئ الصلاة بالليل أصلاً ، وكذلك قد يقع في موضع يصوم فيه أهل الموضع فينبعث له نشاط في الصوم ولولا لما انبثت هذا النشاط ، فهذا ربما يظن أنه رياء وأن الواجب ترك الموافقة ، وليس كذلك على الإطلاق بل له تفصيل ، لأن كل مؤمن راغب في عبادة الله تعالى وفي قيام الليل وصيام النهار ، ولكن قد تمومه العوائق ويمنعه الاشتغال ويغلبه التسكن من الشهوات أو تسويه الغفلة ، فربما تكون مشاهدة الغير بسبب زوال الغفلة ، أو تدفع العوائق والاشتغال في بعض المواضع فينبعث له النشاط ، فقد يكون الرجل في منزله فقطعه الأسباب عن التجهد مثل تمكنه من النوم على فراش وثير ، أو تمكنه من التمتع بزوجته ، أو المحادثة مع أهله وأقاربه ، أو الاشتغال بأولاده أو مطالعة حساب له مع معامليه ، فإذا وقع في منزل غريب اندفعت عنه هذه الشواغل التي تفرغ رغبته عن الخير وحصلت له أسباب باعثة على الخير ، كشاهدته لإمام وقد أقبلوا على الله وأعرضوا عن الدنيا ، فإنه ينظر إليهم فينافهم ويشق عليه أن يسبقوه بطاعة الله فتتحرك داعيته للدين لا للرياء ، أو ربما يفارقه التزم لاستكراه الموضع أو سبب آخر فيفتش زوال النوم ، وفي منزله ربما يغلبه النوم وربما ينضاف إليه أنه في منزله على الدوام ، والنفس لا تسمح بالتجهد دائماً وتسمح بالتجهد وقتاً قليلاً فيكون ذلك سبب هذا النشاط مع اندفاع سائر العوائق ، وقد يمر عليه الصوم في منزله ومعه أطيب الأطعمة ويشق عليه الصبر عنها ، فإذا أعوزته تلك الأطعمة لم يشق عليه فتنبعث داعية الدين الصوم ، فإن الشهوات الحاضرة عوائق ودوافع تلبس باعثة الدين ، فإذا سلم منها قوى الباعث . فهذا وأمثاله من الأسباب يتصور وقوعه ويكون السبب فيه مشاهدة الناس وكونه معهم ، والشيطان مع ذلك ربما يصد عن العمل ويقول : لا تعمل فإنك تكون مرأياً إذا كنت لا تعمل في بيتك ولا ترد على صلاتك المعتادة ، وقد تكون رغبته في الزيادة لأجل رؤيتهم وخوفاً من ذمهم ونسبتهم لإياد إلى الكسل ، لاسيما إذا كانوا يظنون به أنه يقوم الليل ، فإن نفسه لا تسمح بأن يسقط من أعينهم فيريد أن يحفظ منزلته ، وعند ذلك قد يقول الشيطان : صل فإنك تخلص ولست تصل لأجلهم بل لله وإنما كنت لا تقصلي كل ليلة لكثرة العوائق وإنما داعيتك لزوال العوائق لا لإطلاعهم . وهذا أمر مشتبّه إلا على ذوى البصائر ، فإذا عرف أن الحركه هو الرياء فلا ينبغي أن يريد على ما كان يمتاده ولا ركة واحدة ، لأنه يصي الله يطلب محبة الناس بطاعته ، وإن كان انبعاثه لدفع العوائق وتحريك التبعة والمنافسة بسبب عبادتهم فليوافق . وعلامة ذلك أن يمرض على نفسه أنه لو رأى هؤلاء يصلون من حيث لا يرونه بل من وراء حجاب وهو في ذلك الموضع بعينه هل كانت نفسه تسخو بالصلاة وهم لا يرونه ؟ فإن سحت نفسه فليصل فإن باعثة الحق ، وإن كان ذلك يثقل على نفسه لو اغاب عن أعينهم فليترك ، فإن باعثة الرياء . وكذلك قد يحضر الإنسان يوم الجمعة في الجامع من نشاط الصلاة مالا يحضره كل يوم ، ويمكن أن يكون ذلك لحب محمّد ، ويمكن أن يكون نشاطه بسبب نشاطهم وزوال غفلته بسبب إقبالهم على الله تعالى ، وقد يتحرك بذلك باعثة الدين ويقارنه زوج النفس إلى حب الحمد ، فهما علم أن الغالب على قلبه إرادة الدين فلا

ينبغي أن يترك العمل بما يحده من حب الحمد ، بل يفتى أن يراد ذلك على نفسه بالكراهية ويستعمل بالعبادة . وكذلك قد يبكي جماعة فينظر إليهم فيحضره البكاء خوفاً من الله تعالى لا من الراء ، ولو سمع ذلك الكلام وحده لما بكى ، ولكن بكاء الناس يؤثر في تريق القلب ، وقد لا يحضره البكاء فيبكي - تارة رياء وتارة مع الصدق - إذ يخشى على قلبه مساواة القلب حين يكون ولا تدمع عينه فيبكي تكلفاً ، وذلك محمود . وعلامة الصدق فيه أن يعرض على نفسه أنه لو سمع بكاهم من حيث لا يرونه هل كان يخاف على نفسه المساواة فيبكي أم لا ؟ فإن لم يجد ذلك عند تقدير الاختفاء عن أعينهم فإنما خوفه من أن يقال إنه قاسى القلب فينبغي أن يترك التباكي . قال لقمان عليه السلام لابنه : لا ترى الناس أنك تخشى ليكرموك وقلبك فاجر . وكذلك الصيحة والتنفس والآنين عند القرآن أو الذكر أو بعض مجارى الأحوال ، تارة تكون من الصدق والحزن والخوف والتدمع والتأسف وتارة تكون لمشاهدته حزن غيره ومساواة قلبه ، فيتكشف التنفس والآنين ويتحازن وذلك محمود ، وقد تنحرف به الرغبة فيه لدلائله على أنه كثير الحزن ليعرف بذلك ، فإن تجردت هذه الباعية فهي الرياء ، وإن اقترنت بداعية الحزن فإن أباهما ولم يقبلها وكرهها سلم بكاهه وتباكيه ، وإن قبل ذلك وكن إليه قبله حبط أجره وضاع سعيه وتعرض لسيخط الله تعالى به ، وقد يكون أصل الآنين عن الحزن ، ولكن يمدد ويريد فيرفع الصوت فتلك الزيادة رياء ، وهو مخلوط لأنهما في حكم الابتداء لمجرد الرياء ، فقد يسبح من الخوف ما لا يملك العبد معه نفسه ، ولكن يسبقه خاطر الرياء فيقبله ، فيدعو إلى زيادة تحزين للصوت أو رفع له أو حفظ الدفعة على الوجه حتى تبصر بعد أن استرسلت لخشية الله ، ولكن يحفظ أثرها على الوجه لأجل الرياء . وكذلك قد يسمع الذكر فتضعف قواه من الخوف فيسقط ، ثم يستحي أن يقال له إنه سقط من غير زوال عقل وحالة شديدة ، فيدعق ويتواجد تكلفاً ليرى أنه سقط لكونه مغشياً عليه وقد كان ابتداء السقطة عن صدق ، وقد يزول عقله فيسقط ولكن يفتق سريماً فتجرح نفسه أن يقال حاله غير ثابتة ، وإنما هي كبرق خاطف ، فيستدبر الرعدة والرقص ليرى دوام حاله ، وكذلك قد يفتق بعد الضعف ولكن يزول ضعفه سريماً فيجرح أن يقال لم تكن خشيتك صحيحة ولو كان لدام ضعفه ، فيستدبر إظهار الضعف والآنين فيسكن على غيره يرى أنه يضعف عن القيام ويتأبل في المشى ويقرب النخطا ليلظهر أنه ضعيف عن سرعة المشى . فهذه كلها مكاييد الشيطان ونزعات النفس . فإذا خطرت فعلها أن يتذكر أن الناس لو عرفوا نفاقه في الباطن واطلموا على خيمته لمتوه ، وإن الله مطلع على خيمته وهو له أخذ مفتاً ، كما روى عن ذي النون رحمه الله أنه قام وزعت ، فقام معه شيخ آخر رأى فيه أثر التكليف فقال يا شيخ ! الذي يراك حين تقوم ؟ جلس الشيخ . وكل ذلك من أعمال الناقصين .

وقد جاء في الخبر « تمودوا بالله من خضوع التفائق »<sup>(١)</sup> ، وإنما خضوع التفائق أن تخضع الجوارح والقلب غير خاشع ، ومن ذلك الاستغفار والاستعاذة بالله من عذابه وغضبه ، فإن ذلك قد يكون لخاطر خوف وتذكر ذنب وتدمع عليه وقد يكون للبراءة . فهذه خواطر ترد على القلب متضادة مترادة متقاربة ، وهي مع تقاربها متباينة ، فراقب قلبك في كل ما يحيط لك وانظر ما هو ومن أين هو ؟ فإن كان لله فأمسه واحذر مع ذلك أن يكون قد خنى عليك شيء من الرياء الذي هو كديب النمل ، وكن على وجل من عبادة لك أمي مقبولة أم لا ؟ أنتوكل على الإخلاص فيها ، واحذر أن يتجسد لك خاطر الركون إلى حمدك بعد الشروع بالإخلاص فإن ذلك مما يكثر جداً ،

(١) حديث « تمودوا بالله من خضوع التفائق » أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي بكر الصديق وفيه للحارث بن عبيد الأبادي ضعفه أحد وابن مدين .

فلما خطر لك فتفكر في اطلاع الله عليك ومقته لك . وتذكر ما قاله أحد الثلاثة الذين ساجوا أيوب عليه السلام إذ قال : يا أيوب أما علمت أن البعد أفضل عنه علائقته التي كان يتخادع بها عن نفسه ويجزي بسريره . وقول بعضهم : أعوذ بك أن يرى الناس أذى أخشاك وأنت لي مافت . وكان من دعاء علي بن الحسين رضي الله عنهما : اللهم إني أعوذ بك أن تحصن في لامة الميرون علائقي وتخبخ لك فيها أخلو سريري ، عافظا على رياء الناس من نفسي مضيقاً لما أنت مطلع عليه مني ، أبدي الناس أحسن أمرى وأفضى إليك بأسوأ عمل ، تهرباً إلى الناس بحسناتي وفراراً منهم إليك بسياي ، فيجل في مقتلك ويجب على غضبك ، أعذني من ذلك يارب المسلمين . وقد قال أحد الثلاثة نفر لأيوب عليه السلام : يا أيوب ألم تعلم أن الذين حفظوا علائقتهم وأضاعوا سرائرهم عند طلب الحاجات إلى الرحمن تسود وجوههم بهذه آفات الرياء . فليارب البعد قلبه ليقف عليها في الخير ؟ إن لرياء سبعين باباً (١) . وقد عرفت أن بعضه أغص من بعض ، حتى إن بعضه مثل ديب الخمل ، وبعضه أخفى من ديب الخمل ، وكيف يدرك ماهو أخفى من ديب الخمل إلا بقدة التقصد والمراقبة ؟ وليته أدرك بمد بلد المجهود فكيف يطمع في إدراكه من غير تفقد القلب وامتحان النفس وتفتيش عن خدعها ؟ نسأل الله تعالى العافية بمنه وكرمه وإحسانه .

### بيان ما ينبغي للريد أن يلزم نفسه قبل العمل وبعده وفيه

اعلم أن أولى ما يلزم الريد قلبه في سائر أوقاته القناعة بعلم الله في جميع طاعاته ، ولا يقنع بعلم الله إلا من لا يخاف إلا الله ولا يرجو إلا الله ، فأما من خاف غيره وارتجأه اشتى اطلاعه على محاسن أحواله ، فإن كان في هذه الرتبة فيلزم قلبه كرامة ذلك من جهة العقل والإيمان لما فيه من خطر التعرض للقتل ، وليراقب نفسه ضد الطاعات العظيمة الشاقة التي لا يقدر عليها غيره ، فإن النفس عند ذلك تكاد تقفل حرصاً على الإنشاء وتقول : مثل هذا العمل العظيم أو الخوف العظيم أو البكاء العظيم لو عرفه الخلق منك لسجدوا لك ! فإلى الخلق من يقدر على مثله فكيف ترضى بإخفائه فيجعل الناس عملاً ويتكبرون قدرك ويحرمون الاقتداء بك ؟ ففي مثل هذا الأمر ينبغي أن يشهد قسمة ، ويتذكر في مقابلة عظم عمله . عظم ملك الآخرة ونعيم الجنة ودوامه أبد الأباد وعظم غضب الله ومقته على من طلب بطاعته ثواباً من عباده ، ويعلم أن إظهاره لغيره محبب إليه وسقوط عتدائه وإحباط للعمل العظيم فيقول : وكيف أتبع مثل هذا العمل بمحمد الخلق وهم عاجزون لا يقدرون لي على رزق ولا أجل ؟ فيلزم ذلك قلبه ولا ينبغي أن يياس عنه فيقول : إنما يقدر على الإخلاص الأقرباء فأما المخلطون فليس ذلك من شأنهم ، فيترك المجاهدة في الإخلاص ، لأن المخلط إلى ذلك أحوج من الملتق ، لأن الملتق إن فسدت نوافله بقيت فرائضه كاملة تامة ، والمخلط لا تخطو فرائضه عن نقصان والحاجة إلى الجبران بالتواقل فإن لم تلم صار مأخوذاً بالفرائض وهلك به ، فالمخلط إلى الإخلاص أحوج . وقد روى تميم الداري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : يتسبب للبدي يوم القيامة فإن قصص فرضه قيل انظروا هل له من تطوع ؟ فإن كان له تطوع أكل به فرضه وإن لم يكن له تطوع أخذ

(١) حديث « الرياء سبعون باباً » هكذا ذكر المصنف هذا الحديث هنا وكأه تصح عليه أو لم من تضمن كلامه أنه « الرياء » بالبناء وأما هو « الرياء » بالوحدة والمرسوم كناية بالواو ، والحديث رواه ابن ماجه من حديث أبي هريرة بلفظ « الرياء سبعون حوبا أسرها أن ينسكب الرجل أمه » وفي إسناده أبو مسهر واسمه يجمع مختلف فيه وروى ابن ماجه أيضاً من حديث ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « الرياء ثلاث وسبعون باباً » وإسناده صحيح هكذا ذكر ابن ماجه ، الحديثين في أبواب التجارات وله روى الزبائر حديث ابن مسعود بلفظ « الرياء سبع وسبعون باباً والتمسك مثل ذلك » وهذه الزيادة قد يستعمل بها على أنه « الرياء » بالبناء لاقرانه مع التمسك والله أعلم .

بطريقه فألقى في النار <sup>(١)</sup> ، فيأتي المخلط يوم القيامة وقرضه ناقص وعليه ذنوب كثيرة فاجتهاده في جبر القرائض وتكفير السيئات ولا يمكن ذلك إلا بخلوص التواكل ، وأما التلقى لجهده في زيادة الدرجات فإن حبله تقطعه بقى من حسنة ما يرجع على السيئات فيدخل الجنة .

فإذن ينبغي أن يلزم قلبه خوف اطلاع غير الله عليه لتصح نوافله ، ثم يلزم قلبه ذلك بعد الفراغ حتى لا يظهره ولا يتحدث به ، وإذا فعل جميع ذلك فيلزم أن يكون وجلا من عمله عاتما أنه ربما داخله من الزيادة الخفى الملقف عليه ، فيكون شاكا في قبوله ورده مجزا أن يكون الله قد أحصى عليه من نيته الخفية ما عتبه بها ورد عليه بسببها ، ويكون هذا الشك والخوف في دوام عمله وبعده إلا في ابتداء العقد ، بل يلزم أن يكون متيقنا في الابتداء أنه غطص ما يريد بعمله إلا الله حتى يصح عمله ، فإذا شرع ومضت لحظة يمكن فيها التفتة والنسيان كان الخوف من التفتة عن شائبة خفية أحبطت عمله من رياء أو صجب أول به ، ولكن يكون رجاءه أغلب من خوفه لأنه استيقن أنه دخل بالإخلاص وشك في أنه هل أفسده برباه ؟ فيكون رجاءا القبول أغلب ، وبذلك تعظم لذته في المناجاة والطاعات . فالإخلاص : يقين ، والرباه : شك . وخوفه لذلك الشك جدير بأن يكفر خاطر الرباه إن كان قد سبق وهو غافل عنه . والذي يتقرب إلى الله بالسعى في حوائج الناس وإفادة العلم يلزم أن يلزم نفسه رجاء الثواب على دخول السرور على قلب من قضى حاجته فقط ، ورجاء الثواب على عمل للمتعلم بعمله فقط ، دون شكر ومكافأة وحدوثه من المتعلم والتمتع عليه ، فإن ذلك يحبط الأجر . فهما توقع من المتعلم مساعدة في شغل وخدمة ، أو مراقبه في المشي في الطريق ليستكثر باستبانه ، أو ترددا منه في حاجة فقد أخذ أجره فلا ثواب له غيره . نعم إن لم يتوقع هو ولم يقصد إلا الثواب على عمله ببله ليكون له مثل أجره ، ولكن خدمته التلبذ بنفسه فقبل خدمته ، فخرجوا لا يحبط ذلك أجره إذا كان لا ينتظره ولا يريد منه ، ولا يستبده منه لو قطعه . ومع هذا فقد كان العلماء يحذرون هذا ، حتى إن بعضهم وقع في بئر لجاء قوم فادلوا حبالا ليرفوه خلف عليهم أن لا يقف معهم من قرأ عليه آية من القرآن أو سمع منه حديثا ، خيفة أن يحبط أجره . وقال شقيق البلخي : أهديت لسفيان الثوري ثوبا فردّه علي ، فقلت له : يا أبا عبد الله لست أنا من يسمع الحديث حتى تردّه علي قال : طبع ذلك ولكن أخوك يسمع من الحديث فأعاف أن يلزم قلبي لأخيك أكثر مما يلزم لغيره . وجاء رجل إلى سفيان ببدرة أو بدريين وكان أبوه صديقا لسفيان وكان سفيان يأتيه كثيرا ، فقال له : يا أبا عبد الله في نفسك من أبي شيء ؟ فقال : رحم الله أباك . كان وكان . وأني عليه . فقال : يا أبا عبد الله قد عرفت كيف صار هذا للآل إلى ، فأجاب أن تأخذ هذه تستعين بها على صلاتك ( قال ) فقبل سفيان ذلك ( قال ) فلما خرج قال لولده : يا مبارك الحق فردّه علي ، فرجع فقال : أحب أن تأخذ مالك ، فلم يزل به حتى رده عليه . وكأنه كانت أخوته مع أبيه في الله تعالى فكره أن يأخذ ذلك . قال ولده : فلما خرج لم أملك نفسي أن جئت إليه فقلت : ويلاك أي شيء قلبك هذا ؟ حجارة ؟ عد أنه ليس لك عيال ؟ أما ترى ؟ أما ترحم إخوانك ؟ أما ترحم عيالك ؟ فأكرمت عليه فقال لي : يا مبارك تأكلها أنت هنيئا سرينا وأسأل عنها أنا .

فإذن يجب على العالم أن يلزم قلبه طلب الثواب من الله في اعتناء الناس به فقط ، ويجب على المتعلم أن يلزم قلبه حمد الله وطلب ثوابه وتبيل للنزلة عنده ، لاعتد العلم وعند الخلق . وربما يظن أنه لو أن يراقى بطاعته لينال عند العلم رتبته ، فيستعلم منه ، وهو خطأ لأن إرادته بطاعته غير الله خسران في الحال ، والعلم ربما يفيد وربما

(١) حديث صحيح البخاري : في أكل لينة الصلاة بالطعوس أخرجه أبو داود وابن ماجه وهدم في الصلاة .

لا يقيد ؟ فكيف يخسر في الحال عملا تقدا على توهم علم ! وذلك غير جائز ، بل ينبغي أن يتعلم الله ويبد الله ويتقدم العلم لله ، لا يكون له في قلبه منزلة ، إن كان يريد أن يكون قلبه طاعة ، فإن العباد أسروا أن لا يعبدوا إلا الله ولا يريدوا بطاعتهم غيره . وكذلك من يخدم أبويه لا ينبغي أن يخدمهما لطلب المنزلة عندهما إلا من حيث إن رضا الله عنه في رضا الوالدين ، ولا يجوز له أن يراى بطلاعته لينال بها منزلة عند الوالدين ، فإن ذلك معصية في الحال وسيكشف الله عن رياءه وتفسد منزلته من قلوب الوالدين أيضا . وأما الزاهد المعتزل عن الناس فينبغي له أن يلزم قلبه ذكر الله والتفكير ببله ، ولا يخطر بقلبه معرفة الناس زهده واستعظامهم محله ، فإن ذلك يفرس الرياء في صدره حتى تتيسر عليه المبادات في خلوته به ، وإنما سكوته لمعرفة الناس باعتزاله واستعظامهم محله وهو لا يدري أنه الخفف العمل عليه .

قال إبراهيم بن آدم رحمه الله : تعلمت المعرفة من راهب يقال له سمعان دخلت عليه في صومعته فقلت : يا سمعان منذ كنت في صومعته ؟ قال : منذ سبعين سنة ، قلت : فما طعامك ؟ قال : يا حنفي وما دحك إلى هذا ؟ قلت : أحببت أن أعلم ، قال : في كل ليلة حصّة قلت ، فما الذي يجمع من قلبك حتى تكفيك هذه الحصّة ؟ قال : ترى الدير الذي بمذالك ؟ قلت : نعم ، قال : إنهم يأتوني في كل ستة يوما واحدا فيزيتون صومعتي ويعطون حو لها ويظلموني ، فكما تافكت نفسي عن العبادة ذكرتها من تلك الساعة ، فأنا أحتمل جهد سنة لمر ساعة ! فأحتمل يا حنفي جهد ساعة لمر الأبد ، ففرق في قلبي المعرفة ، فقال : حسبك أو أزيدك ؟ قلت : بلى ، قال : انزل عن الصومعة ، فزلات فأدلى ركوة فيها عشرون حصّة فقال لي : ادخل الدير فقد رأوا ما أدليت إليك ، فلما دخلت الدير اجتمع على التصاري فقالوا : يا حنفي ما الذي أدلى إليك الشيخ ؟ قلت : من قوته قالوا : فما تصنع به ونحن أحق به ؟ ثم قالوا : ساوم ! قلت : عشرون ديناراً فأعطوني عشرين ديناراً فرجعت إلى الشيخ فقال : يا حنفي ما الذي صنعت ؟ قلت : بته منهم ، قال : بك ؟ قلت : بعشرين ديناراً ، قال : أخطأت ! لو ساومتهم بعشرين ألف دينار لأصطوك ، هذا عز من لا يعبده فانظر كيف يكون عز من تعبده ؟ يا حنفي أقبل على ربك ودع الذماب والجيئة .

والقصد أن استعمار النفس عز العظمة في القلوب يكون باعثا في الخطوة وقد لا يشعر العبد به ، فينبغي أن يلزم نفسه الحذر منه وعلامة سلامته أن يكون الخلق عنده والهايم بمثابة واحدة ، فلو تغيروا عن اعتقادهم لم يجمع ولم يشق في ذم إلا كرامة ضعيفة ، إن وجدها في قلبه فبردها في الحال بقله وإيمانه ، فإنه لو كان في عبادة وأطلع الناس كلهم عليه لم يرد ذلك خسوا ولم يداخه سرور بسبب اطلاعهم عليه ، فإن دخل سرور يسير فهو دليل ضعفه ولكن إذا قدر على رده بكرامة العقل والإيمان وبادر إلى ذلك ولم يقل ذلك السرور بالركون إليه فيرجى له أن لا ينجيب سميه ؛ إلا أن يزيد عنه مشاهدتهم في الخشوع والانتباه كي لا ينسطوا إليه ، فذلك لا بأس به ولكن فيه غرور ، إذ النفس قد تكون شهوات الخفية لإظهار الخشوع وتتملّل بطلب الانتباه فيطالبا في دعواها قصد الانتباه بموتق من الله غليظ ، وهو أنه لو علم أن انتباههم عنه إنما حصل بأن يبدو كثيرا أو يضحك كثيرا أو يأكل كثيرا فتنسج نفسه بذلك ؟ فإذا لم تسمح وتمتحت بالعبادة فيشبه أن يكون مرادها المنزلة عندهم ، ولا ينجر من ذلك إلا من تقرر في قلبه أنه ليس في الوجود أحد سوى الله فيعمل عمل من لو كان على وجه الأرض وحده لسكان يعمله ، فلا يلتفت قلبه إلى الخلق إلا خطرات ضعيفة لا يشق عليه إزالتها فإذا كان كذلك لم يتغير بمشاهدة الخلق . ومن علامة الصدق فيه أنه لو كان له صاحبان أحدهما غني والآخر فقير فلا يجد عند إقبال الغني زيادة هزة

في نفسه ، لا كرامة إلا إذا كان في الغنى زيادة علم أو زيادة ورع فيكون مكرما له بذلك الوصف لا بالثني ، فمن كان استرواحه إلى مشاهدة الأغنياء أكثر فهو مرء أو طماع ، وإلا فانظر إلى الفقراء يزيد في الرغبة إلى الآخرة ويحب إلى القلب المسكنة ، والنظر إلى الأغنياء بخلافه ، فكيف استروح بالنظر إلى الغنى أكثر مما يستروح إلى الفقر ؟ وقد حكي أنه لم ير الأغنياء في مجلس أذل منهم فيه في مجلس سفيان الثوري ، كان يجلسهم ورأاهم الصفير يقدم الفقراء حتى كانوا يشتمون أنهم فقراء في مجلسه . نعم لك زيادة إكرام للثني إذا كان أقرب إليك أو كان بينك وبينه حق وصداقة سابقة ، ولكن يكون بحيث لو وجدت تلك العلاقة في فقير لكنت لا تقدم الثني عليه في إكرام وتوقير ألبته ، فإن الفقير أكرم على الله من الغنى ، فإشارك لا يكون إلا طمعا في غناه ورياء له ، ثم إذا سويت بينهما في المجالسة فيخشى عليك أن تظهر الحكمة والخشوع للثني أكثر مما تظهره للفقير ، وإنما ذلك رياء خفي أو طمع خفي ، كما قال ابن السكك الجارية له مالي إذا أبيت بغداد فتحت لي الحكمة ؟ فقالت : الطمع يشهد لسانك وقد صدقت ! فإن اللسان ينطق عند الثني بما لا ينطق به عند الفقر ، وكذلك يحضر من الخشوع عنده ما لا يحضره عند الغنى . ومكابد النفس وخفاياها في هذا الفن لا تنحصر ولا تنجليك منها إلا أن تخرج ما سوى الله من قلبك ، وتجرد بالشفقة على نفسك بقية عورك ولا ترضى لها بالتأرب بسبب شهوات منغصة في أيام مقاربة ، وتكون في الدنيا كذلك من ملوك الدنيا قد أمكنته الشهوات وساعدته اللذات ، ولكن في بدنه سقم وهو يخاف الهلاك على نفسه في كل ساعة لو اتسع في الشهوات ، وعلم أنه لو احتجى وجاهد شهوته عاش ودام ملكه ، فلما عرف ذلك جالس الأطباء وحارب الصيدلة وعود نفسه شرب الأدوية المرة وصبر على بشاعتها ومجر جميع اللذات وصبر على مفارقتها ، فبدنه كل يوم يزداد نحولا لقله أكله ولكن سقمه يزداد كل يوم نقصانا لشدة احتجائه ، فهما نازعتا نفسه إلى شهوة تفكر في توالي الأوجاع والآلام عليه وأداه ذلك إلى الموت المفروق بينه وبين مملكته المرجب لشيامة الأعداء به وهما اشتدت عليه شرب دواء تفكر فيها يستفيده منه من الشفاء الذي هو سبب التمتع بملكه وجميعه في عيش هنيء وبدن صحيح وقلب رضى وأمر نافذ ، فينخف عليه مهاجرة اللذات ومصايرة المكرومات . فكذلك المؤمن الريد لملك الآخرة احتجى عن كل مهلك له في آخرته وهي لذات الدنيا وزهرتها فاجتزى منها بالقليل ، واختار التحول والديول والوحشة والحزن والخوف ، وترك اللؤاسة بالخلق خوفا من أن يمل عليه غضب من الله فيهلك ، ورجاء أن ينجو من عذابه ، تخف ذلك كله عليه عند شدة يقينه وإيمانه بمعاقبة أمره وبما أعد له من العيم القيم في رضوان الله أبد الأبد ، ثم علم أن الله كريم رحيم لم يزل لعباده المريدن لمرضاته عوناً وبهم رموفاً وعليهم عطفوا ولو شاء لأغنام عن التمس ، ولكن أراد أن يلوهم ويعرف صدق إرادتهم حكمة منه وعدلا ، ثم إذا عمل التمس في بدايته أقبل الله عليه بالمعونة والتيسير ووسط عنه الأعباء وسهل عليه الصبر ، وحجب إليه الطاعة ورزقه فيها من لذة المنجاة ما يلهي عن سائر اللذات ويقويه على إمارة الشهوات ويتولى سياسته وتقويته وأمدته بمجودته ، فإن الكريم لا يضيع سعى الراجي ولا يجيب أمل المحب وهو الذي يقول : من تحزب إلى شبرا تحزبت إليه ذراعا ، ويقول تعالى : لقد طال شوق الأبرار إلى لقاء وإلى إلى لقاءهم أشد شوقا ، فليظهر العبد في البداية جهده وصدقه وإخلاصه فلا يعوزه من الله تعالى على القرب ما هو اللائق بمجوده وكرمه ورافته ورحمته .

تم كتاب ذم الجاه والرياء والحمد لله وحده

## كتاب ذم الكبر والعجب

وهو الكتاب التاسع من ربيع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الخالق البارئ المصور العزيز الجبار المتكبر العلي الذي لا يرضه عن مجده واضع ، الجبار الذي كل جبار له ذليل خاضع ، وكل متكبر في جناب عزه مسكين متواضع ، فهو القهار الذي لا يدفعه عن مراده دافع ، الغني الذي ليس له شريك ولا منازع ، القادر الذي يهر أبصار الخلائق جلاله وهماؤه ، وقهر العرش المجيد استواؤه واستملاؤه واستيلاؤه ، وحصر ألسن الأنبياء وصفه وتماؤه ، وارتفع عن حد قدرتهم إحصاؤه واستقصاؤه ، فاعترف بالمعجز عن وصف كنه جلاله ملائكته وأنبياءه ، وكسر ظهور الأكاسرة عزه وعلاؤه ، وقصر أيدي القياصرة عظمتهم وكبريائهم ، فالعظمة إزاره والكبرياء دواؤه ، ومن نازعه فيها قسمه بداء الموت فأعجزه دواؤه ، جل جلاله وتقدست أسمائه ، والصلاة على محمد الذي أنزل عليه النور المنتشر ضياؤه ، حتى أشرقت بواره أكناف العالم وأرجائه ، وعلى آله وأصحابه الذين هم أحباب الله وأوليائه ، وخيرته وأصفياؤه وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد : فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني فيها نصمت »<sup>(١)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم « ثلاث مهلكات : شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه »<sup>(٢)</sup> ، فالكبر والعجب دمان مهلكان ، والمتكبر والمعجب سقيان مريضان ، وهما عند الله بمقوتان بغيضان . وإذا كان القصد في هذا الربع من كتاب إحياء علوم الدين شرح للمهلكات وجب إيضاح الكبر والعجب فإنهما من قبائح المرديات . ونحن نستضي ببيانهما من الكتاب في شطرين : شطر في الكبر ، وشرط في العجب .

الشرط الأول من الكتاب : في الكبر ؛ وفيه : بيان ذم الكبر ، وبيان ذم الاختيال ، وبيان فضيلة التواضع ، وبيان حقيقة التكبر وأفته ، وبيان من يتكبر عليه ودرجات التكبر ، وبيان ما به التكبر ، وبيان البواعث على التكبر ، وبيان أخلاق المتواضعين وما فيه يظهر الكبر ، وبيان علاج الكبر : وبيان امتحان النفس في خلق الكبر ، وبيان المحمود من خلق التواضع وللذموم منه .

### بيان ذم الكبر

قد ذم الله الكبر في مواضع من كتابه وذم كل جبار متكبر فقال تعالى ( سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ) وقال عز وجل ( كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ) وقال تعالى ( واستفتحوا ) وغاب كل جبار شهيد ( وقال تعالى ( إنه لا يحب المستكبرين ) وقال تعالى ( لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا ) وقال تعالى ( إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ) وذم الكبر في القرآن كثير وقد

### كتاب ذم الكبر والعجب

(١) حديث « قال الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني فيها نصمت » أخرجه الحاكم المستدرك دون ذكره العظمة ، وقال صحيح على شرط مسلم وهم في الهم ، وسيأتي بعد حديثين بلفظ آخر (٢) حديث « ثلاث مهلكات .. الحديث » أخرجه البزار والطبراني والبيهقي في الفقه من حديث أس بنند ضيف وهم فيه أيضا .



قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر ، ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان »<sup>(١)</sup> ، وقال أبو هريرة رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى الكبيراء رداق والعتظة لإزاري فن نازعني واحدا منهما ألقته في جهنم ولا بأل<sup>(٢)</sup> » ، وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال : التقى عبد الله بن عمرو وعبد الله بن عمر على الصفا فترافعا ، ففضي ابن عمرو وأقام ابن عمر بيكي ، فغالوا ما بيكيك يا أبا عبد الرحمن ؟ فقال : هذا - يعني عبد الله بن عمرو - زعم أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر أكبه الله في النار على وجهه »<sup>(٣)</sup> ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين فيصيبه ما أصابهم من العذاب »<sup>(٤)</sup> ، وقال سليمان بن داود عليهما السلام يوما - للطير والإنس والجن والبهائم : اخرجوا ، فخرجوا في مائتي ألف من الإنس ومائتي ألف من الجن ، فرفع حتى سمع زجل اللاتكة بالتسبيح في السموات ، ثم خفض حتى سمع أقدامه البحر ، فسمع صوتا : لو كان في قلب صاحبكم مثقال ذرة من كبر لحسفت به أبعد مما رفعته . وقال صلى الله عليه وسلم « يخرج من النار عتق له أذنان تسمعان وعينان تبران ولسان ينطق يقول : وكلت ثلاثة ؛ بكل جبار عنيد وبكل من دعا مع الله إلها آخر والمصورين »<sup>(٥)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنة بخيل ولا جبار ولا سيئ الملكة »<sup>(٦)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم « تحاجت الجنة والنار فذالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين ، وقالت الجنة : مالي لا يدخلني إلا ضغفاء الناس وسقاطهم وعجزتهم ؟ فقال الله للجنة : إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي ، وقال النار : إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء ولكل واحدة منك ما ملؤها »<sup>(٧)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم « بش العبد عبد تعبر واعتدى ونسى الجبار الأعلى ، بش العبد عبد تعبر واختل ونسى الكبير للمثال ، بش العبد عبد غفل وسها ونسى للمقابر والبلى بش العبد عبد متناوب ونسى المبدأ والمتهتئ »<sup>(٨)</sup> ، وعن ثابت قال : بلغنا أنه قيل يارسول الله ما أعظم كبر فلان ؟ فقال : أليس بعده الموت<sup>(٩)</sup> ، وقال عبد الله بن عمرو : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن نوحا عليه السلام لما حضرته الوفاة دعا ابنه وقال : إني أتركك بالثنتين وأنهاكا عن الثنتين ، أنهاكا عن الشرك والكبر ، وأمركا بلا إله إلا الله . فإن السموات والأرضين وما فيهن لو وضعت في كفة الميزان ووضعت لا إله إلا الله في الكفة الأخرى كانت أرجح منهما ، ولو أن السموات والأرضين وما فيهن كانتا حلقة فوضعت لا إله إلا الله عليها لقصبتها ، وأمركا بسبحان الله

(١) حديث « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان » أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود . (٢) حديث أبي هريرة : يقول الله تعالى الكبيراء رداق والعتظة لإزاري فن نازعني واحدا منهما ألقته في جهنم ولا بأل . (٣) حديث أبي سلمة بن عبد الرحمن : التقى عبد الله بن عمرو وعبد الله بن عمر على الصفا فترافعا ، ففضي ابن عمرو وأقام ابن عمر بيكي ، فغالوا ما بيكيك يا أبا عبد الرحمن ؟ فقال : هذا - يعني عبد الله بن عمرو - زعم أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر أكبه الله في النار على وجهه » . (٤) حديث « لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين فيصيبه ما أصابهم من العذاب » . (٥) حديث « يخرج من النار عتق له أذنان تسمعان وعينان تبران ولسان ينطق يقول : وكلت ثلاثة ؛ بكل جبار عنيد وبكل من دعا مع الله إلها آخر والمصورين » . (٦) حديث « لا يدخل الجنة بخيل ولا جبار ولا سيئ الملكة » . (٧) حديث « تحاجت الجنة والنار فذالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين ، وقالت الجنة : مالي لا يدخلني إلا ضغفاء الناس وسقاطهم وعجزتهم ؟ فقال الله للجنة : إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي ، وقال النار : إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء ولكل واحدة منك ما ملؤها » . (٨) حديث « بش العبد عبد تعبر واعتدى ونسى الجبار الأعلى ، بش العبد عبد غفل وسها ونسى للمقابر والبلى بش العبد عبد متناوب ونسى المبدأ والمتهتئ » . (٩) حديث ثابت : بلغنا أنه قيل يارسول الله ما أعظم كبر فلان ؟ فقال : أليس بعده الموت ؟ أخرجه البيهقي في الشعب هكذا حسلا بالفظ « تعبر » .

وبحمده فإنها صلاة كل شيء وبها يرزق كل شيء<sup>(١)</sup> ، قال المسيح عليه السلام : طوبى لمن عليه الله كتابه ثم لم يمت جباراً . وقال صلى الله عليه وسلم : أهل النار كل جمظري جواظ مستكبر جماع مناع ، وأهل الجنة الضعفاء المتلون<sup>(٢)</sup> . وقال صلى الله عليه وسلم : إن أحكم إلينا وأقربكم منا في الآخرة أحاسنكم أخلاقاً ، وإن أبغضكم إلينا وأبعدكم منا الثأرون المتشدقون المتفيهقون<sup>(٣)</sup> ، قالوا : يا رسول الله قد علمنا الثأرون والمتشدقون فما المتفيهقون ؟ المتكبرون<sup>(٤)</sup> . وقال صلى الله عليه وآله وسلم : يحشر المتكبرون يوم القيامة في مثل صور النور تطوهم الناس ، ذراً في مثل صور الرجال يعلم كل شيء من الصغار ، ثم يساقون إلى جهنم يقال له بولس يعلمهم نار الأنيار يسقون من طين الحبال عصارة أهل النار<sup>(٥)</sup> ، وقال أبو هريرة : قال النبي صلى الله عليه وسلم : يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة في صور النور تطوهم الناس لطوانهم على الله تعالى<sup>(٦)</sup> ، وعن محمد بن واسع قال : دخلت على بلال بن أبي بردة فقلت له يا بلال إن أباك حدثني عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن في جهنم وادياً يقال له مهبب حق على الله أن يسكنه كل جبار ، فذاك يا بلال أن تكون ممن يسكنه »<sup>(٧)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم : « إن في النار قصراً يحمل فيه المتكبرون ويطلق عليهم<sup>(٨)</sup> » ، وقال صلى الله عليه وسلم : اللهم إني أعوذ بك من نفخة الكبرياء<sup>(٩)</sup> ، وقال : « من فارق روحه جسده وهو يرى من ثلاث دخل الجنة : الكبر والدين والتقول<sup>(١٠)</sup> » .

الآثار : قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : لا يقرن أحد أحدًا من المسلمين ، فإن صغير المسلمين عند الله كبير . وقال وهب : لما خلق الله جنة عدن نظر إليها فقال أنت حرام على كل متكبر . وكان الأحنف بن قيس يجلس مع مصعب بن الزبير على سريره ، فجاء يوماً ومصعب ماد رجليه فلم يقبضهما ، وقدد الأحنف فرحمه بعض الزحمة فرأى أثر ذلك في وجهه فقال : عجبالن آدم يشكر<sup>(١)</sup> وقد خرج من بحري البول مرتين . وقال الحسن : العجب من ابن آدم ، يفسل الحرة بيده كل يوم مرة أو مرتين ثم يعاوض جبار السموات . وقد قيل في ( وفي أنفسكم

(١) حديث عبد الله بن عمرو : أن نوحاً لما حضرته الوفاة دعا أبنه وقال : إني أسألك بأنيتن وأنتما كما هن أنتن ، أنهما كما عن الشرك والكبر ... الحديث . أخرجه أحمد والبخاري في كتاب الأدب والحاكم زيادة في نقله قال صحيح الاسناد .

(٢) حديث : أهل النار كل جمظري جواظ مستكبر جماع . وهذه الزيادة عندهما من حديث جارية بن وهب الخزاعي : « ألا أخبركم بأهل النار ؟ كل عتل جواظ مستكبر » (٣) حديث : إن أحكم إلينا وأقربكم منا في الآخرة أحاسنكم أخلاقاً ... الحديث . أخرجه أحمد من حديث أبي ثعلبة الحفي بلفظ « ال » و « من » وفيه انقطاع ومكحول لم يسم من أبي ثعلبة وقد تقدم في روضة النفس أول الحديث (٤) حديث : يحشر المتكبرون يوم القيامة ذرا في صور الرجال ... الحديث . أخرجه الترمذي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وقال غريب .

(٥) حديث أبي هريرة : يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة في صور النور . الحديث . أخرجه الزائر هكذا مختصراً دون قوله « الجبارون » واستاده حسن (٦) حديث أبي موسى : « لن في جهنم وادياً يقال له مهبب حق على الله أن يسكنه كل جبار » أخرجه أبو يعلى والطبراني والحاكم وقال صحيح الإسناد ، قلت فيه أزهري بن سنان ضعفه ابن معين وابن حبان وأورد له في انقطاع هذا الحديث (٧) حديث : « لن في النار قصراً يحمل فيه المتكبرون ويطلق عليهم » أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أسد وقال : توابت « مكان » قصراً « وقال : « فيقول » مكان » يطلق « وفيه الجان بن أبي عياش وهو ضعيف .

(٨) حديث : اللهم إني أعوذ بك من نفخة الكبرياء ، ثم أراه بهذا اللفظ ، وروى أبو داود وابن ماجه من حديث جبير بن مطعم عن النبي صلى الله عليه وسلم في أمهات حديث « أمود باقة من الفيضان من نفخة ونفخة ومهز » قال : قلته الضمير ونفخة المتكبرين<sup>(١)</sup> الوفاة ولأصحاب السنن من حديث أبي سعيد الخدري نحوه ، فكلم فيه أبو داود وقال الترمذي هو أشهر حديث في هذا الباب .

(٩) حديث : « من فارق روحه جسده وهو يرى من ثلاث دخل الجنة : الكبر والدين والتقول » أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث ثوبان وذكره المصنف لهذا الحديث هنا موافقاً للجمهور في الرواية أنه الكبر ( بالوحدة والمراء ) لكن ذكر ابن الجوزي في جامع المسانيد من الدارقطني قال : إنسا هو الكثر ( بالثلاث والزيد ) وكذلك أيضاً ذكر ابن مردويه الحديث في تحفه ( والذين يسكنون القهب والفضة )

أفلا تبصرون ) هو سبيل الفالط والبول . وقد قال محمد بن الحسين بن علي : ما دخل قلب امرئ شيء من الكبر قط إلا نقص من عقله بقدر ما دخل من ذلك قل أو كثر . وسئل سليمان عن السيئة التي لا تنفع معها حسنة فقال : الكبر وقال الثعالب بن بشير - على الخير - إن الشيطان مصالي ونفوخا ، وإن من مصالي الشيطان ونفوخه البطر بأنعم الله والفخر بإعطاء الله والكبر على عباد الله وإتياع الهوى في غير ذات الله . لسأل الله تعالى العفو والعافية في الدنيا والآخرة بمته وكرمه .

### بيان ثل الاختيال وإظهار آثار الكبر في المشي وجر الثياب

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا ينظر الله إلى رجل يجر إزاره بطرا<sup>(١)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم : يذنا رجل يتخير في برده إذ أصعبته نفسه تخلف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة<sup>(٢)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم : من جر ثوبه خيلاء لا ينظر الله إليه يوم القيامة ، وقال زيد بن أسلم : دخلت على ابن عمر فرأيت به عبد الله ابن واقد وعليه ثوب جديد فسمعت يقول : أي بني ارفع إزارك فإنني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا ينظر الله إلى من جر إزاره خيلاء<sup>(٣)</sup> ، وروى : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بصق يوما على كفه ووضع أصبعه عليه وقال : يقول الله تعالى : ابن آدم أتعجزني وقد خلقتك من مثل هذه ! حتى إذا سوتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وميد جمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت أتصدق ! وأني أوران الصدقة<sup>(٤)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم : إذا مشيت أمتي المظليطاء وخدمتهم فارس والروم سلك الله بعضهم على بعض<sup>(٥)</sup> ، قال ابن الأعرابي : هي مشية فيها اختيال . وقال صلى الله عليه وسلم : من تعظم في نفسه واختال في مشيته لقي الله وهو عليه غضبان<sup>(٦)</sup> .

الآثار : عن أبي بكر الهذلي قال : بينا نحن مع الحسن إذ مر علينا ابن الأهمر يريد المقصورة وعليه جباب خز ، قد تضعد بعضها فوق بعضها على سائه وأنفجر عنها قبائره وهو يمشي يتخير ، إذ نظر إليه الحسن نظره فقال : أف ... أف ... شاخ بأنفه فاني عطفته مصعرت خده ينظر في عطفه ، أي حقيق أنت تنظر في عطفك في نم غير مشكورة ولا مذكورة غير المأخوذ بأمر الله فيها ولا المؤدى حق الله منها ، والله أن يمشي أحد طبيعته يتخلج تخال الجنون في كل عضو من أعضائه لله نعمة ، وللشيطان به لفتة ، فسمع ابن الأهمر فرجع يمشي إليه فقال : لا تستدبر إلى وتب إلى ربك ، أما سمعت قول الله تعالى ( ولا تمش في الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا ) ؟ ومر بالحسن شاب عليه بزة له حسنة فدعا فقال له : ابن آدم معجب بشبابه عجب لشبابه ، كأن القبر قد وارى بدنتك وكأنك قد لاقيت حلاك ، ويحك ! داو قلبك فإن حاجة الله إلى العباد صلاح قلوبهم . وروى أن عمر

(١) حديث « لا ينظر الله إلى من جر إزاره بطرا » متفق عليه من حديث أبي هريرة .

(٢) حديث « يذنا رجل يتخير في برده قد أصعبته نفسه ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة .

(٣) حديث ابن عمر « لا ينظر الله إلى من جر إزاره خيلاء » رواه مسلم مقتصرا على المرفوع دون ذكر مرور عبد الله ابن واقد على ابن عمر وهو رواية لسل أن السار رجل من بني ليث غير مسمى (٤) حديث : لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بصق يوما على كفه ووضع أصبعه عليها وقال « يقول الله : ابن آدم أعجزني وقد خلقتك من مثل هذه ... الحديث » أخرجه ابن ماجه والحاكم وصححه لمساندة من حديث عمر بن الخطاب (٥) حديث « إذا مشيت أمتي المظليطاء .. الحديث » أخرجه الترمذي وابن حبان في صحيحه من حديث ابن عمر : المظليطاء ( يضم الميم وفتح الطاء ) بن المهملتين بينهما متنة من تحت ) صغر ولم يستعمل سكيرا (٦) حديث « من تعظم في نفسه واختال في سبيل لقي الله وهو عليه غضبان » أخرجه أحمد والبيهقي والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر .

ابن عبد العزيز حج قبل أن يستخلف ! فنظر إليه طائوس وهو يختال في مشيته فغمر جنبه بأصبعه ثم قال : ليست هذه مشية من في بطنه خراء ؟ فقال عمر كالمعتذر : يا عم لقد ضرب كل عضو مني على هذه المشية حتى تعلمتها ورأى محمد بن واسع ولده يختال فذعاه وقال : أهدري من أنت ؟ أما أمك فأشترها بما تبي دهم وأما أبوك فلا أكثر الله في المسلمين مثله ! ورأى ابن عمر رجلا يجتزأ زارده فقال : إن للشيطان إخوانا - كرههم امرئ أو ثلاثا - . ويروى أن مطرف بن عبد الله بن الشخير رأى المهلب وهو يقبض في جبة خبز ، فقال : يا عبد الله هذه مشية يبغضها الله ورسوله ، فقال له المهلب : أما تعرفني ؟ فقال لي أعرفك أولئك نطفة مذرة وآخرتك جيفة فذرة وأنت بين ذلك تحمل العذرة ! فعلى المهلب وترك مشيته تلك . وقال مجاهد في قوله تعالى ﴿ ثم ذهب إلى أهله يتمطى ﴾ أى يتبختر وإذا قد ذكرنا ذم الكبر والاختيال فلنذكر فضيلة التواضع والله تعالى أعلم .

### بيان فضيلة التواضع

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما زاد الله عبداً بقوى إلا عزا ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله <sup>(١)</sup> . وقال صلى الله عليه وسلم : ما من أحد إلا ولومه ملكان وعليه حكمة يسكانه بها فإن هو رفع نفسه جذاها ثم قال اللهم ضعه وإن وضع نفسه قال اللهم ارفعه <sup>(٢)</sup> . وقال صلى الله عليه وسلم : طوبى لمن تواضع في غير مسكنة وأنفق مالا جمعه في غير معصية ورحم أهل الذل والمسكنة وغالط أهل الفقه والحكمة <sup>(٣)</sup> . وعن أبي سلفة المديني عن أبيه عن جده قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عندنا بقاء وكان صائماً فأتيناه عند إفطاره بقدر من لبن وجعلنا فيه شيئاً من صل فلما رفعه وذاقه وجد حلاوة العسل فقال : ما هذا ؟ قلنا يا رسول الله جعلنا فيه شيئاً من عسل فوضعه وقال : أما لئى لا أحرره ومن تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله . ومن اقتصد أغناه الله ومن بذل أفقره الله ومن أكثر ذكر الله أحبه الله <sup>(٤)</sup> . وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في نفر من أصحابه في بيته يأكلون فقام سائل على الباب وبه زمانة يتكبر منها فأذن له فلما دخل أجلسه رسول الله صلى الله عليه وسلم على نظفه ثم قال له اطمع ، فكان رجلا من قريش اشماز منه وتكبره فامات ذلك الرجل حتى كانت به زمانة مثلها <sup>(٥)</sup> . وقال صلى الله عليه وسلم : خيرى ربي بين أمرين أن أكون عبداً رسولاً أو ملكاً نبياً فلم أدر أيهما اختار وكان صفي من الملائكة جبيل فرفعت رأسى إليه فقال : تواضع لربك فقلت عبداً رسولاً <sup>(٦)</sup> . وأوحى الله

(١) حديث « ما زاد الله عبداً بقوى إلا عزا ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

(٢) حديث « ما من أحد إلا ولومه ملكان وعليه حكمة يسكانه بها ... الحديث » أخرجه الترمذي في الضعفاء والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة والبيهقي أيضاً من حديث ابن عباس وكلاهما ضعيف . (٣) حديث « طوبى لمن تواضع في غير مسكنة ... الحديث » أخرجه الباقى وابن قانع والطبراني من حديث ركب الصري والبزار من حديث أمى وقد تقدم بقى في العلم وبه في آكات السان (٤) حديث أبي سلفة المديني عن أبيه عن جده قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عندنا بقاء وكان صائماً فذكر نحوه دون قوله ومن أكثر من ذكر الله أحبه الله ... الحديث . ورواه البزار من رواية طلحة بن طرفة بن عبيد الله عن أبيه عن جده طلحة ورواه الطبراني في الأوسط من حديث عاتقة قالت أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدر فلبى وعسل ... الحديث . وفيه « أما لئى لا أزعجك أنه حرام ... الحديث » وفيه « من أكثر ذكر الموت أحب الله » وروى المروني عنه أحمد وأبو يونس من حديث أبي سعيد دون قوله « ومن بذل أفقره الله » وذكرنا في قوله « ومن أكثر ذكر الله أحبه الله » وتقدم في ذم الدنيا

(٥) حديث الدلائل القى كان به زمانة منكورة وأنه صلى الله عليه وسلم أجلسه على نظفه ثم قال « اطمع » الحديث لم أجده أصلاً والوجود حديث أكله من مجزوم رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث جابر وكلاهما الترمذي غريب

(٦) حديث « خيرى ربي بين أمرين فيما رسولاً وملكاً نبياً ... الحديث » أخرجه أبو يونس من حديث عاتقة والطبراني من حديث ابن عباس وكلاهما ضعيف

تمالى إلى موسى عليه السلام : إنما أقبل صلاة من تواضع لملطقي ولم يتعاطى على خلقى وأزيم قلبه خوفاً وقطع ناره بذكرى وكف نفسه عن الشهوات من أجل وقال صلى الله عليه وسلم ، الكرم التقوى والشرف التواضع واليقين الغنى <sup>(١)</sup> ، وقال المسيح عليه السلام : طوبى للتواضعين في الدنيا هم أصحاب النابر يوم القيامة طوبى للصالحين بين الناس في الدنيا هم الذين يرثون الفردوس يوم القيامة طوبى للطاهرة قلوبهم في الدنيا هم الذين ينظرون إلى الله تعالى يوم القيامة . وقال بعضهم : بلغنى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ، إذا هدى الله عبداً للإسلام وحسن صورته وجعله في موضع غير شأن له ورزقه مع ذلك تواضعاً فذلك من صفوة الله <sup>(٢)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم : أربع لا يعطيه الله إلا من أحب : الصمت وهو أول العبادة والتوكل على الله والتواضع والوحد في الدنيا <sup>(٣)</sup> ، وقال ابن عباس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا تواضع العبد ربه الله إلى السماء السابعة <sup>(٤)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم : التواضع لا يزيد العبد إلا رتبة فتواضعوا يرحمكم الله <sup>(٥)</sup> ، ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يطعم لجاء رجل أسود به جدري قد تقشر لجعل لا يجلس إلى أحد إلا قام من جنبه فأجلسه النبي صلى الله عليه وسلم إلى جنبه <sup>(٦)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم ، إنه ليحببني أن يحمل الرجل الشيء في يده فيكون مهنة لأهله يدفع به الكبر عن نفسه <sup>(٧)</sup> ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه يوماً : مالي لا أرى عليكم حلالة العبادة ، قالوا : وما حلالة العبادة ؟ قال : التواضع <sup>(٨)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم ، إذا رأيتم المتواضعين من أمي فتواضعوا لهم وإذا رأيتم المتكبرين فتكبروا عليهم فإن ذلك مذلة لهم وصغار <sup>(٩)</sup> .

الآثار : قال عمر رضي الله عنه : إن العبد إذا تواضع لله رفع الله حكمته وقال انتعش رملنا فقه وإذا تكبر وعدا طوره رهمه الله في الأرض وقال أخساً خساً ك الله ، فهو في نفسه كبير وفي عين الناس حقير حتى إنه لأخسر عديم من الخنزير . وقال جرير بن عبدالله : انتهيت مرة إلى شجرة تحتها رجل نائم قد استظل بتطع له وقد جاوزت الشمس النطق فسؤيته عليه ، ثم إن الرجل استيقظ فإذا هو سلمان الفارسي ، فذكرت له ما صنعت فقال لي : يا جرير تواضع لله في الدنيا فإنه من تواضع لله في الدنيا ربه الله يوم القيامة يا جرير أتدري ما ظلة النار يوم القيامة ؟ قلت : لا ، قال : إنه ظم الناس بعضهم في الدنيا . وقالت عائشة رضي الله عنها : إنكم لتغفلون عن أفضل المبادات ، التواضع .

(١) حديث « الكرم التقوى ، والشرف التواضع ، واليقين الغنى » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتابه البين مرسلًا وأسنده الحاكم أوله من رواية الحسن بن سمره وقال صحيح الإسناد ، (٢) حديث « إذا هدى الله عبداً للإسلام وحسن صورته ... الحديث » أخرجه الطبراني موقوفاً على ابن مسعود نحوه وفيه المسعودي يختلف فيه .

(٣) حديث « أربع لا يعطيه الله إلا من يحب : الصمت وهو أول العبادة ، والتوكل على الله والتواضع ، والوحد في الدنيا » أخرجه الطبراني والحاكم من حديث أسد ، أربع لا يحب إلا بسبب الصمت وهو أول العبادة والتواضع وذكر الله وله البلى ، قال الحاكم صحيح الإسناد قلت فيه الغواميز جوهرية قال ابن حبان يروى المرومات ثم روى له هذا الحديث .

(٤) حديث ابن عباس « إذا تواضع العبد ربه الله إلى السماء السابعة » أخرجه البيهقي في الشعب نحوه وفيه زمة من صالح ضعه للجمهور . (٥) حديث « إن التواضع لا يزيد العبد إلا رتبة ... الحديث » أخرجه في التزيين والتزيين من حديث أسد وفيه بصر بن الحارث وهو ضعيف جداً ورواه ابن عدى من حديث ابن عمر وفيه الحسن بن عبد الرحمن الاختصاصي وخارجة بن مصعب وكلامه ضعيف . (٦) حديث : كان يطعم لجاء رجل أسود به جدري لجعل لا يجلس إلى أحد إلا قام من جنبه فأجلسه النبي صلى الله عليه وسلم إلى جنبه . لم أجده هكذا والبروف أسلمه مع مجزوم رواه أبو داود والترمذي وقال غريب وابن ماجه من حديث جابر كما تقدم . (٧) حديث « إنه ليحببني أن يحمل الرجل الشيء في يده فيكون مهنة لأهله يدفع به الكبر عن نفسه » غريب . (٨) حديث « مالي لا أرى عليكم حلالة العبادة » قالوا : وما حلالة العبادة ؟ قال : التواضع ، غريب أيضاً .

(٩) حديث « إذا رأيتم المتواضعين من أمي فتواضعوا لهم وإذا رأيتم المتكبرين فتكبروا عليهم فإن ذلك مذلة لهم وصغار » غريب أيضاً .

وقال يوسف بن أسباط : يجرى قليل الزرع من كثير العمل ويجزى قليل التواضع من كثير الاجتهاد . وقال الفضيل وقد سئل عن التواضع ما هو ؟ فقال : أن تخضع للحق وتتقاع له ولو سمعت من صبي قبله ولو سمعت من أجهل الناس قبله . وقال ابن المبارك : رأس التواضع أن تضع نفسك عند من دونك في نعمة الدنيا حتى تعلم أنه ليس لك بدنياك عليه فضل ، وأن ترفع نفسك عن من فوقك في الدنيا حتى تعلم أنه ليس له بدنياك عليك فضل . وقال قتادة : من أعطى مالا أو جمالا أو ثيابا أو عدا ثم لم يتواضع فيه كان عليه وبالاً يوم القيامة . وقيل أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام : إذا أنعمت عليك بنعمة فاستقبلها بالاستكانة أتمها عليك . وقال كعب : ما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فشكلها لله وتواضع بها لله إلا أعطاه الله نفعها في الدنيا ورفع بها درجة في الآخرة ، وما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فلم يشكرها ولم يتواضع بالله لإلانة الله نفعها في الدنيا وفتح له طبعاً من النار يعذبه إن شاماه أو يتجاوز عنه . وقيل لعبد الملك بن مروان : أي الرجال أفضل ؟ قال : من تواضع عن قدرة وزهد عن رغبة وترك النصرة عن قوة . ودخل ابن السكك على هرون فقال : يا أمير المؤمنين إن تواضعك في شرفك أشرف لك من شرفك ، فقال : ما أحسن ما قلت ! فقال : يا أمير المؤمنين إن أكرم الله جلالاً في خلقه وموضعا في حسبه وبسط له في ذات يده فف في جماله وواسى من ماله وتواضع في حسبه كتب في ديوان الله من خالص أولياء الله ، فدعا هرون بدواة وقرطاس وكتبه بيده . وكان سليمان بن داود عليهما السلام إذا أصبح تصفح وجوه الأغنياء والأشراف حتى يجيئ إلى المساكين فيقعد معهم ويقول : مسكين مع مساكين . وقال بعضهم : كما تكثره أن يراك الأغنياء في الثياب التون فكذلك فاكروه أن يراك الفقراء في الثياب المرتفعة . روى أنه خرج يونس وأيوب والحسن يتدأرون التواضع فقال لهم الحسن : أندون ما التواضع ؟ التواضع أن تخرج من منزلك ولا تظن مسلماً إلا رأيت له عليك فضلاً . وقال مجاهد : إن الله تعالى لما أفرق قوم نوح عليه السلام شيعت الجبال وتطاولت وتواضع الجودي فرفعه الله فوق الجبال وجعل قرار السفينة عليه . وقال أبو سليمان : إن الله عز وجل اطلع على قلوب الأديمين فلم يجد قلباً أشد تواضعاً من قلب موسى عليه السلام فخصه من بينهم بالكلام . وقال يونس بن عبيد وقد أنصرف من عرفات : لم أشك في الرحمة لو لأني كنت معهم إلى أخشي أنهم حرموا بسبي . ويقال : أرفع ما يكون المؤمن عند الله أوضع ما يكون عند نفسه ، وأوضع ما يكون عند الله أرفع ما يكون عند نفسه . وقال زياد النمري : الزاهد بنير تواضع كالشجرة التي لا تثمر . وقال مالك بن دينار : لو أن نادياً نادى بباب المسجد ليخرج شرك رحلا والله ما كان أحد يسبقني إلى الباب إلا رجلاً بفضل قوة أو سعي قال : فلبا بلغ ابن المبارك قوله قال : بهذا صار مالك مالكا . وقال الفضيل : من أحب الرياسة لم يفلح أبداً . وقال موسى بن القاسم : كانت عندنا زلزلة ويوح حرام فذهبت إلى عبد بن مقاتل فقلت : يا أبا عبد الله أنت إمامنا فادع الله عز وجل لنا ، فيسكن ثم قال : ليتني لم أكن سبب هلاككم ، قال : فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فقال : إن الله عز وجل رفع عنكم بدعاء محمد بن مقاتل . وجاء رجل إلى الشليل رحمه الله فقال له : ما أنت ؟ وكان هذا دأبه وعادته ، فقال : أنا النقطة التي تحت الباء فقال له الشليل : أباد الله شامدك أو تجعل لنفسك موضعا . وقال الشليل في بعض كلامه : ذل عطل ذل اليهود . ويقال : من يرى لنفسه قيمة فليس له من التواضع نصيب . وعن أبي الفتح بن شرف قال : رأيت على أبي طالب رضي الله عنه في المنام فقلت يا أبا الحسن عظمي ، فقال لي : ما أحسن التواضع بالأغنياء في مجالس الفقراء رغبة منهم في ثواب الله وأحسن من به الفقراء على الأغنياء فتمه منهم بالله عز وجل ، وقال أبو سليمان : لا يتواضع البدي حتى يعرف

نفسه . وقال أبو يزيد : مادام العبد يظن أنَّ في الخلق من هو شر منه فهو متكبر ، فقيل له : فتي يكون متواضعا ؟ قال : إذا لم ير لنفسه مقاما ولا حالا ، وتواضع كل إنسان على قدر معرفته يربه عز وجل ومعرفته بنفسه . وقال أبو سليمان : لراجم الخلق على أن يضعوني كأفضأ عند نفسي ما قدروا عليه . وقال عروة بن الورد : التواضع أحد مصابيد الشرف وكل نعمة محسود عليها صاحبها إلا التواضع . وقال يحيى بن خالد البرمكي : الشرف إذا تفلسك تواضع ، والسفيه إذا تفلسك تعاظم . وقال يحيى بن معاذ : التكبر على ذي التكبر عليك بماله تواضع ، ويقال : التواضع في الخلق كلهم حسن ، وفي الأغنياء أحسن ، والتكبر في الخلق كلهم قبيح ، وفي الفقراء أقبح . ويقال : لا عز إلا لمن تذل لله عز وجل ، ولا رفعة إلا لمن تواضع لله عز وجل ، ولا أمن إلا لمن خاف الله عز وجل ، ولا ربح إلا لمن ابتاع نفسه من الله عز وجل . وقال أبو علي الجوزجاني : النفس معجونة بالكبر والجحرس والحسد ، فن أراد الله تعالى هلاكه منع منه التواضع والتبعية والقناعة ، وإذا أراد الله تعالى به خيرا لطف به في ذلك ، فإذا حاجت في نفسه نار الكبر أدركها التواضع من نصرة الله تعالى ، وإذا حاجت نار الحسد في نفسه أدركها التواضعية مع توفيق الله عز وجل ، وإذا حاجت في نفسه نار الجحرس أدركها القناعة مع عون الله عز وجل . وعن الجنيد رحمه الله أنه كان يقول يوم الجمعة في مجلسه لولا أنه روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : يكون في آخر الزمان زعيم القوم أزدلهم <sup>(١)</sup> ، ما تكلمت عليكم . وقال الجنيد أيضا : التواضع عند أهل التوحيد تكبر ، ولعل مراده أن التواضع ثبتت نفسه ثم يضعها والموحد لا يثبت نفسه ولا يراها شيئا حتى يضعها أويرفها . وعن عمرو بن شبة قال : كنت بمكة حين دخلت بغداد فكتبت على الجسر ، فإذا أنا برجل حاف حاسر طويل الشعر قال : لمجعت أنظر إليه وأنا مأله فقال لي : مالك تنظر إلى ؟ فقلت له : شئت بك رجل رأيته بمكة ، ووصفت له الصفة ، فقال له : أنا ذلك الرجل ، فقلت : ما فعل الله بك ؟ فقال لي ترفعت في موضع يتواضع فيه الناس فوضعي الله حيث يترفع الناس . وقال المخيرة كان نهاب إبراهيم النخعي هبة الأمير وكان يقول إن زمانا صرت فيه ففيه الكوفة زمان سوء . وكان عطاء السلمي إذا سمع صوت الرد قام وقعد وأخذ يبطه كأنه امرأة ماخض ، وقال هذا من أجل يصيبكم ، لومات عطاء لاستراح الناس . وكان بشر الحافي يقول سلوا على أبناء الدنيا بترك السلام عليهم . ودعا رجل لعبد الله بن المبارك فقال أعطاك الله ما ترجوه ، فقال إن الرجاء يكون بعد المعرفة فأين المعرفة ؟ وتفاخرت قريش عند سليمان الفارسي رضي الله عنه يوما فقال سليمان لكنني خلقت من لطفة قدرة ثم أعود جيفة منته ثم آتي الميزان فإن قتل فأنا كريمة وإن خف فأنا ثميم وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه وجدنا الكرم في التقوى ، والقي في اليقين ، والشرف في التواضع . فقال الله الكريم حسن التوفيق .

### بيان حقيقة الكبر وآفته

اعلم أن الكبر ينقسم إلى باطن وظاهر فالباطن هو خلق في النفس ، والظاهر هو أعمال تصدر عن الجوارح . واسم الكبر بالخلق الباطن أحق ، وأما الأعمال فإنها ثمرات لذلك الخلق . وخلق الكبر موجب للأعمال ولذلك إذا

(١) حديث « يكون في آخر الزمان زعيم القوم أزدلهم » أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة « إذا أخذ الله دولا ... الحديث » وفيه « كان زعيم القوم أزدلهم ... الحديث » وقال غريب وله من حديث علي بن أبي طالب « إذا غلبت أمتي خمس عمرة خصة حل بها البلاد » فذكر منها « وكان زعيم القوم أزدلهم » ولأبي نعيم في الحلية من حديث حذيفة « من اقتراب الساعة اتاروس وموسون خصة » فذكرها منها وفيها فرج بن عتبة ضعيف .

ظهر على الجوارح يقال تكبر ، وإذا لم يظهر يقال في نفسه كبر . فالأصل هو الخلق الذي في النفس وهو الاسترواح والركون إلى روية النفس فوق المتكبر عليه فإن الكبر يستدعي متكبرا عليه ومتكبرا به ، وبه يتفصل الكبر عن العجب - كما سيأتي - فإن العجب لا يستدعي غير المعجب بل لو لم يخلق الإنسان إلا وحده تصور أن يكون معجبا ، ولا يتصور أن يكون متكبرا إلا أن يكون مع غيره وهو يرى نفسه فوق ذلك الغير في صفات الكمال ، فعد ذلك يكون متكبرا ، ولا يمكن أن يستعظم نفسه ليكون متكبرا فإنه قد يستعظم نفسه ولكنه يرى غيره أعظم من نفسه أو مثل نفسه فلا يتكبر عليه ، ولا يمكن أن يستحقر غيره فإنه مع ذلك لو رأى نفسه أحقر لم يتكبر ولو رأى غيره مثل نفسه لم يتكبر ، بل يفتنى أن يرى نفسه مرتبة ولغيره مرتبة ، ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره ، فعد هذه الاعتقادات الثلاثة يحصل فيه خلق الكبر ، لأن هذه الرؤية تنفي الكبر ، بل هذه الرؤية وهذه العقيدة تنفي فيه ، فيحصل في قلبه اعتداد ومهزة وفرح وركون إلى ما اعتقده وعز في نفسه بسبب ذلك ، فذلك العزة والمهزة والركون إلى العقيدة هو خلق الكبر . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أعوذ بك من نفخة الكبرياء »<sup>(١)</sup> ، وكذلك قال عمر أخشى أن تفتنن حتى تبلغ الثريا ، الذي استأذنه أن يعظ بعد صلاة الصبح . فكان الإنسان مهما رأى نفسه بهذه المين - وهو الاستعظام - كبر وانتفخ وتمزز . فالكبر عبارة عن الحالة الحاصلة في النفس من هذه الاعتقادات ، وتسمى أيضا عزة وتعظما ، ولذلك قال ابن عباس في قوله تعالى ( إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالنيه ) قال عظمة لم يلبسوها ، ففسر الكبر بتلك العظمة . ثم هذه العزة تقتضي أعمالا في الظاهر والباطن هي ثمرات ويسمى ذلك تكبرا ، فإنه مهما عظم حده قدره بالإضافة إلى غيره حقر من دونه وأزدرأه وأقصاه عن نفسه وأبعد وترفع عن مجالسته ومواالته ، ورأى أن حقه أن يقوم مائلا بين يديه إن اشتد كبره فإن كان أشد من ذلك استنكف عن استخدامه ولم يجعله أملا للقيام بين يديه ولا بخدمته عتبه ، فإن كان دون ذلك فأنتف من مساوانه وتقدم عليه في مضائق الطرق وارتفع عليه في المحافل وانتظر أن يبدأ بالسلام واستبدد تقصيره في قضاء حوائجه وتمعج منه ، وإن حاج أو ناظر أنف أن يرد عليه وإن وعظ استنكف من القبول ، وإن وعظ عنف في النصح ، وإن رد عليه شيء من قوله غضب وإن علم لم يرفق بالمسلمين واستنكفهم وانتهزم وأمنت عليهم واستخدمهم ، وينظر إلى العامة كأنه ينظر إلى الخمر استجهالاً لهم واستحقاراً . والأعمال الصادرة عن خلق الكبر كثيرة وهي أكثر من أن نحصى فلا حاجة إلى تعدادها فإنها مشهورة . فهذا هو الكبر وآفته عظيمة وغائلة هائلة ، وفيه هلك الخواص من الخلق ، وقلبا ينفك عنه العباد والزهاد والعلماء فضلا عن عوام الخلق ، وكيف لا تعظم آفته وقد قال صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر »<sup>(٢)</sup> ، ولما صار حجابا دون الجنة لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها ، وتلك الأخلاق هي أبواب الجنة ، والكبر وعرة النفس ينفق تلك الأبواب كلها ، لأنه لا يقدر على أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه وفيه شيء من العز ، ولا يقدر على التواضع وهو رأس أخلاق المؤمنين وفيه العز ، ولا يقدر على ترك الحسد وفيه العز ، ولا يقدر أن يدمع على الصدق وفيه العز ، ولا يقدر على ترك النضب وفيه العز ، ولا يقدر على كظم الغيظ وفيه العز ، ولا يقدر على ترك الحسد وفيه العز ، ولا يقدر على الصبح اللطيف وفيه العز ، ولا يقدر على قبول النصح وفيه العز ، ولا يسلم من الأزدرأ بالناس ومن اغتيالهم وفيه العز : ولا معنى للتطويل فما من خلق

(١) حديث « أعوذ بك من نفخة الكبرياء » تقدم فيه . (٢) حديث « لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر » تقدم فيه .



ذمهم إلا وصاحب العز والكبر مضطر إليه ليحفظ عزه ، وما من خلق محود إلا وهو عاجز عنه خوفاً من أن يفوته عزه ، فمن هذا لم يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من . والأخلاق الذميمة متلازمة والبعض منها دافع إلى البعض لا محالة . وشر أنواع التكبر ما يمنع من استفادة العلم وقبول الحق والانقياد له . وفيه وردت الآيات التي فيها ذم التكبر والتكبرين قال الله تعالى ( والملائكة باسطوا أيديهم ) إل قوله ( وكنتم عن آياته تستكبرون ) ثم قال ( ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ) ثم أخبر أن أشد أهل النار عذاباً أشدّهم عذاباً على الله تعالى فقال ( ثم لننزعن من كل شيعة أنهم أشد على الرحمن عتياً ) وقال تعالى ( فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون ) وقال عز وجل ( يقول الذين استضعفوا الذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين ) وقال تعالى ( إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ) وقال تعالى ( ساصرف عن آياتي الذين يستكبرون في الأرض بشير الحق ) قيل في التفسير : سارفع فهم القرآن عن قلوبهم ، وفي بعض التفسيرات ساصحب قلوبهم عن الملوك . وقال ابن جريج : ساصرفهم عن أن يتفكروا فيها ويعتبروا بها ، ولذلك قال المسيح عليه السلام : إن الزرع ينبت في السهل ولا ينبت على الصفا ، كذلك الحكمة تعمل في قلب المتواضع ولا تعمل في قلب التكبر ، ألا ترون أن من شئخ برأسه إلى السقف شئخ ، ومن طاعاً أظله وأكته . فهذا مثل ضربته للتكبرين وأنهم كيف يجرمون الحكمة ، ولذلك ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم جمود الحق في حد التكبر والكشف عن حقيقته وقال : من سفه الحق وغصص الناس <sup>(١)</sup> .

### بيان التكبر عليه ودرجاته وأقسامه وثمرات التكبر فيه

اعلم أن التكبر عليه هو الله تعالى أو رسله أو سائر خلقه ، وقد خلق الإنسان ظلوماً جهولاً ، فتارة يتكبر على الخلق وتارة يتكبر على الخالق ، فإذا تكبر باعتبار التكبر عليه ثلاثة أقسام :

الأول : التكبر على الله ؛ وذلك هو أخص أنواع التكبر ، ولا مثار له إلا الجهل المحض والعناني مثل ما كان من نمرود فإنه كان يحدث نفسه بأن يقا تل رب السماء وكما يحكى عن جماعة من الجاهلة . بل ما يحكى عن كل من ادعى الرواية مثل فرعون وغيره ، فإنه لتكبره قال : أنا ربكم الأعلى ، إذا استكشف أن يكون عبداً لله ، ولذلك قال تعالى ( إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ) وقال تعالى ( لن يستكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ) الآية وقال تعالى ( وإذا قيل لهم اهدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا ) .

القسم الثاني : التكبر على الرسل من حيث تمزق النفس وترفعها على الانقياد لبشر مثل سائر الناس ؛ وذلك تارة يصرف عن الفكر والاستبصار فيبقى في ظلمة الجهل بكبره فيمتنع عن الانقياد وهو ظان أنه محق فيه ، وتارة يتمتع مع المعرفة ولكن لا تقاوعه نفسه للانقياد للحق والتواضع للرسل ، كما حكي الله قولهم ( أنؤمن لبشرين مثلاً ) وقولهم ( إن أنتم إلا بشر مثنا . ونحن أعلمكم بشرا مثلكم إنكم إذا لحسروا وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا كبراً . وقالوا لولا أنزل عليه

(١) حديث السكبر من سفه الحق وغصص الناس ؛ أخرجه من حديث ابن مسعود في أثناء حديث وقال : بطريق وعط الناس . ورواه الترمذي قال : من بطريق وعصص الناس ؛ وقال حسن صحيح ورواه أحمد من حديث عتبة عامر بنطلف البهني في الصب من حديث أبي رجافة مكثراً .

(ملك) وقال فرعون فيما أخبر الله عنه (أرجاء معه للملائكة مقترنين) وقال الله تعالى (واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق) فتكبر هو على الله وعلى رسله جميعاً . قال وهب : قال له موسى عليه السلام آمن ولك ملكك ، قال : حتى أأشاور هامان ، فشاور هامان قتال هامان : بيننا أنت رب يعبد إذ صرت عبد تعبد فاستكبر عن عبودية الله وعن اتباع موسى عليه السلام . وقالت قريش فيما أخبر الله تعالى عنهم (لولازل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) قال قتاده : عظيم القريتين هو الوليد بن المغيرة وأبو مسعود الثقفي ، طلبوا من هو أعظم رياسة من النبي صلى الله عليه وسلم إذ قالوا غلام يتيم كيف بعثه الله إلينا ؟ فقال تعالى (أهم يقسمون رحمة ربك) وقال الله تعالى (ليقولوا أمولاء من الله عليهم من بيننا) أي استحقاقاً لهم واستعداداً لتقدمهم . وقالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف تجلس إليك وعندك هؤلاء ؟ وأشاروا إلى فقراء المسلمين فازدروهم بأعينهم لفرغم ، وتكبروا عن مجالستهم فأمر الله تعالى (ولا تطردوا الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي) إلى قوله (ما عليك من حسابهم) وقال تعالى (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا<sup>(١)</sup>) ثم أخبر الله تعالى عن تعجبهم حين دخلوا جهنم إذ لم يروا الذين ازدروهم فقالوا (مالنا لأزرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار) قيل يعنون عماراً وبلالاً وصهيباً والمقداد رضي الله عنهم ، ثم كان منهم من منعه الكبر عن الفكر والمعرفة لجهل كونه صلى الله عليه وسلم حقاً ، ومنهم من عرف ومنعه الكبر عن الاعتراف قال الله تعالى غيبراً عنهم (فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به) وقال (ووجدناها باهية واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً) وهذا الكبر قريب من التكبر على الله عز وجل وإن كان دونه ، ولكنه تكبر على قبول أمر الله والتواضع لرسوله .

القسم الثالث : التكبر على العباد ؛ وذلك بأن يستعظم نفسه ويستحققر غيره ، فتأني نفسه عن الاتقياء لهم وتدعو إلى الترفع عليهم فيزدروهم ويستصغروهم ويأنف عن مساواتهم ، وهذا وإن كان دون الأول والثاني فهو أيضاً عظيم من وجهين ؛ أحدهما : أن الكبر والعز والعظمة والملاء لا يليق إلا بالملك القادر ، فأما العبد المملوك الضعيف العاجز الذي لا يقدر على شيء فمن أين يليق بمجائه الكبر ؟ فهما تكبر العبد فقد نازع الله تعالى في صفة لا تليق إلا بجلاله ، ومثاله : أن يأخذ الغلام قلنسوة الملك فيضعها على رأسه ويجلس على سريره ، فما أعظم استحقاقه للقتل وما أعظم تهنئه للخرى والنكال ! وما أشد استجراره على مولاة وما أقيح ما تباطاه ! وإلى هذا المعنى الإشارة بقوله تعالى « العظمة لازاري والكبرياء ذاتي فمن نازعني فيما قسمته ، أي إنه خاص صفتي ولا يليق إلا بي ، والمنازع فيه منازع في صفة من صفاتي ، وإذا كان الكبر على عباده لا يليق إلا به فن تكبر على عباده فقد جنى عليه ، إذ الذي يستردل خواص غلمان الملك ويستخدمهم ويرفع عليهم ويستأثر بما حق الملك أن يستأثر به منهم فهو منازع له في بعض أمره ، وإن لم يبلغ درجته درجة من أراد الجلوس على سريره والاستبداد بملكه ، فالخلق كلهم عباد الله وله العظمة والكبرياء عليهم ، فمن تكبر على عبد من عباد الله فقد نازع الله في حقه . نعم الفرق بين هذه المنازعة وبين منازعة نمرود وفرعون ، هو الفرق بين منازعة الملك في استصغار بعض عبيده واستخدامهم وبين منازعة في أصل الملك .

(١) حديث قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف نهلس إليك وعندك هؤلاء ... الحديث « في نزول قوله تعالى (ولا تطردوا الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي) أخرجه مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص الأتي قال « فقال للمركون « وقال ابن ماجه « ثالث قريش » .

الوجه الثاني : الذي تعظم به رذيلة التكبر أنه يدعو إلى مخالفة الله تعالى في أوامره ، لأن التكبر إذا جمع الحق من عبد من عباد الله استنكف عن قبوله وتشمس لجده ، ولذلك ترى المناظرين في مسائل الدين يزعمون أنهم يقابحون عن أسرار الدين ثم إنهم يتجادون تجاهد المتكبرين ، ومهما اتضح الحق على لسان واحد منهم أنف الآخر من قبوله ، وتشمس لجده واحتال لدفعه بما يقدر عليه من التليس وذلك من أخلاق الكافرين والمنافقين ، إذ وصفهم الله تعالى فقال ( وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والفنوا فيه لعلكم تنلبون ) فكل من يناظر الغلبة والإلغام لا يستقيم الحق إذا ظفر به فقد شاركهم في هذا الخلق ، وكذلك يعمل ذلك على الألفة من قبول الوضبط كما قال تعالى ( وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم ) وروى عن عمر رضي الله عنه أنه قرأها فقال ( إنها لله وأنا لإليه راجعون ) قام وجل يأمر بالمعروف يقتل ، فقام آخر فقال : يقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس ، فقتل المتكبر الذي خالفه والذي أمره كبيرا . وقال ابن مسعود : كفى بالرجل إنما إذا قيل له اتق الله قال : عليك نفسك ! وقال صلى الله عليه وسلم لرجل « كل يمينتك » قال « لا أستطيع » فقال النبي صلى الله عليه وسلم « لا استطعت » فما منه إلا كبره ، قال . فما رفعها بعد ذلك <sup>(١)</sup> أي اعتكف يده . فإذا تكبره على الخلق عظيم لأنه سيدهوه إلى التكبر على أمر الله ، وإنما حارب إبليس مثلا لهذا ، وما حكام من أحواله إلا ليعتبر به ، فإنه قال : أنا خير منه ، وهذا التكبر بالنسب لأنه قال : أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ، فخلع ذلك على أن يجمع من السجود الذي أمره الله تعالى به ، وكان يبدؤه التكبر على آدم والحسد له لجزء ذلك إلى التكبر على أمر الله تعالى ، فكان ذلك سبب ملاكة أهد الآباد ، فهذه آفة من آفات التكبر على العباد عظيمة ، ولذلك شرح رسول الله صلى الله عليه وسلم التكبر بهاتين الآفتين إذ سأله ثابت بن قيس بن شماس فقال : يا رسول الله إني امرؤ قد حجب إلي من الجبال ما ترى أفن التكبر هو ؟ فقال صلى الله عليه وسلم « لا ولكن التكبر من بطر الحق وغص الناس <sup>(٢)</sup> » وفي حديث آخر « من سفه الحق <sup>(٣)</sup> » وقرله « وغص الناس » أي ازدراهم واستخفهم وهم عباد الله أمثاله أو خير منه . وهذه الآفة الأولى « وسفه الحق » هو رده وهي الآفة الثانية ، فكل من رأى أنه خير من أخيه واحتقر أخاه وازدراه ونظر إليه بعين الاستصغار ، أو رد الحق وهو يعرفه فقد تكبر فيما بينه وبين الحق ، ومن أنف من أن يخضع لله تعالى ويتواضع لله بطاعته واتباع رسله فقد تكبر فيما بينه وبين الله تعالى ورسله .

### بيان ما به التكبر

اعلم أنه لا يتكبر إلا من استعظم نفسه ، ولا يستعظمها إلا وهو يمتد لها صفة من صفات الكمال ، وجماع ذلك يرجع إلى كمال ديني أو دنيوي ، فالدين هو العلم والعمل ، والدنيوي هو النسب والجاه والقوة والمال وكثرة الانصار . فهذه سبعة أسباب .

الأول : العلم ؛ وما أسرع الكبر إلى العلماء ! ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « آفة العلم الخيلاء <sup>(١)</sup> » فلا يليك

(١) حديث : قال لرجل « كل يمينتك » قال : لا أستطيع قال « لا استطعت » الحديث أخرجه مسلم من حديث سلمة بن الأكوع .  
(٢) حديث : قول ثابت بن قيس بن شماس إني امرؤ قد حجب إلي من الجبال ما ترى... الحديث « وفيه » التكبر من بطر الحق وغص الناس « أخرجه مسلم والترمذي وقد تقدم قبله بمحدثين .  
(٣) حديث « التكبر من سفه الحق وغص الناس » يجمع منه  
(٤) حديث « آفة العلم الخيلاء » قلت : : هكذا ذكره المستوفى المعروف « آفة العلم النسيان وآفة الجبال الخيلاء » حكاه رواه القاسمي في مسند الذهب من حديث علي بن عبد الله ضعيف . وروى عنه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس « آفة الجبال الخيلاء » وفيه الحسن بن محمد السكوني لا يدري من هو حدث من أبيه بمحدث موضوع قال صاحب الميزان .

العلم أن يتوزع بمرءة العلم يستعمر في نفسه جمال العلم وكأله ويستعظم نفسه ويستحق التأس وينظر اليهم نظره إلى البائس ويستعظمهم ويتوقع أن يبدوه بالسلام ، فإن بدأه واحد منهم بالسلام أو رد عليه بشر أو قام له أو أجاب له دعوة رأى ذلك ضحية عنده ويدأ عليه يلومه شكرها ، واعتقد أنه أكرمهم وفعل بهم ما لا يستحقون من مثله ، وأنه ينبغي أن يرقوا له ويغدهوه شكراً له على ضيقه ، بل الغالب أنهم يبرونه فلا يبرهم ويوزرونه فلا يزورهم ويمودونه فلا يودهم ويستخدمن من غالطه منهم ويستسخرونه في حوائجه ، فإن قصر فيه استكبره كأنهم عبيده أو أجراؤه ، وكان تعليمه العلم ضحية منه إليهم ومعروف لديهم واستحقاق حق عليهم ، هذا فيما يتعلق بالدنيا . أما في أمر الآخرة فتكبره عليهم بأن يرى نفسه عند الله تعالى أعلى وأفضل منهم ، فيخاف عليهم أكثر مما يخاف على نفسه ويرجو نفسه أكثر مما يرجو لهم ، وهذا بأن يسمى جاهلاً أولى من أن يسمى عالماً ، بل العلم الحقيقي هو الذي يعرف الإنسان به نفسه وربه وخطر الخاتمة وحجة الله على العلماء وعظم خطر العلم فيه - كما سيأتي في طريق معالجة التكبر بالعلم - وهذا العلم يزيد خوفاً وتواضعاً وتخشعاً ، ويقتضى أن يرى كل الناس خيراً منه لعظم حجة الله عليه بالعلم ، وتقصيره في القيام بشكر نعمة العلم . ولهذا قال أبو الرداء : من ازداد علماً ازداد وجهاً وهو كما قال .

فإن قلت : فما بال بعض الناس يزداد بالعلم كبراً وأماً ؟

فأعلم أن لذلك سببين : ( أحدهما ) أن يكون اشتغاله بما يسمى علماً وليس علماً حقيقياً ، وإنما العلم الحقيقي ما يعرف به العبد ربه ونفسه ، وخطر أمره في لقاء الله والمحاجب منه ، وهذا يورث الخشية والتواضع دون التكبر والأمن . قال الله تعالى ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ فأما ما وراء ذلك كعلم الطب والحساب واللغة والشعر والنحو وفصل الخصومات وطرق المجادلات ، فإذا تجرد الإنسان لها حتى امتلأ منها امتلاً بها كبراً ونفاقاً ، وهذه بأن تسمى صناعات أولى من أن تسمى علوماً ، بل العلم هو معرفة العبودية والربوبية وطريق العبادة ، وهذه ثمرات التواضع غالباً .

( السبب الثاني ) أن يغرض العبد في العلم وهو خبيث الدخلة ردىء النفس سيئ الأخلاق ، فإنه لم يشتغل أولاً بتزويد نفسه وتزكية قلبه بأرواح المجاهدات ولم يرض نفسه في عبادة ربه فيق خبيث الجوهر ، فإذا حاض في العلم - أي علم كان - صادف العلم من قلبه منزلاً خبيثاً فلم يطب ثمرة ولم يظهر في الخير أثره . وقد ضرب به لهذا مثلاً فقال : العلم كالنبت ينزل من السماء حاراً صافياً فقتلته الأشجار ببروقها فتحو له على قدر طموحها فيزداد المزمرارة والحلو حلولة ، فكذلك العلم تحفظه الرجال فتحو له على قدر صممها وأمواتها ، فيزيد للتكبر كبراً والمتواضع تواضعاً ، وهذا لأن من كانت همته التكبر وهو جاهل فلذا حفظ العلم وجد ما يشكر به فزاد كبراً ، وإذا كان الرجل عاقفاً مع جهله فزاد علماً علم أن الحاجة قد تأكدت عليه فيزداد خوفاً وإشفاقاً وذلاً وتواضعاً ، فالعلم من أعظم ما يتكبر به ، ولذلك قال تعالى لنبيه عليه السلام ﴿ وَاخْفِضْ جُنَاكُحَافَ ائِمْلِكْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وقال عز وجل ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ ووصف أولياده فقال ﴿ أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعْرَافَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ وكذلك قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه العباس رضى الله عنه : يكون قوم يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يقولون : قد قرأنا القرآن فنأقرأنا من أفل منا ، ثم اتفت إلى أصحابي وقال : أولئك منكم أيها الأمة أولئك هم

وقود النار<sup>(١)</sup>، ولذلك قال عمر رضي الله عنه لا تكونوا جبابرة العلماء فلا يني عليكم بجهلكم. ولذلك استأذن نجيم الداري عمر رضي الله عنه في القصص فأبى أن يأذنه له وقال: إنه الذبح، واستأذنه رجل كان إمام قوم أنه إذا سلم من صلاته ذكرهم فقال: إني أعاف أن تلتفت حتى تبلغ التريا. وصل حذيفة بقوم فلما سلم من صلاته قال: لئلا تمسن إماما غيري أو لتصلن وحدانا فأبى وأبى في نفسه أنه ليس في القوم أفضل مني. فإذا كان مثل حذيفة لا يسلم فكيف يسلم الضملاء من متأخري هذه الأمة؟ فما أعز على بساط الأرض عالما يستحق أن يقال له عالم ثم إنه لا يحركه عز العلم وخيلاؤه، فإن وجد ذلك فهو صديق زمانه، فلا يلبي أن يفارق بل يكون النظر إليه عبادة فضلا عن الاستفادة من أنفاسه وأحواله؛ لو عرفنا ذلك ولو في أقصى الصين لسمينا إليه رجاء أن تشملنا بركنه ونسرى إلينا سيرته وبجيبته، وهيات فأبى بسمع آخر الزمان يمثلهم؟ فهم أرباب الإقبال وأصحاب الدول قد انقضوا في القرن الأول ومن يليهم، بل يمر في زماننا عالم ينتلج في نفسه الأسف والحزن على فوات هذه الحصلة، فذلك أيضا إمام ممدوم ولما عزيز. ولولا بشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله «سيأتي على الناس زمان من تمسك فيه بعشر ما أتم عليه فيها<sup>(٢)</sup>»، لكان جدرا بنا أن نفتحم والياد بالله تعالى ورطة اليأس والفتور مع ما نحن عليه من سوء أعمالنا، ومن لنا أيضا بالتفلسك بعشر ما كانوا عليه، وليتنا تمسكا بعشر عشرة. فسنال الله تعالى أن يعامتنا بما هو أهله ويستر علينا قبائح أعمالنا كما يقتضيه كرمه وفضله.

الثاني: العمل والعبادة، وليس يغفر عن رذيلة المز والكبر واستيالة قلوب الناس الزهاد والمبادو يترشح الكبر منهم في الدين والدنيا.

(أما في الدنيا) فهو أنهم يرون غيرهم بزيارتهم أول منهم بزيارة غيرهم، ويتفوقون قيام الناس بفضله حوائجهم وتوحيدهم والتوسع لهم في المجالس وذكرهم بالورع والتقوى وتقديمهم على سائر الناس في الحفظ - إلى جميع ما ذكرناه في حق العلماء - وكانهم يرون عبادتهم منه على الخلق.

(وأما في الدين) فهو أن يرى الناس هالكين ويرى نفسه ناجيا وهو الهالك تحقيقا - مهابدا أي ذلك - قال صلى الله تعالى عليه وسلم «إذا سمعت الرجل يقول هلك الناس فهو أهلكهم<sup>(٣)</sup>»، وإنما قال ذلك لأن هذا القول منه يدل على أنه مزدر بخلق الله مغتر بالله آمن من مكروه غير عاقب من سطوته، وكيف لا يخاف؟ ويكنيه شرا احتقاره لغيره. قال صلى الله تعالى عليه وسلم «كفى بالمرء شرا أن يحقر أخاه المسلم<sup>(٤)</sup>»، وكمن الفرق بينهم وبين من يحبه الله ويعظمه لعبادته ويستعظمه ويرجو له ما لا يرجوه لنفسه، فخلق يدركون التجاة بتعظيمهم إياه، فهم يتقربون إلى الله تعالى بالدنو منه وهو يتقرب إلى الله بالتزود والتباعد منهم، كأنه مترفع عن مجالستهم، فما أجدرهم إذا أجبره لصلاحه أن يتفقههم الله إلى درجته في العمل؛ وما أجدره إذا أذدرهم بعينه أن ينقله الله إلى حد الإهمال كما روى أن رجلا في بني إسرائيل كان يقال له: خليص بن إسرائيل - لكثرة فساد - مر رجل آخر يقال له عابد بن إسرائيل، وكان على رأس العابد حمامة فقله فلما مر الخليص به فقال الخليص في نفسه: أنا خليص بن إسرائيل وهذا عابد بن إسرائيل،

(١) حديث العباس: «يسكون قوم يهرون الفكر لا يجاوز خارجهم يقولون قد قرأنا القرآن فنأمرنا... الحديث» أخرجه ابن المبارك في الزهد والرفائق (٢) حديث: «سيأتي على الناس زمان من تمسك بدين ما أتم عليه نجاة» أخرجه أحمد بن رواحة رجل من أبي نو.

(٣) حديث: «لنا سمع الرجل يقول هلك الناس فهو أهلكهم» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٤) حديث: «كفى بالمرء شرا أن يحقر أخاه المسلم» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة بلفظ: «امرؤ من امرئ».

فلو جلست إليه لعل الله يرحني ! فجلس إليه فقال العابد : أنا عابد بني إسرائيل وهذا خليم بني إسرائيل فكيف يجلس إلي ؟ فأف منته وقال له : قم عنى ! فأوحى الله إلى نبي ذلك الزمان : مرهما فليستأنا العمل فقد غفرت للخليم وأحببت عمل العابد . وفي رواية أخرى : فتحولت الثمامة إلى رأس الخليم .

وهذا يعزفك أن الله تعالى إنما يريد من العبيد قلوبهم ، فالجسم المصاى إذا تواضع هيئة لله وذلل خوفاً منه فقد أطاع الله بقلبه ، فهو أطوع لله من العالم للتكبر والعابد للمعجب . وكذلك روى أن رجلاً من بني إسرائيل أتى عابداً من بني إسرائيل فوطئ على رقبته وهو ساجد فقال : أرفع فؤاقتك لا ينفر الله لك <sup>(١)</sup> فأوحى الله إليه أيها التاليل أنت لا ينفر الله لك وكذلك قال الحسن : وحتى أن صاحب الصوف أشد كبراً من صاحب المطرز الخز ، أى أن صاحب الخز يذل لصاحب الصوف ويرى الفضل وصاحب الصوف يرى الفضل لنفسه وهذه الآفة أيضاً قلما ينفك عنها كثير من العباد ، وهو أنه لو استخف به مستخف أو آذاه مؤذ استبد أن ينفر الله له ، ولا يشك في أنه صار يعترفوا بعبادته ، ولو آذى مسلماً آخر لم يستنكر ذلك الاستنكار وذلك لعظم قدر نفسه عنده ، وهو جهل وجمع بين الكبر والمعجب واغتراراً بالله وقد يلتهى الحق والغباهة يبعثهم إلى أن يتحدى ويقول : سترون ما يجري عليه ؟ وإذا أصيب بنكية زعم أن ذلك من كراماته وأن الله ما أراد به إلا شفاء غلبه والانتقام له منه ، مع أنه يرى طبقات من الكفار يسبون الله ورسوله ، وعرف جماعة آذوا الأنبياء صلوات الله عليهم فبهم قتلهم ومنهم من ضربهم ، ثم إن الله أمهل أكثرهم ولم يعاقبهم في الدنيا ، بل ربما أسلم بعضهم فلم يصبه مكروه في الدنيا ولا في الآخرة ، ثم الجاهل للغرور يظن أنه أكرم على الله من أنبيائه وأنه قد انتقم له بما لا ينتقم لأنبيائه به . ولعله في مقت الله يعجباه وكبره وهو غافل عن هلاك نفسه فهذه عقيدة للفتن .

( وأما الأكياس من العباد ) فيقولون ما كان يقوله عطاء السلي حين كان تهب ربح أو تقع ساعة : ما يصيب الناس ما يصيبهم إلا بسببي ولو مات عطاء لتخلصوا . وما قاله الآخر بعد انصرافه من عرفات : كنت أرجو الرحمة بجمعهم لولا كوني فيهم فانظر إلى الفرق بين الرجلين هذا يتقى الله ظاهراً وباطناً ، وهو وجل على نفسه مزدور لعمله وسعيه ، وذلك ربما يضر من الرياء والكبر والحسد ، والفعل ماهر خفكة للشيطان به ، ثم إنه يتن على الله بعمله . ومن اعتقد جرماً أنه فرق أحد من عباد الله فقد أحبط بجهله جميع عمله ، فإن الجهل لأخشى للمصاى وأعظم شئ . وبعد العبد عن الله ، وحكمه لنفسه بأنه خير من غيره جهل محض وأمن من مكر الله ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ولذلك روى أن رجلاً ذكر بخير النبي صلى الله عليه وسلم فأقبل ذات يوم فقالوا : يا رسول الله هذا الذي ذكرناه لك ، فقال : إني أرى في وجهه سمة من الشيطان ، فلم يوقف على النبي صلى الله عليه وسلم فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : أسألك بالله حدثتك نفسك أن ليس في القوم أفضل منك ، قال : اللهم نعم <sup>(٢)</sup> فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنور البقرة ما استمكن في قلبه سمة في وجهه . وهذه آفة لا ينفك عنها أحد من العباد إلا من عصمه الله .

لكن العلماء والعباد على آفة التكبر على ثلاث درجات :

( الدرجة الأولى ) أن يكون التكبر مستقراً في قلبه يرى نفسه خيراً من غيره ، إلا أنه يتعبد ويتواضع ويفعل

(١) حديث : الرجل من بني إسرائيل أتى وطئ على رقبته عابد من بني إسرائيل وهو ساجد فقال : أرفع فؤاقتك لا ينفر الله لك الحديث . أخرجه أبو داود والحاكم من حديث أبي هريرة في قصة العابد الذي قال للمصاى : « والله لا ينفر الله لك أبداً » وهو ينبر هذا الباطل وإسناده حسن . (٢) حديث : أن رجلاً ذكر بخير النبي صلى الله عليه وسلم فأقبل ذات يوم فقالوا يا رسول الله هذا الذي ذكرناه لك فقال : « إني أرى في وجهه سمة من الشيطان » الحديث أخرجه أحمد والبخاري والدارقطني من حديث أس.

فعل من يرى غيره خيرا من نفسه ، وهذا قد وسخ في قلبه شجرة الكبر ولكنه قطع أغصانها بالكلىة .  
( الثانية ) أن يظهر ذلك على أفعاله بالترفع في المجالس والتعظم على الأقران وأظهار الإنكار على من يقصر في حقه ، وأدنى ذلك في العالم أن يصغر خذله للناس كأنه معرض عنهم ، وفي العابد أن يعبس وجهه ويغضب وجهه كأنه منزه عن الناس مستغنى لهم أو غضبان عليهم وليس يعلم المسكين أن الورع ليس في الجبهة حتى تغضب ولا في الوجه حتى يعبس ولا في الخد حتى يصغر ولا في الرقبة حتى تغطأ ولا في الذيل حتى يعتم ؛ إنما الورع في القلوب ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتقوا ههنا ، وأشار إلى صدره »<sup>(١)</sup> فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم : أكرم الخلق وأتقاهم وكان أوسعهم خلقا وأكثرهم بشرا وتبعا وإنسانا<sup>(٢)</sup> ولذلك قال الحارث بن جزء الزبيدي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم : يعجبني من التزاء كل طليق مضحك ، فأما الذي تلقاه ببشر وبقاك بعبس من عليك بعله ، فلا أكثر الله في المسلمين مثله . ولو كان الله سبحانه وتعالى يرضى ذلك لما قال لنبيه صلى الله عليه وسلم : « واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » وهؤلاء الذين يظهر أثر الكبر على شاكلهم فأحوالهم أخف حالا من هو في ( الرتبة الثالثة ) وهو الذي يظهر الكبر على لسانه حتى يدعو إلى الدعوى والمفاخرة والمباهاة وتركية النفس وحكايات الأحوال والمقامات والتشمر لقلبه الغير في العلم والعمل .

أما العابد فإنه يقول في معرض التفاخر لغيره من العباد . من هو وما عمله ومن أين زهده ؟ فيطول اللسان فيهم بالتقصص ، ثم يثنى على نفسه ويقول : إنى لم افطر منذ كنا وكنا ولا أمام الليل وأختم القرآن في كل يوم ، وفلان ينام سحرا ولا يكثر القراءة ، وما يجرى مجراه ، وقد ركن نفسه خمتا فيقول : قصدي فلان بسوء فبكك ولله وأخذ ماله أو مرض ، أو ما يجره مجراه ، يدعى الكرامة لنفسه . وأما مباهاة : فهو أنه لو وقع مع قوم يصلون بالليل قام وصلى أكثر مما كان يصلى ، وإن كانوا يصرون على الجوع فيسكف نفسه الصبر لينيلهم ويظهر له قوته وعجزهم ؛ وكذلك يشتد في العبادة خوفا من أن يقال غيره أعبد منه أو أقوى منه في دين الله .

وأما العالم فإنه يتفاخر ويقول : أنا متفنن في العلوم ومطلع على الحقائق ورأيت من الشيوخ فلانا وفلانا ، ومن أنت وما فضلك ومن لقيت ؟ وما الذي سمعت من الحديث ؟ كل ذلك ليصرفه ويعظم نفسه . وأما مباهاة : فهو أنه يجتهد في المناظرة أن يغلب ولا يغلب ويسهر طول الليل والنهار في تحصيل علوم يتجمل بها في المحافل ، كالنظرة والجدل وتحسين العبارة وتسجيع الألفاظ ، وحفظ العلوم الفرية ليترب بها على الأقران ويتعظم عليهم ، ويحفظ الأحاديث ألفاظها وأسانيدها حتى يرد على من أخطأ فيها فيظهر فضله وتقصان أقرانه ، ويفرح مهما أخطأ واحد منهم ليرد عليه ويسوه إذا أصاب وأحسن خيفة من أن يرى أنه أعظم منه .

فهذا كله أخلاق الكبر وآثاره التي يشمرها التمرز بالعلم والعمل ، وأين من يغلو عن جميع ذلك أو عن بعضه ؟ فليت شمرى من الذي عرف هذه الأخلاق من نفسه وسمع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر<sup>(٣)</sup> ، كيف يستعظم نفسه ويتكبر على غيره ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إنه من أهل النار ؟ وإنما العظم من خلاعن هذا ، ومن خلا عنه لم يكن فيه تعظم وتكبر ، والعالم هو الذي فهم أن الله تعالى قال له : إن لك عندنا قدرا مالم تر لنفسك قدرا فإن رأيت لها قدرا فلا قدر لك عندنا . ومن لم يعلم

(١) حديث « اتقوا ههنا » وأشار إلى صدره . أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة . وقد تقدم (٢) حديث « كان أكرم الخلق وأتقاهم ... الحديث » تقدم في كتاب أخلاق النبوة ، (٣) حديث « لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر » تقدم

هذا من الدين فاسم العالم عليه كذب ، ومن علمه لانه أن لا يتكبر ولا يرى لنفسه قدرا . فهذا هو التكبر بالعلم والعمل .  
 الثالث : التكبر بالحسب وال نسب ، قاله له نسب شريف يستحق من ليس له ذلك النسب وإن كان أرفع منه عملا وعلمًا ، وقد يتكبر بعضهم فيرى أن الناس له أموال وعبيد ويألف من مخالطتهم ومجالستهم ، ويغرته على اللسان التفاخر به فيقول لغيره : يا بني وباهندي وبأرمني من أنت ومن أبوك ؟ فأنا فلان ابن فلان ، وابن لفلان أن يكلمني أو ينظر لي ؟ ومع مثلي تتكلم ؟ وما يجري مجراه . وذلك عرق دفين في النفس لا ينفك عنه فسيب وإن كان صالحا وعاقلا ، إلا أنه قد لا يترشح منه ذلك عند اعتدال الأحوال ، فإن غلبه غضب أطفأ ذلك نور بصيرته وترشح منه كما روى عن أبي ذر أنه قال : قالوا رجلا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقلت له : يا ابن السوداء ! فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يا أبا ذر طف الصاع طف الصاع ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل <sup>(١)</sup> ، فقال أبو ذر رحمه الله : فاحطمت وقلت للرجل قم فقط على خدي . فانظر كيف تنبه رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى لنفسه فضلا بكونه ابن بيضاء وأن ذلك خطأ وجهل ؟ وانظر كيف تاب وقلع من نفسه شجرة الكبر بأخص قدم من تكبر عليه إذ عرف أن المز لا يبقيه إلا الذل ؟ ومن ذلك ما روى أن رجلين تفاخرا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال أحدهما للآخر : أنا فلان بن فلان فمن أنت لأم لك ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : افتخر رجلا عند موسى عليه السلام فقال أحدهما أنا فلان بن فلان حتى عد تسعة فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام قل للذي افتخربل التسعة من أهل النار وأنت عاشرهم <sup>(٢)</sup> ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليدعن قوم الفخر بآبائهم وقد صاروا لخاف جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجملان التي تذرف بآنانها القدر <sup>(٣)</sup> .

الرابع : التفاخر بالجمال وذلك أكثر ما يجري بين النساء ويدعو ذلك إلى التقصص والتلب والغيبة وذكر عيوب الناس ومن ذلك ما روى عن عائشة رضي الله عنها قالت : دخلت امرأة على النبي صلى الله عليه وسلم فقلت يدي هكذا أي أنها قصيرة فقال النبي صلى الله عليه وسلم : قد اغتبتها <sup>(٤)</sup> ، وهذا مفقوه خفاء الكبر لأنها لو كانت أيضا قصيرة لما ذكرت بالقصير ، فكانها أعجبت بقامتها واستصغرت المرأة في جنب نفسها فقالت ما قالت .

الخامس الكبر بالمال ؛ وذلك يجري بين الملوك في خواتمهم وبين التجار في بضائعهم وبين الدهاقين في أراضيهم وبين للمتجملين في لباسهم وخيولهم ومراكبهم ، فيستحققون التقدير ويتكبرون عليه ويقولون له : أنت مكند ومسكين وأنا لو أردت لأشريت ملكك واستخدمت من هو فوقك ، ومن أنت ؟ وما مملكك وأثاث بيتك يساوي أكثر من جميع مالك ؟ وأنا أنفق في اليوم مالا تأكله في سنة ؟ وكل ذلك لاستظامه للنفي واستحقاقه للفقير ، وكل ذلك جهل منه بفضيلة الفقر وآفة النفي ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وراعي فغراء ﴾ حتى أجابه فقال ﴿ إن ترني أنا أقل منك مالا وولدا فسوف أدبي أن يؤتيني خيرا من جنتك ويرسل عليا حسابا من السماء فتصبح صعيدا زلقا أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا ﴾ وكان ذلك منه تكبرا بالمال والولد ،

(١) حديث أبي ذر : قالوا رجلا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقلت له يا ابن السوداء ... الحديث . أخرجه ابن المبارك في البر والصلة مع اختلاف ولأحمد من حديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له : انظر فإنت لست بخير من أحر ولأسود إلا أن تحضه بتقوى . (٢) حديث : أن رجلين تفاخرا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال أحدهما للآخر : أنا فلان بن فلان فمن أنت لأم لك ؟ ... الحديث . أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند من حديث أبي بن كعب بإسناد صحيح ورواه أحمد وموهبوا في ساذ بقصة موسى فقط . (٣) حديث : ليدعن قوم الفخر بآبائهم وقد صاروا لخاف جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجملان ... الحديث . أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه وابن حبان من حديث أبي هريرة . (٤) حديث عائشة : دخلت امرأة على النبي صلى الله عليه وسلم فقلت يدي هكذا ، أي أنها قصيرة ... الحديث . تقدم في آفات اللسان .



ثم بين الله عاقبة أمره بقوله ( باليتى لم أشرك برى أحدا ) ومن ذلك تكبر قارون إذ قال تعالى إخبارا عن تكبره ( نخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا باليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لنذر عظيم )

السابع : التكبر بالقوة وشدة البطش والتكبر به على أهل الضعف .  
السابع : التكبر بالاتباع والأنصار والتلامذة والفلان والعشيرة والأقارب والبنين ، ويجرى ذلك بين الملوك في المكائنة بالجند ، وبين العلماء في المكائنة بالمستفيدين .

وبالجملة فكل ما هو نعمة وأمكن أن يعتقد كالا وإن لم يكن في نفسه كالا أمكن أن يتكبر به ، حتى إن الخشيت ليتكبر على أقرانه بزيادة معرفته وقدرته في صنعة الخشيتين ، لأنه يرى ذلك كالا فيفتخر به وإن لم يكن فعله إلا كالا ، وكذلك الفاسق قد يفتخر بكثرة الشرب وكثرة الفجور بالنسوان والفلان ويتكبر به لظنه أن ذلك كال وإن كان عظمتا فيه . فهذه جماع ما يتكبر به البعاد بعضهم على بعض ، فيتكبر من يدل بشئ منه على من لا يدل به ، أو على من يدل بما هو دونه في اعتقاده . وربما كان مثله أو فوقه عند الله تعالى ، كالعالم الذي يتكبر ببلده على من هو أعلم منه لظنه أنه هو الأعلم ولحسن اعتقاده في نفسه . فسال الله المرن بلطفه ورحمته إنه على كل شئ قدير .

### بيان البواعث على التكبر وأسبابه المهيجة له

اعلم أن الكبر خلق باطن ، وأما ما يظهر من الأخلاق والأفعال فهي ثمرة ونتيجة ، وينبغي أن تسمى تكبرا ويخص اسم الكبر بالباطن الذي هو استعظام النفس ورقية قدرها فوق قدر الغير ، وهذا الباطن له موجب واحد وهو العجب الذي يتعلق بالتكبر - كما سيأتى معنا - فإنه إذا أعجب بنفسه وبعلمه وبعمله وأربىء من أسبابه استعظم وتكبر .

وأما الكبر الظاهر فأسابيه ثلاثة : سبب في التكبر وسبب في التكبر عليه وسبب فيما يتعلق بغيرهما .  
أما السبب الذي في التكبر فهو : العجب ، والذي يتعلق بالتكبر عليه هو الحقد ، والحسد . والذي يتعلق بغيرهما هو الرياء ، فتصير الأسباب بهذا الاعتبار أربعة : العجب ، والحقد ، والحسد ، والرياء (أما العجب) فقد ذكرنا أنه يورث الكبر الباطن والكبر يورث التكبر الظاهر في الأعمال والأقوال والأحوال . (وأما الحقد) فإنه يحمل على التكبر من غير عجب كالذي يتكبر على من يرى أنه مثله أو فوقه ، ولكن قد غضب عليه بسبب سبق منه فأورثه الغضب حقدًا ورسخ في قلبه بغضه ، فهو لذلك لا تقاوعه نفسه أن يتواضع له وإن كان عنده مستخفا للتواضع ، فكأن من ردل لا تقاوعه نفسه على التواضع لواحد من الأكابر لحقد عليه أو بغضه له ؟ وبمحله ذلك على رد الحق إذا جاء من جهته وعلى الأنفة من قبول نصحه وعلى أن يجتهد في التقدم عليه ، وإن علم أنه لا يستحق ذلك ، وعلى أن لا يستخفه وإن ظله ، فلا يعتذر إليه وإن جنى عليه ، ولا يسأله عما هو جاهل به .

( وأما الحسد ) فإنه أيضاً موجب للبغض المحسود وإن لم يكن من جهته إزداؤه وسبب يقتضى الغضب والحقد ، ويدعو الحسد أيضاً إلى جسد الحق حتى يمنع من قبول النصيحة وتعلم العلم ، فكأن من جاهل يشاق إلى العلم وقديق في رذيلة الجهل لاستكفاه أن يستفيد من واحد من أهل بلده أو أقاربه حسداً وبغائليه ؟ فهو يرض عنه ويتكبر عليه مع معرفته بأنه يستحق التواضع بغضل عليه ، ولكن الحسد يبعثه على أن يعامله بأخلاق المتكبرين ، وإن كان في باطنه ليس يرى نفسه فوقه .

( وأما الرياء ) فهو أيضاً يدعو إلى أخلاق المتكبرين ، حتى إن الرجل لينظر من يعلم أنه أفضل منه وليس يبيته ( ٤٥ - لحياء علوم الدين - ٣ )

وبينه معرفة ولا محاسبة ولا حقد ، ولكن يتمتع من قبول الحق منه ولا يتواضع له في الاستفادة خيفة من أن يقول الناس إنه أفضل منه ، فيكون باعته على التكبر عليه الرياء المجرد ، ولو خلا معه نفسه لكان لا يتكبر عليه . وأما الذي يتكبر بالعجب أو الحسد أو الحقد فإنه يتكبر أيضاً عند الخلوة به مهما لم يكن معهما ثالث ، وكذلك قد ينتمى إلى نسب شريف كاذبا وهو يعلم أنه كاذب ثم يتكبر به على من ليس ينسب إلى ذلك النسب ويرفع عليه في المجالس ويتقدم عليه في الطريق ولا يرضى بمساواته في الكرامة والتوقير وهو عالم باطناً بأنه لا يستحق ذلك ، ولا كبر في باطنه لمعرفته بأنه كاذب في دعوى النسب ، ولكن يحمله الرياء على أفعال المتكبرين ، وكان اسم المتكبر إنما يطلق في الأكثر على من يفعل هذه الأفعال عن كبر في الباطن صادر عن العجب والنظر إلى الغير بعين الاحتقار ، وهو إن سمي متكبرا فلاجل التشبه بأفعال الكبر . نسأل الله حسن التوفيق والله تعالى أعلم .

### بيان أخلاق للتواضعين وبجامع ما يظهر فيه أثر التواضع والتكبر

اعلم أن التكبر يظهر في شمائل الرجل ، كصعري وجهه ونظرة شروا وإطرافه رأسه وجولسه متربعا أو متكتبا وفي أقواله حتى في صوته ونمته وصيته في الإيراد ، ويظهر في مشيته وتبحره وقيامه وجولسه وحركاته وسكناته ، وفي تعامله لأفعاله وفي سائر تقاليه في أحواله وأقواله وأعماله . فن المتكبرين من يجمع ذلك كله ومنهم من يتكبر في بعض ويتواضع في بعض .

فإنما التكبر بأن يجب قيام الناس له أو بين يديه . وقد قال علي كرم الله وجهه : من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار فيلنظر إلى رجل قاعد وبين يديه قوم قيام . وقال أنس لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له لما يعلمون من كراهته لذلك (١) .

ومنها أن لا يمشي إلا ومعه غيره يمشي خلفه . قال أبو الدرداء : لا يزال العبد يردد من الله بعدا مامشي خلفه وكان عبد الرحمن بن عوف لا يعرف من عبيده ، إذ كان لا يميز عنهم في صورة ظاهرة . وشمى قوم خلف الحسن البصري فتمهم وقال : ما بين هذا من قلب العبد ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض الأوقات يمشي مع بعض الأصحاب فيأمرهم بالتقدم ويمشي في غمارهم (٢) ، إما لتعليم غيره أوليئني عن نفسه وسواس الشيطان بالتكبر والعجب كما أخرج الثوب الجديد في الصلاة وإبداله بالخلع لأحد هذين المنين (٣) .

ومنها أن لا يزور غيره وإن كان يحصل من زيارته خير لغيره في الدين وهو عند التواضع . روى أن سفيان الثوري قدم الرقة فبحث إليه إبراهيم بن آدم : أن نعال لحدثنا ، لجاء سفيان فقيل له : يا أبا إسحاق تبعك إليه بئيل هذا ؟ فقال أردت أن أنظر كيف تواضعه ؟ .

ومنها أن يستنكف من جلوس غيره بالقرب منه إلا أن يجلس بين يديه والتواضع خلافة . قال ابن وهب : جلست إلى عبد العزيز بن أبي رواد فس غلذى غلذته فحبست نفسي عنه فأخذ ثيابي فجرتني إلى نفسه وقال لي : لم تفعلوني في

(١) حديث أنس : لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له ، الحديث تقدم في كتاب المسببة وفي أخلاق النبوة (٢) حديث : كان في بعض الأوقات يمشي مع الأصحاب فيأمرهم بالتقدم أخرجه منصور الذهبي في مسند الفردوس من حديث أبي أمامة بنند ضعيف جدا : أنه خرج يمشي إلى البقيع فبعه أصحابه لوقت فأمرهم أن يتقدموا وشمى خلفهم لئلا من ذلك فقال « ألى سمعت خلقا نالكم فأشفت أن يقع في نفس شيء من الكبر » وهو منكسر فيه جماعة شفاء . (٣) حديث : أخرجه الثوب الجديد في الصلاة وإبداله بالخلع قلت : المعروف بزعم المعراك الجديد ورد المعراك الخلق أو تزج الحجة وليس الأبنائية ، وكلما تقدم في الصلاة

ما فعلون بالجارية ولإني لأعرف رجلا منكم شرا مني؟ وقال أنس: كانت الوليدة من ولادة المدينة تأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ينزع يده منها حتى تذهب به حيث تشاء<sup>(١)</sup>.

ومنها أن يتوقى من مجالسة المرضى والمعلولين ويتحاشى عنهم وهو الكبر: ودخل رجل - وعليه جدري قد تقشر - على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده ناس من أصحابه يأكلون، فأجلس إلى أحد إلا قام من جنبه، فأجلسه النبي صلى الله عليه وسلم إلى جنبه<sup>(٢)</sup> وكان عبد الله بن عمر رضى الله عنهما لا يجلس عن طعامه يجذوموا ولا يرص ولا مبتلى إلا أقعدهم على مائدته.

ومنها أن لا يتعاطى بيده شيئا من بيته، والتواضع خلافه: وروى أن عمر بن عبد العزيز أتاه ليلة ضيف وكان يكتب فكاد السراج يطفأ، فقال الضيف: أقوم إلى المصباح فأصلحه؟ فقال: ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه، قال: فأفأبه الغلام؟ فقال: هي أول نومة نامها، فقام وأخذ البطة وملا المصباح زيتا فقال الضيف: فقه أنت بنفسك يا أمير المؤمنين؟ فقال: ذهب وأنا عمر ورجعت وأنا عمر ناقص من شيء. وخير الناس من كان عند الله متواضعا.

ومنها أن لا يأخذ متاعه ويحمله إلى بيته، وهو خلاف عادة المتواضعين، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك<sup>(٣)</sup> وقال على كرم الله وجهه: لا ينقص الرجل الكمال من كاله ما حمل من شيء إلى عياله وكان أبو عبيدة ابن الجراح وهو أمير يحمل سطلا له من خشب إلى الحمام. وقال ثابت بن أبي مالك: رأيت أبا هريرة أقبل من السوق يحمل حزمة حطب وهو يومئذ خليفة لروان، فقال: أوسع الطريق للأمير يا ابن أبي مالك! وسمع الأصم بن نباتة قال: كأنني أنظر إلى عمر رضى الله عنه معلقا لحما في يده اليسرى وفي يده اليمنى الدرة، يدور في الأسواق حتى دخل رحله. وقال بعضهم: رأيت عليا رضى الله عنه قد اشترى لحما ب درهم لحمله في مالهفته، فقلت له: أحمل عنك يا أمير المؤمنين فقال: لا، أبو العيال أحمق أن يحمل.

ومنها اللباس إذ يظهر به التكبر والتواضع وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: والبذاءة من الإيمان<sup>(٤)</sup>، فقال هرون: سألت معنأ عن البذاءة فقال: هو اللون من اللباس. وقال زيد بن وهب: رأيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يخرج إلى السوق ويده الدرة وعليه إزار فيه أربع عشرة رقعة بعضها من آدم وعرب على كرم الله وجهه في إزار مرقوع فقال: يقتدى به المؤمن ويخشع له القلب. وقال عيسى عليه السلام: جودة الثياب خيلاء في القلب وقال طلوس: إني لأغسل ثوبي حذنين فأنكر قلبي ماداما فقيين. ويروى أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله كان قيل أن يستخلف تشتري له الحلة بألف دينار فيقول: ما أجودها لولا خشونة فيها: فلما استخلف كان يشتري له الثوب بخمسة دراهم فيقول ما أجوده لولا لينه أقتيل له: أين لباسك ومركبك وحطرك يا أمير المؤمنين؟ فقال إن لي نفسا ذؤابة وإنها لم تذق من الدنيا طيبة إلا تاققت إلى الطيبة التي فوقها، حتى إذا ذاقنا الخلافة وهي أرفع الطباق تاققت إلى ما عند الله عز وجل. وقال سعيد بن سويد: صلى بنا عمر بن عبد العزيز الجمعة ثم جلس وعليه قميص مرقوع الجيب من بين يديه ومن خلفه، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين إن الله قد أعطاك فلر لبست؟ فحكس

(١) حديث أنس: كانت الوليدة من ولادة المدينة تأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث تقدم في آداب المصيبة  
(٢) حديث: الرجل الذي به جدري وإجلسه إلى جنبه تقدم قريبا. (٣) حديث: من كان متاعه إلى بيته. أخرجه أبو يعلى عن  
حديث أبي هريرة عن شراثة السراويل وحده وتقدم. (٤) حديث: البذاءة من الإيمان. أخرجه أبو داود وابن ماجه  
من حديث أبي أمامة بن ثعلبة وقد تقدم.

رأسه ملياً ثم رفع رأسه فقال : إن أفضل القصد عند الجدة وإن أفضل العفو عند القدرة وقال صلى الله عليه وسلم  
 « من ترك زينة الله ووضع ثياباً حسنة تواضعا لله وابتغاء لمرضاته كان حقاً على الله أن يدخر له عبقري الجنة <sup>(١)</sup> » ،  
 فإن قلت : فقد قال عيسى عليه السلام : جودة الثياب خيلاء القلب . وقد سئل نبينا صلى الله عليه وسلم عن الجمال  
 في الثياب هل هو من الكبر فقال : لا ولكن من سفه الحق وغصص الناس <sup>(٢)</sup> ، فكيف طريق الجمع بينهما ؟ فاعلم  
 أن الثوب الجديد ليس من ضرورته أن يكون من التكبر في حق كل أحد في كل حال ، وهو الذي أشار إليه رسول الله  
 صلى الله عليه وسلم وهو الذي عرفه رسول الله صلى الله عليه وسلم من حال ثابت بن قيس إذ قال : إني امرؤ جيب  
 إلى من الجمال ما ترى <sup>(٣)</sup> فعرف أن ميله إلى النظافة وجودة الثياب لا لتكبر على غيره ، فإنه ليس من ضرورته  
 أن يكون من الكبر ، وقد يكون ذلك من الكبر كما أن الرضا بالثوب الدون قد يكون من التواضع . وعلامة  
 المتكبر أن يطلب التجميل إذا رآه الناس ولا يبالي إذا انفرد بنفسه كيف كان . وعلامة طالب الجمال أن يحب الجمال  
 في كل شيء ولو في خلوته وحتى في سوره داره ، فذلك ليس من التكبر . فإذا انقسمت الأحوال نزل قول عيسى  
 عليه السلام هل بعض الأحوال هل أن قوله : خيلاء القلب ؛ يعني قد تورث خيلاء في القلب ، وقول نبينا صلى الله  
 عليه وسلم : إنه ليس من الكبر ؛ يعني أن الكبر لا يوجب ، ويجوز أن لا يوجب الكبر ثم يكون هو مورثاً للكبر .  
 وبالجملة فالأحوال تختلف في مثل هذا والمحجوب الوسط من اللباس الذي لا يوجب شهرة بالجمدة ولا بالرداءة . وقد  
 قال صلى الله عليه وسلم « كلوا واشربوا واليسوا وتصدقوا في غير سرف ولا غيلة <sup>(٤)</sup> » . « إن الله يحب أن يرى  
 أثر نعمته على عبده <sup>(٥)</sup> » ، وقال بكر بن عبد الله المزني : اليسوا ثياب الملوك وأميثوا قلوبكم بالخشية ، وإنما خاطب  
 بهذا قرماً يطيلون التكبر بثياب أهل الصلاح . وقد قال عيسى عليه السلام : مالكم تأتونني وعليكم ثياب الرهبان  
 وقلوبكم قلوب الدئاب الضواوي ؟ اليسوا ثياب الملوك وأميثوا قلوبكم بالخشية .

ومنها أن يتواضع بالاحتياط إذا سب وأردى وأخذ حقه ، فذلك هو الأصل . وقد أوردنا ما نقل عن السلف  
 من احتياط الأذى في كتاب الغضب والحسد . وبالجملة فجماع حسن الأخلاق والتواضع سيرة النبي صلى الله عليه وسلم  
 فيه فينبغي أن يقتدى به . ومنه ينبغي أن يتعلم . وقد قال أبو سلمة . قلت لأبي سعيد الخدري ما ترى فيما أحدث الناس  
 من اللبس والمشرى والمركب والمطعم ؟ فقال : يا ابن أخي كل لله واشرب لله واليس لله ، وكل شيء من ذلك دخله  
 زهو أو مباهاة أو رياء أو سمعة فهو معصية وسرف ، وعالج في بيتك من الخدمة ما كان يعالج رسول الله صلى الله عليه  
 وسلم في بيته ، كان يلقى التواضع ويمقل البعير ويحم البيت ويحلب الشاة ويحصد الثمن ويرقع الثوب ويأكل مع  
 خادمه ويطمن عنه إذا أحمأ ، ويشترى الشيء من السوق ولا يمنعه الحياء أن يعلقه يده أو يجعله في طرف ثوبه ،  
 ويتقلب إلى أهله يصافح النقي والفقير والكبير والصغير ، ويسلم مبتدئاً على كل من استقبله من صغير أو كبير أسود  
 أو أحمأ حر أو عبد من أهل الصلاة ، ليستله حلة لدخله وحلة لخروجه ، لا يستحي من أن يجيب إذا دعى وإن كان  
 أسعث أغبر ، ولا يحقر ما دعى إليه وإن لم يجد إلا حشف الدقل ، لا يرفع غداه لغشاء ولا عشاء لغداء ، حين المؤونة

(١) حديث « من ترك زينة الله ووضع ثياباً حسنة تواضعا لله ... الحديث » أخرجه أبو سعيد المصابني في مسند الصوفية  
 وأبو نعيم في الحلية في حديث ابن عباس « من ترك زينة الله ... الحديث » وفي إسناده نظر (٢) حديث : سئل عن الجمال في  
 الثياب هل هو من الكبر ؟ فقال « لا » الحديث تقدم غير مرة (٣) حديث : لن ثابت بن قيس قال لاني صلى الله عليه وسلم :  
 لاني امرؤ جيب إلى الجمال ... الحديث . هو الذي فيه سمى فيه السائل وقد تقدم (٤) حديث « كلوا واشربوا واليسوا ولا تصدقوا  
 في غير أسراف ولا غيلة » أخرجه النسائي وابن ماجه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه من جده (٥) حديث « إن الله يحب أن يرى  
 أثر نعمته على عبده » أخرجه الترمذي وحسنه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه من جده أيضاً وقد جعلها المصنف حديثاً واحداً

لين الخلق كريم الطبعية جميل للمعايشة طليق الوجه يسام من غير خيفك عزون من غير عبوس شديد في غير عنف متواضع في غير مذلة جواد من غير سرف وحجم لكل ذى قربى ومسلم ، وريق القلب طائم الإطراق لم يفتن قط من شيع ولا يمد يده من طمع ، قال أبو سلمة فدخلت على عائشة رضي الله عنها فحدثتني بما قال أبو سعيد في زهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : ما أخطأ منه حرفاً ولقد قصر إذ ما أخبرك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمتلئ قط شبعاً ولم يبت إلى أحد شكوى ، وإن كانت الفاقة لأحب إليه من اليسار والغنى ، وإن كان ليلظل جانيها يلتوى ليلته حتى يصبح فما يمنعه ذلك عن صيام يومه ولو شاء أن يسأل ربه فيؤتي بكنوز الأرض ومنازها ورغد عيشها من مشارق الأرض ومنازها لفعل ، وربما بكيت رحمة له عما أوتي من الجوع فأصبح بطنه يدي وأقول : نفسى لك الفداء لو تبلغت من الدنيا بقدر ما يقوتك ويمتلك من الجوع ؟ فيقول : يا عائشة إخواني من أولى العزم من الرسل قد صبروا على ما هو أشد من هذا فاضوا على سالمهم وقدموا على ربهم فأكرم مأهم وأجزل ثوابهم فأجندني أستحي إن ترفعت في معيشتي أن يقصر في دولتهم فأصبر أيا ما يسيرة أحب إلى من أن ينقص حظي غداً في الآخرة وما من شيء أحب إلى من الحق بإخواني وأخلاقى ، قالت عائشة رضي الله عنها : فو الله ما استكمل بعد ذلك جمعة حتى قبضه الله عز وجل <sup>(١)</sup> .

فأقل من أحواله صلى الله عليه وسلم يجمع جملة أخلاق المتواضعين ، فمن طلب التواضع فليقتد به ومن رأى نفسه فوق عمله صلى الله عليه وسلم ولم يرض لنفسه بما رضى هو به فأشد جهله ! فلقد كان أعظم خلق الله منصباً في الدنيا والدين فلا عز ولا رفعة إلا في الاقتداء به ولذلك قال عمر رضي الله عنه : إنا قوم أعزنا الله بالإسلام فكل نطلب العز في غيره ، لما عوب في بذاة هيته عند دخوله الشام . وقال أبو الفداء : أعلم أن لله عباداً يقال لهم الأبدال خلف من الأنبياء هم أرواد الأرض ، فلما انقضت النبوة أبدل الله مكانهم قوماً من أمة محمد صلى الله عليه وسلم لم يفضلوا الناس بكثرة صوم ولا صلاة ولا حسن حلية ولكن بصدق الروح وحسن النية وسلامة الصدر لجميع المسلمين والصيحة لهم ابتغاء مرضاة الله بصبر من غير تحين وتواضع في غير مذلة قوم اصطفاهم الله واستخلصهم لنفسه ، وهم أربعون صديقاً أو ثلاثون رجلاً قلوبهم على مثل يقين إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام لا يموت الرجل منهم حتى يكون الله قد أنشأ من خلفه ، وأعلم يأخى أنهم لا يملنون شيئاً ولا يؤذونه ولا يحقرونه ولا يتطاولون عليه ولا يحسدون أحداً ولا يحرسون على الدنيا ، هم أطيب الناس خيراً وألينهم عريكة وأعتاهم نسباً ، علامتهم السخاء وبهيمتهم البشاشة وصفتهم السلامة ، ليسوا اليوم في خفية وغداً في غفلة ولكن مداينهم على سالمهم الظاهر وهم فيما بينهم وبين ربهم لا تدرهم الرياح العواصف ولا الخيل الجراد ، قلوبهم تصعد أرتياحاً إلى الله واشتياقاً إليه وقد ما في استباق الخيرات ( أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ) قال الرازي : فقلت : يا أبا البرداء ما سمعت بصفة أشد على من تلك الصفة وكيف لي أن أبلغها ؟ فقال : ما بينك وبين أن تكون في أوسمها إلا أن تكون تبض الدنيا ، فإنك إذا أبغضت الدنيا أقبلت على حب الآخرة ، وبغض حبك للآخرة ترهق الدنيا وبغض ذلك تبصر ما ينفعك ، وإذا علم الله من عبد حسن الطلب أفرغ عليه السداد واكتفه بالعصمة ، وأعلم بالابن أخصى أن ذلك في كتاب الله تعالى للزول ( إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ) قال يحيى بن كثير : فظفرتنا

(١) حديث أبي سعيد الخدري وعائشة : قال الخدري لأبي سلمة قال في بيتك من الخدمة ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يملج في بيتك كان يملج التواضع .. الحديث . وفي : قال أبو سلمة فنزلت على عائشة فحدثتني بذلك عن أبي سعيد فقالت : ما أخطأ ولقد قصر أو ما أخبرك أنه لم يمتلئ قط شبعاً .. الحديث بطوله ثم أتم له على إسناد

في ذلك لما تلتذذ المتلذذون بشئ حب الله وطلب مرضاته . اللهم اجعلنا من محبي المحبين لك يارب العالمين فإنه لا يصلح لحبك إلا من ارتضىته . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

### بيان الطريق في معالجة الكبير واكتساب التواضع له

اعلم أن الكبير من المهلكات ولا يخلو أحد من الخلق عن شيء منه ، وإزالته فرض عين ولا يزول بمجرد التني بل بالمعالجة واستعمال الأدوية القائمة له . وفي معالجته مقامان ( أحدهما ) استئصال أصله من سنخه وقلع شجره من مغرسها في القلب . ( الثاني ) دفع العارض منه بالأسباب الخاصة التي بها يتكبر الإنسان على غيره .

( المقام الأول ) في استئصال أصله ، وعلاجه على وعمل ، ولا يتم الشفاء إلا بجمعهما :

أما العلوي : فهو أن يعرف نفسه ويعرف ربه تعالى ويكتفيه ذلك في إزالة التكبر ، فإنه مهما عرف نفسه حق المعرفة علم أنه أذل من كل ذليل وأقل من كل قليل ، وأنه لا يليق به إلا التواضع والذلة والمهابة ، وإذا عرف ربه علم أنه لا يليق العظمة والكبرياء إلا بالله ، أما معرفته ربه وعظمته وجمده فالتوكل فيه يطول وهو منتهى علم المكاشفة ، وأما معرفته نفسه فهو أيضا يطول ولكنا نذكر من ذلك ما ينفع في إثارة التواضع والمذلة ، ويكتفيه أن يعرف معنى آية واحدة في كتاب الله فإن في القرآن علم الأولين والآخرين لمن فتحت بصيرته وقد قال تعالى ﴿ قتل الإنسان ما أكفره من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره ﴾ فقد أشارت الآية إلى أول خلق الإنسان وإلى آخر أمره وإلى وسطه ، فلينظر الإنسان ذلك ليفهم معنى هذه الآية أما أول الإنسان فهو أنه لم يكن شيئا مذكورا وقد كان في حين العدم دهورا بل لم يكن لعدمه أول وأي شيء أحسن وأقل من الحور والعدم ؟ وقد كان كذلك في القدم ، ثم خلقه الله من أرذل الأشياء ، ثم من أقدرها إذ قد خلقه من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقه ، ثم من مضغة ، ثم جمعه عظاما ، ثم كسا العظم لحما ، فقد كان هذا بداية وجوده حيث كان شيئا مذكورا ، لما صار شيئا مذكورا إلا وهو على أحسن الأوصاف والنسب ! إذ لم يخلق في ابتداءه كاملا بل خلقه جمادا ميتا لا يسمع ولا يبصر ولا يحس ولا يتحرك ولا ينطق ولا يبيض ولا يبرك ولا يعلم ، فبدأ بموته قبل حياته ويضعفه قبل قوته ويجهله قبل علمه وبعاه قبل بصره وبصمه قبل سمعه وببكه قبل نطقه وبضلالته قبل هداه وبفقره قبل غناه وبسجده قبل قدرته . فهذا معنى قوله ﴿ من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره ﴾ ومعنى قوله ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه ﴾ كذلك خلقه أولا ثم آمن عليه فقال ﴿ ثم السبيل يسره ﴾ وهذا إشارة إلى ما تسره له في مدة حياته إلى الموت . وكذلك قال ﴿ من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سمعيا بصيرا إنا هدينا السبيل إما شاكرًا وإما كفرًا ﴾ ومعناه أنه أحياه بعد أن كان جمادا ميتا ترابا أولا ونطفة ثانيا ، وأسمه بعد ما كان أصم ، وبصره بعد ما كان فاقدا للبصر ، وقواه بعد الضعف ، وعلمه بعد الجهل ، وخلق له الأعضاء بما فيها من المجائب والآيات بعد القبح لها ، وأغناه بعد الفقر ، وأشبعه بعد الجوع ، وكساه بعد العري ، وهداه بعد الضلال . فانظر كيف دبره وصوره وإلى السبيل كيف يسره وإلى طغيان الإنسان ما أكفره وإلى جهل الإنسان كيف أظهره ؟ فقال ﴿ أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تتمشرون ﴾ فانظر إلى نعمة الله عليه كيف نقله من تلك الذلة والقلة والחסنة والفتنة إلى هذه الرفعة والكرامة فصار موجودا بعد العدم وحيا بعد الموت وناطقا بعد البكم وبصيرا بعد العمى وقويا بعد الضعف وطالبا بعد الجهل ومهديا بعد

الضلال وقادرا بعد العجز وغنيا بعد الفقر ؟ فكان في ذاته لاشيء وأى شيء أخس من لاشيء ؟ وأى قلة أقل من العدم المحض ؟ ثم صار بالله شيئا . وإنما خلقه من التراب الدليل الذى يوطأ بالأقدام والنطقة التقدر بعد العدم المحض أيضا ليعرفه خسة ذاته فيعرف به نفسه ، وإنما أكل التمرة عليه ليعرف بها ربه ويعلم بها عظمت وجلاله وأنه لا يليق الكبرياء إلا به جل وعلا . ولذلك آمن عليه فقال ( ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين ومدينه الثجين ) وعرف خسته أولا فقال ( ألم يك لطفه من منى يبنى ثم كان علقته ) ثم ذكر مته عليه فقال ( نخلق فسوى لجعل منه الزوجين الذكر والانثى ) ليدوم وجوده بالتناسل كما حصل وجوده أولا بالاختراع . فن كان هذا بدؤه وهذه أحواله فن أن له البطر والكبرياء والفخر والخيلاء وهو على التحقيق أخس الأشخاص وأضعف الضعفاء ؟ ولكن هذه عادة الخسيس إذا رفع من خسته شمع بأنفه وتعلم ، وذلك للدلالة خسة أوله ولا حول ولا قوة إلا بالله . نعم لو أكله وفوض إليه أمره وأدام له الوجود باختياره لجاز أن يطفى وينسى المبدأ والنتهى ، ولكنه سلب عليه في دوام وجوده الأمراض المسائلة والأسقام العظيمة والآفات المختلفة والعلباع المتضادة ، من اللذة والبلى والريح والدم يسدم البعض من أجزائه البعض ، شاء أم أبى رضى أم سخط ، فيجوع كرها ويعطش كرها ويمرض كرها ويموت كرها ، لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا خيرا ولا شرا ، يرد أن يعلم الشيء فيجهله ، ويريد أن يذكر الشيء فينساها ويريد أن ينسى الشيء وينفل عنه فلا يغفل عنه ، ويريد أن يصرف قلبه إلى ما بهمه فيجول في أودية الوسواس والأفكار بالاضطرار ، فلا يملك قلبه قلبه ولا نفسه نفسه ، ويشقى الشيء وربما يكون هلاكه فيه ، ويكره الشيء وربما تكون حياته فيه ، يستلذ الألطعمة وتهلك روحه ، ويستمتع الأدوية وهى تضمه وتعيبه ، ولا يأمن في لحظة من ليله أو نهاره أن يسلب سمه وبصره وتغلب أعضائه ويتنلس عقله ويتخطف روحه ويسلب جميع ما بهواه في دنياه ، فهو مضطرب ذليل لأن ترك بئى وإن اختلف فنى ، عبد مملوك لا يقدر على شيء من نفسه ولا شيء من غيره ، فأى شيء أذل منه لو عرف نفسه ؟ وأنى يليق الكبر به لو لوجهه ؟ فهذا أحواله فليأمله .

وأما آخره ومورده فهو الموت المشار إليه بقوله تعالى ( ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره ) ومعناه أنه يسلب روحه وسمعه وبصره وعقله وقدرته وحسه وإدراكه وحركته ، فيعود جمادا كما كان أول مرة ، لا يبق إلا شكل أعضائه وصورته لا حس فيه ولا حركة ، ثم يوضع في التراب فيصير جيفة منتنة قدرة كما كان في الأول لطفة مذرة ، ثم تبلى أعضاؤه وتفتت أجزاءه وتنثر عظامه ويصير رميا رافنا ، ويأكل الودود أجزائه فيبتدىء بحرقته فيقلعها ويخذه فيقطعها ، ويسائر أجزائه فيصير روثا في أجواف الديدان ويكون جيفة يهرب منه الحيوان ويستقذره كل إنسان ويهرب منه لشدة الإبتات ، وأحسن أحواله أن يموت إلى ما كان فيصير ترابا يعمل منه الكبربان ويعمل منه البليان ، فيصير مفقودا بعد ما كان موجودا . وصار كأن لم يكن بالأس حصيدا كما كان في أول أمره أمدا مديدا ، وليت به بقى كذلك فا أحسنه لو ترك ترابا . لا يلبى يحيه بعد طول البلى ليقاسى شديد البلاء ، فيخرج من قبره بعد جمع أجزاءه المتفرقة ، ويخرج إلى أحوال القيامة فينظر إلى قيامة قائمة وسماء مشقة بمركة وأرض مبدلة وجبال مسيرة ونجوم منكسرة وشمس منكسفة وأحوال مظلمة وملاكمة غلاظ شداد وجهنم تفرز وجنة ينظر إليها المجرم فيتنحصر ، ويرى صحائف منشورة فيقال له ( اقرأ كتابك ) فيقول : وما هو ؟ فيقال : كان قد وكل بك في حياتك التى كنت تفرح بها وتتكبر بنعيمها وتفتخر بأسبابها ملكان رقيبان يكتبان عليك

ما كنت تطيق به أو تملكه من قليل وكثير وتغير وتغير وأكل وشرب وقيام وقعود ، قد نسيت ذلك وأحصى الله عليك فعمل إلى الحساب واستعد للجواب أو تساق إلى دار العذاب ، فينقطع قلبه فزعا من هول هذا الخطاب قبل أن تنتشر الصحيفة ويصاد مافيها من غنايه ، فإذا شاهده قال ﴿ يا ويلتنا ما هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾ فهذا آخر أمره وهو معنى قوله تعالى ﴿ ثم إذا شاء أنشره ﴾ فما من هذا حاله والتكبر والتعظم ؟ بل ماله والفرح في لحظة واحدة فضلا عن البطر والأشر ؟ فقد ظهر له أول حاله ووسطه ولو ظهر آخره والعياذ بالله تعالى ربما اختار أن يكون كلباً أو خنزيراً ليصير مع البهائم تراباً ولا يكون إنساناً يسمع خطاباً أو يلقى عذاباً ، وإن كان عند الله مستحقاً للنار فالخنزير أشرف منه وأطيب وأرفع إذ أوله التراب وآخره التراب وهو بمنزل عن الحساب والعذاب ، والكلب والخنزير لا يرب منه الخلق . ولو رأى أهل الدنيا العبد المذنب في النار لصعقوا من وحشة خلقته وقبح صورته ، ولو وجدوا ربه لماتوا من فتنه ، ولو وقعت قطرة من شرابه الذي يسقي منه في بحار الدنيا لصارت أنثى من الجيفة ، فمن هذا حاله في العاقبة - إلا أن يعفو الله عنه وهو على شكله من العفو - كيف يفرض ويطر وكيف يتكبر ويتجبر وكيف يرى نفسه شيئاً حتى يعتقد له فضلاً ؟ وأي عبد لم يذنب ذنباً استحق به العقوبة إلا أن يعفو الله الكريم فضله ويحبر الكسر به ، والرجاء منه ذلك لكرمه وحسن الظن به ولا قوة إلا بالله . رأيت من جنى على بعض الملوك فاستحق بجهنماته ضرب ألف سوط لحبس إلى السجن وهو ينتظر أن يخرج إلى العرض وتقام عليه العقوبة على ملا من الخلق وليس يدري أين هي عندهم ؟ كيف يكون ذل في السجن أفترى أنه يتكبر على من في السجن ؟ وما من عبد مذبذب إلا والدنيا بهيمة وقد استحق العقوبة من الله تعالى ولا يدري كيف يكون آخر أمره ؟ فيكفيه ذلك حزناً وخوفاً وإشفاقاً ومهانةً وذلاً . فهذا هو العلاج العلمي الشامع لأصل الكبر .

وأما العلاج العلمي فهو التواضع لله بالتقوى لسائر الخلق بالمواظبة على أخلاق المتواضعين ، كما وصفناه وحكيناه من أحوال الصالحين ومن أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إنه كان يأكل على الأرض ويقول إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد<sup>(١)</sup> ، وقبل لسان . لم لا تلبس ثوباً جديداً ؟ فقال : إنما أنا عبد فإذا اعتقت يوماً لبست جديداً أشار إلى العتق في الآخرة . ولا يتم التواضع بعد المعرفة إلا بالعمل ، ولذلك أمر العرب الذين تكبروا على الله ورسوله بالإيمان بالصلاة جميعاً ، وقيل الصلاة عماد الدين ، وفي الصلاة أسرار لأجلها كانت عباداً ، ومن جعلتها مافياً من التواضع بالثول قائماً وبالركوع والسجود ، وقد كانت العرب قديماً بأنف من الإنحناء ، فكان يسقط من يد الراحم وسطه فلا ينحني لأخذه ، ويقطع شراك نعله فلا ينكس رأسه لإصلاحه ، حتى قال حكيم بن حزام : يا بيت النبي صلى الله عليه وسلم على أن لا أخز إلا قائماً فبابه النبي صلى الله عليه وسلم عليه ، ثم فقه وكل لسانه بعد ذلك<sup>(٢)</sup> فلما كان السجود عندهم من منتهى الذلة والضعف أسروا به لتكسر بذلك خيلاؤهم ويزلو كبرهم ويستقر التواضع في قلوبهم ، وبه أمر سائر الخلق ، فإن الركوع والسجود والثول قائماً هو العمل الذي يقتضيه التواضع ، فكذلك من عرف نفسه فلينظر كل ما يتقاضاه الكبر من الأفعال فايواظب على تقيضه حتى يصير التواضع له خلفاً ، فإن القلوب لا تتخلق بالأخلاق المحمودة إلا بالمعلم والعمل جميعاً ، وذلك لحفا العلاقة بين القلوب والجوارح وسر

(١) حديث : كان يأكل على الأرض ويقول : إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد . تقدم في آداب المبيت .

(٢) حديث حكيم بن حزام : يا بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لا أخز إلا قائماً . الحديث رواه أحمد مقتصرًا على هذا وفيه لرسائل حتى .



الارتباط الذي بين عالم الملك وعالم للمكوت والقلب من عالم للمكوت (لقام الثاني) فيها يعرض من التكبر بالاسباب السبعة المذكورة ، وقد ذكرنا في كتاب ذم الجاه أن الكمال الحقيقي هو العلم والعمل ، فأما ما عاده مما يفتى بالمزت فكان وهمي فمن هذا يصر على العالم أن لا يتكبر ، ولكننا نذكر طريق العلاج من العلم والعمل في جميع الاسباب السبعة .  
الأول : النسب فمن يمتريه الكبر من جهة النسب فليدأ قلبه بمعرفة أمرين ( أحدهما ) أن هذا جهل من حيث إنه تميز بكمال غيره ، ولذلك قيل :

لئن غرت بأبَاء ذوى شرف لقد صدقت ولكن بشئ ما ولدها

فالتكبر بالنسب إن كان خسيسا في صفات ذاته فمن أين يجبر خسته بكمال غيره ؟ بل لو كان الذي ينسب إليه حيا لكان له أن يقول : الفضل لي ؛ ومن أنت وإنما أنت دودة خلقت من بول ؟ أقرى أن الدودة التي خلقت من بول إنسان أشرف من الدودة التي من بول فرس ؟ هيأت ! بل هما متساويان والشرف للإنسان لا للدودة . ( الثاني ) أن يعرف نسب الحقيقي ، فيعرف أباه وجده فإن أباه القريب نقطة قدوة وجهته البعيد تراب ذليل وقد عرفه الله تعالى نسب فقال ( الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين ) فمن أصله التراب المهبين الذي يداس بالأقدام ثم يخرج طينة حتى صار حما مستونا كيف يتكبر ؟ وأحسن الأشياء ما إليه انتسابه إذ يقال يا أذل من التراب يا أنثى من الحماة ويا أقدر من اللبنة .

فإن كان كونه من أبيه أقرب من كونه من التراب فنقول : افتخر بالقريب دون البعيد ، فالتطفة واللينة أقرب إليه من الأب فليحقر نفسه بذلك ، ثم إن كان ذلك يوجب رغبة لقربه فالأب الأجل من التراب فمن أين رفته ؟ وإذا لم يكن له رغبة فمن أين جاءت الرفة لولده ؟ فإذا أصله من التراب وفصله من التطفة فلا أصل له ولا فصل . وهذه غايه خسة النسب فالأصل يوطأ بالأقدام والفصل تغسل منه الإبدان . فهذا هو النسب الحقيقي للإنسان ومن عرفه لم يتكبر بالنسب ويكون مثله بعد هذه المعرفة وانكشاف النطاء له من حقيقة أصله كرجل لم يزل عند نفسه من بني هاشم وقد أخبره بذلك والده فلم يزل فيه نخوة الشرف فينبأ هو كذلك إذ أخبره عدول لا يشك في قولهم أنه ابن هندی حجام يتعاطى التاذورات ، وكشفوا له وجه التلييس عليه فلم يبق له شك في صدقهم ، أقرى أن ذلك يبق شيئا من كبره ؟ لا بل يصير عند نفسه أحقر الناس وأذلهم فهو من استعمار الخزي لحسته في شغل عن أن يتكبر على غيره . فهذا حال البصير إذا تفكر في أصله وعلم أنه من التطفة واللينة والتراب ، إذ لو كان أبوه من يتعاطى نقل التراب أو يتعاطى الدم بالحماة أو غيرها لكان يعلم به خسة نفسه لماسة أعضاء أبيه للتراب والدم ، فكيف إذا عرف أنه في نفسه من التراب والدم والأشياء القذرة التي يتنزه عنها هو في نفسه ؟

السبب الثاني : التكبر بالجمال ، ودواؤه أن ينظر إلى باطنه بنظر العقلاء ولا ينظر إلى باطنه بنظر البهائم . ومهما نظر إلى باطنه رأى من التبايح ما يكدر عليه تميزه بالجمال فإنه وكل به الانقار في جميع أجزائه : الرجيع في أمعائه والبول في مثائنه والمخاط في أنفه والبراق في فيه والوسخ في أذنيه والدم في عروقه والصد يد تحت بشرته والصنان تحت لبطة ، ينسل الناهط بيده كل يوم دفعة أو دفتين ، ويتردد كل يوم إلى الحلاء مرة أو مرتين ليخرج من باطنه مائل وآه يعينه لاستناده فضلا عن أن يحسه أو يشمه ، كل ذلك ليعرف قذارته وذله هذا في حال توسطه .

وفي أول أمره خلق من الانقار الشنيعة الصور ، من التطفة ودم الحيض ، وأخرج من مجرى الانقار . إذ خرج من الصلب ثم من الذكر مجرى البول ثم من الرحم مفيض دم الحيض ثم خرج من مجرى القدر قال أنس رحمه الله : كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يخطبنا فيقترأ علينا أنفسنا ويقول : خرج أحدكم من مجرى البول

مرتين : وكذلك قال طاوس لعمر بن عبد العزيز . ما هذه مشية من في بطنه خراء ؟ إذ وآه يتبختر ، وكان ذلك قبل خلافته وهذا آوله ووسطه .

ولو ترك نفسه في حياته يوما لم يتعمدها بالتنظيف والتنسل لثارت منه الاتتان والأفئدة ، وصار أنتن وأفئدر من الدواب المهمة التي لا تتمتع نفسها قط . فإذا نظر أنه خلق من أفئدة وأسكن في أفئدة ، ويسموت فيصير جيفة أفئدر من سائر الأفئدة لم يفخر بجماله الفنى هو كخضراء الدمن وكرن الأزهار في البوادي ، فبينما هو كذلك إذ صار هشيا تذروه الرياح ، كيف ولو كان جماله باقيا وعن هذه القبايح خاليا لكان يجب أن لا يتكبر به على القبيح ، إذ لم يكن فيح القبيح إليه فينفيه ولا كان جمال الجليل إليه حتى يمد عليه ؟ كيف ولا بقاء له بل هو في كل حين يتصور أن يزول بمرض أو جدرى أو فرقة أو سبب من الأسباب ؟ فكم من وجوه جميلة قد سمجت بهذه الأسباب ؟ فعرفة هذه الأمور تنزع من القلب داء الكبر بالجمال لمن أكثر تأملها .

السبب الثالث : التكبر بالقوة والأيدي ، ويعني من ذلك أن يعلم ما سلط عليه من العلل والأمراض ، وأنه لو توجع عرق واحد في يده لصار أعجز من كل عاجز وأذل من كل ذليل ، وأنه لو سلبه الذباب شيئا لم يستغفده منه وأن بقية لو دخلت في أنفه أو ثمة دخلت في أذنه اقتلته ، وأن شوكة لو دخلت في رجله لأعجزته ، وأن حتى يوم تحلل من قوته مالا ينجز في مدة . فمن لا يطبق شوكة ولا يقاوم بقية ولا يقدر على أن يدفع عن نفسه ذباة فلا ينفى أن يفخر بقوته ! ثم إن قرى الانسان فلا يكون أقوى من حمار أو بقرة أو فيل أو جل وأى افتخار في صفة يسبقك فيها البهائم ؟ .

السبب الرابع والخامس : الفنى وكثرة اللال ، وفي معناه كثرة الانواع والانفسار والتكبر بولاية السلاطين والتكبر من جهتهم ، وكل ذلك تكبر بمعنى خارج عن ذات الإنسان كاجمال والقوة والعلم . وهذا أنجح أنواع الكبر ، فإن للتكبر بماله كأنه متكبر بفرسه وداره ولو مات فرسه وانهدمت داره لعاد ذليلا ، وللتكبر بتمكين السلطان وولايته لا بصفة في نفسه بنى أمره على قلب هو أشد غلبا من القدر ، فإن تغير عليه كان أذل الخلق ، وكل متكبر بأمر خارج عن ذاته فهو ظاهر الجهل ، كيف وللتكبر بالفنى لو تأمل لراى في اليهود من يزيد عليه في الفنى والثروة والتجسس ؟ فأف لشرف يسبقك به اليهودى ! وأف لشرف يأخذه السارق في لحظة واحدة فيعود صاحبه ذليلا مفلسا ؟ فهذه أسباب ليست في ذاته ، وما هو في ذاته ليس إليه دوام وجوده وهو في الآخرة وبال ونكال ، فالتفاخر به غاية الجهل ، وكل ما ليس إليك فليس لك ، وشيء من هذه الأمور ليس إليك بل إلى واهبه إن أشفاه لك وإن استرجعه زال عنك ، وما أنت إلا عبد ملوك لا تقدر على شيء . ومن عرف ذلك لا بد وأن يزول كبره .

ومثاله : أن يفخر النافل بقوته وجماله وماله وحزبه واستقلاله وسعة منزله وكثرة خيروله وغلبانه ، إذ شهد عليه شاهدان عدلان عند حاكم منصف بأنه رقيق فلان وأن أبويه كانا ملوكين له ، فلم ذلك وحكمه الحاكم ، بل جاء مالكة فأخذ ، وأخذ جميع مافي يده ، وهو مع ذلك يخشى أن يماقيه ويكنل به لتغريبطه في أمواله وتقصيره في طلب مالكة ليرف أن له مالكا ، ثم نظر العبد فرأى نفسه محبوسا في منزل قد أهدقت به الحيات والعقارب والهوام وهو في كل حال على وجل من كل واحدة منها ، وقد بقي لملك نفسه ولا ماله ولا يعرف طريقا للخلاص الأبدية ، أفترى من هذا حاله هل يفخر بقدرة وثروته وقوته وكاله أم يذل نفسه ويخضع ؟ وهذا حال كل عاقل بصير فإنه

يرى نفسه كذلك فلا يملك وقته وبدنه وأعضائه وماله ، وهو مع ذلك بين آفات وشهوات وأمراض وأسقام هي كالمقارب والحيات يخاف منها الهلاك . فن هذا حاله لا يتكبر بقوته وقدرته إذ يعلم أنه لا قدرة له ولا قوة . فهذا طريق علاج التكبر بالأسباب الخارجة وهو أمون من علاج التكبر بالمعلم والمعدل ، فإنهما كالان في النفس جذيران بأن يفرح بهما ، ولكن التكبر بهما أيضا نوع من الجهل حتى كما سنذكره .

السبب السادس : الكبر بالمعلم ، وهو أعظم الآفات وأغلب الأدواء وأبهدها عن قبول العلاج إلا بشدة وجهد جهيد ، وذلك لأن قدر المعلم عظيم عند الله عظيم عند الناس ، وهو أعظم من قدر المال والجمال وغيرهما ، بل لا قدر لها أصلا إلا إذا كان معهما علم وعمل . ولذلك قال كعب الأحبار : إن المعلم فطينا كطينان المال . وكذلك قال عمر رضي الله تعالى عنه : المعلم إذا زل زل بزلته عالم فيعجز العالم عن أن لا يستعظم نفسه بالإضافة إلى الجهل لكثرة ما نطق الشرع بفاضائل المعلم . ولن يقدر العالم على دفع الكبر إلا بمحنة أمرين : ( أحدهما ) أن يعلم أن حجة الله على أهل العلم أكد ، وأنه يحتمل من الجاهل ما لا يحتمل عشرة من العالم ، فإن من عصي الله تعالى عن معرفة وعلم لجنايته الخش ، إذ لم يقض حتى نعمة الله عليه في العلم ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « يؤتى بالعالم يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أكتابه فيدور بها كابدور الخمار بالرحا فيطيف به أهل النار فيقولون مالك ؟ فيقول كنت أصر بالبحر ولا أتقوا نهي عن الشر وأتبعه <sup>(١)</sup> ، وقد مثل الله سبحانه وتعالى من يعلم ولا يعمل بالخمار والكلب فقال عز وجل « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الخمار يحمل أسفارا » أراد به علماء اليهود . وقال في يعلم من باعواها » ( وائل عليهم نبأ الذي آتيناها آياتنا فانسف منها ) حتى بلغ « فله ككل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث » قال ابن عباس رضي الله عنهما : أوتي بلمس كتابا فأخذ إلى شهوات الأرض أي سكنجه إليها فله بالكلب ( إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ) أي سواء آتيت الحكمة أو لم تؤت له لا يدع شهوته ، ويمكن العالم هذا الخطر فأى عالم لم يتبع شهوته وأى عالم لم بأسر بالبحر الذي لا يأنبه ؟ فهما خطر العالم عظم قدره بالإضافة إلى الجاهل فليتنفكر في الخطر العظيم الذي هو بصده ، فإن خطره أعظم من خطر غيره كما أن قدره أعظم من قدر غيره ، فهذا بذاك . وهو كالمالك المخاطر بروحه في ملكه لكثرة أعدائه فإنه إذا أخذ وقهر اشترب أن يكون قد كان فقيرا ، فكمن من عالم يشتري في الآخرة سلامة الجهال ؟ والبيضاء باقة منه . فهذا الخطر يمنع من التكبر ، فإنه إن كان من أهل النار فالخزير أفضل منه ، فكيف يتكبر من هذا حاله ؟ فلا ينبغي أن يكون العالم عند نفسه أكبر من الصحابة رضوان الله عليهم وقد كان بعضهم يقول : يا ليتني لم تلدن أي ! وبأخذ الآخر تبنه من الأرض ويقول : يا ليتني كنت هذه التبنه ! ويقول الآخر : ليتني كنت طيرا أوكل ! ويقول الآخر : ليتني لم أكن شيئا مذكورا أكل ذلك خوفا من خطر العاقبة ، فكأنوا يرون أنفسهم أسوأ حالا من الطير ومن التراب . ومهما اطاع فكره في الخطر الذي هو بصده زال الكليّة كبره ، ورأى نفسه كأنه شر الخلق .

ومثاله مثال عبد أمره سيده بأمر فشرع فيها ، فترك بعضها وأدخل التقصصان في بعضها وشكك في بعضها أنه هل أداها على مايرفضه سيده أم لا ؟ فأخبره خبر أن سيده أرسل إليه رسولا يفرجه من كل ما هو عليه عريانا ذليلا ويلقيه على باب في الحق والشمس زمانا طويلا ، حتى إذا ضاق عليه الأمر وبلغ به المجهود رأس يرفع حسابه

(١) حديث « يؤتى بالمعلم يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أكتابه ... الحديث » متفق عليه من حديث أسامة بن زيد بنظ « يؤتى بالرجل » وهم في السلم .

وفتش عن جميع أعماله قليلا وكثيرا ثم أمر به إلى بين ضيق وعذاب دائم لا يروح عنه ساعة ، وقد علم أن سيده قد فعل بطاياه من عباده مثل ذلك وعفا عن بعضهم وهو لا يدري من أي الفريقين يكون ؟ فإذا تفكر في ذلك انكسرت نفسه وذلل وبطل عزه وكبره وظهر حزنه وخوفه ولم يتكبر على أحد من الخلق ، بل تواضع رجاء أن يكون هو من شفاعة عند زوال العذاب ، فكذلك العالم إذا تفكر فيما ضيعه من أوامره به بمجانيات على جوارحه وبذنوب في باطنه من الرياء والحقد والحسد والحجب والتفاق وغيره ، وعلم بما هو بصدده من الخطر العظيم فآرقه كبره لا محالة .

( الأمر الثاني ) أن العالم يعرف أن الكبر لا يليق إلا بالله عز وجل وحده ، وأنه إذا تكبر صار معقوتا عند الله يعني ، وقد أحب الله أنه أن يتواضع وقال له إن لك عندي قدرا ما لم تر لنفسك قدرا فإن رأيت لنفسك قدرا فلا قدر لك عندي ، فلا بد وأن يكلف نفسه ما يجبه مولاه منه . وهذا يزيل التكبر عن قلبه . وإن كان يستيقن أنه لا ذنب له مثلا أو تصور ذلك . وهذا زال التكبر عن الأنبياء عليهم السلام إذ علوا أن من نازع الله تعالى في رداء الكبرياء قصمه ، وقد أمرهم الله بأن يصغروا أنفسهم حتى يعظم عند الله عظمهم ، فهذا أيضا مما يبعث على التواضع لاحالة .

فإن قلت : فكيف يتواضع للفاسق المتظاهر بالفسق واللبتدع ، وكيف يرى نفسه دونهم وهو عالم عابد ، وكيف يجهل فضل العلم والعبادة عند الله تعالى ، وكيف يفتنه أن يخطر بباله خطر العلم وهو يعلم أن خطر العاصق واللبتدع أكثر ؟ فاعلم أن ذلك إنما يمكن بالتفكر في خطر الخاتمة ، بل لو نظر إلى كافر لم يمكنه أن يتكبر عليه ، إذ يتصور أن يعلم الكافر فيختم له بالإيمان ويضل هذا العالم فيختم له بالكفر ، والكبير من هو كبير عند الله في الآخرة ، والكلب والخنزير أعلى رتبة من هو عند الله من أهل النار وهو لا يدري ذلك ، فكمن من مسلم نظر إلى عمر رضي الله عنه قبل إسلامه فاستخفه وازدراه لكفره وقد رزقه الله الإسلام وطاق جميع المسلمين ؟ إلا أبا بكر وحده فالعواقب مطوية عن العباد ولا ينظر العاقل إلا إلى العاقبة ، وجميع الفضائل في الدنيا تراد للعاقبة . فإذا من حق العبد أن لا يتكبر على أحد . بل إن نظر إلى جاهل قال : هذا عصي الله يجهل وأنا عصيته يعلم فهو أعذر مني . وإن نظر إلى عالم قال : هذا قد علم ما لم أعلم فكيف أكون مثله ؟ وإن نظر إلى كبير هو أكبر منه سنأقالي : هذا قد أطاع الله قبي فكيف أكون مثله ؟ وإن نظر إلى صغير قال : إني عصيت الله قبله فكيف أكون مثله ؟ وإن نظر إلى مبتدع أو كافر قال : ما يدري الله ينجي به بالإسلام ويختم لي بما هو عليه الآن ، فليس دوام الهداية لي ، كما لم يكن ابتداءها لي ؟ قبل لحظة الخاتمة يقدر على أن ينفي الكبر عن نفسه ، وكل ذلك بأن يعلم أن الكمال في سعادة الآخرة والقرب من الله ، لا فيما يظهر في الدنيا مما لا يثاب له ، ولعمري هذا الخطر مشترك بين المتكبر والمتكبر عليه ، ولكن حتى على كل واحد أن يكون مصروف الهمة إلى نفسه مشغول القلب بخوفه لعاقبته ، لأن يشتغل بخوف غيره ، فإن الشقيق يسوء الظن موع ، وشفته كل لسان على نفسه . فإذا حبس جماعة في جنازة ووعدها بأن تضرب رقابهم لم يتفرغوا لتكبر بعضهم على بعض وإن عهم الخطر ، إذ شغل كل واحد نفسه عن الالتفات إلى غيره ، حتى كان كل واحد هو وحده في مصيبته وخطره .

فإن قلت : فكيف أبيض المتدع في الله وأبيض الفاسق وقد أمرت ببيضتهما ، ثم مع ذلك اتواضع لها والجمع بينهما متناقض ؟ فاعلم أن هذا أمر مشبه بلبس على أكثر الخلق ، إذ يمتزج غضبك لله في إنكار البدعة والفسق

بكبر النفس والإدلال بالملم والورع ، فكبر من عابد جاهل وعالم مغرور إذا رأى ألقافاً جلس بجانبه أزعمه من عنده ونزله عند بكبر باطن في نفسه وهو ظان أنه قد غضب لله ؛ كما وقع لعابدين إسرائيل مع خليفهم ؟ وذلك لأن الكبر على الطمع ظاهر كونه ثراً والحذر منه ممكن ، والكبر على الفاسق والمبتدع يشبه الغضب لله وهو خير فإن الغضب ان أيضاً يتكبر على من غضب عليه والمتكبر يغضب ، وأحدهما يشر الآخر ويوجه ، وهما متزجان ملتصقان لا يميز بينهما إلا الموفقون .

والذي يخلصك من هذا أن يكون الحاضر على قلبك عند مشاهدة المبتدع أو الفاسق أو عند أمرهما بالمعروف ونهيها عن المنكر ثلاثة أمور : ( أحدها ) التفاتك إلى ماسبق من ذوبك وخطاياك ليصغر عند ذلك قدرك في عينك . ( والثاني ) أن تكون ملاحظتك لما أنت متميز به من الملم واعتقاد الحق والمعمل الصالح من حيث إنها نعمة من الله تعالى عليك ، فله اللذة فيه لا لك ، فترى ذلك منه حتى لا تعجب بنفسك ، وإذا لم تعجب لم تتكبر . ( والثالث ) ملاحظة إلهام عافيتك ، وعافيتك أنه ربما يغتم لك بالسوء ويغتم له بالحسن ، حتى يشفلك الخوف من التكبر عليه .

فإن قلت : فكيف أغضب مع هذه الأحوال ؟ فأقول : تغضب لمولوك وسيدك ، إذ أمرك أن تغضب له لانفسك ، وأنت في غضبك لا ترى نفسك ناجياً وصاحبك هالكا ، بل يكون خوفك على نفسك بما علم الله من خفايا ذنوبك أكثر من خوفك عليه مع الجهول بالحاقمة ، وأعرفك ذلك بمثال تعلم أنه ليس من ضرورة الغضب لله أن تتكبر على المغضوب عليه وترى قدرك فوق قدره فأقول : إذا كان الملك غلام وولده هو قوة عينه ، وقد وكل الغلام بالولد ليراقبه ، وأمره أن يضربه مهما أساء أذبه واشتغل بما لا يليق به ، وينغضب عليه . فإن كان الغلام عبداً مطيعاً لمولاه فلا يجد بداً أن يغضب مهما رأى ولده قد أساء الأدب ، وإنما يغضب عليه لمولاه ولأنه أمره به ، ولأنه يريد التقرب بامتثال أمره إليه ، ولأنه جرى من ولده ما يكره مولاه ، فيضرب ولده ويغضب عليه من غير تكبر عليه ، بل هو متواضع له يرى قدره عند مولاه فوق قدر نفسه ، لأن الولد أعز لأمه من الغلام . فإذا لم يكن من ضرورة الغضب التكبر وعدم التواضع ؛ فكذلك يمكنك أن تنظر إلى المبتدع والفاسق وتظن أنه ربما كان قدرهما في الآخرة عند الله أعظم ، لما سبق لهما من الحسن في الأزل ، ولما سبق لك من سوء القضاء في الأزل وأنت غافل عنه . ومع ذلك فتغضب بحكم الأمر بحجة لمولوك إذ جرى ما يكرهه مع التواضع لمن يجرز أن يكون عنده أقرب منك في الآخرة . فهكذا يكون بعض العلماء الأكياس فيغضب إليه الخوف والتواضع . وأما الغرور فإنه يتكبر ويرجو لنفسه أكثر مما يرجوه لغيره مع جهله بالمعاقبة ، وذلك غاية الغرور . فهنا سبيل التواضع لمن عصى الله أو اعتقد البدعة مع الغضب عليه ومجانبة بحكم الأمر .

السبب السابع : التكبر بالورع والعبادة ، وذلك أيضاً فتنة عظيمة على العباد ، وسيله أن يلزم قلبه التواضع لسائر العباد وهو أن يعلم أن من يتقدم عليه بالملم لا ينبغي أن يتكبر عليه كيها كان له عرفة من فضله العلم ، وقد قال تعالى ﴿ هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم فضل العالم على العابد كفضل على أدنى رجل من أصحابي <sup>(١)</sup> ، إلى غير ذلك مما ورد في فضل العلم .

(١) حديث « فضل العالم على العابد كفضل على أدنى رجل من أصحابي » أخرجه الترمذي من حديث أبي أمامة وعدهم في العلم .

فإن قال العابد : ذلك لعالم عامل ببله وهذا عالم تاجر ، فيقال له : أما عرفت أن الحسنة بذهن السيئات ، وكما أن العلم يمكن أن يكون حجة على العالم فكذلك يمكن أن يكون وسيلة له وكفارة لذنوبه ، وكل واحد منهما يمكن وقد وردت الأخبار بما يشهد لذلك ، وإذا كان هذا الأمر غائبا عنه لم يحز له أن يتمتع عالما بل يجب عليه التواضع له .

فإن قلت : فإن صح هذا فينبغي أن يكون للعالم أن يرى نفسه فوق العابد لقوله عليه السلام : فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي ، ؟ فاعلم أن ذلك كان محتملا لو علم العالم عاقبة أمره ، وعامة الأمر مشكوك فيها ، فيحتمل أن يموت بحيث يكون حاله عند الله أشد من حال الجاهل الفاسق لذنب واحد كان يحسبه هينا وهو عند الله عظيم وقد مقت به ، وإذا كان هذا محتملا كان على نفسه عاقفا ، فإذا كان كل واحد من العابد والعالم غائفا على نفسه وقد كلف أمر نفسه لا أمر غيره ، فينبغي أن يكون الغالب عليه في حق نفسه الخوف وفي حق غيره الرجاء ، وذلك يمنعه من التكبر بكل حال . فهذا العابد مع العالم ، فأما مع غير العالم فهم منقسمون في حقه إلى مستورين وإلى مكشوفين ، فينبغي أن لا يتكبر على المستور فلعلمه أقل عنه ذنوبا وأكثر منه عبادة وأشد منه حياء له . وأما المكشوف حاله إن لم يظهر لك من الذنوب إلا ما تزيد عليه ذنوبك في طول عرك . فلا ينبغي أن تتكبر عليه ، ولا يمكن أن تقول هو أكثر مني ذنبا ، لأن عدد ذنوبك في طول عرك وذنوب غيرك في طول العمر لا تقدر على إحصائها حتى تعلم الكثرة نعم يمكن أن تعلم أن ذنوبه أشد كما لو رأيت منه القتل والشرب والرياء ومع ذلك فلا ينبغي أن تتكبر عليه إذ ذنوب القلوب من الكبر والحسد والرياء والقتل واعتقاد الباطل والوسوسة في صفات الله تعالى وتخييل الخطأ في ذلك كل ذلك شديد عند الله ، فربما جرى عليك في باطنك من خفايا الذنوب ما صرته به عند الله عمقا ، وقد جرى للفاسق الظاهر الفسق من طاعات القلوب من حب الله وإخلاص وخوف وتظيم ما أنت حال عنه ، وقد كفر الله بذلك عنه سيئاته ، فيكشف الغطاء يوم القيامة فتراه فوق نفسك درجات ، فهذا يمكن والإمكان البعيد فيما عليك ينبغي أن يكون قريبا عندك إن كنت مشغافا على نفسك ، فلا تتفكر فيما هو ممكن لغيرك بل فيما هو مخوف في حرك ، فإنه لا تزر وأزددوزر أخرى ، وعذاب غيرك لا يخفف شيئا من عذابك ، فإذا تفكرت في هذا الخطر كان عندك شغل شاغل عن التكبر وعن أن ترى نفسك فوق غيرك .

وقد قال وهب بن منبه : ما من عقل عبد حتى يكون فيه عشر خصال ، فمدتسة حتى بلغ العاشر فقال : العاشرة : وما العاشرة ! ما شاد مجده وبها علا ذكره : أن يرى الناس كلهم خيرا منه . وإنما الناس عنده فرقتان : فرقة هي أفضل منه وأرفع ، وفرقة هي شر منه وأدنى . فهو يتواضع للفرقتين جميعا بقلبه ، وإن رأى من هو خير منه سره ذلك وغنى أن يلحق به ، وإن رأى من هو شر منه قال : لعل هذا ينجو وأهلك أنا فلا تراه إلا غائفا من المأقبة ويقوم لعل يز هذا باطن فذلك خيره ، ولا أدري لعل فيه خلقا كريما يتنصرون لغيره وحقير حماقة ويتوب عليه ويحتم له بأحسن الأعمال ، ويرى ظاهر فذلك شرى . فلا يأمن فيما أظهره من الطاعة أن يكون دخاها الآفات فأجبتها ، ثم قال : حينئذ كل عقل وساد أهل زمانه . فهذا كلامه . وبالجمله فمن جوز أن يكون عند الله شقيا وقد سبق القضاء في الأزل بشقوته فساه سبيل إلى أن يتكبر بحال من الأحوال .

نعم إذا غلب عليه الخوف رأى كل أحد خيرا من نفسه وذلك هو الفضيلة ، كما روى أن عابدا آوى إلى جبل فقيل له في النوم : ائت فلانا الإسكاف فسله أن يدعوك . فأتاه فساء له عن عمله فأخبره أنه يصوم النهار ، ويكتسب

فيصدق بعضه ويطلع عياله بعضه ، فرجع وهو يقول : إن هذا الحسن ، ولكن ليس هذا كالترغ لطاعة الله فأتى في الثوم ثانياً فقيل له : امت فلانا الإسكاف فقل له : ما هذا الصفار الذي بوجهك ؟ فأتاه فسأله فقال له : ما رأيت أحداً من الناس إلا وقع لي : أنه سينجو وأهلك أنا ، فقال العابد : بهذه .

والذي يدل على فضيلة هذه الحصة قوله تعالى (يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ) أي أنهم يؤتون الطاعات وهم على وجل عظيم من قبولها وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ مُّشْفِقُونَ) وقال تعالى (إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أُمَلَّتَا مَشْفِقِينَ) وقد وصف الله تعالى للملائكة عليهم السلام مع تقدسهم عن الذنوب ومواظبتهم على العبادات على الدوام بالإشفاق والحدس عما سبق به القضاء في الأزل — وينكشف عند عامة الأجل — غلب الأمان من مكر الله وذلك يوجب الكبر وهو سبب الهلاك . فالكبر دليل الأمان والأمان مهلك . والتواضع دليل الخوف وهو مسعد ؛ فإذا ما يفسده العابد بإضمار الكبر واحتقار الخلق والنظر إليهم بعين الاستصغار أكثر مما يصلحه بظاهر الأعمال . فهذه معارف بها يزال داء الكبر عن القلب لا غير ، إلا أن النفس بعد هذه المعرفة قد تضمر التواضع وتدعى البراءة من الكبر وهي كاذبة ، فإذا وقعت الواقعة طأت إلى طبعها وليست وعدها ، فعل هذا لا ينبغي أن يكتفى في المداواة بمجرد المعرفة بل ينبغي أن تكمل بالعمل وتجرب بأفعال المتواضعين في مواقع هيجان الكبر في النفس .

وبإياه أن يتمحن النفس بمخمس امتحانات هي أدلة على استخراج ما في الباطن وإن كانت الامتحانات كثيرة .

الامتحان الأول : أن يناظر في مسألة مع واحد من أقرانه ، فإن ظهر شيء من الحق على لسان صاحبه فنقل عليه قبله والافتقار له والاعتراف به والشكر له على تفضله وتعرفه وإخراجه الحق ، فذلك يدل على أن فيه كبراً دفيناً فليتنقذ نفسه ويستغل بعلاجه . أما من حيث العلم فبأن يذكر نفسه خسة نفسه وخطر عاقبه وأن الكبر لا يليق إلا بالله تعالى . وأما العمل فبأن يكلف نفسه ما تنقل عليه من الاعتراف بالحق وأن يطلق اللسان بالحد والثناء ، ويقر على نفسه بالمعجز ويشكره على الاستفادة ويقول : ما أحسن ما فعلت له وقد كنت غافلاً عنه بحراكم الله خيراً كما نهى له ! فالحكمة ضالة المؤمن فإذا وجدها ينبغي أن يشكر من دله عليها . فإذا واطب على ذلك مرات متوالية صار ذلك له طبيعياً ، وسقط نقل الحق عن قلبه وطالب له قبله . ومهما نقل عليه الثناء على أقرانه بما فهم فيه كبر ، فإن كان ذلك لا ينقل عليه في الخلوة ويقل عليه في الملاءمات فيه كبر وإتخافه رياء ، فليعالج الرياء بما ذكرناه من قطع الطمع عن الناس ، ويذكر القلب بأن منفعته في كماله في ذاته وعند الله لا عند الخلق ، إلى غير ذلك من أدوية الرياء . وإن نقل عليه في الخلوة والملاءمات جميعاً ففيه الكبر والرياء جميعاً ، ولا ينفعه التخلص من أحدهما ما يتخلص من الثاني . فليعالج كلا الداءين فإنهما جميعاً مهلكان .

الامتحان الثاني : أن يجتمع مع الأقران والامثال في المحافل ويقدمهم على نفسه ويمشي خلفهم ويجلس في الصدور تحتهم ، فإن نقل عليه ذلك فهو متكبر ، فليواظب عليه تكافؤاً حتى يسقط عنه ثقله فينقل رياءه الكبر وهما للشیطان مكيدة وهو أن يجلس في صف الشمال أو يجلس بينه وبين الأقران بعض الأرفال فيظن أن ذلك تواضع وهو عين الكبر ، فإن ذلك يخفف على صدور المتكبرين إذ يرومون أنهم تركوا مكانهم بالاستحقاق والتفضل ، فيكون قد تكبر وتكبر في إظهار التواضع أيضاً ، بل ينبغي أن يقدم أقرانه ويجلس بينهم بينهم ولا ينحط عنهم إلى صف

النعال ، فذلك هو الذي يخرج خبث الكبر من الباطن .  
 الامتحان الثالث : أن يجيب دعوة الفقير ويبر إلى السوق في حاجة الرفقاء والأقارب ، فإن ثقل ذلك عليه فهو كبير ، فإن هذه الأفعال من مكارم الأخلاق والثواب عليها جزيل ، فغفور النفس عنها ليس إلا لخبث في الباطن ، فليشتغل بإزالته بالمواظبة عليه مع تذكر جميع مآذ كراهه من المعارف التي تريل داء الكبر .  
 الامتحان الرابع : أن يعمل حاجة نفسه وحاجة أهله ورفقائه من السوق إلى البيت ، فإن أبى نفسه ذلك فهو كبير أو رياء ، فإن كان يثقل ذلك عليه مع خلق الطريق فهو كبير ، وإن كان لا يثقل عليه إلا مع مشاهدة الناس فهو رياء ، وكل ذلك من أمراض القلب وعلة المهلكة له إن لم تتدارك ، وقد أهمل الناس طلب القلوب واشتغلوا بطلب الأجساد من أن الأجساد قد كتب عليها الموت لا محالة ، والقلوب لا تدرك السعادة إلا بإسلامتها إذ قال تعالى ﴿ إلا من أتى قلب سليم ﴾ ويرى عن عبد الله بن سلام أنه حل حزمة حطب فقيل له يا أبا يوسف قد كان في غلاتك وبتلك ما كنتيك ! قال : أجل ولكن أردت أن أجرب نفسى هل تنكر ذلك ؟ فلم يفتح منها بما أعطته من العزم على ترك الأنفة حتى جربها أهى صادقة أم كاذبة ؟ وفى الخبر « من حمل الفاكهة أو الشيء فقد برئ من الكبر » (١) .

الامتحان الخامس : أن يلبس ثياباً بدلة ، فإن غفور النفس عن ذلك في الملازيء وفى الخلوة كبير . وكان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه له مسح بلبسه بالليل ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « من اعتقل البعير ولبس الصوف فقد برئ من الكبر » (٢) ، وقال عليه الصلاة والسلام : إنما أنا عبد آكل بالأرض وألبس الصوف وأعتل البعير وألقى أصابعى وأجيب دعوة المملوك ، فن رغب عن سنن فليس منى (٣) . وروى أن أبا موسى الأشعري قيل له إن أقواماً يتخلفون عن الجمعة بسبب ثيابهم ، فلبس عبادة فضلى فيها بالناس . وهذه مواضع يجتمع فيها الرياء والكبر لما يجتمع بالأمم فهو الرياء ، وما يكون فى الخلوة فهو الكبر ؛ فاعرف فإن من لا يعرف الشر لا يتقيه ، ومن لا يدرك المرض لا يداويه ،

### بيان غاية الرياضة في خلق التواضع

اعلم أن هذا الخلق كسائر الأخلاق له طرفان وواسطة : فطرفه الذى يميل إلى الزيادة يسمى تكبرا ، وطرفه الذى يميل إلى نقصان يسمى تخاسا وعدلة ، والوسط يسمى تواضعا . والمحمود أن يتواضع في غير ملة ومن غير تخاس ، فإن كلا طرفي الأمور ذميم وأحب الأمور إلى الله تعالى أوساطها . فن يتقدم على أمثاله فهو متكبر ومن يتأخر عنهم فهو متواضع : أى وضع شيئا من قدره الذى يستحقه . والعالم إذا دخل عليه إسكاف فتحتى له عن مجلسه وأجلسه فيه ثم تقدم وسؤى له لعله وعدا إلى باب الدار خلفه فقد تخاس وتذل ، وهذا أيضا غير محمود بل المحمود عند الله العدل ؛ وهو أن يعطى كل ذى حق حقه ، فينبغى أن يتواضع بمثل هذا لأقرانه ومن يقرب من درجته ، فأما تواضعه للسوق فبالتواضع والبشرى فى الكلام والرفق فى السؤال وإجابة دعوته والسعى فى حاجته وأمثال ذلك وأن لا يرى نفسه خيرا منه بل يكون على نفسه أخوف منه على غيره فلا يحتقره ولا يستصغره وهو لا يعرف غرامة

(١) حديث « من حل العى ، والمكة كفة فقد برئ من الكبر » أخرجه البيهقي فى الشعب من حديث أبى أمامة ووضعه بإفظ  
 « من حل بضاعة » . (٢) حديث « من اعتقل البعير ولبس الصوف فقد برئ من الكبر » أخرجه البيهقي فى الشعب من  
 حديث أبى هريرة بزيادة فيه وفى إسناده القاسم البصرى ضعيف جدا . (٣) حديث « إنما أنا عبد آكل بالأرض وألبس  
 الصوف ... الحديث » تقدم بسنه ولم أجد بغيره .



أمره . فإذا سبيله في اكتساب التواضع أن يتواضع للأقران ولأن دوتهم حتى يخف عليه التواضع المحمود في محاسن العادات ليحول به الكبر عنه ، فإن خف عليه ذلك فقد حصل له خلق التواضع ، وإن كان يشغل عليه وهو يفعل ذلك فهو متكاف لا متواضع ، بل الخلق ما يصدر عنه الفعل بسهولة من غير ثقل ومن غير روية ، فإن خف ذلك وصار يحس بثقل عليه رعاية قدره حتى أحب التخلق والتخاسر فقد خرج إلى طرف النقصان فلا يرفع نفسه إذ ليس المؤمن أن تذلل نفسه إلى أن يعود إلى الوسط الذي هو الصراط المستقيم ، وذلك غافض في هذا الخلق وفي سائر الأخلاق . والميل عن الوسط إلى طرف النقصان وهو التخلق أهون من الميل إلى طرف الزيادة بالتكبر ، كما أن الميل إلى طرف التبذير في المال أحد عند الناس من الميل إلى طرف البخل ، فنهاية التبذير ونهاية البخل مذمومان وأحدهما الخش ، وكذلك نهاية التكبر ونهاية التقصص والتذلل مذمومان وأحدهما أفتح من الآخر . والمحمود المطلق هو العدل ووضع الأمور مواضعها كما يجب وعلى ما يجب كما يعرف ذلك بالشرع والمادة ولتقتصر على هذا القدر من بيان أخلاق الكبر والتواضع .

الشرط الثاني : من الكتاب في العجب ، وفيه بيان ذم العجب وآفاته ، وبيان حقيقة العجب والإدلال وحذرها ، وبيان علاج العجب على الجملة ، وبيان أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه .

### بيان ذم العجب وآفاته

اعلم أن العجب مذموم في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . قال الله تعالى ﴿ ويوم نحسب أن أعيذكهم كنزكم فلم نقن عسك شيئا ﴾ ذكر ذلك في معرض الإنكار وقال عز وجل ﴿ وظنوا أنهم ما فتتهم حصونهم من الله فأنهم الله من حيث لم يحتسبوا ﴾ (فرد على الكفار في إعجابهم بمصونهم وشوكتهم وقال تعالى ﴿ وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ وهذا أيضا يرجع إلى العجب بالعلم . وقد يعجب الإنسان بالعلم هو غطى فيه كما يجب بعلم هو مصيب فيه . وقال صلى الله عليه وسلم ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه<sup>(١)</sup> . وقال لابي ثعلبة - حيث ذكر آخر هذه الآله فقال - إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبع وإعجاب كل ذي رأى برأيه فليكن نفسك<sup>(٢)</sup> . وقال ابن مسعود : الهلاك في اثنتين القنوط والعجب . وإنما جمع بينهما لأن السعادة لا تات إلا بالسمى والطلب والجد والتشمير ، والقنوط لا يسمى ولا يطلب ، والمعجب يعتقد أنه قد سعد وقد ظفر برأيه فلا يسعى . فالوجود لا يطلب ، والحال لا يطلب ، والسعادة موجودة في اعتقاد المعجب حاصلة ومستحيلة في اعتقاد القنوط ، فمن ههنا جمع بينهما . وقد قال تعالى : ﴿ فلا تزكوا أنفسكم ﴾ قال ابن جرير : معناه إذا علمت خيرا فلا تقل عملك . وقال زيد بن أسلم . لا تبروها ، أى لا تعتقدوا أنها بارة وهو معنى العجب . ووق طلحة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد بنفسه فأكب عليه حتى أصيبت كفه ، فكانه أعجبه فله العظم إذ فداه بروحه حتى جرح ، ففترس ذلك عمر فيه فقال : مازال يرف في طلحة فأو منذ أصيبت أصعب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(٣)</sup> والثاوي : هو العجب - في اللغة - إلا أنه لم ينقل فيه أنه أظهره واحتقر مسلولها كان وقت الشورى قاله ابن عباس أين أنت من طلحة ؟ قال : ذلك رجل فيه نخوة . فإذا كان لا يتخلص من العجب أمثالهم فكيف يتخلص الضعفاء

(١) حديث « ثلاث مهلكات ... الحديث » تقدم غير مرة (٢) حديث أبي ثعلبة « إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبع وإعجاب كل ذي رأى برأيه فليكن نفسك » أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه وقد تقدم .

(٣) حديث « وقى طلحة رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه وأكب عليه حتى أصيبت كفه » أخرجه البخاري من رواية ليس بن أبي لحزم قال : رأيت يد طلحة شلاء وق بها التي صلى الله عليه وسلم .

لم يأخذوا حذرهم ؟ وقال مطرف : لأن أبيت نائمًا وأصبح نادما أحب إلى من أبيت قائمًا وأصبح معجبًا . وقال صلى الله عليه وسلم : « لم تدبوا لحديث عليكم ما هو أكبر من ذلك العجب العجيب <sup>(١)</sup> ، لجمل العجب أكبر الذنوب . وكان بشر بن منصور من الذين إذا رموا ذكر الله تعالى والدار الآخرة لمواظبه على العبادة ، فأطال الصلاة يومًا ورجل خلفه ينظر فطن له بشر ، فلما انصرف عن الصلاة قال له : لا يبيحك ما رأيت مني ، فإن إبليس لئن أهد الله عبد الله تعالى مع الملائكة مدة طويلة ثم صار إلى ما صار إليه . وقيل لعائشة رضى الله عنها : متى يكون الرجل صبيًا : قالت ؟ إذا ظن أنه عمن ، وقد قال تعالى ( لا تبطلوا صدقاتكم باللغو والآذى ) ولئن نتيجة استعظام الصدقة ، واستعظام العمل هو العجب . فظهر بهذا أن العجب مذموم جدًا .

### بيان آفة العجب

اعلم أن آفات العجب كثيرة ، فإن العجب يدعو إلى التكبر لأنه أحد أسبابه - كما ذكرناه - فيتولد من العجب التكبر ، ومن التكبر الآفات الكثيرة التي لا تحصى ، هذا مع العباد . وأما مع الله تعالى فالعجب يدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها ، بعض ذنوبه لا يذكرها ولا يتفقد ما لظنه أنه مستثنى عن تفقد ما فيفساها ، وما يتذكره منها فيستمره ولا يستعظمه فلا يجتهد في تداركه وتلافيه بل يظن أنه يفر له . وأما العبادات والأعمال فإنه يستعظمها ويتبع بها ويمن على الله بفعلها ، وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتمكين منها ، ثم إذا عجب بها عصى عن آفاتها . ومن لم يتفقد آفات الأعمال كان أكثر سعيه ضائعًا ، فإن الأعمال الظاهرة إذا لم تكن خالصة نقية عن الشوائب قلما تنفع ، وإنما يتفقد من يغلب عليه الإشتاق والخوف دون العجب ، والعجب يعتز بنفسه وبرأيه ويأمن مكر الله وعذابه ، ويظن أنه عند الله بمكان وأن له عند الله منة وحقا بأعماله التي هي نعمة وعتية من عطاياه ، ويخرجه العجب إلى أن يثق على نفسه وعندهما ويركبها ، وإن أعجب برأيه وعمله وعقله منع ذلك من الاستفادة ومن الاستشارة والسؤال فيستبد بنفسه ورأيه ويستنكف من سؤال من هو أعلم منه ، وربما يعجب بالرائى الخطأ الذى خطر له فيفرح بكونه من خواطره ، ولا يفرح بخواطر غيره فيصر عليه ولا يسمع نصيح ولا وعظ واعظ ، بل ينظر إلى غيره بعين الاستجهال ويصر على خطئه ، فإن كان رأيه في أمر ديني فيحقق فيه ، وإن كان في أمر ديني لاسيا فيما يتعلق بأصول العقائد فبذلك به ولو أنهم نفسه ولم يثق برأيه واستضاء بنور القرآن واستمان بعلماء الدين ومواظب على مدارسة العلم وتابع سؤال أهل البصيرة لكان ذلك يوصله إلى الحق . فهذا وأمثاله من آفات العجب فذلك كان من المهلكات ، ومن أعظم آفاته أن يفتر في السعى لظنه أنه قد فاز وأنه قد استغنى وهو الهلاك الصريح الذى لا شبه فيه . فسال الله تعالى العظيم حسن التوفيق لطاعته .

### بيان حقيقة العجب والإدلال وحدهما

اعلم أن العجب إنما يكون بوصف هو كمال لا محالة ، وللعالم بكامل نفسه في علم وعمل ومال وغيره حالتان (إحدا) أن يكون خائفًا على زواله ومشفقًا على تذكره أو سليه من أحله فهذا ليس بمعجب (والأخرى) أن لا يكون خائفًا من زواله لكن يكون فرحًا به من حيث إنه نعمة من الله تعالى عليه لآمن حيث إضافته إلى نفسه

(١) حديث « لم تدبوا لحديث عليكم ما هو أكبر من ذلك العجب العجيب » أخرجه البزار وابن حبان في الضعفاء واليه في الشعب من حديث أسد وفيه سلام بن أبي الصفاء قال البخاري مشكور الحديث . وقال أحمد حسن الحديث ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي سعيد بن عبد العزيز .

وهذا أيضا ليس بمعجب (وله حالة ثالثة) هي العجب وهي أن يكون غير غافق عليه بل يكون فرسا به مطمئنا إليه ، ويكون فرحه به من حيث إنه كمال ونعمة وخير ورفعة لامن حيث إنه عطية من الله تعالى ونعمة منه ، فيكون فرحه من حيث إنه صفته ومنسوب إليه بأنه لا من حيث إنه منسوب إلى الله تعالى بأنه منه ، فهما غلب على قلبه أنه نعمة من الله مهما شاء سلها عنه زال العجب بذلك عن نفسه . فإذا العجب هو استعظام النعمة والركون إليها مع نسيان إضافتها إلى النعم ، فإن انضاف إلى ذلك أن غلب على نفسه أنه عند الله حقا وأنه منه بمكان حتى يتوقع بعمله كرامة في الدنيا ، واستبعد أن يجرى عليه مكروه استبعادا يريد على استبعاد ما يجرى على الفاسق سمى هذا إدلالا بالعمل ، فكأنه يرى لنفسه على الله دالة ، وكذلك قد يعطى غيره شيئا فيستعظمه ومن عليه فيكون معجبا ، فإن استخدمه أو اقترح عليه الاقتراحات أو استبدت تخلفه عن قضاء حقوقه كان مدلا عليه .

وقال قتادة في قوله تعالى ( ولا تمنن تستكثر ) أي لا تدل بمملك وفي الخبر : إن صلاة المدل لا ترفع فوق رأسه ، ولأن تضحك وأنت مغترف بذنبك خير من أن تبكي وأنت مدل بمملك (١) ، والإدلال وراء العجب ، فلا مدل إلا وهو معجب ورب معجب لا يدل ، إذ العجب يحصل بالاستعظام ونسيان النعمة دون توقع جزاء عليه ، والإدلال لا يتم إلا مع توقع جزاء . فإن توقع إجابة دعوته واستكثر ردها يباطله وتعجب منه كان مدلا بعمله ، لأنه لا يتعجب من رد دعاء الفاسق ويتعجب من رد دعاء نفسه لذلك . فهذا هو العجب والإدلال وهو من مقدمات التكبر وأسبابه ، والله تعالى أعلم .

### بيان علاج العجب على الجملة

اعلم أن علاج كل علة هو مقابلة سببها بضده ، وعلة العجب الجهل المحض ، فعلاجه المعرفة المضادة لذلك الجهل فقط ، فلتفرض العجب بفعل داخل تحت اختيار العبد كالعبادة والصدقة والفرز وسبابة الخلق وإصلاحهم ؛ فإن العجب بهذا أغلب من العجب بالجمال والقوة والفلسب ومالا يدخل تحت اختياره ولا يراه من نفسه .

فنعول : الروح والتقوى والعبادة والعمل الذي به يعجب إنما يعجب به من حيث إنه فيه فهو عمله وجره ، أو من حيث إنه منه وبسببه ويقدرته وقوته ؛ فإن كان يعجب به من حيث إنه فيه وهو عمله وجره يجرى فيه وعليه من جهة غيره فهذا جهل ، لأن المحل مسخر ويجرى لا مدخل له في الإيجاد والتحصيل ، فكيف يعجب به إلى الله؟ وإن كان يعجب به من حيث إنه هو منه وإليه وباختياره حصل ويقدرته تم ، فينبغي أن يتأمل في قدرته وإزادته وأعضائه وسائر الأسباب التي بها يتم عمله أنها من أين كانت له ؟ فإن كان جميع ذلك نعمة من الله عليه من غير حق سبق له ومن غير وسيلة يدل بها فينبغي أن يكون إعجابه بمجوداته وكرمه وفضله ، إذ أفاض عليه مالا يستحق وآثره به على غيره من غير سبابة ووسيلة فهما برز الملك لخلقاته ونظر إليهم وخلع من جعلهم على واحد منهم لالصفة فيه ولا لوسيلة ولا لجماله ولا لخدمته ، فينبغي أن يتعجب للنعم عليه من فضل الملك وحكمته وإثاره من غير استحقاق وإعجابه بنفسه من أين وما سببه ؟ ولا ينبغي أن يعجب بنفسه . نعم يجوز أن يعجب البديقول : الملك حكم عدل لا يظلم ولا يقدم ولا يؤخر إلا لسبب ، فلو أنه تفضل في صفة من الصفات المحمودة الباطنة لما أعتضى الإثارة بالخلعة ولما آثرني بها ، فيقال : وتلك الصفة أيضا هي من خلعة الملك وعطيته التي خصصك بها من غيرك ، من غير وسيلة ، أو هي عطية غيره ؟ فإن كانت من عطية الملك أيضا لم يكن لك أن تعجب بها ، بل كان كما لو أعطاك فرسا

(١) حديث : إن صلاة المدل لا ترفع فوق رأسه... الحديث « لم أجده أصلا .

فلم تعجب به ، فأعطاك علما فصرت تعجب به وتقول : إنما أعطاني علما لأنى صاحب فرس فأما غيرى فلا فرس له ، يقال : وهو الذى أعطاك الفرس فلا فرق بين أن يعطيك الفرس والتلامع معا أو يعطيك أحدهما بعد الآخر ! فإذا كان الكل منه فينبغى أن يعجبك وجوده وفضله لأنفسك . وأما إن كانت تلك الصفة من غير فلا يبعد أن تعجب بتلك الصفة ، وهذا يتصور فى حق الملوك ولا يتصور فى حق الجبار القاهر ملك الملوك المنفرد باختراع الجميع المنفرد بإيجاد الموصوف والصفة ، فإنك إن أعجبت بمادتك قلت : وفقى العباد لخلقى له ، يقال : ومن خلق الحب فى قلبك ؟ فتقول : هو ، يقال : فالحب والعبادة كلاهما نعمتان من عنده ابتدأك بهما من غير استحقاق من جهتك إذ لا وسيلة لك ولا علاقة ، فيكون الإعجاب بمجوده إذ أنعم بوجودك ووجود صفاتك وبوجود أعمالك وأسباب أعمالك ! فإذا لامعنى لعجب العابد بعبادته وعجب العالم بعبه وعجب الجليل بجلاله وعجب الغنى بفتاه ! لأن كل ذلك من فضل الله وإنما هو محل لفيضان فضل الله تعالى وجوده ، والمحل أيضا من فضله وجوده .

فإن قلت : لا يمكن أن أجهل أعمال وإنى أنا عملها فإنى أنتظر عليها ثوابا ، ولولا أنها على ما انتظرت ثوابا ، فإن كانت الأعمال مخلوقة لله على سبيل الاختراع فمن أين لي الثواب ؟ وإن كانت الأعمال منى وبقدرة فكيف لا أعجب بها ؟ فأعلم أن جوابك من وجهين ( أحدهما ) هو صريح الحق ( والآخر ) فيه مساعمة .

أما صريح الحق : فهو أنك وقدرتك وإرادتك وحركتك وجميع ذلك من خلق الله واختراعه ، فما عملت إذ عملت وما صليت إذ صليت ( وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ) فهذا هو الحق الذى انكشف لأرباب القلوب بمساعدة أوضح من إصرار العين ، بل خلقك وخلق أعضائك وخلق فيها القوة والقدرة والصحة ، وخلق لك العقل والعلم وخلق لك الإرادة ، ولو أردت أن تتنى شيئا من هذا من نفسك لم تقدر عليه ، ثم خلق الحركات فى أعضائك مستبدا باختراعا من غير مشاركة من جهتك معه فى الاختراع ، إلا أنه خلقه على ترتيب فلم يخلق الحركة مالم يخلق فى العضو قوة وفى القلب إرادة ، ولم يخلق إرادة مالم يخلق علما بالمراد ، ولم يخلق علما مالم يخلق القلب الذى هو محل العلم ، فتدرجه فى الخلق شيئا بعد شيء هو الذى خيل لك أنك أوجدت عملك وقد غلظت . ولربما ضاع ذلك وكيفية الثواب على عمل هو من خلق الله سيأتى تقريره فى كتاب الشكر فانه أليق به فأرجع إليه .

ونحن الآن نزيل إشكالك بالجواب الثانى الذى فيه مساعمة ما ، وهو أن تحسب أن العمل حصل بقدرتك فمن أين قدرتك ؟ ولا يتصور العمل إلا بوجودك ووجود عملك وإرادتك وسائر أسباب عملك وكل ذلك من الله تعالى لانك ! فإن كان العمل بالقدرة والقدرة مفتاحه وهذا المفتاح بيد الله ، ومهما لم يملك المفتاح فلا يمكنك العمل ، فالمبادات خزائن بها يتوصل إلى السدادات ومفاتيحها القدرة والإرادة والعلم وهى بيد الله لا محالة . أرأيت لو رأيت خزائن الدنيا بمجموعة فى قلعة حصينة ومفتاحها بيد خازن ، ولو جلست على بابها وحول حيطانها ألف سنة لم يمكنك أن تنظر إلى دينار مما فيها ، ولو أعطاك المفتاح لآخذته من قريب بأن تبسط يدك إليه فتأخذه فقط ، فإذا أعطاك الخازن المفاتيح وسلطك عليها ومكنك منها فددت يدك وأخذتها كان إعجابك بإعطاء الخازن المفاتيح أو بما إليك من ماله وأخذها ؟ فلا تشك فى أنك ترى ذلك نعمة من الخازن لأن الثمرة فى تحريك اليد بأخذ المال قريبة ، وإنما الشأن كله فى تسليم المفاتيح . فكذلك مهما خلقت القدرة وسلطت الإرادة الجازمة وحركت الدواعى والبواعث وصرفت عنك الموانع والصوارف ، حتى لم يبق صارف إلا دفع ولا باعث إلا وكل بالعلم حين عليك ، وتحريك البواعث وصرف الموانع وتوجيه الأسباب كلها من الله ليس شيء منها إليك ، فمن العجايب أن تعجب بنفسك

ولا تعجب من إليه الأمر كله ، ولا تعجب بجموده وفضله وكرمه في إثارة إياك على الفساد من عباده إذ سلب دواعي الفساد على الفساد وصرفها عنك ، وسلب أخذان سوء ودعاة الشر عليهم وصرفهم عنك ، وعملك من أسباب الشهوات واللذات وزواها عنك ، وصرف عنهم بواعث الخير ودواعيه وسلطها عليك ، حتى تيسرك الخير وتيسر لهم الشر ! فعل ذلك كله بك من غير وسيلة سابقة منك ولا جريمة سابقة من الفساد العاصي ، بل أثرك وقدمك واصطفائك بفضل الله وأبعد العاصي وأشقاء بعده فما أعجب إعجابك بنفسك إذا عرفت ذلك ! فلئن لاتصرف قدرتك إلى المقدور إلا بتسليط الله عليك داعية لا تجد سبيلا إلى مخالفتها ، فكأنه الذي اضطوك إلى الفعل إن كنت فاعلا تحقيقا لله الشكر والمنة لا لك -- وسيأتي في كتاب التوحيد والتوكل من بيان تسلسل الأسباب والمسببات ما تستبين به أنه لا فاعل إلا الله ولا خالق سواه -- والعجب من يتعجب -- إذا رزقه الله عقلا وأقره -- بمن أفاض عليه المال من غير علم فيقول : كيف منعتي قوت يرمي وأنا المائل الفاضل وأفاض على هذا نعم الدنيا وهو النافل الجاهل ؟ حتى يكاد يرى هذا ظنا ، ولا يدري للفرور أنه لو جمع له بين العقل والمال جميعا لكان ذلك بالظلم أشبه في ظاهر الحال ، إذ يقول الجاهل الفقير : يارب لم جمعت له بين العقل والفني وحرمتي منهما فهلا جمعتما لي أو هلا رزقتني أحدهما ؟ وإلى هذا أشار على رضى الله عنه حيث قيل له : ما بال العقلاء فقراء ؟ فقال : إن عقل الرجل محسوب عليه من رزقه . والعجب أن المائل الفقير ربما يرى الجاهل الفنى أحسن حالا من نفسه ، ولو قيل له : هل تؤثر جهله وغناه عوضا عن عقلك وفقرك لا تمتنع عنه ! فلئن ذلك بدل على أن نعمة الله عليه أكبر ، فله يتعجب من ذلك ؟ والمرأة الحسناء الفقيرة ترى الحلى والجواهر على النسيمة القبيحة فتعجب وتقول : كيف يحرم مثل هذا الجمال من الزينة ويخصص مثل ذلك القبيح ؟ ولا تدري المفردة أن الجمال محسوب عليها من رزقها وأنها لو خيرت بين الجمال وبين القبيح مع الفنى لأثرت الجمال ؟ فلئن نعمة الله عليها أكبر . وقول الحكيم الفقير المائل بقلبه : يارب لم حرمتني الدنيا وأعطيتها الجاهل ؟ فتقول من أعطاه الملك فرسا فيقول : أيها الملك لم لا تعطيني النمل . وأنا صاحب فرس ؟ فيقول : كنت لاتتعجب من هذا لو لم أعطك الفرس ! فهب أنى ما أعطيتك فرسا أصارت نعمتي عليك وسيلة لك وحجة تطلب بها نعمة أخرى ؟ فهذه أوهام لا تخلو الجاهل عنها ، ومنشأ جميع ذلك الجهل ، وبزوال ذلك بالعلم الحق بأن المبد وعمله وأوصافه كل ذلك من عند الله تعالى نعمة ابتداء بما قبل الاستحقاق ، وهذا ينفي العجب والإدلال ويورث الخضوع والشكر والخوف من زوال النعمة . ومن عرف هذا لم يتصور أن يعجب بعلمه وعمله إذ يعلم أن ذلك من الله تعالى ولذلك قال داود عليه السلام : يارب ما تأتى ليلة إلا وإنسان من آل داود حاتم . وفي رواية ما تمر ساعة من ليل أو نهار إلا وعابد من آل داود يمدك إما يصلى وإما يصوم وإما يذكرك - فأوحى الله تعالى إليه : يا داود ومن أين لهم ذلك ! إن ذلك لم يكن إلا في ولولا عرفي إياك ما فويت وسألك إلى نفسك ، قال ابن عباس : إنما أصاب داود ما أصاب من الذنب يعجبه بعمله إذ أضافه إلى آل داود مدلا به حتى وكل إلى نفسه ، فأذنب ذنبا أوردته الحزن والندم . وقال داود : يارب إن بنى إسرائيل يسألونك يا إبراهيم وإحق ويعقوب ، فقال : إنى ابتليتهم فصبروا ، فقال : يارب وأنا إن ابتليتني صبرت ، فأدل بالعمل قبل وقته فقال الله تعالى : فلئن لم أخبرهم بأى شيء ابتليهم ولا فى أى شهر ولا فى أى يوم ، وأنا أخبرك فسنتك هذه وشرك هذا ابتليك غدا بأمرأة فاحذر نفسك ، فوقع فيها وقع فيه . وكذلك لما أنكل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين على قوتهم وكفرتهم

ونسوا فضل الله تعالى عليهم وقالوا لانتلب اليوم من قلة<sup>(١)</sup> وكلا إلى أنفسهم فقال تعالى ﴿ ويوم حين إذ أعجبكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ﴾ . - روى ابن عيينة أن أيوب عليه السلام قال : إلهي إنك ابتليني بهذا البلاء وما ورد على أمر إلا آثرت هواك على هواي ، فتودى من غمامة بعشرة آلاف صوت . يا أيوب أتى لك ذلك ؟ أى من أين لك ذلك ؟ قال : فأخذ رمادا ووضع على رأسه وقال : منك يارب منك يارب ، فرجع من نسيانه إلى إضافة ذلك إلى الله تعالى . ولهذا قال الله تعالى ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكا منكم من أحد أبدا ﴾ وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه وهم خير الناس « ما منكم من أحد ينجي عله » قالوا : ولأنت يا رسول الله ؟ قال : ولأننا إلا أن يتقمدني الله برحمته<sup>(٢)</sup> ، ولقد كان أصحابه من بعده يمتنون أن يكونوا زربا وتربا وطيرا مع صفاء أعمالهم وقلوبهم ، فكيف يكون لذي بصيرة أن يعجب بمعله أو يدل به ولا يخاف حل نفسه ؟ فإذا هذا هو العلاج القامع لمادة العجب من القلب . ومهما غلب ذلك على القلب شغله خوفي سلب هذه النعمة عن الإعجاب بها ، بل هو ينظر إلى الكفار والتساق وقد سلبوا نعمة الإيمان والطاعة بنير ذنب أذنوبه من قبل ، فيخاف من ذلك فيقول : إن من لا يبال أن يحرم من غير جنابة ويعطى من غير وسيلة لا يبال أن يعود ويسترجع ما وهب ، فكيف من مؤمن قد ارتد ومطيع قد فسق وختم له بسوء ! وهذا لا ينجي منه عجب بحال ، والله تعالى أعلم .

#### بيان أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه

اعلم أن العجب بالأسباب التي بها يتكبر - كما ذكرناه - وقد يعجب بما لا يتكبر به كعجبه بال رأى الخطأ الذي يزين له بمجهله . فإيه العجب ثمانية أقسام :

( الأول ) أن يعجب بيده في جماله وهيئته وجمته وقوته وتناسب أشكاله وحسن صورته وحسن صوته ، وبالعجلة تفصيل خلقته ، فيلتمس إلى جمال نفسه وينسى أنه نعمة من الله تعالى وهو بمرصعة الزوال في كل حال ، وعلاجه ما ذكرناه في التكبر بالجمال وهو التفتكر في أقدار باطنه وفي أول أمره وفي آخره ، وفي الوجوه الجلية والأبدان الناعمة أنها كيف تمزقت في التراب وأنتفتت في القيور حتى استقدرتها الطباع .

( الثاني ) البطش والقوة كما حكى عن قوم عاد حين قالوا فيما أخبر الله عنهم ﴿ من أشد منا قوة ﴾ وكما انكسر عوج على قوته وأعجب بها فاقطلع جبلا ليطلقه على عسكر موسى عليه السلام ، فغضب الله تعالى تلك القطعة من الجبل بنشر دمهض ضيف المغار حتى صارت في عنقه ، وقد يشكل للؤمن أيضا على قوته كما روى عن سليمان عليه السلام أنه قال : لأطوفن الليلة على مائة امرأة ! ولم يقل إن شاء الله تعالى ، لحرم ما أراد من الولد<sup>(٣)</sup> وكذلك قول داود عليه السلام : إن ابتليت صبرتي ، وكان إعجابا به بالقوة ، فلما ابتلى بالمرأة لم يصبر . ويورث العجب بالقوة الهجوم في الحروب والقائه النفس في التهلكة والمبادرة إلى الضرب واقتتل لكل من قصده بالسوء ، وعلاجه ما ذكرناه ، وهو أن يعلم أن حمى يوم تضعف قوته ! وأنه إذا أعجب بها ربما سلها الله تعالى بأذى آفة يسلطها عليه .

(١) حديث : قولهم يوم حين لا نلبي اليوم من قلة . أخرجه البيهقي في دلائل النبوة من رواية الربيع بن أنس مرسلًا : أن رجلا قال يوم حين لن نلبي اليوم من قلة فتفق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقر الله عز وجل (ويوم حين إذا أعجبكم كثرتكم) ولأن مردويه في تفسيره من حديث أنس : لما التفتوا يوم حين أعجبهم كثرتهم فقالوا : اليوم نقاتل ؟ فقرأوا : فيه البرح بن فضالة خشف الجمهور (٢) حديث « ما منكم من أحد ينجي عله ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة (٣) حديث : قال سليمان : لأطوفن الليلة بمائة امرأة ... الحديث . أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة .

( الثالث ) العجب بالعقل والكماسة والتفطن لدقائق الأمور من مصالح الدين والدنيا ، وتجرته الاستبداد بالرأى وترك الشورى واستجبال الناس الخالفين له ورأيه ، ويخرج إلى قلة الإسماء إلى أهل العلم إعراضاً عنهم بالاستثناء بالرأى والعقل واستقراراً لهم وإماتة ، وعلاجه أن يشكر الله تعالى على ما رزق من العقل ، ويتفكر أنه بأذى مرض يصيب دماغه كيف يوسوس ويحين بحيث يضحك منه ! فلا يأمن أن يسلب عقله إن أعجب به ولم يقم بشكره ، وليستقص عقله وعلمه ، وليعلم أنه ما أوفى من العلم إلا قليلاً وإن أنسع عليه ، وأن ما جهل به مما عرفه الناس أكثر مما عرفه ، فكيف بما لم يعرفه الناس من علم الله تعالى ؟ وأن يتهم عقله وينظر إلى الحق كيف يعجبون بقولهم ويضحك الناس منهم ؟ فيحذر أن يكون منهم وهو لا يدري . فإن القاصر العقل قط لا يعلم تصور عقله ، فيبين أن يعرف مقدار عقله من غيره لا من نفسه ، ومن أعدائه لا من أصدقائه ، فإن من يداعنه ينثى عليه فيزيده عجباً وهو لا يظن بنفسه إلا الخير ولا يظن للجهل نفسه فيزداد عجباً .

( الرابع ) العجب بالنسب الشريف كمعجب المشاشية ، حتى يظن بعضهم أنه ينحو بشرف نسب ونجاة آباءه وأنه مغفور له ، ويتخيل بعضهم أن جميع الخلق له موال وعبيد ، وعلاجه أن يعلم أنه مهما خالف آباءه في أفعاله وأخلاقهم وظن أنه ملحق بهم فقد جهل ، وإن اقتدى بآبائه فإنا كان من أخلاقهم العجب بل الخوف والازدراء على النفس واستعظام الخلق ومذمة النفس ، ولقد شرفوا بالطاعة والعلم والحصول الحميدة لا بالنسب ، فليتشرف بما شرفوا به ، وقد ساووا في النسب وشاركهم في القبائل من لم يؤمن بالله واليوم الآخر ، وكانوا عند الله شراً من الكلاب وأخس من الخنازير ، ولذلك قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ كُلٌّ لِّأَنْفَالَتٍ فِي أَنْسَابِكُمْ لَاجْتِمَاعِكُمْ فِي أَصْلٍ وَاحِدٍ ، ثُمَّ ذَكَرَ قَاهِدَةَ النَّسَبِ فَقَالَ ( وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ) ثم بين أن الشرف بالتقوى لا بالنسب فقال ( إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ) ولما قيل رسول الله صلى الله عليه وسلم من أكرم الناس ؟ من أكسب الناس ؟ لم يقل : من ينتمى إلى نسي ولكن قال : أكرمهم أكثرهم للوث ذكراً وأشدهم لا استعداداً <sup>(١)</sup> . ولما نزلت هذه الآية حين أذن بلال يوم الفتح على الكعبة : فقال الحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وغالب بن أسيد : هذا العبد الأسود يؤذن على الكعبة ؟ فقال تعالى ﴿ إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ وقال النبي صلى الله عليه وسلم : إن الله قد أذهب عنكم عيب الجاهلية — أي كبيرها — كلكم بنو آدم و آدم من نراب <sup>(٢)</sup> ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : يا معشر قريش لا تأتوا الناس بالأعمال يوم القيامة وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم تقولون يا محمد يا محمد فأقول هكذا — أي أعرض عنكم — <sup>(٣)</sup> . فبين أنهم إذا مالوا إلى الدنيا لم يفهمهم نسب قريش . ولما نزل قوله تعالى ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَوَّلِينَ ﴾ ناداهم بطنا بيد بطن ، حتى قال : يا فاطمة بنت محمد يا صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اعلموا لأنفسكم فإني لا أغنى عنكم من الله شيئاً <sup>(٤)</sup> ، فن عرف هذه الأمور وعلم أن شرفه بقدر تقواه وقد كان من عادة آباءه التواضع اقتدى بهم في التقوى

- (١) حديث : لما قيل له : من أكرم الناس من أكسب الناس ؟ قال : « أكثرهم للوث ذكراً ... الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عمر دون قوله « وأكرم الناس » وهو بهن الزيادة عند ابن أبي الدنيا في ذكر الموت أكثر الكتاب .  
(٢) حديث : « إن الله قد أذهب عنكم عيب الجاهلية ... الحديث » أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه من حديث أبي هريرة ورواه الترمذي أيضاً من حديث ابن عمر وقال غريب .  
(٣) حديث : « يا معشر قريش لا تأتوا الناس بالأعمال يوم القيامة وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم .. الحديث » أخرجه الطبراني من حديث عمران بن حصين إلا أنه قال : يا معشر بني هاشم وسنده ضعيف . (٤) حديث : لما نزل قوله تعالى ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَوَّلِينَ ﴾ ناداهم بيد بيد بطن حتى قال : « يا فاطمة بنت محمد يا صفية بنت عبد المطلب ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة ورواه مسلم من حديث عائشة .

والتواضع ، وإلا كان طاعنا في نسب نفسه - بلسان سأل - مهما اتهم ولم يشبههم في التواضع والتقوى والخوف والإشفاق .

فإن قلت : فقد قال صلى الله عليه وسلم بعد قوله لفاطمة وصفيّة « إني لأغني عنكما من الله شيئا إلا أن لكم رجاسا بلها يبلها »<sup>(١)</sup> ، وقد عليه الصلاة والسلام « أترجو سليم شفاعتي ولا يرجوها بنو عبد المطلب »<sup>(٢)</sup> ، فذلك يدل على أنه سيخصص قرايته بالشفاعة ؟ فاعلم أن كل مسلم فهو منتظر شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والنسب أيضا جدير بأن يرجوها لكن بشرط أن يتق الله أن يغضب عليه ، فإنه إن يغضب عليه فلا يأذن لأحد في شفاعته ، لأن الذنوب منقسمة إلى ما يرجب للقت فلا يؤذن في الشفاعة له ، وإلى ما يفي عنه بسبب الشفاعة ، كالذنوب عند ملوك الدنيا فإن كل ذي مكانة عند الملك لا يقدر على الشفاعة فيها اشتد عليه غضب الملك ، فمن الذنوب ما لا تتجى منه الشفاعة وعنه العبارة بقوله تعالى « ولا يشفون إلا لمن أراضى »<sup>(٣)</sup> ويقول « من ذا الذي يشفع عنده إلا بذنه »<sup>(٤)</sup> ويقول « ولا تتمع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له »<sup>(٥)</sup> ويقول « ما تمنعهم شفاعة الشافعين » وإذا انقسمت الذنوب إلا ما يشفع فيه وإلى ما لا يشفع فيه وجب الخوف والإشفاق لاعامة ، ولو كان ذنب قبل فيه الشفاعة لما أمر قريشا بالطاعة ولما نهى رسول صلى الله عليه وسلم فاطمة رضى الله عنها عن المعصية ، ولكن بأذن لها في اتباع الشهوات لتكمل لذاتها في الدنيا ثم يشفع لها في الآخرة لتكمل لذاتها في الآخرة . فالانتماء في الذنوب وترك التقوى انكالا على رجاء الشفاعة يضاهي انتماءك للمريض في شرواته اعتيادا على طبيب حاذق قريب مشفق من اب أو أخ أو غيره ، وذلك جهل لأن سعى الطبيب ومعه وحذقه تنفع في إزالة بعض الأمراض لا في كلها ، فلا يجوز ترك الحمية مطلقا اعتيادا على جود الطب ، بل الطبيب أثر على الجلة ولكن في الأمراض الخفيفة وعند غلبة اعتدال المزاج . فهكذا ينبغي أن تفهم غاية الشفاعة من الانبياء والصلحاء للأقارب والأجانب ، فإنه كذلك فعلا ، وذلك لا يزال الخوف والحذر ، وكيف يزول وخير الخلق بمدرس رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه وقد كانوا يتمنون أن يكونوا بهائم من خوف الآخرة مع كمال تقواهم وحسن أعمالهم وصفاء قلوبهم وما سمعوه من وعد رسول صلى الله عليه وسلم إياهم بالجنة عامة وسائر المسدين بالشفاعة عامة ولم يتكلموا عليه ولم يفارقوا الخوف والحشر قلوبهم ؟ فكيف يعجب بنفسه ويتكلم على الشفاعة من ليس له مثل محبتهم وسابقتهم ؟

(الخاص) العجب بنسب السلاطين الظلة وأعوانهم دون نسب الدين والعلم . وهذا غاية الجهل ، وعلاجه أن يتفكر في عجزهم وما جرى لهم من الظلم على عباد الله والفساد في دين الله وأنهم الممقوتون عند الله تعالى ، ولو نظر إلى صورهم في آثار وأثانهم وأقدارهم لاستحسك منهم ولتبرأ من الانتساب إليهم ، ولانكر على من نسب إليهم استقذارا واستحقار لهم ، ولو انكسك له ذلم في القيامة وقد تعلق الخصماء بهم والملائكة أخذون بنواصيرهم يحزنونهم على وجوههم إلى جهنم في مظالم العباد لتبرأ إلى الله منهم ، ولكن انتسابه إلى الكلب والخنزير أحب إليه من الانتساب إليهم ، لحق أولاد الظلة إن عصمهم الله من ظلمهم أن يشكروا الله تعالى على سلامة دينهم ويسبقروا لأبائهم إن كانوا مسلمين ، فأما العجب لجهل محض .

(١) حديث : قوله بعد قوله لفاطمة وصفيّة « ألا إن لكنا رجاسا بلها يبلها » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة بلفظ « غير أن لكم رجاسا بلها يبلها » (٢) حديث « أترجو سليم شفاعتي ولا يرجوها بنو عبد المطلب » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث عبد الله بن جعفر وفيه أمير بن حوشب عن إسحاق بن واسل وكلاما ضيف جدا .



(السادس) العجب بكثرة العدد من الأولاد والخدم والعلمان والعشيرة والآقارب والآلصار والآلباع كما قال الكفار (نحن أكثر أموالاً وأولاداً) وكما قال المؤمنون يوم حنين : لانتلب اليوم من فقة ، وعلاجه ما ذكرناه في الكبر وهو أن يتفكر في ضعفه وضعفه وأن كلهم عبيد عجزه لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً . (كم من فقة قليلة غلبت فقة كثيرة إذ أن الله ) ثم كيف يعجب بهم وأنهم سيفترقون عنه إذا مات فدفن في قبره ذليلاً مهيناً وحده لا يرافقه أهل ولا ولد ولا قريب ولا حميم ولا عشير ، فيسلطوه إلى البلى والحيات والمقارب والديدان ولا ينتنون عنه شيئاً وفي أحوج أوقاته إليهم ، وكذلك يهربون منه يوم القيامة ( يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبه وبليته ) الآية . فأى خير فيمن يفارقه في أشد أحوالك ويهرب منك ؟ وكيف تعجب به ولا يتفعلك في القبر والقيامة وعلى الصراط إلا عملك وفضل الله تعالى ؟ فكيف تتكلم على من لا يتفعلك ، وتفسى نعم من يملك نفسك وعرك وموتك وحياتك .

(السابع) العجب بالمال كما قال تعالى إخباراً عن صاحب الجنتين إذ قال ( أنا أكثر منك مالا وأعز نفراً ) ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً غنياً جلس بجانبه فقير فاقبض عنه وجمع ما به فقال عليه السلام : أخشيت أن يمدو إليك فقره <sup>(١)</sup> ، وذلك للعجب بالفتى ، وعلاجه أن يتفكر في آفات المال وكثرة حقوقه وعظم غرائله ، وينظر إلى فضيلة الفقراء وسبقهم إلى الجنة في القيامة ، وإلى أن المال غاد ورائخ ولا أصل له ، وإلى أن في اليهود من يزيد عليه في المال وإلى قوله عليه الصلاة والسلام : بيننا رجل يقبض في حلة لا قد أعجبت نفسه إذ أمر الله الأرض فأخذته فهو يتجمل فيها إلى يوم القيامة <sup>(٢)</sup> ، وأشار به إلى عقوبة إجماله بماله ونفسه . وقال أبو ذر ، كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل المسجد فقال لى : يا أبا ذر أرفع رأسك ، فرفعت رأسى فإذا رجل عليه ثياب جياذ ثم قال : أرفع رأسك ، فرفعت رأسى فإذا رجل عليه ثياب خلفة فقال لى : يا أبا ذر هذا عند الله خير من قراب الأرض مثل هذا <sup>(٣)</sup> ، وجميع ما ذكرناه في كتاب الزهد وكتاب ذم الدنيا وكتاب ذم المال بين - مقاراة الأغنياء وشرف الفقراء عند الله تعالى ، فكيف يتصور من المؤمن أن يعجب بثروته ؟ بل لا يخجل المؤمن عن خوف من تقصيره في القيام بحق المال في أخذه من حله ووضعه في حقه ، ومن لا يفعل ذلك قصيره إلى الخزي والبوار فكيف يعجب بماله ؟

(الثامن) العجب بالرأى الخطأ . قال الله تعالى ( أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ) وقال تعالى ( وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ) وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن ذلك يناب على آخر هذه الآية <sup>(١)</sup> وبذلك هلكت الأمم السالفة إذ افرقت فرقا فكل معجب برأيه ( وكل حزب بما لديهم فرحون ) وجميع أهل البدع والفضائل إنما أصروا عليها لعجبهم بأرائهم والعجب بالبدعة هو استحسان ما يسوق إليه الهوى والشهوة مع ظن كونه حقا ، وعلاج هذا العجب أشد من علاج غيره لأن صاحب الرأى الخطأ جاهل بخطئه ولو عرفه تركه ، ولا يبالغ الداء الذى لا يعرف والجهل داء لا يعرف فتعسر مداواته جدا . لأن العارف يقدر على أن يبين الجاهل جهله ويزيله

(١) حديث : رأى النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً غنياً جلس بجانبه فقير فاقبض منه ... الحديث . رواه أحمد في الزهد .

(٢) حديث : بيننا رجل في حلة قد أعجبت نفسه ... الحديث « متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

(٣) حديث أبي ذر : كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم فدخل المسجد فقال لى : يا أبا ذر أرفع رأسك ، فرفعت رأسى ... الحديث . ولى : هذا عند الله خير من قراب الأرض مثل هذا « أخرجه ابن حبان في صحيحه .

(٤) حديث « أنه يناب على آخر هذه الآية الإجماع بالرأى » هو حديث ابن تيمية المتقدم « فإذا رأيت شعاعاً طعنا وهوى متبعا وإعجابك لذى رأى برأيه فليكن بخامة تصك » وهو عند أبي داود والترمذى .

عنه ، إلا إذا كان معجبا برأيه وجهه فإنه لا يصنى إلى العارف وينهمه ، فقد سلط الله عليه بلية تلهكه وهو يظنها نعمة فكيف يمكن علاجه وكيف يطلب الحرب عما هو سبب سعادته في اعتقاده ؟ وإنما علاجه على الجملة أن يكون متبها لرأيه أبدا لا يفتر به إلا أن يشهد له قاطع من كتاب أو سنة أو دليل عقل صحيح جامع لشروط الأدلة ولن يعرف الإنسان أدلة الشرع والعقل وشروطها ومكامن الغلط فيها إلا بتريخة نامة وعقل ثاقب وجد وقشعر في الطلب وممارسة للكتاب والسنة ومجالسة لأهل العلم طول العمر ومداينة للعلوم ، ومع ذلك فلا يؤمن عليه الغلط في بعض الأمور ، والصواب لمن لم يتفزع لاستفراق عمره في العلم أن لا يخوض في للذاهب ولا يصنى إليها ولا يسميها ، ولكن يعتقد أن الله تعالى واحد لا شريك له وأنه ( ليس كمثل شيء وهو السميع البصير ) وأن رسوله صادق فيما أخبر به ويتبع سنة السلف ، ويؤمن بمجمل ما جاء به الكتاب والسنة من غير بحث وتقرير وسؤال عن تفصيل ، بل يقول آمنا وصدقنا ويشتمل بالتقوى واجتناب المصاى وأداء الطاعات والشفقة على المسلمين وسائر الأعمال ، فإن حاض في المذاهب والبدع والتعصب في العقائد ذلك من حيث لا يشعر . هذا حق كل من عزم على أن يشتغل في عمره بشيء غير العلم ، فأما الذي عزم على التجرد للعلم فأول مهم له معرفة الدليل وشروطه وذلك مما يطول الأمر فيه ، والوصول إلى اليقين والمعرفة في أكبر المطالب شديدا لا يقدر عليه إلا الأنبياء المؤيدون بنور الله تعالى وهو عزيز الوجود جدا ففسد الله تعالى المصنعة من الضلال ، نعوذ به من الاغترار بخيالات الجاهل .

ثم كتاب ذم الكبر والعجب والحمد لله وحده وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ،  
وسلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

## كتاب ذم الثور

وهو الكتاب المنشور من ربيع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بيده مفاليد الأمور ، وبقدرته مفاتيح الخيرات والشرور ، مخرج أوليائه من الظلمات إلى النور ، ومورد أعدائه ورطبات الثور ، والصلاة على محمد مخرج الخلائق من الدجور ، وعلى آله وأصحابه الذين لم تهرم الحياة الدنيا ولم يهرم بالله الثور ، صلاة تتوالى على نبي الدهور ومكبر الساعات والسنين .

أما بعد : ففتاح السعادة التيقظ والفتنة ، ومنبع الشقاوة الثور والنفلة فلا نعمة الله على عباده أعظم من الإيمان والمعرفة ، ولا وسيلة إليه سوى انشراح الصدر بنور البصيرة ، ولا نعمة أعظم من الكفر والمعصية ، ولا داعي إليهما سوى عبي القلب بظلمة الجهالة . فالأكياس وأرباب البصائر قلوبهم ( كشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجه كآنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور ) والمنثرون قلوبهم ( كظلمات في بحر لجي يشعاه موج من فوقه موج من فوهه بحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فإنه من نور ) فالأكياس هم الذين أراد الله أن يهديهم فشرح صدورهم للإسلام والهدى ، والمنثرون هم الذين أراد الله أن يضلهم لجلل صدرهم ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء . والمنثرون هو الذي لم تنته بصيرته ليكون هداية نفسه كشيلا وبق في العمى فانتخذ الهوى قائدا والشیطان

دليلا ( ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا ) وإذا عرف أن الغرور هو أم الشقاوات ومنبع المهلكات فلا بد من شرح مداخله وبقائه وتفصيل ما يكثر من وقوع الغرور فيه ، لينذره المرديد معرفة فيتيقه ، فالوقوف من العباد من عرف مداخل الآفات والفساد فأخذ منها حذرهم وبني على الحرم والبصيرة أمره .

ونحن نشرح أجناس مجارى الغرور وأصناف المغترين من القضاة والعلماء والصالحين الذين اغتروا بمبادئ الأمور ، الجلية ظواهرها البحيثة سرائرها ، ونشير إلى وجه اغترارهم بها وغفلتهم عنها ، فإن ذلك وإن كان أكثر مما يحصى ولكن يمكن التنبيه على أمثلة تنفي عن الاستقصاء ، وفرق المغترين كثيرة ، ولكن يجمعهم أربعة أصناف ( الصنف الأول ) من العلماء ( الصنف الثاني ) من العباد ( الصنف الثالث ) من المتصوفة ( الصنف الرابع ) من أرباب الأموال . والمغتر من كل صنف فرق كثيرة وجهات غرورهم مختلفة ، فمن رأى المنكر مرفوعا كالذي يتخذ المسجد ويغرفها من المال الحرام ، ومنهم من لم يميز بين ما يسمى فيه لنفسه وبين ما يسمى فيه لله تعالى كالواعظ الذي غرضه القبول والجاه ، ومنهم من يترك الأهم ويشغل بعيره ، ومنهم من يترك الفرض ويشغل بالثالة ، ومنهم من يترك الباب ويشغل بالقتل ، كالذي يكون همه في الصلاة مقصورا على تصحيح عمار الحروف إلى غير ذلك من مداخل لا تنصح إلا بتفصيل الفرق وضرب الأمثلة . ولنبدا أولا بذكر غرور العلماء ولكن بعد بيان ذم الغرور وبيان حقيقته وحده .

### بيان ذم الغرور وحقيقته وأمثله

اعلم أن قوله تعالى ( فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم باقة الغرور ) وقوله تعالى ( ولكنكم تنتم أنفسكم وربصم وتربصم وغرنكم الآماني ) الآية . كاف في ذم الغرور ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حينا نوم الأكياس وفطرم كيف يفتنون سهر الحق واجتبا دهم والمغال ذرة من صاحب تقوى ويقين أفضل من ملء الأرض من المغترين »<sup>(١)</sup> ، وقال صلى الله عليه وسلم « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والاحق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله »<sup>(٢)</sup> ، وكل ما ورد في فضل العلم وذم الجهل فهو دليل على ذم الغرور ، لأن الغرور عبارة عن بعض أنواع الجهل ، إذ الجهل هو أن يعتقد الشيء ويراها على خلاف ما هو به ، والغرور هو جهل إلا أن كل جهل ليس بغرور ، بل يستدعي الغرور : مغرورا فيه خصوصا ومغرورا به وهو الذي يفره . فهما كان المجهل المتعد شيئا يوافق المروى وكان السبب الموجب للجهل شبهة وخيلة فاسدة يظن أنها دليل ولا تكون دليلا يسمى الجهل الحاصل به غرورا . فالغرور هو سكون النفس إلى ما يوافق المروى ، ويميل إليه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان فمن اعتقد أنه على خير إما في المآجل أو في الآجل عن شبهة فاسدة فهو مغرور ، وأكثر الناس يظنون بأنفسهم الخير وهم غطون فيه ، فأكثر الناس إذن مغرورون وإن اختلفت أصناف غرورهم واختلفت درجاتهم ، حتى كان غرور بعضهم أظهر وأشد من بعض ، وأظهرها وأشدّها غرور الكفار وغرور البصاة والفساق فنورد لها أمثلة لحقيقة الغرور .

### كتاب ذم الغرور

(١) حديث « حينا نوم الأكياس وفطرم ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين من قول أبي هريرة نحوه . وفيه اصطلاح وفيه الروايات : أبي الورد ، موضع أبي هريرة ولم أجده مرفوعا . (٢) حديث « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ... الحديث » أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث شداد بن أوس

( المثال الأول ) غرور الكفار ، فهم من غرته الحياة الدنيا ومنهم من غره بالله الضرور ، أما الذين غرهم الحياة الدنيا : فهم الذين قالوا : اتقوا خير من النسبة والدنيا فقد والآخرة نسبية فهي إذن خير فلا بد من إثباتها ، وقالوا : اليقين خير من الشك ولذات الدنيائيين ولذات الآخرة شك فلا ترك اليقين بالشك . وهذه أقيسة فاسدة تشبه قياس إبليس حيث قال ﴿ أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ وإلى هؤلاء الإشارة بقوله تعالى ﴿ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم يضررون ﴾ وعلاج هذا الضرور إما بتصديق الإيمان وإما بالبرهان ؛ أما التصديق بمجرد الإيمان فهو أن يصدق الله تعالى في قوله ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ﴾ وفي قوله عز وجل ﴿ وما عند الله خير ﴾ وقوله ﴿ والآخرة خير وأبقى ﴾ وقوله ﴿ وما الحياة الدنيا إلا لمتاع للضرور ﴾ وقوله ﴿ فلا تفرتم الحياة الدنيا ﴾ وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك طوائف من الكفار فقلدهم وصدقوه وأمنوا به ولم يطالبوه بالبرهان <sup>(١)</sup> ، ومنهم من قال : نشدتك الله أبشرك الله رسولا ؟ فكان يقول : نعم ، فيصدق <sup>(٢)</sup> وهذا إيمان العامة وهو يخرج من الضرور ، وينزل هذا منزلة تصديق الصبي والده في أن حضور المكتب خير من حضور الملعب مع أنه لا يهوى وجهه كونه خيرا . وأما المعرفة بالبيان والبرهان فهو أن يعرف وجه فساد هذا القياس الذي فطمه في قلبه الشيطان ، فإن كل مفرور فلفروره سبب ، وذلك السبب هو دليل وكل دليل فهو نوع قياس يقع في النفس ويورث السكون إليه وإن كان صاحبه لا يشعر به ولا يقدر على نطقه بالفاظ العلماء . فالقياس الذي فطمه الشيطان فيه أصلا ( أحدهما ) أن الدنيا تعد والآخرة نسبية وهذا صحيح ( والآخر ) قوله : إن التقدير من النسبة ، وهذا عمل التلبيس فليس الأمر كذلك ، بل إن كان التقدير النسبية في المقدار والمقصود فهو خير وإن كان أقل منها فالنسبية خير ، فإن الكافر المفرور يبدل في تجارتها درهما ليأخذ عشرة نسبية ولا يقول التقدير خير من النسبية فلا أتركه ، وإذا حذره الطيب الفواكه ولذات الألعمة ترك ذلك في الحال خوفا من ألم المرض للمستقبل ؛ فقد ترك التقدير ورضى بالنسبية . والتجار كلهم يركبون البحار ويمشون في الأسفار تقدأ لأجل الراحة والرجوعية ، فإن كان عشرة في ثلثي الحال خيرا من واحد في الحال فأنسب لذة الدنيا من حيث مدتها إلى مدة الآخرة ، فإن أقصى عمر الإنسان مائة سنة وليس هو عشر عشر من جزء من ألف جزء من الآخرة . فكانه ترك واحدا ليأخذ ألف ألف بل ليأخذ مالا نهاية له ولا حد وإن فطر من حيث النوع رأى لذات الدنيا مكذرة مشوبة بأنواع المنهات ولذات الآخرة صافية غير مكذرة ، فإذا قد غلط في قوله : التقدير خير من النسبية ، فهذا غرور منشؤه قبول لفظ عام مشهور أطلق وأريد به خاص ، فغفل به للضرور عن خصوص معناه . فإن من قال : التقدير خير من النسبية ، أراد به خيرا من نسبية هي مثله وإن لم يصرح به .

وعند هذا يفرج الشيطان إلى القياس الآخر وهو : أن اليقين خير من الشك إذا الآخرة شك . وهذا القياس أكثر فسادا من الأول لأن كلا أصليه باطل ، إذ اليقين خير من الشك إذا كان مثله ، وإلا فالتاجر في قلبه على يقين

(١) حديث : تصديق سفي الكفار بما أخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم ولإيمانهم من غير مطالبة بالبرهان وهو محذور في السنن ، من ذلك قصة إسلام الأنصار وبعثهم وفي عند أحد من حديث جابر وفيه : حتى بعثنا الله إليه من يربنا وأولادنا ومصدقنا فيخرج الرجل منا فيؤمن به ويغتره ثم إنهم يفتلج إلى أهله فيسلمون بإسلامه . الحديث . وفي عند أحمد بإسناد جيد .

(٢) حديث : قول من قال له نشدتك الله أبشرك رسولا ؟ فيقول : نعم ، فيصدق . خلق عليه من حديث أنس في قصة قيام ابن نملة وقوله النبي صلى الله عليه وسلم آفة أرسلك للناس كلهم ؟ فقال : اللهم نعم . وفي آخره : فقال الرجل آمنت بما جئت به والبرهان من حديث ابن عباس في قيام قال : نشدتك به أم أرسلك بما أنفكتك وأنت أرسلك أن تعهد أن لا اله إلا الله وأن تدع اللات والعزى ؟ قال : نعم . الحديث .

وفى وجهه على شكه والمتفقه فى جهاده على يقين وفى إدراكه رتبة العلم على شكه والصيد فى تردده فى المختص على يقين وفى الظفر بالصيد على شكه ، وكذا الحزم دأب الغفلاء بالاتفاق وكل ذلك ترك اليقين بالشك ، ولكن التاجر يقول : إن لم أجهز ببيت جائلاً وعظم ضررى ، وإن أجهز كان تبى قليلاً وربحى كثيراً ؛ وكذلك المريض يشرب الدواء البشع الكريه وهو من الشفاهل على شكه ومن مرارة الدواء على يقين ، ولكن يقول : ضرر مرارة الدواء قليل بالإضافة إلى ما أعافه من المرض والموت ، فكذلك من شك فى الآخرة فواجب عليه بحكم الحزم أن يقول : أيام الصبر قلائل وهو منتهى العمر بالإضافة إلى ما يقاتل من أسر الآخرة ، فإن كان ما نيل فيه كذباً ؛ فما يفتنى إلا التمتع أيام حياتى وقد كتبت فى العدم من الأزل إلى الآن لا أتمتع ، فأحسب أنى بقيت فى العدم . وإن كان ما قيل صدقاً ، فأبقى فى النار أبد الآباد وهذا لا يطاق . ولهذا قال على كرم الله وجهه لبعض الملحدين : إن كان ما قلت حقا فقد تخلصت وتخلصنا ، وإن كان ما قلناه حقا فقد تخلصنا وهلكك : وما قال هذا عن شك منه فى الآخرة ولكن كأم الملعود على قدر عقله وبين له أنه وإن لم يكن متيقناً فهو مغرور .

وأما الأصل الثانى من كلامه : وهو أن الآخرة شك ، فهو أيضاً خطأ بل ذلك يقين عند المؤمنين وليقينه مدركان .

أحدهما : الإيمان والتصديق تقليداً للأنبياء والعلماء ، وذلك أيضاً يزيل الغرور وهو مدرك يقين العوام وأكثر الفحوص ، ومثاله مثل مريض لا يعرف دواء علة ، وقد اتفق الأطباء وأهل الصناعة من عند آخرهم على أن دواءه البت الفلانى فإنه يطمئن نفس المريض إلى تصديقهم ولا يطالبهم بتصحيح ذلك بالبراهين الطبية ، بل يثق بقولهم ويعمل به ، ولو بقى سوادى أو معتوه يكذبهم فى ذلك وهو يعلم بالتواتر وقرائن الأحوال أنهم أكثر منه عدداً وأغزر منه فضلاً وأعلم منه بالطب ، بل لا علم له بالطب ، فيعلم كذبه بقولهم ولا يعتقد كذبهم بقوله ، ولا يشترى علمهم بسببه ، ولو اعتمد قوله وترك قول الأطباء كان معتوها مغروراً ، فكذلك من نظر إلى المقرين بالآخرة والمخبرين عنها والقائلين بأن التقوى هو الدواء النافع فى الوصول إلى سعادتها ، وجدم خير خلق الله وأعلام رتبة فى البصيرة والمعرفة والعقل ، وهم الأنبياء والأولياء والحكماء والعلماء واتبعهم عليه الحق على أصنافهم ، وشد منهم آحاد من البطالين غلبت عليهم الشهوة ومالت نفوسهم إلى التمتع ، فمظلم عليهم ترك الشهوات وعظم عليهم الاعتراف بأنهم من أهل النار لمجدوا الآخرة وكذبوا الأنبياء ، فكأن قول الصي وقول السوادى لا يزال طمأنينة القلب إلى ما اتفق عليه الأطباء فكذلك قول هذا الفنى الذى استرقته الشهوات لا يشكك فى صحة أقوال الأنبياء والأولياء والعلماء . وهنا القدر من الإيمان كافٍ بله الخلق وهو يقين جازم يستحق على العمل لا محالة والغرور يزول به .

وأما المدرك الثانى لمعرفة الآخرة فهو الوحي للأنبياء والإلهام للأولياء ، ولا تظن أن معرفة التنبى عليه السلام لأمر الآخرة ولا أمور الدين تقليد لجبريل عليه السلام بالسباع منه ، كما أن معرفتك تقليد للتنبى صلى الله عليه وسلم حتى تكون معرفتك مثل معرفته ، وإنما يختلف المقلد فقط ومهايت الفلن تقليد ليس بمعرفة بل هو اعتقاد صحيح والأنبياء عارفون ومعنى معرفتهم أنه كشف لهم حقيقة الأشياء كما هى عليها فنادموا بالبصيرة الباطنة كما تشاهد أنت المحسوسات بالبصر الظاهر ، فيخبرون عن مشاهدة لآسن سماع وتقليد . وذلك بأن يكشف لهم عن حقيقة الروح وأنه من أمر الله تعالى وليس المراد بكونه من أمر الله الأمر الذى يقابل التنبى ؛ لأن ذلك الأمر كلام والروح ليس بكلام ، وليس المراد بالأمر الشأن حتى يكون المراد به أنه من خلق الله فقط لأن ذلك عام فى جميع المخلوقات

بل العالمان: عالم الأمور وعالم الخلق، وهما خلق والامر، فالأجسام ذوات الكمية والمقادير من عالم الأمر الخلق إذا خلق عبارة عن التقدير في وضع الشأن، وكل موجود مبدء عن الكمية والمقدار فإنه من عالم الأمر. وشرح ذلك سر الروح، ولا رخصة في ذكره لاستقرار أكثر الخلق بسماحه كسر التقدير الذي منع من إفشائه. فمن عرف سر الروح فقد عرف نفسه، وإذا عرف نفسه فقد عرف ربه، وإذا عرف نفسه وربه عرف أنه أمر رباني بطبعه وفطرته، وأنه في العالم الجسماني غريب وأن هوبه إليه لم يكن بمقتضى طبعه في ذاته بل بأمر عارض غريب من ذاته وذلك العارض الغريب ورد على آدم صلى الله عليه وسلم وعبر عنه بالمصيبة وهي التي حطته عن الجنة التي هي أليق به بمقتضى ذاته فلما في جوار الرب تعالى، وأنه أمر رباني وخيئه إلى جواب الرب تعالى له طبعي ذاتي، إلا أن يصرفه عن مقتضى طبعه عوارض العالم الغريب من ذاته فيلجس عند ذلك نفسه وربه. ومهما فعل ذلك فقد ظلم نفسه إذ قيل له (ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الماسقون) أي الخارجون عن مقتضى طبعهم ومقتضى استحقاقهم. يقال: فسقت الرطبة عن كامها؛ إذا خرجت عن مذهبها الفطري. وهذه إشارة إلى أسرارهم لا يستشاق روحهم المارفون وتفسد من سماع الغاظها القاصرون فلما تعرض بهم كما تضر رباح الورد بالجلع، وتبر أعينهم الضميعة كما تبر الشمس أبطار الخفافيش. وافتتاح هذا الباب من سر القلب إلى عالم الملكوت يسمى معرفة وولاية، ويسمى صاحبه وليا وعارفا، وهي مبادئ مقامات الأنبياء. وآخر مقامات الأولياء أول مقامات الأنبياء ولنرجع إلى الترض المطلوب فالقصد أن غرور الشيطان بأن لاخرة شك يدفع إما بيقين تقليدي، وأما بصيرة ومشاهدة من جهة الباطن، والمؤمنين بالسنتهم وبمقارنهم إذا ضيعوا أوامر الله تعالى وهجروا الأعمال الصالحة ولا يبروا الشبوات والمعاصي فهم مشاركون في الكفر في هذا الغرور لأنهم أتوا الحياة الدنيا على الآخرة، نعم أمرهم أخف لأن أصل الإيمان يعصمهم عن عقاب الأبد فيخرجون من النار ولو بعد حين، ولكنهم أيضا من المغرورين فلهم اعترفوا بأن الآخرة خير من الدنيا ولكنهم مالوا إلى الدنيا وآثروها، وبجرد الإيمان لا يكتفي للفوز قال تعالى (وإني لنفاز لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى) وقال تعالى (إن رحمتنا قريب من المحسنين) ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم: الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه <sup>(١)</sup> وقال تعالى (والعصر إن الإنسان لئي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) فوجدت المغفرة في جميع كتاب الله تعالى منوط بالإيمان والعمل الصالح جميعا لا بالإيمان وحده، فهو لا أيضا مغرورون أعني المطمئنين إلى الدنيا الفرحين بها المترفين بتعظيمها حين لها. الكارهين للموت خيفة قوات لدات الدنيا دون الكارهين له خيفة لما بعده فهذا مثال الغرور بالدنيا من الكفار والمؤمنين جميعا.

ولنذكر للغرور بالله مثالين من غرور الكافرين والعاصين. فأما غرور الكفار بالله: فتأله قول بعضهم في أنفسهم وبأسنتهم: إنه لو كان الله من معاد فحق أحق به من غيرنا ونحن أوفر حظا فيه وأبعد حالا، كأخبر الله تعالى عنه من قول الرجلين المتحاورين إذ قال (وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها متقبلا) وجملة أمرهما كما نقل في التفسير: أن الكافر منهما بنى قصرا بألف دينار واشترى بستانا بألف دينار وخدما بألف دينار وزوج امرأة على ألف دينار، وفي ذلك كله يعظه المؤمن ويقول: اشتريت قصرا يفتي ويغرب ألا اشتريت قصرا في الجنة لا يفتي! واشتريت بستانا يغرب ويفني ألا اشتريت بستانا في الجنة لا يفتي وخدما لا يفتنون ولا يموتون وزوجة من الحور العين لا تموت! وفي كل ذلك رد عليه الكافر ويقول: ما هناك شيء وما

(١) حديث «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه» متفق عليه من حديث ابن عمر وقد تقدم.

قيل من ذلك فهو أكاذيب ! وإن كان فليكون لى فى الجنة خير من هذا . وكذلك وصف الله تعالى قول العاص ابن وائل إذ يقول ( لأرتين مالا وولدا ) فقال الله تعالى ردا عليه ( أطلع النيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا كلا ) وروى عن خباب بن الارت أنه قال : كان لى على العاص بن وائل دين بشت أنفاه فلم يقض لى فقلت : إنى أخذه فى الآخرة ؟ فقال لى : إذا صرت إلى الآخرة فإن لى هناك مالا وولدا أفصيكته . فأزله الله تعالى قوله ( أفريت الذى كفر بآياتنا وقال لأرتين مالا وولدا <sup>(١)</sup> ) وقال الله تعالى ( ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربى إنى لى عندة للحسنى ) وهذا كله من الغرور بالله .

وسبه قياس من أقيسه إبليس لعوذ بالله منه ، وذلك أنهم ينظرون مرة إلى نعم الله عليهم فى الدنيا فيقيسون عليها نعمة الآخرة ، وينظرون مرة إلى تأخير العذاب عنهم فيقيسون عليه عذاب الآخرة كما قال تعالى ( ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول ) فقال تعالى جوابا لقولهم ( حسبهن جهنم يصلونها فبئس المصير ) ومرة ينظرون إلى المؤمنين ؛ وهم فقراء شعث غير فيزدرونهم ويستحقرونهم ، فيقولون ( أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ) ويقولون ( لو كان خيرا ما سبقونا إليه ) وترتيب القياس الذى نطقه لى فلوهم أنهم يقولون : قد أحسن الله إلينا بنعم الدنيا ، وكل محسن فهو محب ، وكل محب فإنه يحسن أيضا فى المستقبل كما قال الشاعر :

لقد أحسن الله فىا مضى كذلك يحسن فىا بقى

وإنما يقيس المستقبل على الماضى بواسطة الكرامة والحب إذ يقول : لولا أنى كريم عند الله ومحبوب لما أحسن إلى . والتليس تحت ظنه أن كل محسن محب ، لابل تحت ظنه أن إلتفاء عليه فى الدنيا إحسان ، فقد اغتر بالله إذ ظن أنه كريم عنده بدليل لا يدل على الكرامة بل عند ذوى البصائر يدل على الهوان . ومثاله : أن يكون للرجل عبدان صغيران ينفض أحدهما ربح الآخر ، فألقى بجهنمه من اللعب ويلزمه المكتتب ويحبسه فيه ليله الأدب ، ويمنعه من الفواكه وملأه الأطعمة التى تضره ، ويسقيه الأدوية التى تنفمه . والذى يقضه جملة ليليش كيف يريد فيلمب ولا يدخل المكتتب ويأكل كل ما يشتهى ، فيظن هذا العبد المهمل أنه عند سيده محبوب كريم لأنه مكنه من شهواته ولذاته وساعده على جميع أغراضه فلا يمنه ولم يحجر عليه ، وذلك محض الغرور ، وهكذا نعيم الدنيا ولذتها فإنها مهلكات ومبعدات من الله ، فإن الله يحب عبده من الدنيا وهو يحبه كما يحبى أحدكم مريضه من الطعام والشراب وهو يحبه <sup>(٢)</sup> ، هكذا ورد فى الخبر عن سيد البشر .

وكان أرباب البصائر إذا أقبلت عليهم الدنيا حزونا وقالوا : ذنب مجلت عقوبته ورأوا ذلك علامة الموت والإهمال ، وإذا أقبل عليهم الفقر قالوا : مرحبا بشعار الصالحين . والمنرور إذا أقبلت عليه الدنيا ظن أنها كرامة من الله ، وإذا صرفت عنه ظن أنها هوان ، كما أخبر الله تعالى عنه إذ قال ( وأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن وأما إذا ما ابتلاه فقدره عليه وزقه فيقول ربى أهاننى ) فأجاب الله عن ذلك ( كلا ) أى ليس كما قال إنما هو ابتلاء لعوذ بالله من شر البلاء ونسأل الله التثبيت ، فبين أن ذلك غرور . قال الحسن كذبها جميعا بقوله ( كلا ) يقول ليس هذا لى كراى ولا هذا جهوى ، ولكن الكريم من أكرمه بطاعته غنيا كان أو فقيرا ، والمهان من أمته بمصطفى غنيا كان أو فقيرا .

(١) حديث : خباب بن الارت ، قال كان لى على العاص بن وائل دين بشت أنفاهه . الحديث . لى نزل قوله تعالى ( أفريت الذى كفر بآياتنا ) الآية أخرجه البخارى ومسلم . (٢) حديث : لى أن أقدحى صبيحة من الدنيا وهو يحبه ... الحديث . أخرجه الترمذى وصححه والمالك وصححه من حديث قتادة بن النعمان .

وهذا النور علاحه معرفة دلائل الكرامة والموان إما بالبصيرة أو بالتقليد (أما البصيرة) فبأن يعرف وجه كون الالتفات إلى شهود الدنيا مبدء عن الله ووجه كون التبعاد عنها مقرباً إلى الله ويدرك ذلك بالإلهام في منازل المارقين والأولياء ، وشرحه من جملة علوم المكاشفة ولا يليق بعلم المعاملة (وأما معرفته بطريق التقليد والتصديق) فهو أن يؤمن بكتاب الله تعالى ويصدق رسوله وقد قال تعالى (يحسبون أن ماتمهم من مال وبين ناسخ لهم في الخيرات بل لا يعلمون) وقال تعالى (فسنستدرجهم من حيث لا يعلمون) وقال تعالى (فتحتنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون) وفي تفسير قوله تعالى (فسنستدرجهم من حيث لا يعلمون) أنهم كلما أحدثوا ذنباً أحدثنا لهم نعمة ليزيد غرورهم وقال تعالى (إنما نعلم الموت ليزدادوا إنمّا) وقال تعالى (ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار) إلى غير ذلك مما ورد في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ، فمن آمن به تنقص من هذا النور فإن منشأ هذا النور الجهل بالله وبصفاته ، فإن من عرفه لا يأمن مكره ولا يفتر بأمثال هذه الخيالات الفاسدة ، وينظر إلى فرعون وهامان وقارون وإلى ملوك الأرض وما جرى لهم كيف أحسن الله إليهم ابتداء ثم دمرهم تدميراً فقال تعالى (هل تحس منهم من أحد) الآية وقد حذر الله تعالى من مكره واستدراجه فقال (فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) وقال تعالى (ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون) وقال عز وجل (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) وقال تعالى (إنهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً فهل السكاكين أمهلهم رويداً) فكان لا يجوز للبد المجهل أن يستدل بإهمال السيد لإياه وتمكينه من التمس على حب السيد ، بل ينبغي أن يحذر أن يكون ذلك مكرًا منه وكيداً مع أن السيد لم يحذره مكر نفسه ، فبأن يجب ذلك في حقه تعالى مع تحذيره واستدراجه أولى ، فإذن من آمن مكر الله فهو مفر ، ومنشأ هذا الغرور أنه استدلل بنعم الدنيا على أنه كريم عند ذلك النعم ، واحتتمل أن يكون ذلك دليل الموان ولكن ذلك الاحتمال لا يوافق الهوى ، فالشيطان بواسطة الهوى يميل بالقلب إلى ما يوافقه وهو التصديق بدلائله على الكرامة وهذا هو حدة الغرور .

(المثال الثاني) غرور المصاة من المؤمنين بقولهم : إن الله كريم وإننا نرجو عفوه ، واتكلمهم على ذلك وإهمالهم الأعمال وتحسين ذلك بتسمية تخفيفهم واغترارهم رجاء ، وظنهم أن الرجاء مقام محمود في الدين وأن نعمة الله واسعة ورحمته شاملة وكرمه عظيم ، وأين مصاصي العباد في بحار رحمته وإننا موجدون ومؤمنون ؟ ففرجوه بوسيلة الإيمان وربما كان مستند رجائهم التسكك بصلاح الآباء وعلو رتبهم ، كاستمرار العلوية بنسبهم ومغالفة سيرة آبائهم في الخوف والتقوى والورع ، وظنهم أنهم أكرم على الله من آبائهم إذ آبائهم مع غاية الورع والتقوى كانوا خائفين ، وهم مع غاية الفسق والفجور آمنون . رد ذلك نهاية الاغترار بالله تعالى . فقياس الشيطان للعلوية . أن من أحب إنساناً أحب أولاده وأن الله قد أحب آبائكم فيجبكم فلا تتجاوزون إلى الطاعة ، وينسى المفلور أن نوحاً عليه السلام أراد أن يستصحب ولده معه في السفينة فلم يرد فكان من الملقين (فقال رب إن ابني من أهلي) فقال تعالى (يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح) وأن إبراهيم عليه السلام استغفر لآبيه فلم ينفعه . وأن نيناصل الله عليه وسلم وعلى كل عبد مصطنع استأذن ربه في أن يزور قبر أمه ويستغفر لها فأذن له في الزيارة ولم يؤذن له في الاستغفار ، فجلس يبكي على قبر أمه لرقته لها بسبب التراب حتى أبكى من حوله (١) فهذا أيضاً اغترار بالله تعالى وهذا لأن الله

(١) حديث : أنه من الله عليه وسلم استأذن أن يزور قبر أمه ويستغفر لها فأذن له في الزيارة ولم يؤذن له في الاستغفار . الحديث أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة .



تعالى يحب المطيع ويبغض المعاصي ، فكما أنه لا يفيض الأب المطيع بفضله العاصي فكذلك لا يحب الولد المعاصي بحبه للأب المطيع ، ولو كان الحب يسرى من الأب إلى الولد لأوشك أن يسرى البغض أيضا بل الحق أن لا تزدد وزر أخرى . ومن ظن أنه ينجو بتقوى أبيه كمن ظن أنه يشبع بأكل أبيه ويرى يشرب أبيه ، ويصير طالما يتعلم أبيه ويصل إلى الكعبة ويراها بمشي أبيه . فالتقوى فرض عين فلا يجرى فيه والد عن ولده شيئا وكذا العكس ، وعند الله جزاء التقوى ﴿ يوم يفرز الله من أخيه وأمه وأبيه ﴾ إلا على سبيل الشفاعة لمن لم يشتد غضب الله عليه فيأذن في الشفاعة له - كما سبق في كتاب الكبر والعجب .

فإن قلت : فأين الغلط في قول العصاة والنجار إن الله كريم وإنا نرجو رحمته ومنغفرته ، وقد قال أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي خيرا ، فما هذا إلا كلام صحيح مقبول الظاهر في القلوب ؟ فاعلم أن الشيطان لا ينرى الإنسان إلا بكلام مقبول الظاهر مردود الباطن ، ولولا حسن ظاهره لما اتخذت به القلوب ، ولكن التي صلى الله عليه وسلم كشفت عن ذلك فقال : الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والأحمق من أبغى نفسه هواها ونفى على الله <sup>(١)</sup> ، وهذا هو القبيح على الله تعالى غير الشيطان اسمه فسباه : رجاء ، حتى خدع به الجهال . وقد شرح الله الرجاء فقال ﴿ إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاءوا من قبل الله أولئك يرجون رحمة الله ﴾ يعني أن الرجاء بهم أبقى وهذا لأنه ذكر أن ثواب الآخرة أجر وجزاء على الأعمال قال الله تعالى ﴿ جزاء بما كانوا يعملون ﴾ وقال تعالى ﴿ وإنما تؤفون أجوركم يوم القيامة ﴾ أقرى أن من استسجر على إصلاح أدران وشرط له أجره عليها وكان الشارط كريما يثق بالوعد مهما وعد ولا يخلف بل يزيد ، بله الأجير وكسر الأواني وأفسد جميعها ثم جلس ينتظر الأجر ويرى أن المستاجر كريم ، أقره المقلاد في انتظاره متعنيا مغرورا أوداجيا ؟ وهذا الجعل بالفرق بين الرجاء والنزوة . قيل الحسن : قوم يقولون نرجوا الله ويضمون العمل فقال : هيأت هيئات تلك أمانهم يترجون فيها ، من رجاء شيئا طلبه ومن خاف شيئا هرب منه . وقال مسلم بن يسار : لقد سمعت الباهرة حتى سقطت فنتيت أ فقال له رجل : إنا نرجوا الله أ فقال مسلم : هيأت هيئات ؟ من رجاء شيئا طلبه ومن خاف شيئا هرب منه . وكما أن الذي يرجو في الدنيا ولدا وهو يمد لم ينكح أو نكح ولم يجمع أو جامع ولم ينزل أ فهو متمتوه فكذلك من رجاء رحمة الله وهو لم يؤمن أو آمن ولم يعمل صالحا أو عمل ولم يترك المعاصي فهو مغرور . فكما أنه إذا نكح ووطئ وأزول بقي مترددا في الولد يخاف ويرجو فضل الله في خلق الولد ودفع الآفات عن الرحم وعن الأم إلى أن يتم فهو كيس ، فكذلك إذا آمن وعمل الصالحات وترك السيئات وبقي مترددا بين الخوف والرجاء يخاف أن لا يقبل منه وأن لا يمدوم عليه وأن يختم له بالسوء ، ويرجو من الله تعالى أن يشبهه بالقول الثابت ويحفظ دينه من صواعق سرقات الموت حتى يموت على التوحيد ، ويمرس قلبه عن الميل إلى الشهوات بقية عمره حتى لا يميل إلى المعاصي فهو كيس ، ومن عدا هؤلاء فهم المغرورون بالله ﴿ وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا - ولتعلن نبأ بعد حين ﴾ وعند ذلك يقولون كما أخبر الله عنهم ﴿ ربنا أبصرنا وسمعنا فأرجنا فعمل صالحا إنا موقنون ﴾ أي علمنا أنه كما لا يولد إلا بوقاع ونكاح ولا يثبت زرع إلا بحراثة وبث بذر ، فكذلك لا يحصل في الآخرة ثواب وأجر إلا بعمل صالح فأرجنا فعمل صالحا فقد علمنا الآن صدقك في قولك ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى - كلما أتى فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير - أي ألم نسمعك سعة الله في عباده وأنه (توفى

(١) حديث : الكيس من دان نفسه فهدم قريبا .

كل نفس ما كسبت ( وأن ( كل نفس بما كسبت رهينة ) فما الذي غرّم بالله بعد أن سمعتم وعقلتم ؟ ( قالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير فاعترفوا بذنبيهم فسحقا لأصحاب السعير ) .

فإن قلت : فأين مظنة الرجاء وموضعه المحمود ؟ فأعلم أنه محمود في موضعين :

أحدهما : في حق الماصي المنهك إذا خطرت له التوبة فقال له الشيطان : وأنى تقبل توبتك فيقطعك من رحمة الله تعالى ( فيجب عند هذا أن يقطع القنوط بالرجاء ويتذكر ( إن الله يغفر الذنوب جميعا ) وأن الله كريم يقبل التوبة عن عباده وأن التوبة طاعة تكفر الذنوب قال الله تعالى ( قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم وانيبوا إلى ربكم ) أمرهم بالإنبابة وقال تعالى ( وإنى لعفuar لن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ) فإذا توقع للمغفرة مع التوبة فهو راج ، وإن توقع للمغفرة مع الإصرار فهو مغرور ، كما أن من ضاق عليه وقت الجمعة وهو في السوق فخطر له أن يسعى إلى الجمعة فقال له الشيطان : إنك لا تدرك الجمعة فأقم على موضعك فكذب الشيطان وسر يبدو وهو يرجو أن يدرك الجمعة فهو راج ، وإن استمر على التجارة وأخذ يرجو تأخير الإمام للصلاة لأجله إلى وسط الوقت أو لأجل غيره أولسب من الأسباب التي لا يبرحها فهو مغرور .

الثاني : أن تفر نفسه عن فضائل الأعمال ويقتصر على الفراض فيرجى نفسه لعلم الله تعالى وما وعد به الصالحين حتى يبيث من الرجاء نشاط العبادة فيقبل على الفضائل ويتذكر قوله تعالى ( قد أطلع المؤمنين الذين هم في صلاتهم خاشعون ) إلى قوله ( أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ) فالرجاء الأول : يقطع القنوط المانع من التوبة ، والرجاء الثاني : يقطع القنوط المانع من النشاط والتشمر ، فكل توقع حث على توبة أو على تشمر في العبادة فهو رجاء ، وكل رجاء أوجب قنوطا في العبادة وركونا إلى البطالة فهو غرة ، كما إذا خطر له أن يترك الذنب ويشغل بالعمل فيقول له الشيطان : مالك وإلياء نفسك وتعذيبها ولك رب كريم غفور رحيم ؟ فيغتر بذلك عن التوبة والعبادة فهو غرة ، وعند هذا واجب على العبد أن يستعمل الخوف فيخوف نفسه بغضب الله وعظيم عقابه ويقول : إنه مع أنه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ، وإنه مع أنه كريم خلد الكفار في النار أبدا لا يآبى ، مع أنه لم يعزه كفرهم ، بل سلب المذاب والمحن والأمراض والمال والفقر والجوع على جملة من عباده في الدنيا وهو قادر على إلزائها ، فمن هذه سفته في عبادة وقد خوف عقابه فكيف لا أعافه وكيف أغتر به ؟ .

فالخوف والرجاء قائمان وسامخان بين الناس على العمل ، فما لا يبيث على العمل فهو تمن وغرور . ورجاء كافة الخلق هو سبب قنوطهم وسبب إقبالهم على الدنيا وسبب إعراضهم عن الله تعالى وإهمالهم السعي للآخرة ، فذلك غرور فقد أخبر صلى الله عليه وسلم وذكر أن التورود سيقبل على قلوب آخر هذه الأمة <sup>(١)</sup> وقد كان ما وعد به صلى الله عليه وسلم قد كان الناس في الأعصار الأول يراغبون على العبادات ويؤتون ما أتوا وقولهم ووجه أنهم إلى بهم راجعون ، يخافون على أنفسهم وهم طول الليل والنهار في طاعة الله بالقرآن والتقوى والحذر من الشهوات والشبهات ويكونون على أنفسهم في الخيرات . وأما الآن فترى الخلق آمنين مسرورين مطمئنين غير خائفين مع إكبابهم على المصالح وإنهم كهم في الدنيا وإعراضهم عن الله تعالى ، زاعمين أنهم والمؤمنون يكرم الله تعالى وفضله ، راجون

(١) حديث « لأن التورود ينال على آخر هذه الأمة » تقدم في آخر ذم السكر والحب وهو حديث أبي ثعلبة . في إيجاب كل ذي رأى برأيه .

لمغفرة ومغفرته ، كأنهم يزعمون أنهم عرفوا من فضله وكرمه ما لم يعرفه الأنبياء والصحابة والسلف الصالحون . فإن كان هذا الأمر يدرك بالتي وبالن بالهويي فعلم إذن كان بقاء أولئك وخوفهم وحزنهم ؟ وقد ذكرنا تحقيق هذه الأمور في كتاب الخوف والرجاء . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه مقل بن يسار : يأتي على الناس زمان يخلق فيه القرآن في قلوب الرجال كما تخلق الثياب على الأبدان أمرهم كله يكون طمعاً لا خوف منه ، إن أحسن أحدهم قال : يتقبل مني ، وإن أساء قال : يغفر لي<sup>(١)</sup> ، فأخبر أنهم يضمنون الطمع موضع الخوف لجهلهم بتخريفات القرآن وما فيه . وبمثل أخبر عن النصاري إذ قال تعالى ( خلف من بعدهم خلف ورووا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا ) ومعناه أنهم ( ورووا الكتاب ) أي هم علماء ( يأخذون عرض هذا الأدنى ) أي شهوراتهم من الدنيا حرماً ما كان أو حلالاً . وقد قال تعالى ( ولن خاف مقام ربنا نحن - ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد ) والقرآن من أوله إلى آخره تحذير وتخويف ، لا يتفكر فيه متفكر إلا يظول حزنه ويعظم خوفه إن كان مؤمناً بما فيه . وترى الناس يهدونه هذا ، يخرجون الحروف من غارجهما ويناطقون على خفضها ورفعها ونفسها وكأنهم يقرءون شعراً من أشعار العرب لا يهمهم الالتفات إلى معانيه والعمل بما فيه وهل في العالم غرور يزيد على هذا ؟ فهذه أمثلة النور بالله وبيان الفرق بين الرجاء والنور ، ويقرب منه غرور طوائف لم طاعات ومعاص إلا لأن معاصيهم أكثر ، وهم يتوقعون المغفرة ويظنون أنهم ترجع كفة حسناتهم مع أن مافي كفة السيئات أكثر ، وهذا غاية الجمل قرى الواحد يتصدق بدراهم معدودة من الحلال والحرام ويكون ما يتناول من أموال المسلمين والشبهات أضماؤه ، ولعل ما تصدق به من أموال المسلمين وهو يتكل عليه ويظن أن أكل ألف درهم حرام يقاومه التصديق بعشرة من الحرام أو الحلال ، وما هو إلا كن وضع عشرة دراهم في كفة ميزان وفي الكفة الأخرى ألفاً وأراد أن يرفع الكفة الثقيلة بالكفة الخفيفة وذلك غاية جهله . نعم ومنهم من يظن أن طاعاته أكثر من معاصيه لأنه لا يحاسب نفسه ولا يتفقد معاصيه ، وإذا عمل طاعة حفظها واعتد بها كالذي يستغفر الله بلسانه أو يسبح الله في اليوم مائة مرة ثم ينتاب المسلمين ويمزق أعراسهم ويتكلم بما لا يرضاه الله طول النهار من غير حصر وعدد ، ويكون نظره إلى عدد سيئته أنها تستغفر الله مائة مرة وغفل عن هذيانه طول نهاره الذي لو كتب له كان مثل تسبيحه مائة مرة أو ألف مرة ، وقد كتبه الكرام الكاتبون وقد أوعده الله بالعقاب على كل كلمة فقال ( ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ) فهذا أبداً يتأمل في فضائل التسيحات والتهليلات ولا يلتفت إلى ما ورد من عقوبة المغتاتين والكاذبين والغاميين والمتأففين ، يظهرون من الكلام مالا يضررونه إلى غير ذلك من آفات اللسان . وذلك محض الغرور . ولعمري لو كان الكرام الكاتبون يطلبون منه أجره النسخ لما يكتبونه من هذيانه الذي زاد على تسبيحه لكان عند ذلك يكف لسانه حتى عن جملة من مهماته ، وما نطق به في قراءته كان بعده وبحسبه وبوزانه بتسيحاته ، حتى لا يفضل عليه أجره نسخاً ! فإي جبال لمن يحاسب نفسه ويمتنع خوفاً على قيراط بغوته في الأجرة على النسخ ولا يمتنع خوفاً من فوات الفردوس الأعلى ونعيمه ! ماهذه إلا مصيبة عظيمة لمن تفكر فيها ! لقد دفننا إلى أمر إن شككتنا فيه كنا من الكفرة الجاحدين وإن صدقنا به كنا من الحق المبرورين ! فما هذه أعمال من يصدق بما جاء به القرآن ، وإننا نبرأ إلى الله أن نكون من أهل الكفران فسيحان من صدنا عن التنبه واليقين مع هذا البيان ،

(١) حديث : مقل بن يسار « يأتي على الناس زمان يخلق فيه القرآن في قلوب الرجال الحديث » أخرجه أبو منصور الدبلي في مستند الفروع من حديث ابن عباس نحوه بسند فيه جهالة ولم أراه من حديث مقل .

وما أجدر من يقدر على تسليط مثل هذه النفلة والفرور على القلوب أن يتجشأ ويتقن ولا يفتقر به اعتكالا على أباطيل  
الحق وتمايل الشيطان والهوى ، والله أعلم .

### بيان أصناف للمعتبرين وأقسام فرق كل صنف وهم أربعة أصناف

الصنف الأول : أهل العلم والمشترون منهم فرق :

( ففرقة ) أحكموا العلوم الشرعية والعقلية وتمقروا فيها واشتغلوا بها وأهلوا تفقدا للجوارح وحفظها عن المعاصي  
والإزامها الطاعات ، وابتغوا بعلومهم ونظروا أنهم عند الله بمكان وأنهم قد بلغوا من العلم مبلغا لا يعذب الله مثلهم ، بل  
يقبل في الخلق شفاعتهم ، وأنه لا يطالبهم بذنوبهم وخطاياهم لكرامتهم على الله وعظم غفرانهم ، فليهم لو نظروا بعين  
البصيرة علوا أن العلم علان : علم معاملة ، وعلم مكاشفة ؛ وهو العلم بالله وبصفاته ، المسمى بالمادة : علم المعرفة .  
فأما العلم بالمعاملة : كمعرفة الحلال والحرام ، ومعرفة أخلاق النفس المذمومة والمحمودة وكيفية علاجها  
والفرار منها ، فهي علوم لا تزد إلا العمل ولولا الحاجة إلى العمل لم يكن لهذه العلوم قيمة ، وكل علم يراد للعمل  
فلا قيمة له دون العمل . فقال هذا : كريض به علة لا يزيلها إلا دواء مركب من أخلاط كثيرة لا يعرفها  
إلا حذاق الأطباء ، فيسمى في طلب الطبيب بعد أن هاجر عن وطنه حتى عثر على طبيب حاذق فبعله الدواء  
وفصل له الأخلاط وأنواعها ومقاديرها ومبادئها التي منها تمتلئ ، وعلمه كيفية دق كل واحد منها وكيفية خالطه  
وعجنه ، فعمل ذلك وكتب منه نسخة حسنة بخط حسن ورجع إلى بيته وهو يكرهها ويحبها للمريض ولم يشتغل بشربها  
واستعمالها ، أفترى أن ذلك ينفي عنه من مرضه شيئا ؟ هيأت هيأت ! لو كتب منه ألف نسخة وعلمه ألف مريض  
حتى شق جميعهم وكرهه كل ليلة ألف مرة لم ينه ذلك من مرضه شيئا ، إلا أن يزن الذهب ويشترى الدواء ويخلطه  
كما تعلم ويشربه ويصبر على مرارته ، ويكون شربه في وقته وبعد تقديم الاحتياض وجميع شروطه ، وإذا قل جميع ذلك  
فهو على خطر من شفائه فكيف إذا لم يشربه أصلا ؟ فهما ظن أن ذلك يكفيه ويشفيه فقد ظهر غروره . وهكذا  
الفتي الذي أحكم علم الطاعات ولم يعملها وأحكم علم المعاصي ولم يمتنعها وأحكم علم الأخلاق المذمومة ومازك نفسه  
منها وأحكم علم الأخلاق المحمودة ولم يتصف بها فهو مغرور ، إذ قال تعالى ( قد أفلح من زكاهما ) ولم يقل قد  
أفلق من تعلم كيفية تركيبتها وكتب علم ذلك وعلم الناس ! وعند هذا يقول له الشيطان : لا يفرئك هذا المثال فإن  
العلم بالدواء لا يزيل المرض ، وإنما مطلبك القرب من الله وتوابعه والعلم يجلب الثواب ، ويتلو عليه الأخبار الواردة  
في فضل العلم ، فإن كان المسكين معتمدا مفرورا وافق ذلك مراده وهواه فاطمأن إليه وأعمل العمل ، وإن كان كيسا  
فيقول للشيطان : أتذكرني فضائل العلم ونفسي ما ورد في العالم الفاجر الذي لا يعمل بعله كقولته تعالى ( فثله كمثل  
السكب ) وكقولته تعالى ( مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ) فأى خزي أعظم من  
التثليل بالسكب والحمار ؟ وقد قال صلى الله عليه وسلم « من أزداد علما ولم يزد هدى لم يزد من الله إلا بعدا »<sup>(١)</sup> .  
وقال أيضا « يلقى العالم في النار فتندلق أفتابه فيدور بها في النار كما يدور الحمار في الرحى »<sup>(٢)</sup> ، وكقولته عليه الصلاة  
والسلام « شر الناس الملاء السوء »<sup>(٣)</sup> ، وقول أبي الفرداء : ويل للذي لا يعلم مرة ولو شاء الله لعله وويل للذي  
يعلم ولا يعمل سبع مرات ، أى أن العلم حجة عليه إذ يقال له : ماذا عملت فيما علمت وكيف قضيت شكر الله ؟

(١) حديث « من أزداد علما ولم يزد هدى ... الحديث » تقدم في العلم . (٢) حديث « يلقى العالم في النار فتندلق أفتابه ...  
الحديث » تقدم غير مرة . (٣) حديث « شر الناس الملاء السوء » تقدم في العلم .

وقال صلى الله عليه وسلم « أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه »<sup>(١)</sup>، فهذا وأمثاله مما أورثنا في كتاب العلم في باب علامة علماء الآخرة أكثر من أن يحصى ، إلا أن هنا فيما لا يوافق هوى العالم الفاجر ، وما ورد في فضل العلم يوافقه فيميل الشيطان قلبه إلى ما يهواه وذلك عين الغرور ، فإنه إن نظر بالبصرة مثاله ما ذكرناه ، وإن نظر بعين الإيمان فالذي أخبره بفضيلة العلم هو الذي أخبره بدم العلماء السوء وأن حالهم عند الله أشد من حال الجاهل . فبعد ذلك اعتقاده أنه على خير مع تأكد حجة الله عليه غاية الغرور .

وأما الذي يدعى علوم المكاشفة : كالعالم بالله وبصفاته وأسمائه وهو مع ذلك يهمل العمل ويضيع أمر الله وحدوده فغروره أشد ، ومثاله مثال من أراد خدمة ملك فعرّف الملك وعرف أخلاقه وأوصافه ولونه وشكله وطوله وعرضه وعادته ومجمله ولم يتعرف ما يحبه وبكرهه وما يفضض عليه وما يرضى به ، أو عرف ذلك إلا أنه قصد خدمته وهو ملابس بلجبع ما يفضض به عليه ، وعاطل عن جميع ما يحبه من زينة وميثاق وكلام وحركة وسكون ، فورد على الملك وهو يريد التقرب منه والاختصاص به متلطحاً بجميع ما يكرهه الملك ، عاطلاً عن جميع ما يحبه ، متوسلاً إليه بمعرفة له ولنسبه واسمه وبلده وصورته وشكله وعادته في سياسة غلامه ومعاملة رعيته . فهذا مغرور جداً إذ لو ترك جميع ما عرفه واشتغل بمعرفة فقط ومعرفة ما يكرهه وبجبه لكان ذلك أقرب إلى نيله المراد من قرب به والاختصاص به ، بل تقصيره في التقوى واتباعه للشهوات يدل على أنه لم يتكشف له من معرفة الله إلا الاسمى دون المعاني ، إذ لو عرف الله حق معرفته لحشيه واتقاه . فلا يتصور أن يعرف الأسد عاقل ثم لا يتقيه ولا يخافه ، وقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : خضّ كما تخاف السبع الضاري . نعم من يعرف من الأسد لونه وشكله واسمه قد لا يخافه وكأنه ماعرف الأسد ، فمن عرف الله تعالى عرف من صفاته أنه يهلك المسلمين ولا يبالي ، ويعلم أنه مسخر في قدرة من لو أهلك مثله آلافاً مؤلفة وأبد عليهم العذاب أبد الآباد لم يؤثر ذلك فيه أثراً ولم تأخذه عليه رقة ولا اعتراه عليه جزع . ولذلك قال تعالى ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ وفاتحة الزبور ورأس الحكمة خشية الله ، وقال ابن مسعود : كفى بخشية الله علماً وكفى بالاعتزاز بالله جهلاً . واستغنى الحسن عن مسألة فأجاب فقيل له : إن قضاءه لا يقرولون ذلك ، فقال : وهل رأيت فيها قط ؟ الفقيه القائم ليلة الصائم نهاره الزاهد في الدنيا . وقال مرة : الفقيه لا يندارى ولا يمارى ينشر حكمة الله فإن قبلت منه حد الله ولدت ردت عليه حد الله . فإذا الفقيه من فقه عن الله أمره ونهيه وعلم من صفاته ما أحبه وما كرهه وهو العالم ﴿ ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ﴾ وإذا لم يكن بهذه الصفة فهو من المغرورين .

( وفرقة أخرى ) أحكروا العلم والعمل فواظبوا على الطاعات الظاهرة وتركوا المعاصي ، إلا أنهم لم يتفقدوا قلوبهم ليحوا الصفات الذمومة عند الله من الكبر والحسد والرياء وطلب الرياسة والعلاء ولزادة السوء للأقران والنظراء وطلب الشهرة في البلاد والبياد ، وربما لم يعرف بعضهم أن ذلك مذموم فهو مكب عليها غير متحرر عنها ولا يلتفت إلى قوله صلى الله عليه وسلم « أدنى الرياء شرك »<sup>(٢)</sup> ، وإلى قوله عليه السلام « لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر »<sup>(٣)</sup> ، وإلى قوله عليه الصلاة والسلام « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب »<sup>(٤)</sup> ، وإلى قوله عليه الصلاة والسلام « حب الشرف والمال ينبتان التفاف كما ينبت الماء البقل »<sup>(٥)</sup> ، وإلى

(١) حديث « أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه » تقدم فيه . (٢) حديث « أدنى الرياء شرك » تقدم في ذم الجاه والرياء (٣) حديث لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر » تقدم غير مرة (٤) حديث « الحسد يأكل الحسنات ... الحديث » تقدم في العلم وغيره . (٥) حديث « حب الشرف والمال ينبتان التفاف القلب ... الحديث » تقدم

غير ذلك من الأخبار التي أوردناها في جميع ربيع المهلكات في الأخلاق المذمومة . فهؤلاء زينوا ظواهرهم وأصلوا برأيهم ونسوا قوله صلى الله تعالى عليه وسلم : إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم <sup>(١)</sup> ، فتبهّدوا الأعمال وما تمهّدوا القلوب - والقلب هو الأصل - إذ لا ينحو إلا من أتى الله بقلب سليم . ومثال هؤلاء كثير الحش ظاهرها جص وباطنها نتن ، أو كقبور الموتى ظاهرها مزين وباطنها جيفة ، أو كبيت مظلم باطنه وضع سراج على سطحه فاستأثر ظاهره وباطنه مظلم ، أو كرجل قصد الملك ضيافته إلى داره لخصص باب داره وترك الزبال في صدر داره ، ولا يخفى أن ذلك غرور ، بل أقرب مثالي إليه : وجل زرع زرعاً فنبت ونبت معه حشيش يفسده ، فأمر بتقنية الزرع عن الحشيش بقلعه من أصله ، فأخذ يمز رده ورسه وأطرافه فلا تزال تقوى أصوله فتنبث ، لأن مغارس المعاصي هي الأخلاق المذمومة في القلب ، فمن لا يظهر القلب منها لاتبم له الطاعات الظاهرة إلا مع الآفات الكثيرة . بل هو كريض ظهر به الجرب وقد أمر بالطلاء وشرب الدواء ، فالطلاء ليزيل ماعل ظاهره والدواء ليقطع مادته من باطنه ، فتنبث بالطلاء وترك الدواء ، وبقي يتساول ما يزيد في المادة ، فلا يزال يعلل الظاهر والجرب دائم به يتفجر من المادة التي في الباطن .

(وفرة أخرى) علوا أن هذه الأخلاق الباطنة مذمومة من جهة الشرع ، إلا أنهم لعجبهم بأنفسهم يظنون أنهم منفكون عنها وأنهم أرفع عند الله من أن يتلبسهم بذلك ، وإنما يتلبى به العوام دون من بلغ مبلغهم في العلم ، فأما هم فأعظم عند الله من أن يتلبسهم ، ثم إذا ظهر عليهم عجايل الكبر والرياسة وطلب العلو والشرف قالوا : ما هذا كبر وإنما هو طلب عز الدين وإظهار شرف العلم ونصرة دين الله وإرغام أنف المخالفين من المبتدعين ! وإلى لو لبست البدون من الثياب وجلست في البدون من المجالس لشمتم في أعداء الدين وفرحوا بذلك ، وكان ذل ذلاً على الإسلام ونسب المنور أن عدوه الذي حذره منه مولاه هو الشيطان ، وأنه يفرح بما يفعله ويسخر به ، ونسى أن النبي صلى الله عليه وسلم بماذا نصر الدين وبماذا أرغم الكافرين ؟ ونسى ما روى عن الصحابة من التواضع والتبذل والتناعة بالفقر والمسكنة ، حتى عوب عمر رضى الله عنه في بلادة زيه عند قدومه إلى الشام فقال : إنا قوم أعزنا الله بالإسلام فلا نطلب العز في غيره . ثم هذا المنور يطلب عز الدين بالثياب الرقيقة من القصب والديبقي والإبريسم - المحزم - والحجول والمراكب ويرغم أنه يطلب به عز العلم وشرف الدين ! وكذلك مهما أطلق اللسان بالحسد في أقرانه أو فمين رد عليه شيئاً من كلامه لم يظن بنفسه أن ذلك حسد ولكن قال : إنما هذا غضب الحق ورد على الجبل في عدوانه وظلله ، ولم يظن بنفسه الحسد ، حتى يمتد أنه لو طعن في غيره من أهل العلم أو منع غيره من رياسة وزوج فيها لم كان غضبه وعداوته مثل غضبه الآن فيكون غضبه لله ؟ أم لا ينضب مهما طعن في عالم آخر ومنع ؟ بل ربما يفرح به فيكون غضبه لنفسه وحسده لأقرانه من خبث باطنه ، وهكذا يراى بأعماله وعلومه وإذا خطر له خاطر الرياء قال : هيأت ! إنما غرضي من إظهار العلم والعمل اقتداء الخلق في ليهتدوا إلى دين الله تعالى فيتخلصوا من عقاب الله تعالى ، ولا يتأمل المنور أنه ليس يفرح باقتداء الخلق بغيره كما يفرح باقتدائه به ، فلو كان غرضه صلاح الخلق لفرح بصلاحهم على يد من كان - كمن له صيد مرضى يريد معالجته فإنه لا يفرق بين أن يحصل شفاؤه على يده أو على يد طبيب آخر وربما يذكر هذا له فلا يخفيه الشيطان أيضاً ويقول : إنما ذلك لأنهم إذا اهتدوا في كان الأجر لي والتواب لي فإنما فرحى بثواب الله لا بقبول الخلق قولي ! هذا ما يظنه

بنفسه واقه مطلع من خميره على أنه لو أخبره نبي بأن ثوابه في الحول وإخفاء العلم أكثر من ثوابه في الإظهار ، وجس مع ذلك في محن وقيد بالسلاسل لاحتال في هدم السجن وحل السلاسل حتى يرجع إل موضعه الذي به تظهر رياسته من تدريس أو وعظ أو غيره ، وكذلك يدخل على السلطان ويتودد إليه ويثني عليه ويتواضع له ، وإذا خطر له أن التواضع للسلطين الظلة حرام قال له الشيطان : هيات ! إنما ذلك عند الطمع في ما لهم فأما أنت ففرضك أن تشفع للمسلمين وتدفع الضرر عنهم وتدفع شر أعدائك عن نفسك ! واقه يعلمن باطنه أنه لو ظهر لبعض أقرانه قبول عند ذلك السلطان فصار يشفعه في كل مسلم حتى دفع الضرر عن جميع المسلمين فقل ذلك عليه ، ولو قدر على أن يقبح حاله عند السلطان بالظعن فيه والكذب عليه لفعل . وكذلك قد يفتنى غرور بعضهم إلى أن يأخذ من ما لهم وإذا خطر له أنه حرام قال له الشيطان : هذا مال لا مال لك له وهو لمصالح المسلمين وأنت إمام المسلمين وعالمهم وبك قوام الدين ! أفلا يحل لك أن تأخذ قدر حاجتك ؟ .

فيقترب بهذا التليس في ثلاثة أمور ( أحدها ) في أنه مال لا مال لك له فإنه يعرف أنه يأخذ الخراج من المسلمين وأهل السواد ، والذين أخذ منهم أحياء وأولادهم وورثتهم أحياء ، وغاية الأمر وقوع الخطل في أموالهم ، ومن غصب مائة دينار من عشرة أنفس وغالطها فلا خلاف في أنه مال حرام ، ولا يقال هو مال لا مال لك له ، ويجب أن يقسم بين العشرة ويرد إلى كل واحد عشرة ، وإن كان مال كل واحد قد اختلط بالآخر ( الثاني والثالث ) في قوله إنه من مصالح المسلمين وبك قوام الدين ؛ ولعل الذين فسد دينهم واستحلوا أموال السلاطين ورغبوا في طلب الدنيا والاقبال على الرياسة والإعراض عن الآخرة بسببه أكثر من الذين زهدوا في الدنيا ورفضوها وأقبلوا على الله فهو على التحقيق دجال الدين وقوام مذهب الشياطين لا إمام الدين . إذ الإمام : هو الذي يقتدى به في الإعراض عن الدنيا والإقبال على الله كالأنبياء عليهم السلام والصالحين وعلماء السلف . والدجال : هو الذي يقتدى به في الإعراض عن الله والإقبال على الدنيا . فلعل موت هذا أنفع للمسلمين من حياته وهو يزعم أنه قوام الدين . ومثله كآكل السبع عليه السلام للعالم السوء : إنه كصخرة وقعت في فم الوادي فلا هي تشرب الماء ولا هي تترك الماء يخلص إلى الزرع . وأصناف غرور أهل العلم في هذه الأعصار المتأخرة خارجة عن الحصر وفيها ذكرناه تنبيه بالغليل على الكثير .

( وفرقة أخرى ) أحكوا العلم وطهروا الجوارح وزينوها بالطاعات واجتنبوا ظواهر المعاصي ، وتفقدوا أخلاق النفس وصفات القلب من الرياء والحسد والحقد والكبر وطلب العلو ، وجاهدوا أنفسهم في التبرئ منها وقاموا من القلوب مهابتها الجلية القوية ، ولكنهم يهد مغرورون ؛ إذ بقيت في زوايا القلب من خفايا مكاييد الشيطان وخبايا خداع النفس مادن وغض مذكرة فلم يفتنوا لها وأملوها ، وإنما مثاله من يريد تقيّة الزرع من الحشيش ، فدار عليه ونقش عن كل حشيش رآه فقلعه ، إلا أنه لم يفتش على ما لم يخرج رأسه به من تحت الأرض وظن أن السكل قد ظهر وبرز ، وكان قد نبت من أصول الحشيش شعب لطاف فأنهبطت تحت التراب فأملها وهو يظن أنه قد اقتلها ، فإذا هو بها في غفلته وقد نبتت وقويت وأفسدت أصول الزرع من حيث لا يدري . فكذلك العالم قد يفضل جميع ذلك ويذهل عن المراقبة للخفايا والتفتد للفتن فتراه يسر إليه ونهاره في جمع العلوم وترتيبها وتحسين ألفاظها وجمع التصانيف فيها ، وهو يرى أنّ باعته الحرس على إظهار دين الله ونشر شريعته . ولعل باعته الحنف هو طلب الذكر وانتشار الصيت في الأطراف ، وكثرة الرحلة إليه من الآفاق ، وانطلاق الألسنة عليه

بالبقاء ، والمدح بالزهد والورع والعلم ، والتقديم له في المهمات وإثارة في الأغراض ، والاجتماع حوله للاستفادة والتلذذ بحسن الإصغاء عند حسن اللفظ والإيراد ، والتفتع بتعريك الرموس إلى كلامه والبكاء عليه والتعجب منه ، والفرح بكثرة الأصحاب والأتباع والمستفيدين ، والسرور بالتخصيص بهذه الخاصة من بين سائر الأقران والأشكال للجمع بين العلم والورع وظاهر الزهد ، والتفكير به من إطلاق لسان الطعن في الكفاة للمقبلين على الدنيا ، لاعتق تصفح بمعية الدين ولكن عن إدلال بالقبيل واعتداد بالتخصيص . ولعل هذا المسكين المفرور حياته في الباطن بما انتظم له من أمر وإمارة وعز وإقباد وتوقير وحسن ثناء ، فلو تغيرت عليه القلوب واعتقدوا فيه خلاف الزهد بما يظهر من أعماله ففساد يتشوق عليه قلبه وتختلط أورداه ووظائفه . وعساه يعتدو بكل حيلة لنفسه ، وربما يحتاج إلى أن يكذب في تقضية عييه . وعساه يؤثر بالكرامة والمراعاة من اعتقد فيه الزهد والورع وإن كان قد اعتقد فيه فوق قدره ، ويبدو قلبه عن عرف حقه فضله وورعه وإن كان ذلك على وفق حاله وعساه يؤثر بعض أصحابه على بعض وهو يرى أنه يؤثره لتقدمه في الفضل والورع ، وإنما ذلك لأنه أطوع له وأتبع لمراده وأكثر ثناء عليه وأشد إعصافاً إليه وأحرص على خدمته . ولعلهم يستفيدون منه ويرغبون في العلم وهو يظن أن قبولهم له لإخلاصه وصحته وقيامه بحق عليه فيحمد الله تعالى على ما يسر على لسانه من منافع خلقه ، ويرى أن ذلك مكفر لذنوبه ولم يتفقد مع نفسه تصحيح البنية فيه . وعساه لو وعد بمثل ذلك الثواب في إثارة الخول والعزلة وإخفاء العلم لم يرغب فيه لبقده في العزلة ولا خفاءه لذة القبول وعزة الرئاسة ولعل مثل هذا هو المراد بقول الشيطان : من زعم من بني آدم أنه بعلمه استع من فيجهله وقع في جألي . وعساه يصف ويجهل في ظاناً أنه يجمع علم الله ليتفتع به وإما يريد به استظارة اسمه بحسن التصنيف ، فلو ادعى مدح تصنيفه ومحا عن اسمه ونسبه إلى نفسه قل عليه ذلك مع علمه بأن ثواب الاستفادة من التصنيف إنما يرجع إلى المصنف والله يعلم بأنه هو المصنف لا من ادعاه ، ولعله في تصنيفه لا يخلو من الثناء على نفسه إما . بما بالعداوى الطولية العريضة وإما ضمناً بالطنن في غيره ، ليستبين من طعنه في غيره ، أنه أفضل من طعن فيه وأعظم منه علماً ولقد كان في غنية عن الطعن فيه ، ولعله يحكى من الكلام المزيف ما يريد تزييفه فيعزبه إلى قائله وما يستحسنه فله لا يميزه إليه ليلظن أنه من كلامه ، فيقله بعينه كالسارق له أو يغيره أدق تغيير كالذي يسرق قميصاً فيتخذ بهاء حتى لا يعرف أنه مسروق ، ولعله يجهل في تزيين ألفاظه وتجميله وتحسين نظمه كيلا ينسب إلى الزكاة ويرى أن غرضه ترويع الحكمة وتحسينها وتزيينها ليكون أقرب إلى نفع الناس . وعساه غافلاً عما روى أن بعض الحكماء وضع لثلاثة مصنف في الحكمة فأوحى الله إلى نبي زمانه قل لقد ملأت الأرض نفاقاً وإنى لأقبل من نفاقك شيئاً . ولعل جماعة من هذا الصنف من المفترين إذا اجتمعوا ظن كل واحد بنفسه السلامة عن عيوب القلب وخفاياه فلم اترقوا واتبع كل واحد منهم فرقة من أصحابه فنظر كل واحد إلى كثرة من يتبعه وأهـ أكثر تبعاً أو غيره فيفرح إن كان أتباعه أكثر وإن علم أن غيره أحق بكثرة الأتباع منه ، ثم إذا فترقوا واشتغلوا بالإفادة تنابروا وتحاسدوا ولعل من يختلف إلى واحد منهم إذا انقطع عنه إلى غيره فقل على قلبه ووجد في نفسه نفرة منه فيبد ذلك لاجتماعه لإكرامه ولا يتشمر لقضاء حاجته كما كان يتشمر من قبل ، ولا يحرص على الثناء عليه كما أتى مع علمه بأنه مشغول بالاستفادة ، ولعل التحيز منه إلى فئة أخرى كان أنفع له في دينه لآفته من الآفات كانت تلحقه في هذه الفئة وسلامته عنها في تلك الفئة ، ومع ذلك لا نزول للنفرة عن قلبه ، ولعل واحداً منهم إذا تحركت فيه مبادئ الحسد لم يقدر على إظهاره فيتمثل بالطنن في دينه وفي ورعه ليجعل غضبه على ذلك ، ويقول إنما غضبت لدين الله لأنفسى . ومهما



ذكرت عيوبه بين يديه ربما فرح له وإن أتى عليه ربما ساءه وكرهه ، وربما قلب وجهه إذا ذكرت عيوبه .  
 - يظهر أنه كاره لفنية المسلمين - وسر قلبه راض به ومريد له ، والله مطلع عليه في ذلك . فهنا وأمثاله من خفايا  
 القلوب لا يفتن له إلا الأكياس ولا يتنزه عنه إلا الأقوياء ، ولا مطمح فيه لأمثالنا من الضعفاء ، إلا أن أقل  
 الدرجات أن يعرف الإنسان عيوب نفسه ويسوءه ذلك ويكرهه ويحرص على إصلاحه ، فإذا أراد الله بعبده خيرا  
 بصره بعيوب نفسه ، ومن سرته حسنته وسامته سيئته فهو مرجح الحال ، وأمره أقرب من المرور للزكي لنفسه  
 الممتن على الله بعمله وعلمه الظان أنه من خيار خلقه ، فعوذ بالله من الغفلة والاعتقار ومن المعرفة بخفايا العيوب  
 مع الإهمال . هذا غرور الذين حصلوا العلوم المهمة ولكن قصروا في العمل بالملم .

ولنذكر الآن غرور الذين تقنوا من العلوم بما لم يهيمهم وتركوا المهم وهم به مغترون إما لاستغنائهم عن أصل  
 ذلك العلم وإما لاعتصامهم عليه . فهم فرقة اقتصروا على علم الفتاوى في الحكومات والخصومات وتفاصيل  
 المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لمصالح العباد ، وخصصوا اسم الفقه بها وسجوه الفقه وعلم المذاهب ، وربما  
 ضيعوا مع ذلك الأعمال الظاهرة والباطنة فلم يتفقدوا الجوارح ولم يحرصوا اللسان عن النية ولا البطن عن الحرام  
 ولا الرجل عن المشي إلى السلاطين وكذا سائر الجوارح ، ولم يحرصوا قلوبهم عن الكبر والحسد والرياء وسائر  
 المهلكات . فهؤلاء مغرورون من وجهين ( أحدهما ) من حيث العمل ( والآخر ) من حيث العلم .

أما العمل : فقد ذكرنا وجه الغرور فيه وأن شالهم مثال المريض إذا تعلم نسخة الدواء واشتغل بتكراره  
 وتعليمه ، لا يلب شالهم مثال من به علة البواسير والبرص وهو مشرف على الهلاك ويحتاج إلى تعلم الدواء واستعماله  
 فاشتغل بتعلم إدواء الاستحاضة وتكرار ذلك ليلا ونهارا مع علمه بأنه رجل لا يبيض ولا يستحاض ، ولكن  
 يقول : ربما تنفع علة الاستحاضة لامرأة وتأتي عن ذلك ، وذلك غاية الغرور . فكذلك المتفقه المبكين قد يسلط  
 عليه حب الدنيا واتباع الثروات والحسد والكبر والرياء وسائر المهلكات الباطنة ، وربما يخطئه الموت قبل التوبة  
 والتلافي فيلقى الله وهو عليه غضبان ، فترك ذلك كله واشتغل بمل السلم والإجابة والظهار واللبان والجراحات  
 والديبات والديباوى والبنات وكتبات الحيض وهو لا يحتاج إلى شيء من ذلك قط في عمره نفسه ، وإذا احتاج  
 غيره كان في المفتين كثرة فيشتغل بذلك ويحرص عليه لما فيه من الجاه والرياسة والمال ، وقد دهاه الشيطان  
 وما يشمر ، إذ يظن المدور بنفسه أنه مشغول بفرض دينه وليس يدري أن الاشتغال بفرض الكفاية قبل الفراغ  
 من فرض العين معصية . هذا لو كانت نيته صحيحة كما قال وقد كان قصد بالفقه وجه الله تعالى ، فإنه وإن قصد  
 وجه الله فهو باشتغاله به معرض عن فرض عينه في جوارحه وقلبه فهذا غروره من حيث العمل .

وأما غروره من حيث العلم : بحيث اقتصر على علم الفتاوى وظن أنه علم الدين وترك كتاب الله وسنة  
 رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وربما طعن في المحدثين وقال : إنهم نقلة أخبار وحمل أسفار لا يفقهون ، وترك أيضا  
 علم تهذيب الأخلاق وترك الفقه عن الله تعالى بإحداك جلالة وعظمته وهو العلم الذي يورث الخوف والهيبة  
 والخشوع ويحمل على التقوى ، فقرأ آثما من الله مغترا به متكلا على أنه لا بد وأن يرحمه فإنه قوم دينه ، وأنه لو لم  
 يشتمل بالفتاوى لتعطل الحلال والحرام فقد ترك العلوم التي هي أهم وهو غافل مغرور ، وسبب غروره ما سمع في  
 الشرع من تعظيم الفقه ولم يدرك أن ذلك الفقه هو الفقه عن الله ومعرفة صفاته الخفية والمرجوة ليستشعر القلب الخوف  
 ويلزم التقوى ، إذ قال تعالى ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا ﴾

إليهم لعلهم يحذرون) والذي يحصل به الإنذار غير هذا العلم ، فإن مقصود هذا العلم : حفظ الأموال بشروط للمعاملات وحفظ الأبدان بالأموال ويدفع القتل والجراحات ، والمال في طريق الله ألقوا البدين مركب . وإنما العلم المهم هو معرفة سلوك الطريق وقطع عقبات القلب التي هي الصفات المذمومة فهي الحجاب بين العبد وبين الله تعالى ، وإضافات ما لو أن تلك الصفات كان يحسبها عن الله . فثابه في الاختصار على علم الفقه مثال من اقتصر من سلوك طريق الحج على علم خرز الراوية والخف ، ولا شك في أنه لو لم يكن لتعلم الحج ، ولكن المختصر عليه ليس من الحج في شيء ولا بسيله - وقد ذكرنا شرح ذلك في كتاب العلم - ومن هؤلاء من اقتصر من علم الفقه على الخلافات ولم يمه إلا تعلم طريق الجادة والإلزام وإلزام الخصوم ودفع الحق لأجل الغلبة والمباهاة ، فهو طول الليل والنهار في التفتيش عن مناقضات أرباب المذاهب والتفقد لميوب الأقران والتحقق لآتراح التسيبات المؤذية ، وهؤلاء م سابع الإنس طبعهم الإيذاء ومهم السفه ، ولا يقصدون العلم إلا لضرورة ما يلزمهم لمباهاة الأقران ، فكل علم لا يحتاجون إليه في المباهاة كعلم القلب وعلم سلوك الطريق إلى الله تعالى يحسب الصفات المذمومة وتبدلها بالمحمودة فإنهم يستحقرون ويسمون الزويق وكلام الوعاظ ، وإنما التحقيق عندهم معرفة تفصيل العريضة التي تجري بين المتصارعين في الجدل . وهؤلاء قد جمعوا ما جمعه الذين من قبلهم في علم التناوي لكن زادوا إذ اشتغلوا بما ليس من فروض الكماليات أيضا ، بل جميع دقائق الجدل في الفقه بدعة لم يعرفها السلف ، وأما أدلة الأحكام فيشتمل عليها علم المذهب وهو كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وفهم معانيها . وأما حيل الجدل من الكسر والقلب وفساد الوضع والتركيب والتعمدية فلما أبدعت لإظهار الغلبة والإلزام وإقامة سوق الجدل بها فنزرو هؤلاء أشد كبراً وأقبح من غرور من قبلهم .

( وفرقة أخرى ) اشتغلوا بعلم السلام والمجادلة في الأهواء والرد على المخالفين وتتبع مناقضاتهم ، واستكثروا من معرفة المسائل المختلفة واشتغلوا بتعلم الطرق في مناظرة أولئك وإلحاحهم ، واقتروا في ذلك فرقا كثيرة ، واعتقدوا أنه لا يكون لعبد عمل إلا بإيمان ولا يصح إيمان إلا بأن يتعلم جندهم وما سموه أدلة عقائدهم ، وظنوا أنه لا أحد أعرف بالله وبصفاته منهم ، وأنه لا إيمان لمن لم يعتقد مذهبهم ولم يتعلم علمهم ، ودعت كل فرقة منهم إلى نفسها .

ثم هم فرقتان : حنابلة وعقبة ؛ فالحنابلة هي التي تدعو إلى غير السنة ، والحقبة هي التي تدعو إلى السنة والنزور شامل لجميعهم . أما الحنابلة : فلفظها عن ضلالها وظنها بنفسها البجاة ، وهم فرق كثيرة يكفر بعضهم بعضا ، وإنما أثبت من حيث لها لم تتم رأيا ولم تحكم أولا شروط الأدلة ومنهاجها ، فرأى أحدهم الشبهة دليلا والدليل شبهة . وأما الفرقة الحقبة : فلأنها اغترابا من حيث إنها ظنت بالجلد أنه أم الأمور وأفضل الثبرات في دين الله وزعمت أنه لا يتم لأحد دينه ما لم يفحص ويبحث ، وأن من صدق الله ورسوله من غير بحث وتحرير دليل فليس يؤمن أو ليس كامل الإيمان ولا مقرب عند الله

فلهذا التفرق القاسد قطعت أعمارها في تعلم الجدل والبحث عن المقالات وهذيانات المبتدعة ومناقضاتهم ، وأملوا أنفسهم وقلوبهم حتى عميت عليهم ذنوبهم وخطاياهم الظاهرة والباطنة ، وأحدم بظن أن اشتغاله بالجدل أول وأقرب عند الله وأفضل ، ولكنه لا تناديه بالغلبة والإلزام ولادة الرياسة وعز الاتياع إلى الذنب عن دين الله تعالى عميت بصيرته فلم يلتفت إلى القرن الأول ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم شهد لهم بأنهم خير الخلق ، وأنهم قد

أدركوا كثيراً من أهل البدع والهلوى فما جعلوا أعمارهم ودينهم غرضاً للتصومات والمجادلات وما اشتغلوا بذلك عن تفقد قلوبهم وجوارحهم وأحوالهم ، بل لم يتكلموا فيه إلا من حيث رأوا حاجة وتوسعوا تخايلاً يقولون فذكروا بقدر الحاجة ما يدل الضلال على ضلالته ، وإذا رأوا مصراً على ضلالة مجروه وأعرضوا عنه وأبغضوه في الله ولم يلزموا الملاحاة معه طول العمر ، بل قالوا : إن الحق هو الدعوة إلى السنة ومن السنة ترك الجدل في الدعوة إلى السنة . إذ روى أبو أمامة الباهلي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ما ضل قوم قط بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل <sup>(١)</sup> ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً على أصحابه وهم يتجادلون ويتعنصون فغضب عليهم حتى كأنه فق في وجهه حب الزمان <sup>(٢)</sup> - حرمة من الغضب - فقال : لهذا بعثتم بهذا أمرتم أن تعذبوا كتاب الله ببعضه بعض النظر إلى ما أمرتم به فاعلموا وما نهيتهم عنه فأنهوا ، فقد زجرهم عن ذلك وكانوا أولى خلق الله بالحجاج والجدال . ثم إنهم رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد بعث إلى كافة أهل الملل فلم يقعد بهم في مجلس مجادلة لإلزام وإلغام وتحقيق حجة ودفع سؤال وإيراد إلزام ، فما جادلهم إلا بتلاوة القرآن للنزل عليهم ولم يرد في المجادلة عليه لأن ذلك يشوش القلوب ويستخرج منها الإشكالات والكشوف ثم لا يقدر على محوها من قلوبهم ، وما كان يمجز عن مجادلتهم بالتفسيرات ودقائق الألفية . وأن يعلم أصحابه كيفية الجدل والإلزام ، ولكن الأكياس وأهل الحرم لم يفتروا بهذا وقالوا لو نجأ أهل الأرض وملكنا لم تنفعنا نجاتهم ولو نجونا وملكوا لم يضربنا هلاكهم ، وليس علينا في المجادلة أكثر مما كان على الصحابة مع اليهود والنصارى وأهل الملل ، وما ضيعوا العمر بتحريج مجادلتهم فإنا لنضع العمر ولا نصرفه إلى ما ينفعنا في يوم نقرباً وفائقاً ؟ ولم نخش فإنا نأمن على أنفسنا الخطأ في تفاصيله ؟ ثم نرى أن المبتدع ليس يترك بدعته بمجمله بل يريده التصبب والخصومة لثقتنا في بدعته ، فاشتغالي بمخاصمة نفسي ومجادلتها ومجادلتها لترك الدنيا للأخرة أولى ، هذا لو كنت لم أنه عن الجدل والخصومة فكيف وقد نهيت عنه ؟ وكيف أدع إلى السنة بترك السنة ؟ فالأولى أتفقد نفسي وأنظر من صفاتها ما يفضله الله تعالى وما يحبه لآفته عما يفضله وأتمسك بما يحبه .

( و فرقة أخرى ) اشتغلوا بالوعظ والتذكير ، وأعلام ربة من يكلم في أخلاق النفس وصفات القلب من الخوف والرجاء والصبر والشكر والتوكل والزهد واليقين والإخلاص والصدق ونظائره ، وهم مغرورون يظنون بأنفسهم أنهم إذا تسكلموا بهذه الصفات ودعوا الخلق إليها فقد صاروا موصوفين بهذه الصفات وهم منفكون عنها عند الله إلا عن قدر يسير لا ينفك عنه عوام المسلمين ، وغرور هؤلاء أشد الضرر لأنهم يمجزون بأنفسهم غاية الإعجاب ويظنون أنهم ما تبحروا في علم الحجة إلا وهم يحبون الله ، وما قدروا على تحقيق دقائق الإخلاص إلا وهم غفلون ، وما وقعوا على خفايا عيوب النفس إلا وهم عنها متهوون : ولولا أنه مقرب عند الله لما عرفه معنى القرب والبعد وعلم السلوك إلى الله وكيفية قطع المنازل في طريق الله ! فالمسكين بهذه الظنون يرى أنه من الخائفين وهو آمن من الله تعالى ، ويرى أنه من الراجين وهو المضيعين ، ويرى أنه من الراضين بقضاء الله وهو من الساهطين ، ويرى أنه من المتوكلين على الله وهو من للتسكين على الزوال والجاه والمال والأسباب ، ويرى أنه من المخلصين وهو من المرأين . بل يصف الإخلاص فيترك الإخلاص في الوصف ، ويصف الرياء ويذكره وهو يراقب ذكره ليمتدح فيه أنه لو لا أنه غلط لما اعتدى إلى دقائق الرياء ، ويصف الزهد في الدنيا لشدة حرصه على الدنيا وقوة غيبته فيها

(١) حديث « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل » تقدم في العلم ورواها الشيخان . (٢) حديث : خرج يوماً على أصحابه وهم يتجادلون ويتعنصون ، فغضب حتى كأنه فق في وجهه حب الزمان ... الحديث » تقدم .

فهو يظهر النداء إلى الله وهو منه قار ويخوف بالله تعالى وهو منه آمن . ويذكر بالله تعالى وهو له ناس ، ويقرب إلى الله وهو منه متباعد ، ويحث على الإخلاص وهو غير مخلص ، ويذم الصفات المذمومة وهو بها متصف ، ويصرف الناس عن الخلق وهو على الخلق أشد حرصا - لو منع عن مجلسه الذي يدعو الناس فيه إلى الله لضاقت عليه الأرض بما رحبت - ويرغم أن غرضه إصلاح الخلق ولو ظهر من أفرانه من أقبل الخلق عليه وصلحوا على يديه لمات غما وحسدا ، ولو أتى أحد من المترددين إليه على بعض أفرانه لكان أبغض خلق الله إليه . فهو لاء أعظم الناس غرة وأبعد عن التنبه والجوع إلى السداد ، لأن المرغب في الأخلاق المحمودة والمنفرد عن المذمومة هو العلم بغوائلها وفرائدها ، وهذا قد علم ذلك ولم ينفعه وشغلته حب دعوة الخلق عن العمل به . فبعد ذلك بماذا يعالج وكيف يسبيل نحوته ؟ وإنما الخوف ما يتلوه على عباد الله فيخافون وهو ليس بخائف نعم إن ظن نفسه أنه موصوف بهذه الصفات المحمودة يمكن أن يدل على طريق الامتحان والتجربة ، وهو أن يدعى مثلا حب الله فالذي تركه من محاب نفسه لأجله ؟ ويدعى الخوف فالذي امتنع منه بالخوف ؟ ويدعى الزهد فالذي تركه مع القدرة عليه لوجه الله تعالى ؟ ويدعى الأنس بالله في طاب له الخلوة ؟ ومتى استوحش من مشاهدة الخلق لا يرى قلبه يمتلئ بالخلوة إذا أحرق به المريدون وتراء يستوحش إذا خلا بالله تعالى فهل رأيت محبا يستوحش من محبه ويستوحش منه إلى غيره فالأكياس يمتحنون أنفسهم بهذه الصفات ويطلبونها بالحقيقة ولا يقنمون منها بالترقيق بل بمحقق من الله غليظ والمخترون يمتحنون بأنفسهم الظنون وإذا كشف الغطاء عنهم في الآخرة يفتضحون بل يطرحون في النار فتندلق أفتابهم فيبدور بها أحدهم كما بدور الحمار بالرحى كما ورد به الخبر لأنهم يأسرون بالخير ولا يأتونه وينهون عن الشر ويأتونه وإنما وقع الضرر هؤلاء من حيث إنهم يصادفون في قلوبهم شيئا ضعيفا من أصول هذه المعاني وهو حب الله والخوف منه والرضا بفعله ثم قدروا مع ذلك على وصف التنازل المالية في هذه المعاني فظنوا أنهم ما قدروا على وصف ذلك وما زرعهم الله عليه وما نفع الناس بكلامهم فيها إلا لانصافهم بها وذهب عليهم أن القول للكلام والسلام للعرفه وجربا باللسان والمعرفة بالعلم وأن كل ذلك غير الانصاف بالصفة فلم يبارق آحاد المسلمين في الانصاف بصفة الحب والخوف بل في القدرة على الوصف ، بل ربما زاد أمته وقل خوفه وظهر إلى الخلق ميله وضعف قلبه حب الله تعالى ؛ وإنما مثاله مثال مريض يصف المرض ويصف دواءه بفصاحته ، ويصف الصحة والشفاء ، وغيره من المرضى لا يقدر على وصف الصحة والشفاء وأسبابه ودرجاته وأصنافه ، فهو لا يفارقهم في صفة المرض والانصاف به وإنما يفارقهم في الوصف والعلم بالطب ، فظنه عند علمه بحقيقة الصحة أنه صحيح غاية الجمل ، فكذلك المسلم بالخوف والحب والتوكل والزهد وسائر هذه الصفات غير الانصاف بحقائقها . ومن التمس عليه وصف الحقائق بالانصاف بالحقائق فهو مفرو . فهذه حالة الوعاظ الذين لا عيب في كلامهم بل منهاج وعظم منهاج وعظ القرآن والأخبار وعظ الحسن البصري وأمثاله رحمة الله عليهم .

( و فرقة أخرى ) منهم عدلوا عن المهاج الواجب في الوعظ وهم وعاظ أهل هذا الزمان كافة إلا من عصمه الله ، على التدور في بعض أطراف البلاد إن كان ولنا نعرفه ، فاشتغلوا بالطعامات والشطط وتلفيت كلمات عارضة عن قانون الشرع والعقل طلبا للإغراب . و طائفة شغلوا بطيارات التكسب وتسجيع الالتقاط وتلفيتها فأكثر منهم بالاصحاح والاستشهاد بأشمار الوصال والفرار ، وغرضهم أن تمكث في مجالسهم الإوقات والتواجد ولو على أغراض فاسدة ، هؤلاء شياطين الإنس خلوا وأضلوا عن سوا السبيل ، فإن الأولين وإن لم يصلحوا أنفسهم فقد

أصلحو غيرهم وصحوا كلامهم ووعظهم . وأما هؤلاء فلأنهم يصنون عن سبيل الله ويعبرون الخلق إلى الغرور بأه  
بلفظ الجاء فيزيدهم كلامهم جراءة على المعاصي وورعة في الدنيا ، لاسيما إذا كان الواعظ متدينا بالثياب والجليل  
والراكب فإنه تشبه هيئة من فرقة إلى قدمه بشدة حرصه على الدنيا فبا يفسده هذا المنور أكثر مما يصلحه بل  
لا يصلح أصلا ويضل خلقا كثيرا ولا يخفى وجه كونه مفرورا .

( وفرقة أخرى ) منهم قعدوا بحفظ كلام الزهاد وأحاديثهم في ذم الدنيا فهم يحفظون الكلمات على وجهها  
ويؤدونها من غير إحاطة بمعانيها فبعضهم يفعل ذلك على المنابر ، وبعضهم في المحارب ، وبعضهم في الأسواق مع  
الجلساء وكل منهم يظن أنه إذا تميز بذا القدر عن السوق والجندي ، إذ حفظ كلام الزهاد وأهل الدين دونهم فقد  
أفلق ونال الغرض ، وصار منفورا له وأمن عقاب الله من غير أن يحفظ ظاهره وباطنه عن الآثام ، ولكنه يظن  
أن حفظه لكلام أهل الدين يكفي . وغرور هؤلاء أظهر من غرور من قبلهم .

( وفرقة أخرى ) استغفروا أوقاتهم في علم الحديث أعنى في سماعه وجمع الروايات الكثيرة منه وطلب الأسانيد  
التربية العالية فهمة أحدهم أن يدور في البلاد ويرى الشيخ ليقول : أنا أروى عن فلان ولقد رأيت فلانا ومعنى  
من الإسناد ما ليس مع غيره . وغرورهم من وجوه : منها أنهم بكلمة الأسفار فلأنهم لا يصرفون العناية إلى فهم معاني  
السنة فلهذه قاصر وليس معهم إلا النقل ويظنون أن ذلك يكفيهم ومنها أنهم إذا لم يفهموا معانيها ولا يعملون بها وقد  
يفهمون بعضها أيضا ولا يعملون به . ومنها أنهم يتركون العلم الذي هو فرض عين وهو معرفة علاج القلب  
ويشتغلون بتكثير الأسانيد وطلب المال منها ولا حاجة بهم إلى شيء من ذلك ومنها وهو الذي أكب عليه أهل  
الزمان أنهم أيضا لا يقيمون بشرط السماع فإن السماع مجزؤه وإن لم تكن له فائدة ولكنه مهم في نفسه للوصول  
إلا لإثبات الحديث إذ التفهم بعد الإثبات والعمل بعد التفهم ، فالأول السماع ثم التفهم ثم الحفظ ثم العمل ثم النشر  
وهؤلاء اقتصرأوا من الجملة عن السماع ثم تركوا حقيقة السماع ، فترى الصبي يحضر في مجلس الشيخ والحديث يقرأ  
والشيخ ينأم والصبي يلمع ، ثم يكتب اسم الصبي في السماع فإذا كبر تصدق ليسمع منه والبالغ الذي يحضر ربما  
ينفل ولا يسمع ولا يصغي ولا يضبط وربما يشتغل بمحدث أو نسخ ، والشيخ الذي يقرأ عليه لو صحف وغير  
ما يقرأ عليه لم يشعر به ولم يعرفه ، وكل ذلك جهل وغرور . إذ الأصل في الحديث أن يسمعه من رسول الله صلى الله  
عليه وسلم فيحفظه كما سمعه ، ويرويه كما حفظه ، فتكون الرواية عن الحفظ والحفظ عن السماع . فإن عجزت عن  
سماعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعته من الصحابة أو التابعين وصار سماعك عن الراوي كسماع من سمع  
من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أن تصغي لتسمع فتحفظ وتروى كما حفظت ، وتحفظ كما سمعت بحيث  
لا تغير منه حرفا ولو غير غيرك منه حرفا أو أخطأ علمت خطأه .

ولحفظك طريقان ( أحدهما ) أن تحفظ بالقلب وتستدعيه بالذكر والتكرار كما تحفظ ما جرى على سمعك في  
جاري الأحوال . ( والثاني ) أن تكتب كما تسمع وتصح المكتوب وتحفظه حتى لا تسفل إليه يد من يغيره ،  
ويكون حفظك للكتاب ملك وفي خزانتك ، فإنه لو امتدت إليه يد غيرك ربما غيره ، فإذا لم تحفظه لم تشعرب بتغييره  
فيكون محفوظا بقلبك أو بكتابك فيكون كتابك مذكرا لما سمعته وتأمين فيه من التغير والتعريف .

فإذا لم تحفظ لا بالقلب ولا بالكتاب وجرى على سمعك صوت غفل وطارقت المجلس ، ثم رأيت نسخة لذلك  
الشيخ وجوزت أن يكون ما فيه مغيرا أو ينفارق حرف منه للنسخة التي سمعتها لم يجر لك أن تقول : سمعت هذا  
الكتاب ، فإنه لا يندري لعلك لم تسمع ما فيه بل سمعت شيئا يخالف ما فيه ولو في كلمة . فإذا لم يكن ملك حفظ

بقيلك ولا نسخة صحيحة استوفت عليها تقابل بها فن أين تعلم أنك سمعت ذلك ؟ وقد قال الله تعالى ﴿ ولا تحف مائس لك به علم ﴾ وقول الشيخو كلهم في هذا الزمان إنما سمعنا ماني هذا الكتاب إذا لم يوجد الشرط الذي ذكرناه فهو كذب صريح . وأقل شروط السماع أن يجري الجمع على السمع مع نوع من الحفظ يشعر معه بالتغير ولو جاز أن يكتب سماع الصبي والناقل والثام والذي ينسخ لجاز أن يكتب سماع الجنون والصبي في المهد ، ثم إذا بلغ الصبي وأفاق الجنون يسمع عليه ولا خلاف في عدم جوازه ، ولو جاز ذلك لجاز أن يكتب سماع الجنين في البطن فإن كان لا يكتب سماع الصبي في المهد لأنه لا يفهم ولا يحفظ ، فالصبي الذي لا يلعب والناقل والمشتغل بالنسخ عن السماع ليس بينهما ولا يحفظ ، وإن استجرا جاهل فقال : يكتب سماع الصبي في المهد فليكتب سماع الجنين في البطن ، فإن فرق بينهما بأن الجنين لا يسمع الصوت وهذا يسمع الصوت فابتنع هذا وهو إنما ينقل الحديث دون الصوت ، فليقتصر إذا صار شيئا على أن يقول : سمعت بعد بولغى أن في صباى حضرت مجلسا يروى فيه حديث كان يقرع سمعى صوته ولا أدري ما هو ؟ فلا خلاف في أن الرواية كذلك لا تصح وما زاد عليه فهو كذب صريح ولو جاز إثبات سماع التركي الذي لا يفهم العربية أنه سمع صوتا غفلا لجاز إثبات سماع صبي في المهد وذلك غاية الجهل . ومن أين يأخذ هذا وهل السماع مستند إلا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فأذاها كما سمعها »<sup>(١)</sup> وكيف يؤدي كما سمع من لا يدري ما سمع فهذا أحسن أنواع الضرر . وقديلي بهذا أهل الزمان ولو اختلط أهل الزمان لم يجدوا شيئا إلا ما لا يدين سمعوه في الصبا على هذا الوجه مع الغفلة ، إلا أن للمحدثين في ذلك جاها وقبولا ، غلاف المساكين أن يشترطوا ذلك فيقول من يجتمع لذلك في حلقهم يفتض جاههم ، وتقول أيضا أحاديثهم التي قد سمعوها بهذا الشرط بل ربما عدوها ذلك واقتضوا ، فاصطعروا على أنه ليس يشترط إلا أن يقرع سمعه دمدمة وإن كان لا يدري ما يجري ؟ وصحة السماع لا تعرف من قول المحدثين لأنه ليس من علمهم بل من علم علماء الأصول بالفقه وما ذكرناه مقطوع به في قوانين أصول الفقه فهذا ضرر هؤلاء ، ولو سمعوا على الشرط لكانوا أيضا مفرورين في اقتصارهم على النقل وإفناء أعمارهم في جمع الروايات والأسانيد وإزعاجهم عن مهمات الدين ومعركة معاني الاختيار ، بل الذي يقصد من الحديث سلوك طريق الآخرة وسالك طريقها بما يكفيه الحديث الواحد عمره ، كما روى عن بعض الشيخوخ أنه حضر مجلس السماع فكان أزل حديثه روى قوله عليه الصلاة والسلام « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه »<sup>(٢)</sup> ، فقام وقال : يكفيني هذا حتى أفرغ منه ثم أسمع غيره . فهكذا يكون سماع الأكياس الذين يحذرون الضرر .

(و فرقة أخرى) اشتغلوا بعلم النحو واللغة والشعر وغريب اللغة واغثروا به وزعموا أنهم قد غفر لهم وأنهم من علماء الأمة ، إذ قروا الدين بالكتاب والسنة ، وقروا الكتاب والسنة بعلم اللغة والتشويق فأفني هؤلاء أعمارهم في دقائق النحو وفي صناعة الشعر وفي غريب اللغة ، ومثالهم كمن يقضى جميع العمر في تعلم الخط وتصحيح الحروف وتصحيحها ويرغم أن العلوم لا يمكن حفظها إلا بالكتابة فلا بد من تعلمها وتصحيحها ، ولو عقل لعلم أنه يكفي أن يتعلم أصل الخط بحيث يمكن أن يقرأ كيفما كان والباقي زيادة على الكفاية ، وكذلك الأدبي لو عقل لعرف أن لغة العرب كلغة الترك والضيع عمره في معرفة لغة العرب كالمضيع له في معرفة لغة الترك والهند ، وإنما فارقها لغة

(١) حديث « نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها » . الحديث « أخرجه أصحاب السنن وابن حبان من حديث زيد بن ثابت والترمذي وابن ماجه من حديث ابن مسعود وقال الترمذي حديث حسن صحيح وابن ماجه فقط من حديث جبير بن مطعم وأنس (٢) حديث من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » أخرجه الترمذي وقال غريب وابن ماجه من حديث أبي هريرة وهو عند مالك من رواية علي بن الحسين مرسل وقد تقدم .

العرب لأجل ورود الشريعة بها ، فيكفي من اللغة علم التريين في الأحاديث والكتاب ، ومن النحو ما يتعلق بالحديث والكتاب فأما التعمق فيه إلى درجات لا تنتهى فهو فضول مستغنى عنه ، ثم لم يقتصر عليه وأعرض عن معرفة معاني الشريعة والعمل بها فهذا أيضا مفروور ، بل مثاله مثاله مثال من ضيع عمره في تصحيح غلج الحروف في القرآن واقتصر عليه وهو غرور ، إذ المقصود من الحروف المعاني وإنما الحروف ظروف وأدوات ، ومن احتاج إلى أن يشرب السكتجين ليزول ما به من الصفراء وضع أوقاته في تحسين القمح الذي يشرب فيه السكتجين فهو من الجهال المفرورين ، فذلك غرور أهل النحو واللغة والأدب والقراءات والتدقيق في مخارج الحروف مهما تعمقوا فيها وتجزدوا لها وعرجوا عليها - أكثر عما يحتاج إليه في تعلم العلوم التي هي فرض عين - غالب الأتقى هو العمل والذي فقه هو معرفة العمل ، وهو كالقشر للعمل وكالبالإضافة إلى ما فقه وما فقه هو سماع الألفاظ وحفظها بطريق الرواية ، وهو قشر بطريق الإضافة إلى المعرفة ولب الإضافة إلى ما فقه ، وما فقه هو العلم باللغة والنحو وفوق ذلك وهو القشر الأعلى العلم بمخارج الحروف ، والقائلون بهذه الدرجات كلهم مغترون إلا من اتخذ هذه الدرجات منازل فلم يعرج عليها إلا بقدر حاجته ، فتجاوز إلى ما وراء ذلك حتى وصل إلى باب العمل فطالب بحقيقة العمل قلبه وجوارحه ورجى عمره في حل النفس عليه وتصحيح الأعمال وتصفيتها عن الشوائب والآفات . فهذا هو المقصود المخدم من جملة علوم الشرع وسائر العلوم خدم له ووسائل إليه وقصور له ومنازل بالإضافة إليه ، وكل من لم يبلغ المقصد فقد غاب سواء كان في المنزل القريب أو في المنزل البعيد . وهذه العلوم لما كانت متعلقة بعلوم الشرع اغتر بها أربابها ، فأما علم الطب والحساب والصناعات وما يعلم أنه ليس من علوم الشرع فلا يعتقد أصحابها أنهم يتناولون المغفرة بها من حيث إنها علوم فكان الغرور بها أقل من الغرور بعلوم الشرع ، لأن العلوم الشرعية مشتركة في أنها عمدة كما يشارك القشر القلب في كونه عمودا ولكن المحمود منه لئنه هو للتقى . والثاني محمود لوصول به إلى المقصود الأتقى فن اتخذ القشر مقصودا وعرج عليه فقد اغتر به .

( ووفرة أخرى ) عظم غرورهم في فن الفقه فظنوا أن حكم العبد بينه وبين الله يتبع حكمه في مجلس القضاء فوضعوا الحيل في دفع الحقوق وأساءوا تأويل الألفاظ المهمة واغتروا بالظواهر وأخطأوا فيها . وهذا من قبيل الخطأ في الفتوى والغرور فيه والخطأ عما يكثر . ولكن هذا نوع عم الكافة إلا الأكياس منهم فتشبه إلى أمثلة : فن ذلك فتوهم بأن المرأة متى أبرأت من الصدق برئ الزوج بينه وبين الله تعالى ، وذلك خطأ بل الزوج قد يسىء إلى الزوجة بحيث يضيق عليها الأمور بسوء الخلق فتضطر إلى طلب الخلاص فتبرئ الزوج لتخلص منه فهو إراء لا على طيبة نفس وقد قال تعالى ﴿ فلن طين لکم عن شيء منه نفسا فكلوه نيتا موبئا ﴾ وطيبة النفس غير طيبة القلب ، فقد يريد الإنسان بقلبه ما لا تطيب به نفسه فإنه يريد الحجابة بقلبه ولكن تتركها نفسه ، وإنما طيبة النفس أن تسمح نفسها بالإبراء لا عن ضرورة تقابلها حتى إذا رددت بين ضررين اختارت أهمتها فهذه مصادرة على التحقيق لا كراه الباطن . نعم القاضي في الدنيا لا يطلع على القلوب والأغراض ، فينظر إلى الإبراء الظاهر وأنها لم تتركه بسبب ظاهر والإبراء الباطن ليس يطلع الخلق عليه ، ولكن مهما تصدى القاضي الأكبر في صعيد القيامة للقضاء لم يكن هذا غسوبا ولا مقيدا في تحصيل الإبراء ، ولذلك لا يحمل أن يؤخذ مال إنسان إلا لطيب نفس منه ، فلو طلب من الإنسان مالا على ملا من الناس فاستجيا من الناس أن لا يعطيه وكان يريد أن يكون سؤاله في خطوة حتى لا يعطيه ، ولكن غاف ألم مذمة الناس وغاف ألم تسليم المال ، وردد نفسه بينهما

فاختار أهون الأملين وهو ألم التسليم فسله ، فلا فرق بين هذا وبين المصادرة إذ معنى المصادرة إيلام البدن بالسوط حتى يصير ذلك أقوى من ألم القلب يذلل المال فيختار أهون الأملين ، والسؤال في مظنة الحياء والرياء ضرب للقلب بالسوط ، ولا فرق بين ضرب الباطن وضرب الظاهر عند الله تعالى فإن الباطن عند الله تعالى ظاهر ، وإنما حاكم الدنيا هو الذي يحكم بالملك بظاهر قوله وهبت لأنه لا يمكنه الوقوف على مافي القلب ، وكذلك من يعطي إتمام لشرفه أو لشرفه ما فيه فهو حرام عليه ، وكذلك كل مال يؤخذ عن هذا الوجه فهو حرام . ألا ترى ما جاء في قصة داود عليه السلام حيث قال - بعد أن غفر له - يارب كيف لي بخصمي ؟ فأمر بالاستحلال منه وكان ميتا فأمر بتداته في صخرة بيت المقدس ، فنادى : يا أوروبا ، فأجاب : ليك يا بني الله أخرجتني من الجنة فإذا تريد ؟ فقال : إني أسأت إليك في أمر ففهي لي ، قال : قد فعلت ذلك يا بني الله ، فأعصفت وقد ركن إلى ذلك فقال له جبريل عليه السلام : هل ذكرت له ما فعلت ؟ قال : لا ، قال : فارجع فبين له ، فرجع فناداه فقال : ليك يا بني الله ، فقال : إني أذنبت إليك ذنبا ، قال : ألم أهيك لك ؟ قال : ألا تسألني ما ذلك الذنب ؟ قال : ما هو يا بني الله ؟ قال : كنا وكذا ، وذكر شأن المرأة فانقطع الجواب ، فقال يا أوروبا ألا تجهينني ؟ قال : يا بني الله ما يمكنك بفعل الأنبياء حتى أقف معك بين يدي الله ، فاستقبل داود البكاء والصراخ من الرأس حتى وعده الله أن يستومه منه في الآخرة . فهكذا يفهم أن الهبة من غير طيبة قلب لا تفيد ، وأن طيبة القلب لا تحصل إلا بالمرقة ، فكذلك طيبة القلب لا تكون في الإبراء والهبة وغيرهما إلا بإذخال الإنسان واختياره ، حتى تمتنع المعاي من ذات نفسه لا أن تضطر براعته إلى الحركة بالخيال والإلزام . ومن ذلك هبة الرجل مال الزكاة في آخر الحول من زوجته واتباعها لما لا يسقط الزكاة ، فالفقيه يقول : سقطت الزكاة ، فإن أراد به أن مطالبة السلطان والساعي سقطت عنه فقد صدق فإن مطمح نظرم ظاهر الملك وقد زال ، وإن ظن أنه يسلم في القيامة ويكون كن لم يملك للمال ، أو كن باع حاجته إلى المبيع لأعلى هذا القصد فاعظم جهله بفقه الدين وسر الزكاة ، فإن سر الزكاة تطهير القلب عن رذيلة البخل فإن البخل مهلك قال صلى الله عليه وسلم : ثلاث مهلكات شح مطاع (١) ، وإنما صار شح مطاع بما فعله وقبله لم يكن مطاعا . فقد تم هلاكه بما يظن أن فيه خلاصه فإن الله مطلع على قلبه ووجه المال وحرصه عليه ، وأنه بلغ من حرصه على المال أن استنبط الخيل حتى يستدل نفسه طريقا للخلاص من البخر بالجهل والفرور ، ومن ذلك إباحة الله مال المصالح للفقيه وغيره بغير الحاجة ، والفقهاء المغرورون لا يميزون بين الأمانى والفضول والشهوات وبين الحاجات ، بل كل مالا تم رعونتهم إلا به يروونه حاجة وهو محض الفرور ، بل الدنيا خلقت لحاجة العباد إليها في العبادة وسلوك طريق الآخرة ، فكل ما تناوله العبد للاستعانة به على الدين والعبادة فهو حاجته وماعدا ذلك فهو فضوله وشهوته ، ولو ذهبت نصف غرور الفقهاء في أمثال هذا المأنا فيه مجلدات والفرور من ذلك التفهيم على أمثلة تعرف الأجناس دون الاستيعاب فإن ذلك يطول .

الصف الثاني : أرباب العبادة والعمل والمغرورون منهم فرق كثيرة فمنهم من غروره في الصلاة . ومنهم من غروره في تلاوة القرآن . ومنهم في الحج . ومنهم في الفزو . ومنهم في الإهدو وكذلك كل مشغول بمنهج من مناهج العمل فليس غالبا عن غرور إلا الأكياس وقليل مام .

( فمنهم فرقه ) أهملوا الفرائض واشتغلوا بالتفائل والتوازل وربما تعمقوا في الفضائل حتى خرجوا إلى العدوان

(١) حديث « ثلاث مهلكات ... الحديث » هدم غير مرة



والسرف ، كالتدبىء عليه الوسوسة فى الرضوء فىسألف فيه ولا يرضى الماء المحكوم بطهارته فى فتوى الشرع ، ويقدر الاحتمالات البعيدة قريبة فى التجاسة ، وإذا أُلّا لأمر إلى أكل الحلال قدر الاحتمالات القريبة بعيدة وربما أكل الحرام المحض ، ولو انقلب هذا الاحتياط من الماء إلى الطعام لكان أشبه بسياسة الصحابة ، إذ توصى عمر رضى الله عنه بماء فى جزة نصراية مع ظهور احتمال التجاسة وكان مع هذا يدع أبوابا من الحلال بخلافه من الوقوع فى الحرام . ثم من هؤلاء من يخرج إلى الإسراف فى صب الماء وذلك منهى عنه <sup>(١)</sup> ، وقد يطول الأمر حتى يضع الصلاة ويخرجها عن وقتها ، وإن لم يخرجها أيضا عن وقتها فهو مغرور لما فاته من فضيلة أول الوقت ، وإن لم يفته فهو مغرور لإسرافه فى الماء ، وإن لم يصرّف فهو مغرور لتضييعه العمر الذى هو أعر الأشياء . فبالله مندوحة عنه ، إلا أن الشيطان يصدّ الخلق عن الله بطريق سئ ، ولا يقدر على صدّ العباد إلا بما يخيل إليهم أنه عبادة فيه . قدم عن الله بمثل ذلك .

( وفرقة أخرى ) غلب عليها الوسوسة فى نية الصلاة فلا يدعه الشيطان حتى يعقد نية صحيحة بل يتوشى عليه حتى تفوته الجماعة ويخرج الصلاة عن الوقت ، وإن تم تكبيره فيكون فى قلبه بعد تردد فى صحة نيته ، وقد يوسوسون فى التكبير حتى قد يغيرون صيغة التكبير لشدة الاحتياط فيه ، يفعلون ذلك فى أول الصلاة ثم يفعلون فى جميع الصلاة فلا يحضرون قلوبهم ، ويتركون بذلك يفعلون أنهم إذا أنعموا أنفسهم فى تصحيح النية فى أول الصلاة وتميزوا عن العامة بهذا الجهد والاحتياط فهم على خير عند ربهم .

( وفرقة أخرى ) تغلب عليهم الوسوسة فى إخراج حروف الفاتحة وسائر الأذكار من مخارجهم فلا يزال يحايط فى التشديدات والفرق بين الضاد والظاء وتصحيح مخارج الحروف فى جميع صلاته ، لانه غير ولا يتفكر فيها سواء ذاملا عن معنى القرآن والالتماظ به وصرف الفهم إلى أسرار . وهذا من أقبح أنواع الغرور فإنه لم يكلف الخلق فى تلاوة القرآن من تحقيق مخارج الحروف إلا بما جرت به عادتهم فى الكلام .

ومثال هؤلاء مثال من حل رسالة إلى مجلس سلطان وأمر أن يؤدبها على وجهها ، فأخذ يؤدى الرسالة ويتأقن فى مخارج الحروف ويكررها ويعيدها مرة بعد أخرى وهو فى ذلك غافل عن مقصود الرسالة وسراعاة حرمة المجلس فما أحرأ بأن تمام عليه السياسة ويرد إلى دار المجانين ويحكم عليه بفقد العقل .

( وفرقة أخرى ) اغتروا بقرأة القرآن فيهدونه هنا وربما يجتمعونه فى اليوم والليلة مرة ، ولسان أحدهم يجرى به وقلبه يتردد فى أودية الأمانى إذ لا يتفكر فى معانى القرآن لينجز برؤا جره ويتعظ بمواعظهم ونف عند أوامره ونواهيهم ويعتبر بمواضع الاعتبار إلى غير ذلك مما ذكرناه فى كتاب تلاوة القرآن من مقاصد التلاوة - فهو مغرور يظن أن المقصود من إزال القرآن المهمة به مع الغفلة عنه .

ومثاله : مثال عبد كتب إليه مولاة ومالكة كتابا وأشار عليه فيه بالأوامر والنواهي ، فلم يصرف عنايته إلى فهمه والعمل به ولكن اقتصر على حفظه فهو مستمر على خلاف ما أمره به مولاة ، لأنه لا يكرر الكتاب بصوته ونفتمته كل يوم مائة مرة فهو مستحق العقوبة ، ومهما ظن أن ذلك هو المراد منه فهو مغرور . نعم تلاوته إنما تراد لكيلا ينسى بعد لحفظه وحفظه يراد لمنهائه ومعناه يراد للعمل به والانتفاع بمعانيه ، وقد يكون له صوت طيب فهو يقرؤه ويلتذ به ويترنن باستلذاذه ويظن أن ذلك لئلا مناجاة الله تعالى وسماع كلامه وإيماء لربه فى صوته ،

(١) حديث : انتهى من الإسراف فى الرضوء . أخرجه الترمذى ووضعه وابن ماجه من حديث أبى بن كعب . ان الرضوء شيطانا يقال له الوهان ... الحديث . وتهدم فى مجانب القلب .

ولو ردد الخانه بشعر أو كلام آخر لالتذ به ذلك الالتذاذ ، فهو مفرور إذ لم يتفقد قلبه فيعرفه أن لذته بكلام الله تعالى من حيث حسن نطقه ومعانيه أو بصوته .

( و فرقة أخرى ) اغتروا بالصوم وربما صاموا الدهر أو صاموا الأيام الشريفة وهم فيها لا يحفظون ألسنتهم عن التبيية وخواطهم عن الرياء ويطولونهم عن الحرام عند الإفطار وألسنتهم عن الهديان بأنواع الفضول طول النهار ، وهو مع ذلك يظن بنفسه الخير فيحمل الفرائض ويطلب النفل ثم لا يقوم بحقه وذلك غاية الغرور .

( و فرقة أخرى ) اغتروا بالحج فيخرجون إلى الحج من غير خروج عن المظالم وقضاء الديون واسترضاء الرالدين وطلب الزاد الحلال ، وقد يفعلون ذلك بعد سقوط حجة الإسلام ويضمعون في الطريق الصلاة والفرائض ويعجزون عن طهارة الثوب والبدن ويترضون لمكس الظللة حتى يؤخذ منهم ، ولا يحذرون في الطريق من الرفث والخصام ، وربما جمع بعضهم الحرام وأنفق على الرفقاء في الطريق وهو يطلب به السمعة والرياء فيصبي الله تعالى في كسب الحرام أژلا وفي إنفاقه بالرياء ثانيا فلا هو أخذه من حله ولا هو وضعه في حقه ، ثم يحضر البيت بقلب ملوث برذائل الأخلاق وذم الصفات لم يقدم تطهيره على حضوره وهو مع ذلك يظن أنه على خير من ربه فهو مفرور .

( و فرقة أخرى ) أخذت في طريق الحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ينكر على الناس وبأمرهم بالخير وينسى نفسه ، وإذا أمرم بالخير عنف وطلب الرياسة والعمرة وإذا باشر منكرا ورد عليه غضب وقال : أنا المحسب فكيف تنكر على ؟ وقد يجمع الناس إلى مسجده ومن تأخر عنه أغلظ القول عليه وإنما غرضه الرياء والرياسة ، ولو قام بتهدد المسجد غيره لحد عليه ، بل منهم من يؤذن ويظن أنه يؤذن له ولو جاء غيره وأذن في وقت غيبته قامت عليه القيامة وقال : لم أأخذ حتى وزجحت على مرتبتي ، وكذلك قد يتفقد إمامة مسجد ويظن أنه على خير وإنما غرضه أن يقال إنه إمام مسجد فلو تقدم غيره وإن كان أروع وأعلم منه ثقل عليه .

( و فرقة أخرى ) جاوروا بمكة أو المدينة واغتروا بمكة ولم يراقبوا قلوبهم ولم يطهروا أظفارهم وباطنهم فقلوبهم ملهقة ببلادهم ملتفتة إلى قول من يعرفه أن فلانا مجاور بذلك ، وتراء يتحدث ويقول : قد جاورت بمكة كذا كذا سنة ، وإذا سمع أن ذلك فيصح ترك صريح التحذى وأحب أن يعرفه الناس بذلك ثم إنه قد مجاور ويمد عين طمعه إلى أوساخ أموال الناس وإذا جمع من ذلك شيئا شح به وأمسكه لم تسمع نفسه بقلعة يتصدق بها على فقير فيظهر فيه الرياء والبخل والطمع وجملة من الملهكات كان عنها يمزل لو ترك المجاورة ، ولكن حب المحمدة وأن يقال إنه من المجاورين الزمة المجاورة مع التضيغ بهذه الرذائل فهو أيضا مفرور ، وما من عمل من الأعمال وعبادة من العبادات إلا وفيها آفات فمن لم يعرف مداخل آفاتنا واعتمد عليها فهو مفرور ، ولا يعرف شرح ذلك إلا من جملة كتب إحياء علوم الدين ، فيعرف مداخل الغرور في الصلاة من كتاب الصلاة ، وفي الحج من كتاب الحج ، والزكاة والتلاوة وسائر القربات من الكتب التي رتبناها فيها ، وإنما النرض الآن الإشارة إلى مجامع ما سبق في الكتب .

( و فرقة أخرى ) زهدت في المال وقتحت من اللباس والطعام بالدون ومن المسكن بالمساجد وظنت أنها أدركت رتبة الزهاد ، وهو مع ذلك راغب في الرياسة والجاه إما بالملم أو بالوعظ أو بمجد الزاهد ، فقد ترك آمون الأمرين وباه بأهمل للمهلكين ، فلان الجاه أعظم من المال ولو ترك الجاه وأخذ المال كان إلى السلامة أقرب فهذا

مفرور إذ ظن أنه من الزهاد في الدنيا وهو لم يفهم معنى الدنيا ، ولم يدرك متى لذاتها رياسة وأن الزاغب فيها لا بد وأن يكون منافقا وحسودا ومتكبرا ومراثيا ومتصفا بجميع خبايا الأخلاق . ثم وقد ترك الرياسة ويؤثر الخلة والعزلة وهو مع ذلك مفرور إذ يتناول بذلك على الأغنياء ويغضن معهم الكلام وينظر إليهم بعين الاستخار ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم ويمسح بعمله ويتصف بمجمله من خبايا القلوب وهو لا يدري ، وربما يطل المال فلا يأخذه خيفة من أن يقال بطل زهده ، ولو قيل له إنه حلال فغذه في الظاهر وردة في الخفية لم تسمع به نفسه خوفا من ذم الناس ، فهو راغب في حمد الناس وهو من ألد أبواب الدنيا ، ويرى نفسه أنه زاهد في الدنيا وهو مفرور ومع ذلك فرميا لا يخطر من توقير الأغنياء وتعديهم على الفقراء والميل إلى المريدن له والمثنين عليه والنفرة عن المائلين إلى غيره من الزهاد ، وكل ذلك خدعة وغرور من الشيطان نفوذ بالله منه . وفي المباد من يشهد على نفسه في أعمال الجوارح حتى ربما يصل في اليوم واليلة مثلا ألف ركعة ويحتم القرآن وهو في جميع ذلك لا يخطر له مراعاة الغيب وتفقدته وتطهيره من الرياء والكبر والمجب وسائر المهلكات فلا يدرك أن ذلك مهلك ، وإن علم ذلك فلا يظن بنفسه ذلك ، وإن ظن بنفسه ذلك توهم أنه مغفور له لعمله الظاهر وأنه غير مؤاخذ بأحوال القلب ، وإن توهم فيظن أن العبادات الظاهرة تترجع بها كافة حسناته وهيبات ! وذرة من ذى تقوى وخلق واحد من أخلاق الأكياس أفضل من أمثال الجبال علا بالجوارح ، ثم لا يخطر هذا الفذور - مع سوء خلقه مع الناس وخسوته وتلوث باطنه - عن الرياء وحب الشاء ، فلذا قيل له أنت من أوتاد الأرض وأوليأ الله وأحباه فخرج المغرور بذلك وصدق به وزاده ذلك غرورا ، وظن أن توكية الناس له دليل على كونه مرضيا عند الله ولا يدرك أن ذلك لجهل الناس بخبايا باطنه .

[illegible]

(١) حديث « ما تهرب المتأثرون لما يمتل آداء ما اقترنت عليهم » أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة بلفظ « سترت »  
 (٢) حديث « من أرب » قال « أمك... الحديث » أخرجه الترمذي والمالك وصححه من حديث زيد بن حكيم عن  
 أبي عن جده وقد تقدم في آداب الصحة .

بالوفاء بالوعد مصيبة وإن كان هو طاعة في نفسه . وكذلك قد تصيب ثوبه التجاسة فيغلظ القول على أبويه وأهله بسبب ذلك فالتجاسة محذورة وإبناؤهما عذور ، والحذر من الإيذاء أهم من الحذر من التجاسة . وأمثلة تقابل المحذورات والطاعات لا تنحصر . ومن ترك الترتيب في جميع ذلك فهو مغرور . وهذا غرور في غاية الغموض لأن الغرور فيه في طاعة إلا أنه لا يفتن لصيرورة الطاعة مصيبة حيث ترك بها طاعة واجبة هي أهم منها . ومن جملة الاشتغال بالذهب والخلاف من الفقه في حق من يقي عليه شغل من الطاعات والمعاصي الظاهرة والباطنة المتعلقة بالجوارح والمتعلقة بالقلب لأن مقصود الفقه معرفة ما يحتاج إليه غيره في حوائجه . ففرقة ما يحتاج هو إليه في قلبه أولى به إلا أن حب الرياسة والجاه ولذة المباهاة وفقر الأقران والتقدم عليهم يعمى عليه حتى يفتري به مع نفسه ويظن أنه مشغول بهم دية .

الصف الثالث : المتصوفة وما أغلب الغرور عليهم والمتفرون منهم فرق كثيرة .

( فرقة منهم ) وهم متصوفة أهل الزمان إلا من عصمه الله اغتروا بالزى والهيئة والمنطق ، فساعدوا الصادقين من الصوفية في زيمهم وميئتهم وفي ألفاظهم وفي آدابهم ومراسمهم واصطلاحاتهم ، وفي أحوالهم الظاهرة في السباع والرقص والطهارة والصلاة والجلوس على السجادات مع إطراق الرأس وإدخاله في الجيب كالمتفكر وفي تنفس الصعداء وفي خفض الصوت في الحديث إلى غير ذلك من التباين والحيثيات ، فلما تكلفوا هذه الأمور وتشبهوا بهم فيها ظنوا أنهم أيضا صوفية ولم يتعمروا أنفسهم قط في المجاهدة والرياسة ومراقبة القلب ، وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الخفية والجليلة ، وكل ذلك من أوائل منازل التصوف ، ولو فرغوا عن جميعها لما جاز لهم أن يعدوا أنفسهم في الصوفية ؟ كيف ولم يحرموا قط حولها ولم يسوموا أنفسهم شيئا منها ؟ بل يتكالبون على الحرام والشبهات وأموال السلاطين ويتفاسسون في الرغيف والفلس والحية ويتحاسدون على التقير والتطهير وعجز بعضهم أعراس بعض مهاب خالفة في شيء من غرضه . وهؤلاء غرورهم ظاهر ومثالهم مثال امرأة عجوز سمعت أن الشجيمان والأبطال من المحافلين ثبت أسماؤهم في الديوان ويقطع لكل واحد منهم قطر من أنطار المملكة ، فتأقت نفسها إلى أن يقطع لها علسكة فلبست درعا وضمت على رأسها مغفرا وتملت من وجع الأبطال أليانا وتعودت إيراد تلك الأليات بنهايتهم حتى تيسرت عليها وتملت كيفية تخترهم في الميدان وكيف تحريكهم الأبدى وتلففت جميع شئناهم في الزى والمنطق والحركات والسكنات ، ثم توجهت إلى المعسكر ليثبت اسمها في ديوان الشجيمان فلما وصلت إلى المعسكر أنفذت إلى ديوان العرض وأمر بأن تجرد عن المخفر والدرع وينظر مامحته وتمتحن بالمبارزة مع بعض الشجيمان ليعرف قدر عاتقها في الشجاعة ، فلما جردت عن المخفر والدرع فإذا هي عجوز ضعيفة زمنة لا تنطق حل الدرع والمخفر فقيل لها أجمت للاستزاء بالملك ولاستخفاف بأهل حضرته والتلبس عليهم خذوها فالتوها فقدم القليل لسخفها فألقيت إلى القيل . فكذلك يكون حال المدعين للتصوف في القيامة إذا كشف عنهم الغطاء وعرضوا على القاضي الأكبر الذي لا ينظر إلى الزى والمرقع بل إلى القلب .

( وفرقة أخرى ) زادت على هؤلاء في الغرور إذ شق عليها الاقتداء بهم في إبذاة الثياب والرضا بالدون ، فأرادت أن تتظاهر بالتصوف ولم تجد بئنا من التزين بزيمهم فتركوا الحرير والإبريسم وطلبوا المرقعات النخيلية والقوط الرقيقة والسجادات المصنوعة ولبسوا من الثياب ما هو أرفع قيمة من الحرير والإبريسم ، وظن أحدهم مع ذلك أنه متصوف بمجرد لون الثوب وكونه مرقعا ، ونسى أنهم إنما لونوا الثياب لئلا يطول عليهم غسلها كل ساعة

إزالة الوسخ ، وإنما لبسوا المرقعات إذ كانت ثيابهم مخرفة فسكانوا يرقمونها ولا يلبسون الجديداً فأتقطع القنوط الرقيقة قطعة قطعة وخياطة المرقعات منها فن ابن يشبه ما اعتادوه ؟ فهو لا يظهر حاقمة من كاة المخرورين ، فلو أنهم يتعمدون بنفيس الثياب ولذيد الأطعمة ويطلبون رغد العيش وبأكلون أموال السلاطين ولا يعتدون بالمعاصي الظاهرة فضلاً عن الباطنة وهم مع ذلك يظنون بأنفسهم الخير وشر هؤلاء مما يتسدى إلى الخلق إذهابك من يقتدي بهم ، ومن لا يقتدي بهم تفقد عقيدته في أهل التصوف كافة ويظن أن جميعهم كانوا من جنسه فيطول اللسان في الصادقين منهم ، وكل ذلك من شؤم المتنبيين وشرهم .

( وفرقة أخرى ) ادعت علم المعرفة ومشاهدة الحق ومجاورة المقامات والأحوال والملازمة في عين الشهود والوصول إلى القرب ، ولا يعرف هذه الأمور إلا بالأسامي والألفاظ لأنه تلقف من ألفاظ الطامات كلمات فهو يردد ما ويظن أن ذلك أعلى من علم الأولين والآخرين ، فهو ينظر إلى الفقهاء والمفسرين والمحدثين وأصناف العلماء بعين الإزدراء فضلاً عن العوام ، حتى إن الفلاح ليترك فلاحته والحائك يترك حياكته ويلزمهم أياماً معدودة ويتلقف منهم تلك الكلمات المزيفة فيردد ما كأنه يتكلم عن الوحي ويخبر عن سر الأسرار ، ويستحق بذلك جميع العباد والعلماء ، فيقول في العباد إنهم أجراء متمبون ، ويقول في العلماء إنهم بالحديث عن الله محجوبون ؛ ويدعى لنفسه أنه الواصل إلى الحق وأنه من المقربين ، وهو عند الله من الفجار المنافقين ، وعند أبواب القلوب من الحق الجاهل لم يحكم قط علماً ولم يهذب خلقاً ولم يرتب عملاً ولم يراقب قلباً سوى اتباع الهوى وتلقف الهديان وحفظه .

( وفرقة أخرى ) وقعت في الإباحة وطروا بساط الشرع ورفضوا الأحكام وسوا بين الحلال والحرام فبعضهم يزعم أن الله مستغن عن عمل فلم أتعجب نفسي ؟ وبعضهم يقول : قد كلف الناس تطهير القلوب عن الشهوات وعن حب الدنيا وذلك محال فقد كلفوا ما لا يمكن ، وإنما يفتريه من لم يجرب ، وأما نحن فقد جربنا وأدركنا أن ذلك محال . ولا يعلم إلا الحق أن الناس لم يكلفوا قلع الشهوة والغضب من أصلها بل إنما كلفوا قلع مادتهم بحيث ينفاد كل واحد منهما لحكم العقل والشرع . وبعضهم يقول : الأعمال بالمجوارح لا وزن لها ، وإنما النظر إلى القلوب وقلوبنا والهة بحب الله وواصله إلى معرفة الله وإنما نخوض في الدنيا بأبداننا وقلوبنا عاكفة في حضرة الربوبية فنحن مع الشهوات بالظواهر . لا بالقلوب ، ويرعون إنهم قد ترقوا عن رتبة العوام واستغنوا عن تهذيب النفس بالأعمال الدينية وأن الشهوات لا تصدم عن طريق الله لغوهم فيها ، ويرفعون درجة أنفسهم على درجة الانبياء عليهم الصلاة والسلام إذ كانت تصدم عن طريق الله خطيئة واحدة . حتى كانوا يكونون عليها ويوحسون سنين متوالية ، وأصناف غرور أهل الإباحة من المتنبيين بالصوفية لا تحصى ، وكل ذلك بناء على أغاليط وسواوس يخدعهم الشيطان بها لاشتغالهم بالمجاهدة قبل إحكام العلم ومن غير اقتداء بشيخ متقن في الدين والعلم صالح للاقتداء به وإحصاء أصنافهم يطول .

( وفرقة أخرى ) : تجاوزت حد هؤلاء واجتنبت الأعمال وطلقت الحلال واشتغلت بتفقد القلب وصار أحدهم يدعى المقامات من الزهد والتوكل والرضا والحب من غير وقوف على حقيقة هذه المقامات وشروطها وعلاماتها وآفاقها . فنه من يدعى الوجد والحب لله تعالى ويرزعه أنه والله باقه والله قد تخيل في الله خيالات يبدعه أكثر كفر فيدعى حب الله قبل معرفته ، ثم إنه لا يتخلو عن مفارقة ما يكرهه الله عز وجل وعن إثارة هوى نفسه على أمر الله وعن ترك بعض الأمور حياء من الخلق ، ولو خلا لها تركه حياء من الله تعالى . وليس يدري أكل ذلك يناقض

الحب وبمضهم ربما يميل إلى التفتة والتوكل فيخوض البوادي من غير زاد ليصح دعوى التوكل ، وليس يدري أن ذلك بدعة لم تنقل عن السلف والصحابة وقد كانوا أعرف بالتوكل منه ، فافهموا أن التوكل المخاطرة بالروح وترك الزاد بل كانوا يأخذون الزاد وهم متوكلون على الله تعالى لا على الزاد ، وهذا ربما يترك الزاد وهو متوكل على سبب من الأسباب والحق به ، وما من مقام من المقامات للتجيات إلا وفيه غرور وقد اغتر به قوم وقد ذكرنا مدخل الألفاظ في ربيع التجيات من الكتاب فلا يمكن إعادتها .

(وفرة أخرى) ضيق على نفسها في أمر القوت حتى طلبت منه الحلال الخالص وأعملوا تفقد القلب والجوارح في غير هذه الحصلة الواحدة ومنهم من أهل الحلال في مطعمه وملبسه ومسكنه وأخذ يتعمق في غير ذلك ، وليس يدري المسكين أن الله تعالى لم ير من عبد يطلب الحلال فقط ولا يرضى بآثر الأعمال دون طلب الحلال ، بل لا يرضى إلا بتفقد جميع الطاعات والمعاصي . فمن ظن أن بعض هذه الأمور يكفيه وينجي فهو مغرور .

(وفرة أخرى) ادعوا حسن الخلق والتواضع والسباحة فتصدوا لخدمة الصوفية لجموعا فموا وكلفوا بخدمتهم وانخدعوا ذلك للرياسة وجمع المال ، وإنما غرضهم التكبر ، وهم يظهرون الخدمة والتواضع وغرضهم الارتفاع ، وهم يظهرون أن غرضهم الإزقاق وغرضهم الاستبعا ، وهم يظهرون أن غرضهم الخدمة والتبعية ثم إنهم يجمعون من الحرام والشبهات وينفقون عليهم لشكر أتباعهم ويفسر بالخدمة اسمهم ، وبعضهم يأخذ أموال السلاطين ينفق عليهم ، وبعضهم يأخذوا لينفق في طريق الحج على الصوفية ويرغم أن غرضه البر والإنفاق ، وباعث جميعهم الرياء والسمة ، وآية ذلك إهمالهم لجميع أمار الله تعالى عليهم ظاهرا وباطنا ورحام بأخذ الحرام والإفناق منه . ومثال من ينفق الحرام في طريق الحج لإرادة الخير كن يعمر مساجد الله فيطيلها بالمذرة ويرغم أن تصد العماره .

(وفرة أخرى) اشتغلوا بالمجاهدة وتهذيب الأخلاق وتطهير النفس من عيوبها وصاروا يتعمقون فيها فانخدعوا بالبحث عن عيوب النفس ومعرفة خدعها علما وحرقة ، فهم في جميع أحوالهم مشغولون بالتحصن عن عيوب النفس واستنباط دقيق الكلام في آفاتها ، فيقولون هذا في النفس عيب والغفلة عن كونه عيبا عيب ، والالتفات إلى كونه عيبا عيب ، ويشغفون فيه بكلمات سلسلة تضعف الأوقات في تلفيقها ومن جعل طول عمره في التفتيش عن عيوب النفس وتحرير علم علاجها كان كمن اشتغل بالتفتيش عن عوائق الحج وآفاته ولم يسلك طريق الحج فذلك لا ينشئ .

(وفرة أخرى) جاوزوا هذه الرتبة وابتدعوا سلوك الطريق وانفتح لهم أبواب المعرفة ، فكلما تشموا من مبادئ المعرفة راحته تسعوا منها وفرحوا بها وأعجبهم غرابتها فتقيدت قلوبهم بالالتفات إليها والتفكير فيها ، وفي كيفية انفتاح بابها عليهم وانسداده على غيرهم ، وكل ذلك غرور لأن عجائب طريق الله ليس لها نهاية ، فلما وقف مع كل أعجوبة وتقيد بها قصرت خطاه وحرمت الوصول إلى المقصد وكان مثاله مثال من قصد ملكا فرأى على باب ميدانه روضة فيها أزهار وأنوار لم يكن قد رأى قبل ذلك مثلها ، فوقف ينظر إليها ويتعجب حتى فاته الوقت الذي يمكن فيه لقاء الملك .

(وفرة أخرى) جاوزوا هؤلاء ولم يلتفتوا إلى ما يفيض عليهم من الأورار في الطريق ولا إلى ما يفسد لهم من العطايا الجزيلة ولم يجرؤوا على الفرح بها والالتفات إليها جادين في السير حتى قاربوا فوصلوا إلى حد القربة إلى الله تعالى ، فظنوا أنهم قد وصلوا إلى الله فوقوا وغطوا فإن الله تعالى سبعين حجابا من نور لا يصل السالك إلى حجاب من تلك الحجب في الطريق إلا ويظن أنه قد وصل . وإليه الإشارة بقول إبراهيم عليه السلام إذ قال الله تعالى

إخباراً عنه ( فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربى ) وليس المعنى به هذا الأجسام المصنعة فإنه كان يراها في الصغر ويعلم أنها ليست آلهة وهي كثيرة وليست واحداً ، والجهال يلبون أن الكوكب ليس بآله مثل إبراهيم عليه السلام لا ينزه الكوكب الذي لا ينزه السوادية . ولكن المراد به أنه نور من الأنوار التي هي من حجب الله عز وجل وهي على طريق السالكين ، ولا يتصور الوصول إلى الله تعالى إلا بالوصول إلى هذه الحجب ، وهي حجب من نور بعضها أكبر من بعض وأصفر الثيرات الكوكب فاستمير له لفظه وأعظمها الشمس وبينها رتبة القمر ، فلم يزل إبراهيم عليه السلام لما رأى ملكوت السموات حيث قال تعالى ( وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ) يصل إلى نور بعد نور ويتخيل إليه في أول ما كان يلقاه أنه قد وصل ، ثم كان يكشف له أن وراءه أسراً فيترقى إليه ويقول : قد وصلت فيكشف له ما وراءه حتى وصل إلى الحجاب الألف الذي لا وصول إلا بعده ، فقال ( هذا أكبر ) فلما ظهر له أنه مع عظمه غير خال عن الهوى في حضيض التقص والاضطراط عن ذروة الكمال ( قال لأحب الآفاين - إلى أن قال - إلى وجهتي وجهي الذي فطر السموات والأرض ) وسالك هذه الطريق فدينتر في الوقوف على بعض هذه الحجب وقد ينتر بالحجاب الأول ، وأول الحجب بين الله وبين العبد هو نفسه فإنه أيضاً أسر رباني وهو نور من أنوار الله تعالى ؛ أضحى سر القلب الذي تتجلى فيه حقيقة الحق كله حتى إنه ليتسع لجله العالم ويحيط به وتتجلى فيه صورة الكل ، وعند ذلك يشرق نوره إشراقاً عظيماً إذ يظهر فيه الوجود كله على ما هو عليه وهو في أول الأمر محجوب بمشكاة هي كالسار له فإذا تجلى نوره وانكشف جمال القلب بعد إشراق نوره عليه ربما التفت صاحب القلب إلى القلب فيرى من جماله الفائق ما يدعشه ، وربما يسبق لسانه في هذه الدعشة فيقول : أنا الحق فإن لم يتضح له ما وراء ذلك اغتر به ووقف عليه ومالك ، وكان قد اغتر بكوكب صغير من أنوار الحضرة الإلهية ولم يصل بعد إلى القمر فضلاً عن الشمس فهو مغرور وهذا عل الالتباس ، إذ المتجلى يلبس بالمتجلى في كما يلبس لون ما يترامى في المرأة بالمرأة فيظن أنه لون المرأة ، وكما يلبس ما في الزجاجة بالزجاج كما قيل :

وق الزجاج ووقت الخرق قشايها فتشاكل الأمر  
فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر

وبهذه العين نظر التصاري إلى المسيح فرأوا إشراق نور الله قد تلاً في فظطوا فيه كن يرى كوكباً في امرأة أو في ماء فيظن أن الكوكب في المرأة أو في الماء فيمته يده إليه ليأخذه وهو مغرور ، وأنواع الغرور في طريق السلوك إلى الله تعالى لا تحصى في مجلدات ولا تستقصى إلا بعد شرح جميع علوم المكافحة ، وذلك بما لا رخصة في ذكره ، ولعل القدر الذي ذكرناه أيضاً كان الأول تركه إذ السالك لهذا الطريق لا يحتاج إلى أن يسمعه من غيره ، والذي لم يسلكه لا يتنفع بسماعه بل ربما يستضر به إذ يورثه ذلك دعشة من حيث يسمع ما لا يفهم ، ولكن فيه فائدة وهو إخراجهم من الغرور الذي هو فيه بل ربما يصدق بأن الأمر أعظم مما يظنه وربما يتخيله بذنه المختصر وخياله القاصر وجده المزخرف ويصدق أيضاً بما يحكى له من المكاشفات التي أخبر عنها أولياء الله ، ومن عظم غروره ربما أصر مكذباً بما يسمعه الآن كما يكذب بما سمعه من قبل .

الصف الرابع : أرباب الأموال ؛ والمنفرون منهم فرق : ( ففرقة منهم ) يحرصون على بناء المساجد والمدارس والرباطات والقناطر وما يظهر للناس كافة ويتكبرون أسمائهم بالأجر عليها ليتخذه ذكرهم وريق بعد الموات أثرهم ، وهم يظنون أنهم قد استحقوا المغفرة بذلك . وقد اغتروا فيه من وجهين :

أحدهما : أنهم يبنونها من أموال اكتسبوها من الظلم والتهب والرشا والجهات المحظورة ، فهم قد تعرضوا لسطط الله في كسبها وتعرضوا لسططه في إنفاقها وكان الواجب عليهم الامتناع عن كسبها ، فإذا قد عصوا الله بكسبها فالواجب عليهم التوبة والرجوع إلى الله وردمها إلى ملاكها إما بأعيانها وإما برديدها عند العجز ، فإن عجزوا عن الملاك كان الواجب ردّها إلى الورثة فإن لم يبق للظلم وارث فالواجب صرفها إلى أمّ الصالح ، وربما يكون الأهمّ التفرقة على المساكين ، وهم لا يفعلون ذلك خيفة من أن لا يظهر ذلك للناس فيبتون الأبنية بالأجر وغرضهم من بنائها الرياء وجلب التناء وحرصهم على بقائها لبقاء أسمائهم المكتوبة فيها لالبقاء الخير .

والوجه الثاني : أنهم يظنون بأنفسهم الإخلاص وقصد الخير في الإنفاق على الأبنية ولو كلف واحد منهم أن ينفق ديناراً ولا يكتب اسمه على الموضع الذي أنفق عليه لثق عليه ذلك ولم تسمح به نفسه ، والله مطلع عليه كتب اسمه أو لم يكتب ، ولولا أنه يريد به وجه الناس لأوجه الله لما افتقر إلى ذلك ،

( و فرقة أخرى ) ربما اكتسبت المال من الحلال وأنفقت على المساجد وهي أيضاً مغرورة من وجهين :

أحدهما . الرياء وطلب التناء فإنه ربما يكون في جواره أو ببلده فقراء وصرف المال إليهم أم وأفضل وأولى من الصرف إلى بناء المساجد وزينتها ، وإنما يخف عليهم الصرف إلى المساجد ليعلم ذلك بين الناس .

والثاني أنه يصرف إلى زخرفة المسجد وترتيبه بالنقوش التي هي منى عنها وشاغلة قلوب المصلين ومغشقة أبصارهم <sup>(١)</sup> والمقصود من الصلاة الخشوع وحضور القلب ، وذلك يفسد قلوب المصلين ويحيطوا بهم بذلك ، وبوال ذلك كله يرجع إليه وهو مع ذلك ينفر به ويرى أنه من الخيرات ويدخل ذلك وسيلة إلى الله تعالى ، وهو مع ذلك قد تعرض لسطط الله تعالى وهو يظن أنه مطيع له ومعتل لأمره ، وقد شوش قلوب عباد الله بما زخرفه من المسجد وربما شوقهم به إلى زخارف الدنيا ، فيشتبون مثل ذلك في يومهم ويستقلون بطلبه وبوال ذلك كله في رقبته : إذ المسجد التواضع والحضور القلب مع الله تعالى . قال مالك بن دينار : أتى رجلاً من مسجداً فوقف أحدهما على الباب وقال : مثل لا يدخل بيت الله ، فكذب الملاك عند الله صدقاً . فهكذا يلغى أن تعظم المساجد وهو أن يرى تلويح المسجد بدخوله فيه بنفسه جنابة على المسجد لأن يرى تلويح المسجد بالحرام أو بزخرف الدنيا منه على الله تعالى . وقال الحواريون للسبيح عليه السلام : انظر إلى هذا المسجد ما أحسنه ! فقال : أمتي بحق أقول لكم لا يترك الله من هذا المسجد حجراً قائماً على حجر إلا أهلكه بنزوب أهله ، إن الله لا يبعث بالذهب والفضة ولا بهذه الحجارة التي تعجبكم شيئاً ، وإن أحب الأشياء إلى الله تعالى القلوب الصالحة بها يعمر الله الأرض وبها يغضب إذا كانت على غير ذلك وقال أبو البرداء : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا زخرفتم مساجدكم وحليتم مصاحفكم قالدمار عليكم <sup>(٢)</sup> . وقال الحسن : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يبنى مسجد المدينة أتاه جبريل عليه السلام فقال له : إنه سبعة أذرع طولاً في السماء لا زخرفه ولا تنقشه <sup>(٣)</sup> ، وفور هذا من حيث أنه رأى المتكر وأكل عليه .

( و فرقة أخرى ) ينفقون الأموال في الصدقات على الفقراء والمساكين ويطلبون به المحافل الجامعة ، ومن

(١) حديث : الذين عن زخرفة المساجد وترتيبها بالنقوش . أخرجه البخاري من قوله عمر بن الخطاب : أكن الناس ولا تعمر ولا تنصر (٢) حديث : إذا زخرفتم مساجدكم وحليتم مصاحفكم قالدمار عليكم . أخرجه ابن المبارك في الزهد وأبو بكر ابن أبي داود في كتاب المصاحف موقفاً على أبي البرداء (٣) حديث الحسن مرسل : لما أراد أن يبنى مسجد المدينة أتاه جبريل فقال إنه سبعة أذرع طولاً في السماء ولا زخرفه ولا تنقشه لم أجده .



الفقراء من عاداته الشكر والإفشاء للبر والبركة ويكرهون التصق في السر ، ويرون إخفاء الفقير لما يأخذ منهم جناية عليهم وكفرانا ، وربما يخرجون على إنفاق المال في الحج فيحججون مرة بعد أخرى ، وربما تركوا جيرانهم جيانا ولذلك قال ابن مسعود : في آخر الزمان يكثر الحاج بلا سبب ، يكون عليهم السفر ويبسط لهم في الرزق ويرجعون مجرمين مسلمين ، يهوى بأحدكم بعيره بين الرمال والقفار وجاره مأسور إلى جنبه لا يرأسه . وقال أبو نصر التمار : إن رجلا جاء يردع بشر بن الحارث وقال : قد عزمت على الحج فتأمرني بشيء ؟ فقال له : كم أعددت للنفقة ؟ فقال : أتني درهم . قال بشر : فأى شيء تبتغي بحجك ؟ تزهدا أو اشتياقا إلى البيت أو ابتغاء مرضاة الله ؟ قال : ابتغاء مرضاة الله ، قال : فإن أصبت مرضاة الله تعالى وأنت في منزلك وتحقق أنني درهم وتكون على يقين من مرضاة الله تعالى أنفعل ذلك ؟ قال : نعم ، قال : اذهب فأعطها عشرة أنفس : مديون يقضى دينه ، وفقير يرم شعثه ، ومعلم يبنى عياله ، ومربي يتم بفرحه ، وإن قوى قلبك أعطها واحدا فافعل فإن إدخالك السرور على قلب المسلم وإغاثة اللهفان وكشف الضر وإغاثة الضعيف أفضل من مائة حبة بعد حجة الإسلام ، قم فأخرجها كما أمرناك ولا تقل لنا ماني قلبك ؟ فقال : يا أبا نصر سرفى أقوى في قلبي ، فتبسم بشر رحمه الله وأقبل عليه وقال له : المال إذا جمع من وسخ التجارات والشبهات انقضت النفس أن تقضي به وطرا فأظهرت الأعمال الصالحات وقد آتى الله على نفسه أن لا يقبل إلا عمل المتقين .

( وفرقة أخرى ) من أبواب الأموال اشتغلوا بها يحفظون الأموال ويسكنونها بحكم البخل ثم يشتغلون بالمبادات البدنية التي لا يحتاج فيها إلى نفقة ، كصيام النهار وقيام الليل وختم القرآن ، وهم مغرورون لأن البخل المهلك قد استولى على بواطنهم فهو يحتاج إلى قمع بإخراج المال ، فقد اشتغل بطلب فضائل هو مستغن عنها ، ومثاله مثال من دخل في ثوبه حية وقد أشرف على الهلاك وهو مشغول بطبخ السككجين ليسكن به الصغراء ، ومن تكله الحية متى يحتاج إلى السككجين ؟ ولذلك قيل لبشر : إن فلانا التني كثير الصوم والصلاة فقال : المسكين ترك حاله ودخل في حال غيره وإنما حال هذا إعطام الطعام للجوع والإنفاق على المساكين ، فهذا أفضل له من تجويزه نفسه ومن صلاته لنفسه من جمعه للدنيا ومنه للفقراء .

( وفرقة أخرى ) غلبهم البخل فلا تسمح نفوسهم إلا بأداء الزكاة فقط ، ثم إنهم يخرجون من المال الخبز الردي الذي يرغبون عنه ويطلبون من الفقراء من يقدمهم ويردد في حاجاتهم ، ومن يحتاجون إليه في المستقبل للاستئجار في خدمة أو من لهم فيه على الجلبة غرض ، أو يسلبون ذلك إلى من يمينه واحدا من الأكبر بمن يستظهر بحشمه لينال بذلك عنده منزلة فيقوم بمجاهاته . وكل ذلك مقصدات للنية ومحطات للعمل وصاحبه مغرور ، ويظن أنه مطيع لله تعالى وهو فاجر إذ طلب بمباداة الله عوضا من غيره ، فهذا وأمثاله من غرور أصحاب الأموال أيضا لا يصحح وإنما ذكرنا هذا القدر للتنبيه على أجناس التورود .

( وفرقة أخرى ) من عوام الخلق وأرباب الأموال والفقراء اغتروا بحضور مجالس الذكر واعتقدوا أن ذلك يثنيهم ويكفيهم واتخذوا ذلك عادة ، ويظنون أن لهم على مجرد سماع الوعظ دون العمل ودون الانشغال بأجر ، وهم مغرورون لأن فضل مجلس الذكر لكونه مرغبا في الخير فإن لم يهيج الرغبة فلا خير فيه ، والرغبة عمودة لأنها تبعث على العمل فإن ضعف عن العمل فلا خير فيها ، وما يراود لغيره فإذا قصر عن الأداء إلى ذلك الغير فلا قيمة له ، وربما يقتر بما يسمعه من الواعظ من فضل حضور المجلس وفضل البكاء وربما تدخله رقة كركة

النساء فيكي ولا عزم ، وربما يسمع كلاما غوفا فلا يزيد على أن يصفق يديه ويقول : يا سلام سلم ! أو تعود باقة أو سبحان الله ! ويظن أنه قد أتى بالخبر كله وهو مغرور . وإنما مثله مثال المريض الذي يحضر مجالس الأطباء فيسمع ما يجري ، أو الجامع الذي يحضر عنده من يصف له الأطعمة اللذيذة الشهية ثم ينصرف ، وذلك لا يفتنى عنه من مرضه وجوعه شيئا . فكذلك سماع وصف الطاعات دون العمل بها لا يفتنى من الله شيئا . فكل وعظ لم يغير منك صفة تغيرا يغير أفعالك حتى تقبل على الله تعالى إقبالا قويا أو ضعيفا وقرض عن الدنيا فذلك الوعظ زيادة حجة عليك ، فإذا رأيته وسيلة لك كنت مغرورا .

فإن قلت : لما ذكرته من مداخل الغرور أمر لا يتخلص منه أحد ولا يمكن الاحتراز منه ، وهذا يوجب اليأس إذ لا يقوى أحد من البشر على الحذر من خفايا هذه الآفات ؟ فأقول : الإنسان إذا افتقرت همته في شيء أظهر اليأس منه واستعظم الأمر واستوعر الطريق . وإذا صح منه الهوى اهتدى إلى الخيل واستبط بدقيق النظر خفايا الطرق في الوصول إلى الغرض ، حتى إن الإنسان إذا أراد أن يستنزل الطير المحلق في جو السماء مع بعده منه استنزه وإذا أراد أن يخرج الحوت من أعماق البحار استخرج ، وإذا أراد أن يستخرج الذهب أو الفضة من تحت الجبال استخرج ، وإذا أراد أن ينقص الوحوش المطلقة في البراري والصحارى اقتنصها ، وإذا أراد أن يستخرج السباع والفيلة وعظم الحيوانات استخرجها وإذا أراد أن يأخذ الحيات والأفاعي ويحبس بها أخذها واستخرج الدبابق من أجوانها ، وإذا أراد أن يتخذ الديباغ الملون المقتش من ورق التوت اتخذ ، وإذا أراد أن يعرف مفادير السكاكب وطولها وعرضها استخراج بدقيق الهندسة ذلك وهو مستقر على الأرض ، وكل ذلك باستبط الخيل وإعداد الآلات ، فسخر الفرس للركوب والكلب الصيد وسخر البازي لاقتناص الطيور وهما الشككة لاصطياد السمك ، إلى غير ذلك من دقائق حيل الآدمي . كل ذلك لأن همه أمر دنياه وذلك معين له على دنياه ، فلو همه أمر آخره وليس عليه إلا شغل واحد وهو تقويم قلبه فميج عن تقويم قلبه وتخاذل ، وقال هذا محال ومن الذي يقدر عليه ؟ وليس ذلك بمحال لو أصبح وهمه هذا المهم الواحد بل هو كما يقال ه لو صح منك الهوى ارشدت للحيل ه فهذا شيء لم يمج عن السلب الصالحون ومن اتبعهم بإحسان . فلا يمج عنه أيضا من صدقت إرادته وتقويت همته ، بل لا يحتاج إلى عشر تعب المحلق في استبط حيل الدنيا ونظم أسبابها .

فإن قلت : قد قويت الأمر فيه مع أنك أكرت في ذكر مداخل الغرور فميج العبد من الغرور ؟ فأعلم أنه ينجو منه بثلاثة أمور : بالقل واللم والمعرفة . فهذه ثلاثة أمور لا بد منها . أما العقل : فأضحى به الفطرة التريزية والنور الأصلي الذي به يدرك الإنسان حقائق الأشياء فافطنة والكيس فطرة ، والمخ والالادة فطرة والبليد لا يقدر على التفطن من الغرور ، ففضاء العقل وذكاء الفهم لا بد منه في أصل الفطرة ، فهذا إن لم يقطر عليه الإنسان فاكتمابه غير ممكن . نعم إذا حصل أصله أمكن تقويته بالممارسة فأساس السعادات كلها العقل والكياسة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تبارك الله الذي قسم العقل بين عباده أشتنا (١) ، إن الرجلين ليستوى علمهما وبرهما وصومهما وصلاتهما ولكنهما يتفاوتان في العقل كالنذرة في جنب احد ، وما قسم الله خلقه حظا هو أفضل من العقل واليقين . وعن أبي الدرداء أنه قيل : يا رسول الله رأيت الرجل يصوم النهار ويقوم الليل ويصبر ويمتد ويتصدق

(١) حديث : تبارك الله الذي قسم العقل بين عباده ... الحديث ه أخرجه الترمذي المحكي في نوادر الأصول من رواية طلوس مرسل وفي أوله قصة وسناد ضعيف ورواه نحوه من حديث أبي حميد وهو ضعيف أيضا .

ويغزو في سبيل الله ويعود المريض ويشيع الجنائز ويعين الضعيف ولا يعلم منزله عند الله يوم القيامة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما يجزى على قدر عقله <sup>(١)</sup> ، وقال أنس : أتى على رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا خيراً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف عقله ؟ قالوا : يا رسول الله نقول من عبادته وفضله وخلقه فقال : كيف عقله فإن الآحق يصيب بحمة أعظم من لجور الفاجر . وإنما يقرب الناس يوم القيامة على قدر عقولهم <sup>(٢)</sup> ، وقال أبو الدرداء : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بلغه عن رجل شدة عبادة سأل عن عقله فإذا قالوا حسن قال : أرجوه ، وإن قالوا غير ذلك قال : لن يبلغ <sup>(٣)</sup> ، وذكر له شدة عبادة رجل فقال : كيف عقله ، قالوا : ليس بشيء قال : لن يبلغ صاحبكم حيث تظنون ، فالذكاء صحيح وغريزة العقل نعمة من الله تعالى في أصل الفطرة فإن فاتت ببلادة وحماة فلا تدارك لها .

الثاني . المعرفة : وأعني بالمعرفة أن يعرف أربعة أمور : يعرف نفسه ، ويعرف ربه ، ويعرف الدنيا ، ويعرف الآخرة : فيعرف نفسه بالمبودية والدل ويكون غريباً في هذا العالم وأجنبياً من هذه الشهوات البهيمية ، وإنما الموافق لها بما هو معرفة الله تعالى والنظر إلى وجهه فقط ، فلا يتصور أن يعرف هذا عالم يعرف نفسه ولم يعرف ربه فليست على هذا بما ذكرناه في كتاب المحبة وفي كتاب شرح عجائب القلب وكتاب التفكير وكتاب الشكر ، إذ فيها إشارات إلى وصف النفس وإلى وصف جلال الله ، ويحصل به التنبيه على الجملة وكال المعرفة وراءه ، فإن هذا من علوم الكاشفة ، ولم نقسب في هذا الكتاب إلا في علوم المعاملة . وأما معرفة الدنيا والآخرة فيستعين عليها بما ذكرنا في كتاب فم الدنيا وكتاب ذكر الموت ليتبين له أن لانسبة للدنيا إلى الآخرة ، فإذا عرف نفسه وربه وعرف الدنيا والآخرة ثار من قلبه بمعرفة الله سبحانه ، وبمعرفة الآخرة شدة الرغبة فيها ، وبمعرفة الدنيا الرغبة عنها ويصير أم أموره ما يوصله إلى الله تعالى وينفعه في الآخرة ، وإذا غلبت هذه الإرادة على قلبه صحت نيته في الأمور كلها ، فإن أكل مثلاً أو اشتغل بقضاء الحاجة كان قصده من الاستمانة على سلوك طريق الآخرة . وصحت نيته واندفع عنه كل غرور منقوشة بتهاذب الأغراض والنزوع إلى الدنيا والجاه والمال فإن ذلك هو الفساد اللية . وما دامت الدنيا أحب إليه من الآخرة وهو نفسه أحب إليه من رضا الله تعالى فلا يمكنه الخلاص من الضرر .

فإذا غلب حب الله على قلبه بمعرفة الله وبأنفسه الصادرة من كمال عقله فيحتاج إلى المعنى الثالث وهو العلم : أعني العلم بمعرفة كيفية سلوك الطريق إلى الله ، والعلم بما يقربه من الله وما يبعده عنه ، والعلم بأنات الطريق وعقباته وغرائله ( وجميع ذلك قد أوردناه كتب إحياء علوم الدين ، فيعرف من ربيع البادات شروطها وأفعالها فينتقيا ) ومن ربيع المبادئ أسرار المعاش وما هو مضطر إليه فيأخذ بأدب الشرع وما هو مستغن عنه فيعرض عنه ، ومن ربيع المهلكات يعلم جميع العقبات المأذمة في طريق الله فإن المانع من الله الصفات المذمومة في الخلق فيعلم المذموم ويعلم طريق علاجه ، ويعرف من ربيع المنجيات الصفات المحمودة التي لا بد وأن توضع خلفاً عن المذمومة بعد محوها ) فإذا أحاط بجميع ذلك أمكنه الحذر من الأنواع التي أشرنا إليها من الضرر وأصل ذلك كله أن يطلب

(١) حديث أبي الدرداء : رأيت الرجل يصوم النهار ويقوم الليل ... الحديث « وفيه » إنما يجزى على قدر عقله « أخرجه الخطيب في التاريخ وفي أسماء من روى عن ذلك من حديث ابن عمر ورضه ولم أره من حديث أبي الدرداء  
(٢) حديث أنس : أتى على رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال : كيف عقله ؟ . الحديث « أخرجه داود بن الجهمي في كتاب الفضل وهو ضعيف ويهمل في العلم (٣) حديث أبي الدرداء : كان إذا بلغه عن رجل شدة عبادة ، سأل عن عقله .. الحديث . أخرجه الترمذي في المعجم في النوادر وابن عدى ومن طريق البيهقي في الشعب وضعفه .

حب الله على القلب يفسط حب الدنيا منه حتى تقوى به الإرادة وتصح به التوبة ، ولا يحصل ذلك إلا بالمعرفة التي ذكرناها .

فإن قلت : فإذا فعل جميع ذلك فما الذي يخاف عليه ؟ فأقول يخاف عليه أن ينفذ الشيطان ويدعوه إلى نصح الخلق وأنشر العلم ودعوه الناس إلى ما عرفه من دين الله ، فإن المريد المخلص إذا فرغ من تهذيب نفسه وأخلاقه وراقب القلب حتى صفاء من جميع المكدرات واستوى على الصراط المستقيم وصغرت الدنيا في عينه فتركها ، وانقطع طمعه عن الخلق فلم يلتفت إليهم ، ولم يبق إلا هم واحد وهو الله تعالى والتلذذ بذكره ومناجاته والشوق إلى لقائه ، وقد فجر الشيطان عن إغرائه إذ يأتيه من جهة الدنيا شهوات النفس فلا يطعمه فيأتيه من جهة الدين ويدعوه إلى الرحمة على خلق الله والشفقة على دينهم والتصح لهم والدعاء إلى الله ، فينظر العبد برحمته إلى العبيد فيراهم حيارى في أرم سكارى في دينهم مما عفا عنه استول عليهم المرض وهم لا يشعرون وقدودوا الطيب واشرفوا على العطب ، فقلب على قلبه الرحمة لهم وقد كان عنده حقيقة المعرفة بما بينهم وبينهم ضلالهم ويرشدكم إلى سعادتهم وهو يقدر على ذكرها من غير تعب ومؤنة ولزوم غرامة ، فكان مثله كمثل رجل كان به داء عظيم لا يطاق إله ، وقد كان لذلك يسهر ليله ويقلق نهاره لا يأكل ولا يشرب ولا يتحرك ولا يتصرف لشدة حرابان الألم فوجد له دواء عصفوا من غير ثمن ولا تعب ولا مرارة في تناوله فاستعمله فبرئ وصح فقلاب نومته بالليل بعد طول سهره وهذا بالتيار بعد شدة القلق وطاب عينيه بعد نهاية الكدر وأصاب لذة العافية بعد طول السقام ، ثم نظر إلى عدد كثير من المسلمين وإذا بهم تلك الالة بينهما وقد طال سهرهم واشتد قلقهم وارتفع إلى السماء أنينهم فتذكر أن دواءهم هو الذي يعرفه ويقدر على شفاؤهم بأسهل ما يكون وفي أرجى زمان ، فأخذته الرحمة والرأفة ولم يجد فسحة من نفسه في التراخي عن الاشتغال بعلاجهم فكذلك العبد المخلص بعد أن امتدى إلى الطريق وشق من أمراض القلوب شاهد الخلق وقد مرضت قلوبهم وأعزل دأؤهم وقرب هلاكهم وإشفاقهم ، وسهل عليه دواؤهم فأتيتهم من ذات نفسه عزم جازم في الاشتغال بصحتهم وحوّضه الشيطان على ذلك رجاء أن يجد مجالا للفتنة ، فلما اشتغل بذلك وجد الشيطان مجالا للفتنة فدعاه إلى الرئاسة دعاء خفيا أخفى من ديب النمل لا يشعر به المريد ، فلم يزل ذلك الديب في قلبه حتى دعاه إلى التصنع والتزين للغلق بتحسين الألفاظ والثنايات والحركات والتصنع في الزي والهيئة ، فأقبل الناس إليه يعطفونه ويجعلونه ويوقرونه توقيرا يزيد على توقير الملوك إذ رأوه شافيا لأدوائهم بمحض الشفقة والرحمة من غير طمع فصار أحب إليهم من آبائهم وأمهاتهم وأقاربهم ، فأثروه بأبدانهم وأموالهم وصاروا له خولا كالعبيد والخدم غدوموه وقدموه في المحافل وحكوه على الملوك والسلاطين ، فمئذ ذلك انقشر الطبع وارتاحت النفس وذاتت لذة يالها من لذة أصابت من الدنيا شهوة يستقر معها ك شهوة ، فكان قد ترك الدنيا فوقع في أعظم لذاتها ، فمئذ ذلك وجد الشيطان فرصة وامتدّت إلى قلبه يده فهو يستعمله في كل ما يحفظ عليه تلك اللذة . وأما رة انتشار الطبع وركون النفس إلى الشيطان أنه لو أخطأ فردّ عليه بين يدي الخلق غضب ، فإذا أنكر على نفسه ما وجده من الغضب بادر الشيطان خليل إليه أن ذلك غضب لله لأنه إذا لم يحسن اعتقاد المريدن فيه انقطعوا عن طريق الله فوقع في الضرر ، فرميا أخرجه ذلك إلى الرقيمة فيمن رد عليه فوقع في النية المحطورة بعد تركه الحلال المتسع ، ووقع في التكبر الذي هو عتد عن قبول الحق والشكر عليه بعد أن يحفر من طوارق الخطرات ، وكذلك إذا سبته الضحك أو فتر عن بعض الأوراد جمعت النفس أن يطلع عليه فيسقط قبوله فأتبع ذلك بالاستغفار وتفنن الصمداء ،

وربما زاد في الأعمال والأوراد لأجل ذلك والشيطان يخيل إليه ذلك إنما يفعل ذلك كيلا يفتر ربهم عن طريق الله فيترك الطريق بتركه ، وإنما ذلك خدعة وغرور بل هو جرح من النفس خيفة فوت الرئاسة ، ولذلك لا يجمع نفسه من اطلاع الناس على مثل ذلك من أقرانه ، بل ربما يجب ذلك ويستتبره ، ولو ظهر من أقرانه من مالت القلوب إلى قوله وزاد أثر كلامه في القبول على كلامه شق ذلك عليه ولولا أن النفس قد استبشرت واستأذنت الرئاسة لكان يتنعم ذلك ، إذ مثاله أن يرى الرجل جماعة من إخوانه قد وقفوا في بئر وتغطى رأس البئر بحجر كبير فمجرؤا عن الرق من البئر بسببه ، فرق قلبه لإخوانه فجاء ليرفع الحجر من رأس البئر فشق عليه فجاءه من أعانه على ذلك حتى تيسر عليه أو كفاه ذلك ونعماه بنفسه ، فيعظم بذلك فرحه لا محالة إذ غرضه خلاص إخوانه من البئر ، فإن كان غرضه التناصح خلاص إخوانه المسلمين من النار فإذا ظهر من أعانه أو كفاه ذلك لم يشغل عليه ، أرايت لو امتدوا جميعهم من أنفسهم أكان ينبغي أنه يشغل ذلك عليه إن كان غرضه مدياتهم ؟ فإذا امتدوا بنفسيه فلم يشغل عليه ؟ ومهما وجد ذلك في نفسه دعاه الشيطان إلى جميع كباثر القلوب وفروا مش الجوارح وأهلكه فتموذ باقة من زيف القلوب بعد الهدى ومن أعوجاج النفس بعد الاستواء .

فإن قلت : فحق يصح له أن يشتغل بنصح الناس ؟ فأقول إذا لم يكن له قصد إلا هدايتهم لله تعالى وكان يرد لو وجد من يعينه ، أو لو امتدوا بأنفسهم وانقطع بالكلية طمعه عن ثنائهم وعن أمواهم ، فاستوى عنده حدم وذمهم فلم يبال بذهمهم إذا كان الله يحمده ولم يفرح بمجدهم إذا لم يقترن به حمد الله تعالى ، ونظر إليهم كما ينظر إلى السادات وإلى البائتم . أما إلى السادات : فمن حيث إنه لا يتكبر عليهم ويرى كلهم غيراً منه لجهله بالخاتمة . وأما إلى البائتم فمن حيث انقطاع طمعه عن طلب المنزلة في قلوبهم فإنه لا يبال كيف تراه البائتم فلا يتزين لها ولا يتضع لها بل راعى المشايبة إنما غرضه رعاية المشايبة ودفع الذنب عنها دون نظر المشايبة إليه . فإلم بر سائر الناس كالماشيبة التي لا يلتفت إلى نظرها ولا يبالى بها لا يسل من الاشتغال بإصلاحهم . نعم ربما يصلحهم ولكن يفسد نفسه بإصلاحهم فيكون كالسراج يعنى لغيره ويمحرق في نفسه .

فإن قلت : فلو ترك الرعاظ الوعظ إلا عند نيل هذه الدرجة خلعت الدنيا عن الوعظ وخربت القلوب ؟ فأقول قد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حب الدنيا رأس كل خطيئة »<sup>(١)</sup> ، ولو لم يحب الناس الدنيا لملك العالم وبطلت المعاش وهلكت القلوب والأبدان جميعاً ، إلا أنه صلى الله عليه وسلم علم أن حب الدنيا مهلك وأن ذكر كونه مهلكاً لا يزعج الحب من قلوب الأكثرين إلا الأقلين الذين لا تغرب الدنيا بتركهم ، فلم يترك النصيح وذكر ما في حب الدنيا من الخطر ولم يترك ذكره خوفاً من أن يترك نفسه بالشهوات المهلكة التي سألها الله على عباده ليسوقهم بها إلى جهنم تصديقاً لقوله تعالى ﴿ ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ فكان ذلك لازماً لآلئ السنن الرعاظ مطلقاً لحب الرئاسة ولا يدعونها بقول من يقول : إن الوعظ لحب الرئاسة حرام ، كما لا يدع الخلق القرب والزنا والسرقة والربا والظلم وسائر المعاصي قول الله تعالى ورسوله إن ذلك حرام ، فانظر لنفسك وكن قارخ القلب من حديث الناس ، فإن الله تعالى يصلح خلقاً كثيراً بإقصاد شخص واحد وأشخاص ( ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ) ولأن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم ،

(١) حديث وحب الدنيا رأس كل خطيئة أخرجه البيهقي في الشعب من حديث الحسن مرسل وقد تقدم في كتاب ذم الدنيا .

فإنما يخشى أن يفسد طريق الانطواء ، فأما أن تخرس ألسنة الوعاظ ووراهم باعث الرياسة وحب الدنيا فلا يكون ذلك أبدا .

فإن قلت : فإن علم المرید هذه المكيدة من الشيطان فاشتغل بنفسه وترك النصح أو نصح وراعى شرط الصدق والإخلاص فيه فما الذى يخاف عليه وما الذى يقى بين يديه من الأخطار وحائل الاعتراض ؟ فأعلم أنه بقى عليه أعظمه وهو أن الشيطان يقول له : قد أجزيتي وأفلت مني بذكائك وكأل عقلت وقد قدرت على جملة من الأولياء والكبراء وما قدرت عليك فما أصبرك ! وما أعظم عند الله قدرك وعملك إذ قواك على قهرى ومالك من التفتن بلجميع مداخل غرورى ! فيصنئى إليه ويصدق ويصحب بنفسه فى فراره من الغرور كله ، فيكون إعجابه بنفسه غاية الغرور وهو المهلك الأكبر ، فالمجبب أعظم من كل ذنب ولذلك قال الشيطان : يا ابن آدم إذا ظننت أنك بملكك تخلصت مني فجهلك قد وقعت فى حبال .

فإن قلت : فلم يجب بنفسه إذ علم أن ذلك من الله تعالى لامته وإن مثله لا يقوى على دفع الشيطان إلا بتفريق الله ومعونه ، ومن عرف ضعف نفسه وعجزه عن أقل القليل فإذا قدر على مثل هذا الأمر العظيم علم أنه لم يقو عليه بنفسه بل بالله تعالى فما الذى يخاف عليه بعد نبي العجب ؟ فأقول : يخاف عليه الغرور بفضل الله والثقة بكرمه والأمن من مكروه حتى يظن أنه يقى على هذه الوتيرة فى المستقبل ولا يخاف من الفترة والافتلاب ، فيكون حاله الاتكال على فضل الله فقط دون أن يقارته الخوف من مكروه ، ومن آمن مكر الله فهو غاسر جانا ، بل سبيله أن يكون مشاهدا جملة ذلك من فضل الله ثم عائفا على نفسه أن يكون قد سدت عليه صفة من صفات قلبه من حب دنيا ورياء وسوء خلق والتفات إلى عز وهو غافل عنه ، ويكون عائفا أن يسلب حاله فى كل طرفة عين غير آمن من مكر الله ولا خافل عن خطر الحاتمة . وهذا خطر لا يحصى عنه وخوف لا نهما منه إلا بعد مجاوزة الصراط . ولذلك لما ظهر للشيطان لبعض الأولياء فى وقت الزرع وكان قد بقى له نفس فقال : أفلت مني يا فلان ؟ فقال : لا ، بعد . ولذلك قيل : الناس كلهم هلكى إلا العالمون ، والعالمون كلهم هلكى إلا العالمون ، والعالمون كلهم هلكى إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم . فإذا ن المخرور هالك والمخلص الفائز من الغرور على خطر فلذلك لا يفارق الخوف والحذر قلوب أولياء الله أبدا .

فلسأل الله تعالى العون والتوفيق وحسن الحاتمة ، فإن الأمور بخواتيمها .

ثم كتاب ذم الغرور ، وبه تم ربيع المهلكات ، ويتلوه فى أول ربيع المنجيات وكتاب التوبة ، والحمد لله أولا وآخرا وصلى الله وسلم على من لا نبي بعده وهو حسبي ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

ثم الجزء الثالث من كتاب إحياء علوم الدين  
وبليه الجزء الرابع ، وأوله : كتاب التوبة

# فهرست

## الجزء الثالث من إحياء علوم الدين

صفحة	صفحة
٤٨ كتاب رياضة النفس	١ كتاب شرح مقام القلب
وتهديب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب	وهو الكتاب الأول من ربيع للمهلكات
وهو الكتاب الثاني من ربيع المهلكات	٢ بيان معنى النفس والروح والقلب والعقل
٤٩ بيان فضيلة حسن الخلق وعذمة سوء الخلق	وما هو المراد بهذه الأسامي
٥٢ بيان حقيقة حسن الخلق وسوء الخلق	٥ بيان جنود القلب
٥٦ بيان قبول الأخلاق لتنشيط بطريق الرياضة	٦ بيان أمثلة القلب مع جنوده الباطنة
٥٨ بيان السبب الذي به ينال حسن الخلق	٧ بيان خاصية قلب الإنسان
على الجملة	١٠ بيان مجاميع أوصاف القلب وأمثاته
٦٠ بيان تفصيل الطريق إلى تهذيب الأخلاق	١٣ بيان مثل القلب بالإضافة إلى العلوم خاصة
٦٢ بيان علامات أمراض القلوب وعلامات	١٦ بيان حال القلب بالإضافة إلى أقسام العلوم
عودها إلى الصحة	العقلية والدينية والدنيوية والأخرى
٦٤ بيان الطريق الذي يعرف به الإنسان	١٨ بيان الفرق بين الإلهام والتعلم والفرق
عيوب نفسه	بين طريق الصوفية في استكشاف الحق
٦٥ بيان شواهد النقل من أرباب البصائر	وطريق النظر
وشواهد الشرع على أن الطريق في	٢٠ بيان الفرق بين المقامين بمثال محسوس
معالجة أمراض القلوب ترك الشهوات	٢٣ بيان شواهد الشرع على صحة طريق أهل
وأن مادة أمراضها هي اتباع الشهوات	التصوف في اكتساب المعرفة لأمن التعلم
٦٩ بيان علامات حسن الخلق	ولا من الطريق المعتاد
٧٧ بيان الطريق في رياضة الصبيان في أول	٢٦ بيان تسلط الشيطان على القلب بالروساوس
نشوم ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم	ومعنى الروسية وسبب غلبتها
٧٤ بيان شروط الإرادة في مقدمات المجاهدين	٣٢ بيان تفصيل مداخل الشيطان إلى القلب
وتدريج المريد في سلوك سبيل الرياضة	٤١ بيان ما يؤخذ به العبد من وساوس
٧٩ كتاب كسر الشهوتين	القلوب ومهما وخرائطها وقصورها
وهو الكتاب الثالث مع ربيع المهلكات	وما يعني عنه ولا يؤخذ به
٨٠ بيان فضيلة الجوع وذم السبع	٤٣ بيان أن الرساوس هل يتصور أن يتقطع
٨٤ بيان فوائد الجوع وآفات السبع	بالسكية عند الذكر أم لا
٨٩ بيان طريق الرياضة في كسر	٤٥ بيان سرعة قلب القلب وانقسام القلوب
	في التنشيط والتثبيت

## صحيفة

- ٩٦ بيان اختلاف حكم الجوع وفضيلة  
واختلاف أحوال الناس فيه
- ٩٨ بيان آفة الرياء المتطرق إلى من ترك  
الشهوات وقيل الطعام
- ٩٩ القول في شهوة الفرج
- ١٠١ بيان ماعلى المريد في ترك التزويج ونفعه
- ١٠٤ بيان فضيلة من يخالف شهوة الفرج والعين
- ١٠٧ كتاب آفات اللسان  
وهو الكتاب الرابع من ربيع المهلكات
- ١٠٨ بيان عظيم خطر اللسان وفضيلة الصمت
- ١١٢ الآفة الأولى من آفات اللسان الكلام  
فيا لا يبتنيك
- ١١٤ الآفة الثانية فضول الكلام
- ١١٥ الآفة الثالثة الخوض في الباطل
- ١١٦ الآفة الرابعة المراء والجدال
- ١١٨ الآفة الخامسة الخصومة
- ١٢٠ الآفة السادسة التفرغ في الكلام بالتدقيق  
وتكلف السجع والفتاحة الخ
- ١٢١ الآفة السابعة التعمش والسب وبذاءة اللسان
- ١٢٢ الآفة الثامنة الغنى
- ١٢٦٠ الآفة التاسعة الفناء والفقر
- ١٢٧ الآفة العاشرة المراءخ
- ١٢٩ الآفة الحادية عشرة السخريه والاحتماء
- الآفة الثانية عشرة إفساد السر
- ١٣٢ الآفة الثالثة عشرة الوعد والكاذب
- ١٣٣ الآفة الرابعة عشرة الكذب في القبول واليمين
- ١٣٧ بيان ما يخص فيه من الكذب
- ١٣٩ بيان الحذر من الكذب بالماضي
- ١٤١ الآفة الخامسة عشرة الغيبة
- ١٤٣ بيان معنى الغيبة وحدودها
- ١٤٤ بيان أن الغيبة لا تقتصر على اللسان
- ١٤٦ بيان الأسباب الباعثة على الغيبة
- ١٤٨ بيان العلاج الذي به يمنع اللسان عن الغيبة

## صحيفة

- ١٥٠ بيان تحريم الغيبة بالقلب
- ١٥٢ بيان الأعداء المرخصة في الغيبة
- ١٥٣ بيان كفارة الغيبة
- ١٥٤ الآفة السادسة عشرة الغيبة
- ١٥٦ بيان حد الغيبة وما يجب في ردّها
- ١٥٨ الآفة السابعة عشرة كلام ذي اللسانين
- ١٥٩ الآفة الثامنة عشرة المدح
- ١٦١ بيان ماعلى المدح
- ١٦١ الآفة التاسعة عشرة النفقة عن دقائق  
الخطأ في لغوى الكلام
- ١٦٢ الآفة العشرون سؤال العوام عن صفات  
الله تعالى وعن كلامه وعن الحروف الخ
- ١٦٤ كتاب ذم الغضب والحقد والحسد
- وهو الكتاب الخامس من ربيع المهلكات
- ١٦٤ بيان ذم الغضب
- ١٦٦ بيان حقيقة الغضب
- ١٦٩ بيان أن الغضب هل يمكن إزالته أصله  
بالرياضة أم لا
- ١٧٢ بيان الأسباب المهيبة للغضب
- ١٧٣ بيان علاج الغضب بعد هيجانه
- ١٧٥ بيان فضيلة كظم الغيظ
- ١٧٦ بيان فضيلة الحلم
- ١٧٩ بيان القدر الذي يجوز الاتصاف والتشفي  
به من الكلام
- ١٨١ القول في معنى الحقد وتأنجه وفضيلة  
العفو والرفق
- ١٨٢ فضيلة العفو والإحسان
- ١٨٤ فضيلة الرفق
- ١٨٦ القول في ذم الحسد وفي حقيقته وأسبابه  
ومعالجته وغاية الواجب في إزالته
- بيان ذم الحسد
- ١٨٩ بيان حقيقة الحسد وحكمه وأقسامه وممراته



- ٢٦٢ بيان مجموع الوظائف التي على البدن ماله  
 ٢٦٤ بيان ذم التقي ومدح الفقر  
 ٢٧٤ كتاب ذم الجاه والرياء  
 وهو الكتاب الثامن من ربيع المهلكات  
 وفيه شطران  
 ٢٧٤ الشطر الأول في حب الجاه والشهرة وفيه  
 بيان ذم الشهرة وبيان فضيلة الخول الخ  
 بيان ذم الشهرة وانتشار الصيت  
 ٢٧٦ بيان فضيلة الخول  
 ٢٧٨ بيان ذم حب الجاه  
 ٢٧٨ بيان معنى الجاه وحقيقته  
 ٢٢٩ بيان سبب كون الجاه محبوا بالطبع  
 حتى لا يتخلو عنه قلب إلا بتدبير الجماعة  
 ٢٨٢ بيان السكال الحقيقي والسكال الرسمى  
 الذى لاحقيقة له  
 ٢٨٥ بيان ما يحمى من حب الجاه وما ينم  
 ٢٨٦ بيان السبب في حب المدح والتناء  
 وارتياح النفس به وميل الطبع إليه  
 وبغضها للذم ونفرتها منه  
 ٢٨٧ بيان علاج حب الجاه  
 ٢٨٩ بيان وجه العلاج لحب المدح وكرامة النعم  
 ٢٩٠ بيان علاج كراهة الذم  
 ٢٩١ بيان اختلاف أحوال الناس في المدح  
 والذم  
 ٢٩٢ الشطر الثانى من الكتاب في طلب الجاه  
 والمزلة بالمبادات وهو الرياء وفيه  
 بيان ذم الرياء إلى آخره  
 ٢٩٣ بيان ذم الرياء  
 ٢٩٧ بيان حقيقة الرياء وما يراى به  
 ٣٠١ بيان درجات الرياء  
 ٣٠٥ بيان الرياء الحق الذى هو أخفى من  
 ديب القل

- ١٩٢ بيان أسباب الحسد والمنافسة  
 ١٩٤ بيان السبب في كثرة الحسد بين الأمثال  
 والأقران والإخوة وبني العم والأقارب  
 وتأكدته وقتته في غيرهم وحذفه  
 ١٩٦ بيان الدراء الذى ينشئ مرض الحسد  
 عن القلب  
 ١٩٩ بيان القدور الواجب في حق الحسد عن القلب  
 ٢٠٢ كتاب ذم الدنيا  
 وهو الكتاب السادس من ربيع المهلكات  
 ٢٠٢ بيان ذم الدنيا  
 ٢١١ بيان المراعظ في ذم الدنيا وصفتها  
 ٢١٤ بيان صفة الدنيا بالأحطلة  
 ٢١٩ بيان حقيقة الدنيا وما هيئتها في حق العبد  
 ٢٢٤ بيان حقيقة الدنيا في نفسها وأشغالها التى  
 استقرت لهم الخلق حتى أنهم أنفسهم  
 وغافلهم ومصدرهم وموردهم  
 ٢٣١ كتاب ذم البخل وذم حب المال  
 وهو الكتاب السابع من ربيع المهلكات  
 ٢٣٢ بيان ذم المال وكرامة حبه  
 ٢٣٤ بيان مدح المال واجمع بينه وبين الذم  
 ٢٣٥ بيان تفصيل آفات المال وفوائده  
 ٢٣٧ بيان ذم الحرص والطمع ومدح القناعة  
 والياس عما في أيدي الناس  
 ٢٤١ بيان علاج الحرص والطمع والدراء  
 الذى يكتسب به صفة القناعة  
 ٢٤٣ بيان فضيلة السخاء  
 ٢٤٧ حكايات الأسخياء  
 ٢٥٢ بيان ذم البخل  
 ٢٥٦ حكايات البخله  
 ٢٥٧ بيان الإيثار وفضله  
 ٢٥٩ بيان حد السخاء والبخل وحقيقتيهما  
 ٢٦١ بيان علاج البخل

## صحيفة

- ٣٠٧ بيان ما يحبط العمل من الرياء الحثي والجل وما لا يحبط  
 ٣١٠ بيان دوام الرياء وطريق معالجة القلب فيه  
 ٣١٧ بيان الرخصة في قصد إظهار الطاعات  
 ٣١٩ بيان الرخصة في كتمان الذنوب وكراهة اطلاع الناس عليها وكراهة ذمهم لها  
 ٣٢٢ بيان ترك الطاعات خوفا من الرياء ودخول الآفات  
 ٣٣٠ بيان ما يصح من نشاط العبد بالمبادأة بسبب رؤية الخلق وما لا يصح  
 ٣٣٢ بيان ما ينبغي للريد أن يلزم نفسه قبل العمل ويبدء فيه  
 ٣٣٦ كتاب ذم الكبر والمجب  
 ٣٣٦ بيان ذم الكبر والمجب  
 ٣٣٩ بيان ذم الاختيال وإظهار آثار الكبر في المشي وجر الثياب  
 ٣٤٠ بيان فضيلة التواضع  
 ٣٤٢ بيان حقيقة الكبر وآفته

## صحيفة

- ٢٤٥ بيان المتكبر عليه ودرجاته وأقسامه ونمات الكبر فيه  
 ٢٤٧ بيان ما به التكبر  
 ٢٥٢ بيان البواعث على التكبر وأسبابه المهيجة له  
 ٢٥٤ بيان أخلاق المتواضعين وبما مع ما يظهر فيه أثر التواضع والتكبر  
 ٢٥٨ بيان الطريق في معالجة الكبر وكاتب التواضع له  
 ٣٦٨ بيان غاية الرضا في خلق التواضع  
 ٣٦٩ بيان ذم العجب وآفاته  
 ٣٧٠ بيان آفة العجب  
 ٣٧١ بيان علاج العجب على الجملة  
 ٣٧٤ بيان أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه  
 ٣٧٨ كتاب ذم الغرور  
 ٣٧٩ بيان ذم الغرور وحقيقته وأمثلته  
 ٣٨٨ بيان أصناف المغترين وأقسام فرق كل صنف









السلام ، اغتبتها <sup>(١)</sup> . ومن ذلك الحكاية يمشى متعارجا أو كما يمشى فهو غيبة بل هو أشد من الغيبة لأنه أعظم في التصوير والتفهيم . ولما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة حاكمت امرأة قال : ما يسرنى أنى حاكمت إنسانا ولى كذا وكذا <sup>(٢)</sup> . وكذلك الغيبة بالكتابة فإن القلم أحد اللسانين . وذكر المصنف شخصا معينا وتهجين كلامه في الكتاب غيبة إلا أن يقترب به شيء من الأعذار المحججة إلى ذكره . كما سيأتى بيانه . وأما قوله : قال قوم كذا : فليس ذلك غيبة ، وإنما الغيبة التعرض لشخص معين إما حى وإما ميت . ومن الغيبة أن تقول : بعض من مر بنا اليوم ، أو بعض من رأيناه ؛ إذا كان المخاطب يفهم منه شخصا معينا ؛ لأن المخدور تفهمه دون ما به التفهم فأما إذا لم يفهم عينه جاز . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذكره من إنسان شيئا قال : ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا <sup>(٣)</sup> . فكان لا يعين . وقولك : بعض من قدم من السفر ، أو بعض من يدعى العلم ، إن كان معه قرينة يفهم عين الشخص فهي غيبة .

وأخيت أنواع الغيبة الغيبة القراء المرائين فإنهم يفهمون المقصود على صيغة أهل الصلاح ليظهروا من أنفسهم التعفف عن الغيبة ويفهمون المقصود ، ولا يدرون بجهلهم أنهم جمعا بين فاحشتين الغيبة والرياء ، وذلك مثل أن يذكر عنده إنسان فيقول : الحمد لله الذى لم يبتلنا بالدخول على السلطان والتبذل في طلب الحطام ، أو يقول : نعوذ بالله من قلة الحياء نسأل الله أن يعصنا منها ، وإنما قصده أن يفهم عيب الغير فيذكره بصيغة الدعاء ، وكذلك قد يقدم مدح من يريد غيبته فيقول : ما أحسن أحوال فلان : ما كان يقصر في العبادات ولكن قد اعتراه فتور وأبتلى بما يبتلى به كذا وهو قلة الصبر . فيذكر نفسه ومقصوده أن يذم غيره في ضمن ذلك ومدح نفسه بالتشبه بالصالحين بأن يذم نفسه ، فيكون معتبرا ومرايا ومزكيا نفسه ، فيجمع بين ثلاث فواحش وهو يجهل يظن أنه من الصالحين المتفهمين عن الغيبة . ولذلك يلعب الشيطان بأهل الجهل إذا اشتغلوا بالعبادة من غير علم فإنه يبعثهم ويحبط بمكايده عملهم ويضحك عليهم ويسخر منهم . ومن ذلك أن يذكر عيب إنسان فلا يتيه به بعض الحاضرين فيقول : سبحان الله ما عجيب هذا حتى يصنى إليه ويعلم ما يقول ، فيذكر الله تعالى ويستعمل الاسم آلة في تحقيق خبث ، وهو عين على الله عز وجل يذكره جهلا منه وغرورا . وكذلك يقول : سامى ما جرى على صدقنا من الاستخفاف به نسأل الله أن يروح نفسه ، فيكون كاذبا في دعوى الاعتظام وفي إظهار الدعاء له ، بل لو قصد الدعاء لاختفاء في خلوته عقيب صلاته ، ولو كان يفهم به لاغى أيضا لإظهار ما يكرهه . وكذلك يقول : ذلك المسكين قد بلى بأفة عظيمة تاب الله علينا وعليه ، فهو في كل ذلك يظهر الدعاء والله مطلع على خبث خبيره وخفى قصده ، وهو لجهل لا يدري أنه قد تعرض لثقت أعظم عما تعرض له الجهال إذا جاهرُوا .

ومن ذلك الإحصاء إلى الغيبة على سبيل التعجب فإنه إنما يظهر التعجب ليزيد نشاط المتأثر في الغيبة فيندفع فيها وكأنه يستخرج الغيبة منه بهذا الطريق فيقول : عجب ما علبت أنه كذلك ما عرفته إلى الآن إلا بالخير : وكنت أحسب فيه غير هذا ، عافانا الله من بلاءه ، فإن كل ذلك تصديق للمتأثر والتصديق بالغيبة غيبة بل الساكت شريك

(١) حدث عائشة : دخلت علينا امرأة فأومأت يدي أى قصيدة فقال النبي صلى الله عليه وسلم : قد اغتبتها أخرجه ابن أبي الدنيا وابن مردويه من رواية حسان بن غزاق منها وحسان وثقه ابن حبان وإمامهم ثقات (٢) حدث : ما يسرنى أنى حاكمت الدنيا وإن مردويه من رواية حسان بن غزاق منها وحسان وثقه ابن حبان وإمامهم ثقات (٣) حدث كان إذا ذكره من إنسان شيئا قال : ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا ... الحديث أخرجه أبو داود من حديث عائشة دون قوله : وكان لا يسمه . ودجلاه رجال الصحيح .

